د. خيرالله سعيد



المجلد الأول

ج 1 – ج 2



Arab Diffustion Company

فهرست الموضوعات/ ج الأول

الجزء الثاني

الإهداء:

إلى بغداد

مدينتي

المقدمة

أهمية العمل

تعد الثقافة، لأي شعب من الشعوب، هي المقياس الحضاري، الذي يميز - كمّاً ونوعاً - هذا الشعب عن ذاك، وهذا البلد عن سواه، وتعد صناعة الكتاب والمدونات الأخرى، من أبرز تلك العلامات للمفاضلة، فالموشور الحضاري، إذا ما جرت المقارنة بين مختلف الحضارات، إذ أن «الثقافي» هو المقياس الأبرز في تلك المقارنات، ومن هذا «الثقافي» تشمخ الثقافة المكتوبة، أولاً، وتليها الثقافة الشفهية، ثانياً: بمعنى أن الأبعاد المعرفية، لهذه الحضارة أو تلك، تنطلق أولاً من المخزون الثقافي بشقيه «الفلكلوري والعلمي المدون» وعلى هذا الأساس تميل بوصلة التنافس الحضاري في هذين البعدين، ومن هنا نفهم أهمية المكتشفات «الآركيولوجية» واهتمام غالبية الدول فيها، بل ويكاد يلحظ اشتراك أغلبية دول العالم في «نبش وتحقيق» تلك المكتشفات الأثرية، للعهود القديمة، ولا سيما تلك التي وجدت في بلاد ما بين النهرين «حضارة سومر» وبلاد وادي النيل «الحضارة الفرعونية» إذ أن هذه المكتشفات تُظهر للعالم كيف كان «العالم القديم» يعيش حياته، ويسيّر أمور معاشه، ويسجل تاريخ سلالاته، وتاريخ شعوبه، وعلى أيّ أرضية يستند في ذلك التاريخ، وما هي سبل حفظ تلك المآثر، وكيف ظهرت «المدونات» بتعاقب الأزمان. إلى أن تتكشف للباحث سبل حفظ ذلك التراث، وآليات، وأشكال الممارسات العملية في ذلك، حتى يتم الكشف عن «سر» حياة تلك الشعوب، لا سيما تلك التي احتلت مكان الصدارة - تاريخياً - في النمو الحضاري، وأثّرت على بقية الحضارات التي توالت بعدها، أو تفاعلت معها، ونقصد بذلك حضارة سومر العريقة.

وبغية فهم جدلية «السابق يفسر اللاحق» فإن المتواليات الحضارية لبلاد الرافدين، تستوقف الباحث، الذي يروم البحث عن التواصل الثقافي، بين حضارة سومر - القديمة - وحضارة العراق - الحديثة - والتأثير المتبادل (ثقافياً) على الوسط الاجتماعي، باعتباره الوعاء

الحامل لذلك التراث السومري، والمنطلق نحو الحضارة الإسلامية، حاملاً بطريقه، كل العلامات الدالة على النضج في المجال الثقافي، عبر كل الحقب التاريخية المتوالية، التي أنجبت ذلك الشعب، وأعطته هويته الثقافية، ومن ثم إنطلق منها لاستكمال صيرورة البناء الحضاري، عندما استقرت الخلافة الإسلامية في العهد العباسي في بغداد، كعاصمة للخلافة، وكمركز ثقافي عالمي، يبدأ مرحلة جديدة من التطور والرقي في مختلف العلوم، الأمر الذي فرض قانونيته على ذلك الحامل الاجتماعي، لأن ينهض بالمسؤولية الثقافية، التي أنيطت به، بحكم التاريخ، وعليه أدرك هذا «الوسط» تلك المسؤولية، وراح يتفاعل مع حكم التاريخ، ليربط ثقافة تلك الفترة الذهبية بما سبقها من تواريخ، تمت لذات الحامل بصلة، وذلك من خلال إيجاد عملية «الوراقة» تلك المهنة الحضارية - الثقافية، والتي أوجدها - الوسط الاجتماعي - قبل أن يفرضها - الوسط الرسمي - ممثلاً بالخلافة العباسية، وهذا الأمر، يؤشر على مدى وعي «الحامل الاجتماعي» لمعنى الضرورة التاريخية في سياقها الحضاري، وبذا تكون هذه الالتفاتة بمثابة، ، نقلة حضارية كبرى في تاريخ الثقافة العربية - الإسلامية، إذ سن هؤلاء الوراقين «سنة» الثقافة المكتوبة بكتاب جامع لكل فن من الفنون. ومن هنا ندرك أهمية هذا الإنجاز الثقافي، بشكل عام، على صعيده العالمي، وبشكل خاص على الثقافة العربية - الإسلامية.

فمن المعلوم أن صناعة الكتابة والكتاب تعد من أهم وأنفع الصناعات البشرية، عبر مختلف العصور، حيث يعتبر زمن اختراع الكتابة، هو الحد الفاصل بين العصور التاريخية وعصور ما قبل التاريخ.

وليس اعتباطاً أن يجري ربط «التاريخ الثقافي» للأمم بنشوء الكتاب، بحيث جرى استعمال وجود الكتابة باعتباره خطاً فاصلاً بين ما قبل التاريخ.. وضمن هذا التفاضل التاريخي، يمكن النظر إلى تاريخ العراق في هذه القضية المحورية «تاريخ الثقافة» إذ أنه يمتلك إرثاً كبيراً، حيث أنه مهد الحضارات الأولى، ومبدع أولى الصيغ المتطورة للكتابة، ابتداءً «بسومر» وانتهاءً بالخلافة الإسلامية، كما أوضحنا أعلاه، وبغض النظر عن الإنقطاعات الثقافية، فيما بين نشوء الحضارة في العراق وصيرورة الكيان العربي - الإسلامي، إلا أننا نستطيع أن نعثر على استمرارية خفية لما يمكن دعوته بـ «روح الكتابة» في هذه المنطقة من العالم، وليس صدفة أن تنشأ أولى المدارس اللغوية والخطيّة العربية في الكوفة والبصرة، يمكن القول بصيغة أخرى، أنَّ تاريخ الكتابة في العراق يتميّز بخصوصية فريدة.

وقد وجدت هذه الخصوصية إنعكاساتها الكبيرة في «**المرحلة العبّاسية**» وهذه المرحلة، هي ليست فقط وريثة الخلافة الراشدية والأموية، بل وكل تراث المنطقة، الفارسي، الهندي، اليوناني، السرياني. . . الخ.

لقد شكلت المرحلة العباسية الانعطاف الأكبر في توليف مختلف الثقافات وصهرها في بوتقة العربية الثقافية، وهو الأمر الذي أعطى للكتابة دورها المتميز في ترسيخ الإنجازات العلمية والأدبية، وإعادة إنتاجها من خلال نشوء فئة متميزة في الثقافة هي فئة الوراقين.

إنَّ نشوء هذه الفئة، يعكس في آن واحد متطلبات الثقافة وإعادة إنتاجها، إذ أنه حدد بدوره قيمتها التاريخية والعلمية من جهة، وأهميتها الأدبية والروحية والجمالية، من جهة أخرى.

إنَّ قيمتها التاريخية والعلمية، تقوم في حفظها الإنجازات الثقافية وإيصالها لنا، ليس فقط إبداعات الحضارة العربية - الإسلامية، وإنما أيضاً كتابات الفلسفة الإغريقية، والأدب الهندي والفارسي.

أمّا قيمتها الروحية والأدبية والجمالية، فتقوم في استلهامها البعد الحقيقي للثقافة العربية - الإسلامية، باعتبارها ثقافة كلمة، فكلمة «قرآن» لها علاقة بكلمة قراءة «والحديث» له علاقة بالكلام. واللاهوت الإسلامي ارتبط بمفهوم الكلمة «الكلام»، والأدب، سواء في الشعر أو النثر، تفنّن بصناعة الكلمة، وكذلك الرسم والنحت، وفن العمارة، مرتبط وثيق الارتباط بالكلمة العربية.

ومهنة «الوراقة» أوجدت الإحساس الفني عند الورّاق، لا سيما في مسألة «**الخط العربي**» وتجويده، حيث صار مفهوم (حسن الخط) من الركائز الأساسية في عمل الوراق، الأمر الذي أفرز أنواعاً جديدة من الخطوط العربية، رافقت الوراقين في مهنتهم، ومن ثمّ برز نمط متخصص من الوراقين، استقل بفن الخط، وأصبح «**الخط العربي**» فناً قائماً بذاته، برز فيه أعلام مشهورين.

إضافة لذلك، إن مسألة «الإستقلال الفكري» هي من أهم عوامل وجود مهنة الوراقة، حيث أن أغلب الوراقين كانوا من رجالات الفكر والفلسفة والأدب والدين واللغة، الأمر الذي فرض عليهم أن لا يكونوا تحت «بطانة» أحد، لذلك مالوا إلى ابتداع هذه المهنة، لحفظ كرامتهم، من ناحية، وعدم الاعتماد في المعاش على مؤسسة حكومية، إضافة إلى نشر أفكارهم بعيداً عن أي تأثير أيديولوجي، من أي طرف كان.

كل ذلك يكشف عمّا للكتابة والخط من أثر هائل في فهم الثقافة العربية - الإسلامية،

ومن هنا، فإن دراسة تاريخ الخط العربي وتاريخ الوراقين أنفسهم، باعتبارهم الفئة الحاملة للمخزون الثقافي، يمتلك ليس قيمة عالمية مجردة، بل وعملية أيضاً، انطلاقاً من أن اللغة والكتابة هما كيانات حية. وعلى هذا الأساس، كان التفاعل الثقافي - عند الوراقين - ومهنتهم، يأخذ طابعاً تفاعلياً، بين الحرفية والإبداع، من جهة، وبين الوعي الثقافي والمسؤولية الشخصية، من جهة أخرى.

ومن هنا، تنبع **أهمية العمل**، هذا الذي قمنا برصده وجمع مادته وتحليله، وتوثيق مصادره، لمدة زادت على 22 سنة، من البحث والتنقيب، والمتابعة والتقصي، وتحقيق الخبر في مضانّه ومراجعه، وليس المسألة مجرد نزهة، كما يتصور البعض، بل هي - **مسؤولية الكلمة** - التي نقولها، أو ننقلها، على اعتبار، أن تاريخ الكلمة، هو تاريخ ثقافي، يحدد مسؤولية كل شعب من الشعوب، وهو بنفس الوقت، **الأمانة التاريخية في وعي** الباحث، لتتبع مسار الكلمة الصحيحة، عبر كل المطبات والمنعطفات، في كل مرحلة. وعلى أساس من هذه الأمانة التاريخية. كان مشوارنا في هذا الحديث، والذي أخذ كل هذا الوقت، إذ أن ظاهرة الوراقة والوراقين في الحضارة العربية - الإسلامية، هي واحدة من أبرز المعالم في المدنية والتحضّر التي أفرزها العصر العباسي، وبدورها هي، أفرزت تلك الفنون المتعددة، وأنبجست عن خواص ثقافية أخرى، دلت عليها بالشاهدة والمكان، والأثر والعين، منها - **المكتبات** - وفن الزخرفة، والترجمة، وغير ذلك من أمور إبداعات الثقافة للكلمة المكتوبة.

ثم أن موضوع الدراسة الموسوعية هذه، يحمل بعنوانه **«الوراقة والوراقون في الحضارة العربية - الإسلامية»** هو محاولة أولى وجادة في البحث الدقيق حول إيجاد دراسة متكاملة لبدء نشوء صناعة الكتابة في الحضارة العربية - الإسلامية، وإثبات دليل معرفي، كمرجع تاريخي، يؤكد وجود هذه الظاهرة في التاريخ العربي - الإسلامي، يلم بكل الجوانب المعرفية وشواهدها، على أساس من البحث العلمي - الأكاديمي، وبنفس الوقت يشير إلى أناس كانوا هم صنّاع هذه الظاهرة، باعتبارهم الأداة الأولى والأخيرة لوجودها، وبالتالي هم الشهود الحقيقيون على ذلك الوجود التاريخي في البعدين الزمني والثقافي، ناهيك عن فتح الآفاق لنظريات جمالية ومعرفية في فنون الخط والتجليد والتذهيب، وأساليب الكتابة والتصنيف، ورسم المناهج في إعداد الكتب وطباعتها، على أسس دقيقة، لا تتغير في المعنى، بل تزيد التركيز على الفكرة المعرفية، رغم اختلاف الأساليب وتعدد الوسائل، فلقد أوجدت هذه المهنة، عند الورّاق، الإحساس بالجمال معنى ورسماً وتدويناً، وخلقت له الألفة المحببة بين العين والحرف، حتى غدا التماثل بينهما شيء لا ينفصل.

هدف العمل

تهدف هذه الدراسة الموسوعية إلى تسليط الضوء على ظاهرة الوراقة والوراقين في الحضارة العربية الإسلامية، أو ما يعرف اليوم، على الصعيد المهني بـ «دور النشر» والدور التاريخي الذي اضطلعوا به، باعتبارهم صانعي أسس الثقافة العربية - الإسلامية، على الصعيد المهني والثقافي والإنساني، وبنفس الوقت الإشارة إلى المراكز الحضارية الإسلامية التي تبرعمت بها هذه الظاهرة الثقافية، بدءاً من بغداد كعاصمة للخلافة العباسية، ومروراً بدمشق والقاهرة وأشبيلية وبلاد فارس وبقية أطراف الخلافة الإسلامية، الممتدة بين حدود الصين شرقاً وأقاصي الأطلسي غرباً، مارّة بتأثيراتها على كل الإثنيات والأعراق والثقافات المتواجدة في تلك الأماكن الجغرافية، لذلك هذه الدراسة - الموسوعية - تنطلق من بغداد إلى أن تصل إلى تلك البقاع أو الأمصار الإسلامية المذكورة، لتؤشر بشكل إيجابي على النهوض الحضاري، في تلك الأماكن، رافدة كل ثقافات تلك البلدان «الأمصار الإسلامية» بمنهج معرفي يعلمهم أسلوب «صناعة الكتابة والكتاب» وفق شرائط مهنية وإبداعية يظهر فيها التأثير الإسلامي واضحاً، من الناحيتين العقائدية والحضارية، وبنفس الوقت يبين دور الإنسان المبدع في عملية الخلق الثقافي، في شروط زمنية واجتماعية محددة، رغم اختلاف ظرفي الزمان والمكان، من بلد لآخر، ومن شخص لسواه، ولكن يبقى القلق المعرفي هو الخيط الرابط بين كل هؤلاء الوراقين، مبدعي هذا العمل الحضاري، المؤثر والفاعل في ثقافة العرب والمسلمين في العصر الوسيط، وامتداد تلك المؤثرات على آننا الحالي، وحتى هذه اللحظة.

ومن أجل بلورة الغاية والهدف المعلن أعلاه، وضعنا المهمات التالية نصب أعيننا، بغية إضفاء الصدق والشرعية التاريخية للعمل.

1 - تحليل ماهيّة العمق الحضاري - السومري - البابلي، وامتداداته التاريخية في الوعي والصيرورة الاجتماعية على مناطق العراق وشبه الجزيرة العربية، وبلاد الشام، وكيف بدأت تلك الحضارة الرافدية، بوضع الخطوات الأولى لصناعة الكتاب والكتابة، كمؤشر حضاري لإنسان البيئة تلك، وأهمية وجود الإبداع في عقله، في المسالة الثقافية، كي يوصل حضارته إلينا، مشفوعة بتراث هائل من المكتبات والرقيمات في مختلف العلوم الإنسانية، وليعطي بنفس الوقت المعنى الجوهري للإنسان، باعتباره سيد الخليقة، وعقله المميز على سائر المخلوقات، وعليه إثبات تلك الميزة، من خلال عمله الإنساني في كل مرحلة من مراحل التاريخ.

2 - تحليل ماهية الوراقة والوراقين، وأثرهم في تطوير صناعة الكتاب وتطور فنون الخط العربي والتجليد والتذهيب، وبروز فن الزخرفة «الأرابسك» كمرافق لفن الخط والتزويق في بناء العمارة، ضمن الطراز الإسلامي العام، وضمن خصوصيته المحلية (خاص) في هذه البيئة أو تلك.

3 - تقديم صورة جامعة عن الوراقين وأخلاقهم ومعاناتهم، وسلوكهم الاجتماعي والسياسي في تلك الفترة الزمنية، من عمر الخلافة الإسلامية في عصرها الذهبي - العصر العباسي.

4 - دراسة الكيفية التي منهجوا على ضوؤها صناعة الكتاب العربي، وتأثير الوعي الديني - الإسلامي في أخلاقية العمل الإبداعي.

5 - الكشف عن دور وأهمية «سوق الوراقين» في هذا البلد أو ذاك، انطلاقاً من سوق الوراقين ببغداد، وموقع هذا السوق في الحياة الثقافية العامة.

6 - البرهنة على ثقافة الوراقين الواسعة، وحسهم المعرفي العالي، وكيفية بناءهم الفكري، ودورهم في رفع الوعي الثقافي لدى جمهور الناس، ومن مختلف المشارب والملل.

7 - إثبات الدور الحضاري لمهنة الوراقة، في الثقافة العربية - الإسلامية، كإبداع أفرزه الوسط الاجتماعي، الحامل للثقافة.

8 - إيجاد الدليل والبرهان القاطع على سعة الثقافة العربية، وتلاقحها مع بقية الثقافات العالمية (هندية، فارسية، يونانية) وذلك من خلال «توريق وترجمة» كتب تلك الثقافات إلى الثقافة العربية - الإسلامية.

المرحلة المتناولة في الدراسة

يؤرخ موضوع الدراسة الموسوعية إلى فترة ظهور مدينة بغداد كعاصمة للخلافة العباسية سنة 145هـ/ 757م، إلى سنة سقوطها على يد المغول - التتار سنة 656هـ/ 1258م، كمفصل رئيسي وأساسي، إلا أن مديات البحث امتدت إلى نهايات القرن 8هـ/ 14م، حيث ظهرت هناك - في بعض الأمصار الإسلامية، (الأندلس، مصر، فارس)، استمرار للتعاطي مع مهنة الوراقة، رغم سقوط الدولة العباسية، وبداية النكوص الحضاري للثقافة العربية - الإسلامية.

وهذه الفترة - لا سيما الأولى منها - شهدت أوج الأزدهار الحضاري، على يد

الخلفاء الأكفاء من بني العباس، من أمثال: (أبو جعفر المنصور 138 - 158هـ/ 750 - 790م)، وهو باني مدينة بغداد، و(هارون الرشيد 170 - 193هـ/ 782 - 805م) ثم ابنه (عبد الله المأمون 198 - 218هـ/ 810 - 830م)، وهؤلاء الخلفاء، كانوا ميالين للثقافة والعلوم، الأمر الذي أعطى دافعاً قوياً لتطور مختلف العلوم والفنون، إذ تطورت الوراقة وصناعة الورق في بغداد ودمشق والقاهرة المعزية - أيام الفاطميين - لا سيما الخليفة المشهور (المعز لدين الله الفاطمي) وكذلك تجاوبت الأندلس الأموية، مع هذا الإيقاع المتصاعد، حتى غدت إشبيلية المنافس الأرأس لبغداد في الوراقة والتوريق، حيث لعب الخلاف السياسي بين الدولتين (الأموية والعباسية) دوراً أساسياً في تطوير صناعة الكتاب، وثقافة الكلمة، إذ كانت إشبيلية تستقطب كل وافد إليها من أهل المشرق، لا سيما أصحاب الإبداع في الفن والكتابة.

مستوى دراسة البحث

إنَّ موضوعاً حضارياً - ثقافياً، كموضوع «الوراقة» أو صناعة الكتاب، هو موضوع عالمي، يخص كل شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، وهو بنفس الوقت، موضوع يخص الحضارات العالمية المختلفة.

والمتتبع للحضارات القديمة، (كالسومرية والبابلية والأكادية والفرعونية والإغريقية والصينية) يتلمس تلك الكتابات، التي كانت تكتب على الطين والرقم، أو أوراق البردي والخشب، وعلى الصخور، والرقوق ولحاء الأشجار، وغيرها، بغية حفظ تراث تلك الحضارات، وهو ما وصل إلينا عبر الدراسات الآركيولوجية.

وتعد الحضارة الفرعونية (الألف الرابع قبل الميلاد) أقدم الحضارات التي اكتشفت ورق الكتابة من قصب البردي، والتي ما تزال آثارها قائمة حتى اليوم في مصر، وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الفينيقيين (الألف الثالث قبل الميلاد) والذين سكنوا الساحل الشرقي للبحر المتوسط، قد توصلوا إلى إيجاد «أول أبجدية» للغتهم، ونشروها في كل بلدان حوض المتوسط، وحفظوها بسجلاتهم، وأودعوها في مدينتهم الخالدة «قرطاجة».

وعندما انبثق الإسلام من الجزيرة العربية، كانت مؤثرات بيزنطة وبلاد فارس، واضحة على تلك المنطقة العربية، ناهيك عن وجود الديانات السماوية فيها من «يهودية ومسيحية» وهذه المسألة تفرض على العرب والمسلمين تحدٍ حضاري وعقائدي، يفرض وجوده بين تلك الثقافات، باعتباره ديناً جديداً، خاطب العرب بلغتهم، فقد كان «القرآن» كتاب العرب والمسلمين الأول، لذلك ارتبطت به اللغة العربية أيما ارتباط، بحيث أصبح

هذا الترابط، يشكل وحدة عضوية متكاملة لا تعرف الانفصال ولا التجزؤ، لذلك نص اهتمام المسلمين الأوائل على جمع القرآن وتدوينه، وشكلت عظام الجمال وأوراق سعف النخيل وجلود الحيوانات والرقوق، المواد الأساسية الأولى للتدوين.

عندما أمر الخليفة الراشدي الثالث **عثمان بن عفان (23 - 31هـ/ 648 - 655م)** بأن يجمع القرآن من صدور الرجال «الحفاظ» وأوكل تلك المهمة الجليلة والخطيرة إلى (زيد بن ثابت) وهو صحابي، من الرعيل الأول للمسلمين، وأول كاتب للوحي عند الرسول محمد ﷺ وبذا يكون **هذا الصحابي هو أول ورّاق في الإسلام**، يقوم بهذه المهمة، حيث قام بوضع منهج خاص لوراقة القرآن، اعتمدت الأمانة العلمية مبدأ أساسياً، ثم الوضوح في الخط، والتوقف عند الفواصل الواجب التوقف عندها، ولذلك سار كل من جاء بعده على نفس المنوال، من الصحابة المسلمين، الذين تفرغوا لنسخ المصاحف القرآنية.

وعندما تطور المجتمع العربي - الإسلامي، إبان الخلافة العباسية، أصبح من الضروري فهم الفلسفة اليونانية الوافدة على المجتمع العربي - الإسلامي، الأمر الذي أبرز الحاجة إلى وجود تراجمة يحولون اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، وما رافق ذلك من تطور ثقافي، فرض وجود الوراقين، لنسخ الكتب المترجمة، وإيجاد المتخصصين بذلك الفن. ويعد ابن النديم، وهو من أشهر الوراقين في العصر العباسي، أول من صنف كتاباً يتطرق لسيرة هؤلاء العلماء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والوراقين، بكتابه الهام «**الفهرست**» وهذا الكتاب - الفهرست - يعد أول التفاتة ذكية في وضع المعاجم لتراجم الرجال في الثقافة العربية - الإسلامية، ثم جاء بعده وراقاً ثانياً اسمه «**ياقوت الحموي**» ليضع موسوعة أكبر وأضخم من «الفهرست» لحياة هؤلاء العلماء اسمها «**معجم الأدباء**» أو «إرشاد الأريب لمعرفة الأديب» وهذه الموسوعة تقع في عشرين مجلداً، ضمّنها الكثير من تراجم الوراقين.

وعلى الصعيد المهني لحرفة الوراقة، كممارسة وإنتاج للإبداع، تصدى الفقيه **(الشيخ عبدالباسط بن موسى بن محمد العلموي/ توفي سنة 981هـ/ 1593م)** لموضوعة منهجية الوراقة، ضمن الرؤية الإسلامية، وذلك في كتابه المعروف بـ«المعيد في أدب المفيد والمستفيد» وتحديداً في الباب السادس من الكتاب، وظلت هذه المقالة من أقدم وابرز ما كتب في الموضوع الوراقي، في الثقافة العربية - الإسلامية. ثم جاءت مقالة الباحث (حبيب زيّات)، والتي حملت عنوان «الوراقة والوراقون في الإسلام» والمنشورة في مجلة «المشرق» البيروتية، الصادرة عام 1947م، وهي واحدة من أمتع الدراسات في هذا الموضوع، إلا أنها قصيرة لا تتجاوز 16 صفحة، إذ كانت بمثابة عرض مقتضب لبعض سيرة حياة الوراقين المعروفين، وبعض ما يعانوه في مهنة الوراقة.

أما على صعيد الكتّاب الأجانب - غير العرب - والذين كتبوا حول صناعة الكتب والورق والمكتبات، بشكل عام، في حضارة العرب وثقافتهم، دون التوقف الدقيق لمعرفة أسرار مهنة الوراقة في الحضارة العربية - الإسلامية، فيمكن ذكر الأسماء التالية من الباحثين:

1. R.S. Mackensen:
   «Four Great Libraries of Medieval.
   - Baghdad the library quarterly - 2/1930N^{0} 3- p 279-292
2. F. Milku - j - : «Handbuch der bibliothek, swissensch aft 1955.
3. J. Gerny: peper and books in Ancien Egypt. London 1952.

4 - ويعد كتاب «**يوهانس بيدرسون**» المسمّى (**الكتاب العربي - منذ نشأته حتى عصر الطباعة**) ترجم وطبع بدمشق 1989م، واحداً من أهم الدراسات التي استعرضت بعض أدوات الكتابة والطباعة، إلا أنه لم يتوقف مع ظاهرة الوراقة والوراقين، بشكل دقيق، من حيث المنهج والأسلوب، وهو معذور بذلك، فربما أشكل عليه بعض خوافي وأسرار اللغة العربية.

5 - ثم يأتي د. **الكسندر ستيبتشيفج**، أستاذ علم المكتبات والكتب في جامعة زغرب في يوغسلافيا، بكتابه الهام (**تاريخ الكتاب**) والمترجم إلى العربية في عام 1993م، حيث ذكر في الفصل السادس من الجزء الأول بعض مراحل الكتابة العرببية، لا سيما في الأندلس، بعد فتحها في عام 711م من قبل عبد الرحمن الداخل، أول خليفة أموي فيها، إذ سلط الضوء على ازدهار المكتبات، ومعرجاً بنفس الوقت على (بغداد) في القرن 9م/3هـ، مشيراً إلى تطور صناعة الكتاب العربي على القوالب الخشبية، لا سيما في مصر، ولو أنه اطلع على كتابي: ابن النديم وياقوت الحموي، المذكورين أعلاه، لكان توسع كثيراً في موضوعة «الكتاب العربي» ولكنه على ما أعتقد، ووفق ما أخبرني - مترجم كتابه أعلاه - د. محمد الأرناؤوط - وهو خريج يوغسلافيا، بأنه لم يعرف اللغة العربية! وهذا الإشكال يصعب على الكثيرين إنجاز مهمتهم المعرفية بصدد صناعة الكتاب العربي.

مناقشة علمية مع ستيبتشفيج وبعض المستشرقين

ينطلق البروفيسور «الكسندر ستيبتشفيج» مؤلف كتاب «تاريخ الكتاب»(1) من أن تاريخ الكتابة يبدأ من السومريين(2) حيث أن الشواهد على الكتابة السومرية تظهر على الرقم الطينية الصغيرة التي نقشت عليها «الكتابة التصويرية» والتي تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، ويضيف: «وربما يكون السومريون قد بدأوا الكتابة قبل هذا التاريخ، على مواد أخرى ذات تركيبة عضوية، وأن تكون هذه المواد قد تحللت وتلاشت للأبد» لكنه يضيف عبارة أخرى، يخضعها إلى «الشك المنهجي» الذي يحكم تصوره، باعتباره أستاذ علم تاريخ الكتاب والمكتبات في جامعة زغرب في يوغسلافيا(3) حيث يورد هذا الشك في العبارة التالية: «ومن المحتمل أن لا يكون السومريون هم أول من توصل إلى تطوير الكتابة، كوسيلة جديدة للتواصل، أي أن يكونوا قد أخذوها عن شعب آخر غير معروف، كان يعيش قبلهم في الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين» ويضيف أيضاً: «وربما تجدر الإشارة إلى الفرضية الجديدة التي تقول أن السومريين قد تعلموا الكتابة من أحد الشعوب التي كانت على ضفاف نهر الدانوب، وقد أصبحت هذه الفرضية مقبولة أكثر منذ أن تم العثور في عام 1961م على الرقم الطينية التي تعود إلى العصر الحجري في منطقة تاتاريا برومانيا، فالتشابه بين الإشارات الواردة في هذه الألواح وبين أقدم الكتابات التي خلفها السومريون واضح للغاية».

ويضيف: «ولذلك فلقد استخلص علماء الآثار أن هذه الإشارات بالإضافة إلى الكثيرين من أمثالها، التي تم اكتشافها قبل وبعد 1961م في ضفاف الدانوب، قد نشأت تحت تأثير الحضارات الكبيرة للشرق الأوسط، إلا أن نتائج التحاليل (الراديوكربونية) قد فاجأت وحيرت الخبراء، لأنها أوضحت أن تلك الإشارات من ضفاف الدانوب أقدم بمئات السنين من أقدم الرقم السومرية»(4).

ونحن نرى أن «الشك المنهجي» من حق كل دارس أن يأخذ به، لا سيما إذا كان قد اعتمد على نتائج خبراء مختصين من الآركيولوجيا أو غيرها، لكن مسارات تطور تاريخ

---

(1) صدر الكتاب بترجمة د. محمد الأرناؤوط - ضمن سلسلة عالم المعرفة الكويتية، تحت رقم 169 و170 في رجب 1413هـ/ يناير - كانون الثاني/ 1993م.
(2) المصدر أعلاه/ ص12.
(3) أنظر مقدمة المترجم للمصدر أعلاه.
(4) تاريخ الكتاب/ ص12.

بلاد سومر، أيضاً يشير إلى مدى التأثير العالمي، الذي أحدثه السومريون على باقي شعوب الأرض - في تلك الحقب الغابرة - هذا أولاً، وثانياً، **أن مركز العالم الحضاري كان في بابل**، وهذا يعني أن إنتقال لغة الكتابة السومرية، بحروفها المسمارية وارد جداً، فلربما نقلها سومري أو غيره من بابل إلى تلك البقاع النائية عبر البحر المتوسط، ولربما وقع أسير بابلي بيد أحد الأعداء، وهناك علّم أهل الدانوب أو غيرهم تلك الكتابة، وتاريخ المكتشفات الأثرية، منذ بدء عمليات التنقيب الآركيولوجية، كلها تشير إلى **«أن التاريخ يبدأ بسومر»** وعلى هذا الأساس، كان شك الخبراء الذين حللوا تلك الإشارات بواسطة «التحاليل الراديوكاربونية» ولو كانت للدانوب حضارة سابقة على بلاد سومر لما خفيت على علماء الآثار، وعلى أساس صحة التاريخ وقدمه، يعترف ستيبتشييفج في نهاية مقالته «بأن السومريين هم أول من ابتدع الكتابة التصويرية، ثم طوروها إلى نظام كتابي تضفي عليه السمات الصوتية»[1].

أما المستشرقين الروس، والذين انتبهوا إلى صناعة الكتاب العربي والورق في الحضارة العربية - الإسلامية، فيسجل السبق في هذا الميدان إلى المستشرق الروسي الكبير «آ - غ كراتشوفسكي» وهو مخضرم من العهدين - القيصري والسوفيتي - حيث كان أول من ترجم القرآن إلى اللغة الروسية، واهتم بالأدب العربي أيما اهتمام، وهو بهذا يكون قد فتح الباب أمام المستشرقين الروس للدخول إلى الثقافة العربية - الإسلامية. أما أهم باحث روسي من المستشرقين كتب عن الخط والمخطوطات العربية، والذي لامس بشكل قريب موضوع الوراقة فهو **(البروفسور الراحل خاليدوف** (A. B XalugoB) - باللّفظ الروسي - من معهد الإستشراق في سان بطرس بورغ، بمقالتيه - باللغة الروسية، الأولى بعنوان **«الثقافة الكتبية»** والمنشورة بكتاب **«دراسات في تاريخ الثقافة العربية»** والمطبوع بموسكو عام **1982م**. ومقالته تحت عنوان **«المخطوطات والكتب في الثقافة العربية»**.

والمنشورة في كتاب **«مخطوطات الكتب في ثقافة الشعوب»** الصادر من معهد الإستشراق في موسكو عام 1987م، ثم تليه المستشرقية الروسية **«ي. ن ميشيرسكايا»**.

بمقالتها «مخطوطات الكتب السورية» والمنشورة بنفس الكتاب السابق أعلاه والصادر من معهد الإستشراق في موسكو، وقد يسّر لي الوقت للإلتقاء بها في إحدى الندوات العالمية حول الثقافة العربية، إذ كانت من المشاركات، ثم تأتي - ثالثاً - المستشرقة الروسية **«ل. ف ديمتريفا»** بمقالتها **«المخطوطات من الكتب - التركية والعربية»** والمنشور

(1) تاريخ الكتاب/ ص13.

بنفس المصدر أعلاه. ومن الجدير التأكيد عليه (هنا) أن مقالتي **خاليدوف**، هما من أكثر الدراسات عمقاً وتحرياً في بعض جوانب صناعة الكتاب العربي (كمخطوط) وكان حري به أن يطور تلك الدراسات في كتب مستقلةلا دراسات منفردة ضمن كتاب مشترك، وكان قادراً على ذلك، إلا أن - رداءة الأحوال الثقافية في روسيا - بعد إنهيار الاتحاد السوفيتي، كان عائقاً كبيراً لنشر أي ثقافة عربية - إسلامية في روسيا الاتحادية.

الجديد في البحث

إن متابعاتنا الدقيقة والحثيثة لموضوعة صناعة الكتاب العربي، أو ما أطلقنا عليه تسمية **الوراقة والوراقون في الحضارة العربية الإسلامية**، ومقارنة بكافة دراسات المستشرقين والمختصين في الثقافة العربية، حول هذا الموضوع نقول بثقة عالية: إنَّ دراستنا هي أول دراسة في العالم العربي والإسلامي تتصدى لموضوع (**صناعة الكتاب العربي**) بكل جوانبه، التاريخية والعلمية والفنية والمهنية، بدءاً من التبرعمات الأولى في المساجد وبيوت العبادة، إلى تطور الظاهرة الوراقية إلى أن تتخذ لها أسواقاً خاصة في المدن العراقية أولاً، مثل بغداد والبصرة والكوفة وواسط، ثم انتقالها إلى بقية الأمصار الإسلامية، على نفس الإيقاع والوتيرة. وقد قمنا برصدٍ دقيق لهذه الحركة الثقافية، ومتابعة الوراقين في كل صغيرة وكبيرة، في حياتهم المهنية والشخصية، ومن ثم استطعنا أن نكشف ونثبّت في البحث، مسار (**تطور الخط العربي**)، على يد هؤلاء، وإبداعاتهم في توليد خطوط أخرى، تساعدهم في عملية فن الوراقة، لا سيما ابتداعهم خطاً يسمى **الخط الوراقي** حيث كان هذا هو السائد في نسخ الكتب، وهو أقرب شكلاً من الناحية الفنية، إلى **خط النسخ** المتداول - آنذاك.

ثم أننا كشفنا لأول مرة «**المنهج المعرفي**» لفن الوراقة في الثقافة العربية - الإسلامية، حيث لم يهتد إليه أحد قبلنا، لا من العرب ولا من المستعربين، وقد أوضحنا بجلاء المراحل الزمنية لتطور هذا المنهج الدقيق في ظاهرة الوراقة، **إذ أن هذا المنهج**، مر بثلاث **مراحل تاريخية**، يتوجب الإشارة إليها، وهي: أولاً ظهرت الوراقة على شكل «**مجالس إملاء**» حيث كان الشيخ أو الأستاذ، يلقي محاضرته، ويبدأ «**الوراقون - النساخ**» بكتابتها مباشرة عنه، وكان هؤلاء يسمون «**المستملون**» ومفردها مستملي، والناتج يسمى «**أمالي**» كما هو معروف عن «**أمالي القالي**» وغيره.

والمرحلة الثانية، هي مرحلة «**النسخ والمقابلة**» حيث أصبحت مهنة الوراقة تتطلب المطابقة الحقيقية على أصل المخطوط، وبمصادقة المؤلف والقراءة عليه، فصلاً فصلاً،

وعند الإنتهاء من ذلك، تؤخذ موافقته العلنية وأمام الناس وداخل المسجد، ويكلف شخص أو أشخاص محددين، يسميهم المؤلف ويعطيهم «الإجازة» ويشهد الناس عليه بذلك.

أما المرحلة الثالثة، في مسار حركة تطور صناعة الكتاب، فإن مهنة الوراقة أوجدت في مسارها ما يعرف بـ«منهج التخصص بالوراقة» وهي المرحلة الأكثر نضجاً، في العملية الإبداعية للوراقين، حيث صار الوراق الناسخ، يتخصص بفن من الفنون، وينسخ به فقط، كالشعر أو النثر أو اللغة أو الحديث النبوي، أو التاريخ أو الفولكلور، أو الفلسفة، أو غيرها من بقية فنون الإبداع، وقد أضيف إلى هذه المرحلة تقيدات كثيرة على الوراقين، حيث توجب على الوراق أن يكون «عالماً» بتخصصه، أي أن يكون - ناقداً - وهنا ظهر مبدأ «الحاشية» في التوريق، لتوضيح ما يقع فيه - المؤلف - من أخطاء نحوية أو لغوية أو عروضية وصححها الوراق بيده، وهذا إبداع ثقافي، أضفى حالة من الرقي المعرفي على تقاليد الكتابة العربية الإسلامية. إذ بهذه العملية حافظ الوراقون على الأمانة العلمية، في عملية النقل من الأصل - المخطوط.

ثم إننا أوضحنا الفرق في المعنى لكلمة «ورّاق» وما المقصود منها، حيث أن هذا المصطلح يعني: أن كل إنسان اشتغل بمهنة نسخ الكتاب أو تجليده، أو تزويقه، أو خط عناوينه، أو التوسط في بيعه، أو بيع أدوات الكتابة، أو الورق أو الرقوق، وما لحق من أمور تخص نشر الكتاب، من حيث التوزيع، وشكل الإعلان عنه وتسويقه، وكل هذه الأمور، يقوم بها مجموعة من الاختصاصين من الوراقين، ومجمل هذه العملية بكل إجراءاتها، تسمى **الوراقة**، ولا يصح إطلاق كلمة «وراق» على الناسخ فقط لأنه ضمن سلسلة متكاملة، متخصصة، فالوراق أشمل وأوسع من الناسخ. وهذا الإشكال، هو أحد المطبات الرئيسية التي يقع بها المستشرقون الذين يعنيهم الناسخ - فقط، من كل عملية الوراقة، والأمر ذاته ينسحب على الترجمات المختلفة، التي تنقل المصطلح «الوراق» حيث تسمية «ناسخ».

موضوعات العمل

كأي عمل موسوعي، لا بد لموضوعاته أن تكون بارزة وواضحة، لأن الباحث يهتدي بسير عمله، أثناء البحث، وهذا يعني، أن «مخطط الموضوعات» قد أعد سلفاً، ضمن الرؤية المنهجية للعمل، ولكن هذا «المخطط» يخضع إلى الحذف والإضافة، والنقصان والزيادة، بحكم طبيعة العمل المبحوث فيه، لأن سير العملية يؤكد أفكاراً جديدة، تستوقف الباحث لأن يدرجها في عمله، ومن ثم يخصص لها أبواباً وفصولاً، وهو الأمر الذي

(حدث) معنا أثناء بحث هذه الموسوعة، هذا من جهة ومن جهة ثانية، أملت علينا **«الثقافات المتعددة»**، ونحن ننتقل من بلد لآخر، أن نجد مسوغ المقارنات النقدية، في ذات الموضوع، مع تلك الثقافات، حيث واجهتنا عدة أسئلة حول الموضوع، لا سيما ونحن - ندافع عن تلك الأطروحة - في روسيا الاتحادية، وبالتالي أصبحت الزيادة المفروضة على العمل من صلب الموضوع، فشغلت الحيز الخاص بها، في جسم الموسوعة، ناهيك عن التقاط بعض المضان، التي كانت غائبة عنا، أو صعوبة الحصول عليها، هنا وهناك، لا سيما في البلدان الأوروبية، وهذا أيضاً فرض قانونية وجوده على العمل، وأمور معرفية أخرى، ومن هنا يلاحظ المتتبع ضخامة العمل، من حيث الحجم وكثرة العناوين الرئيسية والفرعية، حتى اكتمل هذا البناء المعرفي **بعد 22 عام** من الجهد والمتابعة والتحقق والتدقيق والقلق النفسي الرهيب، والذي كثيراً ما أقض مضاجعي - في أكثر من بلد - ولا زال هذا القلق كامن في الروح إلى أن ييسر الله له، فيطبع، واستريح من عناه، ولو أن الأمل ضعيف جداً، بأن يخرج إلى النور، ولكن الأمل باق.

وعلى العموم، تمركزت **الموضوعات الرئيسية في هذه الموسوعة** على عدة أجزاء، حيث بلغت **«6 أجزاء»** كلها تخص ذات الموضوع «الوراقة والوراقون» وكل جزء يتمم الآخر، وهي موزعة على النحو التالي:

- **الجزء الأول**: حمل عنوان **(الممهدات التاريخية والحضارية)**، والتي سبقت ظهور مهنة الوراقة الإسلامية، أي أننا توقفنا - تاريخياً - مع الحضارات القديمة على أرض الرافدين ومصر، ودرسنا تأثيراتها الثقافية والحضارية، على كينونة المنطقة العربية، وصيرورتها، وما انتقل إليها من إرث تلك الحضارات، بعبارة أخرى يمكن القول أن **الموروثات الحضارية** ظلت كامنة في نفوس وأرواح تلك البقاع، ومن ثم برزت اللحظة التاريخية، لولادة جنين حضاري من تلك الموروثات، يستفيد من ذلك الموروث، وينطلق منه، ليحقق ذاته، وكان ذلك هو **العصر العباسي** في تاريخ الثقافة العربية - الإسلامية، إذ فيه شمخت الحضارة العربية - الإسلامية، كما شمخت حضارة **سومر وبابل**، في تلك الأزمان الغابرة، وبنفس الحاضن الجغرافي، والذي اسمه **العراق**. ومن هنا كانت موضوعات الجزء الأول، شبه مواصلة تاريخية لربط اللاحق بالسابق، فتوزعت الموضوعات - بهذا الجزء - على بابين في ثمانية فصول: مضافاً إليها، التمهيد التاريخي للدراسات المقارنة، التي عرّجت على موضوع الوراقة من الدراسات الأجنبية، فكان **الباب الأول**، يشمل الفصول التالية:

- **الفصل الأول: تمهيد تاريخي**، تمّ فيه التطرق إلى البدايات الأولى لوعي الناس،

ضمن الثقافة الإسلامية، وهم يعبرون مرحلة الجهل، ونقل الأخبار مشافهة إلى التدوين والنقل، واختراع الآليات المعرفية لحفظ تراث تلك الأمة من الضياع، فبدأ القلق المعرفي يشغل أذهان المفكرين الإسلاميين، من العرب وغيرهم لإيجاد وسيلة معرفية يعبر بها عن هذا القلق، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، كانت أمور المسلمين تفرض عليهم معرفة مبادىء إسلامهم وقوانينه وفلسفلته، كمؤثر خارجي على بنية الذات، وتستجيب له الحالة الفردية كمبعث داخلي، لتشكل وحدة متراصة، لها ما يميزها ثقافياً وعقائدياً، فنشأ عن ذلك تبرعمات أولية على وجود ظاهرة الوراقة بدأت في المساجد الدينية ومنها انطلقت إلى رحاب أوسع شملت قارات فيما بعد.

وهذه الظاهرة نشأت مع نشوء المهن الإسلامية الأخرى، وبذا هي تشترك مع هذه المهن بالثقافة الدينية والروحية، لكن في مجال الإبداع الفكري، وليس العضلي أو الجسمي، وتلك هي أهم الأمور التي تمّ مناقشتها في (**الفصل الأول**).

- **أما في الفصل الثاني: فتناول كيفية إنشاء بغداد من قبل الخليفة العباسي (أبو جعفر المنصور)** وأهمية وتأثير هذه المدينة على بقية المدن والأمصار الإسلامية، باعتبارها عاصمة الخلافة الإسلامية ومركز التمدن الحضاري في العالم الوسيط، وبروز تأثيرها الثقافي الواضح، حتى أصبحت قبلة العلماء والأدباء والفلاسفة وغيرهم.

- **والفصل الثالث**: يناقش، من خلال المعطيات **«التطور الاقتصادي الهائل للمجتمع العباسي»**، وانتعاش مختلف الطبقات، وبالتالي سحب ظلال هذا الرفاه الاقتصادي على الحالة الاجتماعية، والتي بدأت تظهر فيها، نزعات نحو الثقافة الروحية، بشكل ملفت للانتباه، حتى صار التعليم والتثقيف، إحدى سمات **«الظرف البغدادي»** تلك الحالة الثقافية النادرة، والتي أغرت النساء والرجال لأن يتسابقوا للدخول في حلبتها الثقافية.

- **والفصل الرابع**: ترتسم فيه معالم ثقافية لمجتمع كامل الآهلية، من حيث الشكل والمضمون، إذ صارت متطلبات الحياة الثقافية كضرورة حتمية، ليس فقط لصفوة المجتمع، بل للسواد الأعظم من الناس، فظهرت المكتبات، والحانات وملاهي الغناء، وبرزت أسماء فنية لامعة، وسجلت قفزات حضارية للمجتمع العباسي، في تلك الفترة من حكم (هارون الرشيد)، وصولاً إلى خلافة إبنه (المأمون) إذ تعتبر بحق - هذه الفترة - من أخصب فترات الازدهار الثقافي والروحي في الخلافة العباسية، وقد كان للوراقين في تلك الفترة، السمعة العالية والحضوة المكنية عند مختلف الأوساط العلمية والثقافية والسياسية.

- **الفصل الخامس**: يكمل فيه مشوار التطور الثقافي - في حياة المجتمع العباسي، إذ تظهر على السطح ظاهرات علمية - ثقافية، تتمحور حولها تيارات سياسية وثقافية، تفرض

نمطاً من السلوك الاجتماعي العالي، حيث تشمخ الترجمة ويسود «**التفكير الاعتزالي**»، وتظهر المذاهب والفرق، وتبدأ الصراعات الفكرية، وكان سوق الوراقين (**في جانبي بغداد - الكرخ والرصافة**) مسرحاً لتلاقي تلك التيارات الفكرية، ومجلساً ينعقد لها في كل يوم، عند عتبة هذا الوراق أو دكة ذاك الناسخ، أو حلقة ذاك الفيلسوف، فتشعر وأنت تدخل سوق الوراقين - بأنك في رحاب عالم آخر، شغله الشاغل الثقافة وحدها. حتى تميزت تلك الفترة بظهور «طبقة خاصة من الكتّاب والمفكرين» بدأت تقلق كيان السلطة السياسية العباسية، حيث ظهر بين أوساط هذه الطبقة، مفكرون وقادة تيارات سياسية، مبطنة بالعباءة الدينية، وهناك في تلك الفترة، ظهر التصوف الإسلامي، وفلسفته العالية، التي أحدثت نقلة نوعية في الثقافة العربية - الإسلامية، وكان لكل هذه التيارات ورّاقوها المخلصين.

- **أما الباب الثاني**: والذي أخذ عنوان: «**تطور صناعة الكتابة في بغداد والأمصار الإسلامية**»، فهو يكشف لنا عن الأساليب الفنية التي بدأت تظهر عند نمط من الكتّاب أمثال (**الجاحظ، والصولي**) وغيرهم، حيث بدأت هذه الأنماط الكتابية، تفرض قانونيتها الإبداعية في الترسّل والكتابة، حتى غدت قبلة الكتّاب للوصول إليها، وارتقاء سلمها العالي، وهي بهذه «**الأنماط**» أوجدت شيئاً من المنافسة الإبداعية بين الوسط الثقافي، وكان للوراقين الدور الأبرز في إظهار هذه الأنماط والترويج لها، بل إنحاز قسم من هؤلاء الوراقين إلى ملازمة هؤلاء النخبة من الكتّاب، والتوريق لهم فقط، وبهذا التفرّد صارت هناك «**طبقة مثقفة من الكتّاب**» تلتزم بهذا النمط من الكتابة، وهو الموضوع الذي يعالجه - **الفصل الأول** - من هذا الباب، والذي حمل عنوان: «**ظهور الكتّاب كطبقة مثقفة**».

- **أما الفصل الثاني**: فكان يحمل عنوان: «**مقومات الكتابة والكتّاب**»، وهو بمثابة، استمرار للفصل السابق - كحالة ثقافية - حددت لها ميزات خاصة لحامل لقب «**كاتب**» تلزمه التمسك بها، كعرف إبداعي - معرفي، ضمن شروط خصوصية الحالة الاجتماعية، في مجتمع عربي - إسلامي، له خصوصيته الثقافية وشرطه الزمني.

- **أما الفصل الثالث**: والأخير - في هذا الباب - فإنه يتحدث عن «**أدوات الكتابة**»، حيث أفرزت تلك الفترة، عدة أدوات لممارسة الكتابة، يتوجب توفرها في حوزة الكاتب، مع العناية بها، واعتبرت تلك الأدوات جزءً من شخصية الكاتب، لا سيما القلم والدواة، وما لحق بهما، وقد كشفت الدراسة عن أكثر من أربعين أداة من أدوات الكتابة كل منها له وظيفته الخاصة في العملية الإبداعية «الكتابة».

- **الجزء الثاني**: حمل عنوان «**ظهور مهنة الوراقة**».

إنَّ التمظهرات التاريخية، التي أفرزها العصر العباسي الناهض على مختلف

الأصعدة، ولا سيما في الحالة الثقافية، استوجبت أن تكون هناك، صناعة خاصة بالكتاب العربي، تخضع بشرطها المعرفي إلى المستوى العقلي والروحي للمجتمع العربي - الإسلامي باعتباره، كينونة اجتماعية، وإثنية، تملي مقوماتها على أهمية إبراز خصوصيتها القومية والعقائدية، إنطلاقاً من روح الإسلام الحضاري بوصفه يمثل ثقافة المنطقة الشرق أوسطية، من جهة، وبوصف العرب الساميين كونهم حاملين لتراث الثقافات القديمة، السومرية والبابلية والأكدية والآشورية من جهة ثانية، تلك التي خلقّت جذورها في المنطقة، وعلى خلفية هذه اللوحة، بكل تراكماتها التاريخية، ظهرت تلك الإفرازات الحضارية في فن الخطابة والشعر - في المرحلة الجاهلية، ثم تفجرت تلك «المخزونات» في العصور الإسلامية المختلفة، حتى وصلت إلى قمة الذروة في العصر العباسي، إذ فرضت الحالة الحضارية، وجود صناعة خاصة بالعرب والمسلمين، تعبر عن روح الثقافة فيهم، وتكون بمثابة مشعلاً وهاجاً يدل عليهم ثقافياً، أثناء احتدام حالة المنافسة الحضارية، فكانت «مهنة الوراقة» أصدق تمثيل لهذا المنحى، وأعمق وأخطر ظاهرة حفظت لهم شكل خطابهم العقلي والروحي والبلاغي، وعبّرت - بنفس الوقت - عن مكامن الإبداع اللامحدود، في عقليتهم الخلاقة المنتجة، وبمعنى آخر، إن ظهور مهنة الوراقة، هي الهوية المعرفية، التي ميزت الثقافة العربية - الإسلامية في العصور الوسطى من التاريخ العالمي، حددت سمات الشخصية الثقافية العربية الإسلامية، ووضعت قدماً راسخاً لها في كل ثقافات العالم، من خلال ما تركته من نتاج ثقافي، لا زال حتى اليوم يبهر العقول. وبغية أن تكون هذه الصنعة الثقافية هي المعبرة الحقيقية عن روح الإبداع العربي - الإسلامي، فإن العامل الذاتي، يجب أن يكون، هو الدافع الأرأس في تكوين تلك الصنعة، وهو ما كان فعلاً، إذ بدأت المبادرة من الوسط الثقافي العربي، ذاته - وكما أوضحنا في بداية هذه المقدمة - من أن المثقفين ورجال الفكر والأدب هم الذين أسسوا هذه المهنة الثقافية الخالدة.

ينقسم البحث - في هذا الجزء - من الموسوعة، إلى بابين رئيسين يشكلان العمود الفقري، والرافعة الأقوى لبنية العمل الموسوعي برمته، وحوله تدور الأجزاء والأبواب والفصول، وهو الأكبر حجماً في العمل - بحكم طبيعة البحث المنهجي - الذي رسمناه، لإبراز هذه الظاهرة.

- الباب الأول: وقد اشتمل على (تسعة فصول) كل فصل منها، يعالج قضية محددة، تنتمي بحلقيّتها، إلى سلسلة طويلة من الترابط المنهجي في البحث، فكانت تلك الفصول التسعة، تعبر عن مداليلها، حسب ما يلي:

الفصل الأول: حمل عنوان «**تمهيدات تاريخية واقتصادية واجتماعية**».

إذ فرض السياق المنهجي هذه التمهيدات، بغية إيقاف الدارس أو الباحث، على الأسس التاريخية التي صاحبت تطور حركة المجتمع العباسي اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، بحيث أن قانونية التطور تفرض وجود هذه الحالة من السمو الثقافي والروحي، لإيجاد مثل هذه «الصنعة».

الفصل الثاني: حمل عنوان: «**الورّاقون، كصنف من الأصناف الإسلامية**».

وهذا الفصل حددنا فيه، معنى **الأصناف الإسلامية**، أي «**النقابات**» بالمفهوم السياسي - الاجتماعي، المعاصر إذ أن حالة الأصناف الإسلامية، تؤشر إلى البواكير الأولى من «الوعي الطبقي» لدى المسلمين، وبنفس الوقت يشير إلى مدى النضوج المهني لدى هذه «الأصناف» لأن تشكل وحداتها النقابية، وقد كان للوراقين الدور البارز، في بلورة هذه الأشكال المهنية، إذ أن - **ممثل الورّاقين** - كان في طليعة من يقرروا - قبول العضويات والعقوبات في بقية الأصناف الإسلامية، ويجد المتابع «**طقوساً خاصة في عمليات الشدّ والشعيرة**» لقبول العضو في تلك الأصناف، والتي بنت وعيها النقابي على أساس من الفكر الديني، والمكيف عملياً، وحالات النقابات تلك، وهو أثر لم يسبق لحضارة موازية - في تلك الفترة - للحضارة العربية - الإسلامية، لأن تبدع مثل هذا النمط في وجود النقابات، ضمن روح الإسلام الحضارية، وهذا الأمر يُغفله المستشرقون عن عمد وإجحاف، لا سيما الذين اشتغلوا في التراث العربي - الإسلامي، من دافع أيديولوجي مناهض للعرب والمسلمين.

الفصل الثالث: حمل عنوان: «**تعريف معنى الوراقة والورّاقين**».

حيث ميزنا فيه عن معنى الورّاق والناسخ، والمجلد والبائع، والمنادي وبقية أصناف الوراقين، وفق المصادر اللغوية والتاريخية، التي تطرقت لهذه التعاريف، وحددت مضامينها. ثم عرّفنا معنى «الوراقة» اعتماداً على تلك المصادر، وما وقفنا عليه من تتبع سير العملية، في كافة مراحلها التاريخية.

الفصل الرابع: أخذ عنوان «**منهج الوراقة في الإسلام**».

بهذا الفصل أوضحنا مجموعة القواعد والطرق والأساليب الواجب إتباعها في عملية «توريق الكتاب» من دافع معرفي ووازع إسلامي، يخضع بمضمونه إلى البعد الديني - الأخلاقي، في التعامل مع المهنة «الوراقة» بوصفها مهنة إسلامية، تتعامل مع - صناعة الكتاب.

وقد أظهر «منهج المقابلة والنسخ» وهو النقطة الجوهرية في موضوع منهج الوراقة

الإسلامي، الأبعاد الدقيقة، والمسؤولية العالية، والأمانة العلمية لدى الوراق، أثناء عملية النقل، وألزمه ضرورات علمية ودينية وأخلاقية، يتوجب التمسك بها، ثم ظهر في سياق البحث الأشكال المتطورة في عمل الوراقة، إذ ظهرت «الحاشية والتعليقات» والإشارات للخطأ والصواب، ومفردات دالة على الاختصار - لا سيما في كتب الحديث - ثم تطور هذا المنهج لدى الورّاقين، وأصبح فيه، النقاد والمختصين في مختلف فنون الكتابة، ثم ظهر فيه «عملية الإخراج الفني للكتاب» وكل ذلك، كان يظهر - بشكل يوحي - من خلال عملية الوراقة برمتها، والمتابع سيقف على مقدار المسؤولية الأخلاقية، والمسؤولية العلمية، في إخراج الكتاب أو - المخطوط - سليماً وخالياً من العيوب.

الفصل الخامس: حمل عنوان: «أثمان النسخ والتجليد».

وفيه تتبدى أخلاقية الوراقين العالية، إذ أنهم، كانوا يسعون إلى انتشار المعرفة أولاً وأخيراً، وهو ما نلمسه في أسعار وأثمان النسخ لكل صفحة، أو لكتاب، أو بأسعار التجليد، إذ أن الوراق، يكفيه قوت يومه، من كسب المال، حيث أن الهم الثقافي، كان هو الأبرز في سلوكه في هذه الناحية.

الفصل السادس: حمل عنوان: «أصناف الورّاقين».

وبهذا الفصل حددنا، من هو الذي ينطبق عليه «لقب ورّاق» وما هي مهمات كل صنف من هذه الأصناف، وكيف يؤدّون عملهم، كل حسب اختصاصه في مهنة الوراقة، وعلى ضوء هذا الاختصاص، تُعرف شخصية الوراق، وتحدد مسؤوليته، وبها يعرف، وعلى ضوئها يقيّم، لا سيما حملة الأخبار والمرويات الإسلامية، في كتب الحديث والفقه، إذ أنه يشكل عالماً قائماً بذاته.

الفصل السابع: أخذ عنوان: «أخلاق الورّاقين».

وفيه جرى البحث عن التعارضات العلمية والدينية، من جهة، ومصلحة الورّاق المهنية من جهة ثانية، بمعنى أن أخلاقية العلم ترفض الغش أو التحريف أو ابتسار النصوص، وكذلك الوازع الديني الإسلامي، الذي يرفض هذه المسلكية من قانون الرسول محمد ﷺ: «من غشنا ليس منا» وهنا يكون الدافع الديني عامل موازنة، بالجانب الروحي والأخلاقي، الأمر الذي يشكل وحدة متكاملة مع الوعي المعرفي في نقل العلوم والإبداع، وبهذا تكون أخلاقية الورّاق - المهنية والشخصية - خاضعة لهذين النازعين، الأمر الذي فرض علينا - منهجياً - أن نستوقف ملياً، مع هذه الحالة ونحن في إطار عملية البحث العلمي.

الفصل الثامن: أخذ عنوان: «معاناة الورّاقين».

وفي هذا الفصل، جرى التطرق إلى الآلام النفسية عند الورّاق، لما يعانيه في المهنة، بغية كسب العيش، وقد أظهرت النصوص المُجلى عنها بالبحث - مقدار القيمة الأدبية لنصوص أدبية عالية، تركها هؤلاء الورّاقين، وهي تصف معاناتهم - سلباً وإيجاباً - حتى أن القارىء ليقف على حالات جمالية ممتعة للأدب في هذا المضمار، وتظهر أمامنا اللغة العالية والأسلوب الفريد، في التعبير عن هذه الحالات الشخصية العديدة، وهي ترسم بعمق عوالم الوراق الداخلية، وما يكابده من عسر وضيق، ويكفي أن نذكر هنا - عملاق الثقافة العربية في القرن الرابع الهجري «أبو حيّان التوحيدي» حيث أدت به الحالة - إلى حرق كتبه ومسوّداته، وهو من ألمع الورّاقين الأدباء، في تلك الحقبة.

الفصل التاسع: حمل عنوان: **«الإنتماءات السياسية للوراقين»**.

في هذا الفصل، يظهر الورّاقون بأنهم جزءً هاماً من النسيج الاجتماعي - العباسي، إذ أن **المذاهب والفرق الإسلامية**، كانت لها اتجاهاتها الفكرية والعقائدية، وكان لها - في سوق الورّاقين - مروجين بين هؤلاء الوراقين، وهنا نصطدم بحقيقة تاريخية، تظهر أمامنا في **«مخطوطات ذلك العصر»** إذ أن عملية «التحريف والوضع» للنصوص الدينية - لا سيما في الحديث النبوي - كان مثار جدال في ذلك الوقت، إضافة إلى بروز - نزعات عنصرية، شعوبية - أخذت تظهر في مخطوطات الورّاقين. وكان للإحتراب المذهبي - ظهوره الطاغي في سلوك الوراقين السياسيين، وقد تجلى هذا، بشكل واضح عند **(وراقي المعتزلة والإسماعيلية، وإخوان الصفاء، والمرجئة والشيعة، والسنة، والأشعرية)**، الأمر الذي أثار اهتمام المؤرخين الكبار، في تلك الفترة، وأشاروا إليها، لا سيما مؤرخ بغداد المشهور **«الخطيب البغدادي»** حيث أشار بموسوعته **«تاريخ بغداد»** إلى أكثر من ورّاق، قد قام بعملية «وضع الحديث وانتحاله «وهذه المسألة أربكت الكثير من المؤرّخين والعلماء - قديماً وحديثاً - لا سيما عند الحديث حول **«المذاهب الفقهية»** وكذلك انسحب الأمر، على الأدب والمقولات السياسية والفلسفية، ومن هنا، جاء هذا الفصل ليكشف عن الانتماءات السياسية للوراقين، باعتباره فصلاً مهماً، يعلم على التطور السياسي للمجتمع العباسي، وتأثيراته الثقافية على الخطاب العربي، منذ ذلك الأوان، وحتى هذه اللحظة.

- **الباب الثاني**: من هذا الجزء - حمل عنوان: **«سوق الورّاقين»**.

وبه ينكشف عالم الثقافة العربية - الإسلامية، على كافة الاتجاهات، والعوالم، ومنه «يصدر» الكتاب، وبه يعرف الكاتب، وفي ساحاته، تتبدى الأندية الثقافية، وتظهر مختلف الآراء السياسية والفكرية والمذهبية، ومنه تخرج كافة **«البدع والإبداعات»** ولا غرو في ذلك، إذ أن هذا المحيط الثقافي، كان له أكثر من مئة حانوت وله فرعين رئيسيين. في

بغداد لوحدها، واحد في الكرخ وآخر في الرصافة - ناهيك عن بقية الأمصار الإسلامية، وخصوصاً مدنها الرئيسية، ولكن أسواق بغداد للوراقة، هي الأعرف والأشهر، ومنها خرج المثال والتماثل، وكثير من الورّاقين، تخرجوا من سوق الوراقين ببغداد، ورحلوا إلى بقية الأمصار، بكامل عدتهم الوراقية من أمثال ظِفر الورّاق، الذي ذهب إلى الأندلس، وافتتح حانوتاً للوراقة هناك، وخلاصة القول، أن عالم الثقافة العربية - الإسلامية، كان هناك موقعه، ورقعته، ونقطة انطلاقه، وملتقى العلماء والأدباء ورجالات الفكر والسياسة، بل وشكّل سوق الورّاقين ببغداد، أحد العوالم الحضارية التي تتباهى بها المدن والحواضر، وبها يقاس التفاضل بين مجتمع وآخر، وهو الأمر الذي أشار إليه **(أبو حيان التوحيدي)** في رسالته **«البغدادية المشهورة»**، وهو يفاخر به أهل **«أصفهان»** وهذا السوق ذاته، الذي اتخذ منه الجاحظ، ملاذاً له، وإقامة دائمة فيه، حتى عرف عنه «بأنه كان يكتري حوانيت الورّاقين ويبيت فيها للنظر» وكفى بهذا المثال ذكرى. . وعلى هذه الأهمية، جاءت فصول هذا الباب، موزعة على النحو التالي:

الفصل الأول: وحمل عنوان: **«تعريف معنى الأسواق»**.

حيث أشرنا في هذا الفصل إلى المعنى العام، المتعارف عليه للسوق، ثم حددنا، ماهية سوق الورّاقين.

الفصل الثاني: حمل عنوان: **«الأسواق الإسلامية وميزاتها»**.

حيث تناول البحث في هذا الجانب، معنى الأسواق الإسلامية، من حيث شكل التعامل، وإشرافها تحت سلطة «المحتسب» ناهيك عن أشكال بضاعتها، بالمقارنة مع بقية الأسواق في الثقافات الأخرى، وعلى هذا الأساس، خضع سوق الورّاقين إلى هذه المواصفات، مضافاً إليها مواصفات المكان، وتأثيرات البرودة والحرعليه، وانعكاس ذلك على طبيعة المواد التي يتعامل بها الورّاقون، من أوراق وأحبار، وأمور الكتابة الأخرى.

الفصل الثالث: حمل عنوان: **«الأبعاد الهندسية والمعمارية للسوق»**.

وهذا الفصل، جاء اكتمالاً للفصل السابق، حيث مال تصميم البناء الهندسي للسوق إلى ما تتطلبه مواد الكتابة، كي يحافظ عليها ذلك الطراز من البناء، والذي بالضرورة يخضع «تصاميمه» إلى طبيعة الأجواء الحارة، في العراق، من جهة، وبقية أمصار الخلافة الإسلامية، من جهة أخرى، حيث أن الفروقات بفن العمارة، لهذه الأسواق، تختلف بشكل طفيف، وفق متطلبات الحالة الاقتصادية والثقافية لهذا المصر أو ذاك.

الفصل الرابع: حمل عنوان: **«موقع سوق الورّاقين ببغداد»**.

بهذا الفصل تمّ معرفة خطط بغداد، ومواقعها الجغرافية الهامة، إذ أن موقع سوق الورّاقين كان على ضفة نهر دجلة، إن كان في الكرخ أو الرصافة، حيث يتميز ذلك المكان بموقعه القريب من النهر - حيث كان دور المواصلات المائية هاماً، بالنسبة إلى ذلك الوقت، مع إنسيابية مويجات النهر عند الأصيل، الأمر الذي يزيد الرائي بهجة وهو يقوم بشراء ما يحتاجه من ذلك السوق، إضافة إلى كونه قريب من قصر الخلافة، وهناك أمور أخرى ميّزت هذا الموقع.

الفصل الخامس: حمل عنوان: **«كيفية بيع الكتب في سوق الوراقين»**.

وبهذا الفصل تتجلى روح الدعابة والفكاهة والفطنة، للورّاقين الدلاّلين، هذا الصنف الذي يعرض البضاعة، وكيف يروجها بعملية تدعى «النداء» والتي تكون شبه ندوة مفتوحة، يستعرض فيها كتاب أو عدة كتب، وقد حذق الدلاّلون بهذه - الوظيفة - الممتعة.

الفصل السادس: حمل عنوان: **«روّاد سوق الورّاقين من العلماء والأدباء والساسة»**.

وهذا الفصل يكشف عن صفة رجالات المجتمع، الذين يتوافدون على سوق الوراقين، ليس فقط للتسوق، بل للسماع والمشاركة أحياناً، لما يعقد فيه من ندوات ثقافية وغيرها.

الفصل السابع: **«نوادر في سوق الورّاقين»**.

هذا الفصل هو أمتع الفصول - في كل العمل - حيث أن المحمول الثقافي، وديمومة التعاطي مع القضايا الفكرية والعلمية، تخلق حالة من اليقظة المبكرة في ذهن الورّاق، تظهر بشكل نادرة - أو ملحة، تطلق بتعليقة، أو بيت شعر، أو مثل سائر، ومتى ما أطلقت، فإنها تنتشر كالنار في الهشيم، وقد تفنن الورّاقون من خلق هذه النوادر، لكسر حالة الملل والرتابة في عملهم.

الفصل الثامن: حمل عنوان: **«مجالس العلماء في سوق الورّاقين ومناظراتهم»**.

حينما تدخل - سوق الورّاقين - لا سيما وقت الأماسي فإنك تدهش، من ذلك التخالط الإثني والثقافي العجيب، فهذا يطالعك عن اسم كتاب وصل حديثاً، عند الورّاق - الفلاني - باللغة الهندية، وآخر باللغة الفارسية، وثالث باليونانية، وكلها تتحدث عن مختلف العلوم، وصدى كل كتاب قد وصل مداه في أرجاء السوق، وكل متسوق يبحث عن ضالته، فيما انتصبت عند هذا الورّاق المعتزلي، أو الصوفي حلقة علمية وافترشت الأرض، وتحلق حولها المريدون وطلبة العلم، وبالقرب من المحدّث أو الشيخ جلس النسّاخون، والكل يحمل **(محبرته وأدوات كتابته)** ليسجل ما ينطق به الشيخ، أو ما يردُّ عليه

شيخ آخر، ضليع بنفس الفن، والجمهور من حولهم، قد أخذته الدهشة لما يسمع ويدور، وهو ما جلب إنتباه أبي حيان التوحيدي، وسجل ذلك بكتابه الهام المقابسات، حيث حلقة أبو سليمان السجستاني، رئيس مناطقة بغداد/ 4 هـ/ كانت كثيراً ما تعقد جلساتها العلمية في سوق الورّاقين، كي يزداد جمهور العامة معرفة بالأمور الفلسفية، وتلك هي أهم المفاصل التي كشفنا عنها في هذا الفصل، إضافة إلى تسليط الأضواء على «المناظرات الفقهية» التي كانت تدور في السوق بين أئمة المذاهب الإسلامية المختلفة، وكيف أن بعض هذه المناظرات يبقى إلى ساعة متأخرة من الليل، قرب أحد الدكاكين الوراقية، ولعمري أن مثل هذه الظواهر، لن تتكرر قط في عالمنا المعاصر، إذ أن الكلمة الحرة، تهز مضجع السلطان، فلا يهنأ بنومه، فيأمر بعدم السماح بمثل هذا.

- **الجزء الثالث**: من الموسوعة، حمل عنوان: **«صناعة الورق وظهور المكتبات»**.

يمثل الورق باكتشافه وصناعته، قفزة حضارية واضحة المعالم على كل مجتمع من مجتمعات العالم، فهذه المادة - الوَرَق - تعني رقياً ثقافياً واضح الدلالة على المجتمع، والمجتمع العربي - الإسلامي، كان سبّاقاً لاقتناء تلك المادة، وبغية تدوين ثقافته وأمور دينه ودنياه فيها.

والعباسيون الأوائل، كان طموحهم السياسي عالياً، فكانت «الفتوحات الإسلامية»، ما زالت تغازل أفئدتهم وعقولهم، وقد لعبت الصدفة دورها في تلك الفتوحات، إذ أسرّ المسلمون، على حدود الصين، بعض أهالي تلك البلاد، وأخذوهم أسرى إلى «سمرقند» وكان بين هؤلاء الأسرى من يجيد صناعة الورق فعاملوهم بالإحسان، وتعلموا منهم صناعة الورق، وأسسوا أول مصنع للورق في سمرقند، ومن ثم أسس مصنعين للورق في بغداد عاصمة الخلافة العباسية، أيام هارون الرشيد، ثم انتشرت صناعة الورق بعد ذلك، في بقية الأمصار الإسلامية.

وموضوعة صناعة الورق - هي مدار البحث في **الباب الأول** - من هذا الجزء من الموسوعة، حيث اشتملت فصوله الثلاث على العناوين التالية:

الفصل الأول: أهمية الورق الحضارية.

الفصل الثاني: أثر الورق في تطور الثقافة العربية - الإسلامية في العصر العباسي.

الفصل الثالث: أنواع الورق ومقاساته.

وهذه الفصول تخبرنا مدى التفاعل الحضاري للعرب والمسلمين، للتعامل مع هذا المنتج وكيفية الاستفادة منه في نقل علومهم وآدابهم، من وإلى الثقافات الأخرى، وقد

لعب الورّاقون والمترجمون الدور الأراس في تنشيط هذه الصناعة، ومن ثم أوجدوا المقاسات اللازمة والنوعية الخاصة للتدوين والنقل والأمور الأخرى.

- **الباب الثاني**: من هذا الجزء حمل عنوان: **«ولع الناس بالكتب والمكتبات»**.

إذ أن صناعة الورق، لعبت دوراً خطيراً في تهافت الناس على الكتب وشرائها، ومن ثم برزت ظاهرة **تأسيس المكتبات العامة والخاصة**، في المجتمع العباسي، بكافة امتداداته العربية والإسلامية، حتى لقد كشفت هذه الدراسة عن وجود أكثر من **(200 مكتبة)** بين عامة وخاصة، الأمر الذي يبين مدى اشتياق الناس - في ذلك الأوان المزدهر - إلى المعرفة، وهذا الاشتياق المعرفي، لم ينحصر بطبقة دون أخرى، فلقد اشترك الجميع فيها، ويكفي أن نذكر **«مكتبة الحكمة»** التي تأسست في زمن الرشيد وازدهرت في زمن المأمون، حتى غدت من شوامخ ذلك العصر، ومؤشر حضاري على تطور الخلافة الإسلامية، ومن ثم، تكشف لك - فصول هذا الباب - عن الغنى الروحي الهائل، الذي وسم الجميع بميسمه، فقد كانت عناوين تلك الفصول على النحو التالي:

الفصل الأول: إطلالة تاريخية على حب القراءة من أيام «سومر» إلى قيام بغداد.

الفصل الثاني: الحالة الثقافية في بغداد ونشوء المكتبات.

الفصل الثالث: المكتبات الإسلامية، كنتاج ثقافي - حضاري للورّاقين.

الفصل الرابع: شغف العلماء بالكتب.

الفصل الخامس: الدولة العباسية والكتاب.

الفصل السادس: مكتبات المساجد ودور العبادة الأخرى.

- **الباب الثالث: المكتبات العباسية.**

الفصل الأول: مكتبات الخلفاء العباسيين.

الفصل الثاني: مكتبات الوزراء العباسيين.

الفصل الثالث: المكتبات العامة.

الفصل الرابع: مكتبات الأدباء العباسيين أو المكتبات الخاصة.

الفصل الخامس: أثر المكتبات على المجتمع العباسي.

- **الباب الرابع: مكتبات الأمصار الإسلامية:**

الفصل الأول: مكتبات بلاد الشام.

الفصل الثاني: مكتبات بلاد فارس.

الفصل الثالث: مكتبات مصر الفاطمية.

الفصل الرابع: مكتبات بلاد الأندلس.

والمتتبع هنا، ينذهل إلى وجود هذا الكم الهائل من الكتب والمكتبات، ولا أدلُ على ذلك من الحدث الرهيب، عندما غزا المغول بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية عام 656هـ/ 1258م حيث رموا الكتب في نهر دجلة فأصبغت مياهه بالحِبر الأسود! ناهيك عن حرائق المكتبات في - مصر والأندلس وبلاد فارس والشام - عندما تعرضت للحرق من قبل «الدول» التي جاءت بعدهم - بما فيهم الحروب الصليبية - وقد ضاع الكثير من هذه الكنوز الثمينة نتيجة - إعدام الكتب - بهذه الطريقة البربرية.

- **الجزء الرابع**: حمل عنوان: **«الإفرازات الحضارية للورّاقين - ظهور الخطّاطين -»**.

ما من شك، بأن المهنة الحضارية، تفرز لها نخبة من المحترفين فيها، يفهمون «سر المهنة» وهؤلاء كانوا يطلقون عليهم «أساطين الصنعة» ومفردها «أسطى» وهذا اللقب، ما زال مستخدماً حتى أيامنا هذه، في مختلف الأقطار العربية، وهو في العراق أكثر شيوعاً، لا سيما في المهن الحرة.

والوراقة، مهنة حرة، منذ تأسيسها وإيجادها، وحتى هذه اللحظة الراهنة، وقد تابعنا - من خلال عرض المقدمة - لموضوعات الموسوعة، بأن «مبدأ الاحتراف المهني» في العراق، وسمت العصر العباسي برمته، وهذا يعني ديمومة المهنة واستمرارية بقائها[1]، لذلك نشاهد علامات تاريخية واضحة المعالم في الثقافة العربية - الإسلامية، رافقت مهنة الوراقة منذ ولادتها وحتى هذه الساعة، إذ أن هذه «التمظهرات» أو العلامات، كانت أساسية وتوأميّة للمهنة، لا سيما وجود العلاقة المترابطة بينهما، والتي ترفض الانفصال قطعاً، حيث التلاحم بينهما أبدي، وعلى مر الأزمان، ودون اتحادهما قد يبطل العمل الوراقي، لا سيما في جانبه الجمالي، وهذه العلاقة السرمدية هي التي جمعت بين الخط العربي ومهنة الوراقة، **والخط للحرف العربي**، كان الأساس واللّبنة الأولى في نشوّ وظهور وانتشار مهنة الوراقة، وبدونه كانت تكسد مهنة الوراق، فقد كان هناك شعار عالي السارية في مذهب الورّاقين يقول: «**رداءة الخط، زُمانة الأديب**» أي من ليس لديه خط حسن، فهو مريض مزمن.

ونتيجة زيادة في «**الكم**» العامل في حقل الوراقة، ظهر «**الكيف**» بشكل منطقي، مع

(1) ما تزال في بعض العواصم العربية، مثل، بغداد - دمشق - القاهرة - الزيتونة - الرباط، يوجد فيها وراقون يمارسون هذه المهنة، بشكل فردي، وبأجور عالية جداً.

احتفاظه بشروط الكم. فلقد انسلخت فئة من أساطين الورّاقين، خطّت لها سكة وراقية أخرى، تزيد المهنة جمالاً، اختصت هذه الفئة بخط وتذهيب الأغلفة والعناوين وأسماء الفصول فقط، دون المساس - كتابياً - بالنص المراد نسخه - أي طباعته - وعلى مر الأيام والدهور، برزت مهنة أخرى مع الوراقة، وداخل أروقتها - في البدء - ثم استقلت عنها تماماً، مع الاحتفاظ برابط الصلة، هي مهنة «الخطّاط»، وضعت لنفسها قواعد وأصول غاية في الدقة والإحكام في رسم الحرف العربي، وضمن «قياسات هندسية» وشرائط فنية بحتة، تتطلب جهوداً عالية في الممارسة والتطبيق، وتلعب الموهبة الإبداعية، دوراً هاماً في تنمية هذه الملكة الجمالية، كي تكتمل في الخطاط، شروط الصنعة، وعلى هذا الأساس، بدأت الملاكات الأولى من الخطاطين، في سوق الوراقة، بالتأثير على حالاتها الفردية، ثم بدأ الاستقطاب والاصطفاف. يأخذه مداه، حتى ظهرت أسماء المبدعين الأوائل، في هذا النمط من الكتابة الخاصة، وقد حفظت لنا (المخطوطات العربية والإسلامية) الكثير من «توقيعات» هؤلاء، لا سيما المشهورين منهم، من أمثال: (ابن مُقلة، وابن البوّاب، وياقوت المستعصمي)، وغيرهم ممن وضعوا أحكام واصول هذه الحرفة الجمالية، وهؤلاء النخبة من الخطاطين العرب، هم الذين نتوقف معهم، بالبحث والدراسة - في هذا الجزء من الموسوعة - استكمالاً لمنهج البحث العلمي، مع شيء من ملاحقة السيرة الذاتية، كي يأخذ الموضوع، استقلاليته في البحث، من جهة، ويكون صلة الوصل للموضوع الأرأس «الوراقة» من جهة ثانية، وكي تعم الفائدة المنهجية، من جهة ثالثة.

إنَّ أهمية موضوع الخط العربي، تبرز من دورها الفاعل في بنية الثقافة العربية - الإسلامية، ضمن الإطار الحضاري العام للثقافة العالمية، إذ شكل الحرف العربي في ثقافة العرب والمسلمين، معادلاً موضوعياً لفن الأيقونات في الثقافة المسيحية، وهو بهذا الشرط - الجمالي - يكون قد عبّر عن نفسه، بوصفه، ثقافة حرف نابعة من ثقافة «كلمة» فإذا علمنا بأن الثقافة المسيحية تتمحور حول شخص اسمه «المسيح» فإن الإسلام يتمحور حول كتاب، هو «القرآن» ومن هذه المقارنة كانت أولى الإبداعات في الخط العربي جاءت في آيات القرآن وسوره، وإذا علمنا بأن الإنسان أول المخلوقات، فإن أدوات الكتابة كانت مرافقة له في الخلق والإبداع وهي «القلم واللوح المحفوظ» هذا إلى جانب أن الله في القرآن قد أقسم في القلم، حيث جاءت الآية: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1].

(1) سورة القلم، الآية: 1.

ومن هنا انتبه الخطاط العربي إلى تشكيل رؤاه الفكرية بجمالية رسم الحرف العربي، للتعبير عن الهوية والذات، فقد دلّت أحاسيس الخطاط على أن الحرف هو المعنى الباطني للعدد، وتميزت الثقافة الإسلامية بانتقال الحروف إلى لغة الأعداد، بعكس الحضارات الأخرى، حيث تنتقل فيها الأعداد إلى لغة الحروف، وبذلك أوجد التطور التاريخي لفن الخط العربي أبعاداً وظيفية تميزت بوحدة بنائها اللغوية، كشكل مرئي «حرف» ومضمون مكتوب «كلمة» وهو الأمر الهام الذي انتبه إليه الباحث المعروف روزنتال بمقالته الهامة (الأهمية التطبيقية للخط العربي).

ومن ثم كان لهذه الوظيفة البنائية، التأثير الفعال على بقية «لغات الأعاجم» الذين استوطنوا البقاع العربية، وكتبوا بالعربية بدل لغاتهم الأصلية، أسهل لهم للتعبير عمّا يجول في خواطرهم.

إنَّ الخطاط العربي انتقل من رسمه للحرف، من ضرورة كتابية للعلوم والآداب إلى متعة جمالية للعين والقلب، أي هنا نشهد تغيّيراً للوظيفة الإبداعية للقلم حيث صارت الكتابة لا تعني التدوين، بل رسم ما في الروح بالريشة، منظوراً إليها بحدقة العين، بغية إيجاد لحظة تأمل، تتشابك فيها رؤيا البصر مع رؤية البصيرة، فينخلق إبداعاً آخراً، ينطلق من جمال الحرف في الكتابة إلى استنطاق الذائقة الحسية، عند أول نظرة للعين، مع رسم الحرف في ذلك التشكيل المسمى «خطاً». وإلا كيف نفسر تعدد أنواع الخطوط؟ وما الداعي إذن إلى تلك «المدارس الفنية» في فن الخط؟ ولماذا سمي كل خط باسم، وفق مقاييس وتراتبية تميزه عن غيره؟.

إذن إنَّ العامل الروحي، ومن خلال حاسة البصر، يتفاعل مع المبصور إليه، فينخلق الإحساس بالجمال، وعلى هذا الأساس، نمى الحرف العربي، وبه سمي الخطّاط خطّاطاً.

إنَّ هذه الجدلية الإبداعية لفن الخط العربي، هي التي قادتنا في البحث عن كل مفاصل الموضوع في هذا - الجزء - والذي أعطيناه تسمية «الخطّاطون - كصنف مبدع من الورّاقين» راعينا فيه، بدايات التبرعم - التاريخي - لنشؤ الوراقة، والاستقلال الحرفي لفن الخط، ومن ثم راعينا أن تكون دراسة الموضوع ضمن هيكلية الموسوعة، لا مستقلاً عنها، للأسباب التي ذكرناها في بداية هذه المقالة، إذ أن الموضوع - وفق قناعتنا - وما توصلنا إليه - أثناء البحث - بأنه شكل أساسي ومتمم من بنية عمل الوراقة، في الحضارة العربية - الإسلامية.

تنقسم موضوعات هذا (الجزء) على الأبواب والفصول التالية:

- **الباب الأول**: حمل عنوان: «**الخطّاطون كصنف مبدع من الورّاقين**».

وفيه جرى التطرق إلى أثر الإسلام - كدين وحضارة - في تحسين وإجادة الخط العربي، واهتمام الخلافة الراشدية والأموية وبداية الدولة العباسية فيه.

الفصل الأول: حمل عنوان: **«بدايات الحرف العربي في الكتابة»** تناول البحث ولادة الحرف العربي عند **(الأنباط والتدمريون)** كحرف عربي، ثم انتقل هذا **«الحرف»** إلى الكوفة، لتشهد هذه المدينة العراقية، البدايات الأولى للخط العربي، والذي عرف باسمها **«الخط الكوفي»** وهو أقدم الخطوط وأشهرها في سياق التاريخ لتلك المرحلة، ولا زالت آثاره باقية حتى اليوم، ومن الخط الكوفي، أملت الضرورة الفنية، والوظيفة العملية للقلم، بأن توجد تفرعات أخرى للأقلام الأساسية **«الخطوط»** تشتق لها أسساً من الخط الكوفي، فظهرت - خطوط أخرى - لها مبدعيها وروادها الأوائل.

الفصل الثاني: حمل عنوان: **«الإسلام والحرف العربي»**.

وفيه تم الكشف والملاحقة التاريخية عن انتقال الخط والخطّاطين من الكوفة إلى بغداد، وبقية الأمصار الإسلامية.

- **الباب الثاني**: حمل عنوان: **«الخط في العصر العباسي»**.

حيث تم الكشف فيه عن تأثير الخلافة العباسية في تبني القلم ورعايته وتقديم الدعم اللامحدود للكتبة الأوائل وتشجيع ممارستهم له.

الفصل الأول: حمل عنوان: **«العباسيون وتأصيل الخط العربي»**.

وفيه جرى الكشف عن أشكال اهتمام الخلفاء العباسيون بفنيّة القلم وتقريب المبدعين فيه.

الفصل الثاني: حمل عنوان: **«الخطّاطون أساس مهنة الوراقة»**.

وفيه جرى البحث عن الكيفية التي برّزت الخطاطين لأن يكونوا النواة الأولى في عملية الوراقة نظراً لحسن خطوطهم واتقانهم لأصول الخط في بداياته الأولى.

- **الباب الثالث**: حمل عنوان: **«مدرسة بغداد للخط العربي»**.

الفصل الأول: حمل عنوان: **«الأرهاصات الأولى لهذه المدرسة»**. حيث أشرنا إلى الخطاطين الأوائل الذين سبقوا ظهور هذه المدرسة وأثّروا في الوعي الفني لرواد هذه المدرسة.

الفصل الثاني: حمل عنوان: **«ابن مُقلة عميد هذه المدرسة»** تم البحث في حياته السياسية والاجتماعية وكيف أصبح وزيراً.

الفصل الثالث: حمل عنوان: **«حياة ابن مُقلة الفنيّة»** وفيه تم الكشف عن أساليبه وقواعده التي أرساها في كتابة الحرف العربي، وشروط الالتزام بها.

الفصل الرابع: حمل عنوان: «**أهمية ابن مُقلة**»، وتم التطرّق فيه إلى أهميته الأدبية والثقافية وأهم آثاره المخطوطة كوثائق ما زالت موجودة الى اليوم.

الفصل الخامس: حمل عنوان: «**تلاميذ ابن مقلة**». وفيه تم عرض كيفية فهمهم لأسلوب ابن مقلة وتطويره وشرحه للآخرين، وأهم تلاميذه الذين جاؤوا بعده وطوّروا منهجه وأساليبه.

- الباب الرابع: حمل عنوان: «**استقرار قاعدة الخط العربي في بغداد**».

الفصل الأول: حمل عنوان: «**ابن البوّاب.. على هدى ابن مقلة**».

وفيه أشرنا على تأثيرات ابن مُقلة على ابن البوّب وكيف عرف الأخير سر إبداع الحرف العربي من طريقة الأول.

الفصل الثاني: حمل عنوان: «**طريقة ابن البواب في الخط**» حيث تم الكشف عن إبداعات هذا الفنان في التقاطه وإبداعه في توليد خطوطاً أخرى من طريقة ابن مقلة.

الفصل الثالث: حمل عنوان: «**تلاميذ ابن البوّاب وآثاره**» وفيه تم الكشف عن أهم آثاره الفنية وأبرز تلاميذه من النساء والرجال والذين نقلوا طريقته إلى بقية الأمصار الإسلامية.

- الباب الخامس: حمل عنوان: «**ياقوت المستعصمي - آخر المدرسة البغدادية في الخط العربي**» إذ تم التوقف - في هذا الفصل - مع هذا المبدع الفذ، والذي طور أساليب الكتابة في الخط والذي شهد سقوط الخلافة العباسية وضياع الآثار الفنية والعلمية والأدبية، أثر غزو المغول لبغداد وإسقاط الخلافة فيها.

  وقد فصلنا هذا الباب على الفصول التالية:

الفصل الأول: **من هو ياقوت المستعصمي؟**

وفيه تم الحديث عن أصل هذا المبدع «الرومي» في الخط العربي وكيف وصل دار الخلافة العباسية التي رعته باهتمام بالغ وخلقت منه مبدعاً بعد أن كان هو من ذوي الطاقة الإبداعية المبهرة في هذا الفن.

الفصل الثاني: **آثاره الفنية والأدبية.**

الفصل الثالث: **المرأة والخط العربي.**

حيث كان لتأثيرات مدرسة بغداد للخط العربي أثراً واضحاً في دمج النساء المبدعات في هذا الفن الجميل، وقد ترجمنا بشكل موجز لأبرز «**النساء الخطاطات**» في الحضارة الإسلامية، بدءاً من العراق ومروراً ببقية الأمصار الإسلامية كـ«**مصر وسوريا والأندلس وبلاد فارس وتركيا**».

الفصل الرابع: ملحق - أرجوزة الشيخ محمد بن الحسن السنجاري - المعروفة باسم «بضاعة المجوّد في الخط وأصوله».

- الباب السادس: حمل عنوان: «شخصية الحرف العربي» حيث أظهرنا فيه «مقومات هذه الشخصية» من الناحية الثقافية والفنية والتاريخية، وانعكاساتها على الثقافة الإسلامية برمتها، وقسّمت فصوله على النحو التالي:

الفصل الأول: التشكيل الفني للحرف العربي.

الفصل الثاني: جمالية الخط العربي في وعي المسلمين.

الفصل الثالث: الحرف العربي في فلسفة التصوف.

الفصل الرابع: الحرف العربي والفنون التشكيلية.

الفصل الخامس: كلمة في الحرف العربي حيث أوضحنا رأينا النقدي في «ظاهرة الخط العربي على طول مسيرته التاريخية».

- الجزء الخامس: حمل عنوان: «أعلام الورّاقين البغداديين».

وهو مقسّم إلى بابين رئيسيين، الأول، حمل عنوان: «المستملون» كصنف من علماء الحديث الورّاقين. تم التطرق فيه إلى أهم الوراقين. الذين مارسوا «الإستملاء» بمجالس الإملاء وتفرغوا له، من مسوّغ ديني، أكثر من مسوغه الدنيوي، وتحديداً لموضوعات «الحديث النبوي» وجرى الترجمة لطائفة كبيرة منهم، وإبراز أهم آثارهم.

- أما الباب الثاني، فقد شمل على الفصول التالية:

الفصل الأول: حمل عنوان: «ورّاقو الحديث».

وهم الفئة التي إنسلخت من «المستلمين» ومالت لكسب العيش من عمل الوراقة، ولكنها ظلت محافظة على اختصاصها في توريق - الحديث النبوي -.

الفصل الثاني: حمل عنوان: «الورّاقون العلماء».

وهم الفئة المبدعة والمنتجة للفكر الثقافي، بكافة مناهله وشطوطه وبحاره، إذ أن فيهم من عمالقة الثقافة العربية - الإسلامية، ومن مختلف المذاهب والفرق الإسلامية، بما فيهم الفلاسفة، وعلماء الكلام، والمتصوفة، ولهم آثار باقية حتى اليوم.

الفصل الثالث: حمل عنوان: «الورّاقون الأدباء».

وهم الفئة المختصة بوراقة الأدب العربي وفنونه، إذ هم بالأساس من هذه الفئة المثقفة، والتي رفضت أن تشتغل بدواوين الدولة، حفاظاً على استقلالها الفكري، وتلبية

لطموحها الأدبي، وكان على رأس هؤلاء المبدعين الوراق المشهور - أبو حيان التوحيدي -.

الفصل الرابع: حمل عنوان: «الورّاقون الشعراء».

وهو ترجمة لمجموعة من الشعراء المعروفين، الذين مارسوا مهنة الوراقة، من دافع الإبداع ذاته، فأخلصوا للمهنة وللإبداع.

الفصل الخامس: حمل عنوان: «الورّاقون النُسّاخ».

وهم الفئة الأكثر شهرة، والأوسع نشاطاً، وهم حجر الزاوية في مهنة الوراقة، وعليهم وقع الحمل الأثقل في المسؤولية التاريخية، حيث أنهم (المدونون الأساسيون) لكل ثقافة ذلك العصر، وإليهم يعود الفضل في وصول «المخطوطات العربية - الإسلامية» خالية من الأخطاء، أو التشويه، حيث كانوا ملتزمين بمنهج الوراقة المعرفي، والذي هم أنفسهم من وضع قواعده وأسسه، ولذلك شغلوا الحيز الأكبر في تراجم الوراقين، بهذا الجزء الهام من العمل الموسوعي هذا.

الفصل السادس: حمل عنوان: «ورّاقوا العلماء والأدباء والشعراء».

وهذا الصنف، هو أميل للتخصص في النقل وملازمة (أشخاص محددين) والكتابة عنهم، ونسخ كتبهم، لذلك خرج منهم العلماء والمختصون، حسب الشيوخ الذين تتلمذوا على أيديهم، وورّقوا لهم حصراً دون سواهم، وقد برزت عندهم «ملكة النقد» لطول المعاشرة والصحبة مع الأستاذ أو الشيخ، وكثيراً ما كان هؤلاء الشيوخ يتفضلون عليهم بتركة تراثهم الفكري، وإعطائهم «الإجازة» لنقل كتبهم وهم أحياء وبعد الممات أيضاً، ولذلك برزوا (علماء) في الفن الذي ورّقوا له.

الفصل السابع: حمل عنوان: «الورّاقون الدلاّلون».

وهذا الصنف الأقل عدداً من بقية الأصناف: إلا أن له دوراً هاماً في بيع الكتب والتعريف بها وتثمين أسعارها.

الفصل الثامن: حمل عنوان: «الورّاقون القضاة».

وهذا الفصل يكشف ويترجم عن وجود - طائفة قليلة من القضاة - ترفض استلام مرتباتها من الدولة وتشتغل - بالوراقة لكسب العيش - حتى لا تميل إلى جهة السلطة، أثناء إصدار الأحكام الشرعية وغيرها، وهذه حالة لن تتكرر قط في أي ثقافة أخرى، أو أي عصر آخر.

الفصل التاسع: حمل عنوان: «الورّاقون الفلكلوريون».

وهذه الطائفة من الورّاقين، مالوا بالمهنة إلى تدوين الأسمار والحكايا الشعبية فقط، وينقلونها من مختلف اللغات، وقد تحول لديهم الهمّ المهني إلى همّ ثقافي ينحصر في الجانب الفلكلوري فقط، وهو الأمر الذي يكشف لنا عن مدى نشاط هؤلاء الورّاقين للتخصص بمختلف العلوم والآداب والفنون، ومن دافع ذاتي محض، قلّ مثاله في هذا الزمن.

الفصل العاشر: حمل عنوان: «النساء الورّاقات».

وهذا الفصل يكشف عن مدى تأثير الثقافة العربية - الإسلامية، على المرأة، فهي لا تريد أن تكون حاملة وأسيرة البيت، بل تريد أن تساهم بالعملية الثقافية، كما يساهم فيها الرجل، لذلك ساهمت بهذا الفن الوراقي الجميل، وضمن شروطه وقواعده. وهذه الحالة، قد تثير تساؤلات إشكالية، فيما إذا كانت (المرأة) في بقية الحضارات، المناوئة للحضارة العباسية في تلك الفترة، هل كانت تقوم بمثل هذه الأعمال الثقافية؟ وبنفس الوقت، ينسحب ظلال السؤال على الفترة الراهنة، ودور المرأة في الحياة الثقافية المعاصرة. !!

- **الجزء السادس: حمل عنوان: «ورّاقو الأمصار الإسلامية».**

إنَّ امتداد رقعة الدولة الإسلامية في العصر العباسي، استوجب أن يكون هناك - في كل مصر - ورّاقين، كما هم في بغداد، عاصمة الخلافة، بغية القيام بالمهمات الثقافية لحالة العصر الناهضة، وهو ما كان فعلاً، حيث انتشر الورّاقون على امتدادات جغرافية الدولة العباسية، وشكلوا نواتاة أولية، حال وصولهم، حتى توسعت هذه النواتاة وأصبحت أسواقاً للوراقة تضاهي أسواق بغداد، لا سيما في الأندلس، حيث وجود أسواق للوراقة في إشبيلية، تغري ورّاقي بغداد، وترغبهم بالمجيء إليها، وهو ما حدث فعلاً، إذ رحل من بغداد أكثر من ورّاق، ليقيم هناك ويفتح دكان وراقة - مثل - ظِفر البغداي وغيره، وعلى هذا المنوال الحضاري، وجدت عواصم تلك الأمصار الإسلامية ما يلبي حاجتها من الورّاقين، ووجد لهم في كل مصر سوق خاص بالوراقة.

وفي هذا العمل الموسوعي، سلطنا الضوء على حركة الورّاقين الذين رحلوا من بغداد، أو قدموا إليها من تلك الأمصار، وتعلموا فن الوراقة وعادوا، بعد اكتسابهم الخبرة المهنية في سوق الورّاقين ببغداد، وقد ذكرنا كل هؤلاء الورّاقين - بالتفصيل، وكل حسب مِصره - ولذلك جاءت فصول هذا الجزء، محصورة في باب واحد، ومقدارها خمسة فصول، على النحو التالي:

الفصل الأول: ورّاقو بلاد الشام.

حيث أن هؤلاء لهم باع طويل في أمور النسخ والخط وعلوم الحديث، ولهم تاريخ يمتد بهم إلى الدولة الأموية، وهم بهذا الاعتبار، يعتبرون المنافس الأقوى للورّاقين البغداديين، وكان فيهم جملة من علماء الحديث، وكتّاب السير والتواريخ، فكانوا يقدمون من دمشق أو غيرها، ويشتغلوا بفن الوراقة، ثم يعودون إلى بلادهم، وحين الوصول يشرعون بممارسة المهن الوراقية.

الفصل الثاني: وراقو بلاد مصر.

وهؤلاء فئة منتخبة من العلماء ورجال الأدب واللغة، قسم منهم جاء من الفسطاط أو غيرها من المدن، وتعلم فيه فن التوريق وعاد، أو استصحب معه مجموعة ورّاقين بغداديين، لا سيما بعد قيام الخلافة الفاطمية، وبناء مدينة القاهرة، حيث كان هناك سوقاً للورّاقين، يضاهي وينافس سوق بغداد، وقد لعب التنافس السياسي بين الخلافتين - الفاطمية والعباسية، دوراً إيجابياً ومشجعاً، ليس فقط في جانب الوراقة وحسب، بل في كافة مناحي الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وبهذا الصدد يوقفنا مؤرخ البلاد المصرية الشهير (المقريزي ت 854هـ/ 1441م) بكتابة «**المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار**» على مكتبات الخلفاء الفاطميين الهائلة، والتي يفرد لها فصولاً في «**خططه**».

الفصل الثالث: وراقو بلاد الأندلس.

وهؤلاء كزملائهم المصريين وأهل بلاد الشام، حيث كانت الخلافة الأموية في الأندلس تشجع الوفود إليها، وتكرّم من يصلها، لتنافس حكومة بغداد على كافة الأصعدة، لذلك لقي الورّاقون الوافدون إليها، وكذلك العلماء والأدباء والفنانين، الترحيب العالي، وتقدير المنزلة، لكل وافد، ولذلك انتشرت فيها أسواق للوراقة في أكثر من مدينة، كمالقة، وطليطة، واشبيلية، وقرطبة، ذات الصيت العالي بالكتب والمكتبات وأسواق الوراقة.

الفصل الرابع: وراقو بلاد فارس.

وهؤلاء كانوا الأكثر استفادة من علوم بغداد قاطبة، وخرج منهم علماء كبار، وطاب لهم المسكن والإقامة في بغداد، ثم رحلوا عنها، وكل منهم قد أتقن مهنة الوراقة، وصار يعتاش منها، ويفتح حانوتاً لها، وهم بين جيئة وذهابا إلى بغداد وبلاد فارس، حيث كانت أرض هؤلاء امتداداً طبيعياً - جغرافياً وسياسياً - خاضع للخلافة العباسية، وقد أبدعوا إبداعات كثيرة في مختلف العلوم العربية والإسلامية.

كذلك يتضمن هذا الجزء - من الموسوعة - كشافات عامة للمدن والأسماء وقائمة كبيرة للمصادر والمراجع المعتمدة في إنجاز هذه الموسوعة، بغية اكتمال البحث الأكاديمي وفق شرائطه المطلوبة علمياً في مثل هذه الأبحاث التراثية، مضافاً إليها «نماذج» من خطوط الوراقين والخطاطين، مكتوبة بأقلامهم، ومن أوثق المخطوطات العربية.

د. خير الله سعيد

أورتاو 3/ 12/ 2006

مدخل تاريخي - حضاري

عندما تستفزّك الحضارة، بسبقها على وجودك الحالي، فإنّك تشعر أن هناك «سبق» دلالي لمعرفة ماهيّة الحياة بكامل أكوانها، وقد تُدهش حين تقرأ أن الشرائع القديمة في الحضارة السومرية والبابلية قد ناقشت حقوق الإنسان وحرّيته، وثبّتت ذلك في قوانينها المكتوبة، فقد اكتشف المنقّبون الآثاريون «علماء الآركيولوجيا» في مدينة (تَلّو) العراقية «مخروط طيني» يتضمّن الإصلاح الإجتماعي الذي قام به الملك السومري «أوركاجينا» حوالي (2345 ق.م) نتيجة أن سكان وادي الرافدين قد اعتادوا منذ ذلك الحين على ممارسة حقوقهم وحرياتهم في حدود القانون، حيث كانوا يقفون بوجه كل ما يؤدي إلى الإنقاص من حريّتهم الإقتصادية والشخصية، وهذا الإدراك أدّى إلى توليد معارضة شديدة ضد الضرائب التي فرضت على السكان، واستطاعت هذه المعارضة - كما يخبر بها المؤرخ السومري الذي دوّن الإصلاحات - أن تجلب إلى الحكم رجلاً صالحاً يخاف الآلهة هو «أوركاجينا» الذي أعاد العَدل وأرجع حرية المواطنين وأزال الضرائب[1].

إنَّ هذا النص السومري المكتشف من إصلاحات أوركاجينا، يظهر لنا من خلال الترجمة ما يلي: «في ذلك اليوم سيطر الملاّح المشرف على الملاحة» على السُفن والمشرف على رعاة الحمير قد سيطرَ على الحمير، جامع الضرائب قد سيطر على مصادر السمك، وبيت الفقير صار بجوار بيت الثري الكبير[2].

إنَّ هذه الوثيقة - كما يقول عالم الآثار العراقي - د. فوزي رشيد: (تبرز كون محتوياتها تنادي بصراحة بأهمية حقوق الإنسان، وتأكيدها حرّيته، ورفضها لكل ما يناقض ذلك، ومن ناحية ثانية، أن كلمة «حرية» (ama - ar - gi) قد ظهرت لأوّل مرّة في التاريخ البشري في هذه الوثيقة العراقية)[3].

---

(1) أنظر د. فوزي رشيد «الشرائع العراقية القديمة» ص12. منوشرات وزارة الثقافة والإعلام - بغداد - 1979، ولاحظ النص السومري وترجمته إلى العربية في ص13 من المصدر أعلاه.

(2) الشرائع العراقية القديمة/ ص14. وسيجد القارىء - نص - هذه الوثيقة مع هذه المقدمة، للتوضيح والإستدلال والتوثيق، لا سيما وأن الوثيقة مكتشفة ومترجمة من قبل «البعثة الفرنسية في مدينة تلو».

(3) المصدر السابق/ ص14.

بمعنىً آخر، أن بلاداً تعي القانون وتضع دساتيرها مؤرّخة ومكتوبة لا شكَّ أنّها قد اعتنت بالتعليم وأعطته المكانة اللائقة في تلك الدساتير والقوانين والأعراف، وإلاّ كيف استطاعت أن تكتب تلك الملاحم والأساطير التاريخية، مثل «ملحمة كلكاش ومسلّه حمورابي» وغيرها الكثير.

إنَّ الآلهة السومرية أوجدت إلهاً للكتابة إسمه «نبو» كان هذا الإله، إلهاً للكتبة ومعضد للنبوغ والعلوم، إذ هو كاتب مردوخ وهو موضع ثقته، حيث يكتب لهُ ألواح القدر، ولَهُ التأثير الفعّال في هذه العملية، وقد إتَّخذ الريشة رمزاً للكتابة، منذ ذلك الوقت[1].

وهذا الإله «نبو» يكون حاضراً في أعياد رأس السنة، ويستمع إلى اعتراف الآلهة عن الأخطاء التي حدثت في السنة المنصرمة، وما سيكون عليه الحال في السنة القادمة، ضمن إجتماع خاص يضم بقية الآلهة[2].

من هنا يمكن القول، أن اهتمام أهل سومر وبابل بمسألة التعليم وخلقهم إله للتعليم والكتابة يشير إلى نُضج حضاري، سابق لغيره من الحضارات العالمية، فلقد كانت المدارس مرتبطة أشد الإرتباط بالمعبد في العصور السومرية الأولى، ثم أخذت تستقل شيئاً فشيئاً في الألف الثالث قبل الميلاد، أما في عهد حمورابي «سادس ملوك سلالة بابل الأولى» (1792 - 1750 ق.م) فقد إتخذت المدارس إتجاهاً خاصاً حيث بدأت تمارس نشاطها التعليمي بموافقة وامتياز من الدولة البابلية حيث كانت الدولة قد سمحت بأن يكون في كل مدينة كبيرة (بيت للألواح الطينية) على الأقل، وقد احتوت مدينة بابل على عدّة بيوت، تُدار من قبل كُتّاب مختصين في فرعٍ واحدٍ أو عدة فروع، وكان ناظر المدرسة يسمى (رب بيت الألواح الطينية) وهو المسؤولَ عن التدريب والإدارة[3].

لقد كانت صفوف الدراسة بسيطة وقليلة الآثاث، وكان النظام التدريسي صارماً، بحيث أن المعلم لا يستغني عن استعمال العصا في تأديب التلاميذ[4] رغم أن المدارس كانت خاصة، وكان أولياء الطلاب يدفعون أجوراً نقدية وهدايا خاصة للمدرسين[5] كما أن هناك بعض التلاميذ الأذكياء يدرسون على حساب الملك أو المعبد، وتشير د. براندت إلى

---

(1) أنظر - براندت - د. إيفلين كلينكل «رحلة إلى بابل القديمة» ص144، ترجمة د. زهدي الداوودي - منشورات دار الجليل - دمشق، ط1، 1984.

(2) المصدر السابق/ ص156.

(3) رحلة إلى بابل القديمة/ ص166.

(4) رحلة إلى بابل القديمة/ ص 166.

(5) المصدر نفسه.

أن إمكانات الدراسة للبنات كانت ضعيفة جداً، إلاّ أن هناك مدارس خاصة للبنات مهمتها تعليم القراءة والكتابة[1].

لقد كانت المدرسة السومرية حصيلة مباشرة لإبتكار نظام الكتابة بالخط المسماري والذي يُقرأ من اليسار إلى اليمين وموضع الفعل في الجملة السومرية والبابلية يكون دائماً في نهايتها[2] وقد أوجدت أولى نماذج الكتابة في مدينة أوروك «الوركاء» جنوب العراق حيث اكتشفت بين عامي 1902 - 1903 م عدد من الألواح المدرسية يعود تاريخها إلى نحو (2500 ق.م)[3] حيث كان يُطلق على اسم المدرسة باللغة السومرية (E - DUBBA) وتعني «بيت الألواح» ولعل هذه الكلمة - كما يعتقد د. علي الشوك - هل أصل كلمة «الأدب» بالعربية[4].

وكان نظام المدرسة السومرية، يتسلسل - إدارياً - من[5]:

1 - مدير المدرسة، وكان يُدعى (UMMIA) أي «خبير» أو «بروفيسور» ويلقّب أيضاً «أبو المدرسة».

2 - التلميذ: ويدعى - إبن المدرسة -.

3 - الأستاذ المساعد: ويدعى (الأخ الكبير) وكان من واجباته كتابة ألواح جديدة للتلاميذ، ليستنسخوها، وفحص نسخ التلاميذ والإستماع إلى مذكراتهم شفوياً.

4 - الرجل المسؤول عن الرسم.

5 - الرجل المسؤول عن اللغة السومرية.

6 - مراقب لكل صف.

7 - مسؤول - العصا - الخيزرانة، اي المسؤول عن حفظ النظام وكان التلاميذ «يداومون» من الصباح حتى المساء، ويتمتعون بعطل مقدارها ستة أيام في الشهر[6].

كما أن منهجه التعليم عند السومريين، كانت تخضع إلى منظور متقدم من حيث الرؤية المستقبلية، فقد كانت - المناهج الدراسية - مقسومة إلى فرعين أساسيين «علمي وأدبي

---

(1) كتابها أعلاه/ ص166 - 167.

(2) انظر. د. فوزي رشيد «الشرائع العراقية القديمة»/ ص9.

(3) د. علي الشوك - مدارس سومر - جريدة الحياة - ليوم 14/ 3/ 2006م.

(4) المرجع السابق.

(5) نفس المرجع.

(6) نفس المرجع.

إبداعي»[1]. والمدرسون يتابعون ذلك بدقة، ويحاسبون المقصرين، حيث تظهر لنا علامة «عصا وجسد» والتي هي أداة العقوبة في اللغة السومرية[2].

أمّا على الصعيد التعليمي الذاتي للتلميذ السومري، فإن برنامجه اليومي، يكاد يكون «نموذجياً» حيث أن التلميذ لديه «مدوّنة يومية» على النحو التالي: يوصي التلميذ أمّهُ بأن توقظه مبكراً، لئلا يضربه المعلم بالخيزرانة، وعند الصباح يحثُّ أمّهُ على إعداد غدائه بسرعة ليحمله معهُ إلى المدرسة، وفي المدرسة يقول التلميذ: «أتلو لوحي، وأتناول غدائي، ثم أحضّر لوحي الجديد، اكتُبُه، وأنتهي منه، ثم يعيّنون لي واجبي الشفهي، وبعد الظهر، يعيّنون لي واجبي المكتوب، وبعد إنتهاء الدوام أعود إلى البيت، وأجد أبي جالساً هناك، ثم أتلو عليه واجبي المكتوب، وما في لوحي، وبذلك أُدخل السرور إلى قلب والدي، وعندما أستيقظ مبكراً في الصباح أقول لأمي: (أعطيني غدائي أريد أن أذهب إلى المدرسة) ثم تعدّ لي أمي «الفتين» وأنطلق إلى المدرسة[3].

إنَّ «النص السومري» السابق، يكشف عن مدى جديّة التعليم في المرحلة الأولى للطفولة، حيث نشاهد - إسقاطات - التلميذ العفوية، التي تكشف مدى سروره بانضباطه، لأجل التعليم، من جهة، ومن جهة ثانية، يكشف النص، المسؤولية المتبادلة بين المؤسسة التعليمية «المدرسة» والمؤسسة الاجتماعية «العائلة» في سبب إنجاح الجُهد العلمي في نفسية التلميذ السومري، والنص المقبوس واضح الدلالة في هذا الجانب، ومن هنا ندرك الدور الإيجابي الذي لعبتهُ «المدرسة السومرية - الأدبّا -» والتي أنتجت الأدب التعليمي في تلك المراحل الغابرة من التاريخ، رغم أن المدرسة السومرية «الأدبّا» أصبحت مؤسسة تعليمية واضحة في الألف الثالث ق.م[4].

حيث كان غرضها الأساس أن تخرّج كتبة ومسّاحين ومختصّين في أمورٍ أخرى، تحتاجها الدولة لتمشية شؤونها الإدارية والزراعية، وتكشف المدوّنات التاريخية بعد أن تطورت المدرسة إلى نظام تعليمي متطوّر، إذ أصبحت في أواخر الألف الثانية وبداية الألف الثالثة ق.م. مركزاً أكاديمياً، حيث باتت فروع المعرفة تدرّس فيها الأمور العلمية مثل: الرياضيات، قواعد اللغة، الغِناء، الموسيقى، القانون، وكانت هذه الدراسات

(1) د. علي الشوك - المصدر السابق -.
(2) نفس المصدر.
(3) لقد أحسن د. علي الشوك، بنقل «عفوية تفكير الطالب» حيث أن «الحقيقة» في النص تدلل على مضامينها العميقة في مسألة تعاطي العلم السومري، في مرحلة الطفولة.
(4) د. علي الشوك، المصدر السابق.

تشتمل أيضاً على إستظهار «قوائم للمصطلحات الطبّية والنباتية والصيدلانية والجغرافية»، إلى جانب قوائم «المصنفات الأدبية»[1].

لقد أوضحت الدراسات التاريخية للعهد السومري، بأن معظم المؤلفات «الأدبية» كانت بصيغة نصوص دوّنها معلّمون وتلاميذ، لا سيما الأساطير والحكايات التعليمية[2]. لكن بعض النصوص المدرسية كانت عبارة عن «مقالات أدبية» تصف الحياة في المدرسة ونظامها، ومهمّاتها التعليمية، (تعاليم أخلاقية، نصائح أخلاقية، تعليمات عامة) حيث أنها كانت موجّهة إلى الطلاب مباشرة، وغالباً هذه النصوص تتخذ شكل حوار شعري، وبعضُها كانت نصوصاً من الحكمة الشعبية والحِكَمْ والأمثال، والنوادر، والحكايات الخرافية، والأقوال المأثورة وأغلب نصوص «الحكايات الخرافية» في المدارس السومرية كانت نصوصاً مدرسية، من هُنا نفهم قدسيّة المدرسة في العقل السومري، وما بعدها في العقل البابلي، والذي أخذ منهج السومريين في التعليم الأولي، والأكاديمي وبشكل أرفع، حتى لقد وصلت الأمور التعليمية في العهد البابلي القديم إلى إستخدام لغتين في نصّ واحد - سومري وبابلي -، في أمور القانون والدساتير، وبهذا الصدد، يشير دُ. فوزي رشيد[3] إلى وجود نصوص قانونية (يبدو أنها إستنساخات مدرسية مقتبسة لـ 12 مادة قانونية من شريعة «لم تصل إلينا بعد» وجدت مدوّنة باللغتين السومرية والبابلية، يعتقد أنها تمارين مدرسية للتدريب الطلاب على الترجمة من اللغة السومرية إلى البابلية وبالعكس).

إنَّ التطور التعليمي - الأكاديمي في بابل، تجاوز تعقيدات كل اللغة المسمارية رغم بقائها في المعابد للأغراض الدينية أو تدرس للمختصّين فقط في التراث، أو كلغة ثانية[4]. أمّا العلوم المختلفة والإختصاصات فيها فقد جُعلت من نصيب «المعاهد الأكاديمية» والتي تقع في المُدن الكبيرة مثل (أور، نُفرّ، بابل) فيما كانت المعابد تُدرّس طلابها علوم اللاهوت والفلك والتنجيم والسحر، وأما المعاهد المستقلة أو الخاضعة للقصر فكانت تدرّس علوماً أخرى، مثل (الرياضيات، الجيولوجيا، الطب)، وكانت «اللغة» تُدرّس كأساس لكل العلوم المذكورة، إذ يجري تحليل اللغة السومرية القديمة، الأمر الذي ساعد الأخلاف الساميين لمعرفة قواعدها، لا سيما في الألف الثالث ق.م، وبداية تركّزه في الألف الثاني ق.م. إذ تحوّلت من (2000 علامة إلى 500 علامة) فيما وصلت - هذه

(1) د. علي الشوك، المصدر السابق.
(2) المصدر نفسه.
(3) د. فوزي رشيد/ الشرائع العراقية القديمة: ص176.
(4) براندت - إيفلين كلينكل - رحلة إلى بابل القديمة/ ص167.

اللغة - في العهد الآشوري - البابلي الحديث، تستعمل فقط (350 - 400 علامة مسمارية)[1]، وهذه الخاصية - المقطعية للكتابة المسمارية أعطت الإمكانات ليس للتعبير عن اللغات السامية وحسب بل لكافة اللغات الأخرى في ذلك الزمن، كما تقول الباحثة الألمانية د. براندت[2].

إنَّ المراقب للتطور الحضاري للسومريين والبابليين، أنهم بدؤا بشكل «منهجي» يفكرون بالمخلوقات الكونيّة، وليس اعتباطاً أن يهتموا بتعليم السِحر، وليس عبثاً أن تأتي «أساطيرهم المِثيولوجية» وكأنها محكومة بالسحر. وهذا «الفكر الأولي بالوجود» قاده في مرحلة لاحقة للإهتمام «بالفلك» بمعنى آخر، إن عقليتهم بدأت تنظر صوب «الماورائية» باعتبار أنه جرى تجاوز لما هو مادي مألوف في حياتهم اليومية، لذلك عنى البابليون - وبخاصة في العهد السلوقي المتأخر (310 ق.م - 75م) عناية فائقة بعلم الفلك، حيث صارت عندهم «مؤسسة حكومية ضخمة تموّلها الدولة» تعمل على تسجيل الإرصادات الفلكية - يومياً - لمواقع الكواكب والشمس والقمر والنجوم، وباقي الأجرام السماوية التي تراها العين، وكان اللّوح الطيني، يحتوي على معلومات تتضمن «تاريخ الرصد ومكانه، وإسم الراصد، وإسم مساعدهُ، وإسم الكاتب الذي يُدّون المعلومات على اللّوح الطيني، وإسم الناسخ الذي ينقل المعلومات من اللّوح الأول إلى اللّوح النهائي، وإسم المُدقّق، الذي يتولى تدقيق النسخ والتأكّد من صحّته[3].

هذا الأمر - عند البابليين - يكشف عن مدى أهمية «النَسخ» وأهمية «التدقيق» لهذه الألواح المنسوخة، ويكشف بنفس الوقت مقدار الرقي المعرفي، والمسؤولية العلمية في المراقبة الكونية للأفلاك، والمراقبة الشخصية للمنقولات، كما أنّه يوضّح بجلاء، مدى

(1) براندت - إيفلين كلينكل - رحلة إلى بابل القديمة/ ص167.
(2) نفس المصدر أعلاه.
(3) راجع بهذا الصدد.

Negebauer, O. A: Astronomical Cuneiform Texts, Lund Humphreys, 3 Vols, London, 1995.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن «العالم للآركيولوجيات» Otto Negebauer أوتونوجربارو هو مؤرّخ للفلك القديم، وقد ترجم لأغلب علم الفلك البابلي في ثلاث مجلدات كبيرة، بالعنوان أعلاه، إضافة إلى كتبه الأخرى مثل: A History of Arvcint Mathematical Astronomy.

والذي يقع في ثلاثة مجلدات أيضاً - وراجع بهذا الصدد - مقالة د. محمد باسل الطائي: (توزيع الكون بين الغزالي وإبن رُشد) المنشورة في مجلة - آفاق الثقافة والتراث - دُبي، مركز جمعة الماجد، العدد م 46 - السنة 12 - تموز/ يوليو 2004، ص147، ص159.

التطور العلمي لتلك الحقبة الزمنية، وهذا يعني أن أهل بابل يؤثّرون على معنى السبق والتطور الحضاري لأرض الرافدين.

إنَّ هذه «الإلماعات الحضارية»، في التطور العلمي هي التي أغرت عُلماء الآثار لأن يتعقّبوا كل المدونات السومرية والبابلية والأكدية والأمورية والآراميّة، التي إمتدّت بالعمق الجغرافي إلى ما يقارب ستّة آلاف سنة ق.م، وإلى يومنا هذا، فيما إشتملت مساحتها الجغرافية من سهل شنعار[1] إلى جميع بلاد ما بين النهرين وصولاً إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، حيث وجدوا في هذه الحضارة ما حيّر العقول، فقد كشفت الأبحاث الآركيولوجية، لا سيما في منطقة «إيبلا» من (مكتبات ضخمة، بلغت حوالي 1500 صحيفة منقوشة تشتمل على أكثر من 100 مُعجَم، فخاري توضّح المقابلات السومرية لنحو 3000 كلمة، من لُغة إيبلا، كما تشتمل على سجلات رسميّة، تحتوي على «مراسيم» أصدرها الملوك، ومفاوضات تجارية، وقرارات ومراسلات دبلوماسية لممالك أخرى مثل (أُغاريت وماري، وسدوم وعمورة)[2].

وإزاء هذا التطور المعرفي الدقيق يقول الأستاذ (ف. إدوارد) الذي نقل نصوص شريعة حمورابي: «الظاهر من تاريخ البابليين ودراسة مدنيّتهم وتشريعهم ومعاملاتهم التجارية والسياسية، التي نقوشها على أوانيهم الفخارية أنهم كانوا أمّة كتابة ونصوص وصكوك، يتقيّدون بحرفية ما ورد فيها، شأن بعض الأمم الراقية في عصرنا»[3].

إنَّ الوعي بأهمية الكتابة عند السومريين والبابليين جعلهم لأن يتبنوا فكرة «التعليم العام والتعليم الخاص» إذ أن التعليم كان يحصر في مدارس بابل على المبادىء العامة للقراءة والكتابة والرياضيات والهندسة، وربما علم الفلك[4] ولكن في التعليم الخاص، يمكن للطالب أن يختص في الفرع الذي يريد، وعليه أن يبحث عن (معلّم معروف) يُعمق معلوماته في الفلك والرياضيّات والطب، بغية الحصول على «مهنة كاتب» في القصر الملكي أو في المعابد المرتبطة في القصر، وعلى هذا الطالب أن يكون بارعاً في الكتابة واللغة وذا علم باللغة السومرية، إذ أن الكاتب يعمل عادة عند «التجّار الكبار والكهنة ودوائر الدولة، وكل كاتب كان يطمح للعمل في القصر الملكي»[5].

---

(1) سهل شنعار، هي المنطقة الواقعة بين مصبّي دجلة والفرات قديماً، من جنوب بغداد إلى البصرة.

(2) انظر د. خضر الحموي: التفاعل القانوني في حوض البحر الأبيض المتوسط، دراسة مقارنة للقوانين منذ خمسة آلاف سنة ص76، طبعة خاصة، بيروت، 1996م.

(3) المصدر السابق/ ص88.

(4) انظر - د. براندت - رحلة إلى بابل القديمة/ ص172.

(5) المصدر السابق/ نفس المكان.

وقد تميّز نوع من الكتّاب بـ «كتابة الألواح الطينية» إذ كانوا بارعين جداً في عملهم، يستعملون الطين بدقة متناهية، سواء أكان ذلك لوحة لا يقل طولها عند نصف متر، أو كانت بحجم طابع البريد[1].

وهذه الدقّة في نسخ الألواح، جاءت نتيجة الإحتراف الكتابي، والآباء فيها يورّثونها للأبناء، ومن جيل إلى جيل، وكان هؤلاء الكتّاب على صنفين، الصنف الأول، والذي كان يشتغل في دوائر الدولة والمعابد وغيرها. والصنف الثاني هم «كتّاب العرائض»[2] الذين يتخذون أماكنهم في الساحات العامة والشوارع، لكتابة العقود والرسائل البسيطة، حيث كان هؤلاء بإمكانهم تذييل النص الذي يكتبونه بأسمائهم، وهم معروفون في طول البلاد وعرضها، وهم الأكثر شهرة من بقية الحرفيين الآخرين[3].

لقد إنتبه أهل بابل، لا سيما القيّمون على إدارة المعابد على أهمية توريق النصوص، لا سيما الأساطير المتعلقة بديانتهم، باعتبارها تحمل «صفة المقدّس» فكانت هذه المعابد تفتخر لوجود الألواح الطينية لما لها من أهمية دينية، وكانت تبعث بكتّابها الخاصين إلى بقية المجامع لنسخ ما تعتازه من وثائق وأمور أخرى[4]، والملاحظ على تلك المجامع الحاوية للرُقم الطينية، لا تحتوي على الميثيولوجيا والنصوص الأدبية وحسب، بل والشؤون الاقتصادية ومختلف أنواع الوثائق[5] فيما كان القصر الملكي يحتوي على آلاف الألواح الطينية المتعلّقة بمعاملات الإدارة وتنظيم شؤون البلاد، والأموال الصادرة والواردة وأنواع الضرائب وكان هناك أرشيفاً خاصاً للوثائق السياسية المهمة، كالمعاهدات وواجبات رُسل الملك في البلدان الأخرى.

وعندما تقدّمت الحضارة البابلية في عهد سرجون الأكدي (2236 - 2181 ق.م) إهتم هذا الملك أيما اهتمام بماضي بلاده وتاريخها فجمع كافة الألواح المتعلقة بذلك، فيما كان الملك الآشوري «آشوربانيبال» (686 - 626 ق.م) قد حوى مكتبة ضخمة، فيها مجاميع هائلة من النصوص الأدبية والدينية، وغيرها، وقدّرت محتويات تلك المكتبة على ما لا يقل عن (25000 لوح) من الطين، مرتبة بانتظام[6] الأمر الذي يفصح عن وجود عامِلين خاصّين فيها لترتيب شؤونها وإدارتها.

---

(1) نفس المصدر والمكان.
(2) يبدو أن هذا الطقس الفولكلوري لكتّاب العرائض قد سنّه أهل بابل للعالم.
(3) د. براندت - رحلة إلى بابل القديمة/ ص172.
(4) المصدر السابق.
(5) نفس المصدر السابق/ ص172 - 173.
(6) راجع. د. براندت، رحلة إلى بابل القديمة/ ص173.

كما أن الميثيولوجيا والملاحم تعود أصولها إلى العهود السومرية التي نُقلت «مشافهة» في البدء، عِبر مختلف الأجيال والقرون، الأمر الذي حدا بكهنة بابل - في نهاية الألف الثالث ق.م - أي في العهد البابلي القديم، لأن يباشروا مع كتّابهم بنسخ وتدوين الأساطير على الألواح الطينية[1].

وقد ظهرت في العهد البابلي القديم ميثيولوجيا راقية، كانت نواتها سومرية حيث يلاحظ صعوبة تحديد معالم الأدبين السومري والبابلي، ووضع الحدود بينهما، إذ أنهما قد تداخلا وأكملا بعضهما البعض، كما تقول الباحثة براندت[2] ومثالها في ذلك «ملحمة كلكاش» الخالدة.

لقد لعبت الميثيولوجيا البابلية دوراً كبيراً في التأثير النفساني على بقية ميثيولوجيا الشعوب الأخرى، وهذا الأمر يمكن ملاحظته ببساطة شديدة على الأساطير الإغريقية، حيث هناك التشابه الكبير بين إسطورتي «كلكاش وهرقل» واقتبست الشعوب المجاورة الحكايات والأساطير البابلية، بل أن البابليين هم أول من أوجد شخصية «الثعلب الماكر» المعروفة في قصص الحيوانات[3]، وفي أدب الحوار المتخاصم، يلاحظ تأثّر الشاعر الإغريقي «كاليما» بالحوار البابلي الجاري بين النخلة وشجرة التمر هندي، حيث يبدو ذلك واضحاً في حواره الذي أقامه بين شجرة اللومير والزيتون[4].

إنَّ الأدب البابلي، سحب ظلال تأثيره على كل آداب الحضارات القديمة حتى أنّه وجد طريقه الرحب إلى كتب التوراة والإنجيل، قبل أن يتم التنقيب عن الألواح الطينية بفترة طويلة، وتكفي الإشارة إلى «إسطورة الطوفان» البابلية وورودها كاملة في «الكتاب المقدّس» بعهديه القديم والجديد، وكليهما يحمل إسم بابل حتى يومنا هذا، الأمر الذي أعطى زخماً هائلاً للبشرية للبحث المستمر عن بابل وروعتها، إن إسم بابل سيبقى خالداً إلى الأبد، كما تقول الباحثة الألمانية عن حق برادنت[5].

إنَّ إستعراضنا لهذه الوقائع التاريخية لحضارة بابل، واستشهادنا بآراء باحثي الآركيولوجيا، هو للتدليل على أن أرض الرافدين، قد أنتجت فكراً معرفياً، ما زالت تأثيراته قائمة حتى اليوم، وهذا الأمر يؤكد أن الحاضن الجغرافي لهذه الحضارة سيبقى أبداً

---

(1) نفس المصدر السابق والمكان.

(2) نفسه.

(3) رحلة إلى بابل القديمة/ ص197.

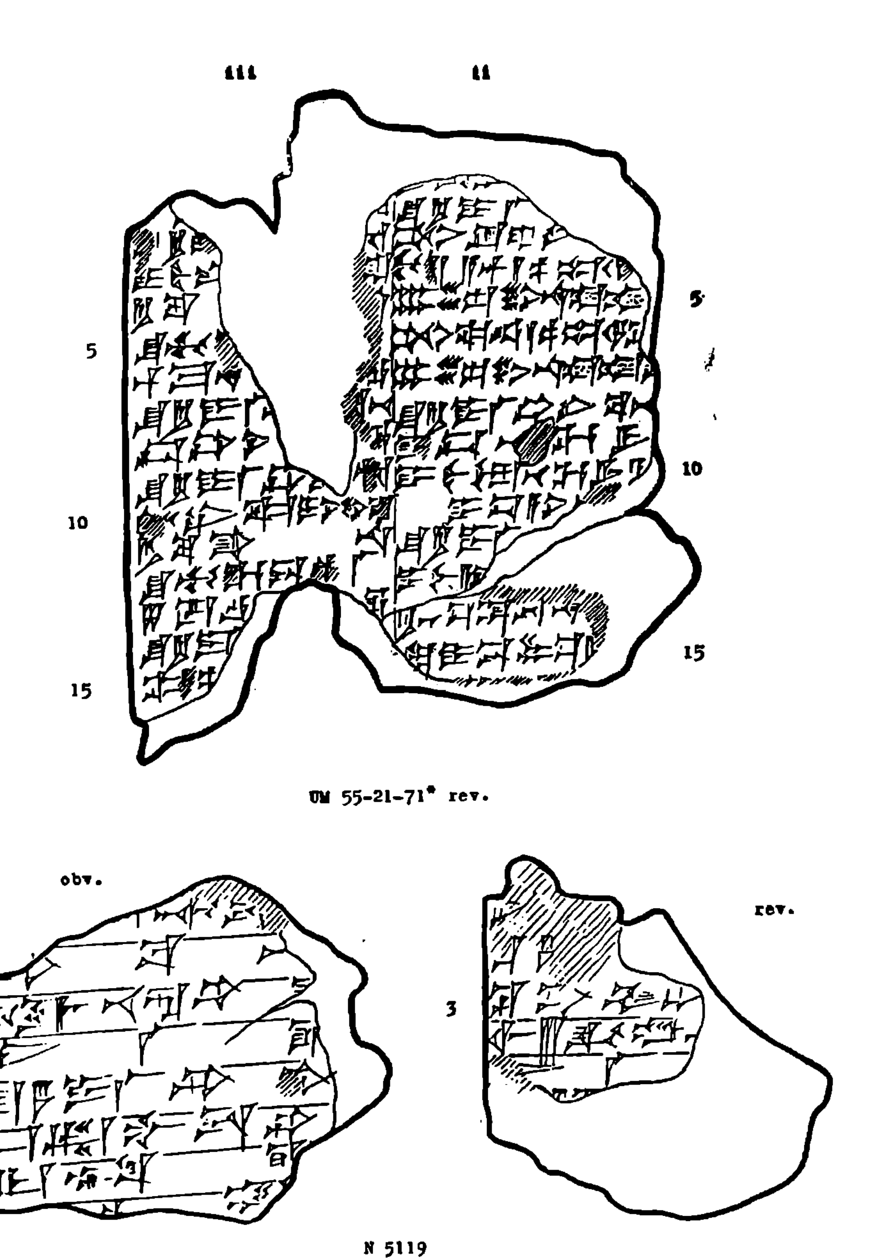
(4) المصدر السابق، ص198.

(5) نفس المصدر السابق.

حاملاً لبذور تلك الحضارة، في نفوس الأقوام المتعاقبة التي استوطنت هذه البقعة وأنبتت سلالاتها السامية، فليس غريباً أن ينبجس هذا الدفق الحضاري بقوة غير عادية في أرض الرافدين في العصر العباسي مستلهماً كل فنون المعرفة في صناعة الكتاب، ومطوّراً أساليب التدوين والإستنساخ بشكل لا مثيل له، من الدقّة والحرفيّة، الأمر الذي يعيد الكرّة التاريخية الحضارية لبلاد الرافدين في التأثير على آداب وثقافات العالم الذي كان يجاور أرض السواد.

UGARIT	LATIN	ARABIC	UGARIT	LATIN	ARABIC	UGARIT	LATIN	ARABIC
𐎀	A	ا	𐎉	t	ط	𐎒	S	س
𐎁	B	ب	𐎊	Y	ي	𐎓	ʼ =	ع
𐎂	G	ج	𐎋	K	ك	𐎔	p=f	ف
𐎃	h	خ	𐎌	š	ش	𐎕	s =	ص
𐎄	D	د	𐎍	L	ل	𐎖	Q	ق
𐎅	H	ه	𐎎	M	م	𐎗	R	ر
𐎆	W	و	𐎏	d	ذ	𐎘	t =	ث
𐎇	Z	ز	𐎐	N	ن	𐎙	g =	غ
𐎈	h	ح	𐎑	z	ظ	𐎚	T	ت
𐎜	U	ۏ	𐎝	(s)	(س)	𐎛	I	!

الابجدية السومرية - البابلية - العربية



استنساخ يدوي للرقيم الطيني الذي ظهر في تنقيبات البعثة الامريكية في نفر عام 49 - 1950. وهو يحتوي على مواد قانونية مدونة باللغة السومرية ولا يمكن نسبتها حالياً إلى شريعة لبت عشتار بصورة نهائية.

šum-ma sinništu lu-ú aššat at awīli

رجل زوجة لو (كانت) امرأة اذا

lu-ú mārat awīli ši-il-la-ta

الكفر رجل ابنة او

taq-ti-bi lu-ú mi-qí-it pi-e

← تفاهة → أو قالت

ta-ar-ti-i-ši sinništu ši-i-it

هذه المرأة تفوهت

a-na-an-ša ta-na-áš-ši a-na mu-ti-ša

زوجها الى تتحمل عقوبتها

māri-ša mārti-ša la-a i-qar-ri-i-bu

تقترب لا بناتها اولادها

المادة الثانية من مواد اللوح رقم (1) من فترة العصر الآشوري الوسيط.

šum-ma sinništu qa-ta a-na awīlī
ta-ta-bal

مدت رجل الى يد امرأة اذا

ub-ta-e-ru-ú- ši

ها   و وجهت التهمة ضد (ها)

30 manû anâku ta-ad-dan

تدفع (كغرامة) رصاص منا ثلاثين

20 i-na ^iṣ^ âru i-maḫ-ḫu-ṣu-ši

يضربونها   الجلدة (=عصى) بـ   ٢٠.

المادة السابعة من مواد اللوح الأول من قوانين العصر الآشوري الوسيط.

الباب الأول

الفصل الأول

تمهيد تاريخي عن بغداد

ما إن انتصرت الدعوة العباسية في العراق سنة 132هـ[1] حتى استقرت حكومة أبي العباس السفاح بالكوفة، متخذة منها عاصمة لها على باقي الأمصار، على اعتبار أنها القلعة الأولى لبدء دعوتهم إلى جانب خراسان.

ثمة أمر هام جاءت به الدولة العباسية، في بادىء أمرها، ألا وهو، وجود جيش نظامي. وهذه المسألة هامة وجديدة على الصعيد الإداري والسياسي، في تطور الدولة الإسلامية، وشكل هذا الجيش البديل الأقوى والأثبت، في قوام الدولة، من الجند المقاتلين، الذين ترسلهم القبائل، وكان العباسيون قد خالطوا أقواماً أخرى، وخصوصاً الفرس، الذين عرفوا بحسن الإدارة والتنظيم في الدولة الساسانية وهذا الأمر أحدث تلاقحاً فكرياً بين ثقافتين، (فارسية وعربية)، وهو ما برز فعلاً على الصعيد السياسي والاجتماعي والأدبي، فآل ساسان، والبرامكة، وآل سهل، عائلات فارسية معروفة، كان لها نفوذها وحضورها في الدولة العباسية، منذ بداياتها، وظل هذا الحضور قائماً حتى بعد نكبة البرامكة أيام الرشيد سنة 187هـ[2]. كانت فكرة إيجاد مركز للخلافة العباسية، قائمة في أذهان الخلفاء العباسيين منذ قيام الدعوة العباسية، وحتى مسألة قيام المركز في الكوفة والأنبار، كان على مضض من قبل السفاح فقد وردت على لسان أبيه محمد بن علي أنه أشاد بفضل خراسان على أساس ولائها السياسي لهم واصفاً البصرة بأنها عثمانية تدين (بالكف عن القتال)، واعتبر الجزيرة الفراتية حرورية مارقة، وأعراباً كأعلاج،, وواصماً مكة والمدينة بأنهما قد غلب عليهما (أبو بكر وعمر)، أي أنهما تتمسكان بذكرى

(1) ابن الأثير - الكامل في التاريخ 5/ 408 وما بعدها.

(2) راجع عن البرامكة - دائرة المعارف الإسلامية 3/ 492 - 498 - ترجمة أحمد الشنتاوي وجماعته.

الراشدين، وأما الكوفة فقد غلب عليها حب (علي وآله)[1]. ومن هذا المنظور، تكون فكرة إيجاد البقعة البديل عن الأنبار وغيرها قائمة أصلاً عند خلفاء بني العباس الأوائل، لذلك عندما جاء المنصور للخلافة سنة 136هـ[2] كان همّه الأول إيجاد عاصمة له، تكون مركزاً بعيداً عن العصبيات المناوئة لهم، وبنفس الوقت تكون لهم السيطرة فيها على كل الأقاليم الخاضعة لدولتهم، إضافة إلى وجود عامل طبيعي يساعدهم في تسيير أمورهم الاقتصادية/ الزراعية/ التجارية، وقد كان المنصور قد جال الأرض، فبلغ طنجة، وأقام بالبصرة، ودخلها غير مرة، ووصل إلى أصبهان، وكان يحج ويجاور مكة، ويدخل الكوفة، ويقيم فيها، وجال في بلدان الجزيرة، وديار ربيعة ومضر، وكان مع أبيه وعمومته في الشراة، ومع هذا كان طالباً للأدب والعلوم، محباً للسياسة، بعيد الهمة، جيد الرأي والتدبير، وكان مقداماً على أجل الأمور دون تردد، كتوماً لأمره، لا يطلع أحداً على سريرته، وقد أجاد ابن هرمة في وصفه[3]:

إذا ما أراد الأمر ناجى ضميره فناجى ضميرا غير مختلف العقل
ولم يشرك الأدنين في جل أمره إذا انتفضت بالأضعفين قوى الحبل

ويشير ابن الفقيه في عبارة دقيقة إلى خبرة وحزم المنصور، وطول أناته وبعد نظره، إضافة إلى جانب سياسي مهم في بناء مدينة بغداد فيقول[4]:

«فبهذا الحزم، وهذه التجربة، وبُعد هذه الهمة، والأسفار الكثيرة، ومشاهدة البلدان البعيدة، رأى أن يختار هذا الموضع مدينة ومنزلاً ومستقراً، هذا وخراسان تتمخض، وفي أكناف الشام جماعة من بني أمية، يحاولون طلب الملك، وبالحرمين طالبيون يرون أنهم أحق الناس بالملك».

وثمة مسألة أخرى كانت قائمة في ذهن المنصور/ حسبما نعتقد/ هي أن توسط الموقع لإقليم العراق، سيساعد على الإشراف على بقية الأقاليم لإدارتها جيداً وقمع أي تحرك فيها، قبل استفحاله، وقد تمكن المنصور من ملاحقة عبد الجبار بن عبد الرحمن في

(1) د. عبد العزيز الدوري - مقدمة في التاريخ الاقتصادي/ ص55 - منشورات دار الطليعة - ط2، بيروت 1978م.
(2) انظر - ابن الفقيه الهمداني/ بغداد مدينة السلام/ ص88 وما بعدها - تحقيق د. صالح أحمد العلي - ط2، منشورات وزارة الإعلام العراقية بغداد. وراجع الزركلي - الأعلام 4/ 117 - ط 5 - دار العلم للملايين بيروت 1980م.
(3) ابن الفقيه الهمداني/ بغداد مدينة السلام/ ص88.
(4) بغداد مدينة السلام/ ص88.

خراسان حتى أخذ أسيراً، ومحمد النفس الزكية، حتى بلغ مراده، كما يقول ابن الفقيه[1]. كما أمكنه أن يوجه المهدي إلى الري وطبرستان وجرجان، وأمكن المهدي من توجه الهادي إلى جرجان، والرشيد إلى صائفه الروم، وأن يمضي الرشيد بنفسه يريد سمرقند، وأن يوجه الأمين علي بن عيسى بن ماهان إلى خراسان، وأن يوجه المأمون، عبد الله بن طاهر إلى مصر، ويشرف على بابك بالجبال، وأن يفتح طبرستان وعمورية، ولولا توسط بغداد، لكان الأمر أعسر، والطلب أبعد والأخبار أبطأ.

ومن هنا تتوضح الأهمية الاستراتيجية لهذا الموقع الجغرافي لبغداد، التي لم تكن مدينة في الماضي إنما قرية من قرى طسوج بادوريّا، لم يكن فيها إلا دير للنصارى النسطورية، عُرف في العصر الإسلامي بالدير العتيق[2].

وقد اختار المنصور، موضع بغداد، بعد اختبار شخصي للمكان ذاته، حدد فيه بعض المعالم التي تصلح لاقامته وإقامة جنده والناس من حوله. قال المنصور لبعض أصحابه: أريد موضعاً ترتفق به الرعية ويوافقها، ولا تغلو عليها فيه الأسعار، ولا تشتد فيه المؤونة، فإني إن أقمت في موضع لا يُجلب إليه، في البر والبحر، غلت الأسعار، وقلت المادة واشتدت المؤونة وشقّ ذلك على الناس، وقد مررت في طريقي، بموضع قد اجتمعت فيه هذه الخصال، فأنا راجع إليه، وبايت فيه، فإن اجتمع لي ما أريد من طيب الليل، فهو موافق لما أريده لي وللناس. قال: فأتى موضع بغداد[3]. وبعد أن تم الاختيار، وجه المنصور في حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة، فأحضروا، وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة، فجمعهم وتقدم إليهم أن يشرفوا على البناء، وكان فيمن أُحضر الحجاج بن أرطأة، ثم أمر بخط المدينة وحفر الأساسات، وضرب اللِّبن، وطبخ الآجر، فبدىء بذلك سنة 145هـ[4] وتم الفراغ من بناء (مدينة السلام) سنة 146هـ، فيما أتم بناء السور والفراغ من الخندق وإحكام جميع أمر المدينة سنة 149هـ، وتحول إليها المنصور من الهاشمية 146هـ، وأرّخ إبن الفقيه ذلك بالعربية/ الهجرية، وبالفارسية وبالشمسية قائلاً[5]:

(1) المصدر السابق.
(2) اليعقوبي/ البلدان - ص235، طبعة ليدن سنة 1891، وص3 - 20 من طبعة النجف العراقية، ط3، 1377هـ/ 1957م.
(3) ابن الفقيه/ ص30 - 31.
(4) ابن الفقيه/ ص32.
(5) بغداد مدينة السلام/ ص39 - 41.

«وكان تحوّل المنصور من الهاشمية إلى بغداد، والإبتداء ببنائها سنة خمس واربعين ومائة وذلك في اليوم الثامن عشر من مردادماه سنة إحدى وثلاثين ومائة ليزدجر/ فارسي/ وآخر يوم من تموز سنة ألف وثلاثمائة وسبعين للإسكندر، والشمس في الأسد ثماني درجات وعشر دقائق».

وفي سنة 153هـ نزل المهدي بن المنصور وولي العهد الرصافة، فاختط قصره بها، وحفر نهراً يأخذ من النهروان، سماه نهر المهدي، في الجانب الشرقي، وأقطع المنصور أخوته وقوّاده، مثلما فعل في الجانب الغربي/ الكرخ/ وهو جانب مدينته، وقسمت القطائع في هذا الجانب/ الرصافة/ وتنافس الناس من النزول على المهدي لمحبتهم له ولاتساعه عليهم بالأموال والعطايا. كما أنَّ - الرصافة - كانت أوسع الجانبين أرضاً ولأن الناس سبقوا إلى الجانب الغربي، وهو جزيرة بين دجلة والفرات، فبنوا فيه وصارت فيه الأسواق والتجارات، ولما ابتدئ البناء في الجانب الشرقي، امتنع على من أراد سعة البناء[1].

لم تكن فكرة إنشاء بغداد فكرة عابرة قطعاً خطرت في بال المنصور، بل كانت رؤية استراتيجية، فلقد كان يرمي إلى أبعاد سياسية، محصلتها إقامة تحالفات جديدة بين أجناس مختلفة، كما يقول أحد المعاصرين[2]. فقد كان المجتمع الإسلامي يخرج من التنظيم القبلي إلى التنظيم السكني باتجاه قيام مجتمع متماسك، تتوفر فيه شروط الاستقرار السياسي والاجتماعي.

فلقد سكن بغداد مختلف الاجناس من العرب والعجم، فيهم المروزية - من مرو، والخراسانية، والكرمانية وأهل فارياب، والأفارقة والديلم والبغيِّين[3] وقد كان للموالي حظ كبير في أيام العباسيين، بعد أن كانت لهم مشاركة فعلية في الثورة العباسية، وقد استهوتهم سياسة العباسيين الإسلامية المنفتحة على غير العرب[4]. إن هذا التمازج أمر له مردوده على بغداد خاصة، ومدن العراق عامة، وبالأعم على باقي أقاليم الدولة العباسية، إذ كان من شأنه اكتساب عادات وتقاليد جديدة متطورة بعض الشيء، ونازعة في أغلبها نحو التمدن، وهو ما سوف يظهر بشكل جلي وواضح على الحياة الاجتماعية والثقافية،

(1) اليعقوبي/ البلدان/ ص251.
(2) فهمي عبد الرزاق سعد/ العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ ص15، منشورات الأهلية للتوزيع - بيروت 1983م.
(3) اليعوبي/ البلدان/ ص248 - 250.
(4) مؤلف مجهول/ أخبار الدولة العباسية - تحقيق د. عبد العزيز الدوري والمطلبي/ ص287 وما بعدها بيروت 1971م.

لعامة أهل بغداد، ووسطها الثقافي من علماء وكتّاب، وورّاقين، وخازني الدور والمكتبات والظّراف والمحدثين وغيرهم.

ينقسم تاريخ بغداد، الذي بدأ بالمنصور إلى عصرين عظيمين، الأول عصر بني العباس، والذي دام حوالي خمسمائة سنة[1]، كانت فيه بغداد قصبة دولة إسلامية عظيمة - ما خلا خمسة وخمسين عاماً منها - وغدت مركز الحياة العقلية، وأهم مركز تجاري في الشرق، وكسفت شمسها حواضر الولايات في العالم الإسلامي، بل إنها احتلت أرفع مكان في العالم المتمدن، آنذاك بفضل اتساعها وازدهارها.

أما العصر الثاني، فبدأ بسقوط الخلافة العباسية على يد المغول سنة 656هـ وحتى آننا الحاضر. وبلغت المدينة أزهى حضورها في القرن الذي أعقب وفاة المنصور، أو بوجه أدق في عهد خلفائه الخمسة من المهدي إلى المأمون، أي من عام 159هـ - 218هـ/ 775 - 833م. وقد أثّرت فيها سلباً الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، حيث حوصرت لأول مرة في تاريخها، ودام هذا الحصار أربعة عشر شهراً، وامتلأ زمن الحصار بالدسائس والغدر على اختلاف أنواعه، ورزح الجانب الغربي/ الكرخ/ تحت المجانيق، وتخرّب الجزء الأكبر من نصفها الشمالي المعروف بـ/ الحربية/ ووجد الخليفة - الأمين - نفسه آخر الأمر منعزلاً في قصر/ الخلد/ على شاطىء دجلة، وما لبث أن وقع في الأسر، وهو يحاول الفرار، وقتل في أوائل عام 198هـ/ 813م وبموته رفع الحصار عن بغداد[2].

ثم نقل المعتصم العاصمة العباسية إلى (سُر مّن رأى) - سامراء - فراراً بجنوده الأتراك من أهل بغداد سنة 221هـ/ 836م، - إلا أن بغداد لم تفقد كل بريقها، وفي هذا العهد أي العهد السامرائي حدث الحصار الثاني لبغداد، والذي استمر طوال عام 251هـ/ 865م تقريباً. حين فر الخليفة المستعين إلى بغداد بالقسم الأصغر من جنده، وبقي القسم الأكبر من جنده الأتراك في سامراء، وبايعوا المعتز بن عم المستعين بالخلافة، وحاصر المعتز بغداد، وقد استبسل أهل بغداد في الدفاع عنها، وعلى رأس هؤلاء المدافعين كان العيّارون، فقد تمكنوا من الصمود أمام الجيش النظامي من الأتراك، وتمكنوا مع من انضم إليهم من المبيضة والغوغاء من إعطاب مجانيق الترك، وتمكنوا من إلحاق الهزائم بالاتراك، بعد أن نصبوا لهم الكمائن، حتى قتلوا منهم الكثير، وشحنوا رؤوس القتلى إلى بغداد بالشبارات، يقول الطبري[3]: «إنَّ محمد بن عبد الله الطاهري/ قائد شرطة بغداد «

(1) دائرة المعارف الإسلامية 4/ 8 - مادة - بغداد.

(2) المرجع السابق 4/ 9.

(3) تاريخ الطبري - 9/ 282 وما بعدها - ضمن أحداث سنة 251 - تحقيق أبو الفضل ابراهيم - دار المعارف بمصر 1968م.

أصدر سلسلة من الإجراءات العسكرية، وأمر أن يقبل في الجيش من يرغب من العيارين، وأن يجعل عليهم العرفاء، وتُصنع لهم التراس من البواري[1] المقيَّرة، وأن يُعمل لهم مخال تملأ بالحجارة، كما أصدر أمراً بإعطاء خمسين درهماً لكل من جاء برأس تركي أو مغربي، وقد كان أكثر ذلك العمل للمبيضة[2] والعيارين.

هذا الدفاع عن بغداد، فيه أكثر من مرمى/ليس الآن مجال بحثه[3] في أعلاها، حس المواطن البغدادي بوجوده وشخصيته من خلال دفاعه عن مدينته، صحيح أنه بالمحصلة يدافع ضمناً عن السلطة، لكن الدفاع عن المدينة هو الأوضح، وذلك ما كشفته الأحداث اللاحقة، وثمة أمر هام في الاستبسال، هو أنه مكن العامة من ابتكار أشكال وأساليب متتالية لم تخطر ببال، فقد استطاع العيارون أن يثبتوا موقفاً ميّزهم عن بقية فئات المجتمع البغدادي حين دافعوا بالحجارة[4]، وقد شمل الدفاع هذا مختلف فئات الناس، ولكن صورة العيارين هي الأبقى والأثبت من بقية الصور، حتى كان منهم الغلام الذي لم يبلغ الحلم، كما يقول الطبري[5] فقد كانت معه المخلاة وفيها الحجر يرمي بها الأتراك، غزاة مدينته فلا يُخطىء وجوههم.

إنَّ هذا الإستبسال المقاوم، لم تكن سلطة المستعين في مستواه، لأنها تقاتل متفرجة، ومن على شرفات القصور، فقد ظهر فيها حبل التراجع واضحاً، وبدأت المفاوضات والمساومات مع أصحاب المعتز فثارت العامة بمحمد بن عبد الله بن طاهر، وسبوه وشتموه، وطوقوا داره التي فيها المستعين، عدة مرات، وطلبوا إلى الخليفة الانتقال عنها، وجهزوا الزواريق بالنفاطين، واستعدوا لضرب محمد بن عبد الله بن طاهر، وحاولوا منع المستعين من التنازل، إلا أنه كان قد اندحر من الداخل، واضطر إلى التسليم بشروط مهينة، وتنازل عن كل حق له في الخلافة، لكن العيارين لم تهدأ حركاتهم بعد هذا الحدث، فقد اغتنموا فرصة شغب الجند من أجل الحصول على رواتبهم، فانضموا إليهم، ومنعوا الخطبة للمعتز، وتحرك عامة الجانب الغربي، وانتهبوا مراكز الإدارة، فأمر ابن

(1) البواري، جمع بارية، والبارية حصير منسوج من القصب، مشهور في العراق، لا سيما الجنوب منه.
(2) المبيضة: الذين يرفعون شعاراً أبيض/علم/عكس الشعار العباسي/الأسود/ والمقصود بهم هنا، جميع الذين يخلعون السلطة العباسية ويقاتلون ضدها - أنظر العامة في بغداد ص301 - هامش رقم 18.
(3) لنا دراسة/قيد الانجاز/تحمل عنوان (لصوص بغداد في العصر العباسي) سوف نتطرق فيها بالتحليل إلى هذا الموقف.
(4) لنبارك ثورة الحجارة وأبطالها في الأرض المحتلة الآن.
(5) تاريخ الطبري/الجزء التاسع - أحداث سنة 251هـ.

طاهر بإحراق الدكاكين التي على باب الجسر، تأديباً لأصحابها من التجار والعامة الذين ناصروا الجنود[1].

هذه الأحداث وغيرها في مختلف العصور العباسية، أثبتت بأنه أصبح للعامة شأن في تقرير أمور الدولة والحكم، بعد أن مسها سوط التسلط التركي، الأمر الذي مال بميزانه إلى جانب الخلافة الشرعية، وهذا الموقف تضامن فيه عامة سامراء مع عامة بغداد، مما أخاف رجال الجيش من أهل بغداد، فتقرب الخليفة المعتز منهم، بعد تسلمه زمام الخلافة فيها، وهذا الرجل ظل قائماً مدة طويلة، وقد كشف لنا تاريخ التطور الاجتماعي والسياسي لبغداد، أن الحساسية السياسية، من لدن العامة ضد الخلافة العباسية - التركية كانت قابلة للانفجار في أية لحظة، وقد كان الجمهور نقطة التفجير في الأغلب، ففي سنة 269هـ وَثبت العامة بالجند، بعد رمي أحدهم إمرأة بغدادية بسهم، فاستعدي السلطان على رئيس الجندي، فامتنع من تأديبه، بل قام أصحاب الجندي برمي الناس بالسهام، فقتلوا وجرحوا جماعة، فردّت العامة بأن قتلت جنديين، ونهبت دار القائد ودوابه، ففرّ هارباً من بغداد[2]، وفي سنة 279هـ عاد المعتمد من سامراء إلى بغداد وجعلها حاضرة الدولة للمرة الثانية، تقرّباً لأهلها، ولكن ذلك لم يمنع من تفشي روح المعارضة عند البغداديين، ففي سنة 284هـ ثار أهل بغداد بالمعتضد، نتيجة انتصار الخليفة لخدمه، بعد أن صاح بهم الناس (يا عقيق صب ماء واطرح دقيق يا عاق يا طويل الساق)[3] وكانوا يلاحقونهم في الأزقة والشوارع، فاشتكوا للخليفة، فأمر بجماعة من العامة فضربوا بالسياط، مما كان له مردوده العكسي، فتظاهروا في المدينة. وفي سنة 289هـ توفي وصيف الخادم في السجن، وصُلبت جثته على جسر بغداد، فخرجت العامة، وعمدت إلى الجثة، وتماجنت بها، فقد خرج نحو مائة ألف شخص يحملون الجثة، ويصيحون حولها «لقد وجب علينا حق الأستاذ أبي علي وصيف الخادم لطول مجاورته لنا، وصبره لا يُبلي على هذه الخشبة» فلفوه في رداء بعضهم، وحملوه على أكتافهم، يرقصون ويغنون حولهم ويصيحون: «الأستاذ الأستاذ» فلما ضجروا من ذلك طرحوه في دجلة، فغرق في ذلك اليوم منهم قوم في دجلة[4].

---

(1) الطبري/ المكان السابق، والعامة في بغداد/ ص301.
(2) ابن الأثير - الكامل في التاريخ: 7/ 396.
(3) تعليقات البغداديين، إحدى الأساسيات في الفولكلور البغدادي، وهي ظريفة جداً.
(4) المسعودي/ مروج الذهب/ 5/ 171، طبعة الجامعة اللبنانية - بعناية شارل بيلا - بيروت 1974م.

الفصل الثاني

إزدهار بغداد

ما إنَّ استوطنت بغداد، بعد إكمال عمارتها، حتى بدأ العراقيون، من مختلف الجهات يتقاطرون عليها من كل صوب، وشكّل توافدهم هجرة متواصلة، للاستقرار في بغداد، حتى أن مؤرخها إبن الفقيه يحار في إحصاء عدد الوافدين عليها، يقول(1): «كثير مما لا نذكره ونحصيه، ولا نعلمه فنستوفيه فيما بين كل بلد وقراه، وكل قرية ونظائرها ممن لا يحصى عددهم، ولا يُعلم كنه عُددهم، إلا خالقهم، مستجيرين بمدينة السلام، فوجدوا محلاً لا تضيق بهم دياره، ولا يمتلي منهم أقطاره، ولا تغلو بكثرتهم أسعاره، ولا يتحاكم في أقواتهم تجّاره، ولا يعجز عن ميرتهم ممتاره (من الميرة)(2)، ولا يحس أهله بالواردين منهم إذا أتوا ولا الصادرين إذا مضوا».

هذا النص يكشف بجلاء تزايد الهجرة إلى بغداد، وتوسع رقعتها الجغرافية، واستقرار أسعارها/ وقتذاك/ ، وقد أورد ابن الفقيه رقماً تقريبياً إذ لم يكن مبالغاً فيه. أن بغداد استوعبت/ ستة وتسعون ألف ألف إنسان/ (3)، ويضيف قائلاً: ثم إذا أضفنا إليهم مثلهم في وقت من الزمان من المستجيرين بهم من أهل البصرة، والأبلّة، وكور دجلة، وسواد الأهواز، والنهروانات، والزواني وسقي جوخى، وكثير من أودية الفرات، اجتمع من ذلك تقريباً/ماية واثنان وتسعون ألف ألف إنسان/ ، وهذا العدد/ في ذلك الأوان/ ليس من اليسير تأمين غذائه ومعاشه، وقد بلغ عدد المنازل، اثني عشر ألف ألف منزل، وزاد عدد الحمّامات على مائتي ألف حمام(4).

---

(1) بغداد ميدنة السلام/ ص93.

(2) هكذا وردت في النص، ولا معنى لها في السياق.

(3) المصدر السابق/ ص99 - 100، وهذا الرقم مبالغ فيه حيث أنه يساوي 96 مليون ربما كان الصحيح 96 ألف. ونحن نعتقد بأن هذه الأرقام جرى عليها زيادة كلمة (ألف) لأن سكان العراق بأكمله لم يبلغوا هذا الرقم، ، وكذلك عدد المنازل والحمّامات.

(4) ذات المصدر السابق/ ص91.

وإزاء هذا التوسع العمراني والسكاني لمدينة بغداد، أصبح من الضروري أن يكون لها ظهير إقليمي زراعي، يمدها بما تحتاج إليه من المنتوجات الزراعية - والزراعة وقتذاك كانت اسلوباً رئيسياً في الانتاج، إلى جانب الصناعات الحرفية، فلقد عُرف أن أرض العراق اعتبرت ملكاً مشتركاً للأمة الإسلامية، ولو أنه وجد في العراق أنواع مختلفة من الملكية، حيث كانت شروط استغلال الأراضي تعتمد عادة على أشخاص أصحابها ومراكزهم، كما أن الأراضي كانت مسجلة في ديوان الخراج المركزي في بغداد، كما كانت مسجلة في الدواوين المحلية، كل أرض في منطقتها[1] وقد تطورت الزراعة فيما بعد، تطوراً ملحوظاً، يستدل عليه من خلال تطور عدد وأنواع المحاصيل الزراعية، ففي نادرة لطيفة يوردها إبن الفقيه يذكر[2] أن مهرويه باغيان السلطان، زَعم أنه يعرف بمدينة السلام نيفاً وسبعين صنفاً من التفاح، ثم عدّها، فتبسم أخوه شهريان، ثم قال: كذا وكذا، زيادة على ما قال أخوه بنحو أربعماية نوع وتسعة أصناف ثم يذكر جملة من الفواكه والخضار كثيرة منها، الأترج والنارنج، والزعفران والأقحوان، والفستق واللوز والزعرور والموز، والشاه بلوط والجوز والغبيراء، والجلوز والسدر، والحبة الخضراء، واللقاح والبندق، والبلوط، والمقل والبستان، والهليون والريباس، والفوة والمحروت، والاشترغاز والراس والأنجذان، والعضل والأسقيل، والداذي والبلسخية، والرزين والتمر والقطن.

وما إن أطل القرن الرابع الهجري برأسه على بغداد، حتى كانت هناك ملامح الاقطاع آخذة في التبلور والوضوح، وآسرة علاقات المجتمع وبنيته الطبقية في سياق نسيجها، ومن ثم أصبح الاقطاع أسلوباً رئيسياً للانتاج، تحدد على ضوئه البنية الاقتصادية وتطوراتها في حياة المجتمع العباسي، وقد لوحظ في ذلك القرن خمسة أصناف من الاقطاعات هي: 1 - الضياع السلطانية، 2 - الاقطاعات، 3 - أراضي الملك، 4 - أراضي الوقف، 5 - الأراضي المشاعة[3].

وفي الجانب الاقتصادي الثاني، والذي يعتمد عليه الاقتصاد العباسي إلى جانب

---

(1) القلقشندي/ صبح الأعشى في كتابه الأنشا - 14/ 124، طبعة القاهرة 1919 - 1922م - راجع كذلك د. عبد العزيز الدوري/ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري/ ص25 - مطبعة المعارف - بغداد 1367هـ/ 1948م.

(2) بغداد مدينة السلام/ ص70.

(3) راجع تفصيلات ذلك عند د. عبد العزيز الدوري/ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري/ ص25 وما بعدها.

الزراعة، وهو الاقتصاد المدني، فقد شهد هو الآخر تطوراً ملحوظاً، حيث توسعت التجارة، ونمت الحياة المدنية، وازدهرت المؤسسات المصرفية[1] الأمر الذي رفع مستوى المعيشة في المدن، بينما برز التباين الاجتماعي واضحاً من خلال مداخيل الأفراد، فقد ذكر مسكويه أن واردات بيت المال الخاصة (بالخليفة) للفترة من (269هـ - 320هـ) أي أكثر من ربع قرن كان (89,830,000 ديناراً)، صرف منها 17 مليوناً لأغراض رسمية، بينما صرف الباقي على نفقات البلاط، والتي بلغت (2,880,000 ديناراً) سنوياً، أي (240,000 دينار) شهرياً، كما ذكر مقادير رواتب موظفي الدولة في مختلف الشؤون[2].

كانت التجارة قد نشطت في (ق 3هـ) نتيجة قوة الدولة العباسية من جهة، ومن جهة ثانية كان الموقف التشريعي الإسلامي، لا يتعارض كثيراً مع التجارة والتجار، وتشير المصادر إلى أنه في نهاية (ق 3هـ) أخذت مجموعة ولو قليلة من الأبحاث الفقهية تعلن تبني الفقه للأوضاع الاقتصادية الجديدة، والتي سمحت بالتعامل بقوانين الشريعة، فوضع محمد بن الحسن الشيباني (ت 189هـ) كتاباً في المكاسب، وفيه اعتبر التجارة أحد النشاطات الاقتصادية المباحة. كما وضع كتاباً في «المخارج والحيل» الذي اعتبر دليلاً للتجار العراقيين، يساعدهم على تفهم أرحب لنظرة الإسلام إلى البيوع. كما عالج الشيباني العلاقات التجارية بين دار الإسلام ودار الحرب في كتابه (السير). وأخرج الفقه الجعفري التجارة من دائرة المحرمات، ورأى أحد المتصوفين أن على التاجر تعلم البيع والشراء والأخذ والعطاء، ومعاملة الناس في البيوع، ومعرفة أبواب الربا، ليعلم ذلك قبل الوقوع فيه[3].

كل هذه التطورات الاقتصادية والتشريعية، انعكست بشكل إيجابي على حياة الناس، وأحوالهم المعاشية، حتى غدت مسألة «المعاش» رخيصة جداً بالقياس إلى ما بعد تفكك الدولة العباسية وسقوطها إبان الغزو المغولي لبغداد سنة 656هـ.

يحكي صاحب «مصارع العشاق» أن فتى هوى جارية، ودفع كل ما يملكه وهو سبعماية دينار، لعله يحصل عليها، فلم يفلح ومات كمداً ووجداً[4] ويورد خبراً آخر يوضح

---

(1) يورد الدوري - جداول للأسعار ولمختلف الحاجيات والبضائع والمواد الزراعية وارتفاع المهور وغيرها - راجع ص239 - 244 من المرجع السابق.

(2) المرجع السابق/ ص249 - 266.

(3) راجع فصل التجارة في العامة في بغداد/ ص120 - 130.

(4) الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج/ مصارع العشاق/ ص5، ط1، مطبعة الجوائب - القسطنطينية 1301هـ.

الأبعاد الاقتصادية المتناقضة بين شخص وآخر، لكنها ترجح نسبة الرخاء كثيراً، يقول[1]:

«عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: حدثني إبراهيم بن ميمون قال: حججت في أيام الرشيد، فبينا أنا بمكة أجول في سككها، فإذا أنا بسوداء قائمة ساهية، فأنكرت حالها، ووقفت أنظر إليها، فمكثت كذلك ساعة ثم قالت:

أعمرو لماذا تجنبتني أخذت فؤادي فعذبتني
فلو كنت يا عمرو خبرتني أخذت حذاري فما نلتني

قال فدنوت منها وقلت: يا هذه من عمرو؟ فارتاعت من قولي وقالت: زوجي، ثم شرحت له ما كان بينهما من ود ومحبة، وأنه تركها ومضى إلى جدة لضيق حالٍ ألمّ به، فقال إبراهيم بن ميمون: أتحبين أن أجمع بينكما؟ قالت: فكيف لي بذلك؟ وظنّتني أهزأ بها، قال: فركبت راحلتي وتوجهت إلى جده، ووقفت في المرفى أتبصر من يعمل في السفن وأصوت: يا عمرو، يا عمرو، فإذا أنا به خارج من سفينته، وعلى عنقه (صُن) فعرفته بالصفة فقلت: «أعمرو علام تجنبتني» فقال: هيّه، هيّه، رأيتها وسمعته منها، ثم أطرق هنيهة، ثم اندفع يغنيه، فأخذته منه وقلت له: ألا ترجع. فقال: بأبي أنت وأمي ومن لي بذلك، ذلك والله أحب الأشياء إليّ، ولكن منع منه طلب المعاش، قلت: كم يكفيك كل سنة؟ قال: ثلاثمائة درهم، فأعطيته ثلاثة آلاف درهم وقلت: هذه لعشر سنين ورددته إليها وقلت له: إذا فنيت وقاربت الفناء، قدمت عليّ فسررتك وإلا وجهت إليك وكان ذلك أحب إليّ من حجّي. هذه الحوادث، تؤكد وجود التناقض في مداخيل الأفراد، كما أشرنا، ومن ناحية أخرى توضح البعد الإنساني وسموه أحياناً على البعد المادي «المالي» وكانت الحياة مليئة بمثل هذه المواقف والعِبر، وهي كثيرة. لقد إزدادت مدخولات الناس، بعد التوسع الاقتصادي التجاري، الذي شهدته بغداد، وراحت تلتفت إلى حياتها الخاصة، فبدأوا بالبيوت، وأخذوا يفكرون بتحسين هندسة بنائها وتهويتها لا سيما في أوقات الصيف القائظ، وعرفوا من عهد المنصور طرقاً للتبريد، فقد كان ينصب الخيش الغليظ على قبة، ثم يبلونها بالماء، فتُبرّد الجو، ثم اتخذت بعدها الشرائح، فاتخذها الناس[2].

إنَّ مسألة التطور الاقتصادي، إنعكست بتناقضاتها على التركيبة الطبقية في المجتمع البغدادي، أكثر من غيره، وبرزت بشكل واضح أبهاء الحكم العباسي ومظاهره الرسمية،

(1) المصدر السابق/ ص158 - 159.

(2) لطائف المعارف للثعالبي/ ص20 - طبعة البابي الحلبي - تحقيق إبراهيم الأبياري/ و آدم ميتز الحضارة الإسلامية في ق 4هـ، 2/ 205 طبعة القاهرة، ط3/ 1377هـ/ 1957م.

وصار التمايز الاجتماعي واضح القسمات، على أساس النسب والمال، ففي العصر العباسي الأول كان التفريق بين العربي والنبطي[1] قائماً، كما أن الفرق بين العرب والموالي لم تزل آثاره باقية لدى البعض، لا سيما وأن بعض المذاهب الفقهية، قد ساهمت، بشكل أو بآخر، ببقائه، فقد جاء عند مالك بن أنس، أنه إذا قيل للرجل من العرب «يانبطي» فإنه يُضرب الحد، ولم يجر ذلك الحكم على بقية الأقوام من غير العرب[2]. وأصبح من الظاهر والمألوف، الدخول على الخليفة، وفق ترتيب معين، يدخل فيه الرجال كل حسب مرتبته، وكان التميّز يجري بمستوى المعيشة، وكان التفريق يجري بين من نشأ في قصور الخلافة، وبين من نشأ بين العامة والبدو، كما كان التميّز قائماً في حقل الأخلاق، فالمعيار الأبوة والنعمة والعِرق والكنية[3].

وأدت التطورات الاجتماعية التي نتج عنها قيام طبقة واسعة من العمال والحرفيين والتجار، إلى إختفاء بعض المعايير الاجتماعية القديمة، كما يقول باحث معاصر[4]. ومنذ القرن الثالث الهجري، أصبح الناس يتعارفون بمهَنهم فيقال: الجواليقي، أو الرقاء، أو الكاتب أو الشاهد أو السقطي، وربما تعارفوا بمواطنهم فكان يقال: البغدادي، والبصري، والموصلي والكوفي والبخاري والسمرقندي[5].

إنَّ إكتمال بناء سلطة الدولة ومؤسساتها، وبروز التمايزات الاجتماعية في بنية المجتمع، أمر له دلالات تاريخية، تؤشر إلى رقي وتطور حضاري، ونهوض صاعد، سوف يسم كل مظاهر الحياة بميسمه، ويُدلل على وجود تناحر اجتماعي، سيفضي بالنتيجة إلى تطور مُطرد، من شأنه أن يحثّ على إنهاض فكري عام.

لقد أصبحت الحياة في ظل الخلافة العباسية، لا سيما في القرن الرابع الهجري، تُشير إلى تأطير واضح في البنية الطبقية للمجتمع، يُحكم بعلاقات (السيد والمسيود) وقد كان للصفوة المثقفة.

من الأدباء والمفكرين، والذين أسسوا إلى وجود ظاهرة ثقافية متميزة، كان للوراقين

(1) راجع خبر العباس بن الأحنف وفوز في الأغاني 17/ 69 وما بعدها، طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1389هـ/ 1970م.

(2) أنظر - المدونة الكبرى - 4/ 393 باب «فيمن نسب رجلاً من العرب أو من الموالي إلى غير قومه» الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية سنة 1324هـ.

(3) القاضي التنوخي/نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، 2/ 228 - تحقيق عبود الشالجي 1391هـ/ 1971م. وانظر كذلك فهمي عبد الرزاق أسعد/ العامة في بغداد/ ص57.

(4) فهمي عبد الرزاق سعد/المصدر السابق - نفس المكان.

(5) راجع ذلك في تاريخ بغداد/للخطيب البغدادي - فقد ترجم للعديد من الشخصيات وذكرها بألقابها.

دور هام في إبرازها للسطح، من خلال التعامل الثقا - مهني، فيما بين هذه الفئة، وقد استطاع هؤلاء المثقفون وضع اليد على التناحر الاجتماعي القائم، وذكروه في مؤلفاتهم الغنية، الأمر الذي يشير إلى دور هؤلاء في النهضة الثقافية والاجتماعية على حد سواء.

ولقد قسم أبو سليمان السجستاني/رأس مناطقة بغداد/ فئات المجتمع، على أساس أخلاقي منطلقاً من سلوكهم في المجتمع، وعلى أساس التعامل البشري، ضمن مفهوم الصراحة الإنسانية، يقول[1]: فأما الملوك فقد جلّوا عن الصداقة... وأما التنّاء وأصحاب الضياع، فليسوا من هذا الحديث في عير ولا نفير، وأما التُجار، فكسب الدوانيق سدَّ بينهم وبين كل مروءة وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة، وأما أصحاب الدين والورع، فعلى قلتهم، فربما خلصت لهم الصداقة، لبنائهم إياها على التقوى... وأما الكتّاب وأهل العلم، فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد، والتماري والتماحك، فربما صحّت لهم الصداقة، وظهر منهم الوفاء، وذلك قليل، وهذا القليل من الأصل القليل. يضاف إلى هؤلاء مختلف العمال والكسبة والصنّاع في مختلف المهن، حتى صارت لهم أصناف «نقابات» تنظم شؤونهم، وصار لديهم (حس طبقي) إن جازت التسمية، وأدى هذا الشعور إلى تكتل الأصناف المنظم، وحيث شعروا بدورهم ومقدرتهم.

ثمة حادثة هامة، في هذا السياق يوردها الصولي، يقول[2]: «طالب الديلم التجار بأموال فصار إليهم رجل يُعرف بـ (عبدون) كان هذا متضمناً لأمر الزواريق المصعدة والمنحدرة من مدينة السلام والبصرة، ففتح على الناس أبواباً من البلاء عظاماً، فلحقه قوم من غلمان التمارين وغيرهم في سُميرية، فقتلوه وأخذوا رأسه، فنصبوه في التمارين، فاضطرب الديلم لذلك، وحملوا السلاح وقصدوا التمارين ليحرقوه «يقصد سوق التمارين» ويتعدوا ذلك إلى ما يليهم من أسواق الكرخ، فمنعهم كورتكين/أحد الديالم، من قواد المتقي بالله/ وضبط الديلم ووجه إلى التمارين أن لا يعاودوا مثل هذا الفعل». وهذه الحادثة جعلت من بقية الأصناف، أن يتخذوا منها عبرة في التراص الطبقي والمهني، كل في مهنته، فلقد حذا الملاحون حذو التمارين في مسألة التضامن فقاوموا طغيان الجند من الديلم في بغداد[3]، وامتنع الحلاقون عن الحلاقة حتى طالت شعور الناس، ولم يعودوا إلى عملهم إلا بعد أن اعتذر الناس إليهم، وفي سنة 389هـ قاد عمال النسيج حملة تعبئة داخل أفراد صنعتهم ضد الرسوم والضرائب التي أراد صمصام الدولة البويهي أن يفرضها على الثياب

(1) أبو حيان التوحيدي/رسالة في الصداقة والصديق/ ص5 - 6، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني دار الفكر بدمشق 1964م.

(2) الأوراق - أخبار الراضي والمتقي/ ص206 - بعناية ج. هيورث. مطبعة الصاوي بمصر.

(3) المصدر السابق/ ص207.

المنسوجة من الإبريسم والقطن، ونتج عن ذلك اضطرابات واسعة داخل بغداد، اضطر على أثرها صمصام الدولة أن يعدم أربعة من القامة - قادة العمال - كي يهدئ موجة الاضطرابات تلك[1].

أن الشعور الطبقي لدى العمال والصنّاع في مختلف المهن، أخذ يتنامى بصورة واضحة عند مختلف المهن والصناعات، حتى غدا التماسك من مميزات أهل الأسواق، فكان القصابون يتعاطفون مع من تكسد بضاعته، فيخلّون له السوق أو يعملون لحسابه حتى يعتدل وضعه، وقد إنتبه الجاحظ إلى هذه الميزة، وراح يقارنها مع أخلاق الكتّاب، الذين ينتمي إليهم، فينهاهم عن التحاسد ويطلب منهم - أي من الكتّاب أن يحتذوا بهؤلاء القصابين قائلاً[2]: وأنه ليبلغني أن رجلاً من القصابين يكون في سوقه، فيتلف ما في يديه، فيخلي له القصابون سوقهم يوماً، ويجعلون له أرباحهم، فيكون بربحها منفرداً، فيسدون بذلك خلّته، ويجبرون منه كسره)، هذا التضامن والتكافل الاجتماعي، عند أهل الأسواق جعلهم يتقاربون من بعضهم أكثر فأكثر، حتى غدت الحميمية عند أهل السوق الواحد، تظهر فيهم، وقد اشتعلت عدة حوادث في سنة 422هـ، كانت الأسواق مسرحاً لعملياتها، فتضامن أهل كل السوق في القتال، وقد كان للصراع المذهبي/ شيعي - سُني/ أثرهُ في هذه الأحداث، فقد شارك القلاؤون وأهل الكرخ وأهل سوق السلاح وأهل سوق الثلاثاء والأساكفة والرهادرة (صغار الباعة) في إقتتال الأسواق، وفي العام نفسه اقتتل الخلقان وأصحاب الأكيسة في الكرخ في منافسة تجارية، وفي سنة 423هـ قاد أهل الكرخ حملة ضد العيارين الذين سلبوا جزاراً، فاضطر هؤلاء لأن يعيدوا بعض ما أخذوا[3].

هذا الاتجاه الواعي المتنامي في مجتمع بغداد العباسي، وقد خلق حالة من التأزم السياسي بين الناس والسلطة العباسية وأثار سلسلة من الاضطرابات داخل بغداد، كان الجند أبطالها في بعض الفترات، ففي سنة 303هـ، تحرك الجند مطالبين بزيادة رواتبهم، وفي سنة 306هـ طالبوا بأرزاقهم التي لم يقبضوها لثلاثة أشهر، فأقيل الوزير ابن الفرات وأوكلت الوزارة إلى شخصية ضعيفة هو «حامد بن العباس» والذي استعان بدوره بعلي بن عيسى ليقوم بأعمال الإدارة بدلاً عنه، وفي نهاية عام 308هـ شبّت في بغداد انتفاضة عارمة

---

(1) فهمي عبد الرزاق سعد/ العامة في بغداد/ ص176.

(2) رسائل الجاحظ 2/ 200 - 201 - تحقيق عبد السلام هارون - منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة 1384هـ/ 1965م.

(3) ابن الجوزي/ المنتظم 8/ 54 - 62 - الطبعة الأولى - حيدر آباد سنة 1359هـ. وكذلك راجع - العامة في بغداد/ ص176.

كان الغلاء سببها المباشر، وقد أشار مسكويه[1] للأسباب الداخلية، مؤكداً إلى أن حامد بن العباس قد ساءه تفرّد على ابن عيسى بتدبير الوزارة، فعزم على أن يوفر له سلطة لدى الخليفة ويبعد علي بن عيسى. فتضمن حامد أعمال الخراج بالسواد والأهواز وأصبهان ودفع أربعمائة ألف دينار زيادة عن متوسط خراجها فما كان من المقتدر، إلا القبول بهذا العرض، رغم تحذير علي بن عيسى، بأن هذا الضمان سيؤدي إلى زعزعة الأوضاع الاقتصادية. ولم تمض أشهر حتى انفجرت العامة والخاصة بسبب الغلاء، وشغبوا شغباً متصلاً، أشرف به النظام على الزوال، وبغداد على الخراب وقد وصف حمزة الأصفهاني[2] خطورة هذه الاضطرابات بأنها أزالت عن الجند والرعية هيبتهم، وأنها كانت فاتحة لسلسلة من الاضطرابات امتدت نحو ربع قرن، بدأت هذه الحركة باجتماع العامة وتظلمهم من زيادة الأسعار، وضجوا في وجه علي بن عيسى، ثم توجهوا إلى دكاكين الدقاقين ببغداد، فنهبوها، وانتقلوا إلى باب الخليفة وعلت صيحاتهم بالاحتجاج، ويشير مسكويه[3] إلى أن ثورة العامة بدأت بخطباء الجمعة، وقطعهم الصلاة، واستلابهم الثياب ورجمهم ممثلي السلطة بالآجر، واجتماع الكثير منهم في المسجد الجامع بدار الخليفة، حتى أنهم وثبوا بالحاجب ورموه بالآجر، ثم ساروا إلى دار حامد، الذي أمر غلمانه برمي العامة بالنشّاب، فقتلوا جماعة منهم، كما أن حامد أرسل جماعة من رجاله فدخلوا المسجد الجامع الغربي على دوابهم وقتلوا جماعة من العامة، فخرج أنصارهم يطوفون بالأسواق، يحملون قتلاهم ويندّدون بالسلطة، وفي اليوم التالي، اجتمع عدد كبير من العامة فأحرقوا وفتحوا السجون، ونهبوا دار صاحب الشرطة ودور غيره، الأمر الذي اضطر معه المقتدر لإنزال قوة من الجند لوقف شغب العامة، لكن الجند شاركوا العامة الثورة، وضج الرجالة المصافية في دار الخلافة ضيقاً بالغلاء، ولم تهدأ ثورة العامة والجند إلا بعد أن أمر المقتدر بفتح الدكاكين والمخازن التي لحامد وللسيدة شغب والأمراء أولاد الخليفة والوجوه من أهل الدولة، بعد أن لاقت فيها بغداد الخراب والدمار طوال أربعة أشهر/ نهاية ذي القعدة - نهاية ربيع الأول/ [4].

لقد أصبحت العلاقة بين السلطة العباسية والعامة في بغداد، مشوبة بالحذر

(1) تجارب الأمم 1/ 59 - 60 و69 - 73 بعناية آمدروز - مطبعة التمدن - القاهرة 1914 - 1915 - جزءان وملحقان لهما/ ص176 وانظر العامة في بغداد/ ص305.

(2) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء/ ص152 - 153 - منشورات مكتبة الحياة - بيروت 1961م.

(3) مسكويه/ تجارب الأمم/ 1/ 73 - 74.

(4) هناك تفاصيل هامة عن هذه الأحداث أوردها الأستاذ فهمي عبد الرزاق سعد في كتابه العامة في بغداد/ ص306 - 323 حرية بالمتابعة والتقصي لمن يريد الاستزادة.

والتوجّس، وبدأت ملامح الخوف تظهر من السلطة، فقد أشار مسكويه[1] إلى أنه ضج العامة في سنة 310هـ، نتيجة إعتداء أحد رجال الشرطة على عروس زُفّت إلى زوجها، فغصبها وأدخلها إلى داره، فقامت قائمة الناس، وتدارك الخليفة الأمر بأن أعفى صاحب الشرطة من مهامه.

وقد أثرت التطورات السياسية، هذا الجانب، فصارت السلطة - بشكل أو بآخر - مسؤولة أمام العامة. عن تصرفات جهازها ورجالاتها، وهو ما نفتقر إليه اليوم، وكأن تلك الأحداث ليست من تاريخنا.

تلك كانت بعض الاطلالات على تطور الحالة الاجتماعية والسياسية لبغداد حتى ق 4هـ، وما رافقها من تطور اقتصادي، عكس ظلاله على حياة الناس والمجتمع، وسوف نعرض في الفصل القادم، التطور الثقافي لبغداد، وما رافق هذه الحالة من تطور فكري واقتصادي وروحي أدى إلى وجود حركة أدبية ثقافية وسَمَت العصر العباسي بسماتها.

الفصل الثالث

وصف بغداد

لعب المكان دوراً هاماً في قيام بغداد، تاريخاً وحضارة، فلقد كان لحُسن اختيار المنصور أثرهُ البالغ في نهضتها الثقافية والحضارية والروحية، فلقد كانت بغداد، مزرعة للبغداديين يقال لها المباركة، وكانت لستين شخصاً فعوضهم المنصور عوضاً أرضاهم[2]، وعندما قرَّ رأيه على المكان، شاور أصحابه فيها فقالوا له تجيئك الميرة في السفن من الصين، والهند والبصرة وواسط في دجلة، ومن أرمينيا وما اتصل بها في تامرا حتى تصل الزاب ومن الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك، إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر وأخرجت القناطر، لم يصل إليك عدوك وأنت من دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق أو المغرب إلا احتاج إلى العبور، فدجلة والفرات خنادق لأمير المؤمنين[3].

(1) تجارب الأمم 1/ 121 - 122.

(2) ابن الجوزي - مناقب بغداد/ ص7 - تحقيق محمد بهجت الأثري - إصدار مطبعة دار السلام - بغداد 1342هـ.

(3) المصدر السابق/ ص8.

هذه الآراء من لدن أصحاب المنصور، تعبر عن رؤية راجحة، تُضمر في طياتها أبعاداً اقتصادية وعسكرية واجتماعية، وتكشف عن توسط المدينة العراق، والوصف يظهر إحتضان دجلة والفرات لها، وهذه المسألة تفرض بعداً جمالياً طبيعياً على المدينة من خلال الموقع، قد أدركه المنصور ذاته، وبغية أن يتحسّس طبيعة المكان بجماليتها، أمر أن ينظر إلى المخطط على الطبيعة، قبل الإنشاء، فخُطت بالرماد وأقبل يدخل من كل باب ويمرُّ في فصلانها وطاقاتها ورحابها وهي مخطوطة بالرماد، فأمر أن يُحفر الأساس على ذلك الرسم[1] فأنشأت المدينة في سنة 145هـ على شكل «مدينة مدورة» على الضفة اليمنى من نهر دجلة في الزاوية المتكونة بين مجرى الفرات ومجرى دجلة شمالاً وسمّاها مدينة السلام[2].

خضع إنشاء المنصور لبغداد على شكل «مدورة» لبعدين مهمين، الأول أمني - إداري، والثاني جمالي - حضاري، فمن الناحية الأولى يذكر الخطيب البغدادي، خبراً أورده على لسان وكيع يقول[3] إنَّ أبا جعفر بنى المدينة مدورة، لأن المدورة لها معان سوى المربعة، وذلك أن المربعة إذا كان الملك في وسطها كان بعضها أقرب إليه من بعض، والمدور من حيث كل قسم كان مستوياً لا يزيد هذا على هذا، ولا هذا على هذا، وبنى لها أربعة أبواب، وعمل عليها الخنادق، وعمل لها سورين وفصيلين، بين كل بابين فصيلان، والسور الداخل أطول من الخارج، وأمر - المنصور - أن لا يسكن تحت السور الطويل الداخل أحد ولا يُبنى منزلاً، وأمر أن يُبنى في الفصل الثاني مع السور المنازل، لأنه أحصن للسور، ثم بنى القصر والمسجد الجامع.

وهذا الإجراء، هو أمني صرف، وهي حالة كانت سائدة في تلك العصور عند بناء المدن والقلاع والحصون.

أما البعد الثاني لبنائها مدورة، فيتجلى في ملامحها الجمالية والحضارية، حيث أن الطريقة التي سُلكت في تخطيط هذه المدينة ومقارنة لها مع مدن العراق الأخرى، الأقرب إليها كالكوفة والبصرة وواسط وغيرها من المدن الإسلامية، فالفكرة التي أوحى بها المنصور إلى المهندسين لبناء المدينة تبين أن هناك تجاوباً وتمازجاً بين المُوحي والموحى

---

(1) المصدر نفسه.

(2) انظر - د. مصطفى جواد ود. أحمد سوسة/ دليل خارطة بغداد/ ص23 - مطبوعات المجمع العلمي العراقي - بغداد 1378هـ/ 1958م. والمحمول الديني واضح في التسمية - دار السلام - انظر الآية 127 من سورة الأنعام.

(3) تاريخ بغداد/ ص72 - 73.

إليه، فقد نقل أنه[1] بعدما رست المدينة على الأرض بالرماد، وضعت فوق تلك الخطوط كرات من القطن، ثم صُبَّ عليها النفط وأشعلت فيها النيران، بغية إبراز شكلها بصورة واضحة أمام المنصور.

وما أن استوطنت المدينة بالناس، حتى بدأت أعمال التشجير والتزيين[2] وحفر الترع والأنهار يمتد إلى داخلها وخارجها، فقد كان يسقي مزارع بغداد الغربية وبساتينها ما يزيد على ثمانية أنهار بين كبير وصغير، غير القنوات التي كانت تجري تحت الأرض في محلة الحربية، أضف إلى ذلك ثمانية أنهار أخرى تسقي مزارع الجانب الشرقي من المدينة[3]، حيث أن الجو في بغداد، شديد الحرارة لجأ البغداديون إلى زرع بغداد وإحاطتها بالأشجار والبساتين لتلطيف جوها، يضاف إلى ذلك، أنهم أخذوا يستعملون جرار الفخار الكبيرة، والمسماة بـ (الكيزان) لتبريد الماء، وقد يضيفون إليه الثلج، وهي ظاهرة مألوفة لا تزال حتى اليوم، وقد قال أبو إسحاق الصابي، يذكر هذه الكيزان والثلج، وهو بالبصرة، وقد حن إلى بغداد[4]:

لهف نفسي على المقام ببغدا دَ وشربي من ماء كوز بثلج

وقد عرفت بغداد الديارات والتي كانت من المواضع التي لا تفارقها الخضرة، تحفّها البساتين والحدائق، ومن أشهر الديارات في بغداد الغربية. (دير أشموني) بقطربل، ودير مديان على نهر كرخايا، وفي بغداد الشرقية (دير سمالو) بباب الشماسية على نهر المهدي ودير درمالس ودير الثعالب وغيرها[5]. كما أن الفواكه والغلات الزراعية كانت قد انتشرت زراعتها في بغداد، وعلى جانبيها، وقد ذكر ياقوت الحموي أصنافاً منها، مثل - فواكه منطقة العباسية حيث عُرف بها الباقلي العباسي، واشتهرت منطقة الزندورد في بغداد الشرقية بجودة أعنابها والفواكه والأترج، والأعناب في هذه المنطقة من أجود ما يُحصر ببغداد[6]،

---

(1) د. محمد عبد العزيز مرزوق/ العراق مهد الفن الإسلامي/ ص17 - منشورات وزارة الإعلام العراقية - بغداد 1971م ولاحظ مخطط المدينة - نموذج رقم (1).

(2) للاستزادة والتفصيل في هذا الجانب، نحيل القارىء إلى الفصل الثالث - من كتاب/ دليل خارطة بغداد/ ففيه معلومات وافية جداً.

(3) انظر - د. مزهر السوداني/ جحفلة البرمكي/ ص10 طبعة النجف - العراق - ط1، 1977م.

(4) الثعالبي - يتيمة الدهر 2/ 244 - الطبعة الأولى - مصر/ 1352هـ/ 1934م.

(5) انظر - الشابشتي - الديارات/ ص3، وص9 وص16 وص18 وص21 وص30، وغيره/ تحقيق كوركيس عواد - مطبعة المعارف بغداد 1951م.

(6) معجم البلدان 4/ 75 و3/ 154 - منشورات دار صادر - بيروت - 1376هـ/ 1957م وكذلك مزهر السوداني/ جحفلة البرمكي/ ص16.

فهذه المزايا الطبيعية لبغداد، تجعل منها بهجة للنفوس، ومرأىً للرائي، وبستاناً يستراح به، وأداة لتحفيز وتنشيط الذاكرة وتنشيط المخيلة، وتحريك سواكن النفس، وقد كان للمكان أثره في أذهان الناس، من مختلف الأجناس والطبقات والمشارب، حتى غدت حديث السمر للمسافر، وديباجة الأدب للأديب، وقافية الشعر للشاعر، واستهلال الكلام للمترسل، وعنوان البلاغة للبليغ، وصفها الجاحظ قائلاً[1]: «قد رأيت المدن العظام، والمذكورة بالاتقان والإحكام، بالشامات وبلاد الروم، وفي غيرها من البلدان، فلم أر مدينة قط أرفع سمكاً، ولا أجود استدارة، ولا أنبل نبلاً، ولا أوسع أبواباً، ولا أجود فصيلاً من الزوراء، وهي مدينة أبي جعفر المنصور، كأنما صُبَّت في قالب، وكأنما أفرغت إفراغاً، والدليل على أن اسمها الزوراء، قول سلم الخاسر[2]:

أيــن رَبُّ الــزوراء إذ قــلَّــدتــه الــ مُــلــكَ عــشــريــن حــجــة واثــنــتــان

مدينة جديدة، وأماكن تسر النفس، وخيرات متوفرة. وطبيعة غنّاء، وثقافات مختلفة، وشخصية للدولة قريبة، كل هذه الأمور تفاعلت في بنية المجتمع البغدادي، وأثرت فيه، فرفعت وعيه، وشذبت أخلاقه، من القمة إلى القاع، وظلت الملامح المدنية الجديدة ترتفع بوتيرتها، حتى غدت بعض السمات الاجتماعية تحدد ملامح هذه البيئة البغدادية، وهو ما عُرف - فيما بعد - بـ (الظرف البغدادي) وانتقل صداه إلى بقية الأمصار الإسلامية، وتحدث به الركبان، وهناك وصف دقيق للأخلاق البغدادية أورده ظهير الدين الكازروني في إحدى مقاماته يقول فيها[3]:

«كنت أسمع من جُواب الأقطار، وطرّاق البلاد والأمصار، أن دار السلام هي كعبة الإسلام، وحرم الإمام ومعدن الكرام، ودار الخلافة، ومحل الأمن من المخافة، وبها مقر الملك وسريره، وإمام العصر وأميره، خليفة الله وابن عم نبيه الأواه. تذعن الملوك بالطاعة لسلطانها وتتداكك[4] على أبوابه لتقبيل أركانها، والعدل بها محدود الرواق، والعلم مديد الأطناب في الآفاق والدين منشور اللواء، والإسلام محروس الجناب بالخلفاء، وقُطّانها

---

(1) تاريخ بغداد 1/ 77.

(2) انظر ترجمته في الأغاني 19/ 260 - 287 - بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار الكتب المصرية 1391هـ م 1973م.

(3) مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية - تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد/ نشرت في مجلة المورد/ عدد خاص عن بغداد/ المجلد الثامن/ العدد الرابع - 1400هـ/ 1979م. الصفحات من 421 - 440.

(4) يقال: تداك عليه القوم، أي ازدحموا/ هكذا أوردها المحققان في «المورد» ص/ 437 ولم أجدها في (اللسان - مادة دكك).

أعذب الناس أخلاقاً، وأكثرهم حياء وإطراقاً، وأثقب العالم بصيرة، وأعدلهم سيرة، وأصفاهم سريرة، وأدمثهم للصديق، وأحناهم على الصاحب والرفيق، وزاهدهم العلم المشهور، والقدوة المشار إليه في الأمور، وعوامها السوقة، تغتنم مفاكهتهم وتروق مجالستهم، أخلاقهم عذبة للصاحب، وخواطرهم من أعجب العجائب، يسبق إدراكهم البرق اللامع، ويُدهش ذكاؤهم الرائي والسامع، قد اعتدل هواؤها، وطاب فناؤها، وعذب ماؤها، ورقت أسحارها ووفت أشجارها، فهم في خفض من العيش يتقلبون، ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وعن هذه الأخلاق يتحدث ذا النون المصري[2] وهو في مصر يقول[3]:

«من أراد أن يتعلم المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد، قيل له: وكيف ذاك؟ فقال لما حملت إلى بغداد ورُمي بي على باب السلطان مقيداً، مر بي رجل متّزر بمنديل مصري، مُعتم بمنديل ديبقي، بيده كيزان خزف رقاق وزجاج مخروط، فسألت: هذا ساقي السلطان؟ فقيل لي: لا، هذا ساقي العامة، فأومأت إليه: إسقني. فتقدم وسقاني، فشممت من الكوز رائحة مسك، فقلت لمن معي: إدفع إليه ديناراً. فأعطاه الدينار، فأبى وقال: ليس آخذ شيئاً. فقلت له: ولِمَ؟ فقال: أنت أسير وليس من المروءة أن آخذ منك شيئاً، فقلت: كمل الظرف في هذا».

فالملاحظ، أن هناك تخلُّق عام، دأبت عليه بغداد، وصار ملازماً لأبنائها، به يتفاخرون، وعليه يهتدون، فكأن الخروج عنه، هو إخلال بظرفهم، وقد أوضح لنا السقا الذي سقى ذا النون المصري تلك السجايا المتواترة عند عامة بغداد.

وهذا التخلق، تضافرت فيه عدة عوامل، تطرقنا إلى أغلبها في سياق الحديث، وقد توقف عندها غالبية المؤرخين، الذين تحدثوا عن أخلاق أهل بغداد وعاداتهم وأثر البيئة والمكان فيها، وقد سلط الضوء في هذه النواحي الخطيب البغدادي، في أكثر من مكان وموقف، مازجاً بين تأثير المكان وتأثير الإنسان المتبادل على الواقع الاجتماعي، يقول[4]:

«قال أبو الحسين: هذا إلى تركنا ذكر أشياء كثيرة من مناقبها التي أفردها الله بها... يقصد بغداد - دون سائر الدنيا شرقاً وغرباً، وبين ذلك من الأخلاق الكريمة، والسجايا

(1) سورة الأنعام، الآية: 126.

(2) هو «ذو النون بن ابراهيم المصري الاخيمي، أحد العلماء المتصوفة المشهورين - راجع ترجمته في/ طبقات الأولياء/ لابن الملقن/ ص218، منشورات الخانجي بالقاهرة، ط1، 1393هـ/ 1973م.

(3) تاريخ بغداد 1/ 50.

(4) المصدر السابق 1/ 50 - 51.

المرضية، والمياه العذبة الغدقة، والفواكه الكثيرة الدمثة، والأحوال الجميلة، والحذق في كل صنعة، والجمع لكل حاجة، والأمن من ظهور البدع، والاغتباط بكثرة العلماء، والمتعلمين، والفقهاء والمتفقهين، ورؤساء المتكلمين، وسادة الحساب والنحوية، ومجيدي الشعر، ورواة الأخبار، والأنساب وفنون الآداب، وحضور كل طرفة، واجتماع ثمار الأزمنة في زمن واحد، لا يوجد ذلك في بلد من مدن الدنيا إلا بها، سيما زمن الخريف، ثم إن ضاق مسكن بساكن، وجد خيراً منه، وإن لاح له مكان أحبّ إليه من مكانه، لم يتعذر عليه النقلة إليه، من أي جانب من جانبيه أراده، ومن أي طرف من أطرافه خفَّ عليه، ومتى هرب أحد من خصمه وجد من يستره في قرب أو بُعد».

وقد افرزت بغداد وبيئتها أعلاماً في الأخلاق والأدب، والفلسفة والعلم، والطب والرياضيات، والفقه وعلوم الدين، أكثر من غيرها، ليس للعرب وحدهم، بل لكل الأقوام الذين عاشوا بها، وتربوا على آدابها، وتتلمذوا في مدارسها، وتخلقوا بأخلاقها، فزهت بهم، وزهوا بها، وراحوا يذكرونها في أشعارهم وآدابهم وفنونهم، فحفظت لهم مدوناتها ما قالوه فيها، وحفظته لهم من نسيان الدهور.

ثمة مسألة هامة رافقت بناء بغداد، وظلت تلازمها حتى اليوم هي: الملامح الاجتماعية، ذات الصبغة الشعبية، فقد رافقتها منذ تجمع الناس للعمل في أساسات مدينة المنصور، وظل هذا التمازج ينمو ويتطور ويتأصل، شيئاً فشيئاً، حتى طبع المدينة بطابعه، وصارت الحميمية الاجتماعية، للمحلة أو الدرب، أو السوق، تدلل على خصوصية معينة لتلك البيئة وتشير إلى أهلها، وقد أورد أبو المطهر الأزدي كثيراً من هذه الطبائع عند أهل بغداد وضواحيها، وملابسهم وثيابهم وبيوتهم، مع فارق التميزات بين مكان وآخر[1] وقد استطاعت معالم المدينة أن تبقى راسخة في أذهان من دخلوها أو وصفوها، تستنطقهم محالها، وتذكرهم جسورها وأسواقها، وتثيرهم أبنيتها وأنهارها، ويتفاخر صاحب «حكاية أبي القاسم البغدادي» بجانبيها على أهل أصفهان، فيقول عن الرصافة[2]: «هل في أصبهان ما يُشبه إن شيتَ من شرقي بغداد - الرصافة - باب الطاق، سوق يحيى، شارع البردان، درب الريحان، درجة يعقوب، طرف الجسرين بين القصرين الزاهر، الشماسية، مربعة الحرسي، سوق الثلاثاء، باب الأذج، الورادين، المأمونية، دار الخليفة».

ثم يعكف على مقارنة أصفهان بالجانب الغربي/الكرخ/يقول: «وإن شيتَ من

(1) راجع «حكاية أبي القاسم البغدادي» ص35 - 48.
(2) راجع «حكاية أبي القاسم البغدادي» ص22 - 23.

غربيها، النُجمي، الرقة، نهر عيسى، نهر طابق، سوق العروس، صف التوزي، درب عون، صينية الكرخ التي تُسمى سوق النحاسين[1]، طاق اللعب الشرقية، سوق الرقائين، سوق الحلائين، قطيعة الربيع، القطيعة المكشوفة، سويقة غالب» وغيرها. وهذه المناطق يكتسب أغلبها صفة شعبية، حتى أن أسماءها باتت معروفة بنمط معين من السلوك الاجتماعي والمهني، يعرفه أهل المناطق الأخرى، من البغداديين وغيرهم.

لقد كانت بغداد، حاضرة في أذهان الناس، منذ نشأتها الأولى، حيث عمَّ الرخاء، وتنشطت الحياة الاقتصادية، يقول داود بن صقر البخاري[2]: رأيت في زمن أبي جعفر المنصور كبشاً بدرهم، وحملاً بأربعة دوانيق[3]، والتمر ستون رطلاً بدرهم، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمانية أرطال بدرهم، والرجل يعمل بالروزجار في السور، كل يوم بخمس حبات. وقال الحسن بن سلام: كان ينادي على لحم البقر في جبانة كنده تسعون رطلاً بدرهم، ولحم الغنم ستون رطلاً بدرهم، والعسل عشرة أرطال بدرهم.

هذه هي صورة مصغرة عن الحياة الاقتصادية اليومية لأهل بغداد، بصورة خاصة، ولأهل العراق، بصورة عامة، ولربما كانت أرخص. وهذه الحالة، تبيّن مدى ازدهار حياة الناس اقتصادياً وركونهم إلى الدعة والراحة، الأمر الذي يحبب لهم بغداد، والتوطين بها، وتفضيلها على غيرها من الأمصار، لذلك ذاع صيتها، وتغنى أبناؤها بها، وذكروها بحلّهم وترحالهم، وانطبعت محالها وأزقتها وحاراتها وأسواقها، في أذهانهم، وصارت مصدر تفنٍ في سفر، وحديث سمار في السهر، وانعكس هذا الأمر على روادها وزوارها، والضاعنين منها، والوافدين عليها، قال أبو الوفاء بن عقيل - أحد قاطنيها[4]: سألني صدر من صدور طريق خراسان عن بغداد وما أدركت بها فقلت: لا أذكر لك أمراً تكاد تستبعده، فأذكر لك محلتي وهي واحدة من عشر محال، كل محلة كبلد من بلاد الشام، وهي المعروفة بـ (باب الطاق) أما شوارعها فشارع ما يلي دجلة، من أحد جانبيه قصور على دجلة، طراز ممتد من عند الجسر إلى أوائل «الزاهر» وهو بستان للملك، نحو مائتي جريب، وجانبه الآخر مساجد أرباب القصور ومساكن غلمانهم، وفي خلال ذلك اصطبلاتهم، ثم يليه من يمنته عند الجسر سوق يحيي، الجامعة بين دور الوزراء والأمراء

(1) يعرف الان بـ (سوق الصفافير) ولا زال قائماً في الكرخ.
(2) مناقب بغداد - لابن الجوزي/ ص25 - نشرة محمد بهجت الأثري - منشورات مطبعة دار السلام - بغداد 1342هـ.
(3) الدانق هو سدس الدرهم.
(4) مناقب بغداد/ ص25.

مما يلي الشط، وفي الجانب الغربي لسوق يحيى... الدكاكين العالية والدروب العامرة، من دقاقين وحلاويين، ثم نهاية الدور الشاطئية، دار معز الدولة ذات المسناة، التي عرضها مائة آجرة، وكان لها الروشن البديع، فهذا طراز باب الطاق الشاطىء، فأما دواخلها، فأوائلها العَرَصَة التي هي رحبة الجسر والتي تنقسم إلى شارعين عظيمين، أحدهما للأساكفة، ثم سوق الطير، وهو سوق يجمع الرياحين، وفي حواشيها الصيارف الظرّاف، وأصحاب الطيالس، وفاخر الملابس، ثم سوق المأكول والخبازين والقصابين، وسوق الصاغة، لم يُشاهد أحسن منه بناء شاهق، وأساطين ساج، عليها غرف مشرفة، ثم الورّاقين سوق كبيرة، وهي مجالس العلماء والشعراء، ثم سوق الرصافة، عظيمة جامعة ثم شارع الترب وقصر المهدي وجامع الرصافة، ودرب الروم، وشارع عبد الصمد، والسقايات العجيبة في طريق الجامع ذات الأجراس الكثيرة) كان هذا الوصف لبغداد الرصافة، أما الجانب الغربي من بغداد، فهو محلة الكرخ، ذلك القسم الهام، والرئيسي والأكبر من بغداد، يقول عنه المتحدث أبو الوفاء[1]: «من الجانب الغربي الكرخ وشاطئه قصور منتظمة ذوات دواليب وبساتين ورواشن متقابلة، وبين يدي ذلك دار خيطيه مشذّبة لرب الدار، مسرجة بالحلية المليحة والرجاشات[2] العجيبة»، ويتوقف ابن الجوزي ملياً مع المتحدث، ليذكر تفاصيل دقيقة عن شواطىء دجلة - في جانب الكرخ، وكأنه يتعشقه، أو عاش فيه أكثرية حياته، فانعكاس المكان، بكل تفاصيله حاضر في الذهن والنص، يقول[3]: «البط يتلاعب في مشرعة الدار الشاطئية، ولربما اختلطت أصوات أغانيها برنيم دواليبها، ونقيق بطّها، وضجة غلمانها وخدمها، ودجلة تنسل بين شاطىء قصورها الشاطئية، ولقد نزلت كثيراً في سُميرية[4] منحدراً فما أزال أسمع هذه الأنغام من شرعة الجسر بباب الطاق إلى باب المراتب، وكان لدور الشط أبواب إلى شوارعها، وعلى كل باب مراكب مندرجة، مهيأة لركوب الظهر، كما بين أيدي رواشنها خيطية أو زيزب[5] لركوب الشط، والناس كأنهم في دعوة، لا تخلو من ختان صبي، أو زفاف امرأة، وفي البيوت مجالس القرّاء على الكراسي بالألحان، وحلق العلاج والصراع، ومسابقة السفن، ومن أحسن القصور كانت د ار الفخرية بالغربي، ودار المملكة بالشرقي، ولم يكن للدار

(1) أبو الوفاء/ راجع مناقب بغداد/ ص26.
(2) الرجاشات - ما يثير العجب في النفس من زينة الابنية ونقوشها وبديع محاسنها - انظر الهامش رقم 2، ص62 من المصدر السابق.
(3) المصدر السابق/ ص27.
(4) السميرية - ضرب من السفن الصغيرة.
(5) أنواع من السفن الصغيرة.

العزيّة مثل دار بلدرك والحريم الطاهري ودوره الشاطئية، وسوره الدائر، وبابه الحديد، ودار الأمير حسن بن إسحق بن المقتدر، الذي فرضت عليه الخلافة فأباها، ووراء الحريم شارع دار الرقيق، وهي محلة كبيرة كثيرة المنازل العجيبة، ثم درب سليمان والمارستان، وسوقه العجيب، ثم دار النقابة الشاطئية»، ويستطرد المتحدث في الإسهاب لوصف جانبي بغداد - الكرخ والرصافة - من خلال ما يحيط بدجلة من أبنية وشوارع ودور وغيرها. يقول: وكنت أسمع من المشايخ أن بدجلة خمسمائة مصفرة[1] مزينة لا يركب فيها إلا ظرّاف التجار والأجناد وأرباب المقاطعات، والرجل وغلامه، والملاحون بالثياب الجميلة، ثم باب البصرة، ذات السكك البعيدة، ومن الجانب الشرقي «الزاهر» بستان عظيم جامع للنخل والأزهار، ووراءه ثلاث محال، سوق السلاح والمخرم وسوق الداية، وتمتد العمارة إلى نهر المعلّى، ودار الخلافة وتاجها العجيب، وهي بنفسها بلد، وباب المراتب، محلة تختص بالكبراء وأرباب المناصب، وباب الأزج والمأمونية، وفي الجانب الغربي قصر عيسى وقصر المأمون والتونة وغير ذلك» ثم يضيف:

«وجمعت الكرخ منازل عجيبة، بديعة البناء، وفيها درب الزعفران وفيه الدار العجيبة، ودرب رياح، وشارع ابن أبي عوف وباب محول، وكان بسور الحلاويين خزانة كتب فيها اثنا عشر ألف مجلد، وكانت أسواق الكرخ، وباب الطاق، لا يختلط العطارون بأرباب الزهائم والروائح المنكرة، ولا أرباب الأنماط بأرباب الإسقاط، وكان لأرباب المروءات دروب تخصهم. ودرب الزعفران بالكرخ لا يسكنه أرباب المهن، بل أهل البر والعطر، ودرب سليمان في الرصافة مقصور على القضاة والشهود وكبار التجار»[2].

إنَّ إبن الجوزي يصور بغداد بكل تاريخها وحضارتها، وكأنه يريد القول، أن بغداد كانت دينه ودنياه، يتعصّب لها من خلال الوصف، فماذا يقول من يُجبر على مغادرتها؟ يقول أحدهم في فراقها[3]:

لعمري لقد فارقتها غير طايع ... ولا طيب نفساً بذاك ولا مقِر
فيا ندمي إذ ليس تعني ندامتي ... ويا حذري إذ ليس ينفعني الحذر
وقائلة ماذا نأى بك عنهم ... فقلت لها لا علم لي فاسألي القدر

---

(1) نوع من القوارب الصغيرة الخاصة.

(2) مناقب بغداد/ ص27 - 28.

(3) انظر - أبي المطهر الأزدي/ حكاية أبي القاسم البغدادي/ ص25 - بعناية آدم ميتز - طبعة هيدلبرج سنة 1903م.

وسحرت بغداد كل الذين زاروها من الأدباء والشعراء والظرّاف وغيرهم من كافة طبقات الناس وهم الأكثر حنيناً إليها، وفي ذلك يقول ابن الرومي[1]:

بلد صحبت بها الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل في الضمير رأيته وعليه أفنان الشباب تميد

وينقل ياقوت الحموي أبياتاً عن الخطيب البغدادي، ، مؤرخ بغداد عن أبي محمد الباقي[2]:

دخلنا كارهين لها فلما ألفناها خرجنا مكرهينا

ويعلق الخطيب على ذلك بقوله: يوشك هذا أن يكون في بغداد، قيل وأنشد لنفسه في المعنى وضمنه البيت[3]:

على بغداد معدن كل طيب ومغنى نزهة المتنزهينا
سلام كل ما خرجت بلحظ عيون المشتهين المشتهينا
دخلنا كارهين لها فلما ألفناها خرجنا مكرهينا

وقد استطاع الخطيب أن يوجز وصفها بقوله[4]: «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها وسعة أطرارها[5] وكثرة دورها ومنازلها، ودوربها، وشعوبها، ومحالها وأسواقها، وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها، وطرزها وخاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها، وبردُ ظلالها وأفيائها، واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وزيادة ما حصر من عدّة سكانها، وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد، إذ الدنيا قارّة المضاجع، دارّة المراضع، خصبة المراتع، موردة المشارع».

هذا الوصف، يجعلك ترسم خطاً بيانياً صاعداً للتطور الاقتصادي، والمنعكس

---

(1) انظر ديوانه 2/ 766 تحقيق د. حسين نصار - مطبعة دار الكتب - القاهرة 1974م.

(2) معجم البلدان 1/ 463 - مادة بغداد/ منشورات دار صادر ودار بيروت 1374هـ/ 1955م.

(3) معجم البلدان/ 1/ 463

(4) تاريخ بغداد 1/ 119 - الطبعة الأولى - مكتبة الخانجي بالقاهرة - والمكتبة العربية ببغداد، ومطبعة السعادة بمصر 1349هـ/ 1931م.

(5) أطرارها - جمع طر: شفير النهر والوادي، وطرف كل شيء وحرفه - القاموس المحيط - مادة (طرر)، وأهل جنوب العراق يقولون (الطرة) للفلاة الواسعة من الأرض.

بالضرورة على الواقع الاجتماعي، فتزدهر القيم الروحية، فتنهض الصناعات لتلبي الاحتياجات، وتنشط الحياة عموماً.

وفي ضوء هذا النشاط يتآلف الناس، وتُشد الأواصر بينهم، فيأسرهم المكان، وتقودهم الذكرى إليه، يقول يونس بن عبد الأعلى: قال لي الشافعي ﷺ أيا يونس دخلتَ بغداد؟ فقلت: لا. فقال: ما رأيت الدنيا ولا الناس[1].

ومن هنا ندرك مكانة بغداد في العالم الإسلامي قديماً، الأمر الذي وجّه الكثير لزيارتها والإقامة فيها للتزود في المعرفة والعلوم، فكثر سكانها، وتزاحمت الأبنية فيها، وضاقت شوارعها بالناس، حتى أن عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، لما قدمها، ورأى كثرة الناس بها قال: «ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة إلا ظننت أن الناس قد نودي فيهم»[2].

وكان من يغادرها ويبتعد قليلاً عنها، تتحرك سواكن نفسه، ويألفها مأسورة بالحنين، فما كاد الرشيد يغادرها إلى الحج، وبلغ زرود[3] التفت إلى ناحية العراق وقال[4]:

أقول وقد جزنا زرود عشيةً ... وكادت مطايانا تجوز بنا نجدا
على أهل بغداد السلام، فإنني ... أزيد بسيري عن ديارهم بُعدا

وعندما ذكرها ياقوت الحموي في معجمه، بدأ الحنين يأخذ بتلابيبه، رغم أنه لم يمكث بها طويلاً، مثل بقية الأدباء والشعراء، وحنينه يخفيه بين جوانحه، دون أن يصرّح به، لكن شواهده الشعرية التي يوردها تفصح عن ذلك[5] رغم أنه، يورد شواهد شعرية أخرى ليس ذاتها.

لكن أبيات الشوق إليها أبلغ وأرق وأوقع، ومن ذلك ما نقله عن عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير[6] وطاهر بن المظفر بن طاهر الخازن، وكلاهما يذكر أمكنة معروفة وهامة من بغداد، ويذكرون القصور والشوارع والحارات، ودجلة والجسور، ثم يذكرون أهلها وكرمهم وأخلاقهم، يقول الأول «عمارة»[7].

---

(1) معجم البلدان 1/ 463.
(2) المصدر السابق 1/ 462.
(3) زرود - أرض رملية بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة - ياقوت - معجم البلدان 3/ 139 - مادة زرود.
(4) معجم البلدان 1/ 462 - 463.
(5) راجع على سبيل المثال 1/ 461 - 464.
(6) انظر ترجمته عند المرزباني - معجم الشعراء/ ص247، منشورات مكتبة القدسي، القاهرة 1354هـ.
(7) معجم البلدان 1/ 23.

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين ... على تقلبها في كل ما حين
ما بين قطربل فالكرخ نرجسة ... تندى ومنبت خيري ونسرين
تحيا النفوس برياها، إذا نفحت ... وخرّشت بين أوراق الرياحين
سقيا لتلك القصور الشاهقات وما ... تُخفي من البقر الأنسية العين
تستنّ دجلة فيما بينها، فترى ... أنيقة بزخاريف وتزيين
فيها القصورالتي تهوي بأجنحة ... بالزائرين إلى القوم المزورين
من كل حراقة تعلو فقارتها ... قصرمن الساج عال ذو أساطين

ويقول الثاني (طاهر بن المظفر)[1]:

سقى الله صوت الغاديات محلة ... ببغداد، بين الخلد والكرخ والجسر
هي البلدة الحسناء خصّت لأهلها ... بأشياء لم يُجمعن مذ كن في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحة ... وماء له طعمٌ ألذ من الخمر
ودجلتها شطّان قد نظما لنا ... بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
ثراها كمسك والمياه كفضةٍ ... وعصباؤها مثل اليواقيت والدر

وحين أخذ الخلفاء بالتحول عنها إلى سامراء تصدّى الشعراء، لهذه الحالة، وانبرى لها من يُحفزهم على البقاء، مصورين الأمر وكأنه شبه خيانة، مذكرين بأن الخروج منها لا يُطمئن، ولكن الدافع السياسي كان أقوى، فغادروها.

ويصف ابن الفقيه هذه الحالة على لسان الشاعر[2] فيقول:

أعاينت في طول من الأرض والعرض ... كبغداد داراً أنها جنةَ الأرض
سقا العيش في بغداد واخضر عوده ... وعيش سواها غيرصاف ولاغضّ
تطول بها الاعمار إن مياهها ... عذب وبعض الماء أعذب من بعض[3]
تنام بها عين الغريب ولن ترى ... غريبا بأرض الشام يطمع في غمض
فإن خربت بغداد منهم بقرضها ... فما أسلفت الا الجميل من القرض
وإن رميت بالهجر منهم وبالقلى ... فما أصبحت أهلا لهجرٍ ولا بغضٍ

---

(1) المصدر السابق/ 463.

(2) هو عند الخطيب البغدادي - عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفي وقيل لمنصور النمري - انظر - تاريخ بغداد 1/ 68 وكذلك بغداد مدينة السلام/ ص40.

(3) ورد هذا البيت عند الخطيب البغدادي 1/ 68 بالشكل التالي: تطول بها الأعمار إن غذاءها

الفصل الرابع

تنامي المعرفة في بغداد

إنَّ التفاعل الاجتما - حضاري في بغداد، ظل يتفاعل إيجابياً مع كل المؤثرات المحيطة به، فلقد إنطلقت الثقافة العربية - الاسلامية، من مكوناتها الأولى أولاً، القرآن والحديث والسنة، حيث شكل المسجد نقطة التجمع الأولى للنشاط الثقافي، وكان بناء الدولة قد شارك فيه أكثر من عنصر، ضموا إلى أحضانها - كالفرس والسريان وغيرهم، بما يحملونه من تراث فكري، ورحب صدر الدولة والمجتمع لهذا التنوع الثقافي المتداخل لكل هؤلاء، فقرّبت الدولة رجال العلم والأدب، وأغدقت عليهم الهبات والعطايا والجرايات، وعُرف ذو الفضل بفضله، فرفع الأديب وأكرم العالم، وجالت صولة الأدب، واختلط العالم بالفقيه، وتناظر العلماء، واختلف الفقهاء، وتوسعت دائرة المعرفة بالتناظر، وعرفت الدولة مجالس المناظرة والمنادمة، وأكبَّ على العلم والتأليف، وقد لعبت الترجمة[1] دوراً بارزاً في تلاقح الثقافات، فقرّبت البعيد، فأصبح في متناول اليد، وحركت العقول وظهرت الفلسفة - فيما بعد - متخطية علم الكلام، وظهرت آراء المذاهب والفرق، وتطاحنت في ساحة النضال الفكري، فتوسعت المدارك، وتلاقحت العقول، وفلسف الدين، وشُرِّحت المذاهب، وراحت ملامح «الآيديولوجيات النظرية» تظهر بجلاء وقد كان للمعتزلة دور بارز في تحريك الوعي الثقافي العام في الدولة الإسلامية، وساهم المأمون في تبني مذهبهم، في مستهل (ق 3هـ) في إنتشاره، وأصبحت بغداد متألقة بشعاع لا مثيل له، في العصر العباسي الأول، وقد شكلت «دار الحكمة» أكبر جامعة في العالم الإسلامي أيام المأمون، وذاع صيتها، وقصدها المتعلمون من مختلف أرجاء الأرض، وبرز العلماء والأدباء والفلاسفة المتكلمين، وظهرت التيارات الفكرية، بمقولاتها وأدبائها، ورجالاتها، فألفت الكتب وانتشرت المعارف، وكان للجدل أثر في انتشار هذه الظواهر، وكانت مهنة الوراقة، قد سارعت بالنمو والتطور فأشيعت الثقافة وانتشرت

(1) سوف نفرد في دراسة خاصة، بحثاً مستقلاً عن (مترجمي بغداد) في العصر العباسي.

العلوم، وتحولت المظاهر الثقافية إلى صفة شعبية، متخطية حاجز قصر الخلافة أو بيوت الأمراء، وصارت مطارحات الأدباء ومناظرات العلماء، في بيوتات العامة والخاصة، وشهد سوق الوراقين هذه الظاهرة بشكل يومي[1]. وقد لوحظ أن هناك سيادة للنثر على الشعر في العصور العباسية، نظراً لكون المعرفة، بكافة فروعها تخاطب العقل البشري وهو ما انعكس على كل العلماء والأدباء، فلقد كان العالم باللغة عالماً بالفقه والتفسير، فيما يكون الفيلسوف أشمل من غيره في أكثر العلوم، وكان للأديب الكبير ابن المقفع دوراً هاماً في سيادة نمط خاص من الكتابة، شاع في بدايات الدولة العباسية، واستطاع أن يترك بصماته على الجيل الذي تلاه، ووسع الجاحظ دائرة الكتابة الأدبية، لتشتمل على أغلب حقول المعرفة، ومن ثم كان له الفضل في غربلة التراث الأدبي وتخليصه من ما علق به من شوائب وإقامة معيار منصف عقلاني لمختلف العناصر الثقافية، وتقديم توفيق بين المعارف بطريقة أدبية لإنسان العصر في آنه، فلقد حافظ الجاحظ بوصفه أديباً، قبل كل شيء، على طريقة الكتّاب إلى حد كبير - كما يقول شارل بيللا[2] وكانت «مدرسة الجاحظ» متعددة الاتجاهات، لكن يغلب عليها، أو يلفها الأدب، رغم أنه وسَّعَ نشاطه إلى حقول العلوم والجغرافيا والتاريخ والنقد الأدبي والكلام على الطريقة المعتزلية، باعتباره أحد رجالاتها المعدودين/ في الجانب الأدبي، أكثر منه في الجانب - الفلسفي/ وإليه يعود الفضل، نتيجة ديناميكية عقله الوقاد، بإجاد شكل من الأدب الشخصي الذي ينصب على تصوير الأخلاق والمجتمع، دون الانقطاع عن تكريس جزء من نشاطه للمشاكل السياسية والدينية[3].

إلاأن الأساسيات الثقافية التي أوجدها الجاحظ أظهرت أسلوباً رضياً للكتابة، وهو بهذا الفن يكون قد كسر قيد النثر المسجوع، الذي دأب عليه كتّاب الدواوين منذ أيام الدولة الأموية، وهو أوضح ما يبين في كتابه «البيان والتبيين» وقد تميز اسلوب الجاحظ، في أغلب مؤلفاته بسعة العبارة المؤلفة من جمل مقطعة أو من تفريعات تبرز فيها لفظة ذات غنى خارق بشكل يتألف من أمثالها وحدة كمية، غالباً، متساوية أو متجاورة، وبمعنى يماثل أو مضاد، دون أن تستعمل القافية إلا عرضاً[4].

قلنا أن المعتزلة حركوا الساحة الفكرية في بغداد والعالم الإسلامي، الأمر الذي حفَّزَ

---

(1) سوف نتحدث عن ذلك بشكل موسع في باب (سوق الوراقين).

(2) النثر العربي في بغداد/ مقال - مجلة المورد/ : العدد 4 - المجلد 8/ 1979م/ ص485 - 490.

(3) شار بيللا - المرجع السابق.

(4) للإستزادة في معرفة اسلوب الجاحظ - راجع شارل بيللا - النثر العربي في بغداد/ ص487 في مجلة المورد العدد 4 - راجع شفيق جبري - الجاحظ معلم العقل والأدب.

بقية الفرق والمذاهب لأن تعيد النظر في مناهجها الفكرية، وتشحذ همم رجالها، لمجاراة تلك الزوبعة الفكرية التي أثارها المعتزلة في أدبهم وثقافتهم المتنوعة، وقد كان للنظّام الدور الأخطر والأجل في رفع الفكر المعتزلي، بينما سيطر أسلوب الجاحظ على منتصف القرن الثالث وحتى طغى على القرن الرابع وما تلاه، وتلك حقيقة يقر بها الجميع له، ونظراً لميل الناس عامة إلى الأدب، فقد ظهر بعد الجاحظ كتّاب، من بقية المذاهب، حاولوا أن يكونوا نداً للجاحظ أو بموازاته كإبن قتيبة، الذي أوجد شيئاً من عقلانية المنهج، مستفيداً من أزمة الثقة بين المعتزلة والجمهور، وهذا الرجل، كان فقيهاً ونحوياً لذلك كان بعيداً عن الروح التي يحظى بها الجاحظ، ومع ذلك فإنه استطاع أن يُثبت في حدود الثقافة العامة، واستطاع أن يحدد حقلها، مع سيادة بتنمية قوام ثقافته الدينية، في الوقت الذي كان فيه الجاحظ - بوصفه معتزلياً - لم يفصل بطبيعة الحال، الثقافة الدينية عن الثقافة الدنيوية، ولكنه استعان بالعقل والمنطق لاستغلال المنابع العامة للمعارف البشرية فأحسن الإستغلال، وابن قتيبة، بوصفه معتدلاً وضع النقاط على حروف الشريعة الإسلامية، واجتهد في تنسيق الأسانيد وتصنيفها، على أنه شديد الحساسية تجاه التأثير الإغريقي، إذ أعطى الأولوية للسنة الكوفية كما يقول بيللا[1]، وقد استطاع ابن قتيبة أن يجد للكتّاب طريقاً من طرق الأسلوب الكتابي، يحدد لهم عملهم في الدواوين يتلمسونه بشكل واضح، وذلك في كتابه الهام «أدب الكاتب»[2] كما وضع موسوعة أدبية، تُعد من أهم المصادر في المجال الأدبي هي «عيون الأخبار» وكتاب «الشعر والشعراء».

وإلى جانب ابن قتيبة، ظهر معاصره اليعقوبي، ذلك الأديب المؤرخ الذي أسس للتاريخ العام، وبأسلوب أدبي رشيق، يفصح عن سعة النظرة.

وما أن تطورت صناعة الورق في بغداد، حتى أخذ التأليف يشق طريقه بقوة وانتشرت الوراقة، حتى شهدت نهاية (ق 4هـ) أعمالاً ضخمة من الكتب والتصانيف وقد برز اسم ابن النديم ذلك الورّاق الحاذق وصنّف كتابه الأهم «الفهرست» مؤسساً لمنهج مؤدي إلى فهارس أخرى نحت منحاه. فيما راح المسعودي، يختط منهجاً وصفياً في الجغرافية، ممازجاً بين الأدب والتاريخ بصيغ جميلة، وراحت تصنيفات المؤرخين توجد مدرسة خاصة لها، تربع على عرشها الطبري والبلاذري، وظهر ترسل الكتاب على يد الصولي،

---

(1) شارل بيللا، المرجع السابق/ ص488.

(2) عدّ ابن خلدون، هذا الكتاب واحداً من أهم أصول كتب الأدب الأربعة، وهي/ البيان والتبيين للجاحظ، أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل في اللغة والأدب للمبرد، وكتاب النوادر لابي علي القالي/ المقدمة/ ص553 - 554 منشورات دار إحياء التراث - بيروت.

فيما أخذ يظهر شكل آخر من التاريخ يمثله أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الهام «الأغاني» الذي جمع فيه أخبار الشعراء والموسيقيين وشخصيات المجتمع الهامة، وحوى هذا الكتاب من المعلومات التاريخية والأدبية، ما لم يحوه أي كتاب آخر مواز له.

فيما قدم قدامة بن جعفر/ نقداً للشعر، وقدم ابن المعتز - طبقات الشعراء - ككتاب يُصف ويهتم بالصور البلاغية، ثم جاء بعدهما أبو هلال العسكري، جامعاً في/ كتاب الصناعتين/ «الكتابة والشعر» مستوحياً في اسلوب الجاحظ، وعارضاً لها بطريقة منهجية قواعد البلاغة العربية، فيما قدم معاصره الباقلاني، الدليل على إعجاز القرآن، بينما عكست الحياة الاجتماعية ظلالها على بعض الأدباء، فصور حياة العامة والخاصة، فهذا الوشّاء يستلهم الجاحظ فيضع كتابه (الموشّى) مسلطاً الضوء على أحوال الأوساط المتميزة ومتأنقي عصره، فيما استطاع أبو المطهر الأزدي تبيان لوحة الحياة البغدادية بكتابه النادر «حكاية أبي القاسم البغدادي» وأظهرت كتابات أبي حيان التوحيدي متانة الاسلوب المتفرد والعبارة المفخمة ذات الطابع الفلسفي، والتي لا تخلو من نقد لاذع لمعاصريه من عليّة السلطة وغيرهم، وهو ما يتوضح في كتابه/ أخلاق الوزيرين/ وتجلت إبداعاته المتنوعة في/ الإمتناع والمؤانسة/ فيما حفُلت «المقابسات» في الأسلوب الفلسفي الموشي بالأدب، وقد ميّز ياقوت الحموي شخصية التوحيدي الفذة بقوله «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة»[1].

لقد أغنى التوحيدي النثر العربي بأسلوبه، وعلّم عليه ببَصماته، وهو حقاً سيد الموقف في النثر بعد الجاحظ، لأنه يعترف له بالأسبقية والفضل، ولكن القرن 4هـ، يعترف للتوحيدي بالأولوية دون غيره في هذا الباب، أن سيادة نمط التوحيدي، أغرت كتّاب نثرٍ آخرين بمجاراة أسلوبه بنثر مسجوع، وقد تميز في هذا الباب بديع الزمان الهمداني، مبتكر فن المقامة، ذلك الأدب الناقد والجريء، والذي اكتمل بنيانه فيما بعد - على يد الحريري في (ق6هـ).

أما في باب الفلسفة، فقد شهد القرنان الثالث والرابع الهجريان تطوراً ملحوظاً، أثبت جدارته وخطورته وعلو شأنه على يد الكندي والفارابي والرازي وابن سينا وغيرهم، فيما طغت فلسفة إخوان الصفاء بشعبيتها على كامل (ق 4هـ)، وهي حالة مثلى يصل إليها المجتمع البغدادي، كما برز الخطيب البغدادي في النصف الثاني من (ق 4هـ) ليدون كل أحداث بغداد وتواريخها بموسوعته الشهيرة «تاريخ بغداد» وهي وثيقة هامة لعلمائها وشعرائها وساداتها وخلفائها، تلك هي بغداد بعلومها وثقافاتها، استطاعت أن تشمخ بوجه

(1) انظر ترجمة التوحيدي عند ياقوت في/ معجم الأدباء/ .

التاريخ الحضاري في العالم، وإذا كانت الثقافة هي ما يبقى، حين ننسى كل شيء - كما يقول بيللا، فإنها في بغداد ما يبقى عندما تطرح التوابع عن رضى وطواعية، والخطر يكمن في أن الجوهر يوشك في يد الإغرار أن يرفض لمصلحة التوابع، وهذا ما لم يلبث أن وقع[1].

إنَّ ظاهرة بهذا العمق والإتساع المعرفي والثقافي، لا شك أنها ستَسِم أهل ذاك الزمان بميسمها، وتلفهم في فلكها الواسع، ويجب أن نعترف هنا، أن للسلطة العباسية، دورها المميز والهام في رعاية العلماء والفلاسفة والأدباء، وكان الخلفاء يتذوقون الأدب والعلوم الأخرى والفنون، بذائقة الناقد العارف، وبهذا الصدد ينقل ثعلب بمجالسهِ[2] أن ابن قادم قال: كتب فلان إلى المأمون كتاباً فيه «وهذا المال مالاً من حاله كذا» فكتب إليه: أتكاتيني بكاتب يلحن في كلامه؟ فقال: ما لحنتُ، وما هو إلا صواب. قال ابن قادم فدعاني المأمون، فلما أردت الدخول عليه، قال لي - ذلك الرجل - ما تقول لأمير المؤمنين إذا سألك؟ قال: قلت: أقول له الوجه ما قال أمير المؤمنين، وهذا جائز، قال: فلما دخلت قال لي: ما تقول في هذا الحرف؟ قال: فقلت: الرفع أوجه، والنصب جائز، قال: فقال لي: مُر. كل شيء عندكم جائز.. ثم التفت إلى ذلك وقال: لا تكتبنَّ إليَّ كتاباً حتى تعرضه».

وعلى ما يبدو، أن تاريخ بغداد السياسي، كان له فضل في رفع الوعي الثقافي بكل العلوم من لدن الخلفاء وغيرهم، فحرصوا - الخلفاء - على تعليم أولادهم بواسطة نخبة من العلماء، كل حسب زمانه، فالمنصور ضم الشرقي بن القطامي إلى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلمه أخبار العرب ومكارم الأخلاق وقراءة الأشعار. والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين إلى الأحمر النحوي ثم الكسائي، وعهد بتأديب المأمون إلى اليزيدي وسيبويه، ومن جميل ما يذكر في هذا الجانب، تلك الوصية الهامة التي عهد بها الرشيد إلى مؤدب ولده الأمين ونصها: «يا أحمرُ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فسيّر يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، إقرأه القرآن وعرّفه الأخبار، وروّه الأشعار، وعلمه السُنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القُواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرنّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه

(1) راجع مقالته - النثر العربي في بغداد - في مجلة المورد/ عدد 4 - ص486 وما بعدها.
(2) انظر - مجالس ثعلب/ ص13، القسم الأول - بعناية عبد السلام هارون، ط2، دار المعارف بمصر.

فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة»[1].

تعكس هذه الوصية مسؤولية الخليفة بالدرجة الأولى إزاء حالة العصر الثقافية والسياسية، فالعلوم والثقافة يريدها الرشيد في أبنائه بهذه الصورة فكيف يجب أن تكون حالة الناس الذين ينادمون الخليفة أو يشرفون على دولته؟ حقاً أنها نظرة واضحة لما يريده العصر من حُسن التأدب والمعرفة بكل الأمور، وقد عُرف عن الرشيد بالذات أنه كان طلاّبه للعلم، قال القاضي الفاضل[2]: «ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا الرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك» وهذا الجانب المعرفي الهام في شخصية الرشيد حالة فرضها واقعه الذاتي من جهة، ومن جهة أخرى ارتفاع وتيرة الثقافة في عهده، جعله أن يكون في هذا المستوى من التطور، فقد عرف عنه أنه كان يأتي بنفسه إلى بيت الفضل بن عيّاض[3] إجلالاً له ولعلمه.

وإلى جانب ذلك، فقد كان الرشيد ذوّاقاً للفن، راعياً لأهله، وقد صنّفهم إلى طبقات ومراتب، وهو أول من طلب أن يختار من الأصوات أجملها، يقول إسحاق الموصلي، أن أباه أخبره أن الرشيد أمر المغنين، وهم يومئذ متوفرون أن يختاروا له ثلاثة أصوات من جميع الغناء، فأجمعوا على ثلاثة أصوات، وكان الرشيد قد طلب من هؤلاء المغنين أن يختاروا له مائة صوت ثم أمرهم باختيار عشرة منها، ثم اختاروا الثلاثة ففعلوا[4].

إنَّ الحسّ النقدي والفني عند الرشيد، يتجلى هنا، فهو من ناحية ثبّت تاريخاً للموسيقى العربية، وبرّز الأصوات المتعددة فيها، وهذا الأمر يعني أرشفة الموسيقى، بشكل أو بآخر، وبنفس الوقت أظهر ما كان مدفوناً في الصدور، من غناء، فأحياه بهذا الإجراء، وهنا يكمن البعد التاريخي، أما من الناحية الثانية فيظهر الذائقة الفنية لديه، من خلال التدرج في إختيار الأصوات، وليس عبثاً أن يُصنف الرشيد المغنين إلى «طبقات» لو

(1) د. أحمد الرفاعي/عصر المأمون/ص174 - 175 - الجزء الأول - ط2، دار الكتب المصرية بالقاهرة 1346هـ/ 1927م.

(2) السيوطي/تاريخ الخلفاء/ص294، بعناية محمد محي الدين عبد الحميد، ط1، 1371هـ/ 1952م - مطبعة السعادة بمصر.

(3) السيوطي - المصدر السابق - ص284.

(4) أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني 1/ 7 - نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط1، ص1345هـ/ 1927/.

لم يكن لديه الحس النقدي لمعرفة أصول الغناء، ثمة حادثة، ينقلها الجاحظ، يقول[1]: قال - إبراهيم الموصلي: «سأل الرشيد يوماً برصوماً الزامر فقال له: يا اسحاق. ما تقول في ابن جامع؟ فحرّك رأسه وقال: خمرُ قطربل، يعقل الرجل ويذهب العقل، قال: فما تقول في إبراهيم الموصلي؟ قال: بستان فيه خوج وكمثري وتفاح وشوك وخرنوب، قال: فما تقول في سليم بن سلام؟ فقال: ما أحسن خضابه، قال: فما تقول في عمرو الغزال؟ قال: ما أحسن بنانه» وهذه الأسماء لأشهر المغنين والعازفين الموسيقيين وندماء الخليفة، لذلك يسال واحداً منهم لترجيح الرأي الفني على الذائقة الحسية، والرشيد بهذا الاستنطاق النقدي للفنان، يؤكد معرفته لجوانب الحضارة في مُلكه، والرقي الروحي لدى ندمائه وحاشيته، وبالضرورة انتقال هذه الظاهرة إلى عامة الناس، وهو ما ظهر فعلاً في (ق 4هـ)، وقد استطاع أبو حيان التوحيدي أن يصور هذه الحالة في كتابه الإمتاع والمؤانسة، فهو يذكر أن عدد المغنيات، بالكرخ فقط 460 مغنية قينة و120 حرة و95 من الصبيان سوى الذين لم يستطع أن يُوصل إليه[2].

وعندما وصل المأمون سنة 198 هـ إلى سدة الخلافة، كانت بغداد تشهد أوج ازدهارها في العلم والمعرفة، وأكبّ الناس على العلم والتأليف والترجمة، فنقلت مؤلفات الفلسفة اليونانية والطب والحكمة والسياسة والفلك والمنطق والتنجيم، وألف المسلمون في الفقه والنحو والحديث، وقد اختار المأمون وزراءه وكتابه من عليّة القوم النابهين والمعروفين بالعلم والكياسة[3].

كما عُرف عنه أنه صاحب بلاغة وجهارة وحلاوة وفخامة، وجودة اللهجة والطلاوة، حتى أن ثُمامة ابن أشرس النميري يقول عنه: ما رأيت رجلاً أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون، وكان المأمون يطرب للطُرف واللغة، وقد قال يوماً لولده: اعتبروا في علو الهمة بمن ترون من وزرائي وخاصتي، إنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندي إلا بأنفسهم، أنه من أتبع منكم صغار الأمور، تبعه التصغير والتحقير، وكان قليل ما يفتقد من كبارها أكثر من كثير ما يستدرك من الصغار، فترفعوا عن دناءة الهمة، وتفرغوا لجلائل الأمور والتدبير،

(1) التاج في أخلاق الملوك/ ص39 وما بعدها - تحقيق أحمد زكي باشا - ط1، القاهرة 1322هـ/ 1914م.

(2) أبو حيان التوحيدي/ الامتناع والمؤانسة/ 2/ 183 تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، طبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1939م.

(3) انظر - حال الوزراء في أيامه عند ابن الطقطقي/ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية/ ص164 - 170 بعناية محمود توفيق الكتبي - منشورات المطبعة الرحمانية بمصر.

واستكفوا الثقات، وكونوا مثل كراع السباع التي لا تشتغل بصغار الطير والوحش بل بجليلها وكبارها، واعلموا أن أقدامكم إن لم يتقدم بكم فإن قائدكم لا يُقدّمكم، ولا يغني الولي عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه[1]، ويكفي أن نذكر من فضله أن دارالحكمة في عصره قد فاقت كل دور الكتب في العالم الإسلامي وغيره، فقد حوت على مختلف العلوم وأسند رئاستها إلى سهل بن هارون، كما حشر فيها مختلف العلماء ليشرفوا على فروعها وأروقتها ومن أبرزهم. يحيى بن أبي منصور الموصلي المنجم المعروف وأحد أصحاب الأرصاد في عصره «المأمون» ومحمد بن موسى الخوارزمي صاحب الأزياج وصورة الأرض، كما كان في دار الحكمة جد أحمد الطيبي المعروف بالصنوبري الحلبي والفضل بن نوبخت وأولاد شاكر وغيرهم، وكان علاّن الشعوبي النسابة المعروف ينسخ في دار الحكمة[2] ويقال أنه رأى حلماً في منامه، وشاهد فيه «ارسطو طاليس» يخطب، وسائله عن الحُسن فقال له: الحسن ما استحسنته العقول، فقلت: ثم ماذا، قال: ما استحسنته الشريعة، قلت: ثم ماذا، قال: ما استحسنه الجمهور، قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم لا، ثم[3]. وعلى ضوء هذه الرؤيا، يستدعي المأمون «علماء دار الحكمة» ويجتمع بهم، ويقرر إرسال وفد علمي إلى ملك الروم، كي ينقل ما يختار من العلوم القديمة ببلد الروم، فيجيبه الملك إلى ذلك، بعد امتناع، فيرسل المأمون الوفد المنتقى والمنتخب إلى هذه المهمة وهم: الحجاج بن مطر وابن بطريق، وسُلّم - صاحب بيت الحكمة -، وقيل أن يوحنا بن ماسويه كان معهم، وغيرهم، فاختاروا ما اختاروه من العلوم، فأوعز المأمون إلى المترجمين، وعلى رأسهم حنين بن إسحاق وكان فتي السن، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العربي، وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره».

تحقيق الحلم إلى واقع، ليست مسألة سهلة، ولكن العقل المعرفي، هو الأقدر على مثل هذه المهمة، ولولا وجود مثل هذا العقل عند المأمون، لما طبّق هذا الحلم، ولو كان غيره، لكان استدعى منجماً ليُفسر له ذلك الحلم، واعتبره «أضغاث أحلام» لكن القلق المعرفي، الذي يتبلس المأمون، حدا به إلى هذه الخطوة، وألحقها بخطوة أجرأ وأسرع وهي الإصرار على ترجمة تلك العلوم إلى العربية، وبتشجيع سخي، لا يقارب في أيامنا

(1) انظر عصر المأمون 1/ 358 - 359.

(2) ابن النديم/ الفهرست/ ص174 - 175، منشورات المطبعة الرحمانية، وراجع الفصل الثامن/ الحياة العلمية في عصر المأمون/ 1/ 375 وما بعدها.

(3) انظر تفصيلات الخبر عند ابن أبي اصيبعه في/ عيون الأنباء في طبقات الأطباء/ ص259 - 260 ضمن ترجمة حنين بن إسحاق، وتحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت 1965م.

قطعاً، فقد كان المأمون يعطي حُنيناً من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربي مثلاً بمثل، ويقول أبو سليمان المنطقي، أن بني شاكر[1] وهم محمد وأحمد والحسن، كانوا يُرزِقون جماعة من النقلة، منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة وغيرهم، في الشهر خمسمائة دينار، للنقل والملازمة[2].

وقد أشارت المصادر[3] إلى أنه نقل من كتب الفلسفة 27 كتاباً، وفي الطب وفروعه 58 كتاباً، وكتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم أكثر من عشرة كتب وهذه الكتب نُقلت عن اليونانية، فيما نقلت عن الفارسية كتباً في الأدب والأخبار والسير والأشعار، وبعضها في النجوم. نقلها آل نوبخت وعلي بن زياد والتميمي وغيرهم أكثر من 20 كتاباً، ونقلت عن الهندية (السنسكريتية) الكثير من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسمار والتواريخ وكتب الطب، حتى أن يحيى بن خالد استقدم بضعة أطباء إلى بغداد منهم «كنكه وبازيكر وقليرفل وسندباز» وغيرهم[4] وقد استطاع المترجمون نقل عشرة كتب في الطب من الهندية إلى العربية، وذلك عن طريق ترجمتها إلى الفارسية أولاً ثم إلى العربية[5]، وهذه الحالة تؤرخ تطور مفهوم الترجمة واتساعها بنفس الوقت وازدهارها في عصر المأمون، ومن أبرز ما نقل عن كتب الأدب الهندية 15 كتاباً كان أبرزها - كليلة ودمنة، والسندباد الكبير، وكتاب أدب الهند والصين وغيرها[6] كما نقلت عن النبطية والعبرانية واللاتينية والقبطية[7].

---

(1) هم بنو موسى بن شاكر - ثلاثة أخوة اشتهروا بعلم الحساب والهيئة والالات، من عهد المأمون إلى عهد المتوكل، وكانوا يشرفون على حركة الترجمة وجلب المخطوطات من آسيا الصغرى إلى بغداد - انظر هامش 1، ص260 - طبقات الأطباء.

(2) طبقات الأطباء/ ص260.

(3) المصدر السابق - في أكثر من مكان، وعصر المأمون/ ص381 - 394 حيث فيه تفصيل بأسماء الكتب المترجمة.

(4) عصر المأمون/ 1/ 388.

(5) المرجع السابق 1/ 390.

(6) راجعها في عصر المأمون 1/ 392.

(7) المرجع السابق 1/ 393.

الباب الثاني

الفصل الأول

تطور صناعة الكتابة في بغداد وظهور الكتّاب

كانت العقيدة الإسلامية ايديولوجيا، والقرآن هو الكتاب المقدس والمرجع الأدبي والدنيوي الأساسي للمسلمين، إلى جانب السنة النبوية، لذلك إنطلقت البدايات الأولى في عملية «النشر والتأليف» بجمع الحديث والسنة النبوية، وتفسيرات الفقهاء لهذه الأحاديث، وكان المسجد الموقع الأول، لبدء عملية جمع هذا التراث وتدوينه، وكان القرآن قد دعا المسلمين بأن يتعلموا القراءة والكتابة، بالمعنى الأوسع، فقد جاء في التنزيل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[1] ويحمل النص القرآني، بالإضافة إلى صفته التقديسية دعوة إلى تعلم مختلف العلوم، وسبرِ أغوار المجهول منها في حياة المسلمين لحفظ دينهم ودنياهم واستقامة معاشهم، يقول أبو بكر الصولي[2]: «ولولا أن من لا يحسن الكتابة يجد من يحسنها معونة وإبانة عنه، لما استقام له أمر، ولا تمَّ له عزم، ولحلّ محل الصور الممثلة، والبهائم المهملة» ويضيف: ومعنى قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ الذي علم الكتابة، لذلك غدت مسألة الكتابة وتعلم فنونها، من المسائل الهامة عند المسلمين، عبر مختلف العصور، وعندما نهضت الحضارة الإسلامية، أيام العباسيين، اهتموا بهذا الجانب أيما اهتمام، وقربوا اليهم المشاهير منهم، وجرت الكتابة في عهد العباسيين الأول، على ما كانت عليه عند بني أمية، فهناك الجودة في الخط، ومتانة الاسلوب، وجلاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته، وكانت أفكارهم لا تزال سهلة، يرمون فيها عن حاضر البديهة، وعفو الخاطر،

---

(1) سورة العلق، ، الآية: 1 - 5.

(2) أدب الكتّاب/ 22 - بعناية محمد بهجت الأثري - المكتبة العربية ببغداد والمطبعة السلفية بمصر - القاهرة، 1341هـ.

فلم يشاركوا الحكماء في تفكيرهم ولا المناطقة في حُججهم، هذا في أول عهد الدولة العباسية إلا نفر قليل منهم، من أمثال ابن المقفع، وقد كان الكتّاب يدورون حول ما ترك آباؤهم من بيت بديع، أو مثل سائر، أو حكمة رائعة، ثم تطورت هذه الأساليب فيما بعد، حتى برز الفصحاء منهم، ولقد لعبت التيارات السياسية، التي ظهرت في العصور العباسية المختلفة دوراً هاماً في إعلاء شأن الكتّاب والكتابة، وقد كان للمعتزلة قصب السبق في هذا المجال، فقد كانوا أصحاب نحلة، يتوجب إبرازها على الصعيدين السياسي والاجتماعي، وتمكين الجمهور منها، الأمر الذي دعا بقية الفرق إلى منازعتهم الساحة الفكرية، فشحذت الهمم وتفاعلت الحياة الثقافية، وازدهرت بمختلف العلوم، فنشط الكتّاب، وراجت الوراقة، واستدعي العلماء، وعقدت مجالس المناظرة، وبرزت تطفو على السطح الثقافي ركائز أولية للأيديولوجيات السياسية والفكرية المختلفة، وكان «علم الكلام» الاعتزالي، هو الأبرز والأسطع، فحدث تلاقح ثقافي، بين مختلف الثقافات، لا سيما بعد أن ترجمت كتب الفلسفة، وسادت أنماط مختلفة من الأساليب الكتابية، اختلفت من فئة إلى أخرى، ومن كاتب لآخر، فتعددت الأغراض، ومال الكتّاب إلى السهولة والتأنق في اللفظ، والجودة في الوصف، وأطالوا في المقدمات، ونوَّعوا البدء والختام والألقاب والدعاء، ومالوا إلى الغلو والمبالغة، لا سيما كتّاب السلاطين والدواوين، وظهر الإطناب في الكتابة فكان صفة غالبة في كل ما شمل من بيعة أو عهد، أو احتجاج أو انتصار، أو تقرير لمذهب، أو استهواء، أو دفعاً لشبهة أو طلباً لنعمة، أو ما يقوم نضالاً أو ما يدعو نزالاً[1]. وبالمقابل أخذت أعلام في الثقافة تبرز، مؤسسة لمنهج في الكتابة، مستدركة لما يتفشى في وسط الكتّاب، من ظواهر سلبية في أساليبهم، وأخذ هؤلاء الأعلام يدركون مسؤوليتهم الثقافية والحضارية، وكان على رأس هؤلاء الجاحظ المعتزلي، الذي بسط أسلوبه على القرن الثالث الهجري، مطالباً الكتّاب باعتماد أساليب، واضحة، ووجه اليهم نقداً في هذا الخصوص، الأمر الذي حدا بهم إلى مراجعة أساليبهم، ، وقد كان الجاحظ يدرك خطر وأهمية كتّاب الخلفاء والأمراء والدواوين فوجه نقده إليهم مباشرة، وألّف في ذلك رسالة عُرفت باسم: «رسالة في ذم أخلاق الكتّاب»[2].

ومن الملاحظ على هذه الرسالة، أن الجاحظ يحطّ من قدر الكاتب فيها، وهو حكم نابع من استقلاليته الفكرية، فهو يقول عنهم: وليس للكاتب اشتراط شيء من ذلك، بل

(1) د. رفاعي - عصر المأمون 1/ 173.

(2) نشرها عبد السلام هارون في الجزء الثاني من رسائل الجاحظ - تحت تسلسل 15 سنة 1384هـ/ 1965 م - القاهرة.

يناله الاستبطاء عند أول الزلّة وإن أكدى، ويدركه العزل بأول هفوة وإن لم يرضَ[1]، ويذكر في موضع آخر[2]: «ومع ذلك إنَّ سنخ الكتابة بني على أنه لايتقلدها إلا تابع، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم، ولم نرَ عظيماً تولى كفاية نفسه، أو شارك كاتبه في عمله، وكل كاتب فمحكوم عليه بالوفاء، مطلوب عليه الصبر على اللأواء[3]، وتلك شروط متنوعة عليه، ومحنة مستكملة لديه»، وهو بهذا يحط من قدرهم، ثم يروح يستهزىء بهم، من خلال موقعهم في السلطة، يقول: ثم هو/الكاتب/مع ذلك في الذروة القصوى من الصَلَف، والسنام الأعلى من البذخ، وفي البحر الطامي من التيه والسرف، يتوهم الواحد منهم إذا عرّض جبته، وطول ذيله/يقصد ذيل العمامة/وعقص على خده صدغه، وتحذف الشابورتين على وجهه، أنه المتبوع ليس التابع، والمليك فوق المالك[4].

ومن هذا النص، يتوضح موقف الجاحظ الناقد لزمرة الكتّاب، على الأخص، وللمؤسسة العباسية على الأعم، فهو يأخذ الكل بالجزء، طالما أن الدائرة واحدة، ثم أنه يطالب بأن يكون الكاتب على قدر كبير من الثقافة في علوم عصره، فيقول هازئاً[5]: «ثم الناشىء فيهم إذا وطىء مقعد الرياسة، وتورّك مشورة الخلافة، وحجزت السلة دونه، وصارت الدواة أمامه، وحفظ من الكلام فتيقه، ومن العلم مُلحه، وروى لبزرجمهر أمثاله، ولأردشير عهده، ولعبد الحميد رسائله، ولابن المقفع أدبه، وصيّر كتاب مزدك معدن علمه، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته، ظنَّ أنه الفاروق الأكبر. في التدبير، وابن عباس في العلم بالتأويل، ومعاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام، وعلي بن أبي طالب في الجرأة على القضاء والأحكام، وأبو الهذيل العلاّف في الجزء والطفرة، وإبراهيم بن سيّار النظّام في المكامنات، والمجانسات، وحسين النجار في العبارات والقول بالاثبات، والأصمعي وأبو عبيدة في معرفة اللغات والعلم بالأنساب». وهذه إشارة من طرف خفي إلى الكتّاب لقراءة هؤلاء، وهو يريد بهذا صقل وضع الكاتب الثقافي، فجاء بقلب العبارات اسلوباً، كي لا يتهم بموقف منحاز، وإلا ماذا نسمي استطراداته في ذكر هذه الشخصيات الهامة؟ ثم أنه ينطلق من نفس الموقف لتثبيت ثقافة الكاتب،. وبنفس الأسلوب المعكوس العبارة، والتي يؤخذ منها معناها المقلوب يقول[6]: «أنّه لم ير كاتب قط جعل القرآن سميره، ولا

(1) رسائل الجاحظ 2/ 191 - رسالة في ذم أخلاق الكتّاب.
(2) المصدر السابق.
(3) اللوأة = السوأة، انظر مادة (لوا. . . ملا) في قاموس الفيروز آبادي.
(4) الرسائل 2/ 191.
(5) الرسائل 2/ 191 - 192.
(6) الرسائل 2/ 194.

علمه تفسيره، ولا التفقه في الدين شعاره، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده، فإن وجد الواحد منهم ذاكراً شيئاً من ذلك لم يكن لدوران فكيه به طلاقة ولا لمجيئه منه حلاوة، وإن آثر الفردُ منهم السعي في طلبه الحديث والتشاغل بذكر كتب المتفقهين، استثقله اقرانه، واستوخمه ألاّفه، وقضوا عليه بالإدبار في معيشته، والحرفة في صناعته، حين حاول ما ليس من طبعه ورام ما ليس من شكله».

هذا الموقف النقدي، ينطلق به الجاحظ من ذاته أولاً، ويريد من كتّاب عصره في مستوى العصر ذاته، وأن يخلق «طبقة» من الكتّاب في مستوى معرفته، لأن المسؤولية التي يعيها الجاحظ أكبر من غيره، كمثقف كبير كان قطب الرحى في ثقافة (ق 3هـ) الناهض دوماً إلى الأعلى، ولا يتوقف الجاحظ عند هذا الحد، بل راح يرسم خطئً للكتّاب، لعلهم يترسمونها بعده، فأخذ يذكر لهم مآثر الفطاحل، وكيف تكون أساسات لغتهم في الاسترسال، وأساليب لغتهم في الأطناب وبلاغة المعنى في العبارة، وصاغ ذلك كاملاً في كتابه «البيان والتبيين» كمرجع لعموم الكتّاب؟ ويقول الجاحظ عن واحد من مشاهير أهل العصر في بلاغته، وهو ثُمامة بن أشرس[1] أنه (سأل جعفر بن يحيى، ما البيان؟ قال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلّي عن مغزاك، وتخرجه عن الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذي لا بد له منه، أن يكون سليماً من التكلف، بعيداً عن الصنعة، بريئاً من التعقد، غنياً عن التأويل) وهذه الصفات، كما يقول الجاحظ[2] كان ثمامة ابن أشرس قد انتظمها لنفسه، واستولى عليها دون جميع أهل عصره، وما علمتُ أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي، كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه، وكان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك.

وهذا الخطاب، يوجهه الجاحظ إلى الفئة المثقفة أولاً، باعتبارهم حملة لواء المعرفة، كي يسلكوا مسلكاً يقتدى به من بعدهم، ويروح يروي للكتّاب، ، بلاغات شبيب بن شبة في الخطاب وجودة الابتداء وحسن السبك ورشاقة الاسلوب، ويوقفهم على تعدد معاني البلاغة وكيف وهو يجتبيه ويدونه كقولهم «لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك» ثم يوقفهم عند عبد الله بن المقفع كي يأخذوا من أدبه وعلمه، ويشرح لهم كيفية فهمه لمعنى

(1) البيان والتبيين 1/ 106 - تحقيق عبد السلام هارون، مطبوعات لجنة التأليف والترجمة، ط1، القاهرة، 1367هـ/ 1948م.

(2) المصدر السابق 1/ 111.

البلاغة، عندما سئل عنها، قال: «البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الاشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سمعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل»[1].

ومن الملاحظ للمتتبع لكتابات الجاحظ، أنه يريد أن يشذّب ألفاظ الكتّاب، ويهذّب طرائق التعاطي في فن الكتابة، ويصقل مواهب معاصريه، وبحق أن كتابه «البيان والتبيين» هو واحد من أبرز الأعمدة في الأدب العربي، وقد أعطاه ابن خلدون مكان الصدارة الأولى في ذكر «كتب الأدب ودواوينه الأربع»، حيث قال[2]: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم، أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، البيان والتبيين للجاحظ وأدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل في اللغة والأدب للمبرد، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها» ونحن بدورنا نقول، أن البيان والتبيين للجاحظ، هو حجر الأساس لثقافة ذلك العصر الأدبية (ق 3هـ) حيث كانت أفكار الجاحظ، وخلاصة استنتاجاته قد صبَّها فيه، بعد خبرة ودراية، أراد منها أن يستفاد منه فيه، والكتاب بحمولاته الفكرية مشروع صاغه الجاحظ بطريقة فذّة جعلته من المصادر العليا في عُرف الثقافة.

إنَّ المنطلقات «النظرية» التي جاء بها الجاحظ لاقت صدىً عند أهل ذلك العصر، رغم أن هناك كتّاباً من بقية المذاهب والفرق قد تأخذ عليه نزعته الاعتزالية، فتصد عنه، أو تأمر أتباعها بمجافاته، لكن سطوته الأدبية ظلّت ماثلة في (ق 3هـ)، وتعدتها إلى كامل (ق 4هـ) وما تلاه، ولا يزال أثر الجاحظ، قائماً حتى اليوم في الثقافة العربية.

وبعد الجاحظ، ظهر في النصف الثاني من (ق 3هـ)، كتّاب آخرون، كان يشغلهم الهم الثقافي، وأساليب الكتابة في عصرهم، وهم أيضاً تحسسوا بوادر الخلل والنقص في أساليب الكتابة ولغة الكتّاب، فساهموا بدورهم في تثقيف وعي الكاتب ورفع منزلته الإبداعية، ومن البارزين في هذا الجانب (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة)[3] هذا المؤلف الذي انبرى لتقويم أساليب كتّاب الدواوين بشكل خاص، والكتّاب الآخرين، بشكل عام، إلا أنه، لم يضاهِ الجاحظ في الأسلبة وشكل الترسل، ولكنه لا يقل شأناً عنه

---

(1) المصدر السابق 1/ 112 - 117، حيث يورد الجاحظ نماذج لهذه التعريفات الهامة لمعنى البلاغة.

(2) / مقدمة ابن خلدون/ ص 553 - 554 مصدر سبقت الاشارة إليه.

(3) أنظر ترجمة في وفيات الأعيان لإبن خلكان 3/ 42، طبعة إحسان عباس، منشورات دار صادر ودار بيوت، وانظر كذلك أنباه الرواة 2/ 143

من الناحية الثقافية، فهو الآخر، كان يندفع بحسٍ أدبي، من خلال موقعه كأحد أبرز كتّاب الدولة، فكان يشاهد اللفظ من لدن كتّاب الدواوين والركاكة في أساليب خطابهم اللغوي والنحوي على حدٍ سواء، فأخذ على عاتقه مهمة إكمال شوط الجاحظ الثقافي - المعرفي، وراح يضع أسساً للكتابة، يهدي بها الكتّاب فصنف المصنفات في ذلك، وقد كان لكتابيه «المعارف وأدب الكاتب» أهمية في السياق الذي نتحدث عنه، لا سيما كتابه الثاني/أدب الكاتب/ فهو خاص بالكتّاب، أكثر من كونه عام لبقية الناس، ككتابه المعارف»[1]، وقد انطلق ابن قتيبة في هذا الكتاب، بوضع تصوراته ومفاهيمه لكتّاب عصره ليحذوا حذوه، وقد كانت روح المسؤولية في ذلك تنطلق لديه من شعوره العام، بأن هناك إساءة لمفهوم الأدب، أخذت توجه له، وقد قال في هذا الصدد[2]: «إني رأيت أكثر أهل زماننا»[3] هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين، ولأهله كارهين، أما الناشىء منهم فراغب عن التعليم، والشادي تارك للإزدياد، والمتأدب في عنفوان الشباب ناسٍ أو متناس، ليدخل في جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين[4]، فالعلماء مغمورون، وبكرّة الجهل مقموعون، حين خوى نجم الخير، وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله، وصار العلم عاراً على صاحبه، والفضل نقصاً، وأموال الملوك وقفاً على شهوات النفوس، إلى أن يقول: فأبعدغايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط، قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس» ويستطرد في ذلك طويلاً لتبيان نقص الحالة التي يمر بها الأديب، وهذه المقدمة التي أوقفنا عليها ابن قتيبة هي صورة واضحة عن الحالة الثقافية السائدة بعد منتصف (ق 3هـ، ونظراً لكون الظروف الاقتصادية في تلك الفترة هي متطورة، لذلك يستدعي الأمر، أن تكون الثقافة، هي الأخرى ناهضة، كي تجاري حالة السمو الحضاري، ينطلق ابن قتيبة من هذا المنظور ومن زاوية الفهم للشريعة الإسلامية، التي يتأطر فيها، وهو واضح في مقدمته لكتاب أدب الكاتب[5].

وإحساسه في هذا الجانب يتماثل وإحساس الجاحظ في رفع الوعي الثقافي عند الكتّاب أولاً، وعند الجمهور ثانياً، ومن هنا راحت خُطاه تتعقب ظاهرة الكتّاب، وتقف على أسلوب صناعتهم، وألفاظ معاني مفرداتهم، وسطور نصوصهم، وبلاغة مفرداتهم،

---

(1) راجع مؤلفاته في التراجم أعلاه، وكذلك مقدمة محقق كتابه - أدب الكاتب - ص7م الأستاذ محمد الدالي، ط2 - مؤسسة الرسالة، بيروت 1406 هـ/ 1986 م

(2) أدب الكاتب/ ص5 - 6 طبعة محمد الدالي.

(3) عاش ابن قتيبة في ق 3هـ - حيث ولد في سنة 213هـ وتوفي سنة 276هـ.

(4) المجدود - المحفوظ. والمحدود - المحروم.

(5) راجع ص 6.

فأحصاها بدقة الناقد المتتبع، وراح يعالجها في منهج تعليمي هام، وضحت معالمه في كامل صفحات كتابه (أدب الكاتب) حيث تحدث في 212 باباً[1] من أبواب اللغة والأدب والنحو والصرف وعلوم اللغة الأخرى، إضافة إلى أساليب الترسل والخطابة، وأبواب استخدامات الفقه وكيفية التعاطي مع مفردات العلوم الشرعية والدينية.

وهو ينطلق في هذا الكتاب من مسؤولية حقاً، والنازعة صوب الرقي الثقافي، فهو يرى[2] في كتّاب زمانه، أنهم كسائر أهل ذلك الزمان، قد استطابوا الدعة واستوطؤوا مركب العجز، وأعفوا أنفسهم من كدّ النظر، وقلوبهم من تعب التفكير، حين نالوا الدرك بغير سبب، وبلغوا البغية بغير آلة، ولعمري كان ذلك. ثم يضيف: فأين همة النفس، وأين الأنفة من مجانسة البهائم؟ وأي موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتّاب، اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه، وارتضاه لسره، فقرأ عليه يوماً كتاباً وفي الكتاب «ومُطرنا مطراً كثر عنه الكلا» فقال له الخليفة ممتحناً له: وما الكلاّ؟ فتردد في الجواب، وتعثر لسانه، ثم قال: لا أدري، فقال: سَل عنه، وفي مقام آخر في مثل حاله، قرأ على بعض الخلفاء[3] كتاباً ذكر فيه «حاضر طيءٍ: فصحف تصحيفاً أضحك منه الاخرين»[4].

ومن هذه الوقائع نستدل أن موقف ابن قتيبة من الكتّاب غير مرضٍ، وهو بنفس الوقت يتساوق والجاحظ في نقد المؤسسة العباسية، كسلطة، تتخذ كتّاباً ليسوا بالمقام الصحيح، وهو إساءة واضحة للكاتب «وطبقته»، حتى أنه ليعيب على هؤلاء الكتّاب/ كتّاب السلاطين/ الذين يجهلون عدد أصابع ايديهم، ولا يميزون بين معاني المصطلحات، يقول[5]: «فما رأيت أحداً منهم يعرف فرق ما بين الوكع والكوع، ولا الحنف من الفدع، ولا اللمى من اللطع»[6].

إزاء هذه الظواهر السلبية في مسلكية الكتّاب ولغة صناعتهم، يأخذه الدافع الحضاري، والحس المسؤول لممارسته سلطته الثقافية، ضمن سياق العصر والحالة، فيندفع لتقرير تلك الحالة، على ضوء الوضع السائد في أروقة الدواوين وأجواء الكتّاب

(1) راجع فهرست الموضوعات في طبعة الدالي/ ص635 - 645.
(2) أدب الكاتب/ ص10 - 11.
(3) والكاتب شجاع بن القاسم، كاتب أوتامش التركي في زمن المستعين بالله - راجع الهامش 11 و12 ص10 من «أدب الكاتب».
(4) لفظها الكاتب/ حاء ضرطي/.
(5) أدب الكاتب/ ص11.
(6) راجع معاني هذه الكلمات في/لسان العرب/.

فيقول[1] : «فلما رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان، وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره، جعلت له حظاً من عنايتي، وجزءاً من تأليفي، فعملت لمُغفل التأدب كُتُباً خفافاً في المعرفة، وفي تقويم اللسان واليد، يشتمل كل كتاب منها على فن، وأعفيته من التطويل والتثقيل، لأنشّطه على تحفظه ودراسته إن فاءت به همته، وأقيد عليه بها أضل من المعرفة، واستظهر له بإعداد الآلة لزمان الإدانة أو لقضاء الوطر عند تبين فضل النظر، وألحقه - مع كل الحد ويبس الطينة - بالمرهفين، وأدخله - وهو الكودن[2] - في مضمار العتاق».

من هنا، يتبادر إلى الذهن، مدى المسؤولية عند المثقف الكبير، في إدراك حالة عصره. الثقافية والسياسية والاجتماعية، ولكن للفرد دوره في عملية الاستنهاض، فهو إدراك تمكنه في فن الكتابة، بعد أن شاهد حالة التعثر تصيب مجال إبداعه، وهي قد تكون حالة مؤقتة يمكن تجاوزها، لا سيما وأن إيقاع العصر المتصاعد، يفرض حالة «الديناميكية» في كل مظاهر الحياة، ومن منا رأى ابن قتيبة، أن إنسياقه مع الإيقاع يتطلب منه، أن يمارس نقر إيقاعه الفردي المتناغم مع إيقاع العصر، وفي مجال اختصاصه، فراح ينتقد أولاً حالة الجهل السائدة لدى غالبية الكتّاب، ومقترحاً - بنفس الوقت، العودة إلى أسلافهم، الذين سبقوهم في هذا الميدان، والأخذ عنهم، ضارباً الأمثلة والأدلة، التي يمكن أن يحتذوا بها، وراسماً الخطوات المتمهلة والدقيقة لهم، بادياً بالأسلوب اللغوي لتمتين أسلوبهم العام، منطلقاً، ضمن عرف منهجي، بتتبع أثر الأوائل، ومطبقه على نفسه، يقول[3] : «وقال أبرويز لكاتبه في تنزيل الكلام: إنما الكلام أربعة: سؤالك الشئ، وسؤالك عن الشئ، وأمرك بالشيئ، وخبرك بالشئ» فهذه دعائم المقالات، والتي إن التمس إليها خامس لم يوجد، وإن نقص منها رابع لم تتم، فإذا طلبت فاسجع[4] وإذا سألت فأوضح، وإذا أمرت فأحكم، وإذا أخبرت فحقق».

ويضيف ابن قتيبة إلى جملة هذه القواعد الأسلوبية في الكتابة رأيه في مسألة الإيجاز فيقول: «وهذا ليس بمحمود - يقصد الإيجاز - في كل موضع، ولا بمختار في كل كتاب» وهو ينطلق بذلك من رؤيته إلى أسلوب القرآن البلاغي، حيث اشتمل على التطويل تارة وعلى الحذف في أخرى للإيجاز، وكرر تارة للأفهام وغيره[5]، وهو ينطلق في تقدير مثل

(1) أدب الكاتب/ ص11 - 12.
(2) الكودن - نعت يطلق على الفرس الهجين، والفيل والبغل والبرذون، انظر مادة (كدن) في القاموس المحيط.
(3) أدب الكاتب/ ص19.
(4) السجع، بضمتين - اللين والسهل - راجع مادة (سجع) في القاموس المحيط.
(5) أدب الكاتب/ ص19.

هذه الأمور من قاعدة «الكل مقام مقال» وملاحظة كذلك أنه يريد أن يضع شروطاً أساسية كالبديهيات في الفلسفة، والتي فعلاً تحمل مدلولاً فلسفياً ألا وهي «دعائم المقالات» وهذه الدعائم، يجب أن تكون حاضرة في ذهن المنشىء، ومتلبسة لحالته المعرفية، والثقافية، ينطلق منها، وعلى أساسها ينشىء في صناعته، مع الأخذ بعين الاعتبار ثقافة الكاتب[1] وموروثاته الشفهية والتاريخية وغيرها.

نقول، إنَّ ابن قتيبة مارس دوره في تطور ظاهرة الكتابة والكتّاب، وساهم بشكل إيجابي على رفع منزلة الثقافة، وأسس لمنهج معرفي في صناعة الكلمة، وأساليب متكلمها، فأدّى قسطه الواضح - وهو ما سنبينه في الفصل القادم - من خلال القواعد التي وضعها للكتّاب الذين جاؤوا بعده، أو عاصروه، وقد كان الورّاقون، كفئة تتعاطى مهنة الوراقة، وتشترك مع الكتّاب بنسبة عالية، تكاد تصل التماثل، قد استفادوا من هذه القواعد في علمهم وعملهم.

الفصل الثاني

مقومات الكتّاب

في نقده للكتّاب، كان الجاحظ يريد منهم أن يلتفتوا إلى المقومات الأساسية في ثقافة العصر السائدة، وكيفية التعاطي مع الموروث الثقافي الواصل، تاريخاً وأدباً وأخباراً، منطلقاً من أن الكاتب يجب ألا يقنع بالمدح، ولا يشطط في الأهواء، لا سيما في مسألة الحكم على ظاهرة معينة، ففي معرض رده على سائله في مفتتح - رسالة ذم أخلاق الكتّاب - نلتمس منهجاً نقدياً، يلزم به الجاحظ نفسه، ومن سار معه في ميدان الكتابة، وهي رؤية خاصة به، أرادها أن تكون سنّة في كتّاب عصره. يقول[2]: «فعلمت أن فرط الاعجاب من القائل متى وافق صناعة المادح، رسخ في التركيب هواه، ورسبت في القلوب أوتاده، واشتد على المناظر إفهامه، وعلى المخاصم بالحق توقيفه، وكان حُكمه في صعوبة فسخه، وتعذر دفعه حكم الأجسام، إذا لاقى محكم التنزيل».

وعلى هذه الأحكام والافتراضات، يدعو الجاحظ الكتّاب، إلى عدم التعنت بالرأي،

(1) سوف نتطرق إلى ذلك، أكثر تفصيلاً في الفصل القادم من هذا البحث.

(2) رسائل الجاحظ 2/ 187 - 188.

والإنصياع إلى مبدأ الإجماع، ومجانبة الهوى، لتحقيق الموضوعية في الحكم والأسلوب، وهي من أولى الشرائط الواجب رسوخها في منهج الكاتب، ثم يربط الجاحظ منهج الكتابة بأخلاق الكتّاب ويريده أن يكون مرآة عاكسة لفعلهم، وهو يأخذ في ذلك الجانب السلبي في منهجهم، لينقده، وبالتالي يبحث عن النقيض البديل المرجو، يقول[1]: «وأبيّن مع ذلك رداءة مذاهب الكتّاب، وأفعالهم ولؤم طبائعهم وأخلاقهم، بما تعلم أنت والناظر في كتابي هذا/ يقصد رسالته في ذم أخلاق الكتّاب/ أني لم أقل إلا بعد الحجة، ولم أحتج إلا مع ظهور العلة، ثم استشهد مع ذلك الأضداد تبياناً، وأجمع عليه الأعداء إنصافاً، إذا كان في ذلك ما يبهرهم ومن القول ما يسكنهم».

ذلك هو منهج الجاحظ في الكتابة، وهو ما يطالب فيه، ويسعى لتحقيقه، لكنه من الصعوبة بمكان على غيره، ولو وجده عند أحدهم/ كطبقة من الكتّاب/ لما وجّه نقده إليهم، ولو كانوا هم، على نفس الدراية والكفاية، لكفوه مشقة النقد وجهد المتابعة والإحاطة والشمولية، وهو المعروف عنه بسعة الاطلاع وقراءة كل كتاب يقع عليه بصره[2].

ثم يلتفت الجاحظ إلى ناحية أخرى هامة في مذهب الكتّاب، ويقف عندها، هو طبعهم الشخصي، ومسلكيتهم في ميدان الكتابة، وتدني معرفتهم، فيكشف ذلك لهم، لعلهم يأخذون به، يقول[3]: «ومن الدليل على نذالة طبعهم، والعلم بفسالة[4] رأيهم، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه، وقضائهم بالعلم لمن لا يعرفونه، حتى أنهم يضربون بالكاتب المثل فيما بينهم، ويحكمون له بالبصيرة في الادب، على غير معاشرة جرت بينهم، ولا محبة ظهرت له منهم، ليس إلا أن هممهم صغرت عنهم وامتلأت قلوبهم منها، فصار المحفوظ من أقوالهم، والذي يدينون به من مذاهبهم: كيف لا يأمن فلان الخطأ مع جلالته، وكيف ينساغ لأحد تجهيله مع نبله، فإن وقفوا على تمييزه هابوه، وإن دعوا إلى تفهمه أكبروه، وقالوا: لم يُنصب هذا بموضعه إلا لخاصة فيه وإن جهلناها، وفضيلة موسومة وإن قصر علمنا عنها».

مسؤولية الجاحظ، هنا تبدو واضحة جداً، إزاء ظاهرة الكتابة من الناحية المعرفية والمنهجية، ومن الناحية الأخرى، تبدو ملامح الصميمية للإبداع، تدعوه لأن يستهزىء

---

(1) رسائل الجاحظ 2/ 188.

(2) راجع ترجمته عند ياقوت الحموي في/ معجم الأدباء/ 16/ 74 مطبوعات دار المأمون المصرية بإشراف د. أحمد فريد رفاعي.

(3) رسائل الجاحظ 2/ 197.

(4) الفسالة - الضعف.

بالكتّاب والذين هم دون مستوى الاصطلاح ذاته، وروح الحميّة عند الجاحظ، على هذه الظاهرة، تبدو متأججة دائماً، وهو في قلبها كالمحور الذي تدور عليه الرحى، فهو دائم الملاحظة لهم، صافي البال عما يتناقلون، مبحر فيما يكتبون، تتقافز أمامه الهنات فيرصدها ويعلّم على مواضعها، يعنيه الجوهر أكثر من المظهر، وحسه الثقافي، حاضر دائماً في عمق هذه الظاهرة، التي يريد لها أن تتبلور في سعة وعمق نوعي، لا تضخّم ملؤه ورم وانتفاخة شحم، لذلك داعبهم ذات يوم وهو جالس في بعض الدواوين فقال[1]: «خِلق حلوة، وشمائل معشوقة، وتظرف أهل الفهم، ووقار أهل العلم فإن ألقيت عليهم الإخلاص وجدتهم كالزبد يذهب جفاء، وكنبتة الربيع، يحرقها الهيف من الرياح، لا يستندون من العلم إلى وثيقة، ولا يدينون بحقيقة، أخفر الخلق لأماناتهم، وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم، الويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون».

أوليس الجاحظ هنا يتكلم بلسان عصرنا؟.. هذا النص يؤكد أنه يعيش بين ظهرانينا، إذن مسؤولية الكتابة، هي مسؤولية قد تكون أكبر من مسؤولية السياسي، إذن لم يقف الجاحظ مكتوف اليد إزاء هذه الظاهرة التي يعشقها، بل امتزج فيها، وساهم بنقدها بروح ملؤها المسؤولية، ومؤلفاته العديدة، تشهد على ذلك، وبتقديرنا، أنّهُ بثّ رسالته بين الملأ، فأوضح منابع سنن الكتابة، وترك باب الإبداع مفتوحاً للقادمين بعده، وترك آثاره شواهد ومراجع، لينتفع بها غيره وعندما جاء اللاحقون عليه، اغترفوا منها، وأشادوا بفضله، حتى وإن خالفوه في المذهب والدين.

إنَّ التأثير المعرفي الذي تركه الجاحظ، ظل سُنّة للكتّاب بكل العصور، وعندما جاء ابن قتيبة حاول ترسم خطاه، وقد أفلح بالكثير منها، وشعوره بالمسؤولية يتماثل وحس الجاحظ، بهذا الباب، وقد أوضحنا في الفصل السابق، الكثير من جهوده في ميدان صناعة الكتابة، فهو الآخر، راح يضع أساسات معرفية لصنعة الكتابة، أراد من خلالها أن يقوّم أساليب الكتّاب، فبدأ معهم باللغة، والتي هي عماد الأدوات في الكتابة، فقال[2]:

«ولكنها - يقصد الكتب التي وضعها - لمن شذا شيئاً من الأعراب، فعرف الصدر والمصدر والحال والظرف، وشيئاً من التصاريف والأبنية، وانقلاب الياء عن الوراء والألف عن الياء وأشباه ذلك».

ومن اللغة ينتقل إلى علم الحساب والرياضيات مؤكداً على النظر في الأشكال لمساحة الأرضين، حتى يعرف المثلث القائم الزاوية، والمثلث الحاد، والمثلث المنفرج،

(1) رسائل الجاحظ 2/ 199.
(2) أدب الكاتب/ ص12.

ومساقط الأحجار، والمربعات المختلفات، والقيسي والمدورات والعمودين، ويمتحن معرفته بالفعل في الأرضين، لا في الدفاتر، فإن المخبر ليس كالمعاين، ومن هذه الأوليات، يرى ابن قتيبة أن ينتقل الكاتب المتعلم إلى مسألة غاية في الأهمية، في زمانه، هي: معرفة أصول التشريع وأحكامه، منطلقاً من الفقه يقول[1]: «ولا بد له من النظر في جُمل الفقه، ومعرفة أصوله من حديث الرسول ﷺ وصحابته»، كقوله: «البينة على المدعي واليمين على المدعي عليه[2] والخراج بالضمان، وجرح العجماء جبار، ولا يُغلق الرهن، والمنحة مردودة، والمعارية مؤداة، والزعيم غارم، ولا وصية لوارث، ولا قطع في ثمر ولا كثر، ولا قود إلا بحديدة، والمرأة تعاقل الرجل إلى ثلث ديتها، ولا تعقل العاقلة عمداً ولا عبداً ولا صلحاً ولا اعترافاً، ولا طلاق في إغلاق، والبيعان بالخيار ما لم يتفرقا، والجار أحق بصقبه، والطلاق بالرجال والعدة بالنساء، وغير ذلك، وابن قتيبة ينطلق في جملة هذه المعارف، ليؤسس معجماً ثقافياً للكاتب، يستعين به في صناعته، ويتزود به في حياته العملية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يريد الانتماء إلى المصدر الأساسي في ثقافة ذلك العصر، والتي يشكل الفقه والدين، عموداً فقرياً لها، ومن هنا جاء التوكيد الأبرز عند ابن قتيبة، لذلك يعطيه مكان الصدارة في الأخذ، ومن الفقه ينتقل بتوكيداته إلى دراسة أخبار الناس وتحفظ عيون الحديث، كي يتمكن الكاتب من توظيفها في تضاعيف سطوره، ممتثلاً إذا كتب، ويصل بها كلامه إذا حاور وكل هذه الأمور يريدها أن تكون عند الكاتب في فلك عقله، لأن الأمر - كما يقول - مداره على القطب، وهو العقل، وجودة القريحة، فإن القليل منها كافٍ، والكثير مع غيرهما مقصر[3].

ثمة إستدراك جميل، يلتفت إليه ابن قتيبة، هو مبدأ الأخلاق في سلوك الكاتب، قبل التعاطي والأخذ بمنهجه، يقول بهذا الصدد: ونحن نستحبُّ لمن قبل عنّا، وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه، ويهذب أخلاقه، قبل أن يهذب ألفاظه، يصون مروءته عن دناءة الغيبة، وصناعته عن شين الكذب، ويجانب - قبل مجانبته اللحن وخطل القول - شنيع الكلام، ورفث المزح[4].

فهو يريد تهذيب أخلاق النفس، قبل تهذيب أدوات الكتابة، ويدعو الكتّاب إلى نبذ

(1) أدب الكاتب/ص13.

(2) جاء بصحيح البخاري - كتاب الرهن: إذا اختلف الراهن، والمرتهن ونحوه، فالبينة على المدعى، واليمين على المدعى عليه - 3/ 116 - نشرة دار الطباعة العامرة - القاهرة 1315هـ.

(3) أدب الكاتب/ص14.

(4) أدب الكاتب/ص14 - 16.

السباب وشتم السلف، وذكر الأعراض بكبير الفواحش، لأنه يؤكد على أن مثل هذه الأمور لا تُرضى لصغار الولدان، ثم يلتفت إلى ناحية مهمة، ينبّه عليها الكتّاب لتلافيها هي، هفوة التقعير في الكلام والتعقيب فيه ويضرب مثلاً في ذلك قول يحيى بن يعمر وهو يخاطب رجلاً تقاضى عنده في شأن زوجته: «إن سألتك ثمن شكرها وشبرك، أنشأت تطلها وتضهلها[1] ويعلق ابن قتيبة على ذلك بالقول[2]:

«فهذا وأشباهه، كان يستثقل، والأدب غض والزمان زمان، وأهله يتحلون فيه بالفصاحة، ويتنافسون في العلم، ويرونه تلو المقدار في درك ما يطلبون وبلوغ ما يؤملون، ثم يشير على الكاتب، إذا استطاع، أن يعدل بكلامه عن الجهة التي تلزمه مستثقل الأعراب، ليسلم من اللحن وقباحة التقعير، مورداً شاهداً هاماً هو واصل بن عطاء، وكيف سام نفسه للثغة إخراج الراء من كلامه، ولم يزل يروضها، حتى انقادت له طباعه، وأطاعه لسانه، ويضيف: وليس حكم الكتاب في هذا الباب حكم الكلام، لأن الإعراب لا يقبح منه شيء في الكتاب ولا يثقل، وإنما يكره فيه وحشي الغريب وتعقيد الكلام[3]، وسهولة الألفاظ في سياق العبارة عند الكتّاب، كان يشدد عليه ابن قتيبة، في منظورين، معرفي واجتماعي، في الأول تجاوز عقدة التقعير اللغوي والحشو في الاسترسال، والثاني، تبيان القيمة الاجتماعية في أسلوب المخاطبات، وهي حالة طبقية، كانت تلقي بظلالها على الحياة الاجتماعية في ذلك العصر، لذلك يقترح على الكاتب أن ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، كي لا يقع - في سياق الاسترسال - في تناقض لفظي أو منهجي فيقول[4]: وربما صدّر الكاتب كتابه بـ«أكرمك الله وأبقاك» فإذا توسط كتابه، وعدد على المكتوب إليه ذنوباً له، قال: «فلعنك الله وأخزاك» فكيف يكرمه الله ويلعنه في حال؟.. وكيف يجمع بين هذين في كتاب؟.

بهذه الالتفاتة، يضعنا ابن قتيبة بتصور واضح للأساليب السائدة في عصره، والتي يعارض سيادة منهجها لطلابه/ الكتبة/ ثم يختم توجيهاته للكتّاب بقوله[5]: «هذا منتهى القول

---

(1) جاء في حاشية أنباء الرواة على أنباه النحاة 4/ 21 ما يلي: الشبر النكاح والشكر البضع، وقال ابن الأعرابي: شكر المرأة - فرجها، وتطلها - يريد تمطلها، وتضهلها - أي تقتر وتضيق عليها/ الهامش رقم 1 من الصفحة أعلاه/ نشرة أبو الفضل إبراهيم - طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة 1973.م.

(2) أدب الكاتب/ ص16.

(3) المصدر السابق/ ص17.

(4) نفس المصدر/ ص19.

(5) أدب الكاتب/ ص20.

فيما نختاره للكاتب، فمن تكاملت له هذه الأدوات، وأمده الله بآداب النفس من العفاف والحلم، والصبر والتواضع للحق، وسكون الطائر، وخفض الجناح، فذلك المتناهي في الفضل، العالي في ذرى المجد، الحاوي قصب السبق، الفائز بخير الدارين». وبهذا يكون قد أشار بتحمل مسؤوليته كرائد من رواد الكتّاب في (ق 3هـ) ثم يبدأ بسرد أبواب كتابه أدب الكاتب، باباً باباً، وهو بحق كتاب معتمد لمن يريد أن يسمو بحرفة الكتابة.

إنَّ المناهج «المدرسية» - إن صح التعبير - التي أخذت عن الجاحظ ومن بعده ابن قتيبة، جعلت من الكتابة، مهنة، يتعاطاها الكتّاب بجميع «طبقاتهم» وهم بين مختلف الفئات الاجتماعية فهذا يجوّد، وذاك يخطل، والآخر يقوّم، حتى تضافرت كل الجهود لرفع مكانة الكتابة والكتّاب، وما إن أطل (ق 4هـ)، على بغداد، حتى أخذت أسس الكتابة تترسخ عند الكتّاب، وتتمايز بين كاتب وآخر، وكذلك بدأت العلوم هي الأخرى تجد مناهجها وترسخ أقدامها، ويتحمس فيها كتّابها، وثمة إشارة هامة في هذا الباب تركها الجاحظ لمن جاء بعده، وقد أخذ بها اللاحقون عليه، تقول[1]: «إنَّ الكتب لا تحيي الموتى، ولا تحوّل الأحمق عاقلاً، ولا البليد ذكياً، ولكن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول، فالكتب تشحذ وتفتق، وتشفي، ومن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه، فإن ذلك إنما تصوّر له بشيء اعتراه، فمن كان ذكياً حافظاً فليقصد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع أن يمر على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالماً بخواص، ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه، ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً، إلا في ما هو أكثر منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد» هذه الوصية، يريد بها الجاحظ التخصص في فن من الفنون، مع موسوعية ثقافية، ما أمكن، تصب في مجرى الفن الواحد، وترفده من جميع الجهات، والتخصص هذا فرضته الحالة الثقافية والسياسية السائدة في هذا العصر، فالفقه مثلاً تميز عن غيره من علوم الدين وأصبح العلماء فريقين، الفقهاء والعلماء، وكانت غالبية طلبة العلم المتكسبين يقصدون الفقهاء لأنهم حملة علوم الشريعة والعبادات، ثم تطور علم الكلام ونهض بعد أن تخلّص من قيود علم الفقه، وظهرت الأفكار الجديدة، وأخذت تبرز على الساحة العلمية أعلاماً بارزة تعلّم بوجودها المعرفي من خلال التخصص ذاته، دائبة السهر في التزود من العلوم وملء المشكاة بالمعارف، فالعلم يحتاج إلى أهله الكرام، لأنه يأبى/ كما يقول المقدسي[2]/ :

---

(1) الجاحظ/الحيوان/ 1/ 59 - 60، الطبعة 2، بعناية عبد السلام هارون، مطبعة اليابسي الحلبي بمصر.
(2) البدء والتاريخ 1/ 4 - 5 بعناية كلمان هور - باريس سنة 1899م.

أن يضع كنفه أو يخفض جناحه، أو يسفر عن وجهه إلاّ لمتجرد له بكليته، ومتوفر عليه بأينيته، معانٍ بالقريحة الثاقبة والرؤية الصافية، مقترناً به التأييد والتسديد، وقد شمّر ذيله وأسهر ليله، حليف النصب، ضجيج التعب، يأخذ مأخذه متدرجاً، ويتلقاه متطرفاً، لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام، ولا يخبط فيه خبط العشواء في الظلام، ومع هجران عادة الشر والنزوع عن نزاع الطبع ومجانبة الألف، وعلى هذا الأساس برز التنافس بين العلماء والأدباء والكتّاب، وأخذ التميّز بين هؤلاء يظهر واضحاً، فصاحب العلوم الدنيوية يسمى كاتباً، وكان يتميز عن العلماء في لباسه، فالعلماء يلبسون الطيلسان، متحنكين[1]، ثم برزت ظاهرة ثقافية هامة في هذا القرن هي وجود الطلاب وشيوخهم في مختلف العلوم، وقد كان لحالة الصراع الايديولوجي بين المذاهب المختلفة، أثره الإيجابي في نهضة هذه الجموع من الأساتذة والطلاب، وأغلبهم صاروا علماء وكتّاب، مما أثرى واقع الحال لظاهرة الكتّاب، ثم أشيعت ظاهرة تعاطي الدروس للفقه والكلام وغيره، وكانت المساجد هي مكانهم الأرحب في الأخذ والنقاش، حيث تظهر حلقات الدرس، كل شيخ وتلاميذه تراهم إلى جانب أسطوانة في المسجد، مسنداً إليها ظهره قدر الإمكان، وإذا اقترب أحد من هذه الحلقة سمع النداء، دوروا وجوهكم إلى المجلس، وكان جامع المنصور ببغداد أشهر مركز للتعليم في دار الإسلام[2].

وفي لجة هذا البحر المتلاطم من التوسع الثقافي والمعرفي، فإن «طبقة الكتّاب» آخذة بالتوسع لا ريب، وهذا الأمر يحتاج إلى رقابة مهنية ومعرفية، كي تحافظ على ضبط مناهج الصنعة، وهو ليس بالأمر الهين، لأنه لا توجد هناك معاهد متخصصة لتخريج كتبة، سوى ما يسمع من محاضرات في المساجد، وتلك عامة، فيما تكون مسألة الكتابة خاصة، لذلك تكون الخامات العبقرية، هي التي تتحسس لهذا الاختصاص، باعتبارها جزءاً منه، وحالة شاهدة عليه، وهو ما كان، فقد أدرك (أبو بكر محمد بن يحيى الصولي) أهمية التصدي لمثل هذه الظاهرة، وكان هو واحد من أبرز أعلامها في الترسل والبلاغة والأدب، فراح يتابع الجاحظ وابن قتيبة في منهجيهما لوضع مناهج مكملة، ويرسم الخطى بروح مسؤولة، فقد كان الصولي على قدر كبير من الدراية والمعرفة بخفايا اللغة وأساليب الترسل في الكتابة، أخذ الدرس عن ثعلب والمبرد[3]، وهما من أئمة اللغة في عصرهما، له من

(1) آدم ميتز - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - 1/ 303 - ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة - ط3 القاهرة 1377هـ/ 1957م.
(2) آدم ميتز - 1/ 314.
(3) ابن خلكان - وفيات الأعيان 4/ 356 - الترجمة رقم 648.

التصانيف عدة، كلها تدور في شؤون الأدب واللغة وأخبار الشعراء والأدباء، وفنون المعرفة، ثم صار نديماً، لحُسن ظرافته لثلاث خلفاء عباسيين هم الراضي والمكتفي والمقتدر.

ومن واقع المسؤولية لأمر الكتابة، فإن الصولي، يخصص كتاباً هاماً من مؤلفاته، أسماه «أدب الكتّاب» مستدركاً ما فات ابن قتيبة في كتابه «أدب الكاتب» بغية تحقيق المنفعة العامة في هذا الفن، فهو يقول[1]: «وهذا كتاب ألفناه فيما يحتاج إليه أعلى الكتّاب درجة، وأقلهم فيه منزلة، وجعلته جامعاً لكل ما يحتاج الكاتب إليه، حتى لا يعوّل في جميعه إلا عليه».

وهذا الكتاب، هو خبرة جامعة لتطور عصور الكتابة قبله، ووصولها إليها، في شرطه الزمني والتاريخي، وقد أورد فيه حوالي 90 فصلاً قسّمها في ثلاثة أبواب، هو يسميها «أجزاء ثلاثة» والحقيقة، أن الشمولية التي أحاط بها الصولي بهذا الكتاب، لم تترك شيئاً من شأن الكتابة، إلا وجاءت على ذكره، بدءاً من ظهور الكتابة وانتهاء بقط القلم والأدوات وحجم القرطاس وغيره.

ينطلق الصولي من فهمه لخصوصيات الكتابة والكتّاب، فيقول[2]: وبالكتابة جُمع القرآن، وحُفظت الألسن والآثار، ووُكدت العهود، وأثبتت الحقوق، وسيقت التواريخ وبقيت السكوك، وأمن الإنسان النسيان، وقيدت الشهادات، وأنزل الله في ذلك آية الدين، وهي أطول آية في القرآن، ويبدي مشاعره مع هذه الفئة - الكتّاب - حاضاً إياهم على التفرغ لها، والإقبال عليها لأنها من الصناعات الشريفة، ولأنها من أجل ما كدّ فيه الفكر وقطعت به الأيام، ثم يُحفّز الكثير من الناس للخوض في غمارها، قائلاً: وليس يجب لمن صغر من هذه العلوم أن يدع التعلم آيساً من الإستفادة، مولياً من الاستزادة، فربما كان الإنسان مهيأ الذهن لحمل العلم، قريب الخاطر، متقد الذكاء، فيضيع نفسه بإهمالها، ويميت خاطره بترك استعمالها، فيكون كما قال علي بن الجهم[3]:

والنار في أحجارها مخبوءة   ليست ترى إن لم تثرها الأزند

وبهذا يكون منهج الصولي، يعتمد على التجريب في بعض الأحوال، معتبراً أن حالة

(1) أبو بكر الصولي/ أدب الكتّاب/ ص20.
(2) المصدر السابق/ ص24.
(3) نفسه/ ص26 - 27، وراجع ديوان علي بن الجهم/ ص43 - بعناية خليل مردم بك - منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق 1369هـ/ 1949م.

الابداع قد تكون كامنة تحتاج من يحركها، وهذا الموقف، نابع من تجربته الخاصة في ميدان الكتابة، ثم أنه يعتبر الكتابة فوق كل صناعة، وهو منحاز بكلّيته، وقد سما بها أيما سمو وتجاوزت أي عمل آخر، من أعمال الحياة، ويُثبت هذا الموقف، ببيت من الشعر يستشهد فيه على فكرته أو موقفه يقول[1]:

إن الكتابة رأس كل صناعة ... وبها تتم جوامع الأعمال

شكّل الأسلوب مفتاحاً رئيسياً في الكتابة في (ق 4هـ)، الأمر الذي توقف عنده الصولي، وأخذ يعالجه، بطريقة يلزم الكتّاب فيها، بناء على ما يراه هو، وما يرتضيه الجمهور من بعده، وتقبله دواوين الدولة، وفق اعتقاداتها الأيديولوجية والثقافية، لذلك يفرد لهذه الناحية فصلاً من كتابه/ أدب الكتّاب/ يسميه «رسوم الكتّاب» كنقطة أولى في علم التدرج الكتابي، يبدأ الكتّاب منها في تعلم الكتابة، يقول الصولي في هذا الصدد[2]:

«في كتابتهم (بسم الله الرحمن الرحيم) يختار الكاتب أن يبدأ بكتاب/بسم الله الرحمن الرحيم/ من حاشية القرطاس، ثم يكتبون الدعاء من تحته مساوياً. ويستقبحون أن يخرج الكلام عن بسم الله الرحمن الرحيم، فاضلاً بقليل، ولا يكتبونها وسطاً، ويكون الدعاء فاضلاً، وإنما يفعل ذلك بالتراجم، ومن الكتّاب من يرى أن يجعله وسطاً في أسفل الكتاب، بعد إنقضاء الدعاء الثاني، والتاريخ إذا احتاج إلى تبيين نسخة كتاب متقدم أو حساب، ليفرّق بين منزلته من صدر الكتاب وبين عجزه، وقد ذهب إليه قوم، ولا يفسح ما بين بسم الله الرحمن الرحيم وبين السطر الذي يتلوه من الدعاء، ولكن يُفسح ما بين الدعاء إذا استتمَّ وبين سائر المخاطبة، ولا يتجاوز بالدعاء ثلاثة أسطر، ولا يستتم السطر الثالث على المشهور من مذاهب أجلاّء الكتّاب».

ومن هذه التعليمات في الأسلوب واشتراطاتها الأولية على الكتّاب، يبدأ الصولي بعدما يذكر الأمور الفنية واللغوية، وكيفية توظيفها في النص، من مثل «أمّا بعد» وكيفية البدء في الإنشاء والصلاة على النبي محمد، وبدء الكتابة باسمه، والإنتهاء باسم كاتب الكتاب، وكذلك عن الأئمة بإمرة المؤمنين، والإمامة والتصدير في أول الكتاب، والدعاء في آخره للإمام وولي العهد والوزير واحد. إلا أنهم قالوا: سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وكذلك لولي العهد في التصدير والدعاء الأخير، ولم يقولوا للوزير «وبركاته» ليفرقوا بين المحلين، وكان التصدير ينتهي إلى قوله: «فإني أحمد إليك الله الذي

(1) أدب الكتّاب/ ص28.

(2) أدب الكتّاب/ ص36.

لا إله إلا هو» إلى أن أفضت الخلافة إلى الرشيد فأمر أن يزاد فيه: «وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله». فكتب بذلك[1]. ثم يلتفت الصولي إلى أمر الخط مؤكداً على جودته وتحسينه، مورداً الشواهد والأمثال والحكم لما قيل في حسن الخط وقبحه[2] وما قيل في النقط ووصف القلم، حتى ليورد الشواهد الشعرية التي تحبذ للسامع والكاتب حسن الاختيار، من ذلك، قول أبو أسامة الكاتب[3]:

وأعجف مشتق الشباه مقلّم ... موشى القرى طاوي الحشا أسود الفم
تبين خفي السر آثاره لنا ... ويعرب عن غير الضمير المكتم
يؤدي صحيح القول عنه مخاطبا ... بهِ العين دون السمع لا بالتكلّمِ
إذا إستغزرته الكف فاضت سجاله ... من الفكر فيض الرايح المتغيّم

وفي الباب الثاني من كتابه، يتطرق الصولي إلى الإنشاء وأهميته عند الكاتب، ثم يعرج على السطر وأصله واستعمالاته[4] وكيفية مقابلة الكتاب على بقية النسخ، والخطأ في الكتابة وكيفية ملافياته، والمشق في الكتابة (أي السرعة) والزلف، أو التجاوز من شيء إلى شيء، وفض الكتاب، أو تنحيت المادة اللاّصقة على الدرج من طين وسحات[5] وغيره، ثم ترتيب الكتابة والمحو فيها، ومعنى عرض الكتاب والتدرب عليه[6] ثم نبّه على اللحن في الكتابة وكيفية تجاوزه، والتعلّم والإملاء وطي الكتاب ودرجه، ودرس الكتاب وسرده، وكيفية استعمال الخاتم وسببه، وعنونة الكتاب، ومقادير القراطيس التي يكتب فيها، وغير ذلك من الأمور الخاصة في الكتابة والكتّاب[7]. ثم ينتقل الصولي إلى إيراد نماذج تطبيقية يوردها كشواهد للكتاب كي ينحو منحاها، وفق تسلسل الهرم الطبقي، فيورده مثلاً ما يكتب الإمام إلى ولي عهد المسلمين فيقول[8]، من عبد الله أبي فلان الإمام الراضي بالله أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان، سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على محمد وآله»، ثم يكتب بما يراد، ثم يقال: «فاعلم ذلك من

(1) أدب الكتّاب/ ص36 - 40.
(2) نفسه/ ص41 - 56.
(3) نفسه/ ص57 - 85.
(4) أدب الكتّاب/ ص118.
(5) السحات - القشرة.
(6) أدب الكتّاب/ ص 120 - 129.
(7) المصدر السابق/ ص129 - 162.
(8) نفسه/ ص163.

رأي أمير المؤمنين، وكتب فلان بن فلان باسم الوزير وباسم أبيه، يوم كذا من شهر كذا، من سنة كذا».

وهذه النماذج خاصة بديوان الخليفة ومخاطباته فقط لمن هم أدنى منه مرتبة اجتماعية أو إدارية، ويُكتب عن ولي العهد مثل ذلك، إلا أنه يجعل مكان أمير المؤمنين ولي عهد المسلمين، وعلى هذه الشاكلة كتب الإمام الديوانية إلى الوزير، أما مكاتبة الوزراء إلى أمراء النواحي ومن ساواهم فهي على الشكل التالي[1]: «أطال الله بقاءك، وأدام عزك وكرامتك، وأتم نعمته عليك وإحسانه إليك وعندك». وربما زيدت لفظة ونقصت لفظة، ودون هذا قليل، وأول من كتب «أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عزه» سليمان بن وهب وكانت «وأعزّه».

وأما مكاتبات الناس إلى الخليفة أو ولي العهد أو إلى الوزير فيكتب فيها: «العبد الله فلان بن فلان إلى كذا أمير المؤمنين، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إلى أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله»، ويكون ذلك في سطرين، وبعض آخر، ثم يقال: «أما بعد، أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عزه وتأييده وكرامته وسعادته وحراسته، وأتم نعمته عليه، وزاد في إحسانه إليه بفضله عنده، وجميل بلائه لديه وجزيل قسمه له» ويكون في سطرين، ثم يقال بعد ذلك: «فقد كان كذا» لأن جواب «أما بعد» بالفاء، فقد كان كذا وكذا، فإذا أتى على جميع المعاني المحتاج إلى مكاتبة فيها فبلغ إلى الدعاء قال: «أتم الله على أمير المؤمنين نعمته، وهنّاه كرامته، والبسه عفوه وعافيته وأمنه وسلامته، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وكتب فلان يوم كذا في شهر كذا، وإلى ولي العهد والوزير مثل ذلك، إلا أن الفرق بين الإمام وبينهما أن يُكتب إلى الإمام مع السلام وبركاته، وفي آخر الكتاب، مثل ذلك، ويحذف وبركاته إلى هذين في التصدير، ويثبت في آخر الكتاب[2]. ويكاتب الوزير أيضاً الإمام بغير تصدير، إذا لم تكن الكتب منشأة من الدواوين، ويكاتب الوزير في الحوائج بغير تصدير، وإذا كوتب أمير أو قاض يقال: «أطال الله بقاء الأمير أو القاضي» لم يُقل أما بعد، ولا سلام على أحدهما. أما مكاتبة النظراء تحتمل كل شيء، على حسب المودة[3].

وثمة مسألة هامة ينبه عليها الصولي بصدد طريقة الكتابة وعُرفها هي، قراءة الكتاب

---

(1) نفس المكان.

(2) أدب الكتّاب/ ص164.

(3) المصدر السابق/ ص165.

بعد إنشائه وكتابته، أو ما يعرف اليوم «مراجعة الكتاب» وهي مسألة هامة، تحكم الكاتب بمراجعة أفكاره وأسلوبه، وتفقّد مكمن السهو، إن وجد، وهو عرف يأخذه من مصدر السنّة يقول[1]:

عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحي عند رسول الله ﷺ وهو يملي عليَّ، فإذا فرغت قال: «اقرأه، فأقرؤه، فإن كان فيه سقط أقامه»[2]، وهو إنما ينطلق من هذه الزاوية، لأنه يخاطب عقولاً تأدلجت بالعقيدة والشريعة الإسلامية، ثم أنه يعطيه صفة «السنّة» كي يُثبّت فيه المنهج، وتلك خصيلة محمودة، يتوجب الأخذ بها، وهو يصرّ عليها ويستشهد برأي أحد الكتّاب السابقين عليه يقول[3]:

ألمح كتابك حين تكتبه ... واحرسه من وهم ومن سقط
واعرضه مرتاباً لصحته ... ما أنت معصوم من الغلطِ

والدلالة النقدية في هذا البيت، حريٌ أن يؤخذ بها، لأن مبدأ الشك في صحة المعلومات إذا إنطلق منه الكاتب، يؤدي به إلى اليقين لصحة الحدث والواقعة، ومن هذا الجانب يكون التأكيد بعرض ما يُكتب لشخص آخر مطّلع، بنفس الفن، كي تكون سلامة الأفكار والنقل والتدوين، وبتقديرنا، أن هذا المنهج في الكتابة، لهو أمر يدلل على حرص الكتّاب - في ذلك الوقت - على اليقين والصدق فيما يكتبون، وكأن الأمر المستقبلي - لتطور الحضارة والثقافة، يعنيهم بالمقام الأول.

ومن هذه الزاوية بتحمل مسؤولية الكتابة، يتعرض الصولي إلى فئة من الكتّاب تدعي تعاطي الكتابة وهم لا يحسنوها[4]، وهو ينحو في الاتجاه منحى الجاحظ في الإزدراء والتندّر على أمثال هؤلاء الكتّاب فينقل ما قاله الشعراء في هجوهم، فمن ذلك قول أحدهم:

حِمار في الكتابة يدّعيها ... كدعوى آل حرب في زيادِ
فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو غرّقت ثوبك في المداد

ولا يكتفي الصولي بذلك، بل يأخذ الأمرعلى عاتقه، لتخليص حقل الكتابة من هؤلاء

(1) المصدر نفسه.
(2) راجع - الترمذي - باب القرآن 11.
(3) أدب الكتّاب/ص165.
(4) المصدر السابق/ص170.

الأدعياء فيمارس بحقهم النقد اللاذع، وبالوسيلة الأكثر انتشاراً - الشعر - في ذلك الوقت، فهو يقول: ولي أبيات في بعض الكتّاب[1]:

إن كانت الكتبة بالشوم ورقة الأخطار واللومِ
فصغر الحلقة حتى ترى وأنت معلوم كمعدومِ
فأنت لا شك على ما أرى أكتب من في العرب والرومِ
الدهر ذو ظلم ولكنه منك تشكّى حال مظلوم
يأنف أن تحيا ولكنّه تحت قضاء فيك محتوم

ثم بعد ذلك، ينتقل إلى مسألة الدعاء ولغته في المكاتبات كقولهم «أطال الله بقاءك» وكيف قُبلت وأُخذت، وعورضت وقبحت على اعتبار أنها من مفردات الزنادقة[2] ويشدد في ذكر التاريخ ذاكراً بعض لهجات القبائل في فهمه، ومعناه لغة، يقول[3]: «ويقال ورّخت الكتاب توريخاً، لغة تميم وأرخته تأريخاً لغة قيس،، ويذكر بأن العرب غلّبت الليالي على الأيام في التاريخ، لذلك تكون مشاهدة الهلال إحدى الدلائل لتثبيت التواريخ فيقولون في ذلك «وكتب ليلة الجمعة غرّة كذا، ومستهل شهر كذا، ومَهل شهر كذا»[4].

ثم لم ينس الصولي تطور الظواهر الثقافية في آنه، وكيفية التعاطي معها إيجابياً، لا سيما مسألة الثقافات الأخرى الوافدة على بغداد من رومية وفارسية وهندية وغيرها، فينتبه إلى موضوع الترجمة، مجارياً الجاحظ في هذا المجال[5]، إلا أن ما وصلت إليه الحضارة في زمن الصولي، هي أبعد مما في زمن الجاحظ، لذلك ينبّه الكتّاب إلى الكيفية المنهجية التي يتوجب على الكاتب أن يعمل بها، يقول[6]: «أصل هذه اللفظة فارسية/ الترجمة/ وكذلك الترجمان، وقد تكلمت بها العرب بعد ذلك وعرّبتها، ويضيف: وإنما ذكرتها هنا لأني أحب أن لا يصّفَر كتابي هذا من شيء يحتاجه الكاتب». ثم يروح يسرد كيفية البدء بالترجمة، وهذا يدلل على شيوع الترجمة والعمل بها بين الكتّاب والورّاقين، ثم يذكر الديوان وكيف تم العمل به عربياً بعد أن كان فارسياً[7].

---

(1) أدب الكتّاب/ ص171.
(2) المصدر السابق/ ص172 - 175.
(3) نفسه/ ص178.
(4) نفسه/ ص180 - 181.
(5) راجع كتاب الحيوان للجاحظ 1/ 75 - 78.
(6) أدب الكتّاب/ ص186.
(7) المصدر السابق/ ص187 - 195.

وفي الباب الثالث - من كتابه «أدب الكتّاب» يوجه الصولي عنايته إلى كتبة الحساب أكثر من غيرهم، مبتدءاً بالمال وكيفية حسابه وجبايته، وما هي ثقافة الكاتب في ذلك، مؤكداً على فهم الأحكام الشرعية ووجودها في التطبيق، وحسابات الخراج وغيرها من الأمور[1]، ثم يفرد فصلاً خاصاً للمحاسبين، مورداً لهم الشواهد والبيانات للتعلم والأخذ عنه[2]، ثم يخصص الفصول الأخيرة من كتابه إلى أحرف اللغة وكيفية نقصانها وإسقاطها في منهج الكتابة[3].

وبهذا الكتاب يكون الصولي، قد أبرأ ذمته، لأنه أراد لعصره ما تمنّاه لنفسه، وقد كان منفعلاً ومتفاعلاً مع روح العصر الذي كان يعيشه، وأتمّ رسالة سابقيه الجاحظ وابن قتيبة في هذا المجال.

وعلى الصعيد الثقافي الآخر، أثرت ظاهرة ثقافية أخرى في نمو وتطور المعرفة بشكل عام، وتطور وعي الكتّاب والمثقفين، بشكل خاص، تلك هي «ظاهرة المجالس والندوات» حيث كان يطرح فيها الأستاذ، أو العالم آراء ليناقش عليها، وتبدأ عملية الصراع الفكري تأخذ مجراها، في عملية ثقافية صاعدة، فاسحة المجال لتلاقح الأفكار، من شتى الاتجاهات والمشارب وقد كان لمجالس النحو أهمية فائقة، في شحذ أذهان الكتّاب، وأقلامهم، فهذه المجالس، كانت تناقش أسرار اللغة العربية، وما فيها وما دخل عليها، فتبين وحشي الكلام، وتقوّم نطق المتكلمين وألسنة الشعراء والأدباء، وكان لاختلاف المدرستين النحويتين - البصرية والكوفية - أثره الأبلغ في تطور علوم العربية عامة، والنحو، بشكل خاص، فقسم المتخاصمين إلى فريقين، جذب حولهم أشياعاً وأتباعاً من شتى المذاهب الفكرية، فهذا الكاتب يشايع تلك المدرسة، والآخر ينضم إلى المدرسة الأخرى، وهذا يقيس على مبدأ سيبويه، والآخر يناصر عليه بمذهب عمرو بن العلاء، وبالتالي ينقسم العراق نحوياً، قسم يأخذ بنحو الكوفة، والآخر يلتزم بنحو البصرة، الأمر الذي يحرك بقية الأمصار الإسلامية، لأن تدخل في حلبة الصراع الفكري، وتعطي للنحو حقه، من هذا الصراع، وهذه المسألة الثقافية الرائعة، عادت بباحثي تلك العصورمن العودة إلى الموروث الجاهلي، وتقصي الحقائق فيه، ومن ثم إثارة الفكرة عن طريق شواهد الشعر الجاهلي، واعتماد لغة الأعراب فيصلاً في قضايا الخلاف النحوي، وهذه «الخلافات» أثرت اللغة العربية ولقد كان الخلفاء العباسيون، رُعاة هذه المجالس،

(1) أدب الكتّاب/ ص198 - 234.
(2) نفسه/ ص338 - 343.
(3) نفسه/ ص243 - 259.

وتجري المناظرات بحضورهم، وقد اشتهرت حادثة هامة في مسألة الخلاف النحوي بين شيخ المدرسة الكوفية في النحو الكسائي وبين شيخ المدرسة البصرية في النحو سيبويه(1) وبحضرة الرشيد.

وقد كان لهذا اللقاء وقعهُ المدوي على علماء اللغة وشيوخها في حواضر وبوادي الخلافة العباسية برمتها، وتناولته الأقلام، وجاءت على ذكره المصادر في مختلف العصور(2)، وقد استفاد طلاب علم النحو وغيرهم من هذا اللقاء الثقافي التاريخي الهام، ولا يزال صداهُ يتكرر ويدرس ويبحث حتى هذا اليوم، والواقعة نقلتها المصادر على النحو التالي: قال أبو إسحاق الزجاجي(3):

حدثني أبو العباس أحمد بن يحيى (ثعلب) وأبو العباس محمد بن يزيد (المبرّد) وغيرهما قال: قال الفراء: قدم سيبويه على البرامكة، فعزم يحيى البرمكي على الجمع بينه وبين الكسائي، فجعل لذلك يوماً، فلما حضر تقدمت والأحمر - يقصد خلف الأحمر - وكانا من أنصار الكسائي، وضمن المدرسة الكوفية - قال: فدخلنا، فإذا تمثال في صدر المجلس، فقعد عليه يحيى، وقعد إلى جانب التمثال جعفر والفضل، ومن حضر بحضورهم، وحضر سيبويه، فأقبل عليه الأحمر، فسأله عن مسألة أجاب فيها سيبويه، فقال له: أخطأت، ثم سأله عن مسألة ثانية فأجابه فيها، فقال له: أخطأت، ثم مسألة ثالثة فأجابه فيها، فقال له: أخطأت. فقال سيبويه: هذا سوء أدب..

قال الفراء: فأقبلت عليه فقلت: إن في هذا الرجل حداً وعجلة، ولكن ما تقول فيمن قال: هؤلاء أبون، ومررت بأبين، كيف تقول مثال ذلك من رأيت أو أويت قال: فقدر فأخطأ، فقلت: أعد النظر، ثلاث مرات يجيب ولا يصيب، قال: فلما كثر ذلك قال: لست أكلمكما أو يحضر صاحبكما حتى أناظره. قال: فحضر الكسائي، فأقبل على سيبويه فقال: تسألني أو أسألك؟ فقال: لا بل سلني أنت، فقال الكسائي: ما تقول، أو كيف تقول: قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور(4) فإذا هو هي، أو فإذا هو إياها؟ فقال سيبويه: فإذا هو هي. ولا يجوز النصب، فقال له الكسائي: لحنت، ثم سأله عن

---

(1) انظر مقدمة عبد السلام هارون لكتاب سيبويه 1/ 8 طبعة عالم الكتب بيروت.

(2) انظر على سبيل المثال: معجم الأدباء - لياقوت الحموي، والاشباه والنظائر للسيوطي، وبغية الوعاة للسيوطي أيضاً وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ومجالس العلماء للزجاجي، ومجالس ثعلب وغيرها من المصادر.

(3) مجالس العلماء/ ص8 - تحقيق عبد السلام هارون - طبعة الكويت 1962 والاشباه والنظائر للسيوطي 3/ 15 - طبعة حيدر اباد - الدكن - سنة 1360هـ.

(4) تُعرف هذه المسألة بـ«المسألة الزنبورية» بين الكسائي وسيبويه، وكثيراً ما ترد بهذه التسمية.

مسائل من هذا النوع مثل: خرجت فإذا عبد الله القائمُ أو القائمَ؟ فقال سيبويه: في كل ذلك بالرفع دون النصب، فقال الكسائي: ليس هذا كلام العرب، العرب ترفع في ذلك كله وتنصب. فدفع سيبويه قوله، فقال يحيى بن خالد: قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما، فمن ذا يحكم بينكما؟ فقال الكسائي: هذه العرب ببابك قد جمعتهم من كل أوب، ووفدت عليك من كل صقع، وهم فصحاء الناس، وقد قنع بهم أهل المصرين، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم، فيُحضرون ويسألون. فقال يحيى وجعفر: لقد أنصفت، وأمر بإحضارهم، فدخلوا وفيهم أبو فقعص، وأبو زياد وأبو الجراح، وأبو ثروان، فسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه، فتابعوا الكسائي وقالوا بقوله: قال: فأقبل يحيى على سيبويه فقال له: قد تسمع أيها الرجل. قال: فاستكان سيبويه، وأقبل الكسائي على يحيى فقال: أصلح الله الوزير، إنه قد وفد عليك من بلده مؤمّلاً، فإن رأيت ألا تردّه خائباً. فأمر له بعشرة آلاف درهم. فخرج وصيّر وجهه إلى فارس، فأقام هناك حتى مات ولم يعد إلى البصرة[1].

هذه الواقعة، رغم أهميتها اللغوية، إلا أنه جرى فيها الافتراء على العلم والمعرفة، فالكسائي كما يُظهره النص قد حاك خيوط «مؤامرة لغوية» كي ينتصر فيها على سيبويه، ليثبت تفرده في علم النحو، ولم تكن المزاحمة على لقمة السلطان عن تفكيره مطلقاً، أما سيبويه فترك البصرة ومات بعد قليل وهو ابن 22 سنة[2]، وهذا الأمر يكشف الموقف الأخلاقي عند النحاة، وكان سيبويه من أقرب المقربين إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي فقد كان يقول له عند مقدمه عليه «مرحباً بزائر لا يمل»[3].

وعليه يثني المبرد، وفيه يقول الزمخشري[4]:

ألا صلى الاله صلاة صدق ... على عمرو بن عثمان بن قنبر[5]

فإن كتابه لم يُغن عنهُ ... بنو قلمٍ ولا أبناء منبر

وما يعنينا في هذه المسألة هو البعد المعرفي وإقبال الناس على مثل هذه الأمور، والتناظر فيها، والخوض في غمارها. مما جعل السلطة ترعاه في قصورها، بل وتأخذ به، وتجعله سنة يومية، في مسار حياتها، فأين اليوم نحن منها؟

---

(1) الزجاجي - مجالس العلماء/ ص8 - 9.

(2) انظر - بغية الوعاق للسيوطي/ ص366 - ط1 - القاهرة سنة 1326هـ.

(3) بغية الوعاة - نفس المكان.

(4) بغية الوعاة/ ص366.

(5) عمرو بن عثمان بن قنبر، هو اسم سيبويه، وكنيته أبو بشر.

وعلى هذا النمط من المطارحات الفكرية تجذرت ظاهرة «المناظرات والمجالس» في أكثر من مكان في بغداد وفي غيرها من المدن الإسلامية، وبقيت هذه الظاهرة ملازمة لكل العصور العباسية، وأدرك العلماء والأدباء والفقهاء، وغيرهم في صفوف المعرفة، ما لهذه المجالس من أهمية ثقافية وحضارية، فأخذوا ينشؤنها بشكل شخصي، كل حسب درايته ومعرفتته في علم من العلوم، فهذا «ثعلب» يعقد مناظراته ومجالساته لطالبي الأدب والنحو، فيقيم فيما يُعرف بـ «المنتدى الأدبي» اصطلح عليه بـ «مجالس ثعلب» اشتملت هذه المجالس على ضروب شتى من علوم العربية، وضمّت في تضاعيفها كثيراً من المسائل النحوية على مذهب الكوفيين، أولاً: باعتباره أحد أعلام هذه المدرسة، إضافة إلى استشهاداته ببعض آراء أهل البصرة[1]، واشتمالها على الكثير من النوادر والأشعار والأخبار للأوائل قبله، والمعاصرين له.

وثعلب هذا كان - كما يقول الخطيب البغدادي[2] - ثقة حجة، ديناً صالحاً، مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة، والمعرفة بالغريب، ورواية الشعر القديم، مقدماً عند الشيوخ مُذ هو حدث، ويقال أن ابن الأعرابي كان يشك في الشيء فيقول له: ما عندك يا أبا العباس في هذا؟ ثقة بغزارة حفظه، وُلد في سنة 200هـ، يقول هو عن نفسه[3]: طلبت العربية واللغة في سنة ست عشرة ومائتين، وابتدأت بالنظر في حدود الفراء وسني ثمانية عشر سنة، وبلغت خمساً وعشرين سنة وما بقي عليّ مسألة للفراء إلا وأنا أحفظها، وأحفظ موضعها من الكتاب، ولم يبقَ شيء من كتب الفرّاء في هذا الوقت إلا قد حفظته.

هذه المسألة جديرة بالتوقف قليلاً فهي تدلل على أهمية التخصص في فن واحد، ثم أنها تبين كيف يستطيع المثقف أن يدرك أسرار لغته، منذ الصغر، والتفقه باللغة ليس من الأمور السهلة، فثعلب يؤكد تلمذته على منهج أحد أكبر علماء اللغة العربية وهو الفرّاء، وتمكن تماماً من إدراك هذا المنهج من خلال حفظه لكل مساءلة وكتب هذا الشيخ العالم باللغة.

وليس ذلك فحسب، فثعلب، أراد بحسنِ حافظته وإدراكه أن يعوّد الكتّاب الآخرين منهج التتلمذ على الطريقة والشيخ، في علم معين، ويظل يسير فيها ويرفدها بشكل متواصل، يقول في هذا الصدد[4]: كنت أحب أن أرى أحمد بن حنبل، فصرت إليه، فلما دخلت عليه قال لي: فيم تنظر؟ فقلت: في النحو والعربية، فأنشدني:

(1) انظر عبد السلام هارون - مقدمة مجالس ثعلب 1/ 24.
(2) تاريخ بغداد 5/ 205.
(3) تاريخ بغداد/ نفس المكان السابق.
(4) تاريخ بغداد 5/ 205.

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوتُ، ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ما مضى ولا أن ما تخفي عليه يغيبُ
لهونا عن الايام حتى تتابعت ذنوب على آثارهن ذنوب

يبدو أن ظاهرة المناظرات اللغوية بسطت هيمنتها على طول القرنين الثالث والرابع الهجريين وظل اختلاف النحاة في أمور النحو مسألة قائمة الحضور، على أساس المدرستين، الكوفية والبصرية، وسحب هذا الاختلاف خيوطه على بقية العلماء والكتّاب، وثعلب نشأ وتعلم على نحو الكوفيين، لذلك نحا منحاهم في التصدي لعلماء البصرة، فقد كان بينه وبين المبرد - شيخ النحو في البصرة وقتها - منافرات كثيرة، والناس مختلفون في تفضيل كل واحد منهما على صاحبه، وهذه المسألة تدلل بعمق على متابعة جمهور الناس أمور الثقافة وشؤون أصلها، فمثلاً جاء أحدهم إلى ثعلب وقال: يا أبا العباس قد هجاك المبرد، فقال بماذا؟ فأنشد[1]:

أقسم بالمبتسم العذبِ ومشتكى الصب إلى الصبّ
لو كتب النحو عن الرب ما زاده إلا عمى القلب

وعلى ما يبدو، أن ثعلب أدرك الدسيسة وحمق القادم عليه وجهالته فقال: أنشدني من أنشده عمرو بن العلاء:

شاتمني عبد بني مسمع فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقاري له ومن يعض الكلب إن عضّا؟

وبلغ شغف الناس بمثل هذه «المجالس والمناظرات» حداً ملك ألبابهم، فراحوا يتعقبون أخبار العلماء، وأوقات مناظراتهم، ويتنافسون لحضورها، وحث الآخرين عليها، ومن مختلف المراتب الاجتماعية، يقول[2] أبو العباس محمد بن عبد الله بن طاهر قال لي أبي: حضرت مجلس أخي محمد بن عبد الله بن طاهر، وحضره أبو العباس أحمد بن يحيى «ثعلب» وأبو العباس محمد بن يزيد «المبرد» النحويان، فقال لي أخي: قد حضر هذان الشيخان وأنا أحب أن أعرف أيهما أعلم، أو نحو هذا من الكلام، فاجلس في الدار الفلانية - قد سمّاها - ويحضر هذان الشيخان بحضرتك ويتناظران. قال: ففعلت ما أمر وحضرا، فتناظرا في شيء من علم النحو مما أعرفه، فكنت أشاركهما فيه، إلى أن دقّقا فلم

(1) تاريخ بغداد 5/ 208.
(2) المصدر نفسه.

أفهم، ثم عدت إليه بعد انقضاء المجلس، فسألني فقلت: إنهما تكلما فيما أعرف فشاركتهما في معرفتي، ثم دقفا فلم أعرف ما قالا، ولا والله يا سيدي ما يُعرف أعلمهما إلا من هو أعلم منهما، ولست ذاك الرجل، فقال لي أخي: أحسنت والله، هذا أحسن - يعني إعترافه بذلك -[1].

والجميل في ذلك أنهم - أي الناس - يتثاقفون مع هؤلاء العلماء ولا يتجاوزونهم بالمطلق، حتى أنهم يتهيبون في تقييم الشخصية العارفة، فقد سُئل أبو بكر بن السراج عن أي الرجلين أعلم، ثعلب أم المبرد؟ فقال: ما أقول في رجلين العالم بينهما..

وثمة موقف آخر هام، برز عدد المتعلمين من جمهور الناس هو الحرص على العالِمَ وتدوين نتاجه قبل موته، كي يستطيع نفس العالم مراجعته وتشذيبه وتهذيبه، وهذه الحالة، أرقى من الأولى - أي ظاهرة التثاقف مع العلماء - لأن حس المسؤولية فيها يتخطى الحالة الفردية، فعندما مات المبرد وقف رجل على ثعلب فقال[2]:

بيت من الآداب أصبح نصفه ... خرباً وسائر نصفه فسيخرب
مات المبرد وانقضت أيامه ... ومع المبرد سوف يذهب ثعلب
وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسه ... إذ كانت أنفاس مما يكتب

ويرتفع حس المسؤولية عند الناس إزاء العلماء، ويظلون يفكرون فيهم وفي طرق معيشتهم، فتأخذهم الحمية لطرح ذلك على الخليفة، باعتباره راع، والراعي مسؤول عن الرعية، ومن هذا الباب، طرح أبو الصقر إسماعيل بن بلبل الشيباني أمر ثعلب أمام الموفق بالله، فأخرج له رزقاً (راتباً) سنياً سلطانياً، فحسن موضع ذلك من أهل العلم والادب كما يقول الخطيب[3]: فعلاً كان للجمهور موقف واضح من العلماء، وشاركهم في ذلك السياسيون، والموقف أعلاه أسطع دليل، والسياسي في هذا الموقف منقاد للمثقف.

إن هذه العلاقة الحضارية المعرفية، المتبادلة بين العالم والجمهور، بُنيت بموقف معرفي أملاه الواقع والعالِم، على حد سواء، فالجمهور واعي مهمة العالم، والعالم يدرك مسؤوليته إزاء الجمهور، مما شكل وحدة معرفية متجانسة ذات قطبين، يطوّر أحدهما الآخر، وسنضرب مثالاً على ذلك بشخصية ثعلب نفسه، قال ابن قفرجل[4]: حدثنا محمد

---

(1) تاريخ بغداد 5/ 209.
(2) تاريخ بغداد 5/ 209.
(3) نفس المصدر.
(4) تاريخ بغداد 5/ 210 - 211.

بن يحيى قال: كنا يوماً عند أبي العباس أحمد بن يحيى - ثعلب - فضجر. فقال له شيخ خضيب من الظاهرية: لو علمت مالك من الأجر في إفادة الناس العلم لصبرت على أذاهم، فقال ثعلب: لولا ذاك ما تعذبت، ثم أنشد بعقب هذا:

يعابثن بالقضبان كل مفلّجٍ ... به الظلم لم تفلل لهن غروب
رضاباً كطعم الشهد يحلو متونه ... من الصرأو غصن الأراك قضيب
أولئك لولاهن ما سقت نضوة ... لحاج وما استقبلت برد جنوب

وعندما مات ثعلب سنة 291هـ[1] قام أحد تلاميذه فرثاه، فقال[2]:

مات ابن يحيى فماتت دولة الأدب ... ومات أحمد أنحى العجم والعرب
فإن تولى أبو العبّاس مفتقداً ... فلم يمت ذكره في الناس والكتب

لقد طغت ظاهرة «المجالس والمناظرات» على الحياة العامة، وصار صاحب المجلس يُنظر إليه على أنه من رعاة العلم والأدب، فتنافس الخلفاء في هذه المسألة من خلال تطور هذه المجالس في آنه، حتى أن خلفاء الأندلس الأمويين، نحوا منحى الخلافة في بغداد في هذا المشوار، وتكاد بعض الشخصيات الثقافية أن تتفرد بفن واحد أو عدة فنون في مجالسها فالأصمعي، كانت أغلب مجالسه تدور حول أخبار الشعر والشعراء، حيث أنه كان أفطن أهل زمانه في رواية الشعر، وقد كان مجلس الرشيد يضمّه، ثم إنتقل مع أبناء الرشيد في مجالسهم بعده، فكان ذات يوم عند عيسى بن جعفر، إذ دخل المفضّل بن محمد بن يعلى بن سالم المعروف بـ«المفضل الضبّي»[3] وهو أحد علماء اللغة والشعر والأخبار وأيام العرب، فتناظر مع الأصمعي، فأنشد المفضّل بيت أوس بن حجر:[4]

وذات هدم عار نواشرها ... تصمت بالماء تولباً جذعا[5]

فقال الأصمعي: هذا تصحيف، لا يوصف التولّب بالاجذاع، وإنما هو «جدعا» والجدع: السيء الغذاء، قال فجعل المفضل يشغب، فقلت له: تكلم كلام النمل وأصب،

---

(1) تاريخ بغداد 5/ 212.
(2) المصدر السابق 5/ 210.
(3) انظر ترجمته في «المفضليات» ص/ 24 - 25، بعناية أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون - ط3، دار المعارف المصرية 1964م.
(4) الجاحظ/ الحيوان 4/ 25 - 27، ومجالس الزجاجي/ ص7.
(5) الأجذاع = جمع جذع، بالتحريك، وهو من الحافر ما كان في الثالثة/ اللسان - مادة - جدع جذع/ وفيها البيت ذاته.

ولو نفخت في شبّور يهودي[1] لم ينفعك شيئاً.

صارت هذه المجالس، أندية ثقافية هامة، ومراجع لا يستغنى عنها، مما دفع بالكثيرين من مهتمي اللغة والادب لتدوينها، وقد شملت كتابات الجاحظ الكثير منها، لا سيما «الحيوان والبيان والتبيين» فيما خصص الزجاجي (أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق) كتابه «مجالس العلماء» لتدوين مثل هذه «المناظرات والمجالس» وأرشفتها، لأنها - إضافة إلى ما تحويه من أخبار وبلاغة وشعر ونثر - أصبحت من الشواهد، لحالة ذلك العصر، وبها من الدلائل لمختلف العلوم ما لا يمكن وصفه، ويصح أن يطلق عليها «دائرة معارف» عن حياة سابقيهم ومعاصريهم بمختلف العلوم، انظر لهذا المجلس/ مجلس أبي عطاء مع أبي صفوان/ [2].

(قال إبن الكلبي عن أبي عطاء الاعرابي قال: أتيت أبا صفوان[3] أيام قسّم المهدي للاعراب، فقال لي أبو صفوان، وكان يمتحن الناس: ممن أنت؟ قلت: من بني تميم. قال: فأي تميم قلت: ربابي، قال: فما عملك وأين بلدك؟ قلت: بالدجنتين. قال: فما كنت تصنع؟ قلت: كنت أعالج الابل. قال: فلك بها علم؟ قلت: نعم. قال: فأخبرني عن حقة حقت على ثلا ث حقاق قال: فقلت له: سألت خبيراً بهذا هذه بكرة كانت معها بكرتان في ربيع واحد، فارتبعن، فسمنت قبل أن تسمنا، فقد حقت عليهما واحدة، ثم ضبعت ولم تضبعا، فقد حقت عليهما حقة أخرى، ثم لقحت ولم تلقحا، فهذه ثلاث حقات، فقال: لعمري أنت منهم).

ففي هذا المجلس المتناظر فيه، لوحده، تبرز عدة أمور، منها معرفة الإنسان، والعمل وطبيعة المهنة، وفهم الطبيعة الكونية في عالمي النبات والحيوان وتقلبات الجو، إضافة إلى الفصاحة والبيان، وجزالة الاسلوب، ومعرفة دقيقة بمخارج اللغة، إضافة إلى إتقاد الذهن.

إنَّ المسؤولية في تقصي الظاهرة الثقافية، دفعت بالكثير إلى تنشيطها والمساهمة فيها،

---

(1) الشبّور = البوق.

(2) الزجاجي - مجالس العلماء/ ص345 - المجلس رقم (154) من طبعة عبد السلام هارون الكويتية 1962م.

(3) شاعر أعرابي من بني أسد. أورد له القالي في الأمالي 2/ 227 - طبعة دار الكتب المصرية - ط3، القاهرة 1244هـ/ 1926م. قصيدته «المقصورة»:

نـــات دار لـــيـــلـــى وشـــط الـــمـــزار فـــعـــيـــنـــاك مـــا تـــطـــعـــمـــان الـــكـــرى

وهي طويلة جداً بلغت 65 بيتاً، ونظرا لاهميتها، فقد ذكرها البكري في سمط اللالىء/ ص865 وما بعدها. بعناية عبد العزيز الميمني القاهرة 1354هـ/ 1935م.

فهذا أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري يتصدى لمفاهيم حسن البلاغة واستخداماتها في لغة الشعر والنثر، موضحاً أهمية منهج الجاحظ في باب البلاغة والفصاحة وحاذياً حذوه، بجهد رفيع، أوضح فيه ما يحتاج إليه الكتَّاب في صنعتهم للكلام، نثره ونظمه، أسماه «كتاب الصناعتين - الشعر والكتابة - «يقول هو عنه[1]:

«كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام، نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال وإسهاب وإهدار، وجعلته عشرة أبواب، مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً» وهذا يعني أن استمرار التواصل الثقافي بحرص ومسؤولية يمليه الوعي الحضاري في كل ذات مدركة، وبعد العسكري بحوالي نصف قرن يبرز عبد القاهر بن عبد الرحمن أبو بكر الجرجاني، هذا المثقف الموسوعي، الذي كان يعرف فنوناً عديدة، وماهراً فيها، وكان من كبار أئمة العربية - كما يقول ابن شاكر الكتبي[2]، وقد أفرد الكثير من التصانيف الخاصة في علوم العربية، ليفيد القراء والكتّاب على حد سواء، من أشهرها «المغني في شرح الإيضاح» في نحو 30 مجلداً وإعجاز القرآن، وكتاب عن العروض، وأسرار البلاغة وغيرها[3] وقد أعطى الجرجاني جهداً منقطع النظير في مسألة البلاغة واللغة في التمييز بين مفرداتها النثرية والشعرية، ضمن أسس وموازين جمالية، يمكن للكاتب أن يستخدمها بعناية ودقة، لتفضيل حسن الكلام عن قبيحه، أو بمعنى آخر نقد الكلام في أساليب الكتابة والخطابة، يقول[4]: «. . . ومن هنا يتبين للمحصل، ويتقرر في نفس المتأمّل، كيف ينبغي أن يحكم في تفاضيل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان، ومن التبيّن الجلي أن التباين في هذه الفضيلة، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة ليس بمجرد اللفظ، كيف والألفاظ لاتفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويُعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب». وهذه التوجيهات النقدية، يصوغها الجرجاني بأمثال وحكم شتى ضروب الأمثلة والشواهد في اللغة البلاغية ومتجانساتها المتعددة الصور، من تجنيس وتصريح وتورية وغيرها. كل ذلك ليرفع من قدر الأديب والكاتب في صناعته وقوله.

---

(1) العسكري/ كتاب الصناعتين/ ص5 - الطبعة الأولى - مطبعة الجمالي والخانجي/ 1320هـ.

(2) فوات الوفيات 2/ 369-370، تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر - بيروت، وانظر الأعلام للزركلي 4/ 48 طبعة دار العلم للملايين - ط5 - 1980 بيروت.

(3) فوات الوفيات 2/ 370.

(4) الجرجاني - أسرار البلاغة/ ص3، بعناية هـ، ريتر، طبعة استانبول سنة 1954م.

وعلى غرار ظاهرة «المجالس والمناظرات» كانت هناك «مجالس الشعر والغناء» تلك الظاهرة الفريدة والأكثر غناء روحياً من بقية الظواهر الثقافية والحضارية، والتي استطاعت أن تخلق عمالقة في الغناء والموسيقى العربية، مما دفع أبي الفرج الأصفهاني، أن يفرد واحداً من أهم الكتب والمصادر في المكتبة العربية إلى اليوم هو كتاب الأغاني، لمتابعة تطور هذه الظاهرة، وكشف كل وجوه الحياة من خلال حياة المغنين والمغنيات، وما يدور في مجالس سمرهم عند الخلفاء والوزراء، وانعكاس ذلك على العامة، بشكل إيجابي. حتى غدت ظاهرة الغناء مألوفة في بغداد، وذات حظوة وتقدير، كصناعة مجيدة محبّبة، والحق يقال، أن الرشيد، كان مرهف الإحساس لسماع الغناء وتفضيل أهله، فقد عُرف عنه أنه جعل للمغنين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان، فكان ابراهيم الموصلي واسماعيل أبو القاسم ابن جامع وزلزل المعروف بمنصور الضارب في الطبقة الأولى، وكان زلزل يضرب ويغني ابراهيم وجامع عليه، والطبقة الثانية سليم بن سلام وعمرو الغزال ومن أشبههما. والطبقة الثالثة، أصحاب المعازف والونج والطنابير، وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم[1]، وقد تفشت هذه الظاهرة في (ق4 هـ) بشكل ملفت للانتباه بين أوساط العامة في بغداد، حتى أنه أحصي فيها من المغنين والمغنيات في جانبيها - الكرخ والرصافة - 460 مغنية (من الجواري) و120 مغنية (من الحرائر) و95 (من الصبيان)، ما عدا الذين لم يتمكن من الوصول إليهم[2]، فمثل هذه الظاهرة، انعكست بتجلياتها على الأدباء والكتّاب والشعراء والمؤرخين، فذكروها بكتبهم، ويُعد كتاب الأغاني أوثق مصدر يمكن الرجوع إليه للكشف عن هذه الظاهرة وهو يقع في 24 مجلداً ضخماً.

وثمة مسألة هامة أخرى، رفعت واقع الظاهرة الثقافية في العصور العباسية، وأثرت الأدب والفكر، على حد سواء، هي التصوف والمتصوفة التي ظهرت في بدايات (ق 3هـ) فقد ساعدت على نشر الأدب وجعله شعبياً، كما ساعدت على نشر الكتب وصبغها بصبغتهم، وقوّت مبدأ النقد في شتى العلوم، مما ساعد على تقوية المذهب الواقعي الطبيعي كما يقول متز[3].

إنَّ جملة هذه الظواهر الثقافية، في العصور العباسية المختلفة، إزدانت في القرن

(1) انظر التاج في أخلاق الملوك المنسوب للجاحظ/ ص37 - 39، بعناية أحمد زكي باشا، ط1، المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة 1322هـ/ 1914م.

(2) أبو حيان التوحيدي/ الإمتاع والمؤانسة 2/ 183 - طبعة أحمد أمين وأحمد الزين - القاهرة 1939م.

(3) آدم ميتز - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري 1/ 425 - ط3 ترجمة أبو ريدة - القاهرة 1377هـ/ 1957م.

الرابع الهجري، وانعكست على مجمل الكتّاب، في أدبهم وترسلهم، حتى أصبحت رسائل (ق 4هـ) آية من ازدهار الفن الإسلامي، ومادتها هي أنفس ما عالجته يد الفنان وهي اللغة، حيث تجدت فيها رشاقة اليد والفكر، وامتلكت ناصية البيان في صورته الصعبة، وتلاعبهم بذلك تلاعباً، وليس من محض الاتفاق أن كثيراً من الوزراء في ذلك العهد كانوا من أساتذة البيان وأعلامه، لذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير، ما جعلها خليقة أن تنشر كتباً للناس، ومنهم الخصيبي، وابن مقلة والمهلبي، وابن العميد، هذا الذي يصفه صاحب «اليتيمة»[1] بأنه «عين الشرق ولسان الجبل، وعماد ملك آل بويه، وصدر وزرائهم، وأوحد العصر في الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزراء، والضرب في الآداب بالسهام الفائزة، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية، يُدعى الجاحظ الأخير، والأستاذ والرئيس، وعنه قيل «بدت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد» ويلي هذا الوزير وزير آخر كانت الكتابة هي الصنعة التي عرف بها هو الصاحب بن عباد والذي أثنى عليه الثعالبي بقوله[2]: هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغرة الزمان. . . وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء، كان نادرة عطارد في البلاغة وواسطة عقد الدهر في السماحة، جلب إليه من الآفاق وأقاصي البلاد كل خطّاب جزل، وقوّال فصل، وصارت حضرته مشرعاً لروائع الكلام وبدائع الأفهام، وثمار الخواطر، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول، وذوب العلوم ودُرر القرائح، فبلغ من البلاغة ما يعد في السحر[3]، ثم ظهرت أعلام شامخة في الكتابة ومنها في هذا القرن، من أمثال ابراهيم بن هلال الصابي الذي قُلد ديوان الرسائل، وكان أكبر المنشئين في النصف الثاني من (ق 4هـ)، وقد عرضت عليه الوزارة إن هو أسلم فرفضها[4] ثم علا نجم الكاتب أبو بكر الخوارزمي، وسطع ضياء برق بديع الزمان الهمداني، وراحت «مقاماته» تفرض نفسها في مجالس الأدب وعند مختلف الطبقات، فيما ظهر في معرة النعمان، كاتباً فيلسوفاً اسمه أبو العلاء المعري، ذاك الذي عجزت عنه التوصيفات في المدح والثناء عليه، يقول عنه ناصر خسرو[5]: «إنَّ فضلاء الشام والمغرب والعراق، يقرون أنه لا نظير في هذا العصر (ق 4هـ - ق 5هـ) ولن يكون له نظير».

---

(1) يتيمة الدهر - للثعالبي 3/ 137 وما بعدها، ط1، مطبعة الصاوي 1353هـ/ 1934م.

(2) يتيمة الدهر 3/ 169 وما بعدها.

(3) لقد عايش أديب القرن الرابع الهجري، أبو حيان التوحيدي، الوزيرين الاخرين، فلم يحسنا رفاده، فقال فيهم ما قال، في كتابه الرائع (مثالب الوزيرين) وكانا يستحقان ذلك، لما بهما من لؤم وبخل.

(4) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 2/ 20 وما بعدها وآدم ميتز 1/ 430.

(5) سفرنامة/ ص11 - بترجمة د. يحيى الخشاب - ط1 - مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1364هـ/ 1945م. وانظر آدم ميتز 1/ 444.

ثم تشهد بغداد وتقر وتستسلم لترسل أبو حيان التوحيدي، فقد سيطر سيطرة الأستاذ على ملكة اللغة، وبلغ الشأو الأعلى في النثر، حيث أنه كان عالماً بدقائق الأسلوب الرائع، دون تكلف ولم يكتب في النثر العربي بعده، ما هو أبسط وأقوى وأشد تعبيراً من مزاج صاحبه كما كتب أبو حيان وقد أحسن متز بنعته للتوحيدي عندما قال: «ربما كان أعظم كتّاب النثر العربي على الإطلاق»[1] ومن يقرأ للتوحيدي «البصائر والذخائر» أو «الامتناع والمؤانسة» أو «رسائله» أو «المقابسات» فإنه لا شك سيؤخذ باسلوبه الساحر الأخاذ، ويحكم له بالسيادة الأدبية على (ق 4هـ) دون منازع. ولكن أهل الأدب في زمانه، لم يعطوه حقه، بغضاً وحسداً، لا سيما الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد فقد أذلآه، فكان يورّق لهما، فنفر من مهنة الوراقة وجفاها، ولازم شيخه، أبو سليمان السجستاني، رأس مناطقة بغداد، وقد عكس التوحيدي آلامه من أهل عصره بأدبه، فجاءت رسائله، لوعة صادقة عما يكابده من حنق وضيق، فهو يقول[2]: «ومن أين يُظفر بالغداء من كان عاجزاً عن الحاجة، وبالعشاء وإن كان قاصراً عن الكفاية، وكيف يحتال في حصول طريق للستر لا للتجمل، وكيف يهرب من الشر المقبل، وكيف يهرول وراء الخير المنهر، وكيف يستعان بمن لا يعين، ويشتكي إلى غير رحيم، ولكن حال الجريض دون القريض[3]، ومن العجب والبديع أنّا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق والأسف والحسرة، والغيظ والكمد والتوقد، وكأني بغيرك إذا قرأها/ الخطاب موجه للمتلقي/ تقبضت نفسه عنها، وأمرس نقده عليها، وأنكر على التطويل والتهويل بها، وإنما أشرت بهذا إلى غيرك، لأنك تبسط من العذر، ما لا يجود به سواك، وذاك لعلمك بحالي، وإطلاعك على دخيلتي، واستمراري على هذا الانفضاض والعوز للذين نقضا قوتي، ونكثا مرّتي، وأفسدا حياتي، وقرناني بالأسى، وحجباني عن الأسى[4]، لأني فقدت كل مؤنس، وصاحب ومرفق ومشفق، والله.. لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن إتفق فبقال أو عصّار أو ندّاف أو قصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي، أسندني بصنانه، وأسكرني بنتنه، فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت، مجتلفاً[5] على الحيرة، محتملاً

(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري 1/ 424 وراجع كذلك 1/ 447 وما بعدها من نفس المرجع.

(2) انظر - رسالة الصداقة والصديق/ ص6 - 8 بعناية د. إبراهيم الكيلاني - دار الفكر - دمشق 1964م. وقد أوردنا هذا النص كشاهد أدبي للتوحيدي، يفي بالغرض في هذا المقام.

(3) مثل يضرب لأمر يعوق دونه عاشق، والجريض = المغموم/ انظر القاموس - مادة جضض.

(4) الأسى = من المواساة للشخص/ انظر مادة - سوأ - في اللسان.

(5) مجتنفاً = مائلاً.

الأذى، يائساً من جميع ما نرى، متوقعاً ما لا بدّ من حلوله، فشمس العمر على شفاء وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول، وظل التلبث إلى قلوص».

على هذه الشاكلة والديباجة، كان سمو الأدب، وصراط الكتابة يثبّت عند التوحيدي، ويتمنهج عند مالكي دربه في الترسل والانشاء، إلا أن التوحيدي الشامخ بأسلوبه قد سيطرت عليه سوداوية الحياة، وخسة السلاطين والكتّاب من أهل زمانه، فيزدري الوجود، ويلوي العنان عن ناصية الأدب، في آخر حياته، فيحرق في ساعة غضبه كتبه، ولا يُعرف كم هو قدرها ومقدارها، فيعاتبه القاضي أبو سهل علي بن محمد على فعلته هذه، فيجيبه[1]: وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع على ظمأ برّح بي إليه، وشكرت الله تعالى على النعمة به علي، وسألته المزيد من أمثاله، الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إليّ والصبابة نحوي ما نال قلبك، والتهب في صدرك من الخبر الذي عنى إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار، وغسلها بالماء، فعجبت من إنزواء وجه العذر عنك في ذلك» ثم يبدأ يشرح له أهمية العلم إذا نفع يقول[2]:

«إنَّ العلم - حاطك الله - يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كلا على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً، وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غلاً» إلى أن يصل إلى الغاية المقنعة لديه، والتي أدت به إلى حرق الكتب فيقول: ومما شحذ العزم على ذلك، ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً ورئيساً منيباً، فشق عني أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تفحصوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها، ثم يقول معبراً عن معاناته من عشرة الناس الذين عاشرهم أكثر من عشرين سنة، ولا يجد منهم صافي الوداد: فإن قلت: ولم تسمهم بسوء الظن، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها - يقصد كتبه - لأناس جاورتهم عشرين سنة، فما صح لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم، بعد الشهرة والمعرفة، في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحرّ أن يرسمه بالقلم»[3].

---

(1) انظر - رسائل التوحيدي/ ص161. بعناية د. ابراهيم الكيلاني.
(2) المصدر السابق/ ص162 - 163.
(3) راجع بقية الرسالة في المصدر السابق على الصفحات 164 - 170.

هذه الرسالة للتوحيدي، هي إعتراف ومذكرات على حالة العصر السياسية والاجتماعية التي كان يعيشها، ومن خلالها يظهر النفاق الواضح بين المثقفين، أكثر من بقية فئات الشعب، ولو لم يجد التوحيدي أن أدبه/ في ذلك الوقت/ لم ينفعه بشيء لما أقدم على حرق مصنفاته، وهي إدانة جريئة لأحوال ذلك الزمان، رغم التطور الهائل في صنوف المعرفة والثقافة، ولكن التناقض الاجتماعي، كان يحرك الناس بالاتجاه السياسي، أكثر بكثير من الاتجاه الثقافي، ولو أن الأدب ظل يقارع كل هذه الظواهر، ويتخطى كل الحواجز، فقد وصل إلينا وهو يصور كل حياة الناس، ويدين ويقيم الحد على هذه الحالة أو تلك، وهي أمانة، استطاع التوحيدي وأشباهه أن يحفظها لنا عبر الأجيال والعصور.

الفصل الثالث

أدوات الكتابة

كان للكتّاب والورّاقين الدور الأهم في تطور الظاهرة الثقافية بأكملها، فهذا يؤلف، وذاك ينسخ وآخر يجلّد، ورابع يخط، حتى أنك عندما تمر بسوق الورّاقين، تشاهد نشاطاً كخلايا النحل، إلا أنه في صنعة الكتابة، والتي هي أحلى من العسل، عند البعض، وأمرّ من العلقم عند البعض الآخر. وعلى أية حال، لقد أوضحنا في الفصل السابق، عوامل نهوض الكتابة وأسباب بروزها، وأهم المناهج التي رُسمت للكتّاب.

ولما صارت الكتابة مهنة يُعتاش منها، تطلب الأمر أن تكون هناك سوق خاصة لأهل هذه الصناعة، يوفر لهم ما يحتاجونه من الأدوات التي تساعدهم على إتمام عملية الكتابة، لذلك أنشىء سوق الورّاقين[1] في ربض وضّاح، وفيه أكثر من مائة حانوت كما يقول اليعقوبي[2] وبهذا السوق يجد الكاتب، ما يحتاج إليه من أدوات الكتابة، والتي هي: الأقلام والحبر والدواة، والسكاكين لقط الأقلام وغيرها من الأمور الثانوية، إضافة إلى مواد الكتابة والتي يُشكل الورق مادتها[3] الأساسية.

---

(1) سوف نفرد باباً خاصاً بسوق الورّاقين، نظراً لأهميته في بنية البحث هذا.

(2) كتاب البلدان ص245، مطبوع على ذيل - الأعلاق النفيسة، لابن رسته - ليدن - بريل 1891م. وراجع كذلك دليل خارطة بغداد ص86، للدكتور مصطفى جواد وأحمد سوسة مطبوعات المجمع العلمي العراقي بغداد 1378هـ/ 1958م.

(3) سيكون الجزء الثالث من هذه الدراسة خاص بصناعة الورق، نظراً للأهمية التي ينطوي عليها تاريخياً وحضارياً.

ونظراً لأهمية كل أداة من أدوات الكتابة، سوف نفرد لكل منها نقطة محورية، بغية الإحاطة، بكل أداة.

1 - الأقلام:

تمتد تاريخيتها في الاستخدام منذ السومريين وأهل العراق القديم، فقد كانوا يتخذونها من الحديد والخشب، يُضغط بها على الطين، فترسم الحروف أو الخطوط، وكان للقلم عندهم أشكال، منها المثلث والمربع، وكان أما ثقيلاً أو خفيفاً من الطرفين، وأخيراً، صُنع ثقيلاً من طرف دون الآخر، حتى تبرز الخطوط، وهذا ما توضحه الخطوط المسمارية في العراق(1).

وعندما جاء الإسلام، كانت آيات القرآن الأولى عرجت على ذكر القلم، فقد ورد في التنزيل: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(2)، فيما تذكر أحاديث السنة، على لسان محمد بن عمر المدائني بسنده إلى مجاهد: «إنَّ أول ما خلق الله اليراع، ثم خلق من اليراع القلم، فقال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: ما هو كائن، قال: فَزَبَرَ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة».

ويروى أن الله خلقه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة(3) وهذا الاسقاط الأسطوري للقلم يعطيه الأهمية والتعظيم، وجلالة القدر في الفهم الإسلامي لوظيفته ومعناه، ويشرح القلقشندي هذا البعد منطلقاً من الآية أعلاه قائلاً(4): «واعلم أن القلم أشرف آلات الكتابة وأعلاها رتبة، إذ هو المباشر دون غيره، وغيره من آلات الكتابة كالأعوان» وعلى هذا الأساس، يعتقد القلقشندي أنه أُقسِمَ به، ويستعير للتعبير عن هذا الشرف للقلم، قول أبي الفتح البُستي(5):

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم ... وعدّوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتّاب عزاً ورفعة ... مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وجاءت للقلم عدة تسميات منها: «المِزبر» بكسر الميم، وهو مأخوذ من قولهم:

---

(1) سهيلة الجبوري/ الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق ص119 - بغداد 1381هـ/ 1962م.

(2) سورة القلم، الآية: 1.

(3) القلقشندي/ صبح الأعشى 2/ 435 - طبعة القاهرة 1331هـ/ 1913م.

(4) صبح الأشعى 2/ 435.

(5) المصدر السابق.

زبرت الكتاب، إذا أتقنت كتابته، ومنه سميت الكتب زُبراً كما جاء في القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] وسمي القلم قلماً، إما لاستقامته، أو لأنه مأخوذ من «القلام» وهو شجر رخو، أو لقلم رأسه والقلم قبل بريه يسمى قصبة ولا يسمى القلم قلماً حتى يُبرى، وكأن اشتقاق القلم من التقليم، ومنه تقليم حافر الدابة، ومنه قلمت ظفري[2].

ويتعدى معناه، إلى غيره من المعاني، جاء في لسان العرب: والقلم: الزلم، والقلم = السهم، الذي يجال بين القوم في القِمار، وجمعها أقلام، وإنما قيل للسهم القلم، لأنه يقلم، أي يبرى.

ويُسمى الوعاء الذي توضع فيه الأقلام «مقلمة»[3].

قيل لأعرابي: ما القلم؟.. ففكر ساعة، وقلب يده، ثم قال: لا أدري، فقيل له: توهمه. فقال: هو عودٌ قُلِّم من جوانبه كتقليم الظفر، فسمي قلماً[4].

وقد ارتضوا للقلم مواصفات عديدة، دأبوا على الالتزام بها، كالصلابة واللين، والرشاقة لجسم العود والاستواء في القصبة، والشق المستوي، وتجاوز القط عند العقدة، وغيرها من الأمور، وقد أورد الصولي أربعة أبيات شعرية، جمعت الكثير من مواصفات القلم، وهي لأبي أسامة الكاتب[5]:

وأعجف مشتق الشباة مقلم ... موشى القرى طاوي الحشا أسود الفم
تبين خفي السرّ آثاره لنا ... ويعرب عن غير الضمير المكتم
يؤدي صحيح القول عنه مخاطباً ... به العين دون السمع لا بالتكلم
إذا استغزرته الكف فاضت سجاله ... من الفكر فيض الرابح المتغيِّم

وقد كان كبار الكتّاب والولاة والأمراء والسلاطين، ومن ذوي الشأن، وأصحاب الحرفة، ينتبهون إلى كتّابهم الأدنى - المتعلمين - عند الكتابة، فيدلون لهم بإرشاداتهم، منذ الخطوات الأولى لتعلم الكتابة والخط، يقول إبراهيم بن العباس لغلام بين يديه يعلمه الخط[6]: «ليكن قلمك صلباً، بين الدقة والغلظ، ولا تبرِهِ عند عقدة، فإن فيه تعقيد

---

(1) سورة الشعراء، الآية: 196، وراجع القلقشندي - صبح الأعشى 2/ 434.
(2) الصولي - أدب الكتاب/ ص87. والقلقشندي 2/ 440، وسهيلة الجبوري - الخط العربي/ ص119.
(3) مادة (قلم).
(4) صبح الأعشى 2/ 440.
(5) أدب الكتاب ص85.
(6) صبح الأعشى 2/ 440.

الأمور، ولا تكتب بقلم ملتوي، ولا ذي شق غير مستوي، وإن أعوزك البحري والفارسي، واضطررت إلى الأقلام النبطية فاختر منها ما يميل إلى السمرة».

ونظراً لكثرة الكتّاب والورّاقين، وسعة انتشار الكتابة، فقد راح الكتّاب الكبار يبحثون عن المواصفات الأجود لاختيار أقلامهم، فهذا الأصمعي يسأل العتابي وهما بدار الرشيد عن الأنابيب - القصب - الأصلح للكتابة والأصبر عليها، فيجيبه: ما نشف بالهجير ماؤه، وستره من تلويحه غشاؤه، من التبرية القشور، الدرية الظهور، الغضية الكسور[1].

وقد أصبحت هذه المواصفات، إحدى الثوابت في اختيار الأقلام، وأصبح التهادي لهذه الأنواع من الأمور المرغوب فيها، والمطلوب الذي يرام، لا سيما وأن بعض الأقاليم والأمصار الإسلامية، ينبت فيها قصب تتوفر فيه تلك المواصفات، فهذا كاتب يُدعى علي بن الأزهر يكتب إلى صديق له، يطلب منه أقلاماً، يقول[2]:

«أما بعد، فإنّا على طول الممارسة لهذه الكتابة، التي غلبت على الاسم، ولزمت لزوم الوسم، فحلت محل الأنساب، وجرت مجرى الألقاب، وجدنا الأقلام الصخرية أجرى في الكواغد، وأمرّ في الجلود، كما أن البحرية منها أسلس في القراطيس، وألين في المعاطف، وأشدّ لتصرف الخط فيها، ونحن في بلد قليل القصب رديئة، وقد أحببت أن تتقدم في اختيار أقلام صخرية، وتتنوّق/ من الأناقة/ في اقتنائها قبلك، وتطلبها من مظانها ومنابتها، من شطوط الأنهار، وأرجاء الكروم، وأن تتيمّن باختبارك منها الشديدة الصلبة، النقية الجلود، القليلة الشحوم، الكثيرة اللحوم الضيقة الأجواف، الرزينة المحمل، فإنها أبقى على الكتابة، وأبعد من الحفاء، وأن تقصد بانتقائك الرقاق القضبان، المقومات المتون، الملس المعاقد، الصافية القشور، الطويلة الأنابيب، البعيدة ما بين الكعوب، الكريمة الجواهر، المعتدلة القوام، المستحكمة يبساً، وهي قائمة على أصولها لم تُعجَل عن إبّان ينعها، ولم تؤخرّ إلى الأوقات المخوفة عليها من خصر الشتاء، وعفن الأنداء، فإذا استجمعت عندك، أمرت بقطعها ذراعاً ذراعاً، قطعاً رقيقاً، ثم عبأت منها حزماً فيما يصونها من الأوعية/ ووجهتها مع من يؤدي الأمانة في حراستها وحفظها وإيصالها/[3] وتكتب معه بعدتها وأصنافها من غير تأخير ولا توان».

إن هذه الرسالة هي الأوضح إبانة لمواصفات الأقلام، وما يرجوه الكتّاب من القلم

(1) صبح الأعشى 2/ 441.
(2) صبح الأعشى 2/ 441.
(3) سقط هذا النص من صبح الأعشى، وأثبته ابن عبد ربه في العقد الفريد 4/ 200 طبعة أحمد الزين وأحمد أمين وإبراهيم الأبياري - طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1363هـ/ 1944م.

الذي يكتبون فيه، والحقيقة أنها، تثبت بين سطورها قاعدة لاختيار القلم ونوعيته ومادته.

ثم راعوا فيها خواصاً أرادوا بها تحقيق التفاعل النفسي بين القلم والكاتب لتأليف وحدة إيقاعية متكاملة لهيجان الفكر وسهولة نقلها بالأداة على الورق أو الكاغد، لذلك قال ابن الزيّات[1]: خير الأقلام ما استحكم نضجه وخف بزره، قد تساعدت عليه السعود في فلك البروج حولاً كاملاً، تؤلفه بمختلف أركانها وطباعها، ومتباين أضوائها وأنحائها، حتى إذا بلغ أشدّه واستوى، وشقّت بوازله، ورقت شمائله، وابتسم من غشائه، وتأذّى من لحائه، وتعرى عنه ثوب المصيف بانقضاء الخريف وكشف عن لون البيض المكنون والصدف المخزون، قطع ولم يعجل عن تمام مصلحته، ولم يؤخّر إلى الأوقات المخوف عاهاتها عليه من خصر الشتاء، وعفن الأنداء، فجاء مستوى الأنابيب معتدلها، مثقّب الكعوب مقومها».

ورأى الكتّاب والمجودون من أساتذة الخط أن تكون هناك رعاية لشقة القلم، لأنه فيها يُرسم الحرف، بكل ألوانه، وأشكاله، وعلى ضوئها يتحدد نوع الخط، يورد القلقشندي[2] رأياً هاماً، يقول: (أما مساحة رأس القلم، فاعلم أن رؤوس الأقلام تختلف باختلاف الأقلام، التي جرى الإصطلاح عليها بين الكتّاب) أي أن القصبة المعدة للكتابة، يجب أن يكون رأسها - في القط - يؤدي لكتابة نوع معين من الخطوط، فأعظمها وأجلها - كما يقول القلقشندي، هو قلم الطومار[3] حيث أنه أكثرها مساحة في القرض، وهو قلم كانت الخلفاء تعلم به في المكاتبات وغيرها، وهذا القلم يتخذ من لب الجريد الأخضر، ومن القصب الفارسي، ولا بد من ثلاثة شقوق لتسهل الكتابة به، ويجري المداد فيه[4].

وعندما يجير الحديث عن الأقلام، فإن ذيوله تنجر على الخطّاطين الذين روّضوا القصب لأياديهم، وجعلوها مطايا سهلة الانقياد لأناملهم، وهو ما كان فعلاً، حيث أنهم أوجدوا أقلاماً لكل نوع من الخط، وعلى هذا الأساس، فإن إبن مقلة - الوزير الخطاط - يرى أنه[5]: ينبغي أن تكون أقلام الكاتب على عدد ما يؤثره من الخطوط، وكأنه يريد أن يكون في دواته قلم مبري لنوع الخط الذي هو بصدد أن يحتاج إلى كتابته ليجده مهيئاً، فلا يتأخر لأجل برايته).

---

(1) صبح الأعشى 2/ 443.
(2) صبح الأعشى 2/ 454.
(3) راجع ج4/ الخطاطون/ من هذه الدراسة، كي تقف على أنواع الخطوط التي كانت مستعملة وقتذاك.
(4) راجع مواصفات هذه الأقلام عند القلقشندي - صبح الأعشى 2/ 454 وما بعدها.
(5) صبح الأعشى 2/ 455.

أما طول القلم، فكان للخطّاطين السبق في هذه الناحية، لأنهم أمهر من بقية الكتّاب في تحديد أبعادها الهندسية، يقول ابن مقلة[1]: أحسن قدود القلم أن لا يتجاوز به الشبر بأكثر من حلقته[2]، فيما قدرت مساحة ريشة الطومار من الخطوط - الأقلام - في ضرب مقدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة/ من شعر البرذون/ في مثلها خمسمائة وستة وسبعين شعرة وهو طولها - وهنا التقدير لحرف الألف في الخط، وفي قلم الثلث تضرب نسبة عرضه في الطومار وهو ثمان شعرات في مثلها بأربع وستين، فيكون طولها أربعاً وستين شعرة وكذلك الجميع[3] أي في بقية الأقلام، وفي طول الأقلام، قال أحدهم[4]:

فتى لو حوى الدنيا لأصبح عارياً   من المال معتاضاً ثياباً من الشكرِ
له ترجمان أخرس اللفظ صامت   على قلب شبر بل يزيد على الشبرِ

وعلى ما يبدو أن مسألة أطوال الأقلام وأعراضها، كان له علاقة بجودة الخط وسرعة الكتابة وما شابه ذلك، وهو ما يحتاجه الورّاقون والكتّاب بوجه عام، ومن خلال التجربة في الكتابة، حمدوا بعض مواصفات الطول أو القصر، في القلم، وعلاقة ذلك بسيطرة الأنامل عليه، يقول الشيخ عماد الدين الشيرازي[5]: أحمد الأقلام ما توسطت حالاته في الطول والقصر، والغلظ والدقة، فإن الدقيق الضئيل تجتمع عليه الأنامل، فيبقى مائلاً إلى ما بين الثلث، والغلظ المفرط لا تحمله الأنامل.

فيما يرى أحد المتمنهجين على أسلوب ابن مقلة في الخط وهو الشيخ محمد بن العفيف[6] في هذا المجال أن «صنعة مسكة بالإبهام - يقصد القلم - والوسطى، وتكون السبابة تمنعه من الميل والاضطراب، وتكون مبسوطة غير مقبوضة، لأن ببسط الأصابع يتمكن الكاتب من إدارة القلم، ولا يتكىء على القلم الاتكاء الشديد المضعف له، ولا يُمسك الإمساك الضعيف فيضعف إقتداره في الخط، لكن يجعل الكاتب اعتماده في ذلك معتدلاً، وأما حاله في الصلابة والرخاوة فإنه تابع للصحيفة، لأنها إذا كانت لينة، احتاجت

---

(1) انظر مرتضى الزبيدي - حكمة الإشراق/ ص71 - حققها عبد السلام هارون، ونشرها في - نوادر المخطوطات - المجموعة الخامسة - ط1 - منشورات مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد - القاهرة 1373هـ/ 1954م.

(2) الحلفة = فتحة رأس القلم.

(3) صبح الأعشى 2/ 454 - 455 وفي ج4 الخطاطون من هذه الدراسة توضيحات وافية عن طول الخطوط وأنواعها وأسمائها.

(4) صبح الأعشى 2/ 444.

(5) صبح الأعشى 2/ 444.

(6) الزبيدي/ حكمة الإشراق/ ص71 - 72، وصبح الأعشى 2/ 454.

أن يكون في الأنبوب لين، وفي لحمه فضل، وفي قشره صلابة» وإن كانت صلبة (الصحيفة) احتاجت أن يكون في الأنبوب يبس وصلابة، ويشرح ذلك بأن العلة في ذلك أن حاجته من المداد في الصحيفة الرخوة أكثر من حاجته إليه في الصحيفة الصلبة، فرطوبته ولحمه يحفظان عليه غزارة الإستمداد، ويكون في الصحيفة الصلبة ما وصل إليها من القلم الصلب الخالي من المداد كافياً.

وهنا نتلمس خاصية أخرى بعد طول القلم، هي صلابته ولينه وتأثير ذلك في عملية الكتابة تبعاً للورق المستخدم، وهذه المسألة تريك مدى الاهتمام في الكتابة من الناحية المهنية والاسلوبية، بل وتضع قواعد عملية لتطوير تلك الحالة، وعلى هذا الأساس قال إسحق بن حمّاد: القلم للكاتب كالسيف للشجاع، ويناصره في هذا المعنى قول الضحاك بن عجلان: يامن تعاطى الكتاب، أجمع قلبك عند ضربك القلم، فإنما هو عقلك تظهره[1] وهذا الإيحاء النفسي العميق هو كشف لحالة التوحد مع الكتابة والقلم.

وأوجز قاعدة، في اختيار الأقلام من ناحية الطول والعرض، هي ما يراها الخطّاطون في عملهم، لذلك حدد إبن مقلة ذلك بقوله: خير الأقلام ما كان طوله من ستة عشر اصبعاً إلى اثنتي عشر، وامتلاؤه ما بين غلظ السبابة إلى الخنصر، وهذا الوصف - كما يقول القلقشندي[2] جامع لسائر أنواع الأقلام على اختلافها.

لقد اهتم الكتّاب، بكافة أصنافهم، بالقلم من كل الوجوه، كما أوضحنا، ولكنهم أعطوا عناية خاصة لمسالة بري القلم، لأنها تحدد شكل الخط، أولاً، وتبرز مهارة الكاتب ثانياً، وتؤكد على جودة عمل الكاتب ثالثاً، كما أنها تشكل قاعدة اختبارية ثابتة لعموم الكتّاب، لذلك فطن الجميع لها في أولى مراحل الكتابة، وبدايات النشىء للتعلم لقواعد الخط، وهي بهذا المعنى، تدخل في أصول الكتابة، من الناحية الفنية والمهنية، حتى أنها غدت من متمايزات الكتّاب فيما بينهم، وبها يعرف الحاذق دون سواه، بل إنها أصبحت مصدر تنظير عند شيوخ الكتابة والكتّاب، وهي أوضح في عمل الخطاطين، لأنهم بها أدرى، وأكثر تعاطياً فيها، ومن الذين نظّروا للبري، شيخ الكتّاب في العصر العباسي أبو بكر الصولي في كتابه «أدب الكتّاب» وجاراه ابن عبد ربه الأندلسي في «العقد الفريد» ومنهجها بشكل معرفي ودقيق، القلقشندي في «صبح الأعشى» حيث أنه استوفى الكثير مما قيل فيها من قبل سابقيه، والذين جاؤوا بعده، قد أخذوا منه، وكانوا صدى له، لا سيما

(1) حكمة الإشراق/ ص72.
(2) صبح الأعشى 2/ 444.

مرتضى الزبيدي في «حكمة الاشراق في كتّاب الآفاق» ومن جاء بعده[1].

اشتق الإصطلاح من الفعل «برى، يبري، برياً» والبري، والنحت[2] يقال: بريت القلم أبريه برياً وبراية، غير مهموز، وهو قلم مبري، قال الشاعر[3]:

يا باري القوس برياً ليس يحكمه   لا تفسد القوس، أعط القوس باريها

ويقال أيضاً، بروت القلم والعود برواً، بالواو، والياء أفصح[4].

وأصبحت مسألة بري القلم عند الكتّاب المجيدين جزءً من خلاله ومسلكيته، يقول الحسن بن وهب[5] «يحتاج الكاتب إلى خلال، منها جودة بري القلم وإطالة جلفته، وتحريف قطته، وحس التأني لامتطاء الأنامل، وإرسال المدة بعد إشباع الحروف، والتحرز عند فراغها من الكشوف، وترك الشكل على الخطأ والاعجام على التصحيف». وعملية قط القلم أو بريه، هي عملية يراد منها حسن أداء الأداة في يد المؤدي بالكتابة، على أن مسألة البري ليست فقط قطع القصبة لجهة معينة بل يجب أن يكمل ذلك إرهاف جوانب القط وشق الرأس، كي يستوعب القلم المداد اللازم لكتابة كلمة أو حرف، يقول مسلم بن الوليد الأنصاري[6] في صفة بري القلم: «حرّف قطة قلمك قليلاً ليتعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليرد ما استودعته إلى مقصده، وشق في رأسه شقاً غير عاد ليحتبس الاستمداد عليه، ورفع من شعبتية ليجمعا حواشي تصويره، فإذا فعلت ذلك استمد القلم برشفه بمقدار ما احتملت ظبته فيحنئذ يظهر به ماسداه العقل، وألحمه اللسان، وبلته اللهوات، ولفظته الشفاه، ووعته الأسماع، وقبلته القلوب».

و قد كان بعض الكتّاب يجيد الخط ولا يجيد بري القلم فيُبرى له، واعتبر ذلك عيباً ونقصاً في مهنته، حتى أن البعض يرفض بري القلم لغيره، لأنه يرى فيه شيء من الامتهان. قال بعضهم[7]:

---

(1) من المعاصرين الذين رددوا مقولات القلقشندي سهيلة الجبوري في «الخط العربي وتطوره في العصور العباسية» ومحمد طاهر الكردي في «تاريخ الخط العربي وآدابه» و«حس الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة».

(2) اللسان - مادة - بري.

(3) صبح الأعشى 2/ 445.

(4) المصدر السابق.

(5) نفس المصدر

(6) الصولي/ أدب الكتّاب/ ص86.

(7) الصولي - المصدر السابق/ ص87.

لـم تَـرنـى قـط بـاريـاً قـلـمـاً فـي بـريـه كـل مـهـنـة وضـعـه
مـا كـل مـن يـحـمـل الـحـسـام لـكـي يـردي بـه، سـنـه ولا طـبـعـه

ويقول أحدهم في ذم كاتب لا يجيد بري قلمه[1]:

دخـيـل فـي الـكـتـابـة لـيـس مـنـهـا فـمـا يـدري دبـيـرا مـن قـبـيـلِ
إذا مـا رام لـلانـبـوب بـريـاً تـنـكـب عـاجـزا قـصـد الـسـبـيـلِ
فـكـائـن ثـم مـن قـطـع رحـيـب لأصـبـعـه ومـن قـلـم قـتـيـلِ

ولغرض تجنب هذه «الارباكات المهنية»راحوا ينصحون تلاميذهم وزملائهم من الكتّاب، بالاعتناء والتروي في القَطّ، وصاغوا مجموعة من المقالات «شعارات» تحفّز الجميع على الأخذ بها والتذكير في شؤون المهنة، فمن ذلك ما خطه ابن مقلة، وهو شيخ شيوخ الكتّاب، حيث قال[2]: «ملاك الخط حسن البراية، ومن أحسنها سهل عليه الخط، ومن وعى قلبه كثرة أجناس قط الاقلام كان مقتدراً على الخط، ولا يتعلم ذلك إلا عاقل» وبهذا التحفيز، ربط ابن مقلة عملية قط القلم بالوعي المعرفي، أي أنه فرض مسألة القط فرضاً، واضاف إلى هذا الفرض شرطاً آخر هو، «العقل» وبهذا يكون قد أحكم منهجاً إبداعياً، يتطلب من الكاتب الأخذ به إذا كان عاقلاً. وعلى هذا المنوال ينشىء المقر العلائي ابن فضل الله أحد تلاميذ ابن مقلة في «منهج الخط» قاعدة «فقهية» إن جاز التعبير، ولكن في مجال إبداع القلم فيقول[3]: «من لم يحسن الاستمداد، وبري القلم، وإمساك الطومار، وقسمة حركة اليد حال الكتابة، فليس هو من الكتابة في شيء».

وهذا التلميذ الشيخ، يتشدد أكثر في منهجه، فالكاتب - الخطاط - عنده، هو من يتقن فنية الكتابة بوسائل الكتابة، فكل الأمور المذكورة في منهجه أعلاه، تدلل على ذلك، وعلى ما يبدو أن هذا التشدد، هي حالة فرضت نفسها على عموم الكتّاب - وقتذاك - لبيان الغث من السمين، أولاً، والحس الحضاري، عند هؤلاء الشيوخ جعلهم يدركون أهمية تطور فن الكتابة من خلال هندسة حروفها[4].

يُتابع أساطين الحرف منهجهم جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد آخر، وكل منهم يتابع سلفه، وظل الشعار المحفز، هو الحملة الأنفع في تطور مسار القلم، فهذا الضحاك بن

(1) المصدر السابق/ نفس المكان.
(2) حكمة الاشراق/ ص78.
(3) صبح الأعشى 2/ 445.
(4) سيجد القارىء في ج4 الخطاطين، تفصيلات أهم وأشمل في هذه النواحي.

عجلان إذا أراد أن يبري قلماً توارى بحيث لا يراه أحد - خشية الزلل في عملية البري - ويقول: الخط كله القلم، ويشايعه بنفس الطريقة الأنصاري ويزيد عليه بأنه إذا أراد القيام من الديوان قطّع رؤوس الأقلام حتى لا يراه أحد[1]. وقال إسحاق بن حماد... وهو من المتأخرين[2]: «لا حذق لغير مميز لصنوف البراية» وهنا إشارة إلى وجود درجة في الكتابة هي - الحذق -[3] أو المهارة في الصنعة، وهي مرتبطة أشد الارتباط ببري القلم: لذلك - كما أوضحنا سلفاً - بأن مسألة «البري» هي مسألة اختيارية للكاتب، بها يميز ويعرف، وقد كانت محط إهتمام الجميع، شيوخاً وتلاميذ فقد شاهد إبراهيم بن المحبس رجلاً يأخذ على جارية قلم الثلث، فقال له: أعلمتها البراية؟ قال: لا، قال: كيف تحسن أن تكتب بما لا تحسن برايته؟ تعليم البراية أكبر من تعليم الخط[4] وبهذا الصدد قال شيخ الخطاطين علي بن هلال المعروف بـ (ابن البواب)[5]: «كل قلم تقصد جلفته فإن الخط يجيء به أوقص» ويعلق القلقشندي على هذه العبارة بالقول: «الوقص، قصر العنق، ولذلك سمي (متفاعلن) في عروض (الكامل) إذا حذفت منه التاء أوقص، وكأنه يريد بالقصير، ما دون عقدة الإبهام.

وقال ابن البربري: إياك والحرف في البداية، وترك التجويد لها، ومن فسدت آلته فسد عمله ويضيف أحد تلاميذ ابن مقلة وهو - الشيخ ابن العفيف: إذا طالت البراية جاء الخط بها أخف وأضعف وأحلى، وإذا قصرت جاء الخط أصفى وأثقل وأقوى[6].

وبغية أن تكون هناك دقة في البراية، وقاعدة يسير عليها الكتّاب، فقد قسموا البري إلى القط والنحت، وقد وضع الوزير الخطاط ابن مقلة، قاعدة بذلك تقول[7]: «النحت نوعان: نحت حواشيه ونحت بطنه. أما نحت حواشيه، فيجب أن يكون متساوياً من جهتي السن معاً، ولا يحمل على إحدى الجهتين فيضعف سنّه، بل يجب أن يكون الشق متوسطاً لجلفة القلم دقّ أو غلظ. قال: ويجب أن يكون جانباه مسيفين، والتسييف أن يكون أعلاه ذاهباً نحو رأس القلم أكثر من أسفله، فيحسن جري المداد من القلم، قال: وأما نحت بطنه، فيختلف بحسب اختلاف الأقلام، في صلابة الشحم ورخاوته، فأما الصلب الشحمة، فينبغي أن ينحت وجهه فقط، ثم يجعل مسطحاً، وعرضه كقدر عرض الخط الذي

(1) صبح الأعشى 2/ 446.
(2) المصدر السابق/ نفس المكان.
(3) الحاذق = الماهر - انظر - الفيروز آبادي - القاموس المحيط - مادة - حذق.
(4) صبح الأعشى 2/ 446.
(5) حكمة الاشراق/ ص79، وصبح الأعشى 2/ 448.
(6) حكمة اشراق/ ص79.
(7) صبح الأعشى 2/ 449.

يؤثر الكاتب أن يكتبه. وأما رخو الشحمة، يجب أن تستأصل شحمته حتى تنتهي إلى الموضع الصلب من جرم القلم» ويعطي ابن مقلة ملاحظة مهنية هامة على العبارة الأخيرة تقول: لأنك إن كتبت بشحمته تشظى القلم، ولم يَصفُ جريانه».

وهذه القاعدة في البري، تنسحب على جميع أنواع الأقلام - الخطوط - وعلى أنواع القص المستخدم في كتابة تلك الخطوط، والحقيقة أن ابن مقلة هو أميز لغيره في استخدام مختلف الأقلام، نظراً لكثرة ممارسته لها، حيث أنه كان إمام الخط في زمانه، وإليه آلت رئاسة الخط العربي[1] لذلك فإنه أدرى من غيره في التعامل مع مختلف أنواع القصب، وهو الأعرف بشؤون القط، وعليه سار الكتّاب في زمانه وبعده، في القط والبراية ومسك القصبة وخط القلم، يقول ابن البربري[2]: «لا تقطع البراية، ولا تخالف بين حدّي القلم، فإن ذلك حياكة، وإذا كان كذلك يكون القلم أحول» وهذا الكلام يحمل شيئاً من التندر مع الثبات المعرفي بالشيء، ويضيف ابن البربري ملاحظات أخرى على عملية القط والبري، تستجيب لأنواع الخطوط المستخدمة في زمانه، فمن ذلك قوله[3] «ثم الجلفة على أنحاء: منها أن يرهف جانبي البري، ويُسمَّن وسطها شيئاً يسيراً، وهذا يصلح للمبسوط والمعلّق والمحقق[4]. ومنها ما تستأصل شحمته كلها، وهذا يصلح للمرسل والممزوج والمفتح[5]. ومنها ما يرهف من جانبه الأيسر ويبقى فيه بقية في الأيمن، وهذا يصلح للطوامير[6] وما شابهها. ومنها ما يرهف من جانبي وسطه. ويكون مكان القطة منه، أعرض ما تحتها، وهذا يصلح في جميع قلم الثلث[7] وفروعه.

وأوجدوا مسمّيات للقط شكلت بديهيات عند الكتّاب، بكل فئاتهم، يستخدمونها في بري أقلامهم ويتعاطون الحديث بها، في لجة عملهم، منها - المحرف، والمستوي والقائم، والمصوب، وأجودها عندهم المحرفة المعتدلة التحريف، وأفسدها المستوي، لأنه أقل من المحرف تصرفاً[8].

ومع هذه القطّات، أوجدوا أدوات للقط أطلقوا عليها اسم «المِقَطّ» راعوا فيها بعض

(1) سجد القارىء ترجمة لحياته الفنية والسياسية في ج4 (الخطاطون) من هذه الدراسة.
(2) صبح الأعشى 2/ 449.
(3) المصدر السابق/ نفس المكان.
(4) أنواع من الخطوط العربية.
(5) أنواع أخرى من الخطوط.
(6) نوع سلطاني من الخطوط - كان يكتب به للخليفة في «ديوان الإنشاء».
(7) الثلث - من أشهر الخطوط العربية.
(8) حكمة الاشراق/ ص79.

المواصفات التي تنسجم ومادة القلم، وشكل القطة أو البري، وبهذا الجانب، يركن مهنياً إلى ابن مقلة أيضاً، فهو حقاً خبير الأقلام وشؤونها، فقد قال مرة لأخيه: «إذا قططت القلم فلا تقطه إلا على مقط أملس صلب، غير مثلم ولا خشن، لئلا يتشظى القلم، واستحد السكين حداً، ولتكن ماضية جداً، فإنها إذا كانت كالّة جاء الخط رديئاً مضطرباً، وتضجع السكين قليلاً إذا عَزمت على القط ولا تنصبها نصباً»[1].

وعلى المقط، يعلّق إبن العفيف بالقول[2]: «يتعين أن يكون من عود صلب كالأبنوس والعاج، ويكون مسطح الوجه الذي يقطع عليه، ولا يكون مستديراً».

ومن بري القلم إلى الشق، في راس القلم، وهي الخطوة الثانية، يقول ابن مقلة[3]: «لو كان القلم غير مشقوق ما استمرّت به الأنامل ولا اتصل الخط للكاتب، ولكثر الاستمداد، وعدم المشق، ولمال المَداد إلى أحد جانبي القلم على قدر فتل الكاتب له» أي أن الشق بمثابة الميزان للمداد، وقد رأى الكتاب في صفة هذا الشق، أن يكون هناك تناسب في قدره وطوله، وحسب نوعية القصب المستخدم. يقول ابن مقلة[4] ويختلف ذلك بحسب اختلاف القلم في صلابته، ورخاوته. فأما المعتدل فيجب أن يكون شقّه إلى مقدار نصف الفتحة أو ثلثيها، والمعنى فيه، أنه إذا زاد على ذلك انفتحت سنّا القلم حال الكتابة، وفسد الخط حينئذ، وإذا كان كذلك أمن من ذلك، وأما الصلب فينبغي أن يكون شقّه إلى آخر الفتحة، وربما زاد على ذلك بمقدار إفراطه في الصلابة، وبغية إدراك وفهم ذلك عند الكتّاب فقد لجأ أحدهم - وهو الشيخ علاء الدين السومري - إلى نظم أرجوزة في صفة شق الأقلام، كي تكون مساعدة في ذلك يقول فيها[5].

واعلم بأن الشق أيضاً يختلف … بحسب الأقلام، فافهم ما أصف
فإن يكن معتدلاً لا شقّ الى … مقدار ثلث الجلفة انقل واقبلا
والرخو للنصف أو الثلثين زد … والصلب بالفتحة الحق تستفد
وربما زادوا على ذاك إذا … أفرط في الصلابة، أعرف ذا وذا

وقد أدرك كتّاب ذلك الزمان أهمية الشقّ بالنسبة للحرف غير العربي، الأمر الذي يعني أن فئة المترجمين من الكتّاب هي الأخرى أدلت بدلوها في هذا المعنى، وقد انتبه

(1) حكمة الإشراق/ ص79 - 80.
(2) المرجع السابق/ ص80.
(3) صبح الأعشى 2/ 450.
(4) المصدر السابق - نفس المكان.
(5) نفسه 2/ 451.

جيداً لهذه المسألة الخطاط البغدادي - ابن البوّاب، التلميذ المجوّد لابن مقلة، والفائق عليه، في منهج الخط حيث يقول[1]: «ويجوز أن يكون الأيمن/يقصد من القلم/أغلظ من الأيسر دون العكس على كل حال، وهذا إنما يأتي إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلى جهة اليسار، أما إذا كانت آخذة من جهة اليسار إلى جهة اليمين كالقبطية، فإنه يكون بالعكس من ذلك، لأنه يقوي الاعتماد على اليسار دون اليمين». وهذه النقطة - بتقديرنا - هي اكتمال لحال تطور فن القلم، صناعة وكتابة وقفزة فنية مدركة.

وبغية المعرفة الدقيقة والشاملة لما تحتاجه البراية فإنهم وقفوا على صفات القلم فيما يتعلق بها، وما لكل من سنّي القلم من الحروف، وأعطوا أسماء لصفات وأوجه كل جانب أو حافة من القلم، كي تدرك أثناء القط. لأنه على أساسها يفهم نوع البري، يقول الشيخ عماد الدين بن العفيف[2]: «من لم يدر وجه القلم، وصدره وعرضه، فليس من الكتابة في شيء». فوجهها عند ابن مقلة حيث تضع السكين وأنت تريد قطه، وهو ما يلي لحمة القلم، وأما صدره، فهو مايلي قشرته، وأما عرضه فهو نزولك فيه على تحريفه. ثم قال: وحرف القلم هو السن العليا وهي اليمنى[3].

ومن هذه القواعد والتسميات عرجوا على وضع مساحة رأس القلم ومقدارها من حيث موضع القطة، وعلى أساس كل نوع من أنواع الأقلام - الخطوط - متخذين من قلم الطومار قياساً يتبع[4].

ثم ذكروا المقلمة - وهي المكان الذي يوضع فيه الأقلام، وعدها البعض منهم، من أدوات الكتابة فيما أعرض البعض الآخر عن ذلك[5].

السكين - أو المدية - وهي الآلة الثالثة التي تندرج في عملية قط الأقلام، يلفظها الجاحظ بـ (المدية) وتقال بضم الميم وفتحها وكسرها، وتجمع على مدى، وهي السكين[6]. والسكين في الأصل لفظ مذكّر، قال أبو ذؤيب الهذلي[7]:

يرى ناصحاً لي ما بدا فإذا خلا   فذلك سكّينٌ على الحلق حاذق

(1) صبح الأعشى 2/ 451.
(2) صبح الاعشى 2/ 453.
(3) المصدر السابق.
(4) راجع ذلك عند القلقشندي في صبح الاعشى 2/ 454 - 455.
(5) راجع صبح الاعشى 2/ 455، فيه بعض التفصيلات.
(6) القلقشندي 2/ 455.
(7) صبح الاعشى 2/ 455 - 456 واللسان - مادة - سكن.

وتؤنث إذا لفظت مدية قال صاحب «اللّسان» تذكر وتؤنث وأورد شاهداً على التأنيث أنشده الكسائي[1]:

فعيّث في السنام، غداةُ قُرٍّ　　بسكين موثّقة النصاب

قال إبن الأعرابي: لم أسمع تأنيث السكين، وقال ثعلب: قد سمعه الفرّاء، قال الجوهري: والغالب عليه التذكير[2] والسكين مؤنثة في اللهجة البغدادية.

وسميت «مدية» أخذاً من مدى الاجل، وهو آخره، لأنها تأتي بالأجل في القتل على آخره، وسميّت سكيناً لأنها تسكن حركة الحيوان بالموت، ونصاب السكين أصلها[3].

وارتبطت السكين بأدوات الكتابة، وهي الظل للقلم دائماً، فهي التي تشحذه وترهفه، لذلك سموها «مسن الأقلام» قال بعضهم[4]: هي مسن الأقلام، تستحد بها إذا كلّت، وتطلق بها إذا وقفت وتلمها إذا تشعثت، فتجب المبالغة في سقيها وإحدادها ليتمكن من البري، فيصفو جوهر القلم، ولا تتشظى قطته، وينبغي على الكاتب أن لا يستعملها في غير البراية لئلا تكل يقول الصولي[5]: «وأشعرت السكين، جعلت لها شعيرة، وهي الحاجة بين آخر الحديد وأول النصاب، وأقبضت السكين جعلت لها مقبضاً، ويستطرد الصولي في وصف السكين ومواصفاتها قائلاً: ويقال هذا حد السكين وشفرته وظبته وغرّته وغراره وذبابه، فضبته: طرفه، والجمع ظبّات، وشفرته حده، من أوله إلى آخره، وغراره وشفرته واحد، وذباب كل شيء حده، وأكثر ما يوصف به السيف من الحد يجوز في السكين».

وقد وصف إبن حجة الحموي في «الخزانة» سكيناً فقال[6]: «وينتهي وصول السكين إلى قطع المملوك بها أوصال الجفاء، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البر والشفاء، وتالله ما غايت إلا وصلت الأقلام من تعثرها إلى الجفا، وزرقاء كم ظهر للبيض منها ألوان خرساء، وفي العجائب أنها لسان كل عنوان، ما شاهدها موسى إلا سجد في محراب النصاب، وذل بعد أن خضعت له الرؤوس والرقاب، كم أيقظت طرف القلم بعدما حظر، وعلى الحقيقة ما رؤى مثلها قط، وكم وجد بها الصاحب في المضائق نفعاً، وحكم بحسن

---

(1) اللسان - مادة «سكن»؛ وصبح الأعشى 2/ 456.
(2) اللسان - مادة «سكن» -.
(3) صبح الأعشى 2/ 456..
(4) المصدر السابق.
(5) أدب الكتّاب/ ص117.
(6) انظر - محمد طاهر الكردي/حسن الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة/ ص39 - 40/ ط1، الباب الحلبي - مصر 1357هـ/ 1983م.

صحبتها قطعاً، ماضية العزم، قاطعة السن، فيها جذوة الشباب من وجهين، لأنها بالناب والنصاب معلمة الطرفين، وأنملة صبح دفعت سواد الدجى، فعودتها بالضحى والليل إذا سجى، ولسان برق أمت في ظلمات الليل فتنكرت أشعة الأنجم، وما عرف منها سهل هذا، وتقطيعها موزون إذ لم يتجاوز في عروض ضربها الحد، ومعلوم أن السيف والرمح لم يعرفا الجزر والمد، ومن أجل ذا تدخل في مضايق ليس للسيف فيها قط مدخل، وكل ما يفعله تزجره، والرمح في مقصده مطول إن هجعت بخفها، كانت أمضى من الظرف، وكم لها من خاصة حازت بها الحد على السيف، تنسي حلاوة العسل فلا يظهر لطوله طائل، وتغني عن آلة الحرب بإيقاع ضربها الداخل، إن مرت بشكلها المحنى تركت المعادن عاطلة، ولم يسمع للحديد في هذه الواقعة مجادلة، شهد الرمح بعدالة، أنها أقرب منه إلى الصواب، وحكم لها بصحة ذلك قبل أن تستكمل النصاب، ما طال في رأس القلم شدة إلا سرحتها بإحسان ولا طالت كتاباً إلا زالت غلطة بالكَشط من رأس اللسان، تعقد عليها الخناصر لأنها عدّة وعدّة، تالله ما وقعت في قبضة إلا أطال لسانها، وتكلمت بحدة إن دخلت إلى القراب، وكانت قد سبكت على الدخول، وأبرزت من خيمة كان على طلعتها قبول، تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس، وبإقامتها لحد الأقلام على مواظبة الخمس، وكم لها من عجائب صار بها جدول السيف في بحر غمده كالغريق، ولو سمع بها قبل ضربه ما حمل التطريق، فلو عارضها أبو طاهر[1] لعركت من قوسه الاذنين وقال له جحدت رسالتك يا ذا القرنين، فإن جذبت إلى مقاومتها، وكان لك يد تمتد وصلت السكين إلى عظم، وصار عليك قطع وانتهى أمرك إلى هذا الحد، وهل تعاند السكين صورة ليس لها من تركيب النظم إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا، أو ما اختلط بعظم، ولو لمحها الفاضل[2] لحقق قوله إن خطر سكينه كل، أو أدركت إبن نباتة[3] ما أقر برسالة السيف وفل وقال لقلم رسالته: اطلق لسانك بشكر مواليك وأخلص الطاعة لباريك».

الحقيقة أن هذا الوصف للسكين، كان شاملاً لكل مواصفاتها وفوائدها واستخداماتها، ولا غرو في ذلك، فإن الواصف - إبن حجة الحموي - هو واحد ممن

(1) قد يكون أحد كتاب الدولة العباسية المشهورين.
(2) يقصد القاضي الفاضل - الكاتب الشهير ووزير صلاح الدين الأيوبي.
(3) أحد الشعراء والبلغاء المشهورين وهو يعرف بـ«ابن نباتة المصري» وقد أورد له ابن حجة الحموي هو والقاضي الفاضل، رسائل في وصف السيف ومفاضلته بالقلم - راجع ثمرات الأوراق المسطر على هامش كتاب «المستطرف من كل فن مستظرف» للأبشيهي/ ص123 وما بعدها. منشورات دار الفكر - بيروت.

تعاطوا مهنة الكتابة، وعرفوا فضل أدواتها ولا ريب أن السكين كانت إحدى الأساسيات في أدوات الكتابة، وبها يكمل القلم مهمته، ومن دونها يحجم عن مهمته بعد حين، وقد أحسن أحد الكتّاب في وصفها شعراً فقال على لسانها[1]:

أنا إن شئت عدّة لعدوّ حين يخشى على النفوس الحمام
أنا في السلم خادم لدواة وبحدّي تقوّم الأقلام

ونظراً لأهمية السكين ووجودها المصاحب مع عدة الكتابة، صارت تهدى[2] وتسرق وتحاف[3] وترصد، وتشترى، فمن ذلك، أن أحد كتّاب الدواوين في (ق 4هـ) قد سرق سكيناً من الشاعر المعروف كشاجم، فغضب عليهم وقال[4]:

يا قاتل الله كتّاب الدواوين ما يستجيزون من حدّ السكاكين
لقد دهاني لطيف منهم ختل في ذات حد كحد السيف مسنون
فابتزينها ولم أشعر به عبثا ولست ولو ساءني ظنٌّ بمغبون
وأقفرت بعد عمران بموقعها منها دواة فتى بالكتب مفتون
يبكي على مدية أودى الزمان بها كانت على جائر الأيام تعديني
كانت تقوّم أقلامي وتُتحفها برياً وتسخطها قطاً فترضيني
وأُضحك الطرس والقرطاس عن حلل تنوب للعين من نور البساتين
وإن قشرت بها سوداء عن صحفي عادت كبعض خدود الخُرّد العين
جزع النصاب لطيفات شعائرها محسّنات بأصناف التحاسين
هيفاء مرهفة، بيضاء مذهبة قال الاله لها سبحانه كوني
مخطوفة الخصرتحكي في تخصّرها خصر البديع، بديع في الخفاتين

(1) صبح الأعشى 2/ 457.
(2) أهدى أحدهم سكيناً إلى ابن حجة الحموي - صاحب الثمرات والخزانة - فقال شعراً ونثراً من ذلك/ راجع - حسن الدعابة/ ص40 - 41.
سكين قطع الملوك بها أوصال الجفاء وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البر والشفاء
(3) تحاف = بلغة أهل جنوب العراق - ترصد للسرقة، بعد تحديد سالك السطو، والحوف في اللغة - الميل - انظر اللسان - مادة (حيف).
(4) انظر ديوانه/ ص473 - 475، قافية النون - تحقيق خيرية محمد محفوظ - منشورات وزارة الاعلام - بغداد 1390هـ/ 1970م. وانظر كذلك زهر الآداب وثمر الألباب/ لأبي إسحاق الحصري القيرواني 2/ 140 تحقيق زكي مبارك - منشورات المكتبة التجارية الكبرى بمصر/ ط1 - 1925م وكذلك/ حسن الدعابة ص41 - 42.

كـأنـهـا حـيـن يـشـجـيـنـي تـذكـرّهـا ... في القلب مني وفي الأحشاء تغريني
لـكـن مـقـطّـي أمـسـى شـامـتـا جـذلا ... وكـان فـي ذلـة مـنـهـا وفـي هـون
فـصـين حـتـى يـضـاهـي فـي صـيـانـتـه ... جـاهـي لـصـونـيـه عـمـّن لا يـدانـيـني
فـلـسـت عـنـهـا بـسـالٍ مـا حـيـيـت ولا ... بـواجـدٍ عـوضـاً مـنـهـا يـسـلـيّـنـي
فـلـو يـراد فـداء مـا فـجـعـت بـه ... مـنـهـا فـديـنـاه بـالـدنـيـا وبـالـديـن

وحسن استخدامها في أمور الحياة، جعل الكثير من الأدباء والندماء، يحسن التعبير عنها في كل موقف، فمن ذلك ما قاله أحمد بن يوسف وهو جالس بين يدي المأمون حينما سأله عن السكين، فناولها له، وقد أمسك أحمد بنصابها، وأشار إليه بالحد، فنظر إليه المأمون نظر منكر فقال: لعل أمير المؤمنين أنكر علي أخذي النصاب، وإشارتي إليه بالحد، وإنما تفاءلت بذلك أن يكون له الحد على أعدائه، فعجب المأمون من سرعة فطنته ولطيف جوابه[1] وقال كاتب في وصفها[2]: «سكين ذات منسر بازي، وجوهر هوائي، ونصاب زنجي، إن أرضيت أولت متناً كالدهان وإن أسخطت أتقت بناب الأفعوان، سكين أحسن من التلاق وأقطع من الفراق، تفعل فعل الأعداء وتنفع نفع الأصدقاء، هي أمضى من القضاء، وأنفذ من القدر المتاح، وأقطع من ظبة السيف الحسام، وألمع من البرق في الغمام، جمعت حسن المنظر، وكرم المخبر، وتملكت عنان القلب والبصر، لم يحوجها عتق الجوهر إلى إمهاء الحجر».

رأينا فيما تقدم أن هناك عدة عمليات فنية، استنبطها الكتّاب من ظروف مهنة الكتابة، كأنواع القصب، وكيفية استخدام القط والمقط وفنية إمساك السكين والقطع فيها، وهذه العمليات المتوالية تشير إلى التفكير الدائم بتطوير أداة الكتابة الرئيسي «القلم»، وهذه المسألة، لم تكن حصراً وحكراً على كتّاب الدولة العباسية في بغداد، بل هي همٌّ مشترك عند أمراء وكتاب الممالك الإسلامية الأخرى، إن كانت في الأندلس أو في مصر الفاطمية، وقد لعب التنافس السياسي، فيما بين هذه الدول، دوراً إيجابياً في تطور مجمل الصناعات والعلوم، وقد كان للقلم، حضوره في هذا التنافس، نظراً لما هو عليه من تسيير شؤون الملك، وبغية إيجاد تفرد معين، في فن أر علم مخصص، لهذه الممالك، تنافس به حكومة بغداد العباسية، فقد إنبرت الدولة الفاطمية في مصر، لإثبات قدرتها في مجال

(1) زهر الأداب 2/ 140.
(2) زهر الأداب 2/ 141.

التنافس في صناعة القلم، فقد أشار القاضي النعمان بن حيون المغربي[1] إلى أن المعز لدين الله الفاطمي طرح فكرة صناعة «قلم الحبر» حيث قال: «نريد أن نعمل قلماً يكتب به بلا استمداد من دواة، يكون مداده داخله، فمتى شاء الإنسان كتب به، فأمده وكتب بذلك ما شاء، ومتى شاء تركه، فارتفع المداد، وكان القلم ناشفاً منه، يجعله الكاتب في كمه، أو حيث شاء، فلا يؤثر فيه ولا يرشح شيء من المداد عنه، ولا يكون ذلك إلا عندما يبتغي منه ويراد الكتابة به، فيكون آلة عجيبة لم نعلم أنّا سبقنا إليها، ودليلاً على حكمة بالغة لمن تأملها، وعرف وجه المعنى فيها».

ويضيف القاضي النعمان، تعقيباً على قول المعز قال: «فما مر بعد ذلك إلا أيام قلائل حتى جاء الصانع الذي وصف له الصنعة به، معمولاً من ذهب، فأودعه المداد، وكتب به فكتب، وزاد شيئاً من المداد على مقدار الحاجة، فأمر المعز بإصلاح شيء منه، فأصلحه. وجاء به فإذا هو قلم يقلّب في اليد، ويميل إلى كل ناحية، فلا يبدو منه شيء، فإذا أخذه الكاتب وكتب به، كتب أحسن كتاب ما شاء أن يكتب به، ثم إذا رفعه عن الكتاب أمسك عن المداد»[2].

وعلى ما يبدو أن دواوين الدولة العباسية في ذلك الوقت (ق 4هـ) لم تعر ذلك أي اهتمام، وأضربت على ذكره، ولم تتعاطَ فيه، بل استمرت في استخدام القصبة، وتفننت في ذلك وأوجدت منها أنواعاً للخطوط، بل أوجدت مدرسة للخط في بغداد، كان على رأسها عبد الله بن مقلة، الوزير الخطاط، ثم انتقلت إلى يد المجود الأحذق، ابن البوّاب، وانتهت رياسة هذه المدرسة إلى ياقوت المستعصمي[3] وعن هذه المدرسة، أخذ العالم الإسلامي أصول الخط العربي وقواعده.

ما قيل في الأقلام

قالوا: القلم أحد اللسانين، وهو المخاطب للعيون بسرائر القلوب، على لغات

(1) كتاب المجالس والمسايرات/ ص319 - 320، الجزء الخامس عشر، تحقيق الحبيب الفقي وإبراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي - منشورات الجامعة التونسية - 1978م.

(2) وبهذا الاختراع، يكون المعز لدين الله الفاطمي (319 - 365هـ/ 931هـ - 975م) هو أول مخترع لقلم الحبر، وهو سابق على اختراع القلم الخازن للحبر في أوروبا بثمانية قرون، حيث يشار إلى قلم (F.B foelsn) سنة 1809. ثم قلم (J.sheffer) (سنة 1819، انظر بهذا الصدد - الهامش رقم 1 من ص 319 من كتاب «المجالس والمسايرات» وانظر ترجمة المعز في الاعلام، للزركلي 7/ 365، ط5، طبعة دار العلم للملايين - بيروت 1980م.

(3) تتبع ذلك معنا في ج4 (الخطاطون) في هذا البحث.

مختلفة، من معان معقودة بحروف معلومة مؤلفة، متباينة الصور، مختلفات الجهات، لقاحها التفكير ونتاجها التدبير، تخرس منفردات، وتنطق مزدوجات، بلا أصوات مسموعة، ولا ألسن محدودة ولا حركات ظاهرة خلا قلم حرّف باريه قطته ليعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليرّد ما انتشر عنه إليه، وشقّ رأسه ليحتبس المداد عليه، فهنالك استمدّ القلم بشفّه، ونثر في القرطاس بخطّه، حروفاً أحكمها التفكّر وجرى على أسلّة الكلام الذي سداه العقل وألحمه اللسان، ونهسته اللهوات، وقطعته الأسنان، ولفظته الشفاء، ودعته الأسماع على أنحاء شتّى من صفات وأسماء، وفيه قال أبو الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي[1].

وأسمر طاوي الكشح أخرس ناطق ... له ذملان في بطون المهارقِ
إذا استعجلته الكفّ أمطر وبله ... بلا صوت إرعاد ولا ضوء بارقِ
إذا ما حدا عزّ القوافي رأيتها ... مجلية تمضي أمام السوابقِ
كأن عليه من الدجى الليل حلّة ... إذا ما استهلّت مزنه بالصواعقِ
كأن اللالي والزبرجد نطقه ... ونور الخزامى في عيون الحدائقِ

حدّث محمد بن أحمد الأنصاري قال: دخل عيسى بن قرخا نشاه على جارية هي تكتب خطاً حسناً فقال[2]؟

سريعة جرى الخط تنظم لؤلؤاً ... وينثر درّا لفظها المترشف
وزادت لدينا حظوة ثم أقبلت ... وفي أصبعيها أسمراللون مرهف

وقال أحد الورّاقين، يصف قلمه ويمدحه ويذكر اسغناءه[3]:

يا مجيري من سطوة الأمراء ... وعميدي في نوبة اللاواء[4]
والذي صان حرّ ديباجة الوجـ ... ـه عن الأسخياء والبخلاء
والذي لا أزال أنعت في الشعـ ... ـر وأطريه غاية الإطراء
وسفيري بما أريد من الأمـ ... ـر إلى إخوتي من الأدباء
والذي لا زال يخبر في المهر ... ق عن سالف الأنباء

(1) العقد الفريد 4/ 191 - طبعة القاهرة 1363هـ/ 1944م.
(2) الصولي - أدب الكتّاب/ ص84.
(3) الصولي/ نفس المكان.
(4) اللأواء: الشدة.

والذي ما أبتعثته استن كالمثا ... قب يغرى دجنة الظلماء

وقال عبد الله بن المعتز في قلم القاسم بن عبد الله:

قلم ما أراه أو فلك يجـ ... ـري بما شاء قاسم ويدور

راكع ساجد يقلّب قرطا ... ساً كما قلّب البساط شكور

وفيه يقول:

عليم بأعقاب الأمور كأنه ... لمختلفات الظن يسمع أو يرى

إذا أخذ القرطاس خلت يمينه ... يفتح نوراً أو ينظم جوهرا

وقال ابن الرومي مفضّلاً القلم على السيف[1]:

لعمرك ما لسيف سيف الكميّ ... بأخوف من قلم الكاتب

له شاهد أن تأملته ... ظهرت على سرّه الغائب

أداة المنيّة في جانبيـ ... ـه فمن مثله رهبة الراهب

ألم تر في صدره كالسنا ... ن وفي الردف كالمرهف القاضب

وقال أبو أسامة الكاتب ملغّزا عنه[2]:

وأعجف مشتق الشباه مقلّم ... موشى القرى طاوى الحشا أسود الفم

تبين خفيّ النسر آثاره لنا ... ويهرب عن غير الضمير المكتم

يودي صحيح القول عنه مخاطباً ... به العين دون السمع لا بالتكلم

إذا استغزرته الكف فاضت سجاله ... من الفكر فيض الرايح المتغيّم

دخل محمد بن ذؤيب العماني الراجز على الرشيد فأنشدهُ إرجوزة يصف فيها فرساً شبّه أذنيه فيها بقلم محرّف[3]:

كأن أذنيه إذا تشوفا ... قادمة أو قلما محرّفا

فقال له الرشيد: دع - كأن - وقل «تخال أذنيه إذا تشوّفا» حتى يستوي الأعراب.

---

(1) أدب الكتاب/ ص 85؛ وديوانه/ ص269 - الجزء الثاني - تحقيق كامل كيلاني - منشورات المطبعة التجارية بمصر.

(2) المصدر السابق/ نفس المكان.

(3) ذات المصدر/ ص86.

وأورد القلقشندي جملة أبيات في مفاخرة القلم، منها قول ابن الرومي[1]:

أن يخدم القلم السيف الذي خضعت ... له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت - والموت لا شيء يغالبه ... ما زال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذ بريت ... أن السيوف لها - مذ أرهفت - خدم

ويقول أحدهم في فضل القلم وتفوّقه على السيف في الرهبة، وزيادة في الجد والكرم[2]:

فلكم يفل الجيش وهو عرمرم ... والبيض ما سلّت من الأغماد
وهبت له الأجسام حين نشابها ... كرم السيول وصولة الآساد

وقال العلوي وهو يصف القلم وتأثيراته في المشرق والمغرب[3]:

وعريان من خلعة مكتس ... يميس من الوشي في يلمقٍ[4]
تحدّر من رأسه ريقة ... تسيل على ذروة المفرقِ
فكم من أسير له مطلق ... وكم من طليق له موثقِ
يقيم ويوطن غرب البلاد ... وينهي ويأمر بالمشرقِ
قليل كثير ضروب الخطوط ... وأخرس مستمعِ المنطقِ
يسير بركب ثلاث عجال ... إذا ما حدا الفكر في بيرقِ

وقال آخر في وصف القلم[5]:

وبيت بعلياء العلاة بنيته ... بأسمر مشقوق الخياشم يرعف
كأن عليه ملبسا جلد حيّة ... مقيم فما يمضي وما يتخلّف
جليل شؤون الخطب ما كان راكبا ... يسير وان أرجلته فمضعّف

وقال أبو تمام حبيب ابن أوس الطائي في مدح قلم محمد بن عبد الملك الزيات[6]:

---

(1) صبح الأعشى 1/ 45؛ ديوانه 3/ 372 بعناية كامل كيلاني.
(2) المصدر السابق/ نفس المكان.
(3) العقد الفريد 4/ 191 - 192.
(4) اليلمق = القباء - فارسي معرب يلمه.
(5) العقد الفريد 4/ 192.
(6) من قصيدة مطلعها: (متى أنت عن ذهليّة الحيّ ذاهل... وقلبك منها مدّة الدهر آهل) انظر القصيدة =

لـك الـقـلـم الأعـلـى الـذي بـشـبـاتـه تـصـاب مـن الأمـر الـكـلـى والـمـفـاصـل
لـه الـخـلـوات الـلاء لـولا نـجـيّـهـا لما احتفلت للملك تلك المحافل[1]
لـعـاب الأفـاعـي الـقـاتـلات لـعـابـه وأري الـجـنـى اشـتـارتـه أيـدٍ عـواسـل
لـه ريـقـة طـلٌّ ولـكـن وقـعـهـا بـآثـاره فـي الـشـرق والـغـرب وابـل
فـصـيـح إذا اسـتـنـقـطـتـه وهـوراكـب وأعـجـم أن خـاطـبـتـه وهـو راجـل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرقت عـلـيـه شـعـاب الـفـكـر وهـي حـوافـل
أطـاعـتـه أطـراف الـقـنـا وتـقـوضـت لـنـجـواه تـقـويـض الـخـيـام الـجـحـافـل
إذا استـغـزر الـذهـن الـذكـيّ وأقـبـلـت أعـالـيـه فـي الـقـرطـاس وهـي أسـافـل
وقـد رفـدتـه الـخـنـصـران وشـدّدت ثـلاثٍ نـواحـيـه الـثـلاث الأنـامـل
رأيـت جـلـيـلا شـأنـه وهـو مـرهـف ضـنـيّ وسـمـيـنـا خـطـبـه وهـو نـاحـل

وأنشد البحتري لنفسه يصف قلم الحسن بن وهب[2]:

وإذا تـألـقّ فـي الـنـدى كـلامـه الـ مـصـقـول خـلـت لـسـانـه مـن عَـضْـبـه
وإذا دجـت أقـلامـه ثـم انـتـحـت بـرقـت مـصـابـيـح الـدجـى فـي كـتـبـه
بـالـلـفـظ يـقـرب فـهـمـه فـي بـعـده مـنّـا ويـبـعـد نـيـلـه فـي قـربـه
حـكـم فـسـائـحـهـا خـلال بـنـانـه مـتـدفّـق وقـلـيـبـهـا فـي قـلـبـه
كـالـرَوض مـؤتـلـقـا، بـحـمـرة نـوره وبـيـاض زهـرتـه وخـضـرة عـشـبـه
أو كـالـبـرود تـخـيّـرت لـمـتـوّج مـن خـالـه، أو وشـيـه، أو عـصـبـه
وكـأنـهـا والـسـمـع مـعـقـود بـهـا شـخـص الـحـبـيـب بـدا لـعـيـنِ مـحـبّـه

وقال ابن عبد ربّه الأندلسي في وصف القلم[3]:

بـكـفّـه سـاحـر الـبـيـان إذا أداره فـي صـحـيـفـة سـحـرا

= رقم (129) في ديوانه 3/ 112 - 113. البيت رقم 30 وما بعده، بشرح الخطيب التبريزي - تحقيق محمد عبده عزام - منشورات دار المعارف بمصر 1964م وانظر كذلك - العقد الفريد 4/ 192.

(1) لم يورد صاحب العقد الفريد هذا البيت، وتخطاه لما بعده.

(2) من القصيدة رقم 55 والتي مطلعها (من سائل المعذر عن خطبه. . . أو صافح لمقصّر عن ذنبه)، انظر ديوانه 1/ 163 - 166 - بعناية حسن كامل الصيرفي - منشورات دار المعارف بمصر - 1963م - وانظر العقد الفريد 4/ 193.

(3) العقد الفريد 4/ 193.

ينطق في عجمة بلفظته نصمّ عنها وتسمع البصرا
نوادر يقرع القلوب بها أن تستبنها وجدتها صورا
نظام درالكلام ضمنهُ سلكاً لخط الكتاب مستطرا
إذا امتطى الخنصرين أذكرمن سحبان فيما أطال واختصرا
يخاطب الغائب البعيد بما يخاطب الشاهد الذي حضرا
ترى المقادير تستدّف[1] له وتنفد الحادثات ما أمرا
شخت[2] ضئيل لفعله خطر أعظم به في ملمة خطرا
تمج فكّاه ريقة صغرت وخطبها في القلوب قد كبرا
تواقع النفس منه ما حذرت وربما جنت به الحذرا
مهفهف تزدهي به صحف كأنّما حليّت به دررا
يكاد عنوانها لروعته ينبيك عن سرّها الذي استترا

ومن أحسن ما شبّهت به الأقلام قول ذي الرمّة[3]:

كأن أنوف الطيّر في عرصاتها خراطيم أقلام تخطّ وتعجم

ومثله قول عدّي بن زيد الرّقاع في ولد البقرة[4]:

تزجى أغنّ كأن أبرة روقه قلم أصاب من الدّواة مدادها

وقال الخليفة المأمون[5]:

كأنما قابل القرطاس إذ نشفت منها ثلاثة أقلام على قلم

لم تقف أوصاف القلم عند عصر من العصور، بل تعدته إلى غيره، وصار أدباء كل عصر يتغزلون أو يتلاغزون به، فهذا الحريري (ق 6هـ) يردد رجع صدى (ق 4هـ) في وصف القلم في إحدى مقاماته[6] ملغزاً فيه القول شعرا[7]:

---

(1) تستدفّ = تسهل وتستقم.
(2) الشحت = بالفتح ويحرّك - الدقيق الضامر لا هزالاً.
(3) العقد الفريد 4/ 194.
(4) المصدر السابق، وأدب الكتّاب للصولي/ ص79.
(5) نفسه.
(6) المقامة الثانية والاربعون، المعروفة بـ«النجرانية».
(7) مقامات الحريري/ المقامة 42/ ص465 - 466 طبعة المطبعة الحسينية المصرية 1348هـ/ 1929م.

ومـأمـوم بـه عُـرفَ الإمـام　　كما باهت بصحبته الكرام
لـه إذ يـرتـوي طـيـشـان صـاد　　ويسكن حين يعروه الاوام[1]
ويذري حين يستسقي دموعا　　يرقن كما يروق الابتسام

وقال أبو هفّان وهو يصف القلم بيد الكاتب[2]:

وإذا أمرّ على المهارق كفه　　بأنامل يحملن شختا مرهفا
ومقصّرا ومطوّلا ومقطّعا　　وموصلا ومشتّتاً ومولّفا
كالحيّة الرقشاء إلا أنه　　يستنزل الأروى إليه تلطفا[3]
يهفو بها قلم يمجّ لعابه　　فيعود سيفاً صارما ومثقّفا

وقال بعض الورّاقين الشعراء في وصف أقلامه[4]:

إذا ما التقينا وانتضينا صوارما　　يكاد يصمّ السامعين صريرها
تساقط في القرطاس منها بدائع　　كمثل اللآلي نظمها ونثيرها

وقال حمّاد الدمشقي يصف قلما[5]:

للأيم بعثته وشقّ لسانه　　وله إذا لم يجرها أطراقه
كالحيّة النضناض إلا أنه　　من حيث يجري سمّه درياقه

وقال ابن أبي البغل الكاتب المعروف في (ق 4هـ) في وصف القلم[6]:

أصمٌّ من المنادى لا يجيب　　به تخبو وتشتعل الخطوب
ضئيل الجسم أعلم ليس تخفى　　عليه غيوبنا تخفي القلوب
تراه راجلا لا روح فيه　　ويحبيه وينطقه الركوب
يبيّن لسانه ما كان سودا　　معارفه ويخرسه المشيب
يقسّم في الورى بؤسىً ونعمىً　　ويحكم والقضاء له مجيب

---

(1) الأوام = العطش.
(2) العقد الفريد 4/ 197.
(3) الأروى = جمع كثرة للأروية، وهي أنثى الوعول.
(4) العقد الفريد 4/ 198.
(5) زهر الآداب 3/ 37.
(6) حسن الدعابة للكردي/ ص45.

عجبت لسطوة فيه وضعف ... وكل أموره عجب عجيب

وقال أبو هلال العسكري(1):

انظر إلى قلم ينكّس رأسه ... ليضمّ بين موصل ومفصّل
تنظر إلى مخلاب ليث ضيغم ... وفرارمسنون المضارب مفصل
يبدو لناظره بلون أصفر ... ومدامع سود وجسم منحل
فالدرج أبيض مثل خدّ واضح ... يثنيه أسود مثل طرف أكحل
قسم العطايا والمنايا في الورى ... فإذا نظرت إليه فاحذر وأمل
طعمان شوب حلاوة بمرارة ... كالدهر يخلط شهده بالحنظل
فإذا تصرّف في يديك عنانه ... ألحقت فيه يائساً بمؤمّل
ومذللا بمعززٍ ولربما ... ألحقت فيه معززا بمذلل

وقال محمود بن أحمد الأصفهاني في وصف القلم(2):

أخرس ينبيك بإطراقه ... من كل ما شئت من الأمر
يذري على قرطاسه دمعة ... يبدي بها العين وما يدري
كعاشق أصفى هواء وقد ... نمّت عليه عبرة تجري
يبصره في كل أحواله ... عريان يبكي الناس أو يعرى
يُرى أسيرا في دواة وقد ... أطلق أقواما من الأسر
أخرق لو لم تبره لم يكن ... يرشق أقواما وما يبري
كالبحر إذ يجري وكالليل إذ ... يغشي وكالصارم إذ يفري

وقال الفضفاضي(3):

في كفّه أخرس ذو منطق ... بقافه واللام، والميم
شبرا، إذا قيس، ولكنّه ... في فعله مثل الأقاليم
محرّف الرأس ومسودّه ... كإبرة الروس من الريم

---

(1) حسن الدعابة ص25.
(2) حسن الدعامة/ ص25.
(3) أدب الكتّاب/ ص78.

وكتب أبو بكرالصولي إلى أبي علي محمد بن علي في أيام - ابن الفرات الأولى قصيدة منها[1]:

مشف على الرأي نظّار عواقبه إذا تشابه وجه الرأي واحتجبا
في كفّه صارم لانت مضاربه يسوسنا رغبا ان شاء أورهبا
السيف والرمح خدّام له أبدا لا يبلغان له جدّاً ولا لعبا
يرمي فيرضيهما عن كل مجترم ويعصيان على ذي النصح أن غضبا
تجري دماء الاعادي بين أسطره ولا يحسّ له صوت إذا ضربا
فما رأينا مداداً قبل ذاك دماً ولا رأينا حساما قبل ذا قصبا
وقد شككنا فما ندري لشربته أنظم الدرّ في القرطاس أم كُتُبا

والقول في القلم شعراً، كثير جداً، ونكتفي بهذا القدر من تلك الشواهد الشعرية فيه.

2 - الدواة

يقال: دواة ودويّات في أدنى العدد، وفي الكثير دويٌّ ودوىً، بضمّ الدّال وكسرها[2]، وقال صاحب المتن[3]: «الدواة، هذه المتخذة لمدة القلم في الكتابة»، أوّل بعض المفسرين قوله: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[4] بأن «النون» هي الدواة، وعلى أية حال فإن الدواة هي أم آلات الكتابة وسمطها الجامع لها، حتى أن ابن سابور يقول: «مثل الكاتب بغير دواة كمثل من يسير إلى الهيجاء بغير سلاح»[5].

ويرادف الدواة المحبرة، والجمع محابر، مع اختلاف في وضعهما كما سيأتي.

وبالنظر لأهمية الدواة بالنسبة للكتّاب والورّاقين ودواوين الوزارة، فقد إتخذت صناعتها من أصناف معيّنة من الخشب، مثل: الأبنوس والساسم والصندل، فيما تطوّر معدن صناعتها فيما بعد، فقد غلب على الكتّاب المتأخرين اتخاذ المحابر من النحاس

(1) أدب الكتّاب/ ص80.
(2) القلقشندي - صبح الأعشى 2/ 431.
(3) متن اللغة - للشيخ أحمد رضا - مادة (دوي) منشورات مكتبة الحياة - بيروت 1377هـ/ 1958م، وراجع كذلك الفيروز آبادي - القاموس المحيط - مادة (دوي) وعلى ما يبدو أن أغلب المعاجم اللغوية - اللسان - القاموس - لم تتوقف عندها، نظراً لكونها معروفة كأداة لجمع المداد (الحبر).
(4) سورة القلم، الآية: 1.
(5) صبح الأعشى 2/ 430 - 431.

الأصفر والفولاذ، وتغالوا في أثمانها وبالغوا في تحسينها[1]، لكن الملاحظ أن النحاس كان أكثر استعمالاً، والفولاذ أقل لعزته ونفاسته، ولكنه كان يخصص بأعلى درجات الرياسة كالوزارة وما ضاهاها، أما محابر الخشب، فقد بطل استعمالها، إلا الأبنوس والصندل الأحمر، فقد قال القلقشندي أنه إختص باستخدامهم قضاة الحكم وموقعوهم وبعض شهود الدواوين[2]. وأصحابنا الورّاقون كانوا إلى الخشب أميل، وأكثر استخداماً.

ولكون الدولة تعطي هيبة لطقس الكتابة وموضع الكاتب، فقد مال غالبية الكتّاب إلى تحليتها وزركشتها بالحلي، كالذهب والفضة، وغيرهما من المعادن، وفي هذا قال الحسن بن وهب؛ وهو من جلّة الكتاب في العصر العباسي: «سبيل الدواة أن يكون عليها من الحلية أخف ما يكون ويمكن أن تحلّى به الدّوى في وثاقة ولطف، ليأمن أن تنكسر أو تنقصم في محلة.

وأضاف: «وحق الحلية أن تكون ساذجة بغير حفر ولا ثنيات فيها، ليأمن من مسارعة القذى والدّنس إليها، ولا يكون عليها نقش ولا صورة»[3].

هذه المواصفات التجميلية للدواة، جعلت القلقشندي أن يسقط عليها بتعليقاته شيئاً من محمولة الآيديولوجي - الديني، حيث أشار[4]: «وحق هذه الحلية مع ما ذكره ابن وهب أن تكون من النحاس ونحوه، دون الفضة والذهب، على أن بعض الكتاب في زماننا[5] قد إعتاد التحلية بالفضة، ولا يخفى أن حكم ذلك حكم الضبّة في الإناء فتحرم مع الكبر والزينة وتكره مع الصِفرِ والزينة، والكبر والحاجة، وتباح مع الصفر والحاجة من كسر ونحوه، كما قرّره أصحابنا الشافعية، نعم يحرّم التكفيت بالذهب والفضة، وكذلك التموية إذا كان يحصل منه بالعرض على الناس شيء».

وكان لحجم الدواة أثره في اختيارها بالنسبة للكاتب أكثر من غيره كالوزراء وكتّاب الدواوين، وقد إلتفت الصولي إلى ذلك موضحاً أهمية الحجم حيث أشار إلى أن (حكم الدواة أن تكون متوسطة في قدرها، نصفاً في قدّها، لا باللطيفة جداً فتقصر أقلامها، ولا بالكبيرة فيثقل حملها، لأن الكاتب - ولو كان وزيراً له مائة غلام مرسومون بحمل دواته -

(1) نفسه 2/ 431.
(2) نفسه 2/ 432.
(3) المصدر السابق/ نفس المكان.
(4) المصدر السابق/ نفس المكان.
(5) يقصد القرن 8 هـ - حيث أنه ولد سنة 756هـ - 821هـ/ راجع الزركلي 1/ 177.

مضطر في بعض الأوقات إلى حملها ووضعها ورفعها بين يدي رئيسه، حيث لا يحسن أن يتولى ذلك منها غيره، ولا يتحملها عنه سواه، وأن يكون عليها من الحلية أخف ما يتهيأ أن يتحلى الدوى به)[1].

وارتأوا أن يكون طولها بمقدار عظم الذراع أو فويق ذلك قليلاً لتكون مناسبة لمقدار القلم، وقد أشار القلقشندي[2] إلى إختلاف مقاصد أهل الزمان في هيئة الدواة. من التدوير والتربيع، يقول:

فأمّا كتّاب الإنشاء فإنهم يتخذونها مستطيلة مدوّرة الرأسين، لطيفة القدّ، طلباً للخفّة، ولأنهم إنما يتعانون في كتابتهم الدّرج[3]، وهو غير لائق بالدواة في الجملة، على أن الصغير من الدرج لا يأبى جعله في الدواة المدوّرة. وأمّا كتّاب الأموال فإنهم يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا، وليجعلوا في باطن غطائها ما استخفوه مما يحتاجون إليه من ورق الحساب الديواني المناسب بهذه الدواة في القطع، وعلى هذا الأنموذج يتخذ قضاة الحكم وموقّعوهم دويّهم، وينبغي للكاتب أن يجتهد في تحسين الدواة وتجويدها وصونها، وقد جعلوا ذلك من منابع وعيهم ولزاميّات خواطرهم، يقول المدائني:[4].

جوّد دواتك واجتهد في صونها ... انّ الدويّ خزائن الآداب

ومن هذه الزاوية في الاهتمام بالدواة، فإنها صارت محطّ أنظار الكتّاب، والبضاعة النفيسة التي تعشقها روح الكاتب، لذلك بدأ تبادل الهدايا بها، قال أبو الطيب عبد الرحمن بن أحمد بن زيد الكاتب، جملة أبيات في دواة من الأبنوس محلاّة أهداها لأحد أصدقائه[5]:

لم أرَ سوداء قبلها ملكت ... نواظر الخلق والقلوب معا
لا الطوّل أزرى بها ولا قصرٌ ... لكن أتت للوصول مجتمعا
فوقك جنح من الظلام بها ... وبارق بائتلافها، لسعا
خذها لدرّ بها تنظّمه ... يروق في الحسن كل من سمعا

---

(1) الصولي - أدب الكتّاب/ ص96.
(2) صبح الأعشى 2/ 432 - 433.
(3) الدرج = الذي يكتب فيه - وهو في العادة اسطواني على شكل لفيفة - والدّرج - بالتحريك، يقال أنفذته في درج الكتاب أي في طيّه/ اللسان - مادة (درج).
(4) صبح الأعشى 2/ 433.
(5) المصدر السابق/ نفس المكان.

أما المحبرة المفردة عن الدواة فقد اختلف الناس فيها كما يقول القلقشندي[1]: فمنهم من رجّحها ومالوا إلى إتخاذها لخفة حملها وقالوا: بها يكتب القرآن والحديث والعلم، وكرهها بعضهم واستقبحها من حيث أنها آلة النسخ الذي هو من أشدّ الحِرف وأتعبها وأقلها مكسباً وتشاءموا منها كثيراً، يروى أن شعبة/أحد رجالات الحديث/ رأى في يد رجل محبرة فقال له: إرم بها فإنها مشؤمة لا يبقى معها أهل ولا ولد ولا أم ولا أب[2]، والشؤم هذا نابع من كون صاحبها يرتزق منها في صنعة الوراقة المتعبة لأهلها.

ما قيل في الدواة

قال أحدهم في وصف الدواة[3]: الدواة من أنفع الأدوات، وهي للكتابة عتاد، وللمخاطر زناد، وغدير لا يرده غير الأفهام، ولا يمنح بغير أرشية الأقلام، دواة أنيقة الصيغة، رشيقة، مسكيّة الجلد، كافورية الحكاية، غدير تفيض ينابيع الحكمة من أقطاره، وتساق سحب البلاغة من قراره، دواة تداوى مرض عفاتك وتداوى لقلوب عداتك، على مرفع يؤذن بدوام رفعتك، وارتفاع النوائب عن ساحتك، ومواد كسواد العين وسويداء القلب، وجناح الغراب ولعاب الليل، وألوان دهم الخيل، مداد ناسب خافية الغراب، واستعار لون شرخ الشباب، وأقلام جمّة المحاسن، بعيدة عن المطاعن، تعاطي الكاسي، وتمانع النافر القاسي، أنابيب ناسبت رماح الخط في أجناسها، وشاكلت الذهب في ألوانها، وضاهت الحديد في لمعانها، أقلام، كأنها الأميال استواء والآجال مضاء، بطيئة الخطى، قوية القوى، لا يشطبها القسط، ولا ينشعب بها الخط، أقلام بحرية، موشية الليط، رائعة التخطيط، قلم معتدل الكعوب، طويل الأنبوب، باسق الفروع، روى الينبوع، هو أولى باليد من البنان، وأخفى للسرّ من اللسان، هو للأنامل مطيّة، وعلى الكتابة معونة مرضية، نعم العدة القلم.

وقال أبو الفتح كشاجم فيها مركزاً الوصف على المحبرة[4]:

محبرة جاد لي بها قمر	مستحسن الخلق مرتضى الخلق
جوهرة حصّني بجوهرة	ناطت له المكرمات في عنقي
بيضاء والحبر في قرارتها	أسود كالمسك جدّ منفتق

(1) صبح الأعشى 2/ 433.
(2) المصدر السابق 2/ 434.
(3) حسن الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة/ ص33 - 34.
(4) أنظر ديوانه/ ص368 - 369 قافية القاف - المقطوعة رقم (358).

مـثـل بـيـاض الـعـيـون زيّـنـه مـسـودّ أشـبـاهـه مـن الـحـدق
كـأنـمـا حـبـرهـا إذا نـشـرت أقـلامـنـا طـلّـة عـلـى الـورق
كـحـلٍ مـرتـه الـدمـوع مـن مـقـلٍ نـجـل فـأوفـت بـه عـلـى يـقـقِ[1]
خـرسـاء لـكـنّـهـا تـكـون، لـنـا عـونـاً عـلـى عـلـم أفـصـح الـنـطـقِ

قال الصولي: أنشدنا أحمد بن محمد بن إسحاق قال: أنشدني أبو هفان[2]:

آلـة الـمـجـلـس الـطـريـف إذا مـا كـانـت فـيـه الـدواة والأقـلام
يـتـهـادى فـيـه الـبـلاغـة والآ داب مـنـثـورهـا مـعـا والـنـظـام

وقال الصولي: أما المشهود مما قيل فيها، فشعر بعض الكتّاب، وقد أهدى دواة محلاة بذهب وهي من الأبنوس[3]:

وقـد بـعـثـنـا إلـيـك أمّ الـمـنـايـا والـعـطـايـا نـجـيّـة الأحـسـاب
تـتـزيّـا بـصـفـرة وكـذا الـزن ج تـزيـا عـجـبـا بـصـفـر الـثـيـاب
ريـقـهـا ريـق نـحـلـة مـع صـاب حـيـن يـجـري لـعـابـهـا فـي الـكـتـاب
فـي حـشـاهـا لـغـيـرحـرب حـراب هـنّ أمـضـى مـن مـرهـفـات الـحـراب

وقال ورّاق فيها ملغزا المعنى[4]:

ومـا أمّ أولاد ولـمّـا تـلـدهـم عقامَ إذا ما استنجدت لم تكلم
وأولادهـا خـرس ويـأتـيـك عـنـهـم أحاديث من أيام طسم وجرهم[5]
إذا استعجلوا في حالة أرقلت بهم[6] أثـافـي مـن لـحـم كـريـم ومـن دم

وقال علي بن الصباح في وصف دواة[7]:

دواة حـديـد زيّـن الله خـلـقـهـا بـكـفّ فـتـى حـلـو الـكـتـابـة حـاذق

---

(1) يقق = شديد البياض، يقال لجمارة النخلة، اللسان - مادة (يقق).
(2) أدب الكتّاب/ ص92.
(3) المصدر السابق/ نفس المكان.
(4) نفس المصدر السابق/ ص92 - 93.
(5) طسم وجديس - قبائل من عاد أنقرضوا، وجرهم حي من اليمن وهو ابن قحطان بن عامر - راجع الأنساب للسمعاني.
(6) ضرب سريع من السير - راجع الهامش رقم 2 من ص93 - أدب الكتّاب.
(7) أدب الكتّاب/ ص93.

تدير العطايا والمنايا حرابها إذا طعنت في شاكلات المهارق

وقال أحمد بن إسماعيل واصفاً القلم وملغزاً بالدواة(1):

في كفه مثل سنان الصعدة أرقش، بز الأفعوان جلده
يلتهم الجيش اللهام وحده كأنه متشّح ببرده
لو صادم الطود المنيف هدّه أو صافح السيف الحسام قدّه
يأوى إلى طير له معده يمزج فيه صبره بشهده
ترضعه من مقلة مسوده يمدّها جار كثيف العدّه
كأنه الليل إذا استمده مقلتها مكحولة بندّه

قال أبو بكر الصولي(2) حدثني أحمد بن محمد الأنصاري قال: قيل لورّاق: ما تشتهي؟ فقال: قلماً مشاقاً، وحبراً براقاً وجلوداً رقاقاً، وأورد لأحدهم في وصف المحبرة:

ولقد غدوت إلى المحدّث آنفا فإذا بحضرته ضباء رتّع
وإذا ضباء الأنس تكتب كلّ ما يملي وتحفظ ما يقال وتسمع
يتجاذبون الحبر من ملمومة بيضاء تحملها علائق أربع
من خالص البلّور غيّر لونها فكأنها سبج يلوح ويلمع
إن نكسوها لم تمل وملبكها فيما حوته عاجلاً لا يطمع
ومتى أمالوها لرشف رضابها أدّاء فوها وهي لا تتمنّع
فكأنها قلب رصين سرّه أبدا ويكتم كل ما يستودع
يمتاحها ماضي الشباة مزلّق يجري بميدان الطروس فيسرع
رجلاه رأس عندها لكنّه يلقاه برد حفاة ساعة يقطع(3)
فكأنه والحبر خضّب رأسه شيخ لوصل خريدة يتصنّع
لم لا ألاحظه بعين جلالة وبه إلى الله الصحائف ترفع

(1) نفس المصدر السابق/ ص93 - 94.
(2) أدب الكتّاب/ ص 95 - 96.
(3) اضطرب عجز هذا البيت في أدب الكتّاب/ ص96، وأثبتناه على نسخه - طاهر الكردي/ حسن الدعابة/ ص35.

وقال أحد الورّاقين في وصفها[1]:

تـرى الـرشـا والـحـبـل انـبـوبـة ... يـقـلّـب مـاءً أسـوداً مـن قـلـيـب
روض الـنـدى يـنـبـت زهـر الـلـهـى ... وهـذه تـنـبـت زهـر الـقـلـوب

وقال أحمد بن ثور يصف ناقته[2]:

كـأن تـوشـي أقـرانـهـا ... إذا مـا تـشـحـن مـخـطّ الـدوى

حدّث أحمد بن يزيد المهلبي قال: حدّثني أبو هفّان قال: سألت ورّاقاً عن حاله فقال: عيشتي أضيق من محبرة، وجسمي أدق من المسطرة، وجاهي أرق من الزجاج ووجهي عند الناس أشدّ سواداً من الحبر، وحظي أحقر من شق القلم، وبدني أضعف من قصبة، وطعامي أمرّ من العفص، وسوء الحال ألزم لي من الصبغُ فقلت له: عبّرت عن بلاء ببلاء[3].

وقال ورّاق في وصفها[4]:

وسـوداء مـقـلـتـهـا مـثـلـهـا ... وأجـفـانـهـا مـن لـجـيـن صـقـيـل
وإذا ذرفـت عـبـرة خـلـتـهـا ... كـغـالـيـة فـوق خـدّ أسـيـل

ووصفها آخر بقوله[5]:

ولـجّـة بـحـر أجـم الـعـبـاب ... بـادٍ وأمـواجـه تـزفـر
إذ غـاص فـيـه أخـو غـوصـة ... سـريـع الـسـبـاحـة مـا يـفـتـر
فـأنـفـس بـذلـك مـن غـائـص ... بـديـع الـكـلام لـه جـوهـر
وأكـرم بـبـحـر لـه لـجّـة ... جـواهـرهـا حِـكـم تـنـتـشـر

ووصفها ابن كريم[6]:

ومـسـودّة قـد خـضـعـت حـالـهـا ... ورويـت مـن قـعـر لـهـا مـنـبـسـطِ
خميص الحشا يروي على كل مشرب ... امـيـنـا عـلـى سرّ الأمـيـرالـمـسـلـط

---

(1) أدب الكتّاب/ ص97.
(2) نفس المصدر السابق/ ص98.
(3) الصولي/ أدب الكتّاب/ ص97.
(4) الكردي/ حسن الدعابة/ ص35.
(5) الكردي/ حسن الدعابة/ ص36 - وأصلها عند الصولي/ أدب الكتّاب/ ص94.
(6) المصدر نفسه والمكان.

وأوجز أحد الورّاقين القول بها، وقد راح يتغزل بها شغفاً[1]:

وما روض الجنان وقد زهاه ... ندى الأسحار يأرج بالغداةِ
بأضوع أو بأسطع من نسيم ... تؤديه الأفاوه من دواة

وختم القول فيها الشيخ شمس الدين بن المزيّن حيث قال على لسان الدواة[2]:

إن السعادة حيث كنت مقيمةً ... والبحر أخبار الندى عنّي روى
كم من عليل مقاصد أبرأته ... فأنا الدواة حقيقة وأنا الدوا

ويلحق بالدواة آلات فرعية تكمّل عملها، وتكون جزءاً منها، وهذه الآلات هي:

أ - **الجونة**: وهي التي فيها حقّ المداد، وينبغي أن يكون شكلاً مدوّر الرأس، تجتمع على زاويتين قائمتين، ولا يكون مربعاً على حال، لأنه إذا كان مربّعاً يتكاثف المداد فيه، فإذا كان مستديراً كان أنقى للمداد وأسعد في الاستمداد[3].

ب - **اللّيقة**: هي ما اجتمع في رقبة الدواة من سوادها بمائها، جاء في اللسان[4] ألاق الدواة ليقا، وألاقها إلاقة فلاقت: لزق المداد بصوفها، قال ابن الأعرابي: دواة ملوقة أي مليقة إذا أصلحت مدادها، والإصطلاح جاء من معنى اللزق واللصق، يقال في اللغة، ألاق الدواة، أي أدار المداد فيها حتى لصق وعلق، حدّث الأصمعي قال: قدمت على الرشيد في بعض قدماتي فقلت: (ما ألا قتني الأرض حتى رأيت أمير المؤمنين) فلما خرج قال: ما معنى «ألا قتني»؟ قلت: ما ألصقتني بها ولا قبلتني[5]، يقول أبو بكر الصولي[6]: والصواب المختار أن يقول: ألقت الدواة فأنا مليق لها وهي ملاقة، وأنشد للكسائي:

لو يكتب الكتّاب عرفك فرغوا ... ليق الدوّى وأنفدوا الأقلاما

واعتبر البعض أن اللّيقة هي الكرسف نفسه[7] فيما ميّز الصولي ذلك بالقول[8]:

---

(1) المصدر نفسه.
(2) ذاته.
(3) حكمة الإشراق/ ص73.
(4) مادة (لوقَ).
(5) الصولي/ أدب الكتّاب/ ص99.
(6) المصدر السابق/ نفس المكان.
(7) صاحب حكمة الاشراق/ ص73.
(8) أدب الكتّاب/ ص100.

الكرسف: القطن خاصة دون غيره، ثم صاروا يسمون كل شيء وقع موقعه في الدواة من صوف وخرقة كرسفاء واضاف: كرسفت الدواة: جعل لها كرسفا، والجمع كراسف، واستشهد بقول وهب الهمداني:

سحاب حكى القرطاس لون صبيره[1] وعـاد بـه جـو الـعـواصـف أكـلـفـا

إذا كـتـبـت فـيـه يـد الـبـرق أسـطـرا يـلـبـس وجـه الأرض بـالـثـلـج كـرسـفـا

وسميت الليقة، لأنها تلاقي الدواة بالنقس وهو المبراد[2] واشترطوا أن يكون الكرسف في نهاية ما يكون من السواد، والليقة التي فيها الكرسف في نهاية اللين والنعمة، والأجود أن تكون مستديرة، لأن الصولي يرى في ذلك أن يسميها الكاتب (روق القلم)[3].

ويضيف: ولا يلحق كلفة ولا إبطاء في الاستمداد، وأن حفر الموضع الواقع على الليقة من الغطاء وغشي بأرق ما يكون من الفضة، حتى إذا أطبقت الدواة، تجافى ذلك الموضع عن الليقة، فلم ينله شيء من سوادها، كان أدعى للنظافة والسلامة، وأكثر الدوّي لا تسلم منها ما لم تكن على ما وصفنا، وثمة اشتراط آخر رآه أساطين الكتابة في العصر العباسي، هو عمليّة تعهّد الليقة والكرسف بالملح والكافور، وأن تغيّر في كل يومين أو ثلاثة، وربما أغفل ذلك، فاستكرهت الرائحة، وظهر من نتنها ما يخجل له[4]، وهذه المسألة - أي نتن الدواة - كثيراً ما كانت تأتي باللوم والشؤم على صاحبها، وربما تعرّض للفصل والاقصاء من وظيفته، فمن ذلك ما نقله الصولي عن بعض الكتّاب الذين أهملوا جوانب دواتهم قال[5]: تهيأ ذلك على بعض الكتّاب حتى ظنّ رئيسه أنه أبخر، فشكا ذلك إلى نديم له فقال النديم: ما عرفت ذلك منه ولكن لعله أغفل ذلك من أمر الدواة وتفقدها؟ فقال الرئيس: عذره في بخره أبسط عندي منه في نتن دواته، لأنه في ذلك مضطر، وهو في هذا مختار، ثم قبل نديمه على ذلك، فلم يجر عليه بعد، وهذه الحالة كانت محط ازدراء للكتّاب من قبل الشعراء، وهو ما يعكس شيئاً من روح التندر عليهم، يقول أحد الشعراء في هذا المعنى يهجو كاتباً[6]:

دخـيـل فـي الـكـتـابـة لـيـس مـنـهـا فـلا فـكـر بـعـد ولا بـديـه

---

(1) الصبير - السحابة البيضاء، والتي يصير بعضها فوق بعض.
(2) سهيلة الجبوري - الخط العربي وتطوره/ ص138.
(3) أدب الكتّاب/ ص100.
(4) أدب الكتّاب/ ص101.
(5) المصدر السابق نفسه.
(6) المصدر السابق نفسه.

تشاكل أمره خلقاً وخُلقا فظاهره لباطنه شبيه
كأن دواته من ريق فيه تلاق فنشرها أبدا كريه

فيما يرى الحسن بن وهب أن اكتمال الأخلاق الحميدة يجب أن تكون في الكاتب وأدواته جزء من أخلاقه حيث يقول[1]:

مداد مثل خافية الغراب وقرطاس كرقراق السحاب
وأقلام كمرهفة الحراب وألفاظ كأيّام الشباب

واللّيقة، لا تستحق هذا الاسم حتى تلاق في الدواة بالنقس، وهو المداد، كما يقول الجاحظ[2]، وقد رأى بعض الكتّاب أن تؤخذ الليقة، أو الكرسف، من الحرير والصوف والقطن والبرس والطوف والعطب، والأولى أن تكون من الحرير الخشن، وعللوا ذلك بالقول[3]: لأن انتفاشها في المحبرة وعدم تلبدها أعون على الكتابة.

والملاحظ أن كبار الكتّاب من المتقدمين والمتأخرين، ركّزوا على الاهتمام بالليقة، وتشددوا في ذلك كثيراً، الأمر الذي يعكس بعده الاجتماعي على المهنة، إضافة إلى بعده الإبداعي، فقد تواصوا بها جيلاً بعد جيل، وشيخاً بعد شيخ، وكاتباً بعد آخر، حتى أنك تحسّ أن الليقة هي الأساس بالدواة، وبتقديرنا أن «التفاعل الكيمياوي» بين المواد التي تصنع منها الليقة والحبر، وتفاعلها مع الهواء، قد تفسد حتى مجلس الكتابة، ومن هنا جاء التشديد علي العناية بها، قال أحد الكتّاب: ويتعيّن على الكاتب أن يتفقد الليقة ويطيبها بأجود ما يكون، فإنها تروح على طول الزمن[4]. وقد ربط بعض الكتّاب جودة الكتابة والكاتب مع جودة التفقد للدواة، واعتبروها جزءاً من الظرف، وقد قال قائلهم[5]:

متظرّف شهدت عليه دواته أن الفتى لا كان غير ظريف
أن التفقّد للدواة فضيلة موصوفة للكاتب الموصوف

فهذه المباراة الأخلاقية - الفنية، كانت تساعد الكثيرين من الكتّاب والورّاقين على الاهتمام بأدواتهم، والتفقد الدائم لها، حتى أن بعضهم كان يطيّب دواته بأطيب ما عنده من

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) صبح الاعشى 2/ 458.
(3) المصدر السابق 2/ 459.
(4) صبح الأعشى 2/ 459.
(5) المصد نفسه.

طيب نفسه، وسألوه عن ذلك فقال[1]: لأني أكتب بها اسم الله تعالى واسم رسوله ﷺ واسم أمير المؤمنين (أطال بقاءه) وربما سبق القلم بغير إرادتنا فنلحسه بألسنتنا ونمحوه بأكمامنا.

هناك شروط فرضها شيوخ الكتّاب في خصوص الدواة والليقة تتشكل بها قواعد السلوك، فمن ذلك ما قاله الشيخ علاء الدين السرّمرّي[2]، نسبة إلى سامراء، أوسرّ من رأى، يتعيّن على الكاتب تجديد الليقة في كل شهر، وأنه حين فراغه من الكتابة يطبّق المحبرة لأجل ما يقع فيها من التراب ونحوه فيفسد الخط، ونظم في ذلك أرجوزته فقال:

وجـدّد الـلـيـقـة كـل شـهـر فـشـيـخـنـا كـان بـهـذا يُـغـري
لأجـل مـا يـقـع فـيـهـا مـن قـذى فـيـنـتـشـي مـن ذاك فـي الـخـط أذى

وانعكس هذا المحمول الأخلاقي والفني، على الحياة العامة، بشكل أو بآخر، حتى أن معلمي الصبيان كانوا يزجرون صبيانهم من البصق بالدواة[3].

ومع هذه الاهتمامات بالدواة والليقة، ركّز الكتّاب على عملية الإستمداد من الدواة، كي تأخذ المسألة بعداً فنياً وجمالياً تنسجم وتلك التعليمات، فقد قال المقر العلائي بن فضل الله[4]: «ينبغي للكاتب أن لا يكثر الإستمداد، بل يمدّ مدّا معتدلاً، ولا يحرك الليقة من مكانها، ولا ينثر بالقلم، ولا يرد القلم إلى الليقة، حتى يستوعب ما فيه من المَداد، ولا يدخل منه الدواة كثيراً، بل إلى حد شقيّه، ولا يجوز ذلك إلى آخر الفتحة».

وإستزادة لموضوع «الليقة» هناك «مخطوطة صغيرة» بعنوان: «أنواع اللّيق وكيفية إعمالها» حققها الأستاذ بروين بدري توفيق ونشرها بمجلة «المورد العراقية»[5]، من المفيد جداً إيرادها، نظراً لكونها تحقّق الفائدة المعرفية، وبنفس الوقت تكشف مدى الأهمية الجمالية والمهنية للورّاق والكاتب في كيفيتِهِ لإستخدام أدواته. يقول نص المخطوط: .

قال المفيد: «ينبغي لمن أراد عمل اللّيق والأصباغ أن يبتدي: أولاً، بتدبير الصمغ العربي المحلول، وهو أن تأخذ من الصمغ العربي الأبيض المعقرّب[6] ما إخترت، فتدكّهُ

(1) المصدر نفسه.
(2) صبح الأعشى 2/ 459 - وحكمة الإشراق/ ص75.
(3) صبح الأعشى/ نفس المكان.
(4) حكمة الإشراق/ ص75.
(5) راجع العدد 4 - المجلّد 14 لعام 1985 - من ص 267 - ص 274.
والمخطوطة تقع في 10 أوراق، وهي فصل من كتاب لمؤلف مجهول، توجد في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد برقم (141).
(6) هو الصمغ المأخوذ من شجرة القرظ، ولونه لون الزجاج الصافي، والمعقرّب = المعوّج.

ناعماً، وتنخله ثم تبله بالماء الصافي في وعاء زجاجي. ثم أنه يعطي لكل جزء منه ثلاثة أجزاء من الماء، وسُدَّ رأس الإناء، وتُعلِّقهُ بالشمس نهاراً كاملاً، ثم تحرّكه حتى انه يختلط في بعضهِ البعض وتتركهُ حتى يركد، ثم أنك تأخذ منه بقدر ما تحتاج إليه لإصلاح الليق والأصباغ والإدهان، فإن جفَّ تدهن من فوقهِ بالسندروس[1] المحلول فإنه لا يعود يزول ذلك الدهن ولو غسلته بالماء، فاعلم ذلك».

صفة ليقة حمراء

يؤخذ من الزنجر الأحمر «كبريت الزئبق» ويسحق ناعماً ثم يُصبُّ بماء حب الرُمّان الحامض، أو بماء الليمون، ويقلب عليه الماء ويُغسل غسلاً جيداً، وتصفيّه بعد أن تتركهُ ساعة حتى أن يركد، ثم يُسحق على صلاية مانع[2] أو صلاية ناعمة ملساء وأسقيهِ بالماء قليلاً قليلاً وأنت تسحقه إلى أن لا يعود يشرب شيء من الماء، ويبقى كأنه كالحريرة.

فحينئذ: يلقي عليه الصمغ المحلول واسحقهُ به قوياً، حتى أنه يدخل في أجزائه، فإن أردتهُ ليقة تركتهُ على ليقة حريرة مفولة في حُقِّ زجاج واكتب ما أردت، وأن أردتهُ المدهان[3] فمشية بالقلم الشعر[4] على ما اخترت من الدهان وغيره. فاعلم.

صفة ليقة صفراء

«يؤخذ الزرنيخ الأصفر الذهبي المورق، يُطحن ويُنخل ثم يُسحن على صلاية مانع بالماء حتى لا يعود يتسرب شيء، وألق عليه الصمغ المحلول إلى حيث يُرضيك فارفعته لحاجتك أما الكتابة أو الدهان فاعلم ذلك».

ليقة أخرى صفراء

«إذا عدم الزرنيخ الأصفر إسحق الإرسفيداج العراقي[5] والقِ عليه الزعفران الجنوبي، والقِ عليه الصمغ المحلول واكتب به عوضاً عن الزرنيخ الأصفر. فاعلم ذلك».

---

(1) السندروس: نبات مادة راتنجية تستخرج من شجرة لها خاصية جذب دهن يقال له دهن الصواني، راجع - أحمد عيسى/معجم أسماء النبات/ ص37. وقال داود: أن هذه الشجرة توجد في إرمينيا، وأجودهُ أصفر برّاق، تذكرة داود 1/ 202.

(2) صلاية مانع = حجر المسن.

(3) المدهان: آلة المدهن، قارورة الدهن.

(4) القلم الشعر: وهو عود الزعفران المُسمّى الشعر.

(5) الإسفيداج: هو كاربونات الرصاص القاعدية، ويعرف بإسم سبداج.

ليقة خضراء زرعي

«يؤخذ الزرنيخ الأصفر المسحوق الناعم، وألقِ على كل مثقال منه وزن ربع درهم نيلة هندية[1] واسحقه إلى حيث يعجبك لونه في الخضرة الزرعية وينزل عليه الصمغ المحلول، وافعل بهِ ما أردت، إمّا الكتابة أو للدهان».

صفة ليقة زنجاري

«يسحق الزنجار العراقي سحقاً ناعماً، ثم تُلق عليه ماء الصمغ المحلول وافعل بهِ ما شئت، واكتب بهِ في الليق أو الدهان، فاعلم ذلك».

صفة ليقة فستقي

«وهو أن تلقي على [تلك] الليقة الزنجاري بخل دانقين زعفران جنوبي فإنه يُحسن ويرضيك لونه، فاعلم ذلك».

صفة ليقة بيضاء

«يؤخذ الأسفيداج العراقي، يسحق ناعماً بالصمغ الأبيض المحلول إلى حيث يُحسن بياضه».

صفة ليقة لازوردي

«وهو أن تلقي على كل درهم أسفيداج ربع درهم نيلة هندية واسحقهُ جيّداً في صلاية مانع حتى أنَّهُ يبقى شبه الآزورد، فاعمل منه ليقة أو بطانة للدهان واطرش فوقه بالآزورد».

صفة ليقة حمراء

«يُسحق [الإسفيداج] واطرح عليه قطعة نيلة هندية واجعله إمّا ليقة أو دهان».

---

(1) النيلة: وتعرف بالوسمة أو النيلج، وهي أسماء لنبات له ساق فيه صلابة، ولونه مائل للزرقة، وعند غسل ورقهِ تجلو ما عليه من زرقة، أنظر: يوسف التركماني/ المعتمد في الأدوية المفردة، ص531.

صفة ليقة فاختي

«إلقي مقطرة من الحبر على درهم من السليقون[1] أو شيئاً يسيراً من النيلة الهندية المحلولة. تم ذلك».

صفة ليقة عودي

«إسحق الزرنيخ الأحمر سحقاً ناعماً، وألق عليه أدنى ما يكون من الحبر، وخذ الأحمر وألقِ عليه الأصفر والمداد، وذلك جميعهُ بعد التصميغ، واعلم أن جميع الألوان يتولّد بعضها من بعض، إذا ألقيت على بعضها البعض باختلاف الأوزان».

صفة ليقة وردي

«يؤخذ [مقدار] من الزنجفر والإسفيداج واسحقهما واجعلهما في إناء وصمغهما، فإن أردت الوردي عميق، فاعمل الأحمر أكثر، وأن أردته صافي، فاعمل الأسفيداج أكثر».

صفة ليقة نارنجي عميق

«يؤخذ من السليقون يسحق ويعمل عليه ماء الصمغ المحلول، وتكتب بهِ يجيء مليح».

صفة حل الذهب للّيق

«إذا أردت ذلك، فخذ زبدية (إناء) صفتي، زرقاء، ملساء، ناعمة، وتطرح في وسطها عشرة أوراق ذهب مصري [و ت ط ر ع ل ح م][2] حزوية عسل نحل، وتمرس الجميع فيه قليل قليل، حتى أن ينحل جميعه، فاغسل عنهُ حلاوة العسل بالماء، واتركه يرسب، وصفّ عنه الماء، وألق عليه وزن حزوبه[3] صمغ عربي محلول، واكتب به، فإذا أجف اتركهُ

(1) السليقون: وهو الإسرنج، ويعمل منه الحبر الأحمر: انظر - أبو عمران القرطبي: شرح العقار/ ص170.

(2) هكذا وردت في الأصل.

(3) حزوبة: مكيال مصري يساوي 1/ 16 من القدح، ويساوي 6% لتر، أو ما يعادل 129. و.لتر. انظر: فالترهانتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي/ عمان 1970/ ص62.

ساعة، واصقله بحجر الجزع[1] يكون قد عمل منه مصقلة، فإنه يظهر لونه ويأتي كما تحب وتختار، فاعلم ذلك».

صفة ليقة فضيّة

«يؤخذ أوراق الفضّة، إعمل بهم مثلما عملت بالذهب سواء، واعمل عليهم الصمغ واكتب بهِ تجيء نقية بيضاء مليحة، فاعلم ذلك».

صفة حَلْ جميع المعادن

«إذا أردت فخذ حجر المحك، وحك عليه أي معدن شئت، فإنه ينحل بحالهِ أول بأول، حتى لا يبقى من ذلك الحجر شيء، تُقطّر عليه من الصمغ المحلول وتكتب به، فإذا أجف أصقله، فإنهُ يظهر لونهُ أي حجر كان نحاس أحمر كان أو أصفر، أو حديد أو غير، فإنه يظهر مليح».

صفة لصاق الذهب

«يؤخذ غري السمك ويبرش ويجعل في الماء ويكون بالزعفران، ويرفع على النار لينه، حتى يأخذ له قوام، ثم تتركه يبرد، فإذا برد يؤخذ قلم شعر يعمل في ذلك الغري والزعفران، ويمش على موضع تريد تحل فيه الذهب على الورق، كذلك حتى يفرغ موضع تريد عمله، فإذا أردت أن تلصق الذهب، ندّي الموضع بالزعفران، ويلصق من فوق الذهب، فإذا جَفْ فاصقلهُ بالجذعِ أو بالحجر الصرف، فإنه يملس ويحسن».

آخر مثلهُ

«يؤخذ الكَلَخ[2] الأبيض ويُحَلْ بخل خمر، ويترك ساعة حتى يذوب ثم اكتب به ما شئت على قوس أو كتاب، والصق عليه أوراق الذهب أو الفضّة فإنّه جيّد يغني عن غِراء السَمك، وكذلك تعمل بأوراق الفضة».

---

(1) حجر الجزع: الجزع - كلمة عربية، تعني (إنقطع) وهو حجر مشطب فيه كالعود بين بياض وصفرة وحمرة وسواد، وإذا جلي على (العشر) نوع من الخشب، بالعسل، أشرق وأنار، انظر - تذكرة داود 1/ 106.

(2) الكَلَخ: وهو الأشق، لزاق الذهب، لأنه يُلحمهُ كالتنكار، وإسمهُ بمصر: الكلخ، وباليونانية «أمونيانيون» وهو صمغ يؤخذ بالشرط من شجرةٍ صغيرةٍ دقيقة الساق مزغبة إلى بياض، زهرها بُني، حمرة وزرقة، تكون بجبال الكرخ وأجودهُ الأبيض اللّين السريع الإنحلال.

ومن الآلات الملحقة بالدواة «الملواق» وهو عود من الخشب، يشبه مرود المكحلة، اشتقّ اسمه من الفعل «لوق»[1] وهو على وزن/ مفعال/ لأنه من أسماء الآلة، وسمّي بهذا الاسم، لأن به تلاق الدواة، وأحسن أصنافه ما يكون من الأبنوس، لكي لا يغيّره لون المداد ويكون مستديراً، مخروطاً، عريض الرأس نحيفه[2].

والكتّاب الأوائل، وشيوخ الصنعة من أمثال الصولي يسمونه «محراك الدواة» ويستند الصولي في هذه التسمية إلى مسمّيات كتّاب عصره ويستشهد بشعر أحدهم[3]:

بدر من الديوان لم يخترم ضياءه بالنقص أفلاكه
صيّر جسمي قلما هجره يردى دم العشّاق سفاكه
وقلب الهجر هواه كما يقلّب الكرسف محراكه

ومن الآلات الأخرى التي قد تلحق بالدواة «المرفع» ويكاد ينحصر استخدامه عند الكتّاب المترفين، وخدمة السلطان وذوي الجاه، ويعرّفه الصولي بقوله[4]: المرفع: ضرب من الكبر، وفضيلة في الآلة، وترفّه مفرط لا يليق بذوى التقدم في العمل، والصبر عليه والتجرد له، وما يسرع إليه إلا كل ذي نخوة ورياسة محدثة، وهو أحسن في مجالس الخلوات منه في الجماعات/ ثم يستطرد الصولي شارحاً بعض مواصفاته واستخداماته فيقول: فأمّا مجالس الرياسة والجدّ في الأعمال فلا موقع له فيها.

قال أحمد بن إسماعيل[5]: قلّما رأيت سيداً رئيساً يجعل بين دواته وبين الأرض موقعاً في مجالس رياسته، وإذا عجز الكاتب عن الاستمداد من الدواة على الأرض فيغنم[6] رفعها إلى يدهِ بهذه الآلة، وتقريب متناولها، فهو عمّا سوى ذلك من تمشية الأعمال وتنفيذ الأمور أعجز، وعلى ما يبدو أن هذه الآلة، لم يستسغها الكتّاب في عملهم، لذلك كثر فيها القول والهجاء، وتندروا على مستخدميها، فمن ذلك ما هجى به أحدهم[7]:

---

(1) راجع اللسان - مادة (لوق).
(2) حكمة الاشراق/ ص75.
(3) أدب الكتّاب/ ص112 - 113.
(4) المصدر السابق/ ص111.
(5) أدب الكتّاب/ ص111.
(6) هكذا وردت وقال عنها المحقق - بهجت الأثرى - كذا - في الهامش رقم 2 من ص111 أدب الكتّاب،. ولعلها: فينعم.
(7) أدب الكتّاب/ ص111.

إني (ابتليت)[1] بجاهل متغافل ... متكلّف في فعله متصنّع
حاز الكتابة حين فضّض مرفعا ... وجرت أنامله بخطّ مسرع
متتايه في الحفل يبغي عزّة ... فيدلّ في مرأى هناك ومسمع
فكلامه دون المدى متواضع ... ودواته للطرف فوق المرفع

قال الصولي[2]: حدّثني أحمد بن محمد بن إسحاق قال: دخلت أنا وابو علي ابن المرزبان على يحيى بن مناوة الكاتب، وبين يديه مرفع قد قارب صدره، عليه دواته، فقلت لابن المرزبان: أما ترى هذا المرفع؟ هذا مرفع وصاحبه رقيع لا رفيع.

وقيل لبعض الرؤساء - وقد جعل دواته على مرفع - : ما كلّ الأجلاء تفعل هذا؟ فقال: من جلس على فرش تعليّه قليلاً بعدت عليه مسافة الاستمداد، فأمّا من كان على حصير أو سماط فلا عذر له فيه[3].

ووصف بعضهم مرفعاً مفضضاً واحتجّ له فقال[4]:

قرّب البعد مركب لدواة ... ملجّم من حلية بلجام
فضّة تستضيء في أبنوس ... مثل ضوء الإصباح في الأضلام
كخوان الطعام سهل للآكـ ... ـل منه ما كان صعب المرام

ومن الآلات الأخرى التي تدخل ضمن مجموعة الدواة هي: المرملة، أو المتربة، وهو الاسم القديم لها، حيث جعلت آلة للتراب، إذ كان هو الذي يترب به الكتب، والمرملة تشتمل على شيئين: الأول: الظرف الذي يجعل فيه الرمل، وهو المسمّى بذلك، ويكون من جنس الدواة، خشباً أو نحاساً ونحوهما، ومحلها من الدواة ما يلي الكاتب ممّا بين المحبرة وباطن الدواة، ممّا يقابل المنشأة آلة أخرى، سيأتي ذكرها - ويكون فيها شبّاك يمنع وصول الرمل الخشن إلى باطنها، وربما اتخذت مرملة أخرى أكبر من ذلك تكون في باطن الدواة لإحتمال أن تضيق تلك عن الكفاية لصغرها. والمرملة الكبيرة - كما يقول القلقشندي[5] تستخدم عند أرباب الرياسة من الوزراء والأمراء ونحوهم تقارب حبّة

---

(1) سقطت من البيت، وأشار إليها المحقق، ومن دونها لا يستقيم الوزن، أنظر الهامش رقم3، ص111.
(2) أدب الكتّاب/ ص112.
(3) المصدرالسابق.
(4) أدب الكتّاب/ ص112.
(5) صبح الأعشى 2/ 464؛ وسهيلة الجبوري/ ص128.

الرارنح، لها عشق في أعلاها، قال القاضي شهاب الدين إبن بنت الأعز لغزاً فيها[1]:

ظريفة الشكل والتمثال قد صنعت تحكي العروس ولكن ليس تغتلم
كأنها من ذوي الألباب خاشعة تبكي الدماء على ما سطّر القلمُ

القسم الثاني من المرملة يسمى: المرمل، وقد اختار الكتّاب لذلك، الرمل الأحمر دون غيره، لأنه يكسو الخط الأسود من البهجة ما لا يكسوه غيره من أصناف الرمل، وغيره ما كان دقيقاً، وهو على أنواع: الأول: ما يؤتى به من الجبل الأحمر الملاصق لجبل المقطم في الديار المصرية وهو أكثر الأنواع وأعمّها وجوداً، والثاني: يؤتى به من الواحات، وهو رمل متحجر شديد الحمرة يتخذ منه الكتّاب حجارة لطافاً تحتّ بالسكين ونحوها على الكتابة، النوع الثالث: يؤتى به من جزيرة ببحر القلزم/ من نواحي طور سيناء/ وهو رمل دقيق أصفر اللون، قريب من الزعفران وله بهجة على الخط، إلا أنه عزيز الوجود، الرابع: رمل بين الحمرة والصفرة، به شذور بصاصة يخالها الناظر شذور الذهب، وهو عزيز الوجود جداً، وبه يرمّل الملوك من شابههم[2].

المنشاة: وهي آلة تتخذ لمزج النشأ ببعض المواد الأخرى، قال عنها القلقشندي[3]: تشتمل على شيئين، الأول: الظرف - وحاله كحال المرملة في الهيئة والمحل من الدواة، من جهة الغطاء إلا أنه لا شبّاك في فمه ليتوصل إلى اللصاق، وربما اتخذ بعض ظرفاء الكتّاب منشاة أخرى، غير التي في صدر الدواة من رصاص على هيئة حُقّ لطيف، ويجعلها في باطن الدواة كالمرملة المتوسطة، فإن اللصاق بها قد يتغيّر بمكثه في النحاص بخلاف الرصاص.

الثاني: ويسمى - اللّصاق: وهو على نوعين: أحدهما النشأ المتخذ من البرّ، وطريقه أن يطبخ على النار كما يطبخ للقماش، إلا أنه يكون أشدّ منه، ثم يجعل بالمنشاة، وهو الذي يستعمله كتّاب الانشاء، ولا يعولون على غيره، لسرعة اللصاق به، وموافقة لونه للورق في نصاعة البياض، والثاني: المتخذ من الكثيراء، وهو أن تبل الكثيراء بالماء حتى تصير في قوام اللّصاق ثم تجعل في المنشأة، وكثيراً ما يستعمله كتّاب الديّونة، وهو سريع التغير إلى الخضرة، ولا يسرع اللصاق به، وراوا أن يستعمل في اللصاق في الجملة الماورد والكافور لتطييب رائحته[4].

---

(1) صبح الأعشى/ نفس المكان.
(2) صبح الأعشى 2/ 469؛ وسهيلة الجبوري/ ص129.
(3) المصدر السابق/ نفس المكان.
(4) صبح الأعشى 2/ 470.

ومن الآلات الأخرى، التي تنتظم في سلك الدواة هي: المِلزمة: وهي آلة تتخذ من النحاس ونحوه، ذات دفتين يلتقيان على رأس الدرج حال الكتابة ليمنع الدرج من الرجوع على الكاتب، ويحبس بمحبس على الدفتين[1].

وما يلحق بالدواة آلة أخرى تسمّى: المفرشة، وهي آلة تتخذ من خرق الكتّان، بطانة وطهارة، أو من صوف ونحوه، تفرش تحت الأقلام، وما في معناها ممّا يكون في بطن الدواة[2].

وهناك الممسحة: وتسمى الدفتر أيضاً، وهي آلة تتخذ من خرق متراكبة ذات وجهين ملونين من صوف أو حريراً وغير ذلك من نفس القماش، يمسح القلم بباطنها عند الفراغ من الكتابة لئلا يجف عليه الحبر فيفسد وتكون مدوّرة مخزومة من وسطها، وربما كانت مستطيلة، ويكون مقدارها على قدر سعة الدواة، يقول فيها القاضي الفاضل[3].

ممسحة نهارها   يجنّ ليل الظّلم
كأنها مذ خلقت   منديل كمّ القلم

وممّن مدح الممسحة المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر، حيث قال فيها[4]:

ومَمسحة تناهى الحسن فيها   فأضحت في الملاحة لا تبارى
ولا نكرُ على القلم الموافى   إذا في وصلها خلَعَ العِذارا

وينتظم في مجموعة الدواة، آلة صغيرة تسمى المسقاة، تتخذ لصبّ الماء في المحبرة، ويطلق عليها أحياناً اسم «الماورديّة» لأن الغالب أن يجعل في المحبرة عوض الماء ماورد لتغليب رائحتها، وأيضاً فإن المياه المستخرجة كماء الورد والخلاف والريحان ونحو ذلك لا تحلّ الحبر ولا تفسده، بخلاف الماء، وتتخذ هذه الآلة، كما يقول القلقشندي من الحلزون في الغالب[5]، والذي يخرج من البحر المالح، وربما صنعت من النحاس ونحوه، والمعنى فيها أن لا تخرج المحبرة من مكانها، ولا يصب من إناء واسع الفم كالكوز ونحوه، فربما زاد الصب على قدر الحاجة.

---

(1) صبح الأعشى 2/ 470.
(2) المصدر السابق.
(3) صبح الأعشى 2/ 471.
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر السابق.

وتضم إلى الدواة آلة المسطرة، وهي آلة من خشب، مستقيمة الجنبين، يسطّر عليها ما يحتاج إلى تسطيره من الكتابة ومتعلّقاتها، وأكثر من يحتاج إليها المُذهّب[1].

ومن آلات الدواة الأخرى المصَقّلة، وهي آلة يصقل بها الذهب بعد الكتابة[2]، وهي من الآلات الأساسية للخطّاطين، ذلك الصنف المبدع من الورّاقين.

وهناك المسَنّ، وهو آلة تتخذ لإحداد السكاكين، وهي نوعان: أكهب[3] اللون ويسمى الرومي، وأخضر وهو على نوعين: حجازي، وقوصي، والرومي أجودها، والحجازي أجوده الأخضر[4].

ومن النوادر اللطيفة التي كانت الدواة سبباً رئيسياً فيها، حادثة ذكرها إبن عبد ربّه الأندلسي[5]، قال فيها: «أتى وكيع بن الجراح رجل يمت إليه بحرمةٍ، فقال لهُ وكيع: وما حرمتك؟! قال: كنت تكتب من محبرتي عند الأعمش. فوثب وكيع ودخل منزلهُ ثم أخرج لهُ بضعة دنانير وقال له: أعذر فما أملكَ غيرها».

كما عُرف عن تلاميذ المسلمين إذا ما مات أستاذهم «المُلا - المعَلّم» كسروا محابرهم وأقلامهم وطافوا في البلد نائحين مبالغين في الصياح[6].

لقد ذكرنا في مستهل هذه الأداة، ما يُلحق بها من أدوات، وذكرنا منها الليقة، والجونة والملواق، والمرملة والمنشأة، والممسحة والمسقاة والمسطرة والمصقلة، ثم عثرنا على مخطوطة «منهاج الإصابة في معرفة الخطوط والكتابة - لمؤلفه محمد بن أحمد الزفتاوي - محققٌ ومنشور من قبل الأستاذ هلال ناجي»[7] وفيها إضافات هامة على أدوات الكتابة التي تُلحق بالدواة، مع إرجوزة شعرية تصف كل الأدوات التي تبدأ بحرف «الميم»سوف نوردها كاملة، زيادة في الإفادة ومتعة في الذكر والإسلوب.

---

(1) المصدر السابق/ ص472.
(2) صبح الأعشى 2/ 472.
(3) الكهبة: غبرة مشربة سواداً في ألوان الابل وهو لون ليس بخالصٍ في الحمرة/ اللسان - مادة (كهب)، وهو ما يعرف اليوم باسم «المبرد الحديدي».
(4) صبح الأعشى 2/ 472.
(5) انظر - العقد الفريد 2/ 201، طبعة القاهرة 1949م.
(6) آدم ميتز - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - 1/ 333، طبعة القاهرة 1957م.
(7) نشرها في مجلة «المورد» العراقية عدد خاص بالخط العربي، العدد 4 لسنة 1986م/ ص185 إلى ص 190.

ومن هذه الأدوات من ذوات «الميم» في أوّلها[1]:

1. مجمع: وهي دواة مربعة وأحياناً مسبّعة تصنع من نحاس أو غيره.

2. محبرة: إسم لوعاء الحبر.

3. مركب: هو الحِبر ذاته، وسمي مداداً أيضاً.

4. مشاق حرير: وهي «الليقة» نفسها.

5. مفرشة: هي قطعة قماش، أو ما شاكل ذلك، تجعل في باطن الدواة كالوقاية تحت ما سيوضع فيها من آلات الكتابة.

6. الملواق: ذكرناه سابقاً وهو آلة تنظف بها الدواة إذا علاها دنس وتغير لونها.

7. ملصقة: آلة يلصق بها حالة الكتابة.

8. المَسَنْ: آلة لإصلاح السكين.

9. مُموَّه: آلة ينقل بها الماء إلى الدواة إذا أراد إصلاحها، تارة تكون من النحاس، أو من الحلزون، أو غيره.

10. مقص: هو آلة لتسوية أوراق الدفاتر وغيرها وإصلاحها.

11. مرفع: آلة لوضع الشمعة عليها ليلاً، لاحتمال أن ينظر إلى الكتابة فيه لمُهمّ.

12. مبرد: لتسوية رؤوس الجرائد والدفاتر.

13. مستحد: هي آلة «سكين» كالمسن.

14. ميقات: وهو بيت أبرةٍ لطيف، لمعرفة القبلة والوقت لأجل الصلاة.

15. منقذ: آلة لطيفة الشكل «لاحتمال أن يكون - الكاتب - صيرفيّاً، ولا يخفى ما في ذلك من الثقل بالدواة لفظاً ومعنىً».

16. مَحَكّ: آلة لفحص الذهب.

17. مرآة عيون: إن كان الكاتب ضعيف البصر «يعني شبه عوينات طبيّة».

18. مقط: آلة لقط الأقلام.

19. ممسحة: للأقلام.

20. مقلمة لطيفة: توضع الأقلام داخلها. وهذا من المستهجنات التي لا يحتاج إليها.

---

(1) مخطوطة - منهاج الإصابة - المنشورة بمجلة المورد - العدد 4 ص188. كما تجدر الإشارة هنا إلى بحث السيدة (نضال عبد العالي أمين) الموسوم ب (أدوات الكتابة وموادها في العصور الإسلامية) والمنشور بنفس عدد مجلة المورد أعلاه من الصفحات 131 - 136.

21. ملقاط: آلة يلقط بها بقايا ما يظهر بالورق أثر الكشط.

22. مكّشط: آلة لمحو ما يراد إزالته من الكتاب.

23. مزبر: وهو القلم.

24. منفذ: آلة لخرق الأوراق عند إنتظامها ويشكّها «فيه».

25. ملف: لحفظ الخيط الذي يضبط الجرائد وغيره.

26. مكنزة: كالمنشأة.

27. مزودة: وعاء لوضع الحبر للزيادة عند الإحتياج وهو من المستغنى عنه.

28. مصقلة لطيفة جداً: لإصلاح موضع الكَشط حتى يناسب صقل الورق فلا يظهر.

29. مبكرة: إذا كان الكاتب ممّن يحتاج إلى البيكار في كتابته وهي من الزوائد.

30. مسطرة: لتسطير الأوراق، وهذه من عبث الإحتفالات ببطن الدواة.

31. محفظة: هي من الأشياء الزائدة داخل الدواة.

32. محكّة: لإصلاح رؤوس الجرائد والدفاتر - كالمبرد -.

33. منكّاش: للأسنان.

34. ملصقة: لضبط الأدوات.

35. مخياط: وهي الأبرة توضع في الدواة لخياطة الدفاتر.

36. مردنة: كالملعقة للأذان.

37. ميزان لطيف: خاص لوزن الذهب.

38. مسواك: عود من العوسج أو غيره، تستاك به الأسنان.

39. مشرط: يشرط به الكتب من الرسائل المختومة، وقد يستغنى عنه بالسكين.

40. مبرد: آلة معروفة.

41. مشط لطيف: لتسريح اللحية.

42. ميبر: كالمنفد، ماسورة كالملف[1]

وقد نظّم العلاّمة البليغ، نخبة الفضلاء الشيخ نور الدين علي العسيلي، فَسَحَ الله في مُدّته، إرجوزةً في جميع «الميمات» التي تكون في الدواة، نوردها هنا، وفق ما جاءت بتحقيق

---

(1) تلك هي الأدوات التي ذكرتها المخطوطة، راجع مجلة المورد العدد (4)، لسنة 1986/ ص187 إلى ص 189.

الأستاذ هلال ناجي[1] إستكمالاً للفائدة، وكنص تاريخي هام، في شرح أدوات الكتابة.

تقول الإرجوزة:

حمدٌ لمن علّمنا بالقلم ... وعَلَّم الإنسانَ ما لم يعلم

وخصَّهُ بالنطقِ والكتابة ... « كيما ينال »[2]

وإن من أشرف أوضاع البشر ... رسم الكتاب فهو وضعٌ يعتبّر

فمن هنا تنفسّن الكتّابُ ... « فيما »[3]

فودعوا دويهم تبيماً ... لما ذكرنا أربعين مِبيَماً

لكنّ فيها الغثَّ والسمينا ... « وما ترى »[4]

كمصقل وبرودٍ ومكحلة ... والحقُّ أن مثلَ ذا لا أصلَ لَه

فالعزم أن نبدلهُ والنيّة ... « بمالهُ علاقة »[5]

حتى يرى أظرفُ مِمّا اشتهرا ... وهذه عِدَّتها كما ترى

محبرةٌ مركبٌ ملاق ... « هو الذي في »[6]

مرسلة مزودة مُجفَفة ... لرملهم وهو بهذا وصَقَهُ

ومرود محدّد ومزبرٌ ... « لقلم ومجرد »[7]

مرشة ممسحة ومكثرة ... ومفرزٌ ومقسمٌ ومسطره

ملزمة ومكبس ملّف ... « مصفاة حبرٍ »[8]

ومنفدٍ ومكشط ومديه ... وهي برسم ما تروُمُ بريه

كذا منَّ مستجد ومقط ... « وقلم الطرحِ »[9]

وملزقٌ ومخيط مشك ... مقطّع كتب ليسَ فيها شك

ومركز لما عليه توضع ... « رؤوس الأقلام »[10]

كذلك المرآةُ والمقصُّ ... ثمتَّ محراكٍ عليه نَصّوا

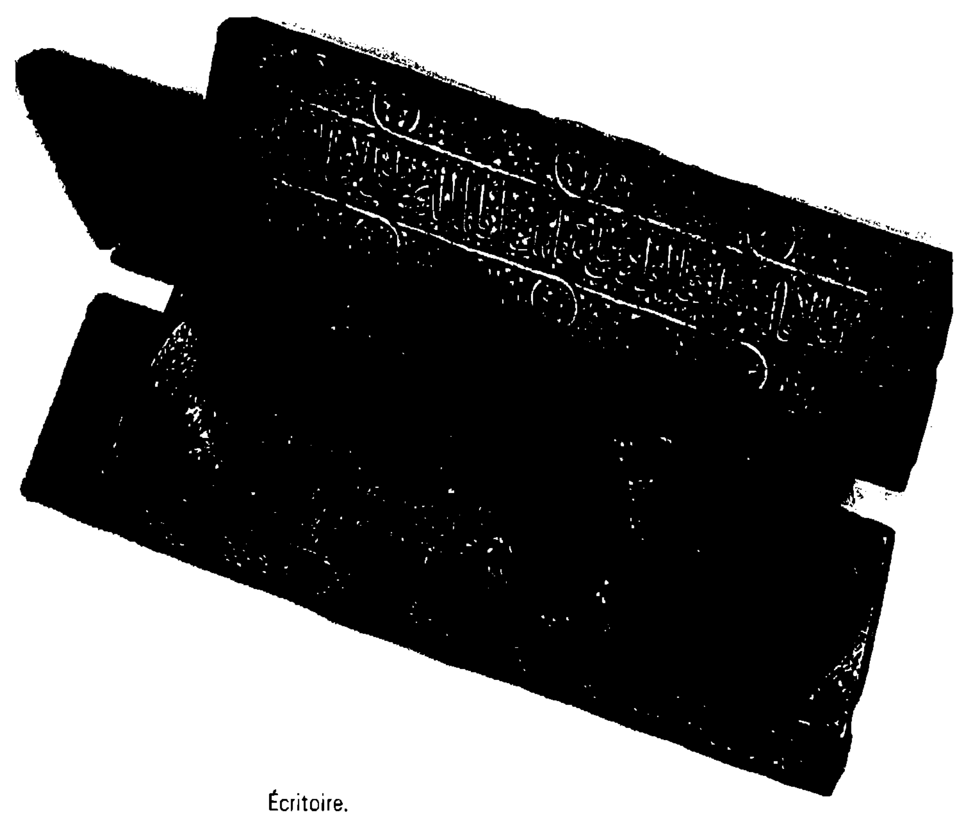
محفظة ومجمع منَشار ... « يقطع أوصال »[11]

كذاك ملقاطٍ لما شان القلم ... مصقلة تكمل النظم وتُتمُ

---

(1) المصدر أعلاه، ص189.

(2 - 11) هذه الكلمات الساقطة من النص، والمحصورة بين الأقواس، هكذا وجدها المحقق هلال ناجي وكان بإمكانه الإجتهاد، لوضع كلمات تكمل المعنى والسياق، لو كان قادراً على «نظم الأراجيز» ومعرفة بحورها الشعرية، ونحن لم نتصرف بالنص، لأن المحقق أولى به.



Écritoire.
Syrie ou Égypte, 1304,
musée du Louvre, Paris.

محبرة ومحفظة قصب
٧٠٤ هـ ١٣٠٤م من مصر أو سوريا
محفوظة بمتحف اللوفر - باريس

المصدر: الخط العربي - لحسن المسعود

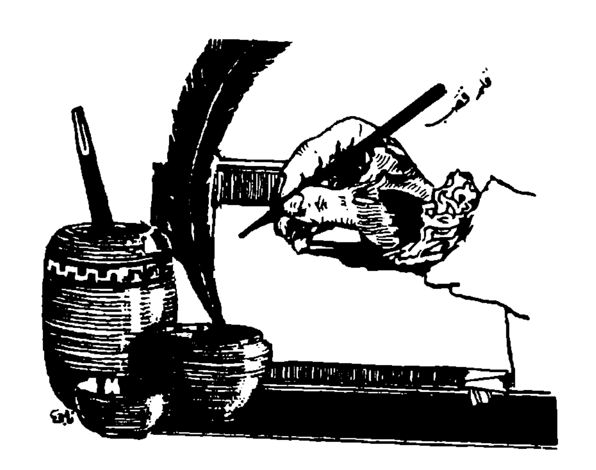
لكل اسلوب قصبة خا
ولكل اسلوب عدة حج
من القصب . -٢٣-

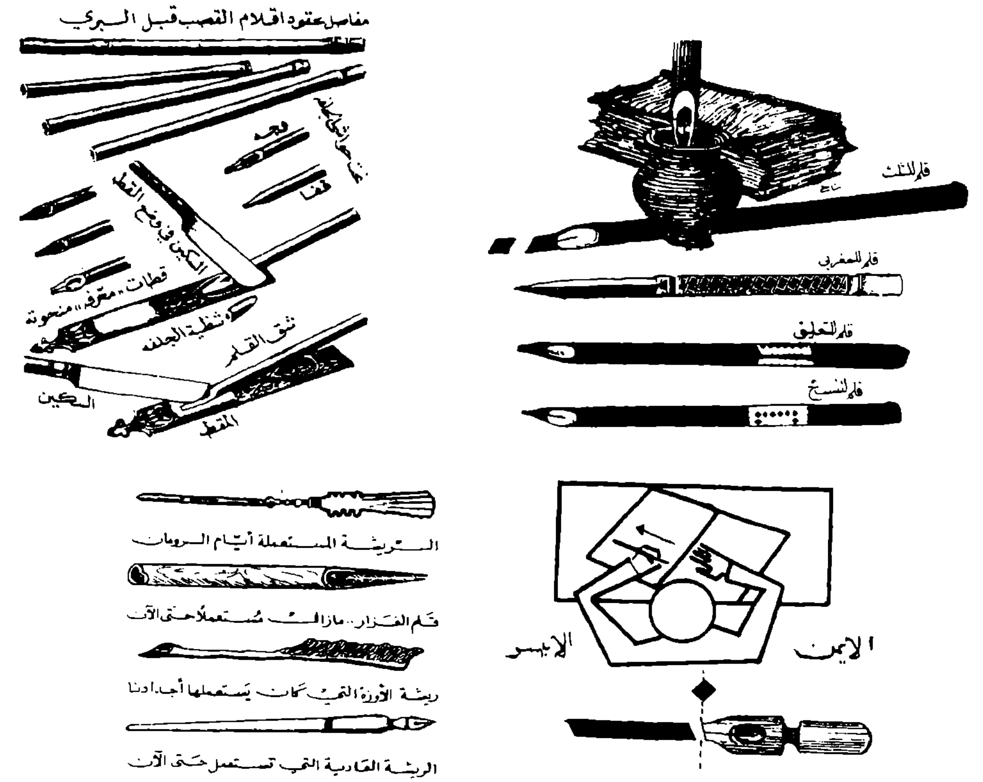
aque style a son roseau — ou
sque. Mais chaque style a
ılement plusieurs grosseurs
caractères ; il nécessite donc
sieurs roseaux (23).



قصبة للخط الفارسي

يعمل بعض الخطاطين قصبة خاصة للخط الفارسي ، لأنه يكتب
إعتياديا بقصبتين، واحدة أصغر من الاخرى بنسبة الثلث -٢٤ و ٢٥-

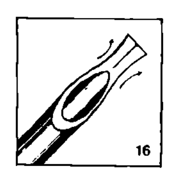




شكل ـ ٧٧٧ ـ

المصدر - ناجي زين الدين - بدائع الخط العربي / ص ٤٢٤

نَحْت :

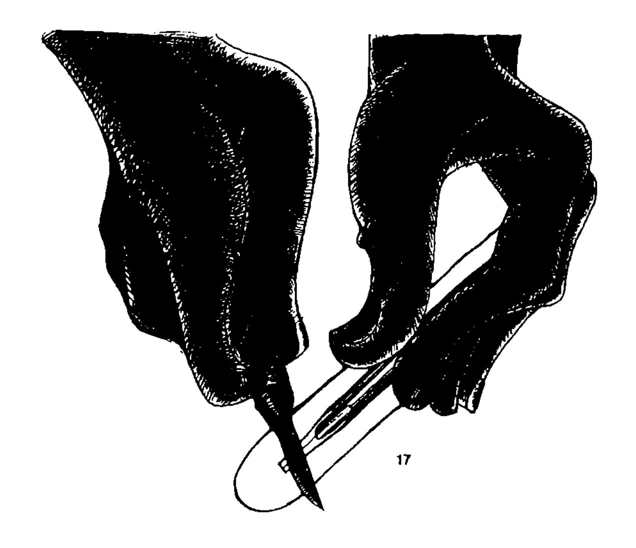


تُنْحَت الجَوانب برقّة وَرَهافة ، وَلابُد أن يَكون النَحت مُتَشابهًا مِنَ الجهتين -١٦-

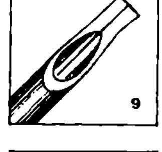
Taille
Tailler avec douceur les deux côtés du roseau de façon semblable (16).

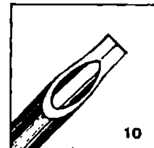
قَطّ :

بِسكين حَاد ، وَبضَغطةٍ وَاحدةٍ قوية على المَقَطة ، يَجب أن يُقْطَع مِنقار القصبة حَسَب الاتجاه المَطلوب ، أي إن إتجاه السكين وَدَرجة إنحرافه اثناء قط منقار القصبة يُحَددان نوعيّة اسلوب الخط -١٧-

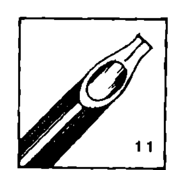


Coupe
Poser le roseau sur la plaquette de coupe : il est ainsi stabilisé. Puis donner un coup sec en biais sur le bec, avec un canif bien aiguisé (17).



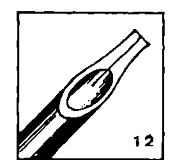


Fente
Fendre le dos du roseau en son milieu. La fente sera longue pour un roseau dur (9) et courte pour un tendre (10). Toujours relativement à la dureté du roseau, on fera l'incision un peu plus courte pour une main lourde (11) que pour une main légère (12).
Mais certains calligraphes préfèrent décentrer la fente vers la partie A (13, 14, 15), car c'est la partie B qui travaille le plus (14). La fente sera (côté A) située aux 4/10 de la largeur totale du bec (15).



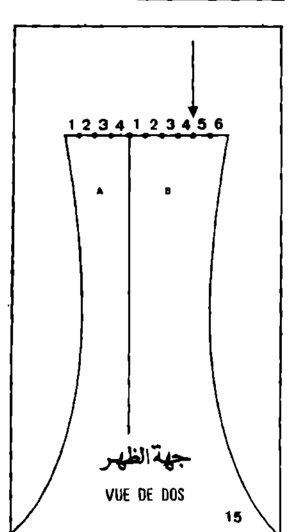


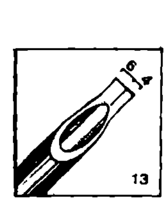
يُشَقّ ظَهر القصَبة في الوَسَط ، وَيكون طول الشَقّ بحَسَب صَلابة القصَب فان كَانت القصَبة قويّة يَكُون الشق طويلا - ٩ - وإن كانت القصَبة رخوة فيكون الشقّ صَغيراً - ١٠ - وإن كانت القصَبة مُتوسِطة الصَلابة فيكون الشق مَا بيَنهُمَا .

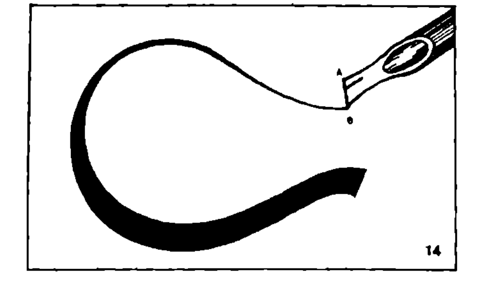


يُفضّل لليَد الثَقيلة شَقٌ صَغير - ١١ - ولليَد الخفيفة شَقٌ طَويل - ١٢ -

وَلا يَكُون الشَقّ دائمًا في الوَسَط ، إذ يُفَضّل بَعض الخطاطين تكبير الجزء الأعلى مِن منقار القصَبة ، لانهُ يؤدي أعمَالا أكثر من الجُزء الأسفل - ١٣ و ١٤ - وَيكون مَوضع الشق على المنقار بنسبة تقريبيّة تُشابه الرَسم - ١٥ -







3 - الحبر

لقد اجتهد الورّاقون في أمور مهنتهم، حتى عرفوا دقة تفاصيلها ومكوناتها، وأوجدوا المسوّغات لديمومة مهنتهم - الوراقة - فعرفوا أصنافاً من كل أداة من أدواتهم، وتوصلوا إلى أسرار، لم يهتد غيرهم إليها، لأنهم تعايشوا معها، ونبهتهم تلك الأدوات إلى ما يمكن الاستعاضة عنه، والبديل عوضاً منه، فتفننوا وأجادوا، واخترعوا وأضافوا، ومن ذلك ما أوجدوه من أنواع الحبر، وما يلائم كل نوع من أنوع الورق والقرطاس والأديم والجلود والمواد الأخرى التي كانوا يستخدمونها في الكتابة، وقد اهتدوا إلى إكتشاف الأحبار من مختلف النباتات والبقول والمعادن وغيرها، وهذه الاكتشافات في صناعة الحبر، كانت وليدة الحاجة، من جهة، ومن جهة ثانية، كان لتطور قوى الانتاج وازدها الحضارة، أثره البالغ في رفع وعي الناس، ليتساير وحركة التطور الصاعدة - وقتذاك - ونظراً لأهمية الكتابة والكتّاب في تيسير أمور الملك فمن البداهة، أن تكون صناعة أدوات الكتابة في أولويات الأمور، الواردة في أذهان الكتّاب، حتى أن قوى المعارضة الإسلامية في العصر العباسي، كان لها الدور الإيجابي في اكتشاف «الحبر السري» وهي بهذا تكون قد أدّت قسطها في دفع عجلة التطور إلى أمام، بعكس حالة المعارضة القائمة الآن في أثناء المعاصر، فهي تقتل حالة الابداع عند المبدع.

والحبر - مادة أساسية في عمل الكتّاب والورّاقين، وارباب الرياسة والسياسة، واصطلاح الحبر، يشاطره في المعنى المَداد، ويتوحّد معه في التقبل الذهني عند الكتّاب، فقد جاء في اللسان[1]: الحِبر: الذي يكتب به وموضعه المحبرة، قال ابن سيده: الحِبرُ المَداد، والحِبرَ والحَبْرُ: العالم، ذميّا كان أو مسلماً، سأل عبد الله بن سلام كعباً عن الحبر، فقال: هو الرجل الصالح. وكان يطلق على عبد الله بن عباس، حبر الأمة، أو المحبَر، وكان يقال لطفيل الغنوي في الجاهلية، محبّر، لتحسينه الشعر، وهو مأخوذ من التحبير وحسن الخطّ والمنطق.

والحبر هو الظل الملازم للدواة وعدّة الكتابة، وبها يتصل كاتصال التوريق بالكتابة والورّاقين بالكتّاب، كما يقول الصولي، ويضيف[2]: وبالحبر تكتب المصاحف والسجلات وما يراد بقاؤه.

وسمّي الحبر حبراً لتحسينه الخط في قولهم: حبرت الشيء تحبيراً وحبرته حبراً: زينته

(1) مادة (حبر).
(2) أدب الكتّاب/ص 103 - 104.

وحسّنته، والاسم الحبر، قال ابن أحمر[1]:

لبسنا حبره حتى اقتضبنا ... بأعمال وآجال قضينا

وقيل: الحبر مأخوذ من الحبار، وهو أثر الشيء، كأنه أثر الكتابة[2].

فيما رأى المتأخرون من الكتاب[3] أن الحبر أصله اللون، يقال: فلان ناصع الحبر، يراد به اللون الخالص الصافي من كل شيء، قال ابن أحمر[4] يصف المرأة:

تتيه بفاحم جعدٍ ... وأبيض ناصع الحبرِ

قال المبرّد[5]: قال التوزّي: سألت الفرّاء عن المداد، لم سمي حبراً؟ فقال: يقال للمعلّم حَبر وحِبر بفتح الحاء وكسرها، فأرادوا مداد حبر، أي مداد عالم، فحذفوا مداد وجعلوا مكانه حبراً، وقال المبرد[6]: وما أحسب أنه سمّي بذلك لأن الكتاب يحبّر به، أي يحسّن.

وجاءت تسمية المداد، لأنه يمدّ القلم، أي يعينه، قالوا: وكل شيء «مددت به شيئاً فهو مداد»، قال الأخطل[7]:

رأت بارقات بالأكف كأنها ... مصابيح سرج أوقدت بمداد

ويسمّى الحبر: نِقْسٌ ونَقسٌ: بكسر النون وفتحها، وسكون القاف، وسين مهملة، والكسر أفصح - كما يقول القلقشندي،، ويجمع على أنقاس[8].

وقد أضفى الإسلام جانباً روحياً على الحبر لطالب العلم وليس لسواه، فقد ذكرت المصادر[9] أنه «يؤتى بمداد طالب العلم ودم الشهيد يوم القيامة، فيوضع أحدهما في كفّة

---

(1) المصدر السابق/ ص104.

(2) المصدر نفسه.

(3) القلقشندي، ومن عاصره، انظر صبح الأعشى 2/ 461.

(4) ابن أحمر/ شاعر جاهلي، يكنى أبا الخطاب، أدرك الإسلام وأسلم، توفي على عهد عثمان بعد أن بلغ سناً عالية، انظر ترجمته في معجم الشعراء للمرزباني ص24، تحقيق عبد الساتر أحمد فراج، طبعة البابي الحلبي، القاهرة 1960م.

(5) صبح الأعشى 2/ 461.

(6) المصدر السابق.

(7) نفس المصدر/ ص460.

(8) نفس المصدر والمكان.

(9) صبح الأعشى 2/ 461.

الميزان والآخر في الكفة الأخرى، فلا يرجح أحدهما على الآخر»، وهذا الإسقاط الديني، من جانب التشريف للعلم والعلماء.

قال بعض الحكماء: صورة المداد في الأبصار سوداء وفي البصائر بيضاء[1]. ومن هذه الناحية أختير اللون الأسود للحبر، وفضّل على بقية الألوان، وتدرجوا في تلاوينه فيقال: أسود قاتم، وهو أول درجة السواد، وحالك وحانك وحُلكوك، وحُلبوب، وداجٍ، ودجوجي، وديجور، وأدهم، ومدهام، وهذه التسميات قال بها المدائني[2].

نظر جعفر بن محمد إلى فتى على ثيابه أثر المداد، وهو يستره منه، فقال له[3]: يا هذا إن المداد من المروءة، وأنشد أبو زيد:

إذا مـا الـمـسـك طـيّـب ريـح قـوم　　　كـفـتـنـي ذاك رائـحـة الـمـداد
ومـا شـيء بـأحـسـن مـن ثـيـاب　　　عـلـى حـافـاتـهـا حـمـم الـسـواد

ومن هذا المنطلق راح الكثير من الأدباء والكتّاب لا يخجلون من وجود آثار الحبر على ملابسهم وأيديهم وقراطيسهم، فقد قال بعضهم[4]: عطروا دفاتر الآداب بسواد الحبر. وكان في حجر ابراهيم بن العباس قرطاس يشق فيه كلاماً فأسقط، فمسحه بكمّه، فقيل له: لو مسحته بغيره؟ فقال: المال فرع والقلم أصل والأصل أحقّ بالصون من الفرع وأنشد في ذلك:

إنـمـا الـزعـفـران عـطـر الـعـذارى　　　ومـداد الـدوي عـطـر الـرجـال

وصارت مسألة وجود الحبر على ثياب الكاتب صفة مميزة يتباهى بها الكثير من الكتّاب والورّاقين، قال أحدهم[5]:

مـن كـان يـحـجـبـه أن مـسّ عـارضـه　　　مـسـك يـطـيّـب مـنـه الـريـح والـنّـسـمـا
فـإن مـسـكـي مـداد فـوق أنـمـلـي　　　إذا الأصـابـع يـومـا مـسّـت الـقـلـمـا

على أن بعضهم قد أنكر ذلك وقال: المداد في ثوب الكاتب سخافة ودنارة منه وقلة نظافة، وقال أبو العالية: تعلمت القرآن والكتابة وما شعر بي أهلي، وما رؤى في ثوبي

(1) صبح الأعشى 2/ 461.
(2) نفس المصدر/ ص463.
(3) ذات المصدر/ ص462.
(4) صبح الأعشى 2/ 462.
(5) نفس المصدر والمكان.

مداد قط، وأنشدوا[1]:

دخيل في الكتابة يدّعيها ... كدعوى آل حرب في زياد
يشبّه ثوبه للمحو فيه ... إذا أبصرته ثوب الحداد
فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو لطّخت ثوبك بالمداد

وقال ابن الوردي يصف كاتباً إنقلب الحبر على ثوبه[2]:

إنقلب الحبر على ... ثوبك فابشر بالارب
فحبر كل كاتب ... ريح إذا هو إنقلب

وأنشد محمد بن موسى الرازي لحمد بن مهران[3] أبياتاً في لطخ الحبر بالثياب:

لا تجزعنّ من المداد ولطخه ... ان المداد خلوق ثوب الكاتب
وأبهج بذلك أن لله زينّة ... هبة من الله الجواد الواهب
لولا المداد ويسرنا بدليله ... ما صحّ في مال حساب الحاسب
ولمّا تبيّنت الأمور لطالب ... ولكان شاهدنا شبيه الغائب

ثم دأب الكتّاب والورّاقون على التغزل بالحبر والتهادي فيه، لا سيما إذا كان قد علق بكبار الكتّاب، أو الذين اتخذوا الكتابة مهنة، قال أحمد بن اسماعيل[4]:

وإذا نمنمت بنانك خطاً ... معرباً عن اصابة وسداد
عجب الناس من بياض معان ... يجتنى من سواد ذاك المداد

حتى أنّهم قالوا: «المداد خضاب الرجال»[5] كي يثبتوا حالة التعايش معه، وارتباطه بحياتهم الإبداعية والمعاشية، وبهذا الصدد يقول إبراهيم بن العباس[6]:

إذا ما لفكر أظهر حسن لفظ ... وأدّاه الضمير إلى العيان
رأيت حلي البنان منورات ... تضاحك بينها صورالمعاني

---

(1) نفس المصدر والمكان.
(2) حسن الدعابة/ ص37.
(3) أدب الكتّاب/ ص103.
(4) المصدر السابق/ ص101.
(5) أدب الكتّاب/ ص102.
(6) المصدر نفسه.

وقال ضياء الدين المناوي يصف حبراً له وتغزّل فيه[1]:

وعـنـدي حـبـر ودت الـعـيـن لـونـه ... سـواداً وتـرضـاه الـحـسـان خـضـابـا
غـدا سـائـلاً مـن فـرط سـقـم ورقـة ... وأصـبـح لـلـسـمـرّ الـرقـاق رضـابـا
كـأنـي لـمـا بـتّ أشـكـو صـبـابـتـي ... إلـى الـلـيّـل بـالأشـواق رقّ وذابـا

وأهدى الشيخ برهان الدين القيراطي حبراً لأحد أصدقائه وكتب مع الاهداء[2]:

لـيـراعـكـم أهـديـت إنـسـان الـنـظـر ... شـبـاب طـرس شـاب مـن فـرط الـكـبـر
أرسـلـتـه عـبـدا دعـوه عـنـبـرا ... إذ فـاح طـيـب نـشـره بـيـن الـبـشـر
أقـلامـه أخـذتـه حـال كـتـابـة ... سـبـحُـا وألـقـتـه عـلـى طـرس درر
ويـودّ مـرسـلـه إلـى أبـوابـكـم ... لـو زاد فـيـه سـواد قـلـب أو بـصـر
لـيـل وإن أبـدى لـنـا ألـفـاظـكـم ... فـي صـبـح طـرس أبـيـض قـالـوا سـحـر

وأصبحت مسألة «الحبر» وفضائله، تدار على كل لسان، فمن ذلك ما قاله فارس بن حاتم[3]: «ببريق الحبر تهتدي العقول لجنايا الحكم، لأنه أبقى على الدهر، وأنمى للذكر، وأزيد للأجر». وقال القلقشندي[4]: واعلم أن المداد ركن من أركان الكتابة، وعليه مدار الربع، وأنشد لبعضهم:

ربـع الـكـتـابـة فـي سـواد مـدارهـا ... والـرّبـع حـسـن صـنـاعـة الـكـتّـاب
والـربـع مـن قـلـم تـسـوّى بـريـه ... وعـلـى الـكـواغـد رابـع الأسـبـاب

ووصلت الحال ببعض الكتّاب لأن يطلب من صديق له حبرا، للدعابة من جهة، ولضيق الحال من جهة أخرى، فقد كتب جعفر بن حدّار بن محمد إلى دعلج بن محمد يستهديه مدادا[5]:

يـا أخـي لـلـوداد لا لـلـمـداد ... وصـديـقـي مـن بـيـن هـذا الـعـبـاد
والـذي فـيـه ألـف يـجـد طـريـف ... قـد أُمـدّت بـألـف مـجـد تـلاد
أنـا أشـكـو إلـيـك حـال دواتـي ... أصـبـحـت تـقـتـضـي قـمـيـص حـداد

(1) حسن الدعابة/ ص38.
(2) نفس المصدر السابق.
(3) صبح الأعشى 2/ 462.
(4) نفس المصدر السابق 2/ 463.
(5) نفس المصدر السابق والمكان.

وغدت إعارة الحبر والمحبرة من المكارم والظرف التي تحكى في المجالس، فقد ذكر أن وكيع بن الجراح أتاه رجل يدعى أنه يمت إليه بحرمة، فقال له: وما حرمتك؟ فقال: كنت تكتب من محبرتي عند الأعمش، فوثب وكيع ودخل منزله، ثم أخرج له بضعة دنانير وقال له: أعذر فما أملك غيرها[1].

وساهم الشعراء في رفع منزلة الحبر، فهذا ابن الرومي يصف حبر أبي حفص الورّاق[2]:

كأن ألوان دهم الخيل ... حبر أبي حفص لعاب الليل
يسيل للاخوان أي سيل ... بغير ميزان وغير كيل

وقال أحد الورّاقين في الحبر، واصفه بأنه جامع لكل الحروف باسمه[3]:

جمعت حروف الحرف في الحبر كلها ... ولولا شقائي ما عرفت المحابرا
وقد زاد بي الاخفاق في كل موطن ... لحملي في كميّ إليه الدفاترا
وسطّر في أثناء قلبي تعلّلا ... طلابي لما أن عرفت المساطرا

صناعة الحبر

لبّت صناعة الحبر ما كان يحتاجه الكتّاب وأصحاب الدواوين من حاجات كانوا بأمسّ الحاجة إليها، وقد استخدم الكتّاب والوراقون المواد المتيسّرة في حياض بيئتهم، من نبات ومعادن وغيرها، بحيث أنهم استطاعوا أن يجدوا لكل نوع من الأوراق أو الجلود أو الكاغد، حبراً خاصاً به، وقد دخل الماء والنفط والعسل والملح والصمغ والعفص وغيرها من المواد في تركيبه[4]، إذ توصلوا إلى عدة طرق في صناعته، فمن ذلك ما أورده القلقشندي حيث قال[5]: «واعلم أن المواد لذلك منها ما يستعمل بأصله ولا يحتاج فيه إلى كبير علاج وتدبير، كالعفص والساج والصمغ، وما أشبهها، ومنها ما يحتاج إلى علاج وتدبير وهو الدّخان، حيث يتوخى فيه أن يكون من شيء له دهنيّة ولا يكون من دخان شيء يابس في الأصل، لأن دخان كل شيء مثله راجع إليه، كما يقول أبو القاسم خلوف بن شعبة الكاتب[6].

---

(1) العقد الفريد 4/ 201.
(2) انظر ديوانه - قافية اللام، وراجع الصولي، أدب الكتّاب/ ص94.
(3) أدب الكتّاب/ ص95.
(4) انظر صبح الأعشى 2/ 464 - 465.
(5) المصدر السابق 2/ 464.
(6) المصدر نفسه.

وقد كان صنّاع الحبر الجيّد يتكتمون في إنشاء طرق صناعته، كي لا تسرق منهم، وهو أمر معروف لديهم، بغية الحفاظ على الجودة والامتياز عند هؤلاء، إلا أن الكتّاب الحاذقين يعرفون كيف يتوصلون بهم ويسرقون منهم/ براءة الاختراع/ ، يقول أحمد بن يوسف الكاتب[1]: كان يأتينا في أيام خمارويه[2] بمداد لم أر أنعم منه، ولا أشد سواداً منه، فسألته من أي شيء استخرجته، فكتم ذلك عني، ثم تلطفت به بعد ذلك، فقال لي: من دهن بزر الفجل والكتّان، أضع دهن ذلك في مسارج وأوقدها، ثم أجعل عليه طاساً حتى إذا نفد الدهن، رفعت الطاس، وجمعت ما فيها بماء الآس والصمغ العربي، قال: وإنما جمعه بماء الآس ليكون سواده مائلاً إلى الخضرة، والصمغ يجمعه ويمنعه من التطاير.

ثم انتبهوا إلى النباتات والغلاّت واستخرجوا منها الحبر، وذلك عن طريق الدخان، يقول صاحب الحليّة[3]: إن شئت أخذت من دخان مقالي الحمّص وشبهه، وتلقي عليه الماء، وتأخذ ما يعلو فوقه، وتجمعه بماء الآس والعسل والكافور والصمغ العربي والملح، وتمدّه وتقطعه شوابير، وقد توصل الوزير الخطاط ابن مقلة إلى أجود الطرق لانتاج أجود أنواع المداد في حينه (ق 4هـ) حيث أنه يرى أن أجود المداد ما اتخذ من سخام النفط وبالطريقة التالية: يؤخذ منه ثلاثة أرطال، فيجاد نخله وتصفينه، ثم يلقى في طنجير، ويصبّ عليه من الماء ثلاثة أمثاله، ومن العسل رطل واحد، ومن الملح خمسة عشر درهماً[4] ومن الصمغ المسحوق خمسة عشر درهما، ومن العفص عشرة دراهم، ولا يزال يساط على نار لينة حتى يثخن جرمه، ويصير في هيئة الطين، ثم يترك في إناء، ويرفع إلى وقت الحاجة[5]. وقد رأى المتأخرون من الكتّاب «كصاحب الحلية والصبح»، أن العملية لا تنحصر في سخام النفط فقط، بل تتعداه إلى دخان غيره، بإضافة الكافور إليه لتطيّب رائحته، والصبّر ليمنع من وقوع الذباب عليه، وقيل أن الكافور يقوم مقام الملح في غير الطيب[6].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) خمارويه بن أحمد بن طولون (250 - 282هـ/ 864 - 896م) أنظر الأعلام للزركلي 2/ 324 - ط5، دار العلم للملايين.

(3) صبح الأعشى 2/ 464.

(4) ظل التعامل بمكاييل الدراهم عند أهل العراق حتى السبعينات من القرن المنصرم، وكثيراً ما يستعمل الباعة المتجولون هذه المكاييل، ومنها مكيال يعرف بـ«ست دراهم» وقد أصبح الآن من الفولكلور.

(5) صبح الأعشى 2/ 465.

(6) نفس المصدر السابق.

ونتيجة الاختبار والتعامل مع الورق في الحبر، اكتشفوا أن حبرهم هذا يقبله نوع معيّن من القراطيس، فيما يرفضه الكاغد، أو بعض الرقوق، لذلك اهتدوا إلى طرق أخرى لتصنيع أصناف مختلفة من الأحبار، فالحبر الذي يناسب الكاغد - أي الورق - هو حبر الدخان، وهو يصنع على الطريقة التالية[1]: يؤخذ من العفص الشامي قدر رطل يدقّ جريشاً، وينقع في ستة أرطال ماء، مع قليل من الآس «المرسين» اسبوعاً، ثم يغلى على النار حتى يصير على النصف أو الثلثين، ثم يصفى من مئزر، ويترك ثلاثة أيام، ثم يصفّى ثانياً، ثم يضاف لكل رطل من هذا الماء أوقية من الصمغ العربي، ومن ألزاج القبرصي كذلك، ثم يضاف إليه من الدخان المتقدم ذكره، ما يكفيه من الحلاكة، ولا بدّ له من ذلك من الصّبر والعسل، ليمتنع بالصّبر وقوع الذباب فيه، ويحفظ بالعسل على طول الزمن، ويجعل من الدخان لكل رطل من الحبر (ثلث أوقية)[2]، بعد أن تسحق الدخان بكلوة كفّك بالسكر النبات، والزعفران الشعر والزنّجار، إلى أن تجيد سحقه، ولا تصحنه في صلاية ولا هاون يفسد عليك.

أما الحبر الذي يناسب الرق، فأطلقوا عليه اسم «الحبر الرأس» ولا يدخل الدخان فيه لذلك يجيء بصّاصاً برّاقاً، وبه أضرار للبصر في النظر إليه من جهة بريقه، وهذا الحبر يفسد الكاغد، وطريقة تحضيره تتمّ على النحو التالي[3]: يؤخذ من العفص الشامي رطل واحد فيجرش، ويلقى عليه من الماء العذب ثلاثة أرطال، ويجعل في طنجير، ويوضع على النار، ويوقد تحته بنار ليّنة حتى ينضج، وعلامة نضجه، أن تكتب به فتكون الكتابة حمراء بصّاصة، ثم يلقى عليه من الصمغ العربي ثلاث أواق، ومن الزاج أوقية، ثم يصفّى ويودع في إناء جديد، ويستعمل عند الحاجة.

وهناك نوع آخر من الحبر، أطلقوا عليه اسم «حبر سفري» يصاحبهم في حلّهم وترحالهم، يعمل على البارد، من غير نار، حيث يؤخذ العفص فيجرش جرشاً جيداً، ويسحق لكل أوقية عفص درهم واحد من الزاج، ودرهم من الصمغ العربي، ويلقى عليه، ويرفع إلى وقت الحاجة، فإذا احتيج إليه صبّ عليه من الماء قدر الكفاية واستعمله[4].

الحبر السري، هو أحد مكتشفات الفرق الإسلامية المعارضة للسلطة العباسية[5]،

(1) صبح الأعشى - نفس المكان السابق.
(2) في الأصل بياض، وقد أشار إليها محققوا - صبح الأعشى في الهامش - انظر 2/ 466.
(3) صبح الأعشى 2/ 466.
(4) صبح الأعشى 2/ 466.
(5) راجع الرسالة 7 و8 من رسائل أخوان الصفا - المجلد الأول.

حيث أنهم وجدوا «تضمين الأسرار في الكتب» من المهمات التنظيمية الملحة، يقول ابن عبد ربّه الأندلسي[1]: قد تعلّقت العامة بكتاب إسماعيل بن محمد القمي والحسن بن عبد الله الأصبهاني[2]، بطريقة تضمين الأسرار في الكتب، ففيه أدب تجب معرفته، يقول ابن عبد ربّه الأندلسي: كان أبوحاتم سهل بن محمد، قد وصف لي منهما أشياء جليلة من تبديل الحروف، وذلك ممكن لكل إنسان، غير أن اللطيف من ذلك أن تأخذ لبنا حليباً فتكتب به في القرطاس، فيذر المكتوب له عليه سخنا من رماد القراطيس فيظهر ما كتبت، ويضيف: وإن شئت كتبت بماء الزاج الأبيض، فإذا وصل إلى المكتوب إليه أمرّ عليه شيئاً من غبار الزاج، وإن أحببت أن لا يقرأ الكتاب بالنهار ويقرأ بالليل فاكتبه بمرارة السلحفاة[3].

قد تابع أساطين اليراع في بغداد ما بدأه الأوائل، أيام العباسيين، وساروا على منوالهم، في الطريقة والتحضير لأنواع من الحبر، فهذا هاشم محمد الخطاط البغدادي، يحذو حذو شيخه الأول ابن البواب[4]، وهو - أي هاشم - واحد من أشهر الخطاطين في العالم العربي، في القرن 20/يسير على ذاك المنهج العباسي وفق الطرق التالية، يقول[5] في أنواع الحبر، وهي سبعة لديه عرفها، النوع الأول: يؤخذ من العفص، بعد دقّه إلى أن يكون مسحوقاً ناعماً، ثم يمزج من ماء الورد ويوضع في الشمس لمدة (40) يوماً في أيام الصيف، ومن ثمّ يصفّى ويكتب به. والنوع الثاني: ويسمى - حبرالرز - ويكون لونه (قهوائي) غامق - بني - يصنع بتحميس الرز على النار، وذلك بعد غسله وتيبيسه، حتى يكون لونه أسوداً، وتظهر منه مادته الدهنية، ومن ثمّ يدقّ حتى يصبح مسحوقاً ناعماً في هاون خشبي، وهو ما يعرف بـ (الجاون، أو المهباش) أو من الرخام، ولم يستعمل هاون معدني خوفاً من تأثيره على المواد المسحوقة، ثم يضاف لمسحوق الرز مقدار من الماء، ويضاف له كمية من الصمغ العربي بنسبة 30%، وإذا ظهر لون هذا الحبر خفيفاً، سارع الخطاط إلى وضعه في الشمس، حتى يصبح لونه غامقاً. والنوع الثالث: هو حبر زيت

---

(1) العقد الفريد 4/ 190.

(2) راجع ترجمتها في «الفهرست» لابن النديم.

(3) العقد الفريد 4/ 190.

(4) انظر ترجمته في بحثنا هذا، في ج4 الخطاطون.

(5) في حديث للسيدة سهيلة الجبوري، وقد أوردته في دراستها القيّمة - الخط العربي وتطوره في العصور العباسية/ ص123 - 126، وأوردته أيضاً في دراسة لها نشرتها في مجلة/ كلية الآداب - جامعة بغداد - العدد 4/آب 1961، الصفحات (467 - 468).

الزيتون، يتمّ تحضيره بحرق الزيتون، ويؤخذ (النيليج)[1] الناتج عن حرقه، ويمزج من الصمغ العربي بنسبة 40% ثم تخلط بالماء لمدة أسبوع، حيث ينتج حبر ذو لون مقارب للأسود، إلا أنّه لمّاع جداً. والنوع الرابع: هو حبر البصل، أو الحبر السري، ويعدّ بطريقتين: الأولى: يؤخذ عصير البصل ويكتب به، وعند القراءة تحمّى الورقة على النار، فتظهر الكتابة واضحة، وهو يستعمل للرسائل السرية. والطريقة الثانية: هي بدقّ قشور البصل الأحمر بصورة متواصلة، حتى يصبح كتلة متراصة «شبه عجينة» تباع على هذا الشكل للخطاطين، فإذا أريد الكتابة بها وضعها على النار مع إضافة شيء من الماء حتى تذوي، ومن ثم يبدأ بالكتابة، وهذا الحبر يكون لونه بني، «قهوائي»[2]. النوع الخامس: حبر الباقلاء، ويتم تصنيعه بتنقيع الباقلاء «الفول» لمدة 40 يوماً في الشمس ويؤخذ ماؤهُ، ويصنع هذا الحبر في الصيف عادة، وذلك لشدة حرارة الشمس في بغداد، ويضاف له الصبغ العربي بنسبة 20%.

النوع السادس: وهو ما يعرف بـ (الحبر الحديدي) حيث يصنع بإضافة الحديد إلى ماء الورد ويوضع في الشمس لمدة شهر، ليتأكسد، ويجفّ ماؤه، ثم يخلط بالماء وفق نسب معيّنة ويصفّى بعد ذلك لإخراج المواد الحديدية، ثم يضاف الصمغ العربي بنسبة 20%. النوع السابع: حبر الذهب، تستعمل في صناعته صحائف رقيقة جداً من الذهب الخالص، حيث تخلط هذه الصحائف مع الصمغ العربي، بنسب معيّنة، وذلك بعد إذابة ذرات الذهب، ويخلط في إناء بلوري، ويحرّك بالسبابة، وبعد إذابة ذرات الذهب بالصمغ، يضاف له كمية من الماء لكي يطفو الصمغ العربي، ويترسب الذهب في قعر الإناء، ويترك لمدة 24 ساعة يم يسكب ذلك الماء عن الذهب المترسّب في الاناء، ويوضع غيره حتى يتأكد الصانع من الصمغ العربي، ثم يؤتى بغرى السمك الجاف[3] ويذوّب بالماء الساخن جداً، ثم يضاف إلى الذهب المصفى من الماء والصمغ العربي، وحينئذ يصبح حبراً معداً للكتابة والتزويق.

وطريقة استعمال الحبر الذهبي كانت مقتصرة على الإنشاء والديونة كما يقول

(1) بذور بعض النباتات الخاصة بصبغ الألوان، معروف في العراق كثيراً، والنيلج هو نتتاج المادة المحروقة من تلك البذور.

(2) لا يزال هذا الحبر مستعملاً وقد رأت - سهيلة الجبورى - لوحة من كتابة هذا الحبر عند الخطاط هاشم محمد البغدادي.

(3) غرى السمك الجاف، مادة لزجة مستخرجة من جسم السمك، يستعمل بدلها الآن مادة جيلاتينية.

القلقشندي[1] وفي فواتح الكلام، أي في «الترويسة» والطغراوات وفي الأسماء الجليلة، وكانت طريقة صنعه والكتابة فيه، هي بحلّ ورق الذهب - وقتذاك - والذي كان يستعمل في الطلاء ونحوه، ويجعل مع شراب الليمون الصافي النقي، وينقل في إناء صيني أو نحوه، حتى يضمحل جرمه فيه، ثم يصبّ عليه الماء الصافي النقي، ويغسل من جوانب الإناء، حتى يمتزج بالماء والشراب، ويترك ساعة حتى يرسب الذهب ثم يصفّى الماء عنه، ويؤخذ ما رسب في الاناء، فيجعل في مفتلة زجاج ضيقة الأسفل، ويجعل معه قليل من الليّقة، والنزر اليسير من الزعفران، بحيث لا يخرجه عن لون الذهب، وقليل من ماء الصمغ المحلول، ويكتب به، فإذا جفّ صقل بمصقلة من جزع حتى يأخذ حدّه، ثم يزمّك[2] بالحبر من جوانب الحرف[3]. وهناك صنف ثان يكتب به افتتاحيات للأبواب والفصول وابتداءات الكلام والبسملة وغيرها، هو اللازورد .وأنوع كثيرة، وأجودها المعدني، ويأتي ذلك مصنوع لا يناسب الكتابة كما يقول القلقشندي[4]، وإنما يستعمل في الدهانات ونحوها، وطريقة الكتابة به هو أن يذاب الماء وينقي عليه قليل من الصمغ العربي، ويجعل في دواة، كتلك المستخدمة للذهب، وكلما رسب حرّك بالقلم، ولا يكثر به الصمغ كي لا يسوّد ويفسد، كما يوجد صنف ثالث يستخدم في هذه الافتتاحيات هو الزُّنجفر، وأجوده المغربي، وطريق الكتابة به أن يسحق بالماء حتى ينعم، وإن سحق بماء الرمّان فهو أحسن، ثم يضاف عليه ماء الصمغ، ثم يلاق بليقة كما يلاق الحبر، ويجعل في دواة ويكتب به[5]، والصنف الرابع لكتابة هذه الافتتاحيات هو: المغرة العراقية، وهي خاصة بكتابة نفائس الكتب الخاصة بمراسلات الملوك، وطريقة الكتابة بها كما في الزنجفر[6].

ألغاز في أدوات الكتابة

بسبب العمل الروتيني لعمل الورّاقين والكتّاب، ولغرض تجاوز مثل هذه الحالات في العمل، فإنهم يتبادلون الأحاجي والألغاز فيما بينهم، مقتلة للوقت ليس إلآ، ونظراً لكون حالة الأدب قد تلبست الجميع، من أدباء وورّاقين، فإنهم يستخدمون أدبهم المهني، في

(1) صبح الأعشى 2/ 466.
(2) الزّمك = إدخال الشيء بعضه في بعض - أنظر اللسان - مادة (زمك).
(3) صبح الأعشى 2/ 467.
(4) المصدر السابق.
(5) المصدر نفسه.
(6) نفس المصدر 2/ 468.

هذه المُلح والنوادر، فمنها الأدب الرفيع، ومنها الشعر الخليع، ومنها النادرة الحذقة، والجميل في الأمر: أن حوانيت الورّاقين، بعد العمل اليومي لهم، تشكل شبه منتديات ثقافية، وهو ما انتبه إليه أبو حيان التوحيدي، وحكى عنه كثيراً[1]، ولا غرو في ذلك، فما من ورّاق إلا وتجمّع عنده الكثير من الأدباء، والعلماء والشعراء[2]، فيتطارحون ويتهاجون ويتلاغزون، وقد كانت أدوات الكتابة، مفصلاً رئيساً في ألغازهم، فاتخذوا منها مطيّة لشعرهم، ونادرة حاضرة البديهة في ألسنتهم، فقد قالوا الألغاز في الورق وأنواع القراطيس، والدوى والسكاكين، والأقلام والمحابر، والحبر والقصب، وشاعت هذه الظاهرة في سوق الورّاقين، وتعدتها إلى بقيّة الأسواق والصناعات الأخرى، وعمّت سائر المدن الإسلامية في الشام ومصر وغيرها، وقد تبرّع السعاة في نقل هذه الألغاز، من بلد إلى آخر، وانعقدت حولها مجالس الأدب للردّ والإجابة، وهذه الظاهرة ما زالت حتى اليوم يتعاطاها أهل جنوب العراق والفرات الأوسط، وشكل هذا النوع من الأدب ما يعرف بـ«شعرالاخوانيات» فيما بعد، فمن ذلك ما قاله أحدهم في الورق[3]:

وشيء بلا جرم يصلب تارة ... ويقطع حينا في حضور وأسفار
ومن قدم قد بيّض الله وجهه ... على أنه ما انفك يوما عن القار[4]

وقال آخر في الدواة[5]:

ململة الجبين مورودة الدهر ... ومحمرّة الأذنين مفتوحة الفم
لها صنم كالديك ينقر جوفها ... تساوي إذا قومتها نصف درهم

وكتب الشيخ بدرالدين الدماميني لغزاً في دواة وجهّزه إلى أمين الدين صاحب ديوان الإنشاء في الشام[6]:

كتبت وأعذاري إليك تقرر ... ونظمي بها يا كاتب السرّ يجهرُ
أتتك بأبيات المعاني قرضتها ... وحكت حبير اللفظ وهو محررُ
وحليّت أهل العصر إذ كنت خاتما ... لهم فعليك الآن يعقد خنصرُ

(1) راجع كتابه الهام «المقابسات».
(2) سوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل في باب سوق الورّاقين من هذه الدراسة.
(3) حسن الدعابة/ ص42.
(4) هنا كناية للتعبير عن الحبر الأسود، شبّه بالقير.
(5) حسن الدعابة/ ص42.
(6) المرجع السابق/ ص43.

وما أنت إلا البحر جاش عبابه ... ولكن رأينا منك علماً يجسرُ
فما كلمة أفديك دام اعتلالها ... وفيها دواء ان عراها تغيرُ
ويحفظها ذو السروهي التي وشت ... وذلك من عادتها ليس ينكرُ
وما مسّها إلاّ وجادت بنقسها ... وصحف ترى المقصود بالنقس يظهرُ
وتحمل سمرالخط رايات ملكها ... على الرأس عبّاسيّة حين تخطرُ
كحيلة طرف تعشق العين شكلها ... ويحسن مرآها إذا ما تحبرُ
مؤنثة قد ذكّرتنا بلونها ... عهود الصبا والشيء بالشيء يذكرُ
وكم قد رآنا ريقها من مسلسل ... يلذّ به في الذوق وِردٌ ومصدرُ
وكم لاقت الأحبار منها محاسناً ... فعادت لها الجهال بالعيّ تحصرُ
مسوّدة أن ترضَ فالعيش أخضرٌ ... وأن غضبت فالموت لا شكّ أحمرُ
ويعذب للسمر الرقاق رضابها ... فتنهل منها مورداً لا يكدرُ
لقد أحكمت والنسخ ما زال دأبها ... بذلك قد جاء الكتاب المسطرّ
وما هي إلا ذات منربة غِدت ... وكم ذي غنى عن قصدها ليس يفترُ
ولسنا نراها غير سائلة ولم ... تفه بسؤال فاعترانا التحيّرُ
فأنعم بحل اللّغز ياخيرُ منعمٍ ... فأنتَ بهِ والله أجدى وأجدرُ
فلا زالت الأقلام تسعى لشكركم ... على رأسها طول المدى لا تقصرُ

فكتب إليهِ أمين الدين جوابه بعد أيام، فقال[1]:

مواقع أقلام لها الفضل ينشر ... وروضة آداب بها القلب يجبرُ
تحرر معنى حسنه نسج وحدة ... فيا حبذا الاسكندري المحررُ
تشقّ على الأفهام شقة شأوها ... فكم من بليغ عن مداها يقصرُ
أتت سهلة الألفاظ منوعة الذرا ... حمُاها من العلياء لا يتسوّرُ
تشيرإلى الحبلى التي عزّ وضعها ... فأحشاؤها فيها الأجنة تقبرُ
ينامون لا تغشاهم سِنة الكرى ... فان هبّ فرد ظل يسعى ويحضرُ
وان ارشفته من زلال رضابها ... تهادى بها نشوان يمشي ويعثرُ
وأمّا إذا اعتموّا السواد فكلهّم ... خطيب له فوق الأنامل منبرُ

(1) حسن الدعابة/ ص44.

وينطق عن علم وطول نباهةٍ ... وعمّا رآه في المنام يعبرُ
تطاول سمرالخط أنّى تشامخت ... سمّوا ومع هذاعلى الطول تقصرُ
وكلّ بني الآداب تلفي بيوتهم ... تقام بها بين الأنام وتعمرُ
فأكرم بما قد ولّدته وانشأت ... وربّت، ويكفيها بذلك مفخرُ
تحية وجهي أن جلست ووجهها ... تجاهي وجاهي عندها ليس يحقرُ
وقد فتحت فاها فقالت وقصّرت ... وأنّى استقالت فهي في ذاك تعذرُ
فلا زلتم أهل الجمال وخيركم ... لدى النقص مثلي فهو حظّ موفرُ
بمدحكم الأقلام يضحك سنّها ... بحقٍّ وأفواه الدواة تقطرُ

لم تتوقف ألغازالورّاقين عند أداة واحدة من أدواتهم، بل تعدى ذلك إلى كل الأدوات المستخدمة في مهنتهم، وقد أعطوا القلم، الشيء الكثير من هذه الألغاز واستفاضت آثارهم الأدبية في ذكر ذلك، ويجب أن لا ننسى أن الورّاقين، كان بينهم من كبار الأدباء والمحدّثين، والشيوخ، والقضاة، اسمع أحدهم ماذا يقول في القلم بصيغة اللّغز(1):

فلا هو يمشي لا ولاهو مقعد ... وما أن له رأس ولا كفّ لامسِ
ولا هو حيّ لا ولا هو ميّتٌ ... ولكنه شخص يُرى في المجالسِ
يزيد على سمّ الأفاعي لعابه ... يدبّ دبيبها في الدُجى والحنادس
يفرّق أوصالا لصمت بجنبه ... وتغرى به الأوداج تحت القلانس
إذا ما رأته العين تحقر شأنه ... وهيهات تبدو النفس عند الكرادس

ولغزّه آخر قائلاً(2):

وأرقش مرهوف الشباه مهفهف ... يشتت شمل الخطب وهو جميعُ
تدين له الآفاق شرقا وغربا ... وتعنو له ملاكها وتطيعُ
حمى الملك مفطوما كمكان تحتمي ... به الأسد في الأجسام وهو وضيعُ

فأجاب آخر على نفس المنوال:

وساكن رمس طعم عند رأسه ... إذا ذاق من ذاك الطعام تكلّما
يقوم ويمشي صامتا متكلّماً ... ويرجع في القبرالذي منه قوّما

(1) حسن الدعابة/ ص44 - 45.
(2) المرجع السابق.

وليس بحيّ يستحقّ كرامة وليس بميّتٍ يستحقّ الترحّما

وقال إبن أبي البغل الكاتب في القلم، وهو من مشاهير ذلك الزمان، ويعدّ بطبقة التوحيدي:

أصمّ عن المنادى لا يجيب به تخبو وتشتعل الخطوب
ضئيل الجسم أعلم[1] ليس تخفي عليه غيب ما تخفي القلوب
تراه راجلا لا روح فيه ويحييه وينطقه الركوب
يبين لسانه ما كان سودا مفارقه ويخرسه المشيب
يقسّم في الورى بؤسي ونعمي ويحكم والقضاء له مجيب
عجبت لسطوة فيه وضعف وكل أموره عجب عجيب

ووصفه أحدهم مشبّهاً إياه بالعاشق تارة، وبالواشي تارة أخرى، يقول[2]:

سألتك ما واش يراد حديثه ويهوى الغريب النازح الدارإفصاحه
تراه مدى الأيام أصفر ناحلا كمثل عليل وهو قد لازم الراحة

وقال آخر ملغّزاً المعنى:

وطائر في وكره نائم يطير في الأرض بأسراره
حياته في قطع أوداجه وعيشه في قطّ منقاره
يكرع من مستنقع القارَكي يأخذ بالمنقار من قاره[3]

وتنادم ورّاقون ذات مساء،، وجروا على ذكر القلم في آثار كبار الأدباء والشعراء، فقال أحدهم: لقد قرأت أبياتاً في لغزالقلم لجمال الدين بن نباته[4]:

مولاي ما اسم ناحل دنف وما به علّة ولا سقم
لسان قوم فإن حذفت وان صحفت بعض الحروف فهوفم

وقال ورّاق آخر: سمعت بباب الطاق، أن أحدهم سمع الحريري ذكر القلم في مقاماته فقال[5]:

---

(1) أعلم، أي مشقوق الشفة. (2) المرجع السابق/ ص46.
(3) شبّه الحبر بالقار (الزفت) بجامع السواد في كل منهما.
(4) راجع ديوانه، وكذلك حسن الدعابة/ ص46.
(5) انظر المقامة رقم 42 المعروفة بـ«النجرانية»، وحسن الدعابة/ ص47.

ومــأمــوم بــه عــرف الإمــام كـمـا بـاهـت بـصـحـبـتـه الـكـرام
لـه إذ يـرتـوي طـيـشـان صـاد ويـسـكـن حـيـن يـعـروه الأوام[1]
ويـذرى حـيـن يـسـتـسـقـي دموعـا يـرقـن كـمـا يـروق الابـتـسـام

ومن جميل ما جاء في باب الألغاز في ذكر أدوات الكتابة عند الورّاقين، وتناقلوه بأخبارهم الأدبية، نوادرهم الملاح، ما كتبه الشيخ جمال الدين محمد بن أحمد الشاهد سؤالاً، بعث به للشيخ عبد الرحمن المرشدي، ملغّزاً في القلم، قال[2]:

وجـيـه الـديـن يـا رأس الـمـوالـي وقـرّة عـيـن أربـاب الـمـعـالـي
ومـن بـبـديـع مـنـطـقـه يـريـنـا بـيـانـا لـلـمـعـالـي فـي الأمـالـي
ومـن مـن نـثـره زهـرُ الـلـيـالـي ومـن مـن نـظـمـه عـقـد الـلآلـي
ومـن ألـفـاتـه فـاقـت غـصـونـا ومـن نـونـاتـه شـبـه الـهـلال
فـهـذى أطـلـعـت أدبـا نـثـيـرا وتـلـك سـمـت عـلـوا عـن مـثـال
إلـيـك لـغـزّت فـي شـيء بـراه الـبـرايـا وهـو صـنـعـة ذي الـجـلال
ويـحـدث راكـعـا فـيـتـمّ فـرضـا ولا تـقـضـى ويـقـدّم وهـو تـال
ومـن أهـل الـيـمـيـن عـلـى بـسـاط الـسـجـود ولا يـمـيـل إلـى الـشـمـال
وخـالـي الـجـوف ذا وضـع ثـلا ثـي لـه الـتـصـريـف فـي مـلأ ومـال
يـجـود واسـع الأحـرار حـتـى غـدا كـالـعـبـد فـي أيـدي الـمـوالـي
ولا يـخـتـار مـن مـولاه عـشـقـا سـوى فـضـل الـكـتـابـة بـابـتـهـال
خـطـيـب فـي الـبـلاغـة لا يـدانـي كـتـوم الـسـرِّ ثـبّـات الـمـقـال
كـمـا اخـتـلـس الـمـحـبّـا مـن ضـمـيـر قـسـيـم الـقـطـع فـي قـطـع الـوصـال
وان حـقـقـت فـهـو أمـيـن سـرّ رشـيـد وهـو هـادٍ مـن ضـلال
يـقـري زاهـدا لـكـن رأيـنـا مـلابـسـه مـن الـقـصـب الـعـوالـي
أفـدنـا عـنـه أوصـافـاً حِـسـانـا تـنـاديـه الـمـجـالـس فـي الـمـحـال
وواسـطـه غـدا هـو عـن ضـمـيـر فـأظـهـرمـا أريـد مـن الـمـنـال
جـعـلـت لـسـانـه عـنّـي الـيـكـم رسـولاً شـارحـاً فـي الـرقّ حـالـي

(1) أي أنه يعتريه ويصيبه العطش، أي أنه حين يجف من المداد يترك الكتابة ويسكن/ أنظرها من المقامة المذكورة.
(2) حسن الدعابة/ ص47 - 48.

لأنشر من مطاوي الفضل عنكم　　بملتبسِ الاجابة عن سؤالي

فأجابه الشيخ عبد الرحمن المرشدي قائلا[1]:

سطور في طروس كالآلي　　أم الأيام نيطت بالليالي

حتى وصل إلى قوله الذي يرد به على ما طلب سائله فأوضح:

ونبدي في الخطاب جواب لغز　　به ألغزت ياعين الأهالي
فقد سرّحت طرف الطرف فيه　　ورضت أبيه الصعب المنال
فألفى الفكر أوّله محيطا　　وثانية يشير إلى اللّيالي
وثمّ بثالث مقياس موسى　　فكم تصيفه أعيا المعالي
قصير كأن جدع الأنف منه　　لأمرما نفاق على الطوال
لفيف وهو مفروق تراه　　وأجوف سالما من ذي اعتلال
صحيح حين تكسره، تجده　　يزد كماً وكفّ به نغالي
خطيب والسوَاد له شعارٌ　　إلى العبّاس يعزى أم لآل
يرى من قبل باريه وهذا　　وأيم الله من قسَم المحال
وكم عندي له وصف بديع　　ومعنى لم أضمنّه مقالي
لكوني بالأهمّ غدوت مغرى　　وعن فنّ المداعبة اشتغالي
ولولا خشية العزوى لعجزٍ　　لما أخطرته حيناً ببالي
فدونك نبذة فيها اكتفاءٌ　　لمن رام الجواب عن السؤال
وتأخير الجواب لعذر بأس　　أصاب جوانحي فأساء حالي
فكن لي عاذرا فالعذر بادٍ　　ومقبول لدى أهل المعالي
وصلّى الله ما خطّت سُطور　　بأقلام البلاغة في مجال
على طه ختام الرسل طرّا　　وأهليه الكرام أولى الجلال

(1) المرجع السابق/ ص48 - 49.

الفصل الرابع: مُلحق:

«نَظمُ لئالىء السّمط في حُسْنِ تَقويم بديع الخط»

للقسطالي

إستكمالاً للحالة المعرفية لمسارات تطور فنيّة الكتابة العربية وأدواتها، وتمشياً مع الحالة الموسوعية في بحثنا هذا، أضفنا «هذا الملحق» كتتمّة لموضوعة أدوات الكتابة في الثقافة العربية، إذ نُشاهد ونلمس التأثير الثقافي لمهنة الورّاقة العباسية حتى عصورٍ قريبة، فناظم هذه الإرجوزة «القسطالي» قد تُوفي سنة 1256هـ، أي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، الأمر الذي يشير بوضوح إلى هذا الإمتداد الثقافي حتى آننا المعاصر، وأردنا أن نضيف تلك المعلومات الواردة في الإرجوزة «للقارىء الكريم» لذلك أضيفت كملحق باعتبار أن محققها الأستاذ «هلال ناجي» كان الأسبق في نشرها في مجلة المورد - العراقية - العدد 4 عدد خاص بالخط العربي - الصادر عام 1986، وعلى الصفحات 173 - 184، ولذا توجبت الإشارة وفضل السبق.

نظم لئالىء السمط
في حُسْنِ تقويمِ بَديعِ الخَطّ
نَظَمَها سَنَة ١٢٢٤هـ
أبوُ العَبّاس أحْمَد بن مُحَمَّد الرّفاعي القَسطالي
المُتوَفّى سنة ١٢٥٦هـ

حقّقها هلال ناجي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي النص

مصنف هذه المنظومة أبو العباس أحمد بن محمد القسطالي المنتهي نسبه بسيدي أحمد الرفاعي الأندلسي الغرناطي القادم من العدوة الأندلسية.

وقد جمع شرف الأصل وشرف العلم فكان فقيهاً كاتباً شارك في كثير من الفنون ومن تصانيفه منظومته التي ننشرها اليوم أول مرة، وقد شرحها شرحاً حافلاً سماه «حلية الكتاب ومنية الطلاب».

وكان من شيوخه في هذا الفن السيد المعطى مريتو الرباطي والشيخ عبد السلام سباطة الأندلسي والشيخ الرهوني والقاضي ابن العروصي.

وكان المترجم ذا خط حسن في غاية الجودة، وكان في جملة كتّاب مولانا سليمان، وهو أخو السلطان مولاي هشام جد الأسرة المالكة الحالية في المغرب، وعينه لتعليم أولاده، ثم استعمله في ولاية فاس سنة 1232هـ ثم عزله لعجزه عن القيام بالخطة وولى مكانه الحاج محمد الصفار عام 1233هـ وبعد عزله عن ولاية فاس عاد لمرافقة السلطان أبي الربيع ثم السلطان مولاي عبد الرحمن وأولادهما إلى أن توفي سنة 1256هـ ﵀.

وقد ذكر الناظم في مقدمة شرحه أن سيد عمر بن سيدي المكي قد حضّه على نظم

هذه المنظومة في علم الخط، فكان لها قبول حسن في أقطار المغرب وشهرة واسعة، وكان الناظم شاعراً، فمن شعره يخاطب معاصره ابن عمرو الشهير قال:

لـمّـا ركـبـتَ مـن الـعـلـيـاء ذروتـهـا	الـمـجـدَ قـنْـتَـه، هـام الـورى فـيـكـا
وصرت تخطو السهى والشمس في شرفٍ	فـازداد غـيـظـاً لـمـا أولـيـتَ جـافـيـكـا
لا زال مـجـدك عـيـن الـعـزّ تـحـرسـه	والـسـعـد يـخـدمـه والله كـافـيـكـا[1]

مخطوطات الكتاب

اعتمدنا في نشرتنا هذه على مخطوطتين مغربيتين تضمهما الخزانة العامة في الرباط أولاهما: مخطوطة «حلية الكتاب ومنية الطلاب» المرقمة 254 د - الرباط وهو شرح للارجوزة.

يشغل نص الإرجوزة الصحاف 291 - 298 منها. وقد سميناها النسخة الأولى، والثانية: مخطوطة رقمها 1649 محفوظة في الخزانة العامة بالرباط تضمنت النص لوحده دون شرح، وقد سميناها النسخة الثانية.

وقد ثبتنا اختلاف النسختين في الهوامش.

وبعد: فهذا أوّل نص مغربي منظوم في الخط ينشر في زمننا هذا، وأني أهديه إلى صديقي المحقق المؤرخ المغربي الدكتورعبد الهادي التازي تحية أخوة موغلة عبر الزمن، وأسأل الله أن ينفع بها هواة الخط إن شاء الله.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

هذا نظم لثالي السمط في حسن تقويم بديع الخط للفقير المذنب الراجي عفو مولاه ورحمته أحمد بن محمد الرفاعي الحسني غفرالله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين.

1 - قـال الـرِفـاعـيُّ الـفـقـيـرُ أحـمـدُ	الله جـــل وتـــعـــالـــى أحْـــمَـــدُ
2 - مُـصَـلِّـيـاً عـلـى الـرسـولِ الـهـادي	الـمُـصـطـفـى سـيِّـد كـل هـاد

(1) انظر ترجمته في مخطوطة «الاغتباط في أعلام الرباط» وبعض أخباره في «الاستقعا» للناصري وكتاب «الجيش العرموم» لاكنسوس.

4 - رواية صدر البيت في النسخة الثانية: يقول نجل الرفاعي أحمد.

3 - وآلــهِ صــفــوة خــلــقِ الــلــهِ ... وصــحــبــهِ ذوي الــعــلا والــجــاه
4 - وبـعـد فـاعـلـم أنّ حـسـن الـخـطّ ... اجـل مـقـتـنـى وخـيـر اعـطـي
5 - فـكـم سـمـا إلى الـعـلا مـن رامَـهْ ... ونـال مـنـه الـعـزَّ والـكـرامـهُ
6 - وحـسـبـهُ أثـنـى عـلـيـهِ اللهُ ... فـي الـذكـر بـالـحـكـمـةِ واجـتـباهُ
7 - بـقـولـه: يـزيـد مـا يـشـاءُ ... فـي خـلـقـه ويـؤتـي مـن يـشـاء
8 - وهـو مـا اخـتـصّ بـه الانـسـانُ ... كـالـعـقـل يـشـهـد بـذا الـعـيـانُ
9 - وأنـنـي لـمـّا رأيـتُ الـنـاسـا ... قـد شـربـوا مـن الـونـى أكـواسـا
10 - وقَصُرَتْ هِمَمُهمْ وما اعتنى ... بـالـخـطّ مـنـهـم أحـدٌ ومـا اقـتـنـى
11 - وهـجـروا سـرّه دون عـذرِ ... ونـبـذوه مـن وراء ظـهـرِ
12 - وأعـرضـوا كـل الاعـراض عـنـه ... ومـا رووا مـمـّا رويـت مـنـه
13 - حـتـى غـدا بـغـربـنـا مـفـقـودا ... وكـاد لـم يـكـن بـه مـوجـودا
14 - قـمـتُ لـذا نـظـمـتُ فـيـه ارجـزه ... قـريـبـة ألـفـاظـهـا ومـوجـزه
15 - سمّيتها «نظمُ لئالي السمطِ ... في حسن تقويم بديع الخطّ [291]
16 - قَلّدْتُها الجيدَ من الولدان ... زيـدةٌ فـي الـحـسـنِ والـمـعـانـي
17 - ولـلـمـؤدّبـيـن تـاجـاً قـد عـلا ... رؤوسَـهـم فـخـيـرهـم قـد كـمـلا
18 - نظمتها على ما بي من عيب ... مُـبْـتَـغِـيـاً بـهـا رضـاءَ الـربِّ
19 - والله أرجـو أن تـكـون نـافِـعَـهْ ... لـي ولـهـم وكـلّ خـيـرِ جـامِـعَـهْ

---

4 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: للظرف والذكا غدا كالشرط.
8 - البيت ساقط من النسخة الثانية.
10 و11 - البيتان ساقطان من النسخة الثانية.
12 - رواية العجز في النسخة الثانية: ويئسوا كل الخيرات منه.
13 - رواية البيت في النسخة الثانية:
حـتـى غـدا بـغـربـنـا كـالـعـنـقـا ... يُـسـمـع فـي الـورى ولـيـس يُـلـقـى
14 - رواية العجز في النسخة الثانية: الفاظها قريبة.
16. رواية البيت في النسخة الثانية:
جـعـلـتـهـا لأصـغـرِ الـولـدان ... تَـبْـصِـرَةً رائـقـة الـمـعـانـي
17 - البيت ساقط من النسخة الثانية.
18 - صدر البيت في النسخة الثانية: نظمتها خالصة من قلبي.

20 - [ومن يريدها من المؤدّبين ... والمؤمنين وجميع المسلمين]

تقويم السطور وتسويتها

21 - السطرفي اصطلاحهم خطٌّ وَصَلْ ... ما بين نقطتين عن ذاك حصلْ
22 - وكونه خطاً رقيقاً صافياً ... مستحسن ولا يكون خافيا
23 - بحيث يرشد البنان لالتئامْ ... تلك الحروف في اتساق وانتظامْ
24 - كسلك عِقْدٍ من لئالي الدّرِ ... في جيد لبّات ذواتِ الخِدْرِ
25 - فإن أضفته وصار اثنينِ ... فاجعلهما إذاً مُوازيينِ
26 - وإنْ جمعتَ فكذاك والتزمْ ... تساوي كلهم وعَدِّلْ واحتكمْ

تقويم القلم وكيفية قبضه

27 - من قَصَبٍ يكون فَهْوَ خَيْرُ ... مِنْ ذَهَبٍ وذاك فيه سِرٌّ
28 - وانحُ برأسِهِ أعالي القَصَبَهْ ... مصطفيا له أجلّ انبوبه
29 - كالرمح في التقويم حادّ الراس ... سليق صَدْرٍ لا ترى من باس
30 - ذا فضلةٍ من لحمِهِ وقشرته ... بذاك تعجبُ إذاً من جرْيَتِهْ
31 - وسَوِّ في البَرْي جَريدَ نَيْهِ ... من غير مَيْلٍ نحو حافتيه
32 - وإنْ ارَدْتَ أَمْنَهُ من كَسْرِ ... وقتَ الكتابةِ يميناً أجْرِ
33 - وبعضُهم إلى اليسار ينحرفْ ... لحكمةٍ زائدةٍ بها عُرِفْ

---

20 - البيت زيادة من النسخة الثانية لذا وضعناه بين عضادتين.
21 - رواية العجز في النسخة الثانية: ما بين نقطتين امتدَّ واتصل.
23 - رواية البيت في النسخة الثانية:
وكونه خطا رقيقا خفيا ... مستحسن ولا يكون واهيا
26 - رواية العجز في النسخة الثانية: فذاك ملتزم.
28 - في النسخة الثانية: أجلُّ انبيه.
29 - في النسخة الثانية:
كالرمح في القوام حاد الراس ... طويل صدر مفتض للباس
32 - البيتان 32 و33 موضعهما بعد البيت 37 في النسخة الثانية.

34 - وقبضةُ القلم شيءٌ مُعْتَمَدْ   فاعنَ بها فانّها أمرٌ أكد [393]
35 - فَصَفِّفَ الأربعَ من بنانِكْ   منعطفاً بها إلى جنانكْ
36 - واقرن إبهامك براس الشاهدْ   كحلقةٍ واجعله خير راشد
37 - بينهما معتدا على الوسط   لاكن على راسه والشد وسط

الدواة وما يتعلق بها

38 - يقال للدواة نون «والرقيم»   هكذا أُلْفِيَ بدفترٍ قديمْ
39 - جمع دَواتٍ دَوَيات نادوا   وهي التي يُرى بها المداد
40 - وان أُليقت فهي من مليقه   وصُوفة المدادِ هي اللّيقة

تقويم الحروف القائمة

41 - أول ما يبدو من الحروف   ألف قائمٌ بين الصفوف
42 - أجل ما انتصب واستقاما   وخير خطّ في اعتدالٍ قاما
43 - الألِفُ الحائزُ قصب السبْقِ   بسجدةٍ سَجَدَها للحقِّ
44 - يشهدنا بأن الله واحدُ   ما إن له من وَلَدٍ ووالدْ
45 - واللاّم مثله بلا تناه   وارسم كذاك بإسم الله
46 - واتبعنْ في الوصف هاء واقفهْ   وهي لاسفل اليسار عاطفه
47 - كالها من الحياة في الوقف ولا   تجعل انبويا فَحَسِّن عملا

---

36 - الشاهد: معناه راس السبابة لكونه هو الأصبع المتحرك عند التشهد في الصلاة. ورواية العجز في النسخة الثانية: خير زائد.

37 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: لكن على رأسه انحط وانبسط.

38 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: كذاك أُلفي.

39 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: وهي التي يلقى.

41 - البيت زيادة من النسخة الثانية ولا وجود له في الأولى.

42 - البيتان 42 و43 ساقطان من النسخة الثانية.

45 - رواية صدر البيت في النسخة الثانية: اللام مثله في الاشتباه.

46 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: تكون من أسفلها منعطفه.

47 - بعد البيت السابع والأربعين أربعة أبيات في النسخة الثانية لا وجود لها في الأولى وهذا نصّها: =

48 - ودون ذي الحروف في القيام با   وتـا وثـا والـيـا ونـون نـسـبـا
49 - والسيّن والشين كذا ولهما   ثلاث أسنان لكلّ منهما
50 - وأظهرِ السيّن كما في الخبرِ   واتبع الشيّن لها في الأثَرِ
51 - واستحسنوا إلتواء رأس اللاّمِ   ورأس اولى السين خُذْ نظامي

تقويم الحروف المفتوحة

52 - الميم دائرة تامة بدتْ   صغيرة على بياضٍ احتوتْ
53 - فإن تكن صدرا فنصف دائره   وترها السطر ووسطى دائره [293]
54 - لاكن ذي فوق وتحت جاليَةْ   والسطر قطرها وحتى التاليه
55 - ومثل ميمٍ أوّل السطر ترى   واو باليمين قوسه جرى
56 - والفاء مثل الميم أيضاً جاءتْ   لاكن لها ساق عليها قامتْ
57 - قد وصلت بالسطر والقاف الوسطْ   كذا وان اخرتها دع النُقَطْ
58 - والساق منهما كقوس ظهرت   من يمنة الوتر للسطر جرت

= هاذي حروف قائمات غايةُ   وهي بين السطور مثل الرايه
ودونها في الوصف باءٌ مطلقةْ   والنون والياء الغير مُفَرَّقة
ومثل ذاك التاء قُلْ والثاءُ   والسين والشين كذاك جاءوا
لكنّ كلّ واحدٍ من ذينِ   ثلاث أسنانٍ بدون مَيْنِ

48 - هذا البيت ساقط من النسخة الثانية.
49 - البيت ساقط من النسخة الثانية.
50 - بعد البيت الخمسين بيت في النسخة الثانية ساقط في الأولى ونصّه:
وكلها في الوصف ثلث اللام أو ربعه فامشِ على نظامي
51 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: ورأس أولى السين بالتتام
52 - رواية البيت في النسخة الثانية:
الميم دارة قل صغيره   جداً ولا تُلفى قُط كبيره
53 - رواية صدر البيت في النسخة الثانية:
فإن ترى أولى فنصف ذاك
54 - رواية البيت في النسخة الثانية:
لكن ذي أعلى وتحت جاليه   يقطرها السطر وحتى التاليه

59 - وهاء يا أيّها قُلْ دائرتين صغرى بوسط كبرى متصلتين
60 - وأيّه الساحر كالمثلّث حُدثْ زوايا، فَكُنْ ذا باعث
61 - وهكذا الهاء من اسم الجلالةْ فاعنِ بفتحها تحز جلاله
62 - وخذ من الدائرة العظيمةْ ثلثها لصادٍ مستقيمه
63 - والضاد والظاء كذا والطاءِ وذان خطٍّ لهما وفاء
64 - والسطر هو وَترٌ للكُلِّ إيّاك أن تحيد عن ذا الاصل
65 - والعين إنْ تَكُ بِوَسط الكلمةْ مثلث الزوايا ليست قائمه
66 - ساقاه بالجنب واعلى قاعده وصله بالسطر وصُنْ ذا الفائده
67 - كذاك إنْ تك أخيرة وَرُدْ تعريقها نحو اليسار فلتُقَدْ

تقويم الحروف المشقوقة

68 - الدال شكلها كقوس فاعلما وقطرها إلى اليسار بمّما
69 - حتى إذال جاز محيط قوسه تنابزا به لنحوٍ عكسه
70 - وبعضهم يجعلها كطائره لها جناحان وصدر طايره
71 - والذال مثلها يزيد نقطه بوسط القوس ترى منحطّه

---

59 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: صغرى في وسط كبرى أي موصولتين.
61 - رواية البيت في النسخة الثانية:
أعني كالها من اسم الجلاله فاعن بفتحها تكسى حلاله
62 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: وذان بالرقبة حقاً جاءوا.
65 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: الغير القائمه.
66 - رواية صدر البيت في النسخة الثانية: والأعلى قاعده.
68 - البيت ساقط من النسخة الثانية، وبعده بيتان في النسخة الثانية لا وجود لهما في النسخة الأولى وهما:
الدال يظهر كشبه القوس محيطها شزر البسار فاكس
وراسها اليمين أعني الاسفلا قرت بالسطر ومبرة تلا
69 - رواية البيت في النسخة الثانية:
حتى تجاوز محيط قوسه منعطفاً بذلك لعكسه
70 - رواية الصدر في النسخة الثانية: كالطائرة.
71 - رواية الصدر في النسخة الثانية: قد زاد نقطة.

72 - والياء من«الذي»كذاك لاكن ... معكوسةً بدون نقط كائن [294]
73 - وقد يُرى دال كراءٍ رفعا ... رأس له ما إنْ تَراه مُنِعا
74 - كدال مَهْدٍ ومُحَمَّدٍ وما ... اشبهه والذي خبرا قدَّمَا
75 - والكاف فوق السطرخط ائتُلِفْ ... به مُوازٍ له طوله ألف
76 - مُتَصِّلاً بقوس ربع دائرهْ ... تحيط لليسرى وقيت الدائره
77 - وابداهُ من أعلاه غير قاسمْ ... له وثغره الزهي باسمْ
78 - والعينُ قوسٌ تنتمي للكبرى ... محيطها مُحَدَّبٌ لليسرى
79 - طَرفُها الأسفلُ بالسطر اتّصَلْ ... ومنه خطّ لليسارِ قد وَصَلْ
80 - وذا إذاكانت في الخط صدرا ... كعين عبلا وكعين عذرا
81 - وغين غيب وبنقطة جلا ... كفلك كوكبُهُ الأوْجَ علا
82 - وشطر سين حَرْبة للرايةْ ... جيمْ بدا حقّ له درايه
83 - والحاء والخاء كذاك الْحِقَنْ ... مُفَرّقاً لراسها أو الْصِقَنْ
84 - واختر من الوجهين أولهما ... فهوالذي تجده افضلهما

تقويم الحروف المعرقة

85 - الراء قوس وهي ربع دائره ... راسها بالسطر وتحت سائره
86 - واحكم كذا للزاي واجعل نُقْطَتَهْ ... ظاهرةً فوق وعَدِّل صُورَتَهْ
87 - والنون في التعريق نصف دايره ... ليس لها قرنٌ للأعلى ظاهرهْ
88 - وامنع أخيرها لئلا يَتَّصِلْ ... بالسطرواجعله قريباً مُنْفَصِلْ
89 - والّلام والقاف كذا والياءْ ... ما بين سطريها لها إنتهاءْ
90 - بحيث إن وقع تحتها ألِفْ ... لم يختلط معها وذا حُكْمٌ أُلِفْ
91 - وارفع قرين الياء كالمثلثِ ... واعطف وعرّق وعن الشيخ ابْحَثِ [295]

---

76 - رواية البيت في النسخة الثانية: دائرة قطرها كالدال وقيت دائرة.
80 - رواية العجز في النسخة الثانية: كعين عند وكعين عذرا.
84 - رواية العجز في النسخة الثانية: تلفيه أفضلهما.
86 - رواية العجز في النسخة الثانية: وبيّن صورته.
87 - رواية العجز في النسخة الثانية: بأعلى شائره.

92 - والسين والشين إن كانا طَرَفًا كالياءِ في الرفع وَدَعْ ما انعطفا
93 - والصاد والضاد كنونٍ مُسِحا وازْدُدْ عنانَ قلمٍ إنْ جَمَحا
94 - ونونٌ إنْ قَرَّبْتُ منها أُخرى أو شبهها فلْتَك أمُّ الأخرى
95 - ولا تُقاطعْ أو تُطابقْ حَرْفَنا لآخرٍ فذاك شينٌ يُلْقى
96 - والحاءُ والجيمُ والخا إنْ عُرِّقتْ فَثُلْثُ قوسٍ لليسار رَجَعَتْ
97 - ومثلُها عَيْنٌ وغَيْنٌ وقَعَا في طَرَفٍ من غيرخَلْفٍ فاسمعا

تقويم لام الألِف

98 - خَطّان رأساهُما قد تُقَرّفا واتُطِعا من أسْفَلٍ واعتنقا
99 - واجتمعا فاعجب لقاطعينِ مجتمعين متعانقينِ
100 - وإنْ لويت رأسَ كُلٍّ منهما أو واحدٍ أحْسَنْ من تركهما

تقويم حروف التركيب

101 - واحرف التركيب عند الكَتَبَةْ جيم وحا وخا كخاء الخَشَبَةْ
102 - وكمحمّد وكالجنّاتِ ما قبلها فوق السطور ياتي
103 - مُتَصِلاً بغيرِ رَفْعٍ يبدو لراسها فذاكَ فيه قَيْدُ
104 - كذاكَ إنْ حرفان قبلُ سَبَقا كحاءِ سَبِّحْ واعطف وعرّقا
105 - وبعضهم السينُ في السطرِيَضَعْ كالشيخ مروان والبا قد رَفَعْ
106 - ويجري ذا في حاءٍ مصبحينَ والصالحاتِ وكمصبحينَ

---

92 - رواية الصدرفي النسخة الثانية: إن كانت طرفا.
93 - رواية العجز في النسخة الثانية: قد جمحا.
94 - رواية البيت في النسخة الثانية: ونون قد..... قلب الاخرى.
96 - رواية البيت في النسخة الثانية: والجيم والحاء.... فُتِحَتْ.
97 - رواية العجز في النسخة الثانية: في طرف وقد مضى ذا فاسمعا.
103 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: لراسها واعطف للسطر واحْدَ.
104 - رواية العجزفي بالنسخة الثانية: واجبد وعرقا.
106 - رواية البيت في النسخة الثانية: مصبحينا... كمصلحينا.

107 - وحاءُ حمرا قد تُرى مُرَكَّبَهْ علـى تيـك المـيـم رواهُ الكَـتَـبَـهْ
108 - وراءها ركب واعل الطرفا منـهـا وذاك حَسَـنٌ قـد وُصِـفـا
109 - واللامُ مِنْ عَلى وصلّى وَبَلى فوق قرين الياء سِرّهُ اجتلى [296]
110 - وحاز هذا السرَّ بين الناسِ أنـدلـسٌ ولـم يـكـنْ بـفـاسِ
111 - وفاءُ جَرٍّ إنْ تكنْ مقطوعهْ محمولة وقد تُرى موضوعهْ
112 - كفاءِ في الأرض وفي الجنّات محـمـد مـع آلـه الـثـقـاتِ
113 - وياء يرتضي اجعلنْ في السطرِ وفـوقـهـا مـا قـبـلـهـا فَـلْـتَـدْرِ

إلتساق الحروف وانتظامها

114 - قد مثلّوا الحروف بالجواهرْ والمنظر بالسمط وهذا ظاهر
115 - بَلْ للحروف عندهم استمرارْ أوْدِعَهـا مـن الـورى المـخـتـارْ
116 - فإن كتبتَ فاجعل الحروفا في وسط السطْر ولا تحيفا
117 - وسوِّ ما بين الحروف في النظامْ من غيرزيدٍ يبدو أو نقصٍ يُرامْ
118 - سيّان ما قد كان منها متصل بغيره أو كان عنه منفصل
119 - وذا المسمى عندهم في الأصلِ بالنظم إلا إنْ يكن كالفَصْلِ
120 - وقائم الحروف سوّ قامتهْ مع أخيه واحذرَنْ تفاوتَهْ
121 - بحيث لو أتت عليه مسطره مرّت براسهم غير مسفره
122 - والزم أخي حروفَ ربع الدائره ما بين سطريك اجعلنه آخره
123 - كذاك في التعريق ميمٌ تاليَهْ فهي من أقطاب الحروف العاليه
124 - إن التزمتَ ذا بخطّك ترى سراً وهو معنى قصّر من روى

---

107 - رواية العجز في النسخة الثانية: من فوق ميمها رواه الكتبه.
114 - رواية البيت في النسخة الثانية: للجواهر... وذاك ظاهر.
117 - رواية العجز في النسخة الثانية: من غير زيد يلفى.
122 - رواية عجز البيت في النسخة الثانية: واجعله آخره.
123 - رواية العجز في النسخة الثانية: لكن قطريها من أعلى دآنيه،
وبعدها بيت في النسخة الثانية لا وجود له في الأولى ونصه:
وقد تعرق الأبسر على شرط بأن ترى كميمٍ أولا

125 - وقد يزيد الخطَّ حُسْناً حرفُ إذا التوى يُحار فيه الوصفُ
126 - كطاء سلطان سطا وَلَطُفا خطه واصطفى وطاء لطفا
127 - وهاء هادٍ وبهاء استحسنوا إلتواءها ومذهبي قد احسنوا
128 - لاكنّ في التوائها تفصيلا فاشرب إذا ما شئت سلسبيلا [297]
129 - كما لوى الشيخُ الوزيرُ الكاتبْ كافَ هنالك لله كاتبْ
130 - والخط أنواعهُ لا تنحصرُ أفرادها يَقْصُرُ عنها الخَبَرُ
131 - لاكن خيره الذي انتمى إلى أندلسٍ فَسَرُهُ قد اجتلى
132 - واقتبسوا من نورهم أهل (سُلا) فخطّهم قدما ووقتا قد غلا
133 - كابن الفقيه المرتضى الجريري وكالسوسي ذي البها المنيرِ
134 - فضّل هذا مولانا الامام عن غيره «سليمانُ» الهمام
135 - واشتهرت به رباطُ الفتحِ عند أناس منحوا بفتحِ

---

126 - رواية البيت في النسخة الثانية: سلطان سما.... خطه وازدهى.
127 - رواية البيت في النسخة الثانية: وبهاء حسّنوا إذا التوى.
129 - في النسخة الثانية يقع البيت 137 بعد هذا البيت المرقم 129.
131 - رواية العجز في النسخة الثانية: أندلس فحسنه.
132 - الأبيات من 132 - 136 ساقطة من النسخة الثانية.
133 - سَلا: مدينة مغربية معروفة. .وابن الفقيه المرتضى الجريري والسوسي: قال الناظم عنهما في شرحه ما نصه: «إن أهل سلا اقتبسوا من خط أهل الأندلس سراً ونوراً من قديم وفي وقتنا هذا علوا به وسموا على كل خط له سر وبهاء. وذلك كخط الفقيه العلامة النحرير الاديب النبيه الشهير أبي عبد الله سيدي محمد بن الفقيه الجريري النسب السلوى الدار رحمه الله فإن خطّه كان شبيهاً بخط أهل الأندلس في غاية الإبداع والترقيم، وكخط الفقيه العدل البركة سيدي محمد فتحا ابن علي السوسي النسب السلوى بالدار رحمه الله كان خطه في غاية الحسن وغاية التهذيب والتنقيح عليه طلاوة وبهجة، تفرَّدَ بذلك وليس في وقتنا من يلحق شاوه ولا يَدعي ذلك لما خصه الله به من البهاء والنور وكمال الصناعة الهندسية في الكتابة من النظم والاتساق وبديع التركيب وفي غاية التساوي في الأبعاد، يسحر الناظر ويأخذ بالخاطر رحمه الله.
134 - الإمام سليمان: هو أخو السلطان مولاي هشام الذي هو جَد الاسرة المالكة الحالية في المغرب.
وكان الإمام سليمان المذكور قد جمع خطوط أهل مدن المغرب وانتقدها فتخير منها خط أهل سلا ورباط الفتح، ثم من هذين اختار خط السوسي هذا رحمه الله.
135 - رباط الفتح: عاصمة المملكة المغربية

136 - وأرجو ربّي أن أكون منهمُ / فينظموا جوهري في سلكهُمُ
137 - والسرُ في الشيخِ لا بُدَّ منهُ / فبه قسمو فابحثن عنه
138 - وهذه النبذة فيه كافيه / طالبها يجني بها أما لِيَةٌ
139 - نظمْتُها غُرةَ شُكرٍ لامعه / مع أربعٍ من السنين واقعه
140 - أبياتها قوم قد احتووا على / سرٌ وادركه من تَبَتَّلا
141 - وهاهنا قد تمَ ما قصدتُ / من صنعة الخط كما أردتُ
142 - وذاك مع جهلي الذي اتّسمْتُ / به وفرقتي لمن أحْبَبتُ
143 - وأسئل الرحمان جمع الشمْلِ / بالأهل والمنشا وكل أمل
144 - والختم بالحسنى مع الزيادة / بجاه طه صاحب السيادة
145 - محمدٍ نبيّنا المختارِ / شفيعنا من زفرات النارِ
146 - صلّى عليه ربنا وسلما / وآله ماسحّ سَحبٌ وهمَا
147 - وصحبه ذوي العلا ومن تلا / فنال من حسن الختام آملا

كملت بحمد الله وعونه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين(*) [298].

---

139 - رواية العجز في النسخة الثانية: مع سنة بعدها هي رابعة، وهذا البيت يؤرخ تاريخ نظم هذه القصيدة، يقول الناظم: نظمت هذه القصيدة غرة عام شكر. الشين بألف، والكاف بعشرين والراء بمائتين، وقوله: مع أربع من السنين واقعه، أي يزداد على عدد لغز شكر أربع سنين مرّت ووقعت بعد هذا العدد ومجموع ذلك 1224 من تاريخ الهجرة النبوية الشريفة، وقوله: غرة، أي في شهر محرم.

140. رواية البيت في النسخة الثانية: أبياتها يقوى بها الذي (. . . . .) إلى الكتابة عليها وسما.

وفي البيت لغز أيضاً يقول الناظم: إن عدد أبيات هذه الارجوزة هو العدد الواقع على هذه الحروف الثلاثة (قوم)، القاف بمائة والواو ستة والميم أربعون، فمجموع ذلك مائة وستة وأربعون هذا هو عدد أبياتها. ثم وصف هذا اللغز بقوله: احتووا على سر يعني أن قومها أي الطالبين لها إذا حصلوا هذا احتووا على سرها، وأدرك هذا السر من انقطع إلى معرفته وتحصيله.

142. رواية العجز في النسخة الثانية: لما أجلت.

(*) عبارة الختام في النسخة الثانية كالآتي:
إنتهت بحمد الله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد بدءاً وختاماً. .

مصادر بحث - ج1 - المقدمات الحضارية والتاريخية

- أ -

1 - الأبشيهي: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح.

* المستطرف في كل فنٍّ مستظرف - منشورات دار الفكر - بيروت، والمطبعة الميمنية بالقاهرة 1314هـ.

2 - إبن الأثير: عز الدين أبو المحاسن علي بن أبي الكرم الشيباني.

* الكامل في التاريخ - 12 مجلد - منشورات دار صادر، بيروت 1385هـ/ 1965م.

3 - الأزدي: أبو المطهّر محمد بن أحمد.

* حكاية أبي القاسم البغدادي، تحقيق آدم ميتز، طبعه هايدلبرغ، سنة 1902م.

4 - الأصفهاني: حمزة،

* تاريخ سني ملوك الأرض - منشورات مكتبة الحياة - بيروت 1961م.

5 - الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم بن عبد الرحمن.

* كتاب الأغاني - 24 مجلد - طبعة دار الكتب المصرية - ط1، وطبعة أحمد الشنقيطي - القاهرة - 1345هـ/ 1927م.

6 - إبن أبي أُصيبعه، موفق الدين، أبو العبّاس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي.

* عيون الأنباء في طبقات الأطباء - تحقيق نزار رضا - منشورات مكتبة الحياة - بيروت 1965م.

7 - إخوان الصفاء: رسائل إخوان الصفا وخلاّن الوفا.

* تحقيق - خير الدين الزركلي، طبعة مصر - عام 1347هـ/ 1928م.

8 - أمين: نضال عبد العالي.

* أدوات الكتابة وموادّها في العصور الإسلامية - دراسة نشرت في مجلة المورد - العراقية. عدد خاص بالخط العربي - العدد 4 - المجلد 15، السنة 1407هـ/ 1986م.

- ب -

9 - براندت: د. إيفلين كلينكل.

* رحلة إلى بابل القديمة - ط1 - دمشق 1984م.

10 - البُحتري: أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي.

- *ديوان البحتري - 4 أجزاء - تحقيق حسن كامل الصيرفي. منشورات دار المعارف بمصر 1963م.

11 - البخاري: أبو عبد الله محمد بن اسماعيل

* صحيح البخاري - 8 أجزاء - طبعة القاهرة 1315هـ.

- بروين: بدري توفيق.

* تحقيق مخطوطة - أنواع اللّيق وكيفية إعمالها - نشرها في مجلة - المورد - العراقية، العدد 4 مجلد 14، السنة 1985م.

12 - بيدرسون، يوهانس.

* الكتاب العربي منذ نشأته حتى عصر الطباعة، دمشق، 1989م، ترجمة د. حيدر غيبة.

13 - بيلاّ، شارل.

* النشر العربي في بغداد - دراسة نشرها في مجلة المورد - العراقية، عدد خاص عن بغداد - العدد 4 - مجلد 9 - عام 1400هـ/ 1979م.

- ت -

14 - التنوخي: القاضي أبو المحسن الحسن بن علي «البصري»

* نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة - 8 أجزاء - تحقيق عبود الشالجي، بيروت - 1391هـ/ 1971م.

15 - التوحيدي: أبو حيّان علي بن محمد بن العبّاس.

* رسالة في الصداقة والصديق - تحقيق د. إبراهيم الكيلاني، منشورات دار الفكر - دمشق 1964م.

16 - الإمتاع والمؤانسة - 3 أجزاء - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1939م. ؟

17 - مثالب الوزيرين، تحقيق د. ابراهيم الكيلاني - دمشق 1965م.

18 - أبو تمّام: حبيب إبن أوس الطائي.

* ديوان أبي تمام - 4 أجزاء - شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبدو عزام منشورات دار المعارف المصرية - القاهرة 1964م.

- ث -

19 - الثعالبي: أبو منصور عبد الملك النيسابوري.

- 1. يتيمة الدهر - 4 أجزاء - طبعة الصاوي المصرية - سنة 1352هـ/ 1934م.

- 2. لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي، طبعة البابي الحلبي - القاهرة - 1960م.

21 - ثعلب: أبو العبّاس يحيى بن زيد بن سيّار الشيباني.

* مجالس ثعلب - تحقيق عبد السلام هارون - منشورات دار المعارف بمصر.

- ج -

22 - الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب.

- 1. كتاب الحيوان - 7 أجزاء - تحقيق عبد السلام هارون، طبعة البابي الحلبي المصرية.

- 2. التاج في أخلاق الملوك - تحقيق أحمد زكي باشا - ط1 - القاهرة، سنة 1346هـ/ 1927م.

- 3. رسائل الجاحظ - جزءآن - تحقيق عبد السلام هارون - منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة 1384هـ/ 1965م.

- 4. البيان والتبين - 3 أجزاء - تحقيق عبد السلام هارون - منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر - ط1 - القاهرة 1367هـ/ 1948م.

26 - جبري، شفيق.

* الجاحظ معلم العقل والأدب - دمشق 1962م.

27 - الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن.

* أسرار البلاغة - تحقيق هيلموت ريتر - استانبول 1954م.

28 - إبن الجهم - علي، الشاعر العبّاسي.

* ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك، منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق 1369هـ/ 1949م.

29 - جواد - د. مصطفى - وأحمد سوسة.

* دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً، مطبوعات المجمع العلمي العراقي - بغداد، 1378هـ/ 1958م.

30 - إبن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي.

- 1. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - 10 أجزاء - ط1 - حيدر آباد 1358م.

- 2. مناقب بغداد - تحقيق محمد بهجت الأثري، منشورات مطبعة دار السلام - بغداد 1342هـ.

32 - الجبوري - سهيلة

* الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق - بغداد سنة 1381هـ/ 1962م.

- ح -

33 - الحريري: أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري الحرامي.

* مقامات الحريري - الطبعة الحسينية بمصر 1348هـ/ 1929م.

34 - الحموي - إبن حجّة، تقي الدين أبو بكر علي بن محمد.

* ثمرات الأوراق في المحاضرات، منشورات دار الفكر - بيروت بدون تاريخ.

35 - الحموي: د. خضر.

* التفاعل القانوني في حوض البحر الأبيض المتوسط، دراسة مقارنة للقوانين منذ 5 آلاف سنة، بيروت 1996م، طبعة خاصة بالمؤلف.

36 - الحموي - ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي.

- 1. معجم الأدباء - 20 جزءاً - تحقيق أحمد فريد رفاعي - منشورات دار المأمون المصرية، 1357هـ/ 1938م.

- 2. معجم البلدان - منشورات دار صادر - 8 أجزاء - بيروت 1374هـ/ 1955م

- خ -

38 - خاليدوف، المستشرق الروسي - أنس باقيفيج - بالروسي .(X. A. B)

* دراسات في تاريخ الثقافة العربية - منشورات معهد الإستشراق الروسي - موسكو - 1982م.

39 - خسرو - ناصر، الرحالة أبو المعين القُبادياني المروزي.

* سفر نامة - ترجمة وتحقيق د. يحيى الخشّاب - ط1 - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة عام 1364 هـ/ 1945 م

40 - الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي.

* تاريخ بغداد - 14 مجلد - ط 1 - منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد، ومطبعة السعادة بمصر - 1349هـ/ 1931م.

41 - إبن خلدون: العلامة عبد الرحمن بن محمد المغربي.

* مقدمة إبن خلدون - منشورات دار إحياء التراث العربي - بيروت بدون تاريخ.

42 - إبن خُلّكان - أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - 8 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر - بيروت - بدون تاريخ.

- د -

43 - دائرة المعارف الإسلامية - ترجمة أحمد الشنتاوي وجماعته - 20 مجلد -.

44 - الدوري - د. عبد العزيز.

- 1. مقدمة في التاريخ الإقتصادي العربي - ط2 - بيروت 1978م.
- 2. تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري - منشورات مطبعة المعارف - بغداد - 1367هـ/ 1948م.

46 - ديمتريفا - ل. ف - المستشرقة الروسية.

* المخطوطات من الكتب التركية والعربية - بحث منشور في «مخطوطات الكتب في ثقافة الشعوب» منشورات معهد الإستشراق - موسكو 1987م.

- ذ -

- لا يوجد

- ر -

47 - إبن رُسته: أبو علي أحمد بن عُمر.

* الأعلاق النفيسة - طبعة ليدن 1891م.

48 - رشيد، د. فوزي.

* الشرائع العراقية القديمة - منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية - مطبعة الرشيد - بغداد 1979م.

49 - رضا: الشيخ أحمد.

* متن اللغة، منشورات مكتبة الحياة - بيروت 1377هـ/ 1958م.

50 - إبن الرومي: أبو الحسن علي بن العبّاس بن جريج «الشاعر».

* ديوان إبن الرومي، تحقيق د. حسين نصّار - منشورات دار الكتب المصرية - القاهرة، 1974م.

51 - الرفاعي: د. أحمد فريد.

* عصر المأمون - 4 أجزاء - ط1 - منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة 1346هـ/ 1927م.

- ز -

52 - الزبيدي: محب الدين أبو الفيض السيد مرتضى الحسيني الواسطي.

- 1. حكمة الإشراق، تحقيق عبد السلام هارون، من نوادر المخطوطات المجموعة 5 - ط1 - منشورات مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد سنة 1373هـ/ 1954م.

- 2. تاج العروس - ط1 - المطبعة الخيريّة بمصر، سنة 1306هـ.

53 - الزفتاوي: محمد بن أحمد

* منهاج الإصابة في معرفة الخطوط والكتابة - تحقيق هلال ناجي نشرها في مجلة - المورد - العدد الخاص بالخط العربي - عدد 4 - السنة 1986م.

54 - الزجّاجي: أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق.

* مجالس العُلماء - تحقيق عبد السلام هارون - الكويت 1962م.

55 - الزركلي - خير الدين.

* الأعلام - 8 أجزاء كبيرة - ط5 - دار العلم - بيروت 1980م.

56 - زيّات: حبيب.

* الوراقة والورّاقون في الإسلام - منشورات المطبعة الكاثوليكية - بيروت 1947م، بحث قصير نشر في مجلة المشرق لعام 1947م.

57 - زين الدين - المهندس ناجي المصرف.

- 1. مصوّر الخط العربي، منشورات المجمع العلمي العراقي ببغداد 1388هـ/ 1968م - ط1 منشورات مكتبة النهضة ببغداد - ط2 - 1974م.

- 2. بدائع الخط العربي - وزارة الإعلام العراقية - بغداد 1973م.

- س -

59 - السّرّاج: الشيخ أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين.

* مصارع العشّاق - ط1 - مطبعة الجوائب - القسطنطينية 1301هـ.

60 - سعد: فهمي عبد الرزاق.

* العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، منشورات الدار الأهلية للتوزيع - بيروت 1983م.

61 - السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي.

* الأنساب - 10 أجزاء - تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني منشورات محمد أمين دمج - بيروت. بدون تاريخ.

62 - السوداني: د. مزهر.

* جحظة البرمكي، حياته وشعره - طبعة النجف العراقية - ط1 - 1977م.

63 - سيبويه: أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر.

- * كتاب سيبويه - تحقيق عبد السلام هارون - طبعة عالم الكتب، بيروت. بدون تاريخ.

64 - السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن الشافعي.

- 1. تاريخ الخلفاء - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - ط 1 - مطبعة السعادة بمصر 1371هـ/ 1952م.

- 2. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - ط 1 - مصر 1326هـ.

- 3. الأشباه والنظائر - 3 أجزاء - طبعة حيدر آباد - سنة 1360هـ.

67 - ستيبتشيف - د. الكسندر.

* تاريخ الكتاب - جزءان - ترجمة محمد الأرناؤوط، منشورات الكويت 1993م

- ش -

68 - الشابشتي: أبو الحسن علي بن محمد.

* الديارات - تحقيق كوركيس عوّاد - مطبعة المعارف - بغداد 1951م.

69 - الشوك: د. علي.

* المدارس السومرية وتعليمها - مقال - جريدة الحياة ليوم 14/ 3/ 2006م.

- ص -

70 - الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى الشطرنجي الكاتب.

- 1. الأوراق - أو - أخبار الراضي والمتقي - جزءان - تحقيق ج هيورث، دار مطبعة الصاوي بمصر - ط 1 - 1934م.

- 2. أدب الكتّاب - تحقيق محمد بهجت الأثري، منشورات المكتبة العربية ببغداد والمطبعة السلفية بمصر - 1341هـ.

- ض - و- ظ -

- لا يوجد

- ط -

72 - الطائي: د. محمد باسل.

* توزيع الكون بين الغزالي وابن رشد - مقالة مجلة آفاق الثقافة والتراث - دبي - العدد 46 - السنة 12/ يوليو 2004م.

73 - الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير.

* تاريخ الرسل والملوك - 10 أجزاء - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم منشورات دار المعارف بمصر - القاهرة - 1968م.

74 - إبن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا.

* الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق محمد توفيق الكتبي - منشورات المطبعة الرحمانية بمصر - بدون تاريخ.

- ع -

75 - إبن عبد ربّه: أبو عمر محمد الأندلسي.

* العقد الفريد - 7 أجزاء - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الإبياري. طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1363هـ/ 1944م.

76 - العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل.

* كتاب الصناعتين - الكتابة والشعر - ط1 - مطبعة الجمالي والخانجي القاهرة 1320هـ.

77 - العلموي: الشيخ عبد الباسط بن موسى بن محمد.

* المعيد في أدب المفيد والمستفيد - ط1 - تحقيق أحمد عبيد منشورات المكتبة العربية بدمشق 1349هـ.

- غ -

- لا يوجد

- ف -

78 - إبن الفقيه الهمداني: أحمد بن أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الإخباري.

* بغداد مدينة السلام - تحقيق د. صالح أحمد العلي - منشورات وزارة الإعلام - العراقية - بغداد 1977م.

79 - الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب - العلاّمة اللغوي.

* القاموس المحيط - ط2 - منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت 1407هـ/ 1987م.

- ق -

80 - إبن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري.

* أدب الكاتب - تحقيق محمد الدالي - ط2 - منشورات مؤسسة الرسالة - بيروت 1406هـ/ 1986م.

81 - القدسي: أبو زيد أحمد بن سهل البلخي.

* البدء والتاريخ - جزءان - تحقيق كلمان هور - باريس 1899م.

82 - القرآن الكريم.

83 - القفطي: الوزير - جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف.

* إنباه الرواة علي أنباء النحاة - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار الكتب المصرية - القاهرة - 1369هـ/ 1950م.

84 - القسطالي: أبو العبّاس أحمد بن محمد الرفاعي.

* مخطوطة نظم لئالىء السمط في حُسنِ تقويم الخط، تحقيق هلال ناجي - نشرها بمجلة - المورد العراقية - العدد الخاص بالخط العربي، العدد 4 - المجلد 15 - السنة 1407هـ/ 1986م.

85 - القلقشندي: الشيخ أبو العباس أحمد.

* صبح الأعشى في كتابة الإنشا - 13 جزء - طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة - ط1 1340هـ/ 1920م.

86 - القيرواني: الحصري أبو إسحاق أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرىء الضرير.

* زهر الآداب وثمر الألباب - 4 أجزاء - تحقيق د. زكي مبارك، منشورات المكتبة التجارية الكبرى بمصر - ط 1 - 1925م.

- ك -

87 - الكازروني - ظهير الدين.

* مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية - تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد - نشرت في مجلة المورد - العراقية، عدد خاص عن بغداد - العدد 4 - مجلد 8، 1400هـ/ 1979م.

88 - الكتبي، محمد شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر.

* فوات الوفيات - 5 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر دار بيروت - بدون تاريخ.

89 - الكردي: محمد طاهر بن عبد القادر المكي الخطّاط.

- 1. حُسن الدعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة - طبعة البابي الحلبي بمصر 1357 هـ/ 1938م.

- 2. تاريخ الخط العربي وآدابه - ط 1 - القاهرة 1358هـ/ 1939م.

91 - كشاجم: أبو الفتح محمود بن الحسين السفدي بن شاهين.

* ديوان كشاجم - تحقيق خيرية محمد محفوظ - منشورات وزارة الإعلام العراقية - بغداد 1390هـ/ 1970م.

- ل -

- لا يوجد

- م -

92 - المرزباني: أبو عبد الله محمد بن عمران.

* معجم الشعراء - منشورات مكتبة القدسي - القاهرة 1354هـ. تحقيق عبد السلام أحمد فراج.

93 - مالك إبن أنس: الإمام.

- *المدونة الكبرى - ط1 - منشورات المطبعة الخيرية بمصر 1324هـ.

94 - مرزوق: د. محمد عبد العزيز.

* العراق مهد الفن الإسلامي - منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد 1971م.

95 - المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي.

* مروج الذهب ومعادن الجوهر - 4 أجزاء - مطبوعات الجامعة اللبنانية بعناية شارل بيلاّ - بيروت 1974م، وطبعة باريس ودار المعرفة 1403هـ/ 1982م.

96 - المسعود - الخطّاط حسن.

* الخط العربي - منشورات فلاماريون - باريس 1981م.

97 - مسكويه: أحمد بن محمد بن يعقوب.

* تجارب الأُمَمْ - جزءان - تحقيق أمدروز - القاهرة 1314هـ/ 1915م.

98 - المغربي: القاضي النعمان بن حيون - قاضي قضاة الدولة الفاطمية.

* المجالس والمسايرات - تحقيق الحبيب الفقي وابراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي منشورات الجامعة التونسية 1978م.

99 - المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد.

* المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار - المعروف بالخطط المقريزية - 4 أجزاء - منشورات مطبعة النيل بمصر 1364هـ.

100 - إبن المُلَقِّن: سراج الدين، أبو حفص عُمر بن علي بن أحمد المصري.

* طبقات الأولياء - تحقيق نور الدين شربيّة - ط1 - منشورات مكتبة الخانجي - القاهرة 1393هـ/ 1972م.

101 - إبن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري.
* لسان العرب - 14 مجلد - طبعة دار صادر - بيروت.

102 - مؤلف مجهول:
* أخبار الدولة العباسية - تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد العزيز المطّلبي - بيروت 1971م.

103 - ميتز: آدم - المستشرق.
* الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - جزءان - ط3 - ترجمة عبد الهادي أبو ريدة - القاهرة 1377هـ/ 1957م.

104 - ميشيرسكايا. ي. ن: المستشرقة الروسية.
* مخطوطات الكتب في ثقافة الشعوب - منشورات معهد الإستشراق بموسكو، موسكو 1987م.

- ن -

105 - إبن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق.
* الفهرست - منشورات المطبعة الرحمانية بمصر.

- و -

- لا يوجد مصادر

- هـ -

106 - هانتس - فالتر.
* المكاييل والأوزان الإسلامية - ترجمة كامل العسلي، عمّان 1970م.

- ي -

107 - 10اليعقوبي: أحمد بن يعقوب بن نافع.
* البلدان - طبعة ليدن 1891م وطبعة النجف - ط3 - 1377هـ/ 1957م.

المصادر الأجنبية

1 - J. Gerny: Peaper and books in Ancien Egypt. London 1952.

2 - F.Milku. J: Handbuch der bibliothek, Swissenschofl 1955.

3 - R.S.Mackenes: Four great Libraries of Madieval. «Baghdad the library quarterly - 2/1930 No 3 - p. 279-292.

4 - Negebauer, O.A: «Astronamical coneiform texets Lund humpherys, 3vols, London 1995.

المجلات الدورية والصحف

1 - مجلة المورد - العراقية - فصلية - العدد 4 - مجلد 14 لعام 1985م.
2 - مجلة المورد - العراقية - فصلية - العدد 4 - خاص بالخط العربي - عدد 4 مجلد 5 العالم 1986.
3 - مجلة المورد - العراقية - فصلية - العدد 4 - مجلد 8 - عدد خاص عن بغداد لعام 1400هـ/ 1979م.
4 - مجلة آفاق الثقافة والتراث - مجلة فصيلة تصدر عن مركز جمعة الماجد - دُبي - العدد 46 - السنة 12 - يوليو/ تموز 2004م.
5 - جريدة الحياة - اليومية - لندن - عدد يوم 14/ 3/ 2006م.

تم الجزء الأول

موسوعة الوراقة والوراقين

في الحضارة العربية - الإسلامية

الجزء الثاني

ظهور مهنة الوراقة

الباب الخامس

ظهور مهنة الوراقة

الفصل الأول

تمهيدات تاريخية

لعب الإسلام - ديناً وحضارة - دوراً هاماً في تنشئة الثقافة العربية - الإسلامية، ورعايتها والحفاظ عليها، فقد ارتبط القرآن باللغة العربية، وبهذا الارتباط أصبح التواشج الروحي - الزمني، في وحدة متكاملة لا تعرف الانفصال والتجزّؤ، فقد جاء في التنزيل: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾[1]، وبذلك توجّب على اللغة العربية وناطقيها، أولاً: أن يكونوا بمستوى هذا النزول والتميّز، من جهة، ومن جهة أخرى، عليهم فرض تحدّ حضاري مقابل الديانات السماوية الأخرى التي كانت سابقة على الإسلام من يهودية ومسيحية، لذلك نرى البدايات عند الصحابة والتابعين، قد إنصبّت على جمع القران وتدوينه، بالأمور الممكنة - وقتذاك - وشكلت عظام الجمال وأوراق سعف النخيل، وجلد الحيوانات والرقوق، المواد الأساسية الأولى لتدوين القرآن، واستمرت هذه العملية أثناء حياة النبي محمد ﷺ وحتى وفاة عثمان بن عفان/ الخليفة الثالث/ ، لقد عنت مسألة جمع القرآن وتدوينه، رؤية أولية في العمق الحضاري للإسلام، إذ جسدت بهذه الخطوة اللبنات الأساسية لتكوين العقل العربي - الإسلامي، فقد حددت المسار الفكري للمسلمين، ووضعت الممهدات الأخرى للقيام بعملية أوسع وأكبر لحفظ ثقافة العرب وآدابهم، فظهرت السجلات أو المدونات، كخطوة لاحقة على جمع القرآن وتدوينه.

ويعد زيد بن ثابت، ذلك الصحابي الجليل من الرعيل الأول للمسلمين، وهو أول كاتب للوحي، النموذج للورّاق الأمين، فقد طلب منه أبو بكر الصديق أن يجمع القرآن

(1) سورة يوسف، الآيتان: 1-2.

ويدوّنه، ففعل ذلك بإبداع[1]، وقد كانت هذه المهمة، من أشد المهام صعوبة وخطورة، إلاّ أنها أرست دعائم عملية النسخ والتوريق في الإسلام، لأن فيها ثبّت مبدأ الأمانة في النقل والتدوين، من وازع ديني وحضاري، وبرؤية إسلامية، وظل هذا المنهج سارياً وثابتاً في الكتابات العربية الإسلامية طوال فترة الخلافة الراشدية.

وعندما إنتقلت الخلافة إلى العباسيين، وسقطت الدولة الأموية، وتداخلت الثقافات المختلفة في بنية المجتمع العباسي، فتزاوجت الثقافات اليونانية والفارسية وغيرها مع العربية، فأوجدت حالة من «الديناميكية» المتطورة، على أساس هذا التفاعل، فالعربية تأثرت وأثّرت في اللغات والثقافات الوافدة إليها، وأصبح قانون - الداخل والخارج - محسوساً على مستوى الناس، لا سيما العلماء منهم والأدباء، فقد كانت شروحات الفلسفة اليونانية، من قبل الفلاسفة المسلمين، قفزة حضارية هائلة، سمت بالمجتمع الإسلامي، لأن يخطو نحو أفق الإنسانية، درجة أعلى، وعلى أثر هذه الخطورة، بدأت تتشكل الملامح الأوليّة للفكر الفلسفي الإسلامي، منطلقة من القرآن وما حوته آياته من فكر مثالي.

وهذا التشكّل بدأ يظهر في اللغة العربية، فظهرت المفردات الفلسفية وهي تستعير تعبيرات من الفلسفات الأخرى، مسبوكة بإطار معرفي، واشتقاق عربي، ومتضمنّة تجاوزا لأكثر من حدّ «للماورائية» فقد ظهرت رؤية مادية واضحة القسمات في الفكر الفلسفي الإسلامي[2] عند الفارابي والكندي وابن سينا، وقد ظهرت هذه النزعات أكثر وضوحاً واشتمالاً في «رسائل أخوان الصفا».

وأخذت مناهج الشريعة الإسلامية، تطوّر مبدأ الاجتهاد في ضوء السنّة النبويّة، وأحاديث الرسول والصحابة، مشكلة الرافد الثاني للشريعة بعد القرآن، وجاعلة من الفكر الإسلامي فكراً زمنيّاً وروحيّاً[3]، الأمر الذي ينأى بالإنسان العربي والمسلم لأن ينزع نحو تحلل أسارير الروح من القيود الوهمية، التي تكبّل عقله، لذلك أصبحت مسألة تعاطي علوم الفلسفة، إحدى السمات الأساسية للمجتمع العباسي في القرنين 3 و4 الهجريين.

ثمّة مسألة هامّة، طوّرت الفكر والحضارة الإسلامية، في شروط تاريخيتها ألا وهي - الفتوحات الإسلامية - فقد أيقظت هذه الفتوح العقل العربي - الإسلامي، على مكامن الحضارة، في تلك البلدان التي فتحوها، فأخذوا منها ما أخذوا، وأضافوا إليها شيئاً من

---

(1) سير أعلام النبلاء للذهبي 2/ 431 - الترجمة رقم 85.

(2) راجع بهذا الصدد - مؤلف العلامة حسين مروة/ النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية/ .

(3) لنا دراسة بهذا الصدد تحمل عنوان (النظام الداخلي لحركة إخوان الصفاء)، نتحدث فيها عن هذه الأبعاد صدرت بدمشق عام 1991م.

روحهم وثقافتهم ودينهم، ويكفي أن نذكر بهذا الصدد، أن صناعة الورق جاءت نتيجة هذه الفتوحات، الأمر الذي يسّر معه تطور الحالة الثقافية وتنشيط مهنة الوراقة كي تصبح ملبيّة لحاجات الناس الثقافية.

وقد امتدت هذه الفتوحات من المحيط الأطلسي إلى حدود الصين، وعبرت إلى القارة الأوروبية عن طريق الأندلس، وكان يصاحب هذه الفتوحات اللسان العربي، ذلك الصمّام الذي ظلّ محافظاً على التراث الإسلامي، وفارضاً لغته ومبادئه وفكره، على اللغات التي صادفته مثل الآرامية واليونانية والقبطيّة والفارسية والتركية والبربريّة -، حيث استسلمت هذه اللغات جميعاً - بحكم الفتح - أمام اللغة العربية باعتبارها لغة الدين الجديد، ولغة العلم الوافد،ولغة الفاتحين وهذه المسألة، فرضت على العرب والمسلمين أن ينتبهوا إلى لغتهم، وهي تنطق في ألسنة غيرهم، ويشوبها التشويه في النطق والكسر في إيقاعها الموسيقي، وهو ما عرف بـ«اللحن» فعالجوه عملياً ونظرياً، بأن وضعوا قواعد للنحو، وأساليب للكتابة والتعلم، وعقدوا الندوات للدرس، في مختلف البلدان التي فتحوها، وأصبحت اللغة العربية تستعمل بغزارة في الحياة العامة، وتحولت إلى لغة العلم والأدب، الأمر الذي توجّب معه أن تكون هناك «مؤسسات» تعني بعمل الكتاب وإصداره، فكان للورّاقين الدور الأبرز والأوضح في مثل هذه المؤسسات العلمية.

لقد خلقت هذه التطورات حالة من الرقيّ الحضاري، وانعكست هذه التطورات، على حالة الصراع المذهبي للأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، حيث نشطت جميعها في الاتجاهات الفكرية، وتوزع هذا النشاط كل في حقله الأرحب، ولقد استطاع العلماء المسلمون من توكيد دورهم المعرفي، فألّفوا شروحات للقرآن، ونشطوا في مسألة الفقه الإسلامي، وتعددت مذاهبهم فيه، وظهرت الفرق الإسلامية إلى السطح، وزادت عملية الصراع الفكري ثراءً، فبرزت إلى الوجود الشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة والقدرية والأشعرية والمذاهب الباطنية كالأسماعيلية والقرمطية وغيرها، وصارت الديار الإسلامية ساحة عريضة لهذه التيارات الفكرية، تتصارع في حومتها، بين مؤيد ومعارض، وحتى الفكر الإسلامي السنّي، السائد والمسيطر تاريخياً، تطور هو الآخر، حيث وجد فيه مذاهب أربعة، شكلت قوامه الأساسي حتى الآن، وهي المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي.

لقد كان لهذه التيارات الفكرية المتعددة أعلامها ورجالها، ومؤيدوها ومريدوها، وورّاقوها حتى[1]، لذلك نشط كل تيار في إيجاد وتثبيت فكره و«أيديولوجيته» الأمر الذي

(1) سوف نعرّج على ذلك في الباب الثامن الموسم بـ«أعلام الورّاقين» في دراسة مستقلة.

أظهر معه ظاهرة جديدة اسمها (الأدب الحزبي) وفق معناها المعاصر، وهذا يعني أن سوق الورّاقين، إزدادت نشاطاً وحركة بمثل هذه الظواهر الفكرية، السياسية، وهو ما كان فعلاً.

وثمة مسألة أخرى ثقافية - حضارية، لا تقلّ شأناً عن الظواهر السالفة الذكر، عنيت بها «الترجمة» ذلك الحقل المعرفي، الذي نشّط العقل العربي برمّته، حيث أثرى المكتبة العربية بمختلف العلوم والفلسفات اليونانية والسريانية والهندوسية والفارسية وغيرها. وقد كان لبغداد المأمونِ الدور الريادي والرئيسي في هذه العملية العالمية، التي سحبت ظلال وجودها على العصور اللاحقة لها، وحتى عصرنا الحالي، نظراً لما تتمع به من عملية إبداعية ثقافية - إنسانية[1]، ولقد كان إنعكاس هذه الظاهرة على الورّاقين، بحدود غير طبيعية، حيث زادت من نشاطهم الكتابي بشكل خاص، وتفرّغ البعض منهم للنسخ في أروقة «دار الحكمة» المأمونية، مثل علاّن الشعوبي الورّاق.

أثّرت ظاهرة - الترجمة - في حالة العصر العباسي بأكمله، وصارت تجتذب كبار العلماء، الناطقين بأكثر من لسان، وليس هذا فحسب، بل جلبت إنتباه كبار الأدباء والمفكرين في ذلك العصر، فهذا «الجاحظ» يتناول الظاهرة، من موقع معرفي، ليحدد أهميتها وخطورتها بشخص المترجم فيقول[2]: «ولا بدّ للترجمان أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه، في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقولة إليها، حتى يكون فيها سواء وغاية، ويضيف: «ومتى وجدناه أيضاً قد تكلّم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما»، من هذه الزواوية يشعر الجاحظ بالخطورة المزدوجة على اللغتين، ومن هذا الباب تحديداً، يوجّه الجاحظ السبب في هذا الضيم، أن وقع الالتباس في ذهن المترجم، يقول[3]: «لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعترض عليها، وكيف يكون تمكّن اللسان منهما مجتمعتين فيه، كتمكنه إذا إنفرد بالواحدة، وإنما له قوّة واحدة، فإن تكلّم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما، وكذلك ان تكلّم بأكثر من لغتين، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقل، كان أشدّ على المترجم، وأجدر أن يخطىء فيه، ولن تجد البتّة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء».

هذا النصّ الخطر يوضّح مدى الأهمية لعمل الترجمان، وهو حكم معرفي صادر من

---

(1) لدينا دراسة قصيرة - قيد الطبع - تحت عنوان «مترجمو بغداد في عصر المأمون، سوف ننشرها حال الفراغ من عملنا هذا.

(2) الحيوان 1/ 76 - 77.

(3) المصدر السابق/ نفس المكان.

شيخ الأدب، دون منازع، في العصر العباسي، والجاحظ هنا أراد تثبيت الموقف المعرفي لهذه الظاهرة العلمية الهامة التي تداخلت بالثقافة العربية - الإسلامية، وهو يدلي بهذا الحكم كي يوجّه الجميع على الكيفية التي يتم التعاطي بها مع الترجمة، ونظراً لكونه نزيل سوق الورّاقين الدائم، فإنهم أجدى من غيرهم بالأخذ بها، لا سيّما وأن قسماً منهم اشتغل بالترجمة في سياق مهنة الوراقة.

إنَّ جملة هذه الظواهر الحضارية - الثقافية، كان لها الدور الهام في دفع عملية الوراقة، إلى النمو والاتساع، عرضاً وطولاً، لتتعدى حاضنها الجغرافي - بغداد - وتنتقل إلى عواصم وحواضر إسلامية أخرى كدمشق والقاهرة وقرطبة، وغيرها من الأمصار، حتى أصبحت مهنة الوراقة ذات أبعاد إسلامية معروفة القسمات.

وإلى جانب هذا التطور الثقافي، كان العامل الاقتصادي، هو الأبلغ في التأثير على نمو هذه الظاهرة - الوراقة - وغيرها، من أمور الحياة الاجتماعية الأخرى، فقد شهد العصر العباسي، تحولاً كبيراً في النمو الاقتصادي، إذ تحول المجتمع العباسي من كونه زراعياً يسوده الأشراف والملاّكون، إلى مجتمع تجاري، يسيطر على الطرق التجارية، وله فعاليات نشطة، شملت العالم القديم بين الشرق الأقصى وحوض البحر المتوسط، وفي ظلّ هذا الازدهار، انتشرت المؤسسات الصيرفيّة «الجهبذة والصيرفة» كنتيجة منطقية لهذا النشاط التجاري، من جهة، والتطورات الاقتصادية العالمية من جهة أخرى، فإلى جانب هذا التطور التجاري، شهدت الزراعة توسّعاً ملحوظاً، نتيجة التركيز على استغلال الأرض، من قبل الأمراء والأشراف والتجار، وبعض الملاكين الذين بدأوا يعيشون على الأرض، ثم صار السكن في الريف ظاهرة مألوفة في (ق 3هـ)[1].

وإلى جانب هذا التطوّر الملحوظ في قطاعي التجارة والزراعة، نشطت الصناعة هي الأخرى، فقد توسّعت لتسدّ الحاجات المتزايدة في المدن، واستجابة لطلبات التجارة واتجاه النشاط الاقتصادي، ولوحظ التبدل في هيكل الاقتصاد العام، حيث تحوّل من اقتصاد كفاف إلى اقتصاد السوق والرخاء، ورافق هذا التطور توسّع في الحياة المدنية، إذ شهدت بغداد وغيرها من المدن الإسلامية، توسّعاً واضحاً في السكّان والمساحة، كما نشطت مجالات الكسب الكبيرة، وساعد على توسّعها أيضاً الهجرة الواسعة من الريف، بسبب الاضطرابات ومشاكل الجباية، وقد برز في التطوردورالعامة، فقد عرفت بغداد منذ

(1) د. عبد العزيز الدوري/ التكوين التاريخي للأمة العربية/ ص97، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 1984.

نهاية (ق 2هـ) تنظيمات خاصة للحرف (الأصناف (النقابات) حيث ظهرت بينهم روابط شبه عسكرية مثل «العيارين والشطار»[1]، والفتيان[2] وغيرهم.

لقد رافق هذا التطور تحول في العلاقات الاجتماعية، حيث راح التأكيد على النسَب يتراجع أمام الامكانيات المادية، وبرز التفاوت الطبقي واضحاً في المجتمع، الأمر الذي أدّى إلى قيام حركات اجتماعية - سياسية، تدعو إلى العدالة الاجتماعية، وإلى تحسين الأوضاع المعاشية، مستندة في دعوتها إلى المفاهيم الإسلامية[3].

إنَّ هذه الأوضاع الاقتصادية الناهضة، وما رافقها من تفاوت اجتماعي، لقيت صداها واضحاً في البنية التحتية للقاع الاجتماعي، وقد كان العلماء والأدباء، هم أولّ المعنيين بهذا التناقض، فقد عكسوه بشكل أو بآخر في مؤلفاتهم الأدبية والفكرية، وكان/أبو حيان التوحيدي/ النموذج الأمثل في ذلك، لا سيّما في مؤلفاته/ المقابسات ومثالب الوزيرين/ فقد كان فيها شاهد عيان ومحرّضاً وداعية لتنشيط الأفكار وبلورتها وسبكها وإعادة صياغتها بشكل صحيح، فيما كانت الحركات الفكرية هي الأخرى واعية لدورها في كشف هذا التناقض وفضحه، ومن ثم إيجاد معارضة فكرية وسياسية، ضد نهج السلطة العباسية، وتمثل هذا الدور الخطر عند (اخوان الصفا) لا سيّما في «رسائلهم» فقد حاولوا في هذه (الرسائل) طرح شعاراتهم السياسية والفكرية، وجعلها برنامج عمل للعامة، وقد قاموا بدور كبير في تبسيط المفاهيم الفلسفية، وتقريبها من أذهان الناس، بحيث جعلوا من الفلسفة ثقافة شعبية.

ولقد كان للورّاقين الدور الهام في نشر هذه «الرسائل» وغيرها، تعميماً للمعرفة، وتعميقاً للصراع، ويجب أن لا ننسى أن بعض الورّاقين، كان ينتمي إلى قوى المعارضة[4].

وفي ظلّ هذه الأوضاع، كانت الحركة الثقافية تتناغم بإطراد وأكثر إيجابية، فقد نشطت حركة التأليف والترجمة، وعظمت صناعة الورق، وتبع ذلك ظهور حرفة الورّاقين، ووجدت أمكنة لهم تتخذ مباءة للعلماء والأدباء، يتزودون منها بالعلم، وكثرت المكتبات وزخرت بالكتب[5].

---

(1) لنا دراسة طويلة بصدد هؤلاء (تحت الطبع) بعنوان (لصوص بغداد في القرن الرابع الهجري).

(2) د. عبد العزيز الدوري/ المصدر السابق ص 97 - 98.

(3) موريس لومبار/ الإسلام في فجر عظمته/ ص109 - ترجمة حسين العودات، مطبعة وزارة الثقافة السورية، دمشق 1979م.

(4) وسوف نبيّن ذلك في/ أعلام الورّاقين/ .

(5) أحمد أمين - ضحى الإسلام 2/ 61 طبعة القاهرة - ط7 - سنة 1343هـ/ 1935م.

وعندما أهلّ القرن الثاني للهجرة، لا سيّما بعد نصفه الأول - أي بعد بناء بغداد سنة 145هـ. كان الاتجاه العلمي للثقافة والفكر، يتجه صوب تمييز العلوم بعضها عن بعض، فقد أشار (الذهبي) إلى أيام حكم أبي جعفر المنصور قائلاً[1]: «في سنة 143هـ شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير، فصنّف إبن جريج بمكة[2] (حيث كان أول من دوّن العلم فيها) ومالك - الموطأ - بالمدينة والأوزاعي بالشام وابن أبي عروبة وحماد بن أبي سلمة وغيرهما بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثورى بالكوفة، وصنّف ابن إسحاق المغازي، وصنّف أبو حنيفة الفقه والرأي، ثم بعد وقت يسير صنّف هشيم، واللّيث، وابن لهيعة، ثم ابن المبارك وأبو يوسف، وابن وهب، وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية، واللغة والتاريخ وأيام الناس».

ويضيف الذهبي: «وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتّبة»[3].

هذا النصّ يفتح الباب واسعاً أمامنا، لنرى الأهمية القصوى لوجود الورّاقين، لأن مثل هذه العلوم، وهي تمرّ بفترة جديدة ومرحلة متقدمة - هي مرحلة التدوين - يتطلب نقلها من بلد إلى آخر، ومن مكان لسواه، لذلك كانت مهنة الوراقة، هي المطلب الحضاري، الذي يتوجب وجوده للتماشي وهذه الحالة، وقد كان سوق الورّاقين، بعدما أنشئت بغداد واحداً من مشاهير الأسواق، والورّاقون نيه سادة الموقف الثقافي، ولهذا كان أبو المطهر الأزدي، يفاخر أهل أصبهان في مثل هؤلاء وغيرهم من أهل الصناعة في بغداد فيقول[4]: «هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمهن مثل ما أرى ببغداد من الورّاقين والخطاطين والخياطين والخراطين والزرّادين والمزوقين والطباخين والمطربين ومن لا يحصو عدداً من الحذّاق».

---

(1) السيوطي - تاريخ الخلفاء/ ص261، طبعة مصر الأولى: سنة 1371هـ/ 1952م - ترجمة أبو جعفر المنصور.

(2) هكذا وردت عند السيوطي - المصدر السابق/ ولم يعلق عليها أحمد أمين - في ضحى الإسلام 2/ 11 وما بين الأقواس () أضفناه من سير أعلام النبلاء 6/ 326 - الترجمة رقم 138 - ابن جريج.

(3) السيوطي - تاريخ الخلفاء/ ص261.

(4) حكاية أبي القاسم البغدادي/ ص24 - طبعة آدم ميتز - هيدلبرج، سنة 1902م.

الفصل الثاني

الورّاقون كصنف من الأصناف الإسلامية

الصنف: هو الطائفة من كل شيء، وجمعه أصناف وصنوف،، والتصنيف: تمييز الأشياء بعضها عن بعض، والصِّنف، الصيغة[1]، وقد استخدمت هذه المفردة للدلالة على الجماعات الحرفية في المجتمع العربي الإسلامي، أشار اليعقوبي إلى هذا المعنى في معرض حديثه عن بناء بغداد، فقال[2]: «إنَّ المنصور عندما أراد بناء بغداد جمع الصنّاع من مختلف البلاد فبلغ عددهم مائة ألف من أصناف المهن والصناعات»، وأشار في موضع آخر إلى أسواق الكرخ فقال[3]: «وكل سوق مفردة، وكل أهل صنف منفردون بتجارتهم»، وهو نفس الأمر الذي أشار إليه الطبري عند الحديث عن نقل الأسواق خارج المدينة المدورة، حيث أشار إلى أن المنصور أوعز إلى إبراهيم بن حبيش الكوفي وحوّاس بن المسيّب اليماني، أن يبنيا الأسواق ناحية الكرخ ويجعلاها صنوفاً وبيوتاً لكل صنف[4]، ولنفس الدلالة والمعنى، استخدم الجاحظ هذا التعبير في سياق حديثه عن أكل الحيوان وذبحه وصيده، عند عامة الناس مثل: صيادي السمك وصيادي الوحش، وأصناف الجزارين والقصابين والشوائين والطهائين وغيرهم[5].

والصنف، بمحمولاته المهنية والطبقية، يعدّ شكلاً من أشكال العمل النقابي، ذي الملامح والقسمات الشعبية، يقوم بتنظيم الحرفة وحفظ أسرارها[6]، وفي المنظور

(1) اللسان - مادة صنف.

(2) البلدان/ ص258.

(3) المصدر السابق/ ص242.

(4) تاريخ الطبري 7/ 652 - 653 حوادث سنة 146هـ.

(5) الحيوان 4/ 429 - 430. وأنظر كذلك التفصيلات التي قدمتها الباحثة صباح إبراهيم سعيد الشيخلي، في بحثها الهام، الأصناف في العصر العباسي/ ص65 - 66، منشورات وزارة الإعلام العراقية 1396هـ/ 1976م.

(6) راجع الأصناف/ ص67 - 69 حيث هناك تفصيلات أوسع.

الإسلامي، كان مفهوم النقابة يخصص على الأشراف من ذوي الحسب والنسب، فقد أشار الماوردي إلى أن هذه النقابة (نقابة الأشراف) موضوعة على صيانة ذوي الأنساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب ولا يساويهم في الشرف، ليكون عليهم أحبى وأمره فيهم أمضى[1]، ومن هذا المعنى الإسلامي يستشف المحمول الطبقي والأيديولوجي في هذا الاصطلاح، إلا أنه فيما بعد، أصبح الاصطلاح، ذا بعد طبقي وزمني، وصار له وقع وصيت، وراحت الحركات الإسلامية، من قبل، تنسج حوله خيوطها، وقد كان للحركة الإسماعيلية - القرمطية قصب السبق في ذلك[2]، حيث أن هذه الحركات كانت قد أثّرت في التنظيمات النقابية الموجودة، فبعد أن كانت تنظيماً علنياً يقتصر على رؤساء الحرف وحدهم لتكييف علاقتهم بالسلطة والدفاع عن مصالحهم إزائها، تحولت بفعل الحركة القرمطية إلى جهاز سرّي يضمّ رؤساء الحرف والعمّال معاً، لإسقاط السلطة من أساسها، وإقامة مجتمع جديد، كما يقول باحث معاصر[3].

لقد استطاعت هذه الحركات الفكرية والسياسية، أن تعطي للمهنة/ الحرفة والصنف/ بعداً فلسفياً، يتماشى وحركة التطور التاريخية الناهضة في (ق 3هـ) وما تلاه، الأمر الذي أعطاه نسبة الشرف بالعمل لا بالحسب (الإنتماء إلى القبيلة) وهو أمر يوضّح مدى إنتشار لقب المهنة، كالحداد، والنجار، والنحاس، والورّاق، وغيرها، فإخوان الصفا مثلاً، قسموا الصُنّاع نوعين، الصناعة الروحانية/ تلك التي تعتمد على المهن الفكرية، والصناعة الجسمانية، والتي تعتمد في قوامها على الحرف اليدوية[4]، كما أنهم رتّبوا الصناعات إلى مراتب، حيث أعطوا الحراثة والحياكة والبناء الأولية، وأما بقية الصنائع فهي خادمة لها أو متممة[5]. وهم بهذا التصوّر فاقوا بقية الحركات والطوائف في النظر إلى المهنة والصنعة، رغم أن النظرة الإسلامية كانت واضحة وإيجابية نحو العمل ومقوماته[6]. ولكن على الصعيد الفردي والشخصي، إختلفت الحركات والأشخاص في هذا الموضوع، لا سيما عند الأدباء والمفكرين، فقدامة بن جعفر، يضع مهرة الصنّاع في طبقة السوقة أسوة

---

(1) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الباب الثامن/ ص96 - 97، ط1، الباب الحلبي وأولاده، مصر، 1380هـ/ 1960م.

(2) راجع - الأصناف/ ص50 - 52.

(3) د. محمود اسماعيل: الحركات السرية في الإسلام/ ص118 - 120، طبعة بيروت 1973.

(4) رسائل إخوان الصفا 1/ 213 - 215 - الرسالة الثامنة.

(5) الرسائل 1/ 216 - 217.

(6) أنظر سورة الملك (آية 15) وسورة الجمعة (آية 10)، وسورة يس (آية 30) وغيرها، وراجع كذلك صباح الشيخلي - الأصناف/ ص40 - 43.

باللصوص[1]، وأدخلهم أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي في أسفل الدرك الاجتماعي[2]، فيما صنّفهم إبن عبد ربّه على النحو التالي، إستناداً إلى قول خالد بن صفوان: «الناس ثلاث طبقات: طبقة علماء وطبقة خطباء وطبقة أدباء، ورجرجة بين ذلك، يعلّون الأسعار ويضيّقون الأسواق ويكدّرون الماء[3]، بينما تجلّت نظرة المأمون في هذه المسألة، بأن جعل الكتّاب ملوكاً على الناس[4] تمييزاً لهم عن بقية الأصناف والحرف، وفي (ق 4هـ)، استوضح أبو حيان التوحيدي آراء بعض معاصريه من الأدباء والمفكرين بصدد المهنة، فقال أبو سليمان المنطقي السجستاني: «هي حركة يتعاطاها الإنسان بلا حفز ولا استكراه»، وقال علي بن عيسى: «المهنة، صناعة ولكنّها إلى الذل أقرب»، وفي الصنعة أدخل، والصناعة مهنة ولكنها ترتفع عن توابع المهن، وفي الصناعات ما يتصل به الذل أيضاً، ولكن ذلّ ليس من جهة حقيقة الصناعة، ولكن من جهة العرض الذي يهن الصناعة والصناعة، والمرتبة والمرتبة[5]، ولكن التطور الاقتصادي، أخذ يفرض نفسه على الواقع الاجتماعي، موجداً علاقات جديدة في نمط حياة الناس، وقد كان للاختلاط القومي أثره الإيجابي في ذلك، كما أن العرب بمرور الزمن أيقنوا أن الموالي بدأوا يسيطرون على النشاط الاقتصادي في المجتمع العربي الإسلامي، فدفعهم هذا إلى مزاولة الحرف والمهن ليحدّوا من هذه السيطرة[6].

لقد فهم الناس طبيعة العمل، وتآلفوا معه، وانصهروا فيه، وعرفوا به، وبرز منهم أرباباً وشيوخ وعرفاء ونُقباء، وهو أمر يوضح مدى ارتباط الحياة بالعمل أولاً، وتواشج النفس مع المهنة التي تهوى ثانياً، مع ارتباط الجميع بأسلوب إنتاج معيّن، في شرطه التاريخي ثالثاً.

لذلك ترى أن المهنة تؤثر في السلوك الشخصي للفرد، وفي الجماعات المنضوية في إطار مهنة واحدة، وهذا التأثير يبرز أحياناً باللاوعي وأحياناً أخرى بوعي مركّز، حتى أننا نشاهد مفردات مهنية تقفز في لغة خطاب الصانع أو المهني، وهو أمر جلب إنتباه الجاحظ، فقد أشار إلى المعاني الواجب استخدامها في كل لفظة بمحلها، وفي سياقها، أو

(1) الأصناف/ ص43.

(2) الإشارة إلى محاسن التجارة/ ص43، منشورات مطبعة المؤيد: دمشق 1318هـ.

(3) العقد الفريد 2/ 293.

(4) البيهقي/ المحاسن والمساوىء 1/ 164 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة النهضة القاهرة 1961.

(5) أبو حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة 3/ 132، تحقيق أحمد الزين وأحمد أمين، القاهرة 1939م.

(6) صباح الشيخلي/ الأصناف ص44.

ضمن منظور (لكل مقام مقال) فقال[1]: «وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً في صناعة الكلام، مع خواص أهل الكلام، فإن ذلك أفهم لهم عني، وأخف لمؤنتهم عليّ»، وأضاف في هذا الصدد: ولكل صناعة ألفاظ، قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلاً بينها وبين تلك الصناعة»[2] وهذا إدراك معرفي نفسي من الجاحظ. يطلقه في منهجية عالية تدرك مسارها، وهو موقف واع لرجل فكر وأدب، أما أصحاب الصناعات والحرف، فإن سجيتهم تمازج بين كلامهم، والمهنة التي يمتهِنونها، فقد نقلت المصادر جملة من المواقف لبعض الحرفيين، توضّح إنعكاس مهنتهم في كلامهم، نقل الثعالبي عن جحظة البرمكي قال: أضافنا فلان القطّان، فقدّم إلينا جدياً سميناً، فلما كشف عن جنبه قال: «كأنما أخرج من دكان نداف[3]».

وسأل المعتصم جعفر الخياط عن حرب شهدها أيام الخرّمية، فقال: (لقيناهم في مقدار الخلقان، فصيرونا في مثل قوارة، فرحنا عليهم من وجهين، كأنّا مقراض، واصطفت الصفوف كأنها دروز، وتشابكت الرماح، كأنها خيوط، فلو طرحت إبرة لم تقع إلا على زرّ رجل).

وقال خيّاط لابنه: يا بني لا تكن كالإبرة، تكسو الناس وأنت عريان، وقال محمود البزاز للصاحب بن عيّاد: لا زال سيدنا في سلامة مبطنة بالنعمة، مطرزة بالسعادة، مظاهرة بالغبطة، فقال: يا أبا أحمد قد أخذتها من صناعتك[4]، وسئل ورّاق ما السرور؟ قال: جلود وأوراق وحبر براق وقلم مشاق[5]، ومثل هذه العبارات استوقفت الجاحظ فأوردها في كتاباته الأدبية، وقد ذكر الكثير منها في «رسالة صناعات القوّاد» ومنها هذه الطائفة، قال الجاحظ[6]: لقيت حزاماً[7] حيث قدم أمير المؤمنين من بلاد الروم، فسألته عن الحرب كيف كانت هناك، فقال: لقيناهم في مقدار صحن الإسطبل، فما كان بقدر ما يحس الرجل دابته، حتى تركناهم في أضيق من ممرغة، وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابير سرجين[8]: فلو طرحت روثة ما سقطت إلا على ذنب دابة.

---

(1) الحيوان 3/ 368.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) الثعالبي - خاص الخاص/ ص82 - الباب الخامس - طبعة مكتبة الحياة، بيروت 1966م.

(4) المصدر السابق/ ص83.

(5) المصدر السابق/ ص69.

(6) رسالة صناعة القواد/ رسائل الجاحظ 1/ 381 - 382.

(7) حزام - صاحب خيل الخليفة العباسي (المتوكل).

(8) السرجين: براز الحيوانات قبل أن يجف، قال الجواليقي: السرقين، معرّب أصله «سرجين»، قال =

وسئل الطبيب بختيشوع عن مثل ذلك/ أي عن حرب الروم/ فقال[1]: لقيناهم في مقدار صحن البيمارستان، فما كان بقدر ما يختلف الرجل مقعدين، حتى تركناهم في أضيق محقنة، فقتلناهم، فلو طرحت مبضعاً ما سقط إلا على أكحل رجل. وقال هذا الطبيب شعراً، توضّح فيه مقدار تمكّن المهنة في عقله ووعيه فقال[2]:

شرب الوصل دستج الهجر فاستطـ   لق بطن الوصال بالاسهال[3]
ورماني جنّي بقولنج بَينٍ   مُذهلٍ من ملامة العذّال
ففؤاد الحبيب ينحله السـ   لّ وقلبي معذ بّ بالملال
وفؤادي مبرسم ذو سقام   يابن ماسوه ضلّ عني احتيالي[4]
ولو ببقراط كان ما بي وجاليـ   نوس باتا منه بأكسف بال

وعن مثل ذلك سئل إسحاق بن إبراهيم، وكان زرّاعاً/ أي فلاحاً/ فقال[5]: لقيناهم في مقدار جريبين من الأرض، فما كان بقدر ما يسقي الرجل مشاره، حتى قتلناهم فتركناهم في أضيق من باب وكأنهم أنابير سنبل[6]، فلو طرح فدّن ما سقط إلا على ظهر رجل.

وأورد الجاحظ أبياتاً في الغزل لهذا الفلاح قال فيها[7]:

زرعت هواء في كراب من الصّفا   وأسقيته ماء الدوام على العهد
وسرجنته بالوصل لم اك جاهداً   ليحرزه السرجين من آفة الصدّ[8]
فلما تعالى النبتُ واخضّر يانعا   جرى يرقان البين في سنبل الودّ

وسئل عبد الله بن عبد الصمد، وكان مؤدب صبيان، عن مثل ذلك فقال[9]: لقيناهم

= الأصمعي: لا أدري كيف أنوله، أو تعفّف عن النطق بمعناه. راجع المعرّب للجواليقي ص186 مادة السرقين - باب السين.

(1) الجاحظ/ رسائل الجاحظ 1/ 383.
(2) نفس المصدر السابق.
(3) الدستج، ويقال الدستيج = آنية تحول باليد - رسائل الجاحظ 1/ 383 - هامش رقم 4.
(4) يريد «ابن ماسويه» الطبيب المشهور.
(5) رسائل الجاحظ 1/ 385.
(6) الأنابير = جمع أنبار، وهي الأكداس.
(7) رسائل الجاحظ 1/ 385 - 386.
(8) جاءت السرجين هنا بمعنى - السماد الذي تدمل به الأرض.
(9) رسائل الجاحظ 1/ 387.

في مقدار صحن الكتّاب، فما كان بمقدار ما يقرأ الصبي أمامه[1] حتى ألجأناهم إلى أضيق من رقم فقتلناهم، فلو سقطت دواة ما وقعت إلا في حجر صبي.

قال الجاحظ، وسألت علي بن الجهم بن يزيد، وكان صاحب حمّام، عن مثل ذلك فقال[2]: ولقيناهم في مثل بيت الأنبار، فما كان إلا بقدر ما يغل الرجل رأسه: حتى تركناهم في أضيق من باب الأتون، فلو طرحت ليفة ما وقعت إلا على رأس رجل. وتغزل هذا الرجل فقال[3]:

يانورة الهجر حلقت الصّفا ... لما بدت لي ليفة الصّدّ
يا مئزر الأسقام حتى متى ... تنقع في حوض من الجهد
أوقد أتون الوصل لي مرّة ... منك بزنبيل من الودّ
فالبين مذ أوقد حمّامَه ... قد هاج قلبي مسلخ الوجد
أفسد خطميّ الصّفا والهوى ... تخالة الناقض للعهدِ

ومثل هذه الأمور كثيرة، وقد أورد الجاحظ الكثير منها في نهاية رسالة «صناعات القوّاد».

تنظيم الصنف:

لاحظنا في الصفحات السابقة، كيف إنعكست المهنة في وعي الصنّاع، ممّا شكّل حالة متميزة عند هؤلاء، بحيث أن مفردات كل صنف تدلّ عليه، وهو الأمر الذي جعل نظام الحسبة الإسلامي[4] أن يراعي شروط وخصائص تلك الحرفة عن سواها، فوضع شروطاً معيّنة وواجبات على كل صنف، على أن يمثّل الصنف واحد من أعضائه، أطلقوا عليه اسم «العريف» يكون شخصاً عارفاً، ثقة، من أهل الصناعة، بصيراً وعارفاً بها[5].

(1) إمام الصبي، ما يتعلمه كل يوم، المصدر السابق، هامش رقم3.
(2) رسائل الجاحظ 1/ 388.
(3) نفس المصدر السابق.
(4) الحِسْبة = نظام إسلامي، شأنه شأن الأشراف على المرافق العامة، وتنظيم عقاب المذنبين، وهي وظيفة دينية، شبه قضائية، تقوم على فكرة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، راجع بهذا الصدد/ كتاب «معالم القربة في طلب الحسبة» لابن الاخوة القرشي/ ص23 تحقيق د. محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطبعي، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976م.
(5) ابن بسّام المحتسب/ نهاية الرتبة في طلب الحسبة/ ص39 - الباب الثامن - تحقيق حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد 1968م/ وابن الأخوة، معالم القربة/ ص337 الباب 64.

وكانت هذه التعاليم والوظائف التي فرضت على الأصناف من قبل المحتسب، استمدت شروطها وأعرافها من بين أهل المهن أنفسهم، أي وفق «العرُف السائد» بين أهل الأصناف لجودة الصنعة واتقانها، والطرق الواجب اتباعها في عمل تلك الصنعة، وتحليل وتحريم ما يجب أن يقوم به أهل المهنة[1]، وشكّل فيما بعد ما يعرف «بالنظام الداخلي» لكل صنف من الأصناف، وفي ضوء تلك الأعراف السائدة عند أرباب الصنائع والمهن، نظّم المحتسب بالتعاون مع ممثلي الأصناف - العرفاء والنقباء والشيوخ - واجبات كل صنف، ينظّم حياتهم العملية والمهنية فباتت واجباتهم على النحو التالي: وفق ما أوردته الباحثة صباح إبراهيم الشيخلي[2]:

1 - الاهتمام بمعرفة أسرار الصنعة.

2 - إتقان الصنعة وجودة المصنوعات.

3 - الاهتمام بمصالح أعضاء الصنف.

4 - العناية بالمواد الأولية.

5 - العناية بالنظافة.

وقد كان المحتسب يحاسب كل مقصّر أخلّ بهذه الشروط ولم يلتزمها[3].

مراتب كل صنف:

إنَّ تطوّر الأصناف من الناحية المهنية والطبقية، جعلها توجد نوعاً من «العلاقات النقابية» فيما بين كل صنف، يتحدد بموجبه واجبات والتزامات كل عضو في ذلك الصنف، ونظراً لعراقة كل صنف في مهنة معيّنة، فقد وجد هناك شيوخ للصنعة، بالمعنى الأكاديمي، حيث أوجد هؤلاء المقوّمات الأساسية للمهنة التي أفنوا حياتهم فيها، فأوجدوا سُلّماً مهنياً، يمرّ به كل عضو، بعد أن يجتاز عدّة تجارب، يكتسب من خلالها الخبرة، والمهارة، ومعرفة أسرار المهنة، وطرق السمّو بها وتحسينها وتطويرها، ومعالجة كل خلل يحدث من جرّاء العمل، وأصبح هذا التقليد «عرُفاً» مكتسباً ومعمولاً به، وعلى ضوء هذا العرف، جرت الأمور، وأقرّت الالتزامات، وأصبحت المراتب، تعرف موقعها في ذلك

(1) صباح الشيخلي/ الأصناف ص101.

(2) الأصناف/ ص101 - 106.

(3) راجع ابن الأخوة القرشي/ ص92 و130 وغيرها، حيث فصّل عليهم الأحكام في كل باب من أبواب الحسبة.

السلّم المهني، وهو ما يعرف اليوم بـ« الدرجة المهنية» والصفة النقابية. وبغية الإلمام بمراتب الصنف، سوف نتطرق إلى الدرجة الأولى من ذلك السلّم، كي نكون محيطين بكل تطور الصنف، ضمن مراحله.

1 - المبتدىء:

هو ذلك العامل الذي يجهل كل شيء في أي صنف، في بادىء الأمر، يقول عنه صاحب «الذخاير والتحف»[1] هي باب دخول الشخص إلى صناعة ما، فمن المألوف والمعروف، أن هذه التربة، تبدأ عندما يلتحق/ الصبي، أو الغلام، أو التلميذ/ بأحد حوانيت ذوي الحرف، يتعلّم لفترة من الزمن، شيئاً من أسرار المهنة، لينتقل بعدها إلى رتبة الصانع[2].

2 - الصانع:

هي الدرجة الثانية، في السلّم المهني عند الأصناف، حيث ينتقل بموجبها المتعلّم من كونه «مبتدى» إلى صانع، شريطة أن يلتزمه أستاذ مهنة، يتدرب على يده من أجل إتقان الحرفة وتعلّمها[3]، وفي هذه المرحلة يطلق عليه اسم «الصانع أو التلميذ أو الغلام» حيث العرف يشترط أن يكون الصانع تحت سنّ البلوغ[4]، وتتحدد مهام الصانع في هذه المرتبة بمساعدة أستاذه في عمله، وقد يحصل على أجور مقابل ذلك، وربما أطعمه أستاذه وكساه[5].

(1) مؤلف مجهول/ الذخاير والتحف في بير الصنايع والحرف/ ورقة 5ب/ وهذا الكتاب مخطوط اعتمدت عليه الباحثة صباح الشيخلي في كتابها - الأصناف، بعد أن حصلت على نسخة مصورة من المخطوطة من مكتبة غوتا، تحت رقم 903 - عربيات - وأوردت الكثير من نصوصه في كتابها أعلاه، وسوف نعتمد عليه بدورنا، وفق ما ورد عندها، مع الإشارة إلى رقم صفحة المخطوط والصفحة التي ورد فيها ذكره عند الباحثة في «الأصناف» وبنفس الوقت نقدم الشكر لهذه الباحثة الجليلة لما قامت به من جهد في هذه المخطوطة، ونتمنى عليها أن تقوم بتحقيق المخطوط ونشرها بشكل منفرد تعميماً للفائدة وخدمة للباحثين.

(2) الذخاير والتحف/ ورقة 5ب/ والأصناف ص114.

(3) أنظر: ابن كثير/ البداية والنهاية/ 10/ 180 - ترجمة القاضي أبو يوسف - حيث كانت أمه ترسله إلى معلمه «القصّار» ليتعلم وكذلك الذخاير والتحف ورقة/ 49 ب/ والأصناف ص112.

(4) ابن بسّام - نهاية الرتبة/ ص62؛ والأصناف ص112.

(5) الأبشيهي/ المستطرف في كل فنّ مستظرف 2/ 226، المطبعة المينيّة، القاهرة 1314هـ؛ والأصناف ص113.

ومسلكيّاً يقتضي العرف، أن يمشي الصانع وراء أستاذه ولا يتجاوزه، إحتراماً له، وأن يقضي حاجاته، وأن يكون خادماً مطيعاً لأوامره[1].

ويلاحظ أنه جرت هناك، حالات من الغش، قام بها الصانع لصالح أستاذه، وتحمّل عنه العقوبة والهوان[2]، لذلك حدّد المحتسب المسؤولية على الأستاذ في مثل هذه الأمور، وعلى هذا كان شريح القاضي يسدي الأحكام[3]. وبعد فترة التدريب، يستطيع الصانع أن يصبح أستاذاً مستقلاً، وله الحق أن يفتح حانوتاً خاصّاً به، بعد أن يمرّ باختبار خاص بالمهنة التي تدرّب عليها، لمعرفة مدى إتقانه[4]، وسوف نعرض ذلك في الحديث عن الأستاذ.

3 - الخلفة:

اصطلاح شائع ومعروف، في لغة أهل العراق، يقابله عند أهل الشام «المعلِّم» وقد ورد ذكره عند الصابي، وهو بصدد حديثه عن الرواتب/ الأرزاق/ التي أوجدها الوزير ابن الفرات أيام وزارته[5]، وهذه الرتبة، درجة متوسطة بين الأستاذ والصانع، يستطيع الشخص المؤهل لها أن يصبح أستاذاً بعد أن يكون قد عرف الكثير من أسرار المهنة[6].

4 - الأستاذ:

درجة مهنية/ في عرف الأصناف/ ينتقل اليها الحِرفي في السلّم المهني، وهذه الدرجة تؤهله لأن يصدر أحكاماً نقديّة - مهنية، تخصّ الجودة وعدمها على صنعة ما كان هو فيها، قد قطع أشواطاً طويلة لتعلّم أسرارها، وعرف خباياها ومدفوناتها، لذلك رأى اخوان الصفا أن أساس التعلّم هو التتلمذ على يد الأستاذ العالم، فقد قالوا[7]: «واعلم يا أخي بأن كل صانع من البشر لا بدّ له من أستاذ يتعلّم منه صنعته أو علمه، وذلك الأستاذ من

---

(1) مؤلف مجهول/ الذخاير والتحف/ ورقة 132أ، و134 ب/ والأصناف ص113.

(2) السقطي/ أبو عبد الله محمد بن أبي محمد/ في آداب الحسبة ص26 بعناية كولن، وليفي بروفنسال، باريس 1931م.

(3) وكيع - أخبار القضاة 2/ 300 - 302، بترجمة/ يحيى الطائي، منشورات عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

(4) الذخاير والتحف/ ورقة 63 ب/ الأصناف ص113.

(5) راجع الوزراء، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء/ ص8 - 20، حيث ذكر فيه أرباب الصنايع والمهن في العصر العباسي.

(6) الأصناف ص112.

(7) رسائل إخوان الصفا 1/ 225 - الرسالة الثامنة.

أستاذ له قبل، وهكذا حتى ينتهي إلى واحد ليس علمه من أحد من البشر». وهنا التأكيد على القوة الروحانية، في نهاية الخطاب الصفائي ورغم أنهم ربطوا عملية حب الصنايع بالطالع والأفلاك، إلا أنهم أشاروا بأهمية التعلّم من الأستاذ[1]. فيما رأى ابن خلدون أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي، وبكونه عملياً هو جسماني محسوس، فتنقلها بالمباشرة أو عب لها وأكمل، لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المسوسة أتمّ فائدة[2].

وهنا التوكيد على عملية الملازمة والإشراف للأستاذ على الصانع، في تعلّم المهنة، ويضيف ابن خلدون على هذه الفكرة قوله[3]: «وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلّم يكون حذق المتعلّم في الصناعة وحصول ملكته».

وبهذ المعنى يمكن القول، أن الأستاذ الجيّد ينجب صانعاً جيّداً، والعرف الصناعي، والمنظور المعرفي أكّدا ذلك في الحياة العملية، وعلى هذا النحو، ظهر الأساتذة في كل المهن والصنايع، ولحق بهم متعلموهم، وجرت العادة أن يكون هناك أكثر من صانع يكون تحت يد الأستاذ، يعلمهم أسرار صنعته، ويمكنهم فيها، ويعاونونه هم بدورهم في صنعته[4].

تخضع مسألة اعداد الصانع من قبل الأستاذ، إلى منظورين، أخلاقي ومهني، في الجانب الأول، يلاحظ الأستاذ على الصانع الطاعة في تلقي الأمر وتنفيذه، وشعوره - الصانع - بأن هذا الأستاذ قد منّ عليه، فهو أبوه الروحي، بشكل أو بآخر، ضمن طقس العلاقة القائم بين الطرفين، وفي الجانب الثاني، فإن الأستاذ إذا وجد في صانعه الفهم والخدمة والكفاية في العمل أعطاه العهد[5] أي أن هذا العهد هو بمثابة «شهادة خبرة» كما تعرف اليوم، وبهذا العهد يكون الصانع مؤهلاً كاملاً لممارسة المهنة، ونظمت العلاقة المادية بين الصانع والأستاذ على أساس الإنتاج، فالأستاذ أعلى مدخولاً من الصانع، ومع ذلك لا يجوز للأستاذ أن يستغل جهود صنّاعه، ولكن العرف المهني، أجاز للأستاذ ضرب الصانع، وأعطاه الحق في ذلك إذا كان الأمر من أجل تعلمه الصنعة[6]، فلربما تحمّل الأستاذ جريرة صانعه إذا أخطأ.

---

(1) رسائل اخوان الصفا 1/ 221 - 222.

(2) مقدّمة ابن خلدون 3/ 923 - بإشراف د. علي عبد الواحد وافي - ط1، 1379هـ/ 1960م.

(3) المصدر السابق، نفس المكان.

(4) الذخاير والتحف/ ورقة 49ب/ ؛ الأصناف ص111. والأبشيهي - المستطرف 2/ 226، وابن بسام ص62.

(5) مؤلف مجهول - الذخاير والتحف/ ورقة 103ب/ الأصناف ص111.

(6) علاء الدين ابن الحسين الطرابلسي/ معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام/ ص198، =

5 - النقيب:

يعرّفه صاحب «الذخاير والتحف» بأنه المرتبة السابقة لرتبة الشيخ[1] أي أن صاحب هذه الدرجة، يكون قد تجاوز مرحلة الأستاذ بالضرورة فقد عرف عن النقابة الأهمية الطبقية والمهنية في كل صنف، حتى عدّ النقيب بأنه أفضل وأقدم من الشيخ في بعض الأحيان وأقدم من الأبيار[2] حيث أن صاحب الذخاير والتحف، يسند هذا الرأي إلى عمقه التاريخي، فهو يذّكر دائماً بأفعال وأقوال الحسن البصري، يقول عنه: أن الحسن البصري كان يتفقد ويسأل عن النقباء، أكثر من تفقده وسؤاله عن المشايخ[3]، ويضيف: أن الحسن البصري، إذا شكوا إليه شيخاً أرسل إلى نقيبه، فإذا رأى النقيب جاهلاً أمر بعزل الشيخ. وكان يقول: (النقيب العارف يخشى حرمته وحرمة الشيخ) ومثّل النقيب بربّان السفينة، إذا صلح صلحت، وإن فسد فسدت[4]، وعلى هذا الأساس تكون المعرفة لزاماً على من يريد أن يتولى رتبة النقابة، وعليه أن يجتهد في طلب العلم، وأن يكون عارفاً عالماً بصناعته ومن ذوي العدالة[5].

والنقابة ثلاث درجات: النقيب الكبير، وهو المقدّم عليهم، وله الفضل، ويكون النقيبان الآخران تحت أمرته[6]، أو ما يعرف اليوم بـ«سكرتارية النقابة» وله مكانة محترمة وكلمة مسموعة بينهم، وتتحدد مهمات النقيب في - قيامه بعملية الشدّ[7] باعتبارها إحدى الرسوم الضرورية للانخراط في سلك المهنة، وقد يقوم النقيب بتنفيذ مهمة يكلفه بها الشيخ، تتعلق بأهل المهنة من تفقد لأمورهم وأحوالهم، كما أن النقيب يقوم بتزويد أهل

= طبعة القاهرة 1300هـ/ وهذا العرف لازال سائداً حتى اليوم عند أهل العراق، وأذكر أني في منتصف الستينات كنت صانع بنّاء/ مناول طابوق للخلفة والأستاذ، وهي من المراتب المتقدمة في الصنعة، فكان الأستاذ يضربني بـ«ربع الطابوقة» إذا أخطأت تقديرها في المناولة، لا سيما في عملية العكّادة «أو بناء السقف بالآجر» والطابوق وكنت أصبرعلى ذلك.

(1) مؤلف مجهول/ ورقة 5ب/ الأصناف ص114.

(2) الذخاير والتحف/ ورقة 126 ب، 127 ب/ والأبيار = هم أهل الحرف الذين مارسوها لأول مرة فنسبت اليهم، راجع الفصل الثالث من كتاب الأصناف، والملحق رقم 1، حيث فيه قائمة بأسماء «الأبيار» لكل صنف/ ص183.

(3) الذخاير والتحف/ ورقة 127 ب وورقة 128 أ/ الأصناف ص114.

(4) المصدر السابق/ ورقة 127 ب وورقة 19أ ب.

(5) صباح الشيخلي/ الأصناف ص114.

(6) الذخاير والتحف/ ورقة 126 ب/ .

(7) سوف نتحدث عنها بالتفصيل في الصفحات القادمة.

طائفته بالمعلومات الضرورية التي يحتاجونها، حيث يراسلونه من سائر البلاد يسألونه عن أمور مهنتهم، كما أنه يقوم بحثّ أهل مهنته على طاعة الشيخ والقيام بواجبهم نحوه، كما أنه كان له سلطة مالية، حيث أنه كثيراً ما كان يجمع الأموال من الأساتذة «ويسميهم أهل العراق الأسطوات»، ويصرفها في وجوه عدّة، كأن يخصص لشيخ الصنف مقداراً معيّناً من المال، إذا كان ليس له مورد، أو مساعدة مشدود فقير في إقامة وليمة الشدّ له، وكان أتباعه الذين شدّهم يرسلون إليه الهدايا، باستمرار، لا سيّما في المواسم والأعياد، حيث أن من صلب واجباته الدفاع عن مشدوديه، وستر أهل صناعته[1].

وعلاقة النقيب بالشيخ هي أنه مساعد له، حيث العرف المهني كان يؤكد أنه لا بد للشيخ من نقيب، ولكن قد يحدث أحياناً أن ينفرد النقيب بدون شيخ، فقد ذكرت المصادر[2] أن أحد النقباء انفرد في صنّاع بغير شيخ ثلاث عشرة سنة، كما لوحظ أن للنقيب الحق في عزل الشيخ إذا رآه جاهلاً، فقد روى صاحب الذخاير والتحف، أن نقيباً تخاصم مع شيخ وجادله لجهله وبعد أن تمّت المحاورات وظهر جهل الشيخ، اجتمع النقيب، هو وبعض الشيوخ، من الأصناف الأخرى، وقرروا عزله[3]، لذلك كان مركز النقيب، ولا يزال بمكان من الأهمية في التنظيم الحرفي.

6 - الشّيخ:

هو نهاية السلّم المهني، وهو الخبرة المكتنزة بالتجارب والمحن وفك العويص لكل إشكال مهني قد ينجم عند هذا الصنف إو ذاك، والإصطلاح يحمل معنيين، لغوي ومهني، في الأولى يعني: الذي استبانت فيه السن وظهر عليه الشيب، وقيل: هو من إحدى وخمسين إلى آخر عمره[4] وفي الجانب الثاني: يحمل من الجانب الأول شقّه الأخير، فقد جاء في عرفهم/ أي الأصناف/ الشيخ أو الرئيس، هو أحد أفراد الصنف، تميّز عنهم بفضله وعلمه وكثرة تجاربه، وإتقانه للمهنة[5]، ومن هنا يكون قد أفنى غالبية عمره في الصنف، حتى حاز على هذه المعارف العملية والعلمية من خلال التجارب فاستحق أن يكون شيخاً، لذلك، كان أحد الاشتراطات الرئيسية في الشيخ أن يكون عارفاً في دينه وفي صناعته،

---

(1) صباح الشيخلي/ الأصناف ص115.

(2) الذخاير والتحف/ ورقة 22 أ.

(3) مؤلف مجهول/ الذخاير والتحف/ ورقة 107 ب؛ الاصناف 116.

(4) اللسان - مادة شيخ.

(5) أنظر شروط ذلك عند ابن بسّام/ نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص18، والأصناف ص108 أيضاً.

بغضّ النظر عن أنحداره الطبقي، غنياً كان أم فقيراً[1]، ومن خلال هذه الخلال والآهلية يتمّ انتخابه من قبل أعضاء الصنف، والسلطة ملزمة بالاعتراف به وتعيينه، ويقوم المحتسب بهذه العملية باعتباره ممثلاً للسلطة العباسية والمسؤول عن هذه الأصناف[2].

وتنحصر وظائف الشيخ في صنفه، من خلال سلطاته الواسعة، فهو يمثّل الصنف في كافة القضايا العامّة، ويتدخل في تحديد الأسعار مع المحتسب، كما كان يستشار في أمور صنعته، حيث يرجع إليه عند الشك أو الاختلاف في أمر من أمور المهنة[3]، كما كان له الحكم على أبناء صناعته وكلمته مسموعة بينهم، كما كان من مهامه الموافقة على إنتماء الشخص على طائفته إذا رآه أهلاً لذلك[4].

وتتحدد علاقة الصنف بالشيخ من خلال جدارته برتبته، فلربما عُزل، إذا لم يكن أهلاً للمشيخة، وللصنف حق الاعتراض عليه وإبداله وعزله، إن لم يكن جديراً بموقعه هذا، فقد ذكر أنه قدمت شكوى إلى الحسن البصري عن «شيخ» غير جدير برتبته فامتحنه في أمور تخصّ مهنته، فلم ير فيه الأهليّة فعزله»[5]، كما للصنف الحق في عزل الشيخ عن طريق الخليفة نفسه بالطلب إليه بذلك[6].

كما أن الأمور العامة، الخاصة بالصنف، يحقّ مناقشتها مع الشيخ بالشكل الذي يحفظ العلاقة المهنية، وضمن شرطها الديمقراطي، شريطة أن لا يكون هناك تجاوز على سلطة الشيخ، كما يتوجب على الشيخ - في هذه العلاقة - أن يكون متسامحاً مع أهل مهنته[7].

أولياء الأصناف:

ثمّة أمر ديني - روحي يمد جذوره إلى الأصناف الإسلامية راسماً لها ترابطاً روحياً منذ عهد سابق على الإسلام، وبتقديرنا، أن هذا المنحى خضع لتطور فلسفي - تأويلي، لا

---

(1) الذخاير والتحف/ ورقة 101 ب/ الأصناف ص108.

(2) ابن بسام/ نهاية الرتبة/ ص18، والأصناف ص108.

(3) يذكر المسعودي في، مروج الذهب 4/ 428، أنه سرقت عشر بدر من دار صاحب عطاء الجيش، ولم يعرفوا السارق، فجاؤا بـ«التوابين» وهم شيوخ أنواع اللصوص الذين قد كبروا وتابوا، فأرشدوهم إلى الفاعل.

(4) ابن بسام/ ص108؛ باب الأطباء والقصّارين. وراجع القلقشندي، صبح الأعشى 5/ 467 وما بعدها، والذخاير والتحف/ ورقة 90أ/ والأصناف ص109.

(5) الذخاير والتحف/ ورقة 29 أ/ .

(6) الذخاير والتحف/ ورقة 86 أ/ .

(7) المصدر السابق/ ورقة 170 -؛ والأصناف ص110.

سيما عند الفرق الشيعية في الإسلام، حيث يظهر التأثير الشيعي واضحاً في أصول وفروع الأصناف، فقد أصبح إلزاماً على الصنف أن يعرف كل أعضائه ومن هو وليّ الصنف وبيره، ويتحدد ضمن هذا التقسيم الديني معرفة صدور الأصول المنحدرة منها الأبيار، والتي ترتبط مباشرة من خلال هؤلاء بشخصية الإمام علي ﷺ [1]، وعلى هذا الأساس أصبح لكل صنف وليّ، ويعتبر الولي واضع هذه الصناعة، ومبتكرها، فإذا لم يكن من الممكن ردّ أصل الحرفة إلى واضعها نسبت إلى آدم[2].

عندهم، أنهم يتسلمون أصالة الحرفة من معرفة الولي الذي صدرت عنه، وبذلك يحصل «الإطمئنان لطالبها وتزيد رغبته فيها» كما زعموا «أن معرفة الولي تحلل الكسب»، وقد إهتمت الأصناف جميعها بمعرفة أوائل أهل الحرف، وأثاروا حولهم الأسئلة بغية كسب المعرفة بالأصول، والتفاضل فيما بينهم، حتى وصل بهم الأمر إلى الاقتتال والمنازعة[3]، وقد أعطوا للمهنة الأخروية أفضلية على غيرها، واعتبروا العِلم سيد الحرف وأفضلها، وتأتي حرفة الزراعة والخياطة والدباغة والحلاقة والتجارة، حسب الترتيب، بعد حرفة العلم والجهاد[4].

قسّم أصحاب الأصناف أولياءهم إلى عدة مراتب، فالصناعة تنسب إلى الفروع الصحابية ثم إلى الأصول المصدرية، ثم إلى الجذور الأصلية[5].

الجذور:

وهم في الأصل من الأنبياء والمرسلين منهم:

1 - آدم: هو أول من حرث وزرع، فنسبت إليه مهنة الزراعة.

2 - شعيب: هو أول من صنع المغزل والنول، فنسبت إليه أنواع الغزول وحتى صناعة الحصير.

3 - إدريس: هو أول خيّاط أمسك بالخيط، وهندس وفصّل، وكل من يمسك بالإبرة ينسب إليه.

---

(1) الذخاير والتحف/ ورقة 5 ب و6 ب/ الأصناف ص119.

(2) السكتواري/ علاء الدين علي ددة بن مصطفى/ محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر/ ص194. طبعة1، المطبعة العامرة الشرفية - القاهرة سنة 1311هـ.

(3) السكتواري/ نفس المصدر/ ص294.

(4) المصدر السابق/ ص294.

(5) الذخاير والتحف/ ورقة 50أ / الأصناف ص116.

4 - نوح: هو أول من صنع آلات التجارة، فنسبت هذه الحرفة إليه.

5 - إبراهيم الخليل: أول من بنى، فأصبح كل المهندسين والبنائين، أتباعاً له.

6 - داود: وإليه تنسب صناعة الحديد، فأصبح كل من اشتغل بالحديد والمعادن تابعاً له.

7 - عيسى بن مريم: كان صبّاغاً، فصار كل صباغ، وكل صناعة تحتاج إلى لون من الألوان نسبت إليه.

8 - سليمان: اعتبر العارف بالأدوية والعقاقير، وإليه ينسب أصحاب هذا الصنف «الصيادلة».

9 - النبي محمد ﷺ: كان تاجراً ومجاهداً، واعتبرت صناعته جامعة لكل أنواع الصناعات.

وهذا الأمر يضفي صفة تقديسية على أهل المهنة، وهو أمر يؤول إلى المنشأ الديني والروحي عندهم[1].

وثمّة أمر في أصل هذه الأصناف وجذورها يعود إلى الإسلام حصراً في تصنيفها، فقد أشار السكتواري إلى ملاحظة هامّة ودقيقة في هذا الصدد تقول[2]: «ولا يجوز الانتساب بالحرفة إلى خلاف الملّة الإسلامية»، وهذه الملاحظة تعطينا فكرة واضحة عن مدى الإنعكاس الأيديولوجي الإسلامي، في وحي الناس، كما أنها تؤكد بأن الإسلام - كفكر - هو من المرونة بمكان، بحيث يستجيب إلى مقومات اللحظة الراهنة التي يعيشها. وهذ العبارة تفنّد كل الآراء الإستشراقية، التي تعتبر الإسلام ديناً غيبياً فقط.

قد يلاحظ القارىء أن في هذه العبارة تزمّتاً نحو الإسلام، هذا صحيح، ولكن بقية الجملة تقول ما يلي: (وإن كان يجوز أخذ المعرفة من الكافر/ غير المسلم/ عند الضرورة، ممّا يحتاج إليه بنو آدم، فمتى كانت الحرفة مباحة في أمر المعاش، ولم يعرف من التاريخ على التحقيق واضعها الأول، فالانتساب بها إلى أبي البشر آدم الصفي عليه السلام [3] وهنا تتوضّح مدى المرونة في أخذ المهنة من غير المسلم، ولكن بتخريج معقول، حيث أسندت إلى بعدها الإنساني/ آدم/ أبو البشر، على اعتبار أنه علّم ألف حرفة[4].

---

(1) صباح الشيخلي/ الأصناف ص117 - 118، والسكتواري/ محاضرة الأوائل ص195.
(2) محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ص195.
(3) المصدر السابق/ نفس المكان.
(4) نفس المصدر/ ص197.

أما الأبيار[1]: فهم رعاة أصحاب الحرف، وهم من بين الصحابة والتابعين، وقد صار معروفاً عند الأصناف أن البير، هو أول من ابتدأ الحرفة وليس لهم سابق سواهم ظهر من عهده الشريف[2]. كما أوجدوا بيرا لكل مرتبة من مراتب الصنف، ويستوجب على الأصناف تعليم أبنائها لأبيارهم، بل ظهرت هناك توعدات بالعقاب/الديني - المهني/ لأولئك الذين لا يعرفون أبيارهم ولا يتتبعون أخبارهم[3]، وليس ذلك فحسب، بل يتوجب على الحرفي في الصنف معرفة الأبيار في صناعتهم والاهتمام بذلك[4]، ووافق دستور الأصناف الإسلامية على نسبة أحد الحرف والصناعات المفيدة إلى أحد الأبيار، وبعكسه، فإن ذلك لا يجوز نسبة حرفة ما، أو بدعة سيئة تؤدي إلى الضرر[5] أي أن عامل الإبداع بشكله الإيجابي مقبول عرفاً وقاعدةً، وهي مسألة تبيّن مدى النظرة الإنسانية الباعثة على الخير.

قسّمت الأصناف أبيارها إلى أصول وفروع، فالأصول، هم الصدور الذين أخذوا عن الإمام علي ﵇ [6]، وعددهم سبعة عشر، أولهم سلمان الفارسي، وآخرهم المعجز القصّار[7]، وعلى ما يبدو أن للفكر الشيعي أثراً واضحاً في هذا التنسيب للأصناف، ولا ريب في ذلك، فإن التشيّع، أصبح ذا طابع شعبي وجماهيري بعد دخول الموالي إليه، ولسلمان الفارسي وقع خاص عندهم.

أما الفروع لهذه الأبيار، فهم الحماة الثانويون للأصناف المختلفة، لأصحاب الحرفة الواحدة، وتمتد جذورهم إلى سلمان الفارسي[8]، وأوّلهم سلمان الكوفي - بير السقائين، وآخرهم محمد بن عبد الله - بير الرسامين[9]، وتشير الباحثة صباح الشيخلي إلى أنه يوجد

---

(1) البير: بالتركية = تعني المقتدي، وتعني الشخص الذي ينسب إليه الصنف، ويكون أول من مارس هذه الحرفة، وتعني بالفارسية: شيخ الشيوخ/راجع الأصناف، ص118، هامش رقم 173.

(2) الذخاير والتحف/ ورقة 12 ب/ الأصناف ص118.

(3) المصدر السابق/ ورقة 28 أ.

(4) المصدر السابق/ ورقة 147 أ/. الأصناف ص118.

(5) المصدر السابق/ ورقة 5 ب/.

(6) الذخاير والتحف/ ورقة 6 ب/ عند الشيعة في العراق اعتقاد وإيمان، أن الإمام علي هو/ بير العلم/ وهذه المسألة معكوسة بشكل واضح بفلكلورهم الغنائي والطقوسي الآخر.

(7) راجع الأصناف/ ص183/ حيث نقلت الباحثة صباح الشيخلي قائمة بأسماء الأبيار الأصول، كما وردت في مخطوط/ الذخاير والتحف/.

(8) الذخاير والتحف/ ورقة 7 ب/ الأصناف ص119.

(9) بلغ عددهم/ 44 كما ورد في الملحق رقم 2 عند الباحثة صباح الشيخلي/ الأصناف ص185 - 187.

هناك أبيار وفروع[1] لا ينتمون إلى السلسلة السلمانية، لأنهم ظهروا بعد أن شدُّ سلمان الفروع ومنهم - بير الطبالين عبد الرحمن بن حبيب النجار، وعمرو بن العاص بير الحكم، وهو أوّل بيربين متبازرين، وقد إنقطعت سلسلته أيام الرشيد[2]، وظهر في زمن التابعين شيخ الطحانين وشيخ المعصرية وشيخ السيارج وغيرهم، وقد نظّمهم الحسن البصري، وجعل لكل منهم (عقَدة) تعقد في الحزام، لأنهم أبيار وأخيار[3]، وعلى كل الأصناف أن تعرف بداية كل سلسلة ينتمون إليها كابراً عن كابر.

الإنتماء إلى الصنف:

يقتضي عرف الأصناف شروطاً خاصة لكل طالب وإنتماء إليها، وقد أفادتنا الباحثة صباح الشيخلي في كتابها الهام/ الأصناف في العصر العباسي/ بكثير من الأمور الهامة، فلها فضيلة السبق علينا، ولها منّا الشكر على هذا العمل القيّم.

قبل السماح لأي شخص في الإنتماء إلى حرفة ما، وجب عليه أن يختار أستاذاً يعلّمه أسرار المهنة أو الصنعة، ويجتهد ويتعب نفسه في تعلّمها، فإن إتقان الصنعة أمر ضروري قبل ممارستها[4] وبعد الاجتهاد يعرض/ التلميذ أو الصبي أو الصانع/ نفسه على خبراء، ليبينوا مدى إتقانه لها، أو ما نسميه الآن - اختبار فني - فإذا ما قرر هؤلاء الخبراء آهليته لممارسة تلك المهنة يذهب بعدها إلى شيخ ونقيب صنعته، ويقنعهما بأنه قادر على الانخراط في مهنتهم، وبعد الموافقة يطلب الشيخ حضور أستاذه/ ويسمونه (كبيره) للتحدث معه، فإذا ما حضر الأستاذ، جرى الكلام وطالت المناقشة، فيسأله الشيخ عن العلم بالصناعة والعمل، حتى يراه مكتملاً فيقول لأستاذه «إن كنت راضياً عنه أطلب الواجب منه»، وبعد أخذ رضى الأستاذ لا بد من أخذ رضى وموافقة جد الشخص، إذا كان موجوداً، لأن العقَد يتمّ بإسم الجد، ومن ثم يتفق الشخص هو والنقيب على يوم «يحصل فيه الكلام»[5] فإذا ما حلّ ذلك اليوم، فإن على الشخص الراغب في الإنتماء إلى الحرفة المعنية، أن يقيم وليمة يدعوا إليها أبناء تلك الصنعة[6] ويسميها أهل العراق/ عزيمة/ ويتحتم على كل شخص أن يقيم وليمة،

---

(1) الأصناف/ ص119.
(2) الذخاير والتحف/ ورقة 56أ و56 ب.
(3) المصدر السابق/ ورقة 104 أ.
(4) الذخاير والتحف/ ورقة 63 ب/ الأصناف ص120.
(5) الذخاير والتحف/ ورقة 63 ب و64 - ب، الأصناف ص120.
(6) نفسه/ ورقة 64 ب/.

ولا يجوز أن يجتمع أكثر من واحد على إقامة وليمة واحدة[1] هكذا هو العرف، وارتؤوا أن الشخص إذا كان فقيراً غير قادر على إقامة الوليمة فإن النقيب يقوم بمساعدته[2]، والوليمة جائزة في جميع الأعمال «لأن الوليمة كما يعتقد أهل الصنف» لله سبحانه وتعالى. ، وهي جائزة في العهد والشدّ[3]، وهي تقام للستر والعفو وكفّارة عن أهل المهن[4]، وإذا كانت بين الشخص طالب الإنتماء وبين شخص آخر مشاحنة، يجب أن يصالحه ويرضيه، وإذا كان يوم الحفل، يقف النقيب ويقوم بعملية الشد[5].

عملية الشد:

وعمليّة الشد أو ربط المحزم، هي أهم شعيرة في الحفل الذي يقام لقبول الشخص في الصنف، وكان هذا الحفل مرعياً منذ (ق 6هـ/ 12م) كما يقول ماسينيون[6]، فيما كان صاحب الذخاير والتحف، يرى أن المسألة أقدم من ذلك بكثير، حيث يرجع أصلها إلى عهود الأنبياء والأولين[7] لأنهم ليس في عصمتهم شك ولا ريب، وهذه العملية/ الشدّ/ هي التي تعلن - بعد إنتهائها - قبول العضو الجديد في الصنف، حيث عادة يكون القَسَم قد سبقها، والمشدود، عند قبوله - إن كان مسلماً - يشترك مع الجماعة/ الصنف/ في تأدية شعائر وطقوس هذه العملية، ومنها أنه يردد قراءة الفاتحة والسلامات السبعة، ومدائح نبوية بعد أن يكون قد أخذ العهد، ثم تأتي شعيرة الشدّ، حيث يقف المريد أمام النقيب أو الشاد خاشعاً، ويتولى النقيب شدّه، أمّا حول وسطه، وأمّا حول رأسه، أو حول كتفه بمحزم من النسيج، أو بفوطة أو منديل أو غيبة أو زنّار من الحرير أو الصوف أو بأي شيء مفتول. وهذا المحزم يعقد مرّات كثيرة متتالية، أو يلّف أربع مرات عادة/ وأحياناً ثلاث أو سبع أو ثماني مرات/ ولكن الأربع هي الأثبت، وعند كل عقدة، ترتل أدعية لأحد الأولياء الذين

(1) نفسه/ ورقة 109 ب/ .
(2) نفسه/ ورقة 26 - / الأصناف ص 121.
(3) نفس المصدر السابق/ ورقة 100 - / .
(4) نفسه/ ورقة 138 ب/ .
(5) نفسه/ ورقة 64 ب/ الأصناف ص121.
(6) دائرة المعارف الإسلامية 13/ 179 - مادة الشد - ترجمة أحمد الشنتاوي وجماعته، وماسينيون يرجع أصل هذه الأصناف، بمعناها النقابي المعاصر إلى حركة القرامطة، ويرجع بأصل تنظيماتها إلى حركة أخوان الصفا، راجع ذلك في دائرة المعارف الإسلامية - مادة صنف - 14/ 354 - من نفس الطبعة.
(7) الذخاير والتحف/ ورقة 48أ - 49أ / الأصناف ص121.

يعتقد في بركتهم[1]، فإذا كانت العقد أربعاً، فالأدعية تعظيم لجبريل ومحمد وعلي وسليمان باعتبارهم من المشدودين، وفي هذه الحالة تضاف عقدتان أخريتان، يطلقون عليهما - الخرسة والشكلة - تعظيماً للحسن والحسين[2]، وهذا الأمر يظهر مدى التأثير الشيعي في الأصناف، وطرق الإنتماء إليها.

وشعيرة الشدّ، ميّزة لدخول الشخص في الحرفة (على بساط الله في ميدان علي بين الفتيان) وهو تقيّد الداخل بالحرفة، مسلماً كان أو من الديانات الأخرى - نصراني - يهودي - وهو يعني الإلتزام بواجبات المشدود إزاء الجماعة كلها، وهذه الطريقة مشابهة للصوفية في تقيّد المريد بعهد الخرقة، إزاء أهل الطريقة[3]. وهناك طريقة أخرى تسمى «التخاوي» أو «العهد بدون شدّ» حيث لا يربط الداخل، إلا مفرد واحد عن طريق نوع من الأخوّة[4]، وهي قليلة عندهم، وبعد عملية الشدّ، يحلق للمشدود، أحياناً جزء من شعره/ مثل اللّمة أو الشارب أو اللّحية» ثم يلبس ملابس خاصة، ويسمونها «اللباس أو السراويل» عند أهل الحرف القدماء، أو القعرس أو الطاقية، على الرأس عند أصحاب الطريق، وهناك يؤخذ على الداخل في الحرفة العهد أو البيعة، أو ميثاق الإخاء، وتلقى إليه بعض التعاليم الخفيّة المتعلقة بواجباته الجديدة مع «إجازة» بممارستها، ثم يأخذ مكانه على البساط أو السجادة، إلى جانب إخوانه لتناول الطعام التقليدي المعروف عندهم بـ«الوليمة أو التلميح»[5]، ويتضمن العهد، اختبار مسيرة الفرد وتعلّمه وخدمته وأدبه وفهمه، فإذا كان غير لائق لا يعطى له العهد[6]، ويقوم بهذه العملية الأستاذ المشرف عليه، ويصاحب ذلك عادة عدد من الأشخاص ليكونوا شهوداً على ذلك[7].

ثمة أمر هام أوضحه صاحب/ الذخائر والتحف/ بمسألة شدّ العُقد الأربع الأساسية، حيث ذكر أن العقدة الأولى هي عقدة كبير المشدود/ أي أستاذه/ وهو الاعتراف بالجميل والعرفان لصاحب الصنعة والمعلّم الأول، وعند عقدها تقرأ مقدمة للكبير، هي بمثابة

(1) سيجد القارىء في نهاية هذا الفصل «طقوس الأدعية وكلماتها عند كل دور» وهي مأخوذة من مخطوط «الذخاير والتحف في بير الصنايع والحرف» كما أوردتها الباحثة صباح الشيخلي في الملحق الخامس والسادس.

(2) ماسينيون - دائرة المعارف الإسلامية 13/ 180؛ والأصناف ص121.

(3) ماسينيون/ المرجع السابق.

(4) ماسينيون/ نفس المرجع.

(5) ماسينيون/ نفس المرجع؛ والأصناف ص121.

(6) الذخاير والتحف/ ورقة 102أ / - الأصناف ص122.

(7) الذخاير والتحف/ ورقة 30أ / .

تعريف به، وتقرأ بعد ذلك آيات من القرآن الكريم[1] والعقدة الثانية هي عقدة الجدّ، حيث يذكر كلام يدور حول التبريك به، وكذلك تقرأ آيات من القرآن الكريم، والعقدة الثالثة وهي عقدة البير، وهنا يذكر النقيب الكلام الخاص بالبير، ثم يقرأ آيات من القرآن الكريم أيضاً[2]. أما العقدة الرابعة فهي عقدة الإمام علي ، وهنا يردّد النقيب - الدور أو الكلام الخاص بالإمام، ثم يقرأ بعضاً من آيات القرآن الكريم، وبعد ذلك يقوم بشدّ عقدتين أخريتين للحسن والحسين، ويقرأ الدور الخاص بالحسن، ثم الدور الخاص بالحسين، ثم يقرأ بعض الآيات القرآنية[3]. وبعد شدّ هذه العقد يبدأ النقيب بتلاوة دعوات مأثورة له وللمسلمين وولاة الإسلام، وللعلماء وللسلطان[4].

كل هذه الأمور تجري للمرة الأولى في حياة العضو الجديد، كما يقرّه دستور الصنف، وهذه العملية بكامل طقوسها تعاد عليه، في حالة فرط عقده من الصنف، وذلك عند ارتكابه إحدى الفواحش، فإذا ما استغفر عن هذا الذنب والتزم بعدم تكراره، يعيد النقيب شدّه مرة أخرى في حفلة جديدة[5]، وقد تقام حفلة الشدّ، لا من أجل الدخول في الصناعة، وإنما لبداية شخص اتبع سبيل الفساد، فتقام وليمة يحضرها الشيخ وأتباعه، حيث يقوم النقيب بعملية الشدّ، ومن ثم يرجع - الشخص - حسب اعتقادهم - عن أفعال الشر[6]، وهنا يتوضّح أن في عملية الشدّ جانباً أخلاقياً إزاء الناس وإزاء المهنة، وهو معكوس ديني - مهني، إسلامي صرف، يحمل دلالاته الحضارية، حيث ربط الجانب الأخلاقي بالعمل.

يصاحب هذه العملية/أقصد عملية الشد/طقس خاص، ويقوم به المشدود، هو أن يدفع المشدود إلى النقيب والشيخ، بعض المبالغ والهدايا، سمّيت «النقوط، أو الرضا»، وقد ذكرت المصادر أن أحد النقباء، جمع ألفاً وخمسين ديناراً وسبعمائة وثلاثين كسوة من عمليات الشدّ التي أجراها[7].

ومن هنا يتبيّن أن النقيب هو الذي يقوم بعملية الشد، ولا تعتبر عملية الشدّ كاملة

(1) الذخاير والتحف/ ورقة 152 ب/ - الأصناف ص122.
(2) نفسه/ ورقة 153 ب/ - الأصناف ص123.
(3) نفسه/ ورقة 153 ب/ .
(4) نفسه/ ورقة 154 ب/ - الأصناف ص123.
(5) نفسه/ ورقة 14 ب/ .
(6) نفسه/ ورقة 70 ب و71أ / - الأصناف ص123.
(7) الذخاير والتحف/ ورقة 22أ / - الأصناف ص123 - 124.

وصحيحة بدون حضور أحد الشيوخ، وإذا ما غاب النقيب، لسبب من الأسباب، فإن الشيخ يقوم بذلك، والمشايخ الذين يصحّ الشد بحضورهم هم الذين يعرفون علم الأولين، حتى يفيدوا الطالبين، وهؤلاء هم: شيخ الأطباء، وشيخ الحلاقين - الفرع السليماني، وشيخ السقائين، وشيخ القبانيّة، وشيخ العطارين، وشيخ الجاديشية/ نقباء الديوان/ وشيخ الكتبيّين - الكتّاب والورّاقين -[1]. وقد أعطى امتياز خاص للشيخ السليماني/ أي شيخ الحلاقين/ أن يشدّ لصناعته ولغير صناعته، فإذا حضر وحده يكون الشدّ به صحيحاً، وبعد إتمام علية الشدّ يعطي النقيب الشخص المشدود ورقة بخطّه وختمه، وفيها تاريخ اليوم الذى شدّ فيه، والبيّنة على ذلك[2]. بعد ذلك تتجمع عند الشخص المشدود وثائق هي: العهد والشدّ، والإجازة، المؤيدة بشهادة الشيخ وأمضاء القاضي[3]، وبيان من الشيخ الذي شدّ على يده الشخص بعد ذلك يصبح الشخص المشدود، مؤهلاً كاملاً لممارسة الصنعة، والإجازة هي التي تساويه بأستاذه، وقتها يصبح مالكاً قيادة نفسه، حرّاً بعد أن كان مرتبطاً به[4]. فإذا كان هناك شخص معهود ومشدود، لا يحق له أن يمارس المهنة أو يفتح دكاناً إلا بعد حصوله على الإجازة، وهذا التقليد، يذكره صاحب/ الذخيرة والتحف/ على أنه سار منذ أيام الحسن البصري[5]، الأمر الذي يشير إلى أهميّة الإجازة في الصناعة عند أهل الاصناف، والطريق إلى الإجازة ليست سهلة، بل يجب أن تمرّ بالمراتب الأربع، المبتدىء - الصانع - النقيب - الشيخ - بالإضافة إلى الحصول على العهد والشدّ في كل رتبة، وبعد ذلك يتمّ الحصول على الإجازة كما مرّ بنا[6].

وهناك مسألة «القَسَم» وهي تشكل أحد الثوابت الأساسية في دستور الأصناف، كعرف متّبع يجري الإلتزام به، ويمارس القَسَم عادة، أثناء عملية الشدّ، حيث أن النقيب يطلب من المشدود أن يُقسِم اليمين المعقّد بالله العظيم[7] على عدم الغشّ فيما يصنع، ويقوم المحتسب والعريف، أثناء مراقبتهما للأسواق بالتوكيد على ضرورة الحلف/ القسم/ على الأصناف، وعليهم أيضاً أن يحلفوا على ضرورة إتقان الصنعة، وعلى عدم الإتفاق فيما بينهم/ فيما بين الأصناف/ على غشّ المتعاملين معهم، وأن يتقيّدوا بمقادير المواد

---

(1) نفسه/ ورقة 59 - ب، 60 - ب، 61أ / - الأصناف ص124.
(2) نفسه/ ورقة 25أ / - الأصناف ص124.
(3) نفسه/ ورقة 44 ب/ .
(4) نفسه/ ورقة 44 ب/ - الأصناف ص125.
(5) نفسه/ ورقة 129 ب/ .
(6) للأصناف ص125.
(7) الذخاير والتحف/ ورقة 133 ب/ .

الأولية التي يستخدمونها وبنوعيتها[1]، وقد اعتبر ماسينيون أن القَسَم يعود بجذور تاريخية في هذا المجال إلى القرامطة، في نطاق أنظمتهم الداخلية كحركة سياسية[2].

واقتضى عرف الأصناف، انتساب الصانع إلى صنعته، والحرفي إلى حرفته، فأصبحت ألقابهم مشتقة من أسماء المهن والحرف، كالخمّار والجرّاح والاسكاف والحدّاد والنجّار والبزاز والعطار والجوهري والنفّاط والسرّاج والزجّاج والورّاق والقصّاب، وغيرها[3].

كما التزمت الأصناف بعرف آخر هو «توارث المهنة» من الآباء للأبناء وهو أمر كانوا يرون فيه عدم القدح في المهنة والنسب[4].

ومن أعرافهم أيضاً «التعصّب للمهنة والتعاون بين ذوي المهن» حيث أصبح هذا الأمر شائعاً بين الأصناف، وقد استوقف هذا الأمر الجاحظ، وأثنى عليه، وهو في معرض حديثه لذمّ الكتّاب، فقد وصف أصحاب الصناعات، وذكر تعاطف أهلها مع نظرائهم، وتعصّب رجالها على غيرهم، فقال[5]: «لا أعلم أهل صناعة إلا وهم يجرون في ذلك إلى غاية محمودة، ويأتون منه آية مذكورة، إلا الكتّاب، فإن أحدهم يتحاذق على نظرائه بالاستقصاء على مثله، ويسترجع رأيه إذا بلغ في نكاية رجل من أهل صناعته، من أهل الأصناف على الاعتزاز بمهنهم وصار شعارهم «الصناعة نسب»[6]، وعدّ التضامن المهني والطبقي صفة واضحة»، وقد أشار ابن الأثير إلى مثل هذه الأحداث حين قال: وفي شوال/ سنة 422 هـ/ وقعت فتنة بين أصحاب الأكياس وأصحاب الخلعان، وذكر غيرها من الحوادث[7]، ولقد أدّى التعصّب للمهنة إلى التعاون بين أبناء الصنف الواحد، وشعورهم بالارتباط الوثيق مع بعضهم بعضاً، فيذكر عن شيخ حجّام، أنه رفض أن يأخذ أجرة حجامته من حجّام آخر لانهم «أهل صناعة واحدة»[8]، حتى وصل تضامنهم المهني إلى حدّ

(1) ابن بسّام/ نهاية الرتبة في طلب الحسبة/ ص41 و50، كنماذج على «الزلبانيين - أصحاب الزلابية وأصحاب هرايس التمر ومطبوخ العدس/ وغيرها من المواضع، وهي كثيرة وواضحة/ أنظر الأصناف ص130.

(2) دائرة المعارف الإسلامية 1/ 181 - مادة الشدّ -.

(3) أنظر الأصناف/من 130 - 131، ومصادر إحالاتها.

(4) ابن الأخوة القرشي/ معالم القربة في طلب الحسبة/ ص314، الباب 51 في القضاء والشهود

(5) رسائل الجاحظ 2/ 199 - 200، رسالة في ذمّ أخلاق الكتّاب/ وأنظر الأصناف ص132.

(6) الأصناف ص132.

(7) الكامل في التاريخ 8/ 419 وغيرها في أحداث سنة 422هـ.

(8) الأصناف ص133.

أنهم كانوا يخلون السوق للمحتاج ليسدّ خلّته، فقد ذكر الجاحظ للكتّاب قوله[1]: «وأنه ليبلغني أن رجلاً من القصابين يكون في سوقه، فيتلف ما في يده، فيخلي له القصّابون سوقهم يوماً، ويجعلون له أرباحهم، فيكون بربحها منفرداً، وبالبيع مفرداً، فيسدّون بذلك خلّته ويجبرون منه كسره». كما كان من عرفهم أن يساعد أحدهم الآخر، في حالة الخسارة، وكانوا يتعاونون على ستر عيب بعضهم، وعلى تحديد الأسعار، وعلى ذكر محاسن المتقدمين من أهل كل صناعة[2].

وضمن أعرافهم الأخرى «إجتماعهم للمسامرة والمذاكرة»، كتقليد عندهم، حيث كانوا يجتمعون بين فترة وأخرى للتباحث في أمور مهنتهم[3]، وقد كان للورّاقين القدح المعلّى في ذلك، حيث وردت أكثر من إشارة وعبارة إلى ذلك، من عند التوحيدي، يذكر هذه المجالس[4].

لقد حافظت هذه الأصناف على ترابطها المهني طوال أغلب فترات العصر العباسي، حيث يرجع تاريخ تنظيمها إلى (ق 3هـ/ 9م). وقد ارتبطت هذه الأصناف بالحركات الاجتماعية والفكرية، وكان للقرامطة الدور الأبرز في ذلك[5]، فقد بلغت هذه الأصناف أوجّ تطورها في البلاد الإسلامية الخاضعة للدولة الفاطمية في مصر، وبقيت كذلك، حتى إسقاط هذه الدولة على يد صلاح الدين الأيوبي، حيث خضعت تلك الأصناف/ النقابات/ إلى إشراف الدولة، إضافة إلى بروز سيطرة الدولة العباسية على هذه الأصناف عن طريق نظام «الحسبة» ونظام «الحبوس» أو ما يعرف الآن بنظام «الأوقاف»، ولكن بَطُل هذا النظام في (ق 4هـ/ 10م) حتى (ق 6هـ/ 12م)، وفي هذين القرنين شهدت النقابات عصرها الذهبي، إلا أن الدولة أعادت السيطرة عليها في (ق 6هـ) ووضعت الأصناف تحت المراقبة عن كثب، لأنه اشتبه في أنها/ الأصناف/ كانت تتسم بميول قرمطية وثورية[6]، وإزداد تدخل الدولة في شؤون الأصناف - بعد أن كانت حرّة - فأصبح للسلطان حق عزل وتولية شيخ الأصناف، وكذلك التدخل في طقوسهم حتى، من قبيل عملية الشدّ وغيرها، ثم أصبحت الأصناف مؤسسة خاضعة لأمر الدولة، بعد أن كانت تنظيماً شعبياً[7].

---

(1) رسائل الجاحظ 3/ 200 - 201 رسالة في ذم أخلاق الكتّاب؛ والأصناف ص134.

(2) الأصناف ص134 - 135.

(3) الأصناف ص135.

(4) انظر: كتاب المقابسات، حيث تجد الكثير وسوف نورد ذلك في فصل/ مجالس العلماء، في سوق الورّاقين، وحكايا ونوادر في سوق الورّاقين في هذه الدراسة.

(5) لويس ماسينيون - دائرة المعارف الإسلامية - مادة صنف - 14/ 354.

(6) المرجع السابق 14/ 356.

(7) الذخاير والتحف/ ورقة 115 أ ب و30 أ ب/ الأصناف ص147.

والورّاقين، كصنف من هذه الأصناف، فقد وجب عليهم الإلتزام بشروط المهنة، التي فرضها عليهم المحتسب، وخضعوا لمراقبته وتوجيهاته، وتظهر العلاقة بين المحتسب والورّاقين أنها ليست وديّة، في إطارها العام، فقد كانوا شبه متهمين أمامه، بشكل عام، فقد كان الجانب الأخلاقي، يحكم هذه العلاقة، وعدّوا من المنجمين[1]، الأمر الذي يحكم النظرة إليهم بمحمولها الديني فقط، لذلك اشترط عليهم أن لا يجلسوا في درب، ولا في زقاق ولا في حانوت، بل على قارعة الطريق، لا سيّما كتّاب الرسائل منهم[2]، وينبغي أن يمنعوا من الارتزاق منها، وأن يرتزقوا من وجوه غير هذه الوجوه، لأنه كذب ومحال/ يقصد التنجيم/[3]، واشترط المحتسب عليهم أن لا ينفرد واحد منهم بإمرأة في منزله ولا في دهليزه، وشروط أخرى، وإذا لم يلتزموا بها، وجب عليهم الأدب[4].

ومن هذا يتبيّن أن النظرة لهم لم تتعمّق بعد من قبل الدولة في بادىء الأمر، ولم يجر تميزهم بشكل دقيق في عرف المحتسب، فحتى حين فصل بين المنجمين وبين كتّاب الرسائل على الطريق، والرقاع والدروج، أو ما يعرف اليوم بـ«كتّاب العرائض»، فقد ظلّ يعاملهم معاملة حذرة، إذ جاء في توصياته ما يلي[5]: «ينبغي أن يُعرّف عليهم عريفاً، ويأمره بأن يتقدم إليهم ويأمرهم بأن لا يكتبوا كتاباً في سبّ أحد، أو شتمه، أو قذفه»، ثم يضيف إلى ذلك، ويحلفون بالله العظيم، أن لا يتجاوزوا ما جرت به العادة في المكاتبات من استعلام الأخبار، وذكر ما تجري عليه الأحوال، فمتى جرى الأمر هكذا لم يكن على الكاتب طريق الذم، ولا عيب، ولا تغرير، ومن خالف أدّب[6]. فيما أشار إبن الأخوة القرشي إلى بعض الزيادات من مثل[7]: ألا يكتبوا ما لا جرت به العادة من كتاب الشروط، من مبايعة ولا عهدة ولا إجارة، ولا وثيقة ولا فرض، ولا ما هو من وظائف العدول وكتابتهم، ولا ينسخوا لأحد نسخة مسطورة بيده ولا عهده ولا نسخة إجارة، ولا يكتبوا لامرأة رسالة لرجل أجنبي، فلا يكاد يخفى ذلك عليهم من خطابها له في الكتاب، ولا يكتبوا أمراً يتعلّق بأمور الدولة، ولا يجاوزون ما جرت به العادة من كتابة رسائل واستعلام خبر، وما فيه فائدة مختصة بالمرسل، وما لا يتعدى فيه ضرر للغير، ومتى وجد

---

(1) ابن الإخوة القرشي/ معالم القربة في أحكام الحسبة/ ص275 - الباب 49، وابن بسّام ص170.
(2) ابن الإخوة/ ص276.
(3) ابن بسّام/ ص170.
(4) ابن بسام/ نفس المكان؛ ابن الإخوة/ ص276.
(5) ابن بسام/ ص171؛ ابن الإخوة/ ص276.
(6) ابن بسام/ نفس المكان.
(7) ابن الإخوة/ ص276.

أحداً منهم خرج عن ذلك، وكتب ما منع منه، أقامه المحتسب وأدّبه، فإن تاب أعاده، فإن رجع عزره[1].

وعلى ما يبدو، أن مهنة الوراقة كانت تتقدم شيئاً فشيئاً، وتفرض نفسها على الواقع، متجاوزة، حدودها المرسومة من قبل المحتسب، حيث أصبحت مهنة حضارية، لا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً، وأخذت تفرض وجودها كمهنة مثقفين، وراح سوقها في بغداد يفرض رواج بضاعته، ويتباهى بزوّاره وروّاده العلماء والأدباء، فقد كان سوقهم مجلساً للعلماء والشعراء، كما يقول ابن الجوزي[2].

الفصل الثالث

تعريف الوراقة والوراقين

الورّاق في اللغة، هو ذلك الذي يمتهن حرفة الوراقة، يقال رجل ورّاق، هو الذي يورّق ويكتب، وتأتي أيضاً، مورّق الكتب، أي حرفته الوراقة[3]، فيما عرّف ابن خلدون الورّاقين بقوله: الذين يعانون إنتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها والاشتغال بسائر أمور الكتابة[4]، وكنسبة للمشتغلين بشؤون الوراقة، فإن السمعاني يعرّف الورّاق بقوله: الورّاق بفتح الواو وتشديد الراء في آخرها القاف: هذا اسم لمن يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها، وقد يقال لمن يبيع الورق، وهو الكاغد ببغداد، الورّاق أيضاً[5].

ومن هذه التعريفات يتضّح أن هناك عدة معان جامعة في هذا الاصطلاح، منها ما هو مهني، وإبداعي، وتجاري، وديني، فالنسخ يكاد يشكّل المهمة الأولى في عمل الورّاق، فيما تأتي تجارة الورق في المحصلة الثانية، إضافة إلى المشتغلين بكتابة القرآن وعلم الحديث، ثم إندمج في هذا الاصطلاح كل من يجلّد الكتب، ومن يبيعها، وكانت الوراقة والتي تعني عند ابن خلدون: إنها معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد، والتصحيح، وضبط

---

(1) سوف نتطرق في الفصول القادمة إلى/ أخلاق الورّاقين/ والعزر = المنع والرد. والتّعزير: ضرب دون الحدّ لمنعة الجاني من المعاودة وردعه عن المعصية/ اللسان: مادة عزر.

(2) مناقب بغداد/ ص26.

(3) أنظر اللسان - مادة: ورق، والقاموس المحيط: مادة ورق.

(4) المقدمة/ ص421، الفصل 31، ط4، دار إحياء التراث - بيروت.

(5) السمعاني/ الأنساب: باب الواو والراء/ ظهر الورقة 579 من طبعة مارجليوث - ليدن 1912م.

الرواية[1]، فالتداخل في الإشتقاق بين لفظة ورّاق ووراقة، واضحة الدلالة من خلال السياق والمعنى، والذي تحويه مهنة الوراقة، ولكن يلاحظ أن معناها أشمل وأوسع من لفظة الورّاق.

في ضوء هذا التعريف: يمكن تقسيم الوراقة على النحو التالي[2]:

أولاً: النسخ، ويدخل في خانته التزويق والتصوير والتذهيب والتخطيط.

ثانياً: بيع الورق وسائر أدوات الكتابة، كالأقلام والحبر وغيرها.

ثالثاً: تجليد الكتب.

رابعاً: بيع الكتب[3].

هذه هي المحاور الأربعة الأساسية، وتفرعاتها، هي التي تشكل مهنة الوراقة.

من الملفت للإنتباه أن المؤرخين الأوائل، والمهتمين بأخبار الرجال، لم يفردوا موضوعاً متكاملاً عن الوراقة والورّاقين، رغم أن هذه الظاهرة كانت من السعة بمكان، بحيث أنها تصادف طلبة العلم والحديث، والمؤرخين، والأخباريين، والأدباء والكتّاب، من مختلف الأقطار الإسلامية، والوافدين على بغداد، أيام عزتها ومنعتها العباسيّة، سوى أنه وجدت بعض الرسائل والمؤلفات الصغيرة عنها، وجميعها مفقودة، حتى اليوم تقريباً، وقد أشار الباحث الورّاق حبيب زيّات[4] إلى أنه لم يظفر إلا بكتاب واحد للشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن مسك السخاوي، المتوفى سنة 1025هـ/ 1616م، عنوانه «تنويق النطاقة في علم الوراقة» لم يبق منه إلا عنوانه وتذكاره فقط، وقد ذكر ياقوت الحموي أن للجاحظ رسالتين في هذا الموضوع هما: رسالة في مدح الورّاق ورسالة في ذمّ الورّاق[5]، وبتقديرنا أن هاتين الرسالتين المفقودتين حتى اليوم، هما من أمتع وأبلغ ما كتب في هذا الموضوع لأن الجاحظ كان ملازماً لدكاكين الورّاقين، وكان يبيت فيها ويكتريها، ولو

---

(1) المقدمة/ ص421 - نفس الفصل المذكور.

(2) لا بّد من التنويه هنا إلى الأستاذ - كوركيس عواد - حيث سبقنا إلى هذ ا التقسيم في كتابه/ خزائن الكتب القديمة في العراق ص8 - 9/ مطبعة المعارف، بغداد 1948م، وكذلك الإشادة بالدراسة الوافية الجميلة لورّاق هذا العصر، الأستاذ الفاضل/ حبيب زيّات/ والتي نشرها في مجلة المشرق ببيروت عام 1947، تحت عنوان/ الوراقة والورّاقون في الإسلام/ وبصدق أقول، أن هذه الدراسة كانت الحافز الأساسي لي لأن أكتب هذا العمل برمته، فله الفضل والسبق في ذلك.

(3) سنتحدث عن هذه النقطة في/ الباب السادس، سوق الورّاقين.

(4) مجلة المشرق/ ص1 - 2 لعام 1947، المطبعة الكاثوليكية عام 1947، بيروت.

(5) معجم الأدباء 16/ 109، ترجمة الجاحظ.

وجدت هاتان الرسالتان لأضفتا على موضوعنا أشياء علميّة هامّة[1].

كما أن الورّاق المشهور، إبن النديم، لم يلتفت هو الاخر، إلى أبناء صنفه، رغم أن ما قدّمه في كتابه القيّم «الفهرست» من معلومات متناثرة عن بعضهم، لكنه لم يؤلف كتاباً أو رسالة في الوراقة والورّاقين، سوى أنه ذكر في ترجمة «ابو زيد البلخي» أنّ له «رسالة في مدح الوراقة»[2] هي الأخرى لا زالت مفقودة، ولم يعثر عليها حتى الآن، وكنا نأمل من التوحيدي، وهو واحد من الذين قاسوا معاناة الوراقة، أن يطالعنا بكتاب أو رسالة عن هذا الصنف المبدع، ولكنه هو الاخر، لم يفعل، وبتقديرنا، أن ذلك نابع من عزوفه الشديد عن هذه المهنة التي أذلّته كما يقول في رسائله[3].

وبتقديرنا أن ياقوت الحموي، هو أكفأ الأوائل والأواخر من الذين ترجموا للأدباء بشكل عام، والورّاقين بضمنهم، ولكن دون تخصيص، سوى أنه يذكر صفة «الوراق» في بعض أسماء مترجميه، وذلك في كتابه الخالد أبدا «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب»، أو ما يعرف اليوم بـ«معجم الأدباء».

والوراقة، كحرفة إسلامية، فمن البديهي جداً، أن يكون للدين الإسلامي، أثره الواضح فيها، لذلك كانت البدايات الأولى، قد إعشوشبت في المساجد - كمكان - وبعلوم الدين، كبداية للإمتهان، في هذا الصنف، لذلك شكّل جامع المنصور ببغداد، وهو أكبر جوامعها، نقطة مركزية لبدء ظاهرة الإملاء على طلاب العلم، فقد كان هذا الجامع أشهر مركز للتعليم في الدول الإسلامية[4] حتى العلماء والخطباء، وأساطين اللغة والأدب، كانوا يتوقون للإملاء والتدريس فيه، فقد عرف عن الخطيب البغدادي، صاحب «تاريخ بغداد» أنه لمّا حج وشرب من ماء زمزم ثلاث شربات، سأل ربّه ثلاث حاجات، فالحاجة الأولى أن يحدّث بتاريخ بغداد، والثانية أن يملي الحديث بجامع المنصور، والثالثة أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي[5]، وكان له ما أراد.

وبهذه المساجد والجوامع، بدأت حركة النهضة العلمية والأدبية، حيث كان الفقهاء،

---

(1) نوجّه/ في هذ الصدد/ نداءنا إلى كل المهتمين بدراسة التراث وتحقيقه إلى إرشادنا إلى مكان هذين الرسالتين في أي بقعة من الأرض، لأن ما سرق من تراثنا لا يمكن حصره في مكان.

(2) الفهرست/ ص198 - 199 الطبعة المصرية.

(3) أنظر رسالته إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد، وغيرها/ رسائل التوحيدي/ طبعة إبراهيم الكيلاني.

(4) آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في (ق 4هـ)، 1/ 314، ط3، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة القاهرة 1377هـ/ 1957م.

(5) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 4/ 16، الترجمة رقم 2، للخطيب البغدادي.

يملون على تلاميذهم علوم القرآن والحديث والفقه واللغة، فقد عرف عن أبي حامد بن محمد الأسفراييني أنه كان يحاضر بعلوم الفقه الشافعي بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد، وكان يحضر مجلسه ما بين 300 - 700 فقيه وطالب علم[1]، واللطيف في الأمر، أن عدد الطلاب كان يعرف بعدد المحابر التي توضع أمامهم. ثمة حادثة طريفة في هذا السياق، فقد ذكر عن محمد بن جرير الطبري، صاحب التاريخ المعروف، أنه كان من كبار المحدثين والفقهاء، فلما قدم بغداد قصده الحنابلة، وسألوه عن أحمد بن حنبل - صاحب مذهبهم - وعن حديث الجلوس على العرش فقال الطبري: أمّا أحمد فلا يعدّ خلافه، فقالوا له: قد ذكره العلماء في الاختلاف، فقال: ما رأيته رويَ عنه، ولا رأيت له أصحاباً يعوّل عليهم، وأمّا حديث الجلوس على العرش فمحال، ثم أنشد:

سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس

فلما سمع الحنابلة ذلك منه، وثبوا ورموه بمحابرهم، وقيل كانت ألوفا[2].

منهج الوراقة:

ثمة حادثة هامّة، تشير إلى البدايات الأولى بفن الوراقة، أوردها ابن النديم في حديثه عن قصة تأليفه كتاب «الياقوت في اللغة» لأبي عمر محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم المطرّز المعروف بالزاهد، المتوفى سنة 345هـ قال[3]: ابتدأ أبو عمر الزاهد بإملاء هذا الكتاب، يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة 326هـ، في جامع المنصور ببغداد إرتجالاً، من غير كتاب ولا دستور، فمضى في الإملاء مجلساً مجلساً، إلى أن إنتهى إلى آخره، وكتبت ما أكملاه - والحديث لأبي الفتح النحوي - مجلساً مجلساً، ثم رأى الزيادة فيه، فزاد في أضعاف ما أملاً، وارتجل يواقيت أخر، واختص بهذه الزيادة أبو محمد الصفّار، لملازمته وتكرير قراءته لهذا الكتاب على أبي عمر، فأخذ الزيادة منه، ثم جمع الناس على قراءة أبي إسحاق الطبري له، وسميت هذه القراءة «الفذلكة»[4] فقرأ عليه وسمعه الناس، ثم زاد فيه بعد ذلك، فجمعت أنا في كتابي الزيادات كلّها وبدأت بقراءة الكتاب عليه يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي القعدة سنة 329هـ، إلى أن فرغت منه في شهر ربيع الآخر سنة 331هـ، وحضرت النسخ كلها عند قراءتي نسخة أبي إسحق الطبري،

---

(1) السبكي/ طبقات الشافعية الكبرى 3/ 25، ط2، بالمطبعة السينية بمصر.
(2) معجم الأدباء 18/ 58، الترجمة رقم 17، وراجع بقية الحادثة هناك.
(3) الفهرست ص113.
(4) فذلك حسابه = أنهاه، وفرغ منه/ القاموس المحيط، مادة فذلك.

ونسخة أبي سعد الصفّار ونسخة أبي محمد بن سعد القطربلي، ونسخة أبي محمد الحجازي، وزاد لي في قراءتي عليه أشياء، فتوافقنا في الكتاب كله، من أوله إلى آخره، ثم ارتجل بعد ذلك يواقيت أخر وزيادات في أضعاف الكتاب، واختص بهذه الزيادة أبو محمد وهب لملازمته، ثم جمع الناس ووعدهم بعرض أبي اسحق عليه هذا الكتاب وتكون آخر عرضه، يتقرر عليها الكتاب، فلا يكون بعدها زيادة، وسمّيت هذه العرضة «البحرانيّة» واجتمع الناس يوم الثلاثاء لاربع عشرة ليلة خلت من جمادي الأولى من سنة 331هـ في منزله بحضرة/ منلة أبي العنبر/ فأملا على الناس ما نَسَخْتَه، قال أبو عمر محمد بن عبد الواحد أبو عمر الزاهد، هذه العرضة هي التي تفرّد بها أبو إسحق الطبري آخر عرضه أسمعها بعده، فمن روى عني في هذه النسخة هذه العرضة حرفاً واحداً، فليس من قولي، فهو كذّاب علي، وهي من الساعة إلى الساعة من قراءة أبي إسحاق على سائر الناس وأنا أسمعها حرفاً حرفاً[1].

هذا النصّ من الأهمية بمكان، حيث أنه يوقفنا على منهج الوراقة في بداياتها الأولى، أي في مرحلة/ الإملاء/ فهو يبدأ مع المؤلف - المستملي - وينتهي به، حيث يجيز نسخة واحدة، تكون قد روجعت معه، ومع أقرب التلاميذ الملازمين له، ثم تقرّ هذه النسخة في الجامع، ويشهد الناس بذلك عليها، ومن الملاحظ أيضاً أنها تمرّ، في هذه المرحلة، بمدة زمنية طويلة نسبياً، حسب ما تقتضيه طبيعة الموضوع، لهذا الكتاب «الياقوت في اللغة» مرّ بهذه المراحل، ولم يصادق عليه المؤلف، إلا بعد أن مرّ بالشوط الأخير، وهو ما عرف عندهم بـ«البحرانية» وبعدها أجازه لواحد، وبرأ ذمته بعد ذلك من كل زيادة تحدث عليه، أمام الناس، بدءاً من ساعة إشهاره، وحتى قيام الساعة، وهذه المرحلة كانت النقطة الأولى في عمل الوراقة، وقد كانت تجري داخل أروقة المساجد والجوامع، الأمر الذي يشير إلى أهميتها من الوجهة الأيديولوجية بذلك.

ونلاحظ أن هذه المسألة/ الإملاء/ كانت بداية لتشكيل حالة أرقى وأوسع، وأكثر إنتشاراً نعني بها ظاهرة الوراقة والورّاقين، فيما بعد، ونظراً لأن الحالة الأولى كانت في بداياتها هي طريقة تعليم، لا طريقة تكسّب، كان الوازع الديني يلعب دوراً هاماً في ديمومتها وشيوعها، كفرض يتقرّب به لوجه الله، ولكن عندما أصبحت مهنة «كوراقة» فإن الدافع الاقتصادي تبوأ المقام الأول، وتراجع الوازع الديني، وانحسر تأثيره في الناحية الأخلاقية عند الورّاق أو الكاتب - المؤلف - وهذه مسألة تخضع بقانونيتها إلى حركة الفعل الاجتماعي وانعكاساته على الحياة اليومية لدى الناس، بكل حقبة زمنية.

---

(1) الفهرست/ ص113 - 114، ترجمة: أبو عمر الزاهد.

لذلك برزت في (ق 4هـ)، المدارس، ونشأ التدريس، خارج إطار المسجد والجامع، حيث من الملاحظ أن فكرة تكوين وإنشاء المساجد هي لممارسة طقوس العبادة في المقام الأول، ولا يحسن تخصيصها لتكون جامعة للتدريس والتوريق، رغم أن هذه المسألة ظلت تمارس طويلاً في المساجد، إلا أن حالة الجدل والمناظرة، أخرجتها من هذا الإطار، حيث أن هذه المناظرات قد تخرج - أحياناً - المتكلم أو الأديب أو العالم عن الأدب والذي تجب مراعاته داخل المسجد[1].

مجالس الإملاء:

الإملاء: هو أن يقعد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس، فيتكلم العالم بما فتح الله عليه[2] ويكتبه التلاميذ فيصير كتاباً. ويسمونه الإملاء والأمالي[3].

وقد شكّلت هذه الأمالي موسوعات علمية وأدبية في مختلف المجالات، وعرف منها الكثير، من أمثال: الأمالي الخمسمائة للسمعاني، وأمالي ابن الحاجب، وأمالي إبن حجر العسقلاني، وأمالي ابن الحصين، وأمالي ابن دريد اللغوي، وأمالي ابن الشجري، وأمالي ابن شمعون، وأمالي ابن عساكر في الحديث، وأمالي أبي بكر القاضي، وأمالي أبي بكر بن بشار الأنباري، وأمالي أبي بكر الحلواني، وأمالي أبي بكر ريغدموني، وأمالي أبي بكر النسفي، وأمالي أبي بكر الخيزاخيزي، وأمالي أبي جعفر البختري، وأمالي أبي طاهر الزيادي، وأمالي أبي طاهر المخلّص في الحديث، وأمالي أبي عبد الله الصبّي في الحديث، وأمالي أبي عبد الله الحلواني، وأمالي أبي عثمان الأصفهاني، وأمالي أبي عروبة الحرّاني، وأمالي أبي العلاء المعري، وهو مائة كرّاسة، ولم يكمله، وأمالي أبي علي القالي، إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي. وأمالي أبي علي وحشي البلخي، وأمالي أبي فرج السرخسي الشافعي، وأمالي أبي الفضل السلامي، وأمالي أبي القاسم عبد الملك بن بشران البغدادي، وأمالي أبي القاسم البزّاز، والأمالي الأصبهانية للمحاملي، وأمالي

---

(1) راجع توسعات آدم ميتز، في هذه النقطة، في الحضارة الإسلامية في (ق 4 هـ) 1/ 318.

(2) ثمة ظاهرة عند شيعة أهل العراق وأهل إيران، تماثل هذه الظاهرة، لكنه لم يجر فيها عملية الكتابة، بل يجري فيها الاستماع أكثر، تسمى/ المنابر الحسينية/ تقام في أيام عاشوراء من كل سنة، لا زالت قائمة حتى اليوم.

(3) كشف الظنون 1/ 161، وحبيب زيّات، الوراقة والورّاقون ص7، ونوّد الإشارة هنا إلى أننا سنستخدم اسم حبيب زيات في المرجعية والإحالة للدلالة على بحثه (الوراقة والورّاقون في الإسلام) اختصاراً للعبارة ليس إلاّ.

الإمام للأنصاري، وأمالي بديع الزمان الهمداني - صاحب المقامات - وأمالي ثعلب في النحو، وأمالي جار الله محمود بن عمر الزمخشري، وأمالي الجوهري، وأمالي الحافظ القنطري، وأمالي حسن بن زياد - في الفروع - وأمالي الزجّاج في النحو، وأمالي زرنجري البخاري، وأمالي الزعفراني، وأمالي السرخكي، والأمالي الشارحة على مفردات الفاتحة، لأبي بكر القاسم عبد الكريم بن محمد الرفاعي، وأمالي الإمام الشافعي في الفقه، وأمالي الإمام السرخسي، وأمالي الإمام عبد الحميد، وأمالي صدر الإسلام البزدوي في الفروع، وأمالي الصفوة من أشعار العرب لأبي القاسم فضل بن محمد البصري النحوي، وأمالي ظهير الدين الولوالجي، والأمالي العراقية في شرح الفصول الإيلاقية، وأمالي العشيّات للحاكم النيسابوري، وأمالي الإمام فخر الدين قاضيخان، وأمالي فربري، وأمالي قاضي صدر البزدوي، وأمالي قاضي فخر الارسابندي، وأمالي القاضي عبد الجبار، وأمالي القاضي المارستاني في الحديث، وأمالي القضاعي في الحديث، والأمالي المرضية في شرح العلوية، وأمالي المنذري في الحديث، والأمالي المطلقة للسيوطي، والأمالي على القرآن، للسيوطي أيضاً، والأمالي على الدرة الفاخرة، وأمالي مظهر السنة، وأمالي ميموني، وأمالي نظام الملك في الحديث، وأمالي أبو سعيد النقاش في الحديث، وأمالي وليّ الدين لأبي زرعة[1].

ومجالس الإملاء هذه، كان لها صداها المدّوي في الآفاق، وممّا يلفت النظر، أن أغلب العلماء الذين كانوا يملى لهم من العميان[2] لذلك كانوا أحوج من غيرهم لهذه العملية.

ومجالس الإملاء هذه قد تستمر عدة سنين، فقد عرف عن العالم محمد بن القاسم الأنباري، أنّه أملى كتابه «المشكل في معاني القرآن» في عدّة سنين[3]، ووصل كتابه «غريب الحديث» إلى خمسة وأربعين ألف ورقة من حفظه[4]، والموضوع الواحد، عند المستملي، قد يستمر عدة مجالس، فقد ذكر عن أبي السعادات ابن الشجرى أنه أملى «أماليه» المعروفة بـ«الأمالي الشجرية» وهو أكبر تصانيفه وأمتعها، أملاه في 84 مجلساً[5] فكم يطول هذا المجلس يا ترى؟!

---

(1) راجع عن تفاصيلها ومضامينها في، كشف الظنون 1/ 161 - 166.
(2) حبيب زيّات/ الوراقة والورّاقون في الإسلام ص7.
(3) معجم الأدباء 18/ 312، الترجمة رقم 91، وحبيب زيات ص7.
(4) معجم الأدباء/ نفس المكان.
(5) معجم الأدباء 19/ 283، الترجمة 108، وأنظر كذلك ترجمة له في/ بغية الوعاة/ للسيوطي.

والمستملي، اشتقاق مصدره من/ ملا/ قال الفيروزآبادي، استملاه: سأله الإملاء[1]، وجمعه «المستملون» وهؤلاء كانت وظيفتهم في مجالس الاستملاء، هي إعادة ألفاظ المحدّث ونقلها عنه إلى الناس[2]، وهذه المهنة أو الوظيفة الشاقة، لهذا المنادي المردّد كانت شائعة ومعروفة، وينتخب لها من ذوي الأصوات المسموعة واللسان الفصيح، والإصغاء الحسن، ، ووضوح العبارة، كي لا يشكل على الناس ما يؤخذ من فيه من عبارات وألفاظ، وبعض المستمعين من العلماء والأدباء، لا يأخذون إلا من لسان المحدّث[3] زيادة في التحوّط وأوثق للنقل وآمن للنفس والسمع.

وكان المستملي، يجلس على مقعد مرتفع ليستنصت الحاضرين، وليعيد كلام المحدّث، حتى يسمعه من كان بعيداً عنه، وجرت العادة في مثل هذه المجالس، أن يبدأ قارىء حسن الصوت بتلاوة القرآن[4]، يليه المحدّث مباشرة مفتتحاً حديثه بالحمد لله، والصلاة والسلام على نبيه، ثم يدعو للبلد والسامعين، وبعد أن يستنصت المستملي الناس، يبدأ كلامه باسم الله وبالصلاة على النبي، ثم يقول للمحدّث: من. . . أو ما ذكرت رحمك الله، وكلما ورد ذكر النبي أو الصحابة أو نحوهم «صلى على النبي ورضي عن الصحابة»[5].

شكّل الإرتجال، صفة أساسيّة للعلماء والمحدّثين، الأمر الذي أشكل على النسّاخ - الورّاقين - من جهة، وعلى المستمعين، من جهة أخرى فلربما اختلف لفظ الإملاء بالإرتجال، إذا تكرر إلقاؤه، فتختلف لذلك نسخ الكتاب، وهو ما حدث لكتاب «الجمهرة» لابن دريد، فقد أملاه بفارس وأملاه ببغداد من حفظه فزاد ونقص[6].

إنَّ الإقبال على حب المعرفة، دفع بالناس إلى التزاحم والإقبال بشغف منقطع النظير، إلى مثل هذه المجالس، وبأعداد غفيرة، تجاوزت في بدايتها المئات، ثم نافت على الألوف، الأمر الذي أخرجها عن حياضها في المسجد، حيث المكان لا يتسع لمثل هذه الحشود، وأصبح المستملي، لا يؤدي الغرض بمفرده فازداد عدد المستملين في المجلس الواحد وفي المكان الواحد، لذلك أصبح من الملفت للإنتباه، إزدياد عدد المستملين وفق عدد المستمعين، ووفق انتشار الحلقات، وبُعد المسافات، فقد كان

---

(1) القاموس المحيط - مادة - ملا.
(2) راجع حبيب زيات ص9.
(3) تاريخ بغداد 14/ 326.
(4) آدم ميتز 1/ 343.
(5) المرجع السابق 1/ 319.
(6) الفهرست/ ص91، وحبيب زيات ص8.

القاضي المحاملي يحدّث ويردّد حديثه أربعة مستملين[1]، ورغم هذه الزحمة، كان الناس يميّزون أهل العلم وطالبي الحديث، ففي مجلس المحاملي ذاته، كان يوسف بن عمر القواس يقول: حضرت مجلس المحاملي، وكنت لا أكتب في مجلس الإملاء، إلا ما أسمعه من لفظ المحدّث، فقمت قائماً لأني كنت بعيداً من المحاملي، بحيث لا أسمع لفظه، فلما رآني الناس أفرجوا لي وأجازوني حتى جلست مع المحاملي على السرير[2].

وحينما يضج المكان بوافديه، فإن الناس يوسعون مكانهم بمكان آخر، حدّث الخطيب البغدادي قال[3]: حدّثنا بشرى بن عبد الله الرومي قال: سمعت أبا بكر أحمد بن جعفر بن مسلم يقول: لما قدم علينا أبو مسلم الكجي أملى الحديث في رحبة غسان، وكان في مجلسه سبعة مستملين، يبلّغ كل واحد منهم صاحبه الذي يليه، وكتب الناس عنه قياماً بأيديهم المحابر، ثم مسحت الرحبة، وحسب من حضر بمحبرة، ناهيك عن المستمعين الآخرين، فبلغ ذلك نيّفاً وأربعين ألف محبرة، سوى النظارة، وازدادت هذه الظاهرة سعة وانتشاراً، والناس في شوق متزايد، كأنهم أصيبوا بعدوى أو حمّى المعرفة، فقد نقل إبن الجوزي الخبر التالي، قال[4]: لما ورد جعفر الفرياني إلى بغداد، استقبل بالطيارات والزبازب[5] ووُعِد له الناس إلى شارع المنار بباب الكوفة ليسمعوا منه، فاجتمع الناس، فحزر من سمع مجلسه، فقيل نحو ثلاثين ألفاً، وكان المستملون 316، وكان المجلس يضم من أصحاب المحابر بحدود عشرة آلاف إنسان[6]، هذا الخبر لا يخلو من مبالغة فيه، ومع ذلك، فإنه يوضّح الجموع الغفيرة المقبلة على تعاطي المعرفة والعلوم، وهذا الموقف راح يتكرر في أكثر من زمان ومكان، وبغداد كانت أكثر من غيرها شهرة في احتضان هذه المشاهد، فعندما قعد الفرّاء لاملاء النحو إزدحم الناس على مجالسه، وغصّت بالقضاة والعلماء، وكان الفرّاء بدأ بإملاء كتاب «المعاني» ولم يستطع الأخباريون المؤرخون من عدّ الناس الذين اجتمعوا للسماع عليه والأخذ منه، قال الخطيب عن راويه: فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضياً[7].

---

(1) تاريخ بغداد 14/ 326 في الترجمة رقم 7650/ بإسم: يوسف بن عمر القواس.

(2) المصدر السابق/ نفس المكان/ وحبيب زيّات ص9.

(3) تاريخ بغداد 6/ 121 - 122 الترجمة 3151، بإسم (إبراهيم بن عبد الله أبو مسلم الكجي).

(4) المنتظم 6/ 124، الترجمة 176، باسم (جعفر بن محمد بن الحسن الفرياني).

(5) أنواع من الزوارق المائية، كانت مستعملة وقتذاك في نهر دجلة.

(6) المنتظم 6/ 124.

(7) تاريخ بغداد 14/ 150، ووفيات الأعيان 6/ 178، الترجمة 798، والفهرست/ ص99، ومعجم الأدباء 20/ 9 وما بعدها.

لقد ألف الناس هذه المجالس، وراحوا يقصدون العلماء في بيوتهم، ويتجمعون في السكك والدروب المحاذية لبيوتهم، قال أبو الحسن بن رزقويه: كان ابن الجعابي يملي مجلسه، فتمتلي السكة التي يملي فيها والطريق[1]، فيما زاد عدد من حضر مجلس أبي الحسن عاصم بن علي الواسطي على مئة ألف إنسان، ذكر ذلك الخطيب البغدادي، وقال: حدّث ببغداد، في مسجد الرصافة، فكان مجلسه يحزر بأكثر من مائة ألف إنسان، وكان يستملي عليه هارون الديك وهارون مكحلة. وقد كان الواسطي هذا يجلس على سطح السقطات/ السقوف/ وقد استرعى هذا الأمر الخليفة المعتصم فوجّه بمن يحرز له مجلس الواسطي[2] في رحبة النخل التي في جامع الرصافة، وكان كثيراً ما يعيد مقولاته لكثرة الناس، فأعاد أربع عشرة مرّة والناس لا يسمعون، قال: وكان هارون المستملي يركب نخلة معوجّة ويستملي عليها، وحزر المجلس، فكان فيه 120 ألف[3].

استطاعت هذه المجالس أن تفرض وجودها على الواقع الثقافي والسياسي، كظاهرة حضارية، وجدت في العصر العباسي، وسحبت ظلالها حتى على الخليفة العباسي نفسه، فقد ذكرت المصادر أنه كان لسليمان بن حرب الواشجي البصري مجلس عند قصر المأمون، فبنى له المأمون شبه منبر، فصعد إليه سلمان، وحضر حوله جماعة من القوّاد وعليهم السواد «شعار العباسيين» وحضر المأمون فوق قصره، وقد فتح باب القصر، وأرسل ستر يشف وهو خلفه يكتب ما يملي، فسئل أول شيء «حديث حوشب بن عقل» فلعله قد قال: حدّثنا حوشب بن عقل، أكثر من عشر مرّات، وهم يقولون: لا نسمع، حتى قالوا: ليس الرأي إلا أن يحضر هارون المستملي، فذهب جماعة وأحضروه، وقد بلغ مجلس سليمان بن حرب أكثر من أربعين ألفاً، ولما حضر هارون المستملي[4]، قال: من ذكرت، فإذ صوته خلاف الرعد، فسكتوا، وقعد المستملون كلهم، واستملي هارون وحده[5]، إذن ظاهرة الإملاء صارت حاضرة في أذهان الناس، بدءاً من الخليفة، وإنتهاءً بعامة الناس، وقد تنبّه الوزير ابن الفرات بدراية تامة إلى أهمية المستملي، فوظّف لديه مستملين، وقد كان لديه مجالس إملاء كتبها الدارقطني وتلاميذه أبو حامد ابن الشرقي وأبو سعيد[6] يسعون إليه لجمع الحديث والفقه والعلم والأدب.

(1) تاريخ بغداد 3/ 28 الترجمة رقم 953.
(2) كان موفدو الخليفة إلى المجلس هم (قطاعي الغنم).
(3) تاريخ بغداد 12/ 248 الترجمة رقم 6696/ وحبيب زيّات ص10.
(4) أنظر ترجمته في تاريخ بغداد 14/ 24، الترجمة رقم 7356.
(5) تاريخ بغداد 9/ 33، الترجمة رقم 4622/ وحبيب زيّات ص10.
(6) أنظر: سير أعلام النبلاء، ترجمة الدارقطني رقم 332، في 16/ 449 وما بعدها، وطبقات السبكي 2/ 97، وآدم ميتز، الحضارة الإسلامية 1/ 339.

لقد شكّلت مجالس الإملاء، الطور الأول من بداية ظهور مهنة الوراقة، بدأت كظاهرة صوتية مسموعة ومرتجلة، ثم تطورت فيما بعد لتصبح ظاهرة كتابيّة، تدوّن وتنسخ محققة بذلك، قفزة حضارية ومعرفية للأمام، في سياق الحالة العلمية والثقافية الناهضة في الحضارة العباسية في شرطيها الزماني والمكاني، في ضوء معطيات الحالة الاقتصادية والاجتماعية المتطورة.

الفصل الرابع

أثمان النسخ والتجليد

أشرنا فيما تقدم من فصول، أن مهنة الوراقة، كانت شاملة للنسخ وبيع أدوات الكتابة والتجليد وبيع الكتب[1]، ولكن مسألة النسخ تشكل العصب المركزي لمهنة الوراقة، وفي ضوئها يحدد موقع الورّاق من هذه المهنة، فإنها تعتمد على القلم أولاً وأخيراً، ومفهوم القلم هنا يعني جودة الخط، وحسن التأدية، إلى الإتقان والسرعة، الأمر الذي أملى ضرورة إيجاد صنف من الورّاقين[2] عرف بتجويد الخط وتحسينه، والبلوغ به إلى أعلى مراتب الإتقان، حتى استقلوا فيما بعد عن الوراقين، عنيت بهم «الخطّاطون»[3].

ونظراً لعدم وجود آلات كاتبة، فإن الناس كانوا يطلبون النسّاخ لتلبية حاجتهم، وقد ظلّت هذه المسألة/ النسخ/ ممتدة زمناً طويلاً من العصور الإسلامية، وشمل كثيراً من الأقطار الإسلامية التي عرفت بميل أهلها إلى العلم والأدب[4]، وقد كان للعراق شهرة واسعة في إحراز السبق في هذا الفن، لا سيما في العصر العباسي، فقد كانت بغداد مركز الخلافة ودار الإسلام، ومؤول العلم والعلماء، فمن البدهي جداً أن تكون الصناعات متركزة فيها، وعرفت بغداد بنسّاخيها وورّاقيها وخطّاطيها، الأمر الذي جعلها مبعث التفاخر والإعتزاز[5].

(1) راجع مقدمة الفصل الثالث من هذا الباب.

(2) سوف نتحدث بالفصول القادمة عن «أصناف الورّاقين».

(3) أفردنا باباً خاصاً في هذه الدراسة، بل وطوّرنا العمل حتى أصبح كتاباً كاملاً.

(4) كوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة في العراق ص9.

(5) أنظر: أبو المطهر الأزدي/ حكاية أبي القاسم البغدادي/ ص24، بعناية آدم ميتز، طبعة هيدلبرج، سنة 1902م.

ونظراً لكون الوراقة حرفة، يعتاش منها، ويرتزق بها، فإن العامل الاقتصادي، يدخل في منظور تحديد أجرة النسخ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يدخل مبدأ «العرض والطلب» في هذا السياق أيضاً، ولكن هناك أموراً أخرى تحدد السعر، تعتمد على حرفيّة الورّاق نفسه، يصح أن نطلق عليها اصطلاح: «مقومات الورّاق» وأهمّها حسن الخط والضبط، حيث كان الورّاقون يتبارون فيما بينهم لإثبات وجودهم في المهنة، وتحقيق سمعة محمودة في سوق الورّاقين، تشكل رأسمال الورّاق في المقام الأول، فقد كانت جودة الخط، والضبط في النقل، والحذق والتزويق، والتذهيب في كتابة المصاحف، من الأمور الثابتة والمطلوبة في الورّاق[1]، وفي ضوء هذه المقوّمات، إضافة لما سبق ذكره تحدّد أثمان النسخ.

وهناك أمور أخرى قد ترفع من سعر النسخ، كالسرعة في الكتابة، والمبيت في أحد المنازل للشخص طالب الورّاق، والذي يودّ سرعة إنجاز العمل، فمن ذلك أن الشافعي (محمد بن إدريس) أراد تحصيل كتب محمد بن الحسن، فوجّه إلى كاتبه/ كاتب محمد ابن الحسن/ مائة دينار، وطلب منه جمع الورّاقين في ليلة واحدة، كي ينسخوا كتب محمد ابن الحسين، فكتبت[2].

وهنا كان السعر للنسخ مرتفعاً للضرورة التي تطّلبتها الحال، فأنجز العمل بأسرع ما يكون، فيما كان سعر نسخ الورقة الواحدة (كل 5 ورقات بدرهم) في زمن المأمون[3] على أساس سعر السوق، فيما كان راتب الورّاق في دواوين الدولة العباسية في زمن المكتفي بالله (16 ديناراً شهريا)، والشهر 50 يوماً[4].

والنسخ ضمن مهنة الوراقة، يعتمد على وعي الورّاق الجمالي والحسّي من جهة، ومن جهة أخرى يتطلب الأمر من الوراق أن يكون مدركاً للزمن الذي يورّق فيه في ضوء سعر السوق السائد، فلا يصح أن يكون سريعاً، دون عناية ودقة وضبط وجودة خط، ولا يصحّ أيضاً أن يكون بطيئاً، بحيث يفضي بالورّاق إلى عدم كسب قوت يومه، وهذه المعادلة، كان الورّاقون يدركونها بشكل جيّد، لذلك أوجد عامل الإبداع عندهم حدّاً مقبولاً، يخضع إلى مقوّمات علمية وفنية، تجسّد، في الخط ونوعيته، لتحقيق شرط السوق في هذه المهنة، لذلك أوجد الورّاقون، ثلاثة أنواع من الخطوط، استخدموها في عملية النسخ، هي: الخط

---

(1) حبيب زيّات ص14.

(2) معجم الأدباء 17/ 289، الترجمة رقم 83.

(3) تاريخ بغداد 14/ 150 ترجمة الفرّاء، رقم 7467.

(4) الصابي/تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص17.

الوراقي، والخط المحقق، والخط العراقي[1]، وهذه الأقلام الثلاثة كانت هي السائدة وقتذاك عند النسّاخين بشكل عام ومشترك، لكن نسّاخي الحديث كان لهم قلم مختزل، رقيق الحروف، متراصّ، تسهل معه مقاربة ما بين السطور، وتوفير الورق والرق، نظراً لكون أسعارها آخذة دوماً بالارتفاع، وهذا الخط سمّي بـ«المقرمط»[2]، وقد أشار ابن عساكر إلى الفروق بين خطّ الوراقين وخط علماء الحديث، حيث ذكر ذلك في معرض حديثه عن الحسين ابن أحمد النيسابوري الحافظ، فقال: أفنى عمره في جمع المسند الكبير ووصف بأنه كان سفينة عصره في كثرة الكتابة والسماع والرحلة، وقد وقع تصنيفه لهذا المسند في ألف وثلثمائة جزء، لم يصنف في الإسلام مسند أكبر منه، ويضيف ابن عساكر: ولقد قلت على التحقيق أنه يقع في خطوط الورّاقين في أكثر من ثلاثة آلاف جزء[3].

وراقة المصاحف:

قلنا أن مهنة الوراقة، مهنة إسلامية[4]، وبهذا يكون للشريعة الإسلامية، الإسقاط المباشر على هذه المهنة، فلقد لعب الإسلام، فكراً وحضارة، دوره الإيجابي في مختلف الفنون والآداب، والصنايع والحرف، لذلك إنتبه الورّاقون إلى علوم الدين والشريعة، وشكل نسخ القرآن ووراقته مادة هامة وأساسيّة في عملهم، ولقد رأينا في مجالس الإملاء، كيف أنها كانت منصبّة على علوم الدين واللغة، على إعتبار أن المصادر الأساسية للثقافة العربية الإسلامية قد صدرت من هذين الفرعين، ومن ثم تطورت إلى العلوم الأخرى، ونظراً لكون الورّاقين واكبوا هذا التطور المعرفي - الثقافي، لذلك تخصّص قسم منهم في وراقة المصاحف من وازع ديني وثقافي، مضافاً إليه تفتح في رؤية جمالية أضفت حضورها على الخط العربي إبداعاً وتشكيلاً، وكان الخطّاطون، هم الصنف الأبرز لامتهان هذه الوراقة، أمّا تجليد الكتب: فهو أحد فروع الوراقة، الذي واكبها منذ البدايات، حتى بلغ هذا الفن في العصر العباسي ذروته، رغم أنه بدأ ساذجاً إلا أنه تطور فيما بعد أيما تطور، لم يكن المراد من تجليد الكتاب صيانته داخل جلد وحسب، بل كان يراد من الجلد ذاته أن يكون قطعة ظريفة يظهر عليها أثر الفن والذوق[5].

---

(1) ابن النديم/ الفهرست ص11 - 12/ وحبيب زيات ص15.

(2) القرمطة = دقة الكتابة ومقاربة الخطو، أنظر القاموس المحيط/ مادة قرمط/ .

(3) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر 4/ 253، باب الميم في/ آباء من اسمه الحسين/ طبعة روضة الشام سنة 1332هـ.

(4) انظر الفصل الثاني من هذا الباب.

(5) كوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة في العراق ص20.

كان المجلّدون الأوائل، قليلي التفنّن في عملهم هذا، حيث إنتبه الورّاقون إلى صناعة دباغة الجلود، تلك الصناعة التي كانت تستخدم جلود دباغ النورة، الشديدة الجفاف، ثم ظهرت الدباغة الكوفية مستخدمة التمر في الدباغة، الأمر الذي أكسبها لينةُ ومرونة[1]، ممّا ساعد على التعامل مع هذه الجلود، واستخدامها في فن التجليد.

لقد كانت القوى والفرق الإسلامية المعارضة للسلطة العباسية، على تماس مباشر مع الورّاقين، ولديهم جماعات منهم، فقد عرّفتنا أحداث سنة 309هـ أن أصحاب الحسين بن منصور الحلاّج، عندما جدّ الوزير حامد بن العباس في القبض عليهم، ومنهم ابن حمّاد والفنائي، وعندما كبست دورهم وجد فيها أشياء بخط الحلاّج مكتوبة بماء الذهب في ورق الحرير، مجلّدة بأفخر الجلود[2]. وعلى ما يبدو أن بداية (ق 4هـ) كانت تؤشر بملامح واضحة على تطور فن التجليد، ليس ببغداد وحدها، بل في كثير من المدن الإسلامية الأخرى، فلقد أشار المقدسي في معرض حديثه عن نفسه، حيث ذكر أنه لقب بـ«ورّاق ومجلّد»[3]، ثم يذكر أنه اشتغل بـ«تجليد المصاحف بالكرى»[4]، ثم يذكر في موضع آخر[5]، أن أهل اليمن يلزقون الدروج ويبطنون الدفاتر بالنشاء، وبعث إليّ/ والحديث للمقدسي/ أمير عدن مصحفاً أجلّده فسألت عن الأشراس[6].

بالعطارين فلم يعرفوه، ودلوني على المحتسب وقالوا عساه يعرفه، فلما سألته، قال: من أين أنت؟ قلت: من فلسطين، قال: أنت من بلدة الرخاء، لو كان لهم أشراس لأكلوه عليك بالنشاء، وأضاف المقدسي: ويعجبهم التجليد ويبذلون فيه الأجرة الوافرة، وربّما كنت أعطى على المصحف دينارين[7]، وهذا الخبر يوضح مدى انتشار هذا الفن وأهميّته في عملية الوراقة.

وعلى ما يبدو أن فن التجليد، عند الورّاقين، قد وجد مكانه في سوق الورّاقين، وراحت شهرة المشتغلين فيه تنتشر بين الأقاليم والأمصار الإسلامية، حتى أن ابن النديم جاء على ذكر أشهرهم، ومنهم: ابن أبي الحريش، وكان يجلّد في خزانة الحكمة للمأمون،

---

(1) ابن النديم/ الفهرست ص32.
(2) ابن كثير: البداية والنهاية 11/ 140، أحداث سنة 309، ترجمة الحلاّج.
(3) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص43، طبعة ليدن 1904م.
(4) نفس المصدر السابق ص44.
(5) نفس المصدر السابق ص 100، وكوركيس عواد/ المرجع المذكور ص21.
(6) أحد المواد الأساسية في التجليد، ربما كان مادة صمغية.
(7) أحسن التقاسيم ص100.

وشفة المقراض العجيقي، وأبو عيسى بن شمران، وديانة الأعصر بن الحجام وابراهيم بن محمد، والحسين ابن الصفّار[1].

إنَّ عملية التجليد عند الورّاقين جلبت انتباه المعاصرين، نظراً لما لهذه المهنة من وقع حاضر لصدى التاريخ الماضي من جهة، ومن جهة أخرى، كانت فنّاً قائماً ترك آثاره وراح يؤكد حضوره، لذلك صنّف الآثاري «فردريك ساره» كتاباً في التجليد الإسلامي ضمّنه (36 لوحة) تمثل فنّ تجليد الكتب العربية والإسلامية، كما نشر غيره كتباً في الموضوع نفسه[2].

الفصل الخامس

النسخ والمقابلة عند الوزاقين - أو - منهج الوراقة

ليس من السهل تصور عمل الورّاق على أنه مجرّد «ناسخ» فالحقيقة التي تبرز من خلال عملية الوراقة، تدلّل على أمور غاية في الصعوبة، حيث هناك منهجية دقيقة يلتزم بها الورّاق، لإتمام عمله وإلا نفقت سوقه، وتداعت مهنته، وكسفت شموس حظّه، وتجاوزه الزمن.

لقد كان منهج النسخ والمقابلة في عمل الورّاقين، هو المنهجية الحقيقية المتطورة لعمل الوراقة، فقد شكلت هذه المنهجية، الطورالأعلى والمتقدم لمنهجية الإملاء الأولى، التي إنطلقت منها عملية الوراقة في البدء، فقد كانت المنهجية الأولى في مجالس الإملاء، سماعية ومباشرة، فيما راحت منهجية النسخ والمقابلة تشكل عملية معرفية بالأساس، يدخل الإبداع فيها كعامل مساعد، فيما تنتظم مجموعة عناصر أخرى لإتمام العمل، حيث صار التعامل وفق ما هو مكتوب بيد المؤلف، أو ما يعرف بـ«المخطوط أو الأصل» أو - المسوّدة - وعلى ضوء هذا الأصل، تأتي بقية الخطوات في منهج الوراقة، والتي يمكن تحديدها بالنقاط التالية: أ - المخطوط أو الأصل. ب - الترخيص. ج - القراءة على المؤلف. د - الإجازة من المؤلف. هـ - السماح بالتداول. ويتبع هذه الأمور المنهجية أمور فنية تخصّ الناحية المهنية، من حيث الابتداء والتصدير في أول الصفحة وغيرها، أو ما تعرف اليوم بـ«الإخراج الفني» وسنحاول في هذه الصفحات معرفة كل نقاط المنهج الوراقي، حسبما تكشف لنا في البحث ولنبدأ بـ:

---

(1) الفهرست ص14.

(2) كوركيس عواد/ خزائن الكتب ص22.

أ - المخطوط أو الأصل:

هي نسخة الكتاب، الذي أنشأه المؤلف، وقام بنسخه بيده، والخَطّ في اللغة يعني: الأثر أو العلاّم الدال على الشيء، حيواناً كان أو مكاناً[1] ومن أصل هذه الكلمة إشتق الاصطلاح، فصار مخطوط، والعربية لغة الاشتقاق.

فالمخطوط، نسخة الأصل التي كتبت بخط المؤلف، ووقف عليها بنفسه، قبل أن يطلع عليها غيره، ويطلق عليها أيضاً اسم «المسوّدة» ودائماً ما تخضع إلى الإضافات أو الحذف أو التهميش، أو الزيادة أو النقصان، فما دامت لم تبيّض، فهي مسوّدة، وإذا نسخت، أصبحت مبيّضة، ووجب الالتزام بكل عمليات النسخ ومنهج الوراقة، ولمسوّدة العمل أهميتها عند الأوائل، فهي تكشف عن ذاتية المؤلف نفسه، وطريقة كتابته، وخطّه، وتعليقاته، لذلك أصبحت من الأمور الثمينة النادرة، وتزاحم عليها أكابر العلماء والأدباء والسلاطين والولاة، تقديراً ومكافأة لصاحبها الأصلي، وتعظيماً لمنزلته العلمية والأدبيّة، لذلك كان سعرها مرتفعاً في سوق الورّاقين، ففي هذا الصدد تنقل المصادر أن مسوّدة كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني قد بيعت بسعر مرتفع، وطُلبت بعد ذلك ولم يحصل عليها، ينقل ياقوت الحموي هذا الخبر على النحو التالي:

قال: «أبو جعفر محمد بن يحيى بن شهرزاد: إتصل بي أن مسوّدة كتاب الأغاني، وهي أصل أبي الفرج، أخرجت إلى سوق الورّاقين لتبتاع، فأنفذت إلى إبن قرابة وسألته إنفاذ صاحبها لأبتاعها منه لي، فجاءني وعرّفني أنها بيعت في النداء بأربعة آلاف درهم، وأن أكثرها في طروس وبخط التعليق[2]، وأنها اشتريت لأبي أحمد بن محمد بن حفص، فراسلت أبا أحمد، فأنكر أنه يعرف شيئاً من هذا، فبحثت كل البحث فما قدرت عليها[3]، مع العلم أن إحدى نسخ «الأغاني» بيعت بـ«عشرة آلاف درهم» وهي مبيّضة[4] الأمر الذي حمل أبا تغلب بن ناصر الدولة، أن يتأسّف لإضاعة وقت جهد الورّاق حيث قال: لقد ظلم ورّاقه المسكين، وأنه ليساوي عندي عشرة آلاف دينار، ولو فقدت لما قدرت عليه الملوك إلا بالرغائب[5] وهنا نلاحظ أن متذوّقي الأدب، في ذلك العصر، ينطلقون من موقف معرفي، لما تحويه مثل هذه الكتب.

---

(1) أنظر: التاج واللسان - مادة «خطط».

(2) يطلق عليه الآن اسم: الخط الفارسي.

(3) معجم الأدباء 13/ 126 - 127 في ترجمة أبي الفرج الأصبهاني، الترجمة رقم 17.

(4) المصدر السابق 13/ 126.

(5) نفس المصدر 13/ 125 - 126.

ب - الترخيص:

هو المبدأ الثاني، ضمن منهج الوراقة، وهو المبدأ الأخلاقي الأول للمعاملة بين المؤلف والورّاق، حيث يطلب الورّاق من صاحب المخطوط أن يأذن له[1] في نسخ - المخطوط - وهو بعد في طور «المسوّدة» وإذا تمّت الموافقة من قبل المؤلف: يبدأ الورّاق بإعداد العدة للبدء بعملية النسخ، ويبدأ عمله مراعياً كل نقاط منهج الوراقة، المعرفي والفني، في ذلك، أي أنّه يعد المسوّدة إلى الخروج بصيغة كتاب مستوفٍ لكل شروطه، لكن المؤلف يطلب من الوراق أو الورّاقين، قبل التفويض بالعمل أن يقرأوا عليه النسخة الأولى التي بين أيديهم، أو يختار واحدة وورّاقاً واحداً، ويقوم بعملية المطابقة والتمحيص على الأصل، وتتمّ طريقة ذلك بأن يقرأ النسّاخ المخطوط بصوت مسموع على المؤلف[2] وتنتج أهمية هذا الإجراء من المحافظة على المخطوط - قبل صدوره ككتاب - على ما يتضمّن من أفكار وآراء، من ناحية، ومن ناحية ثانية، الحفاظ على العرف السائد، وقتذاك، والطريقة المتّبعة في نشر العلوم الصحيحة، وتعميمها، إضافة إلى أنها تشكّل مبدأ الإجهار والعلنية لعمل المؤلف من جهة، والحفاظ على حقه وحق الورّاقين، من جهة ثانية، كما أن هذه الطريقة لا تخلو من تعميم فائدة للمستمعين، إضافة إلى أنها تشكّل بُعداً إعلامياً للكتاب ومؤلفه.

ج - القراءة على المؤلف:

ضمن شرط الترخيص لنسخ الكتاب، أو طبعه، فإنه تجري عملية قراءة ما ينسخ على المؤلف أولاً بأول، ويذكرالنسّاخ عبارة «قرأت على فلان، أو قرئت لفلان وفلان» للتأكد من صحة الخبر ونقله، وتجري هذه العملية، كما أشرنا، بحضور المؤلف، وعلى مشهد ومرأى من الناس، وعلى ما يبدو أن هذه الطريقة رافقت الورّاقين منذ مجالس الإملاء، حيث كانت تجري عملية حفظ القرآن بهذه الطريقة، أي السماع، فعندما كان الشاب يحفظ القرآن كله فإنه يتقدم بقراءته أمام عالم بالقرآن، قراءة ونطقاً وإعراباً، كي يجري التأكد بأنه تعلّم نطق النصّ بالشكل الصحيح، فقد إختارالرشيد الكسائي النحوي[3] ليشرف على تعليم الأمين القراءة الصحيحة، حيث عرف عنه أنه كان يتلو وينقطون على المصاحف[4]، وكان

(1) أنظر مادة: رخص، في اللسان.

(2) راجع بهذا الصدد الفصل الثالث من كتاب يوهانس بيدرسون/ الكتاب العربي منذ نشأته حتى عصر الطباعة، ص43 - 57.

(3) راجع ترجمته في: سير أعلام النبلاء 9/ 131، الترجمة رقم 44، وغيره من المصادر.

(4) سير أعلام النبلاء 9/ 132.

الكسائي يجلس أثناء الدرس منحني الرأس، وعندما يرتكب الأمين خطأ، كان يرفع رأسه، ويصحح الأمين خطأه[1].

وأثناء عملية القراءة، فإن المؤلف يعاود استحضار مادته المكتوبة، سواء بإملائها على الناسخ، أو بالإستماع إلى قراءتها عليه، وكان غرض الورّاق، من القراءة على المؤلف هو الحصول على الترخيص أولاً، ومن ثم الإجازة على النسخ «النشر» ثانياً، ويصادف أحياناً أن أكثر من ورّاق يطلب الاذن والترخيص من المؤلف ليقوم بنسخ كتابه، والذي كان قد أملاه في مكان ما، في هذا المسجد أو ذاك الجامع، وكان الورّاقون جالسين فيه فكتبوا ما أملاه، دون أن يشعرهو بذلك، وهذه كثيراً ما ترد، لكنها لا يؤخذ بها، ما لم تجر عملية الترخيص والإجازة من قبل المؤلف ذاته وبذا يصبح من المفروض عليهم إعادة القراءة عليه كي يجيز تلك النسخ، وإلا أصبحت باطلة، وغير معترف بها في أروقة السوق ومجالس العلم والأدب. .

وعملية إعادة القراءة على المؤلف ليست مسألة سهلة، فأمرها يتعلق بوقت المؤلف، وقد تدوم طويلاً، لذلك كان العلماء والأدباء والمؤرخون، يمنحون الورّاقين أوقاتاً معلومة، وعلى هؤلاء الحضور في وقتها المحدد، لغرض المراجعة والتدقيق بغية إعطاء الترخيص والإجازة للعمل الذي سينشر، وأحياناً يريد المؤلف أن ينشر المعرفة من خلال هذه العملية، فمن ذلك ما ورى عن محمد بن جرير الطبري أنه كان مجوّداً في القراءة موصوفاً بها، يقصده القرّاء البعداء من الناس للصلاة خلفه، يسمعون قراءته وتجويده[2] وعندما طلب منه أبو بكر بن مجاهد أن يسمع منه قراءة عن رواية ورش عن نافع. . عن القراءات التي وردت في كتابه «التفسير الكبير» رغم ما لأبي بكر من منزلة عند الطبري، فأبى عليه إلا أن يسمعها من الناس[3]، ويعلّق ياقوت الحموي على ذلك بقوله: وكان ذلك كرهاً من أبي جعفر/الطبري/أن يخصّ أحداً بشيء من العلم، وكان في أخلاقه ذلك، لأنه كان إذا قرأ عليه جماعة كتاباً، ولم يحضره أحدهم، لا يأذن لبعضهم أن يقرأ دون بعض، وإذا سأله إنسان في قراءة كتاب وغاب، لم يقرأه حتى يحضر الاّ كتاب الفتوى، فإنه كان أي وقت سئل عن شيء منه أجاب فيه[4].

---

(1) المصدر السابق، وكذلك: يوهانس بيدرسون/ المرجع المذكور له/ ص50. وقد جاء عنده «المأمون وليس الأمين».
(2) معجم الأدباء 18/ 66 ترجمة الطبري، رقم 17.
(3) المصدر السابق 18/ 67.
(4) نفس المصدر 18/ 67 - 68.

وقد عرف عن الطبري، ضمن منهجيته في الإملاء، أنه كان يبتدىء بخطبة تصبّ في صلب موضوعه، ثم يبتدىء بدرس كتبه، الأول فالأول، وتكون في جانب حائر[1] إلى أن يفرغ منها فينقلها إلى الجانب الآخر وهكذا[2]، وقد بدأ هكذا في كتابه الهام/ تاريخ الرسل والملوك/ وأخرج ذلك إلى الناس على سبيل الإجازة إلى سنة 294هـ، ولم يؤرخ للمقتدر الذي كان معاصراً له، ويقع الكتاب في نحو خمسة آلاف ورقة[3].

وقد شكّلت مسألة المراجعة والقراءة على المؤلف مرحلة من مراحل التأليف هي من الأهمية بمكان عند المؤلف ذاته، فربما حذف وربما أضاف، وقد نوّه ابن النديم إلى ذلك في معرض حديثه عن «أبو عمر الزاهد» وكيف أضاف «يواقيت جديدة» إلى كتابه «الياقوت في اللغة» وقد أشرنا إلى ذلك[4].

وفي ضوء ذلك، يكون الكتاب/ المخطوط/ قد مرّ بعدة مراحل، استغرقت زمناً، وبذل فيه جهداً ليس عادياً، فلاحظنا أن الكتاب يقرأ للجمهور أولاً - في مرحلة الإستملاء - ثم يقرأ علناً على الناس بحضورالورّاقين الذين نسخوا عن المؤلف بتلك المجالس، ثم يقرأ ثالثة، وتكون آخر قراءة على المؤلف، يصادق بعدها على إجازة العمل، وفق آخر قراءة له أو عليه، ويكون الشهود في المكان، المجلس، المسجد، الجامع، قد سمعوا تلك القراءة، واقرّ هو بنفسه تلك القراءة أمام الناس علانية.

د - إجازة المؤلف:

بعد أن يصل الكتاب إلى مرحلة - القراءة الأخيرة على المؤلف - وقتذاك، يعطي المؤلف إجازته للعمل، لأن الإجازة شرط مسبق قبل القيام بعمل النقل أو النسخ، وإعطاء الإجازة من قبل المؤلف للورّاق، تعني حصول «الموافقة الشرعية» أو ما يعرف اليوم بـ «توقيع العقد بين الطرفين «الناشر والمؤلف»، وإعطاء الإجازة من قبل المؤلف، تعني موافقته الكاملة بنقل الأثر الأدبي أو العلمي، الصادر عنه بالذات[5]، وقد اعتاد الورّاقون، ذكر عبارة «سماعاً عنه» ويكتبونها في مستهل الحديث عن الكتاب أو المقدمة، وهو منهج سار عليه الأوائل من قبلهم[6].

---

(1) الحائر = المطمئن.

(2) معجم الأدباء 18/ 68 - 69.

(3) نفس المصدر السابق 18/ 70.

(4) راجع الفهرست/ ص113 - 114 - والفصل الثالث من هذا الباب.

(5) راجع - يوهنس بيدرسون/ الكتاب العربي/ ص53 حيث أشار إلى ذلك.

(6) راجع الخطيب البغدادي وكتابه/ تاريخ بغداد/ فهو يوضّح ذلك المنهج.

وعندما يعطي المؤلف ترخيصه للكتاب، فإن الورّاق، يكون قد أكمل إجراءات الحيازة الكاملة على الكتاب، وأصبح بدوره مخوّلاً بنقل الكتاب «نسخه» بنفس الأسلوب، وأي شخص مفوّض بمثل ذلك يمكنه أن يفوّض آخرين، على شرط أن يتأكد بنفسه أن نسخهم تتّفق مع نسخته، وقد كان هذا يحدث بنفس الاسلوب تماماً، كما حدث عندما منح المؤلف إجازته، تقرأ النسخة الجديدة وتطابق مع حائز النسخة الأصلية المجازة، وهكذا تعتمد المسألة على وجود سلسلة غير منقطعة من الإجازات التي تتصل بنسخة المؤلف الأصلية[1] وقد شاهد ياقوت الحموي نسخة من كتاب «الأغاني» ذات إجازة متصلة، تصل رجوعاً إلى الدهكي[2] الذي كان قرأها على المؤلف وتلقى منه الترخيص سنة 612هـ[3].

وتنشأ ضرورات لإعادة «طبع الكتاب» أو إعادة إملائه أو نسخه مجدداً، فقد يشك المؤلف في وجود تلاعب عند الورّاقين في مخطوطته، وهو مألوف عندهم[4]، لذلك يضطر المؤلف إلى إعادة «صيغة الإجازة» حيث أن هذه الصيغة تتوقف على ما إذا كانت نقلت عن طريق سلسلة من المستندات أو المراجع الموثوقة، فمن المعروف والشائع عندهم أن كل صيغة للإجازة تخصص لمخطوط واحد[5].

وقد أورد ياقوت الحموي، بعض النماذج من «صيغ الإجازة» التي كانت تعطى للورّاقين فقد ذكر العبارة التالية[6]: «وجدت على جزء من كتاب (التفسير) لابن جرير (الطبري) بخط الفرغاني[7]، ما ذكر فيه قطعة من تصانيف ابن جرير فنقلته على صورته لذلك، وهو: قد أجزت لك يا عليّ بن عمران وابراهيم بن محمد ما سمعته من أبي جعفر الطبري رحمه الله، من كتاب التفسير، المسمى بجامع البيان عن تأويل آي القرآن، وكتاب تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والخلفاء، والقطعين من الكتاب، ولم أسمعه، وإنما أخذته إجازة، وكتاب تاريخ الرجال المسمّى بذيل المذيّل وكتاب القراءات وتنزيل القرآن، وكتاب لطيف القول وخفيفة في شرائع الإسلام، وما سمعته من كتاب التهذيب، من مسند العشرة، ومسند ابن عباس إلى حديث المعراج، وكتاب آداب القضاة، والمحاضر، والسجلات،

---

(1) يوهنس بيدرسون/ الكتاب العربي/ ص54 - 55.
(2) وردت عند المترجم د. حيدر غيبة بإسم «الدهاقي» في كتاب يوهنس بيدرسون ص55.
(3) معجم الأدباء 12/ 217 الترجمة رقم 53 لعلي بن إبراهيم بن محمد الدّهكي.
(4) سوف نتحدث عن ذلك في فصل - أخلاق الورّاقين.
(5) يوهنس بيدرسون/ المرجع السابق ص55.
(6) معجم الأدباء 18/ 44 - ترجمة الطبري.
(7) راجع ترجمته في تاريخ بغداد 9/ 389؛ وسير أعلام النبلاء 16/ 132.

وكتاب إختلاف علماء الأمصار، فليرويا ذلك عنّي، وكتب عبد الله بن أحمد الفرغاني بخطّه في شعبان سنة ست وثلاثين وثلاثمائة[1].

هذه الصيغة واضحة الدلالة تماماً، وذات صبغة شرعية، أجازت للمتلقي الأول وهو الفرغاني، الذي أخذ عن الطبري - المؤلف - مباشرة، والفرغاني واحد من علماء الحديث ورجالات علم التاريخ[2]، وبذا يكون قد صحب المؤلف وأعطاه الإجازة، وقام هذا بدوره بإعطاء الإجازة إلى متلقين آخرين «ورّاقين» هما: علي بن عمران وابراهيم بن محمد، وقد أشار نص الصيغة إلى مبدأ (الأمانة العلميّة) حيث أشار إلى «ما سمعته» و«لم أسمعه وإنما أخذته إجازة» وبذا يكون النصّ قد أعطى الصيغة الرسمية للتداول والنشر، بموجب صيغة التخويل هذه، إضافة إلى ذكر عدّة كتب للطبري، ولا ينسى المخوّل بالإجازة - الفرغاني - ذكر مسؤوليته الشخصية بذلك، حيث النص الوارد بالصيغة يوضّح ذلك من خلال، توقيع الفرغاني ورسمه القائل: كتب عبد الله بن أحمد الفرغاني، إضافة إلى ذكر التاريخ الذي حصلت فيه الإجازة وهو: سنة 336هـ، وفي ضوء هذه الصيغة الواضحة، يكون بمقدور الورّاقين، نسخ عدة نسخ من تلك الكتب المذكورة.

ويشترط منهج الوراقة، كما أسلفنا، موافقة المؤلف، ولكن قد يحدث أحياناً، أن المؤلف يكون في بلد آخر، والوصول إليه صعب ومكلف، ومع ذلك يبقى الورّاق أميناً في الحصول على موافقة المؤلف وأخذ الإجازة منه، وهذا المبدأ - بتقديرنا - فرضه العرف في صنف الوراقين والوازع الديني الأخلاقي، في رؤيته الإسلامية، والذي كان يحصّن الأصناف التي كانت ترى فيه إيماناً وجدانياً، يجب المحافظة عليه، فمن ذلك، أن ياقوت الحموي، وهو ورّاق مشهور، نسخ كتاب ابن العديم «الأخبارالمستفادة من ذكر بني أبي جرادة» وهم أهل ابن العديم ونسبه إليهم، وظل محتفظاً به مدة، إلى أن صادفه في إحدى جولاته وقرأه عليه «فأقرّ به»[3]، وهنا يكون ياقوت قد حصل على الإجارة بعد هذا الإقرار من قبل المؤلف، ويحق له «النسخ والكتاب، اي نشره» وفق مقتضى الحال، والجميل في الأمر، أن المؤلف، عندما يُشاهد مثل هذا التعامل، يطمئن إلى ورّاقهِ ويُفوِّضهُ الأمر.

أشكال أخرى من (صيغ الإجازة)

من خلال استعراضنا لمفهوم «الإجازة» لمسنا أن هذا «المبدأ» هو عرف سائد في كثير من علوم المسلمين، لا سيما الذين يتعاطون «الثقافة الإسلامية» من حيث النقل والعقل،

(1) معجم الأدباء 18/ 44 - 45.
(2) راجع تاريخ بغداد 9/ 389؛ وسير أعلام النبلاء 16/ 132.
(3) معجم الأدباء 16/ 5 - 6 ترجمة ابن العديم، رقم 1.

ومن حيث الحفاظ على «أمانه الناقل والمنقول»، حتى أصبح مفهوم الإجازة نعتاً يُتعاطى بهِ في الأوساط العلمية والثقافية والدينية، على حدٍ سواء، حتى أن العلامة «محمد الزركشي» ينقل عن بعض المحققين أنّه ذهب إلى أن «الإجازة أعلى منزلة من السماع» لا سيما في أوساط نقلَةِ الحديث والمُتعاطين به[1]، إذ أنَّ هذا الوسط معني بالنقل أكثر من غيره، بحكم التخصص من جهة، وبحكم مادة النقل «الحديث النبوي» وحديث الصحابة، من جهة ثانية، لذلك اشترطوا عدّة اشتراطات على (عالِمْ الحديث) ورّاقاً كان أو صاحب حديث، إذ أنهم أوجدوا «مراتب لكل نوع من الإجازة» وفق التنويع التالي:

1 - **إجازة خاص بخاص**: وحاصلها أن يُعيّن الشيخ الشخص المجاز، والكتاب أو الجزء الذي أجازهُ به، كأن يقول: «أجزت فلان بن فلان أن يروي عني» صحيح البخاري، أو يقول: «أجزتُكَ كتاب كذا» وهذا النوع أعلى أنواع الإجازات[2].

2 - **إجازة خاص بعام**: وحاصلها أن يُعيّن الشيخ الشخص المجاز ولا يُعيّن ما أجازه بهِ من الكتب أو الأجزاء أو الأحاديث، كأن يقول: «أجزتك جميع مسموعاتي» أو «أجزتكم جميع مسموعاتي».

3 - **إجازة عام**: وحاصلها أن يعيّن الشيخ في الذين أجازهم ويُعمّم أيضاً في الكتب والأحاديث أو الأجزاء التي أجاز بها، كأن يقول: «أجزت لكل أهل العصر جميع مروياتي» أو يقول: «أجزتُ جميع المسلمين بجميع مروياتي». وهو على ضربين، أحدهما: أن يكون العموم منحصراً في طائفة معينة، كأن يقول: «أجزتُ أولاد فلان» أو «أجزت طلبة العلم في المكان الفلاني»، والثاني، لا يخص بهِ طائفة معيّنة، كما هو أعلاه.

4 - **إجازة شخص معين بكتابٍ مجهول**: أو يجيز شخصاً مجهولاً بكتاب معيّن، وهو على ضربين:

الأول: هو إجازة المعيّن بالمجهول، هو أن يقول الشيخ: «أجزتُ فلان بن فلان» أو «أجزتُك بجميع مروياتي» ومنه أن يقول: «أجزتُ فلاناً، أو أجزتُكَ بكتاب التسنن» إذا كان الشيخ يروي كُتباً متعدّدة، كل واحد منها إسمه «السُنن».

وهناك أنواع أخرى من هذه الإجازات لطالبي (علم الحديث) من أمثال: «الإجازة

(1) راجع مقدمة د. بهيجة الحسيني، لتحقيقها مخطوطة «إستجازة الحافظ».

السلفي الشيخ الزمخشري، والمنشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 23. لعام 1393هـ/ 1973م، ص 158 وما بعدها.

للمعدوم، والإجازة بما لم يتحمله الشيخ نفسه، وإجازة المجاز» وهذه «الإجازة» محصورة بعلماء الحديث وطلابه، أكثر من بقية الفنون الأخرى.

وأحياناً تأتي «صيغة الإجازة شعراً» رغم كونها صدرت من علماء الحديث، فهذا أبو شجاع عُمر بن أبي الحسن البسطامي «المتوفي 570هـ/ 1175م) يردُّ جواباً على الحنفي السلفي أبو طاهر أحمد بن محمد ابن أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني، وقد طلب الإجازة منه، فقال:

إني أجزتُ لكم عنّي روايتكم ... بما سمعت من أشياخي وأقراني
من بَعد أن تحفظوا شرط الجواز ... لها مستجمعين لها أسباب إتقان
أرجو بذلك أن الله يذكرني ... يوم النشور وإيّاكم بغفراني

* كما أن بعض النساء العالمات قد أخذت الإجازة من كبار العلماء والأدباء والحفاظ، من أمثال: أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشعري (524 - 615هـ) كانت قد أخذت الإجازة من كبار العلماء والأدباء والحفّاظ من أمثال الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي والزمخشري وغيرهم.

ومن أجمل الصيَّغ للإجازة «نثراً» هو ما ورد عند الحافظ السلفي وهو يطلب الإجازة من العلاّمة الزمخشري، حيث يوقفنا إسلوب طلب الإجازة على حالةٍ من الرُقي المعرفي والثقافي لا يمكن أن ترقى لها حالة العصر الراهن، إذ شكل الخطاب الثقافي يفصح عن مدى إهتمام الناس بالعلماء، ومدى تواضع العلماء، وشروط المعرفة لهذه الإجازة، وبغية الوقوف الدقيق على هذا «النموذج» الرفيع من الإجازة، نورد أدناه نص المكاتبة بين الطرفين، كما وردت محققة من قبل د. بهيجة الحسيني.

إستجازة السلفي الزمخشري الأولى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رَبِّ أعِن يا كريم

(إنَّ رأي الشيخ الأجل العالم - أدام الله توفيقه - أن يجيز مسموعاته وإجازاته ومروياته، وما ألّفهُ في فنون العِلم، وأنشأهُ من المقامات والرسائل والشعر لأحمد بن محمد بن أحمد السلفي الأصفهاني، ويذكر مولدَهُ ونسبه إلى أعلى أب يعرفهُ ويثبّت كلَّ ذلك بخطّه تحت هذا الإستدعاء، مضافاً إليه ذكر ما صنَّفهُ، وذكر شيوخه الذين أخذ عنهم، وما سمع عليهم من أمهات المُهمّات، حديثاً كان أو لغةً أو نحواً أو بياناً، فَعَل مثاباً وإن تَمَّمَ إنعامَهُ،

وغير ذلك من نظمه، ومِمَّا أنشده شيوخه من قبلهم أو من قبل شيوخهم بعد تسمية كلّ منهم وإضافة شعره إليه.

والشرط في كلّ هذا أن يكون بالإسناد المتصل إلى قائله، كان له الفضل. وكذلك إن صحبهُ شيئاً أصحبهُ بشيء من رواياته، أنعَمَ بكُتب أحاديث عالية، والله تعالى يوفقه ويحسن جزاءهُ، ويطيل لنشر العِلم والإفادة بقاءه.

ويعلم - وفّقه الله - أنَّهُ قد وقع إلينا كتاب من يعقوب بن شيرين الجندي إليه وفيه قصيدة يُرثي بها البرهان البخاري، والحاجة داعية إلى تعرّف إسمه ونسبه وضبطه، هل هو إبن شيرين بالشين المعجمة أو السين المهملة؟ وكذلك الجندي - بفتح الجيم والنون، أو ضم الجيم وإسكان النون بعدها؟

والحمد لله حقَّ حمده، وصلواتهُ على سيدنا محمَّدٌ نبيه وعبده، وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين من بعده، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

إجازة الزمخشري السلفيّ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللّهم غفراً

أسأل الله أن يُطيلَ بقاء الشيخ العالم، ويُديمه لعلمٍ يغوص على جواهره، ويفتق الأصداف على ذخائره، ويوفقه للعمل الصالح الذي هو مرمى أغراض أولي العقل، ومطمح أبصار المرتكضين إلى غاية الفضل.

ولقد عثرتُ من مقاطر قلمه على جُملةٍ تنادي على غزارة بحره، وتطبى القلوب إلى التزيّن بسموط درّه. وأمّا ما طلب عندي وخطب إليّ من العلوم والدرايات والسَماعات والروايات، فبناتٌ خلعت على تربيتهن الشباب ثم دفنتهنّ وحثوت عليهن التراب، وذلك حين آثرت الطريقة الأويسيّة(*).

على بُنيّاتِ الطرائق، وأخذتُ نفسي برفض الحَجَبِ والعوائق، ونقلت كتبي كُلّها إلى مشهد أبي حنيفة، رَحِمَهُ اللهُ، فوقفتها، وأصفرتُ منها يدي إلا دفتراً واحداً قد أنزلتهُ تميمَةً في عَضُدي، وهو كتاب الله الجليل المُبين، والحبلُ المتين والصِراط المستقيم، لأهب لما قصدتُ بصدده كُلي، وألقي عليه وحَدَهُ ظلي، لا يشغلني عنهُ بعض ما يجعل الرأي مشتركاً، ويردُّ القلب مُقتسماً، ولذتُ بحرم الله المعظم، وبيتهُ المحرّم، وطلّقت ما وزرني بتاً، وكفتُ ذيلي عنه كفتاً، ما بي همٌ إلا خويصتي، وما يُلهني إلا النظر في قصّتي أنتظر داعي الله صباح مساءٍ، وكأني به قد إمتطيت الآلة الحدباء، قد وهنت العِظام، ووهت القِوى، وقلّت الصحّة، وكثُر الجوى، وما أنا إلا ذماءٌ تتردد في جسدٍ هو هامةُ اليوم أو غد، فما لمثلي وليس لهُ من الآخرة شيء.

ولقد أجزتُ لهُ أن يروي عني تصانيفي، وقد أبنتُ أشياء منها في ورقةٍ لبعض الإسكندرانيين.

وأنا محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي ثم الزمخشري، منسوب إلى قريةٍ منها هي مسقط رأسي، ولبعض أفاضل المشرق:

فلو وازن الدنيا ترابُ زمخشر ... لأنك منها زادهُ الله رجحانا

(*) الطريقة الأويسية: هي طريقة أويس القرني في التزهد والعيش في شظف العوز.

وللشريف الأجل الأمام علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس الحسيني:

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي ... تبوأها داراً فدىً لزمخشرا
وأحر بأن تزهى زمخشر بأمرئٍ ... إذاعدَّ في أُسد الشرى زمخ الشري
فلولاه ما طنَّ البلادُ بذكرها ... ولا طار فيها منجداً ومغوّرا
فليس ثناها بالعراقِ وأهلهِ ... بأعرف منه في الحجاز وأشهرا

ومن المقطوعات التي إخترعتها من قبلي:

ومروعة بمشيب رأسي أقبلت ... تبكي فقلت لها ودمعي جاري
هذا المشيب لهيبُ نارٍ أوقدت ... في القلب موقدها حذار النارِ

أخرى:

إليك إلهي المشتكى نفس مُشتهٍ ... إلى الشر تدعوني عن الخير تنهاني
وما يشتكي الشيطان إلا مغفل ... إلا أنَّ نفس المشتهي ألفُ شيطانِ

أخرى:

شكوت إلى الأيام سُوء صنيعها ... ومن عجبٍ باكٍ تشكّي إلى المَبكي
فما زادت الأيام إلاّ نكاية ... وما زالت الأيام تُنكي ولا تشتكي

أخرى

مَسرّة أحقابٍ تلقيتُ بعدها ... مساءَة يومٍ أريها شبه الصابِ(1)
فكيف بأن تلقى مسرّة ساعةٍ ... وراء تقضيها مساءةَ أحقابِ

أخرى:

الخوض في دُولِ الدنيا يلجُّ بكُمْ ... كأنها لجَجٌ خَوّاضها لَجَجُ
كم خلصت لجَج البحر وما ... أقلَّ منُ خلصَتُه هذهِ اللجج

أخرى:

مُبالاةٌ مثلي بالرزايا غضاضةٌ ... أباها وثيقُ العُقدين حصيفُ
إذا أقبلت يوماً عليَّ صروفها ... لأنيابها في مسمعيّ صريفُ

(1) الصاب: عصارة شجر مُرّ، واحدتهُ صلبة.

عتابٌ لها حتى تشقَّ نحورها أسنةُ عزم حدُّهنّ رهيفُ
يَمْسحَن أركاني وهنَّ قوافِل صفا صادرات النبل عنه تضيفُ(1)

والقاضي أديب الملوك، أبو إسماعيل يعقوب بن شيرين الجندي:

بالشين المعجمة، وهو الحلو في لسان العجم.

الجند: بفتح الجيم وسكون النون، وهو تعريف: وهي البلد في لسان الترك. والرجل تركي، وبلاده من بلاد التكرور المجاورة لبلاد ما وراء النهر.

وهو على كلّ الإطلاق أفضل الفتيان في عصره، وأعقلهم وأذكاهم وأدهاهم، وكان كاتب سُلطان خوارزم فاستعفى.

وهو يكتب باللسانين: العربيّة والفارسيّة ويُحسن.

وهو ممَّنْ ربيتُ، وخرَّجت، وبلغت تلك الذروة، وهو أوثق سهم من كنانتي.

والحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة على نبيه محمد وآله الطيبين.

إنتهى نقل السؤال والجواب بنصّه

حقوق المؤلف بعد وفاته:

ركّز الورّاقون على الحفاظ، في تعاملهم مع المؤلفين، على مبدأ) (حقوق النشر للمؤلف) (من خلال الأعراف والأخلاق الدينية، المتعامل بها، وضمن شروط «الإجازة والتفويض» لنقل الأثر بعد صاحبه. وقد أعطوا الأولوية في ذلك إلى «خط المؤلف أو إملائه» ولكن المسألة هذه تكون سائدة في حالة بقاء المؤلف على قيد الحياة، وعندما يتوفّى المؤلف، فإن عائديّة مخطوطاته تكون للورّاق الذي حصل على «إجازته» قبل الوفاة، أو تكون لأحد أبنائه، أو لأحد تلاميذه، أو تكون منابة عنه لأحد الشيوخ الذين يتساوون معه في القدر والمعرفة، وضمن مجال الاختصاص، في علم من العلوم، أو فنّ من الفنون.

ولكن، يحدث أحياناً، أن مسألة «الإجازة أو التفويض» قد تكون مزوّرة، لذلك لجأ الورّاقون، إلى مبدأ «الشك» في صيغة الإجازة أو التفويض، أو الإهداء، والذي يشكل أحياناً إجازة بأسلوب رشيق ولبق، يروى ياقوت الحموي(2) أن يعقوب بن أحمد أخرج

(1) تضيف: من ضافَ عنه، بمعنى عدل، وضاف السهم عن الهدف، بمعنى عدل كذلك.

(2) والعهدة في ذلك على صاحب كتاب «الكتاب العربي» منذ نشأته حتى عصر الطباعة ص54، وعلى =

مقتطفات شعرية من تأليفه وآخرين، وقد قابل واحداً من هؤلاء الشعراء وهو أبوعامر، وسأله أن يكتب صيغة الإهداء إليه على الكتاب، وقد شاهد ياقوت هذه النسخة المصادق عليها من قبل أبي عامر حيث قال: «التي لا يخامرني أي شك نحوها» وهي تتألف من سلسلة من عبارات المديح وغيرها، ويشير، بأن يعقوب أفاد أنه أعاد قراءة مخطوطته الشعرية بحضور شخصين آخرين، ويسأل الله أن يمنحه الفائدة والرضا عنه».

ومسألة الشك قد يتعامل بها الورّاقون أو النقلة بحكم الضرورة والحاجة، وتعتمد على الصيغة للإجازة، فإذا كانت منقولة عن طريق سلسلة من المستندات أو المراجع الموثوقة، فإذا تعذّر ذلك فإنهم يلجأون إلى نسخة أصليّة، تكون من مخلّفات المؤلف المتوفى، وبحيازة أحد المعاصرين لهم، والتي تكون قد وصلته عن طريق الإرث والتركة وبذا تكون موافقة هذا الوارث بمثابة الإجازة أو التفويض لإعادة نشر الكتاب «نسخة ثانية» أي طبعة ثانية في لغة زماننا، فمن ذلك أن منذر بن سعيد البلوّطي ذهب إلى مصر من الأندلس ليستنسخ كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي، من أبي جعفر النحاس، فأبى عليه، الأمرالذي دعاه إلى قصد إنسان آخر كان يحتفظ بنسخة من كتاب الخليل اسمه «أبو العبّاس بن ولاّد فأعطاه نسخته ونسخ عليها ورحل»[1]، وإذا صحّت نسخة أصلية واحدة، أمكن النسخ عليها، وهكذا يعاد نشر الكتاب، بعد أن تكون بقية النسخ قد قوبلت على تلك النسخة الأصليّة.

وضمن منظور «الإجازة وحقوق المؤلف» كان الورّاقون يتبعون أسلوباً معرفيّاً في إعادة نشر مخطوط، كان صاحبه قد رحل عن الدنيا، ولم يترك وريثاً له، وهو ما يشكل إعاقة مهنية في نشر المخطوط، بغياب صاحبه فإنهم أوجدوا طريقة هامّة وعلميّة، تستند في إطارها الثقافي إلى الاختصاص الذي يتطابق ومضمون المخطوطة فإذا كانت المخطوطة في التاريخ، ذهبوا إلى عالم من أعلام المؤلفين في التاريخ، أو كانت في أمورالفقه والحديث، فإن المحدثين في ذلك كثرة، وقد توقفوا في مثل هذه الأمورعند شيوخ - أساتذة - أهل الفن في ذلك الإختصاص، كي يحصلوا على إجازة العمل فيتسارعون للقراءة عليه، فمن ذلك أن المبرّد كان مطلوباً دائماً للقراءة عليه في كتب «النحو وعلم العربية» ويتقاضى عن ذلك أجراً، رغم أن الكتب ليست له، إلا أن اختصاصه في اللغة العربية أهلّه لأن يكون مرجعاً بها، فقصده القرّاء والنسّاخ، وأحياناً يضنّ هؤلاء الشيوخ ببعض العلوم، فلا

= مترجم الكتاب، حيث أني لم أعثر على الخبر في أغلب معجم الأدباء، ولم يشر المؤلف يوهنس بيدرسون إلى مصدر الخبر، لذا اقتضى التنويه بذلك.

(1) معجم الأدباء 9/ 183، ترجمة، منذر بن سعيد البلوطي رقم 59.

يعطونها لأحد، لعزّة تلك المخطوطة أو ذاك الكتاب، أو لغرض الانتفاع به، فمن ذلك ما نقله ياقوت عن محمد بن ولاّد، فقد كان هذا يحب العربية، ويشتغل بعلوم النحو، وله كتاب اسمه «المنمّق» وغيره، أراد أن ينسخ من «الكتاب لسيبويه» من عند المبرّد، وقد كان المبرّد لا يمكّن أحداً من نسخ ذلك الكتاب، إلا أن ابن ولاّد إتفق معه على شيء سمّاه، أي أن يعطيه شيئاً حتى يقرأه عليه[1]، وهنا أراد ابن ولاّد فرض الأمر الواقع على المبرّد كي يمنحه الإجازة، بهذه الطريقة، وأرغمه عليها، رغم أن المبرّد غضب لذلك وسعى بابن ولاّد إلى بعض خدم السلطان ليعاقبه على ذلك، فالتجأ ابن ولاّد إلى صاحب الخراج ببغداد، وكان يؤدب ولده، فأجابه، ثم ألحّ على المبرّد حتى أقرأه الكتاب[2]، وبذا يكون ابن ولاّد قد فاز بإجازة نسخ الكتاب، وكسر قيد الاحتكار بهذه الطريقة الذكيّة.

وقد كانت لبعض الكتب أهميتها التاريخية والمعرفية، على حدّ سواء، فكتاب سيبويه الآنف الذكر، كان الناس يحتاجون إليه، في كل زمان ومكان[3] ويطلبونه من الورّاقين وغيرهم، وتشدّ إليه الرحال لنسخه والاستفادة منه، فهذا أبو علي الفارسي[4] أحد أعلام العربية في النحو واللغة، يشدّ رحاله من فارس إلى بغداد كي يسمع من أبي بكر السرّاج.

(محمد بن السري بن سهل)[5] أحد أعلام اللغة في بغداد (ق 4هـ)، وأبرز تلاميذ المبرّد، قال عنه ياقوت: قرأ على «المبرد» كتاب سيبويه، ثم اشتغل بالموسيقى، فسئل عن مسألة بحضرة الزجّاج، فأخطأ في جوابها، فوبّخه الزجّاج وقال: مثلك يخطىء في مثل هذه المسألة؟ والله لو كانت في منزلي لضربتك، ولكن المجلس لا يحتمل ذلك، فقال أبو بكر السراج: قد ضربتني يا أبا إسحاق، ثم تفرّد لكتاب سيبويه ثانية حتى قالوا: ما زال النحو مجنوناً حتى عقّله ابن السراج بأصوله[6]، وهذا الخبر يوضّح لنا أن ابن السرّاج هو صاحب «الإجازة» في كتاب سيبويه بتفويض ومصادقة من أستاذه «المبرّد» وعلى ضوء ذلك جاء أبوعلي الفارسي من بلاده إلى بغداد ليسمع قراءته، وبذا يصبح هو الآخر من أصحاب الإجازة والتفويض، لذلك يقول هو في هذا الصدد: جئت لأسمع من كتاب سيبويه،

---

(1) معجم الأدباء 19/ 106، ترجمة، محمد بن ولاّد التميمي رقم 29.

(2) المصدر السابق/ نفس المكان.

(3) لا زال حاضراً بين ظهرانينا حتى هذه الساعة، وهو واحد من أهم مصادر النحو في اللغة العربية.

(4) أنظر ترجمته عند ياقوت: معجم الأدباء 7/ 232 الترجمة رقم 59؛ وسير أعلام النبلاء 16/ 379، الترجمة 271.

(5) أنظر ترجمته عند ياقوت، معجم الأدباء 18/ 197، الترجمة رقم 53.

(6) ياقوت، المصدر السابق 18/ 198.

وحملت إليه ما حملت، فلما انتصف الكتاب عسرَعليّ إتمامه، فانقطعت عنه لتمكني من مسائله فقلت في نفسي بعد مدة: إذا عدت إلى فارس وسئلت عن إتمامه، فإن قلت نعم كذبت، وإن قلت لا، بطلت الرواية[1]، هنا يتوضّح مقدار المكابرة والمعاناة في تلقي العلوم من جهة، ومن جهة أخرى، أن مبدأ الصدق في النقل يملي على الناقل عدم تزوير الحقائق، أي هناك ربط أخلاقي في المسألة المعرفية، وفي المحصلة النهائية فإن منهج الوراقة، حصّن الكثير من النقلة والعلماء للحفاظ على بنوده وثوابته، ومن هنا أيضاً تبرز لنا أهمية الإجازة، حتى وإن كانت على السماع، وليس ذلك فحسب، بل أن المُجيز، هو الآخر يحرص على إيداع هذه الإجازة في مكانها الأمين والموثوق، في مستودعات العلم وصدور العلماء وعقولهم، يقول أبو علي الفارسي، مستأنفاً حديثه السابق: فدعتني الضرورة أن حملت إليه/ يقصد ابن السرّاج/ رزمة وأقبلت إليه، فلما أبصرني من بعيد أنشد[2]:

كم قد تجرّعت من غيظ ومن حنقٍ لكن تجدّد وجدى هوّن الماضي
وكم غضبت ولم يلووا على غضبي فعدت طوعا بقلب ساخط راضي[3]

ومن ثم أصبح التواترفي النقل والتفويض لكتاب واحد، من الأمور المسلّم بها، بحكم الضرورة ولتوالي الأحداث وتعاقب الأزمان، على شرط الحفاظ على مبدأ «الإجازة والتفويض» كنهج لا يمكن الحيادة عنه، فكتاب سيبويه مثلاً مرّ بهذه التجارب والضرورات فبعد أبي علي الفارسي، كان علي بن عيسى الرماني الورّاق[4]، حيث هو الآخر كان قد تتلمذ على يد ابن السرّاج وابن دريد والزجّاج، وله كتاب في «شرح كتاب سيبويه»[5]، ثم آل الأمر إلى محمد بن المستنير بن أحمد المعروف بقطرب البصري حيث هو الآخر، أخذ النحو عن سيبويه[6]، ثم كان الأمر لمحمد بن مسعود الأندلسي[7]، الذي تتلمذ على يد

---

(1) معجم الأدباء 18/ 201 و7/ 252 - 253.

(2) المصدر السابق، بمكانيه.

(3) في ترجمة/ أبو علي الفارسي/ عند ياقوت أيضاً، معجم الأدباء، ورد البيتان على النحو التالي:
وكم قد تجرّعت من غيظ ومن حزن اذا تجدّد حزن هوّن الماضي
وكم غضبت فما باليتهم غضبي حتى رجعت بقلب ساخط راضي.

(4) انظر ترجمته في معجم الأدباء 14/ 73 وما بعدها، الترجمة رقم 20.

(5) انظر إلى قائمة مؤلفاته عند ياقوت، معجم الأدباء 14/ 75.

(6) ياقوت، معجم الأدباء 19/ 52 - 53، الترجمة رقم 15.

(7) معجم الأدباء 19/ 54، الترجمة رقم 16.

ابن السرّاج، وأتقن على يده مسائل سيبويه، وتصدر للإقراء في الأندلس فرحل إليه الناس للقراءة عليه، وبذا يكون هو واحد من أصحاب التفويض والإجازة بالتوارث أيضاً، بالنسبة لكتاب سيبويه.

وتبلغ أحياناً قراءة الورّاق أو التلميذ على شيخه، العالم بأكثر من فن إبداء التفويض والإجازة، دون أن يكمل الكتاب، نظراً لحسن راية ودقة الضبط في القراءة، في الفصول الأولى من الكتاب، لذلك يجيزه شيخه على ذلك، فقد ذكر ياقوت الحموي، أن أبا الحسن الطبري، تلميذ أبي عمر الزاهد[1] كان قد قرأ قصيدة شبل بن عروة الضبعي على أبي عمر الزاهد والتي أخذها من أبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه، وقد قرأ عليه إلى «سيبا من حسرّ سئل» والقراءة هنا على ابن درستويه، فقال ابن درستويه: قد دفعت إليك كتابي بخطي من يدي إلى يدك، وقد أجزت لك القصيدة، فأروها عني، فإن هذا ينوب عن السماع والقراءة فقبلت ذلك منه[2]، وعلى هذا النحو كانت الإجازات والتفاويض، ترد من شيخ إلى تلميذه، وتدور، وتتناقل من جيل إلى جيل، ومن عصر إلى آخر، حتى وصلت إلينا.

هـ - السماح بالتداول:

بعد كل تلك المراحل والخطوات، من عمل الوراقة، والسير وفق المنهج المتّبع، فإن العرف الوراقي يبيح تداول الكتاب في أروقة سوق الورّاقين وخارجه، وقد رأينا مسار حركة الكتاب، وما رافقها من تعقيدات وتغييرات، ولولا ذلك المنهج الرصين، وما رافقه من أخلاق وقيم، حافظت على وجودها في سياق المنهج، لما وصل إلينا ذلك التراث الجميل الخالد، ولأصبح مشكوكاً في الكثير من تلك المخطوطات التي وصلت إلينا، وهي الأخرى تحتاج إلى البذل والمزيد من الجهد لإخراجها إلى النور، لأن حقّ الأوائل علينا يتطلّب منا متابعة خطّ سيرهم، والحفاظ عليه، وبمنهجيّة تقرّبنا إليهم، كي نكون بارّين بهم، وبالتراث الذي تركوه لنا أمانة.

البعد الفني في منهج الوراقة:

كنّا قد ألمحنا إلى هذه النقطة، في بداية هذا الفصل، حيث أن الورّاقين كان لهم من الحسّ الفني ما يوازي تصوّرهم المعرفي، ويكمله في سياق المهنة والتوريق، لذلك نشاهد

---

(1) سبقت الإشارة إليه في هذا الفصل.

(2) معجم الأدباء 1/ 110 ترجمة - إبراهيم بن محمد توزون، الترجمة رقم 4.

أن الورّاقين كانوا أصنافاً متعددة[1]، فهذا نسّاخ، وذاك مذهّب، وثالث مجلّد، ورابع منادي، وغيرهم، الأمر الذي يوضّح أهمية الوراقة، وجميع أصناف الورّاقين، تعطي للبعد الفني أهميته في عملهم، وأطلقوا على هذا البعد اسم «رسوم الكتابة» والتي تعني عندهم الإلتزام بتصدير الكتاب، ومقابلة النسخة بالكتاب الأصلي، ومراجعة اللغة، وتجاوز الخطأ في النسخ وغيرها[2] من أمور الكتابة، المستخدمة في دواوين الدولة أو عند الورّاقين، وهذا المسلك دأبوا عليه من أسلافهم منذ أيام النبي محمد ﷺ، حيث كانوا يلتزمون به[3]، وضمن الرؤية الإسلامية فإن التصدير[4]، هو التزام الكتّاب بذكر «بسم الله الرحمن الرحيم» في أولّ أي كتاب يكتب، وقد ذكر الصولي، أن قريشاً كانت تكتب في جاهليتها «باسمك اللهم» والتزم النبي محمد ﷺ بذلك إلى أن نزلت سورة هود وفيها ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾[5]، فأمر ﷺ بأن يكتب في صدر كتبه «بسم الله»، ثم نزلت في سورة الإسراء: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[6]، فكتب «بسم الله الرحمن» ثم نزلت سورة النمل وفيها ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[7]، فجعل ذلك في صدر الكتب إلى الساعة، وكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» في أول كل سورة من القرآن، إلا في أول سورة التوبة، فإنه يروى عن عثمان بن عفان أنه قال: لم يكتب بين الانفال وبراءة «بسم الله الرحمن الرحيم» والأنفال من أوّل ما أنزل الله في «المدينة» و«براءة» من آخره، إلا أنها تشبهها[8]، وعلى هذا الأساس الديني، جرت العادة في الكتابة وأصبحت رسماً من رسومها.

وكتابة البسملة[9] يختارها الكاتب - الورّاق، في بداية حاشية القرطاس، ثم يكتبون الدعاء/ أي تضمين فاتحة الكتاب بعد البسملة عبارة مثل: (أني أحمد إليك الله الذي لا إله

---

(1) سوف نتطرق إلى أصناف الورّاقين في فصول قادمة.
(2) راجع الصولي/ أدب الكتّاب/ ص36 - 40 وص 120 وما بعدها.
(3) المصدر السابق ص39.
(4) جاء في القاموس للزبيدي/ الصدر: أعلى مقدم كل شيء وأوله/أنظر مادة: صدر - والتصدير على وزن تفعيل، وهو اشتقاق من «صدر» المراد به في هذا الموضع، بدء الكتابة في أول صدر الصفحة.
(5) سورة هود، الآية رقم 41.
(6) وردت عند الصولي/ سورة بني اسرائيل/ والصحيح هو: سورة الإسراء، الآية رقم 110 وغريب أن المحقق الأستاذ الكبير محمد بهجت الأثري لم يتحقق من الآيات والسور، حيث لم يوجد سورة في القرآن باسم «سورة بني اسرائيل».
(7) سورة النمل، الآية رقم 30.
(8) الصولي، أدب الكتّاب/ ص31 - 32.
(9) البسملة: اختصار لكلمة (بسم الله الرحمن الرحيم).

إلا هو) وغيرها[1] على أن يكون الدعاء تحت البسملة، ومساوياً لها في المساحة، ويشير الصولي إلى أنهم كانوا يستقبحون أن يخرج الكلام عن «بسم الله الرحمن الرحيم» فاضلاً بقليل ولا يكتبونها وسطاً، يقصد البسملة، ويكون الدعاء فاضلاً، ويضيف: وإنما يفعل ذلك بالتراجم[2]. وبعض هؤلاء يرى أن يجعل البسملة وسطاً في أسفل الكتاب، بعد إنقضاء الدعاء الثاني، وهو دعاء يذيّل به الكتاب أو الصفحة، كنهاية لقول ما يراد، كما أنهم يذكرون التاريخ إذا احتاج إلى تبيّن نسخة كتاب متقدم أو حساب ليفرّق بين منزلته من صدر الكتاب وبين عجزه، وهذا المنهج أخذ به بعض الكتاب لا جميعهم[3].

وهناك ملاحظة فنيّة هامة هي: لا يفسح ما بين «البسملة» وبين السطر الذي يتلوه من الدعاء، ولكن يفسح ما بين الدعاء، إذا استتم، وبين سائر المخاطبة، أما الدعاء فلا يتجاوز به ثلاثة أسطر، ولا يستتم السطر الثالث على المشهور من مذاهب أجلاّء الكتّاب، كما يقول الصولي[4].

ومن مراسم الكتابة الأخرى، إستهلال الكلام، بعد البسملة والدعاء، بكلمة «أما بعد» كعرف سائد في أدب الكتّاب، قيل: إن أوّل من قالها (كعب بن لؤي)، وقيل داود النبي، ويعتبر هذا، فصل الخطاب[5]، ويجري الأخذ به عادة بعد الدعاء، أو بعد قولهم: من فلان إلى فلان، فيفصل بها بين الخطاب المتقدم وبين الخطاب الذي يجيء بعد، وقد أورد الصولي أبياتاً توضّح هذا المعنى لسابق البربري موجهة إلى عمر بن عبد العزيز[6]:

باسم الذي أنزلت من عنده السّور ... والحمد لله، أمّا بعد يا عمر
فإن رضيت بما تأتي وما تذر ... فكن على حذر قد ينفع الحذر

واشترطوا/ لغويا/ وجود الفاء بعد أمّا، لأن أما لا عمل لها إلا اقتضاء الفاء

---

(1) أنظر الصولي/ أدب الكتّاب/ ص36 - 38.
(2) المصدر السابق ص36.
(3) الصولي أدب الكتّاب/ ص36 أيضاً.
(4) المصدر السابق/ نفس المكان.
(5) ذات المصدر/ ص36 - 37. وقد علّق الأستاذ/ بهجت الأثري على ذلك بالقول/ جملة الأقوال في «أما بعد» سبعة، وقد جمعها أبو الطيّب صديق حسن خان، ﷺ بقوله:
فهاك خلافاً في الذي قد تقدما ... ينطق بأما بعد، فاحفظ لتفهما
فداود يعقوب فآدم أقرب ... فقس فسحبان فكعب فيعربا
أنظر المصدر السابق/ ص37/ الهامش 1.
(6) أدب الكتّاب/ ص37.

واكتسابها، فإن الفاء تصل بعض الكلام ببعض وصلا لا إنفصال بينه ولا مهلة فيه[1].

وللتصديرأحوال، اقتضتها الظروف السياسية والإدارية، وخضعت بذلك إلى مسارها التاريخي، ففي أيام النبي يبدأ باسمه ويختم الكتاب باسم كاتبه، وفي زمن الخلافة الإسلامية بـ«امرة المؤمنين والإمامة»، والتصدير في أول الكتاب، والدعاء في آخره للإمام وولي العهد والوزير واحد، إلا أنهم قالوا: سلام على أمير المؤمنيثن ورحمة الله وبركاته، وكذلك لولي العهد في التصدير والدعاء الأخير، ولم يقولوا للوزير «وبركاته» ليفرقوا بين المحلّين[2].

وكان التصدير ينتهي إلى قوله: «فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو» إلى أن أفضت الخلافة إلى الرشيد، فأمر أن يزاد فيه، «وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله» فكتب به[3].

وهذا الأمر يدلّنا على الأصول الأوليّة في المخاطبات الرسمية الصادرة من ديوان الخليفة، لذلك تبرز الصفة الآمرة، والألقاب المعظّمة، والنعوت الأخرى، لإضفاء الرسمية والهيبة.

ومن الأمور الفنيّة الأخرى في منهج الورّاقين،/ جودة الخط/[4]، فعليه يعتمد، بدرجة أساسية، في مهنة الوراقة، وقد أفرد الصولي باباً مهمّاً في ذلك[5]، كما جاء ذكر جودة الخط عند أبي حيان التوحيدي، حيث خصّه برسالة خاصة أسماها/ رسالة في علم الكتابة/[6].

أما المقابلة، فهي تدقيق ما في المخطوط على المنسوخ، دون زيادة أو نقصان، بحيث يحدث التماثل ويقبل التعارض، حتى يستويان، والمعنى أن ينسخ الشيء فيجيء بمثله بغير مخالفة، ويروى أن أوّل من عمل نسخاً «زياد»[7]، ولعله زياد بن أبيه، وضمن سياق المقابلة، فإن الورّاقين ينتبهون إلى الخطأ، وهو في اللغة، ضد الصواب[8]،

---

(1) أدب الكتّاب/ ص38.
(2) المصدرالسابق ص39 - 40.
(3) نفسه.
(4) سيجد القارىء تفصيلاً دقيقاً في ذلك في الباب الخاص بـ/ أصناف الورّاقين، الخطّاطون
(5) أدب الكتّاب/ ص41 - 57.
(6) رسائل التوحيدي/ ص41 - 61 - بعناية إبراهيم الكيلاني.
(7) لم يذكر الصولي أي زيادٍ منهم، أدب الكتّاب/ ص122/ ولم أعثر عليه في «الأوائل» لأبي هلال العسكري.
(8) أدب الكتّاب/ ص122.

فيصححونه، ثم لا يأخذون بالمشق في الكتابة/والمشق، السرعة/[1]، ولم يتعاطوا في مهنِهم بـ «الزلف» وهو تجاوز الشيء إلى شيء غيره[2]، ثم أنهم أخذوا بمبدأ «عرض الكتاب» وهو إمرار الطرف عليه بعد الفراغ منه لئلا يقع في خطأ[3]، ومن ثم انتبهوا جيداً إلى مسألة «اللحن في الكتابة» واعتبروا ذلك من العيوب، لذلك قالوا: اللحن في الكتاب أقبح منه في الخطاب[4]، ثم راعوا مسألة «التوقيع والايجاز»[5] إذا كانت صادرة من كتّاب الدواوين في الدولة العباسية، والتزموا بأصول الكتابة عند كتابة «العنوان» والعنوان، العلامة، كأنك علمته حتى عرف بذكر من كتبه ومن كتب إليه[6]، وراعوا في نسخهم «تحرير الكتاب» أي خلوصه من الكدر وصفاء ما عليه[7]، ثم أنهم التزموا بقواعد الكتابة والإنشاء، التي التزم بها كتّاب العصر العباسي، واستدلّوا بنقد الكتابة بعد الفراغ منها كفكرة، يقول الصولي بصدد هذه الفكرة.

«إنَّ الإبتداء بنظم الكلام ونثره فتنة تروق، وحدّة تعجب، فإذا سكتت القريحة وعدل التأمل، وصفت النفس، فليعد النظر، وليكن فرحه بإحسانه، مساوياً لغمّه بإساءته»[8]، وهذه الناحية تشترك في المنظور المعرفي أكثر من اشتراكها في المنظور الفني، لأن فيها مبدأ «النقد» واضح جداً.

ونظراً لكون الورّاقين هم أقرب إلى العامة من الناس، فلذلك يلتجأ إليهم لكتابة ما هم بحاجة إليه من قصص «عرائض» وشكاوى وغيرها، وقد أورد الصولي نماذج من هذه الأمور، كجزء من أدب الكتابة وفنها، وقد التزم الورّاقون بها، ولا بأس من إيراد نموذج منها، استطراد للسياق، وتوضيحاً للمعنى، وإتماماً للفائدة، يقول الصولي:

«فأمّا مكاتبات الناس إلى الإمام - الخليفة - أو إلى وليّ العهد أو إلى الوزير فيكتب: «العبد لله فلان بن فلان - أمير المؤمنين - سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فإني أحمد إلى أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يصلي على محمد عبده

(1) المصدر السابق ص123.
(2) أدب الكتّاب/ ص123.
(3) نفس المصدر ص127.
(4) نفس المصدر ص130.
(5) نفس المصدر ص134.
(6) نفسه/ ص143.
(7) نفسه/ ص156. ويلجأون إلى السماع بصوت مرتفع بقراءة المخطوط على المؤلف أحياناً، للتأكد من صحة المطابقة، راجع معجم الأدباء 17/ 267 و18/ 20.
(8) نفسه/ ص157.

ورسوله، ويكون ذلك في سطرين وبعض آخر، ثم يقال: «أما بعد: أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عزّه وتأييده وكرامته وسعادته وحراسته وأتمّ نعمته عليه، وزاد في إحسانه إليه بفضله عنده، وجميل بلائه لديه، وجزيل قسمه له/ وهذا هو الدعاء/ ويكون في سطرين، ثم يقال بعد ذلك: «فقد كان كذا» لأن جواب، «أما بعد» بالفاء، فقد كان كذا وكذا، فإذا أتى على جميع المعاني المحتاج إلى المكاتبة فيها فبلغ إلى الدعاء الثاني، قال «أتمّ الله على أمير المؤمنين نعمه وهناه كرامته، وألبسه عفوه وعافيته، وأمنه وسلامته، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»، وكتب فلان بن فلان، يوم كذا، في شهر كذا[1].

وإلى وليّ العهد والوزير مثل ذلك، إلا أن الفرق بين الإمام - الخليفة - وبينهما، أن يكتب إلى الإمام «مع السلام وبركاته» وفي آخر الكتابة مثل ذلك، ويحذف بركاته إلى هذين في التصدير.

كما التزموا أشدّ الالتزام بتاريخ الكتاب، رسالة كان أو مخطوطة كتاب[2].

تلك هي أهمّ مقومات منهج الوراقة، من الناحيتين المعرفية والفنيّة، والمتأمل فيها جيّداً، يدرك مقدار المعاناة ومدى الجهد والصبر المبذول في إتمام عملية الوراقة، ولكن من الناحية الأخرى، يدرك مدى الشغف لحب المهنة والتفاني فيها، فهي مهنة الأدب والفكر، لا مهنة التجارة، كما هو سائد اليوم، عند أصحاب دورالنشر، وهم الذين يوازونهم في المقام، رغم اختلاف المقال.

على أية حال، فإن هذا المنهج الوراقي، كان من المعرفة بمكان، بحيث أنه استطاع أن يصل إلينا، ونطلع عليه، ونفهم أبعاده ومعانيه، ونأمل أن نكون، قد اهتدينا إلى كشفه وتقديمه، كأسلوب منهجي عند الأوائل، كانوا يقتدون به.

قواعد أخرى في منهج الوراقة:

في النقطة السابقة، والأسبق عليها، تطرقنا بشيء من التفصيل والتحديد، إلى كل عملية من عمليات النسخ والتوريق والتأليف حتى، حيث أن منهج الكتّاب في الدولة العباسية سحب ظلال خيوطه على مناهج الورّاقين بالضرورة، كتحصيل حاصل، فاشترك الورّاقون والكتّاب في تلك المناهج، وساروا بها طويلاً، وعنهم إنتقلت تلك الأساليب إلى بقية أمصار الخلافة العباسيّة، وظلت سائدة حتى بعد سقوط بغداد سنة 656هـ على يد

(1) أدب الكتّاب/ ص164.

(2) راجع الصولي بهذا الصدد/ المصدر السابق/ ص 178 - 185.

المغول، بل تطورت وتداخل فيها المنهج المعرفي مع المنهج الفني، الأمر الذي يوضّح الديناميكية عند الكتّاب والورّاقين على حدّ سواء، وهذا المنهج ورد كاملاً عند «الشيخ عبد الباسط بن موسى بن محمد العلموي» المتوفى في دمشق سنة 981هـ، في الباب السادس من كتابه المعروف بـ«المعيد في أدب المفيد والمستفيد»(1)، كما يقتضي المقام هنا ذكر «إبن جماعة» وكتابه «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلّم»(2)، فقد ذكر هذا المنهج واستفاض في شرحه، إلا أن رواية العلموي أشمل وأوضح وأعمق، لذلك سنعتمدها هنا(3).

توضّح المسألة الثالثة من الباب السادس، أن مسألة النسخ كانت تأخذ موافقة أخلاقية من صاحب الكتاب الأصلي، أكان له ملكاً أو تأليفاً، قالوا: ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه، فإذا كان الكتاب وقفاً على من ينتفع به، غير معيّن، فلا بأس بالنسخ مع الاحتياط(4)، فقد كانت هذه الأمور متداولة بين الأدباء والكتّاب للإستفادة الشخصية وعن طريق الاعارة، ثم أن الجانب الأخلاقي(5) واضح في طروحات العلموي في هذه العملية، حيث أنه يرى بالمستعير إذا أراد أن ينسخ من الكتاب أو يطالعه، فلا يضعه مفروشاً على الأرض، بل يجعله مرتفعاً(6).

ومن هذا الجانب الأخلاقي، نستشف الجانب المعرفي بتفضيل الكتاب والمحافظة على هيبته باعتباره وسيلة للمعرفة، يتعامل بها الناس على اختلاف طبقاتهم وتمايز درجاتهم المعرفية، يضيف(7)، وإذا وضعت الكتب مصفوفة، فلتكن على شيء مرتفع غير الأرض، لئلا تندى فتبلى، ويراعى الأدب في وضعها باعتبار علومها، فيضع الأشرف أعلى الكل، فإن استوت كتب في فن فليراع شرف المصنّف فيجعله أعلى، وليجعل المصحف الكريم

---

(1) طبعهُ للمرة الأولى أحمد عبيد، ونشرته المكتبة العربية بدمشق سنة 1349هـ.

(2) طبع في حيدر آباد سنة 1353هـ.

(3) من الجدير بالملاحظة والإشارة أن المستشرق الدكتور فرانتز روزنتال قد أورد هذا المنهج كاملاً/ أي الباب السادس من كتاب العلموي أعلاه/ في كتابه مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، على الصفحات 28 – 49، وقام د. أنيس فريحة بترجمة الكتاب، ونشرته دار الثقافة ببيروت بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، نيويورك، وصدر في عام 1961 بشكل مشترك.

(4) العلموي/ المعيد في أدب المفيد/ ص131، الطبعة المذكورة أعلاه.

(5) سوف نتحدث عن أخلاق الورّاقين في الفصل القادم بشكل أكثر تفصيلاً.

(6) العلموي/ ص131.

(7) المصدر السابق/ نفس المكان.

أعلى الكل، والأولى أن يكون في خريطة[1] ذات عروة في مسمار ونحوه في حائط طاهر نظيف في صدر المجلس، ثم يلي المصحف، كتب الحديث الصرف، كالبخاري ومسلم، ثم تفسير القرآن، ثم تفسير الحديث، ثم الفقه، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم النحو والتصريف، ثم أشعار العرب ثم العروض وما في معناه ونحو ذلك». وهذا العرف الفني وتسلسله يخضع لمنظور ديني واضح كمسلك فني يلتزم به في المكتبات العامة والخاصة ودكاكين الورّاقين، على أن يراعى في ذلك جانب فنّي آخر هو مراعاة عدم وضع الكتب ذوات القطع الكبير فوق ذوات الصغير، كيلا يكثر تساقطها[2].

ومن الأمور الأخرى في صفّ الكتب على الرفوف، راعوا أن يكون مكتوباً عليها اسم الكتاب في حرف عرضه، ويجعل رؤوس الترجمة إلى مرد الجلد المقابل للسّان، لئلا تصير الكتابة معكوسة[3]، كما راعوا أيضاً في صف الكتب حسن الوضع، وذلك بأن يجعلوا الحبكة في ناحية، والمجلد الآخر يجعل حبكته في الناحية الأخرى، فتكون الكتب قائمة بلا إعوجاج، ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس وغيرها، ولا مخدة ولا مروحة ولا مستنداً ولا متكأ، ولا مقتلة للبقّ، ولا يطوى حاشية الورقة، وزاويتها، كما يفعل كثير من الجهلة[4].

وضمن القواعد والاعراف العامة السائدة في سوق الورّاقين، والتي تندرج ضمن الأخلاق الأدبية للتعامل بين الأدباء والورّاقين في سياق المنهج، هو التنبيه على طريقة شراء الكتاب حيث أوجبوا النظر في أول الكتاب وآخره ووسطه، وترتيب أبوابه وكراريسه، واعتبار صحّته، أي التأكّد من صحة مراجعته من خلال مشاهدة الألحاق والإصلاح فيه، فإن ذلك شاهد له بالصحة، كما يقول الشافعي[5]، إضافة إلى أنهم اعتبروا مقولة «لا يضيء الكتاب حتى يظلم» إشارة توضيحية هامّة المراد منها صحّة إصلاح الكتاب[6].

وهناك أمور أخرى، جرت الإشارة إليها في النقطة السابقة، وردت أيضاً في كتابات العلموي، ضمن منهج الوراقة، منها: أن الناسخ إذا نسخ شيئاً من كتب العلوم الشرعية

(1) الخريطة = هي مثل الكيس تكون من الخرق والأدم، تشرج على ما فيها، ومنه خرائط الكتب، اللسان: مادة - خرط.

(2) العلموي/ ص131.

(3) المصدر السابق/ ص132.

(4) نفس المصدر والمكان.

(5) نفسه.

(6) ذات المصدر.

يجب أن يكون على طهارة[1]، ومستقبلاً القبلة، طاهر البدن والثياب والحبر والورق، ويبتدىء كل كتاب بكتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» وإن كان مصنفه تركها فليكتبها هو، ثم طالبوه أن يكتب/ قال الشيخ أو قال المصنّف/ ليبرىء ذمته من جهة، ومن جهة أخرى لتحميل المؤلف وزر ما كتب في كل ما ورد في الكتاب، وبعد ذلك يشرع بكتابة ما صنّفه المصنّف. وإذا فرغ من كتابة الكتاب أو الجزء عليه أن يختم الكتابة بالحمد له والصلاة على الرسول، وليختم بقوله: آخر الجزء الأول أو الثاني/ مثلاً/ ويتلوه كذا وكذا، إن لم يكن أكمل الكتاب، فإن أكمله فليقل: تمّ الكتاب الفلاني[2]. وارتأوا أن في مثل هذه الإشارات المعرفية فوائد كثيرة، تنفع القارىء والناسخ والمصنّف على حدّ سواء، كما اشترطوا على الناسخ أنه: كلما كتب اسم الله تعالى، أتبعه بالتعظيم، مثل: تعالى أو سبحانه، أو عزّ وجلّ، أو تقدّس، أو تبارك، ويتلفظ بذلك، وكلما كتب اسم النبي كتب بعده: «الصلاة عليه والسلام»[3]، وهذه الالتزامات نهج سايروا عليه أسلافهم بذلك من جهة، ومن جهة ثانية، فإن تعاليم الشريعة الإسلامية، تحضّ على ذلك، حيث جاء في التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[4]، ولكون الوراقة مهنة إسلامية، فشروط ذلك توجب الإلتزام بأعرافها، كما أنهم ألزموا الورّاق - الناسخ - أن لا يختصر «الصلاة» في الكتابة، ولا يسأم من تكريرها، كما يفعله البعض حيث يكتبون (صلعم، أو صلح، أو صم، أو صلم) لأن ذلك مكروه في عرف الشرع، كما ينسبون ذلك إلى الشيخ العراقي[5]، معتبرين أن أجر كتابة الصلاة بكمالها عظيم، ومن أكبر الفوائد العاجلة، ومحذرين من التغاضي عن ذلك، مشيرين إلى أن أوّل من كتب (صلعم) قطعت يده[6].

ثم دأبوا على كتابة/ رضي الله عنه أو رضوان الله عليه/ كلما مرّ اسم أحد من الصحابة أو الأئمة، الخلفاء، لا سيما الأعلام منهم، وهداة الإسلام، أو يكتب: «رحمة الله، أو رحمة الله عليه، أو تغمّده الله برحمته» ولا يكتب الصلاة والسلام لغير الأنبياء والملائكة إلا تبعاً لا اختصاصاً، وذلك عرفاً وشرعاً بالأنبياء والملائكة[7]، واعتبروا ذلك واجباً، حيث

---

(1) في فصل/ أخلاق الوراقين/ سيجد القارىء تفصيلات أكثر بهذا الجانب الديني الأخلاقي.

(2) العلموي/ ص132.

(3) المصدر السابق/ نفس المكان.

(4) سورة الأحزاب، الآية 56.

(5) العلموي/ ص133، وراجع عن الشيخ العراقي/ الأعلام للزركلي 3/ 344 ط5.

(6) المصدر السابق/ نفس المكان.

(7) نفسه.

قالوا: ومتى سقط من ذلك شيء فلا يتقيّد به، بل يثبته مع النطق به[1].

كما أن مسألة الخط هي الأخرى شغلت المتأخرين من الورّاقين في مناهج عملهم، حيث أكّدوا على عدم المبالغة في حسن الخط، واهتموا بصحته وتصحيحه، وأشاروا إلى أهمية تجنّب التعليق جداً/ وهو خلط الحروف التي ينبغي تفرقها/ والابتعاد عن المشق، أي سرعة الكتابة مع بعثرة الحروف[2]، واختاروا لأقلامهم أنواعاً من القصب[3] وأكّدوا على أن لا يكون القلم صلباً جداً فيمنع سرعة الجري، ولا رخوا فيسرع إليه الحفى[4].

وفي الكتابة والنسخ، كرهوا فصل مضاف اسم الله منه كعبد الله أو عبد الرحمن أو رسول الله، فلا يكتب عبد أو رسول، آخر السطر، والله أو الرحمن أو رسول أول السطر الآخر، لناحية جمالية، حيث ارتأوا في ذلك قبحاً لصورة الكتابة[5].

وفي مسألة المقابلة ارتأوا على الناسخ مقابلة كتابه بأصل صحيح موثوق به، على اعتبار أن المقابلة متعيّنة للكتاب الذي يرام النفع به[6]، وقد أوردوا شواهد على ذلك من خلال الصحابة الأوائل ومسلكيتهم في ذلك، فقد أوردوا أن عروة بن الزبير قال لابنه هشام: كتبت؟ قال: نعم، قال: عرضت كتابك؟ أي هل عارضته على أصل صحيح، قال: لا، قال: لم تكتب. وأوردوا مثالاً آخر للشافعي ويحيى بن أبي كثير حيث قالا: من كتب ولم يعارض - أي يقابل - كمن دخل الخلاء ولم يستنجِ[7].

ثم رأوا أن الكتاب إذا صحّح بالمقابلة على أصل صحيح أو على شيخ، فينبغي أن يُعجم المعجم، ويشكّل المشكل ويضبط الملتبس، ويتفقد مواضع التصحيف، أما ما يفهم بلا نقاط، ولا شكل، فلا يعتنى به لعدم الفائدة، فإن أهل العلوم يكرهون الإعجام والاعراب إلا في الملتبس والمشتبه[8]، وينطلقون في مثل هذه الإرشادات من قول البلغاء والأدباء الكبار، حيث أن هؤلاء يؤكدون على: إعجام الخط يمنع من استعجامه، وشكله من أشكاله، وقال بعضهم: ربّ علم لم تعجم فصوله فاستعجم محصوله[9]. وقد إنطلقوا

(1) ذات المصدر السابق، وليراجع المسألة الرابعة فيه.
(2) نفسه - المسألة الخامسة.
(3) سيجد القارىء، تفاصيل ذلك في ج4 «الخطاطون» من هذه الدراسة.
(4) العلموي/ ص133.
(5) المصدر السابق/ ص134.
(6) نفس المصدر/ ص135.
(7) نفس المصدر/ ص135 - المسألة السابعة.
(8) نفس المصدر والمكان.
(9) نفس المعطيات السابقة.

أيضاً، في مثل هذه الدلائل، من أصل معرفي - ثقافي، حيث أنه ليس كل الناس يعرفون النطق، أو القراءة من غير حركات إعجام/ علامات الإعراب/ ومن الأفضل أن توضع لينتفع بها الناس جميعاً، فقالوا في ذلك: ينبغي الإعجام والشكل للمكتوب كلّه، المشكّل وغيره، لأجل المبتدىء في ذلك الفن، وصوّبه القاضي عيّاض[1] بقوله: لأن المبتدىء لا يميّز ما يشكل مما لا يشكل، ولا صواب الإعراب من خطئه، ولأنه ربما يكون الشيء واضحاً عند قوم مشكلاً عند آخرين، بل ربما يظن لبراعته المشكل واضحاً، ثم قد يشكل عليه بعد، وبما وقع النزاع في حكم مستنبط من حديث يكون مستنبطاً من حديث يكون متوقفاً على إعرابه كحديث «زكاة الجنين زكاة أمّه» فجمهور الشافعية والمالكية وغيرهم لا يوجهون زكاته بناء على رفع زكاة أمّه، بالإبتدائية والخبريّة، وهو المشهود في الرواية، والحنفية وغيرهم يوجبونها على نصب زكاة الثانية على التشبيه، أي يزكّى مثل زكاة أمه. ومثل هذه الأمور كثيرة، وقد أشاروا إليها[2].

ثم يؤكد العلموي على أهمية ضبط الملتبس من الأسماء، إذ لا يدخلها قياس، ولا قبلها ولا بعدها شيء يدل عليها، وأضاف: وإذا احتاج إلى ضبط الشكل في الكتاب وبيانه في الحاشية قبالته فعل[3]، أي هنا أجيز استخدام الحاشية الجانبيّة لتوضيح ذلك الإشكال، وكثير من المخطوطات العربية، فيها ممارسة واضحة من هذا القبيل.

ولأنهم يعتقدون، بصدد هذه المسألة، الإشكال وتوضيحه في الحاشية، أن الجمع بينهما أبلغ في الإبانة، وإذا كتب - الناسخ - كلمة مشكلة من القلم لسواد كثير فيه، ونحوه أوضحها في الحاشية، وكتب فوقها كلمة صغيرة (بيان أو ن) وله أن يكتبها في الحاشية بصورتها، وله أن يكتبها مقطعة الأحرف بالضبط ليأمن اللبس والاشتباه، وله أن يضبطها بالحروف كقوله: بالحاء المهملة والدال المهملة، والتاء المثنّاة، والثاء المثلثّة، ونحو ذلك[4]، ثم أنهم وضعوا إشارات معيّنة لتسهيل القراءة، وهي مما يلتحق بضبط المعجم، كأن يكتب في باطن الكاف المعلقة كافاً صغيرة «ك» هكذا، أو همزة، ويكتب في باطن اللام، هكذا (لام) ولا يكتب لام هكذا (ل)[5].

كما أن الشكّ في وقوع الخطأ في المخطوطات، أمراً أشكل على الوراقين، حيث أنه

---

(1) هو عيّاض بن موسى بن عيّاض بن عمرون اليحصبي السبتي/ راجع الأعلام للزركلي 5/ 99 طبعة دار العلم للملايين الخامسة، بيروت.

(2) العلموي/ ص135 - 136 حيث فيه ذكر لأمور أخرى من هذا القبيل.

(3) المصدر السابق/ ص136.

(4) العلموي/ ص136.

(5) نفس المصدر والمكان.

يصادفهم بكثرة في كل يوم، بل في كل ورقة ينسخونها، ولغرض تجاوز هذه المسألة، فإن مهنة الوراقة أعطت الحلول لذلك، من خلال التجربة العملية، فقد أشار العلموي في المسألة الثامنة إلى ذلك بالقول: ينبغي أن يكتب على ما صححه وضبطه في الكتاب، وهو في محل شك عند مطالعته، أو تطرق احتمال (صح) صغيرة ويكتب فوق ماوقع في التصنيف أو في النسخ وهو خطأ (كذا) صغيرة، أي هكذا رأيته، ويكتب في الحاشية (صوابه كذا)، إن كان يتحققه أو يكتب (لعله كذا) إن غلب على ظنه أنه كذلك، أو يكتب على ما أشكل عليه ولم يظهر له وجهه (ضبّه)، وهي صورة رأس صاد مهملة مختصة من صحّ، هكذا (صـ)، فإن صحّ بعد ذلك وتحقّقه، فيصلها بحاء، فتبقى (صحّ)، وإلا كتب الصواب في الحاشية كما تقدّم[1]. وربما وقع السهو عند الناسخ، في مثل ذلك، كافتراض، ونسي الـ «صـ» في مكانها دون العودة إليها، نتيجة عدم التحقق، فما العمل؟ يجيب العلموي على ذلك بالقول: قيل: واشاروا بكتابة الصاد أولاً إلى أن الصحة لم تكتمل، وإلى تنبيه الناظر فيه على أنه مثبت في نقله غير غافل، فلا يظنّ أنه غلط فيصلحه، وقد تجاسر بعضهم فغيّر، والصواب إبقاؤه[2]، أي أن عملية السهو غير مسموح بها في العمل، وتبقى إشارة (صـ) دليل على الشك في المعلومة، نتيجة عدم التحقق منها. وهذه المسألة جلبت إنتباه الكثير من الورّاقين والكتّاب على حدّ سواء، لأنها شكل قائم في العمل اليومي للنسّاخ والمؤلفين، وهو إحتمال قائم أبداً، ما زالت عملية الكتابة كفعل ثقافي وحضاري، قائمة. وقد أشار ياقوت الحموي إلى مثل هذه الحالة عند علي بن محمد بن عبيد الأسدي، حيث أنه بالغ في الاحتياط لتجنّب مثل ذلك ووصفه بالقول: لم أر أحسن ضبطاً واتقاناً للكتابة منه، فإنه يجعل الإعراب على الحرف بمقدار الحرف احتياطاً، ويكتب على الكلمة المشكوك فيها عدة مرات: «صحّ، صحّ، صحّ»[3]، فانظر إلى مدى المسؤولية في كتابة الكلمة، كي تصل إلينا بأمان ومعرفة!

من خلال المراجعة للمخطوط، بعد الإنتهاء من عملية النسخ، قد يجد الكاتب والورّاق، على حدّ سواء، بعض الزيادة، أو بعض العبارات غير المنسجمة في سياقها في بناء الجملة، الأمر الذي يتطلب حسن التدبير، دون إلحاق الأذى بالمخطوط، فإنهم في ذلك رأوا ما يلي: إذا وقع في الكتاب زيادة، أو كتب فيه شيء على غير وجهه، تخيّر فيه

---

(1) العلموي/ ص136.

(2) نفسه.

(3) معجم الأدباء 14/ 153 - 145، الترجمة رقم 33.

ثلاثة أمور: الأول: الكَشط، وهو سلخ الورق بسكين ونحوها[4]، ويعبّر عنه/ في عرفهم/ بالبشر وبالحك، حيث هو الأولى في إزالة نقطة أو شكلة، الثاني: المحو، وهو الإزالة بغير سلخ، إن أمكن، وهو أولى من الكَشط. قال ابن الصلاح[5] وتتنوع طرقه، الثالث، الضرب عليه، وهو أجود من الكشط والمحو، لا سيما في كتب الحديث[6]. وعلى ما يظهر، أن البعد الديني، في عملية الكشط والمحو لا تفضل استخدام السكين أو غيرها، لا سيما في الأمور التي تخصّ الكتب الدينية، لذلك قال أحد الشيوخ: أنهم يكرهون حضور السكين مجلس السماع، لأن الروايات مختلفة، فعسى أن يبشر شيئاً يكون صحيحاً فيحتاج إلى إثباته ثانياً[7]، ومن هذا الجانب مالوا لاستخدام الضرب، وقد أوجدوا فيه/ أي في كيفية الضرب/ خمسة أقوال مشهورة، أولها: أن يصل بالحروف المضروب عليها، ويخلط بها خطاً ممتداً، ثانيها، أن يجعل الخط فوق الحروف منفصلاً عنها، منعطفاً طرفاه على أول المبطل، وآخره، كالباء المقلوبة.

ثالثها: أن يكتب لفظة «لا» أو لفظة «من» فوق أوله، ولفظة (إلى) فوق آخره، ومعناها: من هنا ساقط إلى هنا.

رابعها: أن يكتب في أول الكلام المبطل وفي آخره نصف دائرة.

خامسها: أن يكتب في أول الكلام المبطل وفي آخره صفراً، وهو دائرة صغيرة: سميت بذلك لخلوّ ما أشير إليه بها من الصحة، كتسمية الحساب لها بذلك، لخلو موضعها من عدده، ومثاله هكذا «ℴ»[8]، / أقرب إلى رسم العدد العربي/ 5/. وإذا تكررت كلمة أو أكثر سهواً، ضرب على الثانية لوقوع الأولى صواباً في موضعها، إلا إذا كانت الثانية أجود صورة وأدلّ على القراءة، وكذلك إذا كانت الأولى آخر سطر، فإن الضرب عليها أولى، صيانة لأول السطر، وبالجملة فصيانة أول السطور وآخرها متعيّن إلا أن مراعاة أولها أولى كما يقولون[9]، ومن الناحية اللغوية، إنتبهوا إلى أن المكرر قد يكون مضافاً ومضافاً إليه،

---

(1) قبل إبتداع ماسحة الحبر في آنتا المعاصر، كان شيوخنا القدماء يستخدمون «الشفرة الخاصة بالحلاقة» لمثل هذه المهمة.

(2) ابن الصلاح/ هو العلامة الحافظ تقي الدين أبو عمروعثمان بن المفتي، الشهرزوري الموصلي الشافعي، صاحب المقدمة المعروفة باسمه، وهو واحد من المختصين بعلوم الحديث المشهورين، راجع سير أعلام النبلاء للذهبي 23/ 140 الترجمة رقم 100.

(3) العلموي - المسألة التاسعة/ ص137، والضرب عليها يعني وضع إشارة ضرب (x).

(4) العلموي/ المسألة التاسعة/ ص137.

(5) نفسه.

(6) المعطيات السابقة.

أو موصوفاً وصفة، أو مبتدأ وخبراً، أو متعاطفين، فأثبتوا أن مراعاة عدم التفريق بالضرب أولى، إذا كان آخر سطر، كيلا يفرّق بين شيئين بينهما ارتباط، إذ مراعاة المعاني أولى من مراعاة تحسين الصورة، في الخط، كما يقول القاضي عياض[1]، ثم إنتبهوا إلى مسألة المقابلة في عملية تصحيح الكتاب، فإن كانت على الشيخ أو على نسخة أخرى، عُلّم على موضع وقوفه كلمة (يبلغ أو بلغ العرض) أو غير ذلك[2] مما يفيد المعنى، وإذا كان الأمر في سماع الحديث كتب: بلغ في الميعاد الأول والثاني إلى آخرها، فيعيّن عدده فإنه مفيد جداً كما يقول العلموي[3].

وثمة مسألة هامة التفتوا إليها في منهج الوراقة، وطبقوها علميّاً وعملياً هي «مبدأ الاختصار والفصل بين الكلام» حيث أكّد على الناسخ على أهمية أن يفصل بين كل كلامين أو حديثين بدائرة، أو قلم غليظ، ولا يصل الكتابة كلها على طريقة واحدة لما فيه من عسر استخراج المقصود، ورجّحوا الدائرة على غيرها، وعليها عمل غالب المحدثين، وصورتها هكذا (.)[4]، وخضع مبدأ الاختصار عندهم إلى وجود بعض اللفظات المختصرة عن لفظة كاملة، فمثلاً كلمة: «حدّثنا» اختصروها على «ثنا» وبعضهم وضع (نا) وبعضهم على (دثنا) واختصروا كلمة «أخبرنا» على «أنا» وبعضهم على «أرنا» وبعضهم على «أبنا» واختصروا كلمة «حدثني» على «ثني» وبعضهم على «دثني»، وأبقوا على كلمات «أخبرني، وأنبأنا وأنبأني فلم يعملوا في الاختصار[5]، ثم أوجدوا رموزاً حرفية لبعض المفردات الدالة على الواقعة في الأسناد بين رواية، اختصرها بعضهم قافاً مفردة (هكذا - ق) وجمعها بعضهم بما يليها، هكذا (قثنا) ومعناها يدل على (قال حدثنا)، وقد علّق العراقي على ذلك بالقول: هو اصطلاح متروك، ومن هذا القبيل ما يوجد في كتب الاعاجم من اختصاص المطلوب على «المط» واختصار المحال على (مح) وباطل على (بط) وحينئذ على (وح) وحينئذ على (فح) وإلى آخر إلى (الخ) والمصنف على (المصـ) ونحو ذلك[6]، ثم نحو على ما يختصر جميعه مع النطق به كلفظ يحدث في قولهم في الإسناد من مثل سمعت فلاناً عن فلان، يحدّث عن فلان، فرأوا أن اللفظ إذا تكرر، كما في صحيح البخاري/ ثنا/ صالح بن حيان

---

(1) نفسها.
(2) المصدر السابق/ ص138.
(3) نفسه.
(4) نفسه.
(5) العلموي/ ص138.
(6) نفسه.

قال: قال عامر الشعبي/ فتحذف إحداهما خطّاً لا نطقاً، ومن ذلك ما يختصر بعضه، وينطق بالبعض الباقي على صفته، والمشهور منه «حاء التحويل» عند الانتقال من سند إلى غيره، فيكتب هكذا (ح) مفردة مهملة مقصورة لفظاً، وهي مختصرة من تحويل، أي من سند إلى سند آخر، وقيل: مختصرة من حائل لأنها حالت بين الاسنادين، وقيل: من قولهم الحديث وهو المنقول عن أهل المغرب، وقيل من «صح»، قال ابن الصلاح: وقد كتب مكانها بدلاً عنها صح، صريحة، واختلف في النطق بها، فالأصح - كما يقول العلموي - أنه ينطق بها في القراءة، كما كتبت كذلك مفردة، وقيل لا ينطق بها، وقيل ينطق بأصلها المختصرة منه، وهو الحديث أو صح فليعلم ذلك[1]، هكذا وردت، وبتقديرنا أن الملاحظة الأخيرة هي أقرب إلى الواقع، ودلالتها ترمي إلى المقصود به هو (الحديث).

كما أنهم أوجدوا رموزاً خاصة للدلالة على بعض المصطلحات التي تخصّ كتب الحديث فإنهم يضعون حرف (خ) لصحيح البخاري و(م) لمسلم، و(ت) للترمزي، و(د) لأبي داود، و(ن) للنسائي، و(وجه) لابن ماجه القزويني، وأحياناً يرمزون له بـ (ق)/ ولكن الرمز الأول هو الشائع والمعروف والمثبت حتى الآن/ و (حب) لابن حبان، و(ط) للدارقطني، ونحو ذلك كثير، ويرمزون بحرف (ع) للعجالة[2]، والعمدة (لابن الملقّن) و(م) للإمام مالك و(ح) لأبي حنيفة، و(أ) لأحمد، ونحو رموز الوجيز والحاوي للأقوال والأوجه والمذاهب وغير ذلك، وهي مشهورة ومعروفة عندهم ويعلّق العلموي على هذه الرموز بقوله: ومن فعل شيئاً من ذلك أو من غيره في تأليف بيّن اصطلاحه فيه، ولا مشاححة[3] في الاصطلاح، فبيان الاصطلاح في ديباجة الكتاب ليفهم الخائض فيه معانيها[4].

وهذا المنهج في الرموز يوضّح لنا الأهمية المعرفية عند هؤلاء حرصاً على سلامة النقل بالشكل العلمي، من جهة، ومن جهة أخرى يوضح ذلك لنا العمق الإبداعي في مهنة الورّاقين والمؤلفين، لتجاوز حالات مكررة يتعاملون معها بشكل مستمر ويومي، حتى أن التجاوز المهني في هذه الحالة خلق هذه الرموز ليتجاوز حالة الروتين والملل وإنعكاساته النفسية أثناء العمل، وبنفس الوقت تكثيفاً للزمن، وليس ذلك فحسب، بل أن هذا المنسك المعرفي فرضه الورّاقون على أنفسهم أولاً، وعلى المؤلفين ثانياً، تسهيلاً للعمل، ودرءاً

(1) نفسه/ ص138 - 139.
(2) أنظر تصويبات روزنتال على نصّ العلموي في/ مناهج العلماء المسلمين/ ص48 هامش رقم 1.
(3) المشاححة: اشتقاق من «شحّ»، وهو البخل والحرص، أنظر القاموس، مادة: شحح.
(4) العلموي/ ص139.

للخطأ اللغوي والمعنى العلمي، وإيضاحاً للباحث الذي يدرس ذلك المؤلف. وهذا المنهج يكشف لنا، أن الاستمرار الثقافي والعلمي، بكتب الدين وعلوم الشريعة، ظلّ هو المنهل الأساسي للوعي الثقافي والاجتماعي، حتى زمن المؤلف العلموي - وهو القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي، الأمر الذي يعطي البعد التواصلي لحضارتنا العربية - الإسلامية، بين الأمس واليوم.

ومن منهج الرموز إلى منهج الحاشية، ظل الكتّاب والأدباء والورّاقون فيهم متمسكين بمنهج الحواشي في الكتاب، حيث أنهم وجدوا فيه فوائد جمّة تخدم وتكمّل منهج الرموز، فقد أوصوا أن لا يكتب في آخره/ صح/ بل ينبّه عليه بإشارة للتخريج بالهندي مثلاً[1] وبعضهم يكتب على أول المكتوب في الحاشية (ح) ولا ينبغي أن يكتب إلا الفوائد المهمة المتعلقة بذلك الكتاب والمحل مثل، تنبيه على إشكال، أو إحتراز، أو رموز أو خطأ، ونحو ذلك[2]، كما طالبوا الورّاق والكاتب على حدّ سواء أن لا يسوّد الكتاب بنقل المسائل والفروع الغريبة، ولا يكثر الحواشي كثرة يظلم فيها الكتاب، وقالوا: لا بأس بكتابة الأبواب والتراجم والفصول ونحو ذلك بالحمرة، فإنه أظهر في البيان وفي فواصل الكلام، ثم أباحوا للكاتب والناسخ الحقّ في كتابة شرح ممزوج بالمتن بكتابته بالحمرة، أو يخط عليه خطاً منفصلاً عنه، ممتداً عليه، ولكن المفضل عندهم والأحسن الكتابة بالحمرة، لأن ذلك أوضح للبيان، حيث أنه قد يمزج بحرف واحد، وقد تكون الكلمة الواحدة بعضها متن وبعضها شرح، فالخط لا يوضح ذلك الإيضاح الذي توضحه الحمرة[3].

وثمّة مسألة هامة، لم يتناسها الورّاقون ولا الكتّاب، هي مسألة الأمانة العلمية، كما نسميها اليوم، وقد نصّ عليها العلموي في المسألة الثالثة، حيث أشار إلى/ لا يجوز أن يصلح كتاب غيره بغير إذن صاحبه[4]، وأكّد ذلك في نهاية المسألة الثامنة، حيث أشار: «فلا يظنّ أنه غلط فيصلحه، وقد تجاسر بعضهم فغيّر ما الصواب إبقاؤه»[5]، وهذا التنبيه مبدأ هام سار عليه الأوائل، فقد أشار الجاحظ إلى مثل ذلك ونبّه عليه[6]، كما أن الصولي سار على نفس المنوال في/ أدب الكتّاب/ [7].

---

(1) هكذا وردت بالنص/ أنظر العلموي/ ص139.
(2) العلموي/ المصدر السابق - نفس المكان.
(3) العلموي/ ص139.
(4) العلموي/ ص131.
(5) نفس المصدر/ ص136.
(6) أنظر الحيوان 1/ 38 وما بعدها.
(7) راجع أدب الكتّاب/ ص120 - 122.

وقد كانت الدقّة والأمانة في النقل عند الناسخ من الشروط الأساسية التي يجب توفرّها، ورغم وجود بعض الأخطاء والسهو، إلا أن التعمّد في ذلك لم يكن واضحاً، أو متقصداً، رغم وجود بعض الحالات النادرة، وقد تدخلت السياسة في ذلك، مما حرف المنهج عن مساره الصحيح، والأمر ليس واقعاً على الورّاقين بالدرجة الأساسية، بل على المؤلفين، لأنهم هم الأكثر اشتغالاً بالفكر، والسياسة تدخل في هذا الباب، وقد نبّه الخطيب البغدادي إلى ذلك، عند بعض رجال الحديث المخلطين الحديث، وأشار إلى بعضهم مثل: ابن الخفاف محمد بن الحسين بن أبي بكر قال عنه: «غير ثقة، لا أشك أنه كان يركب الأحاديث، ويضعها على من يرويها عنه، ويختلق أسماءً وأنساباً عجيبة لقوم حدّث عنهم، وعندي منه، من تلك الأباطيل أشياء، قال لي ابن الخفاف: احترق مرّه سوق بباب الطاق فاحترق من كتبي ألف وثمانون منّا كلها سماعي»[1]، وهذه المسألة، أعني الانتحال للحديث كانت سائدة في بعض الأمصار، على ما يبدو، والأمر الذي قارنه الخطيب، في معرض حديثه عن ورع أهل الحديث في بغداد، حيث قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: شبّان البغداديين أورع أو خير من شبان البصرة والكوفة، وهذا قاله سفيان مع صحة رواية البصريين الذين ما زالوا بالتحفظ والورع معروفين، وأمّا أهل الكوفة وأهل خراسان أيضاً، فلهم من الأحاديث الموضوعة والأسانيد المصنوعة نسخ كثيرة، وقلّ ما يوجد بحمد الله من محدثي البغداديين ما يوجد في غيرهم من الاشتهار بوضع الحديث والكذب في الرواية، إختصاصاً لهم وتوفيقاً من الله الكريم[2].

فظلت مسألة الأمانة العلمية، إحدى الثوابت الأساسية في منهجهم العلمي والأخلاقي والمهني، حتى أن الناسخ أحياناً يضطر إلى السرعة في العمل، توفيراً للوقت، بناءً على أمر طالب النسخ، وهذا يعني أن الخطأ واقع لا محالة، لذلك كانوا يكتبون عبارات تدلّل على أمانتهم من مثل «أنني لم أراجع قراءة المنسوخ لإصلاح الأخطاء، التي ربما وقعت في هذا الكتاب، ولست متيقناً من أن النسخة خالية من الأخطاء، وذلك لأنني كنت مسرعاً»[3].

(1) تاريخ بغداد 2/ 250 الترجمة رقم 719/ وراجع: حبيب زيّات/ الوراقة والوراقون في الإسلام/ ص17.

(2) تاريخ بغداد 1/ 44.

(3) فرانتز روزنتال/ مناهج العلماء المسلمين/ ص62.

منهج التخصص في النسخ:

بعد أن أرسى الورّاقون القواعد الأساسية لمنهجهم في التوريق والنسخ، كانت مهنتهم تتفاعل حضارياً والمستجدات التي تطرأ على حالة العصر، من آن لآن، آخذة الرقّي المعرفي بعين الاعتبار، محققة خطوات علمية مزدهرة في الميدان الثقافي، فبالرغم من سقوط بغداد سنة 656هـ على يد المغول، إلا أن تأثيراتها الحضارية، ظلّت سارية ومتفاعلة في بقية الأمصار الإسلامية، محافظة على ذلك الوهج العلمي الذي أرسته بغداد إبّان ازدهارها في (ق 4هـ) وما تلاه من قرون، لا سيّما على الصعيد العلمي والثقافي، فرغم النكبة التي أحدثها المغول في بغداد وإسقاط حكومتها العباسية، إلا أن التطور الثقافي ما فارقها لحظة، وكأن الأمر ردّاً على ذلك السقوط السياسي والحربي، والذي تعرضت له عاصمة الدولة الإسلامية آنذاك، وقد برزت ملامح هذا التطور الثقافي بعد فترة وجيزة من سقوط بغداد، لا تتجاوز النصف قرن، أي في مطلع قرن 8 هجري/ 14 ميلادي، حيث أدرك العرب والمسلمون أهميّة حضارتهم والحفاظ على تراثهم وضرورة إحيائه وبعثه من جديد، فنشط التأليف، وتصدّرت الوراقة بقية المهن الإسلامية، وراحت تضفي أبعاداً جديدة على منهج الوراقة السابق، حيث إشترطت «مبدأ التخصص» في عملها، لا سيّما عند النسّاخين، في كل فن يشتغلون فيه، بحيث أصبح الناسخ في سياق هذا التخصص، أقرب إلى الناقد، إضافة إلى مهنته كناسخ، وقد أظهر النويري أبعاد هذا المنهج بشكل جيّد في موسوعته الشهيرة «نهاية الارب في فنون الأدب»[1]، فقد اشترط في ناسخ العلوم، كالفقه واللغة العربية والأصول، وما يتعلق بهذا الفن، عدة أمور منها: 1 - أن لا يتقدم إلى كتابة شيء منها إلا بعد إطلاعه على ذلك الفن وقراءته وتكراره، ليسلم من الغلط والتحريف والتبديل والتصحيف، ويعلم مكان الانتقال من باب إلى باب، ومن سؤال إلى جواب، ومن فصل إلى فصل، ومن أصل إلى فرع، أو فرع إلى أصل، ومن تنبيه إلى فائدة، واستطراداً لم يجرِ الأمر فيه على قاعدة، ومن قول قائل وسؤال سائل، ومعارضة معارض،

(1) من المؤسف حقاً أن يحقق من هذه الموسوعة 18 جزءاً وتترك بقية الأجزاء حيث أنها (30 جزءاً أو مجلداً) لأن صاحبها/ شهاب الدين بن عبد الوهاب النويري - كان شافعياً، وذو نظرة موضوعية لكل المذاهب والفرق، الأمر الذي ترددت عنه دار الكتب المصرية «التي حققت العمل وطبعته ناقصاً»، سمعت مؤخراً أن الموسوعة طبعت في مصر كاملة، فيما أحجمت بقية الدوائر المختصة في الدول العربية، عن إكمال تلك الموسوعة/ راجع عن النويري، بهذا الصدد/ كشف الظنون 2/ 1985 - 1986؛ والنجوم الزاهر9/ 299 والأعلام للزركلي 1/ 165.

ومناقضة مناقض فيعلم آخر كلامه، ومنتهى مرامه، فيفصّل بين كلّ كلام وكلام بفاصلة تدل على إنجازته ويبرز قول الآخر بإشارة يستدلّ بها على إبرازه وإلا فهو حاطب ليل لا يدري أين يفاجأه الصباح، وراكب سيل لا يعرف الغدوّ من الرواح، كما يقول النويري(1).

فيما اشترطوا على ناسخ التاريخ أن يكون عارفاً بأسماء الملوك وألقابهم ونعوتهم وكناهم، خصوصاً ملوك العجم والترك والخوارزمية والتتار، بسبب كون أغلب أسمائهم أعجمية لا تفهم إلا بالنقل(2)، وقالوا: يحتاج الناسخ إذا كتبها إلى تقييدها بضوابط وإشارات وتنبيهات تدلّ عليها، وكذلك يجري التنبيه على مثل ذلك في أسماء المدن والبلاد والقرى والقلاع والرساتيق والكور والأقاليم، فينبّه على ما تشابه منها خطّاً واختلف لفظاً، وما تشابه خطاً ولفظاً واختلف نسبة، نحو «مرو» و«مرو» أحداهما «مرو المرّوذ»(3) والأخرى «مرو الشاهجان»، و«القاهرة» و«القاهرة» احداهما، «القاهرة المعزية»(4)، والأخرى «القلعة القاهرة» التي هي «بَزْوزَن»(5)، التي أنشأها مؤيد الملك صاحب «كرمان»، فإن الناسخ متى أطلق اسم القاهرة، ولم يميّزها بمكانها ونسبتها، تبادر ذهن السامع إلى القاهرة المعزية لشهرتها دون غيرها، وهكذا في بقية أسماء المواضع(6).

واشترطوا مثل هذا التمييز أن يكون أيضاً في أسماء الرجال، فمثلاً يميّز بين عبيد الله بن زياد، وعبيد الله بن زياد، فالأول عبيد الله بن زياد بن أبيه، أو يعرف بابن سميّة الذي ألحقه معاوية بأبيه واعترف بأخوته، والثاني: عبيد الله بن زياد بن طبيان، فإن لم يميّز بالوقائع واطّلاع على الأخبار، وأمثال ذلك، وما شاكله، يتعيّن على الناسخ تبيانه، وكذلك أسماء أيام العرب، نحو أيام الكلاب، بضم الكاف، وأيام الفِجار، بكسر الفاء وبالجيم، وغير ذلك، فينبه عليه ويشير إليه بما يدل عليه(7).

أما ناسخ الشعر، فقد اشترطوا فيه مقومات الناقد في لغتنا المعاصرة حيث طالبوه

---

(1) نهاية الارب في فنون الأدب 9/ 214 طبعة القاهرة، مصور عن دار الكتب المصرية.
(2) نهاية الارب 9/ 214.
(3) مروالروذ: مدينة بخراسان قريبة من (مرو الشاهجان) وهي تقع على نهر عظيم، فلهذا سميت بذلك، وهي أصغر من/ مرو الشاهجان/ ، والمرو: الحجارة البيضاء تقدح بها النار راجع ياقوت الحموي، معجم البلدان 5/ 112 مادة - مرو.
(4) القاهرة حالياً.
(5) زَوْزَنْ = كورة واسعة بين نيسابور وهراة، كانت تعرف بالبصرة الصغرى لكثرة ما أخرجت من الفضلاء والأدباء وأهل العلم. معجم البلدان 3/ 158 - مادة: زَوزَن.
(6) نهاية الارب 9/ 215.
(7) المصدر السابق 9/ 216.

بمعرفة أوزان الشعر وقالوا: أنه يعينه على وضعه على أصله الذي وضع عليه، كما ألزموه، بمعرفة العربية والعروض، كي يتمكّن من إقامة وزن البيت إذا أشكل عليه بالتفعيل، فيعلم هل هو على أصله وصفته أو حصل فيه زحاف من نقص به أو زيادة، فيثبته بعد تحريره، ويضع الضبط في مواضعه، فإن تغيّره يخلُّ بالمعنى ويفسده، ويحيله عن صفته المقصودة، ثم قالوا: أن الناسخ إذا عرف هذه الفوائد وأتقنها وحرّر هذه القواعد وفنّنها[1] وأوضح هذه الأسماء وبيّنها، وسلسل هذه الأسماء وعنعنها[2] بعد ذلك يصبح من المرغوب في علمه وكتابته، وعندما تتوفرّ هذه الشروط في أحدهم قالوا: فليبسط قلمه عند ذلك في العلوم، ويضع به المنثور والمنظوم[3]، وعلى هذا الأساس من تلك الاشتراطات سارت عملية النسخ بالتقدم والازدهار عصراً بعد عصر، مستفيدة من مناهج العمل السابقة، ومضيفة أشياء جديدة، لتكمل ما نسي أو أهمل، وهو ما نتلمّسه في المخطوطات العربية، المكتوبة في (ق 4هـ) مثلاً، والمكتوبة في (ق 8هـ) فإن الوضوح والكمال والحسن والدقة في مخطوطات العصر المتأخر، وهكذا كان التطور في فنّ الوراقة.

الفصل السادس

أخلاق الوزاقين

لعبت الأخلاق دوراً هاماً في بنية العقل العربي - الإسلامي، منذ بدايات تشكّله في العصر الجاهلي، أو تبلوره في العصور الإسلامية المتعاقبة، وأصبح «علم الأخلاق» واحداً من أهمّ المكوّنات الأساسية للفلسفة العربية الإسلامية، وقد نظر إليه مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب - ت 421هـ/ 1030م)[4]، على اعتباره أفضل العلوم، لأنه يعني بتجويد أفعال الإنسان بما هو إنسان، باعتباره أشرف المخلوقات[5]، ويعرّج مسكويه على أهمية العمل الجميل فيقول: «فأما الأفعال فإنما يحمد الإنسان بها إذا كانت جميلة، ويذمّ عليها

(1) يفنّن الكلام: أي اشتق فنّ بعد فن - راجع اللسان: مادة فنن.
(2) عنعنها، أي وضع لها عناوين، وليست العنعنة المعروفة عند تميم وهي = إبدال العين محل الهمزة كقولهم «عن» يردون «أن».
(3) نهاية الارب 9/ 218.
(4) الزركلي - الأعلام 1/ 211، ط 5، دار العلم العلم للملايين، بيروت 1980.
(5) مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق/ ص55، دار مكتبة الحياة، ط2، بيروت 1398هـ.

إذا كانت قبيحة»[1]، وقد إنطلق مسكويه من هذا الاعتبار وفق تقسيماته الفلسفية إلى العلوم حيث قسمها إلى قسمين، العلوم النظرية والعلوم العلمية، تبعاً لوجود قوتين في الإنسان هما: القوة العالمة، والقوة العاملة، حيث تتجه الأولى إلى العلوم وتشتاق إليها، ويبلغ المرء كماله فيها عندما يصدق نظره وتصح بصيرته وتستقيم روّيته، فلا يغلط في اعتقاد، ولا يشكّك في حقيقة، وينتهي في العلم بأمور الموجودات على الترتيب إلى العلم الإلهي، الذي هو آخر مرتبة العلوم، ويثق به ويسكن إليه، ويطمئن قلبه وتذهب حيرته، ويتجلى له المطلوب الأخير حتى يتحدّ به[2]. فيما يرى أن القوة العاملة هي المسؤولة عن ترتيب قوى الإنسان وأفعاله الخاصة به، حتى لا تتغالب، وحتى تتسالم، وتصدر كلها بحسب القوة المميّزة، منتظمة مرتبة كما ينبغي[3]، وقد ربط مسكويه جدلياً علاقة العلوم النظرية بالعملية حيث قال: «الكمال الأول النظري، منزلته منزلة الصورة، والكمال الثاني العملي منزلته منزلة المادة وليس يتمّ أحدها إلا بالآخر، لأن العلم مبدأ والعمل تمام، والمبدأ بلا تمام يكون ضائعاً والتمام بلا مبدأ يكون مستحيلاً»[4]، وفي ضوء هذه المقدمات النظرية تحدّد فلسفة مسكويه الإسلامية، سعادة الإنسان على نتائج عمله، كغاية منشودة يسعى لنيلها، وفي ضوء هذه النتيجة، نرى مع د. أبو ملحم أن علم الأخلاق يمكن تعريفه بأنه: الفلسفة العملية التي تنظرفي أعمال الإنسان الإرادية، التي تصدر عن قواه وملكاته العقلية المميزة[5].

وهنا نرى أن الفلاسفة المسلمين صاغوا نظرياتهم الفلسفية في ضوء دينهم ودنياهم، وربطوا هاتين المسألتين ربطاً محكماً، نظراً لما لهما من تواشج وترافق في حياتهم اليومية، وعلى أساس نظري، مستل من عقيدتهم الإيمانية، وأشاعوه بين الناس، وقد كان لتلك العقيدة، تأثير واضح في أخلاقهم وحياتهم، وتجلّى هذا التأثير في الأصناف الإسلامية، حيث أن الإسلام رفع شأن العمل الى مصاف العبادة، وجعله من الواجبات المفروضة على المسلم[6]، وقد سار الفقهاء والمشرعون بذلك، مستندين إلى القرآن والسنّة النبوية،

---

(1) مسكويه: السعادة في فلسفة الأخلاق/ ص44 - 45، نشرة محمود علي صبح، المطبعة العربية بمصر 1346هـ/ 1928م.

(2) مسكويه: تهذيب الأخلاق/ ص57 - 58، وأنظر كذلك/ البحث القيّم (علم الأخلاق عند مسكويه) للدكتورعلي أبو ملحم، المنشور في مجلة دراسات عربية العدد 12، السنة 26 تشرين أول/ اكتوبر 1990/ ص102 وما بعدها.

(3) مسكويه: تهذيب الأخلاق/ ص58.

(4) المصدر السابق/ نفس المكان.

(5) دراسات عربية، العدد المذكور/ ص104.

(6) راجع/ صباح إبراهيم سعيد الشيخلي/ الأصناف في العصر العباسي/ ص40 - 41.

فاصلين أمور المعاش عن أوقات العبادة، فقد دعا سعيد بن المسيّب، إلى عدم ترك العمل بحجة الانصراف إلى العبادة[1]، وبجانب هذه المسألة الفقهية للترابط بين الدين والعمل، تنبّه الأوائل إلى حبّ العمل من جانب ديني أولاً، ومن جانب نفسي، ثانياً، والثاني يصبح أول في كثير من الأحيان، ولكن سيطرة الفكر الآيديولوجية كانت تجعله في المقام الثاني، وقد اشار إلى هذه الناحية مسكويه أيضاً، عندما قال: إذا أحبّ الإنسان نفسه، أحبّ صورتها، والعلم صورة النفس، ويحرص من محبة صورة نفسه أن يبغض ما ليس له بصورة، فمتى حصل له علم أحبّه، وإذا لم يحصل له أبغضه[2]، ويربط العلم بالعمل، فإن الأصناف الإسلامية، أخذت به، وقد كان للورّاقين، القدح المعلّى بذلك، لأن أغلبهم من العلماء والأدباء والشيوخ، والقضاة، وأرباب القلم، فقد أحبّوا مهنتهم رغم معاناتهم منها[3].

وبغية عدم الاطالة والاستطراد في موضوع الأخلاق عند أرباب المهن الإسلامية، سوف نقتصر الحديث فقط على موضوع بحثنا - أخلاق الورّاقين.

في هذا الباب الهام، فاتنا الكثير من معرفة أخلاق الورّاقين، بضياع رسالتين للجاحظ، كان قد أنشأهما عنهم، الأولى كانت بعنوان/ رسالة في مدح الورّاق/ والثانية/ رسالة في ذمّ الورّاق/ وقد ذكر هاتين الرسالتين ياقوت الحموي في ترجمته للجاحظ[4]، ومن المؤسف حقاً أنه لم يعثر عليهما مع بقية كتب الجاحظ العديدة التي تزيد عن 360 كتاباً[5]، إلا أن أهل العلم، والذين جاؤوا بعد الجاحظ، إنتبهوا لهذا الجانب عند الورّاقين وبقية الأصناف الإسلامية، فقد أفرد إبن الحاج في «المدخل» فصولاً عديدة عن أخلاقهم، وفق صفات ومميزات كل صنف، مبتدئاً بـ«الورّاق» على اعتبار أن هذا الاصطلاح يشمل «رب العمل» كاصطلاح جامع للوراقة والورّاقين، يقول في «نيّة الورّاق»: أعلم، وفقّناً الله وإيّاك، إن هذا السبب من أعظم الأسباب التي يتقرّب بها إلى المولى سبحانه وتعالى، إذا أحسنت النيّة فيه[6]، ومن المقدمة للدخول في الموضوع، فإن البعد الديني - الإسلامي،

---

(1) ابن الجوزي/ تلبيس ابليس/ ص273، بعناية محمد منير الدمشقي، القاهرة، وراجع الأصناف/ ص42.

(2) أبو حيّان التوحيدي ومسكويه/ الهوامل والشوامل/ ص189 - المسألة 75، نشرة أحمد أمين وأحمد صقر، إصدار لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1370هـ/ 1951م.

(3) سوف نتطرق بفصل مستقل - عن معاناة الورّاقين.

(4) معجم الأدباء 16/ 109.

(5) أنظر فهرست كتبه عند ياقوت/ معجم الأدباء 16/ 106 - 110 وأغلبها مفقود.

(6) ابن الحاج/ المدخل (مدخل الشرع الشريف على المذاهب) 4/ 79، منشورات المطبعة المصرية بالأزهر، ط1 سنة 1348هـ/ 1929م.

تتوضّح معالمه، حيث أن الخطاب يحمل في ثناياه عمق الوازع الديني، ويخاطب الإيمان عند الورّاق، وهو أمر سارت عليه الحياة اليومية عندهم، وعلى اعتبار أنهم مسلمون، فإن العقيدة الإسلامية، تحضّ على حسن الأخلاق في العمل، ومن هذا الجانب يدخل/إبن الحاج/في التوكيد على «تحسين نيّة الوراق» على اعتبار أن القرآن يكتب في الورق وتفسيره وعلم الناسخ والمنسوخ وما يتعلق به من العلوم، وكذلك الحديث النبوي وشروحه وما احتوى عليه من الحكم والمعاني، إضافة إلى كتب الفقه، وباقي العلوم الشرعية، إلى ما يحتاجه الناس من كتب الصدقات، وعقود البياعات، والإجارات والوكالات، وغيرها من أمور الدين[1]، وهذه الأمور جميعاً ينظر إليها بمنظار إسلامي خالص، ومن هنا يكون الورّاق على تماس مباشر بيده وجسده وروحه، وهذه العلوم تحمل صفة القدسية في مضامينها وأسمائها، لذلك جاء هذا التركيز من منظور الشريعة عليها، ومن الناحية الأخرى، أن في عمل الورّاق تقديم خدمة للناس، من ذات المنظور الديني، والدنيوي كذلك، لذا وجّه الخطاب له على النحو التالي: فإذا كان المتسبب/طالب الرزق/أي الورّاق/فيها ينوي إعانة إخوانه المؤمنين على قضاء مآربهم، فيما يحاولونه، لكان شريكاً لهم فيما يحصل لهم من ثواب على فعل ذلك، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، فيحصل له هذا الثواب الجزيل، وإن كان قد أخذ عنه عوضاً فيكون بسبب نيّته في ذلك من أجل العبادات[2]، أي أن مسألة العمل تدخل في هذا الاطار، بصدق النيّة المتوجّه في إنجاز العمل ودقّته، ويشترط/ابن الحاج/في النيّة أن تكون من حين خروج الورّاق من بيته وملاءمتها مع نيّات العالم والمتعلّم، إلى حين وصوله موقع عمله/دكان الوراقة/[3]، وبذا يكون قد فرض النيّة المعرفية مع النية الإيمانية - الأخلاقية، فهو يقول:

ثم يضيف إلى ذلك نيّة الإيمان والاحتساب[4]، ومن النية في القلب، إلى إسقاطها في العمل كممارسة، ومن الوازع الأخلاقي - الديني نفسه، يرى ابن الحاج أن الورّاق قد يعتوره في ذلك عكس ما جلس إليه، مثل، أن يبيع الورق لمن يعلم أنه يستعين به على ما لا يجوز أو ما لا ينبغي، فأمّا الذي لا يجوز فمثل الظلم وما شاكله، ومثل الكذب، كقصة البطال وعنترة[5]، إذن هناك محرّمات أخلاقية، وليست مهنية، إلا أنها تمارس في المهنة/

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 79.
(2) المصدر السابق/نفس المكان.
(3) نفس المصدر والمكان.
(4) ذات المصدر.
(5) المدخل لابن الحاج 4/ 79 - 80.

وما أكثرها اليوم/ فكان التأكيد على تجنّب البيع للظالم ومناصريه، وهذه المسألة تخضع إلى بعدها الإنساني السامي حضارياً، والتي تدخل في إطارها الشرائعي - الإسلامي خاصة، وبقية الشرائع الإنسانية عامّة، ثم تجنب الكذب في نقل الروايات وعدم نسخ ما لا يمت بصلة إلى الواقع، وقد ضرب مثالاً بذلك، وهذه النقطة تدخل في باب البعد المعرفي، إلا أنها تتقاطع مع الخيال الإبداعي، وأمّا الذي لا ينبغي في عمل الورّاق كما يرى ابن الحاج فهو، عدم نسخ الحكايات المضحكة، وما أشبهها مما يلهو به المرء[1]، معللاً ذلك بعدم ضياع الوقت، وهو أمر كان أغلب المشرّعين الإسلاميين يدعون إليه، على اعتبار أن الجديّة تقتضي ذلك، ومن جانب آخر، يخضع هذا «التحريم» وفق وجهة نظرهم إلى مدلول إيماني منزّل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[2]، ومن هذه الزاوية يقول ابن الحاج: «لأنه إن باع الورق لمن يكتب فيه ذلك فقد فعل ما لم يقله بلسانه ولم ينوّه بقلبه، فيدخل بذلك تحت هذه الآية الكريمة، فيرجع بعد أن كان في أعلى عليين إلى أسفل سافلين»[3]. ويربط هذا المشرّع الأخلاقي، النيّة بالبيع والقصد منه، في ضوء الشريعة الإسلامية، ما دام المشتغلون بالمهنة مسلمين، والمهنة إسلامية، ففي ضوء النيّة، يحاكم البائع - الورّاق - يقول: فإن قال البائع مثلاً، أني لا أعلم في الغالب حال المشتري، فالجواب، أن الذي ينبغي في حق البائع أن يحمل المسلمين على الطهارة والسلامة، حتى يتبيّن غيرهما، ثم أن المشتري قل أن يعرف حاله في هذا الزمان، بسبب غلبة الجهل على أكثرهم، لأنهم يرون أن ما هم فيه مباح أو مكروه، بل بعضهم إنغمس في الجهل، حتى أنّه يعتقد وجوب ذلك أو ندبهِ فلا يستخفون بشيء مما هم فيه، إذ أنه لا يستخفي أحد إلا بالشيء الذي هو عنده معصية، وهم عند أنفسهم ليسوا في معصية بل بعضهم يفتخر بذلك[4]، وهذا القيد الإيماني، قد يخلق حالة من التوتر والتجافي بين البائع والمشتري، الأمر الذي ينعكس بضلالة على حالة السوق والمهنة، وإضافة إلى الوضع النفسي بين الطرفين، لذلك اقترح ابن الحاج إقتراحاً فقهياً يقول: وليحذر من أنه إذا رأى ما يكره في المشتري أن يظهر له الكراهة، بل يذكر أعذاراً مانعة له من بيعه إذ أنه إن أظهر ذلك له، أو عرض له به في هذا الزمان، ترتبت بسبب ذلك فتن كثيرة، قلّ أن يتخلص

(1) المدخل 4/ 80.
(2) سورة الصف، الآية 2، وأنظر المدخل 4/ 80.
(3) المدخل 4/ 80.
(4) المصدر السابق/ نفس المكان.

منها، والأعذار كثيرة، فليحذر على نفسه من ذلك، وهذا الذي يتعيّن عليه، إذ لا يجب عليه أن يسأل عن أخبار النساء، ولا يكشف عن أحوالهم، فإن فعل ما تقدم ذكره، ثم تبيّن أنه باع لمن لا يرتضى حاله في الشرع الشريف، من غير شعوره بذلك، فقد سلم من الاثم، لأنه قد فعل ما تعيّن عليه، بالورع في تسبّبه وتصرفه، فذلك له حكم يخصّه، هو أن يبيع ولا يشتري ممن يحول في نفسه شيء ما يكرهه الشرع[1]. وبغية حسم الموضوع في هذه الحالة، فإن الأمر متروك للورّاق وحسن تدبيره، إذا توفّر شرط النيّة الصادقة فيه، بمنظورها الإسلامي، ويقترح ابن الحاج في هذه المسألة الأمر التالي: إذا وقع له/ للوراق/ ذلك، فليتحيّل على فسخ العقد، فإن لم يمكن ذلك، فهو مخيّر بين ردّ الثمن على صاحبه، أن تعيّن له في ذلك منفعة ما بحسب ما يراه، وإلا فليتصرّف به ولا يدخله في ماله، ولا ينتفع به، وهذا عام في الثمن والمثمون، وفي الورّاق وغيره، ممّن تقدم ذكره أو تأخّر[2].

يلاحظ هنا أن التركيز، في المقام الأول، بالنسبة لأصحاب الحرف والمهن الإسلامية، إنصب على النيّة، باعتبارها أصلاً من أصول الدين الإسلامي، أكّدتها الشريعة الإسلامية، قولاً وعملاً وشكلت شرطاً في صحة إسلام المسلم، فقد جاء بحديث الرسول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيّات ولكل أمرىء ما نوى»[3]، وقد كان حديث الرسول هذا بمثابة المرتكز الفقهي الأول لأعمال المسلمين كافة، حيث اقترن شرط العمل بشرط النيّة، بكافة أمور حياة المسلمين، لذلك كان المشرعون الإسلاميون كافة، ينطلقون في إصدار فتاواهم وأحكامهم من مصدر الشريعة، وعلى منواله ينسجون، وابن الحاج عندما يعالج أمور الصناعات والحرف، إنما ينطلق من أساس الشريعة الإسلامية (القرآن والسنة) باعتباره مشرعاً مسلماً، لذلك يؤكد على النيّة في الاعتبار أعلاه، ودائماً يبتدىء بالأصول، فهو عندما ينتقل إلى باب آخر من أبواب كتابه/ فإنه يعتبر شرط النيّة من الثوابت في أي عمل، لأي صانع أو حرفي أو أجير مسلم.

عدم التعاطي مع الغش:

ضمن الموجبات الأساسيّة للأخلاق الإسلامية في العمل، فإن الشرع أكّد على تجنّب

---

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 80.

(2) المدخل 4/ 80 - 81.

(3) أنظر: صحيح البخاري 1/ 51 - 53/ باب - بدء الوحي/ شرح العلامة القسطلاني منشورات المطبعة الميمنية بمصر سنة 1307هـ. وأنظر كذلك/ شرح السنة، للإمام البغوي 1/ 5 تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، منشورات المكتب الإسلامي - ط 1 - 1390هـ/ 1971م.

أعمال الغش في عمل المسلم، حيث صرّح الرسول محمد «من غشّنا ليس منّا»، وهذا الحديث أصبح كبديهة حاضرة في عقل المسلم، وكون الورّاقين، فئة مثقفة فهم أعرف بهذا المبدأ، واقدر على تطبيقه، وكالتزام أخلاقي - مهني، فقد نصّت دساتير الورّاقين على أنه ينبغي للورّاق أن يحذر من الغش، فيما هو يحاوله، مثال أن يعطي الدست[1] الذي يساوي ثلاثة دراهم، فيبعه على أنه من الدست الذي يساوي أربعة، لأن الورق في ذلك يختلف ثمنه بسبب صفته، فقد يكون ورقاً زائداً في البياض وفي الصقال، أو يكون ممّا عمل في الصيف وآخر عكسه، يعني فيه سمرة ونقص في الصقال أو البياضة وعمل في الشتاء، وما بين ذلك[2]، هذا العرف الأخلاقي التزم به الورّاقون، وأخذوا به في حوانيتهم، ومعروف نوعية الورق وتاريخ صناعته وسعره وحجمه، يعرفها الورّاقون أكثر من غيرهم، لذلك يكون الغش - أن وجد - فهو عن طريق المشتري، لأن خصوصيّات المهنة، لا يعرفها إلا أربابها، ولغرض أحكام التعامل الحسن بين الورّاقين والزبائن، أوجدت هذه الأعراف الأخلاقية الإسلامية، لتنظّم هذه العلاقة، وربما حدث بعض الشطط في هذه العلاقة، لذا نصّت الدساتير على أن يخرج الورّاق ببيانه من الغشّ، فإن لم يفعل دخل بكتمانه، وهو أمر يقع تحت طائلة مسؤولية الثواب والعقاب، على أساس مبدأ «من غشّنا ليس منا»[3] وقد أشار ابن الحاج إلى أنه لا يخلو الأمر من بيعة للمشتري قد تكون مساومة أو مرابحة، فيرى، أنه إن كان مساومة فهو أحسن وأخلص للذمة، وإن كان مرابحة، فيشترط فيه ما تقدم في أمر البزاز، من أنه إذا اشترى بالدين أو وهب له شيء من الثمن إلى غير ذلك، فكل ما ذكر فيه من عدم التشوّف للمشتري والنظر إليه، إذا دخل السوق أو وقف على غيره، فهو مشترط في حق هذا وغيره من جميع المتسببين[4].

عدم كشف العورة والمحافظة على سرّ المهنة:

لقد نصّت تعاليم الأخلاق، لأصحاب المهن والصناعات، أن يكون المشتري (الزبون - أو الورّاق - من صنف آخر) باعتباره أحد طرفي العلاقة - أن يكون حذراً عند شرائه

---

(1) الدست: أو الدشت = هو الشيء من الثياب أو الورق، وصدر البيت معرّب - فارسي الأصل، أنظر اللسان، مادة دشت، والقاموس المحيط، مادة (دست)، والمعرب للجواليقي/ ص138، باب الدال، مادة (الدست).

(2) ابن الحاج/ المدخل 4/ 81.

(3) المدخل 4/ 81.

(4) نفسه.

الورق من الورّاقين، أن يكون في وقت يعلم أنه يكشف فيه على عورات من يعمل فيهما من الصنّاع، إذ أن أكثرهم يجعلون في أوساطهم خرقة تصف العورة لصغرها وانحصارها على العورة، وابتلالها بالماء، والفخذ عن آخره مكشوف، فإن دخل والحالة هذه فهي معصية، وذلك مناقض لما احتوت عليه نيّته، من أنه يعمل لله، ويبيع ويشتري، لذلك اشترطوا عليه أن يتحرّى وقتاً يكونون فيه سالمين مما ذكر[1].

عدم خلط أصناف الورق:

ومن الأمور التي حافظوا عليها، في تعاملهم الأخلاقي، ضمن علاقات السوق أن الورق الجيّد يصلح للنسخ، واعتبروا ذلك الفعل - إن حصل - فهو تدليس على المشتري، لأن الخفيف لا يحتمل الكشط لخفته وعليه أن يكون ذلك عنده بمعزل[2]، وتكون علاقة الورّاق/ بائع الورق/ بالورّاق - الناسخ - علاقة مهنية بحتة، يدخل فيها الجانب الأخلاقي من زاوية/ المنفعة المتبادلة/ وبذا يتوجّب على الأول أن يبيع للثاني ويعطيه، ما يوافقه منه، وأن علم أنه ممّن يكتب فيه الرسائل - يعني الورق - أعطاه من الورق الخفيف، بعد أن يبيّن له ذلك[3].

معرفة المضمون قبل النسخ:

دأب الورّاقون على الإطلاع في كل أنواع الورق الذي يستخدمونه، تحاشياً لعدم الوقوع بأوراق ذات مضمون ديني أو شرعي، ويكتبون عليه، أو يستخدمونه في طيّات التجليد، أو يكتبون عليه مسوّداتهم، فقد تعيّن على الورّاق، أن لا يعمل شيئاً من الورق المكتوب إلا بعد أن يعرف ما فيه لأنه قد يكون فيه شيء له حرمة شرعية، بل هو الغالب، فإذا نظر فيه عرف ما فيه من الكتاب «يقصد القرآن» أو حديث النبي، أو اسم من أسماء الله، أو اسم نبيّ من الأنبياء، أو اسم ملك من الملائكة، فيتجنب ذلك كلّه لحرمته وتعظيمه في الشرع[4]، وهذه الملاحظات المهنيّة تتبع من دافعها الديني البحت، ويعلّل ابن الحاج ذلك من الناحية الدينية أعلاه، إضافة لطبيعة المهنة، يقول: لأن الصنّاع يدوسون ذلك بأرجلهم وغيرها، وهذا من أعظم ما يكون من الامتهان[5].

(1) المدخل 4/ 81.
(2) المدخل 4/ 82.
(3) المصدر السابق.
(4) نفسه.
(5) نفسه.

مراقبة العمل:

ومن الأعراف المهنيّة نفسها والدافع الأخلاقي - الديني، نفسه، ينطلق الورّاق - ربّ العمل - في تنظيم دكانه وصنّاعه، ويحدّد في ضوء ذلك انضباطية العمل والإلتزام بأخلاق المهنة، حيث يتوجب عليه أن لا يترك أحداً من الصنّاع يفعل ما تقدم ذكره من كشف العورة، ومن لم يسمع منهم ما أمره به، أخرجه من موضعه/ فصله/ وأتى بغيره، واشترط عليه سترة عورته، مع الشروط المتقدم ذكرها، وفي التحفظ على الصلوات في كل أوقاتها، فإذا فعل ذلك برئت ذمته وحصل له الثواب والبركة فيما هو يحاوله، وعرفت عادته، فلا يأتي إليه إلا من يجانسه، فيما هو يطلبه من براءة الذمة والتحفظ على الدين، إقتداءً بالسلف الصالح، حيث كانوا يتبعون أسبابهم لأديانهم، ومن فعل ما تقدم ذكره تشبّه بهذا السلف، والتشبّه بالكرام فلاح[1].

ويفترض بصاحب الوراقة أن يكون عارفاً بكل الأمور متقدمة الذكر، وهو السائد، ولكن أحياناً تعترض هذه الأمور بعض الصعوبات، من لدن صنّاعه، لأن الصانع ليس كالأستاذ أو الخلفة أو الشيخ، في معرفة أصول المهنة وأخلاقها، لذلك يشتكي أرباب الوراقة كثيراً في هذا الجانب، لأنه يضطر إلى إقصاء الكثير من الصنّاع بين فترة وأخرى، لذلك اقترح عليهم من قبل المشرّعين ما يلي: «فإن قال صاحب الوراقة مثلاً، أن فعلت ما ذكرتموه قل أن أجد صانعاً يعمل فيتعطل عليّ السبب، فالجواب، أن الخير والحمد لله لم يعدم من المسلمين، وإن عدم في قوم فهو موجود في آخرين، بل نجد الأمر على عكس هذا، وهو أن الصنّاع إذا علموا من الشخص أنه يوسّع لهم في أوقات الصلوات، ويتحذر على دينه ودينهم ويسامحهم، ويتغاضى لهم في شيء ما من الزيادة على أجرتهم بما لا يضرّه، كثر خطّابه وعزّ أمره، وحصلت له البركة في كل ما يحاوله[2].

ومن صاحب الوراقة أو ربّ العمل، تتوزع المهام، وتتعدد الواجبات، وتنتشر في دكانه تفرعات أخرى للورّاقين، ضمن مهنة الوراقة وشموليتها، كالناسخ والمجلّد وغيره، وتشكل بمجموعها ورشة عمل متكاملة لمختلف أصناف الورّاقين، وكل صنف من هذه الأصناف إختص بعمل ضمن دائرة الوراقة، وفي ضوء كل صنف منها هناك أخلاق ترافق هذا الصنف، وتولد معه، وتشكل ناموساً بين عناصر هذا الصنف، أو ذاك من الورّاقين، يستدلون به وعلى عُرفِه يتعايشون، فالناسخ مثلاً، هو أحد الورّاقين الأساسيين، ويكاد هذا

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 82.
(2) نفسه 4/ 83.

الصنف/النسّاخون/ أن يشكّل العمود الفقري لمهنة الوراقة، ولهذا صارت مسألة الأخلاق عند هذا الصنف، من الأمور المرعيّة والواجبة التشديد فيها، على اعتبار أنهم يتعاملون مع الورق والقلم، وتمرّ عليهم مختلف العلوم الشرعية والدينية وغيرها، مما يتطلب بعداً فقهياً ومهنياً للتعامل مع مهنتهم،في هذا الصنف، لذلك خصَّ إبن الحاج هؤلاء بفصلٍ مستقل، وضَّحَ لهم كيفية التعامل مع مهنتهم سمّاه «فصل في نيّة النّاسخ وكيفيتها» إنطلق فيه من الوازع الديني ببعديه الأخلاقي والإيماني، وفي ضوء الشريعة الإسلامية، قال فيه: «إعلم - رحمنا الله وإياك - أن النّاسخ في الأجر والثواب يربوا على الورّاق/ يقصد ربّ العمل/ لأنه في عبادة عظمية، إذ أنه لا يخلو من أن يكون نسخه في كتاب الله تعالى، أو حديث النبي ﷺ أو في الفقه أو غيره من العلوم الشرعية، فإن كان في كتاب الله تعالى، فقد جمع بين التلاوة، وهي محض العبادة، وبين الكتابة، سيّما أن تدبّر فيما يكتبه وتفكّر في معانيه، فبخٍ على بخٍ[1]، وإن كان يكتب في حديث النبي ﷺ فقريب منه في الثواب، ولو لم يكن فيه من الفضيلة إلاّ ما ورد من (كتب الصلاة على النبي ﷺ في كتاب بقيت الملائكة تصلي عليه ما دامت الصلاة عليه مكتوبة في ذلك الكتاب، وكفى بها نعمة»[2]، ومن هذه المقدمة الدينية - الأخلاقية، نرى بوضوح أثر الشريعة الإسلامية واضحاً وملزماً لهذا الصنف من الورّاقين، لأنه يتعامل مع الكتب الدينية أكثر من غيرها، الأمر الذ يوضّح مقدار الاهتمام بتلك العلوم الدينية، ويعكس التأثير الآيديولوجي للفكر الإسلامي في حياة ونشاط الناس في ذلك العصر.

الحذر في النسخ:

من الزاوية الإيمانية، والتي تنطلق من «نيّة الناسخ» في عمله، يفترض صاحب التشريع، أن يحذر الناسخ من النسخ في غير العلوم الشرعية، كي لا يقع في حالة تناقض من نيّته التي جلس بها للعمل عند الورّاق، وتقدّم بها غيره، كتفاضل أخلاقي (مسابقة) وهو عادة ما يجري بينهم، لتحصيل قوته وتسببه في عمله، والذي يفترض أن تكون نيّته منصبّة في عمله على «إعانة إخوانه المسلمين» وذلك بتيسيره عليهم ما يحتاجون إليه من السلع وغيرها، منطلقاً من أن الرزق في ذلك على الله[3]، ثم يضيف إلى ذلك نيّة الإيمان والاحتساب على اعتبار أنها محض العبادة.

(1) بخ = كلمة فخر، راجع اللسان: مادة بخخ، يقابلها اصطلاح (نيّالك) على الصعيد الشعبي.

(2) المدخل لابن الحاج 4/ 83.

(3) نفسه.

عدم نسخ الأمور الكاذبة:

وعلى منظور النيّة ومحمولها الإيماني، حذر النسّاخون من نسخ ما هو كاذب، كقصة البطال وعنترة، وما شابه ذلك من الحكايات المضحكة فإنه ممنوع عليه في عرف ذلك الزمان[1].

عدم النسخ للظالمين:

ومن الإشتراطات الأخلاقية في عرف النسّاخ هو عدم النسخ لظالم أو من يعينه على الظلم، أو من في كعبه[2]، وهذا الاشتراط فرضوه على النسّاخين، ومن لم يلتزم بذلك، فإنه يدخل في مدلول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[3] أي يمكن وصمهم بـ(النفاق) وهو أمر لا يريدون في حياتهم ومسلكهم الأخلاقي.

وضوح الخطّ في النسخ:

ومن الاشتراطات الفنيّة ذات البعد الأخلاقي في عرف الورّاقين لا سيما النسّاخ منهم، هو: تبيان الحروف في الكتابة، وعدم تعليق الخط/أي تركه بلا نقط ودون اكتمال/ حتى لا يعرفه إلا من له معرفة قويّة، بل تكون الحروف بيّنة جليّة، فلا يترك شيء من الحروف التي تحتاج إلى نقط دون أن ينقطها، لأن الباء تختلف مع التاء والثاء، ولا يقع الفرق بينهما إلاّ بالنقط، وكذلك الجيم والحاء والخاء، إلى غير ذلك[4]، على اعتبار أن هذه المسألة فيها نفع عام لكثير من المسلمين، لا سيما وأنه توجد بين أيديهم كثير من الوثائق الرسمية والشرعية وغيرها، وبعض الناس لا يعرف أن يقرأ غير خطّه، ونظراً لكون النسّاخين لهم اصطلاحاتهم وطريقتهم في رسم الحروف، والتي يفهمونها فيما بينهم، الأمر الذي يشكل على الآخرين بذلك، لذلك جاءت هذه التنبيهات إليهم عملاً بالسّنة المتبعة منذ أيام النبي محمد ﷺ حيث قال لكاتبه معاوية: «يا معاوية ألق الدواة، وحرف القلم، وانصب الباء، وفرق السين، ولا تعور الميم وحسّن الله، ومدّ الرحمن، وجوّد الرحيم، وضع قلمك خلف أذنك، فإنه أذكر للمحلي»[5]، وبتقديرنا أن هذا الحديث واضح

---

(1) نفسه 4/ 84.
(2) نفسه.
(3) سورة الصف، الآية: 2.
(4) المدخل لابن الحاج 4/ 84.
(5) نفسه.

الإنتحال فيه، وبغضّ النظر عن هذه المسألة فإن الأمر يعني وجوب هداية القارىء ومعرفته للنص ومضامينه، حيث بهذا الوضوح يريدون عدم إضاعة حقوق ا لناس وعقود أنكحتهم، إضافة إلى احتمال أن يموت الكاتب أو يتعذّر وجوده، ولا يعرف غيره أن يقرأ ما كتبه، فإذا تحفظ من هذا وأشباهه عمّت منفعة كتابته لأكثر المسلمين، بخلاف ما إذا لم ينقّط أو يعلّق خطه[1].

إستخدام الحبر بما يوافق كل نوع من الورق:

شكلت مسألة معرفة الحبر لكل نوع من أنواع الورق[2] والرقوق أهميّة عند الورّاقين، فقد قالوا بذلك: ويتعيّن عليه (الناسخ) أن لا ينسخ بالحبر الذي يخرق الورق، فإن فيه إضاعة المال وإضاعة العلم المكتوب به، سيّما إن كانت نسخة الكتاب الذي كتبه معدومة أو عزيزاً وجودها، ويلحق بذلك النسخ بالحبر الذي يمحى من الورق سريعاً[3]، ومن هنا يتّضح الخطّ العام لمصلحة الناس من جهة، والمعرفة الدقيقة لاستخدام أدوات الكتابة، دون الاضرار بمصالح الناس، وبأساسيّات الحرفة، من جهة أخرى، لذلك رفضوا رفضاً قاطعاً المداد الذي تسوّد به الورقة، وتختلط الحروف بعضها ببعض، ويذكر ابن الحاج حصول هذه الحالة بقوله: وهذا شاهد مرئي، فلا شك في منعه، ويضيف: اللهم إلا أن يكتب رسالة من موضع إلى آخر وما أشبهها فنعم»[4]، وهنا تتوضح الدلالة الفقهية والمعرفية بآن، حيث أجيز مثل هذا الحبر في الاستخدامات الخاصة فقط، بحيث تكون مسألة/ المصلحة العامة/ غير واردة في سياق الاستخدام لهذا الحبر، لذلك جاء التأكيد التالي على الحكم السابق بما يلي: بشرط أن لا يتعلق بها/ بعملية النسخ بالحبر - المداد/ حكم شرعي، ككتاب القاضي بحكم من الأحكام بشرطه المذكور في كتب الفقه، وما أشبه ذلك من الوكالة وغيرها فحكمه ما تقدم في نسخ العلوم الشرعية[5].

ضرورة الوضوء:

باعتبار الوراقة مهنة إسلامية، فقد اقتضى الحال أن يكون الورّاق طاهراً، وأن يكون على وضوء إذا جلس للنسخ، فإن شقّ عليه ذلك، فليكن في أوّل جلوسه على وضوء ثم

---

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 84.
(2) راجع ج4 من هذا البحث/ صناعة الورق وظهور المكتبات، فصل أنواع الورق.
(3) المدخل 4/ 84.
(4) نفسه 4/ 84 - 85.
(5) المدخل لابن الحاج 4/ 85.

يغتفر له بعد ذلك[1]، هذا في حالة بدء العمل، وكون النسخ يتمّ في مختلف الأمور، أمّا إذا كان النسخ في كتاب الله فلا بّد من الوضوء حين يباشره في كل حين، ما لم يطرأ حدث وتجوز له الصلاة في ذلك الحدث، فيتوضأ في أوّل جلوسه، ويغتفر له بعد ذلك[2]، ومن هنا يتبيّن مقدار الالتزام الديني في مهنة الوراقة.

النصح في النسخ:

ومفاده، عدم أخذ النسخ/ المواد المراد نسخها/ من جماعة فينسخ لهذا ولهذا، ولا يعلم أحداً منهم أنه ينسخ لغيره، وذلك يناقض النصح لمن لم يعلمه بذلك، ولأنه جمع فيه بين الاستشراف والحرص، وهو فعل مذموم في الشرع الإسلامي[3].

تحريم النسخ في المسجد:

وتحاشوا نسخ الكتب في المساجد، لا سيّما أن الورّاقين يلتقون بجمهور المسلمين في هذه الأماكن بكثرة خصوصاً في أوقات الصلاة ولربما ظلت منهم نسخ ملزمة أو رسالة، وهم في بيت العبادة فحرّم ذلك على اعتبار أنه في سبب/ ارتزاق، والأسباب كلها ينزّه المسجد عنها، إضافة إلى ما يحدثه النساخ من تلوّث داخل المسجد[4].

ترك العمل عند سماع الآذان:

يقتضي العرف الإسلامي ترك العمل إذا سمع المؤذن وهو يدعو للصلاة، والورّاقون يلتزمون بهذا العرف، ويتهيئون للصلاة في وقتها المختار في جماعة، ولا يعفى من ذلك إلا من كان يكتب وسمع الآذان، فلا يترك الكتابة حتى يكملها[5]، وقد أوجدوا في ذلك تعليلاً جمالياً، نابعاً من طبيعة المهنة حيث قالوا: لأنه يختلف خط الورقة بسبب قيامه عنها، فيمهل حتى يتّمها، وكذلك لو كان يسطّر في أثناء الورقة، فلا يرفع يده حتى يكملها[6] ويعتبرون هذا الإجراء ليس مذموماً لأنه راجع عندهم إلى حسن الصنعة، والنصح فيها لإخوانه المسلمين، بخلاف ما تقدم في غيره، وهذا ما لم يخش فوات الجماعة، كما يقول ابن الحاج[7].

(1 - 5) المدخل لابن الحاج 4/ 85.

(6) نفسه 4/ 85 - 86.

(7) المدخل/ لابن الحاج 4/ 86.

التمسّك برأي الجماعة في نسخ الختمة:

الختم، الطبع، قال أبو إسحاق الزجاجي؛ معنى/ختم وطبع في اللغة واحد/[1]، وعلى هذا الفهم، اشترط على النسّاخ من الورّاقين أن يتركوا ما أحدثه بعض الناس - في زمانهم - في نسخ الختمة على غير مرسوم المصحف الذي اجتمعت عليه الأمة على ما وجدته بخط عثمان بن عفان[2]، وهذه العبارة تكشف لنا وجود التعارض السياسي والمذهبي، وانعكاسات هذا التعارض في مذاهب الورّاقين، وبغية الحفاظ على/طبع/ نسخة واحدة موحّدة من القرآن اشترطوا ذلك، أخذا بقول مالك بن أنس: القرآن يكتب بالكتاب الأول[3]، يريد بخط عثمان، ولا يجوز للناسخ غير ذلك، ولا يلتفت إلى اعتلال من خالف بقوله أن العامة لا تعرف مرسوم المصحف، ويدخل عليهم الخلل في قراءتهم في المصحف، إذا كتب على المرسوم فيقرؤونه مثلاً: (وجائي، وجاى) لأن رسمها بألف قبل الياء، وغيرها من أمور المراسم واللغة[4]، ولغرض تجاوز هذه الإشكالات اللغوية في القراءة، أوجدوا ذلك الاشتراط وأضافوا إليه شرطاً آخر هو: من لا يعرف المرسوم من الأمة، يجب عليه أن لا يقرأ في المصحف إلا بعد أن يتعلّم القراءة على وجهها أو يتعلم مرسوم المصحف[5]، وهذه المسألة تظهر أن هناك خلافاً واضحاً فيها، حتى أن ابن الحاج يلحّ في شرحها ويؤكد: أن من فعل غير ذلك فقد خالف ما اجتمعت عليه الأمة، وحكمه معلوم في الشرع الشريف، ويضيف: «فالتعليل المتقدم ذكره مردود على صاحبه لمخالفته للإجماع المتقدم، وقد تعدت هذه المفسدة إلى خلق كثير من الناس في هذا الزمان، فليتحفظ من ذلك في حق نفسه وحق غيره والله الموفق»[6].

ثم اشترطوا أن تكون الختمة، منسوخة باللسان العربي، وأن لا تنسخ بلسان العجم، على اعتبار أن القرآن نزل بلسان العرب[7]، إضافة إلى ضرورة نسخ المصحف كاملاً وعدم نسخه في أجزاء[8].

إن هذا التأكيد الهام في عُرف الورّاقين على الإلتزام بكتابة المصاحف باللغة العربية أمرٌ له مسوّغه الحضاري والتاريخي والقومي، إضافة إلى مبعثه الديني، وعلى ما يبدو فإن الخلافات السياسية كانت قائمة بشكل واضح، فما إنفك ابن الحاج من التحذير على ذلك،

---

(1) اللسان - مادة (ختم).

(2 - 6) المدخل 4/ 86.

(7) المدخل 4/ 86، وقد جاء في التنزيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ [يوسف: 2].

(8) المدخل 4/ 87.

مشيراً إلى أهمية الإلتزام بما أجمع عليه السلف والعلماء الأوائل[1].

أمّا مجلدو المصاحف، ذلك الصنف الفنّي من الورّاقين، والذي يتمّم عمل زملائه من النسّاخين، فهم أيضاً خصّوا بفصل خاص عند/ ابن الحاج/ ضمن شموليته في التطرق لأعمال الوراقة، وأخلاقيّات ممتهنيها، فقال عنهم: «إعلم - وفقنا الله وإيّاك - أن هذه الصنعة من أهم الصنايع في الدين، إذ بها تصان المصاحف، وكتب الأحاديث والعلوم الشرعية»[2]، بهذا الاستدلال يتوضح أمر هؤلاء المجلدين، فهم من أهم «الصنايع الدينية» على اعتبار أن الاهتمام الأول، عند المشرّعين الإسلاميين هو الحفاظ على كتب الشريعة وعلوم الدين الإسلامي، وهؤلاء يقومون بهذه الوظيفة، ويكسبون عيشهم من خلالها، الأمر الذي يفرض عليهم التزامات دينية - أخلاقية، كبقية الأصناف الإسلاميّة، وأولّ هذه الالتزامات كانت «النيّة» كاشتراط ينطبق على المجلّد والناسخ، في آن معاً، ومن زاوية كون المجلّد معيّن بصنعته على صيانة ما تعب فيه الناسخ وحصله، وفيه ايضاً جمال للكتاب، وترفيع له، واحترامه وترفيعه متعين، من الأفق الديني - الشرعي[3].

فمن الناحية الشرعية، يفترض بالمجلّد إذا خرج من بيته أخذ من نيّات العالم والمتعلّم، وما يعتوره ويحتاج إليه، ثم مع ذلك ينوي إعانة إخوانه المسلمين بصناعته على صيانة مصاحفهم وكتبهم، ثم يصحب ذلك نيّة الإيمان والاحتساب[4]. وبهذه الاشتراطات الأخلاقية الدينية، وربطها بأخلاقيات العالم والمتعلم، فإن ابن الحاج يرى فيها موقفين: معرفي - شرعي، وأخلاقي - مهني، ويبني ذلك على الافتراض القائل: إنَّ الصانع مثلاً، أو غيره من الصناع ممن تقدم ذكرهم أو تأخر، لا يحتاج إلى نيّة العالم، لأن العالم يخرج إلى المسجد أو غيره إلى التعلم والتعليم وذلك يقبل كل ما نواه، والصنّاع ليسوا كذلك، لأنهم مستغرقون في الأسباب، فالجواب - كما يقول ابن الحاج: أنّه لا فرق بين العالم وغيره، إذ أن الصانع وغيره من المتسببين يحتاج إلى أربعة علوم: الأول: علم الصنعة التي يحاولها، والثاني: العلم بلسان العلم فيها، والثالث: العلم بما يخصّه في نفسه، وذلك عام في حقه وحق غيره، فيما يعتور كل إنسان منهم في عبادته من الصلاة والصوم وغيرهما، وما هو مأمور به من الفرائض والسنن والفضائل، وما يصلح العبادة ويفسدها، والعلم الرابع: علم ما يحتاج إليه المكلف في مخالطته لغيره من التحفظ على نفسه وعلى من خالطه من الوقوع فيما لا ينبغي، وذلك كثير، فهذه أربعة علوم لا بد له منها، فأما أن يتعلمها أو يعلمها لمن يطلبها منه، إن وقع له ذلك، وإنما يترك المتسبب من نية العالم مثل دخول المسجد وتحيته وما أشبههما، ممّا لا يعتوره في السوق أو الدكان[5].

(1 - 4) المدخل 4/ 87.

(5) المدخل لابن الحاج 4/ 88.

نظرة تأملية لهذا النص، تكشف لنا مدى الاهتمام بالتثقيف الذاتي، من الناحيتين الشرعية والمهنية، وكيف تترابطان جدلياً في عقل الصانع - الورّاق - وبتقديرنا أن هذه المسألة واشتراطاتها نابعة من البعد المعرفي في مهنة الوراقة، بشكل خاص، ومن الأخلاق الإسلامية وموقفها من العمل، بشكل عام، وقد رأينا في مقدّمة هذا الفصل، كيف أن الفلاسفة المسلمين، يعيرون اهتماماً للجانب الأخلاقي في العمل.

الإلتزام بالآداب العامّة:

ضمن مسلكية المسلم الأخلاقية، وإنعكاساتها الآيديولوجية في الحياة العامة، فرض على الورّاقين الإلتزام بها في سياق حياتهم المهنية، فقد قالوا: «وينبغي له - الورّاق أو المجلّد - إذا جاء إلى دكانه أن يمتثل السنّة، هو وغيره، ممّن تقدم ذكره أو تأخّر في فعل الآداب التي تقدمت في دخوله بيته وخروجه منه، مثل تقديم اليمين وتأخير الشمال في الدخول والخروج سواء بسواء، مع الابتداء بالتسمية والذكر المأثور في ذلك، وأن يبدأ بصلاة ركعتين قبل أن يجلس لبيعه وشرائه، لأن الصلاة صلة بين العبد وربّه، كما يعتقدون، ثم بعد ذلك يأخذ فيما جلس إليه[1]، وقد يكون الدكان ضيّق المساحة لأداء الصلاة مما يعيق من تأديتها، فاكتفوا بذكر الله، وفق ما سمح به الشرع، علماً بأنهم كانوا يتنفلون في دكاكينهم[2]، كما ارتأوا من الأفضل للورّاق والأصدق في نيّته والأثوب في عمله، أن يستقبل القبلة، إن كان ذلك ممكناً في عمله، وإلا فهو معذور إن حال المكان دون ذلك[3].

تجنب المفاسد في العمل:

ومن الاشتراطات المهنية والأخلاقية على الورّاق تجنّبه المفاسد التي تعتوره في صنعته، إذ هي المقصود الأعظم، حيث أن بتجنّبه لذلك يحصل له الدخول في قولة النبي محمد ﷺ: «الدين النصيحة»، وإذا تجنّب المفاسد فقد نصح لإخوانه المسلمين، ويعتقدون أن ذلك يؤهله للحصول على (شهادة صاحب الشرع) بأنه من أهل الدين[4]، وهذا الاعتراف بمثل هذه الشهادة يتأتى من الرأي العام السائد في سوق الورّاقين وأهله، لأنه إن أصبح من أهل الدين، تكشّف ذلك معاملته مع الناس وصدقه في تعامله، وبذا يحصل على هذه الشهادة المعنوية، وهو طموح كان الكل يريد الحصول عليه، فإذا سلم من المفاسد حقّق هذا البعد المعنوي، وإلا رجع على الضدّ من ذلك، وأوردوا مقياساً، أخلاقياً، في التعامل على النحو التالي:

(1 - 4) المدخل لابن الحاج 4/ 88.

قالوا، فمن ذلك أن يتجنّب ما يفعله بعضهم، وهو أن يعطي الكتاب إلى الصانع على شيء معلوم عوضاً عن أشياء جملة، وذلك يمنع، لأنه جمع فيه بين بيع الجلد والبطانة والحرير، وبين أجرته في عمل ذلك، وهذا كله مجهول، والوجهة في ذلك أن يأتي إلى الصانع بالجلد والبطانة والحرير من عنده، ويؤاجره على عمل ذلك[1]. أي أن العقد الأخلاقي هنا هو عدم الإستغلال وتجنّب الغش في التعامل مع الصانع، ولغرض تجاوز كل إبهام ناتج في المعاملة، ارتأوا أن يوضحوا ذلك بالتفصيل، تجنّباً للغش، وعدم وجود حيف في عقد العمل الأخلاقي، غير المدوّن، رفعاً للغبن، لذلك قالوا: ووجه ثان هو أن الصانع يبيّن له كل واحد منها على حدّته، ويعيّن ثمنه، بعد ذلك يؤاجره على صنعته، ووجه ثالث، هو أن يوكله في شراء ما يحتاج إليه من ذلك، إن لم يكن عنده، ثم يؤاجره بعد ذلك على عمله[2]، ويعلّق ابن الحاج على ذلك بقوله: «فهذه ثلاثة أوجه جائزة، وهي يسيرة سهلة المدرك، من غير مشقة تلحقهما في ذلك، ومع ذلك يترك أكثرهم ذلك كلّه ويفعل ما اعتاده كثير ممن لا علم عنده في هذا الزمان، ومضى على أثره من له علم لاستئناس النفوس بالعوائد المحدثة، فتتعمر ذمتها معاً، فصاحب الكتاب، تتعمر ذمته بقيمة ما أخذه من الجلد وبطانته والحرير وأجرة الصانع، والصانع تتعمر ذمته بما أخذ من صاحب الكتاب، والعجب منهم كيف يأتون بكتب العلم ويجلدونها على الوجه الممنوع فيها؟!»[3]. أليس هذه الفعائل قائمة على قدم وساق في زماننا هذا؟!

عدم استخدام الورق الشريف في التجليد:

تتطلب مهنة التجليد أن يبطّن الجلد ببعض الأوراق، لذلك يلجأ الورّاقون - المجلدون - إلى حشو الأغلفة بالأوراق الزائدة عن الحاجة، أو التي لم تعد صالحة في مهنة الوراقة، نتيجة التخريم أو وقوع الحبر على بعضها، مما يتطلب الأمر تبديلها ونسخها، ولغرض الإستفادة من هذه الأوراق الزائدة، فقد لجأ المجلدون إلى استخدامها في فنّ التجليد، ومن هذه الأوراق يصدف أن يكون فيها آيات قرآنية أو حديث الرسول، أو غيرها، ممّا تنطبق عليه صفة الشرف والتقديس، لذلك أوجبوا على المجلّد أن ينظر في الورق الذي يبطّن به وقالوا بعدم جواز الورق الذي يكون فيه القرآن أو حديث النبي ﷺ أو اسم من أسماء الملائكة أو الأنبياء، وما كان من ذلك فلا يجوز استعماله ولا امتهانه،

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 88.
(2) المدخل 4/ 89.
(3) نفسه.

حرمة له وتعظيماً لقدره، وأمّا إن كان فيه أسماء العلماء أو السلف الصالح أو العلوم الشرعية، فيكره ذلك، ولا يبلغ به درجة التحريم كالذي قبله، وأضافوا قائلين: «وطالب العلم أولى بأن ينزّه نفسه عن الدخول في المكروه، فإن كان الصانع يعلم أو يظنّ به أنه يفعل شيئاً مما تقدم ذكره، فلا يعمل عنده شيئاً، أو يعمل عنده بعد أن يبيّن له الحكم في ذلك، ويعلم أنه قد سمع منه»[1]، ومن هنا يتوضّح ما للدين من أهمية دائمة الحضور في أذهان الورّاقين، وهناك مسألة أخرى، راعوا فيها المصلحة العامة عند استخدام الورق للتبطين في عمليّة التجليد، هي التثبت من خلوّ الأوراق المستعملة من أمر عام وضروري وذي منفعة، حيث أشاروا إلى ذلك بالقول: ولا بأس أن يبطّن الجلد بالأوراق التي فيها الحساب، وليس ذلك بمكروه، إلا أنه يتثبّت في ذلك ويمهل لعله أن يكون ضاع لبعض الناس الدفتر الذي هو محتاج إليه، فيضيع ماله بسببه، فإذا كان الصانع ممّن يتحفّظ من هذا وأمثاله حفظت على الناس أموالهم بعد أن كانت ضائعة عليهم[2].

المحافظة على ترتيب الكراريس وعدم القبول بالخطأ:

من الناحية الفنيّة، تدخل هذه النقطة في سياق «منهج الوراقة» ولكن هناك نقطة تتموضع في جانبها الأخلاقي، فقد طالبوا المجلّد أن يتحفّظ على عدد كراريس الكتاب «ملازمه وأوراقه» فلا يقدم ولا يؤخر في مواضعها، وطالبوه بالتأني في ذلك من باب النصح وتركه من الغش، وإذا كان ذلك كذلك، فيحتاج الصانع إلى أن يكون عارفاً بالاستخراج، ليعرف بذلك اتصال الكلام بما بعده، أو تكون عنده مشاركة في العلم يعرف بها ذلك[3]، ومن هذا يتبيّن أهمية أن يكون المجلّد متقناً لعمله من الناحية الفنية والعملية، ولم يكتفوا بذلك، بل طلبوا منه أن لا يعطي مثل هذه الأعمال لصنّاع لم يتمرسوا جيداً بعد في أصول المهنة حيث قالوا: «ثم مع ذلك - والكلام لا حق لسابقه - يحترز أن يولي عملها لمن لا يعرف تمييزها من الصنّاع والصبيان، لئلا يختلط الكتاب على صاحبه، وكثير ما يقع هذا في هذا الزمان، فيتعب في عمله، ثم مع التعب الموجود يأكل الحرام فيما أخذه من صاحبه، فإن وقع شيء من ذلك، وجب على الصانع إعادته ولو مراراً حتى ينصلح، ولا يأخذ عليه إلا العوض الأوّل لأنه ما تسلّمه إلا أن يعمله على السلامة من هذا وأشباهه»[4]، وهذا يدخل في صميم أخلاق المجلّد أثناء العمل.

(1) المدخل/لابن الحاج 4/ 89 - 90.
(2 - 4) نفسه 4/ 90.

عدم التجليد لأهل الأديان الباطلة:

يبدو أن عملية التشدد على الورّاقين في مهنتهم واضحة في سياقها الديني - الأخلاقي، وهذه مشكلة قد تتعارض وطبيعة العمل الذي يقومون به، فقد نصّ عليهم العرف الديني بما يلي: «ويتعين على الصانع أن لا يجلّد كتاباً لأحد من أهل الأديان الباطلة، لأنه بفعله ذلك يكون معيناً لهم على كفرهم ومن أعان على شيء كان شريكاً لفاعله، هذا وجه، ووجه ثان، هو مثل الأول أو يقاربه، وهو تغبيطهم بدينهم لأنهم إذا رأوا أحداً من المسلمين يعينهم، سيما على حفظ ما في كتبهم، يعتقدون أنهم على حق، بسبب ذلك، ولو علم أن الكتاب الذي أتوا به إليه من الكتب المنزلة مثل التوراة والانجيل والزبور، فالحكم في ذلك ما تقدم من المنع سواءً بسواء، لأنه قد صحّ أنهم بدلوا وحرفوا فيها وغيروا وذلك لا تعلم مواضعه، فتترك كلها، فإن أتوا إليه بكتاب مكتوب بالسريانية أو العبرانية وما أشبههما، فلا يجلد شيئاً من ذلك، وقد قال مالك ﷺ في الرقي بغير العربية، وما يدريك لعله كفر، فكل ما حاك في صدر الإنسان من هذا وما أشبهه فيتعيّن تجنّبه»[1].

وهذا النص يكشف لنا بمضامينه الآيديولوجية، شيئاً من «الرقابة» إضافة إلى الإلتزام الديني مطبقاً على العمل.

تعلم الصنّاع الحلال من الحرام:

يحدث في سياق العمل، أن يلجأ أحد الصنّاع إلى مخالفة شرعية - أخلاقية، أحياناً تكون مقصودة، وأحياناً غير مقصودة، ويصادف أن يكون هناك طالب علم يحتاج إلى العمل عند هذا المحل أو ذاك، فاشترط على هذا الطالب أن يتحرّز ممّن هذا حاله من الصنّاع، ويعلم عنه الأستاذ لعله يتوب أو يرجع، ويراقب في الوقت نفسه مسلكية ربّ العمل في هذا الجانب، فإن استجاب للشرع بقي معه، وإلا رفع الأمر إلى صاحب الشرع، فإن تعذر عليه ذلك، توجّب عليه هجران الصانع الذي يتعاطى ذلك، بعد أن يُعلمه بالحكم فيه، حتى يشيع بين الناس، ويعلم أن هذا حرام لا يجوز، لأنه ورد في التشريع: «أن الظلمة يحشرون هم وأعوانهم حتى من مدّ لهم مدة»[2].

عدم عمل الأغلفة لدواة الذهب والفضّة:

أشيعت نزعة استهلاكية عند كبار الأمراء والوزراء والكتّاب في العصور العباسية

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 90 - 91.
(2) نفسه 4/ 91.

المتأخرة، وبدأت في (ق 4هـ)، حيث كانوا يميلون إلى استخدام الدواة المصنوعة من الذهب أو الفضة[1]. ونظراً لتناقض هذه النزعة مع الروح الإسلامية، من جهة، ومن جهة أخرى يروّج لحالة التفاوت الطبقي في المجتمع، ونظراً لكون أغلب الورّاقين من الطبقات الكادحة، فهم أقدر على فهم هذا التفاوت، لذلك وافقوا على التشريع القائل: يتعيّن على/ المجلد/أن لا يعمل غلافاً لدواة فيها ذهب أو فضة لأنه لا يجوز استعمالها، فكذلك لا يجوز الإعانة عليه بتجليدها، ثم أضافوا إليها عدم جواز تجليد أي شيء لظالم[2] وانطلقوا بهذا الاعتبار والتحريم ضد الظالم من وجهين: الأول هو ما تقدم من أعراف وسنن وشرائع، نصّت عليه الشريعة الإسلامية، والثاني نابع من نظرتهم الأخلاقية - الاقتصادية، في سياقها الاجتماعي، حيث يرون أن أكثر أموال الظالمين جاءت من الحرام، والصانع يتعب في صنعته ليأكل الحلال، ثم تعبه يأكل الحرام، فيتحفّظ من ذلك أن يقع فيه، وينهى غيره عنه[3]. وهم يعتبرون مثل هذه المواقف مهمة بالنسبة لهم حيث قالوا: ولو كان الناس يتحفظون من هذا وأشباهه لقلّ الظلم وعرف صاحبه، ولكن قد صار الأمر عند الصانع وغيره سواء في الغالب، فيسوون بين من كسبه حلال وحرام، ولا يعرجون على شيء من ذلك كله[4]، وهذا عندهم سببه التغافل عمّا أمر به الإنسان وانتظم إليه استئناس النفوس بالعوائد المحدثة مع وجود الإستشراف للزيادة من الدنيا، كما أضافوا: وينبغي له أن يحذر ممّا تقدم ذكره في حقّ غيره من الصنّاع[5].

عدم تأجيل عمل اليوم إلى الغد:

تمسّك المجلّدون هم وبقية الورّاقين بمبدأ «لا تؤجل عمل اليوم إلى غد» من دافع أخلاقي ديني ومهني وحرفي، حيث أن مبدأ الصدق في التعامل كان سمة مميّزة لأهل السوق، لذلك حذّروا من قولهم: غداً أو بعد غد، كذلك اتّحدوا على تجنّب الأيمان/ القسَم/ في التعامل مع الزبائن[6].

(1) راجع الصولي/أدب الكتّاب/ فصل ما قيل في الدواة ص92 - 100 مصدر سبقت الإشارة إليه.
(2) المدخل لابن الحاج 4/ 91.
(3) المدخل لابن الحاج 4/ 91.
(4) نفسه.
(5) نفسه.
(6) نفسه 4/ 92.

المحافظة على أوقات الصلاة:

ضمن الشروط الإسلامية على مختلف الأصناف، فإن الصلاة من الأمور الواجبة المحافظة عليها في أوقاتها، لذلك شرّعوا للمجلدين، كما للورّاقين، أنه ينبغي له، إذا سمع الآذان أن يبادر، هو ومن معه، إلى إيقاع الصلاة في وقتها المختار في جماعة[1]، وقد انطلقوا بهذا التشريع من كون الكتب التي يجلدونها تحضّ على ذلك، حيث أن أغلبها مصاحف وكتب حديث وعلوم شرعية[2].

على هذه الشاكلة، وذلك النمط، كان الورّاقون يتعاطون مهنتهم، ويتعاملون بها، فقد كانت هناك عدة أمور برزت في تعاملهم الأخلاقي، كان أبرزها التمسّك بأخلاق الإسلام، باعتبارهم ضمن دائرة الأصناف الإسلامية، ثم هناك يبرز الدافع الطبقي من مسلكيتهم الأخلاقية، إضافة إلى الصدق في التعامل، حيث أن الجديّة في العمل كانت تدفعهم إلى ذلك، إضافة إلى كونهم صنفاً فنياً مبدعاً، إنحدروا من العلماء والكتّاب والمثقفين[3]، واتخذوا الوراقة مهنة لهم، وبهذا الاعتبار، تكون المعرفة إحدى الأساسيات في صقل شخصيتهم وأخلاقهم، رغم أن الدافع الآيديولوجي المنبعث من الفكر الإسلامي، كان يلفّ كل الظاهرة ويؤطرها في إطاره.

إحترازات فنيّة:

كنّا قد تحدثنا عن الكيفية التي كان ورّاقوا بغداد يتلافون بها الخطأ إذا وقع بعد النسخ وهو (x) الضرب عليه أو (كشطه) بالسكين، ولكن ورّاقي المتصوفة، عرفوا طريقة مثلى في تلاشيء بعض الأخطاء، أو إذا تعرّض «المنسوخ» إلى وقوع «مادة» عليه كالزيت مثلاً، وهو شائع عند أهل بلاد الشام وغيرها من الأمصار الإسلامية.

يروى عن الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي/ ولد عام 560 هـ/.

أنّه (عَلَّم أحد ورّاقي بلاد الشام، كيفية تلافي الزيت الواقع على المنسوخ.

يقول أبو الثناء الحلبي: «إن رجُلاً كان في زمانه يجيد الخط، وأن بعض أمراء دمشق أعطاهُ مصحفاً بخط إبن البوّاب لينقل له منه، فبينما هو مفتوح قدّامه، في ليلة من الليالي،

---

(1) المدخل لابن الحاج 4/ 92.

(2) نفسه.

(3) سوف نبيّن ذلك في باب/ أصناف الورّاقين/.

والسراجَ يقِدْ، وهو يكتب، إذ سقط السراج، فتبدّد زيتهُ على المصحف، فأيقن الرجل بالبلاء، والصبر للقتل والجلاء، وبات بشرّ ليلة تكون، فلما أذّن للصباح، أتى المسجد الجامع ليُصلّي، فرأى إبن عربي إلى جانبه، فلما قضي ركعتي المسجد، إلتَفَتَ إليه ابن عربي بوجههِ وقال له: ما صناعتك؟ قال: أنسخ، فقال له: فإن وقع السراج وتبدّدَ زيته على شيء قدّامك، مضنونٌ بهِ، ما تصنع به حتى يذهب الزيت؟! فأكبَّ الناسخُ على يديه يقبلها ويقول: هذا والله! جرى لي البارحة، وقصَّ عليه قصّته، فضحك الشيخ وقال: لا يهُمك، خُذ عِظام الأكارع الصغار، فاحرقها واسحقها واسحق معها من سُكّر النبات، واخلطها. ثم افتح الأوراق، وذُرَّ ذلك بينها، ثم اطبق الكتاب وثقّلهُ، ودعه يوماً وليلة، ثم افتحهُ وانفضهُ، فإنه يذهب الزيت، ويعود إلى حاله الأول، قال: ففعلت، فكان كما قال»[1].

(1) راجع إبن فضل الله العُمري/مسالك الأبصار في ممالك الأمصار/ج8، ص329 - 330، تحقيق بسام محمد بارود، منشورات المجمّع الثقافي - أبو ظبي. عام 2000م

نماذج من خطوط الورّاقين من العصر العباسي

هذه المجموعة من «المخطوطات» ما زالت محفوظة حتى هذه اللحظة وهي لكُتّاب معروفين، ومودعة في مركزجمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي، وقد «إستنسخناها» من نشرة المركز المعروفة بـ«أخبار المركز»، الأعداد 1 و2 و5 لعام 2003/ والعددان 8 و9 لعام 2004م.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال العبد الفقير الى الله تعالى ابن علي بن محمد الحمد لله الذي تفرد في وحدانيته فليس
شال [illegible] وتنزه في [illegible] عن المشابه والاشكال وصلواته على سيدنا محمد المحيط بانواع
الكمال وعلى آله اقطاب الفضائل ومراكز الافضال اما بعد فلما كانت انواع المطالب
وافضلها جهتي الظن واليقين داخلة تحت البرهان والتخمين وكانت النفوس السليمة الفكر
البريئة من الشوب بالكدر ذات نزاع اولي وشوق طبيعي الى تعرف الامور اليقينية
والوقوف على البراهين الحقيقية وافضل الناس بهذه الرتبة السنية ملك الامراء و
اوحد العلماء الذي شهد بفضله الثقلان [illegible] الراي [illegible] كل [illegible] و
كل مكرمة ذو المساعي الذي قصر كل باع عن تناول [illegible] المفاخر التي قصر كل
شامخ عن [illegible] فظاهره حسن وباطنه تقي [illegible]
[illegible] الاصل والفرع [illegible] السعادة
[illegible] المالك [illegible]
[illegible] على التحقيق [illegible] المطلع [illegible] المودة
اليه [illegible] القائم [illegible]
من الاكابر والفضلاء [illegible] علوم [illegible] الظلم [illegible]

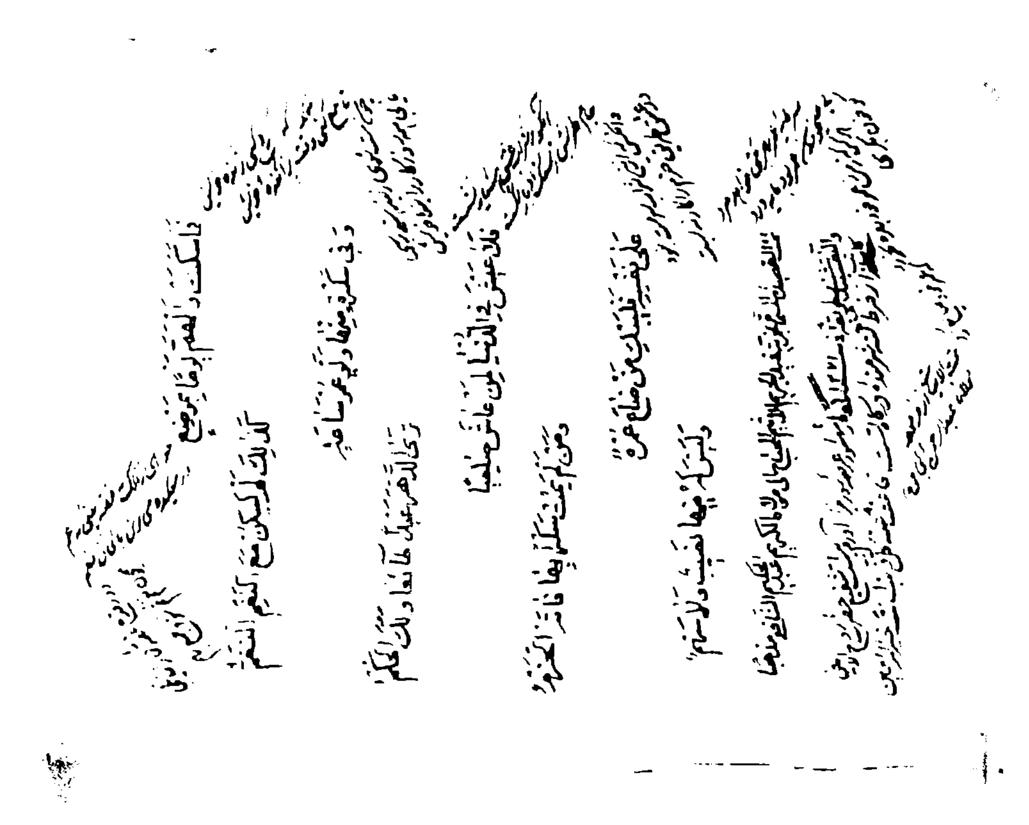
الورقة الأولى من تفسير حاشية على تلخيص المفتاح

الورقة الثانية من تفسير حاشية على تلخيص المفتاح

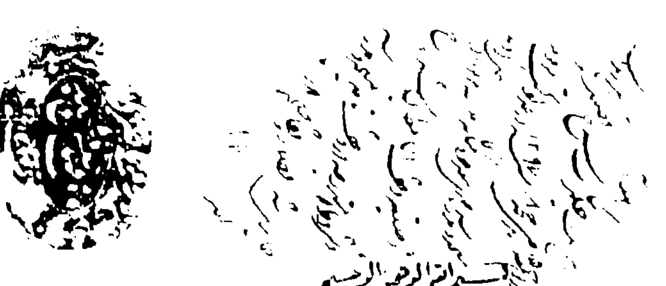
الورقة الأولى من تفسير آية (الأبرار)

الورقة الثانية من تفسير آية (الأبرار)

الورقة الأولى من عقود الجمان



الوقة الأولى من عمرة المفيد



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الفقيه الكاتب الوزير أبو مروان بن عبد الملك بن عبد الله بن [illegible]
[illegible] البلنسي رحمه الله عليه الحمد لله الملك المعبود الصمد الفرد المقصود
الرءوف الرحيم المحمود كثير الإنعام الوافر الجود المتفرد بالوحدانية والبقاء والوجود لا
مولود ولا [illegible] النعم وهو لهم ودود وأحصى [illegible] غير محصور ولا معدود
قهر فلا يحتاج إلى الأعوان والجنود واستعبد العباد بالركوع والسجود وبطش
بالجبابرة والأكاسرة [illegible] وأباد أصحاب الرس وثمود وقتل أصحاب
الأخدود وأهلك قوم عاد وأغرق قوم هود وقدر الشقاء وقسم السعود [illegible]
[illegible] كل باب مسدود وأقام البراهين على وحدانيته فلا [illegible]
[illegible] بأنامل [illegible] ونظم [illegible] عقوده في [illegible] الدفاتر والصلاة على سيد
[illegible] محمد وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد فإنه لما كانت [illegible] الفضلاء
ومنادمة الفضلاء واجبة [illegible] بنا الحديث والمذاكرة
لذكر القديم والحديث وذكرنا من درج من الأمم [illegible] الشعر أبواب
لم [illegible] قبلي [illegible] القدم وما ابتدع فيه من أنواع البديع كا
لتكافؤ والتفريع والحشو والتتبيع والتلويح [illegible] والتصدير
والتسميط والالتفات والمقابلة والإشارة والتبليغ والاستعارة
والترشيح والتجنيس والاستطراد والتقسيم والإيغال والتسهيم ثم
جلنا في ميدان [illegible] ما سواها وذكرنا [illegible] فيها

الورقة الأولى من لحمامة الزهر

الفصل السابع

معاناة الورّاقين

كثيرة هي المهن التي تخلق السأم في نفوس ممتهنيها، نتيجة الملل الناشب من تكرار العمل ذاته بشكل يومي، ولفترات طويلة، ما لم تكن هناك محفّزات نفسية للتواصل والدوام، كالاعتبارات المعنوية والمادية، فيما تكون المحفّزات المعرفية عند البعض هي الأقوى من بقية الدوافع، الأمر الذي يجعل من عشق المهنة ديدنا قائماً في ذهن صاحبها، وهذه الحالات نادرة، فيما عدا رجالات العلم كالجاحظ وأضرابه، من الذين قامت على أكتافهم وأقلامهم أساسيّات ثقافتنا العربية - الإسلامية.

والمعاناة، بمفهومها العام، يكاد معناها أن ينصّب على العوز المادي «الاقتصادي» أكثر من غيره، حيث أنه يشكّل المقوّم الأرأس للحياة، في كل فترات العمر، بالنسبة للإنسان، باعتباره الوسيلة التي يمكن بواسطتها تحقيق الكثير من الحاجات، سوى المعرفة، فإنها تؤخذ أخذاً، ونظراً لكون أدباء وعلماء العصور العباسية قد اصطدموا بهذه المعضلة، وكثير منهم، كان يأنف من الوقوف على عتبات السلطان، فقد دفع هذا بالكثيرين منهم لأن يصبحوا ورّاقين، ينالوا معاشهم من كسب اليد في مهنة الوراقة، وهو أمر يقارب بين طموحاتهم المعرفية - الثقافية، وبين حاجياتهم المعاشية، والبعض منهم كان يلجأ إلى أسلوب الإهداء في كتاباته، كي ينال قوت معاشه وأمور حياته الأخرى، قبل بدء عملية نسخ المؤلف، ومن ذلك ما قام به الجاحظ، حيث أهدى كتابه «الحيوان» إلى صديقه الوزير محمد بن عبد الملك الزيّات فأعطاه خمسة آلاف دينار، كما أهدى كتابه «البيان والتبيين» إلى ابن أبي داود فأعطاه خمسة آلاف دينار، وأهدى كتابه «الزرع والنخل» إلى إبراهيم بن العباس الصولي، فأعطاه خمسة آلاف دينار[1].

وكذلك فعل أبو الفرج الأصبهاني، حيث أهدى كتابه «الأغاني» إلى سيف الدولة ابن

(1) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 16/ 106.

حمدان فأعطاه ألف دينار[1]، وهو قليل بحقّه، وقد علّق الصاحب بن عبّاد على ذلك قائلاً: لقد قصّر سيف الدولة، وأنه يستأهل أضعافها[2]، وعلى هذا النحو كانت تسير أمور الأدباء والعلماء، وأحياناً تحتاج الدولة لمعارف أحد هؤلاء، فتكلفه بعمل ما، فيتفرغ له، ومن ذلك ما طلب إلى الجاحظ، رغم أنه كان لا يطرق باب سلطان.

وطلب التكليف يكون بمخاطبة المؤلف على لسان الوزير، فقد كتب الفتح بن خاقان، إلى الجاحظ، يطلب منه أن يؤلف كتاباً في «الرد على النصارى»، جاء في رسالته: إن أمير المؤمنين/ المتوكل/ يجدّ بك، ويهش عند ذكرك، ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك، لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه، وقد كان ألقى إليّ من هذا عنوانه، فزدتك في نفسه زيادة كفّ بها عن تجشيمك، فاعرف لي هذه الحال، واعتقد هذه المنّة على كتاب الردّ على النصارى، وأفرغ منه، عجّل به إليّ، وكن من جدا[3] به على نفسه، تنال مشاهرتك، وقد استطلقته لما مضى، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة، وهذا ممّا لم تحتكم به نفسك، وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنّام، ولولا أني أزيد في مخيّلتك لعرّفتك ما يعتريني عند قراءتها والسلام»[4].

وبهذا الانتفاع للأديب، ينتفع الورّاق في الوقت نفسه، فإذا كان العمل كبيراً اشترك فيه أكثر من ورّاق، فقد نقلت المصادر أن تاريخ ابن عساكر اشترك في نسخه عشرة ورّاقين، ودامت عملية نسخه سنتين[5].

وقد كان أغلبهم/ أي العلماء والأدباء/ من المعوزين في حياتهم، إلا أنهم يتمتعون بهمة عالية وكبر نفس لا يلين، فهذا الفيلسوف يحيى بن عدي، كان يشتغل بالنسخ كي يكفي حاجته، يقول عنه إبن النديم، وقد صادفه في سوق الورّاقين، وعاتبه على كثرة

(1) معجم الأدباء 13/ 97.
(2) المصدر السابق/ نفس المكان.
(3) جدا عليه، أعطاه الجدوى، أي النفع. راجع مادة (جدى) في القاموس المحيط.
(4) معجم الأدباء 16/ 99 - 100.
(5) عيون الأنباء في طبقات الأطباء 2/ 236 بعناية موللر - القاهرة وكونكسبرج 1882 - 1884م، وراجع كذلك: روزنتال - مناهج العلماء المسلمين/ ص12. ومن المؤسف له أن هذا العمل النفيس، والبالغ (80 مجلداً) عجزت الدولة العربية من نشره وتحقيقه، حيث لم ينشر منه سوى عشرة أجزاء تقريباً، فيما انكبّ عليه الأوائل وأكملوا نسخه بسنتين.. أوليست هذه مفارقة تحتاج للتوقف والتأمل؟!

نسخه، فقال له: من أيّ شيء تعجب في هذا الوقت! من صبري؟ قد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري، وحملتها إلى ملوك الاطراف، وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى، ولعهدي بنفسي وأنا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأقل[1]. فيما كان إبراهيم بن إسحاق بن الحربي يأنف أن يأخذ شيئاً من أحد، رغم أنه معوز ومتزوج وله أطفال، وقد عرف الناس طبعه بذلك، يقول هو عن نفسه: كان لي بيت في دهليز داري، فيه كتبي، فكنت أجلس فيه للنسخ والنظر/ وفي ذات ليلة/[2] إذا دقّ الباب، فقلت من هذا؟ فقال: رجل من الجيران، فقلت: أدخل، فقال: أطف السراج حتى أدخل، قال: فكببت على السراج شيئاً وقلت: أدخل فدخل، وترك إلى جانبي شيئاً وانصرف، فكشفت عن السراج فنظرت فإذا منديل له قيمة، وفيه أنواع من الطعام وكاغد فيه خمسمائة درهم، فدعوت الزوجة وقلت: نبهي الصبيان حتى يأكلوا، ولما كان من الغد قضينا دينا كان علينا من تلك الدراهم[3]. فأيّ صبر كان عند هذا العالم، وأي أريحية كان يتمتع بها هذا «الطارق» بحيث أنه أراد عدم كشف نفسه أمام الحربي، كي لا يحرجه، ولا يعرّف بنفسه تبجحاً، كما هو سائد اليوم.

وقد كان لبعض الأشخاص هوى في الأدب والعلوم الأخرى، لكنه غير منغمس فيها، حيث أن عمله الوظيفي أو الاداري، لا يسمح له بأن يزيد إطلاعه على العلوم والأداب، الأمر الذي يجعله أميل إلى معاشرة الورّاقين، فيدخل سوقهم ويحضر مجالسهم، وربما أغرته مهنة الوراقة، وترك عمله الأساسي وانخرط فيها، فمن ذلك ما عمله القاضي أبو عبيد علي بن الحسين بن حرب البغدادي - الفقيه الشافعي[4]، حيث تخلّى عن القضاء ومال نحو الوراقة، وكان كسبه منها 120 ديناراً في الشهر[5]، وهذا التحول عند القاضي،

---

(1) طبقات الأطباء/ ص318، من طبعة نزار رضا، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.

(2) تصرفنا بالعبارة على هذا الشكل حفاظاً على السياق، وأصلها/ فلما كان في تلك الليلة/راجع ياقوت الحموي: معجم الأدباء 1/ 115 - 116.

(3) معجم الأدباء 1/ 116. ومن الملفت للانتباه أن الناس في ذلك الوقت، لا سيّما طبقات العلماء والأدباء وأصحاب المعرفة كانوا يتفقدون أحوال بعضهم، ويهبّون إلى مساعدتهم، كما رأينا عند إبراهيم بن إسحاق الحربي، أمّا اليوم فإن الناس ينظرون بالحسد لمن تغيّر ملبسه، وحكموا على الظاهر دون الباطن، ويتسائلون: كيف يعيش؟ وما هي الجهة التي تدفع له، لا سيما في حالة المنافي، بحيث أنهم يزرعون الشكوك حوله، ولا يسدّون خلته ولا يقيلون عثرته، جنّبنا الله شرّهم.

(4) أنظر ترجمته في/ كتاب الولاة وكتاب القضاة: لأبي عمر محمد بن يوسف الكندي/ ص523 وما بعدها بعناية «رفن كست» طبعة الآباء اليسوعين، بيروت، سنة 1908/ .

(5) المصدر السابق/ ص531.

صدفة وليس ظاهرة، حيث أنه هرب من القضاء وشؤونه، أي تبديل مهنة، وهو على الوراقة حديث، لذلك كان هذا الاندفاع، وإلا لم يندفع غيره من القضاة إلى هذه المهنة؟! على أية حال، إن مهنة الوراقة أتعبت الورّاقين الذين نشأت على أيديهم، وقضوا حياتهم فيها، وعرفوا أسرارها وما تنطوي عليه، وقد كان للأدباء المعاصرين لهم معرفة بأحوالهم، وإطلاعاً على معاناتهم، نتيجة الملازمة والتردد على حوانيتهم، فهذا أحمد بن عبد الله بن حبيب المعروف بابن هفّان، يتحدث عن معاناتهم بالقول: سألت ورّاقاً عن حاله فقال: عيشي أضيق من محبرة، ، وجسمي أدقّ من مسطرة، وجاهي أرقّ من الزجاج، ووجهي عند الناس أشد سواداً من الحبر بالزاج، وحظي أخفى من شق القلم، ويداي أضعف من قصبة، وطعامي أمرّ من العفص، وشرابي أحرّ من الحبر، وسوء الحال ألزم لي من الصمغ، فقلت له: عبّرت عن بلاء ببلاء[1]، والجاحظ هو الآخر، أعرف الناس بالورّاقين، فقد كان ملازماً لحوانيتهم، ويكتريها منهم ويبات فيها، وقد اعتبر مهنة الوراقة من مهن الكهول[2]، فيما كان أبو حيّان التوحيدي، أشدّ المتذمرين من هذه المهنة، لأنها أذلّته، وقد كان كتابه «مثالب الوزيرين» شاهداً لمعاناته من هذه المهنة التي يسميها مهنة الشؤم والعسر[3]، حتى أنه قال ذات مرّة:

«طلع إبن عبّاد عليّ يوماً في داره وأنا قاعد في كسرايوان اكتب شيئاً كان كأدني[4] به، فلما أبصرته قمت قائماً فصاح بحلق مشقوق: اقعد، فالورّاقون أخسّ من أن يقوموا لنا، فهممت بكلام، فقال لي الزعفراني الشاعر: اسكت فالرجل رقيع، فغلب عليَّ الضحك واستحال الغيظ تعجّباً من خفته وسخفه»[5].

ووصل الأمر بالورّاق إلى حدّ التطيّر من هذه المهنة، نتيجة السأم والفاقة، فهذا الأعسر الورّاق ضجر منها فقال: ما خلق الله أشقى من الورّاق، ولا أشأم من الوراقة، فالألف آفة، والباء بخس، والتاء تعس، والثاء ثلم، والجيم جحد، والحاء حرقة، والخاء خوف، والدال داء، والذال ذل، والراء ريب، والزاي زجر، والسين سم، والشين شين،

---

(1) أبو إسحاق القيرواني/ زهر الآداب 2/ 200 بعناية د. زكي مبارك، المطبعة الرحمانية بمصر، والثعالبي: خاص الخاص/ ص69، وأدب الكتّاب للصولي/ ص97.

(2) الحيوان 1/ 202.

(3) معجم الأدباء 15/ 12 - 13.

(4) كأده بالشيء = كلفه به.

(5) معجم الأدباء 15/ 26.

والصاد صدّ، والضاد ضرّ، والطاء طر، والظاء ظلام، والعين عيب، والغين غم، والكاف كفر، والفاء فقر، والقاف قهر، واللام لو، والميم مرق[1] والنون نوح، والواو ويل، والهاء هوان، والياء يأس، فقيل له: فلام الألف! قال: هو والله جلم[2]، يقطع الرزق ويجلب الحرق[3].

ومن معاناة الورّاقين، التي تصادفهم في كل يوم تقريباً رداءة الخط، وهي مسألة أساسية في مهنة الوراقة، فإن الناس تقبل على صاحب الخط الجميل، على اعتبار أن الخط دليل على ما في النفوس، وما في النفوس دليل على ما في الأشياء ذوات المعاني، وما في الأشياء ذوات المعاني مدول عليه، كما ينقل ذلك الصولي[4]. ويكفي أن نشير بهذا الصدد أن حسن الخط رفع الكتّاب إلى مصاف الوزراء كابن مقلة، حتى أن ملوك الروم كانوا يعجبون بالخط العربي فقد علّق ملك الروم كتباً للمأمون بخط أحمد بن أبي خالد الأحول على جدران إيوانه[5]. لذلك كان الكتّاب والورّاقون على حدّ سواء يعتنون بخطهم، واعتبروا أن «رداءة الخط زمانة الأديب»[6]، وهذه المسألة شكلت مرارة في حياة الكتّاب والورّاقين حتى أنها كانت مجلبة للسوء، ومصيدة للتندر والهجاء، قال علي بن محمد العلوي يتذمر من قبح خطّه[7]:

أشكو إلى الله خطّا لا يبلغني ... خطّ البليغ ولا خط المرجينا
إذا هممت بأمر لي أزخرفه ... سدّت سماجته عنّي التحاسينا

وقد أصبحت رداءة الخط مشكلة فنيّة أساسيّة في ذلك العصر، الأمر الذي حدا بكبار الكتّاب إلى معالجتها، وقد أفرد أبو بكر الصولي باباً كبيراً لهذه المسألة في كتابه القيّم «أدب الكتّاب»[8] كي يتمكن عموم الأدباء في عصره من التخلص من هذا الهمّ الكبير،

---

(1) المرق: بتسكين الراء: الاهاب المتنّ، راجع اللسان: مادة مرق.
(2) الجلم = الذي يجزّ به = أي مقراض الصوف، اللسان: مادة - جلم.
(3) الثعالبي: خاص الخاص/ ص75، طبعة بيروت، دار مكتبة الحياة عام 1966، وقد ناقضه بحروف الهجاء هذه الكاتب أبو الحسين أحمد بن سعد: راجعه بنفس الصفحة عند الثعالبي.
(4) أدب الكتّاب/ ص42.
(5) الصولي/ المصدر السابق/ ص45.
(6) المصدر السابق/ ص52.
(7) الصولي/ أدب الكتّاب/ ص52.
(8) الصولي/ 41 - 57.

وهذه المسألة نظر إليها الورّاقون على أنها لازمة للخطّ، فإن حسنت حسن الحظ وإن ساءت ساء الحظ، يقول أحدهم(1):

وما الخطّ إلا الحظّ صحّف لفظه ... فإن تك ذا حظّ فإنك ذو خطّ
فبالخطّ بين الناس انك مخطىء ... وبالحظّ صوب رأي من شئت أوخطيّ

ومن هذا المنطلق، تناول المسألة الشاعر العباسي المعروف (أبي الفتح كشاجم) فقال(2):

غبط الناس بالكتابة قوما ... حرموا حظهم بحسن الكتابة
وإذا أخطأ الكتابة حظّ ... سقطت تاؤه فصارت كآبة

وقال آخر، بنفس الموضوع(3):

لا تحسبوا أن حسن الخط يسعدني ... ولا سماحة كف الحاتم الطائي
وإنما أنا محتاج لواحدة ... لنقل نقطة حرف الخاء للطاء

والملاحظ في الأمر، أن تعبيرات الورّاقين عن معاناتهم تصدر عنهم على شكل أدب رفيع، يتجلى بالنثر والشعر، ولا تثريب في ذلك عليهم، فهم أدباء بالأساس، إضافة إلى أنهم يتعاملون مع الأدب، ومختلف الفنون الأخرى، من خلال مهنتهم «الوراقة»، يقول أحد الورّاقين في شكواه(4):

أدمى البكا جفني والمآقي ... وظُلْت ذا همّ وذا احتراق
ما ان أرى في الأرض والآفاق ... أدنى ولا أشقى من الورّاق

فيما ينطلق آخر بشكواه ليعبّرعن حالة الأدب والأدباء، لا سيّما في معاناتهم الاقتصادية، حيث أن تعبير (أدركته حرفة الأدب) ذو بعد اقتصادي دال على الفقر، يوصم به الأديب المنقطع كليّاً للأدب، لذلك قال أحد الورّاقين بهذا الصدد(5):

لما أخذت حروف الخط حرفني ... عن كل حظّ وجاءت حرفة الأدب

(1) محمد طاهر الكردي/ حسن الدعابة فيما ورد عن الخط وأدوات الكتابة/ ص49، ط1 البابي الحلبي، القاهرة 1358هـ/ 1938م.
(2) المرجع السابق/ نفس الصفحة.
(3) نفسه/ ص50.
(4) الصولي/ أدب الكتّاب/ ص95.
(5) الصولي - أدب الكتّاب/ ص95.

أقوت منازل مالي حين أوطنها ... منحياً سفط الآداب والكتب

والتعبير عن المعاناة الشخصية عند الورّاق، أحياناً لا تجد صدى عند من يشكو إليهم، الأمر الذي يجعله أن يعود إلى ذاته، ويكبت معاناته في نفسه، وأحياناً تكون المعاناة ليس من مهنة الوراقة بل لمن يورّق لهم من السلاطين والوزراء وغيرهم، حيث أن هؤلاء يتعاملون بفوقية عالية من هم دونهم، لذلك ينؤون عنهم، فهذا ورّاق يخاطب قلمه، ويحاوره في معاناته، وكيف أنه يبادله شكواه ويعتمد عليه[1].

يا مجيري من سطوة الأمراء ... وعميدي في نوبة اللأواء[2]

والذي صان حرّ ديباجة الوجـ ... ـه عن الاسخياء والبخلاء

والذي لا أزال أنعت في الشـ ... ـعر وأطريه غاية الاطراء

وسفيري بما أريد من الأمـ ... ـر إلى إخوتي من الأدباء

فيما نرى ورّاقاً آخر يذمّ الوراقة ويستهزىء بقلمه يقول[3]:

أفّ لـرزق الكتبة ... أفّ لـه ما أصعبه

يرتشف الرزق بـه ... من شقّ تلك القصبه

يا قلما يرفع في الطر ... سِ لوجهي ذنبه

ما أعرف السكين الآ ... كاتباً ذا مرتبه

وقد استطاع الشريف أبو يعلي محمد بن محمد المعروف بـ«ابن الهبارية»[4] أن يعكس حالة الورّاقين ومعاناتهم، بقصيدته المخمّسة والتي يقول في أولّها:

«حي على خير العمل

تبّا لرب المحبرة... يا ويله ما أدبره

وعيشه ما أكدره... ورزقه ما أقتره

إن لم تصدقني فسل

(1) الصولي - أدب الكتّاب/ ص84.

(2) اللأواء = الشدة.

(3) محمد طاهر الكردي، حسن الدعابة/ ص50.

(4) راجع ترجمته في/ الوافي بالوفيات/ لصلاح الدين الصفدي 1/ 130 - 132، طبعة استانبول 1931م، بعناية هـ. ريتر/ وكذلك أعلام الزركلي 7/ 23، ط5/ والأبيات أوردها محمد طاهر الكردي في/ حسن الدعابة ص51.

وشكّل التعامل مع أرباب السلطة مسألة ذات أبعاد سياسية وأخلاقية، انعكست بظلّها على الورّاقين، وزادت همومهم همّاً ثقيلاً، لا سيّما إذا طلب لأحد الورّاقين العمل في بيوتات هؤلاء أو داخل دواوين الوزارة، حيث يصبح الإلتزام بالطقس الرسمي مسألة مفروضة على الورّاق في هذه الحالة، وهي قد تتعارض مع سلوكه الشخصي والعملي، وقد حدث ذلك فعلاً، ووقع الحادث مع واحد من أشهر الورّاقين في بغداد، هو علاّن الشعوبي، حيث كانت له دكان وراقة بجوار باب الشام[1]، ووصف هذا الورّاق لأحمد بن أبي خالد الأحول، الذي تولى الوزارة للمأمون، فأمر بإحضاره وأمره أن ينسخ له، فأقام في داره، ودخل الوزير ذات يوم، فقام له جميع من فيها غيرعلاّن الورّاق، فإنه لم يقم له، فقال أحمد: ما أسوأ أدب هذا الورّاق؟ وسمعه علاّن، فقال: كيف أنسب أنا إلى سوء الأدب ومنّي يتعلّم الأدب، وأنا معدنها، ولمَ أردت منّي القيام لك ولم آتك مستميحاً لك، ولا راغباً إليك، ولا طالباً منك، وإنما رغبت إليّ في أن آتيك فاكتب عندك، فجئتك لحاجتي إلى ما آخذه من الأجرة، وقد كنت بغير هذا أولى منك، ثم حلف إيماناً مؤكدة أن لا يكتب بعد يومه حرفاً في منزل أحد من خلق الله تعالى[2].

ولعبت العداوة الشخصية دوراً في زيادة هموم الورّاقين، لا سيما عند الشعراء منهم، وكان أوضح مثال لذلك هو الشاعر الورّاق السرّي الرفاء، فقد ناصبه العداوة الشاعران الخالديان[3]، ونكّدا عيشه، فقد إتهماه بالسرقة الشعرية رغم براعته ومكانته الأدبية، وأصبح بسببهما من الفقراء والمعوزين، وتحول من الرفو إلى الوراقة، وراح ينسخ، ويزيد مضاعفات عمله في النسخ، ليربح أكثر، لا سيّما في ديوان أبي الفتح كشاجم، ويضمنه من شعر الخالديين ويدعي أنهما سرقا ذلك الشعر من كشاجم[4]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أراد الانتفاع بهذه الزيادة[5]، وعندما زادت العداوة بين الرفّاء وبين الخالديين اشتدّا في إيذائه وقطعا رسمه من سيف الدولة، فانحدر إلى بغداد حتى عدم القوت، وراح ينسخ لغيره بالأجرة وركبه الدين إلى أن مات[6]، وهذه المعاناة عند السرّي الرفاء من أذى

(1) أحد الأبواب الرئيسية في بغداد أيام العباسيين.

(2) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 12/ 192 - 193.

(3) هما أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالدي، أنظر ديوانهما والمقدمة التي كتبها د. سامي الدهان من ص7 – 18 مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق 1388هـ/ 1969م.

(4) معجم الأدباء 11/ 208 ترجمة سعد بن هاشم بن سعيد.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية 11/ 274، وحبيب زيات/ الوراقة والوراقون في الإسلام ص32.

(6) الخطيب البغدادي/ تاريخ بغداد 9/ 194.

الخالديين أدت إلى تشويه ديوان كشاجم، لأنه دسّ فيه الكثير من شعرهما[1]. وهذه المسألة، أي مسألة الدس،انعكست وبالاً على مهنة الوراقة، حيث ظهر تيار صغير في سوق الورّاقين يسلك هذا المسلك، ليس للبعد الاجتماعي والاقتصادي وحسب، بل لبعد سياسي محض[2] حتى وصم هذا التيار الوراقين بـ«الخيانة» حتى قيل «إن آفات العلم خيانة الورّاقين»[3]، لذلك كان علماء الحديث يحرصون على سلامة العلم فينسخون كتبهم بأنفسهم[4]، وقد نبّه الخطيب البغدادي إلى ذلك في معرض حديثه عن ابن الخفاف الورّاق، حيث قال عنه أنه كان يركب الأحاديث ويضعها على من يرويها عنه، ويختلق أسماء وأنساباً عجيبة لقوم حدّث عنهم[5]، وهذا الأمر ينعكس سلباً على مهنة الوراقة، ويزيد من هموم الورّاقين، حيث أن أغلب الوراقة كانت تعتمد على الكتب الدينية أكثر من غيرها.

لقد انعكست المعاناة على حياة الورّاقين بشكل فظ، حتى ارتبطت هذه المعاناة باللاوعي عندهم، وتسللت إلى أحلامهم وأقضّت مضاجعهم، فهذا محمد بن أحمد الدقاق المعروف بـ«ابن الخاضبة» واحد من العلماء والحفّاظ الكبار، لازم الوراقة أغلب حياته[6]، وكان يعيل بمهنته هذه أمه وزوجه وبنته، وقد نسخ «صحيح مسلم» سبع مرات، يقول هو عن نفسه: كان ليلة من الليالي رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، ومناد ينادي: ابن الخاضبة، فأحضرت، فقيل لي: أدخل الجنّة، فلما دخلت الباب وصرت من داخله استلقيت على قفاي، ووضعت إحدى رجلي على الأخرى وقلت: آه، استرحت والله من النسخ»[7].

ووصل الأمر من سوء الحال، عند مساور الورّاق لأن يتذلّل إلى ابن ليلى/أحد رجالات عيسى بن موسى/أن يشغّله في جملة الكتّاب، فلم يفعل، فقال مساور[8]:

(1) أنظر مقدمة د. سامي الدهان لديوان الخالديين/ ص14.
(2) سوف نتحدث عن ذلك في الصفحات القادمة من هذا الباب.
(3) كثيراً ما يتردد هذا في «طبقات المالكية». راجع «الفريدة الثانية» من كتاب - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد بن مخلوف/ ص11 - 14 طبعة بالأوفست لدار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.
(4) آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في (ق 4 هـ)/ 1/ 352.
(5) تاريخ بغداد 1/ 44.
(6) أنظر ترجمته عند ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 17/ 226 - 230، الترجمة رقم 75.
(7) معجم الأدباء 17/ 228.
(8) الأغاني 18/ 149.

أراك تشير بأهل الصلاح فهل لك بالشاعر المسلم
كثير العيال قليل السوا ل عفّ مطاعمه معدم
يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة وقد حَلَقَ العام بالموسم
وأصبح والله في قومه وأمسى وليس بذي درهم

وأخذت المعاناة تتسرمد في نفوس الورّاقين، وأصبحت ملازمة للحياة اليومية، وانعكست بشعرهم وأدبهم، بل أصبحت إحدى اللوازم في الكلام، يقول عمر بن سعد بن سراج الدين الورّاق، وقد أكثر ذكر صناعته في شعره(1).

يا خجلتي وصحائفي سود غدت وصحائف الأبرار في إشراق
وموبخ لي في القيامة قال لي أكذا تكون صحائف الورّاق

وانسحب هذا الهم على العلاقات الإنسانية، فربما نفرت المرأة من حبّ الورّاق، يقول عمر بن سراج الدين أيضاً:

نصب الحشا غرضا فقرطس إذ رمى وهي القلوب سهامها الأحداق
وسألته وصلا فقال يحجّجُني ياليت شعري من هو الورّاق؟

الفصل الثامن

الوراقون والسياسة

إن التطور الاقتصادي في العصر العباسي، ، دفع بالحياة الاجتماعية إلى واجهة الصدارة، حتى صار الناس يميّزون بين ما هو سلبي وما هو إيجابي عند الخلفاء والوزراء، وسائر طبقات الناس، من منظور آيديولوجي، يستمدّ رؤاه وشرعيته من العقيدة الإسلامية ذاتها، باعتبارها المصدر الأساسي للفكر.

وحالة التفاعل الاجتماعي - الاقتصادي، تجد تعبيراتها في الحياة السياسية عند المذاهب والفِرق التي طفت على السطح وظهرت للعيان، بشكل واضح، الأمر الذي يجعل من التناقض قانوناً أساسياً يجري فعله في حياة الناس والمجتمع، وهو أمر أدركته السلطة العباسية، فراحت تأخذ بزمام المبادرة السياسية من خلال الدين الإسلامي، وحين

(1) خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي/ص245، الطبعة الأولى، مصر سنة 1304هـ.

أطلّ القرن الرابع الهجري، أصبحت النقطة الفاصلة لوقف التشريع الإسلامي وحصره في المذاهب الأربعة السنيّة، وهو أمر يشير إلى تخوّف السلطة العباسية من عامل الإبداع في الفكر، وانعكس هذا الأمر على روّاد الساحة الفكرية من فقهاء وأصحاب حديث، فالفقهاء يريدون إحياء النظريات الفلسفية والحثّ على بعضها فيما كان أصحاب الحديث يتمسكون بالسّنة القديمة، حتى أصبح العلماء الأولون كالمعصومين، وصار الفقيه لا يستطيع إصدار حكمه إلا في المسائل الصغيرة[1]، وراح الأمر أبعد من ذلك، وصار أصحاب المذاهب السنّية يضيقون على الشيعة، وعلى متكلمي المعتزلة، وظهرت نزعة التطرف عند الحنابلة في هذا الاضطهاد الفكري، فقد حاولوا منع الخطيب البغدادي من دخول المسجد الجامع ببغداد لأنه كان يذهب مذهب الأشعري[2]، ومن قبله كانوا قد ضيّقوا على محمد بن جرير الطبري، ولما توفّي سنة 310هـ/ 923 م، منع الحنابلة دفنه نهاراً واتهموه بالرفض والإلحاد، لأنه جمع كتاباً ذكر فيه إختلاف الفقهاء، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فسئل عن ذلك فقال: لم يكن فقيهاً وإنما كان محدّثاً[3].

وقد برز تياران أساسيّان على الصعيد الفكري الإسلامي في ذلك الوقت، هما: تيار أصحاب الرأي، وتيّار أصحابب القياس، وقد إنقسم الناس شيعاً حول هذين الفريقين، فيما كان المعتزلة قد سيطروا على الساحة الثقافية والفكرية في القرن الثالث الهجري، حيث كانوا طوال هذا القرن يعالجون مسائل كلامية، حتى شغلوا الناس طيلة هذا القرن، واضطّر خصومهم إلى الإجابة عنها في القرن الرابع الهجري[4]، حيث كانوا هم الفرقة الوحيدة التي أخذت تعالج الفلسفة وعلم الكلام أكثر من بقية المذاهب الإسلامية الأخرى، التي كان المسلمون منقسمين إليها في ذلك العصر وهي: أهل السنّة، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخوارج، وتحت هذه السميّات من المذاهب تندرج عدة فِرق[5]، وهذه الفِرق الإسلامية كان لها رجالها من الأدباء والعلماء والفقهاء والمتحدثين وغيرهم،

(1) راجع تفصيلات ذلك عند آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في (ق 4هـ)/ 1/ 369 وما بعدها.

(2) ابن الجوزي: المنتظم 8/ 265 - 266، وآدم ميتز، المرجع السابق 1/ 361.

(3) راجع، ابن الجوزي: المنتظم 6/ 172، وابن خلكان: وفيّات الاعيان 4/ 191 وما بعدها، وقد لاحظنا أن الذهبي، صاحب سيرأعلام النبلاء لم يترجم له بالشكل الكافي، معتبره «رافضياً» وكل ما نقل عنه لا يتجاوز السطرين، أنظر الترجمة رقم 176، من سير أعلام النبلاء 14/ 282 وراجع كذلك، آدم ميتز 1/ 370.

(4) آدم ميتز/ 1/ 333.

(5) راجع عن هذه الفرق/ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/ ص37 وما بعدها طبعة ليدن 1909، ط2.

وقد أفرد لهم ابن النديم أبواباً هامة في «الفهرست»[1]، وخصّ المعتزلة بالقسم الأول من المقالة الخامسة، وفي ضوء هذه الظواهر الفكرية - السياسية، تكون دكاكين الورّاقين هي المكان الجامع لنتاجهم الفكري والأدبي، لذلك تسرّبت أفكار هذه الفرق إلى نفوس الورّاقين وأفئدتهم، فانضووا تحت شعاراتها وساروا في ركابها وورّقوا لها[2].

وتكاد المواقف السياسية تأخذ عند الورّاقين، لا سيما الشعراء منهم شكل التندّر من هذا المذهب أو ذاك، أو من هذه الجماعة أو تلك، وعندما يصاغ هذا الموقف شعراً، فإن البعد الإعلامي فيه يأخذ مدى أوسع، نظراً لكون الناس في تلك الفترة، هم أحفظ للشعر من سواه على بقية الفنون الأدبية، لذلك كان التركيز عليه كثيراً عند الورّاقين، فمن ذلك ما قام به مساور الورّاق، وهو يسمع لغط أصحاب أبي حنيفة وصياحهم، وما يجادلون به بقية الفرق «بالقياس» كمنهج أساسي في مذهبهم، فقال يهجوهم[3]:

كنا من الدّين قبل اليوم في سعة	حتى بلينا بأصحاب المقاييس
قوم إذا اجتمعوا ضجّوا كأنهم	ثعالب ضجّت بين النواويس

ونظراً للتأثير الإعلامي للشعر، نرى أن الفرق الإسلامية تحاول إحتواء الشاعر ومهادنته، وكسب ودّه، وإلا فقد تحدث مواجهات كلامية، ووعد ووعيد، وربما كان الرد عنيفاً قد يصل القتل، فالأمر متعلق بموقع الفرقة الإسلامية وتأثيراتها، فمساور مثلاً هادنه المذهب الحنفي، ممثلاً بشخصية أبي حنيفة ذاته، وبعد أن هدده أصحابه وتوعده، وشقّ عليهم ما سمعوا، فراح يطلب رضاهم، فقال شعراً بذلك هو[4]:

إذا ما الناس يوماً قايسونا	بآبدة من الفتيا ظريفة
أتيناهم بمقياس ظريف	مصيب من قياس أبي حنيفة
إذا سمع الفقيه بها وعاها	وأثبتها بحبر في صحيفة

فبلغ أبا حنيفة ذلك فرضي. قال مساور، ثم دعينا إلى وليمة بالكوفة في يوم شديد الحر، فدخلت فلم أجد لرجلي موضعاً من الزحام، وإذا أبو حنيفة في صدر البيت، فلما

(1) راجع: الفهرست/ المقالة الخامسة/ ص245 - 280، الطبعة المصرية، حيث ذكر العشرات من أسماء الرجال.

(2) سوف نذكر تفصيلات ذلك عند الحديث عن حياة الورّاقين في الجزء الخامس من هذه الموسوعة والذي سيحمل عنوان - أعلام الورّاقين.

(3) الأغاني 18/ 151 وحبيب زيات/ الوراقة والورّاقون في الإسلام/ ص31.

(4) النواويس = مقابر النصارى - اللسان - مادة (نوس).

رآني قال: إليّ يا مساور، فجئت فإذا مكان واسع، وقال لي: إجلس، فجلست، وقلت في نفسي: نفعتني أبياتي اليوم، قال: وكان إذا رآني بعد ذلك يقول لي: هاهنا، هاهنا، ويوسّع لي إلى جنبه، ويقول: إن هذا من أهل الأدب والفهم[1].

وعلى هذا المسلك، سار الشاعر الورّاق السري الرفّاء، وربما كان أكثر خطورة من سابقة «مساور» حيث كان الرفاء معجباً بشعر كشاجم، كما أسلفنا[2] وكان ينسخ ديوانه، حيث أنه كان مغرماً به وأثناء عملية النسخ كان يدسّ أحسن ما كتبه الخالديان، للعداوة التي كانت بينهم كي يشنّع بذلك عليهم[3].

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الزنادقة كان لهم تأثير واضح في الورّاقين، فقد ذكر ابن كثير أن محمد بن أبي العوجاء كان ورّاقاً زنديقاً، وأنه اعترف على نفسه وهو تحت السيف، أنه وضع أربعة آلاف حديث، يحل فيها الحرام، ويحرّم فيها الحلال، ويصوّم الناس يوم الفطر، ويفطرهم في أيام الصيام، وقتله المنصور على الزندقة[4]، وعلى الزندقة أيضاً، أخذ أبا عيسى الورّاق، وأودع السجن حتى مات[5].

ومذاهب الورّاقين السياسية، كانت تظهر عندهم في الحديث العام، وفي النادرة، وفي الموقف المتحدي وغيرها، ومن ذلك ما رواه إبن الجوزي عن ورّاق شيعي يعرف بابن لؤلؤ، واسمه (علي بن محمد بن أحمد بن نصير بن عرفة أبو الحسن الثقفي) قال: أخبرنا أبو بكر بن ثابت قال: سمعت التنوخي يقول: حضرت عند أبي الحسن ابن لؤلؤ مع أبي الحسين البيضاوي لنقرأ عليه، وكان قد ذكر له عدد من يحضر السماع، ودفعنا إليه دراهم كنّا قد وافقناه عليها، فرأى في جملتنا واحداً زائداً على العدد الذي ذكر له، فأمر بإخراجه، فجلس الرجل في الدهليز، وجعل البيضاوي يقرأ ويرفع صوته ليسمع الرجل، فقال ابن لؤلؤ: يا أبا الحسن، أتعاطي عليّ وأنا بغدادي باب طاقي[6] ورّاق، صاحب حديث شيعي أزرق كوسج، ثم أمر جاريته أن تدق في الهاون أشناناً حتى لا يصل صوت البيضاوي بالقراءة إلى الرجل[7]. وهذه الحادثة تبيّن الإنتماء السياسي للورّاق إضافة إلى

(1) الأغاني: 18/ 152.
(2) راجع فصل، معاناة الورّاقين.
(3) حبيب زيّات/ ص42.
(4) البداية والنهاية 10/ 113، أحداث سنة 155هـ.
(5) المصدر السابق 11/ 113 في ترجمة «ابن الراوندي».
(6) باب الطاق/ من الأبواب الرئيسة في بغداد أيام العباسيين.
(7) المنتظم 7/ 140، حوادث سنة 377هـ، وحبيب زيات/ ص42.

أنها تكشف عن الظَّرف عند البغداديين الذين عرفو به في ذلك الأوان[1].

يذكر إبن أياس الأزدي أنه في سنة 145هـ أوتي بمطر الورّاق وبشير الدجّال، وكانا من الخوارج، وأدخلا على المنصور فقال المنصور لمطر: يا مطر نسيت الحرمة وطول الصحبة؟ فقال مطر: نسيناهما بنسيانك كتاب الله وسنّة رسوله، وتضييعك أمور المسلمين، قال المنصور: أفتخرج علي مع من لم تؤنس منه رشدا؟ فهذا خلاف مذهبك؟ قال: لو خرج عليك الذر وأنه أضعف الخلق لخرجت معهم حتى أؤدي ما افترض الله عليّ فيك. فقال المنصور: يابن حسنة الزانية. قال مطر: إنك تعلم أنها خير من سلامة (أم المنصور)، ولولا أنه قبيح بذي الشيبة السفه، لأعلمتك ما تكره ولا تطيق ردّه. قال المنصور: خذوه. قال: أن بعد موقفك هذا موقفاً، وأن بعد أخذتك هذه أخذة، فانظر لمن تكون العاقبة، قال: فجزع المنصور من قوله جزعاً شديداً ظهر فيه، ثم قتله[2].

وهذه الحادثة تبيّن الاشتراك الفعلي للورّاقفين في السياسة والالتزام بها/ حزبيّاً/ ، فيما عرف علاّن الورّاق بتعصّبه للفرس، وعدّ من الشعوبيين، فألّف الكتب على العرب، لا سيّما كتابه (الميدان) وكتب الشعر في مثالب العرب، وأذاعهما في مجالس بغداد دون أقل تهيّب أو تقية[3].

إذن، كانت هناك إنتماءات سياسية واضحة جدّاً عند الورّاقين، وهذا الأمر يشكل بعداً آيديولوجياً وإعلامياً خطراً، عرفت قوى المعارضة السياسية في العصر العباسي، كيف تستغله إيجابيّاً، وتتغلغل في أوساطهم، وقد كان للدهريين والفلاسفة والمتصوفة الأثر الأبلغ في هؤلاء، حتى أن الخلفاء والحكّام في ذلك العصر أخذوا يحرّمون تداول بعض المصنفات التي خشون من فتنتها، أو سوء أثرها في الدين، ففي سنة 279هـ، حلّف الورّاقون أن لا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة[4]، ولمّا قتل الحلاّج، أحضر الورّاقون وأحلفوا أن لا يبيعوا شيئاً من كتب الحلاّج ولا يشتروها[5].

لقد شكّل هذا البعد الإعلامي خطراً على الدولة العباسية، وهو أمر يشير إلى التنازع المتبادل بين قوى المعارضة وبين الخلافة العباسية، ولقد كانت المعارضة السياسية أسبق

(1) تاريخ بغداد 5/ 15، وحبيب زيّات/ ص43.

(2) تاريخ الموصل لأبي زكريا بن إياس الأزدي - الجزء الثاني ص166، مخطوط في دار الكتب المصرية تحت رقم/ 2475/ نقلاً عن حبيب زيات/ الوراقة والورّاقون/ ص43.

(3) معجم الأدباء 12/ 119، وابن النديم/ الفهرست/ ص153 - 154. وحبيب زيات/ ص44.

(4) المنتظم 5/ 122، أحداث سنة 279هـ.

(5) مسكويه: تجارب الأمم 5/ 83، وحبيب زيات/ ص45.

لكسب هؤلاء، نتيجة الواقع الطبقي للورّاقين، حيث أن أغلب إنتماءاتهم كانت ذات جذور فقيرة معدمة، من جهة، ومن جهة أخرى، كان التعارض الآيديولوجي بين أفكارهم وأفكار السلطة السياسية، هو الآخر يدفعهم للإنتماء لقوى المعارضة، إضافة إلى أن العقيدة الإسلامية كانت تحضّ بجوهرها على الزهد والعيش ببساطة، وقد شاهدنا - من خلال معاناة الوراقين - كيف كانت سبل عيشهم، ومن هنا تكون حالة الانتماء إلى المعارضة أقرب إليهم وأسوغ.

الفصل التاسع

أصناف الوراقين

أشرنا في الفصل الأول من هذا الباب، إلى الكيفية التي ظهرت بها مهنة الوراقة، وتحدثنا في بقية الفصول اللاحقة، عن مختلف جوانب الحياة المهنية والسياسية والاقتصادية للورّاقين، وفي هذا الفصل: سوف نتطرق إلى أصنافهم المتعددة في مهنة التوريق، بغية معرفة كل صنف على حدا، كي نقف على دقائق هذه المهنة الشاقة والجميلة، والتي أوجدها الأدباء لهم، وفضلوها على غيرها، لشغف كان بهم نحو الأدب والعلوم الانسانية الأخرى.

ضمن مضمونها الشامل والواسع، فإن مهنة الوراقة، تشمل على أصناف عدّة من الورّاقين، تندرج في أربعة أصناف أساسية هي:

1 - النسّاخ، ويندرج في خانتهم الغالبية العظمي من الورّاقين، الذين يمارسون عملية النسخ بأيديهم[1]، ويندرج أيضاً في خانتهم الخطّاطون[2]، وهم الفئة الفنيّة المبدعة، والمشتغلة بالحرف العربي، والتزويق والتصوير والتذهيب.

2 - باعة الورق، وسائر أدوات الكتابة، كالأقلام والحبر وغير ذلك.

3 - المجلّدون، وهم فئة أختصّت بتجليد الكتب.

4 - باعة الكتب، ويدخل في خانتهم وبابهم المنادون أو الدلالون[3].

(1) يقابلهم في عصرنا الراهن (ضاربو الآلات الكاتبة).

(2) نظراً لأهمية هؤلاء في عملية الوراقة، من جهة، وأهميتهم من الناحية التاريخية والحضارية، فسوف نفرد لهم باباً خاصّاً بهم، إضافة إلى أننا سنترجم إلى أشهرهم في الجزء الخامس من عملنا هذا.

(3) للاستزادة راجع: كوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة في العراق/ مصدر سابق/ ص 8 - 9.

1 - صنف النسّاخ:

وهم الصنف الأبكر ظهوراً من بقية الورّاقين، وقد تعلّق بمهنتهم نسخ القرآن، وبقية علوم الدين، حيث هؤلاء واكبوا البدايات الأولى للدين الإسلامي[1]، وسايروا عملية التطور السياسي والحضاري للدولة الإسلامية، فقد عرف عن مالك بن دينار[2] مولى أسامة بن لؤي بن غالب أنه كان أقدم ورّاق، حيث كان يكتب المصاحف بأجرة[3]. وعندما شمخت الحضارة العباسيّة في بغداد، كان للوراقين الدور الهام والإيجابي في مواكبة هذا الشموخ على الصعيد الثقافي والمعرفي، حتى بدأت عملية الورافة بالتخصص في نسخ العلوم، وهي خطوة علمية هامّة، حيث مال الوراقون إلى إهتماماتهم الثقافية في عملهم، مما أعطى حافزاً إبداعيّاً لعملهم في الوراقة، وكان أجل تخصص ظهر عندهم، هو في «وراقة المصاحف» حيث أنهم أوجدوا نسّاخين خاصّين بهذه المهنة، وليس ذلك فحسب، بل أوجدوا خطوطاً خاصّة بالمصاحف، منها، على ما ذكره ابن النديم: المكي، المديني، التئم، المثلث، المدوّر، الكوفي، البصري، المشق، التجاويد، السلواطي، المصنوع، المائل، الراصف، الأصفهاني، السجلي، القيراموز، ومنه يستخرج العجم، وبه يقرّون[4].

ثم ذكر أن أوّل من كتب المصاحف في الصدر الأول/ أيام بني أميّة/ والموصوفين بحسن الخط خالد بن أبي الهياج، ذاك الذي كان مختصّاً بكتابة المصاحف والشعر والاخبار للوليد بن عبد الملك، وقد طلب منه عمر بن عبد العزيز - أيام خلافته - أن يكتب له مصحفاً، فكتب له ما أراد، وتنوّق فيه، فأقبل عمر يقلبه ويستحسنه، واستكثر ثمنه فردّه عليه[5]. فيما ظهر في الدولة العباسية، من كتّاب المصاحف، خشنام البصري، ومهدي الكوفي، كانا في أيام الرشيد، فيما كان أبو حدى، يكتب المصاحف اللطاف - أيام المعتصم - وكذلك كان في زمنه من الكوفيين ابن أم شيبان، والسحور، وأبو حميرة، وابن حميرة وأبو الفرج، أما الورّاقون الذين وقف ابن النديم على خطوطهم، وعاصرهم،

(1) أنظر مقدمة الباب الرابع/ ولع العراقيين بالكتب/ من هذه الدراسة.

(2) أنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي 5/ 362 - الترجمة رقم 164، وراجع حاشية الصفحة عن مصادر ترجمته الأخرى.

(3) ابن رسته/ الأعلاق النفيسة/ ص216، وحبيب زيّات/ الوراقة والورّاقون/ ص6.

(4) الفهرست/ ص9، وسيجد القارىء تفصيلاً أكثر لاسماء وأنواع الخطوط في ج4، الخطاطون/ من هذه الدراسة.

(5) الفهرست/ ص10.

وذكر ذلك عنهم في/الفهرست/، والذين كانوا يكتبون المصاحف بالخط المحقق والمشق، فمنهم: ابن أبي حسان، وابن الحضرمي، وابن زيد، والغريابي، وابن أبي فاطمة، وابن مجالد، وشراشير المصري، وابن سير، وابن حسن المليح، والحسن بن النعالي، وابن حديدة، وأبو عقيل، وأبو محمد الأصفهاني، وأبو بكر أحمد بن نصر وابنه أبو الحسين، ويقول ابن النديم: ورأيتها جميعاً[1]، فيما ذكر السمعاني أحدهم ويعرف بأبي إسحاق إبراهيم السلمي، حيث كان يورّق المصاحف[2].

فيما اختصّ بتذهيب المصاحف من الورّاقين كل من: اليقطيني، إبراهيم الصغير، أبو موسى بن عمار، ابن السقطي، محمد، وابن محمد أبو عبد الله الخزيمي وابنه، وهؤلاء كانوا في زمن ابن النديم[3].

ويدخل في هذا الصنف من الورّاقين، نسّاخ الحديث، ونظراً لأهمية الحديث النبوي في الشريعة الإسلامية، باعتباره العماد الثاني بعد القرآن عند المسلمين، فقد صارت العناية به من الأولويات الثابتة عند الوراقين من المشتغلين بعلوم الدين، حيث أن هذا يشترط فيه أن يكون عالماً بأصول الحديث وأسانيده وأخباره وتواتره، ورجاله وعلمائه[4]، لذلك توجّب أن يكون الورّاق في هذا الصنف عالماً بالحديث، لسببين رئيسين: الأول يدخل في الإطار الديني، ومحرماته ومحللاته، حيث يوجّب الوازع الديني الثقة بالنقل والأمانة، والسبب الثاني، المحافظة على سمعه العالم الشخصية، على الصعيدين المهني والأخلاقي، حيث أن مهنة الوراقة ترتبط بهما مباشرة، لذلك كان الخطيب البغدادي، معنياً بهؤلاء أكثر من غيرهم، لا سيّما في كتابه «تاريخ بغداد» حيث يعدّ هذا الكتاب جامعاً لأهل العلم والأدب وخصوصاً علماء الحديث[5]، ونظراً لكونه (أي الخطيب) معنياً بعلوم الحديث أكثر من غيره، فقد نبّه على المخلّطين منهم من أمثال ابن الخفاف وغيره، كما نبّه على أهل الكوفة وخراسان بهذا الصدد[6]، لذلك كان الورّاقون من هذه الفئة هم أكثر الفئات شهرة وإقبالاً عند الناس، حيث كانوا يقصدونهم للسماع والحفظ عليهم، لذلك كانت دكاكينهم ملأى بالناس والروّاد عليهم من كل حدب وصوب.

(1) الفهرست/ ص10.
(2) الانساب 7/ 111 - وحبيب زيّات/ ص16.
(3) الفهرس/ ص14.
(4) أنظر فصل: المقابلة والنسخ أو منهج الوراقة، في هذا الباب.
(5) أنظر الصفحات الأولى من تاريخ بغداد 1/ 3 - 5.
(6) تاريخ بغداد 2/ 250 و1/ 44.

وضمن النسّاخ، هناك صنف يعرف بـ«الوراقين الرواة والأخباريين»، اختصّ هذا الصنف براوية الشعر وأخبار العرب وذكر أنسابهم، كهواية أدبيّة، ومهنة معاشية، وقد ذكر ابن النديم منهم عبيد الله بن أبي سعيد الوراق وقال عنه: كان إخبارياً نسّابا وراوية للشعر، وذكر أسماء كتبه التي ألّفها في هذا المجال[1]، وقد نقل أبو الفرج الأصبهاني بعض أحاديثه ومسموعاته في كتابه «الأغاني»[2]، ومن هؤلاء الورّاقين عرف: الفضل بن العبّاس وعيسى بن يحيى، وأبو محذورة، وغانم الورّاق، وعلان الشعوبي، وعثمان الورّاق، وعلي بن الحسين بن عبد السميع المرزوي، ومطير الورّاق، وعبد الله بن عمر، وابراهيم بن محمد، وابن أبي المدوّر، وعيسى بن الحسين، ذاك الذي كان أوسعهم ذكراً وحفظاً ورواية[3].

وهناك صنف آخر من الورّاقين هم/ الورّاقون العلماء والأدباء/ وهؤلاء كانوا أعلاماً في علوم اللغة والأدب وتدريس العلوم الدينية والنحو، والفلسفة والطب والترجمة، وقد اشتهر من هؤلاء: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرمّاني، حيث كان إماماً في العربية، علاّمة في الأدب، في طبقة أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي[4].

ومنهم أيضاً الحسن بن حامد بن علي بن مروان الحنبلي، وكان مدرّس أصحاب أحمد بن حنبل وفقيههم في زمانه، ومعظماً عند الناس ومقدّماً عند السلطان[5].

فيما كان محمد بن عبد الله أبو الحسن الورّاق البغدادي من العلماء المتبحرين بالنحو وعلله وله مصنّفات فيه[6]. ومنهم: محمد بن حمدون الغافقي القرطبي الأندلسي[7] وعلي بن عبد الله بن موسى السرقسطي[8]، وهذان من بلاد الأندلس، ومنهم: إسحاق بن الجنيد البزاز البصري اللغوي[9].

ومن الورّاقين النحاة: أبو الحسن محمد بن هبة الله[10]، وأبو جعفر محمد بن

---

(1) الفهرست/ ص158.
(2) حبيب زيّات/ ص17 - 18.
(3) حبيب زيّات/ ص18، وسوف نترجم لأشهر هؤلاء في الجزء الخامس من كتابنا هذا.
(4) معجم الأدباء 14/ 74 وما بعدها - وحبيب زيّات/ ص18.
(5) تاريخ بغداد 7/ 303، الترجمة رقم 3816.
(6) السيوطي - بغية الوعاة/ ص53.
(7) المصدر السابق/ ص39.
(8) نفس المصدر السابق/ ص340.
(9) حبيب زيات/ ص19.
(10) ابن الأنباري/ نزهة الألباء في طبقاء الأدباء/ ص438، طبعة مصر سنة 1294هـ.

حاتم[1] ومحمد بن الحسن الأحول ذاك العالم باللغة والشعر، والذي كان ورّاقاً ناسخاً عند حنين بن إسحاق[2].

ومن الورّاقين الأدباء: أبو الحسن علي بن المغيرة الأثرم[3]، وأبعدهم شهرة كان أبو حيان التوحيدي، وقد نعته ياقوت الحموي بـ«إمام الورّاقين» وأفرد له ترجمة طويلة[4]، ومن صنفه وطبقته كان الورّاق/أبو حفص الأصبهاني/ ذاك الذي كان يكاتب الصاحب بن عباد بديباجاته الأدبية الرائعة[5]، ويندرج في سياق هؤلاء الأدباء من الورّاقين أبو الفتح بن الحزاز وأبو بكر القنطري وأبو الحسين بن الخراساني، وهم من جلّة الأدباء، وأهل هذه الصنعة، كما يقول ياقوت[6]، ومنهم أيضاً أبو القاسم بن عقيل الورّاق، وأبو القاسم بن حبيش، وأبو إسحاق إبراهيم بن صالح، تلميذ الجوهري، حيث أنه أكمل عمل أستاذه - الجوهري - بعد أن مات، حينما وصل/ بالصحاح/ إلى باب الضاد المعجّمة، وبقيت بقية الكتاب مسودة غير منقحة ولا مبيّضة، وقد غلط فيه في عدة مواضع كما يقول ياقوت الحموي[7].

وضمن هذه المجموعة من الوراقين الأدباء يذكر الورّاق عبد الله بن محمد بن أبي الجوع، حيث أشارت المصادر إلى أنه كان إلى جانب علمه باللغة والنحو والبلاغة يشتغل بالوراقة، ويقول الشعر الجميل، وهو واحد من أصحاب المتنبي[8]، وبنفس الدرجة والقدر يأتي الوراق ابن كوجك علي بن الحسين بن علي العبسي[9].

وفي هذه الطبقة من الورّاقين، وفي صفوتها العليّة يرتسم شخص ابن النديم محمد بن إسحاق، صاحب كتاب «الفهرست» الشهير، والذي حاول الكثير من المؤرخين تجاهل اسمه لأنه كان شيعياً معتزليّاً[10]، وبمنزلته وطبقته وغزارة علمه، يأتي الورّاق الشهير ياقوت

---

(1) تاريخ بغداد 2/ 6 و9، وحبيب زيات/ ص19.
(2) معجم الأدباء 18/ 125.
(3) المصدر السابق 15/ 77 - 78.
(4) المصدر السابق 15/ 5 - 52.
(5) المصدر السابق 6/ 282 - 283.
(6) نفسه 8/ 189، وحبيب زيات/ ص21.
(7) نفسه 6/ 157، وحبيب زيات/ ص22.
(8) السيوطي/ بغية الوعاة/ ص287، وراجع كذلك د. مصطفى الشكعة/ أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين/ ص116، منشورات عالم الكتب، بيروت، ط1، 1403هـ/ 1983م.
(9) معجم الأدباء 13/ 157.
(10) معجم الأدباء 18/ 17.

الحموي، ذلك الورّاق الموسوعة الذي صنف لنا «معجم الأدباء» و«معجم البلدان» وكفاه ذلك فخراً وخلوداً[1].

هؤلاء هم الصفوة الأدبيّة الممتازة من الورّاقين الأدباء، الذين رفدوا ثقافتنا بما صنّفوه ونسخوه، وأفنوا عمرهم في الوراقة والتأليف.

وهناك صنف آخر من الورّاقين يعرف بـ«الورّاقين الدالالين» أي الوسطاء بين باعة الكتب وجمهور المشترين، تخصصوا بهذه المهنة لدافع اقتصادي أولاً، حيث كانوا يكسبون قوتهم منها، ومعرفتهم بأخبار الأدب والأدباء، وأخبار المصادر والدراية بها، ثانياً، أي أنهم أدباء بالأساس، ففيهم المؤلف والناقد والخطاط والمقوّم لأسعار الكتب، في ضوء أهميّة الكتاب وصاحبه ومنزلته[2]، يضاف إلى ذلك حسن اختيارهم للكتب التي يقعون عليها في (المناداة) واحتيازهم لها، لذلك تآلفوا مع مهنتهم وأحبوها، فهم وسطاء بين أوساط مثقّفة - الأدباء والجمهورالمتذوّق، لذلك كثيراً ما يستشارون في شراء نوعية الكتب واقتنائها، حتى عرف بعض منهم بتخصصه بجمع الطرائف، لأن عملية بيع الكتب بالنداء وهي الطريقة الشائعة في سوق الورّاقين تجعل المنادي أو الدلال مطلعاً عليها قبل غيره، لذلك يشتري ما يرده له، وبسعر مخفّض حتماً[3].

ومن هؤلاء، جامعوا الطرائف، عرف الطرسوسي الورّاق، وأحمد بن يوسف بن أبي الزهر الحلبي الملقّب بالطرائفي[4]، أما أشهر الدلالين فقد عرف دلال الكتب سعيد بن علي بن القاسم الأنصاري الحظيري، صاحب كتاب زينة الدهر وعصرة أهل العصر، والذي جعله ذيلاً على يتيمة الدهر للثعالبي، ومنهم أيضاً الدلال، عبد الرحمن بن موسى بن عمر الناسخ ابن المناديلي، وكان خيران الورّاق، أحد الدلالين المقوّمين للكتب، قيل لما مات ثعلب خلّف كتباً جليلة فأوصى إلى علي بن محمد الكوفي أحد أعيان تلاميذه، وتقدم إليه في دفع كتبه إلى أبي بكر أحمد بن إسحاق القطربلّي فقال الزجاج للقاسم بن عبد الله (الوزير) هذه كتب جليلة فلا تفوتنّك، فأحضر خيران الورّاق فقوّم ما يساوي عشرة دنانير بثلاثة، فبلغت أقل من ثلثمائة، فأخذها القاسم[5].

---

(1) سنخصه بترجمة وافية في/ أعلام الورّاقين/ من عملنا هذا.

(2) سوف نورد تفصيلات أكثرعن هؤلاء في الباب القادم/ سوق الورّاقين، فصل: كيفية بيع وشراء الكتب.

(3) اضطرني العوز، وأنا بدمشق، لأن أبيع مجموعة من كتبي حوالي/ 600 كتاب ومجلة/ فجاء أحد هؤلاء الدلالين واشتراها مني بسعر بخس لا يتعدى الليرتين لكل كتاب.

(4) أحال حبيب زيّات هذا الاسم على «الدرر الكامنة» ولم أجده في باب/ أحمد بن يوسف طبعة حيدر آباد - ط1 - الجزء الأول. راجع/ الوراقة والورّاقون لحبيب الزيات/ ص37.

(5) معجم الأدباء 5/ 127 بترجمة/ أحمد بن يحيى - ثعلب.

لقد دفعت مهنة الوراقة الى التخصص في مجالاتها المتعددة، كما أشرنا من قبل، وصار هذا التخصص يدفع بالوراقين إلى التخصص بفن واحد، أوعلم واحد، وبتقديرنا أن هذا النزوع مؤداه الدافع المعرفي عند بعض الورّاقين، لأن ما في نفوسهم من ميل نحو الأدب أو الفلسفة أو الطب، أو علوم الشريعة، هو الذي يدفعهم إلى ذلك لسببين: الأول: زيادة التحصيل الثقافي، والثاني كسب العيش بالحدّ الأدنى، حتى لا يحدث تعارض بين حبّ المطالعة والمعاش، وهم بهذه النقلة المعرفية، أبانوا لنا الكثير من غوامض العلوم والفنون التي كانوا يورّقون فيها، لذلك برز صنف متميّز بينهم لازموا العلماء والوزراء، هو ما يطلق عليه (ورّاقو العلماء والوزراء) كانوا ينتمون إليهم وينسخون ما يملون عليهم من المؤلفات والمقالات، ويتولون تحصيل ما يريدونه وتجليد ما يحتاجون إليه من الكتب والأجزاء والكراريس، وقد عرف من هؤلاء الورّاق أحمد بن محمد بن أيوب والملقّب (أبو جعفر الورّاق) فقد ذكر الخطيب البغدادي أنه كان مورّق الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك، وكان راوية لمغازي محمد بن إسحاق، وحمل الناس عنه ذلك[1]، فيما كان للجاحظ وراقان هما: عبد الوهاب بن عيسى[2]، وزكريا بن يحيى[3]، وكان للجهشياري مؤلف كتاب (الوزراء والكتاب) ورّاق يدعى أحمد بن أحمد بن آخي الشافعي[4] وكان للإمام البخاري - صاحب الصحيح - وراق هو محمد بن أبي حاتم[5] ولازم الورّاق النحوي ثابت بن أبي ثابت عبد العزيز أبو عبيد وورّق له[6]، وكان للمبرد ورّاقان اثنان كانا ينسخان له هما: ابن الزجاجي - إسماعيل بن أحمد، والساسي - إبراهيم بن محمد[7]، فيما كان دماد أبو غسان واسمه (رفيع بن سلمه بن مسلم بن رفيع العبدي) ورّاقاً لأبي عبيدة النحوي[8]، وكان أبو موسى سليمان بن محمد الحامض من ورّاقي ثعلب النحوي[9]، وكان علاّن الشعوبي ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة[10]، وذكر ابن

(1) تاريخ بغداد 4/ 393/ الترجمة رقم 2286.
(2) المصدر السابق 11/ 28 - 29.
(3) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 16/ 106.
(4) معجم الأدباء 2/ 137.
(5) تاريخ بغداد 2/ 7 بترجمة، البخاري.
(6) السيوطي - بغية الوعاة، ص210 باب الثاء.
(7) ابن النديم/ الفهرست/ ص89.
(8) الفهرست/ ص81.
(9) الفهرست/ ص117.
(10) الفهرست/ ص154.

النديم أن وكيعا القاضي يكتب لابي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب القاضي[1]، وأثبت ابن النديم جملة أسماء كانوا يورقون للكندي، ذلك الفيلسوف المشهور، منهم: حسنويه ونفطويه وسلمويه، وآخر على هذا الوزن، ولم يذكره بالاسم[2]، وكان لابن دريد - صاحب الجمهرة - ورّاقان هما: إسحاق بن الجنيد البزاز البصري الورّاق اللغوي، ويعرف بورّاق ابن دريد[3]، والآخر اسمه علي بن أحمد الدريدي، وهو الذي آلت إليه كتب ابن دريد بعد وفاته[4]، فيما كان الحسين بن عبد الله بن شاكر أبو علي السمرقندي الورّاق وأبو عبد الله الوراق المعروف بحوار يورّقان لداود بن علي خلف أبي سليمان الفقيه المعروف بالأصبهاني[5]، وورّق لحنين بن إسحاق المتطبب، الورّاق المعروف محمد بن الحسن بن دينار الأحول[6]، فيما كان الفرّاء يتخذ له اثنين من الورّاقين، هما: سلمه وأبو نصر، كما ذكر ذلك الخطيب البغدادي[7].

وهناك صنف آخر من الورّاقين هم/الوراقون العلماء بالأخبار/كانوا قليلي العدد، تطرق ابن النديم إلى أشهرهم من أمثال الأسدي ابن الحسن (محمد بن عبد الله بن صالح، وأحمد بن سهل والجرمي أبو عبد الله أحمد بن محمد وغيرهم)[8].

وهناك صنف آخر هم: الورّاقون الكتبيون، أي الذين تخصصوا ببيع الكتب، إضافة إلى أن بعضهم يمارس عملية النسخ بيده، مع الاتجار ببيع الكتب، واشتهر من هذا الصنف كل من: جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى المعروف بالوطواط[9]، ومحمد بن أحمد الدمشقي وابن شمعون الكتبي الشاعر[10]، واشتهر بدمشق محمد بن شاكر الداراني الدمشقي[11]، وشمس الدين محمد بن قاضي اليمن[12]، وأبو إسحاق إبراهيم بن شمس

---

(1) الفهرست/ ص166. (2) المصدر نفسه/ ص365.

(3) القفطي/ أنباه الرواة على أنباه النحاة/ 1/ 220 الترجمة رقم 139، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية القاهرة سنة 1369هـ/ 1950م.

(4) معجم الأدباء 12/ 223.

(5) تاريخ بغداد 8/ 58 و8/ 375.

(6) معجم الأدباء 18/ 125.

(7) تاريخ بغداد 14/ 150.

(8) الفهرست/ ص120.

(9) معجم الأدباء 19/ 29 الترجمة رقم 6.

(10) حبيب زيّات/ ص25.

(11) ابن حجر العسقلاني - الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة - ص451 - الترجمة رقم 1218 - الطبعة الأولى - حيدر آباد 1349هـ.

(12) حبيب زيّات/ ص26.

الدين الفاشوشة[1]، وأحمد بن إبراهيم الكتبي الصالحي الحنفي[2].

واستطاعت مهنة الوراقة أن تغرى مختلف الأوساط العلمية والثقافية، وتدعوهم إلى ميدانها الرحب الواسع بالعلوم والثقافة، فإضافة إلى الأصناف الآنفة الذكر، كان هناك صنف الورّاقين القضاة، وهؤلاء كانوا من مختلف المذاهب الإسلامية، وشغفهم بعلوم الدين والفقه، وبقية الفنون الأدبية، إضافة إلى زيادة في كسب المعاش، هي الدوافع التي جعلتهم يعشقون ويمتهنون الوراقة، قبل تسنّمهم منصب القضاء، وبعض منهم ترك القضاء واختصّ بالوراقة، فيما كان البعض الآخر يمارس المهنتين في آن معاً.

عرف من هؤلاء الورّاقين القضاة، محمد بن أبي الليث الاصم، كان ورّاقاً وولّيّ القضاء بمصر للمعتصم سنة 226هـ[3]، وكذلك عرف القاضي الورّاق حمزة بن علي الغلبوني[4]، ومن القضاة السود «الزنوج» اشتهر بمصر القاضي الورّاق محي الدين عبد القادر النبراوي الحنبلي، كان أقدم الحنابلة بمصر وأعرفهم بصناعة التوريق والقضاء والفقه[5].

وهناك صنف مشهور من الورّاقين هم «الورّاقون الشعراء» وهذا الصنف أميل إلى هذه المهنة، واشتهر منهم، بكر بن خارجة الكوفي[6]، وعمر الورّاق وهو (عمر بن عبد الملك)[7]، ومحمود بن حسن الورّاق البغدادي[8]، ومساور الورّاق[9]، وسهم بن إبراهيم[10]، والسرّى الرفّاء الموصلي[11]، وسعد بن علي الورّاق[12]، ويندرج في سياق الشعراء الورّاقين علي بن الحسن بن علي بن زكريا أبي القاسم، رغم أنه يعدّ أيضاً في طبقات علماء

(1) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب 6/ 104، وفيات سنة 733هـ.
(2) المصدر السابق 6/ 337، وفيّات سنة 975هـ.
(3) الكندي/ الولاة والقضاة/ ص449 تحقيق رفن كست، طبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1908م.
(4) الكندي/ الولاة والقضاة/ ص608 - 609.
(5) شذرات الذهب 8/ 159، وحبيب زيّات/ ص27.
(6) الأغاني 23/ 189.
(7) الديارات للشابشتي/ ص109 طبعة كوركيس عواد، بغداد 1951.
(8) النويري: نهاية الأرب 3/ 88، وتاريخ بغداد 13/ 88.
(9) الأغاني 18/ 149.
(10) معجم الأدباء 11/ 267، الترجمة رقم 88.
(11) معجم الأدباء 1/ 182.
(12) معجم الأدباء 4/ 116، في ترجمة أحمد بن كليب النحوي.

الحديث وفق ما يصنّفه الخطيب البغدادي[1]، وهناك ورّاقون دمجوا بين مهنة الوراقة والشعر وبيع الكتب، كما هو معروف عند شمس الدين إبراهيم بن أبي بكر بن عبد العزيز الجزري، وعمر بن محمد بن سراج الدين الورّاق المصري[2].

وأشتهر صنف آخر من الورّاقين عرف باسم «ورّاقو الأسمار والخرافات»، وهذا الصنف، على ما يبدو، كان أعرف بذوق القرّاء، وأنفذ إلى دخيلتهم النفسية، من خلال كشفه لطُرفهم وذائقتهم الأدبية، فقد عرف هذا الصنف، نتيجة خبرته الطويلة في الوراقة، ما يقبل عليه جمهور الناس من القراء والمثقفين، وما يختارونه من كتب تشبع حاجاتهم الثقافية.

ويشير ابن النديم الورّاق إلى ميل الناس، في أيام العباسيين، إلى كتب الأسمار والخرافات، حيث كانت مرغوباً فيها ومشتهاة، وخصوصاً في أيام المقتدر[3]، وهذه الإشارة صادرة من ورّاق مؤرخ، ذو حسّ عال بجماليات الفكر والأدب، لذلك قال في ضوء هذه الإشارة أن الورّاقين صنّفوا وكذبوا، فكان فيهم ممّن يفتعل ذلك، وأشار إليهم بالاسم، وهم: أحمد بن محمد بن دلاّن، وآخر يعرف بابن العطّار وجماعته[4]، وأشار إلى أسماء بارزة على الصعيد الثقافي، كانت تعمل الخرافات والأسمار على ألسنة الحيوان وغيره، وهم: سهل بن هارون، وعلي بن داود، والعتابي، وأحمد بن أبي طاهر، وعبد الله بن المقفّع[5].

ونستشفّ من ملاحظات واستطرادات ابن النديم في «المقالة الثامنة - الفرع الأول»[6] أن أقبال الناس/ كتّاباً وقرّاء/ على هذه الكتب، شكّل ظاهرة واسعة في زمانه/ النصف الثاني من (ق 4هـ)/ [7] بحيث أن أدباء وعلماء ذلك العصر ساهموا فيها بشكل واسع وملحوظ، مشيراً إلى أن أصل هذه الكتب جاء من الفرس، ونقل إلى العربية، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذّبوه ونسقوه، وصنفوا في معناه ما يشبهه، كما يقول ابن النديم[8]، أن هذه العبارة تعني أن التلاقح الثقافي بين الثقافتين العربية والفارسية، كان الدافع الإنساني

---

(1) تاريخ بغداد 11/ 384، الترجمة رقم 6257.
(2) محمد بن شاكر الكتبي/ فوات الوفيّات 3/ 140، الترجمة رقم 379، وحبيب زيّات/ ص34 - 35.
(3) الفهرست/ ص428.
(4) المصدر السابق.
(5) نفسه، وحبيب زيّات/ ص39.
(6) راجع الفهرست/ ص422 - 428.
(7) ألّف ابن النديم كتابه «الفهرست» في سنة 377هـ.
(8) الفهرست/ ص422.

والنزوع الحضاري في هاتين الثقافتين هو الذي قام بهذا الفعل، نتيجة الاختلاط الواضح والصريح والاندماج بين مختلف الشعوب، التي اتخذت من الإسلام ديناً لحضارتها ومعتقداتها الروحية. كما أن العبارة تشير إلى أهميّة الخيال العربي وإبداعاته، في هذا الفن، ويشير ابن النديم إلى أن أوّل كتاب عمل في هذا المعنى/ كتاب هزارأفسان/ ومعناه ألف خرافة(*)، ثم يشير إلى أن أوّل من سمر الاسكندر، وأن أبا عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب «الوزراء والكتاب» قام بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر، من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره، وأحضر السامرين «الرواة» وأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المصنّفة في الأسمار والخرافات ما يحلو بنفسه، وكان فاضلاً، فاجتمع له من ذلك أربعمائة وثمانون ليلة، كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر، ثم عاجلته المنيّة قبل استيفاء ما في نفسه من تتمة ألف سمر[1].

هذه الإشارة هامة جداً من الناحية التاريخية، حيث أنها تكشف عن البدايات الناضجة لتدوين الميثولوجيا العربية الإسلامية، من جهة، ومن جهة ثانية، تؤرخ إلى «بدايات الحكواتي» تلك الظاهرة التي تعيش بيننا حتى الآن، لا سيما في ليالي رمضان الجميلة في عالمنا الإسلامي، عامّة، والعربي خاصّة.

ويشير هذا الورّاق/ ابن النديم/ إلى الأدباء الأوائل والكتّاب الكبار الذين بدأوا بعمل تلك الأسمار والخرافات ويذكر أهم الكتب المؤلفة في ذلك مثل: كليلة ودمنة وسندباذ الحكيم[2]، ثم يبدأ ابن النديم بتقسيم أسماء الكتب وأسماء الشعوب التي ابتدعتها، فيبدأ بكتب الفرس التي كتبت في هذا المضمار، فيذكر: كتاب هزاردستان، وكتاب موسفاس وفينلوس، وكتاب حجد[3] حسرو، كتاب المربين، كتاب خرافة ونزهة، كتاب الدب والثعلب، كتاب روزبة اليتيم، كتاب مسك زنانة وشاه زنان، كتاب نمرود ملك بابل، كتاب خليل ودعد[4]، ثم يعرّج ابن النديم على ذكر الكتب والأسمار التي تناولت هذا الموضوع،

(*) نشير هنا إلى أهمية خصب الخيال للمثقف العربي وكيفية إبداعاته في هذا المجال، لا سيما وأنه أبدع لنا حكايات «ألف ليلة وليلة» منذ ذلك الوقت، وهي لا زالت حاضرة في وجداننا الثقافي والشعبي».

(1) الفهرست/ ص423.

(2) الفهرست/ ص423 - 424.

(3) هكذا وردت بالأصل عند ابن النديم/ ص424/ ولم أجدها في القاموس الفارسي/ باب الحاء/ للدكتور عبد النعيم محمد حسنين، منشورات دار الكتاب اللبناني ط1 - بيروت 1402هـ/ 1982م، وربما كانت «جحد».

(4) الفهرست/ ص424.

بالفارسية، ومن قام بنقلها إلى العربية فيذكر منها: كتاب رستم واسفنديار - ترجمة جبلة بن سالم، وكتاب بهرام شوس، ترجمه جبله نفسه، وكتاب شهريزاد مع ابرويزه وكتاب الكارنامج في سيرة أنوشروان، كتاب التاج وما تفاءلت به ملوكهم، كتاب دارا والصَنَمْ الذهب، كتاب اثنين نامه، كتاب خداي نامه، كتاب بهرام ونرسي، كتاب أنوشروان. ولم يذكر أسماء مترجميها[1]، وربما كان جبلة هو من قام بذلك.

أما مؤلفات الهند في الخرافات والأسمار، فيذكر منها: كليلة ودمنة، ترجمة عبد الله بن المقفع وغيره. ونقله إلى الشعرأبّان بن عبد الحميد بن لاحق الرقاشي وغيره[2]، ولهذا الكتاب جوامع وانتزاعات على جماعة منهم ابن المقفّع وسهل بن هارون، وسلم صاحب بيت الحكمة، والمريد الأسود، ومن كتبهم الأخرى كتاب سندباذ الكبير وسندباذ الصغير، وكتاب البدء، وكتاب بوماسف[3] وكتاب بوماسف[4] مفرد، وكتاب أدب الهند والصين، وكتاب هابل في الحكمة وغيره[5]، ثم يذكر كتب الروم في الاسماء والتواريخ مثل: كتاب تاريخ الروم، وكتاب سمسه ودمن، وهو على مثال كليلة ودمنة، كتاب أدب الروم، كتاب موريانوس في الادب، كتاب أنطوس السايح وملك الروم، كتاب محاورة الملك مع محمد عاربوس، كتاب ديسون وراجيل الملكين، كتاب سماس العالم في الامثال، كتاب العقل والجمال، كتاب خبر ملك لد، كتاب سطرينوس الملك وسبب تزويجه بساراد الفقصة[6]، أمّا كتب ملوك بابل، فيذكر منها: كتاب ملك بابل الصالح وإبليس كيف احتال له وأغواه، كتاب نيمرود ملك بابل، كتاب الملك الراكب القصبة، كتاب الشيخ والفتى، كتاب أرد شيرملك بابل واربوبه وزيره، كتاب لاهج بن أبان، كتاب الحكيم الناسك[7].

هذا الثبت الواسع، من أسماء الكتب، يعكس حالة الاقبال للقرّاء على تناول مختلف ثقافات الشعوب وحضاراتها المختلة والاطلاع عليها للزيادة في الخبرة والتثقيف، ويعكس بنفس الوقت، رواج مثل هذه الكتب في سوق الورّاقين، وإلا لما ذكر كله من قبل ابن النديم.

---

(1) الفهرست/ ص424.
(2) نفسه/ وهناك ذكر لبقية الأسماء التي نقلته إلى الشعر.
(3) هكذا وردت بالأصل (وربما كان هناك تكرار من قبل الوراق الذي نسخ «الفهرست»).
(4) هكذا وردت بالأصل (وربما كان هناك تكرار من قبل الوراق الذي نسخ «الفهرست»).
(5) الفهرست/ ص424.
(6) الفهرست/ ص425.
(7) نفسه.

ومن أسماء الكتب التي كانت مدار بحث وإقبال في سوق الورّاقين كتب العشاق، حيث اشتغل الورّاقون من هذا الصنف على جمعها وتوريقها والتأليف فيها، فقد عرفت روايات العشاق وكتب فيها كل من عيسى بن داب والشرقي بن القطامي وهشام الكلبي والهيثم بن عدي وغيرهم[1]. فراح الورّاقون يعيدون نشرها وبيعها، واختاروا منها الشائع أمثال حكايات: مرقس وأسماء، وكتاب عمر بن عجلان وهند، وكتاب عروة وعفراء، وجميل وبثينة، وكثير وعزّة، وقيس ولبنى، والمجنون وليلى، وتوبه وليلى، والصمّه بن عبد الله وريّا، وابن الطثرية وحوشية، وملهى وتعلق، ويزيد وحبّابة، وقابوس ومنية، وأسعد وليلى، ووضاح اليمن وأم البنين، وأميم بن عمران وهند، ومحمد بن الصلت وجنة الخلد، والعمر بن ضرار وجمل، وسعد وأسما، وعمر بن أبي ربيعة وجُماعة، والمستهل وهند، وباكر ولحظة، وملكية ونعم وابن الوزير، واحمد وداحة، والفتى الكوفي مولى مسلمة وصاحبته، وعمار وجمل وصواب، والمغمر بن مالك وقبول، وعمر بن زيد الطائي وليلى، وعلي بن إسحاق وسمنه، والأحوص وعبده، وبشر وهند، وكتاب عاشق الكف، وعاشق الصورة، وعبقرة وسحام، وإياس وصفوة، وابن مطعون ورتيلة وسعادة، وحرافة وعشرق، والمخزومي والهذليّة، وعمرو بن العنقفير ونهد بن زيد مناة، ومرّة وليلى، وذى الرمّة ومي. وغيرهم[2].

وأسماء هذه الكتب لا تزال معروفة عندنا حتى اليوم وهو أمر يوضح نزوع العربي إلى مثل هذه الأسمار وحكايا العشاق، وتناقلها من جيل إلى جيل.

ثم عرف الورّاقون من هذا الصنف ما يريده روّاد السوق من أخبارالحبائب المتطرفات فجمعوها ونسخوها وهي/ كتاب ريحانة وقرنفل، ورقيّة وخديجة، ومؤيس وذكيا، والسكينة والرباب، والعطريفة والدلفاء، وهند وابنة النعمان، وعبده العاقلة وعبده الغدارة، ولؤلؤة وشاطرة، ونجدة وزعوم، وسلمى وسعاد، وصواب ومرور، والدهما ونعمة[3].

ثم تناول الورّاقون الكتب التي ذكرت أسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم في السمر ونسخوها وباعوها[4]، ثم توقفوا عند الكتب التي ذكرت أسماء العشّاق من الأنس والجن، وذكروا منها: كتاب دعد والرباب، ورفاعة العبسي وسكر، وسعسع وقمع، وناعم بن دارم ورحيمة وشيطان الطاق، والاغلب والدباب، والضرغام وحودروفس، وعمرو ودقيانوس،

---

(1) الفهرست/ ص425.
(2) نفسه/ ص426.
(3) الفهرست/ ص427.
(4) راجعها في الفهرست/ ص427 - 428.

والشمّاخ ودمع، والخزرجي المحتال وأسما، وحضر بن النبهان والجنيّة، والدلفاء وأختوتها والجنيّ، ودعد الفزارية والجني وعمر، وعمر بن سفيان السلمي والجنية، وعمرو بن المكشوح والجنية، وربيعة بن قدام والجنية، وسعد بن عمير والنوار[1]، وكانت هذه الكتب رائجة ومطلوبة دائماً.

ومن خلال هذه المؤلفات، وما أقدم عليه الورّاقون من إبداع خيالي، خرافة كان أم حقيقة، فإن الناس - وقتذاك - كانوا على دراية وإدراك عقلي كبير، حيث أنهم كانوا يميزون بين الحقيقة والأساطير، ويعزون ذلك - إذا كان أسطورياً - إلى مبالغات الورّاقين، فقد ضربت الأمثال بهم قديماً، فقد كانوا يدسّون ما لا يصدق من الأخبار والنوادر، كما أنهم اتهموا بدّس بعض الأخبار في الكتب المنسوبة لأهل العلم، ومحاكاة رواياتهم فيها، ومن الكتب التاريخية الأدبية من هذا القبيل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، حيث نسب لإسحاق بن إبراهيم الموصلي، فقد قال حمّاد بن إسحاق الموصلي، أن هذا الكتاب قد وضعه ورّاق لأبيه بعد وفاته، وعلّق أبو الفرج بقوله: أخبرني جحظة أنه يعرف الورّاق الذي وضعه، وكان يسمّي «سندى بن علي» وحانوته في طاق الزبل وكان يورّق لاسحاق، فاتفق هو وشريك على وضعه[2].

على أية حال، إن أي ظاهرة سائدة، لا بد وأن تؤثر في محيطها، فالورّاقون جزء من ظاهرة الكتّاب في العصر العباسي، أثّرت وتأثّرت بالاجواء السائدة، سياسية كانت أو مذهبية، فلا غرو أن يتهم بعض الورّاقين بالدسّ، إذ كانت حالة الاحتراب متأججة، وتبقى مسألة الصدق والكذب نسبيّة في هذا المقام، والله أعلم - كما يقول القدماء.

بهذ ا الاستطراد، نكون قد سلّطنا الرؤية والضوء على كل أصناف الورّاقين، ما خلا الخطاطين منهم، حيث سيكون الباب القادم مفرداً لهم، آملين بهذا الرصد الاحاطة بكل الظاهرة المسماة «الوراقة والورّاقون» في العصر العباسي.

---

(1) الفهرست/ ص428.

(2) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 6/ 57 - 58 بترجمة إسحاق الموصلي، وحبيب زيّات/ ص41.

الباب السادس

سوق الورّاقين

الفصل الأول

معنى السوق وأهمّيته:

تقول العرب للموضع الذي تتمّ فيه البياعات إسم السوق، حيث يتم التعامل فيها، والاصطلاح يذكّر ويؤنّث[1]، وجمعه أسواق، ويقال: تسوّق القوم، إذا باعوا واشتروا[2]، والنسبة له (السوقي) ولم يثبتها ابن الاثير أوالسمعاني[3].

ومن هذه التعريفات اللغوية للسوق، يمكن استكشاف الأبعاد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهو أمر يخضع للتطوّر الإجتماعي لحياة الناس من جهة، ولحياة السوق ذاته، تبعاً للتطور الأول، من جهة ثانية.

والدلالة التاريخية للمدلول الاصطلاحي، تشير إلى أن السوق يخضع بوجوده إلى سمة معيّنة للقوم الذين أنشأوه، من الناحية الجغرافية - بالنسبة للمكان - ومن الناحية الثقافية - بالنسبة للعمران، ويمكن قياس مدى حالة التطور لمجتمع معيّن من خلال تطوّر حالة السوق، بمرحلة معيّنة، فالنشاط الاقتصادي، يعكس حالة المجتمع، سلباً أو إيجاباً، ضمن شروط اسلوب الإنتاج ومرحلته التاريخية، ومن الناحية الحضارية، فإن الوعي الثقافي، لشعب معيّن، ينعكس على حالة السوق من ناحية العمران، حيث أن تصميم وبناء السوق، يخضع لطقس المكان وأجوائه، فالصحراء والبوادي، تشكّل الخيام، مادتها

(1) اللسان: مادة (سوق).

(2) اللسان: نفس المادة السابقة.

(3) ابن الاثير: اللباب في تهذيب الأنساب/ ص573/ باب السين والواو، طبعة القدسي - القاهرة 357هـ. والسمعاني/الأنساب 7/ 179، باب السين والواو - وقد أشار إلى «السوّاق» وهو الذي يبيع السويقه».

الأساسية وهيكلها العام، فقد كانت أسواق العرب في الجاهلية، تلتزم بهذا النمط من أمثال سوق عكاظ، وغيره، فيما كان التطور العمراني في المدن يخضع لأبعاد أخرى أكثر تطوراً، تبعاً لتطور الحالة الاقتصادية والاجتماعية والبيئيّة بنفس الوقت، وهذه الشروط خضعت لها الأسواق الإسلامية، في مسار تطورّها التاريخي، والذي يرافق تطور الحضارة الإسلامية، حقبة بعد أخرى، حتى وصلت إلى العصر العباسي، لتخرج بحلّة أكثر بهاء، وأجود صورة، وأمسك تراصاً، وأثبت في الذهن، مسوّرة بإطار إسلامي، موشّى بزخرفة فنيّة، مستقاة من ذات الفكر الذي أنجب هذه الحضارة.

وبغداد، كعاصمة للدولة العباسية، روعي في بناء أسواقها تناسب الأبعاد الجمالية مع الهيكل العام لبناء المدينة، والذي سلك العراقيون فيه مسلكاً حضارياً وفنيّاً، حيث أن قصة بنائها يعدّ آية في الفن الإسلامي، سجلّها المسلمون في العراق بأيديهم، فقد تجاوزت بفن عمارتها كل من البصرة والكوفة وواسط، وكلنا يعرف كيف طلب المنصور من المهندسين أن يرسموا له المدينة على الأرض، حتى يعرف شكلها، فخططت له بالرماد، ووضعت فوق تلك الخطوط كرات من القطن، ثم صبّ عليها النفط واشتعلت فيها النيران، وعرف المنصور رسمها وأمر بحفر أسسها[1]، وأنشئت على شكل مدوّر، وظلّت كذلك حتى وفاة الرشيد سنة 193هـ، وقد كان لحرب الأمين والمأمون أثر في بنيانها وأسوارها[2].

وأسواق بغداد ذات أبعاد إسلامية من الناحيتين الفنيّة والمعمارية، وقد بنيت، في بادىء أمرها داخل أسوار بغداد، إلاّ أن المنصور أمر بإخراج الأسواق من داخلها، بناء على إنتقاد موفد الروم لبناء المدينة والأسواق في داخلها[3]، وبوشر ببناء الأسواق في الكرخ سنة 157هـ من مال المنصور وعلى يد مولاه الربيع[4]، كما أن المنصور انتبه إلى السكك والشوارع، حيث جعل وسع الطريق أربعين ذراعاً وهدم ما شخص من الدور عن ذلك المقدار[5].

وضمن الرؤية الجديدة للمنصور في بناء الأسواق، بعد أن أخرجها، من داخل مدينة

---

(1) أكتب هذه السطور، والأنباء تتوارد بقصف بغداد وتدميرها من قبل القوات الامريكية الغازية وحلفاءها الغربيين، ليمحوا آثارها الحضارية والثقافية والتاريخية، وهذا محال، فقد سبقهم هولاكو إلى ذلك دون أن يفلح بهذا الأمر.

(2) راجع الباب الأول من هذه الدراسة.

(3) تاريخ بغداد 1/ 78 - 80.

(4) المصدر السابق 1/ 79.

(5) نفس المصدر 1/ 80.

السلام، ارتأى مراعاة الأبعاد الهندسية في أساسات الأسواق، وأن تلحق بالأرباض[1]، ووقّع إلى كل أصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الذرع ولمن معه من أصحابه، وما قدره للحوانيت والأسواق في كل ربض، وأمرهم أن يوسعوا في الحوانيت، ليكون في كل ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة، ما يعتدل بها المنازل، وأن يسمّوا كل درب باسم القائم النازل فيه، أو الرجل النبيه الذي ينزل أهل البلد الذين يسكنونه، وحدّ لهم أن يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعاً بالسوداء[2] والدروب ستة عشر ذراعاً، وأن يبنوا في جميع الأرباض والأسواق والدروب من المساجد والحمامات، ما يكتفي بها من في كل ناحية ومحلّة[3].

هذه الأبعاد الهندسية، تكشف بين ثناياها العمق الحضاري وأبعاده، لرجل دولة مثل المنصور، وما يريده لمدينته، والحقيقة، أن نقل الأسواق إلى خارج أسوار المدينة، بهذه الطريقة، هي خطوة حضارية أولى، تقود للتوسّع العمراني، وهو ما كان فعلاً حيث توسّعت المدينة بعد ذلك، وشمل توسّعها الجانب الشرقي من دجلة (الرصافة) حيث بنيت مدينة الرصافة إلى المهدى بن المنصور سنة 159هـ[4].

الفصل الثاني

موقع سوق الوراقين

في بغداد سوقان للوراقة: الأول كان في الجانب الغربي منها - الكرخ - وهو الجانب الذي رافق إنشاء بغداد وأول رواية ذكرت ذلك الموقع والمكان، كانت رواية اليعقوبي، فقد ذكر النص التالي في معرض حديثه عن أرباض بغداد - الجانب الغربي - الكرخ، يقول: «ثم ربض وضّاح مولى أمير المؤمنين، صاحب خزانة السلاح للمنصور، وأسواق هناك، وأكثر من فيه، في هذا الوقت (ق 3هـ) الورّاقون، أصحاب الكتب، فإن به أكثر من مئة حانوت للورّاقين»[5].

---

(1) الأرباض = الساحات التي تقام ما حول المدينة، راجع مادة/ ربض/ في اللسان والقاموس.

(2) السوداء = وحدة قياس، على ما يبدو، كانت مستعملة وقتذاك.

(3) اليعقوبي = كتاب البلدان/ ص242، طبعة ليدن 1891م.

(4) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد 1/ 82.

(5) اليعقوبي: البلدان/ ص245.

وقد بنيت أسواق الكرخ سنة 156هـ[1]، ووصف اليعقوبي لها في (ق 3هـ)، أمر له دلالته التاريخية، من ناحية السبق والعمران، وقد أشارت أغلبية المراجع إلى هذا الموقع، اعتماداً على هذه الإشارة من اليعقوبي، فقد ذكر ليسترانج العبارة التالية: «وكان بين الطاق الحرّاني والقنطرة الجديدة، على نهر الصراة الورّاقون، أصحاب الكتب، وكانت سوقهم في هذه المحلة، وعلى القنطرة نفسها، ودعيت هذه السوق بسوق الورّاقين نسبة إليهم، وكان فيها أكثر من مئة حانوت للورّاقين»[2]، ووافق ليسترانج بهذا التحديد كل من مصطفى جواد وأحمد سوسة[3]، وفهمي عبد الرزاق سعد[4]، وصباح الشيخلي[5] وصالح أحمد العلي[6] وكوركيس عوّاد ودائرة المعارف الإسلامية[7].

ونحن مع هذا الجمع أميل، ونستند في ذلك إلى أسماء المواضع والأماكن الواردة في أكثر من مصدر تاريخي، فبالإضافة إلى (البلدان) لليعقوبي، هناك إشارة هامة يوردها الصولي بصدد حريق عظيم شبّ في الكرخ، يقول: «ووقع في هذا الشهر ذي القعدة سنة 333هـ، حريق عظيم من حدّ طاق التكك إلى السماكين، وعطف على أصحاب الكاغد وأصحاب النعال وذهبت النيران بأمتعة البزازين وأموال خطيرة»[8]، كما أن ياقوت الحموي يشير إلى طاق الحرّاني، على أنها محلّة ببغداد بالجانب الغربي - الكرخ - يقول عنها: أنها تمتد من حدّ القنطرة الجديدة وشارع طاق الحرّاني إلى شارع باب الكرخ، منسوب إلى قرية تعرف بورثال، والحرّاني، هذا هو إبراهيم بن ذكوان بن الفضل الحرّاني من موالي المنصور»[9].

وعلى هذا الأساس من المعطيات أن سوق الورّاقين في الكرخ هو الأقدم والأعرف وإليه أشارت أهمّ المصادر التي شهدت بناء بغداد حتى بدايات (ق 4هـ)، وأعتقد أن ابن

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 1/ 80، معجم البلدان 4/ 448 مادة (كرخ).

(2) غي ليسترانج: بغداد في عهود الخلافة العباسية/ ص88، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، ط1، بغداد 1355هـ/ 1936م.

(3) دليل خارطة بغداد/ ص86، مطبوعات المجمع العلمي العراقي 1378هـ/ 1958م.

(4) العامّة في بغداد في القرنين 3 و4 هـ/ ص158.

(5) الأصناف في العصر العباسي/ ص75.

(6) في تعليقاته على الفصل الثالث من كتاب «ليسنر» خطط بغداد في العصر العباسي ص158، الهامش رقم8.

(7) خزائن الكتب القديمة في العراق/ ص24 ودائرة المعارف الإسلامية 12/ 384 - مادة (السوق).

(8) الصولي/ أخبار الراضي والمتقي (الأوراق) ص261 بعناية ج هيورث، مطبعة الصاوي بمصر.

(9) معجم البلدان 4/ 5 - 6 مادة (طاق الحرّاني).

النديم في معرض حديثه عن الجاحظ بأنه كان يكترى دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر[1] كان يشير إلى هذا السوق، باعتبار أن الجاحظ من أعلام القرن الثالث الهجري، فيما كان ابن النديم من أعلام القرن الرابع، حيث أنه توفيّ سنة 385هـ.

أما سوق الورّاقين الثاني فقد كان في الجانب الشرقي من بغداد، أي في الرصافة وهو الأشهر والأعرف والأبقى[2]، وقد ورد كثيراً في كتابات أبي حيان التوحيدي، لا سيما - الإمتاع والمؤانسة، والمقابسات، كما أن إبن الجوزي المتوفي سنة 597هـ لم يشر إلى سوق الوراقين في الكرخ، بل ذكر هذا السوق، محدداً موقعه على الشكل التالي: «وسوق الصاغة لم يشاهد أحسن بناء منه، بناء شاهق وأساطين ساج، عليها غرف مشرفة، ثم الورّاقين سوق كبيرة وهي مجالس العلماء والشعراء»[3]، وقد جاء ذكر السوق في محلة «باب الطاق» وهذه المحلة تقع في الرصافة، كما أشار ياقوت الحموي[4]، ونسبها إلى أسماء بنت المنصور، وقال: «وعند هذا الطاق كان مجلس الشعراء في أيام الرشيد»[5]، وهذه العبارة، هي التي ضمّنها ابن الجوزي في «مناقب بغداد» وهي التي أشار إليها ياقوت الحموي تحت اسم/ طاق أسماء وطاق الحراني/، وقد كان صاحب هذه العبارة هو أبو الوفاء بن عقيل[6]، وعنه أخذت بقية المصادر المشار إليها أعلاه. ولهذا الموقع/أقصد سوق الورّاقين في الرصافة/يشير ياقوت الحموي بروايته عن حادثة الصوفي رسول الزهراء، يقول: «قال ابن عبد الرحيم: حدّثني الخالع قال: كنت مع والدي في سنة ست وأربعين وثلاثمائة وأنا صبي في مجلس الكبّوذي، في المسجد الذي بين الورّاقين والصاغة، وهو غاص بالناس»[7] وهذه الإشارة تؤكد المكان المحدّد الذي ذكره ابن الجوزي في «المناقب» أعلاه، ومن المعاصرين الذين أشاروا إلى هذا السوق حبيب زيات، رغم أنه لم يحدد موقعه وخلط بينه وبين سوق الورّاقين في الكرخ[8]. وإلى هذا السوق

(1) الفهرست/ ص169 في ترجمة «الفتح بن خاقان».

(2) لا زال موقع هذا السوق قائماً، وهو ما يعرف اليوم بـ«سوق السراى» على كتف نهر دجلة، وعند رأس جسر الشهداء من ناحية الرصافة ببغداد.

(3) مناقب بغداد/ ص26.

(4) معجم البلدان 1/ 308 - مادة (باب الطاق).

(5) المصدر السابق 4/ 5 - مادة (طاق أسماء).

(6) راجع: ابن الجوزي، مناقب بغداد/ ص25، ود. جورج مقدسي/ خطط بغداد/ ص21، وتعليقات د. أحمد صالح العلي على كتاب جورج مقدسي/ ص30، هامش رقم 35، وليسترانج بغداد في عهود الخلافة العباسية/ ص218.

(7) معجم الأدباء 13/ 292.

(8) الوراقة والورّاقون في الإسلام/ ص45.

أيضاً أشار الوهراني في مناماته[1].

وبناء على ما تقدم، فإن سوق الورّاقين الواقع في الرصافة هو السوق الذي دارت حوله روايات وأخبار المتأخرين كإبن الجوزي وياقوت وغيرهما، ورغم أننا نميل بدراستنا هذه عن سوق الوراقين في هذا الموقع، إلا أن بعض الحوادث التي سنشير إليها ربما كانت في سوق الورّاقين بالكرخ لا سيما إذا كانت في القرنين الثاني والثالث الهجريين، لأن المصادر القديمة لم تحدد ذلك بالدقة والتفصيل.

مما تقدّم من استعراض لمواقع هاتين السوقين للوراقة، واختفاء أو تضاؤل سوق ورّاقي الكرخ وانتقال نشاطه وحيويته إلى الجانب الشرقي - الرصافة - حيث نما وازدهر نشاطه، وعرف هناك واشتهر اسمه وذاع صيته، وهذه الحالة، بتقديرنا، خضعت لعدة أمور سياسية واقتصادية واجتماعية، في مسار تطورها التاريخي منها:

أن تسارع المدينة «بغداد» وتطورها الحضاري والسكاني، أملى على الساسة العباسيين أن يوسعوا من رقعتها الجغرافية فخطّت الرصافة لتكون مدينة المهدي بن المنصور سنة 151هـ وانتهى بناؤها سنة 159هـ[2].

لعبت المذاهب والفرق الإسلامية، دوراً هاماً في توسيع المدينة من جهة، ومن جهة ثانية أدت الأحداث السياسية في مسار حياة هذه الفرق، إلى تشاحنات وتطاحنات طويلة، ومؤذية، بين فرق الشيعة والحنابلة، لا سيما في الكرخ، وانعكس هذا الواقع على أسواقها، فقد أحرقت مراراً وتكراراً، والمعروف أن الكرخ موئل الشيعة كما تذكر المصادر[3]، كما أن المخرّم - منطقة بالرصافة - كانت تلقّب بكنانة السنة، كما يقول أحمد بن حنبل[4]، الأمر الذي يعني أنه أصبحت هناك، في بغداد، تجمعات جغرافية سياسية على أساس المذاهب والفرق، وهو أمر خطير، ظل أهل العراق يعانون منه حتى أوقات متأخرة من سبعينات القرن العشرين.

أثّرت الحرائق المتكررة لأسواق الكرخ في بنية ونشاط سوق الورّاقين في الكرخ، حيث أن الورّاقين هم الأكثر تضرراً من البقية، نظراً تعاملهم مع مواد سريعة الاشتعال كالورق والجلود، وما يلحق بها، فقد شهد الكرخ حرائق متعددة في أسواقه، كان أبرزها

---

(1) راجع/ منامات الوهراني/ ص1، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نعش، منشورات دار الكاتب العربي، القاهرة 1387هـ/ 1968م.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 1/ 82، وليسنر: خطط بغداد/ ص260.

(3) تاريخ بغداد 1/ 81 ومعجم البلدان 4/ 448 - مادة الكرخ.

(4) تاريخ بغداد 9/ 375 - 376 وليسنر - خطط بغداد/ ص96.

حريق سنة 307هـ حيث التهم من الدور والناس، وفي سنة 323هـ وقع حريق عظيم آخر شمل أسواق العطارين والصيادلة وأصحاب المدهون والخرّازين والجوهريين، ثم جاء الحريق الأخطر الذي شبّ في الكرخ سنة 332هـ، حيث كان عظيماً، فأحرق الأسواق من حَدّ طاق التكك إلى السماكين، وعطف على أصحاف الكاغد والنعال، وذهبت النيران بأمتعة البزازين وأموال خطرة، ونهب الخرابون والعيّارون ما سلم من الحريق[1].

وكانت بعض الوقائع الشخصية لبعض القادة والجنود، هي الأخرى تؤدي إلى إحراق الأسواق، فقد اتهم ابن عائشة وأصحابه الذين عارضوا المأمون في بغداد بإحراق أسواق العطارين والصرّافين والغرّائين وأصحاب الراه «البيوع الصغيرة»، وفي سنة 326هـ وعلى أثر جدال بين بقال وبعض جند ابن رائق أحرقت حوانيت كثيرة في سوق الثلاثاء، وفي سنة 362هـ قتل أحد رجال صاحب المعونة، بالكرخ، مما دفع بالوزير إلى تجريد حملة تأديبية ضد أهل السوق وطرح الناس، من النحاسين إلى السماكين، فاحترقت بذلك أموال عظيمة وقتلت جماعة من الناس في الدّور والحمّامات، وفي سنة 364هـ أوقع العيارون حريقاً في سوق الخشابين من باب الشعير، الكرخ، وامتد إلى الجزارين وأصحاب الحصر وصف البواري[2].

كما أن زحمة الأسواق في الكرخ وزيادة عدد السكان كان لهما الدور في إنتقال بعض الناس إلى الجانب الشرقي - الرصافة[3].

وقد يكون للجانب الأمني دوراً في عملية توسّع المدينة، حيث كان العباسيون يوزعون الاقطاعات على رجالاتهم المقربين، ويقطعونهم في الجانب الشرقي، ويمدّون بينهم وبين بيوتهم الجسور، كما فعل مع خزيمة بن خازم، صاحب الشرطة، حيث أن بيته بقرب جسر الرصافة، على الشط، ليصل إلى الكرخ.

وثمة أمر آخر، كان له التأثير الواضح في نقل سوق الورّاقين من الكرخ إلى الرصافة، هو الحروب التي تعاقبت على بغداد، وكان الكرخ مسرحاً رئيساً لأحداثها، أيام الأمين والمأمون، وما تلا ذلك من أحداث، أي يمكن القول، أن تعاقب مثل هذه الأحداث،

(1) الصولي/ أخبار الراضي والمتقي/ ص261، وابن الأثير/ الكامل في التاريخ 8/ 121، وفهمي عبد الرزاق/ العامّة في بغداد/ ص172.

(2) الصولي/ أخبار الراضي والمتقي/ ص104، والمنتظم لابن الجوزي 7/ 60 - 75. وقد ذكر أن ما احترق كان سبعة عشر ألفاً وثلثمائة دكان، وثلاثمائة وعشرين داراً وثلاثة وثلاثون مسجداً، أيام معز الدولة بن بويه.

(3) ابن حوقل/ صورة الأرض 1/ 240 - 242، واليعقوبي/ البلدان/ ص254.

أخلّ بحالة الاستقرار السياسي والاقتصادي على حدّ سواء في الجانب الغربي - الكرخ - فيما كان الجانب الشرقي - الرصافة - آخذاً بالتطور والازدهار، فقد عرفت باب الطاق، وسوق الثلاثا، وسوق يحيى، بالازدهار الاقتصادي والتجاري، حتى أن هذه المناطق أخذت تمرّ بها المواكب الرسمية في الأعياد والمناسبات الدينية والسياسية[1]، وشكّل هذا المكان، آصرة حضارية وثقافية، حيث شيّد سوق الوراقين هناك وأصبح محطّ أنظار العلماء والأدباء والوافدين على بغداد، لا سيما في بداية القرن الرابع الهجري، لأن أحداث هذا القرن، كانت وبالاً على الكرخ، لا سيّما الحرائق.

تلك هي بعض الاستنتاجات التي أمكن التوصّل إليها حول تحديد موقع سوق الوراقين في بغداد، وفي ضوء مطالعاتنا، نأمل أن نصل إلى أمور أعمق في تحديدها في مسار بحثنا هذا.

الفصل الثالث

روّاد سوق الورّاقين

أشرنا في الفصول السابقة إلى التطورات الثقافية والحضارية والعمرانية، وتوقفنا عند سوق الورّاقين وبقية الأسواق في بغداد، ولا يخفى على المتتبع معنا، حالة التطوّر الاقتصادي التي مرّت بها العصور العباسية، ولا سيّما في (ق 3هـ)، حيث نشطت الزراعة والتجارة، وامتدّ نفوذ العباسيين التجاري إلى المغرب الأقصى والأندلس، وشرق أفريقية من جهة، وإلى روسيا وحوض البلطيق من جهة ثانية، وإلى الهند والصين وكوريا من جهة ثالثة[2].

إنّ هذه التطوّرات الاقتصادية، نتيجة منطقية لتطوّر الحالة السياسية للسلطة العباسية والمجتمع العباسي برمّته، وهو أمر يعكس ظلاله على وعي الناس، وتصبح مسألة التضايف الثقافي، بين مختلف الثقافات الإنسانية أمراً مفروغاً منه.

وبغداد كعاصمة للدولة الاسلامية في العصر العباسي، فمن المنطقي أن تكون الحركة

(1) راجع الفصل الخاص بسوق الثلاثاء وباب الطاق عند ليسنر/ خطط بغداد، ص 291 - 295.

(2) د. عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي/ص69 - 70، منشورات دار الطليعة، بيروت ط2، 1978م.

العلمية والثقافية فيها مزدهرة وعلى أشدّها، وقد أوضحنا ذلك، بشكل موسّع في الباب الثاني من هذه الدراسة.

إذن ترتسم أمامنا حالة ثقافية واسعة الأطراف، وبعيدة المرامي، تبرعمت وأثمرت مع تاريخ بغداد السياسي والحضاري في أيام العباسيين، وأوجدت تعبيرات هذه الحالة في أكثر من مكان، ومحل، لا سيما في قصورالخلفاء والوزراء والأمراء، والمجالس العلمية الأخرى، ولكن أوضح نشاط لها كان سوق الورّاقين، ذلك السوق الذي يشير إلى أنه قد فاق في تأثيره الثقافي جميع الأسواق[1]، حيث أن بضاعة هذا السوق نامية باطراد، وزبائنه صفوة المجتمع المتحضّر والمثقّف من العلماء والأدباء والشعراء، وباعة هذه البضاعة هم الورّاقون، أصحاب القدح المعلى في الثقافة العربية - الإسلامية، أولئك الذين مازجوا بين رغباتهم النفسية والعقلية وبين مصدر قوتهم، لبعد معرفي واضح، فليس اعتباطاً أن يصف ابن عقيل هذا السوق بأنه «سوق كبيرة، وهي مجالس العلماء والشعراء»[2].

وإذا انطلقنا من هذه العبارة، فإن الأفق يمتد أمامنا رحباً، فيندرج في دلالة المضمون، الفلاسفة والمتكلمون، والعلماء والمحدثون، وأصحاب الكلام والصوفيون، والزنادقة والمتشددون، والقضاة ورجال السياسة، والأدباء والنقّاد، والشعراء والظرّاف، وغيرهم، وهذه التلوينات الأدبية والثقافية، يمكن للمرء أن يشاهدها يومياً في السوق، وهي تقف عند دكاكين الورّاقين أو في إحدى حلقات المنادي[3] في قلب السوق وهو يعرض بضاعته للبيع.

وبغية معرفة بعض هؤلاء الروّاد، سنحاول ذكر بعض من كان دائم التردد على هذا السوق، وفي هذا الصدد يشمخ الجاحظ أمامنا بكل قوة وجبروت، فهو قد أودع سرّه في الكتب، وفيها كان موته، وبين الورّاقين كانت شهرته وسطوته، حتى قال عنه ابن النديم وياقوت الحموي «أنه كان يكترى أسواق الورّاقين ويبيت فيها للنظر»[4]، وهذا العملاق كان واحداً من أركان الثقافة العربية الإسلامية، ماضياً وحاضراً، وقد تناقلت أخباره المصادر، وحكت عنه كتب الفقه وعلوم الدين، وحسده الأوائل والأواخر، حتى أن ثابت بن قرّة قال: ما أحسد هذه الأمة إلاّ على ثلاثة أنفس: أولهم: عمر بن الخطاب، والثاني:

---

(1) راجع بعض الاستطرادات في هذا المجال عند بدري محمد فهد في/ العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري/ ص78/ بغداد 1967م.

(2) ابن الجوزي/ مناقب بغداد/ ص26.

(3) في الفصل القادم، سوف نتطرق إلى ذلك بالتفصيل.

(4) الفهرست/ ص169، ومعجم الأدباء 16/ 75.

الحسن البصري، والثالث: أبو عثمان الجاحظ، خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومدره[1] المتقدمين والمتأخرين، أن تكلم حكى سحبان البلاغة، وإن ناظر، ضارع النظّام في الجدال، وإن جدّ خرج في مسك عامر بن عبد قيس، وإن هزل زاد على مزبّد حبيب القلوب، ومراح الأرواح، شيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة، ما نازعه منازع، إلاّ رشاه آنفاً، ولا تعرض له متعرّض إلا قدم له التواضع استبقاء، الخلفاء تعرفه والأمراء تصفه وتنادمة، والعلماء تأخذ عنه، والخاصة تسلم له، والعامة تحبّه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم، طال عمره، وفشت حكمته، ووطىء الرجال عقبه، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه، ونجحوا بالاقتداء به، لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب»[2].

ومن رواد هذا السوق في (ق 3هـ) عليّ بن يحيى المنجّم، صاحب الخزانة العظيمة التي بناها في ضيعته وسمّاها خزانة الحكمة[3].

ومن الروّاد المشاهير إبن سهل النوبختي، صاحب خزانة المأمون، وواحد من أعلام الشيعة وأعيانهم، كان يترصّد في سوق الورّاقين حركة أبي الفرج الأصبهاني، صاحب «الأغاني» حتى قال عنه: إنه أكذب الناس، لأنه كان يدخل سوق الورّاقين وهي عامرة، والدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته، ثم تكون رواياته كلها منها[4].

ومن الروّاد المشهورين أبو الفرج الأصبهاني، كان هذا الرجل شبه مقيم في سوق الورّاقين وله نوادر وحكايا في السوق[5].

ومن العلماء الذين يمكن اعتبارهم روّاداً لسوق الورّاقين، تلك الطائفة الكبير التي أوردها ابن النديم في «الفهرست» لا سيّما وأنه كان يلتقي بهم في ذات السوق، نظراً لكونه ورّاقاً معروفاً، من أمثال: واصل بن عطاء، وابي الهذيل العلاف، وابراهيم بن سيّار النظّام، وثمامة بن أشرس، وابن أبي داود، وابن الراوندي، والناشيء وأبي علي الجبائي، وعلي بن

(1) امتدر المدر: أخذه، ومدر المكان = طانه، راجع الفيروزآبادي - القاموس - مادة (مدر).
(2) التوحيدي/ المقابسات/ ص52 - 56، تحقيق حسن السندوبي، ط1، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، 1347هـ/ 1929م.
(3) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 15/ 144 - 175.
(4) الخطيب البغدادي/ تاريخ بغداد 11/ 399، ترجمة أبي الفرج رقم 6278/ .
(5) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 13/ 94 - 136، الترجمة رقم 17.

عيسى الرمّاني، وهشام بن الحكم، وشيطان الطاق، وأبي حنيفة النعمان - الإمام - والاطباء والشعراء والعلماء وغيرهم[1].

وبعد ابن النديم، يبرز الورّاق الواسع الذكر والذائع الصيت، أبو حيّان التوحيدي، وهو واحد من أعلام القرن الرابع الهجري، ليحدثنا عن طائفة كبيرة كان يلتقي بهم، ويحاورهم في سوق الورّاقين، وقد حفل كتابه «المقابسات» بالكثير من أحاديثم[2]، وكان أبرز هؤلاء العلماء، ممّن ذكرهم التوحيدي، وكان لهم الدور الأبرز في نهضة الثقافة العربية الإسلامية في (ق 4هـ) وهم: أبو سليمان السجستاني (محمد بن طاهر بن بهرام المنطقي) المتوفي سنة 357هـ/ 985م، كان هذا الرجل رأس مناطقة بغداد، عالم في الحكمة والفلسفة والمنطق، وكان مجلسه عامراً فخماً مليئاً بمختلف النشاطات الثقافية، وكان أبو حيان يسمّي هذا المجلس «مجلس الأنس»، تتلمذ على يد شيخه يحيى بن عدي وابي بشر بن متّي بن يونس القنائي، وكان السجستاني عارفاً بدقة بالفلسفة القديمة، وكتابه «صوان الحكمة» معروف ومشهور[3].

* يحيى بن عدي: المتوفي سنة 364هـ/ 975م، واحد من مشاهير الفلسفة الأخلاقيين، إنتهت إليه رئاسة المناطقة في بغداد، قرأ على الفارابي وأبي بشرمتي بن يونس القنائي، نقل إلى العربية عدداً من الكتب اليونانية عن السريانية، له مؤلفات كثيرة أشهرها «تهذيب الأخلاق»[4].

* أبو الفتح النوشجاني، أبو العبّاس البخاري، أبو الخير اليهودي، ابن الخمّار، أبو بكر الصميري[5].

* ومن المناطقة الروّاد ابن السمح (أبي علي الحسن بن السمح البغدادي المنطقي، المتوفي سنة 418هـ/ 1027م، كتب في الفلسفة والعلوم وتميّزت إنجازاته بالمنطق الذي درسه على يحيى بن عدي، وكذلك تعليقاته على كتاب «الطبيعة» لأرسطو، ويعدّ من أفاضل

---

(1) راجع فهرست الاعلام عند ابن النديم في/ الفهرست/ ص517 - 528.

(2) سوف نبيّن ذلك في فصل «مجالس العلماء في سوق الورّاقين».

(3) المقابسات: نشره محمد توفيق حسين/ ص492 - 496، مطبعة الإرشاد، بغداد 1970، وكذلك يراجع د. عبد الأمير الاعسم/ أبو حيّان التوحيدي في المقابسات/ ص249، إصدار دار الأندلس، ط1، بيروت 1400هـ/ 1980م.

(4) الأعلام للزركلي 8/ 156 وأخبار الحكماء للقفطي/ ص236 - 237.

(5) راجع عن هؤلاء: فهرست المقابسات/ نشرة توفيق حسين/ ص492 - 496 حيث يشير إلى تراجم بعضهم.

المشتغلين بالفلسفة والمنطق في مدرسة بغداد خلال النصف الثاني من (ق 4هـ)[1].

* ومن الروّاد الذين جالسهم التوحيدي وقابلهم في سوق الورّاقين كل من: البديهي - النحوي، والخوارزمي الكاتب، وأبو القاسم الانطاكي المعروف بالشيخ المجتبى، وماقية المجوسي، وأبو بكر القومسي، وأبو محمد العروضي، وابو إسحاق النصيبي، ونظيف الرومي، ووهب بن يعيش، وأبو سعيد السيرافي[2].

* ومن الأعلام البارزين، الذين كانوا من أبرز روّاد سوق الورّاقين، أبو إسحاق الصابىء (إبراهيم بن هلال) كان نابغة عصره في الأدب، وقد تقلد دواوين الرسائل للمطيع ولمعزّ الدولة، وعزّ الدولة[3]، كما أن التوحيدي عاصر ابن مسكوية الفيلسوف الأخلاقي المعروف، والمؤرخ والباحث المشهور، وهو واحد من كبار الفلاسفة في الإسلام، وآرائه تتجلى واضحة في كتابه الشهير «تهذيب الأخلاق»[4].

* كما تكشف «المقابسات» أسماء أخرى التقاهم التوحيدي في السوق، من أمثال أبي الحسن العامري، وثابت بن سنان، وابن سوار، وابن زرعة، وعيسى بن علي بن عيسى الجراح، وأبي بشر متي بن يونس، وأعلام غيرهم، ناهيك عن جمهور المعتزلة ورجالاتهم الذين كان السوق ساحة عمل أدبي وفكري لهم.

لقد استرعى سوق الورّاقين انتباه العلماء والأدباء والفرسان والقادة، نظراً لماله من سمعة طيبة في عقول الناس، حتى أن المهلّب كان يوصي بنيه بأن لا يقيموا في الأسواق إلا على زرّاد أو ورّاق[5]، وواصلت شهرة سوق الورّاقين إمتداداتها التاريخية حتى أن أهل الاندلس تعاطوا معها إيجابيا، وبشكل حضاري، وكيف لا، وهم مقلدون لأهل المشرق، وصارت الأمثال تضرب في كل حرفة ومهنة، حتى قيل: جلوس الأدباء عند الورّاقين، وجلوس المخمنين عند النخاسين، وجلوس الطفيلين عند الطباخين[6]، ولا أدلّ على ذلك من ذكر تلك الأسماء الأعلام الذين كانوا من نوابغ (ق 4هـ)، فكل واحد منهم هو فرد في صناعته[7].

---

(1) عبد الأمير الأعسم/ المرجع السابق/ ص253.
(2) المرجع السابق/ ص131 132.
(3) توفيق حسين: المقابسات/ ص116، هامش رقم 2، والزركلي: الأعلام 1/ 78.
(4) الزركلي/ الأعلام 1/ 211 - 212.
(5) الجاحظ: الحيوان 1/ 52.
(6) ابن عبد ربّه الأندلسي/ العقد الفريد 4/ 199.
(7) محمد كرد علي/ أمراء البيان/ ص529.

فليس اعتباطاً أن ينتبه التوحيدي إلى حركة هؤلاء الرواد في سوق الورّاقين، وما يناقشونه في جلساتهم عند الورّاقين، حيث تحولت دكاكينهم إلى منتديات أدبية، لذلك كان التوحيدي، عيناً راصدة معرفياً، وما كتاب «المقابسات» وغيره إلا دليلاً على سعة الظاهرة الأدبية في السوق.

وثمة ملاحظة هامة تتوجب التوكيد، أن الكثير من الوراقين كانوا أميل إلى صفوف المعارضة السياسية، كما أوضحنا من قبل، لذلك يكون نشاط السوق أكثر تأثيراً، لأن المخاطب فيه عقول فكرية وأدبية وثقافية، ولهذا السبب، بتقديرنا، بثّ إخوان الصفا «رسائلهم» في دكاكين الورّاقين، وأخفوا أسماءهم فيها[1].

ويمكن القول أن سوق الورّاقين وروّاده من رجالات الفكر والأدب، شكلوا ظاهرة متميّزة أغنت الحياة الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية، على حدّ سواء، نظراً للتلاقح المعرفي الذي كانت تموج به الحياة العقلية في بغداد في العصر العباسي، وسوف يظهر ذلك بصورة أوضح في الفصول القادمة من البحث.

الفصل الرابع

كيفية بيع الكتب في سوق الورّاقين

ليس عبثاً أن يشير اليعقوبي إلى أن سوق الورّاقين كان فيه أكثر من مئة حانوت[2]، فهذه الإشارة واضحة الدلالة على أن تجارة الكتب، واحدة من التجارات الرابحة من الناحية الاقتصادية، والرائجة من الناحية الثقافية والحضارية، فمتطلبات العلماء والأدباء من الورق وأدوات الكتابة، ونسخ ما يحتاجون نسخه، مسألة تحتاج إلى من يلبي أمرها، فكان سوق الورّاقين هو المكان الأرحب لذلك، لكونه متخصصاً ببيع هذه المتطلبات الثقافية والعلمية، لذلك كان مرتادوه يجدون كل ما يحتاجون إليه.

ونظراً لكون الكتاب هو البوصلة الأكثر دلالة والأكثر طلباً ورواجاً، فإن باعة الكتب

(1) أنظر: مقدمة أحمد زكي باشا لرسائل إخوان الصفا/ ص22، الطبعة المصرية 1347هـ/ 1928م، وراجع: التوحيدي/ الامتاع والمؤانسة 2/ 2 - 6/ الليلة السابعة عشرة/ نشرة أحمد الزين وأحمد أمين، القاهرة 1942م.

(2) البلدان/ ص245.

«الوراقون أصحاب الدكاكين» كانوا يلزمون المشتغلين عندهم من الوراقين بهذه المهمة، فكان الدلالون هم الأعرف ببيع هذه الكتب، حيث أن عملية بيع الكتب كانت تجري داخل السوق على شكل «نداء» علني، يقوم المنادي، وهو الورّاق الدلال بكل ما يتطلب من ذلك حيث أنه يقوم بعرض الكتاب أمام الجمهور، ويكون موضعه في مكان مرتفع في المكان الذي ينادي عليه، ثم يقرأ اسم الكتاب ومؤلفه، وعدد صفحاته، ويقرأ بعض العبارات من فصوله، ويقدّم ما هو أمتع وأجمل وأوقع في نفس السامع، زيادة في الاقبال على الشراء[1]، وأحياناً يدخل المنادي عنصر المفاكهة في عملية النداء، كي يسترعي إنتباه العلماء والنحويين، بحيث أنهم يشتركون بالفرجة والجمهرة، وتصبح عملية البيع أشبه بالندوة الأدبية والفكرية، فهذا يعلّق، وذاك يصحح، وآخر يقرظ، ورابع يلحن، وخامس يراجع، والأعناق مشرئبة نحو المنادي، وعندما يزداد اللغط والهرج، يفتح باب «المزاد» لشراء الكتاب، بحيث أن الدلال، بهذه العملية، كان قد قام بمزج آراء الناس كافة، علماء وأدباء ونقّاد وزبائن عاديين، وقام بنفس الوقت بدعاية واضحة للكتاب، استشفّ من خلالها مدى الاقبال على بضاعته أولاً، واستطاع أن يخمّن سعراً جيداً لهذا الكتاب أو ذاك، ويلعب اسم المؤلف وشهرته دوراً بارزاً في عملية البيع بالنداء، وثمة نادرة طريفة في هذا السياق يوردها السيوطي في ترجمة «محمد بن محمد بن عبد الرحمن... بن القويع»[2]، يقول إبن سيد الناس: لما قدم/القويعي/ قعد في سوق الكتب، والشيخ بهاء الدين بن النحاس هناك، ومع المنادى، ديوان ابن هانىء، فنظر فيه ابن القويع فترنم بقوله/ يقصد بقول ابن هاني/: «فتكات لحظك أم سيوف أبيك... وكؤس خمرك أم مراشف فيك».

فقرأه بالنصب في الجميع، فقال له ابن النحّاس: يا مولانا، هذا نصب كبير، فقال له بنترة: أنا أعرف الذي تريد من رفعها، على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة، والذي أنا ذهبت إليه أغزل وأمدح، وتقديره أقاسي فتكات لحظك. فقال له: يا مولانا، فلم لا تتصدر وتشغل الناس؟ فقال: وايش هو النحو في الدنيا حتى يذكر[3].

وعلى هذا الأساس في «النداء» بيعت الكثير من الكتب، وقد لعب اسم المؤلف دوراً هاماً في رفع سعرها، فتذكر المصادر أن مسوّدة «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني أخرجت إلى سوق الورّاقين، وبيعت في «النداء» بأربعة آلاف درهم، وأن أكثرها في ظهور

---

(1) سوف نرى - في الجزء الخامس من هذه الدراسة - عند الترجمة عن الدلالين - كيف يؤدون عملهم.
(2) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة/ ص97.
(3) السيوطي/ المصدر السابق/ ص97.

وبخط «التعليق» - وأنها اشتريت لأبي أحمد بن محمد بن حفص. قال أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد، فأنفذت إلى «ابن قرابة» - ربما كان الدلال الذي باعها - وسألته إنفاذ صاحبها لابتاعها، فأعلمني أنها بيعت، وأرسلت إلى ابن حفص، فأنكر أنه يعرف شيئاً من هذا، فبحثت كل البحث فما قدرت عليها[1]، فيما بعث سيف الدولة الحمداني موفداً إلى سوق الورّاقين ليباع له كتاب الأغاني، ودفع بحقه ألف دينار، وعندما بلغ الصاحب بن عبّاد ذلك قال:

لقد قصّر سيف الدولة، وأنه يستأهل أضعافها[2]، حيث أن هذه النسخة كانت المرة الوحيدة التي كتبها أبو الفرج بيده وأهداها لسيف الدولة. وقد كان أبو الفرج قد جمع هذا العمل في خمسين سنة[3].

ويلعب الدلال دوراً هاماً في عملية إخفاء بعض المخطوطات والكتب النادرة، حيث أنها تعرض عليه أولاً، فيختار منها لنفسه ما يشاء، ويعرض الآخر للبيع، فمن ذلك ما ينقله ياقوت: أن أبا سعيد عمر بن أحمد الدينوري الوراق، قد وقع على أهم كتب الطبري وهو «كتاب أدب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة» أملى منه الطبري حوالي خمسمائة ورقة «أربعة أجزاء» ولم يخرجها للناس في الإملاء، وخرج بها الدينوري الوراق إلى الشام وانتفع بها[4].

وتلعب المصادفة، هي الأخرى، دوراً ذا أهمية في عملية شراء أو بيع الكتب، وهي تتوقف على الحاذق في معرفة أهمية الكتاب ومضمونه، وينقل البيهقي خبراً مفاده أن ابن سينا - الفيلسوف الإسلامي المعروف، كان قبل شهرته في سوق الورّاقين فعرض عليه الدلال محمد كتاباً ينادى عليه فردّه/ أبو علي بن سينا/ ردّاً متبرماً، معتقداً أن لا فائدة في هذا العلم، فقال الدلال: اشتر مني فإنه رخيص بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه، فاشتراه فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي الفيلسوف - المعلم الثاني في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، قال ابن سينا: فرجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته فانفتح عليّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب، بسبب أنه كان لي محفوظاً، ففرحت بذلك وتصدقت بشيء كثير على الفقراء[5]. وهذه الحادثة تشير إلى أن هناك بعض الناس لا يدركون أهمية ما في بطون

---

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 13/ 126 - 127.

(2) معجم الأدباء 13/ 97.

(3) المصدر نفسه 13/ 98.

(4) معجم الأدباء 18/ 77.

(5) ظهيرالديني البيهقي/ تاريخ حكماء الإسلام/ ص55 - 56/ نشرة محمد كرد علي، مطبعة الترقي، دمشق 1365هـ/ 1946م.

الكتب من جهة، ومن جهة ثانية، يظهر التفاوت المعرفي بين إنسان وآخر، ويظهر أيضاً أن طلاب العلم والمعرفة دائماً كان يفتقرون للمادة، والعوز ظاهرعليهم تاريخياً، وهناك نادرة جميلة اعتمدت على مبدأ الفطنة والذكاء في شراء الكتب، يوردها الخطيب، يقول: إن المتنبي أكثر ملازمة الورّاقين، وأن الورّاق الذي كان يجلس إليه قال يوماً: ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان قط، قال: كان اليوم عندي، وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعي، سمّاه الورّاق ونسبه أبو الحسن العلوي الزيدي، صاحب الحديث والرواية التي ينقلها الخطيب - ويتألف ذلك الكتاب من ثلاثين ورقة ليبيعه، قال: فأخذ «المتنبي» ينظر فيه طويلاً، فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه، من هذه المدة فبعيد، فقال له: وإن كنت حفظته فمالي عليك؟! قال: أهبُ لك الكتاب، فقال الوراق: فأخذت الدفتر من يده، فأقبل يتلوه عليَّ إلى آخره، ثم استلبه فجعله في كمّه وقام، فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن، فقال المتنبي: ما إلى ذلك سبيل، قد وهبته لي! قال فمنعناهُ منه وقلنا له، أنت شرطت على نفسك هذا للغلام فتركه عليه(1).

وقد يقوم الدلالون بمشاهدة خزائن للكتب ويقيمونها، وربما ارتشوا، لسبب أو لآخر، حيث أنهم في هذه الحالة يتركون سوق الورّاقين ويتجهون إلى المكان المراد تقييم تلك الكتب فيه، ومن ذلك ما قام به خيران الورّاق عندما قام بتخمين مكتبة ثعلب النحوي بعد وفاته، حيث طلب منه الوزيرالقاسم بن عبيد الله فقوّم ما كان يساوي عشرة دنانير ثلاثةً، فبلغت أقل من ثلاثمائة دينار(2)، وهذا التخمين، بتقديرنا، خضع إمّا لرشوة مالية، وأما لخوف من سلطة الوزير المذكور، وبكلتا الحالتين فإن هذا الورّاق قد خرق المبدأ الأخلاقي الذي رسمه الورّاقون لأنفسهم(3).

ومن الخزائن التي بيعت في الدلالة بأبخس الأثمان، تركة الطبيب الأسلمي أسعد بن المطران، وفيها ألوف كثيرة من الأجزاء الصغار، بيعت في المناداة بثلاثة آلاف درهم(4) فيما حصلت واقعة لبيع كتب بعكس هذه تماماً، فقد حكى يحيى بن عدي أن كتابين من شرح الاسكندر، للسماع ولكتاب البرهان، عرضا عليه بمئة وعشرين ديناراً، قال: فمضيت لاحتال في الدنانير، ثم عدت فأصبت القوم قد باعو الشرحين في جملة كتب، على رجل خراساني بثلاثة آلاف دينار(5).

---

(1) تاريخ بغداد 4/ 102 - 103 ترجمة المتنبي رقم 1758.

(2) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 5/ 127.

(3) راجع فصل أخلاق الورّاقين بهذا الباب.

(4) طبقات الأطباء/ ص655.

(5) ابن النديم/ الفهرست/ ص354 - وحبيب زيّات/ الوراقة والورّاقون/ ص37.

ثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام، وذات جذر تاريخي ممتد من ذاك الأوان وحتى عصرنا الراهن، هي أن أغلب رجال الفكر والأدب والعلم، والشغوفين بالقراءة وحبّ المطالعة وشراء الكتب، هم أكثرالناس فقراً وعوزاً، الأمر الذي يجعلهم يتحايلون بشتى السبل للحصول على الكتاب، عن طريق السرقة أحياناً، أو عن طريق استعارة الكتاب وعدم ردّه إلى صاحبه بحجّة أو بأخرى، أو عن طريق إحداث خلل فيه، من قبيل تمزيق بعض الأوراق منه أو اقتطاعها، ومن ثم المساومة عليه، وهلّم جراً[1]، ولقد سبقنا الأوائل إلى ذلك، فقد تحدثت المصادر عن واحد من رجالات العلم والفقه واللغة في القرن السادس الهجري هو أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن الخشّاب البغدادي الحنبلي، المتوفى سنة 567هـ، وهذا الرجل كان أعلم أهل زمانه بالنحو، وله معرفة بالحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة، ومن جملة المعروفين بالتأليف، وكانت له خزانة كتب كبيرة[2]، ومسلكية هذا النحوي الكبير في شراء الكتب تتحدد على النحو التالي، كما أوردتها المصادر التي تحدثت عنه، قالوا: وكان إذا حضر سوق الكتب، وأراد شراء كتاب، غافل الناس وقطع منه ورقة، وقال: أنه مقطوع ليأخذه بثمن بخس، وإذا استعار من أحد كتاباً وطالبه به قال: دخل بين الكتب فلا أقدر عليه»[3].

وعملية شراء الكتب، في سوق الورّاقين، تخضع للتفحّص والنقد، وامعان النظر في الكتاب وتقليبه، والتأكد من صحة ربطه وتماسك ملازمه، وتعهد أوله وآخره ووسطه، والنظر إلى ترتيب أبوابه وكراريسه، وتصفّح أوراقه واعتبار صحته[4] للتأكد من سلامته على كافة الوجوه.

---

(1) أذكر أني كنت أتعامل مع مكتبة «النهضة العربية» ببغداد، شارع السعدون على نحو فيه شيء من التهذيب، حيث كنت أشتري الكتاب، وأشترط على صاحب المكتبة، على أنه إذا لم يكن أخي قد اشتراه فسوف أعيده إليه، بنفس اليوم، وكان الرجل يوافق على ذلك، فآخذ الكتاب وأنزوي في مقهى «البتاويين» الملاصق لجدار المكتبة المذكورة، وأتم قراءته وأعيده إلى صاحب المكتبة، وفق الشرط، وآخذ غيره، وهكذا كنت أتعامل، وربما أدرك الرجل ذلك في سلوكي وغضّ الطرف عني.

(2) تطرقنا في الحديث عنها بفصل - مكتبات العلماء والأدباء - في باب (ولع العراقيين بالكتب) وقد كان ابن الخشاب من القلائل الذين تصدّوا بالنقد إلى «مقامات الحريري» حيث أصدر «رسالة» بهذا الصدد، وهي مثبتة في نهاية كتاب/ مقامات الحريري/ طبعة المطبعة السينية بمصر، سنة 1348هـ/ 1929م.

(3) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 12/ 47 - 53، والسيوطي: بغية الوعاة/ ص276 - 277، وكوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة ص252 - 253.

(4) راجع بهذا الصدد/ ابن جماعة الكناني: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم/ ص172 - 173 طبعة حيدر آباد سنة 1353هـ.

لقد ظلت عملية بيع الكتب بالنداء مأخوذ بها في أغلب الحواضر والأقاليم الإسلامية، خارج دار الخلافة العباسية، وبنفس الأساليب التي كانت سائدة في سوق الورّاقين ببغداد، فثمة مظاهر مشتركة تماماً، ظهرت في الأندلس، ذكرها صاحب/نفح الطيب/على النحو التالي: قال الحضرمي: أقمت مرة بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدّة، أترقّب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع، وهو بخط جيّد وتسفير «تجليد» مليح، ففرحت به أشدّ الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلت له: يا هذا أرني من يزيد عليّ في هذا الكتاب، حتى بلغه إلى ما لا يساوي، قال: فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له: أعزّ الله سيدنا الفقيه، أن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه. فقال لي: لست بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمّل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط، جيّد التجليد، استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير، قال الحضرمي: فأخرجني، وحملني على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك، يعطي الجوز من لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً، وتحول قلّة ما بيدي بيني وبينه[1].

وكانت أشبيلية واحدة من كبريات المدن الأندلسية التي اشتهرت بكثرة كتبها وعلمائها إلى جانب قرطبة، حتى أن ابن رشد يقول لأبي بكر بن زهر: ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى اشبيلية[2] قالوا، وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً[3]، ويذكر ابن بشكوال، أن قاضي الجماعة بقرطبة عبد البرالمكنّى بأبي المطرف، كان له ستة وراقين ينسخون له دائماً، وعندما توفّي، واجتمع أهل قرطبة لمدة عام كامل في مسجده لبيع كتبه، في الفتنة في الغلاء وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية[4].

وفي مصر بيعت خزائن الكتب الفاطمية، بعد أن أسقط صلاح الدين الأيوبي دولتهم،

---

(1) المقرى التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب 1/ 463، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1388 هـ/ 1968م.

(2) نفح الطيب 1/ 463.

(3) المصدر السابق 1/ 385 و1/ 394 - 395 و1/ 155 و1/ 363.

(4) ابن بشكوال: أبي القاسم خلف بن عبد الملك/ الصلة 1/ 310، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.

ولما استولى على قصر العاضد لدين الله، وجد من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يعد، فباع جميع ما فيه[1].

وهناك طرق أخرى سلكها الأدباء والعلماء للتعاطي مع الكتاب عرفت بـ«إهداء الكتب» نظراً للعوز اللاحق عند بعضهم، أو تفضّل بعضهم على بعض، لسبب اقتصادي أو معرفي، وكانوا يتغزلون بهذه الكتب المهداة، ويشيدون بفضل أصحابها عليهم، فمن ذلك ما يقوله أبو الفتح البستي، بعد أن أهدى له كتاب[2]:

بنفسي من أهدى إليّ كتابه ... فأهدى لي الدنيا مع الدين في دُرجِ
كتاب معانيه خلال سطوره ... لآلىء في درج كواكب في برج

وله بنفس المعنى والسبب[3]:

ولما أتاني كتاب منك مبتسم ... عن كل برّ وفضل غير محدودِ
حكت معانيه في أثناء أسطره ... آثارك البيض في أحوالي السودِ

وعندما أهدى ابن مندويه الاصفهاني كتاباً، قال متغزلاً في ذلك الكتاب[4]:

يكرّر طورا من قراه فصوله ... فإن نحن أتممنا قراءته عدنا
إذا ما نشرناه فكالمسك نشره ... ونَطويهِ لا طيّ السآمة بل ضنّا

وقال الصاحب بن عبّاد في كتاب أهدى له[5]:

«كتاب أوجب من الاعتداد، وأوفر من الاعداد، وأودع بياض الوداد سواد الفؤاد، كتاب أنساني سماع الأغاني من مطربات الغواني، كتاب رأيت فيه ساعة الأوبة على المسافر، وبرد الليل على المسامر، كتاب شممته شمّ الولد، وألصقته بالقلب والكبد، كتاب مطلعه مطلع أهلّة الأعياد، وموقعه نيل المراد».

وقال أحمد بن إبراهيم الضبّي الوزير في رسالة بعثها إلى أبي سعيد الشيبي[6]: كتاب

(1) ابن الاثير: الكامل في التاريخ 11/ 242، حوادث سنة 567هـ.
(2) الثعالبي: يتيمة الدهر 4/ 291، ومن غاب عنه المطرب/ ص32، تحقيق عبد المعين الملوحي: إصدار دار طلاس، ط1، دمشق 1987م.
(3) يتيمة الدهر 4/ 291.
(4) من غاب عنه المطرب/ ص32.
(5) من غاب عنه المطرب/ ص31.
(6) معجم الأدباء 2/ 109، ومن غاب عنه المطرب/ ص31.

هو في الحسن روضة حَزْنٍ[1] بل جنّة عدن، وفيه شرح النفس وبسط الأنس، برد الاكباد والقلوب وقميص يوسف في أجفان يعقوب.

وقال المريمي في وصف كتاب[2]:

فالحسن ينشره والكف تطويه — يطوى وليس بمطويٍّ محاسنه

والمعنى هنا أقرب إلى «الرسالة».

الفصل الخامس

مجالس العلماء في سوق الورّاقين

شكّل سوق الورّاقين حاضناً ثقافياً - وحضارياً متطوراً، يستحق أن يتباهى به العباسيون كإنجاز حضاري، دلّ على رقيّهم وحسّهم العالي وشعورهم بالمسؤولية التاريخية إزاء عصرهم وما تلاه، فلقد كان هذا السوق، إضافة إلى كونه سوقاً تجارياً، موئل الصفوة العلمية من أهل الأدب والفكر والسياسة، وليس اعتباطاً أن يصفه ابن الجوزي بأنه كان مجلس العلماء والشعراء[3]، فقد كانت الندوات الأدبية والعلمية والثقافية تعقد فيه، وفيه يتناظر العلماء، وعند دكّات الورّاقين كانت المجالس العلمية تعقد، وضجيج الفلاسفة والمتكلّمين يسمع، في هذا الدكان أو ذاك، حتى أن صفة التمييز بين دكان وآخر كانت معروفة، تبعاً للورّاق، فهذا ورّاق عالم بعلوم الحديث، وذاك أديب يغشاه الأدباء، وثالث متكلم يحيط به المعتزلة والدهريون، ورابع يتعاطى الفلسفة، وخامس ناقد للشعر، وسادس أخباري، وسابع نسّابة، وثامن مترجم، وتاسع من أصحاب النوادر، وعاشر مجلّد، وآخرون في اختصاصات أخر، لذلك كان الروّاد من الأدباء والعلماء يعرفون غاياتهم، وعند مَنْ يجلسون ويجتمعون، وكل يجد ضالته عند ورّاق معيّن، وقد انتقلت هذه الظاهرة إلى الورّاقين في بقية الأمصار الإسلامية كالمغرب والاندلس ومصر والشام، بنفس تلك الأساليب، فلقد ذكر أن سعد الوراق كان له دكان وراقة في الرهاء من أعمال الجزيرة[4]،

(1) الحَزَن = ما ارتفع من الارض، وإذا كانت الروضة في حزن كانت أينع وأزهر.

(2) من غاب عنه المطرب/ ص32.

(3) مناقب بغداد/ ص26.

(4) ياقوت الحموي: معجم البلدان 3/ 106 - مادة (رهاء).

كان يغشاه فيه كل أديب من طلاب النصارى من شعراء الشام وديار مصر[1].

لقد استقطب سوق الورّاقين ببغداد، كلّ عالم وأديب بمجالسه هذه، وكانت هذه المجالس منعقدة يومياً، على ما يبدو، فقد أشارت المصادر إلى مثل ذلك، حيث ذكر ياقوت الحموي أن أبا الغنائم حبشي بن محمد، النحوي الضرير، كان يذهب إلى سوق الورّاقين في كل ليلة، ولمدة عشرين سنة[2]، ووقفة قصيرة مع هذا الخبر تكشف لنا مدى الأهمية العلمية لمثل هذه المجالس، من ناحية، ومن ناحية أخرى، تبيّن أن هذه المجالس ذات تأثير اجتماعي، إضافة إلى تأثيرها العلمي، وإلا كيف أن هذا النحوي الضرير ظلّ مداوماً عليها عشرين سنة؟!

ومن الجدير ملاحظته في هذه المجالس، أن الأعلام، من روّاد السوق، كان لهم التأثير الأوضح في ذلك، وقد أشرنا في فصل سابق إلى هؤلاء[3]، ومن هؤلاء الروّاد أبو الفرج الأصبهاني، فقد كان مودعاً سرّه في سوق الورّاقين، وهذا العلامة الموسوعي كان أميل إلى الأدب من بقية الفنون، رغم أنه ذا باع طويل في أغلبها، يقول عنه ياقوت: قال ابن عبد الرحيم، حدّثني أبو نصر الزجاج قال: كنت جالساً مع أبي الفرج الأصبهاني في دكّان في سوق الورّاقين، وكان أبو الحسين علي بن يوسف بن البقّال الشاعر جالساً عند أبي الفتح بن الخرّاز الورّاق وهو ينشد أبيات إبراهيم بن العباس الصولي التي يقول فيها:

رأى خلّتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلّت

فلما بلغ إليه استحسنه وكرّره، ورآه أبو الفرج فقال له: قم إليه فقل له: قد اسرفت في استحسان هذا البيت، وهو كذاك، فأين موضع الصنعة فيه! فقلت له ذاك، فقال: قوله «وكانت قذى عينيه» فعدت إليه وعرّفته، فقال: عد إليه فقل له: أخطأت، الصنعة في قوله: «من حيث يخفى مكانها»[4]. ويعلّق ياقوت على ذلك بقوله؛ وقد أصاب كل واحد منهما حافة من الغرض، فإن الموضعين معاً غاية في الحسن، وإن كان ما ذهب إليه أبو الفرج أحسن[5].

هنا - في هذا النص - تتكشف أمامنا حالة نقدية للشعر، منحصرة في هذا المجلس، رغم أن الشاعر غائب/ الصولي/ لكن الورّاق - أبا الفتح بن الخرّاز - يذكره بشعره، ويتصدى

(1) حبيب زيات/ الوراقة والوراقون/ ص45.
(2) معجم الأدباء 7/ 215 - 216، الترجمة رقم 53. ونكت الهيمان، لصلاح الدين بن أيبك الصفدي/ ص133 - 134، طبعة مصر سنة 1329هـ/ 1911م.
(3) راجع الفصل الرابع من هذا الباب/ روّاد سوق الورّاقين/ .
(4) معجم الأدباء 13/ 112.
(5) معجم الأدباء 13/ 112 - 113.

له أبو الفرج، بصفته ناقداً، ويحاورالورّاق، وفي الوقت نفسه متذوق وناقد، أي أن مجلس هذا الورّاق تطغى عليه الميول الأدبية، وتنحدر نحو الشعر أكثر من غيره، وهذه حالة واحدة مرّت بنا في هذا السوق، إضافة إلى ما ذكرناه من «النوادر» والتي كانت هي الأخرى تَحْدُثَ ويتحدث بها في ذات السوق، ولكن أوضح تصوير لمجالس العلماء في سوق الورّاقين، هو ما ينقله أشهر ورّاق قاطبة، أبو حيّان التوحيدي، في كتابه الهام «المقابسات» حيث أن المواضيع التي كان العلماء يختارونها شاملة جامعة، وتدخل في نطاق نظرية المعرفة، لكافة العلوم، رغم ما يطغى عليها من نَفَسٍ فلسفي، ولغة عالية، قد تصعب على البعض معرفة رموزها، وسوف نذكر «المقابسات» التي دارت في سوق الورّاقين، لأنها الشاهد الحيّ الذي لا زال يذكرنا بتلك المجالس العلمية، وهو أمر يكشف صلادة تلك الحضارة، وعمق بناتها الأوائل من العلماء والأدباء ورجال الفكر، بحيث أننا - في هذا الزمن - نتصاغر أمام تلك الشخصيات، ونتضاءل مقابل تلك العلوم والمعارف، التي كانوا يتعاطونها بسلاسة وبداهة، فكل فكرة كانت تدور بينهم، ويتحاورون فيها، قد تحتاج إلى الكثير منّا، لأن نقف معها، وربما أعوزتنا الحاجة، للرجوع إلى القواميس الفلسفية والمعاجم اللغوية، لمعرفة جوهرها ومكنونها، وهي بحق تستاهل الوقوف منا بتروٍ وجلال.

المجالس الفلسفية في سوق الوراقين

لقد كانت تلك المجالس العلمية في سوق الورّاقين معكوسة بشكل علمي وواضح كل الوضوح في كتاب «المقابسات للتوحيدي»، حيث أنها دوّنت كل ما كانت تعجّ به بغداد آنذاك من بحوث علمية في الفلسفة الإلهية والطبيعة، ومن تناول كل مسألة، حتى مسائل اللغة والأدب بمعايير فلسفية نفسيّة، وعند الغور أعمق في المقابسات، نلاحظ طغيان موضوعات الفلسفة بشكل شبه مقصود، حيث أن النضوح العقلي عند أبي حيان مال به إلى ذلك، فكانت أقرب إلى روحه الفلسفية، حيث نرى فيها موضوعات النفس والعقل والزمان والمكان، والعالمين العلوي والسفلي، والخليقة والميعاد، والمادة والجوهر، والنقطة، والعناصر، وعلاق النحو العربي بالمنطق اليوناني، وغير ذلك، كما اشتملت على مواضيع خلقية، كتهذيب النفس، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والصداقة والصديق[1].

(1) للاستزادة في معرفة موضوعات «المقابسات» راجع د. عبد الأمير الأعسم/ أبو حيّان التوحيدي في كتاب «المقابسات» ص 130 - 131، وكذلك باب/ دراسة فنية لكتاب المقابسات/ من نفس الكتاب، ففيه تحليل وعرض واف عن موضوع المقابسات، منشورات دار الأندلس، بيروت، ط1، 1400 هـ/ 1980م.

والمتأمّل في هذه الموضوعات الواردة في «المقابسات» يستطيع أن يرسم خطّاً بيانياً صاعداً للحالة العلمية التي كانت سائدة في (ق 4هـ)، ويستطيع من خلالها أيضاً أن يرى أهميّة مجالس العلم في سوق الورّاقين، وتأثيراته الثقافية في حياة المجتمع العراقي في العصر العباسي.

وبالنظر للشمولية الثقافية والعلمية في كتاب المقابسات وما حوته من أفكار لحياة الناس العقلية، وانسجاماً مع السياق المنهجي، رأينا أن نكتفي بهذا الكتاب، استدلالاً وتوثيقاً لحالة السوق، وما حوته مجالسه العلمية، ومن ناحية أخرى عدم الاطالة على القارىء، إضافة إلى أن «المقابسات المنتخبة» في هذا المقال، قد قيلت في سوق الورّاقين، وبذا تشكّل وثيقة هامة من وثائقه حرصنا على إبرازها وبعث الروح فيها مجدداً، إحياءً لذاك التراث الغني المتوهج أبداً.

في المقابسة السادسة[1]، والتي حملت عنوان (في علّة تفاوت وقع الألفاظ في السمع، والمعاني في النفس) فإن التوحيدي يحاور فيها أبا بكر القومسي، أحد تلاميذ يحيى بن عدي، رئيس مناطقة بغداد في زمانه، وأحد الورّاقين المعروفين، يقول: قلت له: ما معنى قول بعض الحكماء: الألفاظ تقع في السمع، فكلما اختلفت كانت أحلى، والمعاني تقع في النفس، فكلما اتفقت كانت أحلى؟

فقال: هذا كلام مليح، وله قسط من الصواب والحقّ، أن الألفاظ يشملها السمع، والسمع حس، ومن شأن الحس التبدد في نفسه، والتبدد بنفسه، والمعاني تستفيدها النفس، ومن شأنها التوحُّد بها والتوحيد لها، ولهذا تبقى الصورة عند النفس قنية وملكة، وتبطل عند الحس بطولاً، وتمحى محولاً، والحس تابع للطبيعة، والنفس متقبلة للعقل، وكانت الألفاظ على هذا التدريج والتنسيق من أمة الحس، والمعاني المقولة فيها من أمة العقل. فالاختلاف في الأول بالواجب، والاتفاق في الثاني بالواجب، وبالجملة الألفاظ وسائط بين الناطق والسامع، فكلما اختلفت مراتبها على عادة أهلها، كان وشيها أروع وأجهر، والمعاني جواهر النفس، فكلما ائتلفت حقائقها على شهادة العقل، كانت صورتها أنصع وأبهر، وإذا وفيت البحث حقّه، فإن اللفظ يجزل تارة ويتوسط تارة، بحسب الملابسة التي تحصل له من نور النفس وفيض العقل وشهادة الحق وبراعة النظم، وقد يتفق هذا لتعويل الإنسان بمزاجه الصحيح، وطبيعته الخبيرة واختياره المحمود، وقد يفوته هذا الوجه فيتلافاه بحسن الاقتداء بمن سبق بهذه المعاني إليه، فيكون اقتداؤه حافظاً عليه نسبة

(1) راجع ص144 من المقابسات/ نشرة حسن السندوبي، وسوف نعتمد عليها في هذا الفصل.

البيان على شكله المعجب، وصورته المعشوقة، ومدار البيان على صحة التقسيم، وتخيّر اللفظ، وترتيب النّظم وتقريب المراد، ومعرفة الوصل والفصل، وتوخّي الزمان والمكان، ومجانبة العسف والاستكراه، وطلب العفو كيف كان»[1].

وفي المقابسة رقم 13، حوار فلسفي، ينقله التوحيدي عن يحيى بن عدي وأحد سائليه، يتمحور موضوعها (في قول القائل: العلة قبل المعلول، لا مدخل للزمان فيه)، يقول: قال يحيى بن عدي: قول القائل: العلة قبل المعلول لا مدخل للزمان فيه، وكذلك قول النحويين: الاسم قبل الفعل لا يتضمن معنى الزمان، وكأنه جار في قضايا الدهر، والفرق بين الزمان والدهر بيّن.

قال له البديهي[2]، فقولنا: الأب قبل الابن، أين هو الزمان؟ قال: من جهة لا مدخل للزمان بينهما، وذلك أن الغرض، أن هذا علّة هذا، ومن جهة يدخل، لأنه يصير مؤذناً بأن هذا كان في الزمان، وأمّا قول النحويين، أن الاسم قبل الفعل، فمعقول أن ترتيبه مقدّم عليه، وإلا فمتى وجد الاسم وجد الفعل، ومتى وجد الفعل وجد الحرف، فمرتبة الوجود واحدة في الجميع، ومراتب الأعيان مختلفة في الجميع، ثم قال: وينبغي أن يصفو اللحظ الذي تجرّد في نحو الأشياء الأول، التي هي كثيرة بالأسماء والنعوت عند الاستعمال، وواحدة بالحقائق والذوات، فإن هذا النظر إذا صفى وتم، كفى مؤنة عظيمة، وحاز أمراً عزيزاً»[3].

وتقابس بن سوار وابن السمح[4] عند باب الطاق، وكلاهما عالي الطبقة في الفلسفة، في المقابسة رقم 17 في (الحق والباطل في سيرة الناس واعتقادهم) يقول التوحيدي:

سئل ابن سوار وكان ابن السمح بباب الطاق: هل ما فيه الناس من السيرة، وما هم عليه من الاعتقاد، حقّ كله أو أكثره حق، أو كلّه باطل أو أكثره؟!

فقال: المسألة هائلة والجواب هيّن.

قيل: أفدنا أفادك الله، فإن ركيّة العلم لا تنزح وإن اختلفت عليها الدّلاء، وكثر على حافاتها الواردة، فقال: صدقتم، واعلموا أنه إذا لُحظ استيلاء الطبيعة عليهم، وغلبة آثارهم فيهم، في الرأي المعتقد، والسيرة المؤثرة، فأكثر ذلك باطل، لأن سلطان العقل في

(1) المقابسات/ ص144 - 145.
(2) هو أبو الحسن علي بن محمد البديهي، راجع المقابسات/ ص154 هامش رقم 2.
(3) المقابسات/ ص154 - 155.
(4) راجع ترجمتهما في المقابسات/ ص160، في الحاشية.

بلاد الطبيعة غريب، والغريب ذليل، وان لحظ حكم العقل وما يجب به، ويليق بجوهره، ويحسن مضافاً إليه، فأكثر ذلك حق، كان الملحوظ رأياً وسيرة وعادة أو خليقة، وعلى حسب هاتين القبيلتين يكون القضاء ويقع الحكم، والحقّ لا يصير حقاً بكثرة معتقديه، ولا يستحيل باطلاً بقلة منتحلية، وكذلك الباطل، ولكن قد يظنّ بالرأي الذي قد سبق إليه الاتفاق من جلّة الناس وأفاضلهم أنه أولى التقديم والإيثار وأحق بالتعظيم والاختيار، لأنه يكون مقوّماً بالبحث، مجبوراً بالفكر، مصقولاً على الزمان، تلمسه كل يد، وتجتليه كل عين، ويصير ثباته على صورته الواحدة، دليلاً قوياً وشاهداً زكياً على حقيقته، لأنه يبرأ حينئذ من هوى منتحله، ويعرى من تعصّب ناصر، ويبقى بصورته الخاصة، ويجرى مجرى السكينة التي لا تحتاج إلى علاج المعالج، وتمويه المموّه، وانتقاد المنتقد، وتنفيق المنفّق، وحيلة المحتال»[1].

وفي المقابسة رقم 21، ينقلنا التوحيدي إلى موضوع الحسب والنسب بالنسبة للأديب يقول: سمعت أبا سليمان السجستاني يقول: فضيحة حسيب لا أدب له، أفظع وأشنع من فضيحة أديب لا حسب له. فقال ابن الورّاق النحوي[2] ولم ذاك؟

فقال: لأن هذا عدم ما يقوّم نفسه ويكمل ذاته، وذاك فقد ما يقوّم أصله ويستر قديمه، والنفس أرفع من الأصل، لأن الأصل راجع إلى الولادة، والنفس دالة على النقص والزيادة، نعم، وعلى الشقاء والسعادة، وقد يحسّ الإنسان بنفسه الجيدة سقوط أجوبة فيتلافى ذلك في تكسّب الخير وإيثار الجميل، وشدوِالأدب وقصد العلم، كل ذلك سلف له، كما يحس الإنسان بشرف أبويه، فيتكل على ما سبق لأوليته، ولا يشغل زمانه العزيزفي تحلية نفسه بحلي آبائه وأجداده وأخواله وأعمامه، ليكون ذلك زينة له في حياته، وذكراً لعقبه من بعده، فلا جرم أنه أحرى من صاحبه كثيراً، ثم قال: سمعت بباب الطاق في هذه الأيام، وإنسان من أنكاد السِوقة يقول لآخر من ضربائه: شرفك ميّت وشرفي حي، وشرفك أخرس وشرفي ناطق، وشرفك أعمى وشرفي بصير، قيل له: ماذا أراد بهذا؟

قال: أراد أنّي بنفسي على هذه الفضائل الشريفة، والحال المتمناة، وأنت بنفسك على أضدادها، لا تحيي ولا تنطق ولا تبصر، لم تنفعك أرومتك البيضاء، ولم تضرّني جرثومتي السوداء، ومتى نابك أمر فتُحدّث بشرف غيرك، فكنت بمنزلة الخصي المدلّ بهنّ غيره، وهذا ما لا يجدى عليه عند البضاع[3].

---

(1) المقابسات/ ص160 - 161.

(2) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن العباس، راجع المقابسات/ ص168، الهامش رقم 1.

(3) المقابسات/ ص168 - 169.

وفي المقابسة رقم 22، ينقلنا التوحيدي إلى موضوع هام جداً يقع بين المنطق الفلسفي والنحو العربي، على أعتبار أن التوحيدي يعشق طرفي الموضوع باعتباره «أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء» على حدّ تعبير ياقوت الحموي[1]، ومحاولته بهذا الموضوع مع أستاذه أبي سليمان السجستاني، فيقول: قلت لأبي سليمان، أني أجد بين المنطق والنحو مناسبة غالبة ومشابهة قريب على ذلك، فما الفارق بينهما، وهل يتعاونان بالمناسبة، وهل يتفاوتان بالقرب؟

فقال: النحو منطق عربي، والمنطق نحو عقلي، وجلّ نظر المنطقي في المعاني، وإن كان لا يجوز له الاخلال بالألفاظ التي هي لها كالحال والمعارض، وجل نظر النحوي في الألفاظ، وإن كان لا يسوّغ له الإخلال بالمعاني التي هي لها كالحقائق والجواهر، ألا ترى أن المنطقي يقول يحرق، وهو ينفعل، والنحوي يقول يحترق وهو يفتعل[2]، (لأن نظر المنطقي فيما حلاوة العقل، ونظر النحوي فيما حلاوة اللفظ)[3]، ونظائر هذا المثال شوائع ذوائع في غرض الفنيّين والنظريين، أعني المنطق والنحو، وكما أن التقصير في تجبير اللفظ، ضار ونقص وانحطاط، كذلك النقص في تحرير المعنى ضار ونقص وانحطاط.

وحدّ الأفهام والتفهّم معروف، وحدّ البلاغة والخطابة موصوف، والحاجة إلى الإفهام والتفهّم على عادة أهل اللغة، أشدّ من الحاجة إلى الخطابة والبلاغة لأنها متقدمة بالطبع، والطبع أقرب إلينا، والعقل أبعد عنا، والبديهة منوطة بالحس، وإن كانت معانة من وجهة الحسّ، وليس ينبغي أن يكتفي بالأفهام كيف كان، وعلى أيّ وجه وقع، فإن الدينار قد يكون رديء الذهب، وقد يكون رديء الطبع، وقد يكون فاسد السكة، وقد يكون جيّد الذهب، عجيب الطبع، حسن السكة، فالناقد الذي عليه المدار وإليه العيار، يبهرجه مرّة برداءة هذا ومرّة برداءة هذا، ويقبله مرة بحسن هذا، ومرّة بحسن هذا، والإفهام إفهامان: رديء وجيّد، فالأول لسفلة الناس، لأن ذلك غايتهم وشبيه برتبتهم في نقصهم، والثاني لسائر الناس، لأن ذلك جامع للمصالح والمنافع، فأمّا البلاغة فإنها زائدة على الأفهام الجيدة بالوزن والبناء، والسجع والتقفية، والحلية الرائعة، وتخيّر اللفظ واختصار الزينة، بالرقة.

---

(1) معجم الأدباء 15/ 6.

(2) هناك إرباك واضح في نسخة السندوبي/ ص170 حيث فيه حذف، واستدركنا ذلك على مختارات د. إبراهيم الكيلاني من المقابسات/ ص96، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق 1984م.

(3) سقطت هذه العبارات المحصورة بين القوسين (. . .) من نسخة السندوبي/ ص170 وأثبتناها من نسخة الكيلاني/ ص96.

والجزالة والمتانة، وهذا الفن لخاصة النفس، لأن القصد فيه الإطراب بعد الإفهام، والتواصل إلى غاية ما في القلوب لذوي الفضل بتقويم البيان.

قلت له/ والكلام للتوحيدي/ فما النحو؟

قال: على ما يحضرني الساعة من رسمه على غير تصفية حدُّهُ وتنقيحه: أنه نظر في كلام العرب يعود بتحصيل ما تألفه وتعتاده، أو تعرفه وتقلل منه، أو تعرفه وتحيله وتأباه، وتذهب منه، وتستغني بغيره.

قلت: فما المنطق؟ قال: آلة بها يقع الفصل والتميز بين ما يقال هو حقّ أو باطل فيما يعتقد، وبين ما يقال هو خير أو شرّ فيما يفعل، وبين ما يقال هو صدق أو كذب، فيما يطلق باللسان، وبين ما يقال: هو حسن أو قبيح بالفعل.

قلت: فهل يعين أحدهما صاحبه؟ قال: نعم، وأيّ معونة إذا اجتمع المنطق العقلي والمنطق الحسّي فهو الغاية والكمال. قال: ويجب أن تعلم أن فوائد النحو مقصورة على عادة العرب بالقصد الأول، قاصرة على عادة غيرهم بالقصد الثاني، والمنطق مقصور على عادة جميع أهل العقل من أي جيل كانوا وبأي لغة أبانوا، إلا أن تتعذر أسماء عند قوم، وتوجد عند قوم، فحينئذ الحال في التقصير يتورّك[1] على تعذر الأسماء أو على وضعها على الخلاف، أمّا بالتواطؤ والاصطلاح، أو بالطبع والأسماح، قال: وبالجملة، النحو يرتّب اللفظ ترتيباً يؤدي الحقّ المعروف أو إلى العادة الجارية، والمنطق يرتّب المعنى ترتيباً يؤدي إلى الحقّ المعترف به من غير عادة سابقة، والشهادة في المنطق مأخوذة من العقل، والشهادة في النحو مأخوذة من العرف، ودليل النحو طباعي، ودليل المنطق عقلي، والنحو مقصور، والمنطق مبسوط، والنحو يتبع ما في طباع العرب، وقد يعتريه الاختلاف، والمنطق يتبع ما في غرائز النفوس، وهو مستمر على الإئتلاف، والحاجة إلى النحو أكثر من الحاجة إلى المنطق، كما أن الحاجة إلى الكلام في الجملة أكثر من الحاجة إلى البلاغة، لأن ذلك أوّل، وهذا ثان، والنحو أوّل مباحث الإنسان، والمنطق آخر مطالبه، وكل إنسان منطقي بالطبع الأول، ولكن يذهب عن استنباط ما عنده بالاهمال، وليس كل إنسان نحوياً في الأصل، والخطأ في النحو يسمى لحناً، والخطأ في المنطق يسمى إحالة، والنحو تحقيق المعنى باللفظ، والمنطق تحقيق المعنى بالعقل، وقد يزول اللفظ إلى اللفظ، والمعنى بحاله لا يزول ولا يحول، فأما المعنى فإنه متى زال إلى معنى آخر تغيّر المعقول، ورجع إلى غير ما عهد في الأول، والنحو يدخل المنطق، ولكن مزيناً له، والمنطق يدخل

(1) التورّك = الاعتماد على الشيء، وتورك على الأمر، قدر عليه. أنظر اللسان - مادة (ورك).

النحو، ولكن محققاً له، وقد يفهم بعض الأغراض، وإن عرّى لفظه من النحو، ولا يفهم شيء منها إذا عرّى من العقل، فالعقل أشدّ انتظاماً لمنطق، والنحو أشد التحاماً بالطبع والنحو شكل سمعي، والمنطق شكل عقلي، وشهادة النحو طباعية، وشهادة المنطق عقلية، وما يستعار للنحو من المنطق حتى يتقوّم أكثر مما يستعار للمنطق من النحو حتى يصحّ ويستحكم، والمنطق وزن بعيار العقل، والنحو كيل بصاع اللفظ، ولهذا قبل في النحو الشاذ والنادر، ورُدَّ في المنطق ما جرى مجراها»[1].

وفي المقابسة رقم 40، ينقلنا التوحيدي إلى رحاب العلم في حياة الحي وما يقابله من جهل، يقول: قال أبو بكر الصيمري لجماعة عنده، ونحن في طاق الحرّاني في الورّاقين، وقد ذهب به القول في كل عروض، وجذبه إلى كلّ باب، العلم حياة الحي في حياته، والجهل موت الحي في حياته، فإذا كان الجاهل ميّتاً في حياته فماذا ترى يكون بعد مماته؟ وإذا كان العلم حياة الحي في حياته، فلا شك أنه يكون حياة له بعد وفاته.

ثم قال: العلوم الإلهية في اليسر، لأنه بساط العمل الصالح، والحقّ المعتقد، والخلق الظاهر، والطاعة الحسنة، والراحة المعاقبة، ومن عُرّيَ من العلم ولزم العمل كان كخابط عشواء، ما يفوته أكثر ممّا يجده، وما يفسده أكثر مما يصلحه، ومن لزم العلم وخلا من العمل كان كلابس ثوبي زور. والعلم فنون، وأشرفه معرفة الحق الأول، والعلم قوام المعقول، والعمل قوام المحسوس، ولولا المحسّ لاستغنى عن العمل لأن العمل إنما هو رياضة النفسين اللتين تعاندان النفس الناطقة، أعني الشهوية والغاضبة، فأما العلم، فهو كله في تقديس المعقول بالعقل والتشوّق إليه، وطلب الاتصال به، والغرق في بحره، والوصول إلى وحدته، والعمل مقوّم للقِوى التي تريح كثيراً بالزيادة والنقصان، وبالخمود والهيجان، والعلم مبلغ إلى الغاية التي لا مطلوب ورائها، والعمل مهيىء لك نحو المسلك إلى سعادتك، والعلم مشرف بك على سعادتك، والعمل يوصل، والعلم وصول، والعمل حق عليك لا بدّ من أدائه، والعلم حق لك لا بدّ لك من اقتضائه، والعلم كله نور، وأنورُه ما أضاءك، وسطح عليك، وأسفر بك وجلاّ عن حقيقتك، وتحلى بعقيدتك، ونحّى قشورك عنك، وأبرز لبّك منك، وصقلك وصفّاك، وزيّنك، وأبهجك ونوّرك، وأهلك ليدرك حدّك، وأحلّك دار كرامتك وقرارك، وصار ألصق بك من شعارك ودثارك، هناك تبقى ولا تبلى وتغنى ولا تضنى، هناك المواصل والموصول، والعالم والمعلوم، والعاقل والمعقول، في فضاء الوحدة، ومغاني القدس، وخطة الراحة، ومراد الطمأنينة والجدّة، والثقة والسكنية، وعرصة الهية لا تفرقة ولا تمييز، ولا كثرة ولا اختلاط، ولا تمازج ولا

(1) المقابسات/ص169 – 172.

اختلاف، حال تجل عن إمارات الحال، وأمر يلطف عن رسوم الأمر، على هذا سكبت العبرات، وطالت الزفرات، أتظنّ أن الرقي في سلاليم المعرفة، والتناهي في غايات التوحيد، هَيِّنٌ سهل وقريب ممكن؟! هيهات أن يكون ذلك كذلك، ولكن لواحد بعد واحد يخصّ به الواحد في عالم بعد عالم وفي دور بعد دور».

يقول التوحيدي: «وكان كلامه أطول من هذا وأشفى، وهذا حاصل منه، والله أسأل تقبله والوفاء به والقيام عليه»[1].

إن مجالس العلماء تلك التي كان أبو حيان التوحيدي وزملاؤه من حلقة أبي سليمان السجستاني يتناقشون فيها في سوق الورّاقين وغيره من المواضع، كانت شاملة لأغلب الفنون الأدبية والعلمية، ولم تنحصر في الفلسفة وحدها وعلوم المنطق، فالمتقابسون كانوا أعلاماً، وكل منهم كان فرداً في صناعته، ففي المقابسة رقم 60، ينقلنا التوحيدي إلى حالة النقد الأدبي، المؤطرة في رؤية فلسفية، رغم أن موضوعها يخصّ التأثير النفسي للنظم والنثر، وأيهما أشدّ وقعاً على النفس، يقول: قال أبو سليمان، وقد جرى كلام في النظم والنثر: النظم أدلّ على الطبيعة، لأن النظم في حيّز التركيب. والنثر أدلّ على العقل، لأن النثر من حيّز البساطة، وإنما تقبلنا المنظوم بأكثر مما تقبلنا المنثور لأنا للطبيعة أكثر منا بالعقل، والوزن معشوق للطبيعة والحسّ، ولذلك يفتقر له عندما يعرض استكراه في اللفظ. والعقل يطلب المعنى، فلذلك لاحظ للفظ عنده، وان كان متشوّقاً معشوقاً، والدليل على أن المعنى مطلوب النفس دون اللفظ الموشّح بالوزن المحمول على الضرورة، إن المعنى متى صوّر بالسانح والخاطر، وتوخى الحكم لم يبل بما يقويه من اللفظ الذي هو كاللباس والمعرض والاناء والظرف، لكن العقل، مع هذا يتخيّر لفظاً بعد لفظ، ويعشق صورة دون صورة، ويأنس بوزن دون وزن، ولهذا شقق الكلام بين ضروب النثر وأصناف النظم، وليس هذا للطبيعة؟ بل الذي يستند إليها ما كان حلواً في السمع، خفيفاً على القلب، بينه وبين الحق صلة، وبين الصواب وبينه آصرة، وحكمها مخلوط بإملاء النفس، كما أن قبول النفس راجع إلى تصويب العقل.

ثم قال: ومع هذا ففي النثر ظلّ النظم، ولولا ذلك ما خفّ ولا حلا، ولا طاب ولا تحلا، وفي النظم ظلّ من النثر، ولولا ذلك ما تميّزت أشكاله، ولا عذبت موارده ومصادره، ولا بحوره وطرائقه، ولا ائتلفت وصائله وعلائقه[2].

---

(1) المقابسات/ ص201 - 202.

(2) المقابسات/ ص245 - 246.

لقد عكست المقابسات بصدق روح العصور العلمية، واشترك رجالها بتحريك الحالة الثقافية واستوعب سوق الورّاقين ذاك النشاط المعرفي المهيمن، وبرزت جميع التيارات الثقافية وأوجدت لها حضوراً في ثقافتها وآدابها، فهؤلاء المتصوفة قد امتطوا صهوة البلاغة بشفافية، أبلغ من المعتزلة، لأنهم أطلقوا العنان لهوى الروح والقلب لأن يتصاعد فوق خيوط العقل، مخترقاً كل الحُجُب محاولاً التوحّد بالحدّ المطلق، مفجراً كل طاقات اللغة للتعبير عن دواخلهم، الأمر الذي جعل الحالة الثقافية في ذلك العصر تتوقف عند أدبهم، وكان سوق الورّاقين ساحة طراد لفلسفتهم، وقد آسرت هذه الفلسفة العالية جوانح أبي حيّان التوحيدي، فراح يتواشج ويتشاجى بها ومعها، حتى دعاه الأمر لأن طرح كلام الصوفية على شيخه أبي سليمان السجستاني في المقابسة رقم 95، يقول: رويت لأبي سليمان كلاماً لبعض الصوفية، فلم يفكه له ولم يهشّ عنده، وقال: لو قلت أنا في هذه الطريقة شيئاً، لقلت: الحواس مهالك، والأوهام مسالك، والعقول ممالك، فمن خلّص نفسه من المهالك قوى على المسالك، ومن قطع المسالك أشرف على الممالك، ومن أشرف على الممالك شرف بوصلة الملك المالك.

فقال له أبو الخطاب الكاتب: أيها الشيخ! هذا والله أحسن من كل ما يسمع منهم، فلو زدتنا منه، فقال: الحواس مضلّة والأوهام مزلّة، والعقول مدلّة، فمن اهتدى في الأول وثبت في الثاني أدرك في الثالث، ومن أدرك في الثالث فقد أفلح، ومن ضلّ في الأول، وزلّ في الثاني، وخاب في الثالث، فهو من الهمج.

واستزاده مطرّ الكاتب البغدادي، فاستعفى وقال: هذا حديث قوم أباعيد منّا على بعض المشابهة لنا، وما قلناه كاف فيما قصدناه، وإن استتبّ خفت العِثار، واستجلبت العار، ولكل قوم أفق يدورون عليه، ومركز يطمئنون إليه، وجوّ يتنفسون فيه، وفنن يقطفون منه، ولولا هذه اللطائف التي هي تعلّة للنفوس الوافرة والناقصة لكانت الصدور تنفرج أسى، والعقول تتحيّر يأساً، والأرواح تزهق كمداً، والاكباد تتفتت ضمدا، فسبحان من له هذه القدرة في هذه الخليقة، وهذه الأسرار في هذه الطريقة[1].

على هذه الشاكلة كانت مجالس العلماء في سوق الورّاقين، تنعقد، وبمثل هذه المواضيع تتطارح، وفي هذا المستوى المعرفي تجري، فلا عجب في ذلك، إذا قلنا أن ثقافة ذلك العصر كانت نبعاً ومنهلاً لنا، فما زلنا حتى الساعة ننهل منه، ونستسقي منه جداول معرفتنا، ونروّي به أرض مداركنا.

---

(1) المقابسات/ ص 326 - 327. وراجع المختار من المقابسات لإبراهيم الكيلاني، ص212 - 213.

ذلك هو نشاط الورّاقين، في ذلك العصر النيّر، وتلك هي تأثيراتهم الحضارية لا زالت تعانق أنفسانا بأريج تلك الفترة العطرة الزاهية، من تاريخ بغداد المجيد، وقد حقّ علينا لذلك التراث الخالد، أن نجلي عنه غبار الزمن الدفين، لا سيّما وإنّا في هذا الزمن نتعرض لحالة من الاستلاب على كُلِّ الصُعد.

مصادر البحث للجزء الثاني (ظهور مهنة الوراقة)

- أ -

1 - الأبشيهي: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح.

* المستطرف في كل فنّ مستظرف، منشورات دار الفكر، بيروت والمطبعة الميمنية بالقاهرة 1314هـ.

2 - إبن أبي أصيبعة: موفق الدين أبو العبّاس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي.

* عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق د. نزار رضا، منشورات مكتبة الحياة، بيروت 1965م.

3 - إبن الأثير: عز الدين أبو المحاسن علي بن أبي الكرم الشيباني.

* الكامل في التاريخ - 12 جزءاً - منشورات دار صادر، بيروت 1385هـ/ 1965م.

* اللّباب في تهذيب الأنساب، تحقيق القدسي، طبعة القاهرة 1357هـ.

5 - الأزدي: أبو المطهّر محمد بن أحمد.

* حكاية أبي القاسم البغدادي، تحقيق آدم ميتز، طبعة هايدلبرغ سنة 1902م.

6 - الأزدي: أبو زكريا إبن أياس.

* تاريخ الموصل، مخطوط، في دار الكتب المصريّة، رقم 2475.

7 - إسماعيل - د. محمود.

* الحركات السريّة في الإسلام، طبعة بيروت 1973م.

8 - إخوان الصفاء: رسائل إخوان الصفاء وخلّان الوفا، تحقيق خير الدين الزركلي الطبعة المصريّة، القاهرة، 1347هـ/ 1928م.

9 - أمين - أحمد.

* ضحى الإسلام، طبعة القاهرة، ط7، 1964م.

10 - الأعسم - د. عبد الأمير.

* أبو حيّان التوحيدي في كتاب «المقابسات» منشورات دار الأندلس، بيروت، ط1، 1400هـ/ 1980م.

11 - إبن الأنباري: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد.

* نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء: تحقيق د. إبراهيم السامرائي، منشورات مطبعة المعارف، بغداد، 1959م.

- ب -

12 - البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجُعفي.

* صحيح البخاري - 8 أجزاء - منشورات دار الطباعة العامرة، القاهرة 1315هـ وبشرح العلامة القسطلاني، ط1، القاهرة 1307هـ.

13 - إبن بسّام المحتسب، محمد بن أحمد.

* نهاية الرتبة في طلب الحسبة: تحقيق حسام الدين السامرائي، منشورات مطبعة المعارف، بغداد، 1968م.

14 - إبن بشكوال: القاسم بن خلف بن عبد الملك بن مسعود بن دامة الأنصاري.

* كتاب الصلة - جزءان - منشورات الدار المصريّة للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966م.

15 - البغوي: الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود الفرّاء.

* شرح السُنة - 8 أجزاء - تحقيق شعيب الإرناؤوط وزهير الشاويش، منشورات المكتب الإسلامي ط1، دمشق، 1390هـ/ 1971م.

16 - بيدرسن: يوهانس.

* الكتاب العربي، منذ نشأته حتى عصر الطباعة، ترجمة د. حيدر غيبة، منشورات دار الأهالي ط1، دمشق، 1989م.

17 - البيهقي - ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد.

* المحاسن والمساوىء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات مكتبة النهضة، القاهرة، 1961م.

* تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد علي، منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1365هـ/ 1946م.

- ت -

19 - الأتابكي: أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي.

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - 16 مجلد - طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1963م.

20 - التوحيدي: أبو حيّان علي بن محمد بن العبّاس.

* المقابسات، تحقيق حسن السندوبي، منشورات المكتبة التجارية الكبرى بمصر 1347هـ/ 1929م، ونشر توفيق حسين، بغداد 1970م.

* الإمتاع والمؤانسة - 3 أجزاء - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939م.

* رسائل التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، دمشق 1985م.

* الهوامل والشوامل - بالإشتراك مع مسكويه، تحقيق أحمد أمين وأحمد صقر، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1370هـ/ 1951م.

- ث -

24 - الثعالبي - أبو منصور عبد الملك النيسابوري.

* مَنْ غاب عنهُ المطرب، تحقيق عبد المعين الملّوحي، منشورات دار طلاس، دمشق 1987م.

* خاص الخاص، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1966م.

* يتيمة الدهر، 4 أجزاء، طبعة الصاوي المصريّة 1352هـ/ 1934م.

27 - ثعلب - أبو العبّاس يحيى بن زيد بن سيّار الشيباني.

* مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، منشورات دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.

- ج -

28 - الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب.

* الحيوان - 7 أجزاء - طبعة البابي الحلبي ط2، تحقيق د. عبد السلام هارون، مصر، بدون تاريخ.

* رسائل الجاحظ - 4 أجزاء - تحقيق عبد السلام هارون، منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1384هـ/ 1965م.

30 - إبن جماعة: بدر الدين بن أبي إسحاق إبراهيم بن السيّد بن جماعة الكناني.

* تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلّم. طبعة حيدر آباد، 1952هـ.

31 - جواد: د. مصطفى وأحمد سوسة.

* دليل خارطة بغداد - قديماً وحديثاً، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1378هـ/ 1958م.

32 - الجواليقي - أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر.

* المُعرّب، تحقيق أحمد محمد شاكر، مطبوعات دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1361هـ.

33 - إبن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي.

* المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - 10 أجزاء - ط 1، حيدر آباد الدكن، سنة 1358هـ.

* مناقب بغداد، تحقيق محمد بهجت الأثري، منشورات دار السلام، بغداد 1342هـ.

* تلبيس إبليس، تحقيق محمد منير الدمشقي، منشورات مطبعة النهضة بمصر، القاهرة، 1928م.

- ح -

36 - إبن الحاج: أبو عبد الله محمد بن محمد بن العبدري الفاسي المالكي.

* مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة - 4 أجزاء - منشورات المطبعة المصرية بالأزهر، ط 1، 1348هـ/ 1929م.

37 - حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله.

* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - 6 أجزاء مع الذيل - منشورات مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة بيروت، بدون تاريخ.

38 - حسنين د. عبد النعيم محمد.

* القاموس الفارسي، منشورات دار الكتاب اللبناني، ط 1، بيروت 1402هـ/ 1982م.

39 - الحريري: أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري الحرامي.

* مقامات الحريري، منشورات المطبعة الحسينية بمصر، 1348هـ/ 1929م.

40 - الحموي: إبن حجّة، تقي الدين أبو بكر علي بن محمد.

* خزانة الأدب وغاية الأرب، الطبعة المصرية ط1، سنة 1304هـ.

41 - الحموي: ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي.

* معجم الأدباء - 20 جزءاً - تحقيق د. أحمد فريد رفاعي، منشورات دار المأمون المصريّة، 1357هـ/ 1938م.

* معجم البلدان - 8 أجزاء - منشورات دار صادر، بيروت، 1374هـ/ 1955م.

43 - الحنبلي: إبن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الدمشقي.

* شذرات الذهب في أخبار من ذهب - 8 أجزاء - منشورات دار المسيرة ط2، بيروت 1399هـ/ 1979م.

44 - إبن حوقل: أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي - الرحالة.

* صورة الأرض، طبعة ليدن، 1938م.

- خ -

45 - الخالديان: أبو بكر محمد وأبو سعيد إبنا هشام.

* ديوان الخالديين، تحقيق د. سامي الدهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1388هـ/ 1969م.

46 - الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي.

* تاريخ بغداد، 14 مجلد، ط 1، منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد ومطبعة السعادة بمصر 1349هـ/ 1931م.

47 - إبن خلدون: العلاّمة عبد الرحمن بن محمد المغربي.

* مقدمة إبن خلدون - 4 أجزاء - تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، ط1، لجنة البيان العربي، مصر سنة 1376هـ/ 1957م. وطبعة دار إحياء التراث العربي، جزء واحد، بيروت.

48 - إبن خلّكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - 8 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- د -

49 - دائرة المعارف الإسلامية - 20 مجلد - ترجمة أحمد الشنتاوي وجماعته.

50 - الدمشقي: أبو الفضل جعفر بن علي.

* الإشارة إلى محاسن التجارة، منشورات مطبعة المؤيد، ط1، دمشق 1318هـ.

51 - الدوري: د. عبد العزيز.

* مقدمة في التاريخ الإقتصادي العربي، ط2، بيروت 1978م.

* التكوين التاريخي للأمة العربية، ط1، منشورات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1984م.

- ذ -

53 - الذهبي: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان.

* سير أعلام النبلاء - 24 جزء - تحقيق شعيب الإرناؤوط وجماعته، منشورات مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت 1401هـ/ 1981م.

- ر -

54 - إبن رسته: أبو علي أحمد بن عمر.

* الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، 1891م.

55 - روزنتال: فرانتز.

* مناهج العُلماء المسلمين في البحث العلمي. ترجمة أنيس فريحة، منشورات دار الثقافة بيروت، ومؤسسة فرنكلين، نيويورك عام 1961م.

- ز -

56 - الزبيدي: محب الدين أبو الفيض السيّد محمد مرتضى الحسيني الواسطي.

* تاج العروس، ط1، المطبعة الخيرية بمصر، سنة 1306هـ.

57 - الزركلي: خير الدين.

* الأعلام - 8 أجزاء - ط5، منشورات دار العلم للملايين بيروت، 1980م.

58 - الزمخشري: جار الله محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي ثم الزمخشري.

* مخطوطة، إستجازة الحافظ السلفي الشيخ الزمخشري، تحقيق د. بهيجة الحسني، منشورات مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد 23، لسنة 1393هـ/ 1973م.

59 - زيّات: حبيب.

* الوراقة والورّاقون في الإسلام، بحث قصير، نشر بمجلة المشرق عام 1947، ثم نشرته المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1947م.

- س -

60 - السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي.

* طبقات الشافعية الكبرى - 6 أزاء ط2، المطبعة الحسينية بمصر. بدون تاريخ.

61 - سعد: فهمي عبد الرزاق.

* العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، منشورات المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1983م.

62 - سعيد: د. خير الله.

* النظام الداخلي لحركة إخوان الصفا، منشورات دار كنعان دمشق 1992م.

63 - السقطي: أبو عبد الله محمد بن أبي محمد.

* آداب الحسبة، تحقيق كولن وليفي بروفنسال، طبعة باريس 1931م.

64 - السكتواري: علاء الدين علي دده بن مصطفى.

* محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر، ط1، منشورات المطبعة العامرة الشرقية، القاهرة 1311هـ.

65 - السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن الشافعي.

* بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، منشورات مطبعة السعادة بمصر، القاهرة، 1326هـ.

* تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، 1371هـ/ 1952م.

67 - السمعاني: أبو أسعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي.

* الأنساب - 10 أجزاء - تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، منشورات محمد أمين دمج، بيروت، وطبعة مارجليوث، ليدن، 1912م.

- ش -

68 - الشابشتي: أبو الحسن علي بن محمد.

* الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد 1951م.

69 - الشكعة: د. مصطفى.

* أبو الطيّب المتنبي في مصر والعراقين،منشورات عالم الكتب، ط1، بيروت 1403هـ/ 1983م.

70 - الشيخلي: صباح إبراهيم سعيد.

* الأصناف في العصر العباسي: منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد 1396هـ/ 1976م.

- ص -

71 - الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك.

* الوافي بالوفيات - 25 جزءاً - تحقيق هيلموت ريتر، طبعة إستانبول، 1931م.

72 - الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى الشطرنجي الكاتب.

* أدب الكتّاب، تحقيق محمد بهجت الأثري، منشورات المكتبة العربية ببغداد والمطبعة السلفية بمصر 1341هـ.

* الأوراق، أو أخبار الراضي والمتّقي - جزءان - تحقيق هيورث دن، منشورات مطبعة الصاوي بمصر، ط1، 1934م.

- ط -

73 - الطبري: محمد بن جرير.

* تاريخ الرسل والملوك - 10 أجزاء - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار المعارف بمصر، القاهرة 1968م.

74 - الطرابلسي: علاء الدين بن الحسن.

* معين الحُكّام فيما يتردد بين الخصمين من أحكام، طبعة القاهرة 1300هـ.

- ع -

75 - إبن عبد ربّه: أبو عمر محمد الأندلسي.

* العقد الفريد - 7 أجزاء - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الابياري، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1363هـ/ 1944م.

76 - إبن عساكر: الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي.

* تهذيب تاريخ دمشق - 7 أجزاء - طبعة روضة الشام 1332هـ.

77 - العسقلاني: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر.

* الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، طبعة حيدر آباد 1349هـ.

78 - العلموي: الشيخ عبد الباسط بن موسى بن محمد.

* المعيد في أدب المفيد والمستفيد، ط1، بتحقيق أحمد عبيد، منشورات المكتبة العربية، دمشق 1349هـ.

79 - العُمري: إبن فضل الله، شهاب الدين أحمد بن يحيى.

* مسالك الأبصار في ممالك الأمصار - ج 8 - تحقيق بسام محمد بارود، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 2001م.

80 - عواد: كوركيس.

* خزائن الكتب القديمة في العراق، مطبعة المعارف، بغداد 1948م.

- غ -

81 - غي ليسترانج - المستشرق.

* بغداد في عهود الخلافة العباسية، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، ط1، بغداد 1355هـ/ 1936م.

- ف -

82 - أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم.

* الأغاني - 24 جزءاً - طبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة 1389هـ/ 1970م. وطبعة الهيئة المصرية العامة، ط1، 1345هـ/ 1927م.

83 - فهد: بدري محمد.

* العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، بغداد، 1967م.

84 - الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، العلاّمة اللغوي.

* القاموس المحيط، ط2، منشورات مؤسّسة الرسالة، بيروت 1407هـ/ 1987م.

- ق -

85 - القرآن الكريم.

86 - القرشي: إبن الإخوة، محمد بن علي.

* معالم القربة في طلب الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان وصديق أحمد عيسى المطيعي، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م.

87 - القفطي: الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف.

* إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة، 1369هـ/ 1950م.

88 - القلقشندي: الشيخ أبو العباس أحمد.

* صبح الأعشى في كتابة الإنشا - 13 جزء - منشورات دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1340هـ/ 1920م.

- ك -

89 - الكتبي: محمد شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر.

* فوات الوفيات - 5 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

90 - إبن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي.

* البداية والنهاية - 14 جزءاً - منشورات مكتبة المعارف، بيروت ومكتبة النصر، الرياض 1966م.

91 - كرد علي: محمد.

* أمراء البيان - جزءان - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1355هـ/ 1937م.

92 - الكردي: محمد طاهر بن عبد القادر المكّي الخطّاط.

* حُسن الدُعابة فيما ورد في الخط وأدوات الكتابة، طبعة البابي الحلبي، القاهرة 1357هـ/ 1938م.

93 - الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف.

* كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق «فن كست» المستشرق، طبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1908م.

- ل -

94 - لومبار: موريس.

* الإسلام في فجر عظمته، ترجمة حسين العودات، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق 1979م.

- م -

95 - الماوردي: علي بن محمد بن حبيب.

* الأحكام السلطانية، طبعة البابي الحلبي، القاهرة 1380هـ/ 1960م.

96 - إبن مخلوف: محمد.

* شجرة النور الزكية في طبقات الحنفيّة، منشورات دار الكاتب العربي، طبعة بالأوفست، بدون تاريخ.

97 - المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي.

* مروج الذهب ومعادن الجوهر - 4 أجزاء - مطبوعات الجامعة اللبنانية بعناية شارل بيلاّ، بيروت 1974م وطبعة باريس، وطبعة دار المعرفة اللبنانية 1403هـ/ 1982م.

98 - مسكويه: أحمد بن محمد بن يعقوب.

* تجارب الأمم - جزءان - تحقيق آمدروز، طبعة القاهرة 1314هـ/ 1915م.

* السعادة في فلسفة الأخلاق، تحقيق محمد علي صبح، منشورات المطبعة العربية بمصر 1346هـ/ 1928م.

* تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، منشورات مكتبة الحياة، ط2، بيروت 1398هـ.

101 - مروّة: د. حسين.

* النزعات الماديّة في الفلسفة العربية - الإسلامية - جزءان - ط2، منشورات دار الفارابي، بيروت 1398هـ/ 1978م.

102 - المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البشاري.

* أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن، 1909م.

103 - مقدسي: د. جورج.

* خطط بغداد في القرن الخامس الهجري، ترجمة أحمد صالح العلي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد 1948م.

104 - المقري التلمساني: أحمد بن محمد المغربي المالكي الأشعري.

* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - 8 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت 1388هـ/ 1968م.

105 - إبن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري.

* لسان العرب - 14 مجلد - طبعة دار صادر - بيروت.

106 - مؤلف مجهول.

* مخطوط - الذخائر والتحف في بير الصنايع والحرف - موجود في مكتبة غوتا، في ألمانيا، تحت رقم/ 903/ عربيات/ ونشرته صباح الشيخلي في كتابها «الأصناف الإسلامية في العصر العباسي».

107 - أبو ملحم: د. علي.

* علم الأخلاق عند مسكويه، دراسة منشورة في مجلة «دراسات عربية» العدد 12 السنة 26، أكتوبر 1990م.

108 - ميتز: آدم/ المستشرق.

* الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - 4 أجزاء - ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، طبعة القاهرة 1377هـ/ 1957م.

109 - مؤلف مجهول.

* أخبار الدولة العباسيّة، تحقيق د. عبد العزيز الدوري وعبد العزيزالمطّلبي، بيروت 1971م.

- ن -

110 - إبن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق.
* الفهرست، منشورات المطبعة الرحمانية بمصر.

111 - النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب.
* نهاية الأرب - 30 جزءاً - طبعة دار الكتب المصريّة.

- و -

112 - وكيع: محمد بن خلف بن حيّان بن صدقة بن زياد، القاضي المعروف بوكيع.
* أخبار القضاة، جزءان، منشورات عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

113 - الوهراني: ركن الدين محمد بن محمد بن محرز.
* منامات الوهراني، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نعش، منشورات دار الكاتب العربي، القاهرة 1387هـ/ 1968م.

- هـ -

114 - أبو هلال الصائبي: أبو الحسن الهلال بن المحسن بن إبراهيم الكاتب.
* تحفة الأمراء بتاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، طبعة البابي الحلبي، القاهرة 1958م.

- ي -

115 - اليعقوبي: أحمد بن يعقوب بن واضح.
* البلدان، طبعة ليدن ومطبعة النجف، ط3، 1377هـ/ 1957م.

116 - نشرة دورية باسم «أخبار المركز» تصدر كل شهرين عن مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي.
الأعداد/ 1، 2، 5 لعام 2003م.
الأعداد/ 8، 9 لعام 2004م.

انتهى الجزء الثاني

د. خيرالله سعيد



المجلد الثاني

ج 3 - ج 4



ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-201-4

الطبعة الأولى 2011

فهرست الموضوعات
الجزء الثالث

الجزء الرابع

الباب الأول

صناعة الورق[1]

الفصل الأول

تمهيد تاريخي

لعبت الحضارة في أفقها الإنساني دوراً فاعلاً، في تحفيز الذات، فراحت الأمم، من مختلف الأجناس، تكمل نتائج بعضها بعضاً، كتواصل تاريخي للبشرية، أملتهُ ظروف الحياة، وقد كانت هناك صناعات تشكّل طفرة، في هذا المجتمع أو ذاك، فاتحة الباب على مصراعيه ليدخل من يدخل إليه من تلك الشعوب الطامحة إلى بناء ذاتها وشخصيتها، ومن تلك الصناعات الجليلة كانت صناعة الورق، هذه الصناعة التي لعبت دوراً مهمّاً في ايقاظ البشرية لتدوين علومها وآدابها وفنونها، وقد ساهمت أغلب شعوب الأرض في تطوير هذه الصناعة، كل حسب زمانه ومكانه إلى هذا اليوم. وقد أشارت المصادر القديمة إلى أن الطيّن كان أول مادة استخدمت للكتابة، فقد ذكر ابن النديم[2] أن أوّل من كتب على الطين كان آدم أبو البشر، ومن هنا يتوضّح العمق التاريخي لاهتمام الانسان بالكتابة، فقد كانوا يصنعونه على هيئة قوالب ويكتبون عليه وهو ما زال طريّا، ثم يجففونه بالشمس أو يطبخونه بالنار، وقد عثر المنقبون في العراق وفي غيره من بلدان الشرق الأدنى على عشرات الآلاف من ألواح الطين المكتوبة بالخطوط المسمارية، تلك الخطوط التي كتب بها الأقدمون من الشعوب، كالسومرية والأكّدية وغيرها[3]. وتوالت الأحقاب التاريخية

(1) لقد أفادنا كثيراً شيخ الباحثين، الأستاذ كوركيس عوّاد ببحثه الموسوم بـ«الورق أو الكاغد - صناعته في العصور الإسلامية» والمنشور في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق - في الجزء الثالث 1/ تموز/ 1948 ضمن المجلد 23، والذي يقع بين ص409 - 438، فله السبق والفضل في ذلك.

(2) الفهرست/ ص31 المطبعة الرحمانية بمصر.

(3) كوركيس عواد/ الورق أو الكاغد - صناعته في العصور الإسلامية - المرجع المذكور أعلاه ص409.

لتلك الأقوام، وواكبت تطوّر واكتشاف المعادن، فظهر للسطح النحاس، واستخدم في الكتابة والنقوش[1]، وتلاه الحجر وهو أبقى من الطين، إلا أنه أثقل وزنا، فكان العزوف عنه سريعا، ثم كتب بالخشب وورق الشجر، كما كتبوا في التوز الذي يعلا به القسي للخلود، ثم دبغت الجلود فكتب الناس فيها[2]، وقد كان للهند شجر باسق كالنخل والنارجيل، ذو ثمر يؤكل وأوراق في طول ذراع، وعرض ثلاث أصابع مضمومة يسمونها «تارى» قال البيروني[3]: كانوا يكتبون عليها، ويضمّ كتّابهم منها خيط ينظمها من ثقبة في أوساطها فينفذ في جميعها، وأمّا في أواسط المملكة وشمالها/ يقصد الهند/ فإنهم يأخذون من لحاء شجر التوز الذي يستعمل نوع منه في أغشية القسّي ويسمونه «بهوج» في طول ذراع وعرض أصابع ممدودة فما دونه، ويعملون به عملاً كالتدهين والصقل يصلُبُ به ويتملّس ثم يكتبون عليها، وهي متفرقة، يعرف نظامها بأرقام العدد المتوالي، ويكون جملة الكتاب ملفوفة في قطعة ثوب ومشدودة بين لوحين بقدرهما، واسم هذه الكتب «بوتي» ورسائلهم وجميع أسبابهم تنفّذ في التوز أيضاً.

كما وجدت الكتابة على لحاء شجر يعرف بـ «الكاذى» مدوّنة بالذهب الأحمر، وهذا النوع من لحاء الشجر يوجد في الهند والصين، يقول عنه المسعودي[4] هو نوع من النبات، عجيب، ذو لون حسن وريح طيبة، لحاؤه أرق من الورق الصيني، يتكاتب فيه ملوك الصين والهند.

فيما كانت الصين تكتب في ورق يصنعونه من الحشيش والكلأ، وعنهم أخذت صناعة الورق[5] وتداولها الناس أهل الحضارات الذين كانوا مواكبين لهذا النهوض كالهنود والساميين وغيرهم، كما عرف في الهند أيضاً أنهم كانوا يكتبون في خرق الحرير الأبيض، وكذلك الروم، فيما كان الفرس يكتبون في الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش، وكتب العرب في أكتاف الإبل واللخاف «وهي الحجر الرقيق الأبيض» كما كتبوا في عسب النخل[6]، وقد أشار ابن النديم[7] إلى وجود الورق الخراساني الذي

(1) الفهرست/ ص31.

(2) الفهرست/ نفس المكان.

(3) تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة/ ص81 طبعة لا يبسك 1945.

(4) مروج الذهب 2/ 202 طبعة باريس وانظر كذلك - كوركيس عواد - الورق أو الكاغد/ ص411 من المجلة المذكورة.

(5) القلقشندي - صبح الاعشى 2/ 475.

(6) عسب النخل = الجريد الذي لا خوص عليه.

(7) الفهرست/ ص32؛ وصبح الاعشى 2/ 475.

يعمل من الكتّان، إلا أنه لم يجزم بتحديد زمانه حيث قال: أنه حدث في أيام بني أميّة، وقيل في الدولة العباسية، وقيل أنه قديم العمل، وقيل أنه حديث/أي في زمانه (ق 4هـ)/ وقيل أن صنّاعا من الصين عملوه في خراسان على مثال الورق الصيني، ونحن أميل إلى الرأي الأخير، لا سيما وأن الامبراطورية الصينية قديماً، كانت قد امتدت تجارتها إلى غرب آسيا للقرب الجغرافي، وعندما ظهرت الدولة الاسلامية، كان العرب يكتبون القرآن في اللخاف والعسب، وقد اعترف زيد بن ثابت بذلك، حيث قال عند جمعه للقرآن: «فجعلت أتبع القرآن من العِسب واللّخاف»، وأيّد ذلك الزهري بقوله: قبض رسول الله ﷺ والقرآن في العسب»[1] فيما كان المصريون، قد عرفوا بشكل جيّد القرطاس الذي صنّعوه من قصب البردي، ويرجع تاريخ هذه الصناعة عندهم إلى أيام النبي يوسف، كما يقول ابن النديم[2].

ونظراً لأهمية صناعة القراطيس، فسوف نتوقف عندها في الفصول القادمة.

الفصل الثاني

الرقوق والجلود

بعد أن جرّب الناس مختلف تلك المواد في أمور الكتابة، مالوا للرقّ، وقد كان للصحابة الأوائل رأي في ذلك، منبعث من منظور ديني - اسلامي، حيث أنهم أجمعوا على كتابة القرآن في الرقّ لطول بقائه ولتوفره حين ذاك[3]، وقد بقي المسلمون على ذلك إلى أن وليّ الرشيد الخلافة، حيث كثر الورق وفشا عمله بين الناس، وأمر أن لا يكتب إلا في الكاغد.

والرقّ: هو الصحيفة البيضاء، أو هو: ما يكتب فيه، والمصنوع من جلد رقيق، قال الفرّاء: الرقّ: الصحائف التي تخرج إلى بني آدم يوم القيامة[4].

والرقوق، هي عادة ما تؤخذ من جلود الحيوانات، بعد أن تجرى عليها عمليات

---

(1) صبح الاعشى 2/ 475.
(2) الفهرست/ ص31.
(3) صبح الاعشى 2/ 475.
(4) اللسان - مادة - رقق.

«كيماوية» حيث تدبغ بالنورة، أول الأمر، وقد أكسبتها هذه النورة جفافا، إلى أن ظهرت بالكوفة الدباغة الكوفية، حيث استبدلت النورة بالتمر، مما أعطاها ليونة واضحة[1].

وبتطور الاستخدام والصنعة، اتخذ الناس هذه الجلود مادة حسنة للكتابة، تعيش دهراً طويلاً قبل أن ينالها البلى، وبعض هذه الجلود خفيفة، يُبذل جهد في خدمتها بالدباغة والصقل، فيكون منها الرقوق النفيسة.

أوضحت المصادر[2] أن الرقوق كانت مستعملة قبل الإسلام، ثم اتخذت في صدر الإسلام بيد أن ثمنها العالي حدّ من استعمالاتها، وانحصر استخدامها في نسخ القرآن والوثائق الرسمية والعقود وغير ذلك، ويؤخذ من كلام البيروني[3]، أن اليونانيين القدماء كانوا يستعملون الرقوق، فقد وردت إشارة بذلك على لسان «سقراط» حين سئل عن تركه تصنيف الكتب: قال: «لست بناقل للعلم من قلوب البشر الحيّة إلى جلود الضأن الميّتة». وقد كتب المسلمون على الأدم في صدر الإسلام، فقد كتب عهد خيبر[4] بين المسلمين واليهود، كما كتب النبي محمد كتاباً إلى كسرى على الرقّ، كما كتبت مصاحف القرآن في جلود الظباء[5].

والجلود، هي الأكثر استخداما في الجاهلية في كتابات العرب وصدر الإسلام، نظراً لكثرة الابل عندهم، حيث كانت تنحر لإطعام الضيف والقرى، ويسمى المدبوغ منها الأدم[6]. وقد كانت بلاد اليمن الأشهر به، حتى كانوا يكنّون بها عن الدراهم، فيقال: ليس بين الدراهم والأدم مثله، يريدون بين العراق واليمن، لأن بالعراق يجرى التبايع بالدراهم، فيما كانت اليمن تبايع بالأدم: قال أوس بن حجر[7]:

وما عدلت نفسي بنفسك سيّدا سمعت به بين الدراهم والأدم

وقد كانت هناك أنواعاً عديدة من هذه الجلود المستعملة في الكتابة كجلود الغنم

(1) الفهرست/ ص32.

(2) رسائل الجاحظ 1/ 252، والبيروني - تحقيق ما للهند/ ص81، وكوركيس عواد/ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المذكورة ص416.

(3) تحقيق ما للهند/ 81.

(4) أنظر: تاريخ الطبري 3/ 19 وما بعدها - أحداث سنة 7هـ - نشرة محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر 1962م.

(5) كوركيس عواد - المجلة المذكورة/ ص416.

(6) حبيب زيّات/ الجلود والرقوق والطروس في الاسلام/ مجلة الكتاب - يوليه 1947 - السنة الثانية الجزء 9، ص1358 منشورات دار المعارف المصرية.

(7) المرجع السابق/ نفس المكان.

والمعزى والحمير وسائر الدواب الأهلية والوحشية، وكان جلد الحمر الوحشية يسمونه «الغلجان»[1]. ومن شواهد الكتابة على جلود الماعز هو «كتاب الجفر» المشهور وقد ذكره أبو العلاء المعرّى بقوله[2]:

«لقد عجبوا لأهل البيت لمّا أتاهم علمهم في مسك جفر»

والمسك هو الجلد، والجفر: ما بلغ من أولاد الماعز أربعة أشهر، وجفر جنباه وانفصل عن أمه، وهذا يعني أن مسألة عمر الحيوان لها علاقة في جلده المستخدم للكتابة، بالنسبة لطراوته وخشونته وصقله ودباغته.

وصعوبة الكتابة على هذه الجلود، كانت واضحة قبل الدباغة الكوفية، حيث استطاعت هذه الدباغة بتحسين طرق معالجتها للجلود، أن تجد السهولة للكتابة عليها إلا أن الرائحة المنبعثة من هذه الجلود كانت نتنة، لذلك عمدوا إلى تجفيفها، ولكن الفُرس كرهوا رائحة دباغة الجلود حين كانت ترفع اليهم، فأمروا بتضعيرها بالزعفران وتطييبها بماء الورد[3].

وقد شكلت مسألة نتانة الجلود، أمراً مزعجاً لكثير من الرؤساء والكتّاب والمتأدبين والظرّاف، ولكنهم كانوا مجبرين على التعامل به، نظرا للحاجة قبل اكتشاف الورق والقراطيس.

وثمة نادرة لطيفة في السياق أوردها الخالديّان تقول[4]: حدّثنا أبو القاسم علي بن أحمد الاصبهاني قال: كان عندنا بأصبهان رجل حسن النعمة، واسع النفس، كامل المروءة يقال له: سماك بن النعمان، وكان يهوى جارية مغنية من أهل أصبهان، لها قدر ومعنى تعرف بـ«أمّ عمرو» فلإ فراط حبه اياها، وصبابته بها، وهب لها عدّة من ضياعه، وكتب عليه بذلك كتبا.

وحمل الكتب اليها على بغل، فشاع الخبر بذلك، وتحدث الناس به واستعظموه، وكان بأصبهان رجل متخلّف، بيّن الركاكة، يهوى مغنيّة أخرى، فلما اتّصل به ذلك، ظنّ

---

(1) حبيب زيّات - المرجع السابق - نفس المكان.
(2) نفسه/ ص1359.
(3) نفسه/ ص1360.
(4) الخالديان/ أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين/ كتاب التحف والهدايا/ ص176 - 177 تحقيق سامي الدهان - دار المعارف بمصر.
كما أوردها ابن خلكان في وفيات الاعيان 5/ 380 - 381 في ترجمة الشاعر/ نصر الخبز آرزى/ نشره إحسان عباس. كما ذكرها حبيب زيات - في المرجع المذكور - ص1361.

بجهله وقلّة عقلة أن «سماكا» إنما أهدى إلى «أم عمرو» جلوداً بيضاء لا كتابة فيها، وأن هذا من الهدايا التي تستحسن، ويجلّ موقعها عند من تهدى إليه، فابتاع جلودا كثيرة، وحملها على بغلين، لتكون هديته ضعف هدية «سماك» وأنفذها إلى التي يحب، فلما وصلت الجلود إليها، ووقفت على الخبر فيها، تغيّظت عليه، وكتبت إليه رقعة تشتمه فيها، وتحلف أنها لا كلمته أبدا، وسألت بعض الشعراء أن يعمل أبياتاً في هذا المعنى لتودعها الرقعة، ففعل وكانت الأبيات:

لا عاد طوعك من عصاكا ... وحرمت من وصل مناكا
فلقد فضحت العاشقيـ ... ـن بقبح ما فعلت يداكا
أرأيت من يهدى الجلو ... د الى عشيقته سواكا
وأظنّ أنك رمت أن ... تحكي بفعلك ذا «سماكا»
ذاك الذي أهدى الضيا ... ع لأمّ عمرو والصّكاكا
فبعثت منتنةً كأنـ ... ـك قد مسحت بهنّ فاكا
من لي بقربك يا رقيـ ... ـع ولست أهوى أن أراكا
لكن لعلّي أن أقطع ... ما بعثت على قفاكا

وقد كان للرقوق والجلود تلازم مع المثيولوجيا العربية، حيث أن كتب الأمان والعُوذ كانت تكتب بها، فلقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني(1) أن أمّ ذى الرمّة جاءت إلى الحصين ابن عبده بن نعيم العدوّي، وهو يقرىء الأعراب بالبادية احتسابا بما يقيم لهم صلاتهم، فقالت له: يا أبا الخليل، ان ابني هذا يروّعُ باللّيل، فاكتب لي معاذة أعلّقها على عنقه، فقال لها: ائتني برقّ أكتب فيه، قالت: فان لم يكن، فهل يستقيم في غير رقّ أن يكتب له؟ قال: فجيئيني بجلد، فأتته بقطعة جلد غليظ، فكتب له معاذة فيه، فعلقته في عنقه(2).

وعندما جاء الإسلام أختيرت الرقوق ليكتب بها القرآن من موقع الاجلال والتعظيم له، وكذلك الشأن بالنسبة للحديث النبوي، حتى أن بعض العلماء والمحدثين كانوا يرفضون أن يكتب عنهم الحديث الا بالرقّ، رغم وجود القراطيس، لا سيّما في العصور العباسية، وعلى ما يبدو، أن هذه الحالة تخضع لمفهوم ديني، دأب عليه الخلف من السلف، وأصبح شبه مذهب عند علماء الحديث، في العصر العباسي، ففي هذا السياق

---

(1) الاغاني 18/ 2 - أخبار ذى الرمة - الهيئة المصرية العامة للكتاب باشراف محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة 1390/ 1970م.

(2) أنظر بقية الخبر في الأغاني 18/ 2.

ينقل الخطيب البغدادي[1] خبرا مفاده أن المعتز بالله بعث بطلب أحمد بن بديل الكوفي ليكتب عنه الحديث، وعندما استعدّ للاملاء، أخذ الكاتب القرطاس والدواة فامتنع المحدّث وقال: أتكتب حديث رسول الله ﷺ في قرطاس بمداد؟

قال: فيما نكتب؟ قال: في رقّ بحبر، فجاؤوا برق وحبر، فأخذ الكاتب يريد أن يكتب فقال ابن بديل: أكتب بخطّك فأوما إليّ أنه لا يكتب، فأمليت عليه حديثين أسخن الله بهما عينيه: قال: فسأله ابن البنا أو ابن النعمان، أي حديثين؟ فقال: قلت: قال رسول الله ﷺ: «من استرعى رعيّة فلم يحطها بالنصيحة، حرم الله عليه الجنة»، والثاني: «ما من أمير عشيرة الا يؤتى به يوم القيامة مغلولا».

وقد كانت دفاتر ومصاحف أهل المغرب مكتوبة في الرقوق، وغلبت على الدواوين السلطانية في الأندلس الكتابة في جياد الرقوق، وبأجلّ الأقلام، حتى أن الوزير أبا حفص بن برد الأكبر، كان يتشدد في ذلك أيما تشدد، فقد نقل عنه[2] «أن قوما من خدمة الحضرة، قد عادوا لما نهوا عنه، فكتبوا الخط الدقيق في دنيّ الرُقّق دقة من هممهم، ودناءة في اختيارهم، وجهلا بأن الخطّ جاه الكتاب، وسلك الكلام، به ينظم منثوره، وتفصّل شذوره، ونبله من نبل صاحبه، وهجنته لاحقة بكاتبه، ومن فصول هذه الرسالة، قوله[3]: معشر الخدمة. . . يجب «أن يحكم الخط فيقيم حروفه، ويراعى المداد فيجيد صنعته، ويميّز الرق فيحسن اختياره، وعجزه الحزم النافذ والحكم الصادع، بأن يكون صدور كتب الاعتراضات وعنواناتها وتواريخها، والإعداد في رؤوس رسومها، بخط أيدي القوّاد والعمّال، من كان منهم كاتبا فبيده، ومن لم يكتب فبخط كاتب له معروف، ثم يؤكد، على أنّه إن ورد لأحد من الخدمة بعد وصول ذلك العهد إليه، كتاب اعتراض أو عمل في رقّ ردّى أو بمداد دنيّ، أو خطّ خفي، فيه لحن أو كتاب على بشر في عدد، أو رأس رسم مالم يخف أو يقع في حشو الكتاب ويعتذر منه، ليبطلنّ سعى كاتبه فيما كتب، وليعاجلن بعقوبة العزل، واغرام الثابت المال عدده في ذلك القنداق»[4].

إن هذه التوكيدات من لدن أهل الاندلس، هي تجاوب وانجذاب لاهل المشرق الذين راحوا يسمون برفع شان، كل ما هو ابداعي، وكان للكتابة والكتّاب، وتحسين أدواتهم،

(1) تاريخ بغداد 4/ 51 - 52.
(2) ابن بسّام/ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة/القسم الأول - المجلد الأول ص87 - 88 - طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1358هـ/ 1939م.
(3) المصدر السابق/ص86 - 87.
(4) القنداق = صحيفة الحساب - اللسان - مادة: قندق.

أمر له أسبقية عندهم، لذلك كان أهل الاندلس، هم الصدى الاقوى، والرجع الأبعد، وما تلك التوجيهات الادارية - الفنية، إلا دليلا على ذلك. وقد وجد عند أهل الأندلس ربض في قرطبة يدعى «ربض الرقّاقين» تباع فيه الرقوق بالقرب ممن باب العطّارين[1].

وقد عرفت الأندلس، كما عرفت بغداد احراق الكتب الفلسفية، وهذه الكتب، كانت مدوّنة بالرقوق والقرطاس والكاغد، وقد أحرق لإبن حزم[2] عدة كتب أيام ابن عبّاد، وقد رثاها بقوله[3]:

فإن تحرقواالقرطاس لاتحرقوا الذي ... تضمّنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلّت ركائبي ... وينزل أن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من احراق رقّ وكاغد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلاّ فعودوا في المكاتب بدأة ... فكم دوّن ما تبغون لله من سرّ

وعلى أي حال، فلقد كان للرقوق والجلود حضورها في الحضارة الاسلامية، حتى نهاية (ق 6هـ)، وقد انفرد الرقّ في تلبية الحاجات الديوانية، فترة غير قصيرة، إلى أن أتيح للكاغد أن يأخذ مكانه[4].

وقد استطاع الجاحظ أن يختبر الجلود والرقوق، اختبارا عمليّا، بحكم علاقته بالكتابة والكتب، وتعايشه اليومي مع الورّاقين، وهو الذي كان يكترى حوانيتهم[5]، فعرف صالحها من طالحها، وثقيلها من خفيفها، وكشف عن التأثيرات الطبيعية فيها، إذا تعرّضت للرطوبة أو الشمس أو الماء، حتى كشف عمليات التزوير التي تجرى فيها، لا سيما في أنواع منها كالبصرى والكوفي والواسطي، وقد صبّ كل ذلك في رسالة «الجدّ والهزل»[6]، فهو في معرض حديثه عن الورق الصيني والكاغد الخراساني، حيث كان يخاطب الوزير «محمد بن عبد الملك الزيات» يقول[7]: «وما عليك أن تكون كتبي كلها من الورق الصيني، ومن الكاغد الخراساني، قل لي: لم زيّنت النسخ في الجلود، ولم حثثتني على الأدم، وأنت

(1) حبيب الزيات/ مجلة الكتاب/ ص1364.
(2) أنظر ترجمته في الذخيرة 1/ 110 - 147.
(3) الذخيرة 1/ 144، وقد ذكرها حبيب زيات بمقالته المنشورة بمجلة الكتاب/ ص1364.
(4) راجع بهذا الصدد مقالة د. طه الحاجري/ عن الورق والوراقة في الحضارة الاسلامية. منشورة في مجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد 13 - عام 1965م، صـ 63 - 188.
(5) ياقوت الحموى/ معجم الأدباء 16/ 75.
(6) رسائل الجاحظ 1/ 231 - 278 بعناية عبد السلام هارون.
(7) رسائل الجاحظ 1/ 252 - 253.

تعلم أن الجلود جافية الحجم، ثقيلة الوزن، أن أصابها الماء بطلت، وإن كان يوم لثق استرخت، ولو لم يكن فيها، إلا أنها تبغّض إلى أربابها نزول الغيث، وتكرّه إلى مالكيها الحب، لكان في ذلك ما كفى ومنع منها».

ثم يبدأ بشرح إنعكاسات تلك المواصفات على عمل الورّاق في الكتابة وغيرها، يقول[1]: «قد علمت أن الورّاق لا يخطّ في تلك الأيام سطراً، ولا يقطع فيها جلدا، وإن نديت فضلا عن أن تمطر، وفضلا عن أن تغرق، استرسلت فامتدت، ومتى جفّت لم تعد إلى حالها، إلا مع تقبّض شديد، وتشنج قبيح، وهي أنتن ريحا وأكثر ثمنا، وأحمل للغش، يغشّ الكوفيّ بالواسطي، والواسطي بالبصرى، وتعتّق لكي يذهب ريحها، وينجاب شعرها، وهي أكثر عقدا وعجرا، وأكثر خباطا واسقاطا، والصفرة إليها أسرع، وسرعة انسحاق الخطّ فيها أعمّ. ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره، لما كفاه حمل بعير، ولو أراد مثل ذلك من القطنّي/ أي المصنوع من القطن/ لكفاه ما يحمل مع زاده».

هذه المفاضلات والمواصفات للجلود، يتكلم عنها الجاحظ عن دراية وممارسة واختبار، كما أسلفنا، وهو هنا يريد استظهار الورق عليها، والحث على استخدامه، بالمقابل إسقاط هذه الرقوق والجلود من التداول، وبالحقيقة هي استجابة حضارية من الجاحظ، وهو سيّد الكتّاب في وقته - وحتى اليوم - كي يحتذى به، ويصار إلى خطاه، وبغية التشديد على استعمال الورق القطني، فإنه يوغل في الاساءة إلى الجلود حتى يمحو أثرها تماماً، يقول[2]: «وقلت لي: عليك بها فإنها أحمل للحكّ والتغيير وأبقى على تعاورالعارية وعلى تقليب الأيدي، ولرديدها ثمن، ولطرسها مرجوع، والمعاد منها ينوب عن الجدد، وليس لدفاتر القطني أثمان في السوق، وإن كان فيها كل حديث طريف، ولطف مليح، وعلم نفيس، ولو عرضت عليهم عُدًّ لها في عدد الورق جلوداً، ثم كان فيها كل شعر بارد وكل حديث غثّ، لكانت أثمن، ولكانوا عليها أسرع».

ثم يبدأ بذكر استخداماتها والأماكن التي ساد فيها هذا الاستخدام، على لسان مخاطبه، يقول[3]: «وقلت: وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين، وفي الصكاك والعهود، وفي الشروط وصور العقارات، وفيها تكون نموذجات النقوش، ومنها تكون خرائط البرد[4]، وهنّ أصلح للجرب ولعفاص الجرّة وسداد القارورة، وزعمت أن الأرضة

---

(1) رسائل الجاحظ 1/ 253.

(2) المصدر السابق - نفس المكان.

(3) المصدر السابق 1/ 253 - 254.

(4) الخريطة = وعاء يشبه الكيس مصنوعة من الخرق أو الأدم، تشرج على ما فيها - يقابلها الآن الرزم القماشية - والبرد = جمع بريد. أنظر الهامش رقم/ 1/ من ص254 في المصدر المذكور أعلاه.

إلى الكاغد أسرع، وأنكرت أن تكون الفأرة إلى الجلود أسرع، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفسد، فكنت سبب المضرّة في اتخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد، وكنت سبب البليّة في تحويل الدفاتر الخفاف في المحمل إلى المصاحف التي تثقل الأيدى وتحطّم الصدور، وتقوّس الظهور وتعمي الأبصار».

وهكذا كشف الجاحظ كل محاسن ومساوىء الجلود واستخداماتها المختلفة في زمانه وقبله.

الطروس:

الطّرس: الصحيفة، ويقال هي التي محيت ثم كتبت، فيما عرّفه ابن سيده[1]: الطّرس، الكتاب الذي محي ثم كتب، والجمع أطراس وطروس، ثم قالوا: الطرس، الكتاب الممحو الذي يستطاع أن تعاد عليه الكتابة، وفعلك به يسمى «التطريس»[2].

ومن هذا التعريف، يعرّج المعنى على أن المراد بهذا، هي الجلود والرقوق، أكثر من بقية المواد الخاصة بالكتابة، فهي الوحيدة على تقبل الماء، فالقراطيس والورق، لا تقبل ذلك التفاعل بينها وبين الماء.

وعملية التطريس للكتب، ناتجة على ما يبدو عن وضع طارىء تتعرض له أسواق الكتب، فيحصل شح أو نقص في الورق المطلوب، مما يلجىء إلى الجلود لمحوها والكتابة عليها مجدداً، وهذه الأمور تحدث وقت الازمات والحروب، فلقد ذكرت المصادر[3] أن الفتنة التي حدثت أيام الأمين، عرّضت الدواوين إلى النهب، وأخذ ما فيها من الجلود المكتوبة، فمحيت وغسلت، وكتب الناس فيها عدة سنين، كما أن هناك جملة من العلماء والمؤرخين أقبلوا على هذه العملية نتيجة موقف إيماني، أو ايديولوجي، أو سياسي أو غيره، وقد اشتهر من الأولين - أصحاب الحديث - سفيان الثوري[4] فقد قيل أنه لما حضرته الوفاة غسل كتبه كلّها، وعلى ذلك يشير أبو العلاء المعري في «اللزوميات»[5]:

---

(1) لسان العرب/ مادة (طرس).
(2) المصدر السابق - نفس المادة.
(3) حبيب زيّات/ مجلة الكتاب/ ص1366.
(4) راجع عنه/ معجم رجال الحديث - للخوئي/ 8/ 161 - ط2 - بيروت 1403هـ/ 1983م وراجع أعلام الزركلي 3/ 104.
(5) حبيب زيّات/ مجلة الكتاب/ ص1366.

«والـــخـــوف ألـــزم ســـفـــيـــا   ن أن يـــغـــــرق كـــتـــبـــه»

ومن جميل ما نقله ياقوت الحموي، في هذا الصدد: قال[1] في ترجمته لـ «علي بن عيسى ابن الفرج بن صالح الربعيّ» أنه كان أحد أئمة النحويين وحذّاقهم، قد ألّف كتاباً لشرح «كتاب سيبويه» في النحو، وغسله، نتيجة منازعة بينه وبين أحد بني رضوان التاجر، في مسألة نحوية، فقام هذا العالم مغضبا، وأخذ شرح سيبويه وجعله في اجانة[2] وصبّ عليه الماء وغسله، وجعل يلطم به الحيطان ويقول: «لا أجعل أولاد البقالين نحاة».

وينقل حبيب زيّات[3] عن ابن الدهان الوجيه قوله: أنه حضر بدار الكتب المأمونية، وخازنها يومئذ (أبو المعالي أحمد بن هبة الله) فجرى حديث المعرّي، فذمّه الخازن وقال: كان عندي في الخزانة كتاب من تصنيفه غسلته، فقال له الوجيه، وأى شيء هذا الكتاب؟ قال: كان كتاب نقض القرآن، فقال له: «أخطأت في غسله».

وهذه المسألة توضّح لنا مدى الخطورة في ضياع الكثير من تراثنا المفقود بهذه الطريقة المخيفة.

الفصل الثالث

القراطيس

القرطاس: هو الصحيفة التي يكتب بها، ويراد منه في المعنى مصطلح «المهراق»[4] وجمعها مهاريق. وقد ذكرت في القرآن[5] جميعها إلا «المهراق»، وعرّفه ابن منظور بقوله[6]: القرطاس معروف يتخذ من بردي يكون بمصر، ثم يضيف: والقُرطاس والقَرطاس والقِرطس كله: الصحيفة الثابتة التي يكتب فيها، ويرى الجواليقي[7] أن أصله

(1) معجم الأدباء 14/ 79.
(2) أناء كبير تغسل فيه الثياب، أصغر من «الطشت».
(3) مجلة الكتاب/ ص1366.
(4) الصولي - أدب الكتّاب/ ص105.
(5) سورة الانعام/آية 6 و90، وغيرها.
(6) اللسان - مادة (قرطس).
(7) المعرّب/ باب القاف - مادة (القرطاس)، تحقيق أحمد محمد شاكر، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1361هـ.

غير عربي، وقد ذكرت الكثير من المصادر أنه الضارب نحو اللون الأبيض، كما في اللسان[1]، واستشهد الصولي على ذلك بقول أبي نواس[2]:

واحتازها لون جرى في جلدها يَقَقٌ كقرطاس من الوليد هجانِ[3]

حيث أنه شبّه الناقة البيضاء بالقرطاس، بهذا القول، ومن نوادر أبي نَواس في ذكر القرطاس، ما ذكر أبو العيناء عن الجمّاز قال[4]: أراد أبو نَواس أن يكتب إلى اخوان له، فلم يجد شيئاً يكتب فيه، فحلق رأس غلامه وكتب عليه ما أراد، وفي آخرها كتب:

لم يقو عندى على تخريق قرطاسي إلاّ فتى قلبه من صخرة قاسي
أن القراطيس من قلبي بمنزلة تكون كالسمع والعينين في الراس
لولا القراطيس مات العاشقون معا هذا بغمّ، وهذاكُم بوسواس

وقد كانت مصر أم القراطيس، فهي التي تصدّره إلى جميع الاقطار، حتى أن القلقشندي في تعريفه للقرطاس يقول[5]: القرطاس كاغد يتخذ من بردي مصر. وعلى هذا الاساس عرفت مصر بقرطاسها، أكثر من أيّ مصر اسلامي آخر، حتى أن سمعة القراطيس المصرية، كانت دليل واستدلال على مصر برمتها، فراح ينسب القرطاس إلى مصر، وبه يستشهد، ونقل الثعالبي[6] في ذلك:

حملت إليك عروس الثناء على هودج ماله من بعير
على هودج من قراطيس مصر يلين على الطيّ لين الحرير

كما أن السيوطي ذكر[7] أن من خصائص مصر «القراطيس» وهو الطوامير، وهي أحسن ما كتب فيه، وهو من حشيش أرض مصر، ويعمل طوله ثلاثون ذراعاً وأكثر في عرض مقداره شبر.

وذكر البيروني[8] أن القرطاس يصنع من لب البردي، يبرى في لحمه، وعليه صدرت

---

(1) مادة (قرطس).
(2) أدب الكتّاب/ ص106.
(3) يقق: أبيض شديد البياض ناصعه: ويقال في الجمع «يقايق» صفة على غير قياس، ويوصف به «جمار النخيل» - راجع اللسان - مادة - يقق - والقاموس المحيط - يقق.
(4) أدب الكتاب/ ص107.
(5) صبح الاعشى 2/ 474.
(6) ثمار القلوب/ ص530 - 531.
(7) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة 2/ 173 - طبعة القاهرة 1327هـ.
(8) تاريخ ما للهند/ ص81.

كتب الخلفاء، حيث أن البردي ليس ينقاد لحكّ منه وتغيره، ، بل يفسد به، وهناك بلدان أخرى، اشتهرت في وجود نبات البردي في أراضيها، كانت تنافس مصر في وجوده، منها جزيرة صقلية، وقد نوّه بذلك ابن حوقل في حديثه عن «صقلية» حيث قال[1]:

وأراضيها «يغلب عليها السباخ والآجام، وفيها قصب فارسي، وبحائر ومقات صالحة، وفي خلال أراضيها بقاع قد غلب عليها البربير وهو البردي، المعمول منه الطوامير، ولا أعلم لما بمصر من هذا البربير نظيراً على وجه الأرض إلا ما بصقلية منه، وأكثره يفتل حبالا لمراسي المراكب، وأقلّه يعمل للسلطان منه طوامير القرطيس، ولن يزيد على قلّة كفايته»، ومن هذا يتضح أن شهرة القراطيس المصرية قد ملأت الآفاق، وصار هو الأبرز والأشهر والأحسن في الاستخدام اليومي لمؤسسات الدولة الاسلامية، بكافة أمصارها وأسواقها، وقد ذكره الباحثون، أنه كان في مصر السفلى عدد عظيم من غياض فسيحة تنبت البردي، ذلك النبات الطويل الحسن، الذي يتخذ الورق من لبابه، حيث أنّه يشق إلى شرائح تجعل منها صحائف بالضغط، ثم تصقل بآلة من العاج، ثم توصل الصحائف بعضها ببعض، فتصير على شكل لفائف يسهل استعمالها، وقد كانت مدينة الاسكندرية، المركز الرئيسي الذي تصدّر منه القراطيس المصنوعة من ذاك البردي[2].

وعلى هذا الأساس، اتخذ المسلمون أوراق البردي للكتابة عليها في بداياتهم الاولى، فقد اعتمدت الخلافة العباسية على قراطيس مصر، أيما اعتماد، حتى امتلأت أسواق القراطيس في بغداد[3] وعرفت باسمها دروب، لا سيما في الكرخ، حيث يوجد درب باسم «درب أصحاب القراطيس» ذكره الخطيب البغدادي في معرض حديثه عن سعيد بن سليمان سعدويه البزاز[4]، كما نقل الجهشياري رغبة المنصور في بيع قراطيس الدولة الموجودة في خزائنه، حيث قال[5]: «وقف أبو جعفر المنصور على كثرة القراطيس في خزائنه، فدعا بصالح، صاحب المصلّى، فقال له: اني أمرت باخراج حاصل القراطيس في

---

(1) صورة الأرض لابن حوقل 1/ 122 - 123 - الطبعة 2 ليدن سنة 1938م - وكوركيس عوّاد - المجلة المذكورة/ ص413.

(2) كوركيس عوّاد - المرجع السابق/ ص412 - وقد ذكر كوركيس عواد أن هناك الكثير من المستشرقين قد عنوا بدراسة أوراق البردي العربية، من أمثال ج. كرابسك، وسي -. ج بيكر، وا. جروهمان وغيرهم.

(3) الجاحظ، المحاسن والاضداد/ ص336 - 337 - طبعة فان فلوتن - ليدن 1898م.

(4) تاريخ بغداد 9/ 86.

(5) الجهشياري/ الوزراء والكتّاب/ ص138 تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، ط1، طبعة البابي الحلبي - القاهرة 1357هـ/ 1938م.

خزائننا، فوجدته شيئاً كثيراً جداً، فتولّ بيعه، وان لم تعط بكل طومار الآ دانقا[1]، فإن تحصيل ثمنه أصلح منه. قال صالح: وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم، إلا أن المنصور عاد وتخلّى عن فكرته في اليوم التالي، مشيراً على صالح بقوله: فكرت في كتبنا وأنها قد جرت في القراطيس، وليس يؤمن حادث بمصر فتنقطع القراطيس عنّا بسببه، فنحتاج إلى أن نكتب فيما لم نعوّده عمّالنا، فدع القراطيس استظهارا على حالها».

وهذا الخبر يوضّح مدى الكميات الهائلة الموجودة في خزائن الدولة العباسية، من جهة، ومن جهة ثانية يشير إلى مكانة مصر في تصدير القراطيس، ومن جهة ثالثة، يؤكد تخوف المنصور من القلاقل الممكنة الحدوث، إضافة إلى أنه يشير إلى سعر القراطيس وقتذاك، وهي مسألة هامة توضّح جانبا من تطور الحالة الاقتصادية والثقافية على حدّ سواء.

ثمة مسألة غير واضحة، لم يذكرها المؤرخون بالدقة، هي/ صناعة القراطيس في بغداد، هل هي كانت قائمة أم أنها غير موجودة؟ فقد أشار السمعاني[2] إلى وجود عدّة أشخاص غلبت عليهم نسبة القراطيسي، والتي يوصف بها من عمل بالقراطيس، من أمثال أبي عثمان سعيد بن بحر القراطيسي، وغيره، كما ذكر الخطيب البغدادي تراجم سبعة رجال عرف كل منهم «بالقراطيسي»[3]: إلا أن هذين المؤرخين لم يذكرا صناعة لهم باسم القراطيس، كما أن اليعقوبي أشار إلى أن المعتصم عندما نقل عاصمته إلى «سرّ من رأى» (سامراء) حمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها[4]، ومن هذا يتضح أن صناعة القراطيس لم تنشأ في بغداد، إلا أن تجارة القراطيس عرفتها بغداد وإليها ينسب القراطسيون إلا أن صناعة الكاغد عُرفت بها منذ أيام السفاح.

تعود صناعة القراطيس في مصر إلى أيام الأقباط - المسيحية، وهذه القراطيس، كانت تدرّ لهم أرباحا متواصلة، حيث أنها كانت تدخل بلاد الروم من أرض مصر، وكان العرب يشترونها بالدنانير الرومية[5]، وظلوا على هذه الحال، يستعملونها امتيازاً لها عن

---

(1) الدانق = سدس الدرهم.

(2) السمعاني - الأنساب 10/ 83 - 85 - تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو - بيروت - ط1/ 1401هـ/ 1981م.

(3) تاريخ بغداد 2/ 91 و4/ 430 و11/ 233 و12/ 3 و12/ 151 و13/ 45.

(4) البلدان لليعقوبي/ ص364 طبعة ليدن سنة 1891 - مصوّر لمكتبة المثنى ببغداد ومطبوع بذيل الاعلاق النفيسة لابن رسته.

(5) البلاذري - فتوح البلدان/ ص335 - تحقيق عبدالله أنيس الطباع وأخيه عمر، دار النشر للجامعيين 1377هـ/ 1957م.

غيرها منذ عهد معاوية بن أبي سفيان[1]، وظلت صناعة القراطيس مصرية حتى أيام عبد الملك بن مروان (65 - 86هـ) حيث نضج كيان الدولة السياسي، وأخذت الدولة الأموية تنتبه إلى تحقيق مظاهر سيادتها في مختلف الميادين، وقد تنبهت الدولة إلى أمر القراطيس، كما يقول الحاجري[2]، وأولتها شيئاً من العناية فاتجهت إلى احتوائها اسلاميا، نظرا لكونها في حياض ديار إسلامية (مصر)، وقد كانت هناك حادثة سياسية - اقتصادية، سرّعت العملية بذلك، فقد أشار البلاذري إلى أن عبد الملك بن مروان، أحدث في مراسلاته إلى ملك الروم أمراً لم يكن مألوفا لدى الروم، حيث أنه أبدل طرّة الكتاب، الذي يكتب في رؤوس الطوامير «الصحف» والتي درج أن يوضع عليها الصليب، فأبدله عبد الملك بقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[3]، الأمر الذي أثار حفيظة ملك الروم وكتب إلى عبد الملك: انكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه، فان تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيّكم ما تكرهونه، قال: فكبر ذلك على عبد الملك، وكره أن يدع سنّة حسنة سنّها، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية، وقال له: يا أبا هاشم، احدى بنات طبق، وأخبره الخبر فقال خالد: أفرغ روعك يا أمير المؤمنين، حرّم دنانيرهم، فلا يتعامل بها، واضرب للناس سككا ولا تعف هؤلاء الكفرة ممّا كرهوا في الطوامير، فقال عبد الملك: فرّجتها عني، فرّج الله عنك، وضرب الدنانير»[4].

وهذه الحادثة تشير إلى أهمية القرار السياسي في تحرير الاقتصاد من التبعية أولا، وتبعث على اضفاء الصبغة الوطنية والقومية، وعلى الاستقلال الفكري، إضافة إلى أنها جعلت مسألة الاعتماد على الذات، من الأمور الرئيسية والهامة، في مسألة التحرر الكامل للمجتمع، في صناعاته واقتصاده، وثقافته، وهي خطوة تاريخية لم يخطها أي قائد عربي في هذا الزمان.

(1) صبح الاعشى 6/ 189.
(2) الورق والوراقة في الحضارة الاسلامية - مجلة المجمع العلمي العراقي 12/ 1965م/ ص133.
(3) الآية الأولى من سورة الاخلاص.
(4) البلاذري - فتوح البلدان/ ص335 - 336.

الفصل الرابع

الكاغد أو الورق

الكاغد: بفتح الغين، لفظ فارسي، عرّب[1] تتواشج معانيه مع لفظ القرطاس والورق، فهو عند «الفيروزآبادي[2] «الكاغد = القرطاس، وعند ابن منظور[3]، الكاغد معروف، وهو فارسي معرّب، وعند الشيخ أحمد رضا[4] «الورق = الكاغد»، إلا أنه أعطاه صفة البياض فقال: يتخذ من أدم أو قطن أو كتان. الورق: من أوراق الشجر والكتان، والواحدة ورقة[5]، وقد فصّل القلقشندي الاسم، وأزال الكثير من الالتباسات الناشئة في المعاني المترادفة له، من حيث تسمياته بالكاغد والقرطاس والورق، حيث قال: الورَق، بفتح الراء: اسم جنس يقع على القليل والكثير، واحده ورقة، وجمعه أوراق، وجمع الورقة ورقات، وبه سميّ الرجل الذي يكتب ورّاقا[6]، وأضاف: وقد نطق القرآن بتسميته قرطاسا وصحيفة، ويسمى أيضاً الكاغد، وكذلك «المهراق».

وعلى ما يبدو، أن مسألة الاستخدام اليومي للورق أو الكاغد، أخذت تفرزن المعنى الأعمق للاصطلاحين، فالكاغد هو الأسبق في التداول والاستخدام، ودأب الناس عليه، ثم استعيض عنه باصطلاح - ورق - بعد أن خصّص استعماله للكتابة أكثر من بقية الاستخدامات، وبعد أن حسّنت عجينة صناعته، فاصطلاح كاغد، عند العراقيين الآن، يعنون به/ الورق الأسمر/ حصرا، والمستخدم لصناعة الاكياس الورقية، وبه تعجّ أسواق «الشورجة» في بغداد - الرصافة. بينما يتميّزون بفهمهم اصطلاح - ورق - هو ذاك المتخذ للكتابة وحدها، ومنه تتخذ سجلات الدوائر الحكومية وغيرها. وعندما توصل المسلمون

(1) أدّي شير/ الالفاظ الفارسية المعرّبة/ ص136 - بيروت - ط1 - 1908م.
(2) القاموس المحيط/ مادة - الكاغد.
(3) اللسان - مادة (كغد).
(4) متن اللغة - مادة (ورق).
(5) اللسان - مادة (ورق).
(6) صبح الاعشى 2/ 476.

إلى اكتشاف صناعة الورق، رأوا منه مادة ليّنة، خفيفة، سهلة الحمل والنقل، لا تتطلب حيّزاً كبيراً، كما الجلود والرقوق، أكثروا منه إكثاراً عظيماً، جعل من الكتب أضعافا مضاعفة[1].

يعود الفضل في معرفة صناعة الورق إلى الصين، وكان الورق الصيني، قد عرفه التجار العرب واستوردوه منهم، فقد كان هؤلاء التجار على اتصال تجاري ببلاد الشرق الأقصى[2]، وقد كان لمدينة سمرقند[3] «الفضل الأكبر في انشاء صناعة الورق في العالم الاسلامي حيث أنها كانت أول مدينة إسلامية صنّع فيها الورق، وهذه المدينة كان قد فتحها في العصر الأموي القائد المشهور قتيبة بن مسلم الباهلي سنة 87هـ[4].

وسمرقند «هي المدينة التي عرفت بكواغدها، التي عطّلت قراطيس مصر، وكسّدت الجلود التي كانت الكتابة بها، وكواغدها أنعم وأحسن وأرفق، كما يقول الثعالبي[5].

غزا المسلمون مدينة «أطلح» سنة 134هـ بقيادة زياد بن صالح[6]، وكانت هذه الوقعة ضمن حدود بلاد الصين، وقد أوضحت المصادر[7] أن زيادا هذا قد وقع في سبية من تلك المدينة الصينية، أناس يعرفون صنعة الكاغد، وأحلّهم في سمرقتند، فأنشئوا هناك مصانع لصناعة الورق، وانتشرت الصناعة، وصارت تحمل منها الكواغد إلى سائر البلاد الاسلامية وراحت سمعة الكواغد السمرقندية، تطير في الآفاق، والطلب عليها يزداد، وقد نوّه ابن الوردي[8] بذلك وأشار إلى أن خصائص سمرقند بالكواغد التي أزرت بكواغد الارض في الطول والعرض والجلود الرقاق، التي لا توجد في الدنيا، كما أن السمعاني قد

(1) كوركيس عوّاد/ مقاله الورق أو الكاغد/ المرجع المذكور آنفاً ص417.
(2) المرجع السابق - نفس المكان.
(3) انظرها عند ياقوت الحموي/ معجم البلدان 3/ 247 - 250.
(4) البلاذري - فتوح البلدان/ ص592 - 593.
(5) ثمار القلوب/ ص543، ولطائف المعارف/ ص218.
(6) زياد بن صالح الحارثي - كان والي الكوفة عند قيام الدولة العباسية في خراسان والعراق، خرج علي بني العباس في ما وراء النهر، قتل سنة 135هـ على يد أبي مسلم الخراساني - راجع الطبري 7/ 466 - أحداث سنة135هـ.
(7) المسالك والممالك - رواية الثعالبي في الثمار/ ص543 والقزويني في/ آثار البلاد وأخبار العباد/ ص 536 - منشورات دار صادر - بيروت - 1380هـ/ 1960م.
(8) ابن الوردي/ فريدة العجائب/ ص231 - طبعة محمد شاهين - القاهرة 1380هـ/ 1960م وراجع كوركيس عواد/ ص419.

أوضح في «الانساب»[1] أن «الكاغذى، نسبة إلى عمل الكاغذ، الذي يكتب عليه وبيعه، وهو لا يعمل في المشرق إلاّ بسمرقند، وذكر أسماء طائفة من الذين عرفوا بالكاغذى. وقد أثنى ابن حوقل على ذكر أهل سمرقند واصفهم بأن لهم الكاغد الذي لا نظير له في الجودة والكثرة[2]، ومن هذا يتّضح، أن الاقبال على أوراق سمرقند، أخذ يأتي من كل الممالك الإسلامية، لا سيما عاصمة الدولة العباسية بغداد، نظرا للحاجة الماسّة إليه، وقد أدرك الخلفاء العباسيون أهمية وجود صناعة للورق في بغداد، فقد ذكر ابن خلدون[3]، أن العمران واتساع نطاق الدولة، وكثرة التآليف العلمية والدواوين، وحرص الناس على تناقلها في الآفاق، والأمصار فانتسخت السجلات.

وجلّدت وجاءت صناعة الورّاقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الامور الكتبية والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران، ولما طما بحر التآليف والتدوين، وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرقّ عن ذلك، أشار الفضل بن يحيى البرمكي مستشار الدولة العباسية على ضرورة وجود صناعة الكاغد، فصنّع، وكتبت فيه الرسائل والصكوك السلطانية، ثم اتخذه الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية، وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت، ثم غدت صناعة الورق، معروفة ومتداولة، ومن المهن الشريفة، حتى أن اخوان الصفاء عدوها من الصناعات الروحية[4] فقد نصّت رسائلهم على أنّ «صناعة الورق من الصناعات الروحية، باعتبار أن ماهيّتها من أصول نباتية، لأن لحاء البناء يدخل في تركيبها وصناعتها. وقد راجت أيما رواج، وراحت العامة والخاصة من الناس تتعامل بها وتتعاطاها، وما من شك في أن سوق الورّاقين ومهنة الوراقة كانت نتيجة منطقية لهذه القفزة الحضارية، ساهمت في تنشيط هذه الصناعة بل أن هذه الصناعة ذاتها كانت عامل دعم ووجود وديمومة وتطور لمهنة الوراقة، كما أنها ساهمت في نشر الوعي والثقافة إلى حدّ كبير.

---

(1) السمعاني - الانساب/ مادة (الكاغذي) 10/ 326.

(2) ابن حوقل - صورة الأرض 2/ 465 - ط2 - ليدن سنة 1939م.

(3) المقدمة/ ص421 نشرة دار احياء التراث - ط4 - بيروت.

(4) رسائل اخوان الصفا 1/ 214 بعناية خير الدين الزركلي - الطبعة المصرية - القاهرة 1921م.

الفصل الخامس

صناعة الورق في بغداد

من إشارة ابن خلدون، المارة الذكر[1]، يمكن تحديد الفترة التي ظهرت فيها صناعة الورق في بغداد فالفضل بن يحيى البرمكي[2] هو الذي أنشأ منصعاً للورق في بغداد، وكان مولده سنة 147هـ ووفاته سنة 193هـ، يمكن الركون إلى أن الربع الاخير من القرن الثاني للهجرة هو المحط الزمني الذي يمكن اعتماده في تأرخة الحدث - صناعة الورق[3]، ولمّا تسنّم أخوه جعفر بن يحيى الوزارة في أيام الرشيد، أحلّ الورق محل الرقّ في دواوين الدولة، وذلك لأن الورق قد كثر في زمان الرشيد، فأمر أن لا يكتب إلا في الكاغد[4] تجنّباً لحالة الغش والمحو والاعادة والتزوير التي تحدث في الرقوق، لأن الورق لا يقبل ذلك.

وعندما حلّ (ق 4هـ)، وقد زهت بغداد بآدابها وعلومها، ووصلت الحضارة فيها إلى أوجها، كانت مصانع الورق وحوانيته منتشرة في أكثر من مكان، وقد أشار الصولي إلى ذلك في معرض حديثه عن حريق الكرخ العظيم الذي وقع في شهر ذي القعدة من سنة 332هـ حيث قال[5] «ووقع في هذا الشهر بالكرخ حريق عظيم من حد طاق التكك إلى السماكين، وعطف على أصحاب الكاغد وأصحاب النعال. .». ولم تقتصر سكك الكرخ ودروبه على حوانيت الورق ومصانعه، بل تعداه إلى محال أخرى، حيث ذكر ياقوت الحموى أن محلة «دار القز» وهي محلة كبيرة ببغداد في طرف الصحراء، فيها يعمل الكاغد[6]، كما ذكر محال أخرى كانت تتعامل بالكاغد من أمثال (جهارسوج، والنصريّة،

(1) المقدمة/ ص421.

(2) أنظر ترجمته في وفيات الاعيان 4/ 27 - الترجمة رقم 527.

(3) راجع أيضاً - كوركيس عواد - المقال المذكور/ ص426.

(4) صبح الاعشى 2/ 475 - 476.

(5) أخبار الراضي والمتقي - الاوراق - للصولي/ ص261 - 262 بعناية ج. هيورش. دن - مطبعة الصاوى بمصر.

(6) معجم البلدان 2/ 422 - مادة (دار القز).

والعتابيّون، ودار القز)[1]، وهذه المحال كانت ضمن منطقة الحربية، ومتصلة بعضها ببعض، ظلت ماثلة في آخر خراب بغداد «المئة السابعة للهجرة» وفيها مصانع للورق.

ونظراً لكون بغداد، هي حاضرة الدولة الاسلامية في أيّام العباسيين فمن المنطقي أن تكون هي المركز التجاري، الذي تتعامل معه بقية أطراف الدولة لذلك شكّلت عملية تجارة الورق بينها وبين بقية الاقطار حالة دائمة التفاعل ومتطورة وقد طغت سمعة الورق البغدادي على الكثير من أقطار الخلافة الإسلامية، وظلّت هذه السمعة قائمة طوال عصور الخلافة العباسية وما بعدها، حتى أن المتأخرين من الكتّاب والمؤرخين، يذكرون أهمية هذا الورق وميزاته وجودته، وسيادة نوعيته على بقية أنواع الورق، من ذلك ما ذكره القلقشندي[2] من أن أحسن أنواع الورق ما كان ناصع البياض غرفا صقيلا، متناسب الاطراف، صبورا على مرور الزمان، وهو ما كان يتناسب ومواصفات الورق البغدادي حيث ذكر أنه: ورق ثخين مع ليونة ورقّة حاشية، وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جداً، ولا يكتب فيه في الغالب إلاّ المصاحف الشريفة، وربما استعمله كتّاب الانشاء في مكاتبات القانات ونحوهما في المكاتبات السلطانية[3]، وهذا الأمر يكشف أهمية الورق البغدادي ونفاسته، فقد كان يستعمل للأمور الجليلة، كما هو موضّح أعلاه، وهذه الميزات الصناعية والفنية للورق البغدادي تكشف مدى التطور في صناعة الورق، وتوفّره في بغداد، وندرته في غيرها.

وثمة أفضلية للورق البغدادي على غيره، فقد كان بعض الوزراء يهدونه إبّان تسنّمهم مقاليد الوزارة وبعض الامور الاخرى كالشمع والثلج[4] نظراً لغلاء هذه المواد، وقد ذكر ابن الطقطقي أن ابن الفرات - الذي تولى الوزارة للمقتدر ثلاث مرّات - كلّما ولي الوزارة يغلو الشمع والثلج والكاغد، لكثرة استعماله لذلك، لأنه ما كان يشرب أحد - كائناً من كان - في داره إلاّ الماء البارد، ولا كان أحد يخرج من عنده بعد المغرب، إلا وبين يديه شمعة كبيرة نقيّة، صغيراً كان أو كبيراً، وكان في داره حجرة معروفة بـحجرة الكاغد، كل من دخل واحتاج إلى شيء من الكاغد أخذ حاجته منها[5] وأضاف الصابيء إلى ذلك أن

(1) معجم البلدان 2/ 193 - 194 - مادة (جهارسوج).
(2) صبح الاعشى 2/ 476.
(3) المصدر السابق.
(4) مسكويه - تجارب الامم 1/ 120 طبعة آمدروز - وكوركيس عواد - المجلة المذكورة/ ص429.
(5) ابن الطقطقي - الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية/ ص196 - بعناية محمد توفيق الكتبي - منشورات المطبعة الرحمانية بمصر.

ابن الفرات كان قد خصص مبالغ للصحف والقراطيس والكاغد[1].

نظراً للإقبال الشديد من لدن عامة الناس وبقية أصحاب المِهَنْ، لا سيما تلك التي تحتاج في حملها إلى الورق، أصبحت الحاجة مُلحّة إلى توفير كميات كبيرة من الورق، الأمر الذي لا تستطيع معهُ «معامل الورق» في بغداد من تسديد الحاجة والطلب، لجأ الناس إلى «صناعة الورق المحليّة» داخل البيوت أو الدكاكين الخاصة بهم، تمشية لأمورهم العملية - الحياتية. الأمر الذي لفت انتباه ذوي الخبرة من الورّاقين وشيوخ صنعة الكتابة، فدوّنوا أمرَ تلك الصناعة المحليّة للورق، كي يستفاد منها الجمهور، وقد أطلعتنا «مخطوطة» بعنوان «المخترع في فنون من الصنع» مجهولة المؤلف وهي عبارة عن «فصل من كتاب» أوردها «محمد بن قوّام بن صفي بن محمد ضياء ترك فاكوري، المعروف بقاضي خان» وذلك في سنة 876هـ الموافق لعام 1471م. وقام الأستاذ «بروين بدري توفيق» بتحقيقها، ونشرها بمجلة (المورد العراقية)[2]، وبغية إتمام الفائدة للموضوع الخاص بصناعة الورق، نوردها هنا كاملة، كوثيقة أصلية تشير إلى مدى الوعي الحضاري عند أولئك الناس وشغفهم بحب المعرفة والثقافة:

عنوان المخطوطة:

«في عمل الكاغد البلدي ووضع الأسرار في الكتب وما يمحو الدفاتر والرقوق»

- صفة عمل الكاغد البلدي -

«يؤخذ لحاء شجرة المرخ[3] فيُيَبّس وتقشّر الظاهرة، فيرمى بها وتؤخذ القشرة الداخلية البيضاء، التي خيوطها كانت متينة، فاغسلها بماء صائر[4] تشبه البركة، ويفرش تحته من ورق العشر[5] ما يقيه من التراب ووسخ البركة، ويكون الماء قدر ما يغمرهُ مواد كثيرة ويغطّى فوقه في وسط الماء بورق العِشر عيدان لطاف وعيدان صغار حتى يمنعه ويمنع

---

(1) تحفة الامراء في تاريخ الوزراء/ ص26 - بعناية عبد الستار أحمد فرّاج - طبعة البابي الحلبي - مصر 1958م.

(2) راجع - المورد - العدد/ 4 مجلد 14 لعام 1985 - ص275 وص286.

(3) المرخ = شجر النار، سريع الورى، يتفرش ويطول في السماء، ليس له ورق ولا شوك وعيدانه سليّة، ومنه يكون الزناد الذي يقدح بو/ تاج العروس - مادة (مرخ).

(4) ماء حائر: أي ماء مجتمع في الحوض بسبب إليه مسيل ماء الأمطار القاموس - مادة (حَيَر).

(5) أورد المحقق كلمة (بالشعر) وهو غير مصيب لا من حيث المعنى ولا من حيث السياق، وما أوردنا هو الأدق، حيث تكرر ذلك في النص، مشيراً إلى (الشمس).

الورق من الصعود وحتى لا يبان منهُ شيء ولا يطفو فوق الماء، ويقيم في الماء منقعاً أربعة أيام بلياليها ثم يخرج من حوض الماء ويعصر ما فيه من الماء ويترك في زاوية البيت وهو مرصوف كدساً، شيئاً فوق شيء، ثم يُفرش لهُ من ورق العِشر ما يقيه من تراب البيوت ويبقى محمولاً في الزاوية، مغطى عليه أيضاً بورق العشر، ثلاثة أيام بلياليها من مَرَزْ، لأنه إن زاد عليه الرصف بالزاوية تلف، ، وكان ورقه ينقص، ثم يخرج من البيت ويُضحى [بالشمس][1] صفّاً أو سَفف [ثم] يخضخض ما بقي من التراب في الشمس حتى يجف ولا يبقى فيه من رطوبة الماء شيء ويجف ثم تغمر القِشرة الداخلةِ بالماء ثانية وتعصرهُ من الماء وتُكبّبُهُ[2] كِبباً صغاراً ثم تخلى في ركن خزن الكتب، بعضها فوق بعض وتسوى كبّة واحدة بعد واحدة وتنقى ما تبقى فيها من قشور اللّحاء الغليظ الأخضر ومن الوسخ ومن أثر ما تعلق من الماء حتى يصير نقيّاً من كل قشر وقش، هذا وهو رطب، وينعّم ما تكون بالظفر حتى يخلو من جميع ما فيه ولا يحتاج إلى أن تكبسه، لأن الدق يمسكه وينعّمِهُ ويخلطه ثم يضحى بالشمس ثانية، على موضع نظيف أو ثوب حتى لا ينشقهُ تراب ولا قش، ولا تنسى تذرهُ بالماء ثانية، ثم يطبق وتعصرهُ وتكببُهُ ثم يعاد عَملهُ الأول وتردهُ إلى وعائه الذي كان فيه وهو رطب ويخرج من الوعاء كبّة لينه وتضع الكبّة[3] الأرض مثل حجر الرحا نظيفة وتستعمل دقماقاً نظيفاً من خشب العتم[4] أو من خشب[5] يكون بوجهين ويكون بقدر ما وقعه الإنسان بيده، وتُتابع بهِ الضرب ولا تتعب ولا تترك الضرب بالدقماق، حتى يمتد ويصير مثل عجين ليّن في كل يوم تضربه مرّة واحدة وتعيدهُ إلى وعائه، لا يزال لذلك خمسة أيام وبعد الخمسة أيام ويقدّم بما في وعائه، فتنقعه على مصفا فيه خشونه نظيف فإن عدم المصفا كان على حجر مثل حجر[6] خشنة وترشه بالماء وتعجنه بيدك حتى يختلط شيئاً بشيء، ثم تنزله في الماء في حوض مجتمع فيه الماء من الوسخ وتخضّه حتى يختلط بالماء ثم تنشّفهُ بخرقة، وهي تجفف الماء حتى يذهب منه جميع اليشنة[7] التي فيه، وهي يبس

(1) ورد في أصل المخطوط (تكسه).
(2) فراغ في الأصل.
(3) خشب العتم: هو المأخوذ من شجر الزيتون الجبلي من الأشجار العظيمة الفائدة، راجع (معجم أسماء النبات - لأحمد عيسى/ ص27).
(4) فراغ في الأصل.
(5) ساقطة في الأصل.
(6) ساقطة في الأصل.
(7) في الأصل: الشنة، واليشنة، هي الأستنة، وهي أجزاء شعرية تتخلّق بأصول الأشجار، وأجودها ما على الصنوبر والجوز وكان أيضاً نقيّاً - تذكرة داود 1/ 46.

الشجر وهي اليشنة وتجمعه كبّة كبّة ثم تنزله إلى حوض مغضّض[1] أكثر من القالب عرضاً وطولاً، نظيفاً من الوسخ فيأخذ من الماء الصافي ما يملأهُ ولا تترك في الماء شيئاً من وعش أو كدر ولا منشور.

ثم ينزل الكبب في الحوض كلها ويخدشها بعود، رأسه فيه أربعة عيدان صلبة مزوجاً مثل مجدح[2] اللبن، ضرباً جيداً في الماء، حتى يختلط جميع الكبب في الماء ويبقى مثل الجُفر[3] الذي يُدق في القطن في الماء، ثم تنشّفه بالخرقة ثانية وتعملهُ كببا، كل كُبّة بقدر الأترجة أو كيفما تشاء، وتضع الكبب على حافة الحوض ثم يرجع ينزّل في الحوض من الكبب قطعة قطعة كل بقدر الليمون المركب أو النارنجة بشيء، تستعمل منه خمس أوراق، روّها ونقيّها وتخدشها من الساعة الثانية بالمخدش، حتى يختلط الشجر المذكور المدقوق في الماء وينزل فيه القالب ويطلع فيه الشجر بقدر، حتى يطلع متساوياً، وتكون الورقة متساوية من جميع جوانبها، وعلى قدر الحافة التي تريد، فإذا تساوت الورقة في القالب فيكون تحته على الأيسر لوح واطيء على قدر القالب بطوله وعرضه، فتصنعَهُ وتفرش فوقه ثوباً أبيض، وكلما طلع في القالب ورقة، قلب القالب على وجهه الذي فيه الورقة وامسحه بخرق بكفّك مسحتين أو ثلاث، حتى تسقط الورقة من القالب وتصير مُمتدّة فوق الثوب، كلما عمل ورقة حَطّها فوق الأخرى إلى حَدِ مائة ورقة فما فوقها، وكلما نقص الماء الذي بالحوض مّما تقدحَهُ بالقالب صُبَّ عليه ماءَ آخر حتى يكون الحوض ملآناً من الماء، لأن الشجر وهكذا إذا قل الماء متر نزله ماء آخر كلما نقص، فإذا فرغ من جميع الشجر الحاصل معهُ في الحوض من الذي رويته ويبقى الورق مرصوفاً بعضه فوق بعض، فتضع فوق الورق خرق نظيف تغطّهِ جميعَهُ، وتأخذ حجر مسنون الوجه فتضعه على الخرقة التي فوق الورق وهي ترزم بها جوانب الورق الذي تحت الخرقة، حتى يخرج ما فيه من الماء، ويبقى فيه رطوبة لا غير، ثم ترفع الحجر والخرقة من فوق الورق، ثم ترجع تفرد الورق، كل خمس ورقات أو ما يقابلها وحدها ثم تضعها في الشمس على مصفا نظيف، بحيث لا يناله تراب ولا وسخ وتخليه حتى يجف وتبقى فيه رطوبة هينة، فيرفع الورق من المصفا وترجع تفردهُ ورقة ورقة في موضع نظيف بحيث لا يصله الهواء ولا التراب ولا القش، نتفرش له فوق اللوح الأول خرقة نظيفة وتضعهُ عليها وهو يخلّصها ورقة ورقة، وتضعَهَا واحدة حتى يكمل الجميع، ثم يرجع نضحه على المصفا في الشمس كل خمس ورقات

(1) مُغضض = من غضوض، أي كثير الماء، كالقول «بئر غضوض» راجع (غضض) في لسان العرب.

(2) مجدح = من جدح الشيء، خلطه بشيء من الماء واللبن ونحوهما.

(3) الجفر - خيوط من القطن دقيقة مقصورة، تجعل حزمة.

وحدها حتى يجف وتضحى وتنشف من الماء ولا يبق فيها رطوبة بالجملة الكافية، ثم ترفعه وترصفه خمس ورقات حتى تكمله، وتضع عليه اللوح وفوق اللوح حجر ترزمهُ بها، ثم تُرهك[1] من الذرة البيضاء الرطبة، التي تُسمى الفياشي أو الأرزن أو الشريحي الرطب [لا يعلب قدر نصف الزبدي البقري][2] لمائة ورقة وعلى حساب ذلك تبدأ بدلك الذرة حتى يزول منشرها ثم تُرهك رهكاً ناعماً بالمرّة لما قدر سبع مرّات وتترك إلى أن يحمض إلى يوم ثاني، ثم يُشد بخرقة خشنة حتى يخرج منها دُقٌ من الرهيك، ويبقى [المقدريزي][3] في قدره، ويوقد عليه لينضج ويصبح مثل طبيخ نشاء الغراء يترك إلى أناةٍ آخر، ويؤخذ خرقة، يكبب كبّة لها فتعصر وهو يصنعها في النشاء، ويأخذ منهُ ما علق بالخرقة وتمسح بهِ وجه الورقة وتغلبها وتمسح به قفاها، فلا يزال لذلك حتى جميع الورق وجهاً وقفا عملاً مستوياً بقدر لا يكثر ولا يقل وهو يضع الورق واحدة فوق أخرى، إلى حد عشرين ورقة أو ثلاثين ورقة.

ثم غرٌ مصلحاً الورق المنشا وروية بغراء النشا ثم ترفعها على عَقْده وتضعهُ في الشمس على شرشف مُقعّر نظيف من التراب وتلزق أطراف الورق القصّاص، ترطبهُ بالنشاء حتى لا يطيّرها الريح ولا نكمشها إلى أن تجف، وينشّف النشاء الذي فيها، ثم مَرّر عليها بسكين رأسَهُ حاد مثل المشرط وتقشع بهِ أطراف الملزقة على القفاص، حتى يخلّصها بسهولة ولا تنحرف من طرفها الملزق إلى طرفها السائب، ثم ترفع الورق سوَيّاً ثانية، ثم تصقلِهُ ورقة ورقة على حجر ملساء مثل الرخافة بحجر أخرى يكون مَسنَدَهُ ملساء مدوّرة مثل المصقلة أو [الخرزة].

أيضاً فِلْ الزجاج أو اللّوح بقدر ما يقبض عليها الصانع الورقة على طول وجهاً وقفاً. حتى يكمل صفاً لها ثم يعطفها على وجهها نصفين، ويمسك طرفها فتساوت حتى لا يَمْل طرفها، ثم تكسر وسطها بالمصقلة، ولا تزال تصقل الجميع وتكسرها ونضعها واحدة فوق واحدة حتى يكمل الجميع، ثم يأخذ عُوداً في قراءة الكتب المختومة، وفض ختامها، فصفتها إذا كان الكتاب طويلاً، طويت درجه حتى تقرأهُ بالرفق، وحتى يتبيّن منه فصل لك منه، فإذا قرأته نأعدهُ في طيّاته كما كان في حاله الأولى، وأمّا فض ختامه، فإذا كان الطالعُ طرفه فالحيلة فيه مَسّهِ، فإن كان يابساً فبخّرهُ بُخَاراً بماء حار، فإنه يلين وينفتح عقد الرواة يسيراً يسيراً، إن شاء الله تعالى».

---

(1) تُرهك = أي تُطحن من مرحكة، طاحونة يد تستعمل لجش القمح وطحنه.

(2) هكذا في الأصل.

(3) هكذا في الأصل.

وهناك طريقة أخرى لصناعة «الكاغد البلدي» من مادة أخرى أكثر وفرة وأرخص سعراً، ذكرها صاحب كتاب «عمدة الكتّاب» تعتمد في صناعة الورق على مادة «القنّب الأبيض» وهذه الطريقة تكون «بأن ينقّع القنّب ويسرّح حتى يلين، ثم ينقع بماء الحبر ويفرك باليد، ويجفّف، وتكرر هذه العملية ثلاثة أيام، ويبدل الماء في كل مرّة، حتى يزول الجير منه، ثم يدق في هاون، وهو ندي، حتى لا تبقى فيه عُقد، ثم يُحلّل في الماء، ويصبح مثل الحرير، ويُصب في قوالب حسب الحجم المراد، وتكون قطع الورق مفتوحة الخيطان، فيرجع إلى القنّب ويُضرب شديداً، ويُغلى في قالبٍ كبير بالماء، ويحرّك على وجهيه، حتى يكون ثخيناً، ثم يُصبُّ في قالب، ويُقلب القالبُ على لوح، ويلصقهُ على الحائط حتى يجف ويسقط، ويؤخذ لهُ دقيق ناعم ونشأ في الماء البارد، ويغلى حتى يفور ويُصب على الدقيق، ويحرّك حتى يروق، فيُطلى بهِ الورق، ثم تُلف الورقة على قصبة حتى تجف من الوجهين، ثم يُرش بالماء ويجفف ويُصقل»[1].

ومن بغداد انتقلت صناعة الورق إلى بلاد الشام، فأُنشئت فيها معامل صنعت أنواعاً نفيسة من الورق، وقد كانت طرابلس الشام من عيون المُدن التي فاقت ما سواها من البلدان في صُنع الورق فقد ذكر ناصر خسرو أن أهل هذه المدينة يصنعون بها الورق.

ومن المعروف أن العرب كانوا قد أنشأوا في جزيرة صقلية «مصانع لصناعة الورق» ومنها وصلت إلى المدن الايطالية[2] كما عرفت بلاد الاندلس هذه الصناعة فقد كانت مدينة «شاطبة» أشهر المدن الاندلسية الواقعة في شرق الاندلس: مشهورة في صناعة الورق، ذكرها ياقوت الحموى مشيراً إلى أن فيها يعمل الكاغد الجيّد، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الاندلس[3]، أما مصر، فمعروفة بقراطيسها المشهورة.

وعلى ما يبدو أن بغداد تميّزت عن بقية الأمصار الإسلامية، بالمحافظة على جودة ورقها، فقد عدّه القلقشندي[4] في المرتبة الأولى: فيما يكون دونه في المرتبة الورق

(1) راجع مخطوطة «عُمدة الكتّاب وعُدّة ذوي الألباب» للأمير المُعز بن باديس في مكتبة العطارين بتونس - ورد فيها «فصل في صناعة الكاغد» وقد أشار مشكوراً د. علي جمعان الشكيل إليها بمقالهِ الهام (صناعة الورق في الحضارة الإسلامية) والمنشور بمجلة «آفاق الثقافة والتراث - الإماراتية - العدد/ 31 السنة الثامنة رجب 1421هـ/ اكتوبر 2000م، ص118 - وص123. وناصر خسرو - سفرنامه/ ص 13 - ترجمة يحيى الخشاب، طبعة القاهرة 1945م.

(2) كوركيس عواد/ ص432.

(3) معجم البلدان 3/ 309 - مادة - شاطبة.

(4) صبح الأعشى 2/ 476.

الشامي، ثم يلي ذلك الورق المصري، وهو على نوعين، أو قطعين، المنصوري والعادي، والمنصوري أكبر قطعا وقلّما يصقل وجهاه جميعاً، وهذا الذي يصقل وجهاه يسمى بعرف الورّاقين بـ«المصلوح» وغيره عند المصريين على رتبتين: عالٍ وسط، وفيه صنف بالغوّى، صغير القطع، خشن غليظ، خفيف الغرف، لا ينتفع به في الكتابة، فيتخذ للحلوى والعطر ونحو ذلك[1].

والورق في الغرب والفرنجة فهو رديء جداً كما يقول القلقشندي[2]، سريع البلى، قليل المكث، لذلك يكتبون المصاحف غالباً في الرق على العادة الاولى طلبا لطول البقاء.

صبغ الورق وتلوينه:

لم يكن خافياً على العرب والمسلمين البُعد الجمالي الذي تشكلهُ الألوان في صناعاتهم اليدوية المختلفة، لا سيما تلك التي تكون للعين بمثابة الشاخص اليومي الذي يتعاملون معهُ، لذلك إنعكس هذا الوعي الجمالي على صناعة الورق، الأمر الذي أعطاه صفة الخروج من المألوف، لما هو مصنوع من الكتان والقطن والقنّب، ولذلك عَمَدَ الصُنّاع إلى إضافة «بعض المواد الطبيعية» على عجينة الورق، بغية صبغه إلى ألوان تعشقها النفوس قبل العيون، ولكسب رضا الناس من سلاطين وأمراء وعامة الخلق، بمعنى آخر، كان الصُنّاع يفكرون في «ذوق» المستهلك لنوعية الورق ولونه، لذلك عمدوا إلى عدّة «وصفات» يتعاملون بها عند تلوين الورق.

وقد وصف «أحمد بن عوض المغربي - أحد تلاميذ داود الإنطاكي» كيفية صباغ الورق في كتابه الهام: «قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار ونتائج المعارف والأسرار»[3] يقول في هذا الصدد:

«إذا أردت ذلك - أي صبغ الورق - خذ الورق، بلّه بماء الشب، ثم يلقى في ماء البقم «للأصفر» أو ماء الزعفران «للأحمر» أو ماء زهرة النيلة «للأزرق» وإذا أردت لونه خمريّاً سحقْت اللك والتبن، عليه نيلة هندي. وإن أردت فاختي، إلقِ شيئاً من الحِبر أو شيئاً من النيلة الهندي، على درهم من السيلقيون[4] وإن أردت لونه عوديّاً، «أي اسود ثقيل»

---

(1) صبح الأعشى 2/ 477.

(2) نفسه.

(3) قام الأستاذ بروين بدري توفيق بتحقيق الكتاب ونشره بمجلة «المورد العراقية» في العدد/ 3 مجلد 2، لعام 1983، ص251 وص280.

(4) السليقيون، هو الإسرنج، أو خلاّت الرصاص - انظر - تذكرة داود 1/ 198.

فاسحق الزرنيخ الأحمر ناعماً، والقِ عليه أدنى ما يكون من الحبر، وكذلك ماء السلق المروّق «المصفى» أو في ماء قشور البصل، أو في ماء قشور العصفر. المراد أحمر كان أو أصفر، أو في ماء حطب السنط[1] المغلي».

والطريقة المُثلى للحصول على تلك الأصباغ، يبيّنها المغربي على النحو التالي: «يؤخذ البقم فيُغلى حتى تخرج خاصيّته ويصفى، ويضاف إليه قطعة نطرون مصري، ويُعاد الورق مراراً حسب اللّون المطلوب. أما اللّون الوردي المفتوح فيكون من الزعفران والبقم، وأمّا قشر البصل مع النشأ فهو صباغ غريب، وأمّا هِباب الكوانين «المواقد» يُؤخذ ويُعجن عجناً محكماً، ثم يذاب بعد العجن في ماء كثير، بحسب ما تريدهُ من اللون في الحقّة «الإنا» والتفل، ثم يُروّق ويصبغ بهِ على العادة. وأمّا تبن الحمّص فلونهُ أصفر مخضرّ مُفرح. واعلم أن جميع الألوان يتولّد بعضها من بعض، ولا بُدَّ من بَلِّ الورق بماء الشبّ، لقبول الألوان، وينشر على القصب الفارسي الغليظ أو على قفص جريد، وينشّف في الظِل، فإذا جَفّ أصقلهُ»[2]

وثمة إشارة هامة تستوجب الإشارة والعودة إليها، هي ما ذكرهُ صاحب مخطوطة «أنواع اللّيق وكيفية إعمالها»[3] حيث ذكر الكيفية التي تُعد بها «صفة قطع أوراق الذهب» على النحو التالي: «يؤخذ قطعة جلدة حور[4] تخيطها شبه المخدّة الصغيرة، وتحشى قطن وتؤخذ ورقة الذهب بطرف السكين وتعمل على المخدّة وتقطع منها بالسكين قدر حاجتك، ثم تأخذ قطن وتبلّها بريقك بَلٌّ خفيف واعملها على الورقة فتنشال في القطنة، أعملها على الغري أو الكلخ ووكدها[5] بالقطنة الناشفة، وخليها حتى تجف واصقلها تجيء فإنه وكذلك تفصل ورق القطنة فاعلم ذلك».

وله طريقة أخرى في ذلك تقول: «صفة صباغ الورق إذا أردت ذلك» تقول: «خُذ ما شئت من ورق ما قبله في ماء مشبب عود القسية أمّا في ماء البقم وأما الزعفران أو زهرة

(1) السنط = شجرة كثيرة النبت في مصر، ومنها يستخرج الصمغ العربي - أنظر - شرح أسماء العقار ص30.

(2) تجدر الإشارة بأن الدكتور علي جمعان الشكيل، قد أورد هذه الطريقة في صبغ الورق بمقاله «صناعة الورق في الحضارة الإسلامية» المنشور بمجلة/آفاق الثقافية والتراث - الإماراتية - العدد/ 31 - السنة 8 رجب 1421هـ/اكتوبر 2000 م، ص122.

(3) تمت الإشارة إليها في صناعة الورق المحلي في النقطة السابقة.

(4) الحور = جلد ضأن مدبوغ، تجلد به الكتب.

(5) وكدها = ثبتها.

النيلة الهندية، ثم انشر الورق على قصبة فارسية تكون غليظة وتكون في الظِل، فإذا جفَّ أصقلهُ واكتب فيه، فإن أعجبك لونه، وإلاّ غيّرهُ بعد أن تنشفُهُ قبل صَقلِه، فاعلم هذه الحكم واكتمها عن غير أهلها».

الفصل السادس

مقاطع ومقاسات الورق وأنواعه

لعب الورق دوراً هاماً في تجارته، فسمعة النوع البغدادي، مثلاً، تحقق ليس فقط ربحا ماديّا للتاجر، بل وتحقق راحة نفسية للكاتب أو الورّاق الذي يشتغل به، ويرتبط النوع بالمادة الاساسية في صناعة عجينته، وشكل ورقته ونعومتها وخشونتها. . . الخ، وكان القطن والمواد النباتية الأخرى من الأمور التي اتخذها العرب في صناعة الورق، وقد أوضح القلقشندي[1] أهمّ الصفات المطلوبة في الورق، من قبيل أن يكون ناصع البياض، غرفاً صقيلاً، متناسب الاطراف، صبوراً على مرور الزمان، وذكر ابن النديم[2] أن هناك أصنافاً منه، أشهرها الخراساني الذي يعمل من الكتان، وأنواع منه سمّاها بالسليماني والطلحي والنوحي والفرعوني والجعفري والطاهري، وقد اسند كوركيس عواد هذه الأنواع إلى من نسبت إليه في خراسان. والنوحي كأنه منسوب إلى «نوح» الساماني أحد أمراء الدولة الطاهرية التي حكمت تركستان وفارس، أما الورق الفرعوني، فضرب آخر، نافس ورق البردى في عقر داره، وأقدم النصوص العربية التي عثر عليها مدوّنة في هذا الورق، يعود تاريخها إلى سنة 180 - 200هـ/ 796 - 815م[3]. أما الورق الجعفري فمنسوب إلى جعفر البرمكي، فيما نسب ياقوت الحموى الورق الجيهاني إلى مدينة جيهان في خراسان[4] والورق المأموني إلى الخليفة العباسي المأمون بن الرشيد[5]، والعهدة على كوركيس عواد.

(1) صبح الاعشى 2/ 476.
(2) الفهرست/ ص31 - 32.
(3) دائرة المعارف الاسلامية - مادة (كاغد).
(4) معجم البلدان 2/ 202 - مادة (جيهان).
(5) كوركيس عواد/ ص423.

وذكر السمعاني[1] أن الكاغد المنصوري، ينسب إلى أبي الفضل منصور بن عبد الرحيم بن بنت ابن بحير الكاغذي من أهل سمرقند، وذكر أيضاً بأن الكاغذ الحسني ينسب إلى أبي علي الحسن بن ناصر الكاغذي المعروف بـالدهقان، وهذا الوراق لم يلحقه من سبقه في جودة الصنعة ونقاء الآلة وبياضها، وهو من أهل سمرقند أيضاً. ويقول المقريزي[2] أن الورق المنصوري تقع مصانعه بالفسطاط دون القاهرة.

أمّا بلاد فارس، فقد اشتهرت مدينة «خونج» فيها بجودة الورق المعروفة بـ «كاغد كنان» أي صنّاع الكاغد[3].

مقاييس الورق:

خضعت مقاييس الورق، وحجوم قطعه، إلى حاجاته في الاستخدام، بين دوائر الدولة وحاجات سوق الورّاقين منه، ووفق قياسات معيّنة، أخضعها القلقشندي إلى واقع طبقي ملحوظ، كان سائدا في عصره/ المئة 9 هـ/ إضافة إلى الشكل الرسمي للقطع المستعمل في المراسلات الديوانية - السلطانية، ومراسلات الشعب، في إطار الأدب والاخوانيات، فقد ذكر[4] على لسان/ محمد بن عمر المدائني - صاحب كتاب «القلم والدواة»/ أن الخلفاء لم تزل تستعمل القراطيس امتيازاً لها على غيرها في عهد معاوية بن أبي سفيان، وذلك أنه يكتب للخلفاء في قرطاس من ثلثي طومار[5]، وإلى الأمراء من نصف طومار، وإلى العمّال والكتّاب من ثلث وإلى التجار وأشباههم من ربع، وإلى الحسّاب والمسّاح من سدس، ويضيف: فهذه مقادير لقطع الورق في القديم وهي: الثلثان، والنصف، والثلث، والربع، والسدس» ومنها استخرجت المقادير، متخذة القطع البغدادي أساساً في التقسيم والقطع والمفاضلة، لأنه يحتمل هذه المقادير، بخلاف الشامي، لا سيما وبغداد إذ ذاك دار الخلافة، فلا يحسن أن يقدر بغير ورقها مع اشتماله على كمال المحاسن[6].

وقد كانت أبرز المقادير للقطع حتى/ المئة 9 هـ/ والمستعملة في دواوين الدولة، هي

(1) الانساب 10/ 327 - مادة (الكاغذي).

(2) المقريزي/ الخطط - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار 2/ 189 مطبعة النيل بمصر سنة 1324هـ.

(3) ياقوت الحموي - معجم البلدان - 2/ 407 مادتي (خونا وخونسج).

(4) صبح الاعشى 6/ 189.

(5) الطومار = الورقة الكاملة.

(6) القلقشندي 6/ 189.

التي ذكرها القلقشندي وهي تسعة مقادير، مبيّنة على النحو التالي[1]:

1 - **قطع البغدادي الكامل**: وعرض دَرْجِهِ، عرض البغدادي بكماله، وهو ذراع واحد بذراع القماش المصرى، وطول كل وصل من الدرج المذكور ذراع ونصف بالذراع المذكور وفي هذا النوع كانت تكتب عهود الخلفاء بيعاتهم، وعهود أكابر الملوك، والمكاتبات إلى الطبقة العليا من الملوك كأكابر القانات[2] من ملوك الشرق.

2 - **قطع البغدادي الناقص**: وعرض درجه دون عرض البغدادي الكامل بأربع أصابع مطبوقة، وفيه يكتب للطبقة الثانية من الملوك، وأحيانا يكتب فيه للطبقة العليا منهم، إذا حصل عوز في البغدادي الكامل.

3 - **قطع الثلثين من الورق المصري**: والمراد به ثلثا الطومار من كامل المنصوري، وعرض درجه ثلثا ذراع بذراع القماش المصري، وفيه تكتب مناشير الأمراء المقدّمين، وتقاليد النوّاب الكبار والوزراء، وأكابر القضاة ومن في معناهم، ولم تجر العادة بكتابة مكاتبة عن الابواب السلطانية فيه.

4 - **قطع النصف**: والمراد به قطع النصف من الطومار المنصوري، وعرض درجه نصف ذراع بالذراع المذكور، وفيه تكتب مناشير الأمراء الطلبخاناه، ومراسيم الطبقة الثانية من النوّاب، والمكاتبات إلى الطبقة الثانية من الملوك.

5 - **قطع الثلث**: والمراد به ثلث القطع المنصور، وعرض درجه، ثلث ذراع بالذراع المذكور، وفيه تكتب مناشير أمراء العشرات، ومراسيم صغار النوّاب والمكاتبات إلى الطبقة الرابعة من الملوك.

6 - **القطع المعروف بالمنصوري**: وعرضه تقدير ربع ذراع بالذراع المذكور، وفيه تكتب مناشير الممالك السلطانية ومقدمي الحلقة ومناشير عشرات التركمان ببعض الممالك الشامية وبعض التواقيع وما في معنى ذلك.

7 - **القطع الصغير**: ويقال فيه قطع العادة، وعرض درجه تقدير سدس ذراع بالذراع المذكور، وفيه تكتب عامة المكاتبات لأهل المملكة وحكّامها، وبعض التواقيع والمراسيم

---

(1) صبح الاعشى 6/ 190 - 192.

(2) سياق العبارة يوضّح أن المعنى المقصود هو (أكابر الملوك - الامبراطور) ولم أجدها في القاموس التركي - العربي - مادة (قان)، إلا أنه أوضح أن (خاقان) تعني السلطان الاعظم - نفس القاموس - مادة - خاقان - أنظر/ الدراري اللامعات في منتخبات اللغات - أو - قاموس اللغة العثمانية - طبعة بيروت - 1318هـ.

الصغار، والمكاتبات إلى حكّام البلاد بالممالك، وما يجرى هذا المجرى، وقد كان هذا القطع والذي قبله في أول الدولة التركية/ على حد تعبير القلقشندي[1]، طول كل وصل منه شبران وأربع أصابع مطبوقة.

8 - **قطع الشامي الكامل**: وعرض درجه عرض الطومار الشامي في طوله، وهو قليل الاستعمال بالديوان، إلا أنه ربما كتب فيه بعض المكاتبات.

9 - **القطع الصغير**: وهو في عرض ثلاث أصابع مطبوقة من الورق المعروف بورق الطير وهو صنف من الورق الشامي رقيق للغاية، وفيه تكتب ملطفات الكتب وبطائق الحمام.

ونظراً لكون بلاد الشام ومصر، توازي بغداد العباسية، فقد خصّها القلقشندي، بوقفة صغيرة في مضمار استخدامات الورق ومقاديره المستعملة في كل بلد أو مدينة، مشيراً إلى أنهم كانوا يستخدمون أربعة مقادير: هي: قطع الشامي الكامل، وقطع نصف الحموي، وقطع العادة من الشامي، وقطع ورق الطير[2] ثم ذكر أن بقية البلدان/ غير الشامية والمصرية/ فالحال فيها مختلف، فبلاد المشرق تأخذ بالمقادير التسعة المارة الذكر، أما بلاد المغرب والسودان والفرنج فجرت العادة عندهم في الكتابة في طومار واحد يزيد طوله على عرضه قليلاً، ما بين صغير وكبير، بحسب ما يقتضيه حال المكتوب[3].

أما المؤلفات التي تناولت كيفية صناعة الورق فقد أشار إليها كوركيس عواد في بحثه المنشور في مجلة مجمع اللغة العربية - المجلد 23 - ج3/ تموز/ 1948[4].

---

(1) صبح الاعشى 6/ 191.

(2) صبح الاعشى 6/ 192 - 193.

(3) صبح الاعشى 6/ 193.

(4) من هذه المؤلفات القليلة في مصادرنا العربية الإسلامية، مخطوط في خزانة كوركيس عواد يقع في 53 ورقة عنوانه (كتاب فضل القلم والخط وأعمال المداد) لا يعلم اسم مؤلفه، أشار في الباب الحادي عشر منها عنوان «في عمل الكاغد وصقله وترتيب الاقلام» استغرق هذا الباب 4 صفحات.
- وفي دار الكتب المصرية - رسالة مخطوطة عنوانها «صناعة الورق والليق والحبر» تأليف محمود خليفة ابن سليمان بن عبد الرحمن بن مصطفى أفندي، تقع في 4 ورقات.
- وفي الخزانة الآصفية - بالهند - مخطوطة برقم (221) وهي نسخة فريدة من كتاب «المخترع في فنون من الصنع» كتبها محمد بن قوام بن صفي بن محمد ضياء ترك ناكوري، المعروف بقاضي خان في سنة 876هـ/ 1471م، مؤلفها غير معروف، ويقوم هذا الكتاب من خمسة عشر باباً، خامسها يحمل عنوان «في عمل الكاغد البلدي على اختلاف أصنافه، ووضع الاسرار في الكتب، وما يمحو الدفاتر والرقوق».
- كل هذه الحاشية أخذت من مقالة كوركيس عواد ص 435 - 436 من المرجع المذكور.

علاقة حجوم الورق بالأقلام (الخطوط):

لم تفت ورّاقي ذلك الزمان وكتّابه، مسألة علاقة القلم بالورقة، هذه العلاقة السرمدية، والتي لا ينفصل بعضها عن بعض مطلقاً، ونظراً للتطور المستمر الحاصل في صناعة الورق، من جهة، وتحسّن أداء القلم، وبروز مدارس للخط العربي[1]، من جهة ثانية، فإن مصانع الورق، أخذت تستيجب لطلب سوق الورّاقين من المقادير المطلوب توفرّها من الورق، والنوعية المحبّذة في ذلك، وهو أمر يشير إلى الايقاع المتصاعد للحضارة العربية - الإسلامية في تلك العصور، وهذه الناحية تكشف رهافة الحس، وجمالية الذوق الفني عند كتّاب تلك الفترة، بحيث أنهم جعلوا لكل قطع من الورق، قلم خاص به، فقد ذكر المقرّ الشهابي بن فضل الله في كتابه (التعريف) ما يناسب كل مقدار من مقادير الورق من أقلام الخط المنسوب[2].

فقال: إن لقطع البغدادي، قلم مختصر الطّومار، ولقطع الثلثين، قلم الثلث الثقيل، ولقطع النّصف، قلم الثلث الخفيف، ولقطع الثلث، قلم التوقيعات، ولقطع العادة، قلم الرقّاع، ثم يضيف: ومن ذلك يعلم ما يناسب كل قطع من مقادير القطع المستعملة بدواوين الانشاء في (مصر) والممالك الشامية، فيناسب الشامي الكامل قلم التوقيعات لأنه في مقدار قطع الثلث البلدي أو قريب منه، ويناسب نصف الحمويّ والعادة، من الشامي قلم الرّقاع، لأنهما في معنى القطع المنصوري، والعادة في الديار المصرية، أما قلم الجناح لكتابة بطائق الحمام به، أما ما يكتب به الخلفاء أسماؤهم في الزمن القديم فبقلم الطومار، وهو القلم الجليل الذي لا قلم فوقه[3].

ولم يتوقف كتّاب وورّاقو تلك الفترة الزاهية عند هذا الحد، بل أضافوا إلى الجميل ما هو أجمل، في علاقة الورق بالقلم، حيث أنهم أسقطوا رؤيتهم الجمالية - النفسية على تلك العلاقة، فأعطوها دفقا آخر، ينطلق من بعد معرفي - مهني، وذلك بأن جعلوا قواعد فنيّة لشكل ومساحة الكتابة على الورق، من حيث المساحة المتروكة للبياض، وكيفية البدء بالبسملة، وما يترتب على الحاشية، وموضع التوقيع، وغير ذلك من الأمور الفنية المتعلقة بسطور الكتابة. يقول القلقشندي[4] في هذا الباب: أمّا مقدار البياض قبل البسملة،

(1) راجع باب «الخطاطون» من هذه الدراسة.
(2) نوع من أنواع الخط - سيجده القارىء في ج4 «الخطاطون» مع بقية أنواع الخطوط.
(3) صبح الاعشى 6/ 194 - 195.
(4) المصدر السابق 6/ 195.

فيختلف في السلطانيات باختلاف قطع الورق، فكلّما عظم قطع الورق، كان البياض فيه أكثر، فقطع البغدادي يترك فيه ستة أوصال بياضاً، وتكتب البسملة في أول السابع، وقطع الثلثين يترك فيه خمسة أوصال، وقطع النصف يترك نيه أربعة أوصال، وقطع المثلث يترك فيه ثلاثة أوصال، وقطع المنصوري والعادة تارة يترك فيه ثلاثة أوصال، وتارة يترك فيه وصلان، بحسب ما تقتضيه الحال، وقطع الشامي الكامل في معنى قطع المثلث، وقطع نصف الحموي والعادة من الشامي، في معنى القطع المنصوري والعادة في البلدي. وربما اجتهد الكاتب في زيادة بعض الاوصال ونقصانها، بحسب ما تقتضيه الحال.

ثم يضيف[1] وفي المكاتبات الصادرة عن سائر أرباب الدولة في مصر والشام، يترك في جميعها، قبل البسملة، وصل واحد فقط، وفي كتابة الادنى إلى الاعلى، يترك بعض وصل.

أما في حاشية الكتاب، فبحسب اجتهاد الكاتب فيه، في السعة والضيق، ويشير القلقشندي[2] إلى أنه رأى بعض الكتّاب المعتبرين، يقدّر حاشية الكتاب بالربع من عرض الدّرج، وهو اعتبار حسن لا يكاد يخرج عن القانون.

وأما البعد ما بين السطور فيختلف باختلاف حال المكتوب واختلاف قطع الورق، ففي الكتب الرسمية «السلطانيات» كما يسميها القلقشندى[3] على اختلاف قطع الورق تكتب فيها البسملة في أولّ الفصل، بعد ما يترك من أوصال البياض في أعلى الدّرج، بحسب ما تقتضيه الحال، ثم يكتب تحت البسملة سطر ملاصقاً لها بحسب ما يقتضيه وضع القلم المكتوب به في القرب والبعد، بحسب الدقّة والغلظ، ثم يكتب السطر الثاني في آخر الوصل الذي كتبت البسملة في أولّه، بحيث يبقى من الوصل ثلاث أصابع مطبوقة أو نحوها في القطع الكبير، وقدر اصبعين في القطع الصغير وما بينهما بحسبه.

أما في المسافات المتروكة في البياض لما بين السطور، فقد أشار ابن شيت[4] في «معالم الكتابة» إلى أن مقدار ما بين كل سطرين يكون ثلاث أو أربع أصابع، ويعلّق القلقشندي على ذلك بالقول[5]: والذي جرت به عادة الكتّاب في زماننا (ق 10هـ) أن يكون في قطع العادة والمنصوري في كل وصل من أوصاله، ثلاثة أسطر، وفيما عداه سطران،

(1) صبح الاعشى 6/ 195.
(2) نفس المصدر/ نفس المكان.
(3) نفس المصدر 6/ 196.
(4) كان في آخر الدولة الأيوبية - القلقشندي 6/ 196.
(5) المصدر السابق/ نفس المكان.

وربما وقع التفاوت في القطع الصغير، بحسب الحال، حتى يكون في التواقيع التي على ظهور القصص «العرائض» ونحوها بين كل سطرين، بعد بيت العلامة قدر اصبعين، وربما تواصلت الاسطر، كما في الملطفات ونحوها.

أما ما يكتب عن النوّاب في الولايات والمكاتبات، من سائر أعيان الدولة، فدون السلطانيات، في مقدار خلوّ موضع العلامة، وهو ما بين قدر خمس أصابع مطبوقة ونحوها، وقدر بعد السطور، فيما بعد بين العلامة من قدر اصبعين إلى ما دونهما[1].

إن للعرب والمسلمين الفضل والمبادرة في شيوع مصانع الورق في العالم الاسلامي أولاً، وفي العالم الاوربي ثانياً، فهم الذين عنوا بنقله منذ عهد بعيد، أي منذ المائة الثانية للهجرة/ كما يقول كوركيس عواد[2]، فقد جاءوا به من بلاد الصين إلى سمرقند، فبغداد فالشام فمصر فالمغرب فالاندلس، وأدخلوا عليه من فنون التحسين والتجويد، كما أن معامل الورق، قد ازدهرت في كثير من البلدان الإسلامية، واختلفت باختلاف البلد الذي هي فيه من حيث الجودة والصقل والخشونة واللين، والقطع وغيرها، وهي تعتمد في ذلك على العمل اليدوي، وظلت كذلك حتى القرن التاسع عشر الميلادى حيث أدخلت الماكينات لصناعة الورق[3]، وقد كانت الدفعة القوية الثانية لصناعة الورق، عندما أمكن استخدام الطرق الكيميائية، حيث تستخلص الألياف السيليلوزية من النباتات، وخاصة من أخشاب المناطق الباردة، وقد أدى اختراع الطباعة هذا[4] إلى ازدياد الكتب والمطبوعات بأعداد كبيرة، وفتح الآفاق الجديدة للتطور المعرفي فنشرت الاعمال الادبية وبعثت حضارات الشعوب وبرزت آدابها القومية وراحت الحضارة تتقدم خطوة إلى الإمام بهذا الاختراع، وبرزت مهنة النشر وبيع الكتب، وشكلت عملاً تجارياً إضافة إلى محموله الثقافي حيث أصبحت الثقافة في متناول كل طبقات الشعب.

---

(1) كان في آخر الدولة الأيوبية - القلقشندي 6/ 196.

(2) مقالته/ الورق أو الكاغد - المتقدمة الذكر/ ص438.

(3) ننوّه هنا بدراسة د. حسين كمال الدين زكي/ صناعة الورق، نشأتها وتطورها/ المنشورة في مجلة الناشر العربي/ ليبيا/ العدد 2 فبراير - شباط 1984، ص72 - 75 - وكذلك مقالة الاستاذ مفتاح محمد دياب/ قصة الطباعة وتطورها/ المنشورة بنفس العدد/ ص 76 - 79، حيث فيهما جهد مشكور لمتابعة تطور صناع الورق والطباعة.

(4) على ذمة الباحث الراحل الأستاذ هادي العلوي (الطباعة اخترعها أهل الصين وترجع إلى القرن التاسع الميلادي وهناك كتب صينية مطبوعة قبل ظهور كوتنبرغ بأكثر من ستة قرون).

الباب الثاني

ولع الناس بالكتب والمكتبات

الفصل الأول

تمهيدات تاريخية من أيام سومر الى قيام بغداد العباسية

ليس من قبيل المجاملة أو الانحياز عندما نقول بأن للعراقيين ولعاً تاريخياً بجمع الكتب، فحضارة سومر وبابل وآشور، هي من الأوابد الحضارية التي سطعت قبل ميلاد المسيح بآلاف السنين، في أراضي العراق، من أقصاه إلى أقصاه، فبهذه الأماكن، وجدت الحروف المسمارية والرقوم القديمة، والاسطوانات الطينية لمواد الكتابة الاولى، ولا ينكر أحد «مسلة حمورابي» في تلك الديار وهو أمر يشير إلى تطور مدني ملحوظ، في أفقه القانوني، لما احتوته تلك المسلة من قوانين وحقوق مدنية، لا زالت أصداؤها ماثلة حتى اليوم، فعلى هذا الركام الحضاري توالت الدول الكبرى العظيمة، وشيدت صروحاً من المجد الحضاري والتاريخي.

ومن يقرأ ملحمة «كلكامش»، يذهل أمام نصوصها السومرية، حيث فيها اختراق للماورائية وتجسيد للحس المادي، ولو لم يكن عند هؤلاء الأقوام الذين دلت حضاراتهم عليهم، شي من مقاييس الحضارة، لما وصلت إلينا مدوناتهم، ولما استطعنا أن نحكم على تلك الحضارات وتاريخها، صحيح أنها لم تكن من الدقة والتنظيم، بمثل ما نحن عليه الآن، إلاّ أنها كانت حتما، وفق نظام معلوم لديهم.

فقد كشفت لنا المدونات القديمة، أن هناك دوراً للسجلات (Arshefs) على شيء من السذاجة والبداهة، فقد كانت مدوناتهم الرسمية عبارة عن نصوص دينية، وقطع أدبية وتاريخية، وما يتعلق بالحياة اليومية، من معاملات بيع وشراء، وما إليه من ذلك، وكانوا يجمعون هذه المدونات في مواضع معلومة من «المعابد والقصور الملكيّة» وبعض دور

الخاصة، يطلقون اسم «دور السجلات أو بيت الرقم»[1].

وقد كان أمر الثقافة عند البابليين منوطاً بالكهنة الذين يستمدون علمهم من (نبو) مبتدع الكتابة والرسائل، وصنوف أبواب المعرفة، «وسيد» أي بيوت الألواح، أي الكتب أو خزائنها كما يقول عوّاد[2].

وقد كانت المعابد تحتوي على حُجَرٍ تضم مجموعة من الالواح يستعملها تلامذة الكهنة، وإلى جانب هذه الحجر، هناك حجر أكبر وأوسع تخزن فيها مجاميع الألواح المكتوبة، وتحتوى عادة على مدونات الرقى والكهانة والفأل ونصوص دينية وسحرية شتى[3].

ومن مشتملات المعبد ما نسميه (ديوان السجلات) فيه تجمع الوثائق المتعلقة بشؤون المعبد، كقوائم الأوقاف والحاصلات العائدة له، إضافة إلى نسخ من المناشير والأوامر الملوكية ومراسلاتهم، وجداول بالضرائب، والقرارات القضائية والوثائق الرسمية من مختلف الصنوف[4].

يبدو أن وظيفة الكاهن في المعابد السومرية، تتخطى حاجزها الروحي - الديني، كما تصل إلى المعرفي - الإداري، فهو يتولى أمر خزانة الكتب في المعبد، ويعنى بحفظ الالواح، من تبديل التالف بجديد، ثم عليه تقع مسؤولية توسيع الخزانهة، بالحصول على نسخ الوثائق القديمة من الخزائن الأخرى، أو بايفاد النسّاخ إلى المدن البعيدة لينسخوا له الالواح، ويأتوا بها إليه. وقد كانت دور السجلات هذه، مكتوبة على رقم طينية وبخط مسماري[5] ويوازى المعبد في هذه المسألة القصورالملكية، إلاّ أنها تأخذ الحيّز الثاني في الترتيب، ففي كل قصر، دار للسجلات، تجمع فيها ما يرد إلى القصر من رسائل إلى ملوك سومر، وما يتعلق به من حسابات وأخذ وعطاء، وغير ذلك ممّا يصعب تحديد مضامينه، وقد استطاع المحقق الكبير كوركيس عواد، من رصد أعمال الحفريات عند علماء الآثار الأجانب، ويطلع على مؤلفاتهم بهذا الصدد وأوجد لنا ثبتا هاماً بخزائن الكتب، وقتذاك

(1) كوركيس عواد (خزائن الكتب القديمة في العراق) ص42 - مطبعة المعارف - بغداد 1948م.

(2) المرجع السابق/ نفس المكان.

(3) نفسه.

(4) كوركيس عزّاد/ المرجع السابق/ ص43. وقد اعتمد في ذلك على الكثير من علماء الآثار المستشرقين الغربيّين الذي سطوا على آثار العراق، وتخصصوا فيها. ويكاد الباب الثاني عنده، ص42 وما بعدها يعتمد عليهم كُليّا.

(5) كوركيس عواد/ المرجع السابق/ ص43.

وهو بهذا يكون قد أسدى فائدة كبيرة للعلماء والمهتمين بكل صنوف المعرفة، وعوّض علينا تعبا مضنيا، فله الفضل في ذلك.

ومن هذا الثبت نتعرف على (خزانة نُفَّر)[1] فقد عثر المنقبون فيها سنة 1889م على نيف وألفين من ألواح الطين[2] - وهناك خزانة دريهم/ سقط ذكرها عند كوركيس عوّاد، حيث أن الصفحات 46 - 47 - 48، غير موجودة في طبعة المعارف البغدادية 1948/ . وقد ورد ذكرها في فهرس الكتاب ص 336.

وقد حصرت بين ص47 - 48/ من نفس الطبعة - ثم هناك/ خزانة نينوى/ التي ازدهرت في أيام آشور بانيبال، رغم أن سرجون الأكدي/ 721 - 705 ق.م/ كان قد قام بجمع خزانة له، فقد وجدت ألواح كتبت في عهده، وعليها ختم خزانته[3]، إلاّ أن آشور بانيبال كان الاشهر والأعرف في جمع الكتب وتأسيس مكتبة (خزانة نينوى) حيث أن هذا الملك الآشوري كان محباً للعلم، شغوفاً به، فقد كان أكثر الملوك الآشوريين الذين سبقوه منصرفين في الغالب إلى شؤون الحرب توسيعا لملكهم، أو منهمكين في تشييد القصور والمباني الفخمة، أما هذا الملك/ بانيبال/ فكان قد امتاز عليهم جميعاً بحسن ذوقه الأدبي لأنه تعلّم كثيراً ممّا كان لدى الآشوريين، من علوم وفنون وحكايات وأقاصيص.

وقد ورد في «أخبار آشور بانيبال» والتي وجدت مسطورة على اسطوانة طينية من عهده ما معناه «أنا آشور بانيبال، قد اختزنت في قصري حكمة نبو، استوعبت ما في الألواح المدونة، وكل ما في ألواح الطين من خفايا ومشاكل»[4].

كما يؤخذ من بعض الألواح، الموجودة في هذه الخزانة، أن جانباً من هذه النصوص كان يقرأ بحضرته قبل الموافقة على إيداعه الخزانة، فلا غرو أن يعد عصره بالعصر الذهبي للفن والآداب الاشورية[5] كما عرف عن هذا الملك العظيم، فرط اهتمامه بشأن العلوم والفنون وإيداعها في مكتبته، فقد أشير إلى أنه بعث بنساخه إلى مظان العلم والآداب

---

(1) أثبتها ياقوت - نِفّر - بكسر أوله وتشديد ثانيه، وقال - قرية من نواحي بابل بأرض الكوفة وأورد عنها اسطورة خرافية، راجع - معجم البلدان - 5/ 295 - مادة نفرّ - وإلى هذه القرية ينسب - النفرّي - الصوفي من أعلام القرن الرابع الهجري.

(2) كوركيس عوّاد/ خزائن الكتب/ ص44. وننوه هنا إلى سقوط أربع صفحات من طبعة هذا المرجع الهام حيث لا وجود للصفحات 45 - 46 - 47 - 48.

(3) كوركيس عوّاد/ المرجع السابق/ ص49.

(4) المرجع السابق ص49.

(5) نفس المرجع/ ص49 - 50.

المختلفة في زمانه، كبابل وبروسيا، وأكّد، وكوثى ونفّر وآشور وغيرها، فنسخوا له كل التآليف المهمة، وجمعوا له اشتات العلم ودونوها وحفظوها في خزانته، وقد كانت هذه الخزانة (خزانة نينوى) جليلة القدر والمقدار، تضم كثيرا ممّا عرفه البشر يوم ذاك، من أفانين العلم والادب والدين، وفيها المصنفات التاريخية، والاخبار والرسائل والسحر، والصرف والنحو والادب والشعر والقانون، والتنجيم والفلك والجغرافية والطب والتاريخ الطبيعي، والصلوات والطقوس، والأساطير والقصص، كقصة الخلق، والطوفان وأمور أخرى[1].

كما لوحظ أن هذا الملك كان يعيد ما نقل إلى خزانته من ألواح الخزائن العتيقة البالية وغيرها بعد أن يدونها بالاشورية، وتوضع عليها (أقصد النسخ المنقولة) ملاحظات وصفية، تاريخية أو إيضاحية، وبهذا الوجه، اشتملت الخزانة على بضعة آلاف كتاب[2].

ومن الخزائن القديمة الأخرى (خزانة مدينة أدب) وتعرف في بعض المصنفات العربية باسم (بسما) أو (بسمى) وأغلب أهل العراق يسمونها (بسماية) وهو الغالب المتداول - الآن - وهي مدينة عراقية ذات شأن في التاريخ - لم يذكرها ياقوت في معجمه - اندثرت معالمها، ولم يبق منها إلاّ أخربة، تقع في فلاة، على خمسة وعشرين ميلا من جنوب غربي (نفّر) وعلى مثل هذه المسافة في غربي شط الحي (منطقة من واسط)، كشف هذا الموقع سنة 1904، وقد اهتدى إليها الأمريكي (بنكس E.J.Banks)، وقد اسفرت التنقيبات اللاحقة عن كشف (2500) لوح، ومعظمها مثلم الاطراف ومشطور شطرين، وقد وجدت (500) عادية سالمة من العطب، صحيحة الكتابة، عرفت فيما بعد بأنها صكوك وعقود ووصلات وسندات تنبىء عن بيع حبوب وحيوانات داجنة وصوف وغير ذلك. وبينها رسائل، ولا أثر للقيود التاريخية، ولا للترانيم والمزامير والقصص والأمثال[3].

وقد تعرّضت (خزانة أدب) إلى السرقات الاستعمارية، وانتزع منها آثار مخطوطاتها الحجرية الثمينة، وترك بعض أجزائها، لقلة أهميتها في علم التاريخ[4]، إن تراث خزانة أدب أو بعضه يعود إلى زمن (جميل - سن) ملك أور، وبعضها الاخر أقدم من ذلك، فقد

(1) نفسه/ ص50.
(2) نفسه ص 50 - 51، ويذكر أن الرحالة الاثاري الانجيليزى (السير هنرى لايرد) هو الذي عثر عليها أثناء تنقيباته في قصر آشور بانيبال في نينوى وذلك سنة 1851 - 1852 كما عثر الموصلى (هرمزد) في أثناء تنقياته في نينوى على بعض مئات من ألواح هذه الخزانة (كوركيس عواد) ص51 - 52.
(3) كوركيس عوّاد - المرجع السابق - ص55 - 56.
(4) كوركيس عوّاد/ ص56.

وجد بعض القطع وعليها اسم (نرام سن) أي سنة 2400ق.م، وهذا يعني، أن هذه الخزانة من مخلفات الألف الثالث قبل الميلاد[1].

ومن الخزائن القديمة الأخرى (خزانة سبار)، وسبار، تعرف أطلالها اليوم باسم (أبو حبّة) تقع على نحو عشرين ميلا من جنوب غربي بغداد، وهي من أقدم مدائن العراق[2].

ترأس (هرمزد رسام الموصلي)، بعثة انجيليزية سنة 1878م، ونقّبوا في تلك الاماكن، فأسفر التنقيب عن إكتشاف عشرات الألواح المكتوبة وعدد كبير من اللقى الأثرية، ثم وُفّق الأب شيل عام 1891 في تنقيباته، حيث عثر على قسم من سبار وعلى أكثر من ألف لوح، وقد امتدت يد الآثاريين الاستعماريين اليها، فقد ذكر العلامة بج، أن جورج سمث الاثارى المشهور، اقتنى طائفة صالحة من هذه الرقم سنة 1876م وبعث بها إلى المتحف البريطاني[3].

(وخزانة سبار) هذه عثر عليها في (دار سجلات المعبد) وفي مدرسة المعبد ذاته، ويذكر شيل، أن هذه الخزانة اشتملت على ألواح فيها تمارين كتابية، وجداول علامات الكتابة ومقاطع لغوية، وموازين تصريف الافعال، وجداول المقاييس، وجداول الضرب في علم الحساب، وغيرها من الجداول الرياضية، كما وجد فيها جملة من (الالواح الفلكية) إضافة إلى عدد وافر من النصوص التي تغلب عليها المسحة الأدبية، كالتاريخ والصلوات والرقى، من قصة الطوفان، وقطعة من نص ديني خطير، وغير ذلك[4].

وقد كانت هذه الكتابات تتوزع إلى ضربين، الأول: وثائق تتعلق بأمور الأخذ والعطاء بعضها يخص المعبد، وبعضها الآخر يخص أناسا مختلفين، والثاني: ما يبلغ به للتوصل إلى درجة الكهنوت ودروس عن أداء الطقوس الدينية وغيرها[5].

وهناك (خزانة الجمجمة) والجمجمة قرية على الضفة اليسرى لشط الحلة (بابل) وهو أحد فرعي نهر الفرات، تقع في الطرف الجنوبي من رقعة مدينة بابل[6]، كان في هذه الخزانة كميات كبيرة من رقم الطين المطبوخ، عبث بها أعراب تلك المنطقة وباعوها إلى

---

(1) نفس المرجع والمكان.

(2) المرجع السابق/ ص56 - 57.

(3) راجع: Budge, Rise and progrees of Assyriology. (P. 132)
وكذلك كوركيس عواد المرجع السابق/ ص57.

(4) كوركيس عوّاد/ ص59.

(5) المرجع السابق/ ص60.

(6) نفسه.

تجار الآثار الاجانب، ومنهم انتقلت إلى المتاحف العالمية، ويعود عصرها إلى الملك الكلداني نبوخذ نصر (604 - 561 ق.م) وهذه الخزانة كانت تضم كتبا في الأدب واللغة والدين والاساطير وأمور التجارة والادارة وغيرها من المواضيع[1].

وفي تلك البقاع البابلية هناك (خزانة كيش) ذلك الموضع الأثري الخطير الشأن والذي يرى على مسافة تسعة أميال من شرقي بابل ويسميه الاهالي هناك باسم (تل الاحيمر)[2]، بدأت عمليات التنقيب في هذا المكان سنة 1923م، واتضح من سير التنقيب في كيش أن هذه المدينة العريقة في القدم، قد كان فيها (خزانة كتب) فقد وجد المنقب (لنكدن) في شباط 1924، مجموعات أدبية من رقم الطين في أحد تلول كيش، حيث عثر أحد العمال على رقيم من الطين المطبوخ يتضمن وثيقة تجارية من عهد نبوخذ نصر، والخزانة الاساسية تقع تحت مبان عظيمة متأخرة من العصر البابلي الحديث، أي إلى عصر (إسن ISIN) وحمورابي، والالواح الكثيرة التي عثر عليها في هذا التل، يغلب على مواضيعها علوم النحو واللغة، كما أن عدد الكسر المشتملة على جداول العلامات الكتابية والنصوص المدرسية، بلغ من الكثرة حداً مدهشاً، وقد وجدت هذه الكسر في خوابي فخارية كبيرة، كل واحدة منها كانت في موضوع ما[3].

وهناك على الضفة الشرقية من شط الحي، تتربع شامخة (خزانة تلّو) ذلك المكان الاثرى العريق الذي يعرف باسمه الغابر (لجش) كما يقرأ سابقا (شربوله)[4]. يقع هذا الموقع على مسيرة ثماني أو عشر ساعات، من المكان الذي يربط دجلة بالفرات بينه وبين الناصرية (ذى قار).

كشف هذا المكان قنصل فرنسا (آرنست ده سارك) عام 1877م. ونقل أغلب محتوياته إلى متحف (اللوفر) في باريس، وكان فيها تماثيل (لجودّيه) عديدة[5]، وقد وجد المنقبون في التلول هناك على سلسلة من الغرف المحتوية على ألواح من الطين المشوى، ويسميه أهل المكان (الطين المفخور) ذات النقوش المسمارية، ويقدر عدد ما وجد بها من الالواح زهاء (35000 - 40000) سرقت أغلب هذه الالواح، وتناثرت في أكثر من متحف عالمي، وقد نشر (ج - رسنر G.Reisner) سنة 1901م ما هو محفوظ في متحف

(1) كوركيس عواد/ ص60، وقد ذكر أن المستشرق الفرنسي (هنري بونيون) قد عنى بوصف هذه الخزانة في مقال نشره بالمجلة الاسيوية الفرنسية .Journalasitigue. 1880, p 543)

(2) كوركيس عواد ص61.

(3) المرجع السابق/ ص62.

(4) نفس المرجع والمكان ومجلة سومر 1/ 1949. مجلد 5 صفحة 92 - 94.

(5) دائرة المعارف الاسلامية 5/ 465 - مادة (تلّه).

برلين من ألواح خزانة تلو، ونشر (بارتن G.A.Bartan) سنة 1907م - 1914م ما في خزانة (هفرفرد الامريكية) من ألواح خزانة تلو، ونشر غيرهما من العلماء نصوصاً أخرى من هذه الخزانة، ظهرت في مقالات في بعض المجلات الاثرية الغربية[1].

وفي (الوركاء) تلك المدينة العريقة الموغلة في القدم، والتي ورد ذكرها في التوراة[2] باسم (أرك) في تلك الاخربة من جنوبي العراق وعلى الضفة الغربية منه عقيق الفرات القديم.

عثر في أطلال (الوركاء) على (خزانة الوركاء) حيث كانت آخر التنقيبات الالمانية عام 1939م، قد وفّقت إلى كشف طائفة كبيرة من آثارها، حيث عثر على بعض السجلات، الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بأن هذه المدينة قد كانت موطن الالواح، وذلك لوجود جملة من المعابد خطيرة الشأن هناك، وما عثر عليه من هذه الالواح، يتضمن وثائق ادارية وقانونية وتجارية، وعهوداً مختلفة، وصلوات وأدعية وغير ذلك، وهناك بعض ألواح من خزانة الوركاء محفوظ في المتحف العراقي، وما سرقه الغرب كثير جداً[3].

(خزانة تل حرمل) تل حرمل، موضع أثري قديم، قريب من معسكرالرشيد ببغداد/ الرصافة تم التنقيب فيه سنة 1945م من قبل مديرية الاثار القديمة العراقية، حيث عثر على مبان مختلفة، منها: معبد كبير، وأربع معابد صغيرة ودور مختلفة، وعثر فيها على أكثر من 1500 لوح، من مختلف الانواع والحجوم، وهذه الرُقَمْ جميعها من الطين، وقد أوحت نصوص هذه الالواح التي فحصت، إلى أن (تل حرمل) كان أيام عمرانه مركزا اداريا، محصنا بسور ضخم، شيد في بداية الالف الثاني قبل الميلاد، والكتابات التي على هذه الالواح تدور مواضيعها على أمور قانونية وتجارية مختلفة، ففيها صكوك وعقود تجارية كالبيوع والمداينات، وفيها عقود التبني والزواج والدعاوى والرسائل الرسمية المتبادلة بين موظفي حرمل ومملكة (أشنونا) - 2000 - 1800ق.م - ويلاحظ على هذه الوثائق أنها مؤرخة بحادثة ما، سياسية أو دينية[4]، كما وجد في المدونات لهذا التل، اثبات وسجلات باسماء موظفين، وما كانوا يتقاضونه من رواتب، ومدونات في اللغة، موضوعة باسلوب معجمي، وألواح حاوية لاسماء الطيور ذات لغة علمية، وأسماء مواد تصنع من الخشب

---

(1) كوركيس عواد/ ص65.

(2) سفر التكوين 10/ 10.

(3) كوركيس عواد/ ص65 - 66.

(4) المرجع السابق/ ص66 - 67 وراجع مجلة سومر المجلدات 2، 3، 4 للسنوات 1946 - 1948م حول تل حرمل.

والقصب، وأسماء الاشربة المختلفة، واسماء آلهة، ومن أغرب ما وجد بينها لوح فيه اشارات، يظن أنها صورة بدائية للعلامات الموسيقية (النوطة)[1].

وعلى ما يبدو أن أهالي تل حرمل السومريين، قد خَطوا في سلم الحضارة خطوات متقدمة، فقد عثر في مدوناتهم على أشياء نفيسة من الناحية العلمية، حيث وجد لوحان فيهما ثبت جغرافي يحوى اسماء 210 مواضع، أغلبها مدن وأنهار، وبعض هذه المواضع يجهل أمره، فهي مما تفرد بذكره هذان اللوحان. كما وجد من بين هذه الرقم جزء من قانون، مدون باللغة الاكدية (السامية) يسبق زمن حمورابي بنحو نصف قرن[2].

كما تضمنت بعض هذه الالواح مجموعات حقوقية، اشتملت على أقضية وأحكام في بعض القضايا، مما يلقي ضوء جديداً على أصول المرافعات والتقاضي السومري، وكذلك يفصح الامر عن وجود الشرائع الموضوعة قبل حمورابي.

أما الالواح التي تضمنت مواد لغوية، فهي على جانب كبير من الاهمية، لوفرتها أولاً ولثروتها اللغوية، حيث أنها كانت من نوع المعاجم السومرية الصرفة، فهي تعني بتفسير جمل وعلامات سومرية بما يرادفها في اللغة السومرية نفسها، دون اللغة الاكدية، وقد كان أكثر هذه السجلات رقيم كبير الحجم (40 - 50 × 40 - 50 سم) وهو يعد أول معجم باسماء النبات والحيوان والطير والاشربة[3].

وهناك، في شمال العراق، كانت مملكة الاشوريين (آشور) وجدت خزانة باسم (خزانة آشور) تقع اطلال آشور على ضفة دجلة اليمنى، وعلى أربعة أميال من شرقي ناحية (الشرقاط). نقبت عن هذه المدينة الجمعية الشرقية الالمانية برئاسة الآثارى (ولتر أندريه) بينن سنة 1900 - 1914م، وعثرت على الكثير من الاثار فيها، ونقلتها إلى متحف برلين ومتحف استنبول وقد كان فيها الكثير من المعابد والقصور، التي كانت تحوى آلاف الالواح الطينية، والتي كان يقوم منها (خزانة كتب) حافلة بالمواضيع النفيسة، وقد عُنيت الجمعية المذكورة بنشر نصوص كثيرة منها، تبحث في التاريخ والقضاء والدين والطب والسحر والتنجيم، إضافة إلى مواضيع أخرى متنوعة[4]. أهمها مجموعة من الالواح كتبت بمواد

---

(1) كوركيس عواد/ ص67.

(2) طه باقر - قانون جديد من تل حرمل - مجلة سومر 4/ 1948م، ص142 - 143 وكوركيس عواد/ ص67.

(3) كوركيس عواد/ ص48، وقد كان من حسن الصدف، أن الاثاريين العراقيين هم الذين وجدوا هذه الالواح.

(4) ظهرت هذه النصوص/ كما يقول كوركيس عواد ص68/ في المجلدات (16، 28، 34، 35، 37، =

قانونية من الشرائع الاشورية، من العهد الآشوري الوسيط (ق 15 - ق 13، ق.م)[1].

وعلى مسافة 12 ميل من جنوب غربي كركوك، كانت هناك (خزانة نُوزي) حيث وجود تل يعرف بـ (يورغان تبه) وهو يبعد ثلاثة أميال من مجموعة تلول تعرف باسم (ويران شهر) وفي هذه التلول وجدت ألواح بالخط المسماري، قام الاهالي هناك بتنقيبات غير علمية ولا مشروعة، واستخرجوا كثيرا من هذه الالواح - أوائل ق 20 - وباعوها لتجار الآثار، والأطلال المندرسة تشير إلى موضع مدينة (نوزى) القديمة، التي خربت بحريق داهمها في أواسط الالف الثاني قبل الميلاد، وقد اشتغل علماء الاثار الاجانب في التنقيب في هذا المكان عدة سنوات/ من سنة 1925 - 1931م/ فعثروا على آلاف الالواح الطينية، وقد سرقت أغلب هذه الالواح وأودعت في المتحف البريطاني، وفي متحف اللوفر، وبعض المؤسسات الامريكية، وأودع قسم منها في المتحف العراقي[2].

وقد كشفت هذه الالواح، أن تاريخها يرجع إلى المئة الخامسة عشرة ق.م، واستدلّ أن اسم (نوزى) كان في العصر الاكدى/ صدر الالف الثالث ق.م/ بصيغة (كاسو) وقد بلغ عدد هذه الالواح نيف وأربعة آلاف لوح، تناولت كتاباتها شؤوناً مختلفة في أمور الحياة العائلية وأمور الدولة، من ضرائب وأجور والوضع الاجتماعي للشعب النوزي (Harrians) وقد اهتدى الباحثون إلى أن ألواح نوزى كانت منبعاً للشرائع القديمة، حيث أنه وجد مكانا مدونا فيها من أعمال المحاكم في نوزى، والالواح المتعلقة بالسرقة وأحكامها، إضافة إلى وجود قرارات المحاكم والدعاوى القضائية، والوثائق المتعلقة بالمقايضة، والتجارة، والكفالة، والديون، وقوانين العائلة، والزواج، والرقيق، إضافة إلى رسائل متنوعة، وثبت بنذور المعابد، وجداول بأجور العمال والمستخدمين في المعبد، وجداول أخرى بأسماء الاعلام التي تمدنا بمواد لدراسة الانتقالات السلالية حوالي نوزى في أوسط الألف الثالث ق.م.[3]، كما ورد في هذه الالواح جملة أسماء جغرافية، من أبرزها اسم (آرافا Arrapha) وهو الاسم القديم لمدينة كركوك كما يقول المختصون[4].

خزانة المدائن (طيسفون) - مدائن - جاء اسمها من مَدْنَ بالمكان، إذ أقام به، همزت

= 50) من منشورات الجمعية الشرقية الالمانية WVDOG بعنوان: Keilschrifttextaus Assur. Leipzig 1911 - 1927.

(1) كوركيس عواد/ ص68 - 69.

(2) المرجع السابق/ ص70.

(3) كوركيس عوّاد/ ص 71.

(4) راجع الهامش رقم 2 كوركيس عوّاد/ ص72.

لأن ياءها زائدة، فهي مثل قرينة وقرائن[1]، وطيسفون من مدائنها، فتحت على يد سعد بن أبي وقاص في صفر سنة 16هـ أيام عمر بن الخطابه واسم المدائن بالفارسية (توسفون) وعرَّبوه إلى طيسفون، وسَمّتها العرب بالمدائن، لأنها سبع مدائن، بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة، وأسماؤها لا تزال باقية[2].

ويلاحظ على أن هذا المكان كان من أهم حواضر الدولة الفارسية بالعراق، وقد كانت كتب تلك الدولة قد قضى عليها الدهر من جهة، ومن جهة ثانية، أجهز المغول على البقية الباقية من تلك الحواضر وخزائنها، بعد أن أسقطوا بغداد عام 656هـ/ 1258م[3]، وقد ذكر طيفور[4] أن كتب المدائن نقلت إلى مدينة مرو وأثرتها كثيراً، وأورد خبراً مفاده أن العتابي قال لأحد محدثيه: «قدمت بلدتكم هذه - يقصد مرو - ثلاث قدمات، وكتبت كتب العجم التي في الخزانة بمرو، وكانت الكتب - سقطت إلى ما هناك مع يزدجرد، فهي قائمة إلى الساعة». وقد علم من ياقوت الحموي أن في مرو أكثر من عشر خزائن لم ير في الدنيا أحسن منها[5].

وهناك بعض الآثار العراقية القديمة عثر فيها على ألواح من الطين، عبث بها العابثون وسرقوا الاثار الجهلة، وباعوها بأبخس الاثمان، كما هو الحال في (أور والوركاء) ومدينة (أما) المعروفة اليوم باسم (جوخى) ومدينة (شروباك) ودلبات ولارسا (سنكرة).

و(كوثى) و(الدير) وهذه المدن كلها في النصف الجنوبي من العراق[6] ومن الملفت للانتباه أنه لم يتم العثور على خزائن مدينة بابل، رغم أن الاهالي عثروا على الالاف من ألواحها بحفرياتهم غير المشروعة وسرّب إلى بلاد الغرب[7].

أما خزائن الكتب التي عرفت بعد الميلاد، فكان أشهرها (خزانة النبي حزقيال) ذلك المرقد المقدس عند اليهود في العراق، والواقع في قرية (الكفل) في محافظة بابل، حيث كان في هذا المرقد خزانة كتب تشتمل على مؤلفات كثيرة بالعبرية، ذكرها الرحالة الاندلسي (بنيامين التطيلي) قائلاً: وتجاور المرقد دار من أوقاف النبي، فيها خزانة كتب

---

(1) ياقوت الحموي - معجم البلدان 5/ 74 - مادة (مدائن).

(2) ياقوت المصدر السابق 5/ 75.

(3) ابن خلدون كتاب العبر 3/ 537، طبعت بولاق المصرية سنة 1284هـ.

(4) كتاب بغداد لطيفور 6/ 157، بعناية كلر، طبعة ليبسك 1908م، وراجع كوركيس عواد/ ص74.

(5) معجم البلدان 5/ 114 مادة (مرو).

(6) كوركيس عواد/ ص75 - 76.

(7) المرجع السابق/ ص76.

يقال أن بعضها يرتقي تاريخها إلى عهد الهيكل الثاني، ويشير إلى أن أهل ذلك العهد قد جرت العادة عندهم، أن من يموت بلا عقد، يقف كتبه على خزانة الدار هذه[1].

وهناك الديارات، التي اشتهر بها العراق أكثر من سواه، حيث أنها كانت تعد بالمئات ذكرت بعضها المصادر العربية[2] والبعض الاخر ذكرته المراجع الارامية، وقد كانت هذه الديارات غاية في السعة والازدهار، ونشأ فيها جماعة من العلماء والمؤلفين والادباء والشعراء، حيث أنها كانت معاهد علمية إضافة إلى كونها أماكن للزهد والعبادة، وقد اقتضى نظام هذه الديارات أن يكون في كل دير (خزانة كتب) تودع محلا ما من الدير، ويتعهدها الرهبان بالمحافظة عليها وتوسيع نطاقها، وتتكون خزينة الدير من: أولاً: ما يؤلفه ويستنسخه الرهبان أنفسهم في مختلف الأزمنة، حيث أن بعضهم متفرغ للبحث والنسخ والتأليف.

ثانياً: ما يهدى إلى الدير من كتب، ويدخل في ذلك النذور والوقوف والهدايا الواردة من مختلف الجهات.

ثالثاً: ما يقتنيه الدير من كتب[3].

ومن أشهر هذه الخزائن هي:

1 - خزانة دير متّي في شمال شرق الموصل، أسّسه مار[4] متي الشيخ، في أواخر المئة الرابعة للميلاد.

2 - خزانة دير ميخائيل، انشأها مار ميخائيل في أواخر المئة الرابعة للميلاد، في أعلى الموصل[5].

3 - خزانة دير ماربهنام، يقع هذا الدير في جنوب شرق الموصل، بين دجلة والزاب الأعلى[6].

4 - خزانة دير يونس، ينسب الدير إلى يونس بن متي (النبي) يقع في الجانب الشرقي من الموصل، وموضعه يعرف بنينوى، أغلب الظن أن تأسيسه كان في اول انتشار النصرانية في تلك البقعة[7].

(1) رحلة بنيامين/ ص144 من الترجمة العربية نقلاً عن كوركيس عوّاد/ ص77 - 78.
(2) ذكر الشابشتي في كتابه (الديارات) أكثر من 35 ديرا. طبعة كوركيس عواد طبعة 1951م.
(3) كوركيس عواد/ ص79.
(4) (مار) أو (مر) لفظة آرامية تعني السيد أو الولي أو القديس.
(5) المرجع السابق/ ص84.
(6) نفسه/ ص86.
(7) ذات المرجع/ ص88.

5 - خزانة دير بيث عابي، يعود تاريخ لتأسيس هذا الدير إلى أواخر المئة السادسة للميلاد، انشأه الراهب يعقوب اللاشومي/نسبة إلى لاشوم - وهي قرية جنوب كركوك بالقرب من داقوق/ في أيام الجاثليق النسطورى اثوعياب الأرزني (582 - 595م) ظل عامرا هذا الدير حتى أيام تيمور لنك في المئة الرابعة عشرة للميلاد ولا زالت آثاره باقية[1].

6 - خزانة دير الربان هرمزد، يقع هذا الدير في أعلى جبال القوش من شمال الموصل، أسسه الراهب هرمزد، الفارسي النسطورى في المئة السابعة للميلاد[2].

7 - خزانة دير باقوقا، كان هذا الدير بأرض حدياب بالقرب من الضفة اليسرى للزاب الاعلى، أسس هذا الدير (الراهب سبريشوع الاواني) نسبة إلى أوانا[3]/ في المئة السابعة للميلاد، ويعرف أيضاً بدير سبر يشوع موقعه في أربل (أربيل)[4].

8 - خزانة الدير الاعلى: أنشأ هذا الدير الراهب كوريبل (جبرائيل) والمتوفي في باجرمي سنة 738م، ولهذا عرف بدير ماركويل، ويقع في أعلى الموصل. ويعرف اليوم باسم (باش طابية) وهذا الدير يعتبر مركزاً خطيراً لطقوس الكنيسة الكلدانية، وقد ذكره ياقوت بمعجمه[5].

إن هذه الاطلالة التاريخية على حواضر العراق القديمة، تكشف لنا عن شمول العراق، من أقصاه إلى أقصاه، على معالم ثقافية أفرزتها مختلف الحضارات التي ترعرعت فيه قبل وبعد الميلاد، وهو أمر لا مناص من الاعتراف به كونه يشكل حالة متطورة بشكل مضطرد، تؤكد حضورها التاريخي، وبالتالي تعلّم على كونها نمت في هذا الحاضن الجغرافي - العراق - الأمر الذي يعكس حالة التطور والوعي عند أهله، فالثقافات اللاحقة على هذه العصور القديمة، لم تأت من فراغ، بل جاءت متراكمة بشكل حضارى كان أوج انفجاره بالعصر العباسي، عندما أصبحت بغداد حاضرة الدولة الإسلامية، وموئل العلم والعلماء.

إن هذا التواصل التاريخي في المناحي الثقافية والاجتماعية يؤكد استمراره الحضاري

(1) المرجع السابق/ ص90.

(2) كوركيس عواد - المرجع السابق/ ص94.

(3) أوانا - بليدة كثيرة البساتين والشجر، من نواحي دجيل بغداد - ياقوت - معجم البلدان 1/ 274 مادة (أوانا).

(4) كوركيس عواد/ ص97 - 98.

(5) المرجع السابق/ ص99.

الصاعد ويؤكد من الوجهة الاجتماعية، أن سكان هذه البيئة، هم أقبل للفعل الحضاري وللثقافي بآن معاً.

وما الكشوفات الأثرية لتلك الأوابد إلاّ دليلاً على ما نقول، فهو الشاهد المتروك حيا عبر آلاف السنين.

الفصل الثاني

الحالة الثقافية في بغداد في العصرالعباسي ونشوء المكتبات

تطرقنا في/ الباب الثاني/ من هذه الدراسة، إلى تطور صناعة الكتابة، وكيفية ظهور الكتّاب كطبقة، وقد ترافقت الحالة، مع حالة مكمّلة أخرى، هي ازدياد الاهتمام بالثقافة والشغف بالعلوم المختلفة، فقد راجت الثقافة، وانتشرت أسواق الكتب، وبرز النوابغ من العلماء، وظهرت المدارس الفكرية، وراحت المذاهب الفقهية والكلامية تحرّك ساحة العقل، ففي العلوم الدينية راحت أسماء أئمة المذاهب تظهر على السطح كأحمد بن حنبل، والبخارى ومسلم والشافعي وأبو حنيفة، وجعفر الصادق وتيارات مدرسته الشيعية، فيما كان المعتزلة يعتلون صهوة علم الكلام والفلسفة، ولحقهم اخوان الصفا، ناشرين جملة من المعارف في (رسائلهم) الغنية المتنوعة فيما كانت أعلام الفلاسفة تظهر دائماً على علوم الأوائل كالفلسفة والمنطق والطب والرياضيات فقد عاش في هذه الفترة أشهر فلاسفة الإسلام، كالكندي، ومتي بن يونس، والرازي، وابن سينا والفارابي، ويحيى بن عدى، وأبي سليمان المنطقي وغيرهم، فيما كانت علوم اللغة والادب، يزداد إيقاعها الابداعي، حيث أنها ما فتأت تظهر لنا كل يوم، علماً من أعلامها، فهناك ابن السكيت وثعلب والمبرد والفرّاء وسيبويه وغيرهم من علماء اللغة، فيما كان الادب يظهر شخصيات هامة كالجاحظ وأضرابه، وتلاميذه من أمثال أبي حيان التوحيدى وغيره، فيما راح التاريخ يبرز علماءه، حيث يريك الشوامخ في بابه من أمثال الطبرى واليعقوبي والبلاذرى وأضرابهم، وراحت الموسيقا تتباهى هي الاخرى بأعلامها الاوائل كالموصلي وابن سريج ومن في طبقتهم، حتى حمل لواء الغناء إلى الاندلس من بغداد زرياب، فيما كان أبو الفرج الاصفهاني يدوّن أخبار هؤلاء المغنيين ونوادرهم بموسوعته الهامة (الأغاني)، وكان الشعراء هم الصدى الأوضح والأكبر في ثقافة ذلك العصر، فهم الفئة الأكثر عددا والأكثر حضورا في النواحي الأدبية ومنادمات الخلفاء العباسيين في قصورهم من أمثال أبي نواس، وابن أياس،

والبحترى، والمتنبي ودعبل، والكميت وقريض الجراحي، وجحظة البرمكي، وبشار بن برد، وغيرهم الكثير.

إن هذا الكم المتعدد المناهل والمشارب من العلماء والادباء والفنانين، يمثل فئات المجتمع البغدادي في ذلك العصر الزاهي، وهذا الموج المتلاطم في ثقافات تلك الفنون، من البديهي أن يفرز رجاله أدباً في كل نوع، وربما انبرت تيارات ثقافية لمنازلة تيارات أخرى، في الأدب والفن والسياسة والعلوم المختلفة، وتلك مسألة ايجابية حركت العقل، وانتجت فكرا متعدد الاتجاهات، لا زلنا حتى اليوم ندرسه، وهو أمر يشير إلى الكثافة في الانتاج الفكري لتلك المدارس، وقد عرف ذلك العصر رجالا عرفوا بغزارة الانتاج وكثرة المُؤلفات، والتي يربو بعضها على المئات[1]. وهذا النتاج الغزير يوضح لنا مدى الصدق والاندفاع عند هؤلاء العلماء والادباء، ليخدموا أُمتهم في تلك الاحقاب، فكأنهم نذروا أنفسهم ووقتهم لخدمة ابداعهم من جهة، ومن جهة أخرى يؤكد الواقع أنهم كانوا حقاً دعائم الثقافة العربية - الإسلامية، فمن هؤلاء يبرز شيخ الادباء في ذلك العصر، عنيت به أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الذي زادت مؤلفاته على (360) كتاباً، ذكر أغلبها ياقوت الحموى[2]. وكان العشق الذي يتملك الجاحظ للكتب قد غلب على كل حواسه، حتى أن طموحاته تعدت أحاسيسه تلك، فراح يعتمد على وراقين يساعدونه في عمله، ومن أشهر وراقيه كان زكريا بن يحيى، ذكرهُ ياقوت ونقل عنه أخبارا كثيرة عن الجاحظ[3].

والوراق الثاني هو عبد الوهاب بن عيسى بن أبي حيه الوراق، ذكره الخطيب البغدادي بـ «ورّاق الجاحظ»[4]، وثمة عَلَمٌ فكري آخر، كان قد برز في عصر الجاحظ هو أبو عُبيدة معمر بن المثنى البصري، كان هذا واحداً ممن جلس إليهم الجاحظ[5] وسمع منهم. قال الجاحظ عنه: «لم يكن في الارض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم

(1) راجع: عصر الكتب، عند الدكتور مزهر السوداني في كتابه/ جحظه البرمكي - الاديب الشاعر/ ص39 طبعة النجف الاولى - 1977م.

(2) معجم الأدباء 16/ 106 وما بعدها، ومقدمة عبد السلام هارون لكتاب الحيوان 1/ 5، ط2، الباب الحلبي.

(3) معجم الأدباء 16/ 106.

(4) تاريخ بغداد 11/ 28 - 29، وتاج العروس للزبيدى 10/ 108 - مادة «حيي» ط1، مصر 1306هـ. ومقدمة عبد السلام هارون لكتاب الحيوان 1/ 13.

(5) البيان والتبيين 3/ 265 - فصل خطباء الخوارج - بعناية عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والنشر - القاهرة 1368هـ/ 1949م.

منه»[1]، وقد بلغت تصانيفه أكثر من مئتي تصنيف كما يقول ابن خلكان[2]. ذكرلا منها ابن النديم 105 مصنف[3]، وهناك شخص آخر عرف بوفرة الانتاج والتآليف هو:

أبو الحسن علي بن محمد المدائني، بلغت كتبه التي ألفها نحو مئتين كتاب، أوردها ابن النديم ضمن ترجمته المطولة له[4]، كما عاصر هؤلاء القوم عَلَمٌ رابع في الكتابة والتأليف هو هشام بن محمد الكلبي الكوفي، حيث بلغت مؤلفاته أكثر من 130 كتاباً، ذكرها ابن النديم في ترجمته[5]، وعلى منوال هؤلاء كان رهط الاسلاف يسير ويحث الخطى، ليزيد في رفد الناس بمؤونة الكتاب.

وإلى جانب هؤلاء المنتجبين للثقافة، كان هناك المتلقون لهذه الثقافة ولغيرها، فكانوا مغرمين بالدرس والمواكبة، موصلين الليل بالنهار، ينقحون العلوم، وينقلون أجودها، ويختارون ما كان أفضلها، يتحدث ابن النديم عن أبي بكر محمد بن زكريا الرازي، الفيلسوف الطبيب، قال[6]: قال لي محمد بن الحسن الوراق: أنه أخبر بأن الرازي لم يكن يفارق المدراج والنسخ، ما دخل عليه قط إلاّ وشوهد وهو ينسخ، أما يسود أو يبيض، وعلى هذا المنوال كان محمد بن الجهم[7] ينقل عنه الجاحظ قوله: إذا غشيني النعاس في غير وقت النوم، تناولت كتاباً، فأجدد اهتزازي للفوائد الاريحية التي تعتريني من سرور الانتباه وعز التبين، أشد ايقاظا من نهيق الحمار[8] وما أن ازداد حب الناس بالكتب والمعرفة، حتى راح أكابر الكتاب يجمع نفائس الكتب والعلوم في خزائنهم، فهذا أبو بكر الصولي، كان عالما بفنون الادب والمعرفة، قد حوى بيتا مملوءاً بالكتب، كان قد صنّفها وجلدها بجلود مختلفة الالوان، وهو يقول: هذا كله سماعي، فإذا احتاج إلى معاودة شيء منها قال: يا غلام هات الكتاب الفلاني. وقد هجاه أبو سعيد العقيلي على هذا المسلك بقوله[9]:

---

(1) ابن خلكان - وفيات الاعيان 5/ 235 - ترجمة رقم 731 - من نشرة إحسان عباس.

(2) المصدر السابق 5/ 238 وراجع ترجمته في الوفيات 5/ 235 - 243 من نفس الطبعة أعلاه.

(3) الفهرست/ ص79 - 80 الطبعة المصرية.

(4) الفهرست/ ص147 - 152.

(5) المصدر السابق/ ص140 - 144.

(6) الفهرست/ ص415 - 416.

(7) هو محمد بن الجهم البرمكي. ولاّه المأمون عدة ولايات بعد أن أختبره بأسئلة طريفة في الادب والشعر، أنظر البيان والتبيين للجاحظ 1/ 38، الهامش رقم 3 بعناية عبد السلام هارون.

(8) المحاسن والاضداد/ ص3 - 4، وراجع كذلك: د. مزهر السوداني/ جحظه البرمكي/ ص40 - 41.

(9) تاريخ بغداد 3/ 431 - 432.

إنـــمـــا الـــصـــولـــي شـــيـــخٌ أعـــلـــم الـــنـــاس خـــزانـــه
ان ســـألـــنـــاه بـــعـــلـــمٍ طـــلـــبـــا مـــنـــه إبـــانـــه
قـــال يـــا غـــلـــمـــان هـــاتـــوا رزمـــة الـــعـــلـــم فـــلانـــة

إن القراءة والكتابة أصبحت ديدناً لرجالات ذلك العصر النيّر، حتى أنها صارت ظاهرة تمس مختلف الطبقات الاجتماعية، حيث الجميع ينصرفون إلى طلب العلم والتأليف، ولا فرق في ذلك بين كبير وصغير، فقد كان الناس، حتى الخلفاء والوزراء ممن أولع بتأليف الكتب وتصنيفها، فعبد الله بن المعتز، ألّف كتاب البديع وكتاب أشعار الملوك وطبقات الشعراء، وكتاب الزهر والرياض، وكتاب مكاتبات الاخوان للشعر، وكتاب الجوارح والصيد، وكتاب السرقات، وكتاب الآداب، وكتاب حلي الاخبار، وكتاب الجامع في الغناء، وكتاب ارجوزته في ذم الصبوح، وقد عرف عنه أنه كان يقصد فصحاء الاعراب ويأخذ عنهم[1]، ثم هناك أبو دلف (القاسم بن عيسى بن معقل بن ادريس العجل) سيد قومه، كان أميراً، أخذ عنه الادباء والفضلاء والشعراء المجودون وله صنعة في الغناء، ألّف الكتب، منها: كتاب البزاة والصيد، وكتاب السلاح، وكتاب النزه، وكتاب سياسة الملوك[2] ومن الوزراء المشهورين بالادب والفصاحة والتأليف وحب القراءة، الفتح بن خاقان - وزير المتوكل - الذي قتل معه سنة 247هـ. كان في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الادب، من أولاد الملوك، اتخذه المتوكل أخاً له، وكان يُقدمهُ على سائر ولده وأهله، كان له خزانة جمعها علي بن يحيى المنجم، لم يُرَ أعظم منها كثرة وحسنا، حتى أن داره كانت محضراً لفصحاء الاعراب وعلماء الكوفيين والبصريين من علماء النحو وغيرهم، يقول أبو هفان عن المشهورين الثلاثة في القراءة والتبصر في الكتب ما يلي[3] (ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أحب اليهم من الكتب والعلوم، الجاحظ، والفتح بن خاقان، واسماعيل بن إسحاق القاضي فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلاّ استوفى في قراءته، كائنا ما كان، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر. والفتح بن خاقان، فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل، فإذا أراد القيام لحاجة، أخرج كتاباً من كمه أو خفه وقرأه في مجلس المتوكل إلى عوده إليه حتى في الخلاء. وأما إسماعيل بن اسحاق، فاني - والكلام لأبي هفان - ما دخلت إليه إلاّ رأيته ينظر في كتاب أو يقلب كتبا، أو ينفضها، واضافة إلى هؤلاء الوزراء والامراء، كان هناك آل طاهر، ومنهم طاهر بن الحسين - وزير المأمون -

(1) الفهرست/ ص168 - 169.
(2) المصدر السابق/ ص169.
(3) الفهرست/ ص169.

وأولاده، منصور بن طلحه، له كتب في الفلسفة منها كتاب المؤنس في الموسيقى، قرأه الكندي فقال عنه: هو مؤنس كما سمّاه صاحبه، وله كتاب الأبانة عن أفعال الفلك، وكتاب الوجود ورسالته في العدد والمعدودات، وكتاب الدليل والاستدلال. أما عبدالله بن عبدالله بن طاهر، فكان شاعراً مترسلاً، انتهت إليه رياسة أهله، له من الكتب كتاب الاشارة في أخبار الشعر، وكتاب رسالته في السياسة الملوكية، وكتاب مراسلته لعبد الله بن المعتز، وكتاب البراعة والفصاحة[1].

إن هذا الازدياد والتزاحم في طلب العلم من لدن كل طبقات المجتمع العباسي، كان له ما يحفزه على الاستمرار والنمو، حيث كان خلفاء بني العباس رعاة له، ومن أكبر المشجعين عليه فقذ بذلوا الاموال الطائلة في سبيله، وأسسوا المدارس، وأعمروا الخزائن بالاسفار النفيسة، ووصلوا العلماء والادباء والشعراء بالصلات السنية، فقد تحولت قصور الخلفاء إلى منتديات يتبارى فيها الادباء والشعراء. ومن كان مجلسه يحفل بمثل هذه الطبقة المتعلمة من الناس، لزم أن يكون ذا موقف واضح من هذه العلوم وآدابها، كي يعرف ما يجري في مجلسه بل أن يدرك خفايا ما يدور فيه، من مواضيع، ولا يتسنى للخليفة أن يكون في ذلك المقام إلاّ بالقراءة والدرس ما يدور فيه، من مواضيع، وقد مر بنا كيف كان الخلفاء يعهدون بابنائهم إلى أكابر العلماء للاشراف على تربيتهم وتثقيفهم وتعليمهم. ولقد كانت الرغبة في العلم لدى الخلفاء ظاهرة ملموسة، تدرك بمشاهدة خزائن الكتب العامرة في دار الخلافة[2]. وقد كان الخلفاء يتوارثون الكتب حيث كانت تجمعُ خزائنهم أنفس الكتب وأثمنها، ولم يكن هناك كتاب يعز عليهم إحرازه، فقد كانوا يوفدون الوفود والسفراء في جلب الاسفار والكتب التي كانت تذكر لهم.

ومن هذه الاهتمامات، الارصادات المالية، التي كان الخلفاء يوقفونها على شراء الكتب، فلقد ذكرالمسعودي أنه عرض على المهتدي دفاتر خزائن الكتب، وفيها آثار لكتابات ابن المعتز وبخطه، منها[3]:

انـي عـرفـت عـلاج الـطـب مـن وجـعـي ... ومـا عـرفـت عـلاج الـحـب والـخـدع
جزعت للحب، والحمى صبرت لها ... اني لاعجب من صبرى ومن جزعي
مـن كـان يـشـغـلـه مـن إلـفـهِ وجـعٌ ... فـلـيـس يشـغـلـني عن حبكم وجعي

(1) المصدر السابق/ ص170.
(2) كوركيس عوّاد/ خزائن الكتب القديمة في العراق/ ص101.
(3) المسعودي: مروج الذهب 4/ 192 - 193، تحقيق محي الدين عبد الحميد، طبعة دار المعرفة بيروت 1402هـ/ 1982م.

وما أملّ حبيبي ليتني أبداً   مع الحبيب ويا ليت الحبيب معي

وقد كان أمر خزائن دار الخلافة العباسية معروفاً ومشهوراً، فعندما جاء المغول إلى بغداد وأسقطوها سنة 656هـ، تلقت هذه الخزائن أبشع الضربات، فبعضها نقل، وبعضها أغرق، حتى أن ابن الساعي - أحد مؤرخي بغداد المشهورين في (ق 7 هـ) يذكر أن المغول (بنوا اسطبلات الخيول وطولات المعالف بكتب العلماء عوضا عن اللبن)[1].

وقد أشار ابن الفوطي إلى أن نصير الدين الطوسي، الذي كان مرافقا لهولاكو، جمع من العراق كتبا كثيرة لأجل مرصده الذي شيده بمدينة مراغة[2] حتى أنه شيد (دار حكمة) في مدينة مراغة من هذه الكتب وغيرها، التي نقلها من كتب الأوقاف التي كانت ببغداد كما يقول ابن كثير[3].

وقد عدّت خزانة كتب الخلفاء العباسيين واحدة من أعاظم خزائن الكتب الثلاث في الاسلام. العباسي في بغداد والفاطمية في مصر، والاموية في الاندلس. فقد ذكر القلقشندي[4] أن خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد كان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة، ولا يقوم عليه نفاسة، ويضيف: ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد، وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد، فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب، وذهبت معالمها، وأعفيت آثارها. ومن هنا يتضح مقدار الاهتمام بالكتب والمكتبات من الخلفاء العباسيين قبل غيرهم من الناس، ونظراً لأهمية خزائن الخلفاء العباسيين، سنحاول في الفصل القادم ذكر هذه الخزائن، والتوقف عند أهمها، استطرادا للموضوع وتعميما للفائدة.

قبل أن ندخل إلى وصف «مكتبات بني العباس» بكامل قضّهم وقضيضهم لا بُدّ من التوقف/ ثانية/ مع الحركة الثقافية العامة، التي أوجدتها الحضارة العباسية الناهضة، من جهة، ومن جهة أخرى، تُملي علينا منهجية البحث، أن لا نتجاوز الأركان الأساسية لحوامل هذه الثقافة، عنيت بها ظاهرة «الوراقة والورّاقون» حيث أن جهدهم المعرفي

(1) مختصر أخبار الخلفاء، منسوب لابن الساعي/ ص127 طبعة بولاق سنة 1309هـ، وانظر كذلك كوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة/ ص102.

(2) ابن الفوطي (أبو الفضل عبد الرزاق بن الفوطي البغدادي/ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة/ ص350 طبعه المكتبة العربية - بغداد - 1351هـ بعناية د. مصطفى جواد.

(3) البداية والنهاية 13/ 215 - حوادث سنة 657هـ - ط1، 1966م بمكتبة المعارف ببيروت ومكتبة النصر في الرياض.

(4) صبح الاعشى 1/ 466 - 467.

والمهني، خلق حالة دافِعة، توازي بقوّتها مقدار القوة الإقتصادية والسياسية عند الخلافة العباسية، وقد علمنا - من سياقات البحث - أن «سوق الورّاقين» كان فيه أكثر من مئة حانوت للوراقة، وفي كل «حانوت» أكثر من ورّاق - ناسخ كان أو مجلّد، أو صاحب حانوت، بمعنى آخر، أن قوام حانوت كل ورّاق بين 3 - 5 ورّاقين، وهذه الوِرَشْ، تشتغل بمعدلات إنتاج عالية، حيث «الطَلَبْ» دائماً متفوّق على «العرض» وهذا يؤشّر على مَدى حُبّ الناس للقراءة والمطالعة، وعلى حركة السوق وفعاليته العالية في الإنتاج الثقافي للكتاب، وبغية الوقوف بدقّة على هذاالإنتاج الثقافي للكتاب، سنستعرض في الصفحات التالية «حالة المكتبات - كنتاج ثقافي للورّاقين، ليس على صعيد المهنة فقط، بل على شرط المسؤولية الثقافية التي انبرى لتحملها هؤلاء الورّاقين بكل صدق وأمانة.

الفصل الثالث

المكتبات الإسلامية كنتاج ثقافي - حضاري للوراقين

لقد تابع القارىء معنا الكيفية التي طَوَّر بها الورّاقون أساليب عملهم، ورفعوا من شأن خبرتهم الحرفية في مجال «إنتاج الكتاب» وفق ضوابط دقيقة، تخضع للشرط المعرفي والمهني بانٍ معاً، كل ذلك ليؤكدوا إنسجامهم مع النهوض الحضاري، باعتبارهم الركائز الأساسية التي استند عليها هذا النهوض من الناحية الثقافية، أولاً، ومن الناحية الإبداعية ثانياً، وهذا يعني أن هناك شعوراً عالياً بالمسؤولية التاريخية في وعي كل ورّاق من الناحية الشخصية - كمثقّف، ومن الناحية الإخلاقية - كمسلم، وعلى هذا الأساس، يمكننا قراءة هذا الكم الهائل من المخطوطات العربية - الإسلامية، التي عاندت الزّمن وعواتيهُ، وبقت سليمةً حتى هذه اللحظة، الأمر الذي يثير السؤال التالي: ما مقدار الجُهد المبذول «العقلي والمهني والأخلاقي» من قبل هؤلاء المجهولين، الذين تركوا لنا هذا التراث؟! وما هو الدافع الذي حَفَّزهم لينتجوا هذا الكتاب، بهذا المستوى الرفيع؟!

إن المحمول النفسي الذي كان يخالج أفئدة الأوائل من العرب، ثم بعد أن أسلموا، كان يدفعهم لتمثّل ثقافات كانت تمر على جزيرتهم العربية، فيأخذوا منها ما يؤائم روحهم، ويسقل إبداعهم الفطري لا سيما في مجال الشعر والنثر، لذلك نراهم قد أخذوا من ثقافات الشعوب التي تمازجوا معها، أثناء الفتوحات الإسلامية، أو من خلال التجارة التي كانوا يتبادلونها مع تلك الثقافات، الهندية والفارسية والرومانية والصينية وغيرها.

لقد كان العرب أصحاب منطق لغوي وبلاغة وفصاحة، تُميّزهم عن غيرهم من بقية الشعوب، وعندما تحضّروا واستقرّوا في البلاد المفتوحة كان تأثير البلاغة والفصاحة إليهم أسرع، حتى أنهم كانوا يحملون معهم كتابهم الأول (القرآن) أينما حَلّوا، باعتباره المُحفّز الأراس لثقافتهم الجديدة، وأحّد المعجزات البيانيّة في خطابهم الإسلامي، والذي تمحورت حَوله كثير من الدراسات الجدليّة ليثبتوا بهِ، شخصيّة الشرق، باعتباره وثيقة الإسلام الأولى، من ناحية، ومن ناحية ثانية، لقد نقل العرب والمسلمون تراث الأمم القديمة دون تفريق من يونانية وقبطية وهندية وآشورية وفارسية وكلدانية وسريانيّة إلى اللغة العربية، ثم تمثّلوا ما عَرَّبوا وأبدعوا بعد ذلك تفكيرهم فيه، لخلق وحدة موضوع معرفي مُتماه[1] مع ثقافتهم الأصلية، وفق محمولهم الروحي.

لقد شاهد المسلمون الأوائل كتب الفُرس ومكتباتهم وأعجبوا بها، وعندما بدأ العرب بتأسيس مكتباتهم صاغوها على النمط الفارسي إلى حَدٍّ ما، وتأثّروا بالفرس في جمعهم للكتب، إذ أن الحضارة الفارسية كانت معروفة للعرب زمن الجاهليّة، حيث كانت للفرس حركة أدبيّة وعلمية وفلسفية كبرى، بلغت ذروتها أيّام السُلالة الساسانية وتحديداً في عهد كسرى أنو شروان[2] وقد أشار المؤرخ البغدادي المشهور (طيفور) إلى أن «كتب العجم كانت موجودة في خزانة مرو حتى وقته/ العصر العباسي/»[3].

فيما كان تأثر العرب بالثقافة اليونانية في مصر وسوريا، إذ احتَلّ الإسكندر المقدوني هذه البلدان ونشر فيها النفوذ اليوناني وبنى مدينة الإسكندرية، وجعل فيها أشهر المكتبات في العالم حتى غَدَت الإسكندرية عاصمة الدُنيا الفكرية والثقافية لأكثر من ثلاثة قرون/ من القرن الثالث ق.م - القرن الأول ق.م)[4].

وقد كان اتصال المسلمين الأوائل بالفكر الإغريقي عن طريق مدرسة الإسكندرية هذه، حيث كان لتعاليمها الفلسفية الإغريقية تأثير عظيم في بُنية التفكير الإسلامي، لا سيما المتأثر بالإتجاه الإفلاطوني الجديد المُحدث[5].

ذكر ابن النديم في «الفهرست»: «أن إسحاق الراهب حكى في تاريخه أن بطولوماوس

(1) راجع مُقدمة د. محمد ماهر حماده، لكتابه: المكتبات في الإسلام/ ص10، منشورات مؤسسة الرسالة - ط6 - بيروت 1414هـ/ 1994م.
(2) المرجع السابق/ ص15.
(3) أحمد أمين/ ضُحى الإسلام 3/ 176.
(4) انظر: حماده - المكتبات في الإسلام/ ص17.
(5) المصدر السابق/ نفس المكان.

فيلادلفوس، من ملوك الإسكندرية، لمّا ملَكَ، فحصَ عن كتب العلم، ووَلّى أمرها رجُلاً يعرف «بزُميرة» فجمع من ذلك على ما حكى أربعة وخمسين ألف كتاب ومائة وعشرين كتاباً، وقال: أيها الملك، قد بقي في الدُنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم»[1].

إذن، كان للتأثير الثقافي - الخارجي مفعولَه على العرب، إذ أن الثقافة نتاج إنساني بحت، يفرض قانونيته على الإجتماع بحكم الحاجة، وبحكم التنافس الحضاري أيضاً، فالتطور الثقافي عند العرب كان سابق على الإسلام في الخطابة والشعر وغيرها، وعندما اعتنقوا الإسلام، أصبحت الضرورة المعرفية، أن يتطوّروا ويطوّر الإسلام ذاته لأنه فكر ثقافي، وللثقافة موجباتها، وأوّلها حريّة التفكير، وإنتاج المعرفة، بمعنى إيجاد الحاضر المنظّم لهذا التفكير، أي «وجود كتاب» يُقرأ فيه هذا الفكر، وبالتالي، أوجدت الضرورة أيضاً المكتبة.

وقد ظهرت المكتبات الإسلامية نتيجة التطور وانتشار العلم والمعرفة في العالم الإسلامي، وقد أوضحنا، في أكثر من مفصل من هذه الدراسة الموسوعية، البدايات الأولى لفن النسخ والتوريق، وتأثير العوامل الداخلية والخارجية على حالة الوسط الثقافي، والذي أخذ على عاتقه تفعيل فعل الكتاب - كمنجز ثقافي، على كل نواحي الحياة العربية - الإسلامية، بغية خلق ثقافة تليق بهذا الإنسان، والذي من أجله وُجد الوجود، وتفاعلت الثقافات.

لقد أشرنا - في أكثر من مكان - من هذه الدراسة، بأن العامل الديني الإسلامي، كان محفّزاً رئيسيّاً، وكان للقرآن الدور الأبرز في إيقاظ فكر المسلم، للتفكير في شأن الوجود، ومعرفة حدود الإسلام - كديانة - وكثقافة، نزلت للعرب أولاً، ومن ثم بقية الشعوب، ومن هنا ندرك جسامة المُهمّة التي أُنيطت بالعُلماء العرب الأوائل لينهضوا بها، إذ أن هناك الكثير من الآيات القرآنية كانت تحض المسلم على التعلم والتفكّر والإستدلال، وأن القرآن أشار في أكثر من عشرة مواضع على العِلم والتعلّم، وقد أُفْتُتِحَ القرآن بالقول: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[2].

إذن أوّل مفردة في الخطاب القرآني [إقرأ] وهذا واجب شرعي فرضهُ الإسلام على

(1) الفهرست/ ص334 - طبعة القاهرة 1348هـ. وراجع كذلك، المكتبات في الإسلام/ ص17.
(2) سورة العلق/ الآيات 1 - 5.

المسلم، بمعنى أن الدافع القرآني الأول يشترط المعرفة، لأنّه سَيتعلَّمْ أشياء أخرى ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [الآية 5 من السورة]، وهي فتح الآفاق للعلم، ما زال فعل القراءة قائماً، ومن هنا أدرك الأوائل أهمية تدوين ونسخ القرآن بغية مواكبة أسرار المعرفة التي تضمنها الخطاب القرآني.

وحتى تستمر النزعة المعرفية في عقول المسلمين كافة فكان القرآن يحمل الدافع الأقوى في خلق المنافسة المعرفية في شرطها الثقافي، إذ تقول الآية: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(1) وقد شكلت هذه إحدى العلامات الدالة في الفكر الإسلامي، وكانت واحدة من أهم الدوافع في بُنية الثقافة الإسلامية، على كافة الصُعد، وعلى ضوء العِلم هذا كانت تحدد فضيلة العالِمْ، تلك المرحلة الثقافية العالية التي سايرت العلماء المسلمين وخلقت لهم الشخصيّة المعرفية، إذ أن الخطاب القرآني أيضاً أوجد سمة تعظيم للعلماء، تجسد في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(2)، وزاد في موضع آخر هذا التعظيم إذ قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(3). وهذا يعني بالضرورة أن يكون المسلم عالم بشؤون دينه أولاً، وعارفاً حالَ وجوده ثانياً، بشكل معرفي، يتواشج الإيمان بالعلم، كشرط ديني - أخلاقي، ثقافي، حتى يكتسب رجل الدين صفة العالم، وكان القرآن واضحاً في هذه المسألة، وأشار إليها في أكثر من مكان(4) ومن ذات المحمول نفهم التأكيدات الحريصة للرسول محمد ﷺ على تشجيع العلم وإكرام العالم، وتواترت عنهُ أحاديث جليلة تؤكّد حرصَهُ على التعليم منها(5):

1 - أغدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك.

2 - إطلب العِلمَ ولو بالصين.

3 - طلب العِلم فريضة على كل مسلمٍ ومسلمة.

4 - لا يزال الرجلُ عالماً ما طلب العِلم، فإن ظَنَّ أنّه قد علم فقد جهل.

---

(1) سورة الزُمر، الآية: 9.

(2) سورة فاطر، الآية: 28.

(3) سورة المجادلة، الآية: 11.

(4) راجع على سبيل المثال لا الحصر، سورة البقرة، الآية: 151، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ وسورة الرحمن، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمٰن: 1-4] وغيرها من الآيات العديدة.

(5) راجع إسناد هذه الأحاديث عند د. محمد ماهر حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص28، وقد سبقنا إليها في الإشارة والتخريج فلهُ الفضل في ذلك.

5 - الناس عالِم ومُتعلّم وسائرهم همج.

6 - إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب، ولمدادٍ جرت به أقلام العُلماء خيرٌ من دماء الشهداء في سبيل الله.

ومن هنا كانت النوازع العلمية هي التي أحكمت مسارات العقلية الإبداعية في الثقافة العربية - الإسلامية، كصدىً لدوافع ركني الشريعة الإسلامية - القرآن والسنة - وعلى هذا الأساس المعرفي كانت مناهج الوراقة في الإسلام، تتقيّد بشرطي العِلم والإيمان في صناعة الكتاب العربي الإسلامي.

الفصل الرابع

شغف العُلماء بالكتب

بعدَ أن أرست تعاليم الإسلام قواعد فهمها الصحيحة في النفوس، وبعد أن ترسَّخت الثقافة في عقول العلماء، أصبح من اللاّفت للإنتباه أن هناك بدأت تظهر «مجالس للعلماء» في مختلف الأمكنة، في البيوت، والمساجد، ودار الخلافة، وعند الوزراء والأمراء، وكان الأوضح ظهوراً في تلك المجالس هو سوق الورّاقين ببغداد[1] حيث كان الورّاقون هم أهل الصنعة في هذا الميدان، فجمعوا من حولهم كبار العلماء، وخيرة المثقفين، وأبرز رجالات الفن والأدب، وكانت تعقد هذه المجالس في وسط السوق للمناظرات العلمية والفلسفية والتاريخية والأدبية وغيرها وبرزت شخصيات من هذا الوسط الثقافي تعشَّقت الكتاب، وأصبح هو شغلها الشاغل دون الأهل والولد، وكان الجاحظ هو العَلَمُ الأبرز في هذه الناحية، حتى عُرفَ عنه «أنّه كان يكتري أسواق الورّاقين ويبيت فيها للنظر»[2] الأمر الذي نقل عدواه هذه إلى الكثير من العلماء والأدباء، بل أصبحت ظاهرة عشق الكتاب من الأمور المعكوسة بالأدب، ومدوّنة بالكتب، فقد قيل: «الكتاب هو الجليس الذي لا ينافق، ولا يُمّلُّ، ولا يُعاتِبُك إذا جفوته، ولا يُفشي سرّك»[3]. وبعد فإن أفضل مما نظر فيه من خواص الملوك وسلكوا إليه أفضل السلوك، بعد نظرهم في أمر الأمّة وقيامهم فيما

---

(1) راجع/مجالس العلماء في سوق الورّاقين - في هذه الموسوعة - ج2 - ظهور مهنة الوراقة.

(2) راجع - ياقوت الحموي - معجم الأدباء 16/ 106 وما بعدها، في ترجمة الجاحظ.

(3) إبن الطقطقي/الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية/ ص4، طبعة القاهرة 1923م.

إستودعوه بالحُجّة هو النظر في العلوم والإقبال على الكتب التي صدرت عن شرائف المفهوم. فأمّا فضيلة العلم فظاهرة ظهور الشمس، عريّة عن الشَكّ واللبس[1].

ثم مال الشعراء إلى الكتاب فوصفوه تغزلاً ومحبّة، لأنهم وجدوا فيه ما لم يجدوه بسواه، فقد قال أحدهم[2]:

نعمَ الأنيسُ إذا خلوتَ كتابٌ   تلهو بهِ إن مَلَّكَ الأحبابُ
لا مفشياً سرّاً إذا استودعَتهُ   وتفادُ منهُ حكمة وصوابُ

وقال آخر[3]:

ولكل صاحب لذّةٍ متنزّه   أبداً ونزهة عالمٌ في كُتُبَه

والمتنبي يقول[4]:

أعَزُّ مكانٍ في الدنا سرجُ سابحٍ   وخيرُ جليس في الأنام كتابُ

ولكن حُب الكتاب عند الجاحظ مسألة أخرى، أكثرُ شغفاً من الجميع، فهو ديدن عقله، وقبلةِ أحلامه وأمانيه لذلك يصفهُ بالقول: «لا أعلم ما جاء في حداثة سِنّه، ولا قرب ميلاده ورخص ثمنه، وإمكان وجوده، يجمع بهِ السِيَّر العجيبة والعلوم الغريبة، ومن آثار العلوم الصحيحة والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة، ما يجمعَهُ كتاب، ومن لَكَ بزائرٍ إن شئت كانت زيارته غِبّا، وإن شئت لزمكَ لزوم الظل، وكانَ مِنكَ كما كان بعضَك»[5].

والجاحظ هو القائل في «البيان والتبيين» في معرض شرحه لقوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[6] فقال: «ولذلك قالوا: القلم أحّدُ اللسانين، كما قالوا قلّة العِيال أحد اليسارين، وقالوا: القلم أبقى أثراً واللسان أكثرُ هذراً. وقال عبد الرحمن بن كيسان: إستعمال القلم أجدر أن يحضَّ الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح القلم، وقالوا اللسان مقصورٌ على القريب الحاضر، والقلم مُطلق في الشاهد

(1) إبن الطقطقي/ المصدر السابق ص3.
(2) راجع محمد ماهر حمادة/ المكتبات فيه الإسلام/ ص30.
(3) إبن عبد ربّه/ العقد الفريد 4/ 201.
(4) انظر ديوانه - قافية الباء. . .
(5) انظر الجاحظ - المحاسن والأضداد/ ص4. طبعة القاهرة 1932م.
(6) سورة القلم، الآية: 1.

والغائب، وهو للغابر الكائن مثلهُ للقائم الراهن. والكتاب يُقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزهُ إلى غيره»[1].

كان هذا كلام الجاحظ في معرض المفاضلة بين اللسان والقلم، ومدى بلاغة كل منهما في البيان، إلاّ أنَّهُ يتماهى في وصف الكتاب، في موسوعته الرائعة «كتاب الحيوان» فهو يُطنب في الدفاع عنه والإنحياز له، من موقف معرفي نادر الغِرار، وقِلَّةٌ هم الذين يدركون قيمة الكتاب كما يدركها أديب العرب الأول، لا سيما في آننا المعاصر. فالجاحظ توحّد مع الكتاب روحاً ومعنى وبدفاعه عن الكتاب يثبت خطَل النظرة اللاّعلمية لدى الذين لا يفهمون قيمة المعرفة وقيمة الكتاب، إسمع ماذا يقول عن الكتاب:

«ونعم الذخر والعقدة هو، ونعم الجليس والعدّة، ونعم العِشرة والنزهة، ونعم المُشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعمَ المعرفة ببلاد الغُربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاءٌ مُلىء علماً، وظَرْفٌ حشي ظُرفاً، وإناء شحن مِزاحاً وجدّا، إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيَ من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادرهِ، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألْهتْكَ طرائفهُ، وإن شئت أشجتك مواعظهُ، ومن لكَ بواعظٍ مله، وبزاجرٍ مُعز، وبناسكٍ فاتك، وبناطقٍ أخرس، وببارِدٍ حار... ومن لك بطبيب إعرابي، ومن لك بروحيٍّ هندي، وبفارسيٍّ يوناني، وبقديمٍ مولّد، وبميّتٍ ممتنع، ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر والناقص والوافر، والخفيّ والظاهر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع، والغثّ والسمين والشكل وخلافه، والجنس وضدّه... ومن لكَ بمؤنسٍ لا ينام إلاّ بنومك ولا ينطق إلاّ بما تهوى، آمنُ من الأرض، وأكتم للسر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، وأحفظ لما استحفظ من الآدميين ومن الأعراب المستعربين... وقال ذو الرمّة لعيسى بن عمر: أكتب شعري فالكتاب أحبُّ إليَّ من الحفظ، لأن الإعرابي ينسى الكلمة وقد سهرَ في طلبها ليلَتَه، فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس، والكتاب لا يُنسى ولا يُبدّل كلاماً بكلام»[2].

ويرد الجاحظ بنفس الخطاب على الذين يعيبون الكتاب، وهم لا يدركون أسراره وحكمته، فيخطّل رأيهم بالقول: «وعبت الكتاب ولا أعلمُ جاراً أَبَرْ، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا مُعلّماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية ولا أقل جناية ولا أقل إملالاً

(1) انظر - البيان والتبيين 3/ 103 - طبعة حسن السندوبي - القاهرة 1956م، وانظر كذلك/ حماده: المكتبات في الإسلام/ ص31 - حيث أورد النص.

(2) الجاحظ - كتاب الحيوان 1/ 33 - طبعة فوزي عطوي - منشورات مكتبة النوري بدمشق 1968م.

وإبراماً ولا أحفل أخلاقاً ولا أقلَّ إخلافاً وإجراماً ولا أقلَّ غيبه ولا أبعد عن عُفيهة، ولا أكثر اعجوبة وتصرفاً. . . الخ»[1].

ثم يدخل الجاحظ في روح الكتاب وسايكولوجيّتهِ - إن صح التعبير - فهو يعامله كعيّنةٍ نموذجيّة تخضع للتمسطُرِ بإمتياز، فيقول: «والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملُّكَ والمستميح الذي لا يشتريك، والجار الذي لا يستطيبك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملُكَ بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ، ولا يحتال لك بالكذب، والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال متاعك، وشحذَ طباعك، وبَسَطَ لسانك، وجَوّد بنانك، وفخَّمَ ألفاظك. . . ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك وعرفت بهِ في شهر ما لا تعرفهُ من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من العزم ومن كدّ الطلب، ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم، ومن الجلوس بين يدي مَنْ أنتَ أفضل منه خلقاً وأكرم منه عِرقاً، ومع السلامة من مجالسة البغضاء، ومقارنة الأغبياء والكتاب هو الذي يُطيعك بالليل كطاعتهِ بالنهار.

ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتل بنوم، ولا يعتريه كلال السَهر، وهو المعلّم الذي ان افتقرت إليه لم يخفرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك العائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبّت ريح أعاديك لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلقاً بسبب أو معتصماً بأدنى حبل، كان لك فيه غنىً عن غيره، ولم يضطرك وحشة الوحدة إلى جليس السوء، ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلاّ منعه لك من الجلوس على بابك والنظر إلى المارّة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الحرص، ومن ملابسة صغار الناس وحظور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الرديئة وجهالاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة، ثم الغنيمة وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلاّ أنه يشغلك عن سخف المُنى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب وكل ما أشبه اللّعب، لقد كان على صاحبه أسبغ النعمة وأعظم المنّة»[2].

ولقد أحسن الوصف والتقريض لهذا القول، ما قاله د. محمد ماهر حمادة، «لا نعتقد أن كاتباً وصف الكتاب بأبلغ من هذا الوصف، ولا دافع عنه بأحرّ من هذا الدفاع، ولا بيّن محاسنه ومزاياه بمثل هذه القوة»[3].

---

(1) المصدر السابق - نفس المكان، وقد أحسن الأستاذ محمد ماهر حمادة في نقله لهذا النص الجميل على صفحات كتابه الهام/ المكتبات في الإسلام/ ص 31-34، فليراجع بقية النص هناك.

(2) الجاحظ - كتاب الحيوان 1/ 41 - 42.

(3) انظر كتابه/ المكتبات في الإسلام/ ص34.

ولقد أصبحت ظاهرة عشق الكتاب حالة عامة عند أغلب المشتغلين في العلوم والآداب، وبعضهم فضل الكتّاب على مجالسة الأمراء والسلاطين والخلفاء والوزراء، فهذا الجاحظ رفض رئاسة ديوان الرسائل للمأمون[1] لأنها تبعدهُ عن الكتاب، ويذكر ابن الطقطقي حكاية طريفة عن هذا الموضوع، مفادُها «أن أحد الخلفاء طلب أحد العلماء وأرسل في طلبه أحد حجّابه، وعند وصول الحاجب للدار قال: إن أمير المؤمنين يطلبك، فردَّ عليه بالقول، ودون أن يرفع رأسه من الكتاب: قُل لهُ عندي قوم من الحكماء أحادثهم، فإذا فرغت منهم حضرت. وعاد الحاجب وأخبر الخليفة بما سمع وما رأى. فقال الخليفة: إحضرهُ الساعة، ولما وصل العالم قال لهُ الخليفة: من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك؟! فقال: يا أمير المؤمنين:

لنا جُلساء ما نَمِلُّ حديثهم ... أمينونَ مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا عن علمهم علم ما مضى ... ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا
فإن قلت أموات فلم تعد أمرهم ... وإن قلتَ أحياء فلست مفنّدا

فعلم الخليفة أنَّهُ يشير بذلك إلى الكتب، ولم ينكر عليه تأخره»[2].

كما أن الكثير من جمهور المسلمين أدركوا قوة الحاجة للكتاب وأهمية معرفة أسرار الكتب ومحمولاتها، فأقبلوا على قراءتها بشغف، لا سيما كتب التاريخ والآداب والنوادر والسِيَر والعلوم واللغة والشعر والفقه وغيرها[3]، ولقد كان ياقوت الحمَوي، قد انحاز إلى تجارة الكُتب دون تجارة السلع، فعرف أسرار قيمة الكتاب وَوَجد الناس فيه، وهو الخبير المطّلع والورّاق المشهور، حتى أن كتابه (معجم الأدباء) يُعد سيرة ذاتية لعشّاق الكتب لأنهم أدباء وعُلماء وفلاسفة وشعراء وورّاقين وجمّاعين كتب، وقد عَلِمَ عنهم الشيء الكثير في تطوافه ورحلاته، وهو يسرد القصة التالية لأحد هؤلاء الذين تعشّقوا الكتب، قال: «كان الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون من محبّي الكتب ومقتنيها وأنه كان يبالغ في تحصيلها وشرائها، وحصل عن أصولها المتقنة، وأمَّهاتها الثمينة ما لم يحصل الكثير من الناس، ثم تقاعد بِهِ الدهر، وافتقر بعد غنى، وبَطُلَ عن العمل» وذكر ياقوت: أنَّهُ رآه يُخرجها ويبيعها، وعيناه تذرفان بالدموع كالمفارق لأهله الأعزاء والمفجوع بأحبائه

(1) راجع ذلك عند ياقوت الحموي في ترجمة الجاحظ بكتابة معجم الأدباء 16/ 126.
(2) الفخري في الآداب السلطانية/ ص3 وانظر كذلك - المكتبات في الإسلام ص34 - 35.
(3) إبن الطقطقي - المصدر السابق/ ص5.

الأودّاء، فقلت له: هوّن عليك - أدام الله أيامَك - فإن الدهر ذو دولٍ، وقد يسعف الزمان ويباعد وترجع دولة العِز وتعاود فتستخلف ما هو أحسَنَ منها وأجود. فقال: حَسْبُكَ يا بني، هذه نتيجة خمسين سنة من العُمر أنفقتها في تحصيلها، وهب أن المال تَيَسَّرَ والأَجَلُ يتأخر - وهيهات - فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلاّ على الفراق الذي ليسَ بعدة تلاق... قال: ثم أدركتْهُ منيّته ولم يَنَلْ أمنيته، حيث توفي سنة 608هـ»[1].

إن هذا الحبّ السرمدي عند هؤلاء الناس للكتاب لم يأتِ صدفة بل كان لظاهرة الوراقة والتدوين والتأليف والنقل والترجمة وهمّة العلماء وتشجيع الخلفاء والوزراء وغيرهم، واندفاع الناس/ في العصرالعباسي/ للتعلم، حيث كان الدافع الحضاري مؤثّراً إيجابياً في رفع هذه الظاهرة الثقافية في المجتمع العباسي، الأمر الذي ترك بصماته على كامل فترة العصور الوسطى وما تلاها، بل حتى هذه اللحظة وليس اعتباطاً أن يتوقف «وول ديّورانت» مع مسيرة الكتاب العربي وعشق الناس له إذ يقول: «ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب في بلدٍ آخر من بلاد العالم، اللَّهُمَّ إلاّ في الصين، في عهد منج هوانج ما بَلَغَهُ في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر»[2].

وهذا ما يؤكّد جذريّة الموقف المعرفي عند المثقفين العرب والمسلمين، في تلك الأحقاب الزاهية، ولذات السبب المعرفي توقَّف الكثير من المستشرقين الأجانب حول رحلة الكتاب العربي وأشادوا بفضل العلماء العرب الذين أوصلوا كتابهم إلى هذه المرحلة من الرقي المعرفي والعناية الفائقة بالكتاب وبشخصية الكتاب الإعتبارية[3].

---

(1) معجم الأدباء 9/ 185 - 186 - وكذلك راجع - محمد ماهر حمادة/ المكتبات في الإسلام ص36 حيث أورد تلك الحادثة.

(2) وول ديورانت/ قصة الحضارة 23/ 171 - تعريب أحمد بدران منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1950م.

(3) راجع مقدمتنا - في الجزء الأول - من هذه الموسوعة، حيث استعرضنا كثير من آراء المستشرقين وناقشناها بعلمية وحياد.

الفصل الخامس

الدولة العباسية والكتاب

يُخطىء كل باحثٍ أو دارسٍ الإعتقاد بأن التدوين سبق العصر العباسي إذ كل المُعطيات تشير إلى أن العصر العباسي هو العصر الذهبي للثقافة العربية الإسلامية دون منازع، وقد أثبتنا في سياقات البحث/ من خلال هذه الموسوعة/ كيف بدأ التفكير المعرفي عند رجالات العِلم ورجالات الحكم[1]، فما أن أنشأ المنصورمدينة السلام «بغداد» سنة 145هـ[2] حتى استقرّت ركائز الدولة فيها، وتعاقبت خلفاء بني العباس الحكم فيها - رغم تحول «المعتصم بالله العباسي» منها إلى «سُرَّ من رأى» - سامراء - فِراراً بجنوده الأتراك من أهل بغداد سنة 221هـ/ 836م، إلاّ أن بغداد لم تفقد بريقها[3].

وظلّت بغداد كما هي عليه، إذ التفاعلات الثقافية - الإجتماعية الأولى كانت عاملاً إيجابياً، فلقد انطلقت الثقافة العربية - الإسلامية من مكوناتها الأولى/ القرآن والحديث والسُنّة/ وشكّل المسجد نقطة التجمع الأولى للنشاط الثقافي، كما أن بناء الدولة العباسية قد شارك فيه أكثر من عنصر قومي، كالفرس والسريان وغيرهم، بما يحملونه من تراثٍ فكري، وكان صدر الدولة العباسية والمجتمع البغدادي أرحب لهذا التنوع والاختلاف الثقافي لكل هذه الأطياف، وقرّبت الدولة رجالات العِلم والأدب، وأغدقت عليهم الهبات والعطايا والجرايات، وعُرف ذو الفضل بفضله، فرفع الأديب وأكرم العالم، وجالت صولة الأدب، واختلط العالِم بالفقيه، وتناظروا، واختلفوا، وتوسّعت دائرة المعرفة بالتناظر، وعرفت الدولة العباسية مجالس المناظرة والمنادمة، وأكبَّ كثيرون على العِلم والتأليف،

(1) راجع - الجزء الأول من هذه الموسوعة/ المقدمات الحضارية/ لتقف على البدايات الأولى للتفكير الإسلامي في إيجاد الكتاب العربي - الإسلامي.

(2) راجع - ابن الفقيه/ بغداد مدينة السلام/ ص30 - 31.

(3) أنظر كتابنا/ ورّاقو بغداد في العصر العباسي/ ص25/ منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - ط1 - الرياض 1421هـ/ 2000م.

وقد قامت الترجمة بدور بارز في تلاقح الثقافات وظهرت الفلسفة وعلم الكلام، وبرزت آراء المذاهب والفِرق، وفُلسِف الدين، وراحت ملامح» الآيديولوجيات النظرية - السياسية والمذهبية»[1]. تظهر بجلاء وقد كان للمعتزلة الدور البارز في تحريك الوعي الثقافي العام في كل أرجاء الدولة العباسية، لا سيما بعد تبنّي المأمون فكرهم الإعتزالي، وأصبح هو المذهب السائد في الدولة في مستهل (ق 3هـ)[2]، وقد أثّر نشاط المعتزلة هذا على الساحة الفكرية، في بغداد أولاً، ثم انتقل إلى بقية أجزاء الدولة العباسية، المترامية الأطراف، وقد أبرز الفكر الإعتزالي مفكرين وأدباء أمثال - النظّام والجاحظ - الأمر الذي أثار غيرة بقية المذاهب لأن ينتجوا رجالاً مثلهم، فقد برز ابن قتيبة بموازاة الجاحظ، كندٍّ له، ولكنه فقيه مُتأدّب، وكان بعيداً عن الميل نحو الثقافة الإغريقية - بحكم ثقافته الدينية، وابن قتيبة هذا وضع النقاط على حروف الشريعة الإسلامية، واجتهد في تنسيق الأسانيد وتصنيفها وأعطى الأولوية للسُنّة على بقية فروع المعرفة، وقد إستطاع أن يجد للكُتّاب طريقا من طُرق الأساليب الكتابيّة، يحدّد لهم عملهم في الدواوين، وذلك في كتابه الهام «أدب الكاتب» والذي يعدُّهُ ابن خلدون من أصول كتب الأدب الأربعة الأساسية في الثقافة العربية الإسلامية[3]. كما وضع ابن قتيبة موسوعة أدبية أخرى، تُعدُّ من أهم المصادر في المجال الأدبي هي «عيون الأخبار، وكتاب الشعر والشعراء»[4]. وإلى جانب ابن قتيبة، ظهر معاصرهُ «اليعقوبي» ذلك الأديب المؤرخ، الذي أسَّسَ للتاريخ العام بإسلوب أدبي رشيق وما أن تطورت صناعة الورق، وتبنّت الدولة رسمّياً أمر الترجمة وأغدقت بسخاء على المترجمين - لا سيما في عهد المأمون، حتى أخذ التأليف يشقُّ طريقهُ بقوة، وانتشرت الوراقة في أغلب الأمصار الإسلامية، منطلقةً من بغداد العاصمة للخلافة العباسية حتى شهدت نهاية (ق 4هـ)، أعمالاً ضخمة من الكُتب والتصانيف وقد برز إسم «إبن النديم» ذلك الورّاق المشهور والحاذق، وصَنَّف كتابَهُ الذائع الصيت «الفهرست» مؤسِّساً بهِ لمنهجٍ جديد في الكتابة العربية تخص «سيّر الرجال وفهرسة الأعلام» مؤذنٍ بذلك إلى ظهور كتاباتٍ لاحقة نحت منحاه. فيما راح المسعودي يختط منهجاً وصفيّاً جديداً في الجغرافية، مُمازجاً بين الأدب والتأريخ بصيغ جميلة، وراحت تصنيفات المؤرخين تُوجد مدرسة خاصة لها في

(1) انظر كتابنا - النظام الداخلي لحركة إخوان الصفاء/ الفصل الأول/ منشورات دار كنعان - ط 1 - دمشق 1992م.
(2) انظر كتابنا/ ورّاقو بغداد في العصر العباسي/ الفصل الثاني/ ص42.
(3) إبن خلدون - المقدمة/ ص553 - 554 - منشورات دار إحياء التراث - بيروت. بدون تاريخ.
(4) أنظر كتابنا - ورّاقو بغداد في العصر العباسي/ ص44.

المنهج والإسلوب، تَرَبَّع على عرشها بامتياز «الطبري والبلاذري» وظهر ترسُّل الكُتّاب على يد «الصّولي».

فيما أخذ يظهر شكل جديد آخر من التاريخ يُمثِّلهُ «أبو الفرج الأصفهاني» في كتابه الهام «الأغاني» والذي جمع فيه أخبار الشعراء والمغنيّن والموسيقيّين، وشخصيات المجتمع الهامّة وحوى هذا الكتاب من المعلومات التاريخية والأدبية والفنيّة ما لم يحوِ أيّ كتاب آخر موازٍ له[1]، فيما قَدَّم «قُدامة بن جعفر» نقد الشعر، وقدّم «أبو هلال العسكري» كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، مستوحياً فيه إسلوب الجاحظ، وعارضاً بطريقة منهجية قواعد البلاغة العربية، فيما قدَّم معاصرة «الباقلاّني» الدليل على إعجاز القرآن، فيما عكست الحياة الاجتماعية ظلالها على بعض الأدباء، فصوَّروا حياة العامة والخاصّة، فهذا «الوشّاء» يستلهم إسلوب الجاحظ، ويضع كتابه «الموشّى» مسلطاً الضوءَ فيه على الأوساط المتميّزة وظُرّاف عصره ومتأدبيه، فيما استطاع «أبو المطهر الأزدي» تبيان لوحة الحياة البغدادية بكتابه النادر «حكاية أبي القاسم البغدادي»[2]، فيما أظهر «أبو حيّان التوحيدي» متانة الإسلوب المتفرّد في كتاباتِهِ، والبلاغة العالية في النثر العربي والعبارة المُفخّمة ذات الطابع الفلسفي، والتي لا تخلو من نقدٍ لاذع لمعاصريه من عُليّة السلطة وغيرهم، وهو ما يتضح في كتابه «أخلاق الوزيرين» فيما تجلّت إبداعاته الأدبية في «الإمتاع والمؤانسة» فيما حفل كتاب «المقابسات» بالإسلوب الفلسفي الموشّى بالأدب[3].

أمّا في باب الفلسفة، فقد شهد القرنان/ 3 و4 هـ/ تطوراً ملحوظاً، أثبت جدارته وخطورته وعلوّ شأنه على يد «الكندي والفارابي والرازي وإبن سينا» وغيرهم، فيما طغت فلسفة إخوان الصفاء بشعبيّتها على كامل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي/ فيما برز «الخطيب البغدادي» في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ليدوّن كل أحداث بغداد وتواريخها بموسوعتِهِ الشهيرة «تاريخ بغداد»[4] وهو وثيقة هامة لعلمائها وشعرائها وسادتها وخلفائها.

---

(1) انظر – ورّاقو بغداد في العصر العباسي/ ص45.

(2) لقد أشار الباحث المعروف «عبود الشالجي» إلى أن «حكاية أبي القاسم البغدادي» هي الرسالة البغدادية المفقودة من رسائل أبي حيان التوحيدي وحقّقها وأصدرها – مؤخراً – بعنوان «الرسالة البغدادية» للتوحيدي.

(3) انظر كتابنا/ ورّاقو بغداد في العصر العبّاسي/ ص45.

(4) وعلى نفس الطريقة والإسلوب تتلمذ «إبن عساكر» في موسوعته الشهيرة «تاريخ دمشق» وهي ثمانين مجلداً، مشايعاً فيها اسلوب شيخه الخطيب البغدادي.

إن هذا التراكم المعرفي - بالضرورة - سيؤثّر على كل مناحي الحياة العباسيّة، لا سيما بنائها الفوقي، إذ عمل الخلفاء العباسيون على تشجيع الثقافة والفنون والآداب، وتعاطوها، ثقافةً ومسلكاً، ورعوا العلماء والفلاسفة والأدباء، فقد كان المأمون ذواقة للأدب والفلسفة، وكان لا يقبل أن يخاطب بكلامٍ فيه لحن إعرابي، فقد نقل «ثعلب النحوي» في «مجالسهِ» الحكاية التالية.

قال: «أن ابن قادم قال: كتب فلان إلى المأمون كتاباً فيه (وهذا المالُ مالاً من حاله كذا) فكتب إليه المأمون: أتكاتبني بكاتبٍ يلحن في كلامه؟ فقال: ما لحنت، وما هو إلاّ الصَواب» قال ابن قادم: فدعاني المأمون، فلما أردت الدخول عليه قال لي ذلك الرجل: ما تقول لأمير المؤمنين إذا سألك؟ قال: أقول له: الوجهُ ما قال أمير المؤمنين، وهذا جائز. فلما دخلنا قال لي: ما تقول في هذا الحرف؟ قال: فقلت: الرفعُ أوجه، والنصبُ جائز، قال: فقال لي: مُرْ، كل شيء عندكم جائز.. ثم التفتَ إلى ذلك الرجل وقال له: «لا تكتُبنَّ إليَّ كتاباً حتى تعرضه»[1]، أي يجب أن يطلع عليه من هو أرأسُ منهُ في العِلم وفي اللغة، وهذا الموقف يصدر من خليفة، فكيف ستكون دولته!

ويكفي أن نذكر «الحُلُم» الذي رآه المأمون في منامه، وشاهد فيه «أرسطوطاليس» وعلى الفور أرسل وفداً إلى «القسطنطينية» ليجلب من ملك الروم كتب الفلسفة، ويأمر المترجمين بنقلها إلى العربية برئاسة حنين بن إسحاق[2].

إن تحويل الحُلم إلى واقع ليس مسألة سهلة، ولكن العقل المعرفي هو الأقدر على مثلِ هذه المهمة، ولولا وجود مثل هذا العقل عند المأمون لما طُبّق هذا الحُلم، فلو كان غيره، فلربما استدعى المنجمين ليفسروا لهُ مثل هذا الحُلم.

هنا نلاحظ أن رأس السلطة العباسية، كان بمثابة العقل الموجّه لمسارات الثقافة، بل كان المأمون حريصاً على متابعة عملية النقل والترجمة بنفسه، فلقد نقلت الأخبار عنه «أنه كان يعطي حنين ابن إسحاق من الذهب زِنَة ما ينقلهُ من الكتب إلى العربية مثلاً بمَثَل، ويقول أبو سليمان المنطقي: «إنَّ بني شاكر[3] وهم محمد وأحمد والحسن كانوا يرزقون جماعة من النقلة والمترجمين» منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرّة

(1) انظر - مجالس ثعلب - ص12، بعناية عبد السلام هارون.
(2) راجع تفصيلات ذلك في كتابنا «وراقو بغداد في العصر العباسي» ص51 - 52.
(3) هم بنو موسى بن شاكر - ثلاثة إخوة اشتهروا بعلم الحساب والهيئة والآلات في عهد المأمون إلى عهد المتوكل، وكانوا يشرفون على حركة الترجمة وجلب المخطوطات من آسيا الصغرى إلى بغداد - انظر: طبقات الأطباء/ ص260 الهامش رقم 1.

وغيرهم، في الشهر خمسمائة دينار للنقل والملازمة»[1]، كما ذكرت تلك المصادر[2] أنَّهُ «نقل من كتب الفلسفة سبعة وعشرون كتاباً، وفي الطب وفروعهِ ثمانية وخمسون كتاباً، وكتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم أكثر من عشرة كتب، وهذه الكتب نُقلت عن اليونانية، فيما نقلت عن الفارسية كتبُ في الأدب والأخبار والسيّر والأشعار» وبعضها في النجوم.

وقد نقل «آل نوبخت» وعلي بن زياد التميمي وغيرهم أكثر من عشرين كتاباً، ونقل عن الهندية «السنسكريتيّة» من كتب الطبّ والنجوم والرياضيّات والحساب والأسمار والتواريخ وكتب الطب، كما استقدم يحيى بن خالد البرمكي بضعة أطبّاء إلى بغداد منهم «كنكه وبازيكر وقليرفل وسندباز» وغيرهم. وقد استطاع المترجمون نقل عشرة كتب في الطب، من الهندية إلى العربية وذلك عن طريق ترجمتها إلى الفارسية أوّلاً، ثم إلى العربية[3].

هنا، تستوقفنا تلك المعطيات عن الظواهر الثقافية التي حَفِلَ بها العصر العباسي، وكيف أنّها رسّخت قدمها عميقاً في وعي الناس، الأمر الذي أوضح للعيان تطوّر صناعة الكتاب في العصور العباسية المختلفة، وظهرت المكتبات الرسمية والشعبية والعامة[4]، ولا أدلُّ من ذلك عليها، ما وقع لبغداد - أيام اجتياح المغول لها عام 656هـ/ 1258م، حيث «ألقيتت كتب العِلم التي كانت في خزائنهم بدجلة - كما يقول ابن خلدون[5] فيما ينقل ابن تغري بردي بأن «بغداد خُرّبت الخراب العظيم، وأُحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون، وقيل: بنوا جسوراً من الكتب بدلاً من الآجر والطين[6]. وهذا الأمر يكشف لنا مقدار الكتب المنتجة في تلك المرحلة الزاهية والتي ما زلنا نقتاتُ عليها، حتى هذه اللحظة.

وبغية أن يكون البحث في المكتبات الإسلامية، منسجماً مع خطّة البحث الموضوعة لهذه الموسوعة، فقد ارتأينا أن نقسّم موضوع المكتبات وظهورها محصوراً في كل بلدٍ على حدا، كي تكون هناك وحدة موضوع جغرافية وتاريخية، تسهل للباحث رصد المكتبات في

(1) طبقات الأطباء/ ص260.
(2) راجع عصر المأمون 1/ 381 - 394 - حيث فيه تفصيلات بأسماء الكتب المترجمة.
(3) عصر المأمون 1/ 388 - 390.
(4) سوف نستعرضها بالتفصيل في هذا الجزء من الموسوعة.
(5) كتاب العِبر 5/ 543 - طبعة بولاق المصرية.
(6) النجوم الزاهرة في أخبار مضر والقاهر 7/ 51.

هذا البلد أو ذاك من جهة، وتنسجم مع موضوعة الورّاقين الجغرافية، من جهة ثانية. ماخذين بعين الإعتبار «التأريخ» كنقطة مفصلية تحدد «نوع المكتبات» وأسبقية كل نوع على آخر، فمثلاً، مكتبات المساجد، هي أول النواتات المكتبية ظهوراً في الثقافة العربية - الإسلامية، فمن المنطقي أن تتصدر هذه المكتبات واجهة الحديث والبحث، ثم تليها المكتبات الأخرى، كالمكتبات العامة والمكتبات الخاصة، ومكتبات الخلفاء والوزراء والأدباء والعلماء... الخ، وكل نوع من هذه المكتبات حصرناهُ في الحاضن الجغرافي الذي انولدت فيه هذه المكتبات، كي نعطي فكرة عامة للقارىء حول مقدار التطور الثقافي لهذا البلد أو ذاك، من خلال تلك المكتبات، باعتبارها مؤشّراً موضوعياً ذا دلالات حضارية، ونمو اقتصادي واجتماعي، وعلامة دالة بمحمولها الثقافي ولذا سوف تكون محطتنا الأولى في بحث المكتبات، في هذا الجزء من الموسوعة مع مكتبات المساجد، والمكتبات الأخرى في كل مصرٍ من الأمصار الإسلامية.

الفصل السادس

مكتبات المساجد ودور العبادة.. الأخرى

المسجد: هو المكان الذي يأمّهُ المسلمون لأداء الصلاة بأوقاتها الخمس المعلومة، إضافة إلى تواجدهم (المسلمون) فيه، لأمور أخرى[1].

وقد كانت بدايات الوراقة والتوريق، قد تبرعمت داخل المساجد نظراً لكون أغلب مجالس الإملاء وقراءة الختمات كانت تُقام فيه ليشكل ذلك بُعداً إعلامياً - إسلامياً، يُشير إلى الإشهار بالشيء[2] كأن يكون إملاء كتاب على الورّاقين والمستملين، ومن ثم إجراء المطابقة على ما قاله «الشيخ» وما نسخَ بِهِ الورّاقون، وبالتالي، تشكّل هذه العملية وحدة منظومة أخلاقية دينية، تحكم وعي المشتغلين بالمِهَن الإسلامية، والوراقة مهنة إسلامية خالصة، كان مبعثها الأول نسخ كتاب الله «القرآن» والتقرّب به إليه، باعتبار ذلك جزءاً من إلتزام المسلم بعقيدته الدينية، واعتبار المسجد «بيت الله» لذلك كان المسجد يحضى بقدسية

---

(1) للإستزادة - راجع د. حسين نصّار - المساجد في الإسلام - بغية معرفة دورها وتاريخها وشؤونها.

(2) راجع - الجزء الثاني من هذه الموسوعة «ظهور مهنة الوراقة» فصل خاص بمنهج الوراقة.

دينية خاصة في روح المسلم، باعتبار الوازع الديني الإسلامي، ومن ثم أصبحت للمسجد شخصيتهُ الخاصة المبجّلة، بوصفهِ مكاناً مقصوداً للعبادة، ومن ثم أصبح معلماً حضارياً دالاً على ثقافة معيّنة «الثقافة الإسلامية» وبالتالي أصبح لزاماً على المسلمين أن يطوّروا هذه الشخصية الإعتبارية - الدينية، فكان «القرآن» نزيل المسجد الدائم، باعتباره كتاب العرب والمسلمين الأول، وبذا شكّلَ هذا الكتاب المقدّس الركيزة الأساسيّة لوجود مكتبة في المسجد، وعلى هذا الإعتبار الديني والمعرفي، نشاهد عِدّة مصاحف للقرآن في كل مسجد عليها النقوش والزخارف الإسلامية، وقد خُطّت بأجمل الخُطوط العربية، بغية زيادة في القدسية، وجُلّدت بأفخر مواد التجليد وناسخهُ يعتبر عملهُ فيه تقرُّباً لله، وليس اعتباطاً أن تبدأ الوراقة بنسخ القرآن وعلوم الدين بدون مقابل مادي، إلى أن خرجت الوراقة من رحاب المسجد إلى السوق، وهنا تغيّر المنحى، وأصبحت الوراقة - مهنة عمل - يعتاش منها الورّاق[1].

ومكتبة المسجد، تتشكّل ذاتياً من رواد المسجد، وقد اعتاد المسلمون، مُذ عرفوا المسجد وعرفوا أهمية وجود القرآن فيه أن يُودّعوا في المسجد كُتباً أُخرى إلى جانبب الكتاب المقدّس، والذي يكون عادة برفٍّ علوي، لا يعلو عليه كتاب، وأحياناً يوضع في خُريدة مُعلّقة وداخل «سفطٍ أخضر» في الغالب، وقد شكّل هذا العُرف شبه ناموسٍ ثابت في ترتيب مكتبات المساجد والتي كانت هي أوّل ظهوراً للمكتبات في الثقافة العربية - الإسلامية[2].

لقد كان هدف المسلمين - في البدء - أن تكون مكتبة المسجد، ذات صبغة دينية - إسلامية، ولكن تطور الحالة المعرفية، وبدء تشكيل الحلقات العلمية والفكرية داخل أروقة المساجد فرض هذا التنوع المعرفي في مكتبة المسجد، إذ كانت حلقات دروس اللغة العربية، والفقه والحديث والتاريخ وحتى الفلسفة، باستثناء الطب[3] لكونه علماً تطبيقياً يحتاج إلى مباضع ومشارط، الأمر الذي تجري مَعهُ الدماء، ممّا يشكل وجود أثر «للنجاسة» تحرّم على المكان الصلاة فيه.

وقد كانت تُدرّس في المسجد مختلف العلوم النقلية والعقلية، وقد إزدهرت هذه

(1) راجع - الجزء الثاني - من هذه الموسوعة - كتاب ظهور مهنة الوراقة. لتقف على البدايات الأولى للوراقة، وكيف انطلقت من المسجد.

(2) راجع - حمادة - د. محمد ماهر/المكتبات في الإسلام - ص82، مصدر سبقت الإشارة إليه.

(3) المصدر السابق/ ص83.

الظواهر الثقافية الفكرية، ممّا يستوجب وجود المصادر المختلفة لتلبية حاجة هذه الظواهر الثقافية داخل مكتبة المسجد، وقد اشتهرت بعض المساجد المُهمّة وأصبحت من أكبر مراكز التعليم والتدريس، وكانت مقصد الطُلاّب من جميع أنحاء العالم الإسلامي، إذ كانت تُعقد في هذه المساجد حلَقات للدراسة والمناظرة وإلقاء المواعظ والإرشادات وحتى/ قرارات الدولة - أحياناً - كما كان يحدث في جامع بني أميّة بدمشق وجوامع مكة والمدينة وفي الجامع الأزهري القاهرة، وجامع المنصور في بغداد، وجوامع قرطبة وطُليطلة التي ذاع صيتها وعلت شهرتها وجذبت إليها طُلاّباً من المسلمين والنصارى من جميع أنحاء أوربا، بما فيها إنجلترا واسكوتلندا[1].

وعندما سقطت طليطلة بيد الأسبان عام 1085م وُجد في أحد مساجدهم مكتبة غنية عامرة، بلغت شهرتها أقصى البلاد النصرانية في الشمال[2].

(1) أنظر: آرنولد، سيرتوماس (تراث الإسلام) بالإنجليزية «مُحرّر» ص336 إكسفورد، مطبعة كليرن سنة 1931م، وراجع كذلك حمادة - محمد ماهر/ المكتبات في الإسلام/ ص83.

(2) ديبور، ت. ج: تاريخ الفلسفة في الإسلام/ ص417، الطبعة الرابعة، ترجمة أبو ريده - إصدار لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1957هـ.

الباب الرابع

المكتبات العباسية

الفصل الأول

مكتبات الخلفاء العباسيين

أوضحنا في الفصول السابقة الخطوط العامة للحالة الثقافية التي نشأت في بغداد، وكيف أصبحت ظاهرة المكتبات من الثوابت في ثقافة المجتمع العباسي، كما أوضحنا في السياق أثر الخلفاء العباسيين في تطور هذه الظاهرة، وبغية التفصيل في الموضوع، نرى من الضروري، التطرق إلى أهمّ المكتبات العباسية التي أسست في العصر العباسي، منذ نشوء بغداد، وحتى سقوطها على يدي التتر في منتصف القرن السابع الهجري، ونتطرق أولاً إلى «مكتبات الخلفاء» التي أنشأها هؤلاء.

1 - خزانة المنصور:

تولّى أبو جعفرالمنصور، باني مدينة بغداد، الخلافة بعد السفاح، واستمرّ بالخلافة نيّفا وعشرين سنة (136 - 158هـ/ 754 - 775م) وقد أسّس في قصره خزانة كتب لولده المهدي[1]، حيث طلب من ابن إسحاق أن يصنّف له/ كتاباً منذ خلق الله آدم إلى يومه ذاك/ فصنّف له السيرة النبوية. وقد عرف عن المنصور أنه كان من الذين يعنون بالعلوم مع براعته في الفقه والفلسفة، وكان ذا كلف في علم صناعة النجوم وبأهلها[2]، إضافة إلى أنه طلب

(1) راجع تفاصيل ذلك عند الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 1/ 220 - 221 في ترجمة/ محمد بن اسحاق/ صاحب السيرة - لا سيما في خبر دخول ابن إسحاق على المنصور وليس على المهدى - راجع كوركيس عواد/ خزائن الكتب، ص103 - 104.

(2) صاعد الاندلسي - طبقات الامم/ ص48 - طبعة الاب لويس شيخو اليسوعي - بيروت 1912م.

من طبيبه الخاص جورجيوس بن جبرائيل أن ينقل له كتب اليونان، فنقل له الكثير منها إلى العربية[1].

2 - خزانة الحكمة/ للرشيد والمأمون/ :

كانت هذه الخزانة من أعظم خزائن الكتب في الإسلام، على اختلاف عصوره ودوله[2]، حوت هذه المكتبة والتي كان يطلق عليها اسم «بيت الحكمة» الكثير من الاسفار النفيسة والجليلة لكثير من الثقافات الشرقية والغربية، العربية والفارسية والسيريانية واليونانية وغيرها.

أسست هذه الخزانة في عهد الرشيد (خلافته سنة 170 - 193هـ/ 786 - 809م)، فقد اعتنى الرشيد بها أيما عناية ووضع فيها أبرز العلماء في عصرهم من المنجمين والمترجمين والورّاقين، والنقلة، والعلماء، فقد ذكرابن النديم[3] أن أبا سهل الفضل بن نوبخت كان يعمل فيها، وقد عرف عنه نقولاته من الفارسية إلى العربية، كما ذكر أن من أشهر ورّاقيها كان علاّن الشعوبي، حيث كان ينسخ فيها للرشيد والمأمون[4].

وازدهرت هذه المكتبة أيما ازدهار، وبلغت أوجّها في عصر المأمون (198 - 218هـ/ 813 - 833م) حيث أنها أصبحت تحتوي على أروقة وأقسام، وقاعات كل منها يختص بعلم معيّن، ونظراً لما يمتاز به المأمون من حبّ وشغف بالثقافة والعلوم، فقد كان راعياً لها وللعلماء عامّة، في عصره، فقد عرف عنه ميله إلى الفلسفة، لذلك سعى بكل جديّة لتوطيد أركانها، وتوسيعها واغنائها بما استطاع من جمعه للكتب المختلفة[5]، ثم أنه جعل كبار العلماء قيّمين عليها، من مثل سهل بن هارون، حيث جعله كاتبا عليها، وسهل هذا كان حكيما فصيحا شاعرا، فضّله الجاحظ على غيره، ووصف براعته، وله كتب عديدة[6]، وشارك سهل بن هارون في ادارة بيت الحكمة، كل من: سعيد بن هارون الكاتب، وسلم، الذي كان ينقل من الفارسية إلى العربية[7] كان قبل هؤلاء - في قسم

(1) طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة/ ص183 - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت 1965م - شرح نزار رضا.
(2) كوركيس عواد/ خزائن الكتب/ ص105.
(3) الفهرست/ ص282 - 283 - وقد ذكر ابن النديم جميع مؤلفاته.
(4) الفهرست/ ص153 - 154.
(5) كوركيس عواد/ خزائن الكتب/ ص106 - 107.
(6) الفهرست/ ص174.
(7) المرجع السابق/ نفس المكان.

الترجمة، يوحنا بن ماسوية، ذلك السرياني الشهير، الذي قلّده الرشيد ترجمة الكتب القديمة، مما وجده بأنقرة وعمورية، وسائر بلاد الروم حين غزاها المسلمون، ووضعه أمينا على الترجمة، وظل كذلك في مكانه أيام الرشيد والامين والمأمون إلى أيام المتوكل، إضافة إلى كونه طبيباً بارعاً[1].

لقد جعل المأمون هذه المكتبة من صلب أعماله اليومية، فكان يرعاها بمن فيها، ويغدق عليها الاموال، ويحثّ على جمع المصادر النفيسة فيها، من كل أنحاء العالم، فقد عرف عنه أنه لما هادن صاحب جزيرة صقلية، أرسل إليه وفداً من جلّ العلماء لديه، ليطلبوا له خزانة كتب اليونان، وكان عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد أبداً، وإزاء هذا الطلب من خليفة المسلمين ببغداد، فإن حاكم قبرص، جمع بطانته وذوي الرأي عنده، واستشارهم في حمل الخزانة إلى المأمون، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة، إلا مطرانا واحداً، فإنه قال: الرأى أن تعجّل بانفاذها إليه، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعيّة إلا أفسدتها، وأوقعت بين علمائها.

فأرسلها إليه، فاغتبط المأمون بها، وجعل سهل بن هارون خازناً لها[2]، ويكمل ابن النديم هذا الخبر بقوله[3]، أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إلى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما هو مختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلّم - صاحب بيت الحكمة - وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ممّا اختاروه، ثم يضيف: وقد قيل أن يوحنا بن ماسويه ممّن نفذ إلى بلاد الروم، وأحمد والحسن (بنو شاكر) وكذلك حنين بن إسحاق[4].

وقد رأى المأمون أنه من الحكمة أن يقسم «بيت الحكمة» إلى مختلف العلوم، وينصّب عليها الحكماء، كل في مجاله، ثم وجّه عنايته إلى ترجمة الكتب التي حملت إليه من بلاد الروم، لا سيما في الفلسفة والطب والمُوسيقى والرياضيات والطبيعيات وغيرها[5]، فانبرى المترجمون إلى ذلك بجديّة واجتهاد، وقد كان المأمون يتعهدهم بنفسه

(1) طبقات الاطباء/ ص246.

(2) جمال الدين بن نباته المصري/ سرح العيون، شرح رسالة بن زيدون/ ص166، ترجمة سهل بن هارون/ طبعة المليجي الكتبي/ ط4 - مصر/ 1357هـ.

(3) الفهرست/ ص339 - 340.

(4) الفهرست/ ص340.

(5) لنا دراسة لاحقة، على موضوعنا هذا، تحت اسم (مترجمو بغداد في العصر العباسي) سوف نتطرق =

ويجزل لهم العطاء المضاعف لما ينقلونه من هذه العلوم إلى العربية، فقد كان حنين بن إسحاق قد عهد إليه المأمون، رغم حداثة سنّه، نقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العربية واصلاح ما ينقله غيره[1]، أي أنه جعله على رأس المترجمين من اليونانية إلى العربية، وليس هذا فحسب، بل أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل[2]، ولم يتوقف المأمون عند هذا الحد، بل أوجد طاقماً من المترجمين في «بيت الحكمة» للعمل، ليل نهار، في نقل كافة العلوم إلى العربية، فقد ذكر أبو سليمان المنطقي السجستاني، أن بني شاكر وهم/بنو موسى بن شاكر - محمد وأحمد والحسن - ثلاثة اخوة اشتهروا بعلم الحساب والهيئة والآلات، من عهد المأمون إلى عهد المتوكل/ كانوا يشرفون على حركة الترجمة وجلب المخطوطات من آسيا الصغرى إلى بغداد/ ، وهؤلاء - كما يقول أبو سليمان المنطقي: كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرّة، وغيرهم، في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة، وكان المأمون يضع علامته على تلك الكتب المنقولة[3]، فأغنى هؤلاء المترجمون الثقافة العربية، ووسعوا محتويات خزانة الحكمة توسيعاً منقطع النظير، فصار فيها من الكتب ما تفردت به وفاقت ما سواها[4].

لقد ضمّت خزانة الحكمة كتبا مؤلفة بلغات مختلفة، فكان فيها أسفار باليونانية والفارسية والآرامية والهندية والقبطية، فضلاً عن العربيّة، وقد ذكر ابن النديم، أنه رأى جزءاً من الخط الحميرى في خزانة المأمون تلك[5]، وفي هذه المكتبة «بيت الحكمة» شاهد المسعودى مصورات الاقاليم السبعة أو ما يعرف بـ«الصورة المأمونية» حيث يقول[6]: ورأيت هذه الأقاليم مصورة في غير كتاب/ يقصد خارطة/ بأنواع الاصباغ وأحسن ما رأيت من ذلك في كتاب جغرافيا لمارينوس وتفسير جغرافيا قطع الارض، وفي الصورة المأمونية، التي عملت للمأمون، اجتمع على صنعتها عدة من حكماء أهل عصره، فيها

= فيها إلى دور الترجمة في عصر المأمون وغيره، لنقل العلوم والآداب العالمية إلى العربية، والدراسة قيد الانجاز.

(1) طبقات الاطباء/ ص260 - ترجمة حنين بن اسحاق.

(2) المصدر السابق/ نفس المكان.

(3) نفس المصدر السابق.

(4) للاستزادة راجع: كوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة/ ص109 - 110 عن هذه المكتبة القيّمة.

(5) الفهرست/ ص8 وص 29 - وكوريس عواد/ ص111.

(6) المسعودي/ التنبيه والاشراف/ ص30 - 31 - بعناية عبدالله إسماعيل الصاوي - القاهرة 1357هـ/ 1938م.

العالم بأفلاكه ونجومه وبرّه وبحره، وعامره وغامره، ومساكن الأمم والمدن، وغير ذلك، وهي أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرها.

وقد كان في هذه المكتبة ورّاقون متخصصون بتجليد الكتب، فقد ذكر ابن النديم[1] أن ابن أبي الحرش كان يجلّد في خزانة الحكمة للمأمون، ولم تقف رعاية المأمون لمكتبته على هذا الحد، بل أنه كان يطالع فهرست كتب الخزانة بنفسه، حتى أنه استغرب ذات مرة، وهو يقلب هذا الفهرست ولم يعثر على كتاب «جاويذان خرد»، فقال: كيف يسقط ذكر هذا الكتاب عن الفهرست؟[2]، وعلى هذا النحو كانت هذه المكتبة، ولكن تبدّل الظروف السياسية في العراق، بعد المأمون، انعكس عليها بلا ريب، فقد انتقلت الخلافة أيام المتوكل إلى سامراء، الأمر الذي جعل للعاصمة الجديدة للخلافة، الدور الاول في العناية والعمران، ولكن صدى هذه الخزانة التاريخي لا يزال يقرع أسماعنا، حتى في هذا الأوان.

3 - خزانة المعتضد:

المعتضد بالله العباسي، خلافته من سنة 279 - 289هـ/ 892 - 902م، دلالات المصادر التاريخية تشير إلى أن خزانة المعتضد كانت معروفة عند الكثير من علماء ذلك العصر، فقد أشار ابن النديم[3] إلى أن الزجّاج النحوى فسّر كتاب جامع النطق، وكتبه بخط الترمذى الصغير أبي الحسن، وجلّده وحمله الوزير «القاسم بن عبيد الله» إلى المعتضد فاستحسنه، وأمر له بثلثمائة دينار، وهذه النسخة لم يخرج منها الزجاج نسخة أخرى إلى أحد إلاّ إلى خزانة المعتضد.

وهناك اشارة وردت في حديث القاضي التنوخي عن الرجل الذي جاء إلى المعتضد بِرُقْيَةٍ تحبس السمّ عن الملسوع في الحال، وكيف أنه نجح في تطبيقها من وقته إلى ملسوع، الامر الذي دعا المعتضد إلى كتابة الرقية وتخليدها في الخزانة، ثم أمر للرجل بجائزة سنيّة[4].

ويتضّح من سيرة أحمد بن الطيب السرخسي، أنّه ألّف الكتب العديدة، واختصر كتب

---

(1) الفهرست/ ص14.

(2) كوركيس عواد/ خزائن الكتب/ ص112.

(3) الفهرست/ ص90 - وكوركيس عواد/ ص113.

(4) نشوار الحاضرة 2/ 111 طبعة مرجليوث - وراجع كوركيس عوّاد/ ص113.

الفلاسفة اليونانيين وعهدها إلى المعتضد[1]، كما عثر في خزانة المعتضد على إجابات عّدة عن مسائل سأل عنها هذا الخليفة طبيبه أبا الحسن ثابت بن قرّه الحرّاني، لا سيما تلك الامور التي كان يسأل عنها، عندما كان في سجنه من قبل أبيه الموفّق، فقد كان ثابتا يزره في اليوم ثلاث مرّات، يحادثه ويؤانسه[2].

4 - خزانة المكتفي:

خلافته كانت بين سنة 289هـ - 295هـ/ 902 - 908م، نادرة هي المصادر التي جاءت على ذكر هذه الخزانة، إلا أن الأمر الهام كان يكشف أن لكل خليفة خزانته، فقد ذكر الشابشتي[3]، أن أبا بكر الصولي ذكر أن المكتفي أخرج إليهم مدارج مكتوبة بالذهب، من شعر المعتمد، من بعضها كان هذا الشعر:

عـجّـل الـحـبّ بـفـرقـه فـبـقـلـبـي مـنـه حـرقـه
مـالـك بـالـحـبّ رقّـي وانـا أمـلـك رقّـه
انـمـا يـسـتـروح الـصـبّ إذا أظـهـر عـشـقـه

5 - خزانة الراضي بالله:

كانت خلافته من سنة 322 - 329هـ/ 934 - 940م، تحدث عنه الصولي في «الأوراق» قائلاً: «أن الراضي بالله كان أعلم الناس بالشعر، وكنت أتنخّل له الالفاظ وأختار علوي الكلام». ويعرف من سيرة الصولي ومعايشته للراضي والمتقي، أن الراضي كان ذكيّاً ومحبّاً للأدب، حتى أنه يقول: فحببت العلم إليهما واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والاخبار، قطعة حسنة، فتنافسا في ذلك، وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه، وقرأ عليّ الأخبار والأشعار، فقلت: إن الحديث أولى بكما وأنفع لكما من هذه، وهو أولى من أن يبتدأ به، وجئتهما بأعلى من بقي من الزمان إسناداً، وهو أبو القاسم بن بنت منيع، ونسخت لهما علو حديثه ومشايخه[4]، وفي موضع آخر[5]، يشير الصولي، إلى أن الراضي كان يجادل بالادب والأخبار والتاريخ، لا سيما في مسألة الشعر التي ذكر فيها

(1) راجع ذلك عند ابن أبي أصيبعة - طبقات الاطباء/ ص293 - 294.
(2) طبقات الاطباء/ ص295 - وكوركيس عواد/ ص114.
(3) الديارات/ ص65 - وكوركيس عواد/ ص114 - 115.
(4) المصدر السابق/ ص25.
(5) المصدر السابق/ ص39 - 40.

اسم «حبيش» والذي أخطأ فيه الطبري والمنسوب إلى «نهشل بن جزى النهشلي» حتى أن الراضي وجّه لطلب شعر النهشلي في خزانته فلم يجده، وبهذا الصدد يعلّق الصولي قائلاً: وهذا أيضاً عجب، يتحدث الناس بأن سيدنا «يقصد الراضي» مع جلالة علمه، وعلو نعمته، عمل خزانة كتب، كما عمل متقدمو الخلفاء، طلب فيها شعر هذا الشاعر المشهور، فلم يوجد، فرّد الراضي: فما الحيلة قد شغلنا بغيرها عنها، قلت: كتب عبيدك لك، فتبدىء عمل الاشعار من الخزانة، تبدأ بمضر، ثم ربيعة ثم اليمن، فما لم يكن فيها، حمله عبيدك من كتبهم، وما كان سماعا لعبيدك أو شيئا لا يعتاضون منه، نسخه ورّاقوك الذين تجرى عليهم، وجلّده مجلدو الخزانة، فسكت كالمفكر، فقلت له: إن الذي قلته ليس لشيء أجتلبه، انما هو حيف على كتبي، ولكن آنف أن يتحدث الناس بشيء يفعله سيدنا لا يكون في نهاية الجلالة» ويستطرد الصولي قائلاً[1].

فقال: ويحك، فإذا جاء ما يشغل كيف نصنع؟ قلت: يجعل سيدنا هذه الخزانة للاميرين - يقصد ولد الراضي - ويقتصر على ما يريد النظر فيه. قال: أما هذا فنعم، فأمر باخراج الكتب إليه يوماً يوماً، وأجلسنا، فميّزناها، وقسّمها بين يديه، بين ابنيه، واقتصر على ما أراد، ووهب لنا الباقي فاقتسمنا، وكان أكثره ما يباع وزنا.

وهذا الخبر، الآنف الذكر، يوضّح مدى أهمية هذه (الخزانة) لا سيما وأنه يوجد فيها ورّاقون من المجلّدين والنسّاخ، وهو أمر يشير إلى الاهتمام اليومي للخليفة بمكتبته.

ومن محتويات خزانة الراضي هذه رسالة وردت من ملك الروم، كانت الكتابة فيها بالرومية، ومخطوطة بالذهب، ومترجمة إلى العربية بالفضّة يطلبون فيها الهدنة[2].

6 - خزانة القائم بأمر الله العباسي:

هو الخليفة السابع والعشرون من خلفاء بني العباس امتدت خلافته من سنة 432 - 467هـ 1031 - 1075م، وكانت هذه الخزانة قد ورثها من سابقيه من الخلفاء، حوت هذه الخزانة الالاف من الكتب، ذكر أبو الفرج ابن العبرى أنه في سنة 443هـ/ وصل رسول

(1) الاوراق/ ص40.

(2) ابن الجوزي - المنتظم 6/ 293 - طبعة حيدر آباد سنة 1357هـ - والكامل في التاريخ لابن الاثير 8/ 320 وما بعدها - حوادث سنة 326هـ، طبعة دار صادر ودار بيروت - 1386هـ/ 1966م - والنجوم الزاهرة - لابن تغرى بردى 3/ 262 - 263 - طبعة دار الكتب المصرية 1963م/ حيث فيه نص الرسالة وجواب الراضي عليها. وكوركيس عواد/ ص117.

ملك الروم إلى القائم يحمل رسالة باليونانية يتخلل أسطرها، ترجمتها العربية بالذهب على قطيفة «مخمل»[1].

كما اشتملت هذه الخزانة على النسخة الاصلية من كتاب «رسوم دار الخلافة» لأبي هلال بن المحسن الصابىء، حيث أنه كان قد ذكر بمقدمته باهداء الكتاب إلى الخليفة القائم[2]، ويعتقد كوركيس عوّاد، أن هلال الصابىء أهدى كتابه (تحفة الامراء في تاريخ الوزراء) إلى القائم نفسه[3] رغم أنه لم يصرّح بذلك.

7 - خزانة المقتدى بأمر الله:

خلافته سنة 467 - 487هـ/ 1075 - 1094م، كغيره من الخلفاء العباسيين، كان المقتدى يحوى في خزانة كتبه أمهات الأسفار، فقد صنّف له أبو علي يحيى بن عيسى بن جزلة الطبيب البغدادي كتاباً بعنوان «تقويم الابدان في تدبير الإنسان»، وكتاباً آخر بعنوان «منهاج البيان فيما يستعمله الانسان» وهما من الكتب الطبيّة، وقد كان هذا الطبيب له نظر في علم الادب، وكان يكتب خطاً جيداً منسوبا، كان في بادىء أمره نصرانيا ثم أسلم[4]، كما ألّف سعيد بن هبة الله كتباً عديدة في الطب والمنطق والفلسفة، وأودعها في خزانة المقتدى[5].

8 - خزانة الناصر لدين الله:

كان هذا الخليفة العباسي، الذي تولّى الخلافة سنة 575 - 622هـ/ 1180 - 1225م من أعظم خلفاء بني العباس، وأبعدهم نظراً، حيث أعاد إلى الخلافة هيبتها ورونقها، وقد كان له اهتمام بالعلم والعلماء، وخزانة كتبه كانت جليلة القدر حافلة بالاسفار والتصانيف، حتى أنها انشطرت إلى ثلاث خزائن مهمة هي: خزانة دار المسناة ببغداد، وخزانة الرباط الخاتوني السلجوقي ببغداد، وخزانة المدرسة النظامية ببغداد، وقد قام أبو الرشيد الحاسب،

(1) كوركيس عواد/ ص117.
(2) رسوم دار الخلافة/ أبي الحسن هلال بن المحسن الصابىء - تحقيق ميخائيل عواد - مطبعة العاني - بغداد 1383هـ/ 1964م.
(3) خزائن الكتب/ ص118 - وراجع ص6 - 7 من كتاب/ تحفة الامراء في تاريخ الوزراء/ طبعة بيروت للاباء اليسوعين 1904م.
(4) طبقات الاطباء/ ص343.
(5) المصدر السابق/ ص342 - وكوركيس عواد/ ص119.

مبشر بن أحمد بن علي بن أحمد بن عمرو الرازي، الملقب بالبرهان، بالاشراف على اختيار الكتب التي أوقفت على تلك الخزائن الثلاث بناء على طلب الخليفة[1].

9 - خزانة المستنصر بالله:

هو باني «المدرسة المستنصرية» الشهيرة، الخليفة التاسع والعشرون من بني العباس، تولى الخلافة من سنة 623 - 640هـ/ 1226 - 1242م، كانت له خزانة خاصة، عدا خزانة المدرسة المستنصرية، فقد أشار ابن الفوطي[2] أن الخليفة نقل إليها من خزانة كتبه الخاصة من الربعات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حمله 160 حمالاً.

10 - خزانة المستعصم بالله:

640 - 656هـ/ 1242 1258م، هو آخر خلفاء بني العباس، قتله المغول بعد أن أسقطوا بغداد سنة 656هـ/ 1258م، جمع الكثير من الكتب في خزانته، ذكر الموسيقي الكاتب صفي الدين عبد المؤمن الأرموى، أن الخلافة لما وصلت المستعصم، عمّر خزانة كتب، وأمر أن يختار لها كاتبان يكتبان ما يختاره، ولم يكن في ذلك الوقت أفضل من الشيخ زكي الدين، وكنت دونه في الشهرة فرتبنا في ذلك[3]، وقد ورد ذكر هذه الخزانة عند ابن الفوطي في أحداث سنة 641هـ[4].

11 - وهناك، إلى جانب خزائن الخلفاء، توجد خزائن الكتب للملوك والسلاطين، من البويهين والسلاجقة وغيرهم، من الذين ترادفوا على زمام الدولة العباسية، كخزانة عضد الدولة البويهي، والذي عرف عنه أنه كان محبّاً للعلوم وأهلها، ومقربا لهم محسنا اليهم، يجلس معهم ويعارضهم في بعض المسائل، فقصده العلماء من كل بلد وصنفوا له الكتب، منها الايضاح في النحو، والحجة في القراءات، والملكي في الطب، والتاجي في التاريخ، وغير ذلك[5].

---

(1) القفطي/ أخبار العلماء بأخبار الحكماء/ ص177 - مصر 1326هـ.
(2) الحوادث الجامعة/ ص53 - 54 - وكوركيس عواد/ ص 121.
(3) ابن شاكر الكتبي/ فوات الوفيات 2/ 411 - 412 - ترجمة صفي الدين المغني - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر - بيروت - وكوركيس عواد/ ص122 - 123.
(4) الحوادث الجامعة/ ص128.
(5) ابن الاثير - الكامل في التاريخ 9/ 21 - 22 طبعة دار صادر - بيروت - سنة 1386هـ/ 1966م.

12 - خزانة الملك العادل نور الدين:

ملك نور الدين بن عماد الدين زنكي، الموصل سنة 589هـ/ 1193م، وقد كانت له خزانة كتب قيّمة، عبثت بها الاقدار بعد وفاته، وجد فيها، كما تنقل المصادر «كتاب السموم» لشاناق الهندى وغيره[1].

13 - خزانة بدر الدين لؤلؤ بالموصل:

كان صاحب الموصل، وحكمها سنة 615 - 657هـ/ كان لبدر الدين لؤلؤ يد بيضاء على العلم والعلماء، فقد طلب من الشيخ عز الدين بن الاثير، أن يجمع تاريخا ويجعله باسمه ففعل، وعمل التاريخ، فأجزل صلته[2].

الفصل الثاني

مكتبات الوزراء العباسيين

لم تكن الحالة الثقافية محصورة بشريحة بشرية معينة، ولن تكون كذلك، ما دام هناك عقل يستوعب ذات حامله، ويهديه إلى الشرائع والمناهل المعرفية، وبغداد عندما صارت عاصمة للدولة الإسلامية، لم تغلق أبوابها بوجه مختلف الثقافات بل العكس كان هو السائد.

وكتب التاريخ العربي - الاسلامي، ومصادره، تذكر لنا، أن الوزير الذي ينصب للوزراة، تكون له القدرة على الخطابة والكتابة، والكثير من الوزراء، كانوا في الاساس كُتّاباً[3] وعلى هذا الاساس، يكون التحصيل الثقافي الواسع، أحد الدرجات الرئيسة لسلّم الوزارة، فمن البديهي جداً، أن تكون لهؤلاء الوزراء مكتبات قبل واثناء وبعد وزارتهم. ومن جميل ما ينقله مسكويه عن ابن العميد - ذاك الوزير الأديب - أنه اشتبك مع قوم من الخراسانية، وباغتوه، ونهبوا داره واصطبلاته وخزائنه، إلى أن أتى الليل وانصرفوا، يقول

(1) كوركيس عواد/ ص128.
(2) الحوادث الجامعة/ ص237 - وكوركيس عواد/ ص128 - 129.
(3) راجع بهذا الصدد/ الجهشياري - الوزراء والكتّاب.

مسكويه: وكان اليّ خزانة كتبه فسلمت من بين خزائنه، ولم يتعرّض لها، فلما انصرف إلى منزله ليلاً، لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزا واحداً يشرب فيه ماء، فأنفذ إليه ابن حمزة العلوى فرشا وآله، قال، واشتغل قلبه بدفاتره، ولم يكن شيء أعزّ عليه منها، وكانت كثيرة، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والأداب، يحمل على مائة وقر[1] وزيادة فلما رآني سألني عنها، فقلت: هي بحالها لم تمسّها يد، فسرّى عنه وقال: أشهد أنك ميمون النقيبة، أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض، وهذه الخزانة لا عوض منها، قال مسكويه: ورأيته قد أسفر وجهه وقال: باكربها في الغد إلى الموضع الفلاني، ففعلت وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله[2].

وهذه الحادثة توضّح لنا مدى اهتمام هذا الوزير بكتبه وعنايته الفائقة بها، حيث أنه لا يبالي بجميع ما أخذ منه عداها، وليس هذا فحسب، بل أنه جعل مسكويه، هذا العالم الفذ مسؤولا عنها، لأن هذا الأخير أحرص من غيره على الكتاب.

وتنبئنا أحداث تلك الفترة العباسية، بأن الناس عموما كان لهم شغف واضح بجمع الكتب وتأسيس المكتبات، ففي حوادث سنة 357هـ/ 967م صودر حبشي بن معزّ الدولة، بعد أن عصى على أخيه بختيار - أمير بغداد - فأخذت أمواله بالبصرة، وكان منها كتب بلغت خمسة عشر ألف مجلّد سوى الاجزاء، والمسرّس[3] وما ليس له جلد[4].

ولهذه الظاهرة الهامة أشار ابن النديم إلى ولع ثلاثة من أدباء العصر، اشتهروا بحبهم للكتب هم: الجاحظ والفتح ابن خاقان وإسماعيل بن إسحاق القاضي[5]، ولم يقتصر الامر على هؤلاء فقط بل أن الوزراء جميعهم كان لهم هذا الهم، لكنه متفاوت بين وزير ووزير، إلا أن الاغلب الاعم، كانوا يشتركون بكونهم أدباء منشئين ومتبصرين بالتاريخ والاخبار، وواقفين على الكثير من أمور الدين واللغة[6]، وبالتفاوت الثقافي والمعرفي بين الوزراء، يتفاوت عندهم حبّ الكتاب، الأمر الذي يعكس ظلاله على خزائن كتبهم،

---

(1) الوقر (بالكسر) الحمل الثقيل - القاموس المحيط - مادة - وقر.

(2) مسكويه/ تجارب الأمم 6/ 224 - 225 - حوادث سنة 355هـ/ بعناية آمدروز - مصر 1333هـ/ 1915م.

(3) قال صاحب/ تاج العروس/ مشرز ومسرس/ المشرز = المشدود بعضه إلى بعض، المضموم طرفاه، فإن لم يضم طرفاه فهو مُسرّس.

(4) ابن الاثير 8/ 584 - ومسكويه/ تجارب الأمم 6/ 246 - وآدم ميتز - الحضارة الإسلامية في (ق 4هـ) 1/ 307.

(5) الفهرست/ ص169.

(6) كوركيس عواد/ خزائن الكتب/ ص177.

وسنحاول بهذا الفصل ذكر أشهر خزائن هؤلاء الوزراء في العصر العباسي، آملين اشباع الموضوع قدر الامكان.

1 - خزانة كتب يحيى البرمكي:

يحيى بن خالد البرمكي، واحد من أشهر رجالات البرامكة في العصر العباسي الأول، بايع أبوه خالد بن برمك، أبا العباس السفاح، في أيامه الاولى، وقيام الدولة العباسية[1] فيما كان المهدى/ أبو هارون الرشيد/ قد ضم إلى يحيى ابنه، هارون الرشيد، وجعله في حجره، ولما آل الأمر إلى الرشيد عرف ليحيى حقه، وكان يكنّ له الاحترام والتعظيم، وإذا ذكره قال أبي، وجعل إصدارالأمور وايرادها إليه، إلى أن نكب البرامكة، فغضب عليه، وخلده السجن ومات فيه سنة 190هـ/ 805م[2].

ذكر الجاحظ[3] أن ما كان في خزانة كتب يحيى، وفي بيت مدارسه كتاب الا وله ثلاث نسخ، وهذه المسألة تكشف مدى اهتمام هذا الوزير بالكتاب والعلم والعلماء.

2 - خزانة كتب الوزير ابن شاه مردان/ بالبصرة:

لم تشر المصادر التاريخية إلى بدء إنشائها وتكوينها، إلا أن ابن الاثير يذكر في أحداث سنة 483هـ/ 1090م وهي السنة التي نهبت بها البصرة وأحرقت أغلب محالها، يقول[4]: وأحرقوا مواضع عدّة، وفي جملة ما أحرقوا دارين للكتب، إحداهما وقفت قبل أيام عضد الدولة بن بويه، فقال عضد الدولة: هذه مكرمة سبقنا إليها، وهي أول دار وقفت في الإسلام، والأخرى وقفها الوزير أبو منصور بن شاه مردان، وكان بها نفائس الكتب وأعيانها، وهذا يعني أنها كانت عامرة بما تحتويه.

3 - خزانة الوزير محمد بن عبد الملك الزيّات: / بسرّ من رأى/ :

كان هذا الوزير من أهل الادب الظاهر والفضل الباهر، أديباً فاضلاً، بليغاً عالماً بالنحو واللغة، وزّر للمعتصم والواثق، وأيّاماً قلائل للمتوكل[5]، قتله المتوكل في تنوّر

(1) الجهشياري - الوزراء والكتّاب/ ص89 - طبعة البابي الحلبي - القاهرة 1357هـ/ 1938م.
(2) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد 14/ 128 - 129 - وكوركيس عواد/ ص177.
(3) الحيوان 1/ 60 - طبعة البابي الحلبي الثانية - باشراف عبد السلام هارون.
(4) الكامل في التاريخ 10/ 184.
(5) انظر ترجمته في وفيات الاعيان 4/ 94 - الترجمة رقم 696.

الحديد، الذي كان هو نفسه ابتدعه لتعذيب الناس أيام وزارته/ سنة 233هـ/ 847م، كان في بادىء أمره كاتباً، تحت اشراف أحمد بن عمّار بن شاذي البصري، وزير المعتصم، وذات مرّة، ورد على المعتصم كتاب من بعض العمّال فقرأه الوزير عليه، وكان في الكتاب ذكر الكلأ، فقال له المعتصم: ما الكلأ؟ فقال الوزير: لا أعلم، وكان هذا الوزير قليل المعرفة بالأدب، فقال المعتصم، خليفة أمّي ووزير عامي؟! وكان المعتصم ضعيف الكتابة كما يقول ابن خلكان[1] ثم قال المعتصم: أبصروا من بالباب من الكتّاب، فوجدوا محمد بن عبد الملك، فأدخلوه إليه، فقال له: ما الكلأ؟ فقال: الكلأ = العشب على الاطلاق، فإن كان رطباً فهو الخلا، فإذا يبس فهو الحشيش، وشرع في تقسيم أنواع النبات، فعلم المعتصم فضله فاستوزره، وحكمه وبسط يده[2]، وهذه الحادثة، تنبئنا عن الحصيلة الادبية والثقافية لدى هذا الوزير، قبل تسلمه الوزارة، الأمر الذي جعله وزيراً لثقافته أولاً وهمته ثانياً، وعلى ما يبدو أن شهرته بعد أن أصبح وزيراً ملأت الآفاق، وراح أدباء العصر يقصدونه، فقد نقل الخطيب البغدادي خبرا عن الجاحظ قال فيه[3]: أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك ففكرت في شيء أهديه له، فلم أجد شيئا أشرف من كتاب سيبويه، فقلت له: أردت أن أهدي لك شيئاً، ففكرت فإذا كل شيء عندك، فلم أر أشرف من هذا الكتاب، وهذا كتاب اشتريته من ميراث الفرّاء، فقال ابن الزيّات: أوظننت أن خزانتنا خالية من هذا الكتاب؟! فقال الجاحظ: ما ظننت ذلك، ولكنها بخطّ الفرّاء، ومقابلة الكسائي، وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ - يعني نفسه - فقال ابن الزيّات: هذه أجلّ نسخة توجد وأعزّها، فاحضرها إليه، فسرّ بها ووقعت منه أجمل موقع[4]، وهذه الحادثة، تؤكد الاهتمام البالغ لهذا الرجل/ ابن الزيات/ بالعلوم والآداب، وحرصه على جمع الكتب النفيسة، كما أنه كان من المشجعين للترجمة، فقد عرف عنه «أنه كان يقارب عطاؤه للنقلة والنسّاخ في كل شهر ألفي دينار، ونقلت باسمه كتب عدة عن اليونانية وغيرها، وترجمت باسمه جماعة من أكبر الأطباء، يوحنا بن ماسويه، وجبرائيل بن يختشوع وغيرهم[5]، ومن هذه الوقائع، نستشف أنه كانت لهذا الوزير خزانة عامرة، إلا أن المصادر لم تذكرها، وربما صودرت فيما صودر من أمواله ابّان نكبته.

---

(1) وفيات الاعيان 4/ 94.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) تاريخ بغداد 12/ 196 - ومعجم الأدباء لياقوت 16/ 123.

(4) ابن الانباري/ نزهة الالباء في طبقات الادباء/ ص39 - تحقيق د. إبراهيم السامرائي - مطبعة المعارف - بغداد 1959م. وراجع كذلك: كوركيس عواد/ خزائن الكتب/ ص179.

(5) عيون الاطباء/ نقلاً عن كوركيس عواد/ ص179.

4 - خزانة الوزير الفتح بن خاقان:

هو واحد من ثلاثة اشتهروا بولعهم بالكتب وجمعها[1]، أسند مهمة جمع كتب خزانته إلى علي بن يحيى المنجم، فعمل هذا له خزانة حكمة نقل إليها من كتبه، وممّا استكتبه الفتح، أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط[2]، وزر للمتوكل، وقتل معه في سامراء سنة247هـ/ 861م، قال عنه ابن الطقطقي[3]: إذا كان جالساً في حضرة المتوكل وأراد أن يقوم إلى المتوضأ، أخرج من سلق موزته/ كتاباً لطيفاً، فلا يزال يطالعه في ممرّه وعوده، فإذا وصل إلى الحضرة الخليفية، أعاده إلى ساق موزته. ومن هذه السليقة المعرفية، يعرف الرجل بمدى رعايته للعلم والعلماء، فقد كان راعياً لهم، إذ كان يحضر داره فصحاء الاعراب وعلماء الكوفة والبصرة وله مواقف تدل على سموّ منزلته من العلم، الامر الذي دعا الكثير من الكتّاب المرموقين أن يؤلفوا الكتب ويجعلوا إهداءها إليه، فالجاحظ حرّر له كتابيه: «التاج في أخلاق الملوك، ومناقب الترك وعامة جند الخلافة» وأهداه إلى الحارث التغلبي كتابه المعروف بـ«أخلاق الملوك» وألف له محمد بن حبيب كتاب «القبائل الكبيرة والأيام»[4] ولم تخبرنا المصادر عما آل أمر هذه الخزانة إليه بعد مقتله.

5 - خزانة الوزير القاسم بن عبيد الله:

هو أبو الحسين القاسم بين عبيدالله بن سليمان - وزير المعتضد ثم المكتفي، توفي سنة 291هـ/ 903م[5] كان في أيّام صباه يتأدب على أبي إسحاق الزجاج النحوي، اقتنى هذا الوزير خزانة كتب أبي العباس ثعلب النحوي بأبخس ثمن[6].

6 - خزانة الوزير سابور بن اردشير:

أنشأ هذا الوزير ببغداد خزانة من أعظم الخزائن وأجلّها، عرفت بـ«دار العلم»[7].

(1) الفهرست لابن النديم/ ص169.
(2) الفهرست/ ص205.
(3) الفخري/ ص3 - 4.
(4) كوركيس عواد/ ص181.
(5) انظر ترجمته في المنتظم لابن الجوزى 6/ 46 - 47 - الترجمة رقم 68.
(6) كوركيس عوّاد/ ص181.
(7) سبق الحديث عنها في الفصل الرابع من هذا الباب/ المكتبات العامة.

7 - خزانة الوزير ابن هبيرة:

عون الله أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد الشيباني[1] وزير المقتفي وابنه المستنجد، كان أحد الوزراء العلماء، كانت له معرفة حسنة بالنحو واللّغة والعروض، وكان ممّن يسمع الحديث، ولا يقوم عنه، يروى ابن العماد الحنبلي خبراً عنه يقول[2]:

قال: صاحب سيرته: كنا عنده يوماً، والمجلس غاص بولاة الدين والدنيا، وأعيان الأماثل، وابن شافع يقرأ عليه الحديث، إذ فجأنا من باب الستر، ، وراء ظهر الوزير صراخ بشع، وصياح مرتفع، فاضطرب له المجلس، وارتاع الحاضرون، والوزير ساكن ساكت، حتى أنهى ابن شافع قراءة الاسناد ومتنه، ثم أشار الوزير إلى الجماعة أن على رسلكم، وقام ودخل الستر ولم يلبث أن خرج، فجلس وتقدم بالقراءة، فدعا له ابن شافع والحاضرون وقالوا: قد أزعجنا ذلك الصياح، فإن رأى مولانا أن يعرفنا سببه، فقال الوزير: حتى ينتهي المجلس، وعاد ابن شافع القراءة، حتى غابت الشمس، وقلوب الجماعة متعلقة بمعرفة الحال، فعاودوه فقال: كان لي ابن صغير مات، حين سمعتم الصياح عليه، ولولا تعين الأمر عليّ بالمعروف في الانكار عليهم ذلك الصياح، لما قمت من مجلس رسول الله ﷺ قال: فعجب الحاضرون من صبر رجل بمثل هذا الصبر وتحمّل الفاجعة لاجل العلم له قدوة بالضرورة، وحرّى بمثله أن تكون عنده نفائس الكتب والمصنّفات وأمهات المصادر، وليس ذلك فحسب، فقد كان من المصنفين في علوم اللغة والدين، قال عنه ابن رجب[3]: صنّف الوزير أبو المظفر - كتاب الافصاح عن معاني الصحاح - في عدة مجلّدات، وهو شرح صحيحي البخاري ومسلم، وآل به الكلام إلى ذكر مسائل الفقه المتفق عليها والمختلف فيها بين الأئمة الأربعة المشهورين.

شارع ذكرى خزانة كتبه عند علماء المشرق والمغرب، فقد ذكر صاحب كشف الظنون. أن أبا محمد بن عبد الرحمن الاندلسي، ألّف سنة 556هـ/ 1160م كتاباً ذكر فيه (أنه سأله بعضهم أن يذكر له نسبه وبلاده، وما شاهده من عجائب البلدان، فأجاب قال: فرأيت أن أسمّي هذا المجموع «المغرب عن بعض عجائب المغرب» وأجعله برسم خزانة مولانا الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة، وأن أذكر إحسانه، قال: فلما وصلت

(1) أنظر ترجمته في شذرات الذهب 4/ 191 - 196.

(2) شذرات الذهب 4/ 194 - 195.

(3) شذرات الذهب 4/ 192.

إلى بغداد سنة 516هـ أنزلني أحسن دوره، فأقمت ضيفه أربع سنين، ولما رجعت إليها سنة 555هـ أنزلني أيضاً بأحسن مقامه، وأكرمني على عادته[1].

8 - خزانة كتب الوزير مؤيد الدين بن القصّاب:

مؤيد الدين أبو المظفر محمد بن أحمد بن القصاب، كان أبوه يبيع اللحم، على رأس درب البصريين ببغداد، فيما نشأ هو مشتغلاً بالعلوم والآداب، جمع بين رياستي السيف والقلم[2]، تقلد الوزارة للناصر لدين الله العباسي سنة 590هـ/ 1193م، ومحبته للعلم والأدب، قادته لانشاء خزانة للكتب في «دار الخياطين» ببغداد، ووقف على الطلاب كثيراً من الكتب النفيسة، والتي كتب وقفيتها بخطّه[3].

9 - خزانة الوزير الكندري:

عميد الملك أبي النصر محمد بن أبي صالح منصور بن أبي محمد الكندري، منسوب إلى كندر/ وهي قرية من نواحي نيسابور من أعمال طرنيت[4]، استوزره طغرل بك السلجوقي، ثم البارسلان، ومات مقتولا سنة 456هـ/ 1063م[5]، تشير المصادر إلى أنه كانت لديه خزانة كتب عامرة، وفي زمن وزارته، وقعت ببغداد أعمال شغب وحوادث أخرى، ففي سنة 451هـ/ 1059م شبّ حريق في بغداد - الكرخ - منطقة السورين، واحترقت خزانة الكتب المعروفة بـ«خزانة العلم» والتي أنشأها سابور بن أردشير[6]، ونهبت بعض كتبها، فجاء الكندري فاختار من الكتب خيرها، كما يقول ابن الاثير[7]، وعدّ ذلك في سوء سيرته، وفساد اختياره، إلا أنه اختار ما اختار من الكتب وأضافها إلى خزانته.

---

(1) حاجي خليفة/ كشف الظنون 2/ 1127 - 1128 - وكوركيس عواد/ ص183، وهناك اضطراب في التاريخ الوسط.
(2) ابن الطقطقي - الفخري/ ص236 - وابن الاثير/ الكامل في التاريخ 12/ 108 - 109.
(3) كوركيس عواد/ ص183.
(4) ياقوت الحموي/ معجم البلدان 4/ 482 - مادة كندر.
(5) وفيات الاعيان 5/ 138 - 143 الترجمة رقم 703.
(6) تحدثنا عنها في الفصل السابق - المكتبات العامة.
(7) الكامل في التاريخ 10/ 7 - وكوركيس عواد/ ص185.

10 - خزانة الوزير ابن العلقمي:

هو مؤيد الدين أبو طالب محمد بن أحمد بن العلقمي، كان وزيراً للمستعصم، آخر خليفة عباسي، واشتهر أمره في حادثة سقوط بغداد بيد المغول سنة 656هـ/ 1258م، أنشأ هذا الوزير خزانة كتبه سنة 644هـ/ 1246م، ونقل إليها كتباً من أنواع العلوم، وقد ذكر بعض هذه الكتب العدل موفق الدين القاسم بن أبي الحديد من قصيدة طويلة منها[1]:

رأيت الخزانة قد زيّنت ... بكتب لها المنظر الهائل
بها «مجمع البحر» لكنّه ... من الجود ليس له ساحل
ومنها «المهذب» من فضلكم ... و«مغن» ولكنه نائل
ومنها «الوسيط» بما ترجيه ... وفيها «النهاية» و«الكامل»
وإن كان أعوزها «شامل» ... فقد زانها جودك الشامل
وان كان قد فاتها فائت ... أبوالفضل في علمه كامل

ينقل ابن الطقطقي[2] حديثاً عن ولد ابن العلقمي «شرف الدين أبو القاسم» قال: اشتملت خزانة والدي على عشرة آلاف مجلّد من نفائس الكتب، وصنّف الناس له الكتب، منهم الصنعاني اللغوي، حيث صنف له «العباب» وهو كتاب كبير في اللغة العربية، وصنّف له عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد كتاب/ شرح نهج البلاغة/ يشتمل على عشرين مجلّدا، فأثابهما وأحسن جائزتهما[3]. كان ابن العلقمي آخر وزير في الخلافة العباسية، مثلما كان المستعصم آخر خليفة فيها، الخليفة قتل والوزير مات بعد أشهر، وقد رأى بأمّ عينيه كيف تهاوت بغداد على يد المغول.

11 - خزانة الوزير المغولي عطا ملك الجويني:

الجويني هو علاء الدين عطا ملك، تسلّم أمر بغداد سنة 657هـ/ 1258م من هولاكو بعد أن أسقط الخلافة العباسية منها[4] وقد عرف عن الجويني شغفه في البحث والتأليف،

(1) راجع عن ذلك - ابن الفوطي - الحوادث الجامعة/ ص323 - 335 أحداث سنة 656هـ ففيها تفصيلات كثيرة.
(2) الفخري/ ص246.
(3) الفخري/ ص246 - وكوركيس عواد/ ص187.
(4) الحوادث الجامعة/ ص331 وما بعدها.

وهو مؤرخ هولاكو، وقد سطر سيرة حياته وفتوحاته في كتابه الشهير/ جهانگشاي/ حيث كانت له شهرة واسعة، وفضل لا ينكر على الكتّاب والمؤلفين.

أحرز الجويني خزانة كتب قيّمة وكتب له المؤرخون، منهم ابن الفوطي، وأهدى إليه ابن ميثم البحراني، شرح نهج البلاغة، وأهدى ابن كمونة بعض مؤلفاته لآل الجويني، ومنها كتابه في شرح الاشارات، وقد استطاع الجويني أن يرافق هولاكو في كل فتوحاته، وعندما أسقط هولاكو قلعة «الموت» سنة 654هـ/ 1255م فإن الجويني أخذ من مكتبتها أنفس الكتب وأندرها[1] ثم أحرقوها.

الفصل الثالث

المكتبات العامّة في العراق

لم تقتصر حالة إنشاء المكتبات على الخلفاء والامراء فقط، بل تعدتها إلى أبعد من ذلك، حيث نشأت في العراق، مكتبات عامة، ساهم عامّة الناس في تأسيسها وانشائها، إضافة إلى ما رفدت به الخلافة، تلك المكتبات من المصادر والكتب، وقد كان للدين الاسلامي أثر واضح في ذلك، باعتباره الآيديولوجية السائدة في ذلك الوقت، كما أنه كان منهلاً رئيساً في بنية العقل العربي، على مرّ العصور، وقد كانت الفترة العباسية، من أخصب تلك الفترات، في نشوء هذا الفكر وتبلوره إلى نظريات سياسية وفكرية، ظهرت للسطح، وكان لمختلف الملل والنحل الإسلامية، دور هام في مثل هذه الظاهرة، من حيث التبلور والوجود. وقد ساعد ظهور الفرق الاسلامية في اغناء الثقافة العربية - الإسلامية، وزاد في الوقت نفسه من تشجيع ظاهرة اقتناء الكتب ونشوء المكتبات العامّة والخاصة، وهو ما سنبيّنه في سياق هذا الفصل.

ظهرت المكتبات العامة في بغداد وغيرها من المدن، في العصر العباسي، في أحضان المدارس والربط ودور العلم والاماكن المقدسة، كأماكن عامة يرتادها الجميع، لذلك كانت الخزانة من الثوابت الاساسية في مثل هذه الاماكن، ومن أشهر هذه المكتبات:

---

(1) كوركيس عواد/ ص188.

1 - الخزانة الحيدرية في النجف الأشرف:

النجف، هي المدينة التي يوجد فيها مرقد الإمام علي ﷺ، وقد لعب وجود هذا المرقد، دوراً بارزاً في إضفاء القدسية والهالة الدينية على تلك المدينة[1]، ويشكل هذا المكان بعداً روحياً عميقاً لدى الشيعة في العالم الإسلامي، لذلك ترى أن أغلب المصادر العلمية الشيعية متوفرة هناك، فقد أنشئت في صحن هذا المشهد خزانة كتب منذ عهد بعيد، وقد عني بأمر هذه الخزانة واغنائها بالكتب الخطيّة الثمينة، غير واحد من السلاطين والامراء والوزراء والعلماء، وذوى اليسار، وقد كان لعضد الدولة البويهي، اليد الطولى في ذلك. ويشير الشيخ جعفر آل محبوبة[2] أن في هذه الخزانة من الكتب الثمينة النادرة الوجود ما لم يوجد في غيرها، وأغلبها بخط مصنفيها أو عليها خطوطهم، بخطّ جيّد متقن، على ورق ثمين، أغلبها يعود إلى ما قبل القرن العاشر، وفيها مصاحف ثمينة لاشهر الخطاطين، محلاة بالذهب، وهي من هدايا سلاطين الشيعة ووزرائهم في مختلف العصور، وقد كتبت بالخطوط: الكوفي والاندلسي واليماني وغيرها. . وفيها قطعة مصحف بقطع سفينة[3] مكتوب على رق بخط كوفي، وفي آخره: «تمّ سنة أربعين من الهجرة، كتبه عليّ بن أبي طالب»[4]، وأكثر ما في هذه الخزانة مصاحف قديمة حوالي 400 مصحف، وفيها يظهر خط الاربعمائة من الهجرة، وهذه المصاحف من الاعلاق التي لا تقدر بثمن.

تعرّضت هذه الخزانة في سنة 755هـ/ 1354م، إلى حريق، كما أن الاهمال مدّ سطوته إلى هذا المكان الجليل، فتراخى الناس عن الاهتمام به، وغزته الارضة، وامتدت إليه يدّ السرّاق[5]، وقد وصف الباحث كاظم الدجيلي هذه الخزانة، بعد أن وقف عليها في سنة 1914م فقال[6]:

---

(1) راجع الشيخ جعفر آل محبوبة النجفي/ ماضي النجف وحاضرها/ بصدد مشهد الإمام علي - ص29 - 64 - مطبعة العرفان - صيدا 1353هـ - وكوركيس عواد/ ص130.

(2) المرجع السابق/ ص100.

(3) السفينة: من الالفاظ التي شاع ذكرها في كتب التاريخ والأدب العربي، وفات أصحاب المعاجم التنويه بها، ولفظة السفينة بمعنى، المجموع الأدبي، وهي مجلّد يضمّ بين دفتيه أشعاراً ونوادراً وأخباراً وطرائف، يدونها جامعوها بحسب ما يتذوقونه، وقد كان الثعالبي اشتهر بذلك. راجع مقالة كوركيس عواد/ السفينة: بمعنى المجموع الأدبي، مجلة المجمع العلمي العربي - بدمشق - المجلد 18 لعام 1943م/ 1362هـ لشهري كانون الثاني وشباط/ ص551 - 552.

(4) ماضي النجف وحاضرها/ ص100 - وكوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة/ ص131.

(5) المرجع السابق/ ص102 - 103 - وكوركيس عواد/ ص132.

(6) وصف كتب خزانة الامير (عم) لكاظم الدجيلي - مجلة لغة العرب 4/ تموز/ 1914/ ص40.

تقسم هذه الخزانة إلى ثلاثة أقسام، قسم لصقت أوراقه بعضها ببعض من الرطوبة، وقسم أكلته الارضة وتمزقت أوراقه، وقسم بين ناقص وتام. ويشير في مكان آخر[1] إلى ما تحتويه من نفائس المخطوطات من المصاحف ومنها:

1 - مصحف قديم جداً، مكتوب على الرق بالخط الكوفي، تنسب كتابته للإمام علي.

2 - مصحف قديم جداً، مكتوب على الرقّ بالخط الكوفي، تنسب كتابته للإمام الحسن بن علي.

3 - مصحف بالخط الكوفي كتب سنة 301هـ/ 913م، وهناك مصاحف أخرى كثيرة، أحدها بخط ياقوت المستعصمي، والآخر بخط أحمد النيريزي الخطاط المشهور، وفي هذه الخزانة:

* كتاب قوى الاغذية، ربما كان من مؤلفات حنين بن إسحاق، مكتوب بخط كوفي بيد محمد بن يوسف الورّاق.

* وفيها «المسائل الشيرازية» لأبي علي الفارس، مكتوب عليها قرئت على المؤلف في سنة 363هـ/ 973م.

* ويوجد «شرح مقصورة بن دريد» لابن خالويه، قرئت على شارحها في سنة 375هـ/ 985م وعليها اجازة بخطه.

* وفيها شرح شعر النابغة، ومقصورة بن دريد، وقصائد للاعشى وامرىء القيس، كتبت في المئة الخامسة للهجرة.

* وحوت كتاب «المعتبر في الحكمة» لأبي البركات هبة بن علي بن ملكا الباغدادى - طبيب المستنجد بالله - قطعة منه كتبت في بغداد سنة 538هـ/ 1143م.

* كما يوجد كتاب التفسير المهم «التبيان في تفسير القرآن» لأبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي، المتوفى في النجف سنة 460هـ/ 1067م - الجزء الثاني.

* معجم الادباء لياقوت الحموى، المتوفى سنة 626هـ/ 1228م - الجزء الاول - بخطّ المؤلف نفسه.

* كتاب في اللغة: على غرار فقه اللغة للثعالبي، كتب في حلب سنة 640هـ/ 1242م.

---

(1) خزائن كتب الإمام علي/لغة العرب 3/ 1914/ ص595 - 600.

* كتاب الاسرار الخفية، في المنطق والطبيعي والالهي، للحسن بن يوسف بن المطهر الحلّي، المتوفى سنة 726هـ/ 1325م، ثلاثة أجزاء بخطّ المؤلف.

* التقريب: لأبي حيّان النحوى الاندلسي، المتوفى سنة 745هـ/ 1344م بخطّ المؤلف.

* شرح كتابي، الايلاقي في الطب، لعبد الرحمن بن محمد بن ابراهيم، المعروف بابن العتائقي الحلّي، من أبناء المئة الثامنة للهجرة، كتبه شارحه سنة 755هـ/ 1354م، في المشهد الغروى.

* التصريح في شرح التلويح إلى أسرار التنقيح في الطب، لابن العتائقي المذكور - الجزء الثاني، كتبه شارحه بخطه في سنة 772هـ/ 1370م. في المشهد الغروي[1].

* شرح الملخّص لعلي بن عمر الكاتبي القزويني - الجزء الثاني - أوقف في الخزانة سنة 779 - 1374م.

* شرح ديوان المتنبي، لابن العتائقي المذكور - قطعة صغيرة بخط الشارح، كتب فيها «سنة 781هـ/ 1379م».

* شرح صفوة المعارف (في الهيئة) لابن العتائقي، وهي بخط الشارح، كتبها سنة 787هـ/ 1385م في المشهد الغروي.

* الشهدة شرح تعريب الزبدة (في الهيئة) لابن العتائقي، وهي بخط الشارح.

وهناك في هذه الخزانة، من الكتب ما لا يمكن حصره في هذا المقام، من أمثال ذلك مؤلفات ابن كمونة اليهودي البغدادي، مكتوبة بخطه وتعود لسنة 670هـ/ 1271م وغيره[2].

كما حوت الخزانة على مؤلفات لمشاهير الأدباء والعلماء والمؤرخين في العصور الإسلامية الغابرة من مثل: محمد بن أحمد بن شهريار. ويحيى بن عليان، ومحمد بن جعفر الكيشوان، ومحمد حسين الكاتب دار ابن محمد علي الخادم[3].

---

(1) الغروي - نسبة إلى «الغري» وهي أرض النجف، والغري = الحسن - راجع مادة (الغريان) عند ياقوت الحموي - معجم البلدان 4/ 196 - 200 - حيث فيها شرح موسّع.

(2) لقد أوردنا أسماء هذه المخطوطات، خدمة للعلم ليس إلا، كي يستدل عليها من يريد من الباحثين والعلماء في مختلف الاماكن، وليس قصدنا الاطالة في البحث.

(3) كوركيس عوّاد/ ص136 - 137.

2 - خزانة دار العلم بالموصل:

أثّرت الحضارة الناهضة في العراق، في العصر العباسي، على رجالات الفكر، فكانوا صداها الاقوى في الحقل الثقافي، لذلك كانت استجابتهم لهذا النهوض أكبر من سواهم، فهذا أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي ينشىء «دار العلم» بالموصل وهو من فقهاء الشافعية، تحدث عنه ابن النديم قائلاً[1]: كان شاعراً أديباً، ناقداً للشعر، كثير الرواية، له عدة كتب في الفقه، كما ينقل عنه ياقوت الحموى[2] أنه كان من أهل الرياسات بالموصل، مفضّلاً بالعلوم على سواه، متقدماً بالفقه، قويّاً في النحو، عارفاً بالكلام والجدل، راوية للأخبار، بصيراً بالنجوم، عالماً مطلعاً على علوم الأوائل، عالي الطبقة فيها، كان صديقاً لكل وزراء عصره، مدّاحاً لهم، آنساً بالمبرد وثعلب.

ثم يذكر أنه كان له ببلده دار علم، قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم، وقفا على كل طالب للعلم، لا يمنع أحداً من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب، وإن كان معسرا أعطاه ورقاً ووراقاً[3]، كانت هذه الخزانة تفتح في كل يوم، ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه، ويجتمع إليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره، ثم يملي من حفظه من الحكايات المستطابة، وشيئاً من النوادر المؤلفة، وطرفا من الفقه وما يتعلق به.

3 - خزانة الوقف بالبصرة:

مثلُ أبي القاسم الموصلي، كان أبو علي بن سوار الكاتب، ذاك الذي عاش في المئة الرابعة للهجرة، وهو أحد رجال عضد الدولة البويهي، فقد كان ابن سوار هذا محبّاً للعلوم، شديد الشغف بها، يتحدث معاصره ابن النديم، في سياق حديثه عن أبي القاسم البستي قائلاً[4]: خبّرني أن سوار الكاتب الذي عمل خزانة الوقف بالبصرة أن في خزانته من كتب البستي، وذكر أسماء كتبه، ومرّ على ذكر هذه الخزانة المقدسي في معرض حديثه عن «رام هرمز» حيث قال: وبها دار كتب كالتي بالبصرة، والداران جميعاً اتخذهما بن سوار، وفيهما أجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ، إلا أن خزانة البصرة أكبر وأعمر وأكثر كتبا[5]، وعلى ما يبدو، أن أمر هذه الخزانة قد ملأ الآفاق وطارت شهرتها

(1) الفهرست/ ص213.
(2) معجم الأدباء 7/ 192.
(3) الوَرَق، بالفتح = ما يكتب فيه. والوَرِق، بالكسر = الفضة.
(4) الفهرست/ ص199.
(5) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/ ص413 طبعة ليدن 1909م - وراجع: كوركيس عواد/ ص138.

بين مجالس الأدب والأدباء، فالحريري كان قد ذكرها في المقامة الحلوانية[1] بالشكل التالي: «حضرت دار كتبها التي هي منتدى المتأدبين، وملتقى القاطنين منهم والمتغربين». رغم أنه متأخراً عن عصر ابن سوّار، الأمر الذي يؤكد ديمومة تلك المكتبة حتى عصورٍ متأخرة.

وذكر كوركيس عوّاد[2] أن هناك «دار كتب بالبصرة» لم يتحقق عنده، كون هذه الدار هي خزانة الوقف المذكورة سابقاً، والتي أنشأها أبو علي بن سوار، أم هي خزانة ثانية، ويشير إلى أن ابن الجوزي ذكر أنه في جمادى الاولى/ سنة 483هـ/ ورد البصرة رجل كان ينظر في علوم النجوم يقال له تليا، استغوى جماعة، وادعى أنه الإمام المهدي، وأحرق البصرة، فأحرقت دار كتب عملت من قبل عضد الدولة، وهي أول دار كتب عملت في الإسلام[3].

4 - خزانة العلم ببغداد - أو خزانة سابور:

كانت هذه الخزانة من المفاخر الأدبية الرائعة، والكنوز النادرة،، ومأثرة أسداها رجل كريم إلى عشاق العلم والمعرفة، كان هذا الرجل هو «أبو نصر سابور بن أردشير» استوزر هذا الرجل لبهاء الدولة البويهي ثلاث مرات، وكان كاتباً سديداً، عفيفاً عن الاموال، كثير الخير، غير أن أشهر ما عرف به كان خزانة الكتب التي أنشأها ببغداد في محلة الكرخ، سنة 381هـ/ 991م. وأوقف عليها الوقوف. تحدث عنها ياقوت الحموي في معرض حديثه عن محلة «بين السورين» قائلاً[4]: «وبها كانت خزانة الكتب التي وقفها الوزير أبو نصر سابور بن أردشير، ولم يكن في الدنيا أحسن كتبا منها، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة، وأصولهم المحررة، واحترقت فيما أحرق من محال الكرخ عند ورود طغرل بك، أول ملوك السلجوقية إلى بغداد سنة 447هـ.

وقد كان بادىء أمر هذه الخزانة، أن الوزير المذكور اشترى دارا في الكرخ بين السورين، وعمّرها وبيّضها وسماها (دار العلم) ونقل إليها كتباً كثيرة ابتاعها وجمعها وعمل لها فهرسا وأوكل أمرها إلى الشريفين أبي الحسين محمد بن أبي شيبة، وأبي عبدالله محمد بن أحمد الحسني، والقاضي أبي عبدالله الحسين بن هارون الضبّي، وكلف الشيخ أبا بكر

(1) مقامات الحريرى/ ص20 - طبعة المطبعة الحسينية بمصر 1348هـ/ 1929م.
(2) خزائن الكتب القديمة في العراق/ ص139.
(3) المنتظم 9/ 52 - 53 حوادث سنة 483هـ.
(4) معجم البلدان 1/ 534 - مادة (بين).

محمد بن موسى الخوارزمي فضل عنايته بها[1]. وقد ذكرت المصادر التاريخية أن عدد ما اشتملت عليه هذه الخزانة أكثر من عشرة آلاف مجلّد، بينها مائة مصحف بخطوط بني مقلة، وقد تعرّضت هذه الخزانة للسرقة بعد أن شبّت النار في بغداد - الكرخ، ووصلت النار إليها، حتى أن حميد المُلك الكندري، اختار منها خير الكتب[2].

وعلى ما يبدو، أن أهمية هذه المكتبة كانت كبيرة، فإنها كانت مأوى العلماء والأدباء والشعراء، فقد زارها أبو العلاء المعرى في أثناء اقامته في بغداد، وذكرها في كثير من آثاره[3]، وقد كانت هذه الخزانة مستودعا لأغلب مؤلفات الأدباء والشعراء والعلماء، فلقد ورد في ترجمة أحمد بن علي بن خيران الكاتب، صاحب ديوان الانشاء بمصر، ، أنه تسلّم إلى أبي منصور ابن الشيرازي رسول ابن النجار إلى مصر من بغداد جزأين من شعره ورسائله، ليعرضهما على الشريف المرتضى أبي القاسم وغيره، ممّن يأنس به من رؤساء البلد، ويستشير في تخليدها دار العلم لينفذ بقية الديوان والرسائل، إن علم أنّ ما أنفذه منها ارتضي، واستجيد، وقد كان له ذلك[4].

كما أن الطبيب المشهور جبرائيل بن عبيدالله بن بختشوع، قد أودع كتابه الهام المعروف بـ«الكافي» الذي أوقفه للصاحب بن عباد، قد أهدي نسخة منه إلى هذه المكتبة[5]، كما وجدت نسخة من ديوان عدي بن زيد في هذه المكتبة[6]، وقد أورد كوركيس عواد[7] جملة من أسماء العلماء الذين أشرفوا عليها، منهم:

1 - أبو أحمد عبد السلام بن الحسين بن محمد بن أحمد البصري اللّغوي المعروف بالواجكا.

2 - أبو منصور محمد بن علي بن إسحاق بن يوسف الكاتب.

3 - أبو منصور محمد بن أحمد.

---

(1) ابن الجوزي - المنتظم 7/ 172 - وكوركيس عواد/ ص140.

(2) ابن الاثير 10/ 7 حوادث سنة 451هـ.

(3) أنظر: رسالة الغفران للمعري/ ص73 وص184، بتحقيق إبراهيم اليازجي - طبعة القاهرة 1903م، وسقط الزند للمعري/ ص103 و127 - طبعة القاهرة 1901م - وراجع كذلك كوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة/ ص141.

(4) ياقوت الحموي - معجم الأدباء 4/ 5 - 6 - وكوركيس عواد/ المرجع السابق نفسه.

(5) عيون الاطباء لابن أبي أصيبعة/ ص212.

(6) كوركيس عواد/ ص142.

(7) كوركيس عواد/ ص142 - 144.

4 - الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسن الموسوي، نقيب الطالبيين، وقد كانت هذه الخزانة قد آل أمرها إليه، بعد سنين كثيرة من وفاة سابور.

5 - أبو عبدالله بن حمد، كان هذا الخازن من الظرّاف، ويشتغل بالخزانة مع أبي منصور محمد بن علي بن إسحاق بن يوسف الكاتب، وكثيراً ما كان أبو عبدالله يتلهى بأبي منصور وهم في خزانة الكتب، فقال له ذات يوم: قد هلكت الكتب وذهب معظمها، فقال له أبو منصور بأي شيء؟ قال: بالبراغيث وعبثهم بها، قال: فما نفعل في ذلك؟ قال: تقصد الاجل المرتضى وتطالعه بالحال، وتسأله اخراج شيء من دوائهم المعد عنده لهم، لننشره بين الورق ويؤمن الضرر. فمضى إلى المرتضى وقال له بسكون ووقار، ومن طريق النصح والاحتياط: «يتقدم سيدنا إلى الخازن بإخراج شيء من دواء البراغيث، فقد أشرفت الكتب على الهلاك بهم، لنتدارك أمرهم بتعجيل اخراج الدواء المانع لهم، المبعد لضررهم. فقال المرتضى: البراغيث، البراغيث، مكرراً، لعن الله ابن حمد، فأمره كله طنز وهزل! قم أيها الشيخ مصاحباً، ولا تسمع لابن حمد نصيحة ولا قولاً».

5 - خزانة المدرسة النظامية ببغداد:

من أشهر مدارس بغداد وأجلّها شأنا، وأقدمها عهدا، أنشأ عمارتها الوزير السلجوقي نظام الملك سنة 457هـ/ 1064م، وفرغ منها سنة 459هـ/ 1066م[1]، وقد كانت في بادىء أمرها للشافعية، وقد حفلت هذه الخزانة بالكثير من الكتب المهداة إليها، والمصنفات التي تتوارد إليها، فمن الذين أوقفوا كتبهم بها المؤرخ البغدادي الشهير محبّ الدين بن النجار، المتوفى سنة 643هـ/ 1245م - صاحب كتاب «ذيل تاريخ بغداد»، يصفه الذهبي[2] بأنه مؤرخ العصر، وصاحب التصانيف، وقد أوقف كتبه بالنظامية لينتفع بها الآخرون، وقد كانت كتبه عبارة عن خزانتي كتب، بلغ ثمنها ألف دينار كما يقول ابن كثير[3]، ومن حسن حظ هذه الخزانة أنها نجت من حريق شبّ في الحظائر المجاورة للمدرسة، فاحترقت الاخشاب، ، وتطاير الشرر إلى باب المراتب، فاحترقت منه عدة دور وامتدت النار إلى

(1) ابن الجوزي - المنتظم 8/ 246 - أحداث سنة 459هـ.

(2) الذهبي - تذكرة الحفّاظ 4/ 1428 - الترجمة رقم (1140) ط3 - حيدر آباد - الدكن - 1377هـ/ 1958م. وشذرات الذهب في أخبار من ذهب - لابن العماد الحنبلي 5/ 227 - منشورات دار السيدة - ط2 - بيروت 1399هـ/ 1979م.

(3) البداية والنهاية 13/ 169 - طبعة مكتبة المعارف - بيروت - ومطبعة النصر - الرياض - ط1 - 1966م.

خزانة الكتب - النظامية - فبادر العلماء إلى انقاذ الكتب فيها، حيث نقلوها إلى مكان آمن[1].

وفي سنة 589هـ/ 1193م أمر الخليفة الناصر لدين الله بتجديد خزانة الكتب هذه، ونقل إليها ألوفا من الكتب الحسنة المثمنة[2].

حوت هذه الخزانة الكثير من أمهات الكتب النفيسة، والمخطوطات النادرة، فقد ذكر أن الشيخ أبا يوسف عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزويني، المتوفى سنة 488هـ، كان من مفسّري القرآن المشهورين، قيل أنه كتب التفسير في أربعمائة مجلدة، ومنهم من قال سبعمائة مجلدة[3]، وكان القزويني هذا قد أهدى إلى نظام الملك أربعة أشياء، لم يكن لأحد مثلها هي: غريب الحديث لإبراهيم الحربي، بخط أبي عمر بن حيوية، في عشر مجلدات، فوقفه نظام الملك بدار الكتب ببغداد، وشعر الكميت بن زيد، بخط أبي منصور، في ثلاثة عشر مجلداً، وعهد القاضي عبد الجبار، بخط الصاحب بن عبّاد وانشائه، قيل كان سبعمائة سطر، كل سطر في ورقة سمرقندي، وله غلاف أبنوس، يطبق كالاسطوانة الغليظة، والرابع: مصحف بخط بعض الكتّابة المُجودين، بالخط الواضح، وقد كتب كاتبه إختلاف القرّاء بين سطوره بالحمرة، وتفسير غريبه بالخضرة، واعرابه بالزرقة، وكتب بالذهب العلامات على الآيات التي تصلح للانتزاعات في العهود والمكاتبات، وآيات الوعد والوعيد وما يكتب في التعازي والتهاني[4].

«أنه من جمع الشيخ العالم الصالح أبو عبدالله محمد بن مسلم بن أبي الفوارس الرازي»[5].

وذكر صاحب الذريعة/ وهو في صدد ذكر «الاربعون حديثاً» وهي إحدى الوثائق الهامة في الفكر الشيعي، أنها موجودة - نسخة الأصل - في المكتبة النظامية العتيقة ببغداد، مكتوب عليها:

---

(1) ابن الاثير - الكامل في التاريخ 10/ 523 - أحداث سنة 510هـ.

(2) البداية والنهاية 13/ 6. وكوركيس عواد/ خزائن الكتب/ ص146.

(3) ابن أبي الوفاء القرشي - الجواهر المضية في طبقات الحنفية 1/ 316 - الترجمة رقم (838) طبعة حيدر آباد - ط1. ولسان الميزان - لابن حجر العسقلاني 4/ 11 - الترجمة رقم (24) طبعة حيدر آباد الأولى سنة 1330هـ - وكوركيس عواد/ ص240.

(4) السبكي/ طبقات الشافعية الكبرى 3/ 230 - المطبعة الحسينية المصرية ط1.

(5) آقابزرك الطهراني - الذريعة إلى تصانيف الشيعة 1/ 427 - مادة (ارب) الحديث رقم 2184 - طبعة دار الاضواء - بيروت - ط3 - 1403هـ/ 1983م.

وعلى ما يبدو أن هذه المكتبة كان لها الشأن الاكبر عند علماء ذلك العصر، لذلك نشاهد فيها أسماء هامّة ممّن أشرفوا على ادارتها وتولّي أمرها، والنظر في شؤونها، أهمّ هؤلاء:

1 - القاضي أبو يوسف يعقوب بن سليمان الاسفراييني، المتوفى سنة 498هـ/ 1104م.

2 - يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن بسطام الشيباني أبو زكريا ابن الخطيب التبريزي المتوفى سنة 502هـ/ 1108م.

3 - محمد بن أحمد الابيوردي المتوفى سنة 507هـ/ 1113م وهو صاحب ديوان الشعر المعروف باسمه.

4 - علي بن أحمد، وقيل: علي بن عمر بن أحمد بن عبد الباقي بن بكري، المتوفى سنة 575هـ/ 1179م[1].

5 - عبد القادر بن داود بن أبي نصر الواسطي المعروف بالمحب المتوفى سنة 619هـ/ 1222م.

6 - أكرم الدين أبو سهيل، خازن دار الكتب النظامية، لم يوقف على سنة وفاته[2].

7 - أبو جعفر عمر بن أبي بكر بن عبيدالله الدباس.

8 - عمر بن عبدالله بن ابي السعادات.

وثمة أمر هام يخضع إلى منظور آيديولوجي، فقد اشترط نظام الملك، فيمن يتولى كتب هذه المدرسة أن يكون شافعياً، وكذلك المُدرّس والواعظ الذي يعظ بها[3].

وقد استطاع ابن الجوزي المتوفى سنة 597هـ/ 1200م، أن يحصي عدد مجلدات هذه الخزانة فقال[4]: «وقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوى على نحو ستة آلاف مجلّد».

6 - خزانة الكتب في مشهد أبي حنيفة:

مشهد أبي حنيفة النعمان، لا زال قائماً في بغداد في منطقة «الأعظمية» على نحو ثلاثة

(1) كوركيس عواد/ ص148 - 149.

(2) كوركيس عواد/ ص149.

(3) ابن الجوزى - المنتظم 9/ 65 - 66.

(4) صيد الخاطر/ ص366 - 367 - وكوركيس عوّاد/ ص151.

أميال شمالي بغداد»، يقول د. مصطفى جواد «كان يتصل بهذا المشهد، مدرسة جليلة الشأن، هي أوّل مدرسة فتحت في العراق في العصر الإسلامي، وقد عرفت بمدرسة الإمام أبي حنيفة، بناها شرف الملك أبو أسعد محمد بن منصور العميد الخوارزمي، مستوفي المملكة للسلطان ألب أرسلان السلجوقي، وقد فتحت هذه المدرسة سنة 459هـ/ 1066م. شملت هذه الخزانة على أنفس الكتب والمجلدات الفقهية والتاريخية وعلوم اللغة وغيرها، أوقفت كتب هذه الخزانة على طلبة العلم، وقد تعهد أمرها الكثير من العلماء، من أمثال ابن الأهوازي، وعبد العزيز بن علي بن أبي سعيد الخوارزمي، وضياء الدين أبي الفضل أحمد بن مسعود التركستاني الحنفي[1]، وقد اشتملت هذه الخزانة على نسخة من «التفسير الكبير» للقزويني، والذي أعطى نسخة منه للمدرسة النظامية - كما أسلفنا الحديث - وقد ذكر أن هذه المدرسة كانت حافلة بالكتب الكثيرة في زمن ابن الجوزي، فقد اطلع هو الآخر على ثبت هذه الخزانة[2]، كما اشتملت هذه الخزانة على كثير من مؤلفات الجاحظ، ونسخة من «الكشاف عن حقائق التنزيل» للزمخشري، وبخط المؤلف، وقد اطّلع صاحب «كشف الظنون» على هذا الكتاب النفيس[3]، كما أن الطبيب ابن جزلة يحيى بن عيسى أوقف كتبه قبل وفاته على هذه المكتبة[4]، يقول الأستاذ كوركيس عوّاد[5] «أما الخزانة التي ترى اليوم في المشهد، فهي موضوعة في حجرة من كلية الشريعة، وفيها جملة من الكتب المطبوعة والمخطوطة، وهذا القسم الأخير يغلب عليه الحداثة، وقد نقل شيء من كتبها المخطوطة، وهو زهاء (140) كتاباً إلى خزانة الاوقاف العامة ببغداد.

7 - خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدي:

مسجد الزيدي، يقع في درب دينار الصغير، في الجانب الشرقي من بغداد، وخزانة هذا المسجد وقفها الشريف الزيدي (أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الزيدي) المولود ببغداد، سنة 529هـ/ 1134م والمتوفى سنة 575هـ/ 1179م، كان هذا الرجل، أحد الاعلام البارزين الذين جمعوا بين علو النسب وحسن العلم، خلّد اسم هذا الشخص، وأبقاه على مرّ الزمان، تلك الخزانة التي أنشأها بدرب دينار، ذكرها ياقوت بمعجمه[6]،

---

(1) كوركيس عواد/ ص152.

(2) صيد الخاطر/ ص367، بعناية محمد أمين الخانجي - ط1 - مصر - سنة 1345هـ/ 1927م.

(3) حاجي خليفة/ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون 2/ 1475 - 1483 منشورات مكتبة المثنى ببيروت.

(4) ابن الجوزي - المنتظم 9/ 119.

(5) خزائن الكتب القديمة/ كوركيس عواد/ ص154.

(6) معجم البلدان 1/ 153 - مادة (ارعنز) في باب «أرعب».

وشاركه في تأسيسها وادارتها اثنان، سارا سيرته واقتفيا خطواته، هما: أبو الخير صبيح بن عبدالله الحبشي حيث كان يتولى خزنها واعادتها لطلاب العلم إلى حين وفاته[1].

وثانيهما: أبو الخطيب العليمي - عمر بن محمد بن عبدالله الدمشقي، كان هذا أحد التجار الذين ضربوا الأرض في الآفاق، للتجارة وطلب الحديث النبوي، قدم بغداد سنة 559هـ/ 1163م، وصارت له صحبة مع الشريف الزيدي، ثم عاد إلى مسقط رأسه دمشق، يتحدث أخوه أبو الفضل عبدالله بن محمد بن عبدالله العليمي عنه فيقول: لما كان أخي ببغداد يسمع الحديث عاهد الشريف أبا الحسن الزيدي وصبيحا النصري، أن يوقف كتبه وأجزاءه ويرسلها إلى بغداد لتكون في خزانتها، فلما مرض مرض الموت أوصى إليّ بذلك، فلما توفي أنفذتها إلى بغداد، إلى مسجد الشريف الزيدي، قال مجد الدين، وصلت الكتب إلى بغداد بعد وفاة الزيدي، فتسلمها صبيح سنة 643هـ/ 1245م، وهي الآن في خزانة الزيدي[2].

ومن المشهورين الذين أقفوا كتبهم على هذه الخزانة ياقوت الحموي، فقد ذكر ابن خلكان أنه قد وقف كتبه على مسجد الزيدي الذي بدرب دينار ببغداد، وسلمها إلى الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن الاثير، صاحب التاريخ الكبير[3] فحملها إلى هناك[4].

8 - خزانة الرباط الخاتوني السلجوقي:

هذه الخزانة وقفها الخليفة الناصر لدين الله العباسي، في تربة زوجته سلجوقة خاتون، بباب البصرة، من الجانب الغربي ببغداد، وقد كان الناصر قد أوكل إلى مبشر بن أحمد الحاسب المعروف بالبرهان، مهمة اختيار الكتب التي أوقفها بالرباط الخاتوني السلجوقي وبالمدرسة النظامية وبدار المسناة[5]. كما أن نجاح بن عبدالله الملقّب - نجم الدولة - كان أوقف كتباً له في هذه المكتبة، بلغت نحو خمسمائة مجلّدة، وكتب عليها اسم الشرابي[6].

---

(1) كوركيس عواد/ ص155.

(2) كوركيس عواد/ ص156.

(3) أي كتاب «الكامل في التاريخ».

(4) وفيات الاعيان 6/ 139 - وكذلك شذرات الذهب 5/ 122.

(5) القفطي - أخبار العلماء بأخبار الحكماء/ ص177 - مطبعة السعادة بمصر.

(6) سبط ابن الجوزي/ مرآة الزمان 8/ 394 - 395 - مخطوطة - شيكاغو 1907 - محفوظ نسخة منه بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

9 - خزانة كتب الرباط بالحريم الطاهري :

ورد ذكر هذه الخزانة عند ابن الاثير، في حوادث سنة 589هـ حيث قال: «في ربيع الأول، فرغ من عمارة الرباط الذي أمر بإنشائه الخليفة/ يقصد الناصر لدين الله/ والمعروف بالحريم الطاهرى غربي بغداد على دجلة، وهو أحسن من الربط، ونقل إليه كتباً كثيرة من أحسن الكتب»[1].

10 - دار الكتب برباط المأمونية ببغداد :

المأمونية، إحدى محلات بغداد العتيقة، تقع بين نهر المعلّى وباب الازج[2]، وردت عدة إشارات بذكر هذه الخزانة عند المؤرخين القدماء من أمثال سبط بن الجوزي، وياقوت الحموي/ معجم الأدباء/ وغيره.

11 - خزانة مشهد عبدالله بن علي في المذار :

المذار: قصبة ميسان «العمارة» بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام/ في أوان ياقوت الحموي/[3]، أما الآن فهي لا تبعد عن البصرة بأكثر من (150) كم، وموضع المشهد - بالقرب من قلعة صالح - ومشهد عبيدالله بن علي معروف عند سكان تلك المناطق وأغلبهم من الشيعة، في هذا المشهد خزانة كتب تضمّ طرائف خطيّة، من ذلك مصحف مكتوب بالخط الكوفي، تنسب كتابته إلى الإمام علي بن أبي طالب، كما يقول ابن عنبه[4].

12 - خزانة جامع قمرية ببغداد :

ما زال هذا الجامع قائماً إلى اليوم ببغداد، في الضفة الغربية من دجلة، بمواجهة «السراى» في الضفة الشرقية[5]، وكان في هذا الجامع، خزانة كتب في المائة السابعة،

(1) الكامل في التاريخ 12/ 104 - وكوركيس عواد/ ص159.
(2) ياقوت الحموي/ معجم البلدان 5/ 44.
(3) معجم البلدان 5/ 88 - مادة (المذار).
(4) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب/ ص21 - ط2 - منشورات المطبعة الحيدرية في النجف 1381هـ/ 1961م.
(5) كوركيس عواد/ ص162.

حيث أن هذا الجامع فتح في شهر رمضان سنة 626هـ/ 1228م، وجعل فيه خزانة للكتب وحمل إليها الكثير من الكتب[1].

13 - خزانة المدرسة المستنصرية ببغداد:

شيدت هذه المدرسة من قبل الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة (630هـ/ 1232م) في الجانب الشرقي من بغداد، لا زالت قائمة على ضفة دجلة اليسرى/ بالقرب من سوق التجار وشارع النهر/ ولهذه المدرسة شهرة تاريخية واسعة، كونها من أعظم مراكز العلم في بغداد[2]، تشير المصادر إلى أن المستنصر بالله بعد أن فرغ من بنائها نقل اليها من الربعات[3] الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والادبية ما حمله مائة وستون حملاً من الكتب النفيسة[4]، وقد جعلت هذه المدرسة منهلاً للعلم، حيث كان يدرّس فيها المذاهب الاربعة، وعدد فقهائها 248فقيهاً، من المذاهب الاربعة، وأربعة مدرسون، وشيخ حديث، وشيخ نحو وشيخ طب، وشيخ فرائض[5]، ويشير ابن عنبه إلى أن المستنصر بالله قد أودع في هذه الخزانة ثمانين ألف مجلّد[6].

ونظراً لأهمية هذه المدرسة بوجه عام، والخزانة بوجه خاص، فقد رتّب فيها الموظفون على النحو التالي: 1 - الخازن، 2 - المشرف، 3 - المناول، إضافة إلى البوابين والحرّاس والمنظفين، وقد اشترط المستنصر أن يكون لخازن الكتب في كل يوم عشرة أرطال خبزاً وأربعة لحماً، وفي كل شهر عشرة دنانير، وأن يكون للمشرف على هذا الخازن في كل يوم خمسة أرطال خبزاً ورطلان لحماً، وفي كل شهر ثلاثة دنانير، وأن يكون للمناول في هذه الخزانة في كل يوم أربعة أرطال خبزاً، وغرف طبيخاً، وفي كل شهر ديناران[7]، وقد ذكرت المصادر أسماء كثيرة من خزنتها من أمثال: الشيخ عبد العزيز ابن

---

(1) ابن الفوطي - الحوادث الجامعة/ ص4 - حوادث سنة 626 - وكوركيس عواد/ ص162.

(2) توسع المحقق الكبير - كوركيس عواد، بالافاضة عن تاريخ هذه المدرسة الحافل، في بحث أسماه «المدرسة المستنصرية ببغداد» ونشره في مجلة سومر 1/ 1945 - ج1 - ص76 - 130 - وهو غني بالمعارف عنها، وجدير بالقراءة حقاً.

(3) الربعات = واحدتها ربعة = صُندق فيه أجزاء المصحف - تاج العروس - مادة ربع.

(4) السيوطي - تاريخ الخلفاء/ ص463 - ط1 - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - مصر 1371هـ/ 1952م.

(5) السيوطي/ تاريخ الخلفاء/ ص462.

(6) عمدة الطالب/ ص206.

(7) السيوطي/ تاريخ الخلفاء/ ص462 - 463، وكوركيس عواد/ ص165.

دلف بن أبي طالب أبو محمد البغدادي - الناسخ المتوفى سنة 637هـ/ 1239م وهو في طليعة المشتغلين، والثاني: العدل ضياء الدين أحمد بن الشيخ عبد العزيز - المتقدم الذكر - المتوفى سنة 640هـ/ 1242م، والثالث: الشمس علي بن الكتبي، وهو أول خازن ثابت في هذه الخزانة[1]، والرابع: ابن الساعي، وهو أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين، المؤرخ البغدادي المشهور المتوفى سنة 674هـ/ 1275م[2]، والخامس: ابن الفوطي، أبو الفضل كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد بن محمد البغدادي، المتوفى سنة 724هـ/ 1323م[3]، والسادس: ياقوت المستعصي[4]، ذلك الخطاط الذائع الصيت المتوفى سنة 698هـ/ 1298م.

أما أشهر المشرفين على هذه الخزانة، إضافة إلى ابن الفوطي، فهم:

1 - العماد علي بن الدباس/ وهو أول مشرف في خزانة المستنصري[5].

2 - محي الدين ابن العاقولي/ المتوفى سنة 768هـ/ 1366م[6].

أما أشهر المناولين فهم:

1 - الجمال إبراهيم بن حذيفة، وهو أول مناول في خزانة المستنصرية[7].

2 - محمد بن سعيد بن محمد بن أبي النجم الحدّادي، كان معاصراً لابن الساعي، وهو من أقدم المناولين فيها[8] والحدادي نسب إلى قرية بقرب بغداد.

3 - عبد الرحيم بن محمد بن سعيد (ابن المذكور قبله) مات سنة 741هـ/ 1340م[9].

وقد كانت هذه الخزانة تقفل وتختم في أوقات معلومة لتجنب الحوادث، لا سيما وأنه كان يؤخذ من الناس دراهم ورهون في مقابل اعارتهم الكتب، كما أن عيون الخليفة/

---

(1) ابن الفوطي/ الحوادث الجامعة/ ص54 و56.

(2) المصدر السابق/ ص386 - وتذكرة الحفاظ 4/ 250 - وكوركيس عواد/ ص165.

(3) شذرات الذهب 6/ 60 - 61 والبداية والنهاية 14/ 106 - وكوركيس عواد/ ص166.

(4) سيجد القارىء ترجمة حياته مفصلة في الجزء الرابع (الخطّاطون) من هذه الدراسة.

(5) الحوادث الجامعة/ ص56 - وكوركيس عواد/ ص166.

(6) أنظر - تاريخ علماء بغداد - للتقي الفاسي المكي/ ص185 - 186 - الترجمة رقم 158 - طبعة عباس العزاوي - بغداد 1938م.

(7) الحوادث الجامعة/ ص56 - وكوركيس عواد/ ص166 - 167.

(8) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني 2/ 360 - الترجمة رقم 2405/ حيدر آباد 1349هـ.

(9) الدرر الكامنة 2/ 360 الترجمة رقم 2405 نفساً.

المستعصم، فيما بعد/ كانت ساهرة على حفظ مصالح هذه الخزانة[1].

ذكر ابن الفوطي[2] أن نور الدين أرسلان شاه بن عماد الدين زنكي، زار هذه المدرسة ودخل دار كتبها، وجلس بها ساعة. كما أن قطب الدين الخالدي الزنجاني، هو الآخر قد حضر إلى هذه المدرسة صحبة المعسكر الايلخاني سنة 696هـ/ 1566م مع جماعة من علماء قزوين وسأل عن كتاب «الهياكل السبعة»[3]، كما زارها قوام الدين محمد بن علي العكيكي البغدادي، الصدر الأديب، حيث أنه كان يتردد إليها[4].

ظلت هذه المدرسة منارة علم يهتدى إليها من كل ركن من أركان الأرض، لكن طوارق الاحداث لم تدعها تنعم بالاستقرار، فقد كان مجيىء المغول نكبة حقيقية على كل الحضارة الإسلامية، فقد سقطت بغداد تحت نصال سيوفهم سنة 656هـ/ 1258م، فعبثوا في مراكز الحضارة والعلم، وكانت هذه المدرسة واحدة من جملة مدارس خرّبوها، ولم يكتفوا بذلك، بل نقلوا كتباً كثيرة منها ومن غيرها، فقد ذكر ابن شاكر الكتبي في ترجمته لنصير الدين الطوسي، أن هذا الأخير ابتني بمراغة مرصداً عظيماً، واتخذ له خزانة عظيمة فسيحة الارجاء، وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلّد[5]، وليس هذا فحسب، بل أن هناك كتباً سرقت منها وأودعت في المكتبة الوطنية بباريس، من أمثال كتاب «ربيع الابرار للمزمخشري»[6]. وقد اشتملت خزانة هذه المدرسة على الكثير من الكتب النفيسة، وبخطوط أصحابها المؤلفين أو النساخين، من أمثال الحكيم عيسى بن القسيس، فقد ذكر أنه نسخ بخطه كتاب «القانون في الطب» لابن سينا[7]. وذكر المقريزي أن هذه الخزانة كانت تحوى على كتاب (الياسة)

---

(1) كوركيس عواد/ ص168.

(2) الحوادث الجامعة/ ص89.

(3) كوركيس عواد/ ص168.

(4) كوركيس عواد/ ص169.

(5) ابن شاكر الكتبي/ فوات الوفيات 3/ 247 - الترجمة رقم 414 - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر - بيروت، وننوّه هنا إلى أن الجزء (5) من الكتاب/ ص90 - حرف ن - ترجمة نصير الدين الطوسي - جاءت الإشارة إليها سهوا - حيث ذكر 2/ 319 - 320 - والصحيح 3/ 246 - 252 - من نفس الطبعة - وراجع كذلك - صلاح الدين بن أيبك الصفدي - الوافي بالوفيات 1/ 179 - الترجمة رقم 112 - طبعة هـ. ريتر - استانبول 1931م.

(6) كوركيس عواد/ خزائن الكتب/ ص170.

(7) ابن العبري - تاريخ مختصر الدول/ ص479 - وكوركيس عواد/ ص170.

الذي يحتوى على القوانين التي وضعها جنكيز خان لقومه، وضمنها النواهي والزواجر[1]، وذكر صاحب كشف الظنون[2] أن نسخة من تاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب البغدادي، وبخطه كانت في وقف المستنصرية 14 مجلّداً.

كما ذكر ابن تغري بردي[3] أن لابن إسحاق البخاري، كتاباً في الأدبيات، نحو 20 مجلداً، يشتمل على شعر وترسل وحكايات وغير ذلك، كان بخطه، وقفا بالمستنصرية.

14 - خزانة رباط باتكين في البصرة:

أنشأ هذه الخزانة، الامير أبو المظفر باتكين بن عبدالله الرومي الناصري المتوفى سنة 640هـ/ 1242م وجعلها وقفاً ملحقاً بجامع البصرة بعد أن أعاد بناءه أثر حريق تعرّض له، وكان هذا الأمير من حماة العلم والعلماء، فقد كان يرفدهم، وكانوا يقصدونه من جميع الآفاق.

15 - خزانة المدرسة البشيرية ببغداد:

أنشئت هذه المدرسة ببغداد في أواخر العصر العباسي سنة 653هـ/ 1255م.

بإيعاز من محظية الخليفة المستعصم (أم ولده) المعروفة بباب بشير، وجعلتها وقفا على المذاهب الاربعة، على قاعدة المدرسة المستنصرية ووقفت عليها وقوفاً كثيرة قبل فراغها[4]. وقد حضر الخليفة وأبناؤه، فتحها في يوم الخميس 13 جمادى الآخرة، من تلك السنة، ورتب المدرسين، والقيمين عليها من الخدم وغيرهم.

16 - خزانة مدرسة سيدي خان العباسي:

موقع هذه المدرسة في العمادية/ أحد أقضية الموصل/ أسستها الاميرة زاهدة العباسية المتوفاة سنة 729هـ/ 1328م وجعلت فيها خزانة كتب، يشير د. داود الچلبي إلى أن خزانة هذه المدرسة كانت في سنة 1920م تحتوي على نحو ألف قطعة من الكتب، غير أنها

---

(1) المقريزي/ الخطط 3/ 358 - طبعة النيل 1325هـ. وقد ذكر الكثير من القوانين المذكورة في هذا الكتاب.

(2) حاجي خليفة/ كشف الظنون 1/ 288 - وكوركيس عواد/ ص171.

(3) نقل كوركيس عواد هذا الخبر من كتاب (أصول التاريخ والادب) من مجاميع د. مصطفى جواد الخطيّة 16/ 174 - راجع خزائن الكتب القديمة/ ص171 - الهامش رقم2.

(4) المصدر السابق/ ص307 - 308 - وكوركيس عواد/ ص172 - 174.

أحرقت في فتنة وقعت هناك في تلك السنة ولم يسلم منها سوى 35 كتاباً[1].

17 - خزانة مدرسة قاسم العباسي في العمادية:

أنشأ هذه المدرسة الامير غياث الدين قاسم ابن بهاء الدين العباسي في سنة 785هـ/ 1382م وجعل فيها خزانة كتب عامرة في شتى العلوم[2].

18 - خزانة مدرسة قبهان في العمادية:

سمّاها «الكرد» بمدرسة قبّهان، وذلك لوجود القباب فيها، أسس هذه المدرسة الكثير من العلماء، ونشأ منهم شيخ الإسلام أبو السعود العمادي الشهير، ولهذه المدرسة خزانة حافلة بالكتب، لا زالت حتى اليوم، وقد احتوت على ألفي مجلّد، أكثرها من وقف السلطان حسين، نفسه وعليها ختمة، وفيها كتاب «جمع الجوامع» لتاج الدين السبكي وبخطه[3]. كما أنشأ «سلطان حسين العباسي»، مدرسة أخرى سمّاها (مدرسة العقر) وأنشأ فيها خزانة كتب[4].

19 - خزانة مدرسة قباذ العباسي:

كان قباذ من أمراء بهدينان، وهو ابن سلطان حسين العباسي، وقد أنشأ هذه المدرسة في قرية ماية، من قرى برواري زير، التابعة إلى العمادية في أواخر المئة العاشرة للهجرة، ووضع فيها خزانة كتب، تشتت شمل أكثرها بمرور الأيام وانتهى الأمر ببقيتها إلى الحرق في سنة 1924م[5].

20 - خزانة مدرسة مراد خان في العمادية:

أنشأ هذه المدرسة الامير مراد خان العباسي، في أواخر المائة العاشرة للهجرة، وجعل فيها خزانة كتب، ضاع أغلبها بمرور الزمن[6].

---

(1) د. داود الجلبي - مخطوطات الموصل/ ص251 - بغداد 1927م - وكوركيس عواد/ ص174.
(2) كوركيس عواد/ ص175.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) المصدر السابق/ ص176.
(5) مخطوطات الموصل/ ص254 - وكوركيس عواد/ ص176.
(6) كوركيس عواد/ ص176.

الفصل الرابع:

المكتبات الخاصة

لم ولن تكن المعرفة حكراً على طبقة معيّنة من طبقات أي مجتمع، والوعي عند الإنسان ما ارتبط يوماً بابن وزير أو بابن فقير، فالمعرفة إلهام عقلي، تدرُّ بِهِ الذات على حب المطالعة واكتساب العلوم، عن طريق البحث والدراسة والتأمل والاحتكاك والاحتكام والتصادم الفكري وقد كانت للمجالس الفكرية آثارها البالغة في رفع وعي الناس في الأوان العباسي، فلقد ذكرت المصادر، على سبيل المثال، أن ابن كيسان النحوي كان يبدأ مجلسه بأخذ القرآن والقراءات، ثم بأحاديث الرسول، فإذا قرىء خبر غريب، أو لفظة شاذة، أبان عنها وتكلّم عليها، وسأل أصحابه عن معناها، وكان يجوز للسامع في المجلس أن يقف ويسأل المدرّس[1]، وهذا الأمر يؤول بمنحاه على الاهتمام بالمعرفة والتعطش إليها، وقد كانت حالة التجاوب لهذه الظاهرة متبادلة بين طلاّب العلم والاساتذة على حدّ سواء، فقد كان الشيوخ (المدرسون) يرون أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجراً عن تعليمه القرآن والحديث، وهما كانا وقتذاك، أساسيّان في المعرفة للدين الإسلامي، لا سيّما شيوخ وفقهاء الحنفية، كأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وغيرهم، فيما أجاز ذلك آخرون، لكنهم جعلوا معلم الحديث في درجة أعلى لأنه يعلّم ابتغاء الثواب[2]، حتى أن بعض المحدثين الكبار، كانوا يأنفون من أخذ الأجر أو الصدقة عن التعليم، لوازع ديني وأخلاقي ومعرفي، فقد حكي عن الخطيب البغدادي - مؤرخ بغداد المشهور، أنه كان يعظ الناس ويلقي الحديث في جامع المنصور، فدخل عليه بعض العلوية، وفي كمّه دنانير، وقال للخطيب: فلان يسلّم عليك ويقول لك، اصرف هذا في بعض مهماتك، فقال الخطيب: لا حاجة لي فيه، وقطب وجهه، فقال العلوي، كأنك تستقله، ونفض كمّه على سجادة الخطيب، وطرح

---

(1) آدم ميتز - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري 1/ 320

(2) راجع طبقات الشافعية الكبرى - للسبكي 3/ 296 - 297 - ترجمة علي بن الحسن بن الحسين بن محمد القاضي.

الدنانير عليها، وقال: هذه ثلمائة دينار، فقام الخطيب محمرّا وجهه وأخذ السجادة، وصبّ الدنانير على الارض وخرج من المسجد[1].

وعن الموقف المعرفي - في هذا السياق، فإن عملية التعاطي وفقهُ، كانت تجرى بادراك وشعور عال بالمسؤولية، لا سيما إذا كان في المجلس شخصيات علمية كبيرة، تستطيع أن تضع الأمر في نصابه، فمن ذلك ما عرف به الخطيب البغدادي ذاته، فقد حضر مرّة درس الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، فروى الشيخ حديثاً من رواية بحر بن كثير السقاء، ثم قال للخطيب: ما تقول فيه؟! فقال: إن أذنت لي ذكرت حاله، فاستوى الشيخ وقعد مثل التلميذ بين يدي الأستاذ، يسمع كلام الخطيب، وشرع الخطيب في شرح أحواله، وتبسّط الكلام كثيراً، إلى أن فرغ، فقال الشيخ هَوَ دارقطني[2] عهدنا[3].

ومن هذه الزاوية المعرفية، يمكن القول أن الواجب المعرفي، يدفع بالعالم لأن يرفع المستوى الثقافي لمن هم حوله، وليس هذا فحسب، بل يذكر ممّن سبقوه، ويشيد بفضلهم، ويثبت أمام متلقي العلم معنى التواضع، لذلك شبّ الناس في ذلك الأوان، على اكتساب المعرفة والعلم بكل السبل، وتنافسوا في ميادينه، ومن ذلك التنافس، كان الاهتمام بالمكتبات، والحرص على اقتناء أنفس الكتب، وتعضيد الخزائن بها، لذلك كانت هناك مكتبات خاصة لكل عالم، في النحو أو الأدب، أو الفقه، أو علوم الحديث، أو علوم القرآن، أو الأخبار والسير، وسنحاول هنا ايراد أسماء أصحاب هذه المكتبات، بشيء يسير، استكمالاً لهذا الباب، وتوفيراً للجهد، معترفين بالفضل للباحث كوركيس عواد، لما أسداه لنا في كتابه الهام/ خزائن الكتب القديمة في العراق/ فقد كان هذا الكتاب بمثابة خطة عمل مرسومة قمنا بتنفيذها.

1 - خزانة أبي عمرو بن العلا:

هو زبّان بن العلاء بن عمّار العريان المازني البصري[4] كان رأسا في حياة الحسن

(1) المصدر السابق 3/ 14.

(2) الدارقطني - هو الإمام الحافظ المجوّد - شيخ الإسلام، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدى بن مسعود بن النعمان بن دينار بن عبدالله البغدادى، المقرىء المحدّث، من محلة دار القطن ببغداد، واحد من مشاهير العلماء في الإسلام ومن أكابر محدثيهم، راجع ترجمته عند الذهبي - سير أعلام النبلاء 16/ 49 4 - الترجمة رقم 332 تحقيق أكرم البوشي - واشراف شعيب الارناؤوط - مؤسسة الرسالة - ط2 - 1404هـ/ 1984م.

(3) السبكي - طبقات الشافعية 3/ 14.

(4) أنظر ترجمته عند ابن خلكان - وفيات الاعيان 3/ 466 - 470 - الترجمة رقم 505.

البصري، قال عنه أبو عبيدة: كان أعلم الناس بالادب والعربية والقرآن والشعر. مات بالكوفة سنة 154هـ/ 770م[1]، قال عنه معاصروه: كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له قريب من السقف ثم أنّه تقرّأ - أي تنسّك - فأخرجها كلها، فلما رجع إلى علمه الاول، لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه، وكانت عامّة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية[2].

2 - خزانة سفيان الثوري:

هو سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله، شيخ الإسلام، إمام الحفّاظ، سيد العاملين في زمانه، أبو عبدالله الثوري الكوفي، المجتهد، هكذا يذكره الذهبي[3].

كان سفيان من سكنة وولادة البصرة، وقيل بالكوفة[4]، مات بالبصرة مستترا من السلطان/ الخليفة المهدي/ ودفن عشاء سنة 161هـ/ 777م، وأوصى إلى عمّار بن سيف في كتبه، فمحاها هذا الأخير وأحرقها[5]، خوفاً منها، وقد صرّح كثير من المؤرخين أن للثوري جملة كتب ألّفها في «التفسير والحديث والفقه والاختلاف والزهد»[6]، وعلى ما يبدو، أن خزانة كتبه قد تركها بالكوفة عندما توارى عن السلطان، فثمة خبر يورده الخطيب البغدادي يقول: «كان أصحاب الحديث يأتونه في مكانه/ أي الذي اختبأ فيه/ فإذا سمع بصاحب حديث بعث إليه، وكان يقول: أنت - يعني يا يحيى، ويقصد يحيى بن سعيد القطان، تريد مثل أبي وائل عن عبد الله، أين تجد كل وقت هذا؟! اذهب إلى الكوفة فجئني بكتبي أحدثك، فقال له يحيى: أنا أختلف إليك، وأخاف على دمي، فكيف أذهب

(1) وفيات الاعيان 3/ 469 - وكوركيس عوّاد/ خزائن الكتب القديمة/ ص191، وقد رثاه عبدالله بن المقفع بهذه الأبيات وهي موجودة عند ابن خلكان - الموضع المذكور:

«رزئنا أبا عمرو ولا حيّ مثله ... فلله ريب الحادثات بمن نجع
فان تك قد فارقتنا وتركتنا ... ذوي خلّة ما في انسداد لها طمع
فقد جرّ نفعا فقدنا لك أننا ... أمنّا على كل الرزايا من الجزع

(2) وفيت الاعيان 3/ 466.

(3) سير أعلام النبلاء 7/ 229 - الترجمة رقم 82.

(4) ابن النديم - الفهرست/ ص314.

(5) الفهرست/ ص315.

(6) المباحث العلمية من المقالات السنية/ مقال للاستاذ امتياز علي عرشي/ ص159 - 188 حيدر آباد - 1358هـ.

وآتي بكتبك؟ قال: وكان يحيى جباناً جداً[1]، وجُلّة الخبر أن سفيان كان قد طرح كتبه، فلما آمن أرسل إلى من يأتي بها إليه، يقول عبدالله بن عبدالله ابن الاسود الحارثي، أرسل إليّ/ يقصد سفيان/ وإلى يزيد بن توبة المرهبي، فجعلنا نخرجها «الكتب» فأقول: يا أبا عبدالله وفي الركائز الخمس، وهو يضحك، فأخرجنا تسع قمطرات، كل واحدة إلى هاهنا، وأشار إلى أسفل من ثدييه، فقلت له: أعرض لي كتاباً فحدثني به، فعزل كتباً فحدثني به[2] وهذا الكم الهائل من الكتب يشكل مكتبة عامرة قطعاً.

3 - خزانة الواقدي:

هو أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدي، كان من أهل المدينة، واضح التشيّع، لذلك مال إلى بغداد، وسكنها، تولى القضاء للمأمون، وكان عالماً بالمغازي والسير والفتوح واختلاف الناس في الحديث والفقه والاحكام والاخبار، ولد سنة 130هـ ومات سنة 207هـ[3].

ذكر له المؤرخون جملة من الكتب، وخزانة كبيرة المحتوى، فقد روى الخطيب البغدادي، أنه لمّا انتقل الواقدي من الجانب الغربي/ إلى الجانب الشرقي/ حمل كتبه على عشرين ومائة وقر. وينقل عن أبي حذافة، أن الواقدي كان له ستمائة قمطر كتب[4]، كما أن ابن النديم ذكر مكتبته بالقول: قرأت بخطّ عتيق قال: خلّف الواقدي، بعد وفاته: ستمائة قمطر كتباً، كل قمطر منها حمل رجلين، وكان له غلامان مملوكان يكتبان بالليل والنهار، وقبل ذلك بيعت له كتب بألفي دينار[5]، والواقدي واحد من أبرز المؤرخين والأدباء في ذلك العصر. فقد ذكر له ابن النديم وصاحب/ أعيان الشيعة/ جملة من المؤلفات أهمها[6]: كتاب التاريخ والمغازي والمبعث، وأخبار مكة، وكتاب الطبقات، وفتوح الشام، وفتوح العراق، وكتاب الجمل، وكتاب مقتل الحسن، وكتاب السيرة، وكتاب أزواج النبي، وكتاب الردة والدار، وحرب الأوس والخزرج، وكتاب صغيرة، وكتاب وفاة النبي، وكتاب أم العبسة والفيل، وكتاب المناكح، وكتاب السقيفة وبيعة أبي بكر، وذكر القرآن، وسيرة أبي بكر ووفاته، ومداعي قريش والانصار في القطائع، ووضع

---

(1) تاريخ بغداد 9/ 160.
(2) المصدر السابق 9/ 161 - وكوركيس عواد/ ص192.
(3) الفهرست/ ص144.
(4) تاريخ بغداد 3/ 5 - 6.
(5) الفهرست/ ص144.
(6) الفهرست/ نفس المكان. ومحسن الامين/أعيان الشيعة 10/ 33 - تحقيق حسن الامين - منشورات دار التعارف للمطبوعات - بيروت 1403هـ/ 1983م.

عمر الدواوين، وتصنيف القبائل ومراتبها وأنسابها، وكتاب الرغيب في عالم القران وغلط الرجال، وكتاب مولد الحسن والحسين، ومقتل الحسين، وكتاب ضرب الدنانير والدراهم وتاريخ الفقهاء، وكتاب الآداب، والتاريخ الكبير، وكتاب غلط الحديث، وكتاب السنة والجماعة وذم الهوى وترك الخوارج في الفتن، وكتاب الاختلاف وغيرها.

4 - خزانة الأصمعي:

هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب، المعروف بالأصمعي، أشهر علماء اللغة، وأخبار الأدب في المائة الثانية للهجرة[1] من أبرز تلاميذه، أبو عبيد القاسم بن سلاّم، وأبو حاتم السجستاني، وأبو الفضل الرياشي، وابن أخيه عبد الرحمن بن عبد ا لله الاصمعي، قدم بغداد في أيام الرشيد، وهو بصري المولد، عام 122هـ/ 740م، وكان سريع البديهة والحفظ، قال عنه عمر بن شبة: سمعت الاصمعي يقول: أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة[2]. توفي سنة 217هـ، على الارجح.

ناهزت مؤلفات الاصمعي 50 كتاباً، وفق رواية ابن النديم[3]، أما خزانة كتبه فليس هناك من مصدر استطاع حصرها قط، لكنه توجد بعض الاشارات هنا وهناك تؤكد ضخامة خزانته، فقد روى أبو الفرج الاصفهاني[4] قال: قال الأصمعي: لما خرجنا مع الرشيد إلى الرقّة قال لي: هل حملت شيئاً من كتبك؟ فقلت: نعم حملت منها ما خفّ حمله، فقال: كم؟ فقلت: ثمانية عشر صندوقاً، فقال: هذا لمّا خفّفت، فلو ثقلت كم كنت تحمل؟ فقلت: أضعافها، قال: فجعل يعجب.

وهذا الخبر يوضّح مدى حجم وكبر مكتبة هذا العلامة العباسي الذائع الصيت.

5 - خزانة إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

هو أبو محمد إسحاق بن نسك، التميمي بالولاء، الأرجاني الاصل[5]، شاعر وأديب، وأخباري مشهور في علوم كثيرة، أخذ الادب عن الاصمعي وكتب الحديث عن

(1) أنظر ترجمته في الفهرست/ ص82 - 83 - ووفيات الاعيان 3/ 170 - 176 - الترجمة رقم 379.
(2) وفيّات الاعيان 3/ 171.
(3) الفهرست/ ص82 - كما ذكر منها بعضاً ابن خلكان في وفيات الاعيان 3/ 176.
(4) الاغاني 5/ 302 - طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة 1351هـ/ 1932م.
(5) راجع ترجمته في/ وفيات الاعيان 1/ 202، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي 6/ 5، وما بعدها، والاغاني 17/ 111 - 115 رغيرها - وتاريخ بغداد 6/ 338 - الترجمة رقم 3380.

سفيان الثوري وابن عينيه وهشيم بن بشير وابي معاوية الضرير وطبقتهم[1]، ولد إسحاق سنة 150هـ، كما يقول الخطيب[2]، تفرّد بالغناء، وكان أعلم أهل زمانه به، نادم الرشيد والمأمون والواثق، مات سنة 235هـ/ 849م، ألّف إسحاق كتباً كثيرة، أشهرها - كتاب الاغاني الكبير وغيره، وقد ذكرها ابن النديم، وبلغت عنده نحو/ 40/ كتاباً[3]، وعناوينها تدل على أنها تدور حول الغناء والشرب، ومجالسة الخلفاء ومنادمتهم، وأخبار الشعراء والمغنين والقيان.

جمع إسحاق خزانة كتب حافلة. ذكر الخطيب البغدادي وياقوت الحموى[4] قول الأصمعي: خرجت مع الرشيد إلى الرقة، فلقيت إسحاق الموصلي، فقلت له: هل حملت شيئاً من كتبك؟ فقال: حملت ما خفّ، فقلت: كم مقداره؟ فقال: ثمانية عشر صندوقاً، فعجبت وقلت: إذا كان هذا ما خفّ، فكم يكون ما ثقل، فقال: أضعاف ذلك[5].

وعرّج ابن خلكان على ذكر كتب إسحاق الموصلي فقال[6]: قال أبو العباس ثعلب: رأيت لاسحق الموصلي ألف جزء من لغات العرب، وكلها بسماعه، وما رأيت اللغة في منزل أحد قط أكثر منها في منزل إسحاق، ثم منزل ابن الأعرابي.

وهذه الاخبار والروايات توضح لنا مدى كبر وحجم خزانة هذا الأديب والموسيقي الكبير.

6 - خزانة الإمام أحمد بن حنبل:

هو صاحب المذهب الحنبلي المعروف (164 - 241هـ/ 780 - 855م) واحد من أعلام الفكر الإسلامي وأحد الأئمة الاربعة، و«مسنده» أحد المراجع الأساسية في كتب الشريعة والفقه الإسلامي - ولدته أمّه في بغداد، بعد أن خرجت به حاملاً من مرو[7]، قيل

(1) تاريخ بغداد 6/ 338.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) الفهرست/ ص202 - وكوركيس عواد/ ص195.
(4) تاريخ بغداد 6/ 340 ومعجم الأدباء 6/ 8.
(5) رواية الخطيب البغدادي 6/ 340 تقول: قال إسحاق الموصلي: لما خرجنا مع الرشيد إلى الرقة قال لي الأصمعي: كم حملت معك من كتبك؟ قلت: تخففت فحملت ثمانية أحمال، ستة عشر صندوقاً، قال: فعجب، فقلت: كم معك يا ابا سعيد؟ قال: ما معي إلا صندوق واحد، تلت: ليس إلا قال: وتستقل صندوقا واحداً من حق.
(6) وفيات الاعيان 1/ 204.
(7) وفيات الاعيان 1/ 63 - 64.

أنه كان يحفظ ألف ألف حديث[1] وكان من أصحاب الإمام الشافعي وخواصه، أبتلي أيام المعتصم بمسألة خلق القرآن، وحبس لمدة[2].

تبحّر في علوم الدين كثيراً، الأمر الذي أهّله لان يكون إماماً لأحد المذاهب الأربعة، ومن الطبيعي أن تكون لديه كتب الأوائل والأواخر، فلقد ذكر الذهبي، أنه حزرت كتبه يوم مات، فبلغت اثني عشر حملاً وعدلاً، ما كان على ظهر كتاب منها (حديث فلان) ولا في بطنه (حدثنا فلان) وكان يحفظ ذلك كله على ظهر قلبه، وذكر أيضاً أنّه فتّش بيته أيام المتوكل، فكان فيه «تابوت الكتب» يقصد موضع الكتب في داره[3]، وأورد الذهبي على لسان ابن الجوزي كتباً كثيرة، أشهرها «المسند» وهو ثلاثون ألف حديث، و«التفسير» وهو مئة وعشرون ألفاً، «والناسخ والمنسوخ»، والتاريخ، وحديث شعبة، والمقدّم والمؤخر في القرآن، وجوابات القرآن، والمناسك، الكبير والصغير، وكتاب الايمان، وكتاب الاشربة، وكتاب الفرائض، وله من المصنفات الاخرى كتب كثيرة، وأملى على تلامذته الشيء الكثير[4].

7 - خزانة أبي حسان الزيادي:

هو أبو حسان، الحسن بن عثمان الزيادي المتوفى سنة 242هـ وقيل 243هـ/ وليّ القضاء للمتوكل للمنطقة الشرقية ببغداد، كانت له معرفة بأيام الناس، وعمل الكتب، وله تاريخ حسن، وكان كريماً واسعاً مفضالاً، كما يقول الخطيب البغدادي[5]، ووصف ابن النديم خزانة كتبه بأنها كانت حسنة وكبيرة[6].

8 - خزانة أبي كريب بالكوفة:

هو أبو كريب محمد بن العلا بن كريب الهمداني الكوفي، المتوفى سنة 248هـ/ 857م

(1) الذهبي - سير أعلام النبلاء 11/ 186 - 187.
(2) وفيات الاعيان 1/ 63 - 64 - وراجع: الذهبي/ العبر في خبر من غبر 1/ 435 - الترجمة رقم 241 - أحداث سنة 241هـ/ تحقيق صلاح الدين المنجد - الكويت 1960 - وكذلك: سير أعلام النبلاء 11/ 177 - 358 - الترجمة رقم 78 - وهي أطول ترجمة وفيها تفصيلات دقيقة عن حياته.
(3) كوركيس عواد/ ص196.
(4) راجع: سير أعلام النبلاء 11/ 327 - 332 - فصلاً خاصاً عن كتبه ومصنفاته.
(5) تاريخ بغداد 7/ 358 - وكوركيس عوّاد/ ص197.
(6) الفهرست/ ص160.

محدّث الكوفة المشهورة، ومن الحفّاظ المعدودين، أوصى أن تدفن كتبه معه فدفنت، ومات في جمادى الآخرة سنة 248هـ عن عمر يناهز 87 سنة[1].

9 - خزانة الكندي الفيلسوف:

هو يعقوب بن إسحاق الكندي، فيلسوف العرب والمسلمين، المتوفى ببغداد سنة 246هـ/ 860م، كان عالماً بالطب والفلسفة والنجوم والحساب والهندسة والمنطق والألحان وغير ذلك، مصنافته تدخل في فنون مختلفة، ذكرت عند ابن النديم والقفطي، وابن أبي أصيبعة[2]، وقد ذكرت هذه المصادر أخبار مؤلفاته ومصنّفاته بشيء من التفصيل والتبويب، كانت له خزانة كتب قيّمة، ذكر ابن الداية (أحمد بن يوسف الكاتب) كان أبناء شاكر، في أيام المتوكل، يكيدون كل من ذكر بالتقدم في المعرفة، فدبروا على الكندي، حتى ضربه المتوكل، ووجّهوا إلى داره، فأخذت كتبه بأسرها، وأفردت في خزانة خاصّة سمّيت «الكنديّة»[3]، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن مكتبته ردّت إليه فيما بعد، بعد أن آل أمر أبناء شاكر إلى زوال النعمة[4].

10 - خزانة الجاحظ:

غنيّ عن التعريف أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، ذلك البصري المشهور، ولد سنة 150هـ ومات سنة 255هـ[5]، كان امام الأدب والبلاغة، وقد أجمع مؤرخو الادب على إمامته في هذا الباب وتقدّمه على كثير من سواه[6]، لم يعرف أحد من العرب أو العجم أولع منه بمطالعة الكتب، قال عنه أبو هفّان: لم أر قط، ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان، حتى أنه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر»[7]، حتى أن موته له معنى

---

(1) الذهبي - تذكرة الحفاظ 2/ 497 - 498 - طبعة حيدر آباد 376هـ/ 1956م - ط3

(2) الفهرست/ ص357 - 365 - وأخبار الحكماء/ ص240 - 247 - وطبقات الاطباء/ ص285 - 293.

(3) أنظر: ابن الداية/ كتاب المكافأة وحسن العقبى/ ص130 - تحقيق محمود محمد شاكر - القاهرة 1940م.

(4) طبقات الاطباء/ ص287.

(5) ياقوت الحموي - معجم الأدباء 16/ 74 وما بعدها.

(6) كوركيس عواد/ ص199.

(7) الفهرست/ ص169 - ومعجم الأدباء 16/ 75.

وتسلسل منطقي من مسلكيته المعرفية، فقد روت المصادر[1] أن موته كان بوقوع مجلدات عليه، حيث كان من عادته أن يضعها قائمة كالحائط محيطة به، وهو جالس إليها، وكان عليلاً فسقطت عليه وقتلته في محرم من سنة 255هـ.

لقد كان الجاحظ واسع المعرفة والعلم، الأمر الذي تطلب أن تكون لديه خزانة واسعة وكبيرة، حتى أنه كان يستخدم الورّاقين لمساعدته في استنساخ كتبه وكتب غيره، وقد ألمحنا إلى ذلك في بداية هذا الباب، ومن أشهر ورّاقي الجاحظ عبد الوهاب بن عيسى[2]، ورغم سعة علمه، كان من أصحاب النادرة، حكى عنه المرزباني قال[3]: كان الجاحظ ملازماً محمد بن عبد الملك الزيّات ولما قبض على محمد «هرب الجاحظ» فقيل له: لم هربت؟ فقال: خفت أن أكون ثاني اثنين، إذ هما في التنور، يريد ما صنع بمحمد وادخاله تنور حديد، فيه مسامير، كان هو/ أي محمد بن الزيات/ صنعه ليعذب فيه الناس، فعذب فيه هو حتى مات.

11 - خزانة أبي حاتم السجستاني:

هو سهل بن محمد بن عثمان، من سكنة البصرة، كان اماماً في علوم القرآن واللغة والشعر، وكان أعلم الناس بالعروض، ورد بغداد، فسئل عن قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[4] ما يقال منه للواحد؟ فقال: قِ، فقال: فالاثنين، فقال: قيا، قالوا فالجمع، قال: قوا، قالوا: أجمع لنا الثلاث، فقال: «ق قيا قوا» قالوا: وكان في ناحية المسجد رجل جالس معه قماش فقال لواحد: احتفظ بثيابي حتى أجيء، ومضى إلى صاحب الشرطة وقال: أني ظفرت بقوم زنادقة يقرؤون القرآن على صياح الديك، قال: فما شعرنا حتى هجم علينا الاعوان والشرطة، ، فأخذونا وأحضرونا مجلس صاحب الشرطة، فسألنا فتقدمت إليه وأعلمته بالخبر، وقد اجتمع خلق ينظرون ما يكون، فعنفني صاحب الشرطة/ والكلام للسجستاني/ وعذلني، وقال: مثلك يطلق لسانه عند العامة بمثل هذا. ثم عمد إلى أصحابي فضربهم عشرة عشرة وقال: لا تعودا إلى مثل هذا، فعاد أبو حاتم إلى البصرة سريعاً، ولم يقم ببغداد، ولم يأخذ عنه أهلها[5].

---

(1) تاريخ أبي الفداء/ المختصر في أخبار البشر/ 47 - أحداث سنة 255 هـ/ ط1 - المطبعة الحسينية بمصر/ 1325هـ.

(2) تاريخ بغداد 11/ 28 - 29.

(3) معجم الأدباء 16/ 76.

(4) سورة التحريم، الآية: 6.

(5) السيوطي/ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة/ ص 265 - حرف السين - مطبعة السعادة - ط 1 - مصر سنة 1326هـ.

صنّف أبو حاتم كتباً عديدة منها: كتاب المعمرين، وكتاب الأضداد، وكتاب النخل، توفي في أواسط المئة الثالثة للهجرة، وعرف عنه أنه كان جمّاعاً للكتب يتجر فيها[1]، ومن هنا نستدرك كيف تكون مكتبته.

12 - خزانة حنين بن إسحاق:

هو أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي، ولد بالحيرة سنة 194هـ/ 809م، علم من أعلام الترجمة والطب في عصر المأمون، لم يفقه أحد في عصره في هذا الفن، ينتسب إلى عبّاد.

والعَبّاد - بالفتح قبائل شتى من بطون العرب، اجتمعوا على النصرانية بالحيرة[2]، تتلمذ على يد يوحنا بن ماسويه، تخصص في ترجمة كتب الحكمة من السرياني إلى العربي، رحل إلى البصرة، وتتلمذ في النحو على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي، مات مكموداً وقيل سمّ نفسه[3] سنة 298هـ.

كان أميناً على الترجمة، ومشرفاً على المترجمين، فقد نقل الكثير وألّف الكثير، جاوز المائة وثلاثين كتاباً بالعربية، إضافة إلى جملة من المؤلفات التي صنّفها بالآرامية[4]، كانت خزانته واحدة من النوادر، حيث أنه كان يعمل تحت يديه اثنان من الورّاقين هما الازرق والأحول[5]، الامر الذي يشير إلى أهمية إسحاق بن حنين في النقل والترجمة والتأليف، وهو بلا شك، يكون قد أسس مكتبة رفيعة القدر، ونفيسة المحصل، وليس عبثاً أن تصادر كتبه في بداية محنته.

13 - خزانة إسحاق بن سليمان الهاشمي:

كان واحداً من أشهر الولاة في المائة الثالثة للهجرة[6]، لم تتعين سنة وفاته، وليّ القضاء لهرون الرشيد على المدينة والبصرة ومصر، وفي زمن الامين، وليّ على حمص، وأرمينية، كان هذا القاضي قد أحرز خزانة كتب جليلة، ذكرها الجاحظ بالقول[7]، دخلت

---

(1) المصدر السابق/ نفس المكان - وكوركيس عواد/ ص201.
(2) القفطي/ أخبار الحكماء/ ص119 - وطبقات الاطباء/ ص257.
(3) أنظر تفاصيل ذلك عند القفطي/ أخبار الحكماء/ ص118 - 119 - وطبقات الاطباء/ ص263.
(4) انظر/ طبقات الاطباء/ ص271 - 274 - وكوركيس عواد/ ص202.
(5) راجع الفهرست/ ص117 - عن الأحول - وكوركيس عواد/ ص204.
(6) انظر الكندي/ الولاة والقضاة/ ص136/ بعناية رفن كست - الطبعة اليسوعية - بيروت 1908م.
(7) أنظر: الحيوان 1/ 61 - 62 وكوركيس عواد/ ص204.

على إسحاق بن سليمان في إمرته، فرأيت السماطين والرجال مثولا، كأن على رؤوسهم الطير، ورأيت فرشته وبزته، ثم دخلت عليه وهو معزول، وإذا هو في بيت كتبه، وحواليه الأسفاط والرقوق، والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر، فما رأيته قطّ أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم لأنه جمع مع المهابة المحبة، ومع الفخامة الحلاوة، ومع السؤدد الحكمة.

14 - خزانة العصفري:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن منقذ بن إبراهيم بن عيسى بن يحيى العصفري، أحد ثقات المحدثين ببغداد، وبها توفي سنة 269هـ/ 882م[1]، ذكرت المصادر أن كتبه احترقت قديماً، وبقيت له منها بقيّة، وكان يحدّث بما بقي له من كتبه[2].

15 - خزانة ابن يحيى المنجّم:

هو أبو الحسن علي بن يحيى ابن أبي منصور المنجّم، نادم المتوكل، وكان من خواصّه وندمائه والمتقدمين عنده، وخصّ به وبمن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد على الله، وكان شاعراً راوية علاّمة، واخبارياً موصوفاً، توفيّ بسرّ من رأى سنة 275هـ/ 888م[3]، اتصل هذا العالم بوزير هو الآخر عالم، ذلك الوزير هو الفتح بن خاقان، وعمل له خزانة حكمة[4] نقل إليها من كتبه وما استكتبه الفتح، أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط، كما يقول ابن النديم[5]، جمع في خزانته كتباً كثيرة، وأفردها في ضيعة كانت له في منطقة كركر، بنواحي القفص، من نواحي بغداد[6]، قال القاضي التنوخي[7]، كانت لعليّ بن المنجم ضيعة نفيسة، وقصر جليل فيه خزانة عظيمة يسميها «خزانة الحكمة» يقصدها الناس من كل بلد، فيقيمون فيها، ويتعلمون منها صنوف العلم، والكتب مبذولة

---

(1) ابن الجوزي - المنتظم 5/ 67 - 68 - الترجمة رقم 152 - والسمعاني/الانساب 8/ 468 - باب العين والصاد.

(2) المنتظم/ نفس المكان - والسمعاني/ نفس الموضع - وكوركيس عواد/ ص205.

(3) ياقوت الحموي - معجم الأدباء 15/ 144 - الترجمة رقم 33.

(4) أنظر: الفصل السابق من هذا الباب/ مكتبات الوزراء العباسيين - مكتبة الفتح بن خاقان.

(5) الفهرست/ ص205 - وكوركيس عوّاد/ ص206.

(6) ياقوت/ معجم البلدان 4/ 452 - 453 - مادة (كركر).

(7) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة 4/ 66 - الترجمة 35 - تحقيق عبود الشالجي المحامي - 1392هـ/ 1972م (بحمدون).

في ذلك لهم، والصيانة مشتملة عليهم، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى، كما نوّه ابن أبي أصيبعة بالكتب التي نقلها حنين بن إسحاق لعلي بن يحيى المنجم، وألمح إلى خزانة كتبه[1] كما أشار القفطي هو الآخر إلى ذلك[2].

16 - خزانة إسماعيل بن إسحاق الأزدي:

هو واحد من القضاة الذين تولوا القضاء في بغداد، أصله من البصرة، وسكن بغداد، وحكم حوالي ربع قرن، كان عالماً ثقة، صنّف الكتب الكثيرة في علوم القرآن، وكان مالكيّ المذهب[3]. ومات سنة 282هـ/ 895م، جمع هذا الرجل في داره خزانة كتب، وقد ذكره ابن هفّان ضمن الثلاثة الذين أولعوا بالكتب، هو والجاحظ والفتح بن خاقان، فقال عنه: ما دخلت عليه إلا رأيته ينظر في كتاب أو يقلّب كتباً أو ينفضها[4].

17 - خزانة إبراهيم بن إسحاق الحربي:

وصفه السمعاني بأنه كان إماماً في العلم، رأساً في الزهد، عارفاً بالفقه، بصيراً بالاحكام، حافظاً للحديث، مميّزاً للعلة، قيماً بالادب، جمّاعاً للغة، وصنّف كتباً كثيرة[5]، توفيّ على ما ذكر كوركيس[6] سنة 285هـ/ 898م، أزرت به الايام، وأحوجته الضائقة الاقتصادية إلى عرض كتبه للبيع، يقول الخطيب البغدادي[7]: جاء رجل من أصحاب المعتضد إلى إبراهيم الحربي بعشرة آلاف درهم من عند المعتضد، يسأله عن أمر أمير المؤمنين تفرقة ذلك، فردّه فانصرف الرسول، ثم عاد فقال: أن أمير المؤمنين، يسألك أن تفرّقه في جيرانك، فقال: عافاك الله، هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه، فلا نشغلها بتفرقته، قل لامير المؤمنين أن تركتنا وإلا تحولّنا من جوارك، وعندما ألمّ به المرض، وأشرف على الموت دخل عليه أبو القاسم الجبلي، فقال: دخلت إليه يوماً فقال لي: يا أبا القاسم، أنا في أمر عظيم مع ابنتي، ثم قال لها: قومي أخرجي إلى عمّك، فخرجت

(1) طبقات الاطباء/ ص272 - 274.
(2) أخبار الحكماء/ ص120 - في ترجمة حنين بن إسحق.
(3) تاريخ بغداد 6/ 284 - الترجمة رقم 3318.
(4) الفهرست/ ص169 - وكوركيس عواد/ ص207 - 208.
(5) الانساب 4/ 99 - مادة (الحربي) - وتاريخ بغداد 6/ 30.
(6) خزائن الكتب القديمة/ ص208.
(7) تاريخ بغداد 6/ 32 - 33.

وألقت على وجهها خمارها، فقال إبراهيم: هذا عمك كلميه، فقالت لي: يأعم نحن في أمر عظيم، لا في الدنيا ولا في الآخرة، الشهر والدهر مالنا طعام، إلا كسر يابسة وملح، وربما عدمنا الملح، وبالامس قد وجه إليه المعتضد مع بدر ألف دينار، فلم يأخذها، ووجه إليه فلان وفلان فلم يأخذ منها شيئاً، وهو عليل، فالتفت الحربي إليها وتبسّم وقال: يا بنيّة إنما خفت الفقر؟ قالت: نعم، فقال لها: أنظري إلى تلك الزاوية، فنظرت، فإذا كتب، فقال: «هناك اثنا عشر ألف جزء لغة وغريب، كتبتها بخطي، إذا متّ فوجهي في كل يوم بجزء تبيعيه بدرهم، فمن كان عنده اثنا عشر ألف درهم ليس هو فقير» هذه العزّة الفاضلة للأديب، هي التي جعلته أن يرتفع على هبة السلطان، ولولا احساسه بأنه أكبر من هذه الهبة، وبأن العلم أعلى، لما أقدم عليه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يشير هذا الحدث إلى مدى حجم وضخامة مكتبة الحربي، فقد ذكر فقط كتب اللغة وغريبها، فكيف يكون حجم الباقي وعدده؟!

18 - خزانة ثادري الاسقف:

ذكر ابن أبي أصيبعة[1] أنه كان أسقفاً في الكرخ، وكان حريصاً على طلب الكتب، متقرباً إلى قلوب نقلتها، فحصل منها شيئاً كثيراً، وصنّف له قوم من الأطباء النصارى، كتباً لها قدر، وجعلوها باسمه.

19 - خزانة عيسى بن يونس الكاتب الحاسب:

واحد من المهتمين بتحصيل المعرفة، قال عنه صاحب طبقات الاطباء[2]، أنه من جملة الفضلاء بالعراق، وكان كثير العناية بتحصيل الكتب القديمة، والعلوم اليونانية.

20 - خزانة بني موسى بن شاكر المنجّم:

يتحدّث ابن النديم[3] عن هؤلاء الاخوة الثلاثة فيقول: محمود وأحمد والحسن بنو موسى بن شاكر، هؤلاء القوم ممّن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل الرغائب، وأتعبوا فيها نفوسهم، وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها إليهم، فأحضروا النقلة من الأصقاع

(1) طبقات الاطباء/ ص283 - الباب التاسع - طبقات الاطباء النقلة - وكوركيس عواد/ ص209.
(2) المصدر السابق/ نفس المكان.
(3) الفهرست/ ص378 - 379 - وكوركيس عواد/ ص210.

والأماكن بالبذل السني، فأظهروا عجائب الحكمة. وأشار القفطي بأن محمد بن موسى/ أكبر الاخوة/ جمع كتب النجوم والهندسة والعدد والمنطق وكان حريصاً عليها[1]، ومجموعة أخوة علماء، لا شك أنهم يؤلفون فريق عمل متماسك، وهم بهذا يكونون قد أسسوا مكتبة زاهرة عظيمة الشأن، لأنهم كانوا يدفعون الاموال لتحصيل الكتب وترجمتها.

21 - خزانة ثعلب النحوي:

هو أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني، أبو العبّاس ثعلب النحوي، إمام الكوفيين في النحو واللغة والفقه، ولد سنة 200هـ وتوفي سنة 291هـ[2]، كانت له خزانة كتب كبيرة، بيعت بعد وفاته، وقد كان أوصى بها علي بن محمد الكوفي، أحد أعيان تلاميذه، وتقدم إليه في دفع كتبه إلى أبي بكر أحمد بن إسحاق القطربلي، فقال الزجاج للقاسم بن عبيد الله، هذه كتب جليلة فلا تفوتنّك، فأحضر خيران الورّاق، فقوّم ما كان يساوي عشرة دنانير ثلاثة، فبلغت أقلّ من ثلاثمائة دينار فأخذها القاسم بن عبيد[3].

22 - خزانة ابن سعدان:

هو إبراهيم بن محمد بن سعدان المبارك، قال عنه ابن النديم[4]: جمّاعة للكتب، صحيح الخط، صادق الرواية، وذكر عدة تصانيف له، منها: كتاب الخيل، كتاب حروف القرآن، قال كوركيس عواد: هو من الذين عاشوا، في المئة الثالثة للهجرة[5].

23 - خزانة محمد بن الحسين - في حديثه:

عرّفه ابن النديم بقوله[6]: محمد بن الحسين، ويعرف بابن أبي بعره، كان في مدينة الحديثة، وكان جمّاعة للكتب، له خزانة لم أر لأحد مثلها كثيرة، تحتوي على قطعة من الكتب العربية في النحو واللغة والادب والكتب القديمة.

(1) القفطي/ أخبار الحكماء/ ص208 - حرف الميم.
(2) معجم الأدباء لياقوت الحموي 5/ 102 - 104 - الترجمة رقم 27.
(3) معجم الأدباء 5/ 127 وراجع ترجمته أيضاً عند السيوطي/ بغية الوعاة/ ص172 - 173 - باب الاحمدين.
(4) الفهرست/ ص118 - وكوركيس عواد/ ص212.
(5) خزائن الكتب القديمة/ ص212.
(6) الفهرست/ ص60 - 61 - وكوركيس عواد/ ص212 - 213.

قال: فلقيت هذا الرجل دفعات، فأنس بي، وكان نفوراً ضنيناً بما عنده، خائفاً من بني حمدان، فأخرج لي قمطرا كبيرا فيه نحو ثلثمائة رطل جلود، فلجان وصكوك، وقرطاس مصر، وورق صيني، وورق تهامي، وجلود آدم، وورق خراساني، فيها تعليقات عن العرب، وقصائد مفردات من أشعارهم وشيء من النحو والحكايات والاخبار والأسماء والأنساب، وغير ذلك،، وذكر أن رجلاً من أهل الكوفة ذهب عنه اسمه، كان مستهتراً بجمع الخطوط القديمة، وأنه لما حضرته الوفاة خصّه بذلك لصداقة كانت بينهما، وافضال من محمد بن الحسين عليه، ومجانسة المذهب، فإنه كان شيعياً، قال ابن النديم: فرأيتها عجباً، إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملا أدرسها، وأحرفها، وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرج، توقيع بخطوط العلماء واحداً أثر واحدٍ، فذكر فيه خطّ من هو، وتحت كل توقيع توقيع آخر خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض، ورأيت في جملتها/ والكلام لابن النديم/ مصحفا بخط خالد بن أبي الهيّاج صاحب علي ﷺ، ثم وصل هذا المصحف إلى أبي عبدالله بن حاني، ورأيت فيها بخطوط الامامين الحسن والحسين، ورأيت عنده أمانات وعهود بخط أمير المؤمنين علي ﷺ، وبخط غيره من كتاب النبي ﷺ ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء، وأبي عمر الشيباني، والأصمعي، وابن الاعرابي، وسيبويه، والفرّاء والكسائي، ومن خطوط أصحاب الحديث مثل: سفيان بن عينية، وسفيان الثوري، والاوزاعي، وغيرهم، ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود الدؤلي ما هذه حكايته، وهي أربع أوراق، أحسبها من ورق الصين، ترجمتها هذه، فيها كلام في الفاعل والمفعول، من أبي الأسود رحمه الله بخط يحيى بن يعمر، وتحت هذا الخط، بخط عتيق، هذا خط علاّن النحوي، وتحته، هذا خط النضر بن شميل، ثم لمّا مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه، فما سمعنا له خبرا، ولا رأيت منه غير المصحف هذا على كثرة بحثي عنه(1).

وعلى ما يبدو أن خزانة هذا الرجل عامرة بأنفس المصادر وأقدم المخطوطات الإسلامية.

24 - خزانة الحسن بن موسى النوبختي:

هو واحد من مشاهير رجال آل نوبخت في بغداد، وأكثرهم علماً وتأليفاً، حكى عنه ابن النديم وقال: هو أبو محمد الحسن بن موسى بن أخت أبي سهل بن نوبخت، متكلم

(1) الفهرست/ ص61.

فيلسوف، كان يجتمع إليه جماعة من النقلة لكتب الفلسفة، مثل أبي عثمان الدمشقي، وإسحاق، وثابت وغيرهم، وكانت المعتزلة تدّعيه والشيعة تدّعيه، وهو أميل للشيعة، كان جمّاعة للكتب، وقد نسخ بخطّه شيئاً كثيراً، وله مصنفات وتأليفات في الكلام والفلسفة وغيرها[1].

ذكرت المصادر الحديثة، أنه توفيّ سنة 310هـ[2]. بلغت تآليفه 44 كتاباً[3] وأغلبها في الفلسفة وعلم الكلام، والمذاهب والديانات، ومن كانت مؤلفاته بهذا العدد، فكيف يكون حجم خزانته؟

25 - خزانة جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي:

صاحبها كان شافعي المذهب، وكان شاعراً وأديباً وناقداً للشعر، قال عنه ابن النديم: كثير الرواية، له في الفقه عدة كتب ذكرها الفقهاء، أما كتبه الأدبية فهي/ الباهر في الاختيار من أشعار المحدثين، كتاب الشعر والشعراء الكبير، كتاب السرقات، ولم يتمّه، ولو أتمّه، كما يقول ابن النديم، لاستغنى الناس عن كل كتاب في معناه، وكتاب محاسن أشعار المحدثين[4]، وقد احتوت هذه الخزانة على أجل الكتب وأنفسها في المئة الرابعة للهجرة.

26 - خزانة ابن دريد:

ابن دريد هو أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، من أهل البصرة، ومن اشهر علماء عصره في اللغة ونقد الشعر، ولد سنة 223هـ/ 837م، ومات ببغداد سنة 321هـ/ 933م[5]، تتلمذ على يده أبو سعيد السيرافي وأبو عبيدالله المرزباني، وأبو الفرج الاصبهاني، كان يقال عنه: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم السفراء[6]، وقد صنّف تآليف عديدة، ذكرتها جل المصادر التي ترجمت له، وأشهرها «الجمهرة في علم اللغة، والمقصورة والملاحق، والسرج، واللجام، والاشتقاق[7]، وآلت كتبه ومكتبته إلى ورّاقة أبي الحسن علي بن أحمد الدريدي[8].

---

(1) الفهرست/ ص251 - 252.
(2) العلامة محسن الامين - أعيان الشيعة 5/ 320.
(3) راجع عن ذلك - الفهرست/ ص252 - وأعيان الشيعة 5/ 320 - 321 - وكوركيس عواد/ ص214.
(4) الفهرست/ ص213 - وكوركيس عواد/ ص215.
(5) معجم الأدباء 17/ 126 - 143.
(6) المصدر السابق 17/ 128 - 129.
(7) نفس المصدر السابق 17/ 136.
(8) كوركيس عواد/ ص215.

27 - خزانة أبي بكر بن الأنباري:

هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن بيان بن سماعة بن فروة بن قطن بن دعامة أبو بكر بن الانبارى، ولد سنة 271هـ/ وتوفي سنة 328هـ[1]. كان من أهل العلم والادب والفقه، صنّف علوماً كثيرة في علوم القرآن وغريب الحديث وغير ذلك، ذكر عنه أنه كانت لديه خزانة كتب قيّمة، وكان يحفظ 300 ألف بيت وشاهد في القرآن، وكان يحفظ 120 ألف تفسير بأسانيدها، حتى أن أبو الحسن العروضي سأله ذات مرّة: قد أكثر الناس في حفظك، فكم تحفظ؟ فقال: ثلاثة عشر صندوقاً، وهذا ما لم يحفظه أحد قبله أو بعده[2].

28 - خزانة ابن عقدة في الكوفة:

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمن الكوفي، المتوفى سنة 332هـ/ 943م كان أبو العباس واحداً من الحفظة المشهورين، نقل الخطيب البغدادي عنه قائلاً: دخل البرديجي الكوفة، فزعم أنه أحفظ منّي، فقلت: لا تطوّل، فتقدم إلى دكان ورّاق، وتضع القبان، وتزن من الكتب ما شئت، ثم تلقي علينا فنذكره فبقي مدهوشاً[3]، وعرف عنه أنه كان يحفظ أكثر من 300 ألف حديث من حديث أهل البيت خاصة، لأنه كان زيدياً[4]، وعلى هذا الأساس، فإن رجلاً من هذا الطراز، وعلى هذه الحافظة الجيّدة، فبالضرورة أن تكون مكتبته عامرة بأنفس الكتب، وذكرت مكتبته على النحو التالي: قال الصوري: قال لي أبو سعيد الماليني، أراد أبو العباس بن عقدة أن ينتقل من الموضع الذي كان فيه إلى موضع آخر، فاستأجر من يحمل كتبه وشارط الحمّالين أن يدفع لكل واحد منهم دانقاً لكل كرّة، فوزن لهم أجورهم، مائة درهم، وكانت كتبه ستمائة حمل[5].

29 - خزانة أبي بكر الصولي:

الصولي، هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبدالله بن العباس بن محمد بن صول تكين، الكاتب المعروف، بالصولي الشطرنجي، أحد أشهر الاعلام في (ق 4هـ)، ولد ببغداد،

---

(1) ابن الجوزي - المنتظم - 6/ 311 - 315.
(2) ابن الجوزي - المنتظم 6/ 212 - 213 - والسيوطي/ بغية الوعاة/ ص91 - 92 - وكوركيس عواد/ ص216.
(3) تاريخ بغداد 5/ 16.
(4) المصدر السابق/ نفس المكان. والمنتظم 6/ 337.
(5) تاريخ بغداد 5/ 18 - والمنتظم 6/ 337 - وكوركيس عواد/ ص217.

ونشأ بها، كان من الأدباء الظرفاء والجمّاعين للكتب[1]، ذكرت غالبيّة المصادر التي ترجمت له خزانة كتبه، قال الخطيب البغدادي: قال الازهري، سمعت أبا بكر بن شاذان يقول: رأيت للصولي، بيتاً عظيماً مملوءاً بالكتب، وهي مصفوفة، وجلودها مختلفة الالوان، كل صنف من الكتب لون، فصنّف أحمر وآخر أخضر وآخر أصفر وغير ذلك، قال: وكان الصولي يقول: هذه الكتب كلها سماعي[2]، ولقد كان مولعاً بالكتب كولع الجاحظ بها حتى أن أبا سعيد العقيلي قال فيه[3]:

انما الصولي شيخ أعلم الناس خزانة
فإذا تسأله مشكلة طالبا منه ابانة
قال: يا غلمان هاتوا رزمة العلم فلانة

وهذه الأبيات توضّح مدى الدقة والتنظيم لمكتبته، حتى أنه جعل الغلمان المرتبين لها وفق رؤيته وهو الأعلم من غيره بأهمية الكتاب وفائدته.

30 - خزانة هرون بن المقتدر:

هو أخو الخليفة الراضي بالله، أنشأ خزانة كتب منذ صباه، قال عنه الصولي أنه عمل هو وأخوه الراضي خزانة كتب[4]، كان عاملاً على فارس وعزله القاهر سنة 320هـ.

31 - خزانة علي بن أحمد العمراني بالموصل:

عالم من أهل الموصل، كان عاشقاً للأدب ومن أهله المهتمين به، وصفه ابن النديم[5]، بأنه كان جمّاعة للكتب يقصده الناس من المواضع البعيدة للقراءة عليه، كانت وفاته سنة 344هـ، وإضافة إلى عشقه للادب كان عالماً بالحساب والهندسة، وألف كتباً منها شرح كتاب الجبر والمقابل لأبي كامل شجاع بن أسلم - الحاسب المصري، وكتاب الاختيارات، وعدة كتب في النجوم[6].

---

(1) الفهرست/ ص215.
(2) تاريخ بغداد 3/ 431 - وراجع المنتظم 6/ 359 - 361 - والفهرست/ ص215 - 216.
(3) تاريخ بغداد 3/ 432.
(4) الصولي/ كتاب الاوراق/ أو أخبار الراضي والمتقي/ ص191 طبعة القاهرة 1935 - وكوركيس عواد/ ص220.
(5) الفهرست/ ص394.
(6) القفطي/ أخبار الحكماء/ ص157 - وكوركيس عواد/ ص221.

32 - خزانة ابن الكوفي:

هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبيد بن الزبير الاسدي مولده سنة 254هـ، وتوفي سنة 348هـ/ أحد المهتمين بجمع الكتب وأرباب الهوى فيها، صنّف جملة من الكتب في اللغة والأدب والنحو، كما أنه كان من أصحاب الخط المعروف بالصحة المشهور باتقان الضبط وحسن الشكل، وكان من أجلّ أصحاب ثعلب صنّف الهمزة ومعاني الشعر والفرائد والقلائد في اللغة[1].

33 - خزانة ابن الجعابي:

قاضي الموصل أبو بكر محمد بن عمر المعروف بابن الجعابي، راوية للحديث حفاظة له، مات ببغداد سنة 355هـ/ 965م، جمع خزانة كتب آل مصيرها إلى التلف، له تصانيف عديدة في علوم الحديث، كان أبو علي الحافظ يقول عنه: ما رأيت في البغداديين أحفظ منه[2]، روى عنه ابن الجوزي حادثة طريقة تنمّ عن مدى قوة حفظه للحديث، قال: يقول الجعابي: دخلت الرقة وكان لي ثمة قمطر من كتب، فأنفذت غلامي إلى ذلك الذي كتبي عنده، فرجع الغلام مغموماً فقال: ضاعت الكتب، فقلت يا بني: لا تغتم، فإن فيها مائتا ألف حديث لا يشكل عليّ منها حديث لا اسنادا ولا متنا[3]، وكان من وصيته قبل الموت أن تحرق كتبه فأحرقت بعد وفاته.

34 - خزانة الحبشي بن معز الدولة البويهي - في البصرة:

كان هذا الرجل، عصى أخاه بختيار، وتمسّك بالبصرة، فأخرج منها بحيلة، وصودرت أملاكه وأمواله، ومن جملة ما صودر خمسة عشر ألف مجلّد من الكتب[4].

35 - خزانة أحمد بن محمد الجرّاح:

واحد من الثقاة، فاضل، من أصحاب الثروة، وأحد المشاهير من الفرسان في زمانه، توفّي 381هـ/ 991م، كان كثير الكتب وهو القائل: كتبي بعشرة آلاف درهم، وجاريتي بعشر آلاف درهم، وسلاحي بعشرة آلاف درهم ودوابي بعشرة آلاف درهم[5].

---

(1) السيوطي/ بغية الوعاة/ ص350 والفهرست/ ص117 - 118.
(2) ابن الجوزي - المنتظم 7/ 37 - والخطيب البغدادي - تاريخ بغداد 3/ 31 - 32.
(3) المنتظم 7/ 37.
(4) ابن الاثير - الكامل في التاريخ 8/ 583 - 584، أحداث سنة 357هـ.
(5) المنتظم 7/ 165 وتأريخ بغداده 5/ 81 - 82 - الترجمة رقم 2470 - كوركيس عواد/ ص223.

36 - خزانة محمد بن العبّاس بن الفرات:

وصفه الخطيب البغدادي قائلاً: كان ثقة، كتب الكثير وجمع ما لم يجمعه أحد في وقته، وأضاف: ويلغني أنه كان عنده مائة تفسير ومائة تاريخ، وخلّف ثمانية عشر صندوقاً مملوءة كتباً أكثرها بخطه، سوى ما سرق من كتبه، وكانت له أيضاً سماعات كثيرة لم ينسخها(1).

37 - خزانة ابن طازاذ:

هو أبو سعيد وهب بن إبراهيم بن طازاذ، أحد الأدباء والكتّاب، شاهدهُ ابن النديم وقال عنه (فاضلاً أديباً مترسلاً، جمّاعة للكتب النفيسة)(2).

38 - خزانة ابن حاجب النعمان:

هو أبو الحسين عبد العزيز بن ابراهيم، كان أبوه حاجب النعمان أبي عبدالله الكاتب، أثنى عليه ابن النديم بقوله: كان أحد أفراد الزمان في الفضل والنبل ومعرفة كتابة الدواوين، كان إليه في أيام معزّ الدولة ديوان السواد، ولم يشاهد خزانة للكتب أحسن من خزانته، لأنها كانت تحتوي على كل كتاب عين، وديوان فرد بخطوط العلماء المنسوبة، وله من الكتب كتاب نشوة النهار في أخبار الجوار، وكتاب الصبوة، وكتاب أشعار الكتّاب، وكتاب أخبار النساء ويعرف بكتاب ابن الدكاني، وكتاب الغرر ومجتبى الزهر، وكتاب أنس ذوى الفضل في الولاية والعزل(3).

39 - خزانة ابن النديم:

هو من أشهر الورّاقين والاخباريين اسمه: أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم، اشتهر بكتابه «الفهرست» الذي جوّد فيه واستوعب استيعاباً يدلّ على اطلاعه على فنون من العلم وتحقيقه لجميع الكتب - كما يقول ياقوت الحموي(4)، كان ورّاقا يبيع الكتب، صنّف من

(1) تاريخ بغداد 3/ 122 - 123 - الترجمة رقم 1140 - والمنتظم 7/ 176 - 177 - وكوركيس عواد/ ص224.
(2) الفهرست/ ص189.
(3) الفهرست/ ص193.
(4) معجم الأدباء 18/ 17.

الشيعة المعتزلية، وله من التصانيف كتاب الفهرست وكتاب التشبيهات[1] كانت له خزانة كتب قيّمة تحوى من الكتب أندرها وأنفسها، فهو ذلك الورّاق الحاذق الذي يعرف كيف يختار الكتاب، ولو ألقينا نظرة فاحصة على كتابه/ الفهرست/ لعلمنا كم من الكتب استطاع أن يضمّها إلى مكتبته، لا سيما وأن الكثير من هذه الكتب كان قد ذكرها وذكر مؤلفيها.

40 - خزانة أبي خليفة في البصرة:

كانت له دار كتب في البصرة موصوفة ذكرها القاضي التنوخي في (النشوار)[2].

41 - خزانة لأحد الرؤساء:

جاء ذكر هذه الخزانة في سياق الحديث عن المعافى بن زكريا، حيث ذكر ياقوت الحموي أن أحمد بن عمر بن روح، ذكر عنه: أن حضر في دار بعض الرؤساء، وكان هناك جماعة من أهل العلم فقالوا له: في أي نوع من العلم نتذاكر؟ فقال المعافى للرئيس صاحب الدار: أن خزانتك جمعت أنواع العلوم وأصناف الادب، فإن رأيت أن تبعث الغلام إليها يضرب بيده إلى أيّ كتاب منها فيحمله إليك، ثم نفتحه، فننظر في أي علم هو فنتذاكر ونتجارى فيه، ويعلّق ابن روح قائلاً: وهذا يدلّ على أن المعافى كان له أنسة بسائر العلوم[3] ولكنه لم يذكر اسم صاحب الدار، فراح اسمه عنّا.

42 - خزانة مجهولة الصاحب:

جاء ذكرها على لسان أبي الفرج الاصبهاني، قال: كنت في أيام الشبيبة والصبا، آلف فتى من أولاد الجند في السنة التي توفّي فيها معز الدولة وولي بختيار، كان محبّا للادب ويميل إلى أهله، ولم يترك قريحته، حتى عرف صدراً من العلم، وجمع خزانة من الكتب حسنة فمضت لي معه سير، لو حفظت لكانت في كتاب مفرد[4]، ولم يسمّه.

43 - خزانة أبي سليمان المنطقي:

ذكرها ابن النديم، في سياق/ المقالة السابعة/ الفن الأول - مشيراً على خزائن الفرس

(1) المصدر السابق/ نفس المكان - وكوركيس عواد/ ص225 - 226.
(2) كوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة/ ص226.
(3) معجم الأدباء 19/ 153 - الترجمة رقم 49.
(4) معجم الأدباء 13/ 117 - ترجمة أبي الفرج الاصبهاني - الترجمة رقم 17.

والروم وغيرهم، معرّجاً على الشيء الكثير منها عن أبي سليمان السجستاني[1] ذلك المنطقي المشهور، ورأس مناطقة بغداد، في (ق 4هـ)، واسمه: محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، قد أجمع كافة العلماء على إمامته في علوم الفلسفة والمنطق وغيرها في عصره[2].

44 - خزانة الشريف الرّضي:

الشريف الرضيّ، غنيّ عن التعريف والبيان، قطب من أقطاب الثقافة في (ق 4هـ)، ولشعره مكانة عظيمة في نفوس الأدباء ونقّاد الشعر ومتذوّقي الادب، توفيّ ببغداد سنة 406هـ/ 1015م أنشأ مؤسسة ثقافية سمّاها «دار العلم» وكان ينفق على تلامذتها من ماله الخاص، ويلقي فيها المحاضرات، منها «خزانة كتب» حافلة وتعدّ من الخزائن الكبرى ببغداد[3].

45 - خزانة ابن الخفاف:

هو محمد بن الحسين بن إبراهيم بن محمد، أبو بكر الورّاق، المعروف بابن الخفّاف توفيّ سنة 418هـ/ 1027م كان من رجال الحديث ببغداد، قال الخطيب البغدادي عن مكتبته: قال لي ابن الخفاف: «احترق سوق باب الطاق[4] فاحترق من كتبي ألف وثمانون منّا كلها سماعي»[5].

46 - خزانة البرقاني:

هو أبو بكر أحمد بن محمد، بن غالب الخوارزمي المعروف بالبرقاني، سكن بغداد وتوفيّ فيها سنة 425هـ/ 1033م، كان عالماً ثبتاً بالحديث، حافظاً للقرآن، عارفاً بالفقه، دار الأقطار في سماع الحديث وكتابته عن كبار العلماء[6] كانت له خزانة كتب كبيرة، ذكر

(1) الفهرست/ ص336 - وأبو حيان التوحيدي - الامتاع والمؤانسة 1/ 29 - الليلة الثانية - بتصحيح أحمد أمين وأحمد الزين - القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - 1939م.

(2) كوركيس عواد/ ص228 - 230.

(3) كوركيس عواد/ ص231.

(4) باب الطاق/ محلة كبيرة بالجانب الشرقي من بغداد، بين الرصافة ونهر المعلى، والتسمية منسوبة إلى «أسماء بنت المنصور» وعند هذا الطاق كان مجلس الشعراء في أيام الرشيد، - ياقوت الحموى/ معجم البلدان 4/ 5 مادة «طاق أسماء».

(5) تاريخ بغداد 2/ 250 - 251 - وكوركيس عواد/ ص232.

(6) كوركيس عواد/ ص232.

الخطيب البغدادي أنه عندما انتقل من الكرخ إلى قرب باب الشعير[1] أوصى أحمد بن غانم الحمامي أن يشرف على حمّالي كتبه وأن يقول إذا سؤل عنها أنها دفاتر لئلا يظنّ أنها ابريسم، وكان عددها ثلاثة وستين سفطا[2] وصندوقين، كل ذلك مملوء كتبا[3].

47 - خزانة الشريف المرتضى:

هو أبو القاسم علي الموسوي الحسيني، نقيب الطالبيّين، ولد ببغداد سنة 355هـ/ 965م وكان أوحد زمانه بالادب والعلم، ألّف الكثير من الكتب أشهرها/ الأمالي/ كانت له خزانة كتب نفيسة وهامّة، ذكر أبو القاسم التنوخي، قال: حصرنا كتبه/ يقصد الشريف المرتضى/ فوجدناها ثمانين ألف مجلّد من مصنفاته ومحفوظاته ومقروآته، قال صاحب «عمدة الطالب» ولم أسمع بمثل هذا، يقصد حجم المكتبة - الا ما يحكى عن الصاحب بن إسماعيل بن عبّاد[4].

48 - خزانة أبي الحسن الفالي:

هو علي بن أحمد بن سلك الفالي، وفالة: بلدة قريبة من ايذج من بلا د خوزستان، انتقل إلى البصرة فأقام بها مدة وسمع علمائها، ثم قدم بغداد فاستوطنها ومات بها سنة 448هـ/ 1056م[5]، وكان من الثقاة، له معرفة بالأدب والشعر، تحدّث الاوائل عن خزانته، وما حوته من المصادر القيّمة، فقد ذكر الخطيب التبريزي، أبو زكريا، أنه رأى نسخة من كتاب «الجمهرة» لابن دريد، باعها أبو الحسن الفالي بخمسة دنانير من القاضي أبي بكر بن بديل التبريزي، وحملها إلى تبريز، فنسخت أنا منها نسخة، فوجدت في بعض المجلّدات رقعة بخطّ الفالي فيها:

«أنست بها عشرين حولا وبعتها ... فقد طال شوقي بعدها وحنينيّ
وما كان ظنّي أنني سأبيعها ... ولو خلّدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبية ... صغار عليهم تستهل شؤوني[6]

---

(1) باب الشعير/ محلة ببغداد - الكرخ - فوق مدينة المنصور - ياقوت: معجم البلدان 1/ 308/ مادة (باب الشعير).

(2) السفط/ وعاء يشبه القفة، أو كالجولق.

(3) تاريخ بغداد 4/ 375 - الترجمة رقم 2247 - وابن كثير البداية والنهاية 12/ 46. والمنتظم 8/ 80.

(4) ابن عنبه/ عمدة الطالب في نسب آل أبي طالب/ ص206.

(5) تاريخ بغداد 11/ 334 - وكوركيس عواد/ ص235.

(6) الشئون = الدموع، وأصلها طرائق الدمع.

فقلت ولم أملك سوابق عبرة ... مقالة مشوى الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أمّ مالك ... كرائم من ربّ بهنّ ضنين

قال التبريزي: فأريت القاضي أبا بكر الرقعة والأبيات، فتوجّع وقال: لو رأيتها قبل هذا لرددتها عليه، وكان الفالي قد مات[1]، فانظر إلى أي مدى كان الناس يولعون بكتبهم؟!

49 - خزانة الخطيب البغدادي:

الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، الفقيه الحافظ، أحد الائمة المشهورين، والمصنّفين الكبار المكثرين، توفيّ سنة 463هـ/ 1070م[2]، وكتابه/ تاريخ بغداد/ موسوعة تاريخية وأدبية وفقهية هامة، حيث رصد فيه رجال الحديث وأخبارهم، وما يتعلق بالحياة السياسية في وقتهم، وهذا الكتاب مرجع ومصدر، لا يمكن الاستغناء عنه، بالنسبة للباحث في تاريخ بغداد العباسي في (ق 4هـ) وما قبله. قال المؤتمن الساجي: ما أخرجت بغداد بعد الدارقطني أحفظ من الخطيب[3]، بلغت كتبه التي ألّفها «ستة وخمسون مصنّفاً» بعيدة المثل، ذكر ياقوت أغلبها[4]، وقد أوقف كتبه على المسلمين وسلمها إلى أبي الفضل بن خيرون، ثم صارت إلى ابنه الفضل، فاحترقت في داره[5].

50 - خزانة مسعود بن ناصر الشجري:

واحد من حفّاظ الحديث وعلمائه، أقام مدة في بغداد يدور على الشيوخ ليسمع منهم، قال عنه ابن الجوزي: أنه حصل على كتب كثيرة، ونسخ نفيسة، وكان هو حسن الخط، صحيح النقل، حافظاً ضابطاً، متقناً ومكثراً، وأوقف كتبه في مسجد عقيل[6].

---

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 12/ 228 - 229 - الترجمة رقم 60 - والسمعاني - الانساب 9/ 233 مادة الفالي.

(2) أنظر ترجمته عند ياقوت الحموي - معجم الأدباء 4/ 13 - 45 - الترجمة رقم 2 - والمنتظم لابن الجوزي 8/ 265 - 270 - وتذكرة الحفاظ 3/ 1135 - 1146 - الترجمة رقم 1015/ 14. وشذرات الذهب 3/ 311 - حوادث سنة 463.

(3) معجم الأدباء 4/ 18.

(4) المصدر السابق 4/ 19 - 21 - والمنتظم 8/ 265.

(5) المنتظم 8/ 269 - ومعجم الأدباء 4/ 44 - 45 وبقية المصادر المذكورة في ترجمته، وكوركيس عواد/ ص236.

(6) المصدر السابق 9/ 13 - وكوركيس عواد/ ص237.

51 - خزانة غرس النعمة الصابىء :

هو أبو الحسن محمد بن هلال الصابىء، الملّقب بغرس النعمة، وأبوه هلال، المؤرخ المشهور، صاحب كتاب «تحفة الامراء في تاريخ الوزراء، ورسوم دار الخلافة، والتاريخ، وغير ذلك، ونشأ الابن على غرار أبيه في حبّ العلم والاقبال على التأليف، فصنّف كتباً في التاريخ والادب ومنها كتاب مشهور اسمه (الهفوات النادرة) توفيّ ببغداد سنة 480هـ/ 1087م.

أنشأ غرس النعمة داراً للكتب بالجانب الغربي من بغداد، في شارع ابن أبي عوف، وقد حوت هذه الدار على عدة خزائن من الكتب ذكرتها المصادر، منها : ذكر ابن الجوزى/ في أحداث سنة 452هـ أنه في رجب من هذه السنة، وقف أبو الحسن محمد بن هلال الصابي دار كتب، ونقل إليها نحو ألف كتاب[1] وقد برر غرس النعمة ذلك بسبب معرفي، ينطلق من كونه يحسّ مسؤوليته إزاء الثقافة، فقد ذكر ابن الجوزي أن السبب الذي دعاه إلى ذلك، هو أن الدار التي أوقفها سابور «بن أرد شير» والمعروفة «بدار العلم»[2] والواقعة بين السورين قد احترقت، ونهب أكثر ما فيها، بعثه الخوف/ يقصد غرس النعمة/ على ذهاب العلم[3]، وهذا الموقف، لا يقفه إلاّ من يدرك أهمية العلم في رفع الحضارة وتقدمها. وقد ذكر ابن كثير، أن غرس النعمة، وقف بهذه الدار 4 آلاف مجلد في فنون من العلوم[4].

وقد رتّب غرس النعمة بهذه الخزانة، خازناً من ذوي المعرفة، يعرف بـ«ابن» الاقساسي العلوي، وتكرر العلماء اليها، إلى الخزانة والدار، سنين كثيرة[5]، وقد كانت هذه الدار ملتقى العلماء والادباء، يتطارحون فيها المعارف ويقيمون فيها ندوات الجدل، فقد ذكر أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي قال: حضرنا يوماً بدار الكتب، التي بشارع ابن أبي عوف، فتذاكرنا أمر العقل وتحسينه وتقبيحه[6]. فانظر مدى أهمية هذه المكتبة للعلم والعلماء والعامة.

---

(1) المنتظم 8/ 216 - وكوركيس عواد/ ص238.
(2) راجع الباب الرابع - الفصل الرابع - من هذا البحث، حيث تطرقنا إلى هذه الخزانة.
(3) ابن الجوزي - المنتظم 8/ 216.
(4) البداية والنهاية 12/ 134.
(5) المنتظم 9/ 42 - 43.
(6) كوركيس عواد/ ص239.

52 - خزانة عبد السلام بن بندار القزويني:

هو أبو يوسف عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزويني، الحنفي المعتزلي، المتوفى سنة 488هـ/ 1095م. سمع العلم من القاضي عبد الجبار بن أحمد امام الاعتزال[1]. عرف عنه أنه من كبار المفسرين، فقد فسّر القرآن في عدة مجلدات، قال بعضهم أنه في ثلثمائة مجلّدة، سبعة منها في الفاتحة[2]، ومنهم من قال: أنها سبعمائة مجلّدة[3]، وقد كانت خزانة كتبه واحدة من النوادر، فقد ذكر أبو الوفاء القرشي، أنه حصل كتباً لم يملك أحد مثلها، حصلها من مصر وغيرها، وبيعت كتبه في سنين، زادت على أربعين ألف مجلد، ثم ذكر أنه ورد بغداد/ يقصد القزويني/ ومعه عشرة جمال تحمل دفاتر، وأكثرها بالخطوط المنسوبة/ الثلث والنسخ والديواني وغيرها/ ومن الاصول المخبورة في أنواع العلوم[4].

53 - خزانة الحميدي:

هو أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي الحميدي، المغربي الاندلسي، المتوفى سنة 488هـ/ 1095م في بغداد، تتلمذ على يد الخطيب البغدادي، كان من أهل العلم والفضل والتيقظ، قال عنه ابن ماكولا: لم أر مثله في عفته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم[5] وهو يتمسّك بهذا المنسك عملاً وقولاً، فقد قال[6]:

لقاء الناس ليس يفيد شيئا ... سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا ... لأخذ العلم أو لصلاح حال

يحكي عنه ابن الجوزي فيقول[7] كتب من مصنفات ابن حزم الكثير، وكتب تصانيف الخطيب، وصنّف فأحسن، ووقف كتبه على طلبة العلم، ففتح الله بها. وقد جمع خزانة قيّمة، ورّتب لها «ثبتا» اطلع عليه ابن الجوزي، وشاهد مكتبتهِ بأم عينه[8].

(1) ابن حجر العسقلاني - لسان الميزان 4/ 11 - الطبعة الاولى - حيدر آباد - سنة 1330هـ.
(2) الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية/ لابن أبي الوفاء القرشي 1/ 316 - طبعة 1 - حيدر آباد - الهند.
(3) السبكي - طبقات الشافعية الكبرى 3/ 230.
(4) الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية 1/ 316.
(5) ابن بشكوال/ كتاب الصلة، 2/ 560 - الترجمة رقم 1230/ منشورات الدار المصرية 1966م.
(6) المصدر السابق 2/ 561.
(7) المنتظم 9/ 96.
(8) صيد الخاطر - لابن الجوزي/ ص367/ بعناية محمد أمين الخانجي - ط1، مصر - سنة 1345هـ/ 1927م.

54 - خزانة ابن جزلة:

هو أبو علي يحيى بن عيسى بن جزلة، الطبيب البغدادي، المتوفى سنة 473/ وقيل 493هـ/ 1080 أو 1099م، له من التآليف الحسنة في الطب أشهرها: تقويم الابدان، ومنهاج البيان فيما يستعمله الانسان، كان نصرانياً وأسلم على يد القاضي أبو عبدالله الدامغاني، ولما مرض مرض موته، وقف كتبه في مشهد الإمام أبي حنيفة[1].

55 - خزانة القاضي أبي الفرج بن أبي البقاء في البصرة:

هو محمد بن عبيدالله بن الحسن بن الحسين البصري، قاضي البصرة، والمتوفى فيها سنة 499هـ/ 1105م[2]، وقد نبّه ابن الاثير إلى هذه الخزانة في سياق حديثه عن نهب وحرق الاسواق في البصرة سنة 499هـ حيث قال: . . . ونهبت خزانة كتب كانت موقوفة، وقفها القاضي أبو الفرج بن أبي البقاء[3].

56 - خزانة دار الروم في بغداد:

هي، على حدّ وصف ياقوت الحموي لها: بيعة[4] كبيرة، حسنة البناء، محكمة الصنعة، للنسطورية خاصة، وهي ببغداد، في الجانب الشرقي منها، والأصل في هذا الاسم ان أسرى من الروم قدم بهم إلى المهدي وأسكنوا داراً في هذا الموضع فسميت بهم، وبنيت البيعة هناك[5]، كان في هذه الدار خزانة كتب جمعت في أيام بعض الجثالقة، نهبت في وقت ما في زمن الجاثليق/ ماريرصوما/[6].

57 - خزانة أبي سعيد بن المعوّج:

كان هذا الرجل قد تولى ديوان المستظهر بالله، وقد أصابت هذا الرجل محنة، اضطر

---

(1) القفطي/ أخبار الحكماء/ ص239 - 240 - ومرآة الزمان/ لسبط ابن الجوزي/ حوادث سنة 493هـ/ مخطوط.

(2) ابن الجوزي - المنتظم 9/ 147 - 148.

(3) الكامل في التاريخ 10/ 411 - وكوركيس عواد/ ص244.

(4) البيعة/ معبد النصاري، أنظر: تاج العروس - مادة (بيع) باب العين.

(5) معجم البلدان 2/ 511 - مادة - ديرالروم - وكوركيس عواد/ ص246.

(6) كوركيس عواد/ ص246.

معها إلى رهن كتبه على خمسمائة دينار، ثم استفكت الكتب من مال الخليفة بشفاعة ابن الواسطي، طبيب المستظهر[1].

58 - خزانة ثابت بن منصور بن المبارك الكيلي:

نسبه ياقوت الى قرية «جيل» ويسمونها الكيل، تقع تحت المدائن، من أعمال بغداد[2]، وصف بأنه من الذين عنوا بالحديث، وقراءة القرآن، وجمع خزانة كتب، توفيّ في سنة 529هـ/ 1034م أو السنة التي قبلها، وقد أوقف كتبه قبل موته[3].

59 - خزانة عبد الوهاب الانماطي:

هو أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد بن الحسن الانماطي[4]، أحد كبار علماء الحنابلة، ومن كبار شيوخ الحديث، توفي سنة 358هـ/ 1143م، كان من أشهر تلاميذه ابن الجوزي، وقد وقف هذا الاخير على خزانة كتب الانماطي ووقف على ثبتها وقال عنه: أنه كان سهلاً في اعارة الاجزاء لا يتوقف[5].

60 - خزانة سعد الخير الأندلسي:

هو أبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد المغربي الاندلسي الأنصاري، توفي سنة (541هـ/ 1146م) خرج من الاندلس، وطاف في بلاد كثيرة منها بلاد الصين، وركب البحر وقاسى الشدائد، ودخل بغداد وأقام فيها إلى أن مات، وتفقّه على يد أبي حامد الغزالي، وسمع الحديث من خلق كثير، وقرأ الأدب، وقد حصل له كتباً كثيرة ونفيسة[6].

61 - خزانة عبدالله بن علي بن أحمد بن عبدالله:

هو أبو محمد المقرىء، سبط أبي منصور الزاهد، أحد العلماء في القراءات ببغداد توفي فيها سنة 541هـ/ 1146م، قال عنه ابن الجوزي: سمع الشيوخ الكبار، وصنّف كتباً

---

(1) طبقات الاطباء/ ص344.

(2) معجم البلدان 2/ 202 - مادة (الجيل).

(3) ابن الجوزي - المنتظم 10/ 52 وشذرات الذهب 4/ 93، وكوركيس عواد/ ص247.

(4) الانماطي - نسبة إلى بيع الانماط، وهي الفرش التي تبسط - السمعاني - الانساب 1/ 376.

(5) ابن الجوزي/ صيد الخاطر/ ص367 - وشذرات الذهب 4/ 117 - 118 - وكوركيس عواد/ ص248.

(6) ابن الجوزى/ المنتظم 10/ 121 - وكوركيش عواد/ ص248.

في القراءات، وقرأ عليه الخلق الكثير، وعرفته المساجد، وختم ما لا يحصى، ويقول ابن الجوزي أيضاً: وقرأت عليه القراءات والحديث الكثير، ولم أسمع قارئا قط أطيب صوتاً منه، وجمع الكتب الحسان[1].

62 - خزانة محمد بن ناصر البغدادي:

هو أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي بن عمر البغدادي الحافظ، المتوفى سنة 550هـ/ 1155م. أشرف هذا الرجل على ابن الجوزي، وتولّى سماع الحديث له، ويثبت ما هو صحيح له[2]، وتحدث عنه ابن النجار بالقول: كان ثقة، ثبتا، حسن الطريقة متديناً، فقيراً عفيفاً، نظيفاً نزهاً، وقف كتبه، وخلّف ثياباً خلقة وثلاثة دنانير ولم يعقب[3].

لم تذكر المصادر حجم كتبه ومكتبته، وعلى ما يبدو، أن ضعف حالته الاقتصادية لم تمكّنه من شراء الكثير من الكتب، رغم أن تلميذه ابن الجوزي أشار على أنه اطلع على ثبت كتبه لكنه لم يذكر عنها شيئاً ولو يسيراً[4].

63 - خزانة ابن المرخّم القاضي:

هو أبو الوفاء سديد الدين يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر، قاضي قضاة بغداد، أيام المقتفي العباسي، وصَفَهُ ابن الجوزي بأنه «أخذ الرشاء في الحكم» وضرب واستصفيت أمواله وضرب وعذّب، فلم يقرّ، فضرب ابنه فأقرّ بأموال كثيرة، وأحرقت كتبه في الرحبة، وكان منها كتاب الشفاء واخوان الصفاء، وحبس ومات في الحبس سنة 555هـ/ 1160م[5].

64 - خزانة ابن التلميذ:

هو أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن التلميذ، الطبيب النصراني النسطوري، المتوفى ببغداد سنة 560هـ/ 1164م، وكان هذا واحداً من أشهر أطباء زمانه، جمع بين المعارف

(1) المنتظم 10/ 122.
(2) المنتظم 10/ 162 - 163.
(3) شذرات الذهب 4/ 155.
(4) صيد الخاطر/ ص367 - وكوركيس عوّاد/ ص249.
(5) المنتظم 10/ 194، وابن الأثير: الكامل في التاريخ 11/ 258، حوادث سنة 555، وكوركيس عواد/ ص250.

المتفرقة والعلوم المتباينة من طب وفلسفة وأدب ونحو وترسل وشعر وموسيقى، كانت له خزانة كتب كبيرة، بعضها بخطّه الجميل، فقد كان جيّد الكتابة، يكتب الخط المنسوب، وهو في نهاية الحسن كما يقول ابن أبي أصبيعة، وكان خبيراً باللسان السرياني والفارسي ومتبحراً في اللغة العربية[1]، وقد كانت له كتب قيّمة في الطب وعلومه والادب والشعر وغيره، وقد ذكرها ابن أبي أصيبعة في نهاية ترجمته له[2]. توفيّ عن عمر يناهز الرابعة والتسعين، ومات نصرانياً، وقد خلف نعما كثيرة وأموالاً جزيلة وكتباً لا نظير لها في الجودة، فورث جميع ذلك ولده، وبقي مدة، ثم أن هذا الولد خنق في دهليز داره، وأخذ ماله، ونقلت كتبه على اثني عشر جملاً إلى دار المجد بن الصاحب[3].

65 - خزانة ابن الخشاب البغدادي:

هو أبو محمد عبدالله بن أحمد بن الخشاب البغدادي الحنبلي، المتوفى سنة 567هـ/ 1171م، كان أعلم أهل زمانه بالنحو، وله معرفة بالحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسفة والحساب، والهندسة، وكان يكتب خطّاً مليحاً، وصنّف كتباً عديدة، منها انتقاده على مقامات الحريري[4].

حوى هذا العالم النحوي خزانة كتب قيّمة جداً، وقد ذكر أنه إذا حضر سوق الورّاقين، وأراد شراء كتاب، غافل الناس وقطع منه ورقة، وقال أنه مقطوع، ليأخذه بثمن بخس، وإذا استعار من أحد كتاباً وطالبه به قال: دخل بين الكتب فلا أقدر عليه، ولما توفّي أوصى أن توقف كتبه على أهل العلم[5]، وقد ذكر ابن الجوزي أنه وقف على ثبت خزانة ابن الخشاب واطلع على كتبها الكثيرة، والتي تعدّ أحمالاً[6]. وأديب مثل هذا، يتعرض لواحد من مشاهير عصره، كالحريري فحتماً يكون قد أطلع على آداب كثيرة وجمع أمهات الكتب.

66 - خزانة ابن الدهّان النحوي:

هو أبو محمد سعيد بن المبارك، المعروف بابن الدهّان النحوي، ولد ببغداد سنة

(1) طبقات الأطباء/ ص349.
(2) المصدر السابق/ ص 371.
(3) نفس المصدر/ ص355. وكوركيس عواد/ ص250.
(4) نشرت هذه الرسالة في نهاية كتاب مقامات الحريري، وردّ عليه ابن بري.
أنظر: مقامات الحريري - الطبعة المصرية الحسينية، 1348هـ/ 1929م.
(5) بغي الوعاة/ ص277.
(6) صيد الخاطر/ ص367. وكوركيس عواد/ ص253.

494هـ/ 1100م بمحلة «نهر طابق» ببغداد، وتوفيّ بالموصل سنة 569هـ/ 1173م، وصف بأنه سيبويه عصره، أورد ياقوت أسماء تصانيفه العديدة - حوالي 20 كتاباً[1]، ذكر الصفدي أن كتبه غرقت في بغداد وهو غائب، فحملت إليه فبخّرها باللاّذن ليقطع الرائحة الرديئة عنها، إلى أن بخّرها بنحو ثلاثين رطلاً من اللاّذن، فطلع ذلك إلى رأسه وعينيه فأحدث له العمى[2].

67 - خزانة سبط بن التعاويذي:

هو أبو الفتح محمد بن عبيدالله بن عبدالله الكاتب، المعروف بسبط بن التعاويذي، هو واحد من أشهر شعراء بغداد، ولد سنة 519هـ/ 1125م ومات سنة 583هـ/ 1187م، يشير في ديوانه على أنه كانت له خزانة كتب، ففي القصيدة/ 173/ يشير على بعض الأصدقاء برد كتبه المستعارة منه، وطال عليه الأمد ولم يرد إليه، فقال:

اسأل جمال الدين عن حال الكتاب المقترض
إن كان يقبله شكرت قبوله وهو الغرض[3]

وفي القصيدة (315) يشير إلى أن أحدهم استعار كتبا أدبية ولم يردّها عليه أو أخَّرها، فقال:

مالي أرى كتبي بغير جناية قد طال عندك في الوثاق اسارها
أضحت لديك حبائسا أثمانها مجهولة أقدارها

حتى يصل إلى القول:

فامنن عليها بالأياب فما بنت عن مثلها أوطانها وديارها
واعطف لغربتها وطول مقامها بذراك فهي رقيقة أبشارها[4]

68 - خزانة كتب صبيح بن عبدالله الحبشي:

هو واحد من الذين شاركوا بتأسيس وسير عمل مكتبة/ خزانة الوقف بمسجد

(1) معجم الأدباء 11/ 219 - 222، الترجمة رقم 68. وصلاح الدين الصفدي/ نكت الهميان في نكت العميان/ ص158 - 159 بعناية د. أحمد زكي - الطبعة الجمالية بمصر سنة 1329هـ/ 1911م.
(2) نكت الهميان/ ص159. وكوركيش عواد/ ص253.
(3) ديوان سبط بن التعاويذي/ ص256 - 257 طبعة مارجليوث، مصر سنة 1903.
(4) ديوانه/ ص483/ وأنظر كذلك كوركيس عواد/ ص254 - 255.

الزيدي[1]، حيث أنه شارك الشريف الزيدي في وقف الكتب بدار دينار في سوق الثلاثاء، وتولّى اعارة كتبها إلى طلاب العلم، إلى أن توفّي ببغداد سنة 584هـ/ 1188م[2].

69 - خزانة الحازمي:

هو أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمي الهمذاني الشافعي، الملّقب زين الدين الحافظ المحدث، سكن بغداد ومات بها سنة 584هـ/ 1188م، له تصانيف عدّة، ذكرها ابن خلكان[3]، وكانت له خزانة كتب، فرّق كتبها على أصحاب الحديث ببغداد، وهو أمر يدّل على أهمية هؤلاء الرجال في العصور العباسية المختلفة، وهو أمر قد تكرر في أكثر من حال ومقال.

70 - خزانة ابن الجوزي:

هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، المشهور بابن الجوزي البغدادي، المتوفى سنة 597هـ/ 1200م، واحد من أعلام الثقافة العربية - الإسلامية، علاّمة عصره، برز في علوم كثيرة وانفرد بها عن غيره، وجمع المصنّفات الكبار والصغار، حتى بلغت نحو من ثلاثمائة مصنّف، جاء على ذكرها سبط بن الجوزي[4]، فيما ذكر صاحب (شذرات الذهب) أنه سئل عن عدد تصانيفه فقال: زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنّفا، منها ما هو عشرون مجلّدا، وأقل، كما ذكر أنه كان يكتب في اليوم أربع كراريس ويرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين إلى ستين مجلداً[5]، وكان هذا الرجل كثير المطالعة وحب الدرس والمجالس، وواحد بمثل هذه الهمة العالية والشغف بالمطالعة والتأليف، من الطبيعي جداً، أن تكون له مكتبة عامرة تختلف عما عند معاصريه، وكفى به أنّ مصنفاته تشكل مكتبة لحالها[6].

(1) أنظر/ فصل المكتبات العامة من هذا البحث.
(2) مجلة الحضارة/ العدد 34، ص7. وكوركيس عواد/ ص255.
(3) وفيّات الاعيان 4/ 294 - 295.
(4) مرآة الزمان 8/ 312 - 316، مخطوطة الظاهرية.
(5) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب 4/ 330، أحداث سنة 597هـ.
(6) أنظر كوركيس عواد/ ص256 - 257.

71 - خزانة ابن المارستانية:

هو أبو بكر عبيدالله بن علي التيمي البكري، المعروف بابن المارستانية[1] المتوفى سنة 599هـ/ 1202م، كان أبوه وأمه يخدمان المرضى بالمارستان العضدي، على دجلة بالجانب الغربي من بغداد، وكان هذا الرجل ممّن يعرفون الطب والحكمة وعلم النجوم، وقد صنّف تاريخا كبيراً لبغداد سمّاه (ديوان الإسلام في تاريخ دار السلام)[2].

بنى ابن المارستانية/ وهي نسبته لأمه/ دارا بدرب الشاكرية[3]، وسمّاها «دار العلم»، وجعل فيها خزانة كتب، ووقفها على طلاب العلم.

72 - خزانة مبارك شاه بن الحسين المروروذي:

يلقب صاحبها بفخر الدين، كان حسن الشعر بالفارسية والعربية، كانت داره الكائنة في بغداد منتدى أدبيّا، حكى عنها ابن الاثير قائلاً: كان له دار ضيافة، فيها كتب وشطرنج، فالعلماء يطالعون الكتب، والجهال يعلبون الشطرنج[4]، توفى سنة 602هـ/ 1205م.

73 - خزانة أبي المعالي أحمد بن هبة الله:

كان أبو المعالي من بيت معروف بالرواية والعدالة، روى الحديث عن جماعة، وكتب بخطّه كثيراً من الكتب الكبار كطبقات ابن سعد ومسند أحمد بن حنبل وصحيح البخاري، وكتاب الأغاني وغير ذلك. وشخص بمثل هذه الهمة العالية لا شكّ أنه كان يملك مكتبة نفيسة، تسعفه بمطابقة معلوماته عن تلك الكتب التي نسخها، توفى أبو المعالي ببغداد سنة 603هـ/ 1206هـ[5].

---

(1) راجع د. مصطفى جواد: دور العلم العراقية في العصور العباسية، مجلة عالم الغد 1/ 1945، العدد 10 - ص298 - 299. وكوركيس عواد/ ص259.

(2) أبو شامل/ ذيل الروضتين/ ص34، أحداث سنة 599هـ، نشرة عزت العطار الحسيني - دار الجيل، بيروت 1974 - ط2.

(3) أحد الاحياء الشعبية بالكرخ ناحية كرادة مريم، قرب القصر الجمهوري - هدّمت بعد عام 1963م، بها كانت طفولتي.

(4) الكامل في التاريخ 12/ 242 - 243، أحداث سنة 602هـ.

(5) كوركيس عواد/ ص260 - 261.

74 - خزانة الحربوي:

هو أبو الحسن علي بن رشيد بن أحمد بن محمد بن حسين الحربوي، قدم بغداد وأقام بها، وصار وكيل الناصر لدين الله، أخذ الخط عن طريقة ابن مقلة، وكتب الكثير، توفيّ سنة 605هـ/ 1208م[1] جمع خزانة كتب، حيث عرف عنه أنه كان محبّاً للكتب[2].

75 - خزانة قثم بن طلحة الزينبي:

هو أبو القاسم قثم بن طلحة الزينبي، المعروف بابن الاتقى، المتوفى سنة 607هـ/ 1210م، عرف عنه أنه كان فاضلاً متميزاً عارفاً بالعلم حريصاً عليه، خصوصاً ما يتعلّق بالانساب والاخبار والاشعار، وجمع ذلك جموعاً، وجعله بين الناس، وكتب بخطّه كتباً كثيرة[3].

76 - خزانة الحسن بن حمدون:

هو أبو سعد تاج الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون، المتوفى سنة 608هـ/ 1211م أحد العلماء الأدباء، وليّ عدة ولايات، منها، النظر في البيمارستان العضدي، وكتابة السكة بالديوان العزيز ببغداد، يعود نسبه إلى سيف الدولة الحمداني[4]. وذكر ياقوت، أنه كان من المحبين للكتب واقتنائها، والمبالغين في تحصيلها وشرائها، وحصل له من أصولها المتقنة وأمهاتها المعينة ما لم يحصّل أحد، ويضيف ياقوت: تقاعد به الدهر، وبطل عن العمل، فرأيته يخرجها، ويبيعها وعيناه تذرفان بالدموع كالمفارق لأهله الاعزاء، والمفجوع بأحبابه الأودّاء، فقلت له - والكلام لياقوت: هوّن عليك - أدام الله أيامك - فإن الدهر ذو دول، وقد يسعف الزمان ويساعد، وترجع دولة العزّ وتعاود، فتستخلف ما هو أحسن منها وأجود، فقال: حسبك يا بني: هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقتها في تحصيلها[5]، ويكفي هذا النص للدلالة على وله هذا الشيخ وحبّه للكتب، فقد أفنى العمر بجمعها، فكيف تكون مكتبة عمرها خمسون سنة تجمع فيها الكتب وترقد؟!

---

(1) شذرات المذهب 5/ 17. وكوركيس عواد/ ص261.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان 2/ 237 - 238، مادة حربي.

(3) كوركيس عواد/ ص262.

(4) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 9/ 184 - 185، الترجمة رقم 14، وكوركيس عواد/ ص262.

(5) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 9/ 186.

77 - خزانة مسيحي بن أبي البقاء:

يكنى أبي الخير، ويعرف بابن العطار الطبيب النصراني، أصله من بلدة النيل/ بليدة بسواد الكوفة/ في العراق، قدم بغداد، وسكنها، كان خبيراً بالعلاج قيّما به، له ذكر وقرب من دار الخلافة، يطبب النساء والحواشي، ويطأ بساط الخليفة[1]، توفيّ سنة 608هـ/ 1211م، عرف عنه أنه كان يقتني الكتب الكثيرة وأغلبها في الحكمة وما يتعلق بها، بحيث خرجت في الكثير عن الحَصر كما يقول القفطي[2]، وكانت له طريقة في شراء الكتب كتلك التي كان يمارسها ابن الخشاب، قيل أنه كان إذا وقعت في يده نسخة من كتاب، وخشي المزايدة فيه يخرمه لينقص قيمته ويبتاعه، واشتهر هذا عنه، ورموه بقلة الدين لأجل ذلك[3].

78 - خزانة عبد السلام الجيلي:

هو عبد السلام بن عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست بن أبي عبدالله الجيلي البغدادى، المدعو بالركن، المتوفى سنة 611هـ/ 1214م[4]، كان متهماً بالفلسفة ومخاطبة النجوم، ووجد عنده كتب بذلك، كما يقول ابن كثير[5]، مدحه القفطي، رغم أن السابقين اتهموه بالمجون والخمر والغلمان، فقال عنه: قرأ علوم الأوائل وأجادها، واقتنى كتبا كثيرة في هذا النوع، واشتهر بهذا الشأن شهرة تامّة، وله تقدم في الدولة الامامية الناصرية، / أي الناصر لدين الله/ وحصل له بتقدمه حسد من أرباب الشرّ، فثلبه أحدهم بأنه معطل وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة في قواعد هذا الشأن، فأوقع به وكتبه، فوجد فيها الكثير من علوم القوم، وبرزت الأوامر من الخليفة بإخراجها إلى موضع ببغداد يعرف بالرحبة، وأن تحرق بحضور الجمع الجم[6]، وكانت هذه من الأمور السوداء في تاريخ الثقافة العباسية، ووصمة عار على من يقفون بوجه العلم، وقد أورد تفاصيل محنته ابن العماد الحنبلي في «الشذرات» حيث قال: جرت عليه محنة في أيام الوزير ابن يونس، حيث كبست دار عبد السلام، وأخرج منها كتباً من كتب الفلاسفة ورسائل اخوان الصفاء،

(1) القفطي/ أخبار الحكماء ص218. وكوركيس عواد/ ص263.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان 8/ 374.
(5) البداية والنهاية 13/ 68.
(6) القفطي: أخبار الحكماء/ ص154.

وكتب السحر، والنارنجات[1]، وعبادة النجوم، واستدعى ابن يونس العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان، وكان ابن الجوزي معهم، وقرىء في بعضها مخاطبة زحل بقول: أيها الكوكب المضيء المنير، أنت تدبر الأفلاك وتحيي وتميت، وأنت إلهنا. وفي حق المريخ من هذا الجنس، وعبد السلام حاضر، فقال ابن يونس: هذا خطّك؟ قال: نعم، قال: لم كتبته؟ قال: لأرد على قائله ومن يعتقده. فأمر بإحراق كتبه، فجلس قاضي القضاة والعلماء وابن الجوزي معهم، على سطح مجاور لجامع الخليفة يوم الجمعة، وأضرموا ناراً عظيمةً تحت المسجد، وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم، والكتب على سطح المسجد، وقام أبو بكر بن المارستانية، وكان بينه وبين الجيلي عداوة وبغيضة، فجعل يقرأ كتاباً كتاباً، من مخاطبات الكواكب ونحوها ويقول: العنوا من كتبه ومن يعتقده، وعبد السلام حاضر، فتصيح العوام باللعن، فتعدى اللعن إلى الشيخ عبد القادر وإلى الإمام أحمد، وظهرت الأحقاد البدرية، ثم حكم القاضي بتفسيق عبد السلام، ورمي طيلسانة، وأخرجت مدرسة جده من يده ويد أبيه عبد الوهاب، وفوّضت إلى الشيخ أبي الفرج بن الجوزي. قال ابن القادسي، بعد ذكر ذلك، ثم أودع عبد السلام الحبس مدة، ولما أفرج عنه، أخذ خطه بأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن الإسلام حق، وما كان عليه باطل. ثم لما قبض على ابن يونس، ردّت مدرسة الشيخ عبد القادر إلى ولده عبد الوهاب، وردّ ما بقي من كتب عبد السلام، التي أحرق بعضها[2].

ثمة أمر يدعو للدهشة حقاً، هو أن الأحقاد الشخصية النابعة من مصلحة ذاتية بحتة، وقد يكون مبعثها حسد على نعمة، أو طمع في منزلة المحسود، تطغى على بعض عقول تلك الفترة، وتدعوهم أحياناً إلى ضرب الأيمان عرض الحائط، فتتراجع العقيدة أمام الشريعة، ويحدث شرخ إيماني كبير، حتى أن المؤمن يطعن بإيمانه، وما مسألة عبد السلام الجيلي، إلاّ توكيداً لذلك. فقد علّق القفطي على هذه الحادثة بالنص التالي: قال: أخبرني الحكيم السبتي قال: كنت ببغداد يومئذ تاجراً، فحضرت المحفل/ يقصد حرق الكتب/ وسمعت كلام ابن المارستانية، وشاهدت في يده كتاب - الهيئة، والنازلة الصمّاء، والمصيبة العمياء. وبعد تمام كلامه حرقها وألقاها في النار. قال: فاستدللت على جهله وتعصّبه، إذ لم يكن في الهيئة كفر، وإنما هي طريق إلى الايمان[3]. وهذه الحال تكررت في كثير من الأزمان، ولا زالت سارية المفعول، للأسف في عصرنا هذا.

---

(1) النارنجات = يقصد بها كتب السحر والرقى، وهي لفظة فارسية.

(2) شذرات الذهب 5/ 45 - 46. وكوركيس عواد/ ص266.

(3) أخبار الحكماء/ ص154.

79 - خزانة ابن البرفطي:

هو محمد بن أحمد بن محمد بن حمزة بن بريك الانصاري الدسكري، المعروف بابن البرفطي، والدسكرة، قرية من قرى نهر الملك، وبرفطا، هي أيضاً قرية من قرى نهر الملك، فغلب عليه هذا الاسم[1]. ولد البرفطي ببغداد سنة 566هـ/ 1171م، وتوفي سنة 625هـ/ 1228م. برزت لديه نزعة جمالية تمثلت باقتنائه الخطوط المنسوبة، فقد عثر في مكتبته، بعد وفاته، على 25 قطعة بخط ابن البوّاب[2]، لم تجتمع عند كاتب غيره، وكان يغالي في شرائها كما يقول، وقد تمتّع بسلامة الخط العربي وحسنه وجماله، لذلك عدّه ياقوت بأنه «أوحد عصره في خطّ - التحرير - وقد تخرّج به خلق كثير، وسافر إلى دمشق، وكتب عليه كتّابها[3]، ونظرته الجمالية إلى الخط دعته إلى أن يقيّم عالياً ويثمّن غالياً، بعض الجذاذات الورقيّة لخط ابن البوّاب، رغم البائع كان يقترح عليه سعراً بخساً جداً، وكان يقول: والله لا جعلت حقّ خط ابن البوّاب أن يشترى بالمخادعة[4]، ودفع مبلغ ثلاثة دنانير أماميّة، وهو المبلغ الذي اقترحه هو نفسه، إكراماً لصاحب الخط.

80 - خزانة علي بن البوري:

كان هذا الرجل شيخاً من شيوخ الصوفية وأعيانهم، ينسب إلى قرية قرب/ عكبرا/ تدعى «بورى»[5]. اضطربت حياته بين السعد والنحس، كان لهذا الشيخ اهتماماً بالكتب والاطلاع عليها، وحفظ ما يستحسنه منها[6].

81 - خزانة ابن النجّار:

هو الحافظ والمؤرخ والأديب محب الدين بن محمود، المعروف بابن النجار البغدادي، المتوفى سنة 643هـ/ 1245م، كان من جلّة المؤلفين، صنّف كتبا كثيرة، تزيد على 40 كتاباً، منها «تاريخه الكبير لمدينة بغداد»، حيث جعله ذيلاً على تاريخ مدينة

---

(1) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 17/ 277 - 278.
(2) له ترجمة واسعة في/ الخطاطون/ من هذه الدراسة.
(3) معجم الأدباء 17/ 278 - 279.
(4) راجع تفاصيل ذلك عند ياقوت: معجم الأدباء 17/ 280 - 281.
(5) ياقوت - معجم البلدان 1/ 506 - مادة (بورى). وكوركيس عواد/ ص268.
(6) الحوادث الجامعة/ ص146.

السلام للخطيب البغدادي، قال عنه ابن الساعي: أنه كان يحرز خزانة كتب كبيرة[1]، وقد أوقف هذه الكتب على المدرسة النظامية ببغداد تعادل قيمتها ألف دينار[2].

82 - خزانة رضي الدين ابن طاوس:

هو السيد الأجل رضيّ الدين علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن أحمد بن محمد بن الطاوس، المولود سنة 589هـ/ 1193م، والمتوفى سنة 664هـ/ 1265م، كان واحداً من المؤلفين البارزين، فقد ألّف كتباً عديدة، بلغت نيّفا وثلاثين كتاباً، وكانت له خزانة كتب احتوت على ألف وخمسمائة كتاب[3].

83 - خزانة عز الدين الفاروثي:

عرف بالتصوّف والزهد، وهو من أهل «الفاروث» تلك القرية الواقعة على شاطىء دجلة بين واسط والمذار[4]، مات بواسط سنة 694هـ/ 1294م، ذكر ابن كثير أنه «خلّف ألفين ومائتي مجلّد وغيرها[5].

84 - خزانة معاوية الموصلي البغدادي:

هو عز الدين أبي محمد الحسن بن يوسف بن الحسن، المعروف بمعاوية الموصلي البغدادي الفقيه، وصفه ابن الفوطي بأنه كان كثير المحفوظ ودمث الاخلاق، شديدا في التعصّب للسنّة، قدم بغداد ورتّب فقيها بالمستنصرية في الطائفة الاحمدية/ نسبة إلى أحمد بن حنبل/ كتب بخطّه الكثير واقتنى كتبا كثيرة، كثير المطالعة، يحفظ الاشعار ويستشهد بها في مواضعها[6].

---

(1) المصدر السابق/ ص205 - 206.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية 13/ 169.

(3) الذريعة إلى تصانيف الشيعة 1/ 58، الترجمة رقم 290 - باب «أبا» منشورات دار الاضواء بيروت 1983م.

(4) ياقوت الحموي: معجم البلدان 4/ 299 - مادة (فاروث).

(5) البداية والنهاية 13/ 342. وكوركيس عواد/ ص271.

(6) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب - الجزء الرابع 1/ 112، الترجمة رقم 124 - تحقيق الدكتور مصطفى جواد. وكوركيس عواد/ ص272.

85 - خزانة عليّ بن أحمد بن يوسف بن الخضر - الآمدي - الحنبلي:

عرف عن هذا الرجل معرفته بتعبير الرؤيا وبمعرفة لغات مختلفة، فبالاضافة إلى معرفته الجيّدة بالعربية كان يعرف اللسان المغولي والتركي والفارسي والرومي[1]، توفي ببغداد سنة 712هـ/ 1312م، كان هذا الشيخ قد أضرّ في أوائل عمره، ومع ذلك كان شديد المعرفة بكتبه، حيث كان يمسّ الكتاب مسّا ويستخرجه من بين صفوف الكتب ثم يقول: يشتمل هذا الكتاب على كذا وكذا كراسة، فيكون الأمر كما قال، وإذا مرّ يده على الصفحة، قال عداد أسطر هذه الصفحة كذا وكذا سطرا، وفيها بالقلم الغليظ كذا، وغير ذلك، ويعرف أثمان جميع كتبه التي اقتناها بالشراء، وكانت كثيرة جداً[2].

86 - خزانة ابن الفوطي:

هو كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد، المعروف بابن الفوطي البغدادي، كان في طليعة مؤرخي عصره، عرف بحسن التأليف ووفرته ونفاسته، ولد ببغداد سنة 642هـ/ 1244م، ومات بها سنة 723هـ/ 1323م، ألّف الكثير، وضاع أغلبها، ووصل إلينا فقط «الحوادث الجامعة»، والمجلد الرابع من «تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب».

ساعدته خبرته وظروفه على تنظيم الكتب والنظر في أمورها، فلقد باشر خزانة الكتب بمراغة، وقد ذكر أن عددها كان أربعمائة ألف مجلّد، واطلع على نفائس الكتب، وأقام بها بضع عشرة سنة، ثم عهد إليه بالاشراف على خزانة كتب المستنصرية، فظل على ذلك إلى أن مات، كما أنه كان من خطاطي عصره المعروفين، إذ ذكر ابن حجر العسقلاني أنه «كان له نظم حسن وخطّ بديع جداً، ويقول: ملكت بخطه خريدة القصر للعماد الكاتب، في أربع مجلدات في قطع كبير، جمع هذا المؤرخ الأديب خزانة كتب ثمينة، احتوت على كل طريف ونفيس من كتب التاريخ والتراجم والأدب والحديث والفقه وغيره، وكان منزله وخزانته هذه في بغداد، وكانت ملتقى طلبة العلم ومجتمع الطبقة المهذبة من البغداديين وغيرهم، وقد أشار في «معجمه» إلى زوّاره وزوار خزانته من العلماء والأعيان، أو من المعجبين بمؤلفاته والمتنافسين في اقتفاء آثاره في شتى المواضيع[3].

---

(1) نكت الهميان/ ص206 - 207.

(2) المصدر السابق/ ص207 - 208. وكوركيس عواد/ ص272 - 273.

(3) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة 2/ 364 - 365 - الترجمة رقم 241 - ط1 حيدر آباد - الدكن، سنة 1349هـ. وشذرات الذهب 6/ 60 - 61 - أحداث سنة 723هـ. وكوركيس عواد/ ص274.

87 - خزانة قوام الدين الشيباني:

هو قوام الدين علي بن عبدالله الشيباني النعماني البغدادي الواعظ الخطيب الكتبي، قال عنه ابن الفوطي: من بيت معروف بالرياسة والعدالة والتصرّف والقضاء، كان عارفاً بخطوط المصنّفين وبقية الكتب، واقتنى كتباً نفيسة، وسافر إلى الشام، وكان يعرض على ابن الفوطي ما يحصل له، وهذا يعني أنه معاصره، لذلك لم يذكر وفاته ولا سنة ولادته، وابن الفوطي توفي سنة 723هـ/ 1323م، فلربما مات بعده[1].

88 - خزانة ابن عبد الحق:

هو صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق الحنبلي، المولود سنة 658هـ/ 1359م، والمتوفى سنة 739هـ/ 1338م، اشتهر بوقوفه الحسن على فروع العلم المختلفة، كالهيئة والحساب والهندسة والفرائض، والفقه والأدب والنحو، وكان ينظم الشعر ويكتب الخطّ المنسوب، وقد ألف جملة كتب، أشهرها/ مراصد الاطلاع في أسماء الامكنة والبقاع/ وجمع خزانة كتب، وأوقفها على المدرسة المجاهدية[2].

89 - خزانة ابن الثردة:

هو عليّ بن إبراهيم بن علي بن يعقوب بن عبد المجيد بن وفاء علاء الدين الواسطي البغدادي، ثم الدمشقي، المعروف بابن الثردة، وقيل ابن الفردة، ولد سنة 697هـ/ 1297م، وتوفي سنة 750هـ/ 1349م، تعاطى الآداب والوعظ، وتغيّر في آخر عمره بالسوداء وهو مع ذلك ينظم الشعر وألحق بعقلاء المجانين.

أحرز خزانة كتب، سرق منها الكثير، فقد كان يدعي أنه سرق له ببغداد من الكتب بقدر ألفي مجلّدة، وأن جماعة من التجار باعوها بدمشق، ولم يجد من يشهد له ولا من يناصره، فازداد تألمه لذلك، وتمكن اختلاطه، وكان لا يقبل من أحد شيئاً، بل من أعطاه شيئاً لما يرى من سوء حاله يقول له: أنت ممّن سرق كتبي فتريد تبرطلني[3]، وقد ساءه

(1) معجم الألقاب - الجزء الرابع 4/ 810 - الترجمة رقم 3095. وكوركيس عواد/ ص275.

(2) الدرر الكامنة 2/ 418 - 419 - الترجمة رقم 2526. وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي 2/ 411 - 412 وما بعدها الترجمة رقم 309، تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر. وكوركيس عواد/ ص276.

(3) الدرر الكامنة 3/ 8 الترجمة رقم 11، وفوات الوفيات 2/ 463 - 466، الترجمة رقم 333. وكوركيس عوّاد/ ص276.

تلك الحال من أهل دمشق، فكتب إلى نائب الشام قصيدة يشكو حاله فيها أوّلها[1]:

يا نائب السلطان لا تك غافلاً ... عن قتل قوم للظواهر زوّقوا
ما هم تجار بل لصوص كلّهم ... فأمر بهم أن يقتلوا أو يشنقوا
وأراك لا تجدي إليك شكاية ... إلا كأنّك حائط لا ينطقُ
لا تعف عن قوم سعوا بفسادهم ... في الأرض بغيا منهم وتخرقوا
واكشف ظلامة من شكا لك خصمه ... فالحق حقّ واضح هو مشرقٌ

وهي قصيدة طويلة، وقد أورد له ابن شاكر الكتبي الكثير من أشعاره الظريفة في ترجمته، «بفوات الوفيات»[2].

90 - مكتبة علي بن عيسى الرُمّاني:

صاحب هذه المكتبة هو «علي بن عيسى بن علي بن عبدالله الرمّاني»، أصله من «سَرَّ من رأى» وولد في بغداد سنة 296هـ، وبها توفي سنة 384هـ.

كنيَتُهُ أبو الحسن الورّاق[3]، كان إماماً في اللغة العربية، وعَلاّمة في الأدب في طبقة أبي علي الفارسي والسيرافي، تتلمذ على يد ابن السرّاج والزجّاج وابن دريد[4]، كان يمزج كلامَهُ في النحو بالمنطق، حتى قال أبو علي الفارسي: إن كان النحو ما يقوله الرُمّاني، فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله نحنُ، فليس مَعهُ منه شيء، وكان يُقال: النحويون في زماننا ثلاثة: واحد لا يَفهم كلامهُ وهو الرمّاني، وواحد يُفهم بعضُ كلامه، وهو أبو علي الفارسي، وواحد يُفم جميع كلامهُ بلا أستاذ وهو السيرافي[5].

تُفصح مصادر ترجمته أنَّهُ كان معتزليّاً، تتلمذ على يد الإخشيد المتكلم المعتزلي، وسار على مذهبه[6].

إشتغالهُ بالوراقة، وفرّ لهُ الأجواء العلمية والأدبية واللغويّة، ناهيك عن إعتناقه لمذهب المعتزلة، الأمر الذي يُملي عليه كثرة القراءة والمطالعة والتأليف، إضافة إلى كونه

(1) الدرر الكامنة 3/ 9.
(2) راجع - فوات الوفيّات 2/ 464 - 466.
(3) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 14/ 73، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي/ ص130.
(4) أنظر ترجمتنا له في كتابنا/ ورّاقو بغداد في العصر العباسي/ ص452 - 453.
(5) بغية الوعاة/ ص334.
(6) معجم الأدباء 14/ 74. وأنباه الرواة 2/ 294.

قد عاصر نهوض الحضارة العباسية في مطلع (ق 4هـ) واهتماماته العلمية، جَعلتهُ مقصد العلماء للتزود منه والأخذ عنه والتتلمذ عليه، حتى أن التوحيدي دائم الذكر لَهُ في «المقابسات»[1]، ونقل عَنهُ أشياء كثيرة، حتى أن مصادر ترجمته ذكرت عدد مؤلّفاته فقط أنها تزيد على مئة مؤلف[2]، وكان الورّاقون والمستملون يأخذون عنه الكثير حتى أن ياقوت الحموي يقول: «أن أكثر ما يُصنّفَهُ كان يؤخذ عنهُ إملاءً»[3].

قال التوحيدي: «رأيت في مجلس علي بن عيسى النحوي رَجُلاً من مرو يسأله عن الفرق بين (من وما) و(مَنْ ومِمَّ) فأوسع لَهُ الكلام وبيّن وقسَّم وفرّق، وحَدَّ ومثَّل، وعَلَّق كل شيء منه بشرطه، من غير أن فهم السائل أو تصوّر، وسأله إعادته عليه وإبانته له، ففعل ذلك مِراراً من غير تصوّر حتى أضجرهُ»[4].

الغريب في الأمر، أن غالبية المؤرخين لم يعرّجوا على ذكر «مكتبته» الخاصة لأن شهرته كعالم وورّاق طغت على بقية «خصوصياته» فكيف تذكر المصادر أن مؤلفاته أكثر من مئة، ولم تذكر شيئاً عن مكتبته؟! ونحن نعتقد بأن عالماً كهذا المستوى من العلم والتأليف، تكون لديه/ قطعاً/ مكتبة كبيرة خاصة، يستفيد منها في كل ما ألّف وكتب، وحاضر وناقش، فهو أحد أعلام القرن الرابع الهجري.

91 - مكتبة فخر الدين الطبسي:

هي تلك المكتبة التي اوقفها «فخر الدين الطبسي» على المدرسة المستنصرية ببغداد، وكان الطبسي، عالماً فاضلاً كريم الأخلاق، لطيف المحاضرة ظاهر البشر، كان جيّد الخط مليحَهُ، كتب الكثير بخطّهِ الصحيح وضَبطهُ، قدم بغداد، ورُتّب فقهياً في المدرسة المستنصرية، ثم انتقل إلى الاعادة، واقتنى كُتُباً نفيسة، أكثرها بخطّهِ ووقفها على خزانة المستنصرية وشرط فيها الذي شرطه الإمام المستنصر، واستفاد الناس بها»[5].

92 - مكتبة الطبيب ابن جزلة:

هي تلك المكتبة التي أوقفها صاحبها الطبيب يحيى بن عيسى ابن جزلة، حيث أوصى

(1) أبو حيّان التوحيدي: المقابسات ص186. المقابسة رقم (30).
(2) أنظر كتابنا/ ورّاقوا بغداد في العصر العباسي/ ص454 - 458.
(3) معجم الأدباء 14/ 76.
(4) المصدر السابق 14/ 77 - 78.
(5) د. ناجي معروف/ تاريخ علماء المستنصرية/ ص161، منشورات مطبعة العاني بغداد 1959م.

- قبل وفاته - أن تُوقف كتبه وخزانته، على مسجد أبي حنيفة ببغداد، وتوفي هذا الطبيب سنة 492هـ.[1].

93 - مكتبة البيمارستان العضدي في بغداد:

«البيمارستان» لفظ فارسي مركّب من «بيمار» بمعنى مريض و«ستان» بمعنى «محل» والمصطلح يكون (محل المرضى) أي المستشفى[2].

أنشىء، البيمارستان العضدي في بغداد من قبل السلطان عضد الدولة البويهي وسمي باسمه، كان فيه 24 طبيباً، بينهم الطبائعي والجرّاح والكحّال والمجبّر[3].

وفي هذا البيمارستان عدّة خزائن للأدوية وغيرها، وألحقت فيه «خزانة كتب» يطالع فيها الأطباء كتب العقاقير الطبيّة وغيرها[4].

الفصل الخامس

أثر المكتبات على المجتمع العباسي

استعرضنا في الفصول السابقة، حالة التطور الثقافي والمعرفي والحضاري التي وصلت إليها الحضارة العباسيّة، في مختلف عصورها، والتي استمرت ناهضة حتى سقوط بغداد على يد المغول سنة 656هـ، وقد ارتسمت أمامنا هالة حضارية مهيبة تجسّدت في هذا الكم الهائل من المكتبات، فلقد بلغت مكتبات الخلفاء حوالي 14 مكتبة وبلغت مكتبات الوزراء أكثر من 11 مكتبة، فيما زاد عدد المكتبات العامة على 21 مكتبة، وسجلت ظاهرة - المكتبات الخاصة - حالة متطورة جداً ربت على 90 مكتبة.

إنَّ هذا التطوّر الثقافي الملحوظ، سيجد انعكاساته الايجابية على حياة المجتمع،

---

(1) إبن خُلكان: وفيات الأعيان 5/ 311.

(2) انظر: المعرّب للجواليقي، مادة (بيمارستان) وراجع د. أحمد عيسى في كتابه/تاريخ البيمارستانات في الإسلام/ ص7، طبعة القاهرة.

(3) انظر: ميخائيل عواد/ صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي/ فصل خاص عن المستشفيات ص110 - 112 وما بعدها، منشورات دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1986م.

(4) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص145.

كضرورة تاريخية لهذا الواقع، أفرزت معها ظاهرة أكثر ايجابية، نعني بها ظاهرة الورّاقين، كصنف يلبّي حاجات المجتمع الروحية، على الصعيد الثقافي - الحضاري، من خلال مهنة الوراقة[1]، ولقد كان لهؤلاء الورّاقين أثر واضح في ازدياد هذه المكتبات وانتشارها في أغلب أمصار الخلافة العباسية، رغم أن التركيز كان في داخل العراق، ولا سيما عاصمة الخلافة العباسية، بغداد، ولقد لعبت هذه المكتبات دوراً حضارياً بارزاً في رفع الوعي الثقافي لدى جمهور الناس، من مختلف الطبقات، وكان تأثيرها شاملاً على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والديني، والأخلاقي حتى، ورغم حالة التفاوت لهذا الانعكاس عند الناس، إلا أنها في المحصلة النهائية كانت علامة بارزة لهذا التطور الحضاري الهائل.

لكن رغم هذا الصعود الحضاري العظيم، فقد وجدت بعض الظاهرات السلبية التي كان لها دور في فقدان بعض الكتب في العلوم والمعارف المختلفة، من أبرز هذه المؤثرات كان الدافع السياسي والديني، فلقد برزت ظواهر سلبية، أضاعت علينا، جملة من الكتب، كان يمكن الاستفادة منها في رفد الحضارة العربية - الإسلامية قاطبة، ومن أشهرها كانت ظاهرة - حرق الكتب، وإغراق الكتب، ودفن الكتب، وغسل الكتب، وهو أمر محزن كان يمكن تلافيه، لو أن القائمين على إصدار القرار كانوا قد تمتعوا بشيء من الموضوعية وحسّ المسؤولية، ولكن وقع ما وقع.

فعلى الصعيد الثقافي - الحضاري، برزت عدة علامات، تركت بصماتها على تاريخية التطور في المجتمع العباسي خاصة، والمجتمع العربي - الإسلامي عامّة، كان الجاحظ يتربع على عرش الصدارة في هذه العلامات، فاعلاً بعقله وقلمه، محرّضاً مرّة، وداعية مرة أخرى، فلقد برّ بعلمهِ وثقافته الأولين والآخرين، والمتقدمين عليه، واللاحقين به، حتى صار اسمه علامة دالة على الوعي والثقافة، فهو كان العاشق الاول للكتب دون منازع، فلقد كان يحثّ الناس على اقتناء الكتاب والعناية به، مشيراً إلى فضيلة ذلك بقوله[2]: «والكتاب قد يفضل صاحبه، ويتقدم مؤلفه، ويرجّح قلمه على لسانه بأمور منها: أن الكتاب يقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الاعصار، وتباعد ما بين الامصار. ويضيف: وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره». هذا النص للمتلقي الواعي دافع ما دونه دافع، وأداة تحريض معرفية، صادر من رجل أفنى حياته في الكتاب، يريد بهذا النص موقفاً حضارياً - معرفياً، اقتناء

(1) سوف نتحدث بتفصيل أكثر عن الوراقة والورّاقين في الفصول القادمة.
(2) أنظر: الحيوان 1/ 85، طبعة عبد السلام هارون ط2.

الكتاب والحفاظ عليه من جهة، ومن جهة أخرى - وهي الأبلغ - فهم ما فيه واستيعابه، حتى يكون القارىء أو الكاتب، أداة وصل بينه وبين معاصريه ولاحقيه، وربطهم بمن سبقوا، لذلك يشير مرة أخرى[1]: «ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلّدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنّا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لقد خسّ حظنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة»، ومن هنا نلاحظ أن الجاحظ ينظر إلى العملية المعرفية، تواصل وتوصيل، تواصل الماضي بالحاضر، وتوصيل الحاضر بالمستقبل بعملية متسلسلة زمنياً وثقافياً، وهو بهذا يضع أسساً علمية لمنهج ثقافي - نقدي، سار عليه معاصروه ومن جاء بعده، هذا على الصعيد المعرفي، وعلى الصعيد الشخصي - كان الجاحظ يقدم سلوكاً نموذجياً للمهتدين بقارعة الكتاب، فقد كان يقرأ أي كتاب يقع في يده، ويكترى دكاكين الورّاقين، ويبيت للنظر فيها[2]، وهو بهذا المسلك يحاول أن يجعل القارىء يندفع بكل طاقة للتوحد مع المعرفة والكتاب، ولا يتوقف عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى غيره، حيث يسقط المنظور العلمي - الثقافي، على الواقع الاجتماعي، ومن زاوية الكتاب نفسها، زيادة في الترغيب والحضّ على اقتناء الكتاب وتأليفه.

يقول[3]: «إن من شكر النعمة في معرفة مغاوى الناس ومراشدهم، ومضارهم ومنافعهم، أن يحتمل ثقل مؤنتهم في تقويمهم، وأن يتوخى ارشادهم وأن جهلوا فضل ما يسدى اليهم، فلن يصان العلم بمثل بذله، ولم تستبقى النهمة فيه بمثل نشره»، وبعد هذا التوجيه والارشاد يؤكد الجاحظ على قارئه، التمسّك بمنهج القراءة، لأنها السبيل الأنجع في اكتساب المعرفة، يقول: إن قراءة الكتب أبلغ في ارشادهم من تلاقيهم، إذ كان مع التلاقي يشتدّ التصنّع، ويكثر التظالم، وتفرط العصبية، وتقوى الحميّة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفة من الخضوع[4].

وهذا الكشف النفسي لاعمال الذات البشرية، كان الجاحظ أكثر إدراكاً له من غيره، لذلك كان يركّز على القراءة ويحضّ عليها، ثم يضع بعد ذلك أسساً نقديّة للكتّاب يسيرون عليها بغية رفع الوعي عند الناس[5]، وبمسألة المعرفة بالكتاب، فإن الجاحظ يظل يضرب

(1) أنظر: الحيوان 1/ 85، طبعة عبد السلام هارون ط2.
(2) الفهرست/ ص169.
(3) الحيوان 1/ 84.
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) الحيوان 1/ 88 - 89.

على الوتر المعرفي فيه، فيسقط المدلولات الروحية على منظوراتها الزمنية، منطلقاً من الوازع الديني، الذي ينتظم الناس في أفقه الآيديولوجي، فيخاطبهم بالخطاب الإسلامي، في ضوء الشريعة ذاتها، لا سيما في باب الارث، يقول[1]: «ووراثة الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة، منبهة للمورِّث وكنز عند الوارث، إلا أنه كنز لا تجب الزكاة فيه، ولا حق للسلطان، ثم يضيف: «ولا يزال بها المورِّث مذكوراً في الحكماء ومنوهاً باسمه في الاسماء، وإماماً متبوعاً وعلماً منصوباً».

إنَّ هذا الاسقاط المعرفي من لدن الجاحظ ليدلّ على أن الرجل يريد أن يجعل مسألة توارث الكتب سنّة، كي تعمر المكتبات بالكتب وتنتفع بها جميع الطبقات، مؤكداً ذلك من خلال أحاديث القدماء، أصحاب الأثر الكريم، من صحابة وصالحين، يقول[2]: «من ورّثه كتاباً، وأودعته علماً، فقد ورّثه ما يغل ولا يستغل، وقد ورّثه الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة ولا إلى سقي ولا إلى اسجال بايغار[3]، ولا إلى شرط، ولا تحتاج إلى أكّار، ولا إلى أن تثار، وليس عليها عز، ولا للسلطان عليها خراج[4]، ثم يستجمع بكل طاقته الفكرية، مصوغات لفظية بليغة، يوردها كنصائح معرفية لمن يريد الاستفادة من دنياه وآخرته.

يقول[5]: «قالوا: ومتى كان الأديب جامعاً بارعاً، وكانت مواريثه كتباً بارعة وآداباً جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلّم حظاً، وأجدر أن يسرع التعلّم إليه، ثم يردف: فخير ميراث ورّث كتب وعلم، وخير المورّثين من أورث ما يجمع ولا يفرّق، ويبصر ولا يعمي، ويعطي ولا يأخذ، ويجود بالكل دون البعض، ويدع لك الكنز الذي ليس للسلطان فيه، والركّاز[6] الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنعمة التي ليس للحاسد فيها حيلة، ولا للصوص فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيها حجّة، ولا على الجار فيه مئونة»[7].

وليس الجاحظ هو الوحيد الذي كان يسعى إلى تفشّي المعرفة بين الناس، من خلال

---

(1) الحيوان 1/ 100.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) اسجال بايغار = أسجل له الامر، وأوغر الملك الرجل الأرض: جعلها له من غير خراج.
(4) الحيوان 1/ 100.
(5) المصدر السابق 1/ 101.
(6) الركاز = الكنوز، من المعادن الثمينة كالفضة والذهب وغيرهما « القاموس المحيط - مادة، ركز وراجع: باب الخمس في المعادن والركاز عند/ أبي عبيد القاسم بن سلام/ في كتاب الأموال/ ص336، تحقيق محمد حامد الفقي، المطبعة التجارية الكبرى في القاهرة، سنة 1353هـ، ط1.
(7) الحيوان 1/ 101.

المكتبات والكتب، بل أن هناك روّاداً مثله، شاركوه الهمّ، وعملوا باليد والمال لترصين وزيادة هذه الظاهرة، فهذا موسى بن يحيى يقول: ما كان في خزانة كتب يحيى، وفي بيت مدارسه كتاب الا وله نسخ[1]، وهذا أمر يوضّح عمق مدلوله المعرفي، وفي هذا السياق يندرج عمل الطبيب المهذّب بن الدخوار، المتوفى سنة 628هـ، وقد كان واحداً من حاذقي الطب وأستاذ عصره، وقد أوصى أن توقف داره وكتبه على الاطباء[2]، وشكلت مسألة (وقف الكتب) ظاهرة حضارية - علمية، واسعة، في تلك العصور، وقد كان رجال الحديث أسبق من غيرهم في هذا المضمار، فقد ذكر ابن الجوزي جماعة من هؤلاء، منهم أبو الحسن منتخب بن عبد الله، حيث أوقف كتبه على أصحاب الحديث[3] كما فعل الشيء نفسه علي بن عساكر البطائحي[4]، وعبد الله بن أحمد بن حمدويه البزاز[5]، ثم تلاهم علماء النحو، حيث أوقفوا كتبهم فانتفع فيها الناس، منهم محمد بن أبي نصر الحميدي الاندلسي والحسن بن إبراهيم المالقي[6]، وغيرهم الكثير الكثير.

وثمة حادثة طريفة، تندرج في هذا السياق الثقافي - الحضاري، أوردها ياقوت الحموي، مفادها أن علي بن الحسن، المعروف بشميم الحلي[7]، زاره ياقوت للتزود بمعارفه وآدابه، فسأل عن أدب المقامات، ولماذا لم يؤلف فيها، فقال: يا بني اعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي على الباطل، عملت مقامات مرتين، فلم ترضيني فغسلتها، وما أعلم أن الله خلقني إلا لأظهر فضل الحريري، وهذا اعتراف معرفي بالسبق والعلو في الفن للحريري، من هذا الرجل الذي لم يترك أحداً إلا وعابه، كما يقول ياقوت.

وراحت ظاهرة غسل الكتب، تدخل في هذا الجانب المعرفي، مرة سلباً ومرة ايجاباً، فمن ذلك أن الشيخ محمد بن معتوق الشيباني النصيبي الشاعر، المتوفى سنة 707هـ قال: حضر الشيخ بهاء الدين القفطي من إسنا، فتوجهت إليه ورحت أسأله عن لغة، فيذكر شيئاً من عنده ويستشهد عليه بشعره، فيكتب النصيبي ما يقوله إلى أن اجتمعت عنده كراريس،

---

(1) الحيوان 1/ 60.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة 6/ 277، طبعة دار الكتب المصرية، حزيران/ 1383هـ/ 1963م.

(3) المنتظم 9/ 183 - الترجمة رقم 309.

(4) المنتظم 10/ 267 - الترجمة رقم 359.

(5) المنتظم 10/ 113 - الترجمة رقم 159.

(6) ابن الاثير - الكامل - 10/ 254 - وبغية الوعاة/ ص215.

(7) معجم الأدباء 13/ 58، الترجمة رقم 13.

فلما قصد التوجه قال الفقطي: يا سيدنا لا تعتمد على هذه الكراريس، فإني أرتجلتها، فشقّ على الشيخ وغسلها[1].

ومن الايجابي بهذه الظاهرة الثقافية هو الحسّ بالمسؤولية نحو طلبة العلم والتعهّد برعايتهم ومنع الجهلاء من الوصول اليهم، وقد تصدّر العلماء الكبار ذلك العمل، فقد نقل الجاحظ عن أبي عمرو بن العلاء قال: قيل لنا يوماً أن في دار فلان ناساً قد اجتمعوا على سوءة وهم جلوس على خميرة لهم، وعندهم طنبور، فتسوّرنا عليهم في جماعة من رجال الحي، فإذا فتى جالس في وسط الدار، وأصحابه حوله، وإذا هم بيض اللحى، وإذا هو يقرأ عليهم دفتراً فيه شعر. فقال الذي سعى بهم: السوءة في ذلك البيت، وأن دخلتموه عثرتم عليها، فقلت: «والله لا أكشف فتى أصحابه شيوخ، وفي يده دفتر علم، ولو كان في ثوبه دم يحيى بن زكريا»[2].

وراح الحرص على الكتب والمكتبات يدفع الناس إلى الاعتناء بالكتب وتجليدها وتذهيببها والعناية بها، حتى وصل بهم الأمر لأن يحاولوا حفظ العلم في قلوبهم، فقد أنشد رجل يونس النحوي:

استودع العلم قرطاسا فضيّعه   فبئس مستودع العلم القراطيس

فقال يونس: قاتله الله ما أشد ضنانته بالعلم وأحسن صيانته له، ثم قال: إن علمك من روحك، ومالك من بدنك، فضعه منك بمكان الروّح، وضع مالك بمكان البدن[3]، حتى أن الجاحظ يرى مسألة الجلوس بالمكتبة أهيب من الجلوس على دست الوزارة. يقول: دخلت على إسحاق بن سليمان في أمرته، فرأيت السماطين والرجال مثولاً كأن على رؤوسهم الطير، ورأيت فرشته وبزّته، ثم دخلت عليه وهو معزول، وإذا هو في بيت كتبه، وحواليه الاسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر، فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب، ولا أجزل منه في ذلك اليوم، لأنه جمع مع المهابة المحبّة، ومع الفخامة الحلاوة، ومع السؤدد الحكمة[4].

وانتشرت عدوى الكتب بين الناس في سواد العراق بشماله وجنوبه، وأقاصيه وأدانيه،

(1) الأدفوي: الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد/ ص354، القاهرة سنة 1914م. وكوركيس عواد/ ص39.
(2) الحيوان 1/ 60 - 61.
(3) الحيوان 1/ 61.
(4) الحيوان 1/ 61 - 62.

ووسطه وأطرافه، وصارت عملية اقتناء الكتب مسألة روحية، ارتبطت بوعيهم، حتى أنهم كانوا يقتّرون على أنفسهم، وينقصون من مؤنتهم بغية شراء الكتب، نقل ابن الفوطي بهذا الصدد[1] خبراً يقول: كان أهل الحلة والكوفة والسيّب[2] يجلبون إلى بغداد الأطعمة فانتفع الناس بذلك، وكانوا يبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة، وصفر المطعم وغيره من الاكل بأوهى قيمة، فاستغنى بهذا الوجه خلق كثير منهم[3]، رغم أنهم كانوا يعيشون الاجواء الحربية وحالة الطوارىء، حيث كانت بغداد - في هذه الفترة - قد سقطت بيد المغول.

وليس هناك أوضح دلالة على هذا التطور الثقافي، من وجود سوق خاص لبيع الكتب، سميّ فيما يعرف بـ«سوق الورّاقين»[4]، ذلك السوق الذي وصفه اليعقوبي، وهو من مؤرخي (ق 3هـ/ 9م)، بأن فيه أكثر من مئة حانوت للورّاقين[5]، وهذا السوق، حتماً، أصابه التطور في العصور اللاحقة، وإلا كيف نفسّر هذا الكم الهائل من المكتبات العامة والخاصة؟ وهذا السوق راح يتغزل في وصفه ابن الجوزي وغيره[6].

لقد أثّر هذا السوق في رفد الحالة الثقافية، وصار نقطة اتصال دائمة بين الناس والكتّاب، حيث يهرعون إليه لتلبية حاجاتهم الروحية - الثقافية، وصار مجلساً للعلماء والأدباء يتنادمون فيه، ويتلاحقون بأفكارهم، حتى أن البعض منهم، اتخذه مكاناً وحيداً في حياته، فقد ذكر ياقوت الحموي، أن أبا الغنائم حبشي بن محمد الواسطي الضرير، كان يأتي سوق الكتب ببغداد في كل ليلة، عشرين سنة[7]، رغم أن منزله لم يكن بعيداً عن السوق.

وليس هذا فحسب، بل عملية تفحّص الكتاب، هي الأخرى كانت توضّح الشغف الجميل بالكتاب والمكتبات، فلقد كان الاقدمون لا يقتنون كتاباً إلا بعد تفحصه، وإمعان النظر فيه، خشية أن يكون فيه نقص أو تشويش، يقول ابن جُماعة في هذا الصدد: وإذا اشترى كتاباً تعهّد أولّه وأخره ووسطه، وترتيب أبوابه وكراريسه، وتصفح أوراقه، واعتبر صحته عملاً بقول الشافعي: «إذا رأيت الكتاب فيه الحاق واصلاح فاشهد له بالصحة».

---

(1) الحوادث الجامعة/ ص331.

(2) السيب: كورة من كور سواد الكوفة. ياقوت: معجم البلدان 3/ 293 - مادة السيب.

(3) الحوادث الجامعة/ ص331.

(4) سوف نتكلم عنه بالتفصيل في الابواب القادمة.

(5) اليعقوبي: البلدان/ ص245.

(6) مناقب بغداد/ ص26.

(7) معجم الأدباء 7/ 214 - 216، الترجمة رقم 53.

وقال بعضهم: لا يضيء الكتاب حتى يظلم/ يريد إصلاحه/ [1]. وقد أغرت المكتبات الكثير من الناس في ارتيادها، لغرض التحصيل، والمتعة وقضاء الوقت، وكان أصحاب هذه المكتبات يزيدون في الاغراء، من موقع معرفي، فهذا علي بن يحيى المنجم، ذلك العالم والمثقّف الكبير الذي جالس الخلفاء والعلماء والادباء، وهو واحد من أعيان (ق 3هـ)، ذكرت المصادر عنه «أنه عمل خزانة كتب عظيمة»[2]، سماها (خزانة الحكمة) كانت مأوى لكل أديب وعالم وكان ابن المنجم يبذل لهم ما يريدون من ماله، وما ينتفعون به من كتبه، وينفق عليهم[3]، وقد شكلت هذه المكتبة نقطة اشعاع حضاري في ذلك الزمن، فمن روّادها الأفذاذ أبو معشر المنجّم، حيث قدم من خراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم، فوصفت له خزانة ابن المنجّم، فحضرها ورآها، فهاله أمرها، فأقام بها، واضرب عن الحجّ، وتعلّم فيها علم النجوم، وأغرق فيه حتى الحد، وكان ذلك آخر عهده بالحج والدين وبالإسلام أيضاً[4].

وانعكس شغف الناس بالكتاب على طريقة عيشهم وسلوكهم اليومي، بحيث أصبح بعضهم لا يستغني عن الكتاب، متخذاً من ملابسه أو اكمال ثيابه، حاوية للكتاب، فهذا سليمان بن الأشعث السجستاني المحدّث، المتوفى سنة 275هـ، وهو أحد النقّاد لعلوم الحديث والسنن، كان قد جعل له كماً واسعاً وكماً ضيّقاً، فقيل له في ذلك فقال: الواسع للكتب والآخر لا أحتاج إليه[5]، فيما كان القاضي إسماعيل بن إسحاق يقضي أغلب وقته في مكتبته، امّا ينظر في كتاب أو يقلّب كتاب، أو ينظّف كتبه[6]، وهو أمر يشير إلى الشغف اللامحدود للعناية بالكتب.

مع هذا الدفق الحضاري الناهض، والمنعكس على الحالة الثقافية، برزت هناك بعض الظواهر السلبية، على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي، تعارضت سلباً مع هذا النهوض، وصادف أنها كانت حدثت لعلماء وأدباء كبار، لهم لمسات فكرية واضحة على الثقافة العربية - الإسلامية، لا زالت قائمة حتى اليوم، فلقد لعب الفقر دوراً سلبياً في حياة

---

(1) ابن جماعة الكناني: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلّم/ ص172 - 173 الطبعة الأولى، حيدر آباد، سنة 1353هـ. وكوركيس عواد/ ص25.

(2) تحدثنا عنها في الفصل السابق - المكتبات الخاصة تحت الرقم 15.

(3) راجع نشوار المحاضرة 4/ 66، وطبقات الاطباء/ ص272 - 274، وأخبار الحكماء/ ص120.

(4) القاضي التنوخي: نشوار المحاضرة 4/ 66 - 67، وياقوت الحموي: معجم الأدباء 15/ 157 في ترجمة علي بن يحيى المنجّم - الترجمة رقم 33.

(5) النجوم الزاهرة 3/ 73، حوادث سنة 275هـ.

(6) الفهرست/ ص169.

أبي حيّان التوحيدي[1]، الأمر الذي دعاه إلى حرق كتبه واتلافها، ممّا فوّت علينا الكثير من الاطلاع على ثقافة ذلك القرن الفريد (ق 4هـ) حتى أن معاصريه من الأدباء والعلماء لاموه على تلك الفعلة، وعلى رأسهم القاضي أبي سهل علي بن محمد، وقد برّر له ذلك بقوله[2]: (إنَّ العلم - حاطك الله - يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كلاً على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً، وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غُلاً) ثم يشرح له أهمية الكتب وما حوته، ويذكر السبب الأرأس لديه في ذلك وهو، عدم إدراك الناس لما يكتب لهم، والواقع الاقتصادي المر الذي عاناه، يقول[3]: «فإذا قلت: ولم تُسمهم بسوء الظن، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك، أن عياني منهم في الحياة، هو الذي يحقق ظنّي بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة، فما صحّ لي من أحدهم ودِاد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم، بعد الشهرة والمعرفة، في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحرّ أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم».

هذا النص المفجع، يبيّن أمامنا التفاوت الطبقي الحاد في القرن الرابع الهجري، رغم أن حالة الحضارة كانت في أوجّها، وثمة حادثة أخرى تندرج في السياق الاجتماعي كان لها الأثر السلبي، في فقدان بعض المؤلفات العربية الهامة، وكان سبب ذلك منشؤه الغيرة عند المرأة، فقد عرف عن الخليل بن أحمد الفراهيدي أنه كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه، هو أوّل من استخرج العروض وحصر أشعار العرب بها، وعمل أوّل كتاب لها، وهو كتاب العين المشهور[4]، وقد بذل وقتاً كبيراً في تأليف هذا الكتاب، يقول ابن المعتز[5]: «كان الخليل منقطعاً إلى الليث فيما صنّفه وخصّه به، فحظي عنده جدا، ووقع عنده موقعاً عظيماً، ووهب له مائة ألف، وأقبل على حفظه وملازمته، فحفظ منه النصف. واتفق أنّه/أي الخليل/اشترى جارية نفيسة، فغارت ابنة عمّه، وقالت: والله لأغيظنّه، وإن غظّته في المال لا يبالي، ولكني أراه مكبّاً ليله ونهاره على هذا

---

(1) أنظر ترجمته في معجم الأدباء 15/ 51 - 52.
(2) رسائل أبي حيّان التوحيدي/ ص162 - 163، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني، الرسالة 9 طبعة دمشق.
(3) الرسائل/ ص163 - 164.
(4) راجع ذلك عند السيوطي/ بغية الوعاة/ ص243 وما بعدها.
(5) بغية الوعاة/ ص245.

الكتاب، والله لأفجعه به، فأحرقته - فلما علم اشتد أسفه، ولم يكن عنده غير منه نسخة، ولما مات الخليل، أملى الليث النصف الذي كان حفظه وجمع علماء عصره وأمرهم أن يكملوه على نمطه، وقال لهم: مثلوا واجتهدوا، فعملوا هذا التصنيف الذي بأيدي الناس».

وثمة حادثة أليمة أخرى تندرج في هذا السياق، إلاّ أن واقعها كان محض صدفة، فقد كان سراج الدين ابن الملقّن واحداً من أشهر أهل زمانه حبّاً للتصنيف والكتابة، بلغت مصنفاته، كما يقول ابن العماد الحنبلي[1]، نحو ثلاثمائة مصنّف، وكان جمّاعة للكتب جداً، ثم احترق غالبها قبل موته، وكان ذهنه مستقيماً قبل أن تحترق كتبه، ثم تغيّر حاله بعد ذلك[2]، وهذه الحادثة كانت خسارة كبيرة للعلم والمعرفة بفقدان عقل هذا الرجل، وفقدان كتبه، فإلى أيّ حد وصل عشق الناس للمعرفة؟!

وهناك حادثة طريفة وأليمة بنفس الوقت، تعبّر عن تزاوج الحالة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بآن معاً، أوردها ياقوت الحموي في ترجمة علي بن عيسى الربعي[3]، قال وهو في صدد حديثه عن مؤلفاته: وله كتاب شرح سيبويه، إلاّ أنه غسله وذاك أن أحد بني رضوان التاجر، نازعه في مسألة فقام مغضباً وأخذ شرح سيبويه، وجعله في إجانة[4] وصبّ عليه الماء وغسله، وجعل يلطم به الحيطان ويقول: لا أجعل أولاد البقالين نحاة[5].

وهذه المسألة تعطيك فكرة عن مدى معرفة العالم لعلمه، ومدى جهل الناس لغير علمهم ومزاودتهم الآخرين دون معرفة، ولكن النتائج كانت سلبية وواضحة على الثقافة.

ومن الأمور التي تقاطعت مع الوعي الثقافي وصعوده، هو التعارض بين بعض المتدينين والكتب العلمية، لا سيما الفلسفية منها، والتي تبحث في شؤن الديانات والفلك والنجوم، وقد انطلق هؤلاء بموقفهم من وازع ديني، مرّة كان بشكل متزمت، وأخرى نابعاً من إيمان عقائدي تفجّر عند البعض قبل الوفاة بأيّام، ولكن العمق العلمي، في هذه المواقف، تفاوت بين الموقفين، ولكن المآل النهائي كان خسارة واضحة للثقافة العربية - الإسلامية، مما أحدث نقصاً في المكتبات.

فمن ذلك، أن خازن دار الكتب المأمونية، أبو المعالي أحمد بن هبة الله قد غسل

---

(1) شذرات الذهب 7/ 45.

(2) المصدر السابق/ نفس المكان.

(3) انظر: معجم الأدباء 14/ 78 - 85، الترجمة رقم 21.

(4) اجانة = إناء تغسل فيه الثياب.

(5) معجم الأدباء 14/ 79. وكوركيس عواد/ خزائن الكتب/ ص40.

أحد كتب أبي العلاء المعرّى الهامة وهو «كتاب نقض القرآن» أو لعله كتاب «الفصول والغايات في معارضة السور والآيات»[1]، وقد انطلق هذا الخازن من موقف ديني ليس إلا، يقول ياقوت الحموي[2]: حدثني محبّ الدين محمد بن النجّار قال: حضر الوجيه النحوي بدار الكتب التي برباط المأمونية وخازنها يومئذ أبو المعالي أحمد بن هبة الله، فجرى حديث المعرّي، فذمّه الخازن وقال: كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته، فقال له الوجيه: وأيّ شيء في هذا الكتاب؟ قال: كان كتاب نقض القرآن، فقال له: أخطأت في غسله، فعجب الجماعة منه، وتغامزوا عليه، واستشاط ابن هبة الله وقال له: مثلك ينهى عن مثل هذا؟ قال: نعم، لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن أو خيراً منه أو دونه، فإن كان مثله أو خيراً منه، وحاش الله أن يكون ذلك، فلا يجب أن يفرّط في مثله، وإن كان دونه، وذلك مما لا شك فيه، فتركه معجزة للقرآن، فلا يجب التفريط فيه. فاستحسن الجماعة قوله، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت».

وهذا الحادثة المعرفية تميّز بين العالم المتديّن، وبين المتديّن غير العالم، لذلك يبرز التفاوت العلمي عند الشخصين.

وضمن هذه الرؤية الدينية، كان بعض الأدباء يغسلون كتبهم أو دواوينهم التي احتوت على شيء من التجريح بحق بعض الناس أو هجواً لآخرين فيغسلونها، ظنّاً منهم، لا سيّما في حالة المرض، أنها كانت سبب ذلك البلاء، فمن ذلك ما نقله ابن حجر العسقلاني عن صدر الدين ابن الوكيل المتوفى سنة 617هـ/ 1316م، فكان هذا الرجل: إذا أفرغ توضأ ولبس ثياباً نظافاً، وصلّى ومرّغ وجهه على التراب، وتضرع في طلب التوبة أو المغفرة، لأنه كان فيه لعب ولهو، وكان إذا مرض غسل ما نظمه من الشعر[3] لأنه كان يشعر أن الشعر سبب مرضه.

ومن الذين نحوا هذا المنحى في غسل أشعارهم، لكثرة الهجو فيها، والتعفف منها دينياً، أبو سعيد محمد بن علي بن المطلب، المتوفى سنة 478هـ/ 1085م، فقد ذكر ابن الجوزي[4] أنه قال شعراً كثيراً، إلا أنه كان كثير الهجو، ثم مال عن ذلك، وأكثر الصوم والصلاة والصدقة وروى الحديث، وغسل مسوّدات شعره وأحرق بعضها بالنار.

(1) أنظر تعليقات كوركيس عواد/ خزائن الكتب/ ص38، الهامش رقم 3.

(2) معجم الأدباء 17/ 65 - 66، ترجمة المبارك بن المبارك بن سعيد ابن الدهان المعروف بالوجيه، الترجمة رقم 22.

(3) الدرر الكامنة 4/ 120، الترجمة رقم 318.

(4) المنتظم 9/ 24، الترجمة رقم 26. وكوركيس عواد/ خزائن الكتب/ ص37.

ومن المؤسف له حقا أن بعض كبار الفقهاء ورجالات الفكر، يقومون بمثل هذه المهمة، لاعتقادهم بأن بعض الكتب تغوى الناس، وتهديهم إلى الضلال، وهو ما فعله شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد ذكر ابن حجر العسقلاني، في ترجمته لعليّ بن الحسن بن عبدالله ابن الجابي المتوفى سنة 701هـ/ 1301م[1] أنه كان مشهوراً بحسن تأدية الخطابة، فصيح التلاوة، وكان قد أغرى بالكيمياء، وحصل فيها كتباً كثيرة جداً، وكان يزعم أنها صحّت معه، ولمّا مات توجه الشيخ تقيّ الدين بن تيمية، فاشترى منها جملة، وغسلها في الحال وقال: «هذه الكتب كان الناس يضلّون بها، وتضيع أموالهم، فأفتديتهم بما بذلته في ثمنها». وهذا الموقف لا يحتاج إلى شرح أو تعليق.

وثمة آفة أخرى لحقت الكتب والمكتبات، نتيجة موقف ديني ممزوج بضغط سياسي أحياناً، وقد تصدّى لهذه الظاهرة، بعض العلماء الكبار، ولكن بعد وقوع الحدث، من هؤلاء كان ابن الجوزي، فقد قال: ولقد ذاكرت بعض مشايخنا ما يروى عن جماعة من السادات أنهم دفنوا كتبهم، فقلت له: ما وجه هذا؟ فقال: أحسن ما نقول أن نسكت! يشير إلى أن هذا جهل من فاعله[2]، وهذا الاعتراض صادر من عالم دين وفقيه حافظ، يقف موقفاً إيجابياً ضد هذه الظاهرة السيئة لدفن الكتب، يستطرد ابن الجوزي في هذه المسألة فيقول: وتأولت أنا لهم فقلت: لعلّ ما دفنوا من كتبهم فيها شيء من الرأى، فما رأوا أن يعمل به الناس؟ ولقد روينا في الحديث، عن أحمد بن أبي الحواري، أنه أخذ كتبه فرمى بها في البحر وقال: «نعم الدليل كنت ولا حاجة لنا إلى الدليل بعد الوصول إلى المدلول» وهذا إذا أحسنّا به الظن، قلنا: كان فيها من كلامهم ما لا يرتضيه، فأما إذا كانت علوماً صحيحة، كان هذا من أفحش الاضاعة. ويضيف ابن الجوزي: وأنا وان تأولت لهم هذا، فهو تأويل صحيح في حق العلماء منهم، لأنا قد روينا عن سفيان الثوري: أنه قد أوصى بدفن كتبه وكان ندم على أشياء كتبها عن قوم وقال: «حملني شهوة الحديث»، ويعلق ابن الجوزي على هذه العبارة بقوله: وهذا لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين، فكأنه لما عَسُرَ عليه التمييز أوصى بدفن الكل، ويضيف: وكذلك من كان له رأي من كلامه، ثم رجع عنه، جاز أن يدفن الكتب التي فيها ذلك، فهذا وجه التأويل للعلماء. أما المتزهدون الذين رأوا صورة فعل العلماء، ودفنوا كتباً صالحة، لئلا تشغلهم عن التعبّد، فإنه جهل منهم، والكلام لابن الجوزي، لأنهم شرعوا في إطفاء مصباح يضيء لهم مع الإقدام على تضييع ما لا يحلّ[3] وهذا بتقديرنا موقف علمي لابن الجوزي أفتى به.

---

(1) الدرر الكامنة 3/ 39، الترجمة رقم 86.

(2) صيد الخاطر/ ص18، طبعة القاهرة سنة 1927م.

(3) صيد الخاطر/ ص17 - 18.

وبعد ذلك يذكر جملة أسماء دفنوا كتبهم مثل يوسف بن أسباط، ولم يصبر على التحديث فخلط فعدّ في الضعفاء، حيث أنه كان قد دفن كتبه، وبذلك يقول: جئت إلى الجزيرة، فلما نضب الماء دفنتها، حتى جاء الماء عليها فذهبت، وعندما سئل عن ذلك وما حمله عليه قال: أردت أن يكون الهمّ همّا واحداً، وقد كان لابن الجوزي موقف رافض لهذا الفعل بكل تأويلاته[1].

أما على الصعيد السياسي، فقد كان للمكتبات دوراً هاماً في تنمية الفكر ورفع وعي الناس، ولعبت الحركات الفكرية والسياسيّة دوراً هاماً في هذه المسألة، وقد حازت المعتزلة قصب السبق في ذلك فقد اهتموا بالعلوم والفلسفة، ونشطوا في دراسة ما انتهى إلى عصرهم منها، وأكبّوا على ترجمتها إلى العربية، فأوتوا قصب السبق في حلبتها، وتهيّأ لهم قبل غيرهم من الاسلاميين المنهل الصافي من معانيها، ولمّا كانوا رجالاً مثقفين أدركوا ما للأدب من أثر جليل في إكمال الثقافة وتنوير العقول ولأنهم كانوا دعاة مقالة ورؤساء نحلة، وذلك يتطلب قبل كل شيء فصاحة في اللسان ومقدرة على طلب البيان، بما يتمكنون من محاججة الخصوم، وإفحام المخالفين، فكان منهم أئمة الادب وأرباب البلاغة[2]، وهذا يعني أن اهتمامهم كان منصباً على تهيئة المكتبات وإيداع الكتب بين يدي جماعتهم، وهو ما كان فعلا[3]، ولحقهم بهذا المضمار الدهرية والزنادقة والمانوية، وبقية الفرق الإسلامية، فقد اعتنوا بالكتب وجلّدوها بأفخم الجلود، وذهّبوها وتفننوا بزخرفتها وطرق العناية بها، فقد ذكر في أحداث سنة 309هـ/ 921م، وهي السنة التي اشتهر فيها أمر الحسين بن منصور الحلاّج، حيث أمر الوزير حامد بن العباس، بالجدّ في طلب أصحاب الحلاّج ومنهم ابن حمّاد والقنائي، فكبست دورهم وأخذ منها دفاتر كثيرة، فكانت مكتوبة في ورق صيني، وبعضها مكتوب بماء الذهب، مبطنة بالديباج والحرير، مجلّدة بالأدم الجيّد[4]، وهذه الحادثة تبرز مدى الاهتمام بالكتب والمكتبات من جهة، ومن جهة أخرى تظهر مدى الحقد السياسي في متابعة رجال الفكر، وحوادث التاريخ والأخبار كبيرة وكثيرة، تدل على ما للتعصّب من يد طولى في احراق الكتب، ولقد ضاع بسبب الاختلافات المذهبية، الكثير من الكتب، فلا يقرّ قرار فرقة من الفرق إلا باتلاف كتب

(1) المصدر السابق/ نفس المكان. وانظر كذلك: كوركيس عواد/ خزائن الكتب ص35 - 36.

(2) زهدي حسن جارالله: المعتزلة/ ص222 - 224، فصل مقام المعتزلة، طبعة القاهرة 1366هـ/ 1947م.

(3) راجع فصل: المكتبات الخاصة في هذا الكتاب.

(4) عُريب: صلة تاريخ الطبري/ ص 90 من طبعة ليدن سنة 1897. وكوركيس عواد/ ص21.

الأخرى، وليس هناك أقوى من الناس في ذلك فقد ورد في كتاب إلى الخليفة القادر بالله ببغداد من السلطان محمود بن سبكتكين، أنه في سنة 420هـ/ 1029م حارب الباطنية والمعتزلة والروافض، فطلب منهم جماعة وحوّل من الكتب خمسين حملاً، ما خلا كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض، فإنها أحرقت تحت جذوع المصلبين، إذ كانت أصول البدع، فخلت هذه البقعة من دعاة الباطنية وأعيان المعتزلة، والروافض وانتصرت السنّة[1].

وهذا الحدث يوضّح مقدار شدة الضغناء، والسادية المفرطة لدى هؤلاء السلاطين، ومدى الجهالة في محاربة العقل، وهو أمر يؤسف له، حيث يسود القرار السياسي لمذهب معيّن، على عقول بقية المذاهب، وانسحب هذا القرار الاعمى، في سياقه العام، على بقية الحركات الفكرية المناوئة للسلطة العباسية، وجرّت الجريرة ذيولها على الكتب، ففي سنة 311هـ/ 923م، ذكر ابن الجوزي الخبر التالي: وفي نصف رمضان أحرق على باب العامة[2] صورة «ماني» وأربعة أعدال من كتب الزنادقة، فسقط منها ذهب وفضّة، ممّا كان على المصاحف له قدر[3]، وقد مرّ بنا كيف أحرقتت كتب عبد السلام الجيلي.

كل هذه الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، من التي جرى الحديث عنها، أثّرت سلباً على تطور الحضارة العربية - الإسلامية في الأوان العباسي، وأوهنت في عضد البنية الثقافية - الحضارية، ولكن ما هو أهمّ وأوقع على هذه الحضارة هو غزو المغول بغداد وإسقاط الخلافة العباسية، وتدمير حضارتها على كل المستويات سنة 656هـ/ 1258م فلقد كانت هذه الهجمات البربرية مدمّرة لكل شيء، فقد كانت هجماتهم كالجراد الزاحف على الرياض الأنف، فقد وصف ابن خلدون هجومهم على بغداد بالشكل التالي: واتصل العبث بها/ ببغداد/ أياماً، وخرج النساء والصبيان وعلى رؤوسهم المصاحف والألواح، فداستهم العساكر، وماتوا أجمعين، ويقال - والعبارة لابن خلدون - أن الذي أحصي ذلك اليوم من القتلى ألف ألف وستمائة ألف، واستولوا من قصور الخلافة، وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضبط والعدّ[4]، هذا المشهد المريع يحكم على هؤلاء الهمج بفقدان كل وازع ديني وأخلاقي وانساني، لأن هذه الاقوام مخرّبة للحضارة الانسانية، لذلك سيكون الويل الاعظم منصبّا على الكتب والمكتبات، بكل عنف، لأنهم لا يميزون بين الصالح والطالح.

---

(1) ابن الجوزي/ المنتظم 8/ 40 - وانظر تفاصيل الخبر والرسالة على ص 38 - 40 حوادث سنة 420. وكوركيس عواد/ ص30.

(2) أحد أبواب دار الخلافة ببغداد.

(3) المنتظم 6/ 174 حوادث سنة 311.

(4) ابن خلدون: العِبر 3/ 537، طبعة بولاق المصرية - سنة 1284هـ.

وبهذا الصدد يقول ابن خلدون «وألقيت كتب العلم التي كانت بخزائنهم/ يقصد خزائن الخلفاء/ جميعا في دجلة، وكانت شيئاً لا يعبّر عنه، مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأوّل الفتح في كتب الفرس وعلومهم، ويضيف ابن خلدون «واعتزم هولاكوا على إضرام النار ببيوتها، فلم يوافقه أهل مملكته[1].

ويعرّج قطب الدين الحنفي بتاريخه[2] على هذه الحادثة الأليمة، فيصف أحوال الناس، ويتوقف مليّا باندهاش إلى ما آلت إليه خزائن الكتب بأيدي التتر فيقول: «ورموا كتب بغداد في بحر الفرات/ يريد نهر دجلة/ وكانت لكثرتها أجسُراً يمرون عليها ركبانا ومشاة، وتغيّر لون الماء بمداد الكتابة إلى السواد». . وهذا الخبر وان كان فيه شيء من المبالغة واضح، إلا أنه يعكس حالة الاندهاش عند المؤرخ لهول مشهد الكتب وكثرتها، وهي تلقى في النهر.

وثمة خبر هام، يذكر هول المصيبة على خزائن الكتب في أثناء اجتياح المغول لمدينة بغداد، وإباحتها للجند العبث بالممتلكات، ذكره ابن الساعي، قال: «إن المغول حين أسقطوا بغداد بيدهم سنة 656هـ/ 1258م، بنوا اسطبلات الخيول، وطولات المعالف بكتب العلماء، عوضاً عن اللبن»[3]، وهو بهذا يقترب بالمبالغة من خبر قطب الدين الحنفي، وعلى أية حال فإن الخسارة التي مني بها العالم الإسلامي، بصورة عامة، والعراق، بصورة خاصة، بسقوط بغداد، هي خسارة لا تعوّض، جعلت المشاعر تهتزّ لها، فترثى هذه أيما رثاء، وتذرف الدموع على آثارها والناس يستغيثون، وهناك حيث المجزرة الكبرى في سوق الورّاقين، ، والقضاء على مناهل العلم، يقف الشعراء والأدباء والورّاقون يرثون مدينتهم، والعلماء يبكونها، والوعّاظ يستحضرونها بأحاديثهم.

وقد انبرى شمس الدين محمد بن عبدالله الكوفي الواعظ إلى رثاء بغداد، فقال[4]:

بانوا ولي أدمع في الخدّ تشتبك ... ولوعة في مجال الصدر تعترك
بالرغم لا بالرضا منّي فراقهم ... ساروا ولم أدر أيّ الأرض قد سلكوا
يا صاحبي ما احتيالي بَعَد بعدهم ... أشر عليّ فإن الرأى مشترك

(1) العبر 3/ 357. وكوركيس عواد/ ص33.
(2) قطب الدين الحنفي/ كتاب الأعلام بإعلام بيت الله الحرام/ ص163، منشورات المكتبة العلمية بمكة 1370هـ.
(3) ابن الساعي/ مختصر أخبار الخلفاء/ ص127، طبعة بولاق، سنة 1309هـ. وكوركيس عواد/ خزائن الكتب/ ص102.
(4) الحوادث الجامعة/ ص334 - 335.

عزّ اللقاء وضاقت دونه حيلي فالقلب في أمره حيران مرتبك
يعوقني عن مرادي ما بليت به كما يعوق جناحي طائر شرك
أروم صبرا وقلبي لا يطاوعني وكيف ينهض من قد خانه الورك
إن كنت فاقد إلفٍ نِخْ عليه معي فاننا كلنّا في ذاك مشترك
يانكبةً مانجا من صرفها أحدُ من الورى فاستوى المملوك والملك
تمكنّت بعد عزّ في أحبتّنا أيدى الأعادي فما أبقوا ولا تركوا
لو أنّ ما نالهم يفدى فديتُهم بمهجتي وبما أصبحت امتلك
ربع الهداية أضحى بعد بعدهم معطّلاً ودم الإسلام منسفك
أين الذين على كل الورى حكموا أين الذين اقتنوا، أين الألى ملكوا
وقفت من بعدهم في الدار أسألها عنهم وعمّا حووا فيها وما ملكوا
أجابني الطلل البالي وربعهم الـ غالي: نعم ها هنا كانوا وقد هلكوا
لا تحسبوا الدمع ماء في الخدود جرى، مجرى وإنما هي روح الصبّ تنسبكُ

دلّت المعطيات الحضارية لنشوء هذه المكتبات إلى ظاهرة ثقافية متفشيّة عند أهل العراق خاصة، وبقية أمصار الخلافة الإسلامية، عامة، منطلقة بهذا الاشعاع الفكري من حاضرة الخلافة بغداد، تلك المدينة العباسية التي احتضنت مختلف التيارات السياسية والفكرية، فاتحة لهم أبواب مكتباتها العامّة والخاصّة، مقدمة التسهيلات لرواد العلم والمعرفة، فيما كان أعلامها من الأدباء والكتاب والعلماء والفقهاء، يسدون النصائح لمريديهم، فانتشر التعليم في بغداد، وأقبل الاعاجم على تعلّم اللغة العربية، لأنها كانت إحدى الوسائل للوصول إلى الحظوة والتقدير عند العامة، أوفى دوائر الدولة، وقد كان للخلفاء دور هام في إكرام العلماء، الأمر الذي شجّع الكثير منهم إلى موافاة العاصمة بغداد والتقرّب من القصر، وقد نحى الكثير من العلماء إلى بثّ المعرفة بين الناس، من موقع ديني - ثقافي، فهذا الفرّاء ينزع نحو إملاء «شرح القرآن» على التلاميذ في المسجد، مجاناً، ثم أملا عليهم «الحدود» في ذلك، نتيجة كون أصحاب الكسائي صاروا إليه، وسألوه أن يملي عليهم أبيات النحو، ففعل، فلما كان المجلس الثالث، قال بعضهم لبعض: إن دام هذا على هذا علّم النحو الصبيان، والوجه أن يقعد عنه، فقعدوا، فغضب وقال: سألوني القعود، فلما قعدت تأخروا، ثم قال: والله لأملين النحو ما اجتمع اثنان، ودام على هذه الحالة ست عشرة سنة[1].

(1) ابن النديم/ الفهرست/ ص99 - أخبار الفرّاء.

وسرى طغيان المعرفة على كامل هيكل الدولة العباسية تقريباً، فقد شقّ الخلفاء والامراء والوزراء طريق التعليم الدنيوى، وذلك بأن استقبلوا المعلمين في قصورهم، فاستقدم المنصور الشرقي بن القطامي، وأوكل إليه مهمة تأديب المهدي، واستدعى أيضاً المفضّل الضبّي، بعد أن كان غاضباً عليه، وعفا عنه، وضمّه إلى المهدي أيضاً، فيما كان الكسائي مؤدب الرشيد، ثم استدعاه الرشيد ابّان خلافته ليؤدب ولديه الأمين والمأمون، واتخذ الخلفاء ذلك تقليداً، فاستدعوا العلماء إلى قصورهم ليؤدبوا الامراء حتى(1).

لقد كان لهذا النهوض الثقافي انعكاساته الايجابية، فقد أدى انتشار التعليم وإقبال الناس على اقتناء الكتب وتأسيس المكتبات، إلى قيام سوق الورّاقين وانتشار مهنة الوراقة، كما أسلفنا، وقد أصبح هذا السوق محطّ أنظار العلماء والأدباء وغيرهم(2).

نرى فيما تقدم، أن للمكتبات أثر بالغ في رفع وعي الناس، حدا بهم لأن يتثقفوا ويتأدبوا وتسيسّوا، فظهر منهم العالم والاديب، والمؤرخ والفقيه والعالم، والخليفة والوزير والأمير والسلطان والنديم وغير ذلك.

لقد كانت المكتبات، دلالة حضارية لتلك العصور، وشاهدة تاريخية ما زالت تذكّر بذلك العصر الذهبي الخالد، وهي، من جهة أخرى، سمّو معرفي خطت به بغداد بكل ظواهرها الحضارية، خطوة نحو تخليد الانسان من خلال المعرفة.

---

(1) تاريخ بغداد 9/ 278 وما بعدها، وانظر كذلك، فهمي عبد الرزاق سعد: العامّة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ ص154 - 155 منشورات الاهلية - بيروت 1983م - ط1.

(2) أنظر اليعقوبي: البلدان/ ص245 - والخطيب البغدادى/ تاريخ بغداد 11/ 399/ ترجمة أبي الفرج الأصبهاني.

الباب الرابع

مكتبات الأمصار الإسلامية

بعد أن كشفنا عن حالة التطور الثقافي الهائل لحالة العصر العباسية للمجتمع العراقي في تلك الفترة، باعتباره، مركزالتأثير على كافة الأمصار الإسلامية، المحيطة به، والمتناغمة معه، أو التي تناصبه المقام، من حيث الموقف السياسي، والمنازلة الثقافيبة، كما هو عند الفاطميين في مصر، والأمويّون في الاندلس، إذ أن كلا الخلافتين، كانتا تودّان الظهور بقوة موازية لقوة العباسيين، في كافة المجالات، وقد كان المجال الثقافي هو الأبرز في هذا التنافس الحضاري، لذا سوف يكتشف القارىء، هذه المنافسة في «الكتاب والمكتبات» التي حوتها هاتين الخلافتين، ناهيك عن أمصار بلاد فارس وبلاد الشام، اللّتان كانتا ضمن بُنيان الدولة العباسية - إدارياً وسياسياً - من حيث العموم، رغم الخصوصية، التي ظهرت فيما بعد، لذلك. سنذكر «مكتبات بلاد الشام، وبلاد فارس» ضمن حاضر الدولة العباسية، ومن ثم تليها، مكتبات الفاطميين في مصر، ثم الأمويين في الأندلس.

الفصل الأول

مكتبات بلاد الشام

1 - خزانة كتب في الجامع الأموي:

نسبَ - ياقوت الحموي، هذه المكتبة، إلى «زيد بن الحسن الكندي البغدادي» المتوفى سنة 597هـ، ويذكر «بأنها كانت خزانة كتب جَليلة»[1]. كان الكندي البغدادي قد أوصى بأن توقف تلك الخزانة على جامع بني أميّة، لينتفع بها الناس، وقد اعتاد الكثير من العُلماء وغيرهم بأن «يوصوا» بوقف كُتُبهم على الجوامع والمساجد وغيرها من الأماكن[2].

---

(1) معجم الأدباء 8/ 35.

(2) المكتبات في الإسلام/ ص84.

2 - خزانة كتب السُلمي بالجامع الأموي:

هي الخزانة الثانية التي يتحدث عنها ياقوت الحموي، وينسبها إلى «علي بن طاهر السُلمي» وهو أحد «الشيوخ» في ذلك المسجد، حيث كانت لَهُ «حلقة دراسية فيه» وعندما توفيَ أُوقفت مكتبتهُ على الجامع، بناءً على «وصيّته» وسمّيت بإسمه، وفيها كتبهُ[1].

3 - كتب الخزانة الشرقية بجامع حَلَب:

ورد ذكر هذه المكتبة عند ابن العديم في كتابه «الإنصاف والتحري» حيث ذكر أن خزانة كتب الشرقية التي بجامع حَلَب، نُهبت في بعض أيام عاشوراء بين أهل السُنّة والشيعة، وكان ذلك في زمن أبي العلاء المعرّي، ولم يبقَ في خزانة الكتب إلا القليل، وجَدّد الكتب فيها - فيما بعد - الوزير أبو النجم هبة الله بن بديع، وزير الملك رضوان، ثم وقف غيره كتباً أخرى بها[2].

4 - خزانة كتب التربة الأشرفية بدمشق:

جاء ذكرها في سياق حديث ابن خُلّكان حول ديوان شعر للبهاء أسعد بن يحيى الشاعر والذي لم يجده، ووجدهُ أخيراً في خزانة كتب التُربة الأشرفية بدمشق، وهو ديوان في مجلد كبير[3].

5 - مكتبة جمال الدين القفطي بحلب:

صاحبها هو «جمال الدين القفطي»، كان وزيراً في حلب للملك العزيز، ولد عام 1172م، وتوفي عام 1248م، من كتبه «أخبار العلماء بأخبار الحكماء» و«أنباه الرواة على أنباه النُحاة» و«أخبار مصر» و«إصلاح خلل الصحاح»[4].

وكان القفطي، صدراً محتشماً كامل السؤدد، جمع من الكتب ما لا يوصف، وقصد

(1) معجم الأدباء 13/ 258، وراجع كذلك د. حمادة: المكتبات في الإسلام/ ص89.
(2) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص85.
(3) وفيات الأعيان 1/ 193.
(4) راجع - المنجد في اللغة والأعلام/ منجد الأعلام/ الطبعة 22/ ص441 - مادة (القفطي).

بها الآفاق، وكان لا يحب من الدنيا سواها، ولم يكن لهُ داراً ولا زوجة، وقد أوصى بكتبِهِ للناصر - صاحب حلب - وكانت تساوي خمسين ألف دينار، ولهُ حكايات غريبة في غرامه بالكتب[1]، وقد اتصل به ياقوت الحموي، وجرت بينهما مراسلات سابقة، وقد باع لهُ ياقوت بعض الكتب التي كان يتاجر بها[2].

6 - مكتبة الصاحب - أمين الدولة/ بدمشق:

كان الصاحب وزيراً للملك الصالح إسماعيل الأيوبي في دمشق، وقد توفّي سنة 638هـ. كان ذو همّةٍ عالية في الجمع للكتب وتحصيلها، واقتنى كتباً كثيرة فاخرة في سائر العلوم. وكان الورّاقون - النُسّاخ - أبداً يكتبون له، حتى أنَّهُ أراد مرة نسخة من «تاريخ دمشق» للحافظ ابن عساكر وهو بالخط الدقيق، ويقع في ثمانين مُجلداً، فقال: هذا الكتاب الزَمن يقصر أن يكتبهُ ناسخ واحد، فَفَرَّقة على عشرة نُسّاخ كل واحد منهم ثمانية مجلدات، فكتبوهُ له في نحو سنتين، وصار الكتاب بكمالهِ عنده، وهذا من علوّ همّته[3]. وقد نافت مكتبته على 20 ألف كتاب[4].

7 - مكتبة ابن المطران بدمشق:

هو موفق الدين بن المطران، من أطباء دمشق، ومعاصراً لصلاح الدين الأيوبي، ومات في زمانه، كان ذو همّةٍ عالية في تحصيل الكتب، حتى أنَّهُ، عندما توفي وجد في خزانته من الكتب الطبيّة ما يناهز عشرة آلاف مجلّداً، خارجاً عمّا، وكانت له عناية بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها، وكان في خدمته ثلاثة نُسّاخ يكتبون له أبداً، ولهم منه «الجامكية والجراية = رواتب معلومة» وكان من جملتهم جمال الدين، المعروف بإبن الجمالة، وكان خطّه منسوباً[5].

---

(1) انظر: محمد بن شاكر الكتبي/ فوات الوفيات 2/ 193، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، منشورات مكتبة النهضة، القاهرة 1951م.

(2) راجع كتابنا/ ورّاقو بغداد في العصر العباسي/ ص512 - ترجمة ياقوت الحموي.

(3) إبن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء 3/ 386، وراجع كذلك - د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص94.

(4) طبقات الأطباء 3/ 386، وفيها قصة أهداء كتاب (طبقات الأطباء له).

(5) طبقات الأطباء/ 3/ 292 - 293. وحمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص95.

8 - مكتبة بني عَمّار في طرابلس الشام:

حكم بنو عَمّار قسماً من الساحل السوري (ق 5هـ) واستمرّوا على ذلك حتى زمن الحروب الصليبية، وقد كانت، طرابلس الشام عاصمتهم، وهؤلاء كانوا «شيعة إسماعيلية» وقد اهتموا بنشر مذهبهم، لذلك أوجدوا (دار العلم) في طرابلس، وكان أمراؤهم يلقبون بالقضاة. كالقاضي جلال المُلك أبي الحسن علي بن محمد بن أحمد، والقاضي أبي طالب الحسن، واهتمّوا جميعاً بهذه المكتبة[1].

وكان لهم سُعاة ووكلاء يجوبون الأمصار الإسلامية بحثاً عن الكتب والمخطوطات النادرة، وقد كان يشتغل فيها من الورّاقين 180 ناسخاً يتناوبون العمل ليل نهار، وفي هذه المكتبة عدد كبير جداً من الكتب بخطوط مؤلفيها، بشتّى علوم المعرفة الإنسانية، من طب وفلك وتنجيم وفلسفة وأدب وتاريخ، وتشير المصادر إلى أن عدد كتبها بلغ ثلاثة ملايين مُجلّد[2]، منها خمسون ألف نسخة من القرآن الكريم، وثمانون ألف نسخة تفاسير[3]، وقد أحرق الصليبيون هذه المكتبة سنة 502هـ/ 1009م[4].

9 - مكتبة المارستان النوري بدمشق:

هي المكتبة الملحقة بيمارستان «نور الدين الشهيد» بدمشق حيث أنَّهُ عمل ذلك «المستشفى» والذي عُرف بإسمهِ، وجعل أمر إدارته إلى الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة 570هـ، وفيه «خزانة كتب للدراسة النظرية والمطالعة في أمور الطب»[5].

10 - خزانة كتب جامع حلب:

هي «مكتبة وقف» أودعها الناس، من عُلماء وغيرهم على هذا الجامع، وظلّت على حالها إلى أن جاء أحّد أنصار صلاح الدين الأيوبي، وإسمهُ «محمد بن أبي السعادات المسعودي» وصادر كتباً كثيرة من هذه المكتبة، وذلك سنة 579هـ عندما دخل صلاح الدين حلب[6].

---

(1) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص133.
(2) شوشتري أ - م أ -: مختصر الثقافة الإسلامية/ ص167، منشورات مطبعة بانغالور - 1938م.
(3) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص134 وأنظر بقية التفصيلات عنده.
(4) المصدر السابق/ حيث فيه تعليقات د. حمادة/ على حادثة الحرق.
(5) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص145.
(6) إبن خلكان: وفيات الأعيان، 4/ 23 - 24.

11 - مكتبة ابن يوسف المنازي:

هي تلك المكتبة التي أوقفها أبو نصر أحمد بن يوسف المنازي المتوفّى سنة 437هـ، على جامع ميا فارقين وجامع آمد، وقد كان هذا الرجل أديباً كاتباً وشاعراً ومن أعيان الفضلاء، وكانت كتبه كثيرةً، وقد عُرفت هذه الكتب «بكتب المنازي»(1).

12 - مكتبة السعدي الدمشقي:

هي تلك المكتبة التي أوقفها، محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل ضياء الدين السعدي الدمشقي، حيث أنه بنى مدرسة على باب الجامع المظفري بدمشق، وأعانَهُ عليها أهل الخير، وجعلها دار حديث، ووقف عليها كتبه وأجزاءه(2) وكان ذلك في أوائل القرن السادس الهجري(3).

الفصل الثاني:

مكتبات بلاد فارس

1 - مكتبة المسجد الجامع في مرو الشاهجان:

تتكون هذه المكتبة من خزانتين رئيسّيتين، وفق رواية ياقوت الحموي، الأولى يُقال لها «العَزيزيّة» أوقفها رجلٌ يقال له «عز الدين أبو بكر عُتيق الزنجاني» من أتباع السلطان سنجر، وكان فيها إثنا عشر ألف مُجلّد(4).

والثانية تُسمّى «الكَمالية». لم يُنسِبها ياقوت لأحد، ولا عرّج على نسبتها حمادة(5). بل نقلها كما وردت عند ياقوت.

---

(1) إبن خلكان: وفيات الأعيان 1/ 126.

(2) محمد بن شاكر الكتبي/ فوات الوفيات 2/ 471 - 472، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1951م.

(3) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص174.

(4) معجم الأدباء 8/ 35.

(5) د. حماده/ المكتبات في الإسلام/ ص84.

2 - المكتبة الضُميرية في خانقاه بمرو:

هي ضمن المكتبات التي شاهدها ياقوت الحموي في خانقاه في مرو بين المكتبات التي زارها هناك[1].

3 - مكتبة ابن العميد:

صاحب هذه المكتبة واحد من مشاهر أئمة الكتابة والترسل في الثقافة العربية - الإسلامية، كنيتهُ أبو الفضل، واسمُه محمد/ت 970م[2]، كان شاعراً وأديباً، ولي الوزارة لركن الدولة البويهي، ضرب المثل بهِ في الكتابة حتى قيل «بدأت الكتابة بإبن العميد وانتهت بعبد الحميد».

ما أن تولّى الوزارة - في عهد بني بويه - حتى عهد بعناية مكتبتهِ إلى المؤرخ المشهور ابن مسكويه، لأنه كان شغوفاً بالكتب وجمّاعاً لها في مختلف العلوم والفنون وكل أنواع المعارف، وكانت مكتبته تُحمل - في حال تنقلاته - على مائة وقر «حمل جَمل»[3].

وقد ظلَّ طوال حياتهِ يتعهَّدها بعناية خاصة، ويغذّيها بعلمِه وأدبِه، وكان ضنيناً بكتبهِ حريصاً عليها، لا يعادلها أي مال، وقد روى ابن مسكويه حادثة «جُند الخُراسانية» الذين أغاروا على الري - مدينة ابن العميد - ومقرّه «باكروا الحرب ودخلوا المدينة من ناحية أجران، وفيها دار الأستاذ الرئيس[4]، فحاربهم فكسرهم، ثم كثروا عليه ولم يولِّ منهم، ودافع عنه الأتراك الذين معه، وانكسر الأستاذ الرئيس... ومَعَهُ السلار فرجعا إلى دار الإمارة، واشتغل الخُراسانية بنهب دارهِ واصطبلاّته، وخزائنه، وكانت موفورة جامعة، إلى أن أتى الليل وانصرفوا، وكان إليَّ، والحديث لإبن مسكويه/ خزانة كتبهِ/ فسلمت من بين خزائنه ولم يُتعرَّض لها، فلما انصرف إلى منزلهِ ليلاً لم يجد فيهِ ما يجلس عليه، ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماء، فأنفذ إليه ابن حمزة العلوي فِرشاً وآلة، واشتَغَلَ قَلبُهُ بدفاترِهِ، ولم يكن شيء أعزَّ عليه منها، وكانت كثيرة، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحِكم والأدب، يحمل على مائة وقر وزيادة. فلمَّا رآني سألني عنهاً فقلت: هي بحالها، لم تَمُسَّها يَدٌ،

(1) معجم البلدان 8/ 36، مطبعة السعادة، القاهرة 1906، وراجع أيضاً: حمادة: المكتبات في الإسلام/ ص86.

(2) المنجد في اللغة والإعلام - منجد الإعلام/ ص11.

(3) إبن أبي أصيبعة/ طبقات الأطباء 2/ 180.

(4) لقب ابن العميد الرسمي في الدولة البويهية.

فسُرّي عنه وقال: أشهدُ أنَّك ميمون النقيبة، أما سائر الخزائن فيوجد فيها عوض، وهذهِ الخزانة هي التي لا عوض عنها... ورأيتَهُ قد أسفرَ وجهَهُ وقال: باكر بها في غد إلى الموضع الفلاني، ففعلت، وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله(1).

وبهذه المكتبة إشتغل ناسخاً الأديب المشهور «أبو حيّان التوحيدي» ولهُ مع ابن العميد حكايا ومواقف أدّت إلى التجافي الحاد بينهما(2).

4 - مكتبة الصاحب بن عَبّاد:

هو إسماعيل بن عَبّاد، ولقَبُهُ الصاحب/وُلد 938 وتوفي عام 995م/ وهو تلميذ ابن العميد وابن فارس - اللغوي، عُرف عنه حُبّه للأدب واللّغة، إستوزر أيام البويهيّن لمؤيد الدولة وفخر الدولة، وحين تسنَّم الوزارة قرّب الأدباء والشعراء. ولهُ سجع فريد وإيجاز جميل وَضِّحت فيه مجموعة رسائله، ومن أشهر كتبه (المحيط) وهو معجم لغوي في سبعة مجلدات. وكتاب «الوزراء» و«الكشف عن مساوىء شعر المتنبي» و«جوهرة الجمهرة» و«كتاب الرسائل» ولهُ أشعار عذبة وجميلة(3)، وهو أول وزير بويهي يُلقَّب «بالصاحب» وكان محبّاً للآداب والعلوم، شغوفاً بجمع الكتب، وقد اختصَّ بخدمته مجموعة من الأدباء والأطبّاء، وقد ألَّف لهُ هؤلاء كتباً سمّوها بإسمهِ. منها (كُنّاش) عَمله جبرائيل بن يختشوع وسَمّاه «الكافي بلقب الصاحب»(4) وكافئه عليه بألف دينار(5)، فيما ألّف لَهُ اللغوي المعروف «أحمد بن فارس» سَمّاه «الصاحبي» خاص لخزانتة(6).

وقد ذكرت المصادر أن مكتبته حوت حمولة أربعمائة جمل(7). ويروى عَنه أنَّه كان يستصحب مَعهُ، أثناء تنقلاته وأسفارهِ حمل ثلاثين جملاً، من كتب الأدب ليطالعها أثناء ذلك، ولمّا وَصَل إليه كتاب «الأغاني» لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه، إستغناءً به عنها(8). وقد قال الصاحب في معرض حديثه عن هذا الكتاب - الأغاني: «لقد اشتملت

(1) إبن مسكويه/ تجارب الأمم وتعاقب الهِمَمْ 6/ 224، طبعة القاهرة 1915م، وراجع/ المكتبات في الإسلام/ ص89.
(2) راجع كتابنا/ ورّاقو بغداد في العصر العباسي/ ترجمة أبي حيان التوحيدي/ ص 490 - 497.
(3) المنجد في اللغة والأعلام/ منجد الأعلام/ ص342.
(4) إبن أبي أصيبعه/ طبقات الأطباء 2/ 77.
(5) المصدر السابق 2/ 74 - 75.
(6) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 4/ 84.
(7) المصدر السابق 6/ 285.
(8) إبن خلّكان - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان 2/ 468.

خزانتي على مائتين وستة آلاف مجلّد ما منها ما هو سَميري غيره، ولا راقني منها سواه»[1].

إستقدم الصاحب بن عبّاد أبا حيّان التوحيدي، ليورّق له كتبه وتصانيفه، ويبدو أن المنصب السياسي، هو الذي يفرض سطوته على أخلاق الأديب، عندما يتولاه، إذ أن «حادثة الخصام بينه وبين أبي حيّان التوحيدي تبرز ذلك بجلاء، فلا يمكن للصاحب أن يكون بمستوى قامة أبي حيان الثقافية، ولا بمستوى إسلوبه وأدبه الرفيع، لذلك حاول أن يستحقر أبي حيان، ووضعه في السجن لمدة سنة، ثم طرده من الري، وقد أثّرت هذه الحادثة في حياة أبي حيان التوحيدي، وسلّط جام غضبه عليه بكتابه الشهير «أخلاق الوزيرين»[2]، ومن جملة ما قاله التوحيدي في ثلم شخصية هذا الوزير قوله: «فلم أرىَ بعد ذلك إلاّ الخير، حتى عَراهُ نوكٌ آخر (حماقة) فوضعني في الحبس سنة، وجمع كتبي وأحرقها بالنار، وفيها كتب الفَرّاء والكسائي ومصاحف القرآن وأصول كثيرة في الفقه والكلام، فلم يميّزها من كتب الأوائل، وأمر بطرح النار فيها، من غير تثبّت، بل لفرطِ جهله وشدّة نزقه، فهلاّ طرح النار في خزانته وفيها كتب ابن الراوندي وكلام ابن أبي العرجاء في معارضته القرآن بزعمه، وصالح بن عبد القدوس أبي سعيد الحصيري، وكتب أرسطوطاليس وغير ذلك، ولكن من شاء حمق نفسه[3]، ولمّا مات الصاحب بن عبّاد وقف مكتبتهِ على مدينة الري، وحين زارها بعد فترة حكم البويهيين السلطان محمود الغزنوي، وكان مبغضاً للروافض «الشيعة» وبنو بويه شيعه، فأوغروا صدرهِ إذ قيل له: «أن هذه الكتب كتب الروافض وأهل البدع، فاستخرج منها كل ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه»[4]. ومع هذا الحرق، ظلّت هذه المكتبة عامرة ضخمة بمحتوياتها، إذ أن البيهقي زارها - كما يقول ياقوت الحموي، فوجد فيها فهرست تلك الكتب عشر مجلّدات[5].

وقد جلبت هذه المكتبة إنتباه العالِم المؤرخ وول ديورانت، فخصّها بعبارة جميلة بكتابه «قصة الحضارة» حيث يقول: «وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عبّاد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوربية مجتمعةً[6].

(1) ياقوت معجم الأدباء 13/ 97.

(2) راجع كتابنا: ورّاقو بغداد في العصر العباسي/ ص494، لترى مقدار التجافي بينهما.

(3) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 6/ 216 - 217.

(4) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 6/ 258 - 259.

(5) المصدر السابق/ نفس المكان.

(6) ديورانت: قصة الحضارة، 13/ 170، وراجع كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص91.

5 - مكتبة مُراغة:

أسّسَت هذه المكتبة بإشراف وتوجيه العالِم نصير الدين الطوسي، بعد أن إختار أجمل الكتب وأثمنها قيمة علميّة من مكتبات بغداد العباسيّة إبّان سقوط المغول للخلافة العباسية، حيث أنّه كان مرافقاً للحملة ويؤرّخ لهولاكو، وهو ذو نزعةٍ إسماعيلية، وقد أصبحت مُراغة أيام المغول عاصمة المشرق، وقد أنشأوا فيها معهداً علمياً ومرصداً فلكيّاً، وخزانة كتب عظيمة، واستقدموا إليها علماء في الرياضيات والفلك والطب[1] وقد جمع نصير الدين الطوسي في هذه المكتبة كتباً كثيرة بلغت أربعمائة ألف مُجلّد، أغلبها أُخذت من مكتبات البلدان التي اقتحموها ونهبوها كبغداد والشام والجزيرة، ومكتبة الحسن بن الصباح في «الموت»[2]، وقد كان مرصد مراغة هو الأساس العلمي في تكوين هذه المكتبة، إذ أن نصير الدين الطوسي، كان أحد المشتغلين بعلوم الفلك والفلسفة، لذلك إستقدم إلى هذا المكان هذه الكتب ودعا المنجمين والفلاسفة إليه[3]. يقول صاحب «الحوادث الجامعة في المئة السابعة»: «أنّه في سنة 662هـ وصل نصير الدين محمد الطوسي إلى بغداد لتصفح الأحوال والنظر في أمر الوقوف «الأوقاف» والبحث عن الأجناد والمماليك، ثم انحدر إلى واسط والبصرة، وجمع من العراق كتباً كثيرةً لأجل المرصد[4].

واستمرت هذه الخزانة بعد وفاة مؤسسّها نصير الدين الطوسي، وذلك بفضل الأوقاف التي أوقفها عليها، وحتى بعد وفاته، فقد نهضَ بشأنها أولاده من بعده على سُنّة والدهم، ولكنها هَزُلت بعدُهم إلاّ أنَّ حُسنَ حضها أن أُسندت أمرَ رعايتها والإشراف عليها للمؤرخ البغدادي المعروف (إبن الفوطي) أكثر من بضعة عشر سنة، وكان نشطاً، مؤدَّباً، حَسِنُ الخطّ جداً، واتَّصَل بكثير من العلماء والأدباء وأرباب الفن وأهل الرياسة، - على تباين أجيالهم واختلاف بلادهم ومُلَلِهِمْ، وطالعَ كثيراً من الكتب في شتّى الموضوعات، فاتسعت ثقافته، ونمت معرفته في جميع فروع المعرفة الدينية والأدبية والاجتماعية، حتى أنّهُ ألّفَ المؤلفات الرائعة في التاريخ والأنساب وغيرها[5].

---

(1) انظر: حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص107.

(2) سوف نعرّج على ذكرها في هذا الفصل.

(3) الكتبي، محمد بن شاكر، فوات الوفيات 2/ 307.

(4) إبن الفوطي/ الحوادث الجامعة في المئة السابعة/ ص350، وانظر كذلك، حمادة، المكتبات في الإسلام/ ص107.

(5) حمادة: المكتبات في الإسلام/ ص107.

ومن أشهر مؤلفاته التاريخية «الحوادث الجامعة في المئة السابعة» وتلخيص مجمع الأداب في معجم الألقاب[1].

6 - مكتبة «قلعة أَلَمُوت»:

هي المكتبة الكبيرة التي أسَّسها صاحب الدعوة الإسماعيلية - النزارية في الموت، الحسن بن الصَبّاح - شيخ الجبل المعروف[2]، وقد كانت واحدة من أكبر المكتبات عندهم. وعندما أسقط هولاكو قلعة «أَلَمُوت» سنة 654هـ/ 1255م فإن المؤرخ الجويني، والذي كان مرافقاً لحملة هولاكو، ومؤرخه الخاص، فقد أخذ أنفس الكتب وأندرها، ثم أحرقوها[3]، وأُودعت كثير من كتبها في «مرصد مراغة».

7 - مكتبة بُخارى:

أَسَّسَ السامانيون لخلافتهم في بُخارى - عاصمتهم - مكتبةً كبيرة حوت على نوادر هامة من كتب العلم والطب والفنون الأخرى، وكانت تلك المكتبة متعدّدة «البيوت في فنائها، في كل بيت صناديق كتب منضّدة فوق بعضها البعض، في بيت كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد» كما يقول ابن سينا، ويضيف: «ورأيت من الكتب ما لم يقع إسمهُ إلى كثير من الناس قط، وما رأيته قبل ولا رأيته أيضاً من بعد»[4].

ويبدو أن هذه المكتبة كانت عائدة إلى سلاطين بخارى، لذلك كانت محصورة فيهم فقط، ومن الصعوبة بمكان الدخول إليها، وبحيلة طبيّة، تمكّن ابن سينا من الدخول إليها، بعد أن أشفى سلطان بخارى «نوح بن منصور» وطلب منه السماح بالدخول إلى المكتبة لمطالعة كتب الطب فيها، فأذن لَهُ، واطّلع على ما فيها من نفائس الكتب وكنوزها، وحصل منها بكتب من علم الأوائل واطّلع على أكثر علومها»[5].

---

(1) لقد كان علاّمة العراق الراحل د. مصطفى جواد مولعاً بكتابات «إبن الفوطي» وحقّق بعقله وقلمه تلك الكتب بإبداع بدمشق وبغداد عام 1932م.

(2) عن مؤسس هذه المكتبة، الحسن بن الصبّاح راجع كتابنا: عمل الدُعاة الإسلاميين في العصر العباسي/ أشهر دعاة المدرسة الإسماعيلية/ ص251 وما بعدها إلى ص 273.

(3) انظر - كوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة/ ص188.

(4) القفطي: تاريخ الحكماء/ ص416، تحقيق جوليوس ليبرت، ليبسك 1903م.

(5) إبن خلّكان: وفيات الأعيان 1/ 420، وانظر قصة دخول ابن سينا إليها عند د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص110.

8 - مكتبة عضد الدولة البويهي في شيراز:

هو واحد من أشهر ملوك بني بويه، وإسمهُ (فَنّا خسرو) ت 372هـ. وأبوه «ركن الدولة البويهي» كان من رُعاة العِلم والأدب، أنشأ البيمارستان العضدي في بغداد، واستوزر الصاحب بن عبّاد[1] أنشأ هذا الملك بشيراز دار كتب عظيمة طار صيتها في الآفاق، يصف المقدسي هذه المكتبة بالقول: «وخزانة الكتب حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد، ولم يبقَ كتاب من أنواع العلوم كُلّها إلاّ حصل منها، وهي أزج طويل في صفة كبيرة فيه خزائن من كل وجه، وقد أُلصِقَ إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة إلى عُرض ثلاثة أذرع من الخَشب المزوّق، عليها أبواب تنحدرُ من فوق، والدفاتر منضّدة على الرفوف، كل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب، لا يدخلها إلاّ وجيه» ويضيف (المقدسي): «وطفتُ في هذه الدار كُلّها سفلها وعلوها، وقد فُرشت فيها الآلات، فرأيت في كل مجلس ما يليقُ به من الفِرش والستور»[2].

ويذكر أيضاً: «أن ذلك الأزج قد فُرش ببساطٍ عباداني وعُقد على بابهِ رواق»، وقال: «وقرأت في كتاب بهذه الخزانة: أهل فارس أنجع الناس بطاعة السلطان وأصبرهم على الظُلم، وأثقلهم خراجاً، وأذهلهم نفوساً»[3] وقد إشتغل (إبن البَوّاب) الخطّاط المشهور[4] في هذه المكتبة بصفته قيّماً عليها، وبها وجد «القرآن» بخط ابن مُقلّة (29 جزءً) وهو قام بخط الجزء الثلاثين، على نفس منوال وخط ابن مقلة[5].

9 - مكتبات مرو العشرة:

ذكر ياقوت الحموي أن عدد المكتبات في (مرو) في زمانه (القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري، بلغ عشر خزائن، بعضها في الجوامع وبعضها في المدارس،

---

(1) المنجد في اللغة والأعلام/ المنجد في الأعلام/ ص375 - وراجع بعض التفاصيل عند حمادة، في وصفهِ للدار التي حوت هذه المكتبة/ المكتبات في الإسلام/ ص110.

(2) المقدسي/ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/ ص449، تحقيق مارجليوت ليدن، بريل 1906م.

(3) المصدر السابق/ نفس المكان.

(4) أنظر: كتابنا/ خطّاطو بغداد في العصر العباسي/ الفصل الثالث، ترجمة ابن البوّاب/ ص99 وما بعدها منشورات دار النمير بدمشق، ط1، 1996م.

(5) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 15/ 122 وما بعدها، وراجع كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص113.

وبعضها في الخوانق، وبعضها في أبنية خاصة)[1]. أي أنها، مكتبات عامة، كما يقول د. حمادة[2].

إذ أن هذه المكتبات كانت المطالعة فيها حرة والإعارة الخارجية فيها تكون من غير رهن[3]. وقد كان ياقوت «يرتع في هذه المكتبات ويقتبس منها، وأنهى كتابه/ معجم البلدان» في تلك المكتبات.

10 - مكتبة ساوة:

هي دار كتب عامرة جَليلة، يصفها ياقوت الحموي بأنها «لم يكن في الدنيا أعظمُ منها»[4].

11 - مكتبة ابن سوار الكاتب في رام هرمز:

إبن سوّار هو أبو علي بن سوار الكاتب، أحد رجال حاشية عضد الدولة البويهي، المتوفى سنة 372هـ، وقد أنشأ هذه المكتبة في مدينة رام هرمز على شاطىء الخليج العربي[5].

12 - مكتبة دار العِلم - بنيسابور - :

هي الدار التي أنشأها القاضي ابن حبّان في مدينة نيسابور كدار للعلم، ألحقت بها تلك المكتبة، وجعل في هذه الدار مساكن للطُلاّب الغُرباء الذين يفدون لطلب العِلم وأجرى لهم الأرزاق، واشترط عدم إعارة الكتب إعارة خارجيّة، وإنما استعمالها فقط محصور في مبنى الخزانة[6] وقد توفي هذا القاضي سنة 345هـ[7].

---

(1) معجم البلدان 8/ 36.
(2) المكتبات في الإسلام/ ص127.
(3) ياقوت الحموي/ المصدر السابق - نفس المكان.
(4) نقلاً عن د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص128.
(5) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص128.
(6) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري 1/ 248.
(7) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص161.

الفصل الثالث

مكتبات مصر الفاطمية

1 - مكتبة دار الحكمة في القاهرة:

كانت هذه المكتبة واحدة من أكبر الإنجازات المعرفية في العهد الفاطمي في مصر، بدأ من إحتلالها سنة 357هـ - على يد المُعز لدين الله الفاطمي، وحتى سقوطها على يد صلاح الدين الأيوبي سنة 567هـ. إذ شكلت هذه المكتبة واحدة من كبريات المكتبات العالمية، من حيث توجهها الأكاديمي، والعلوم والمعارف التي كانت تحويها.

أسَّسَ الحاكم بأمر الله الفاطمي هذه المكتبة سنة 395هـ، وقد أُختير الإسم لمدلول سياسي - مذهبي، حيث كانت الدعوة الإسماعيلية التي ينتمي إليها الفاطميون تستخدم تسمية «مجالس الحكمة» للدلالة على توجهاتهم الفكرية - الشيعية - الإسماعيلية، إذ كان الهدف من دار الحكمة، هو تلقين أصول المذهب لدعاة الدولة الفاطمية وكيفية إعداد الدُعاة فكرياً[1] وتنظيمياً وإدارياً.

لقد اتخذ الحاكم بأمر الله، بناءً خاصاً بها، وأفرد لها داراً كبيرة، بالقرب من القصر الغربي، يدخل إليها من باب البتّانين تُعرف بدار مختار الصقلبي. وقد أفتُتحت هذه (المكتبة) يوم السبت العاشر من جمادي الاخرة سنة 395هـ، الموافق 5 آذار/مارس 1005م. وقد فُرشت بأنواع السجاد والفرش، وزُخرفت، وعلّق على جميع أبوابها وممرّاتها الستور، وجُعل فيها القُوّام والخدم والفراشون وغيرهم، سُمّوا بخدمتها، وقد نقل إليها - الحاكم بأمر الله - أعداداً غفيرة من الكتب الموجودة في خزائنه الخاصة ومن سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة، ما لم يُرَ مثلَهُ مجتمعاً لأحدٍ قط من الملوك، كما يقول المقريزي[2].

(1) راجع كتابنا «عمل الدُعاة الإسلاميين في العصر العباسي «فصل - ثقافة الداعي ص93. حيث هناك تفصيلات كثيرة عن الفاطميين بهذا الجانب.

(2) الخطط والآثار 2/ 337.

وقد روعي بتقسيماتها - الإدارية - أن تكون حاوية لمختلف الإختصاصات العلمية، لذلك قُسّمت إلى: قسم الفقهاء، وقسم لقُرّاء القرآن الكريم، وقسم ثالث للمنجمين، وقسم رابع للغة والنحو، وقسم خاص للأطباء(1).

وقد جعل الحاكم بأمر الله هذه المكتبة برسم العامة من الناس، على مختلف طبقاتهم ممَّنْ يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها، فكان ذلك من المحاسن المأثورة أيضاً، التي لم يسمع بمثلها، ذلك أنّه، أي الحاكم، أعطى رواتب لمن رَسِمَ له الجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره(2) وقد حضرها الناس من مختلف الأجناس، فمنهم مَنْ يحضر لقراءة الكتب، ومنهم مَنْ يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلّم، وقد جُعلَ فيها ما يحتاج إليه الناس من الحِبر والأقلام والورق والمحابر(3). وقد رصدَ الحاكم أموالاً طائلة للإنفاق عليها، وقد خَصَّص قسماً من أملاكِه الخاصة وأوقفها على هذه المكتبة، وقد وُجدَ فيها قاعات للمحاضرات والمناظرات، أتخذت طابعاً حُرّاً في البدء، فدعي إليها الشيوخ من المذهبين - السُنّي والشيعي - وقرئت فيها فضائل الصحابة، وكان يشرف على سير الدراسة فيها داعي دُعاة الدولة الفاطمية، الداعي المشهور،أحمد حميد الدين الكرماني(4). وقد أستثيرت النزاعات الطائفية في هذه المساجلات الدينية، الأمر الذي حدا بالوزير الفاطمي «الملك الأفضل» إلى إغلاقها في أوائل القرن السادس، بسبب فتنة ابن القصّار فيها وذلك سنة 517هـ(5).

ثم أعيد فتحها في زمن الوزير المأمون، وزير الخليفة الآمر بأحكام الله، شرط أن يكون المتولي عليها رجُلاً ديّناً، اي داعي الدُعاة، ويقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن، فاستخدم فيها أبو محمد الحسن بن آدم، فتولى أمرها واستخدم فيها المقرئون حسبما أراد(6).

---

(1) د. حمادة/ المكبات في الإسلام/ ص101.
(2) المقريزي - الخُطط - 2/ 337.
(3) المقريزي - الخطط 2/ 337.
(4) أنظر كتابنا/ عمل الدُعاة الإسلاميين في العصر العباسي/ ص113 - 114، وليس المؤيد في الدين - داعي الدُعاة - الذي كان يتلو مجالسه - المؤيدية - في هذه المكتبة - بل كان يلقيها في الجامع الأزهر، وهذا الوهم وقع فيه د. حمادة في كتابه/ المكتبات في الإسلام/ ص102. إذ كان داعي الدعاة - في زمن الحاكم بأمر الله هو حميد الدين الكرماني - وليس المؤيد في الدين.
(5) المقريزي/ الخطط والآثار/ 2/ 337.
(6) المقريزي، المصدر السابق 2/ 340.

* تنظيم مكتبة - دار العلم - القاهرية:

لقد كانت هذه المكتبة منظَّمة ومصنّفة بشكل دقيق، يسهل عمل روّادها، وقد عُيّن مُشرفاً عليها أول الأمر، القاضي عبد العزيز بن القاضي النعمان بن حيّون المغربي[1].

ثم عهد بالإشراف عليها للوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجاني المتوفى سنة 1044م، وقد اهتمَّ هذا الوزير بشؤونها ورمَّمَها وأجرى بها الإصلاحات اللازمة، وأمر بأن يعمل لها فهرساً عاماً، وعهد بهذه المهمة إلى القاضي أبي عبدالله القضاعي، وإبن خلف الورّاق[2].

وقد كان في هذه المكتبة عِدّة غُرف، تذكر المصادر أربعين غُرفة في القصور الداخلية[3] وقد كان «النُسّاخ» في غُرفٍ خاصة، ويجلسون على مراتب مهيئة لهم بشكل مُعيّن، وينسخون الكتب المُراد نسخها، وكان هناك موظفين يجلبون لهم الكتب المراد نسخها، ويقومون بخدمتهم[4]. كما كان في هذه المكتبة غرف خاصة للمطالعة وأخرى للمناظرة، وأخرى للإجتماعات. وقد وضع لهذه المكتبة «فهرست عام» وفهرست لبقية الأقسام، ويوضع كل فهرس بلائحة ملصقة، على مدخل القسم ومن هذه الأقسام، قسم الفقه على سائر المذاهب، وقسم النحو واللغة، وقسم الحديث، وقسم التواريخ وسير الملوك، والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف، وكل فهرس مُترجم بورقة ملصقة على كل باب خزانة، وما فيها من المصاحف الكريمة[5]. وقد وجد «صلاح الدين الأيوبي» عند دخوله إلى هذه المكتبة ومكتبات الفاطميين الأخرى، في أواسط (ق 6هـ) أنها كانت مفهرسةً مصنَّفة، وخزائنها في القصر مرتّبة البيوت، مُقسَّمة الرفوف، مفهرسةً بالمعروف، كما يقول أبو شامة[6] مؤرخهُ الخاص.

* نفقات الحاكم بأمر الله - من الأموال - على هذه المكتبة:

أورد المقريزي في «خُططهِ» نص وقفية الحاكم بأمر الله على دار الحكمة هذه في

(1) راجع ترجمة القاضي ابن حيون المغربي بكتابنا: عمل الدُعاة الإسلاميين في العصر العباسي/ ص194 - 198.

(2) القفطي - أخبار العلماء بأخبار الحكماء/ ص440. ود. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص106.

(3) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص148.

(4) د. حمادة/ المصدر السابق/ ص149.

(5) المقريزي: الخطط 2/ 254.

(6) كتاب الروضتين بأخبار الدولتين/ 1/ 268.

القاهرة «أماكن من فسطاط مصر على عِدّة أعمال خيرية، وضمّنها كتاباً» ثبّتهُ عند قاضي القضاة مالك بن سعيد، قال فيه مخصِّصاً دار الحكمة بما يلي:

1 - ثمن الورق للنسخ (90 ديناراً).

2 - راتب الخازن (48 دينار).

3 - راتب الفراشيّن (15 دينار).

4 - راتب المشرف على الحبر والورق والأقلام (12 دينار).

5 - لإصلاح الكتب وترميمها (12 دينار).

6 - ثمن الماء (12 دينار).

7 - ثمن الحُصر العبداني (10 دينار).

8 - ثمن لبود للفرش في الشتاء (5 دنانير).

9 - ثمن طنافس في الشتاء (4 دنانير).

10 - إجرة ترميم وصيانة الستارة (1 دينار)[1].

ويضيف المقريزي: وإن مقدار ما أوقفه الحاكم على دار الحكمة هذه يبلغ عشر ثمن العشر من واردات ما أوقفَهُ جملة على أعمال الخير ويبلغ (257) ديناراً من العين المغربي كل سنة[2].

* نهاية هذه المكتبة:

تذكر المصادر التاريخية أن «صلاح الدين الأيوبي» أراد أن يمحي آثار الدولة الفاطمية في مصر، حين أسقطها عام 567هـ ولذلك عَمَدَ إلى بيع تراثها الفكري «بالمزاد العلني» إذ يقول المؤرّخ «أبو شامة» وهو واحد من الذين رافقوا ركاب «صلاح الدين» وأرّخ له بكتابه «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين - النورية والصلاحية» وكانت خزانة الكتب، من عجائب الدُنيا، لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دارَ كُتبٍ أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر[3]. نبيعت بالمزاد، ويقول أبو شامة أيضاً: «أن عدد كتب هذه الخزانة بلغ 120 ألف مُجلّدة مؤبّدة من العهد القديم مخلدة، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفتهُ الأيدي

(1) المقريزي: الخُطط 2/ 337 - 338، وراجع كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص158. حيث أورد هذا النص كاملاً.

(2) المقريزي/ المصدر السابق/ نفس المكان.

(3) كتاب الروضتين 1/ 200.

وأقطعهُ التعدّي، وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام، يتصرّف فيها بشره الإنتهاب والإلتهام، ونُقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام[1].

كما يذكر أيضاً، أن عدد مجلداتها بلغت - إبّان مجدها - مليوني كتاب[2] ويشير المقريزي، أن بيع هذه الكتب كان يومان في الاسبوع، وهي تباع بأرخص الأثمان، وقد تولّى بيعها الدلاّل ابن صورة، دلاّل الكتب، واستمر بيعها عدّة أعوام[3].

ويستأنف أبو شامة، شرحه للموقف التراجيدي الذي إنتهت إليه مكتبات الفاطميين إذ يقول على لسان «العماد» راوي هذه القصة أنّه: أي العماد، شارك بهذا العمل، ولم يستطع أن يمنَعَهُ، يقول العماد: «فلما رأيت الأمر حضرت القصر واشتريت كما اشتروا. . . واستكثرت من المتاع المبتاع وحويت نفائس الأنواع، ولما عرف السلطان - صلاح الدين الأيوبي - ما ابتعتَهُ وكان بمائتين، أنعم عليَّ بها، وابرأ ذمّتي من ذهبها، ثم وهبَ لي أيضاً من خزانة القصر ما عنيت عينَهْ من كتبها، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلّدات كثيرة أُنتقيت له من القصر، وهو ينظر في بعضها ويبسط يدي لقبضها. قال: وكنت طلبت كُتباً عيّنتها فقال: وهل في هذا شيء منها؟ فقلت: كُلّها، وما استغنى عنها، فأخرجتها من عنده بحَمّالٍ، وكان هذا بالإضافة إلى سماحه أقل نوال»[4].

وتعتلي مرارة الحدث هذا المؤرخ المعاصر للمكتبات د. محمد ماهر حمادة، وهو يُعلّق على كيفية (احتيال) القاضي الفاضل للحصول على الآلاف من هذه الكتب، حيث يقول حمادة: «وثالثة الأثافي الطريقة التي حصل بها - القاضي الفاضل على كُتُبه التي اشتراها من هذه المكتبات، ذلك «أنَّهُ حصل للقاضي الفاضل قدر كبير منها، حيث شغف بحبّها، وذلك أنَّهُ دخَلَ إليها واختبرها، فكل كتاب صَلَحَ لهُ قطع جلدهِ ورماهُ في بُركةٍ كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب، إشترى تلك الكتب التي ألقاها في البُركة، على أنها «مخرومات» ثم جمعها بعد ذلك، ومنها حصل ما حصل من الكتب[5] وقد حصل القاضي الفاضل بهذه الطريقة مائة ألف مُجلّد من هذه المكتبة، ولمّا أنشأ مدرسته الفاضلية في القاهرة، جعل الكتب التي حصل عليها من القصر في مكتبتها»[6].

(1) المصدر السابق - نفس المكان.
(2) نفس المصدر السابق.
(3) خطط المقريزي 2/ 254، وراجع كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص120.
(4) أبو شامه/ كتاب الروضتين/ 1/ 268، وراجع كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص121.
(5) المكتبات في الإسلام/ ص122.
(6) المقريزي: الخطط 2/ 254.

2 - مكتبة العزيز بن المُعز لدين الله الفاطمي بالقاهرة:

أنشأ هذه المكتبة العَزيز بالله الفاطمي، ابن المُعز بالله الخليفة الفاطمي المشهور، والذي بنى مدينة القاهرة. والعزيز بالله، إهتمَّ بالعِلم ونشر المعرفة، إذ أنَّهُ توسّع كل التوسّع في هذا المجال، فأنشأ «دار العلم» بجوار الجامع الأزهر سنة 378هـ وجعلها لخمسة وثلاثين من أكابر العلماء[1] إضافة إلى أنّه إهتمَّ إهتماماً بالغاً بالكتب، وتفنَّن في جمعها والحصول عليها، وساعدهُ في ذلك وزيرهُ «يعقوب بن كلس» حيث كان هذا الوزير مُحبّاً للعلوم، مشجّعاً لأهلها، جُماعة للكتب، نصيراً للفنون[2].

ثمة أمرٍ هام، إختلف فيه أغلب المؤرخين، هو «تداخل مكان مكتبات الخلفاء الفاطميين» من حيث، مكان وجود هذه المكتبات في قصر الخلافة» لذلك يعثر الباحث على تشابه الصورة في الوصف عند هؤلاء المؤرخين، فمكتبة العزيز الفاطمي، تنطبق عليها كثير من مواصفات مكتبة الحاكم بأمر الله. ويتفق المؤرخون جميعاً بأن «خزائن الكتب للخلفاء الفاطميين كانت أربعون خزانة»، وكانت توصف - هذه الخزائن أنها من عجائب الدُنيا، ولم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها[3]، ويقسّمها الباحثون المعاصرون[4] إلى قسمين/ داخلية وخارجية «فالداخلية خاصة بالخليفة وحاشية القصر، والخارجية وعِدّتها 40 خزانة».

ويتوقف المقريزي، وهو المؤرخ الذي توقّف بشكل دقيق مع تُراثهم ورَصَد كل إنجازاتهم، بحكم إنتماءه إلى مصر، يقول: «أن عدد الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة، من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة، وإن الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة من شدّة «المستنصر بالله» ألفان واربعمائة ختمة قرآن في ربعات بخطوط منسوبة، زائدة الحُسن، مُحلاّة بالذهب وفضّة وغيرهما، وقد وجدت صناديق مملوءة أقلاماً مبريّة من براية ابن مُقلة وإبن البوّاب وغيرهما»[5] والمقصود «ببراية» ابن مقلة وإبن البواب يعني، أقلام القصب المقطوطة والخاصة بالخط حصراً.

ويستوقف المقريزي أيضاً، مع هذه المكتبة، بعد أن يوصفها بأنها من عجائب الدُنيا،

(1) آدم متز/الحضارة الإسلامية 1/ 249 - 250.
(2) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص116.
(3) أنظر - المكتبات في الإسلام/ ص116.
(4) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص116 - 117.
(5) المقريزي/ الخطط والآثار 2/ 253.

ويضيف: «ومن عجائبها أنّه كان فيها ألف ومئتي نسخة من تاريخ الطبري، وإنها كانت تشتمل على ألف ألف وستمائة ألف كتاب، وكان بها من الخطوط المنسوبة أشياءَ كثيرة»[1]، والجميل في المؤرخ المقريزي أنّه يوقفنا على تفاصيل دقيقة، فيما يخص «الكتب النادرة» وشهرة مؤلفيها، وكيفية الحصول على هذه الكتب من قبل الخلفاء الفاطميين، فينقل لنا أخبارعن العزيز بالله الفاطمي، بهذا الصدد يقول: «ذُكر عند العزيز الفاطمي كتاب العين، فأخرج منه نيفاً وثلاثين نسخة من خزانته، منها واحدة بخط الخليل بن أحمد الفراهيدي، وحملت إليه نسخة من «تاريخ الطبري» اشتراها بمائة دينار، وأمرخزّان المكتبة فأخرجوا منها عشرين نسخة، منها واحدة بخط محمد بن جرير جامعة، وذكرت عنده «جمهرة ابن دريد» فأخرج منها مائة نسخة»[2]. كما أن العزيز بالله عيّن «علي بن محمد الشابشتي» صاحب كتاب «الديارات» قيّماً على تلك المكتبة، فكان يقرأ لهُ وينادمه[3].

لقد آل مصير هذه المكتبة إلى الهلاكِ والتلف، كبقية المكتبات التي أمر صلاح الدين الأيوبي ببيعها في المزاد العلني، وذلك عندما أسقط الخلافة الفاطمية عام 567هـ[4]. فيما كانت حالة الخلافة الفاطمية - قبل السقوط، بحالة من التدهور المريب، وضعفت شوكة الخلفاء، حتى أن المقريزي، يصف عجز الخليفة (المستنصر بالله) عن دفع رواتب الوزير «أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي والخُطير بن الموفّق في الدين، فأخذا هذان «خمسة وعشرين جملاً موقرة كُتباً، وقد قُوّمت حصّة الوزيرأبي الفرج، بخمسة آلاف دينار، بينما يقول المقريزي أن ثمنها أكثر من مائة ألف دينار»[5].

1 - مكتبة الجامع الأزهر:

تكاد تكون «الجوامع» من أشهر المعالم الدينية التي خلّفها الفاطميون من تراثٍ إسلامي في مصر، ولا زالت هذه الجوامع قائمة حتى هذه اللحظة، إذ كانت في هذه الجوامع «الأزهر» أشهر المحاضرات لأشهر الدُعاة في الدولة الفاطمية، فقد أملي فيه داعي دُعاة الدولة الفاطمية «المؤيد في الدين، هبة الله بن موسى الشيرازي» مجالسهِ

(1) الخُطط والآثار 2/ 254. وانظر كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص118.
(2) المقريزي: إتّعاظ الحُنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء/ ص287، تحقيق جمال الشيّال، منشورات لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة 1967م.
(3) إبن خلكان: وفيات الأعيان 3/ 8.
(4) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص119.
(5) الخطط والآثار.. 2/ 253.

المعروفة بـ«المجالس المؤيدية» وهي ستمائة مجلس[1] كلها بالفقه والتأويل والتفسير، على ضوء المنهج الإسماعيلي الذي كانت تتبنّاه الدولة الفاطمية[2]. ويعتبر الجامع الأزهر من أقدم الجامعات في العالم، ولا تزال «جامعة الأزهر بإسمه»، ويحتوي على مكتبة فاخرة، مليئة بالكتب والمخطوطات النادرة في مختلف المعارف والعلوم[3].

2 - مكتبة جامع ابن طولون:

يبدو أن هذا الجامع قد لاقى رعاية خاصة من الخُلفاء الفاطميين، فقد أنزل الحاكم بأمر الله الفاطمي إلى هذا الجامع 814 مصحفاً[4] وكذلك ترك في وصيّته عدداً من الكتب للجامع الأزهر[5].

3 - مكتبة جامع الحاكم بأمر الله الفاطمي:

لقد أهتم الفاطميون كثيراً في بناء المساجد والجوامع في عصرهم حتى غَدت إحدى الميزات الواضحة على ذلك العصر، وكانت المكتبات إحدى الأساسيّات في بناء تلك الجوامع، ومن هذه الجوامع كان جامع الحاكم بأمر الله الفاطمي والذي لا زال قائماً حتى هذا اليوم في القاهرة، وعندما جُدّد بناء هذا الجامع سنة 703هـ أنتدب لعمارته الأمير ركن الدين، وقد أنهى العمل فيه على خير ما يرام، وعمل به «خزانة كتب جليلة» كما يصفها المقريزي[6].

4 - مكتبة يعقوب بن كلس:

كان ابن كلس، وزيراً للعزيز الفاطمي، وقد أوجد خزانة كتب لنفسه، إذ كان مُحبّاً للعلوم، ويجمع حولَهُ العلماء والأدباء، وكان في دارهِ قومٌ يكتبون القرآن وآخرون يكتبون الحديث والفقه والأدب، وحتى الطب، ويعارضون، ويشكلون المصاحف وينقّطونها[7].

---

(1) حققّها ونشرها د. غالب مصطفى وصدرت بأربعة أجزاء عن دار الأندلس ببيروت عام 1974م.

(2) انظر كتابنا - عمل الدُعاة الإسلاميين في العصر العباسي، فصل خاص عن الجامع الأزهر، منشورات دار الحصاد - دمشق 1993م.

(3) د. حمادة محمد ماهر/ المكتبات في الإسلام/ ص84.

(4) أنظر المقريزي: الخطط. . . 3/ 221.

(5) المصدر السابق 3/ 230، وراجع كذلك، د. حماده/ المكتبات في الإسلام/ ص84.

(6) الخطط والآثار 3/ 237.

(7) ابن خلّكان: وفيات الأعيان 1/ 28. وكذلك حماده/ المكتبات في الإسلام/ ص94.

5 - مكتبة مبشّر بن فاتك:

هو الأمير مبشّر بن فاتك، كان ذو همّة عالية في تحصيل العلوم والكتب، وكان محبّاً للعِلم وأهله، وكانت لَهُ خزانة كتب، يعشقها أكثر من أهله، فكان في أكثر أوقاته، إذا نزل من الركوب لا يفارقها، وليس لَهُ دأبٌ إلاّ المطالعة والكتابة. وكانت عندَهُ زوجَة من أرباب الدولة، فلما توفي، نهضت هي وجواريها إلى خزانة كتبه وفي قلبها «شيء على الكتب» حيث كان زوجها يشتغل بها عنها، فجعلت تندبَهُ، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار، هي وجواريها، ثم رفعت الكتب بعد ذلك من الماء، وقد غرق أكثرها ولهذا السبب أن كتبه يوجد الكثير منها، وهي بهذه الحال[1].

6 - مكتبة عضد الدين في القاهرة:

ذكر ياقوت الحموي، أنَّه التقى في القاهرة بالشيخ أبي الفوارس عضد الدولة مُرهف بن أُسامة بن مُرشد - أحد أحفاد بني منقذ - أمراء شيزر - في سورية - وقد تحدَّث إليه ووصَفَهُ بأنه شيخ ظريف إشترى منّي كُتباً، وحدَّثني أن عندَهُ من الكتب ما لا يعلم مقدارهُ، إلاّ أنَّهُ ذكر لي أنَّهُ باع منها أربعة آلاف مُجلّد، في نكبةٍ لَحَقتْهُ، ولم يؤثّر ذلك فيها[2].

7 - مكتبة المارستان المنصوري في القاهرة:

ذكر المقريزي هذه المكتبة بأنها «كانت ملحقة بالمارستان المنصوري في القاهرة وإنها كانت موجودة في زمانه»[3].

8 - مكتبة مستشفى قلاوون في القاهرة:

ذُكرت هذه المكتبة في المدّونات الحديثة[4] فقد ذكر أن عدد الكتب التي وُجدت في هذه المكتبة حوالي مائة ألف مُجلّد، أُخذت أغلبها من دار الحكمة في القاهرة[5].

---

(1) إبن أبي أصيبعه: طبقات الأطباء 3/ 163. وحمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص94.
(2) معجم الأدباء 5/ 243. وانظر حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص95.
(3) المقريزي: الخطط... 3/ 322.
(4) دائرة المعارف الإسلامية 13/ 361، تحرير «فنسك» ليدن، بريل 1909 - 1938.
(5) راجع د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص146.

9 - مكتبة المارستان القديم - في القاهرة:

هي واحدة من خزائن الكتب الفاطمية - الخارجية - وهي واحدة من تلك الخزائن المشهورة في القاهرة، ذكرها ابن تغري بردي قائلاً: «وأمّا خزانة الكتب فكانت في أحد مجالس البيمارستان - العتيق - وكان فيها ما يزيد على مائة ألف مُجلّد في سائر العلوم يطول الأمر في عِدّتها[1]. ويبدو أن هذه المكتبة كانت محط رعاية الخلفاء الفاطميين، إذ يذكرالمقريزي أن «الخليفة يأتي راكباً، ويترجّل على الدكّة المنصوبة ويجلس عليها، ويحضر إليه من يتولاّها، وكان في ذلك الوقت الجليس بن عبد القوي، فيُحضر إليه المصاحف بالخطوط المنسوبة وغير ذلك ممّا يقترحه من الكتب، فإن عَنَّ له أخذ شيئاً منها، ثم يعيدَهُ»[2]، ثم يصف المقريزي، تنظيم هذه المكتبة بالقول: «تحتوي هذه الخزانة على عِدّة رفوف في دور ذلك المجلس العظيم، والرفوف مقطّعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات، ويسير من المجرّدات، فمنها الفقه على سائر المذاهب والنحو واللّغة وكتب الحديث والتواريخ وسيّر الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخ، ومنها النواقص التي ما تُمِّمت، كل ذلك بورقةٍ مُترجمة «فهرس» مُلصقة على كل باب خزانة، وما فيها من المصاحف الكريمة، في مكانٍ فوقها، وفيهامن الدُرج «الخطوط» بخط ابن مُقلة ونظائرهُ كإبن البَوّاب وغيره.. فإذا أراد الخليفة الإنفصال مشى فيها مشية لنظرها، وفيها ناسخان وفرّاشان، صاحب المرتبة وآخر، فيعطي الشاهد عشرين ديناراً ويخرج إلى غيرها»[3].

10 - مكتبة المدرسة الفاضلية - في القاهرة:

هي تلك الخزانة التي جمعها القاضي الفاضل، وزير صلاح الدين الأيوبي من الكتب التي صادرها من مكتبات الخلفاء الفاطميين - لا سيما مكتبة دار العلم، وكذلك ما أخذه من مدينة آمد. وأودعها جميع هذه الكتب في مكتبة هذه المدرسة التي سُمّيت بإسمه[4].

---

(1) النجوم الزاهرة، في أخبار مصر والقاهرة... 4/ 101.
(2) الخُطط المقريزية 2/ 254.
(3) الخُطط والآثار 2/ 254. وراجع كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص118.
(4) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص164.

11 - مكتبة عبد الرحمن الصُدفي - المُنجِّم:

جاء ذكرهذه المكتبة عند «إبن خلكان» في معرض حديثه عن الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الرحمن الصُدفي المنجم، المتوفّى سنة 399هـ، وكان هذا الرجل محبّاً للفلك والنجوم، ولما توفي، خَلَّفَ ولداً «متخلفاً» باع كتب والده وجميع تصنيفاته بالأرطال في الصابونيّن[1].

12 - مكتبة الطبيب إفرائيم بن الزمان في القاهرة:

قال ابن أبي أُصيبعة في ترجمة الطبيب المُعرّي إفرائيم ابن الزمان: «أنَّهُ طبيب إسرائيلي وجد في مصر، وهو من الأطباء المشهورين بديار مصر، خدم الخلفاء الذين عاصرهم وحصل من جهتهم من الأموال والنِعَمْ شيئاً كثيراً جداً»[2] ويبدو أن هذا الطبيب كان ميّالاً لجمع الكتب واستنساخها، حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبيّة وغيرها، يقول ابن أبي أُصيبعة: «وكان أبداً عِندَهُ النُسّاخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم منه»[3] وذكرت المصادر: أنَّ ورّاقاً عراقيّاً قصد الديار المصرية ليشتري كتباً يتوجّه بها إلى العراق، واجتمع مع الطبيب «إفرايم» واتفقا فيما بينهما على البيع، حيث باعه «أفرايم» من الكتب التي عندهُ عشرة آلاف مُجلّد كان ذلك أيام ولاية الأفضل بن بدر الجمالي، أمير الجيوش الفاطمية، وزير المستنصر بالله وكذلك استوزرَهُ الآمر بأحكام الله/ أغتيل سنة 1121م»[4] وعندما سمع الوزير الأفضل، أراد تلك الكتب أن تبقى في الديار المصريّة، فبعث إلى إفرايم من عنده بجُملة المال الذي كان قد أتفق عليه بين إفرائيم والعراقي، ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل، وكتبت عليها ألقابه[5] ويعلّق ابن أبي أُصيبعه على ذلك بالقول: «ولهذا أنني قد وجدت كتباً كثيرةً من الكتب الطبيّة وغيرها عليها إسم إفرائيم وألقاب الأفضل أيضاً، وقد خلّف إفرائيم من الكتبِ ما يزيد على عشرين ألف مُجلّد، ومن النِعَمِ والأموال شيئاً كثيراً جداً»[6].

---

(1) إبن خلكان: وفيات الأعيان 3/ 106. وراجع كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص166.
(2) طبقات الأطباء 3/ 174 - 175.
(3) المصدر السابق - نفس المكان.
(4) راجع: المنجد في اللغة والأعلام/ منجد الأعلام/ ص56.
(5) إبن أبي أُصيبعه: طبقات الأطباء 3/ 174 - 175.
(6) المصدر السابق، نفس المكان.

الفصل الرابع

مكتبات الأندلس

إنَّ دافع المنازلة الحضارية بين الأندلس وبلاد المشرق برُّمتها، خضع إلى دافعٍ سياسي، إذ كانت الخلافة أُمويّة في الأندلس، وليس لها علاقة بالعبّاسيين، وأرادت هذه الخلافة الأموية - في هذه الجزيرة (الإيبرية) أن تثبت مكانتها في العالم الإسلامي، من جهة كونها تنتمي إليه ثقافياً وقومياً، وبالتالي، أراد خلفائها أن يثبتوا الغِرار المضاد والمتفّوق على خلفاء بني العباس في العمران والسياسة والإقتصاد، وفي الثقافة والفنون، وقد أثبتوا هذه الجدارة، والتاريخ شهد لهم بذلك، لا سيما في ميدان الآداب والفنون، ويكفي أن نذكر - ثقافياً - أنّهم أوجدوا «الموشحات» وشجّعوا كل علماء وأدباء وفناني المشرق بالوفادة إليهم، وغالوا برفد هؤلاء القادمين، وهم كثرة، فلا غروة أن ينتقل العقل الإبداعي بتأثيراته على بلاد الأندلس من المشرق، ويخلق المحفّزات الضرورية لنهضة هذه الجزيرة، مستفيداً من كل الإنجازات المشرقية، إذ انتقل إليهم ظفر الورّاق والمغنّي المشهور زرياب[1]، وجملة من العلماء والأدباء الذين رفدوا حاضر الأندلس بمختلف الثقافات، وقد كان للورّاقين في الأندلس الدور العظيم في حركة الكتاب بهذه الجزيرة، وقد نالت قرطبة الشأوَ العظيم بأسواق الوراقة وكثرة الكتب المنتجة فيها، وقد بلغ ازدهارها أنها كانت أعظم مدينة في أوربا كلها، وتأتي على قدم المُساواة مع القسطنطينية وبغداد إبّان عزِّهما، وناهيك ببلدةٍ بلغ عدد مساجدها (1600 مسجد) وحمّاماتها 600، وفيها 200 ألف دار، وثمانون ألف قصر، وبلغ عدد أرباضها «الضواحي» تسعة أرباض كل ربض كالمدينة الكبيرة، ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع، وفي ضواحيها ثلاثة آلاف قرية وقُدّر عدد سكانها بمليوني نسمه، وكان بالربض الشرقي من قرطبة مائةَ وسبعون إمرأة كُلّهنَّ يكتبن المصاحف بالخط الكوفي[2] لذا لا غرابة في إنتشار المكتبات ببلاد الأندلس وكثر التأليف

(1) راجع دراستنا «زرياب من بغداد إلى الأندلس» المنشورة في مجلة «الحياة الموسيقية، العدد 4 - السنة 1993، دمشق.

(2) محمد كرد علي/ الإسلام والحضارة العربية/ 1/ 256.

وازدياد عدد المؤلفين فيها[1]. وقد ذكر المؤرخون أن ورّاقي الأندلس (أحذق الناس في الوراقة، وخطوطهم مُدّورة)[2].

وقد كان لأهل الأندلس ولعٍ مؤرق بجمع الكتب، سوف نتكلم عنهم عند ذكرنا لمكتباتهم في هذا الفصل من البحث... ولكن دعونا نطّلع على هذا الحوار المعرفي بصدد الحالة الثقافية، الذي كان يشير إلى الأوج الثقافي الذي وصَل إليه صَدى الأندلس، بين مختلف الأوساط الثقافية والعلمية، لا سيما مدينتي قرطبة وإشبيلية، فقد أورد «المُقري التلمساني» هذا الحوار الثقافي، كمناظرة دارت بين «إبن رشد» فيلسوف قرطبة، وإبن زهر»شاعر إشبيليّة» وَوَشّاحُها الأبرز، يقول المقري: «قال ابن رُشد لإبن زهر في تفضيل قرطبة: ما أدري ما تقول، أنّه إذا مات عالِمٌ بإشبيلية، فأُريد بيع كتبه حُمِلَتْ إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مُطرِبٌ بقرطبة فأُريد بيع آلاتِهِ حُمِلتت إلى إشبيلية، قال: وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً»[3].

إن هذا التطور الثقافي في الأندلس، هو الذي جعل المؤرّخ دوزي لأن يقول: أن أغلب الناس في الأندلس أصبحوا قادرين على القراءة والكتابة[4] وهو ذات الأمر الذي دعا الكاتب الأسباني المتعصب لقومه «الفارو» لأن يقول: «إن إخواني المسيحيّين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم، لا لتفقدها، بل لتعلم إسلوب عربي بليغ، واأسفاه إنني لا أجد اليوم علمانياً يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الإنجيل بل إن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة إلاّ العربيّة، ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب في نهمٍ وشغف، ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة، في الوقت الذي يحتقرون الكتب المسيحية وينبذونها»[5].

ومن هنا نفهم مقدار الثقافة المنتجة للكتاب في الأندلس، ونحن نعتقد لولا الحرب الإسبانية لطرد العرب من الأندلس، لكانت هذه الجزيرة «الأندلس» فاقت بعلمها وآدابها بقية الأمصار الإسلامية .على أيِّ حال، دعونا نتوقف مع مكتباتها لنعرف أهميتها الثقافية في مجرى التطور الحضاري للثقافة العربية - الإسلامية.

---

(1) د. حمادة: المكتبات في الإسلام ص96.

(2) أحمد أمين: ظُهر الإسلام 3/ 13 نقلاً عن المقدسي «في أحسن التقاسيم.. «والخطوط المدورة: هو ما يعرف الآن بالخط المغربي، وهو نوع من الخط الديواني.

(3) أنظر - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب 1/ 463.

(4) راجع د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص99.

(5) جرونيباوم، جوستاف: حضارة الإسلام، ص81 - 82، تعريب عبد العزيز جاويد، القاهرة، 1960م، وأنظر كذلك. د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص99، حيث نقل الرواية أيضاً.

1 - مكتبة سَلمة بن سَعيد:

روى ابن بشكوال في كتاب «الصِلَة» نقلاً عن «أبي حفص الزهراوي» قال: ساق سَلمة بن سعيد المتوفي سنة 406هـ، شيخنا من المشرق ثمانية عشر حملاً مشدودة من كتب، وسافر من (استجه) إلى المشرق، واتخذ مصر موئلاً له، واضطرب في المشرق سنين كثيرة جداً، يجمع من الآفاق كتب العِلم، فكلما اجتمع من ذلك مقدار صالح نهضَ بهِ إلى مصر، ثم نزحَ بالجميع إلى الأندلس، وكانت في كل فن من العِلم، ولم يتُمّ لَهُ ذلك إلاّ بمالٍ كثير حملَهُ إلى المشرق[1].

2 - مكتبة القاضي أبو مطرف:

كان القاضي عبد الرحمن بن محمد بن عيسى المعروف بأبي مطرف من أصحاب الهِمَمْ العالية في جمع الكتب واقتنائها، وكان حَسِنُ الخط، جيّد الضبط، جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمَعَهُ أحدٌ من أهلَ عصرهِ بالأندلس، مع سِعَة الرواية والحفظ والدراية، وكان لهُ سِتَةِ ورّاقين ينسخون دائماً، وكان قد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً، وكان متى عَلِمَ بكتاب حَسنٌ عند أحد من الناس طلبه للإبتياع منه، وبالغ في ثمنه، فإن قدر على إبتياعه، كان بها، وإلاّ انتسخَهُ منه وردَّهُ إليه[2]، قال ابن بشكوال عنه، بعد أن توفي عام 402هـ، أن حفيدَهُ أبو سليمان قال: سَمِعَ عَمَّهُ وغير واحد من سَلَفِهِ يحكون أن أهل قرطبة إجتمعوا لبيع كتب جدِّه هذا، مُدّة عام كامل في مسجدِهِ، في الفتنة في الغَلاء، وإنّه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار «قاسمية» وأخبرنا أيضاً: أن القاضي جدَّهُ كان لا يعير كتاباً من أصوله ألبتَّة، وكان إذا سأله أحد ذلك وألحفَ عليه أعطاهُ للناسخ فنسخَهُ وقابلهُ ودفَعَهُ للمستعير، فإن صَرَفَهُ وإلا تركهُ عنده، وكان يُملي الحديث من حفظه في مسجده، ومستملٍ بين يديه، على ما يفعَلَهُ كبار المحدثين بالمشرق، والناس يكتبون عنه[3].

3 - مكتبة ابن حزم:

صاحبها هو «علي بن أحمد» المعروف بإبن حزم الأندلسي، وُلِدَ سنة 994م، وتوفي سنة 1064م/ 456هـ، هو واحد من أكبر علماء الأندلس بالفقه والعلوم، وشاعر وفيلسوف

---

(1) كتاب «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس» 1/ 220، تحقيق عزّت العطار الحسيني، القاهرة 1955م.
(2) كتاب الصِلة/ 1/ 298.
(3) المصدر السابق 1/ 299، وراجع كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص97.

ومؤرخ، وُلد في قرطبة وذاع صيتَهُ بها، وكان منذ نعومة أضفاره مولعاً بالدراسة والعناية بالكتب، وحرقته السياسة وحرقت مكتبته، لهُ تصانيف عِدة، أشهرها كتابهِ «الفِصل في المِلَلْ والأهواء والنِحَل» وهو كتاب فقهي، يبحث في الأديان بمنهج مقارن، ولهُ أيضاً «جمهرة الأنساب» والإحكام في أصول الأحكام، ولهُ كتابٌ ذائع الصيت إسمه «طوق الحمام، في الإلفة والآلاف» وهو دراسة في الحُبّ، ذات منهج إفلاطوني[1].

كانت لديه مكتبة كبيرة في إشبيلية، وقد تصدر العلماء المنظّرين للمذهب الظاهري، ممّا أدى إلى اضطهاده من قبل ملك إشبيلية، المعتضد بن عَبّاد، فَفَّر من وجههِ، طلباً للنجاة، لكن المعتضد طاردَهُ، وهدمَ دورهِ وصادر أموالِه وأملاكه وأحرق كتبهِ بإشبيلية علانية، فلما بلغة ما فعل المعتضد بكتبه قال:

«دعـونـي مـن إحـراق رقّ وكـاغـدِ وقولا بعلمٍ كي يرى الناس مَنْ يدري
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي تضـمَّنهُ القِرطاس بل هو في صدري
يسيرُ معي حيث استقلّت ركائبي وينـزلُ إن أنـزل ويـدفنُ في قـبـري[2]

وروى عنه إبنَهُ «رافع» قال: «اجتمع عندي، بخط أبي من تأليفه نحو أربعمائة مُجلّد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة». ويضيف المقري التلمساني: «وهذا شيء ما علمناه لأحد مِمَّن كان في دولة الإسلام قبله إلاّ لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، فإنه كان أكثر أهل الإسلام تصنيفاً»[3].

4 - مكتبة عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم (ت 400هـ):

ذكرها صاحب «الصِلة» وقال عنها بأنها: «قرطبية، لم يكن في جزائر الأندلس في زمانها من يَعْدِ لها فهماً وعلماً وأدباً وشعراً وفصاحة وعفّة وجزالة وحصافة، كانت تمدح ملوك زمانها وتخاطبهم فيما يعرض لها من حاجاتها، فتبلغ ببيانها حيث لا يبلغه كثير من أُدباء وقتها، ولا تُرد شفاعتها، وكانت حسنة الخط، تكتب المصاحف والدفاتر، وتجمع الكتب، وتُعنى بالعِلم ولها خزانة علم كبيرة وحسنة، ولها غنى وثروة تعينها على المرؤة»[4].

(1) راجع: المنجد في اللغة والأعلام/ منجد الإعلام/ ص6، مادة (إبن حزم).
(2) أنظر: ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف المقدمة/ تحقيق حسن كامل الصيرفي، منشورات المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1967م.
(3) نفح الطيب 2/ 82، وراجع كذلك. د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص53.
(4) إبن بشكوال «كتاب الصلة» 2/ 654، وانظر كذلك المكتبات في الإسلام/ ص98.

5 - مكتبة الفيلسوف ابن رُشد:

هو العالم الجليل، أبو الوليد محمد بن رُشد (1126 - 1198م) فيلسوف قرطبة المشهور، وُلد في قرطبة وتوفي في مراكش، وهو واحد من أشهر الفلاسفة العرب، درس علم الكلام والفقه والشعر والطب والرياضيات والفلك والفلسفة، قَدّمهُ ابن طُفيل لأبي يعقوب/ خليفة الموحّدين/ 1182م/ فعيّنَهُ طبيباً له، ثم قاضياً في قرطبة.

أوجد صلة توافق بين الشريعة والفلسفة في كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الإتصال» تصدّى للغزالي في الدفاع عن الفلسفة بكتابه الهام/ تهافت التهافت/ ولهُ شروح كثيرة على مؤلفات أرسطو، لذلك سمّوهُ فلاسفة الغرب بالشارح[1].

كان ابن رشد من العقول المفكرة الكبيرة في الثقافة العربية - الإسلامية، وقد كانت لديه مكتبة كبيرة وعامرة بكتب الفلاسفة، وقد ناصبهُ العَداء فقهاء بلده، في زمن المنصور بن أبي عامر، يقول المراكشي: «أمروا بإحراق كتبه، وخاصة الفلسفية»[2].

6 - مكتبة الخليفة عبد الرحمن الأوسط:

هو الخليفة الأموي المشهور، عبد الرحمن الأوسط 206هـ/ 822م حيث يعتبر عهدهُ منعطفاً هاماً في تاريخ حضارة الأندلس حيث أدخل إلى بلاطهِ أُبّهة المُلك وعادات العبّاسيين في الزينة ونمط الحياة بنى القصور والمساجد وشجّع الشعراء ومنهم «الغزّال» وقرّب المُغنّي «زرياب»[3] ولهُ معه أحاديث جميلة وطريفة[4].

وقد أسَّسَ هذا الخليفة مكتبة فخمة في قرطبة، وأرسل إلى المشرق عباس بن ناجح ليجمع لهُ الكتب ويستنسخها[5].

---

(1) المنجد في اللغة والأعلام/ منجد الأعلام/ ص8.

(2) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب/ ص203، نشر برعاية دوزي، طبعة ليدن 1881م.

(3) المنجد في اللغة والأعلام/ منجد الأعلام/ ص365.

(4) أنظر دراستنا: زرياب من بغداد إلى الأندلس، المنشورة في مجلة الحياة الموسيقية، العدد 4، دمشق 1993م.

(5) إبن سعيد/ المغرب في حُلي المغرب 1/ 45 و1/ 324 وراجع كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص122.

7 - مكتبة الخليفة عبد الرحمن الناصر:

يعتبر عبد الرحمن الناصر (300 - 350هـ) واحد من أعظم الخلفاء الذين حكموا الأندلس، وكان هذا الخليفة مهتمّاً بالعلوم والآداب إهتماماً كبيراً، وقصده العلماء من كل مكان، وأصبح قصره ملتقى الأدباء ومثابتهم، من أمثال «القالي البغدادي - صاحب كتاب النوادر - وغيره من العلماء والأدباء، أسَّسَ مكتبة كبرى في قصرهِ، حوت على كثير من العلوم والآداب بجميع اللغات، كما تقول المراجع الحديثة[1].

فقد أرسل لَهُ إمبراطور القسطنطينية عدداً من الكتب اليونانية، منها: كتاب ديسقوريدس وكتاب هورسيوس، والأول كتاب علمي طبي يبحث في الأعشاب والحشائش وفوائدها الطبيّة، والثاني كتاب تاريخي يبحث في تاريخ اليونان والرومان، ويذكر ابن جُلجل أنه لم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ اللسان الإغريقي، الذي هو اليوناني القديم، فبقي الكتاب (ديسقوريدس) في الخزانة ولم يترجم إلى اللسان العربي، وبقي الكتاب بالأندلس، والذي بأيدي الناس/ من نفس الكتاب/ كان بترجمة إصطفين الوارد من مدينة السلام[2].

ثمّة أمرٍ مُلفت للإنتباه هو أن ملوك الروم وغيرهم كانوا يتبادلون مع خُلفاء الأندلس الهدايا في الكتب الثمينة، نظراً لما رأوه من ميلٍ معرفي نحو الكتاب عند خلفاء الأندلس، فمن ذلك «ورود كتاب من صاحب القسطنطينية إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وكان في ورقٍ مصبوغ بلونٍ سماوي، مكتوباً بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مُدرجة، مصبوغة أيضاً ومكتوبة بفضّة بخط إغريقي أيضاً، وعلى الكتاب «طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد صورة المسيح عليه السلام وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده، وكان الكتاب بداخل درج فضّة، منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزُجاج الملّون البديع، وكان الدُرج داخل جعبة مُلبَّسة بالديباج[3].

---

(1) د. حمادة: المكتبات في الإسلام/ ص122.

(2) إبن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء مقدمة - ك - تحقيق فؤاد السيّد، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية/ القاهرة 1955م وانظر كذلك/ المكتبات في الإسلام/ ص122.

(3) المقرّي التلمساني: نفح الطيب 1/ 367 - 368، وانظر كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص193.

8 - مكتبة الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله:

إقترن إسم هذا الخليفة بالعلوم والآداب، وجمع الكتب، فمنذ أن تولى الخلافة في الأندلس (350 - 366هـ) حتى بدأ يوطّد الأمن في بلادهِ، فالتفت إلى بناء المدارس والمكتبات واقتناء الكتب والإهتمام بملامح الحضارة، إذ أنّه تثقّفَ على يد «أبي علي القالي البغدادي» الذي وفد على أبيه/عبد الرحمن الناصر/وأكرم مثواه وحسنت منزلته عنده، وأورث أهل الأندلس عِلمَهُ وأدبه، واختصَّ بالحكم المستنصر واستفاد من علمهِ، يقول عنه المؤرخ «دوزي»: «لم يسبق أن تولّى حكم اسبانيا حاكم عالم بهذه الدرجة، ورغم أن جميع أسلافهِ كانوا رجالاً مثقفين، وأحبّوا أن يغنوا مكتباتهم، فإن أحداً منهم لم يبحث بشغف ونهم عن الكتب النادرة والثمينة كما فعل الحَكم»[1] كما أشاد بهمّته ابن خلدون في جمع الكتب ومحبّته للعلوم إذ قال عنه: «وكان محبّاً للعلوم مكرماً لأهلها، جَمّاعة للكتب في أنواعها ما لم يجمَعَهُ أحدٌ من الملوك قبله... فأقام للعلم والعلماء سلطاناً نفقت فيها بضائعه من كل قطر، وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجّارة ويسرّب إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه»[2].

وتذكر المصادر أن الحكم سمع بأن أبي الفرج الأصفهاني يؤلف كتاباً لم يُسبق إليه هو «كتاب الأغاني» فأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العيّن، فبعث إليه بنسخةٍ قبل أن يخرجهُ إلى العراق وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحهِ لمختصر ابن عبد الحكم»[3].

وقد جمع في قصرهِ أحذق الورّاقين وأمهر النّساخين في الضبط والإجادة وفي التجليد فأوعى في ذلك كُلّهُ، واجتمعت في الأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده[4].

ويروي ابن خلدون عن حزم قوله: «أخبرني بكيّة الحضّي، وكان على خزانة العلوم والكتب التي بدار بني مروان، أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرسة، في كل فهرسة، عشرون ورقة، ليسَ فيها إلاّ ذكر أسماء الدواوين لا غير»[5]. فيما

---

(1) دوزي، رينهارت: تاريخ المسلمين في إسبانيا، ص454 منشورات شاتو ووندس، لندن - 1913.

(2) إبن خلدون: كتاب العِبر 4/ 146. وراجع كذلك: حمادة/المكتبات في الإسلام/ص123.

(3) المقري التلمساني: نفح الطيب... 1/ 386.

(4) المصدر السابق/نفس المكان.

(5) كتاب العِبر: 4/ 146.

يذكر صاحب «نفح الطيب» لأنه - أي الحكم - جمع مِن الكتب ما لا يُحد ولا يوصف كثرةً ونفاسة، حتى قيل أنها كانت أربعمائة ألف مجلد، وإنهم لمّا نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها» ويضيف: «وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكنه من الأموال حتى ضاقت عنها خزانة»(1).

ولقد شاءت الأقدار لأن تلعب الردى في هذه المكتبة الثمينة، إذ أن «المنصور بن أبي عامر» الذي أصبح سيّد الأندلس، بعد وفاة «الحكم» بفترة، أخرج من المكتبة جميع الكتب الفلسفية وكتب علوم الأوائل وأحرقها بالنار، في الميدان العام في قرطبة إرضاءً للعامة والفقهاء في زمانه(2) وبعد وفاة المنصور، وأثناء حصار البربر لقرطبة في مطلع القرن الخامس الهجري، إحتاجَ «الحاجب واضح» من موالي المنصور بن أبي عامر، إلى مالٍ، فأمر بإخراج أكثر الكتب من مكتبة «الحكم» وباعها، وما تبقّى منها نُهِبَ عندما دخل البربر قرطبة، واقتحموها عنوة»(3).

9 - مكتبة المظفر بن الأفطس:

صاحبها هو أحد الأمراء لملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري، هو الأمير المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس، قالت المصادر عنه(4) بأنه كان كثير الأدب جم المعرفة محبّاً لأهل العلم، جمّاعة للكتب ذا خزانة عظيمة، لم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه في الأدب والمعرفة.. قال ابن بسّام: «كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع ولَهُ التصنيف الرائق والتاليف الفائق المتُرجم «بالتذكرة» المشتهر إسمَهُ «بالكتاب المظفري» في خمسين مجلداً، يشتمل على فنون وعلوم من مغازٍ وسير ومثل وخبر، وجميع ما يختص به علم الأدب أبقاهُ للناس خالداً»(5).

10 - مكتبة السلطان أبي عنان المتنقلة بمراكش:

ذكر خبر هذه المكتبة المتنقلة في «أحكام القرآن» لمؤلفيه أبي بكر محمد بن عبدالله

(1) المُقري التلمساني/ نفح الطيب 1/ 394 وما بعدها، وراجع تعليقات د. حمادة على الموضوع في كتابه/ المكتبات في الإسلام/ ص124.
(2) أولغا بينتو: المكتبات العربية في العصر العباسي، دراسة في مجلة الثقافة الإسلامية، السنة الثالثة 1929/ ص226.
(3) إبن خلدون: كتاب العِبر 4/ 146 وراجع كذلك د. حمادة: المكتبات في الإسلام/ ص125.
(4) د. حمادة: المكتبات في الإسلام ص 125 - 126.
(5) المقري التلمساني: نفح الطيب 3/ 380.

المعافري بن عربي، حيث يُروى فيه قائله: «أخبرني الشيخ الصالح يوسف الحزام المغربي بالإسكندرية في سنة ستين وسبعمائة، قال: رأيت تأليف القاضي أبي بكر بن العربي في تفسير القرآن المُسمّى «أنوار الفجر» كاملاً في خزانة السلطان الملك العادل أمير المسلمين أبي عنان فارس بن السلطان أمير المسلمين أبي الحسن علي بن السلطان أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن يوسف بن عبد الله، وكان السلطان - أبو عنان - آنذاك، بمدينة مراكش، وكانت لَهُ خزانة كتب يحملها مَعَهُ في الأسفار، وكنت أخدمهُ مع جماعة في حزم الكتب ورفعها. فعددتُ أسفارها فبلغت عِدَّتُها ثمانين مُجلّداً، لم ينقص من الكتاب المذكور شيء»[1].

11 - مكتبة ابن زهر الطبيب:

صاحب هذه المكتبة الطبيب أبي العلاء بن زهر (ق 5هـ) ورد ذكر هذه المكتبة ضمن حديث ابن أبي أُصيبعه حول كتاب «القانون في الطب» لإبن سينا، حيث أن هذا الكتاب، أوّل دخوله الأندلس وصل إلى أبي العلاء بن زهر، إذ أن رجلاً من التجّار جَلَبَ من العراق نسخة منه، وقد بُولغَ في تحسينها، فأتحفَ بها أبا العلاء ابن زهر تقرّباً إليه، ولم يكن هذا الكتاب وقع إليه قبل ذلك[2].

ولمّا تأمَّلَهُ - ابن زهر - لم يستحسنهُ، وذَمَّهُ، وطَرَحَهُ، ولم يدخلهُ خزانة كتبه، وجعل يقطع من طُرَرِهِ ما يكتب فيه نسخ الأدوية «الراشيتات» لمن يستفتيه من المرضى[3].

---

(1) أنظر، المعافري، أبو بكر محمد بن عبدالله بن عربي: أحكام القرآن، المقدمة/ ص - ب/ منشورات مطبعة السعادة، القاهرة 1331هـ، وراجع كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص146 وص 147 حيث أورد الخبر كاملاً.

(2) طبقات الأطباء 3/ 104.

(3) نفس المصدر 3/ 105. وراجع د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص192.

الفصل الخامس

مكتبات تونس والمغرب

1 - مكتبة جامع الزيتونة:

لم تسعفنا المصادر التي بين أيدينا، للإحاطة الكاملة عن تاريخ هذه المكتبة، المرتبطة «بجامع الزيتونة» رغم علمنا بأن هذه المكتبة واحدة من أكبر المكتبات - الآن - التي تضمُّها جامعة الزيتونة في تونس، وقد أورد الباحث د. حمادة، ذكر هذه المكتبة بموازاة مكتبة الجامع الأزهر حيث قال: «وحوت هذه المكتبة - يقصد مكتبة الأزهر - ما لذَّ وطاب من ثمرات العُقول» وأضاف: «والشيء نفسه صحيح بالنسبة لجامع الزيتونة في تونس»[1].

2 - خزانة كتب جامع القيروان:

ورد ذكرها عند د. محمد ماهر حمادة، في معرض حديثه عن استعارة الكتب من المكتبات وشروط تلك الإستعارة، فذكر أن «إبن خلدون» أوقف نسخة من كتابه «كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر».

في مكتبة جامع القيروان، وقد نَصَّ في وثيقة الإهداء والوقف أنه لا يجوز إعارة الكتاب إعارة خارجية، إلاّ إذا كان المستعير شخصاً ذا سمعة جيدة وأميناً، شريطة أن يدفع رهناً مناسباً، وأن يرد الكتاب في مدّة أقصاها شهران»[2].

(1) د. محمد ماهر حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص84.
(2) المرجع السابق/ ص161.

قائمة المصادر والمراجع

- أ -

1 - ابن الأثير: أبو المحاسن، عز الدين علي بن أبي الكرم الشيباني.

* الكامل في التاريخ - 12 جزءاً - منشورات دار صادر، بيروت 1385هـ/ 1965م.

2 - إخوان الصفا وخلاّن الوفا.

* رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، تحقيق خير الدين الزركلي، الطبعة المصرية 1347هـ/ 1928م.

3 - الأدفوي: محمد بن علي بن أحمد، أبو بكر.

* الطالع السعيد لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد. طبعة القاهرة 1914م.

4 - آرنولد: السير توماس - مستشرق.

* تراث الإسلام، طبعة أكسفورد، مطبعة كليرن 1931م.

5 - أمين، أحمد.

* ضُحى الإسلام، طبعة القاهرة، ط7، 1964م.

6 - الأمين: محسن عبد الكريم الحسيني العاملي.

* أعيان الشيعة - 10 أجزاء - منشورات دار التعارف للمطبوعات، بيروت 1403هـ/ 1983م.

7 - ابن أبي أُصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي.

* عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء: تحقيق د. نزار رضا. منشورات مكتبة الحياة بيروت 1965م.

8 - الأنباري: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد.

* نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء: تحقيق د. إبراهيم السامرائي طبعة دار المعارف، بغداد 1959م.

- ب -

9 - باقر، د. طه.

* قانون جديد من تل حرمل - دراسة - نشرها في مجلة سومر العراقية، العدد 4 لعام 1948م.

10 - بروين: بدري توفيق. تحقيق مخطوطة.

* المخترع في فنون من الصنع لمؤلف مجهول: نشرت بمجلة المورد العراقية، العدد 4 المجلد 14، لعام 1985م.

11 - ابن بسام: أبو الحسن علي الشنتريني.

* الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: منشورات لجنة التأليف والترجمة، طبعة القاهرة 1358هـ/ 1939م.

12 - ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن داحة الأنصاري.

* كتاب الصِلة - جزءان - منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة سنة 1966م.

13 - البُلاذري: أبو العبّاس أحمد بن يحيى بن جابر.

* فتوح البلدان: تحقيق عبدالله أنيس الطبّاع وعمر أنيس الطبّاع. منشورات دار النشر للجامعيين 1377هـ/ 1957م.

14 - البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد.

* تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة: طبعة حيدر آباد عام 1377هـ/ 1958م، وطبعة لايبسك 1945م.

15 - بيتو: أولغا - مستشرقة.

* المكتبات العربية في العصر العباسي - دراسة - نشرتها في مجلة الثقافة الإسلامية، السنة 3، لعام 1929م.

- ت -

16 - التعاويذي: سبط بن التعاويذي، أبو الفتح محمد بن عبد الله.

* ديوان سبط بن التعاويذي: طبعة مارجليوث وطبعة المقتطف المصريّة سنة 1903م.

17 - ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي.

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - 16 مجلد - طبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة 1963م.

18 - التنوخي: القاضي أبو علي الحسن بن علي.

* نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة - 8 أجزاء - تحقيق عبّود الشالجي بيروت سنة 1391هـ/ 1971م، وطبعة مارجليوث.

19 - التوحيدي: أبو حيّان علي بن محمد بن العبّاس.

* المقابسات: تحقيق حسن السندوبي، منشورات المكتبة التجارية الكبرى بمصر 1347هـ/ 1929م ونشرة توفيق حسين، بغداد 1970م.

* الإمتاع والمؤانسة - 3 أجزاء - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1939م.

* رسائل التوحيدي - تحقيق د. إبراهيم الكيلاني، ط 1 منشورات دار طلاس، دمشق 1985م.

- ث -

20 - الثعالبي: أبو منصور عبد الملك النيسابوري.

* ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار النهضة المصرية، القاهرة 1384هـ/ 1965م.

* لطائف المعارف: تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي، طبعة البابي الحلبي، القاهرة 1960م.

21 - ثعلب: أبو العباس يحيى بن زيد بن سيّار الشيباني.

* مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، منشورات دار المعارف بمصر.

- ج -

22 - الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب.

* الحيوان: - 7 أجزاء - تحقيق عبد السلام هارون، ط2، طبعة البابي الحلبي، القاهرة بدون تاريخ.

* المحاسن والأضداد: تحقيق فان فلوتن، طبعة ليدن 1898م.

* البيان والتبيّين - 3 أجزاء - تحقيق عبد السلام هارون، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط 1، القاهرة 1367هـ/ 1948م.

* رسائل الجاحظ - جزءان - تحقيق عبد السلام هارون، منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة 1384هـ/ 1965م.

23 - جار الله، زهدي حسن.

* المعتزلة: طبعة القاهرة، ط1، 1366هـ/ 1947م.

24 - جرونيباوم: غوستاف.

* حضارة الإسلام: تعريب عبد العزيز جاويد، طبعة القاهرة 1960م.

25 - ابن جُلجُل: أبو داود سليمان بن حيّان الأندلسي.

* طبقات الأطباء والحكماء: تحقيق فؤاد سيد، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة 1955م.

26 - الجلبي: د. داود.

* مخطوطات الموصل: طبعة بغداد 1927م.

27 - الجهشياري: أبو عبدالله محمد بن عبدوس.

* الوزراء والكتّاب: تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط1 مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1357هـ/ 1938م.

28 - جواد: د. مصطفى.

* أول مدرسة في العراق، مدرسة الإمام أبي حنيفة - مقال، نشره في مجلة المعلم الجديد، العدد 6 سنة 1946م.

* دور العِلم العراقية في العصر العباسي - دراسة - نشرها في مجلة «عالم الغد» العراقية، العدد 10، سنة 1949م.

29 - الجواليقي: أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر.

* المُعرّب: تحقيق أحمد محمد شاكر، منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة 1361هـ.

30 - ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي.

* المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - 10 أجزاء - طبعة حيدر آباد. سنة 1358هـ.

* مناقب بغداد - تحقيق محمد بهجت الأثري، منشورات مطبعة دار السلام، بغداد 1342هـ.

* صيد الخاطر: تحقيق محمد أمين الخانجي، ط1، القاهرة 1345هـ/ 1927م.

31 - ابن الجوزي - السبط - أبو محمد يوسف، سبط أبي الفرج عبد الرحمن.

* مراة الزمان: مخطوطة شيكاغو، 1907،محفوظة نسخة منها في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم: ب1944.

- ح -

32 - الحاجري: د. طه.

* الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية - مقالة، نشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 13 لعام 1965م.

33 - حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله.

* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: 6 أجزاء مع الذيل، منشورات مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة بيروت.

34 - الحريري: أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري الحرامي.

* مقامات الحريري، منشورات المطبعة الحسينية بمصر 1348هـ/ 1929م.

35 - ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري الأندلسي.

* طوق الحمامة في الألفة والإيلاف، تحقيق حسن كامل الصيرفي، منشورات المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1967م.

36 - الحموي: ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الرومي البغدادي.

* معجم الأدباء - 20 مجلداً - تحقيق د. أحمد فريد رفاعي، منشورات دار المأمون المصرية، القاهرة 1357هـ/ 1938م.

* معجم البلدان - 8 أجزاء - منشورات دار صادر ودار بيروت، بيروت 1374هـ/ 1955م.

37 - حمادة: د. محمد ماهر.

* المكتبات في الإسلام، ط 6، منشورات مؤسسة الرسالة بيروت 1414هـ/ 1994م.

38 - الحنبلي: ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي أحمد بن محمد الدمشقي.

* شذرات الذهب في أخبار من ذهب - 8 أجزاء - منشورات دار المسيرة، ط2،

بيروت 1399هـ/ 1979م.

39 - الحنفي: قطب الدين محمد بن أحمد المكي.

* الإعلام بأعلام بيت الله الحرام: منشورات المكتبة العلمية بمكة، سنة 1370هـ.

40 - ابن حوقل: أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي - الرحالة.

* صورة الأرض: طبعة ليدن، 1938م.

- خ -

41 - الخالديان: أبو بكر محمد وأبو سعيد إبنا هشام الخالدي.

* التحف والهدايا: تحقيق د. سامي الدهان، منشورات دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.

42 - خسرو: الرحالة ناصر، أبو المعين القُبادياني المروزي.

* سفر نامة: تعريب وتحقيق د. يحيى الخشاب، ط1، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1364هـ/ 1945م.

43 - الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي.

* تاريخ بغداد - 14 مجلّداً - ط1، منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد، ومطبعة السعادة بمصر، 1349هـ/ 1931م.

44 - ابن خلدون: العلامة عبد الرحمن بن محمد المغربي.

* مقدمة ابن خلدون - 4 أجزاء - تحقيق د. علي عبد الواحد، ط1، منشورات لجنة البيان العربي، مصر سنة 1376هـ/ 1957م وطبعة إحياء التراث - جزء واحد - بيروت.

* كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر والعجم، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - 7 أجزاء - طبعة بولاق المصرية 1284هـ.

45 - ابن خلكان: أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - 8 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

46 - الخوئي: أبو القاسم.

* معجم رجال الحديث - 10 مجلدات - ط2، بيروت 1403هـ/ 1983م.

– د –

47 - دائرة المعارف الإسلامية. ترجمة أحمد الشنتاوي وجماعته.

48 - ابن الداية: أحمد بن يوسف الكاتب.

* كتاب المكافأة وحسن العُقبى: تحقيق محمود محمد شاكر، طبعة القاهرة 1940م.

49 - الدجيلي: د. كاظم.

* وصف كتب خزانة الإمام علي - مقالة - منشورة في مجلة لغة العرب، العدد 3 تموز والعدد 4 آب، لعام 1914م.

50 - دياب: مفتاح محمد.

* قصة الطباعة وتطورها - مقال - نشره في مجلة الناشر العربي الليبية، العدد 2 فبراير/ شباط 1984م.

51 - دوزي: المستشرق المعروف.

* تاريخ المسلمين في إسبانيا: منشورات شاتو ووندوس طبعة لندن 1913م.

52 - الدراري اللامعات في منتخبات اللغات - قاموس تركي عربي - أو قاموس اللغة العثمانية/ بيروت 1318هـ.

53 - دي بور: ت. ج.

* تاريخ الفلسفة في الإسلام، ط4، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، منشورات لجنة الترجمة والتأليف والنشر، القاهرة 1957م.

54 - ديورانت: وول.

* قصّة الحضارة - 24 مجلد - تعريب أحمد بدران، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1950.

– ذ –

55 - الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان.

* سير أعلام النبلاء - 24 جزءاً - تحقيق شعيب الإرناؤوط وجماعته منشورات مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت 1401هـ/ 1981م.

* تذكرة الحُفّاظ - 4 أجزاء - طبعة حيدر آباد، 1377هـ/ 1958م.

* العِبر في خبر من غَبَر: تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت 1960م.

- ر -

56 - رضا: الشيخ أحمد.

* متن اللغة: منشورات مكتبة الحياة، بيروت 1377هـ/ 1958م.

57 - رفاعي: د. أحمد فريد.

* عصر المأمون - 4 مجلدات - منشورات دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة 1346هـ/ 1927م.

- ز -

58 - الزبيدي: أبو بكر محمد بن الحسن.

* طبقات النحويين واللغويين: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مصر 1373هـ/ 1954م.

59 - الزبيدي: محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي.

* تاج العروس - 24 مجلد - ط1، المطبعة الخيرية بمصر 1306هـ. وطبعة الكويت 1972م.

60 - الزركلي: خير الدين.

* الأعلام - 8 أجزاء - ط5، منشورات دار العلم للملايين، بيروت 1980م.

61 - زكي: حسين كمال الدين.

* صناعة الورق، نشأتها وتطورها - دراسة قصيرة - نشرها في مجلة الناشر العربي الليبية، العدد 2، فبراير/ شباط/ 1984م.

62 - زيّات: حبيب.

* الجلود والرقوق والطروس في الإسلام - مقالة في مجلة الكتاب - عدد يوليو لعام 1947م، السنة 2، ج9، منشورات دار المعارف بمصر.

- س -

63 - ابن الساعي، تاج الدين علي بن أنجب بن عبد الله.

* مختصر أخبار الخلفاء: تحقيق د. مصطفى جواد، طبعة بولاق 1309هـ.

64 - السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي.

* طبقات الشافعية الكبرى - 6 أجزاء - ط2، المطبعة الحسينية بمصر.

65 - سعد: فهمي عبد الرزاق.

* العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين: منشورات الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1983م.

66 - السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي.

* الأنساب - 10 مجلدات - تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، منشورات محمد أمين دمج، بيروت بدون تاريخ.

67 - ابن سعيد. المغربي.

* المغرب في حلي المغرب. بدون تاريخ.

68 - سعيد: د. خير الله.

* النظام الداخلي لحركة إخوان الصفاء: منشورات دار كنعان، ط1، دمشق 1992م.

* ورّاقو بغداد في العصر العبّاسي، ط1، نشرة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض 2000م.

* زرياب، من بغداد الى الأندلس - مقالة - نشرت في مجلة الحياة الموسيقية السورية عدد 4 لعام 1993م.

60 - السوداني: د. مزهر.

* جحظة البرمكي - حياته وشعره - طبعة النجف، ط1، 1977م.

70 - سومر: مجلة فصليّة عراقية، متخصّصة بشؤون التراث.

* المجلدات 2، 3، 4 للسنوات 1946 - 1947 - 1948م.

71 - السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن الشافعي.

* تاريخ الخلفاء: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط1، مصر سنة 1371هـ/ 1952م.

* بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ط1، منشورات مطبعة السعادة المصرية 1326هـ.

* حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: طبعة القاهرة 1327هـ.

- ش -

72 - الشابشتي: أبو الحسن علي بن محمد.

* الديارات: تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد 1951م.

73 - أبو شامة: شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل - المؤرخ.

* ذيل الروضتين: تحقيق عزت العطار الحسيني، منشورات دار الجليل، ط2، بيروت 1974م.

74 - الشكيل: د. علي جمعان.

* صناعة الورق في الحضارة الإسلامية - مقالة - نشرت في مجلة آفاق الثقافة والتراث، دبي، العدد 31، السنة 8، اكتوبر 2000م.

75 - الشيرازي: هبة الله بن موسى - داعي دُعاة الدولة الفاطمية.

* المجالس المؤيديّة - 4 أجزاء - تحقيق د. مصطفى غالب. منشورات دار الأندلس، بيروت 1974م.

76 - شوشتري أ - م - أ.

* مختصر الثقافة الإسلامية: مطبعة بانغالور 1938م.

77 - شير: أدّي

* الألفاظ الفارسية المعرّبة، ط1، بيروت 1908م.

- ص -

78 - الصابىء: أبو الحسن الهلال بن المحسن بن إبراهيم الكاتب.

* تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء: تحقيق عبد الستار أحمد فراج، طبعة البابي الحلبي المصرية 1958م.

* رسوم دار الخلافة: تحقيق ميخائيل عواد، منشورات مطبعة العاني، بغداد 1383هـ/ 1964م.

79 - صاعد الأندلسي: أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن.

* طبقات الأمم: طبعة الأب لويس شيخو اليسوعي، ط1، بيروت 1912م

80 - الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك.

* الوافي بالوفيات - 25 مجلد - تحقيق هيلموت ريتر، طبعة إستانبول 1931م.

* نكت الهميان في نكت العميان: تحقيق أحمد زكي، منشورات المطبعة الجمالية بمصرسنة 1329 هـ/ 1911م.

81 - الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى الشطرنجي الكاتب

* أدب الكتّاب: تحقيق محمد بهجت الأثري، منشورات المكتبة العربية ببغداد والمطبعة السلفية بمصر سنة 1341هـ

* الأوراق، أو أخبار الراضي والمتقي - جزءآن - تحقيق ج هيورث، مطبعة الصاوي بمصر، ط1، القاهرة 1934م.

(ض ظ) لا يوجد

- ط -

82 - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير - المؤرخ المعروف

* تاريخ الرسل والملوك - 10 أجزاء - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار المعارف بمصر، 1968م

83 - ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا.

* الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: تحقيق محمد توفيق الكتبي، منشورات المطبعة الرحمانية بمصر، بدون تاريخ.

84 - الطهراني، آقا بزرك.

* الذريعة الى تصانيف الشيعة - 24 مجلد - منشورات دار الأضواء، ط1، بيروت 1403هـ/ 1983م.

85 - ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن طاهر الخراساني.

* كتاب بغداد - 6 أجزاء - تحقيق كلر، طبعة لايبسك 1908م.

- ع -

86 - ابن عبد ربّه: أبو عمر محمد الأندلسي.

* العقد الفريد - 7 أجزاء - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1363هـ/ 1944م.

87 - ابن العبري: غريغوريوس الملطي.

* تاريخ مختصر الدول، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1980م.

88 - أبو عبيد: القاسم بن سلاّم.

* الأموال، تحقيق خليل محمد هرّاس، منشورات الدار الشرقية للطباعة، القاهرة 1388هـ/ 1968م.

89 - عريب: ابن سعد القرطبي.

* صلة تاريخ الطبري، طبعة ليدن 1897م.

90 - العسقلاني: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر.

* الدُرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، طبعة حيدرآباد، ط1، 1349هـ.

* لسان الميزان - 6 أجزاء - طبعة حيدرآباد، 1329هـ/ 1920م.

91 - عرشي: إمتياز علي.

* المباحث العلمية من المقالات السنية، طبعة حيدرآباد، 1358هـ.

92 - ابن عنبة: جمال الدين أحمد بن علي الحسيني.

* عُمدة الطالب في نسب آل أبي طالب، ط2، تحقيق محمد ناظم الكتبي، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف 1381هـ/ 1952م.

93 - عواد: كَوركَيس.

* خزائن الكتب القديمة في العراق، منشورات دار المعارف، بغداد 1948م

* الورق أو الكاغد، صناعته في العصور العباسية، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ج 3، المجلد 23، تموز 1948م.

* السفينة، مقالة - نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد 18 كانون2 وشباط 1943م/ 1362هـ.

94 - عواد: ميخائيل.

* صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، منشورات دار الشؤون الثقافية، بغداد 1986م.

95 - عيسى: أحمد.

* تاريخ البيمارستانات في الإسلام، طبعة القاهرة بدون تاريخ ؟

* معجم أسماء النبات، طبعة دمشق 1971م.

- غ -

96 - غي ليسترانج - المستشرق.

* بغداد في عهود الخلافة العباسية، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، ط1، بغداد 1355هـ/ 1936م.

- ف -

97 - الفاسي: التقي المكي.

* تاريخ علماء بغداد، طبعة عباس العزاوي، بغداد 1938م.

98 - أبو الفداء: الملك المؤيد عماد الدين، إسماعيل، صاحب حماة.

* المختصر في أخبار البشر - 4 أجزاء - منشورات المطبعة الحسينية بمصر.

99 - أبو الفرج: الأصبهاني علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم.

* كتاب الأغاني - 24 جزء - طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1389هـ/ 1970م وطبعة الهيئة المصرية العامة 1927 بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

100 - ابن الفقيه: أحمد بن أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم - الهمداني - الإخباري.

* بغداد مدينة السلام، تحقيق د. أحمد صالح العلي، منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد 1977م.

101 - ابن الفوطي: كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق تاج الدين بن أحمد.

* تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب - 4 أجزاء - تحقيق د. مصطفى جواد، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق بدون تاريخ.

* الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، تحقيق د. مصطفى جواد، منشورات المكتبة العربية، بغداد 1932م.

102 - الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب - العلاّمة اللغوي.

* القاموس المحيط، منشورات مؤسسة الرسالة بيروت، ط1، 1406هـ/ 1986م.

- ق -

103 - القرآن الكريم.

104 - القرشي: ابن أبي الوفاء محمد بن محمد بن نصرالله بن سالم.

* الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ط1، حيدرآباد بدون تاريخ.

105 - القزويني: زكريا بن محمد بن محمود.

* آثار البلاد وأخبار العباد، منشورات دار صادر بيروت 1380هـ/ 1960م.

106 - القفطي: الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف.

* تاريخ الحكماء، تحقيق جوليوس ليبرت، طبعة ليبسك، والطبعة المصرية سنة 1326هـ، والمعروف بإسم (أخبار العلماء بأخبار الحكماء).

107 - القلقشندي: الشيخ أبو العباس أحمد بن علي.

* صبح الأعشى في كتابة الإنشا - 13 جزء - منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة 1340هـ/ 1920م.

- ك -

108 - الكتبي: محمد شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر.

* فوات الوفيات - 5 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت بدون تاريخ.

109 - ابن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي.

* البداية والنهاية - 14 جزء - منشورات مكتبة المعارف، بيروت ومكتبة النصر بالرياض، 1966م.

110 - كرد علي: محمد.

* خطط الشام، منشورات مطبعة الترقي، دمشق 1345هـ/ 1926م.

* الإسلام والحضارة العربية - جزءآن - ط2 - منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1950م.

111 - الكناني: ابن جماعة بدر الدين بن الشيخ العارف أبي إسحاق إبراهيم بن السيد.

* تذكرة السامع والمتكلّم في آداب العالم والمتعلّم، طبعة حيدرآباد 1352هـ.

112 - الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف.

* كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق (فن كيست) منشورات الآباء اليسوعيين، بيروت 1908م.

- ل - لايوجد

- م -

113 - المتنبّي: أبو الطيّب أحمد بن الحسين بن عيدان السقا الكوفي.

* ديوان المتنبي - 4 أجزاء - شرح العكبري، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، الطبعة المصرية، بدون تاريخ.

114 - المراكشي: عبد الواحد.

* المعجب في تلخيص أخبار المغرب، نشرة المستشرق دوزي، ليدن 1881م.

115 - المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي.

* التنبيه والإشراف، تحقيق عبدالله إسماعيل الصاوي، القاهرة 1357هـ/ 1938م.

* مروج الذهب ومعادن الجوهر - 4 أجزاء - منشورات الجامعة اللبنانية، بإشراف شارل بيلاّ، بيروت 1974م وطبعة باريس ودار المعرفة 1403هـ/ 1982م.

116 - مسكويه: أحمد بن محمد بن يعقوب.

* تجارب الأمم، نشرة آمدروز، القاهرة 1314هـ/ 1915م.

117 - المعافري: أبو بكر محمد بن عبدالله بن عربي.

* أحكام القرآن، منشورات مطبعة السعادة بمصر، القاهرة 1331هـ.

118 - المعرّي: أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي.
* رسالة الغفران، تحقيق إبراهيم اليازجي، القاهرة 1903م.
119 - المعز بن باديس.
* مخطوطة - عُمدة الكتّاب وعدة ذوي الألباب، موجودة في مكتبة العطّارين بتونس.
120 - معروف: د. ناجي.
* تاريخ علماء المستنصرية، بغداد 1379هـ/ 1959م.
121 - المغربي: أحمد بن عوض.
* قطف الأزهار في خصائص المعادن والأحجار ونتائج المعارف والأسرار - مخطوطة.
حقّقها محمد توفيق بروين، ونشرها في مجلة المورد العراقية، العدد 3، مجلد 2، عام 1983م.
122 - المقدسي: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البشاري.
* أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن 1909م.
123 - المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد.
* المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار - المعروف بالخطط المقريزية - 4 أجزاء -. منشورات مطبعة النيل بمصر 1364هـ.
124 - المقري التلمساني: أحمد بن محمد المغربي المالكي الأشعري.
* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - 8 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت 1388هـ/ 1968م.
125 - ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم الإفريقي المصري.
* لسان العرب - 14 جزء - طبعة دار صادر، بيروت.
126 - المنجد في اللغة والأعلام.
* منشورات دار المشرق، بيروت - ط 38 - لعام 2000م.
127 - مؤلف مجهول.
* أخبار الدولة العباسية، تحقيق د. عبد العزيز الدوري وعبد العزيز المطلبي، طبعة بيروت 1971م.

128 - ميتز، آدم، المستشرق.

* الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - جزءان - ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، طبعة القاهرة 1377هـ/ 1957م.

- ن -

129 - ابن نباته: جمال الدين المصري.

* سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون، ط4 - طبعة المليجي الكتبي، القاهرة 1357هـ

130 - النجفي: الشيخ جعفر آل محبوبة.

* ماضي النجف وحاضرها، منشورات مطبعة العرفان بصيدا، لبنان 1353هـ.

131 - ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق.

* الفهرست، منشورات المطبعة الرحمانية بمصر، بدون تاريخ.

132 - نصّار: د. حسين.

* المساجد في الإسلام، طبعة الكويت 1972م.

- و -

133 - ابن الوردي: سراج الدين أبو حفص عمر.

* جريدة العجائب، تحقيق محمد شاهين، طبعة القاهرة 1380هـ/ 1960م.

- ي -

134 - اليعقوبي: أحمد بن يعقوب بن واضح.

* البلدان، طبعة ليدن 1891م، وطبعة النجف ط3، 1377هـ/ 1957م.

موسوعة الوراقة والوراقين

في الحضارة العربية - الإسلامية

الجزء الرابع

الإفرازات الحضارة للوراقين

(الخطاطون - كصنف مبدع من الوراقين)

الباب الأول

الخطاطون: كصنف مبدع من الوراقين

الفصل الأول

بدايات الحرف العربي في الكتابة

كانت الكتابة شائعة في بعض أطراف الجزيرة العربية، فقد كان لأهل اليمن كتابة يسموُنها «المَسْنَدْ» شاعت في «بني حِمْيَرْ» بينها تشابه وبين «الكتابة الحبشية» في كثير من الحروف، إلاّ أنها أحرف منفصلة(1).

وقبيلة «حِمِيَرْ» تُنسب إلى «حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ومنهم كانت الملوك في الدهر الأول، وإسم حِمْيَرْ، العرنجج، أنشَدَ إبن الأعرابي:

«أريتك مولاي الذي لستُ شاتماً ولا حارماً ما بالَهُ يتحمَّرُ»

و (يتحمّر) أي يصبح أو يريد التشبّه بملوك حِمير.(2)

ومن هذه القبيلة العربية تعلّمت «مُضرْ» الكتابة العربية، إلاّ أنهم لم يكونوا مجيدين لها كما يقول إبن خلدون وعنه ينقل لويس شيخو(3).

فيما كانت «النِبْطيّة» شائعة في شمال بلاد العرب وفي غربيّها، وقد كانت هذه الكتابة «النبطية» ظاهرة على صورتين، منها مُربَّعة الحروف محكمة الصُنع، مع صلابة في شكلها، شاعت خصوصاً في شمال العرب واستعملوها في النُقود والأبنية، وقد كانت لهذه الكتابة

(1) أنظر: الأب لويس شيخو: «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» ص152 من القسم الأول - منشورات دار الشرق - ط2 - بيروت 1989م.

(2) أنظر: إبن منظور - لسان العرب - مادة «حَمُرَ» وراجع كذلك عادل محاد مسعود مريخ/العربية القديمة ولهجاتها/ ص45. منشورات المجمّع الثقافي - أبو ظبي - دولة الامارات العربية، ط1، 2000م.

(3) النصرانية وآدابها/ ص152.

علاقة مع الخطّ الآرامي المعروف بـ«الإسطرنجلي» فيما كانت الصورة الأخرى - لهذه الكتابة - هي «الشكل المستدير» خشبية الصُنع، جرى استعمالها غالباً في نسخ المعاملات والصكوك وما شاكلها[1]. وتلك هي الكتابة النبطية بصورتيها، وهي الأصل الذي اشتقَّ منه العرب أصل كتابتهم العربية، ودعوها بـ«الجزم»[2].

قال السيوطي: «إن أوّل مَنْ كتب بخطنا هذا وهو الجزم، مرامر بن مُرّة وأسلمُ بن سدرة وعامر بن جَذْرة وهم من عرب طي[3]. عَلَّموهُ أهل الانبار ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة وغيرها، فتعلّمها بشر بن عبد الملك، وكان لَهُ صحبة بحرب بن أميّة لتجارته عندهم، فتعلّم «حرب» منه الكتابة ثم سافر مَعهُ بشر إلى مكّة فتعلّم منه جماعة من قريش قبل الإسلام، وسمي هذا الخطّ بالجزم لأنه جَزَم، أي قُطع من الخط الحميري، وتعلَّمهُ شرذمة قليلة منهم[4].

وينقل إبن النديم في «الفهرست» عن إبن عبّاس، قوله: «أوّل من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان، وهي قبيلة سكنت الأنبار، وأنّهم اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطّعة وموصولة، وهم: مرامربن مُرّة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة. فأمّا مَرَامُرْ فوضع الصُور وأمّا أسلم فَفَصَّل ووصل، وأمّا عامر فوضع الإعجام، وسُئل أهل الحيرة: مِمَّنْ أخذتم الخط العربي فقالوا: من أهل الأنبار»[5].

ويضيف إبن عبد ربّه، أن هؤلاء الثلاثة «وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلَّمهُ قوم من الأنبار، وجاء الإسلام وليس أحَدٌ يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنساناً»[6].

ويضيف البلاذري إلى هذه الروايات قوله: «وكان بشر بن عبد الملك أخو أُكيدر بن عبد الملك إبن عبد الجن الكندي، ثم السَّكوني، صاحب دومة الجَندل يأتي الحيرة فيقيم

(1) لويس شيخو: الآداب النصرانية/ ص152.
(2) المرجع السابق/ نفس المكان.
(3) يستفيض الأستاذ الخطاط يوسف ذنون، حول هذه الأصول الكتابية بمقالته الهامة «قديم وجديد في أصل االخط العربي وتطوره في عصوره المختلفة» والمنشورة في مجلة المورد العراقية، العدد الخاص بالخط العربي/ العدد 4 - المجلد 15 - السنة 1986، من ص7 - ص26 - لا سيما في الصفحات الأولى من المقالة.
(4) السيوطي/ المزهر في اللغة/ 1/ 390 - الطبعة المصرية القديمة 1282هـ.
(5) إبن النديم/ الفهرست/ ص4 - طبعة لايبزك 1872م.
(6) العقد الفريد 2/ 205 - الطبعة المصرية 1302هـ.

بها الحين، وكان نصرانياً، فتعلَّم بشر الخطَّ العربيَّ من أهل الحيرة، ثم أتى مكة في بعض شأنهِ فرآه سفيان بن أُميّة إبن عبده شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب يكتب، فسألاهُ أن يعلّمهما الخطَّ فعلَّمهُما الهجاء، ثم أراهما الخطَّ، فكتبا، ثم أن بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفي فتعلَّم الخطَّ منهم، وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مُضَرْ فتعلَّم الخطَّ منه عمرو بن زرارة بن عُدَّس فسُمي عمرو الكاتب، ثم أتى بشرٌ الشام فتعلَّم الخطَّ منهُ أُناسٌ هناك. وتعلَّم الخطَّ من الثلاثة الطائيين أيضاً رجلٌ من طابخة كَلَبْ فَعَلَّمهُ رجلٌ من أهل وادي القِرى، فأتى الوادي يتردّد فأقام بها وعَلَّم الخطَّ قوماً من أهلها»(1).

من كل ما تقدم يمكن القول بثقة أن أهل (العراق) كان لهم قصب السبق في تعلم الحرف العربي، إن كان في الأنبار أو الحيرة، ومن ثم إستقرار قاعدة هذا الخط في «الكوفة» مهد تأطير قواعد الخط العربي الأول «الخط الكوفي» كما سيأتي لاحقاً. ومن هنا نفهم القلق الدائم عند الخطّاط العراقي لتجويد الخطوط وتحسين أشكالها، عهداً بعد عهد، وعصراً بعد عصر، وكأن الأمر فيه شيء من المسؤولية التاريخية للحفاظ على هذه الأسبقية. ليست آنياً فقط، بل حتى قبل الإسلام، إذ كان بعضُ العرب يذكّرون أهل مكّة وغيرها بفضلِ بشر بن عبد الملك عليهم لهذهِ الخِصلة التعليمية الباهرة. فهذا شاعر من كنده أصلهُ من دومة الجندل يخاطب قريش - التجارية، مذكّرهم بذلك قائلاً:

«لا تجحدوا نُعماءَ بشرٍ عليكُمُ ... فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمُ ... من المال ما قد كان شتّىً مبعثرا
وأتقنتمُ ما كان بالمال مُهملاً ... وطامنتمُ ما كانَ منهُ مُنفرّا
فأجريتمُ الأقلام عُوْداً وبداْةً ... وضاهيتُمُ كُتّاب كُسرى وقيصرا
وأغنيتُمُ من مسند القوم حِمَيرٍ ... وما دبَّرت في الكُتبِ إقيالِ حميرا»(2).

إذن أصبح للخط العربي - كحرف - ممارسات كتابيّة أولى كان مهد إنطلاقتها - الأنبار والحيرة والكوفة، وحين وصل إلى «مكة» سَمّوهُ، الخط المكي، ثم سُمّي الخط الذي وصل يثرب، بالخط المديني، بعدما تحولت يثرب إلى اسم المدينة المنورة، إبّان

---

(1) البلاذري/ فُتوح البُلدان/ ص471 - طبعة ليدن 1866 وراجع كذلك - الأب لويس شيخو/ النصرانية وآدابها/ ص153.

(2) راجع: لويس شيخو/ النصرانية وآدابها/ ص154. وما بعدها، حيث أنّه يعرّج على الكثير من العرب االذين «تعلموا الخط العربي» وكيف انعكس ذلك في آدابهم.

وصول الرسول ﷺ إليها. إلاّ أن «الخط الكوفي والخط الأنباري» أخذا في الرسوخ والتعامل الإداري والتجاري بهما، والأنباري، أسهل من الكوفي، لأنه كان ليّن وأطوع في الكتابة وأسهل في الإستخدام، ثم تدرّج الكُتّاب في تحسين هذا الخط حتى أوجدوا لَهُ قاعدة جديدة ميّزته عن أصله الأنباري[1].

أما النوع الآخر من الخط هو الكوفي، فهو أس التطور الفني للخط العربي برمّته، فيما بعد حيث أن صفة هذا الخط الجاف كانت تميل إلى التربيع، أو ما يسمى أحياناً - الخط ذو الزوايا - أو الخط المزوي[2] الأمر الذي فرض على الخطّاط العربي، للتعامل مع هذا النوع برؤية هندسية أضفت جمالاً على هذا النوع من الخط.

ولذلك «نشاهد» أن صحائف القرآن التي كتبت أيام أبي بكر الصدّيق كان الخط الكوفي الجاف، هوالغالب عليها، حيث تظهر فيه الجلالة والفخامة، وقد طوّرهُ أهل الكوفة أيما تطوير إذْ منهم انتقل، مع الفتح الإسلامي، إلى بقية الأمصار، بعد أن أُجريت عليه - في الكوفة - عنايةً دقيقة، وجُوّد حرفُهُ وهُندست أشكاله، ومُطّطَت عراقاته واستقامت، وتميّز عن الخطوط الحجازية، إذ بهِ كُتبت المصاحف اللطاف، وتحلّت بهِ المباني، ودُمغت بهِ النقود والأختام، وكذلك خواتم الخلفاء والأمراء وغيرهم، وقد زاد القرآن فضلاً على هذا الخط، إذ شُرّفت صحائفهُ به، الأمر الذي جَعله يتصدر بقية الخطوط، حيث أن المحمول الديني - الإسلامي، كان واضحاً في هذا التأثير، إذ بدأت معالم الزخرفة الإسلامية تُوظّفهُ بشكل جميل ودقيق، وهو الأمر الذي جعل للخط العربي مكان الصدارة في عالم الزخرفة إلى مرتبةٍ لم يحظَ بها من قبل الخط الزخرفي في أيّة لغة أخرى، أو أيِّ فنٍ آخر من الفنون[3].

---

(1) راجع محمد شكر محمود/ مقالة - الخط العربي والإسلام/ ص93 - مجلة آفاق عربية - العدد 6 - السنة 4 - شباط 1979م.

(2) المرجع السابق/ ص95.

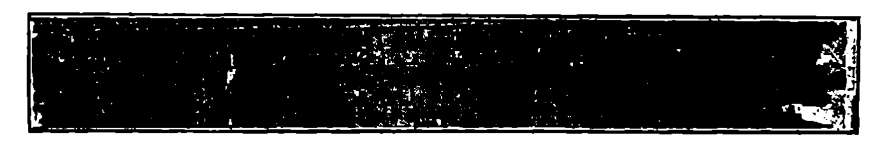
(3) راجع: د. أحمد فكري - مقالة من كتاب/ محيط الفنون/ ص190، نقلاً عن محمد شكر محمود - الخط العربي والإسلام - مقالة في مجلة - آفاق عربية - ص93 العدد 4، شباط 1979م.

٢ً كتابة زَبَد في ثلث لغات يونانيّة وسريانيّة وعربيّة
على مشهد اقيم ذكرًا لمار سرجيوس تاريخها ٨٢٣ للاسكندر ٥١٢ للمسيح
اطلب صورتها في القسم الاوَّل (الصفحة ١٠٤)

٣ً كتابة عربيّة يونانيّة وُجدت في حرّان من اعمال حوران
تاريخها سنة ٤٦٣ لبُصرى و٥٦٨ للمسيح

ΑϹΑΡΑΗΛΟϹ ΤΑΛΕΜ Ȣ
ΦΥΛΑΡΧϹΕ ΚΤΙϹΕΝ ΤΟ ΜΑΡΤϹ
ΤȢ ΑΓΙȢ ΙΩΑΝΝȢ ΙΝΔϹ ΑΤȢ ΕΤȢϹ ΥΞΓ ΜΗΝ ΗϹ ΘΙΕΟ ΓΡΑΨΑϹ +

٤ً مثال خطّ عربي نسخيّ على البرديّ تاريخهُ السنة ٢٤ للهجرة (٦٤٦ م)



٥ً قطعة من سورة البقرة عن رقّ من القرن الثالث للهجرة في مكتبتنا الشرقية



ودونك رسمها بالحرف الاسطرنجليّ للمقابلة بين الخطّين

ܘܟܨܝܒ ܡܢ ܐܠܣܡܐ ܦܝܗ ܙܠܡܐܬ ܘܪܥܕ ܘܒܪܩ
وكصيِّب من السماء فيهِ ظلمات ورعد وبرق

ܝܓܥܠܘܢ ܐܨܐܒܥܗܡ ܦܝ ܐܕܐܢܗܡ ܡܢ ܐܠܨܘܐܥܩ
يجعلون اصابعهم في اذانهم من الصواعق

ܚܕܪ ܐܠܡܘܬ ܘܐܠܠܗ ܡܚܝܛ ܒܐܠܟܦܪܝܢ ܘܝܟܐܕ ܐܠܒܪܩ . . .
حذر الموت والله محيط بالكفرين (كذا) ويكاد البرق . . .

جدول اقدم الكتابات العربية

١ً كتابة عربيّة بخط نبطي تاريخها سنة ٢٢٣ لبُصرى ٣٢٨ للمسيح
وجدها في غارة من اعمال حوران المستشرق دوسو

صوره الكتابة مأخوذة عن الحجر

رسم الكتابة بالخط

تي نفس امرء القيس بر عمرو ملك العرب كلّهِ ذو أسر التاج
ومَلكَ الاسدين وترارو وملوكهم وهرّب محجو عكدى وجاء
بزجاي (؟) في حَبج نجران مدينت شمّر ومَلكَ معدو وبيّن بنيهِ
الشعوب ووكّلهنّ فارسو لروم فلم يبلغ ملكٌ مبلغهُ
عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بالسعد ذو ولَدَهُ

رسم الكتابة بخط عربيّ (نقلًا عن كتاب دوسو)

صورة القلم الحميري

صور ونصب سعداوم دمدموم

مراحل اشتقاق الخط العربي من الخط النبطي

عربي	عربي قديم	نقش ريد وحران	نقش النمارة	نبطي متأخر
ا				
ب				
ج				
د				
هـ				
و				
ز				
ح				
ط				
ى				
ك				
ل				
م				
ن				
سامح				
ع				
ف				
ص				
ق				
ر				
ش				
ت				
لا				

المصدر: د. عبد العزيز الدالي، الخطاطة: الكتابة العربية، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٠

الفصل الثاني

الإسلام والحرف العربي

تكاد تكون الآية ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1] المفتاح المعرفي لوعي العرب والمسلمين للتعاطي مع مختلف العلوم الإنسانية وغيرها، ونظراً لقدسية الخطاب القرآني في وعي المسلمين، فقد كان لزاماً عليهم فهم محمول هذا النص القرآني، ليسَ فقط في مجال الدين، بل في مجال الحياة أيضاً، وفعل القراءة، هنا، هو الحافز لاكتشاف عالم الكون وليس فقط القراءة، بل إدراك معارف الذات الإلهية وذات الأكوان أيضاً، ومن هنا كانت أحاديث الرسول، بهذا الصدد، تنسجم ومحمول الخطاب القرآني، فهو القائل «قيّدوا العِلم بالكتابة»[2] وأن تعرف الكتابة يجب معرفة أسرار حروفها، وفق مقتضى سياقات الجُمل، وشكل كتابة الحرف، وقد إنتبه الرسول محمد رغم أُميّتِهِ إلى تمايزات الشكل بين حرف وآخر، فهو القائل لكاتب الوحي زيد بن ثابت:

«إذا كتبتَ (بسم الله الرحمن الرحيم) فبيّن السينَ فيه»[3] هنا نلمس رؤية العين إلى الحرف بشكل جمالي عند الرسول محمد، وهذا يعني تجذير الحالة الفنيّة في فعل الكتابة، لذلك دأبَ الخُلفاء الراشدون من بعده بمراعاة ذلك. فقد ذُكر عند الخليفة عُمر بن الخطّاب (ت 23هـ/ 644م) قولُهُ: «أحسنَ الخَطّ أبينَهُ وأبين الخطّ أحسَنَهُ» حتى أنَّهُ شاهَدَ مصحفاً مكتوباً بقلمٍ رقيق فقال لحاملهِ «عَظِّموا كتاب الله»[4] كما عُرف عن الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب (ت 40هـ/ 661م) وهو أحد كتبة الوحي للرسول، أنَّهُ في أيام خلافته كان يقول لنسّاخي القرآن في الكوفة، بعد أن يُمرَّ عليهم، ويَطَّلعَ على كتاباتهم للمصاحف،

---

(1) سورة القلم، الآية رقم: 1.

(2) راجع: القلقشندي - صبح الأعشى في كتابه الإنشاء 6/ 360.

(3) راجع: دنتر صالح وآخرين - الخط العربي/ ص19، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - بغداد 1990م.

(4) راجع: الخط الكوفي - لصلاح حسين العبيدي (ص8) مخطوط لديه، ونقلنا الخبر من مقالته «الخط العربي، ركن من أركان الحضارة الإسلامية» المنشورة في مجلة/ آفاق الثقافة والتراث/ دبي - العدد 43 - اكتوبر - 2003 في ص84 وما بعدها.

فيعجبهُ خَطُّهم، فيقول: «هكذا نَوَّروا ما نَوَّرَ الله»[1]. ومن هنا ندرك الأهمية القصوى في حرص الخلفاء الراشدين على الإعتناء بالحرف العربي المكتوب بِهِ القرآن باعتباره كتابُ الله المُنزل، وهو بنفس الوقت كتابُ العَرب الأول لذلك نشاهد الكثير من الدلائل التي تشير إلى الإهتمام بكتابة المصاحف والعناية بها من قبل كافة المسلمين.

حتى غدت مسألة التأنّق في كتابة المصاحف من المسائل الأولى في وعي الرأي العام الإسلامي، أولاً، وفي جُلّ اهتمام الكتبة الإسلاميين على الخصوص، وهذه النقطة هامة جداً - مستقبلاً - لأن القرآن ساهم مساهمة فعّالة في تحسين الخط العربي، إذ أن كل الخطّاطين والنُسّاخ العرب بدأوا مع القرآن نهجاً ومنهاجاً وإبداعاً، كمحمول ثقافي - ديني، يؤصل لهويتهم الحضارية، كثقافة ناهضة تُريد أن تُركّز تقاليدها مع بقية الحضارات والثقافات، وبنفس الوقت تريد لبقية الشعوب - التي دخلت الإسلام - أن تعي تلك المحمولات الدينية في جانبها الروحي، وليس اعتباطاً أن يصار في العهد الأموي إلى وضع حروف الإعجام على أحرف القرآن كي لا يقع المسلمين، من غير العرب، في حالات اللحن اللغوي، عند قراءتهم للقرآن.

أمّا على الصعيد الفنّي الإبداعي، فقد كان الخلفاء الأوائل، في العهد الراشدي والعهد الأموي يكلّفون الخطّاطين الموجوّدين لكتابة المصاحف وعلى أرقى أنواع الجلود من الضِباء والغزلان، حتى أن إبن النديم ينتبه إلى هذه الظاهرة، فقد أشار (بالفهرست) إلى أنَّ أوّل من كتب المصاحف، في الصدر الأول ويوصف بحُسن الخط خالد بن أبي الهيّاج، وقال عنه: «رأيت مصحفاً بخطّه وكان سعد نَصبهُ لكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك، وهو الذي كتبَ الكتاب الذي في قبلة مسجد النبي بالذَهَب، من (والشمس وضحاها) إلى آخر القرآن»[2].

وهو نفس الكاتب الذي «طلب منه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز أن يكتب لهُ مصحفاً على هذا المثال، فكتب لَهُ مصحفاً تنوّق فيه، فأقبل عُمر يُقبِّلَهُ ويُستحسنَهُ واستكثر ثمنه، فردّهُ عليه»[3].

ومع الفتح الإسلامي للأمصار احتاجت الدولة الإسلامية إلى الكتابة والكُتّاب وتعلّم الخط الأمر الذي فَتَحَ الآفاق أمام الكُتّاب والخطّاطين لأن يُطوِّروا أدوات كتابتهم، لا

(1) أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني «كتاب المصاحف» ص131 - 132.
(2) إبن النديم/ الفهرست/ ص10 - 11.
(3) نفس المصدر السابق، وانظر كذلك د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص38.

سيما في العصر العباسي، حيث أرسيت القواعد الفنيّة للخط العربي وأصوله[1].

* عندما تسلم **معاوية بن أبي سفيان** (ت 60هـ/ 680م) مقاليد الدولة الإسلامية، بعد تنازل **الحسن بن علي بن أبي طالب** لهُ، نقل مركز الخلافة من الكوفة إلى **دمشق**، حيث أنصاره ومؤيديه فيها، الأمر الذي ينقل مَعهُ - بالضرورة - معالم الإدارة والثقافة والفنون، وأصبحت دمشق حاضرة الخلافة الأموية، وبدأت علامات الأُبهة والتَمدّن تظهر على **العَمارة الإسلامية**، وهنا كان **للخط العربي** حُضورَهُ الواضح لا سيما الخط الكوفي حيث أخذ يعانق المنائر والمحاريب وواجهات المساجد وغيرها من الأماكن وبهِ سكّت النقود العربية.

ولكن بقت كتابة المصاحف هي الراجحة دوماً في زمن بني أُميّة، فقد أشار إبن النديم إلى وجود ظاهرة ملموسة من خطّاطي المصاحف وشكل الكتابة فيها وأسماء خطوطها فقد ذكر: «خطوط المصاحف. المكّي، المدني، التّم، المُثلّث، المَدوّر، الكوفي، البصري، المشق، التجاويد، السلواطي، والمصنوع، المائل، الراجف، السجلي، القيراموز ومنه يستخرج العجم وبه يقرون، وهو نوعان: الناصري والمُدوّر»[2]

ومن اللاّفت للإنتباه أن **كتّاب المصاحف**، شكّلوا ظاهرة فريدة وقويّة وتاريخيّة في الحضارة العربية - الإسلامية، جعلت لها تقاليد وأسس تسير عليها الأجيال، من عصر إلى عصر، فبالرغم من تأسيسها على يد خالد بن **أبي الهيّاج وقطبة المحرّر**، الذي يعتبره إبن النديم «أكتب الناس على الأرض بالعربيّة»[3] إلاّ أنها ظَلّت مستمرة قروناً عديدة من عُمر الحضارة الإسلامية[4] ومن هنا تداخل أسماء الخطّاطين مع بعضها في العهد الأموي والعهد العباسي، حيث ظَلّت هذه الظاهرة متجذّرة في الوسط الثقافي، وانتعشت جداً حينما ظهرت مهنة الوراقة في بغداد، إذ كان هؤلاء الخطّاطين بمكاتبهم الخاصة «حوانيت الوراقة» والبعض منهم يشتغل في بيته. ومن هؤلاء يذكر إبن النديم قائمة طويلة منهم: خشنام البصري ومهدي الكوفي، وكانا في أيّام الرشيد، ولم يُرَ مِثلَهُما»[5] كما ظهر أيام المعتصم

(1) ستتحدث عنها في الفصول القادمة.

(2) الفهرست/ص9 - 10. وراجع كتابنا «خطّاطو بغداد في العصر العباسي - ص16 - منشورات دار النمير - دمشق 1996م.

(3) الفهرست/ ص10.

(4) في منتصف ستينات القرن العشرين، كلّفت الحكومة العراقية، الخَطّاط هاشم البغدادي بخط القرآن الكريم وفرّغته لمدة سنتين في جمهورية ألمانيا الديمقراطية - والجمهورية الإسلامية الإيرانية/ أيام الخميني/ فعلت ذلك وكلفت أحد الخطاطين.

(5) الفهرست/ ص10.

خطّاطاً آخر، يُدعى (أبو حدى) وكان يكتب المصاحف اللطاف وهو من كبار الكوفيين وحُذّاقهم، ومثله كان - من الكوفيين «**إبن أم شيبان والمسحور وأبو حميره وأبو الفرج**»[1] ومن الذين يكتبون المصاحف بالخطّ المحقّق والمُشَق، وما شاكل ذلك منهم: «**إبن أبي حسان وإبن الحضرمي وإبن زيد وإبن أبي فاطمة وإبن مُجالد وشراشير المصري وإبن سير وإبن حسن المليح والحسن بن النِعالي وأبو حديدة وأبو عقيل وأبو محمد الأصفهاني، وأبو بكر أحمد بن نصر وإبنِهِ أبو الحسين**» ويُعلّق إبن النديم قائلاً: «**ورأيتهم جميعاً**»[2].

أمّا القِمَمُ في هذا الفن - أي كتابة المصاحف - فكان «**قُطبة المحرر**، كما أشرنا أعلاه، ثم جاءَ بعدَهُ «**الضَحّاك بن عجلان** - الكاتب في خلافة بني العباس/ كما يقول إبن النديم/ «أيام أبي العبّاس السفاح، فزاد هذا على قُطبة، فكان بَعْدَهُ أكتب الخلق، ثم جاء **إسحاق بن حَمّاد** الكاتب - في خلافة المنصور والمهدي، فزاد على الضَحّاك[3]، وكان لهذا الخطاط - إسحاق - عِدّة تلاميذ، ساروا على طريقته في خط المصاحف منهم «**يوسف الكاتب**» المُلّقب بلقوة الشاعر، وكان أكتب الناس، ومنهم «**إبراهيم بن الحسن**» زاد على يوسف إتقاناً في الخط، ومنهم «**شُقير الخادم**» وكان مملوكاً مودباً للقاسم بن المنصور، ومنهم «**ثناء الكاتبة**» جارية إبن قيوما، ومنهم «**عبد الجبّار الرومي**» ومنهم «**الشعراني والأبرش وسليم الخادم الكاتب**» خادم جعفر بن يحيى، ومنهم «**عمر بن مسعدة وأحمد بن أبي خالد وأحمد الكلبي**» كاتب المأمون، ومنهم «**عبد الله بن شدّاد وعثمان بن زياد العايل، ومحمد بن عبد الله الملّقب بالمدني، وأبو الفضل صالح بن عبد الملك التميمي الخُراساني**». وهؤلاء كتبوا الخطوط الأصليّة الموزونة التي لا يقوى عليها أحد[4].

كما أسلفنا أن ظاهرة **كتابة المصاحف**، فرضت وجودها على الحالة الثقافية الإسلامية العامة، وانتخبت لها مجموعة من **الكُتّاب الخطّاطين** بشكل خاص، وانتقت **مجموعة من الخطوط** اختصّت بها لكتابة القرآن كجزء من شخصية الظاهرة القرآنية في ضبط المصاحف، من جهة، ومن جهة ثانية، كانت هذه الظاهرة تروم الحفاظ على تقاليدها الإسلامية. من حيث المُعتقد، وعلى تقاليدها الفنيّة، من حيث الإبداع المهني، لذلك حَدّدت هذه الأنواع من الأقلام وهي، وفق رواية إبن النديم[5]

(1) نفس المصدر السابق.
(2) الفهرست/ ص10.
(3) المصدر السابق.
(4) إبن النديم/ الفهرست/ ص11 - 12.
(5) الفهرست/ ص9 - 10.

«المكّي، المدني، التّمْ، المثلّث، المدوّر، الكوفي، البصري، المشق، التجاويد، السلواطي، المصنوع، المائل، الراصف، الأصفهاني، السجلي، الفيراموز» ومن هذا الأخير أُستخرج (العَجَمْ) وبِهِ أخذوا - العجم - وبِهِ قرأوا، وهو نوعان «الناصري والمدوّر»[1].

هنا إستبانت أمامنا، هذه الظاهرة بكل وضوح، كظاهرة ثقافية أصيلة في الفنون العربية - الإسلامية لازمت كتاباً واحداً ولم تَحُذْ عن سواه، وهذه ظاهرة فريدة في كل الثقافات العالمية.

وبقراءة أخرى نقول: «إن الريادة والسبق في كتابة الحرف العربي، «كَفَنْ» في الثقافة العربية - الإسلامية تسجّل لهذه الظاهرة القرآنية، التي أرست تعاليم مُحدّدة ومُمَنهَجَة، فرضت قانونيّتها على تطور الحالة الثقافية لمسار الخط العربي»، والذي استفاد منها كثيراً في اشتقاق أنواعاً أخرى من الأقلام العربية لمواكبة تطور الحالة الثقافية العامة في الحضارة الإسلامية، وكان من أبرز هذه الأقلام: «قلم الطومار، وقلم النصف، وقلم الثلثين، وقلم مختصر الطومار، وقلم خفيف الثلث، وقلم ثقيل الثلث، وقلم الخرفاج المتولّد من قلم الديباج، وقلم السُميعي، وقلم الأشربة المتولدة من مختصر الطومار، وقلم الحرم، وقلم المفتّح النصف، وقلم الزنبوري المتولّد من ثقيل الثلث، وقلم المؤامرات - ويسمّى غبار الحُلية أو الجناح، وتولّد من الثلثين، وقلم العَهد المتولّد من الحرم، وقلم المدوّر الصغير، وقلم الرياسي المتولد من قلم مفتّح النصف، وقلم الرقاع المتولد من قلم خفيف الثلث، وقلم النرجسي، وقلم الريحان، وقلم المنثور، وقلم المرصّع، وقلم اللؤلؤي، وقلم الوشي، وقلم الحواشي، وقلم المقترن، وقلم المدمج، وقلم المُعلّق، وقلم القَصص، وقلم المسلسل، وقلم الحوائجي»[2].

هنا يفرض علينا السؤال التالي: ماذا تعني هذه الزيادات في الخطوط أوالأقلام العربية؟! ولماذا لَمْ يُبق الخطّاطون الأوائل الأقلام الرئيسية والتي هي: «قلم الجليل وقلم الطومار الكبير، وقلم النصف الثقيل، وقلم الثلث الكبير الثقيل» كنمطٍ سائد في الكتابة العربية؟! والجواب، بتقديرنا، هو كون النهوض الحضاري للثقافة العربية - الإسلامية أملى قانونية التطور الاقتصادي - الاجتماعي، على هذه الظاهرة، وفرض عليها الإرتقاء، وفق قانون الجدل، إذ بروز ظاهرة الوراقة بشكل مُلفت وقوي جداً، لتلبية حاجات

(1) الفهرست/ نفس المكان، وهذا - العجم، هو الذي شَكّل أساس الخط الفارسي المعروف بـ«التعليق» والذي أشتقّت منه أنواعاً أخرى كنصف التعليق وربع التعليق.

(2) بدائع الخط العربي/ لناجي زين الدين/ ص21. منشورات وزارة الإعلام العراقية بغداد 1972م.

المجتمع الثقافية في العصر العباسي، جعل من «ظاهرة كتابة المصاحف» جُزءَ من عملية الوراقة وإدخالها في الهيكلية العامة للوراقة والتوريق، مع الإحتفاظ بخصوصيّتها من جهة، ومن جهة ثانية، كانت **المخيّلة الإبداعية** عند الخطاط ترفض المراوحة والتنميط والتقولب في شكلٍ واحدٍ، رغم الإسقاطات الدينية - الإسلامية على «فنيّة التجسيم» وتحريمه، الأمر الذي جعل من المخيلة الإبداعية، أن تسكُبَ كامل طاقتها الفنيّة في مرجل الحرف، ومن ثم أرادت هذه العقلية الإبداعية أن تعبّر عن ذاتها بهذا الفن، باعتباره جزءَ هاماً من هويتها الثقافية، لذلك نُشاهد هذا «الإسقاط» يسحب ظِلالَهُ على العمارة الإسلامية التي بدورها وضّفت الخط والخطّاطين في هندستها المعمارية.

ولكن، تبقى الوِراقة سيّدة الموقف في التأثير والتطوّر لهذا الفن، إذْ أن الوراقة تعاملت مع الشأن الثقافي العام، ولم تتوقف فقط عند المصحف القرآني، بل شملت كل العلوم العربية والإسلامية وثقافات الشعوب الأخرى المنقولة إلى العربية، بمعنى آخر إن الظاهرة الكُليّة «الوراقة» هي التي سيّدت منطقها الإبداعي في الكتابة، وخلخلت تلك القواعد الثابتة في الخطوط، واشتقت لها خطوطها الخاصة التي تخدم الورّاقين ذاتهم، حيث إشتقَّ هؤلاء الورّاقون خطوطهم من المهنة ذاتها، سمّوها «**الخط الوراقي والمحقّق والعراقي**» تميُزاً لَهُ عن بقية الخطوط[1]. بل وزاد البعض منهم إشتقاقات خُطوطَ أخرى تخدم مهنته من حيث، الإقتصاد في الورق والحبر وتوفير الوقت، لذلك أوجدوا لهم قلم مختزل رقيق الحروف متراصٍ، تُسهل مَعَهُ مقاربة ما بين السطور وتوفير الرِق والورق لإرتفاع أسعارها حينذاك، وقد أطلقوا على هذا النوع من الخط إسم «**المُقَرْمَطْ**»[2]، وقد كَرِه خطّاطو وكتبة المصاحف هذا الخط، ولم يتعاطوا مَعَهُ نظراً لكون «**أهلُ الحديث**» تشائموا منه، لتقارب أحرفهِ في الكتابة، ومن النوادر بهذا الصدد، قيل أنَّ المعتز بالله العباسي قد كتبَ بهِ مرّة، فقال لَهُ **علي بن حرب الطائي**: «**أخذت يا أمير المؤمنين في شُؤم أصحاب الحديث**، فضحك المعتّز من ذلك»[3].

ونتيجة المنافسة الإبداعيّة بين الورّاقين وكتبة المصاحف، بدأت تظهر في «سوق الورّاقين» نزعة فنيّة جديدة عند كتبة المصاحف تمثّلت في «**تذهيب المصاحف وتجليدها**» بغية بَذْ الورّاقين والحفاظ على إستقلالية «مهنة كتابة المصاحف» فبرز هذا الفن ليضفي

(1) راجع - إبن النديم/ الفهرست/ ص12 وما بعدها - رغم أنه لم يتوقف مع وصف هذه الخطوط.
(2) القرمطة في الخطّ، = دقّة الكتابة وتداني الحروف. والقرمطة في المشيّ = مقاربة الخطو، انظر: اللسان مادة (قرمط).
(3) الخطيب البغدادي/ تاريخ بغداد/ 11/ 419.

جلالةً وهيبة وجمالاً على المصحف القرآني، ويزيد من جمالية الحرف العربي في التشكيل الزُخرفي، وبذا أخذ الحرف العربي يتجه في مسارٍ فنّي خالص، ستظهر نتائجهُ لاحقاً في «فن الزخرفة الإسلامية «الآرابسك».

وقد أحصى لنا إبن النديم مجموعة من هؤلاء «المُذَهّبين» للمصاحف رافقوا الخطّاطين في أعمالهم، وانفصلوا بعض الشيء عن مهنة الوراقة للتخصّص فقط في التذهيب، وكان أشهرهم: «اليقطيني، وابراهيم الصغير، وأبو موسى بن عمار، وابن السقطي، ومحمد وابن محمد أبو عبد الله الخزيمي وابنه»[1].

إن هذا التطور الفني والإبداعي في مجال الحرف العربي، قاد بعض المؤرخين البغداديين لأن يتباهى في هذا الإنجاز الحضاري مع أهل أصبهان حيث نقل «أبو المُطهّر الأزدي» ذلك بالقول: «هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمِهَنْ مثل ما أرى ببغدادَ من الورّاقين والخطّاطين»[2].

(1) الفهرست/ ص14.
(2) أنظر - حكاية أبي القاسم البغدادي/ ص24 - تحقيق آدم ميتز - طبعة هيدلبرج - سنة 1902م.



عنوان الخط الكوفي بخط كوفي مزخرف

ا . ب . ج . د . ه . و . ز . ح .

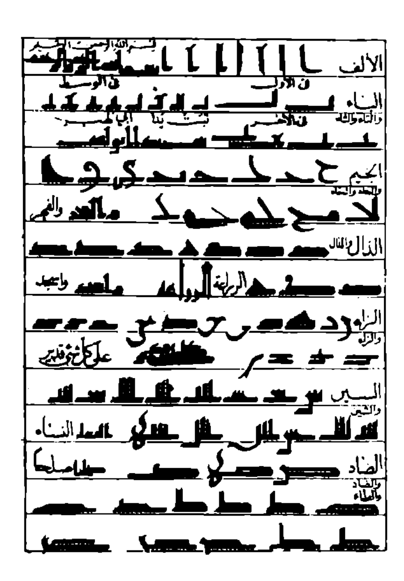
ط . ي . ك . ل . م . ن .

س . ع . ف . ص . ق .

ر . ش . ت . ث . خ . ذ .

ض . ظ . غ .

شكل ٢٧٧ ــ نموذج حروف الابجدية المفردة بالخط الكوفي ــالسوريــ من الكتاب المسمى « شوق المستهام في معرفة رموز الاقلام » لابي بكر احمد بن وحشية النبطي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ من نسخة كتبت سنة ٤١٣ ثم نسخت سنة ١٦٦ هـ المتحف البريطاني رقم 440. H 17



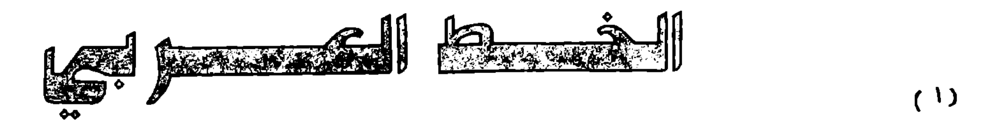


شكل ٢٧٨ ــ نماذج كتابة حروف الالفباء من الالف الى الياء على مختلف الاشكال افرادا وتركيبا بخط كوفي ايراني متأخر من نسخة مصحف مختومة بختم شاه مظفر الدين قاجار ، وفيها بعض نماذج من كلمات القرآن الكريم وغير ذلك .

الطاء
والظاء
العين
والغين
الفاء
القاف
الكاف
اللام

نماذج لكتابة الخط الكوفي

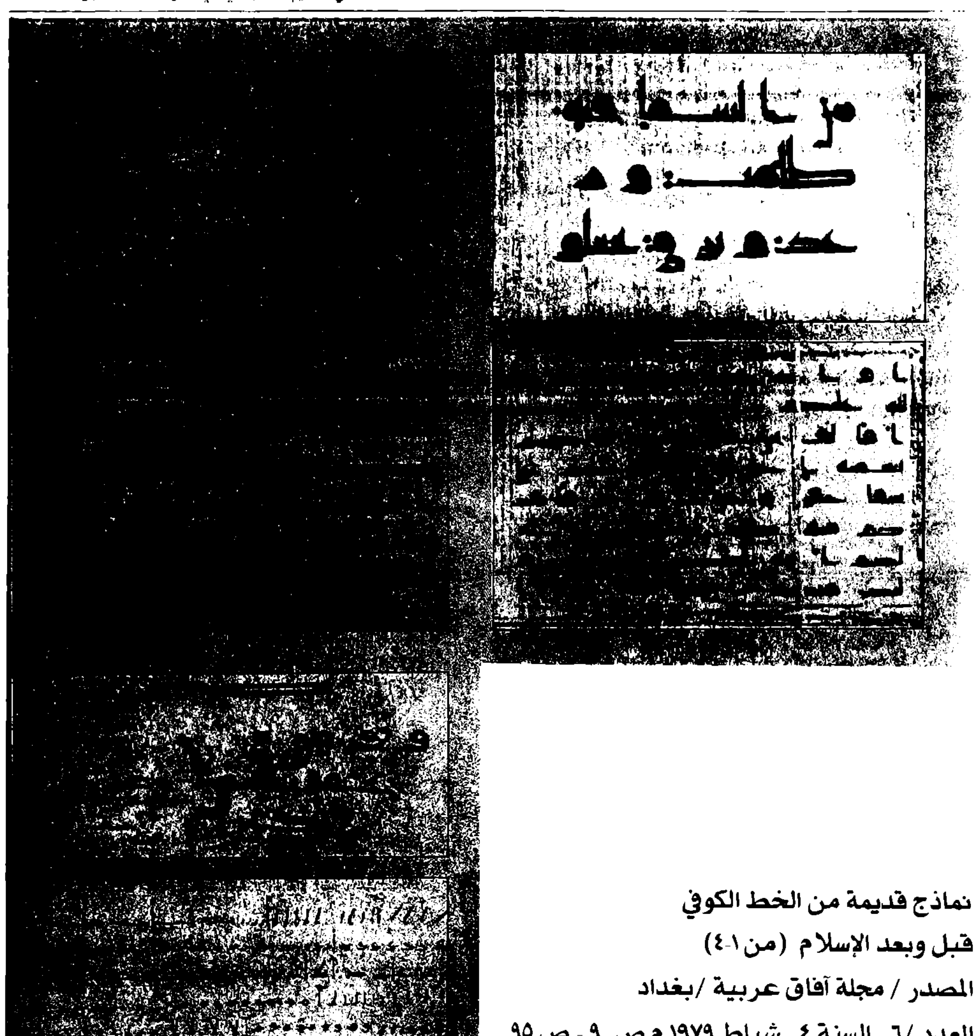
(1) المصدر: مصوّر الخط العربي/ ص85/ لناجي زين الدين - ط2 - بيروت 1394هـ/ 1974م.



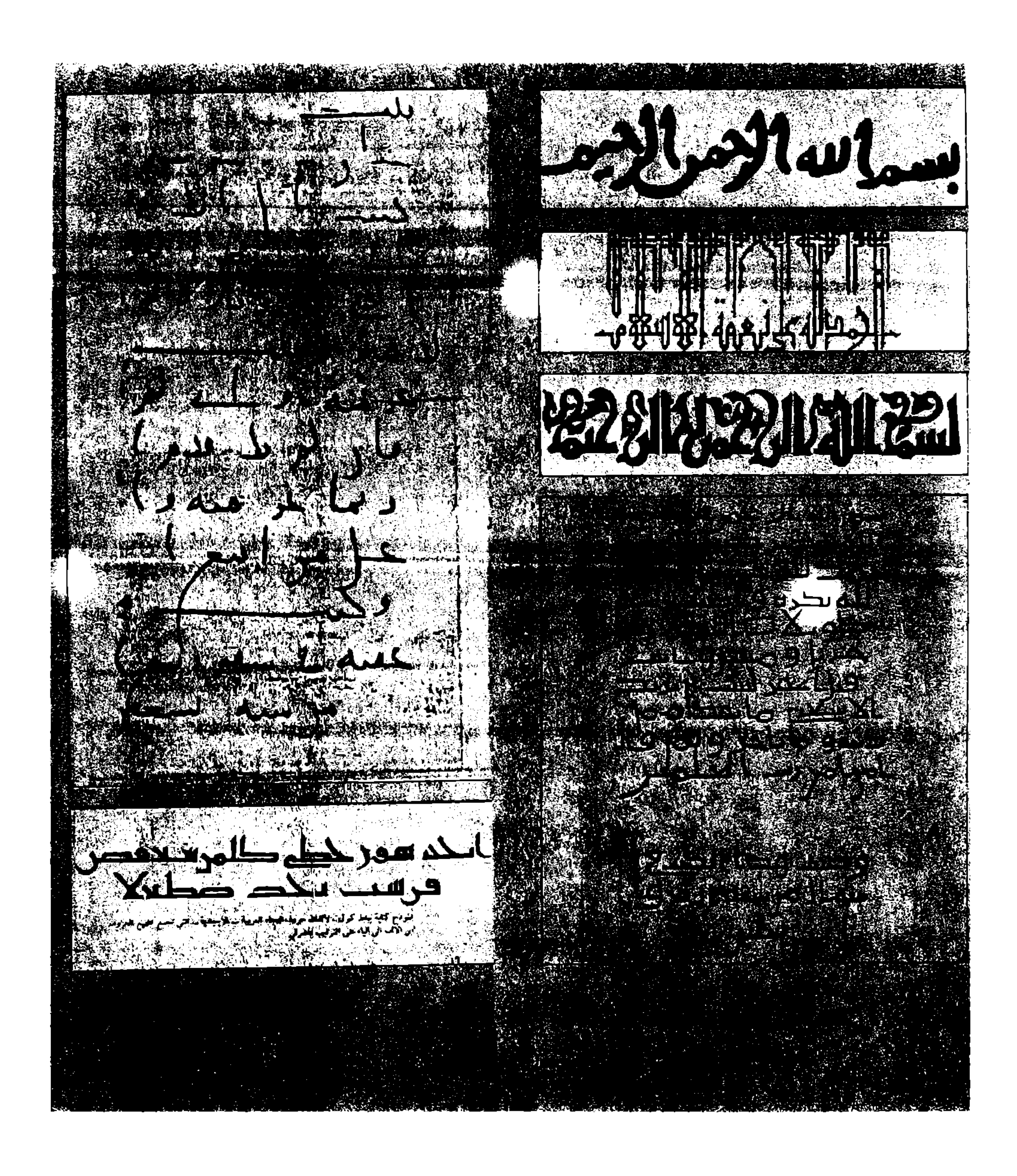
(١)

نسخة من خطاب النبي (ص) الى ابن ساوي أمير البحرين، ويبدو في نهايتها ختم الرسول واضحاً

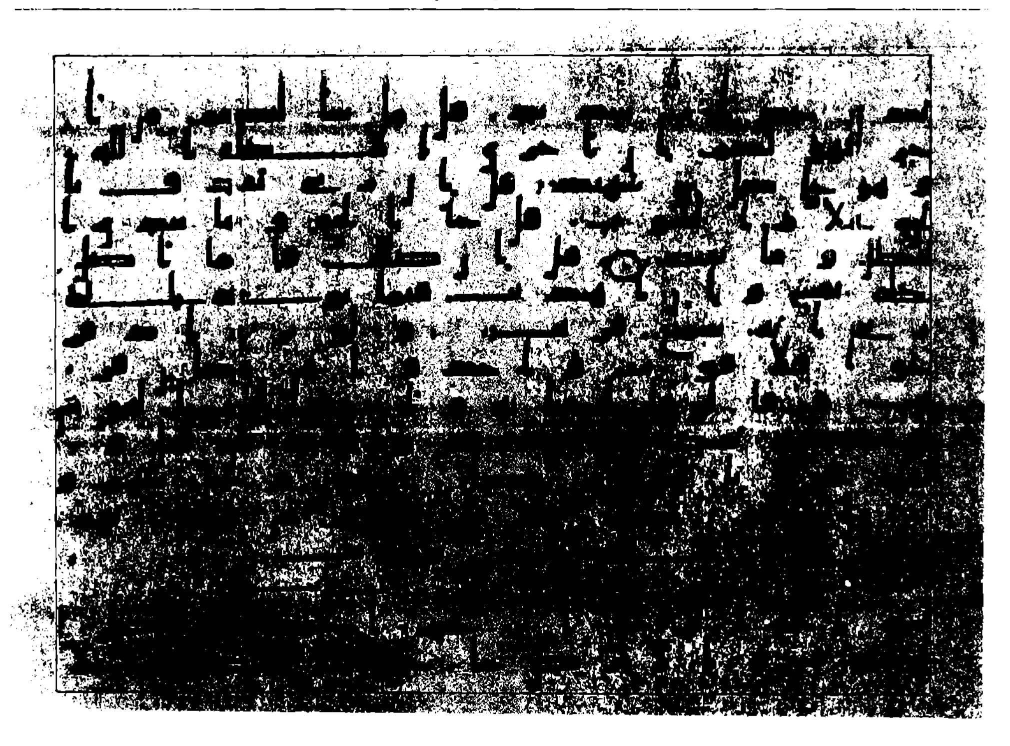
- كتابة من سورة البقرة من القرآن الكريم كتبت على الرق بخط كوفي مبكر علامات (التنوين) منسوبة للخليفة ابي بكر الصديق
- جزء من صفحة من مصحف كتب بخط كوفي مبكر منسوبة للخليفة عمر بن الخطاب ، او الى عهده
- كتابات بخط كوفي في العصر الاسلامي المبكر لاجزاء صحائف من القرآن
- كتابات منقورة في جبل سلع في المدينة المنورة من عهد الخلفاء الراشدين
- نموذج اشكال الحروف الابجدية مما كتب على اوراق البردي من الخط النسخي القديم (الحجازي) في القرن الاول للهجرة



نماذج قديمة من الخط الكوفي
قبل وبعد الإسلام (من ١-٤)
المصدر / مجلة آفاق عربية /بغداد
العدد /٦ السنة ٤ - شباط ١٩٧٩ م ص. ٩ - ص ٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله على نعمة الإسلام

■ ورقة من مصحف ينسب الى الخليفة عثمان او مما كتب في عهده للامصار بخط كوفي فيه فواصل الآيات والسور ونقط التنوين ونقط حرف الشين



خسانا وقالت لهم لوط ان هولاء ضيفي فلا تفضحون عندهم بفضيحتكم
اياهم فيعلموا انه ليس لي عندكم قدر واتقوا الله ولا تخزون مذكوره
في سورة هود قالوا اولم ننهك عن العالمين عن ضيافتهم لانا نريد
منهم الفاحشة وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء قال هولاء بناتي ان
كنتم فاعلين هذا الشان يعني اللذة وقضاء الوطر بقولك عليكم بزوجهن
اراد ان يقي اضيافه ببناته لعمرك قسم بحياتك يا محمد انهم ان قومك لفي سكرتهم
يعمهون في ضلالتهم يترددون وقيل يعني قوم لوط فاخذتهم الصيحة
صاح بهم جبريل صيحة اهلكتهم مشرقين داخلين في وقت شروق
الشمس وذلك ان تمام الهلاك كان مع الاشراق وقوله للمتوسمين
اي للمتفرسين المتثبتين في النظر حتى يعرفوا حقيقة سمة الشي وانها يعني
مدينة قوم لوط لبسبيل مقيم على طريق قومك الى الشام وهو طريق
لا يندرس ولا يخفى ان في ذلك لاية للمؤمنين لعبرة للمصدقين يعني
ان المؤمنين اعتبروا بها وان كان اصحاب الايكة لظالمين يعني قوم شعيب
عليه السلام وكانوا اصحاب غياض واشجار فانتقمنا منهم بالعذاب
اخذتهم الحر اياما ثم اضطرم عليهم المكان نارا فهلكوا وانهما يعني
الملائكة ومدينة قوم لوط لبامام مبين لبطريق واضح ولقد كذب
اصحاب الحجر يعني قوم ثمود واديهم المرسلين يعني صالحا وذلك ان

فجعلنا عاليها سافلها
وامطرنا عليهم حجارة
من سجيل ان في ذلك
لايات

لوحة كوفية لخط القرآن من كتابات (عبد القادر) راجع بدائع الخط االعربي - لناجي زين الدين
ص ٤٢٢- ص٤٢٣ - منشورات وزارة الاعلام العراقية - السلسلة الفنية - ١٩٧٢ م

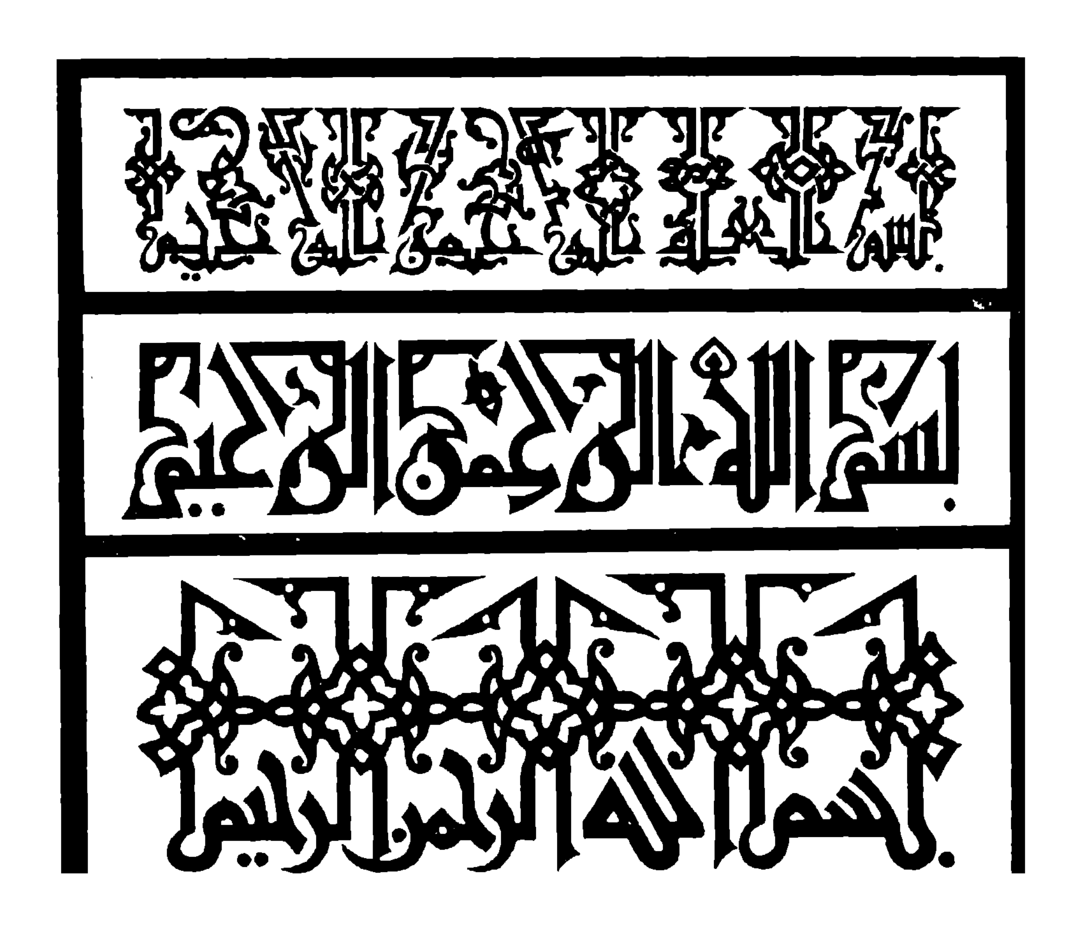
فكانوا عنها معرضين

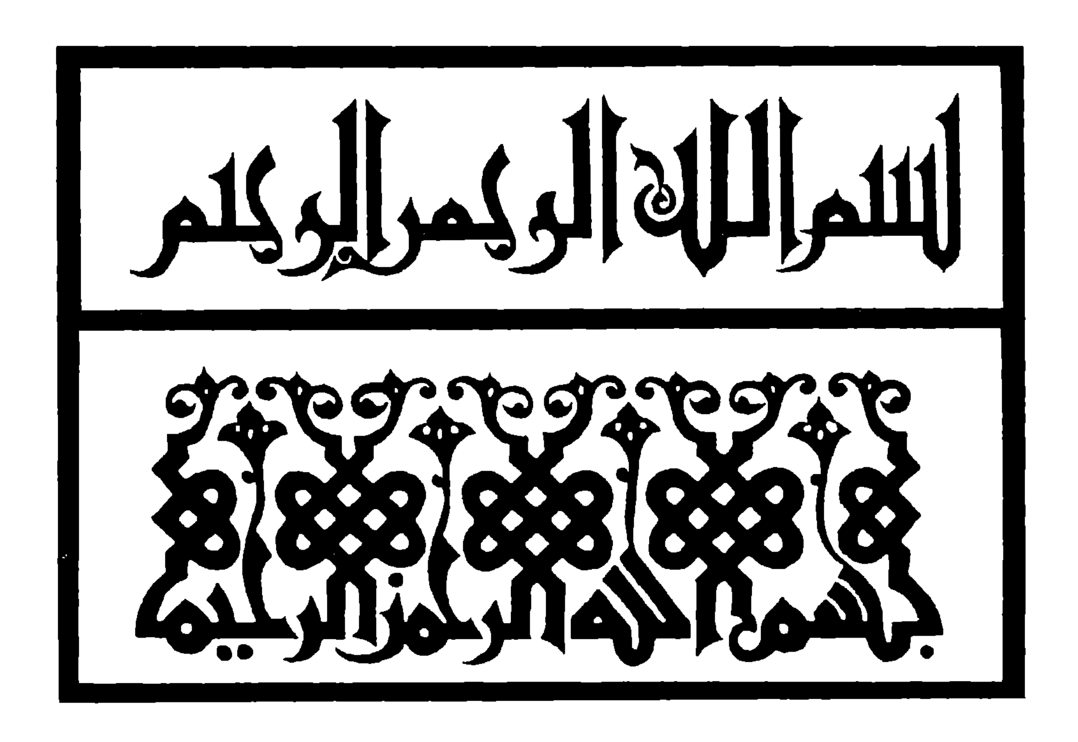
من كذب نبيا فقد كذب جميع الرسل وآتيناهم آياتنا يعني ما أظهر لهم من
الآيات في الناقة وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا لطول عمرهم كان
لا يبقى معهم السقوف فاتخذوا كهوفا في الجبال آمنين من أن تقع عليهم
مصبحين
فأخذتهم الصيحة العذاب حين دخلوا في وقت الصبح فما أغنى عنهم
ما دفع عنهم العذاب ما كانوا يكسبون من الأموال والأنعام وما
خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق أي للثواب والعقاب
أثيب من آمن بي وصدق الرسل وأعاقب من كذبني والموعد
لذلك الساعة وهو قوله وإن الساعة لآتية يقول إن القيامة
تأتي فيجازي المشركون بقبيح أعمالهم فاصفح عنهم الصفح الجميل
قوله أعرض عنهم إعراضا بغير فحش ولا جزع إن ربك هو الخلاق العليم
بما خلق ولقد آتيناك سبعا من المثاني يعني الفاتحة وهي سبع آيات
وتثنى في كل صلاة امتن الله على رسوله بهذه السورة كما امتن عليه
بجميع القرآن حين قال والقرآن العظيم أي العظيم القدر ولا تمدن
عينيك إلى ما متعنا به نهى رسول الله عن الرغبة في الدنيا
عليه أن يمد عينيه إليه رغبة فيها وقوله أزواجا منهم أي أصنافا
من الكفار كالمشركين واليهود وغيرهم يقول لا تنظر إلى ما
متعناهم به من الدنيا ولا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا واخفض جناحك



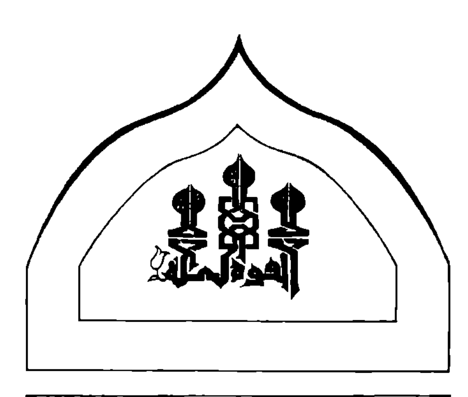


الاشكال - ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ - صفحات مكتوبة بخط كوفي مشكول بينما الشكل ١٧٤
صفحة بخط غير كوفي (مبتكر) - بينما يشكل الشكل ١٧٥ نموذجكتابة كوفية من الطراز الورَق يعود للقرن الخامس الهجري .
المصدر / ناجي زين الدين بدائع الخط العربي - /ص ١٣١ ص ١٣٢


بسم الله الرحمن الرحيم
بسم الله الرحمن الرحيم

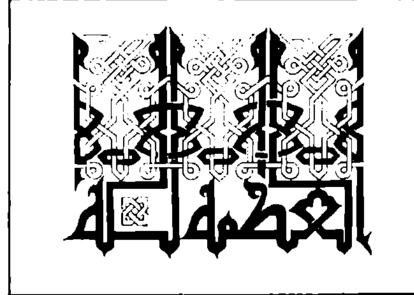


البسملة، مخطوطة خمس مرات بالخط الكوفي المتعدد الاشكال
المصدر الخطاط حسن المسعود كتاب الخط العربي /ص٦٥.
منشورات (فلاماريون، باريس ١٩٨١



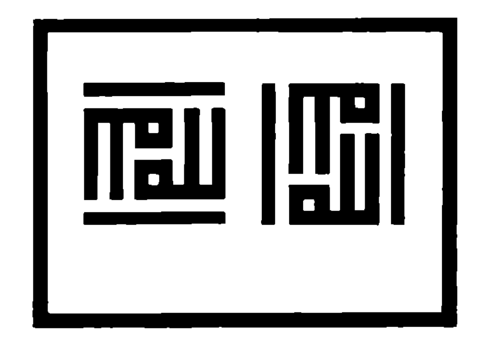
خط كوفي منقول عن مقبرة سيد فخر - القرن الرا
عشر الميلادي - مدينة يزد - ايران . النص : "القوة لله" و
الحروف طولت وزخرفت . وفي الوسط امتدت الى الاعلى م
أجل ان تشابه شكل القوس المكسور بمدخل المقبرة .
ونرى نهايات الحروف في الاعلى زينت بشكل يشابه شكل العمام

:alligraphie Koufi relevée du mausolée de Sayid Fakhr, Yazd,
an, XIVᵉ s.
e calligraphe a terminé ses lettres par des turbans et les a
llongées pour épouser la forme de l'arc brisé où elles s'ins-
rivent



خط منقول عن جدار في مدرسة قره خطاي - قونيا - تركيا
النص : "العظمة لله" - الحروف تصعد وتتشابك فتكو
زخارف هندسية أكثر أهمية من مساحة الحرف نف

:alligraphie Koufi relevée des murs de l'école Kara Khatay,
onia, Turquie.
es lettres montent en un décor géométrique et développent
n espace monumental plus important que la calligraphie
lle-même



خطان في كل واحد منهما يتكرر لفظ الجلالة "الله"
مرتين لغرض خلق شكل مربع

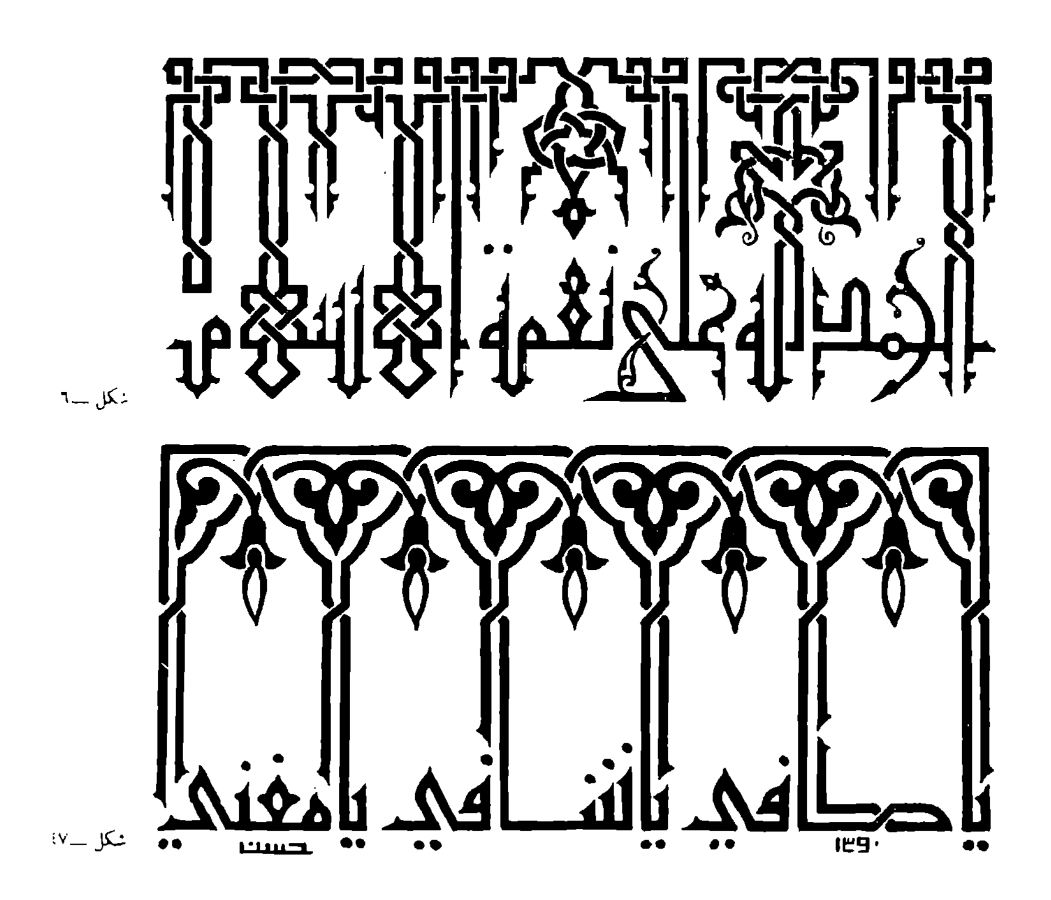
leux calligraphies où, dans chacune d'elle le nom d'Allah
Dieu) est répété deux fois pour créer une forme carrée



خط منقول عن جدار جامع قسمه كازي - زنزبار
٥٠١ هـ - ١١٠٧م النص "بالله واليوم" وهو خط
كوفي تنتهي حروفه بزخرفة مورقة لغرض ملء
المساحة العليا .

:oufi, relevé de la mosquée Qasma Kazi, Zanzibar, 1107.
a partie supérieure n'est qu'ornement et remplit l'espace.

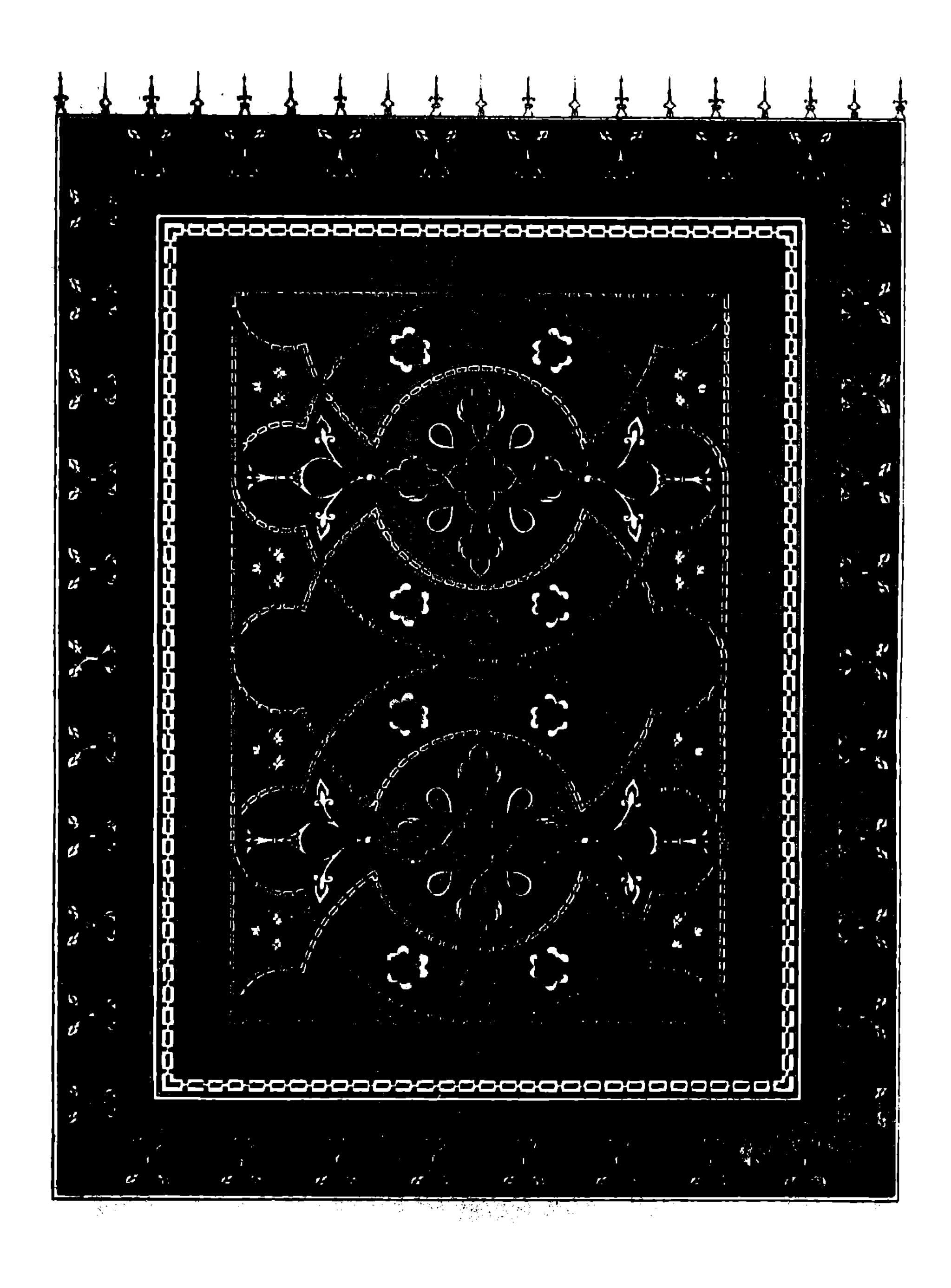
المصدر / الخط العربي - حسن المسعود .



شكل ـ ٦

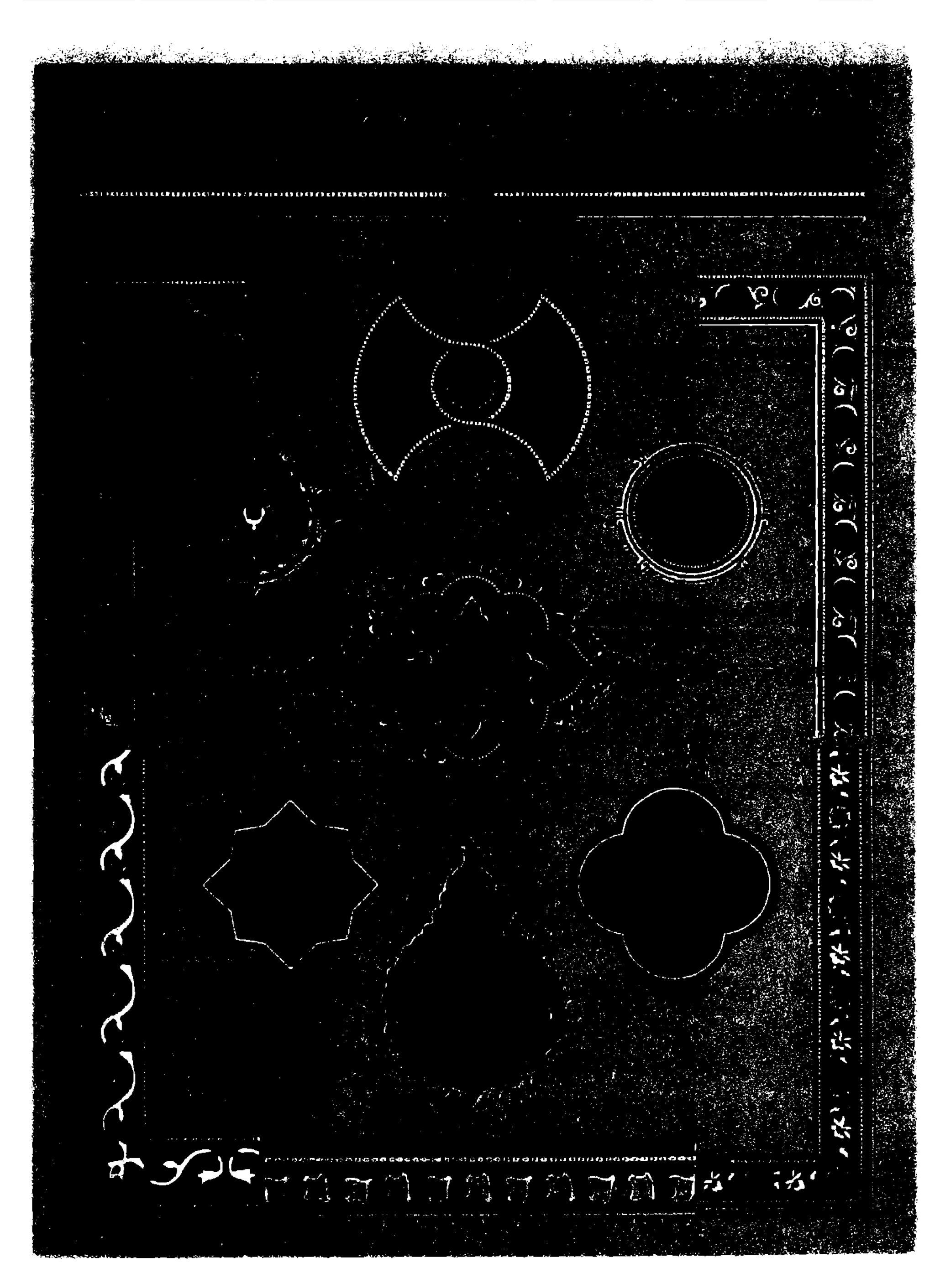
شكل ـ ٤٧

المصدر / ناجي زين الدين / بدائع الخط العربي ص ١١٢



زخرفة الصفحة الأخيرة من مصحف جامع السلطان برقوق ـ مصر ـ من القرن الرابع عشر ميلادي .

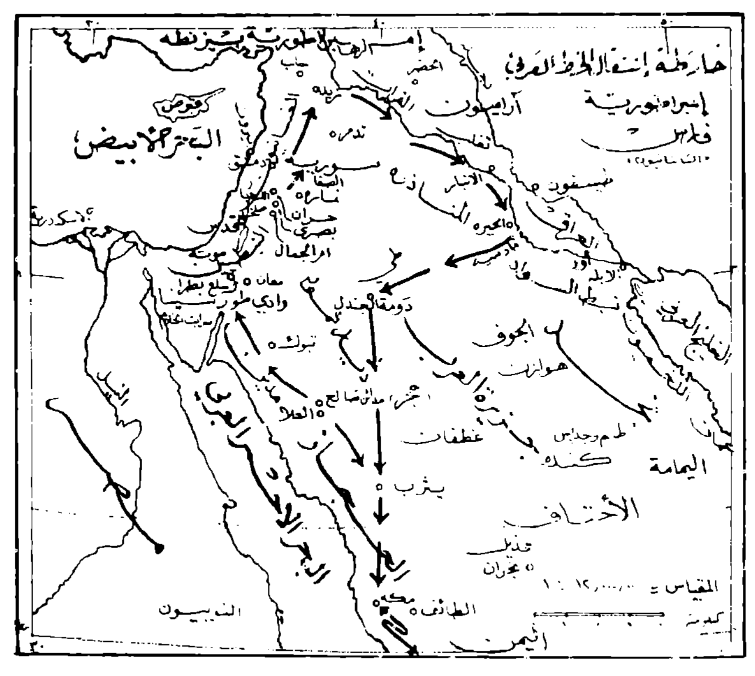
المصدر / ناجي زين الدين / بدائع الخط العربي /ص ٤٢٦



وحدات زخرفية منوعة لمصحف من مقبرة السلطان الغوري بمصر - من القرن السادس عشر ميلادي .

المصدر زين الدين /بدائع الخط العربي /ص ٤٢٧

مواطن نشوء الكتابة ، والخطوط العربية الاولى عبر التاريخ



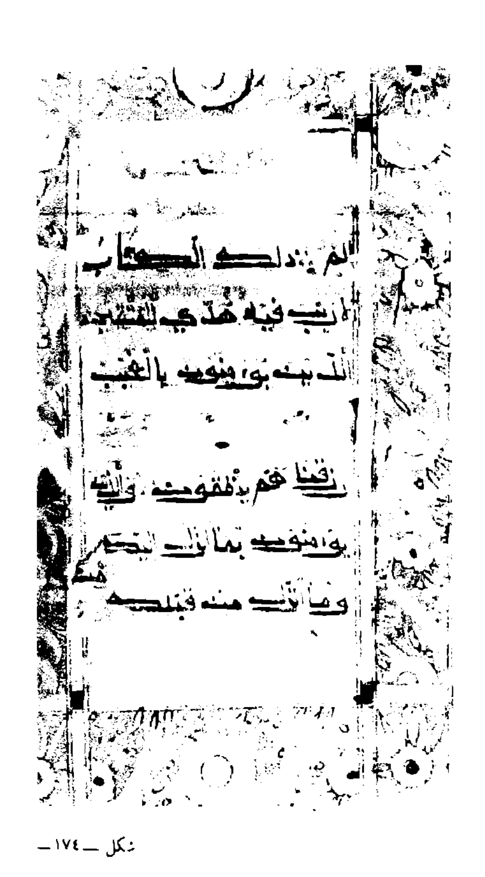
« من رسم المؤلف »

ان اتجاه السهام المرسومة في هذه الخارطة : تشير الى [illegible] التي [illegible] الكتابة والخط في الجزيرة العربية على [illegible]

[illegible] الحجر [illegible] مدائن صالح [illegible] الطريق [illegible] الحجاز [illegible] سيناء الاردن [illegible] الخط [illegible] الخارطة .

فإذا انسلخ الأشهر الحرم
فاقتلوا المشركين حيث
وجدتموهم وخذوهم
واحصروهم كل مرصد
فإن تابوا وأقاموا الصلوة
وآتوا الزكوة فخلوا سبيلهم
إن الله غفور رحيم وإن أحد
من المشركين استجارك
فأجره حتى يسمع كلام

شكل ــ ١٧٣ ــ



الم ذلك الكتاب
لا ريب فيه هدى للمتقين
الذين يؤمنون بالغيب
رزقناهم ينفقون والذين
يؤمنون بما أنزل إليك
وما أنزل من قبلك

شكل ــ ١٧٤ ــ

شكل ــ ١٧٥ ــ

الباب الثاني

الخط في العصر العبّاسي

الفصل الأول

العَبّاسيّون وتأصيل الخط العربي

أشرنا في الفصول السابقة إلى الحالات التاريخية لمراحل تطور الخط العربي، من التبرعم إلى الظهورالواضح، كحرفٍ مستقلٌ بذاته، تعاملت مَعهُ الثقافة العربية - الإسلامية كأداة معرفية وفنيّة في حياتها السياسية والإجتماعية والأدبيّة، كما أشرنا إلى أن الخط الكوفي كان العلامة الأبرز عند أهل العراق، قبل إنشاء العاصمة بغداد، حيث كانت الكوفة مهد المعارضة ضد خلافة بني أميّة، وشكلت مع (مرو) قطبي الرحى في التمركز السياسي، والذي آل إلى سقوط الدولة الأموية، ولذلك عندما انتصرت الدعوة العباسية، كانت الكوفة عاصمة لها أيام أبي العباس السَفاح (132هـ - 136هـ/ 750م - 754م) بعد أن انتقل إليها من الأنبار، وأصبحت الكوفة مركز الحياة الثقافية والسياسية ونظراً لطغيان الموجة السياسية على كامل عصر أبي العباس السفاح، فقد كان في الكوفة نوعاً واحداً من الخط، هو الكوفي، حيث ظل سائداً فترة طويلة من الزمن، وشكّل هذا الخط منهلاً لغيره، واستنبطت منه أشكالاً أخرى، حتى وسَمَ بميسَمِهِ أغلب المدونات والمطبوعات والآثار من مصاحف ومخطوطات أخرى، وشواهد قبور، وقد برز في كتابة هذا اللّون من الخط، كاتب إسمهُ «مبارك المكيّ» وذلك في عصر المتوكل (207 - 247هـ)، حيث نبغ فيه نبوغاً عظيماً، وترك لنا ألواحاً حجرية، ثلاثة منها منقوشة بخطِّهِ وممهورة بتوقيعه، مؤرخة في سنة 243هـ[1].

(1) هذه الآثار معروضة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة - راجع د. محمد عبد العزيز مرزوق - العراق/ مهد الفن الإسلامي/ ص40 - منشورات وزارة الإعلام العراقية - بغداد 1971م.

وقد قطع هذا الخطّاط خطوات واسعة في التطور والنضوج، حتى وصل مَعَهُ الخط الكوفي إلى القمّة، واستطاع أن يعطينا صورة رائعة له، تَنُمُّ عن ذوقهِ الرفيع وحسّه المرهف، وقدرته على التفنّن في زخرفة وابتكاتر صور لها زاخرة بالجمال الفني[1].

لقد أوحى شكل هذا الحرف إلى الخطّاط العراقي، بشكل خاص، والعربي، بشكل عام، أن يدرك ما بِهِ من إمكانية للإبداع في الزخرفة، إذ كان هذا الخط من الأساسيّات الأولى بفن الزخرفة العربية - الإسلامية، فرؤوس الحروف وسيقانها وأقواسها ومدّاتها وخطوطها الرأسية والأُفقية، قد أوحت إلى الفنّان بعناصر زخرفية شتّى، ما يكاد يرسمها حتى يبعث في نفسهِ شعوراً من ارتياح المتفنّن إلى أثره الجميل، وقد كان للقرآن وقعٌ عميق عليه - وقتذاك - إذ وُجدت آياتٌ فيه تحمل إسم «القلم» من مثل ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[2]، وآية ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾[3] الأمر الذي قادهُ إلى الإنسجام روحيّاً وفنيّاً كي يبدعَ شيئاً جاء في أساس عقيدته الدينية، وفي هذه الآيات تكريم ورفع لمنزلة الخط العربي، لذلك كان الكوفيّون سبّاقين إلى الأخذ بِهِ وتجويدهِ والتفنّن في اتقانهِ، حيث من هذه المدينة «الكوفة» انبعثت تلك العناية بفن الخط إلى أرجاء العالم الإسلامي، وأخذ الفنّانون ينسجونَ على منوال الخط الكوفي[4] حيث أبدعت أشكالاً أخرى لهذا الخط زادتْهُ جمالاً ورفعة وأصّلت شخصيته الفنيّة في مجال الزخرفة والعمارة الإسلامية.

فمن هذا الخط، ذو الصورة اليابسة، في تشكيلاته الأولى، كتبت المصاحف زهاء أربعة قرون، حتى استُبدل بخط النسخِ فيما بعد، وقد كان العصر العباسي، بكامل تشكيلاته الهرمية، سياسيّاً واجتماعيّاً، يتعاطى مع هذا الخط، إذ كان في بادىء أمره بسيطاً لا توريق فيه ولا تزهير، ولا تشابك ولا ترابط بين حروفهِ، ثم زُخْرِف، فكان منه الكوفي ذو المثلثات والمورق، والكوفي المزهر والكوفي المربع والهندسي ثم دخل هذا الخط مرحلة جديدة، وُفّق فيها الخطاط إلى أشكالٍ يمكن أن تطلق عليها «الخط الكوفي الصوري» وقد قُسّمت أشكال هذا الخط، وفق استخداماته (الفنيّة والعملية) إلى الأنواع التالية:

---

(1) المرجع السابق/نفس المكان.
(2) سورة القلم، الآية: 1.
(3) سورة العلق، الآيتان: 3 - 4.
(4) د. مرزوق/ العراق مهد الفن الإسلامي/ ص42.

1 - الخط الكوفي البسيط[1]

وهو من أقدم الأنواع التي عُرفت منذ القرن الأول الهجري، وهو الذي لا يلحقهُ توريق أو تزهير أو تعقيد، وقد ظل هذا الإسلوب الكتابي من الخط الكوفي، مفضلاً في الكتابات التذكارية، وتغلب على حروف هذا النوع من الخط اليبوسة والصلابة والجفاف والميل إلى التربيع والتضليع. وقد استمرّت الكتابة فيه إلى نهاية القرن الثلث الهجري/ التاسع الميلادي[2].

2 - الخط الكوفي ذو المثلثات

هو ذات الخط الكوفي القديم وقد أدخل عليه تحوير بسيط، تركّز هذا التحوير على هامات بعض الحروف، حيث أُضيف إليها مايشبه المثلثات ثم شملت ذلك معظم الحروف، وهو نفسه الذي يطلق عليه «الكوفي المتقن».

وقد كان نصيب هذا الخط موفوراً، إذ وجد على الآثار العربية - الإسلامية، وفي المخطوطات والتحف الفنيّة وعلى العمائر.

3 - الخط الكوفي المورق

وهو الخط المكتوبب الذي تخرج من أطراف حروفه (عند الكتابة) سيقان نباتية دقيقة، تُزخرف نهاياتها ورقة نباتية تمتد إلى أجسام الحروف نفسها، الأمر الذي يضفي عليها جمالاً آخراً، وقد انتشر هذا النوع في أنحاء العالم الإسلامي.

4 - الخط الكوفي المزهر

وهو الخط الذي شاع في العصر العباسي بشكل ملحوظ، حيث استطاع الخطّاط أن يبتكر هذا اللون من الخط، وقد عَدَّ المختصون وعلماء الآثار، هذا النوع من الخط إبتكاراً

(1) اعتمدنا في هذا التبويب والتفصيل على مقالة د. صلاح حسين العبيدي «الخط العربي ركن من أركان الحضارة الإسلامية» المنشورة في مجلة آفاق الثقافية والتراث - دُبي - العدد 43/ اكتوبر/ 2003 - ص83 - ص97.

(2) يتوهم الاستاذ يوسف ذنون، بأن «الخط الكوفي ليس كوفياً» محيلاً أصله إلى بلاد الشام متخطياً حقبة خلافة علي بن أبي طالب/ والتي ازدهرت بها كتابة المصاحف بالخط الكوفي، أنظر مقالته (قديم وجديد في أصل الخط العربي - مجلة المورد - عدد خاص بالخط العربي - العدد/ 4 - مجلد 15 - 1918/ ص 12-13).

من ابتكارات العرب أضيف إلى حضارتهم. وقد بدأت عملية التزهير في هذا الخط بتحوير الورقة النباتية التي شاعت في الخط المورق إلى ورقتين ذات ثلاثة فصوص أو شحمات يحتضنها الغُصن النباتي الذي بدأ يخرج من رؤوس الحروف ونهاياتها، وأخذ يمتد بعيداً عن مكان اتصاله بالحرف وانثنى، وانشقت الأوراق، وزُيّنت بالأزهار، وكثرت الأوراق والأزهار، وبدأت عملية التزهير في الخط.

5 - الخط الكوفي المضفور

يتميّز هذا الخط عن غيره من بقية خطوط الكوفي، بأن زخرفته تتكون من ترابط حروفهِ بعضها إلى بعض. وقد ظهر هذا النوع من الخطوط في أوّل أمرهِ بسيطاً، ثم بولِغَ في تعقيده إلى الحد الذي يكاد يذهب بمعالم الكتابة، فتصعب قراءتها، إذ الخطّاط يربط بين حروف الكلمة الواحدة أو الكلمتين بعضها ببعض، حتى لا يدري الإنسان من أين تبدأ الكلمة وإلى أين تنتهي.

6 - الخط الكوفي المربّع

وهذا النوع من الخط هو الذي يتميّز بالتربيع والتدوير والصفة الهندسية ظاهرة فيه، فحروفهُ شديدة الإستقامة، قائم الزوايا، شكّل الآجر «الطابوق» مادة أساسيّة في تشكيلاته الأفقية والرأسية، ولهذا كثر في فن العمارة الإسلامية، حيث رُتّبت الحروفُ فيها ترتيباً هندسياً في غاية الدقّة والجمال[1].

وحينما اكتمل بناء بغداد (144 - 149هـ/ 762 - 767م)، تحت رعاية مؤسّسها أبو جعفر المنصور (136هـ - 158هـ) وانتقلت الدواوين إليها من الكوفة وشُغلت أسواقها بالصنّاع وأرباب المِهَنْ، حتى أصبحت الأرباض - الساحات - من العلامات الحضارية الدالة عليها، فهناك، في ربضٍ وضّاح، بين طاق الحَرّاني والقنطرة الجديدة، كان سوق الورّاقين[2] حيث شرعت حوانيته التي تربوا على المئةِ، لإستقبال الأدباء والعُلماء، وأخذ الخطّاطون أماكنهم في زوايا تلك الحوانيت، وكان الخط الكوفي هو إبداعهم الحاضر بقوة، يستخدمونه في الكتابة وفي تنميق أغلفة الكتب وغيرها.

لقد أخذت الحياة الأدبية والعقلية تزدهر باضطراد، تبعاً للحالة الإقتصادية

(1) راجع بقية التفصيلات عند د. صلاح حسين العبيدي - في المرجع السابق من ص90 - ص93.
(2) اليعقوبي/ فتوح البلدان/ ص245 - طبعة ليدن 1891م.

والإجتماعية الناهضة، وما أن حَلّ عصر المأمون (198هـ - 218هـ/ 813 - 833م) حتى كانت فنون الخط تستجيب بشكل متواتر لكل ما يتطلب من صيانة للحالة العلمية السائدة في هذا العصر. إذ تزامن في بغداد وجود أنواع من الخطوط أبتدعت على أيدي خطّاطين ملأت شهرتهم الآفاق، وقد تخطّى هؤلاء الخطّاطون حاجز الخط الكوفي دون إهمالهِ، إذ ظهر خط النسخ، والذي كان كثير الإستعمال في التراسل والتدوين، ومن هُنا عُرف بخط النسخ، وقد أخذ هذا الخط يرقى سُلّم التطوّر، لا سيما بعد أن بدأت الترجمة والتأليف تأخذ حيّزها الناشط في عقل المؤسّسات العلمية العباسية ويدفع من المأمون شخصياً، إذ نهضت كل الخطوط العربية - وقتئذ - لتساهم بعملية «النسخ» لما يُترجم وما يؤلّف، وقد كثر النُسّاخ والورّاقون، بمختلف صنوفهم.

وقد ظهر خطٌّ آخر - في هذه الفترة - أيضاً، عُرف بـ«المُحقّق» وهو نوع من النسخ، تتحقّق فيه تناسب ودقّة (فنيّة) في رسم حروفه[1] وهذا - القلم - قد سُميَّ بعدة تسميات منها «البديع والمقوّر والمكدور، والمحقّق» ومن ثم تطوّر هذا القلم إلى «الثلث، الطومار، التعليق، الرقعة، الديوان، الطغراء، الإجازة»[2].

ويُعدّ هذا القلم «المُحقّق» هو الحد الفاصل بين حروف الكتابة، بشكل عام، وحروف الخط، كإبداع، بشكل خاص، حيث مع هذا الخط، تبدّلت وظيفة القلم. من أداة كتابة إلى أداة فنيّة، لا سيما على يد إبن مُقلة والذي فرض قاعدة الكتابة فيه وفق شروط فنيّة خالصة، سوف نعرّج عليها، فيما بعد، وكذلك تلاميذه إبن البَوّاب، وغيره، والذين ساروا على منواله، وصولاً إلى ذروة الخط في المدرسة البغدادية ياقوت المستعصمي، الذي أكمل الكمال فيه[3].

لقد أثّر الجانب الفنّي في الكتابة على عموم الكُتّاب والورّاقين وأصبحت مسألة تجويد الخط إحدى المقوّمات الأساسيّة لعمل الورّاق - الناسخ، وإحدى ركائز المفاضلة بين كاتب وآخر في دواوين الدولة العباسية، وربما ارتقى صاحب الخط الجميل إلى سدّة الوزارة، كما حَصل مع إبن مُقلة، وقد التفت إلى هذا الجانب بشكل دقيق شيخ الترسل وقُبلة الكتّاب في العصر العباسي أبو بكر الصُولي حيث أشار إلى أهمية الكاتب من حيث حُسن الخط وطرق بري القلم، وأفرد فصلاً خاصاً في كتابه (أدب الكتّاب) سَمّاهُ «حُسن

---

(1) أبو بكر الصولي/ أدب الكتّاب/ ص49 - تحقيق بهجت الأثري - بغداد 1341هـ.

(2) د. صلاح حسين العبيدي - مقالة (الخط العربي ركن من أركان الحضارة الإسلامية) مجلة آفاق الثقافة والتراث - العدد 43 - اكتوبر - 2003م/ ص93.

(3) سوف نترجم لهؤلاء الأعلام، بكل تفاصيل حياتهم في الفصول القادمة.

الخط» وأورد شواهد عديدة في حُسنِ الخطِ وقبحهِ، مشيراً إلى كثير من الطُرق في ذلك، وناقلاً أحسنَ ما قيل فيه من أدب، شعراً كان أم نثراً، ليُدلّل على حُسن إرتضاء النفوس لحُسنِ أداء الخطوط، ومن ذلك ما قالَهُ أبو تمّام الطائي في الحسن بن وهب[1].

«لقد جلى كتابُك كُلَّ بثٍّ ... جَو وأصابَ شاكلة الرمي
فضضت ختامَهُ فتبلَّجت لي ... غرائبَهُ عن الخبر الجلي
وكان أغمض في عيني وأندى ... من البُشرى أتت بعد النعي
وضُمّن صدرهُ ما لم تضمّن ... صدور الغانيات من الحليّ
فكائنٌ فيهِ من معنىً بديعٍ ... وكائنٌ فيه من لفظٍ بهي
وكم أفصحت من برّ جليلٍ ... بهِ ووعدتَ من وعدٍ سني
كتبتَ بهِ بلا لفظٍ كريهٍ ... على أُذنٍ ولا خطٍّ قمي
فأطلقَ من عقالٍ في الأماني ... ومن عقل القوافي والمطيّ

فيما استُقبح صاحب الخط الرديء، إلى حد قد يفضي به إلى الإقصاء عن الوظيفة، وهو ما حدث لأحد الكتّاب في ديوان عبد الله بن طاهر، حينما رأى خطًّا بعض كتّابهِ فلم يرضهِ، فقال: «نحّوا هذا عن الديوان فإنَّهُ عليل الخط، ولا يؤمن أن يُعديه غيره»[2] وقد شاع، وقتذاك، أي في عهد المأمون شعار أدبي - مهني، مفاده «رداءة الخط إحدى الزُمانتين، كما أن حُسنَهُ إحدى البلاغتين»[3] لذلك دأب الكتّاب على تحسين خطوطهم واتّباع أئمة الخطّاطين في أساليب الكتابة فراحوا يَرخونَ ذوائب الحروف الممدودة، كالياء والنون والعين والحاء المنفصلات. كان هذا الأمرُ يجري بين كتّاب الدَواوين والورّاقين. أمّا الخطّاطون فقد شحذوا الهِمَمَ وتفرّغوا للإبداع في أقلامهم، وراحوا يُوَلِّدون الأقلام من بعضها، بغية تحسين صنعتهم والإرتقاء بها. وقد اشار أبو حيّان التوحيدي إلى أنَّهم إشتقّوا من الخط الكوفي وحَدَهُ الأقلام التالية:

«الإسماعيلي والمكي والمدني والأندلسي والشامي والعراقي والعبّاسي والبغدادي، والشعب والريحاني والمجرّد والمصري، حتى اتّصلت بإبن مقلة وإبن البَوّاب»[4]. نعم لقد

(1) الصولي/أدب الكُتّاب/ ص46، وراجع ديوان أبي تمّام 3/ 355 - قافية الياء - بشرح الخطيب التبريزي - الطبعة المصرية القديمة.
(2) الصولي - أدب الكاتب/ ص53.
(3) نفس المصدر السابق.
(4) أبو حيّان التوحيدي/ رسائل التوحيدي/ ص42 - 43.

كان للخطّاط العراقي باع طويل، حتى أنهم أوجدوا طرائق في بري القلم وأصول الكتابة بهِ، وشرائط الإلتزام بها، بغيّة تمييّز الخطوط بعضها عن بعض، وأوجدوا لها المسمّيات الخاضعة لشكل الحرف عند الكتابة، عُرفت بإسم: «معاني الخط» وبهذا الصَدَد قالوا: يحتاج الكاتب الخطّاط إلى سبعة معانٍ: الخط المجرّد بالتحقّيق، والمُحلّى بالتحديق، والمُجمّل بالتحويق، والمُزيّن بالتخريق، والمُحسّن بالتشقيق، والمُجاد بالتدقيق، والمتميّز بالتفريق، وتلك هي أُصوله وقواعده المتضمنة لفنونهِ وفروعه، كما يقول التوحيدي[1].

ومعنى المجرّد بالتحقيق: هو إبانة الحروف كُلّها، منثورها ومنظومها، فصلها وموصولها بمَدّاتها وقصراتها، وتفريجاتها وتقويماتها، حتى تراها وكأنها تبتسم عن ثغورٍ مُفلّجة، أو تضحك عن رياضٍ مُدَبَّجة.

والمراد بالتحديق: هو إقامة الحَاء والخَاء والجيم وما أشبهها على تبيّض أوساطها، محفوظة عليها من تحتها وفوقها وأطرافها، أكانت مخلوطة بغيرها، أو بارزة عنها، حتى تكون كالأحداق المفتّحة.

والمقصود بالتحويق: هو إدارة الواوات والفاءات والقافات وما أشبهها، مُصدَّرة وموسّطة ومُذنّبة، بما يكسبُها حلاوةً ويزيدها طلاوةً.

وأمّا المراد بالتخريق: فهو تفتيح وجوه الهاء والعين والغين وما أشبهها، كيفما وقعت، إفراداً وأزواجاً، بما يَدل الحسّ الضعيف على اتّضاحها وانفتاحها.

وأمّا المراد بالتعريق: فهو إبراز النون، والياء وما أشبهها مِمّا يقع في أعجاز الكلمة مثل: مَنْ، عن، في، مَتى، وإلى، وعلى، بما يكون كالمنسوج على منوالٍ واحدٍ.

وما قُصِدَ بالتشقيق: فتكثُفُ الصاد والضاد والكاف والطاء والظاء وما أشبَه ذلك، مِمّا يحفظ عليها التناسب والتساوي، فإن الشكل بها يصح، ومعها يحلو.

وأمّا المراد بالتنسيق: فَتَعميم الحروف كُلَّها، مفصولها وموصولها بالتصفية، وحياطتها من التفاوت في التأدية ونقص العناية عليها بالتسوية.

وأمّا المراد بالتوفيق: فحفظ الإستقامة في السطور من أوائلها وأوساطها وأواخرها وأسافلها وأعاليها، بما يفيدها وفاقاً لا خلافاً.

وأمّا ما رُميَ إليه بالتدقيق: فهو تحديد أذناب الحروف بإرسال اليَد واعتمال سَنْ القلم وإدارته، مَرّة بصدرهِ ومرّة بِسُنّيهِ، ومرّة بالإتكاء ومرّة بالإرخاء، بما يُضيف إليها بهجةً ونوراً، وَرَوْنقاً وشذوراً.

---

(1) رسائل التوحيدي/ ص44.

وما قُصِدَ بالتفريق: فحفظ الحروف من نزاعةِ بعضها لبعض، ومُلابسة أوّل منها لآخر، ليكون كل حرفٍ منها مُفارقاً لصاحِبِهِ بالبدن، مُجامعاً بالشكل الأحْسن[1].

هُنا نُلْمَس التبدُّل بوظيفة القلم، بمعنى لم يعد (القلم) أداة الكتابة، بل أداة الأبداع لرسم الحرف العربي وفق قواعد فنيّة خالصة، لا تقبل مَنْ يرفض شروطها وقوانين كتابتها. وهُنا تحديداً، وتحديداً مع الخطاط إبن مُقلة، تبدّلت أيضاً مهنة الإحتراف الورّاقي، إذ بدأت ملامح **«مدارس الخط العربي»** تبدأ بالظهور والتبرعم في هذا العصر، ومن ثم أخذ الخطاطون بالإستقلال التدريجي من مهنة الوراقة، إلى إحتراف الخط كمهنة مستقلة قائمة بذاتها، وعلى شرائطها المهنيّة الخاصة، إلاّ أنها تشارك مهنة الوراقة في المكان داخل السوق وتهتم فقط بكتابة العناوين، الداخلية والخارجية، ويقع ضمن اهتمامها التزويق والتجليد والتذهيب، للكتب والمصاحف وغيرها. فالشروط الحرفيّة للخطّاط تبدّلت هي أيضاً، بتبدّل وظيفة القلم الكتابية، بل وتغيّر المنهج وأصبح تطغى عليه الفنيّة البحتة، ضمن القواعد والأسس التي صاغها أساطين القلم، وعلى هذا الأساس قلنا **«بدأت المدارس الفنيّة للخط العربي في الظهور»** فالمسمّيات الآنفة الذكر هي قواعد لكتّاب القَلَمْ العربي، ليسَ من السهل على كل خَطّاط مبتدىء أن يتملّكها جملةً بين ليلةٍ وضُحاها، ما لم يكن قد تَتَلمَذَ على يد أحد شيوخ الخَط من جهة، وسعى جاهداً بالممارسة والدربة من جهة أخرى، وبشكل مُستمر حتى يُتقن مَسك القلم، ومن ثم يُحدّد نوع الخط الذي يبدأ بكتابتهِ على الأصول التي دَرَسها. يقول إبن الزهري، وكان قد لحق بمدرسَةِ إبن مُقلة وابن الزنجي وبني التوابة وتَتَلمذ بإسلوبهم: «مَنْ حَقَّقَ الحروف المُفصَّلة تحقيقاً، ثم وَصَلَ الإثنين بالثالث، ثم وصل الثالث بالرابع، على هذا إلى آخر الكلمة كقولهم: **فسيكفيكم ويستنصرون، والإستعمال والإستفهام والإستقامة، وخجخجَ وجحجبا، والإستنجاح، والجحاجحة والصيانة والصياقلة والصقالبة والقطارفة والطراخنة والبطارقة.**

ووقف على المتماثلين، مثل: «حططت وخططت وقططت، ونَصَصَ وحَصَصَ وقَصَص واستنصحَ واستصحبَ، وتكوكب واستنجحَ واستصلح واستقبح واستشرحَ، وما أشبه ذلك فإنَّهُ كثير، رجوت لَهُ - انظر النصيحة الفنيّة - أن يبلغ من رسم الخط الذروة العالية»[2].

ثم يستدرك مسألة هامة يؤكدها في رسم الأحرف وينبّه عليها الخطّاطين قائلاً: «وملاك الأمر تقويم أعجاز السطور وتسوية هوادي الحروف، وحفظ التنسيق، وقلة

(1) رسائل التوحيدي/ ص45.

(2) رسائل التوحيدي/ ص48.

العَجلة، وإظهار القدرة في عرض الإسترسال، وإرسال اليَد في طي الإقتدار»[1].

فيما يرى العَسجَدي الخطّاط أن «للخط ديباجة متساوية، وأمّا وَشيَهُ فشكلُهُ، وأمّا التماعَهُ فمشاكلة بياضَهُ لسواده بالتقدير: وأمّا حلاوتَه فافتراقَهُ في اجتماعَه»[2].

هنا، أصبحت أمامنا تقاليد فنيّة، بدأت تُرسخها في الأتباع المدرسة البغدادية في الخط العربي[3]، وبدأ الشُرّاح بتبسيطها لمنفعة التلاميذ الجُدُد، وهنا يتوضّح البُعد الإستقلالي في المهنة، بغية ترسيخها حِرفيّاً، إذ الإهتمام ينصبّ على آلية عمل اليد في تطويع القلم لرؤية الكاتب الفنيّة في رسم الحرف، لا في كتابة (النص) كما هو معروف في «منهج الوراقة»[4].

لقد بدأت تظهر تقاليد الخط العربي على الوعي العام في الدولة العباسية، ويتأثّر بها المجتمع بكل طبقاته، بدأ من السلطة السياسية في الدولة وانتهاء بحوائج الناس اليومية، بمعنى آخر أن الظاهرة الفنية للقلم بدأت تتجذّر في الوعي الجمعي، الأمر الذي يعطيها صفة الضرورة للتداول اليومي في كافة شؤون الحياة، بمعنى ثالث، صارت الظاهرة طابع مُمَيَّز للحياة الثقافية في العصر العباسي، وهنا ندرك معنى التأصيل لهذه الظاهرة، إذ أنها طبعت الحياة الثقافية بميسمها وأصبحت ضرورة لا بُدَّ منها في التعاطي اليومي للحياة.

ومن هنا جاء الاهتمام بحسن الخط في كل دواوين الدولة العباسية وانتخب لها كبار الكتّاب الخطّاطين كالصولي وابن مقلة وأضرابهم، وقد كانت هذه العملية الفنيّة الحضارية، قد حصَّنت الأدب بشكل عام، للنهوض والرقي، فحفظت بذلك الكثير من المَخطوطات، وسَهَّلت قراءتها وتحقيقها، ويجب أن نعترف أن السلطة العباسية كان لها دوراً هاماً وبارزاً في تطور هذه المسألة وتجذيرها في الوعي الثقافي، يقول أبو حيان التوحيدي: «رأيت أبا الوفاء المهندس، يقول لإبن سعدان، الوزير: والله أيها الوزير، إنّ خَطّك في الغاية، وأن بلاغتك في النهاية، فما الذي يدعوك إلى الإستعانة بالصابي أبي إسحاق في مكاتبة إبن عَبّاد؟ فقال الوزير؟ إنّ ابن عَبّاد كثير التتبّع للغيب، شديد الشماتة بالعاثر، وأنا أكره أن يرميني فيصمي ولا يشوي، ولأن أُحصن عقلي وعرضي بترك اعتمال خطّي ولفظي أحبُّ إليَّ من أن أصير ملسوعاً بإبرته، مكسوعاً بحضرته»[5].

(1) المصدر السابق - نفس المكان.

(2) نفسه.

(3) سنفرد لها باباً خاصاً في هذا الجزء من الموسوعة، نظراً لأهمية إبداعها الغني في مسار تطور الخط العربي في الثقافة العربية - الإسلامية.

(4) راجع: الجزء الثاني - من هذه الموسوعة/ ظهور مهنة الوراقة، فصل - منهج المقابلة في النسخ.

(5) رسائل التوحيدي/ ص61.

وهنا نلاحظ مَدى التحرّز عند الوزير ابن سَعدان لأن يعطي مثلمةً على نفسه باعتمال خطّهِ، لذلك استعان بكبير الأدب في عصرهِ (أبو إسحاق الصابي).

كما دأب كبار الكتّاب في الدولة العباسية على الإهتمام المتواصل في تحسين خطوطهم، ومراجعتها ونقدها، وتَلَمُّس مواضع الخلل فيها، الأمر الذي أصبح سُنَّةً عندهم، وعند الذين ساروا على منوالهم وطريقتهم، فهذا شيخ كُتّاب الدولة العباسيّة (أبو إسحاق الصابي) يقول عن نفسِه في هذه المسألة: «ما حرّرتُ كتاباً قط عُقيبَ التسويد إلاّ ورأيت التنافر في خطّي، والتطاير مع قلمي، والتثاقل في يدي. فأمّا إذا جَمَمت بعَدُهُ جمّة أو نمتُ بعدهُ نومه فأنا على صواب ما أريد منه جرىء، ومن الخطأ فيه برىء»[1].

تأمّلٌ بسيط في هذا النص الأدبي الرائع، نتلمّس مقدار القلق الإبداعي عند أشهر أدباء العصر العباسي، وهو يتعاطى مع خطِّهِ، بغية أن يُقَوّم نفسه أولاً، باعتباره قِبلة الكتّاب في عصره، وبذا هو يدرك مقدار المسؤولية الملقاة على عاتقه بوصفه الكاتب النَمُوذج، وبِهِ يهتدي بقية الكتّاب، لذلك كان حريصاً جداً على تطوير وتحسين ونقد خطّهِ لاكتمال مقوّمات النمذجة. وهنا، نستطيع القول بكل ثقة، أن كل ظاهرة تنتقل للأدب هي بالضرورة أصبحت راسخة التقاليد في الثقافة بكل قوّة، ومن هنا قلنا أن العباسيين **أصَّلَوا الخَطَّ العَربي** في الثقافة العربية - الإسلامية بكل وضوحٍ وامتياز.

الفصل الثاني

الخَطّاطون: أساس مهنة الوراقة

قد يستفز هذا العنوان، الكثير من الباحثين والدارسين والمتخصّصين في شؤون التراث العربي - الإسلامي، الفني والأدبي، عرباً كانوا أو مسلمين أو مستشرقين. فالكل يعتقد، في قناعاته الخاصة، أنَّ الخطّاطين والورّاقين، صنفان مستقلان، وتلك أيضاً كانت قناعتنا، في البدء، ولكن حين ولجنا في بحرِ الوراقة وأبحرنا فيها مُدَّة زمنيةً طويلةً، نافت على 22 عاماً، إستطعنا من خلال هذه الرحلة الطويلة أن نكتشف قناعاتٍ أُخرى، أرست بنا إلى الجزم من أن الخطّاطين هم الأسُّ الحقيقي الذي بَنَتْ عليه مهنة الوراقة كامل بُنيانها الفنّي والمعرفي، بآنٍ معاً، وخصوصاً في عصر التدوين للثقافة العربية - الإسلامية في

(1) رسائل التوحيدي/ ص47.

العصر العباسي، وبنظرة إستدلالية بسيطة يمكن النظر إلى مقولة «ربط الخط بالكتابة» وربط الكتابة بالتأليف والتوريق والناتج كتاب، وعلى هذا الأساس كانت العلاقة التواشجية بين حُسن الخط والتدوين، قبلَ أن يُعمَد العرب إلى مسألة «التأليف» لأنها مرحلة لاحقة، فبالأوّل تعلّموا كتابة الحرف، ثم الكلمة، ومن بعَدهاغ نشأت الجُمَلُ والنصوص وظهرت الكتابة العربية.

فالإختيارات الأولى في تدوين القرآن اعتمدت على أصحاب الخَطَّ الحَسن من الصحابة، الذين يعرفون القراءة والكتابة، وعلى هذا الأساس كان أبرز الكتّاب الأوائل بجودة الخط، هم زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب، والأخير وُجدت له آثار مخطوطة للقرآن الكريم بخطّه[1].

وهو القائل «الخَطُّ الحَسَن يُزيد الحَقَّ وضوحاً» فجمال الخطّ هنا مُزِجَ بمحمولٍ ديني وله الأوليّة في التصدير، وهكذا شكّل هذا الأساس الفني لجمال الحرف الأفضلية في نسخ القرآن وتدوينه حتى نهاية العصر الأموي عام 132هـ/ 750م.

وحين شَمخَ العصر العباسي بكامل نهضته العلمية والإقتصادية والسياسيّة كانت مهنة الوراقة هي الأعلى في موجات الإندفاع لمسايرة الركب الحضاري، وقد ألمحنا وأشرنا بوضوح في الجزء الأول من هذه الموسوعة، إلى سوق الورّاقين في - الكرخ - والذي بلغ عدد حوانيته «100 حانوت للوراقة» ثم تلاهُ سوق الورّاقين في - الرصافة - بعدما بُنيت لولي العهد المهدي بن أبي جعفر المنصور، والذي بدت شهرته تطغي على السوق الأول المقام في الكرخ، إذ فيه رُسّخت الأسس الفنيّة والعلميّة لمهنة الوراقة وصناعة الكتاب العربي.

ولقد أخذت الناحية الجمالية في الكتابة تُملي شروطها على الورّاقين أولاً، وعلى كافة كُتّاب الدولة، ثانياً، حتى أخذت تفرض سلطانها الفني في بريِّ القلم، على اعتبار أنَّهُ الأداة الرئيسية في الكتابة، وبِهِ نزل التنزيل ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[2]. لذلك اهتم الكتّاب والورّاقون أيما اهتمام بمسألة بري القلم، لأنها تُحدّد شكل الخط أولاً، وتبرز مهارة الكاتب ثانياً، وتؤكّد جودت عمل الكاتب أو الناسخ ثالثاً، ورابعاً تشكل قاعدة اختباريّة لعموم الكتّاب والورّاقين، لذلك فطنَ لها الجميع في أولى مراحل الكتابة وبدايات النشىء لتعلم قواعد الخط، بل أن مسألة بري القلم غدت واحدة من أفضل التمايزات بين الكتاب،

---

(1) سيجدها القارىء في هذا الجزء من الموسوعة.

(2) سورة القلم، الآية: 1.

وبها يعرف الحاذق دون سواه[1]، وهنا نلاحظ أن عقلية الفنّان - الكاتب الخطّاط - بدأت تتعرّف في سياق العمل، إلى شكل القطّة في البري، إذ أن «لكل قلم»[2] قَطَّةٌ خاصة به، تميّزهُ عن غيره من الأقلام، حتى أن إبن مقلة يرى أنه ينبغي أن تكون أقلام الكاتب على عدد ما يؤثرهُ من الخطوط[3] وكأنه يريد أن يكون في دواتهِ قلم مبري لنوع الخط الذي يريد الكتابة فيه، ليجدهُ مهيئاً فلا يتأخر لأجل برايته.

هنا، أصبحت المهمة الكتابية واضحة جدّاً في أبعادها الفنيّة، بالنسبة للكاتب أو الناسخ، بل أن المسألة الجمالية أخذت تقونن عَمل الورّاق - الناسخ تحديداً[4] حتى برز شعار فنّي - مهني، في أوساط الورّاقين يقول: «ردائة الخط زمّانة الأديب» ولذا سارع المهتموم من كبار الأدباء والعلماء بهذا الفن الكتابي لوضع (قواعد أصوليّة) تعين الناسخ أو الكاتب على تحسين خطّه، فقد وضع أبو بكر الصولي كتاباً هاماً أسماهُ «أدبُ الكُتّاب» ليساعد الكتّاب والورّاقين على تخطّي مسألة «رداءة الخط» وهذا يعني أن الوسط الثقافي كان مُنسجماً مع شروط مهنته الحضارية «الوراقة» ومطوّراً، بنفس الوقت، أدواته المهنية في الكتابة.

وحين أرست رياسة الخط عند إبن مُقلة وضع القواعد والأصول الفنيّة البحتة لمهنة الخطاط المحترف في شؤون الكتابة[5].

إنعكست المسألة الجمالية في الخط بشكل واضح في عمل الوراقة إذ كان سعر الكتاب وسعر التوريق يزداد إرتفاعاً كلما كان الناسخ جوَّد خطَّهُ فيه، وفي هذا السياق يذكر ياقوت الحموي، أن «رقعة بخط إبن البوّاب علي بن هلال[6] صاحب الخط الرائق كان قد كتبها إلى بعض الأعيان يسألَهُ فيها مساعدة «صاحبه إبن منصور» وإنجاز وعدٍ وَعَدَهُ بهِ لا يساوي دينارين. قد بيعت «الرقعة» بسبعة عشر ديناراً إماميّة، ثم يقول: «وبلغني أنها بيعت مرّة أخرى بخمسة وعشرين ديناراً»[7]، كما يذكرياقوت، واقعة أخرى، بهذا الصدد، يعني

(1) راجع كتابنا «ورّاقو بغداد في العصر العباسي» فصل - أدوات الكتابة - القلم/ ص65.
(2) المقصود، نوع الخط.
(3) انظر - مرتضى الزبيدي - حكمة الإشراق/ ص71، من نوادر المخطوطات المجموعة 5 - ط1 - تحقيق عبد السلام هارون - طبعة القاهرة وبغداد 1373هـ/ 1954م.
(4) لأن الورّاقين - اصناف عديدة - أبرزها الناسخ.
(5) سيجد القارىء - تلك القواعد - في فصل خاص عن إبن مقلة في ثنايا البحث من هذا الجزء.
(6) أفردنا لَهُ ترجمة مطوّلة في هذا الجزء من الموسوعة.
(7) معجم الأدباء 15/ 121 - 122 - وراجع كذلك د. محمد ماهر حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص168، حيث ذكر هذه الحادثة.

جودة الخط، أن «نسخة من يتيمة الدهر للثعالبي بخط محمد بن إسحاق الزوزني، بيعت بثلاثين ديناراً نيسابورية»[1] باعتبار أن الزوزني كان ورّاقاً معروفاً ينسخ كتب الأدب بخطٍ مقروء صحيح أحَسَنَ النسخ»[2] فيما بيعت نسخة من (الصِحاح للجوهري) بمئة دينار وفق رواية إبن خلكان والذي أشار إلى أن هذه النسخة من الصحاح، كانت بخط ياقوت بن عبد الله الملكي الموصلي الذي كتب الكثير وانتشر خطّه في الآفاق، وكان في نهاية الحُسن ولم يكن في زمانه مَنْ يقاربهُ في حسن الخط، ولا يؤدي طريقة إبن البَوّاب في النَسخ مِثْلَهُ، مع فضل غزير ونباهة تامة، وكان مُغرماً بنسخ الصحاح للجوهري فكتب منه نُسخاً كثيرة، كل نسخة في مُجلّد واحد، ورأيت، والكلام لإبن خلكان، منها عدة نُسخ وكل نسخة تباع بمئة دينار»[3].

ثم أن مكتبات الخلفاء والمكتبات العامة، كانت تحوي، على غُرفٍ للنسخ يشتغل بها الورّاقون الذين أُختبروا في النسخ ومعرفة أصول الوراقة، وعلى رأسها جَودة الخط ووضوحهِ وصحّته، كما كان يفعل عَلاّن الشعوبي في مكتبة «دار الحكمة» في زمن المأمون[4] وكما الحال عند الورّاقين الذين لازموا العلماء والأدباء ونسخوا لهم، وقد أشرنا لهم في مكان آخر من هذا العمل[5].

ثم أن الورّاقين أدركوا، بالحِس المهني، أهمية جودة الخط وتزويق الكتاب بغية إغراء المشتري لبذل المزيد في قيمة الشراء من ناحية، ومن ناحية أخرى، كان موضوع الكتاب يلعب دوراً أيضاً في عملية رفع السعر، حتى أن العالم الفيزيائي إبن الهيثم إشتغَل بالنسخِ فترة ليست بالقصيرة، عندما استقدمهُ الحاكم بأمر الله الفاطمي إلى مصر[6] وتظاهر بالجنون، ليتخلص من أمر الحاكم، وأقام في أحد قباب الجامع الأزهر، وبدأ يشتغل بالتصنيف والنسخ والإفادة، وكان لَهُ خطٌّ قاعدي في غاية الصحة، يقول القفطي وهو ينقل الرواية عنه: «ذكر لي يوسف الناشىء الإسرائيلي الحكيم قال: سمعت أن ابن الهيثم كان ينسخ في مُدة سنة ثلاث كتب في ضمن اشتغالهِ (العلمي) وهي (إقليدس والمتوسطات والمجسطي)، ويستكملها في مدة السنة، فإذا شَرَعَ في نسخها جاء من يُعطيه فيهم مائة

(1) معجم الأدباء 18/ 20.
(2) نفس المصدر السابق.
(3) إبن خلكان - وفيات الأعيان 5/ 170 - وتجدر الإشارة إلى أننا عملنا - ترجمة ضافية عن هذا الورّاق والخطاط - بهذا الجزء من العمل.
(4) راجع ترجمته عندنا في/ أعلام الوراقين البغداديين/ في هذه الموسوعة، ج5.
(5) راجع/ ورّاقو العلماء والأدباء/ في هذه الموسوعة ج5.
(6) انظر ترجمته المفصلة عندنا في/ «ورّاقو بلاد مصر»/ الجزء 6 من هذه الموسوعة.

وخمسين ديناراً مصريّة، وصار ذلك كالرسم الذي لا يحتاج فيه إلى مواكسة ولا معاودة قول فيجعلها مؤنته لسنة»[1].

هذا الخبر، يكشف لنا وأمامنا الأهمية الفائقة للخط في عملية الورّاقة باعتباره الجزء الهام والأبرز في عملية النسخ «الطباعة في المصطلح المعاصر» إذ المهنة (الوراقة) تعتمد عليه بالأساس، بمعنى آخر، لولا الخط الحَسَن لفسدت مهنة الوراقة، والمشتغلين في قضايا تحقيق المخطوطات يعثرون دائماً على عبارات من مثل: «كان الناس يرغبون في خطّه» أو «كان خطّه في جودة الحسن والإتقان» أو «كان من أصحاب الخط المنسوب» أو «من أصحاب الخط القاعدي» أو «كانت أصول مسودته بخط التعليق» وكل هذه العبارات تشير إلى نوعية الخطوط المستخدمة في النسخ، إضافة إلى الخطوط التي أبدعها الورّاقون كالخط الوراقي أو المقرمط، وغيرها بغية تيسير عمل الوراقة، بمعنى آخر، أن عوامل الإبداع الفني لإشتقاق هذه الخطوط كانت من أجل الوراقة أولاً، حيث العرض والطلب في ارتفاع متوازٍ دائماً، وليس اعتباطاً أن يتولّد من الخطوط الرئيسية الستة[2]، أكثر من 35 قلماً وقتذاك، وهذا دليلٌ آخر على أن مسألة الإبداع في الخط جاءت لتلبي حاجة الوراقة أولاً، ومن ثم تفرض إفرازاتها الفنيّة، لاحقاً، في هذا الميدان، لأن يستقل الخط، كإبداع فني في ذاته، وتتحول وظيفتهُ البُنيوية من الكتابة إلى الفن الخالص، وسنعرض ذلك بالتفصيل، وفق المسارات الزمنية لمراحل تطور الخط العربي.

وهناك أمرٌ آخر يؤكد عمق الترابط الوثيق بين الوراقة والخط، بحيث يصعب الفصل بينهما هو «تراجم الأعلام» من الورّاقين أو الخطّاطين، إذ أن كل المدونات التاريخية التي ترجمت لهؤلاء الورّاقين والخطّاطين كانت تؤكد على الوحدة العضوية بين الطرفين وعلى مسار التاريخ العربي - الإسلامي، حيث أثّرت الوراقة - مهنياً - في عمل الناسخ، ورّاقاً كان أو خطّاطاً، فيما أثّر الخطّاط أو الناسخ - إبداعياً - في الوراقة، فالتدريب المستمر لعملية نسخ الكتب، هي التي أوحت للناسخ لأن يشتقّ خطوطاً أخرى تساعدهُ في إنجاز العمل، ودفعت بهِ إلى التَفنُّنِ في ذلك، وبالتالي خلقت منه متخصّصاً في رسم الحرف، بمعنى آخر، هيّجت الوراقة في نفسّية الورّاق كوامن الإبداع - العقلي والبصري، بحيث تحول، في سياق العملية الكتابية الروتينية إلى إنسان متُأمِّل لمسارات الحرف، لا سيما في خط العناوين والخَتْمات، وتفصيل الفصول وتبويب الأبواب، ومن هنا - بتقديرنا الخاص - بدأت عوامل القلق الإبداعي بالتراكم والتحفيز، ويجب أن لا ننسى بأن ذوق المتلقي،

---

(1) القفطي/ تاريخ الحكماء/ ص167.

(2) سوف نذكرها بالتفصيل في الفصول القادمة.

إن كان على صعيد السلطة السياسية العباسية أو صعيد الوسط الثقافي وجمهورالعامة، كان لهُ الفضل في تفجير طاقات الإبداع في كوامن الورّاق لأن يلبي رغبة هذا الذوق، الذي أخذ يتحسس مكامن الجَمال في شخصية الحرف العربي، وبدأت عمليات التمايز والتفضيل في خطّ هذا الناسخ أو ذاك، وقد قَرّبت السلطة العباسية هؤلاء المبدعين وأغدقت عليهم، وحفزتهم للتواصل والإبداع، حتى ظهر منهم الأعلام الذين تبوّؤا الوزارة في مرحلة من المراحل التاريخية، كما هي الحالة مع عبد الله بن مُقلة، أو عند إبن البوّاب، حيث كان في بدايةِ أمره مزوّقاً للدور وأبيه كان (بَوّاباً) أي حاجب أو مع ياقوت المستعصمي والذي كان مملوكاً للخليفة العباسي (المستعصم بالله) وذات الأمر ينعكس أيضاً على الكثير من مشاهير الخط والتوريق الذين صعدوا سلالم المجد من عتبة الوراقة.

ومن الأدباء المشاهير الذين حَضوا بسمعة طيبة نتيجة إشتغالهم بالوراقة وحسن الإجادة فيها مع حُسن الدراية في الخط ياقوت الحموي صاحب المصنّفات المشهورة/ معجم الأدباء ومعجم البلدان/ حيث أثنى الكثير من المؤرخين على خطّهِ كإبن خلّكان[1] والزبيدي - صاحب تاج العروس - حيث ذكر أَنَّهُ عَثَرَ على نسخة من كتاب الصحاح للجوهري في ثمانِ مجلدات بخط ياقوت، وعلى هوامشهِ التقيّدات النافعة في خزانة الأمير إزبك»[2].

ومن المؤرخين المشهورين، الذين برعوا بالخطّ والتوريق إبن الفوطي «كمال الدين بن عبد الرزاق» والذي أسَّرهُ المغول عند اقتحام بغداد وسقوطها عام 656هـ/ 1258م. لكن توسط نصير الدين الطوسي أنقذه من أيديهم، نتيجة شهرته المعروفة واستصحبَهُ مَعَهُ ليصبح خازناً لمكتبة مرصد مُراغة، ومن ثُمَّ خازناً للمدرسة المستنصرية في بغداد وقد أثنى المؤرخون على خَطّهِ، فقد نَعَتَهُ «السجستاني بقوله: أمّا خطّهِ فلم أرَ أقوى منه ولا أبدع ولا أسرح ولا أسرع، خطٌّ فائق، رائقٌ رائق، بديع إلى الغاية في تعليقه» ويضيف: «وكان يكتب من هذا الخط العجيب في كل يوم أربع كراريس يأتي فيها أَنْقَشْ وأَنْفَسْ من ذنب الطواويس»[3].

ثمة ملاحظة هامة، أبرزناها - في سياقات البحث في هذه الموسوعة - ونكررها الآن

---

(1) وفيات الأعيان 4/ 22.

(2) مرتضى الزبيدي/ تاج العروس من جواهر القاموس - المقدمة - دار ليبيا للنشر والتوزيع - طرابلس 1966.

(3) أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني - كتاب المصاحف/ ص133. تحقيق آرثر جفري - منشورات المطبعة الرحمانية - القاهرة - 1936م.

هي: سُمعة الكاتب - الورّاق أو الخطّاط، تلعب دوراً في ذائقة المتلقي الفنيّة، وترفع من سعر نسخهِ، إن كان عمله بصيغة كتاب أو ختمه، أو (قصص) أو غيرها من الأمور التي كان العامة يرغبون بها، فلقد ذكرت المصادر التاريخية أن (أحمد بن أبي السُعود الرصافي الكاتب) كان يكتب خطّاً مليحاً على طريقة إبن البوّاب، وكان مُعجباً بخطّهِ، كتب نهج البلاغة بخطّهِ، ونادى عليه في الورّاقين، فدفع فيهِ خمسة دنانير فلم يبعهُ، ثم نُودي في الحال على قوائم بخط إبن البَوّاب بخمسة عشر ديناراً فاستشاط وقال: يُدفع في نهج البلاغة بخطّي خمسة دنانير ويدفع في قوائم بخط ابن البوّاب خمسة عشر ديناراً، وليس بين الخطّين كبير فرق ولا سيما هذا التفاوت»[1] وكان ذلك في أوائل (ق 7هـ).

ومن المشهورين بكتابة «الختمات» وبخطٍ مليح أبو الفوارس بن الخازن المتوفى سنة 500هـ، فقد وَصَفَهُ إبن كثير بالقول: «صاحب الخط المشهور بالخط المنسوب قيل أنَّهُ كتب بيده خمسمائة ختمة»[2].

هنا بدأت تظهر أمامنا، إختصاصات فنيّة، إن صَحَّ القول، يواكب إختصاصات الوراقين في النسخ والتجليد والتزويق، وقد لاحظنا الميل الواضح في التخصص هذا، وقد سلطنا الضوء عليه في «باب منهج الوراقة في الإسلام»[3] حيث الإسقاطات الدينية بدأت تظهر في العامل الوراقي، فهذا يكتب نهج البلاغة، وآخر يكتب «الختمات» وآخر يختص «بالحديث» فيما كبار الخطاطين مالوا لخط المصاحف.

وهكذا بدأت تبرز تلك الإختصاصات، حتى أن بعض العُهُود كان لها كُتَّابها المختصّين، بمعنى أن هناك حالة فنيّة وعلميّة - بنفس الوقت - تعرف متطلبات هذه الكتابة وفق شروطها الشرعية، فانبرت لها، فمنذ ذلك العهد الذي كتبه الوزير إبن عَبّاد المتوفى سنة 386هـ، حيث كتب عهداً إلى قاضي القُضاة عبد الجبار وكَتَبَهُ له بخطّهِ الجميل واعتنى بزخرفته، ويُقال أنَّهُ كان سبعمائة سطر، كل سطر في ورقة سمرقندية، ولهُ غلاف أبنوس يُطبق كالإسطوانة الغليظة، وقد أُهدي هذا العهد في القرن الخامس الهجري للوزير نظام المُلك مع هدايا أخرى كان منها مصحف بخط أحدّ الكُتّاب المجودين بالخط الواضح وقد كتب كاتبَهُ إختلاف القُرّاء بين سطوره بالحُمرة، وتفسير غريبه بالخضرة، وإعرابه بالزُرقة،

---

(1) إبن الفوطي/ الحوادث الجامعة في المئة السابعة/ ص18 و19. وراجع كذلك د. محمد ماهر حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص178.

(2) البداية والنهاية 12/ 170 - طبعة القاهرة 1351هـ.

(3) راجع الجزء الثاني من هذه الموسوعة/ ظهور مهنة الوراقة/ .

وكتب بالذهب علامات الآيات التي تُصلح للإنتزاعات في العُهود والمكاتبات، وآيات الوعد والوعيد، وما يُكتب في التعازي والتهاني»[1].

ومع التجليد والزخرفة، واللّتان هُما مكملات لفن الوراقة بدأ الميل يزدادُ أكثر عند الخطّاطين للإنفصال جُزئياً عن التوريق والنسخ، بمعنى أن عملية «تذهيب المصاحف» وبعض الكتب الدينية بدأت تأخذ حيّز الإستقلال الخاص في ورش الوراقة، وأصبح الخطّاط بجانب المُجلّد، إذ لم يكن هو يقوم بنفس العملية، وقد اشتهر أهل العراق بالتجليد المُتقن الجميل، كما اشتهرت مالقة في الأندلس، حتى يمكن القول أنَّه ظهرت مدارس بفن التجليد كما في العراق ومصر والأندلس وأهل اليمن الذين يقول عنهم المقدسي «أنه يعجبهم التجليد الحَسَن ويبذلون فيه الأجرة الوافرة»[2] وهنا بدأت التخصّصات الفنية تظهر بوضوح مضطرد وتفرض نفسها على النُسّاخ.

---

(1) آدم ميتز/ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ 1/ 247. وراجع كذلك د. ماهر محمد حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص183.

(2) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/ ص100، وراجع د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص184.

الباب الثالث

مَدرسة بَغداد في الخط العربي

الفصل الأول

الإرهاصات الأولى لهذه المدرسة

لعب التراكم الثقافي والتطور الإقتصادي - السياسي، للدولة العباسية دوراً مهماً وواضحاً في اختمار تجربة الخط العربي، بوصفهِ منجزاً ثقافياً، في بُعديه، المعرفي والفني، حيث كانت الضرورة الحضارية للعصر العباسي تستدعي إستخدام فنونها العربية والإسلامية للتعبير عن شخصيتها الناهضة بعنف، بغية منافسة الحضارات الأخرى التي تنافسها المقام - جغرافياً وثقافياً - لا سيما الثقافة المسيحيّة ذات الجذور القويّة في أرض جزيرة العرب. ولها قسماتها المُميّزة وفنونها المتطورة والمتقنة، لا سيما فن الأيقونات، وعمارة الأبنية، وزخارف النقود، وشاهدات القبور وطقوس الأعياد الدينية، وملابس الرهُبان والراهبات الأمر الذي يُبهر العين ويستولي على لُبّ المُشاهد، لذلك كانت الثقافة الإسلامية تدرك هذا التأثير التنافسي - ثقافياً ودينياً وروحياً. لذا سَعت لأن تجد ما تنافس فيه هذه الثقافة فكان الخَطّ العربي هو المعادل الموضوعي لفن الأيقونات في الثقافة المسيحية، على هذا الأساس الحضاري من التنافس المتساوق بين الثقافتين الشرقيتين لا سيما بعد أن تبدّلت وظيفة القَلَمْ، إذ صارت «الكتابة» لا تعني التدوين، بل رسم ما في الروح بالريشة، منظوراً إليها بحدقة العين، كمُتعة جمالية مؤطّرة في لحظة تأمُّلٍ، تتشابك فيها رؤيا البصر مع رؤية البصيرة، فينخلق إبداعاً آخراً، ينطلق من جماد الحرف في الكتابة إلى استنطاق الذائقة الحسيّة عند أوّل نظرة للعين، حالَ مشاهدتها رسم الحرف في ذلك التشكيل المُسمّى خَطّاً، وعلى هذا الأساس الجمالي للذائقة الحسيّة نُفسّر تَعَدُّد أنواع الخُطوط في الحرف العربي، بل ونلاحظ مدارس فنيّة في ذلك، تتماهى وتتمايز عن بعضها البعض وفق تناغمات هندسية ومقاييس فنيّة، وتراتيب كتابيّة حدّدت شخصيّة كل مدرسة

فيها، كالمدرسة الشامية والمدرسة المصريّة، والمدرسة الأندلسية والمدرسة الفارسية، وكل هذه المدارس، كانت رجعُ الصَدى للمدرسة البغدادية للخط العربي والتي أرست قواعد هذا الفن الجميل والذي يتمازج فيه العامل الروحي مع حاسة البصر بتفاعلٍ إيجابي مع المبصور إليهِ، فينخلق الإحساس بالجمال، ومن هنا نفهم لماذا سُمّي الخَطّاط خطّاطاً، وفق هذه المعادلة الفنيّة والمعرفية لأسرار الحَرف العربي.

تحدثنا في/ فصل العباسيون وتأصيل الخط العربي/عن القواعد الأصوليّة التي وضعها الخطّاطون الأوائل، لا سيما بعدَ إنفصالهم عن مهنة الوراقة، وتفرّغهم لشؤون تحسين الخطوط العربيّة التي ابتدعوها، كفن يتعامل مع الحرف العربي، وكمنجز ثقافي، ينبغي الحصول على تميّز هويته الفنيّة في الرسم والإبداع، ولاحظنا كيف أن هؤلاء بدأوا بوضع الأساسات واللُّبنات الأولى لهذه المدرسة، لذلك كانت تقاليد رسم الحرف العربي/ فنيّاً/ تنتقل من يد إلى يد، ومن قلم لآخر، ومن أستاذ إلى تلميذ، ومن مُبدع إلى مُقلّد، ومن محترف إلى هاوٍ، ومن جيل لآخر حتى استقرّت عند عميدُها الكبير إبن مُقلة، ولكن قبل هذا العُمْدة كانت هناك أسماء أرست السِكّكَ الأولى لقطار الإبداع قبل وصوله إلى محطة إبن مقلة.

يتحدّث النَحّاس في كتابه (صناعة الكُتّاب) وهو من المُهتمّين والمؤرخين للخطّاطين العرب فيقول: «إن جودة الخط كانت قد إنتهت إلى الضحّاك وإسحاق بن حمادة، وكانا يخُطّان الجَليل، وقد أخذ هذا النوع إبراهيم الشجري عن إسحاق، واخترع منهُ قلماً آخر، أخَفُّ منه سَمّاهُ «قلم الثلثين» ثم اخترع منهُ قلماً آخر سَمّاهُ «قلم الثلث» وكان إبراهيم أخَطُّ أهل دهرهِ بهذين القلمين، فيما أخذَ أخوهُ يوسف القلم الجليل عن إسحاق أيضاً، واخترع منهُ قلماً أدق منهُ، وكتبهُ كتابة حسنة، فأعجب به ذو الرياستين - الفضل بن سهل - وزير المأمون، وأمرَ أن تُحرَّر الكتب السلطانية بهِ، ولا تكتب بغيره، وسمَّاهُ «القَلَمَ الرياسي» أو ما يُعرف بقلم «التوقيعات». وعن إبراهيم الشجري أخذ «الأحول» قلم الثلثين والثلث، واخترع منها قلماً أسماهُ «قلم النصف» وقلماً أخف من الثلث، سَمّاهُ «خفيف الثلث» وقلماً متصل الحروف، ليس في حروفه شيء ينفصل عن غيره سَمّاهُ «المُسَلْسَلْ» وقلماً آخرَ سَمّاهُ «غبار الحُلية» وقلماً آخر سَمّاه «خط القَصَصْ» وقلماً مقصوعاً سَمّاهُ «الحوائجي». ويقول القلقشندي والذي نقل الرواية عن النحّاس: «أن هذا الخطّاط كان خَطُّهُ يوصف بالبهجة والحُسن من غير إحكامٍ ولا إتقان، وكان عجيب البري للقلم»[1].

فيما كان محمد بن معدان المعروف بـ«أبي ذرجان» مُقدّماً في خط النصف وكان أحمد

---

(1) القلقشندي/ صبح الأعشى في كتابة الإنشا/ 3/ 16.

بن محمد بن حفص، المعروف بـ«زاقف» أجمل الكتّاب خطّاً في «الثِلِثْ» وكان يكتب فيه عند إبن الزَيّات»(1) وقد كانت المدرسة المصرية تنافس مدرسة بغداد، قبل مجيء إبن مقلة، حيث انتهت بمصر رياسة الخط إلى «طَبْطَبْ» المحرّر جَودةً وإحكاماً، وقد كان أهل مدينة السلام، يحسدون أهل مصر على «طبطب» وإبن عبد كان، كاتب الإنشاء لإبن طُولُون»(2).

ومن المجيدين، أيضاً، كانت هناك عائلة البربري المحرّر، هو وأولادهِ. وإسمهُ إسحاق بن إبراهيم بن عبد الله التميمي السعدي. كان أحولاً، وأشرف على تعليم المقتدر العباسي وأولاده، لهُ رسالة في الخط والكتابة سمّاها «تُحفة الوَامق». يقول عنه إبن النديم: «لم يُرَ في زمانهِ أحسنَ خطّاً منه، ولا أعرف بالكتابة، وكان أخوهُ أبو الحسن نظيرَهُ، ويسلك طريقته، وإبنهُ أبو القاسم إسماعيل بن إسحاق، وإبنُهُ أبو محمد القاسم بن إسماعيل بن إسحاق وهؤلاء القوم في نهاية حُسنِ الخط والمعرفة بالكتابة»(3) وهؤلاء تعلموا الخط وأخذوه من (إبن معدان) السابق الذكر، وخصوصاً منهم إسحاق إبن إبراهيم. وكان لإبن معدان غُلمان أخذوا عنه الخط، أشهرهم أبو إسحاق إبراهيم النمس، وإلى جانب هؤلاء كان بنو وجه النعجة، وإبن منير والزنلفلطي والروايدي وغيرهم(4).

وهناك أيضاً، بنو ثوابة، وهم «أحمد بن محمد بن ثوابة بن خالد الكاتب، لُقّب أبو العبّاس، وأصلُ هذه العائلة من النصارى، توفي إبن ثوابة سنة 277هـ، وقد عُرف عنه إنَّه كان من النقلاء البغضاء، كما يقول ياقوت(5) وله من التصانيف كتاب «رسائلهُ المجموعة» وكتاب «رسالته في الكتابة والخط»(6).

قال عنه الذهبي: هو صاحب ديوان الإنشاء للمقتدر ولغيره من بني العبّاس، وكان

---

(1) صبحُ الأعشى 3/ 16.

(2) المصدر السابق. ويعتقد الدكتور صلاح حسين العبيدي أن خط الثلث هو من أشهر أنواع الخط النسخي، وسمي بهذا الإسم «الثلث» لأنه يكتب بقلم يبرى رأسهُ بعرضٍ يساوي ثلث قطرُ القلم، ويسميه بعضهم بالخَط العربي، لأنَّهُ المنهل الأساسي لأنواع كثيرة من الخطوط العربية، ويُعدّ خط الثلث - كما يقول - الأكثر صعوبة بين الخطوط العربية الأخرى من حيث القواعد والموازين والقدرة على الإنجاز، ومن يتمكّن من الثلث فإنّه يتمكّن من غيرهِ بسهولة». (راجع مقالته: «الخط العربي - ركن من أركان الحضارة الإسلامية» المنشورة بمجلة/ آفاق الثقافة والتراث - الإماراتية - العدد/ 43 - إكتوبر - 2003م - الصادرة من مركز جمعة الماجد بدُبي.)

(3) الفهرست/ ص13.

(4) المصدر السابق.

(5) ياقوت الحموي - معجم الأدباء 4/ 144 - 174، طبعة البابي الحلبي.

(6) المصدر السابق.

بليغاً مفوّهاً[1]. قال لَهُ الوزير علي بن عيسى كما ينقل أبو علي التنوخي: «ما أحدٌ على وجه الأرض بعد أكتبُ من جدّك، وكان أبوك أكتب منه، وأنتَ من أبيك»[2]، وهذا الأمر يشير إلى مدى تقدّمهِ وفضلهِ في الكتابة والخط، ضمن دواوين الدولة العَبّاسية.

والثاني من بني ثوابة، هو: جعفر بن محمد بن خالد بن ثوابة، أخو أحمد بن ثوابة، قال عنه إبن النديم: هو آخر من رأينا من أفاضلهم - يقصد بني ثوابة - وعلمائهم[3]. فيما يضفي عليه ياقوت الحموي صفة البلاغة والفصاحة، وأخذ في تَسَنُّم المناصب الإدارية في كتابة الدواوين - الرسائل - وتوفي في سنة 284هـ في الري ودفن بها[4].

ومن الذين ذكرهم التوحيدي «علي بن جعفر الكاتب» قال عنه: «كان الخط،، يغلب عليه التدوير، وقد اشتهر هذا الخطّاط بنقد الخط وتقويمه، ينقل التوحيدي عنه قوله: «لا شيء أنفع للخطّاط من أن لا يباشر شيئاً بيده في رفع وضع، خاصة إذا كان ذلك الشيء ثقيلاً، فإن الحركات إذا تمثّلَت بالحروف، والحروف إذا اندفنت بالحركات، كانت الصورُ الخطيّة والحروف الشكليّة محفوظة الأعيان بامتلائها بهما، محروسة الأبدان بانتسابها إليها» ثم قال هذا الخطاط: «ولقد رفعت يدي بسوطي إلى الدابّة في بعض الأيام وقنّعتُها بهِ فتغيّر خطّي مُدّة». قال التوحيدي: «فحكيت ذلك لأبي سليمان المنطقي فقال: للهّ درّه لكأنما اشتقَّ هذا الوصف من الموسيقى، لأنه يزن الحركات المختلفة في الموسيقى، فتارة يخلط الثقيلة بالخفيفة. وتارة يجرّد الخفيفة من الثقيلة، وتارة يرفع إحداهما على صاحبتها بزيادة نقرة أو نقصان نقرة، ويمرُّ في أثناء الصناعة بألطف ما يجسّد الحِس، ولطف الحِس مُتّصل بالنفس اللّطيف، كما أن كثيف النفس متصل بكثيف الحس»[5].

وهناك، خطّاط آخر، معروف بنقد الخط، ذكرهُ التوحيدي أيضاً، هو أبو الحَسَن الأعسر الخطّاط، وقد نُقِلَ عنهُ قوله: «الخط أربعة أقسام، فالأول هو المُحقّق بالقلم الغليظ، والوسط، والدقيق، مُحرّفاً أو مُقوّماً، ثم التشبيه بهِ فيها: فاجتهد ألاّ يكون الغليظ من الأقلام جافياً، ولا الوسط منها منافياً، ولا الدقيق منها ضعيفاً»[6].

(1) انظر حاشية ياقوت - معجم الأدباء 4/ 144 - والفهرست/ ص188.
(2) المصدر السابق.
(3) الفهرست/ ص188.
(4) ياقوت/ معجم الأدباء 7/ 178 - الحاشية.
(5) رسائل التوحيدي/ ص47.
(6) رسائل التوحيدي/ ص46.

من هذه «المقبوسات» الآنفة الذكر، يمكن الإستنتاج أن إرهاصات هذه المدرسة بدأت تنتجُ فكراً نقديّاً لتقويم الخطوط بأساليبها المختلفة، وهنا ندرك مَدى القلق الفني عند خطّاطي هذه المدرسة للحفاظ على عامل الإبداع قائماً في ذهن الخطاط وباقي أحاسيسه، بغية أن تكون هناك علامات فنيّة تؤشّر إلى ضرورة الإستمرار بالإبداع وتطويره، وعدم الركون إلى حالة التقليد فقط، من قبل التلاميذ، بل ضرورة أن يكون الوعي الفني في مستوى المُهمّة الحضارية التي أنيطت بهذه المدرسة الفنية.

الفصل الثاني

إبن مُقلة عميد مدرسة بغداد للخط العربي

الحديث عن مدرسة بغداد للخط العربي، تعني بالضرورة التعليم التاريخي لبدء نشاط هذه المدرسة، اعتباراً من ولادتها على يد مؤسّسها الأبرز إبن مقلة، بوصفهِ أوّل مَنْ منهج وأصّلَ قواعداً للخط، بوصفهِ فنّاً إسلاميّاً، يشير إلى وجود «مناهج معرفية» تقتضي الإلتزام بها، والتدريب عليها، تحت إشراف مباشر من قبل أساتذة في الخط، قد عانوا الكثير من الهم والقلق الإبداعي في سبيل إقامة قاعدة فنيّة، يبتدأ معها «التلميذ» في رسم الإشارات الأولى والنقاط والدوائر، ومعرفة حركة اليد في رسم أوّل حركة أوعزها العقل لليد كي تسير بها على منوالٍ محدّد، يطبّق قاعدة محدّدة لأحد الأقلام العربيّة، بمعنى آخر، أن وضع النقطة الأولى للريشة أو القلم، يجب أن تكون قد قُرّرت سلفاً بذهن الخطاط، واختار لها قلماً محدّداً بقطّةٍ مُحدّدة. وهذا يعني أن القواعد الفنيّة لرسم الخطوط قد استقرّت في الذهن، وسقلتها «التدريبات» وقوّتها الملاحظات، وتمثّلتها الذاكرة بإبداع، متجاوزة كل الشَطَط في رسم كل حرفٍ تتشكّل منهُ الكلمة، وللكلمة الأولى معياراً فنيّاً دقيقاً يفرض نفسه على باقي الجملة.

وبغية تحديد الملامح التاريخية لهذه المدرسة، فنقول: أنها ابتدأت كمؤسسة فنيّة وأكاديمية مع إبن مقلة وانتهت بنهاية حياة ياقوت المستعصمي، آخر أعمدة هذه المدرسة، أي أنها بدأت في «272هـ - ولادة إبن مُقلة - وانتهت بوفاة ياقوت المستعصمي عام 698هـ» 1299 ميلادية، بمعنى أن تاريخ هذه المدرسة يمتد إلى ما يناهز أربعة قرون ونيّف. وهذا يعني أن حالات الإبداع في القلم العربي مُستمرةً على الدوام، ومتطوّرة باضطراد، وسوف نُعرّج على كل محطّات الأبداع، من خلال أبرز المُبدعين في هذه المدرسة، وسنبدأ مع عميد هذه المدرسة الأول إبن مُقلة. فمَنْ هو إبن مُقلة؟!.

هو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مُقلة، مَولدهُ في شوال سنة إثنتين وسبعين ومئتين[1] كان في بادىء حياته السياسية مع الوزير محمد بن داود بن الجرّاح (ت 296هـ/ 908م) وعمرهُ - وقتذاك - ستة عشر سنة، وكان مَعهُ يتقاضى راتباً قدرهُ ستة عشر ديناراً في الشهر.

ثم إنتقل إلى إبن الفرات (ت 312هـ/ 924م) فلما إستوزرَ إبن الفُرات أحسنَ إليه، وجَعَلَهُ يقدّم «القصص» - العرائض - ولما أُستعفي إبن عيسى من وزارة المقتدر، أشير على المقتدر بالله (295هـ - 320هـ/ 908م - 932م) أن يستوزر إبن مُقلة، فولاّهُ الوزارة في ربيع الأول سنة 316هـ، ثم عُزل سنة 318هـ، أي بعدَ سنتين وأربعة أشهر[2] وانعكست الأحداث السياسية بظلالها على كل موظفي الدولة العباسية، لا سيما الكبار منهم، وخصوصاً في بدايات القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فقد قتل المقتدر، ونُصّب القاهر بالله العباسي (320 - 322هـ/ 932 - 934م). وقتها كان إبن مُقلة منفيّاً في شيراز، فأُسندت إليه الوزارة وهو في منفاه، وقدم إلى بغداد يوم النحر سنة 320هـ، إلاّ أنه كان يدرك ما يُحاك من مؤامرات في القصر العباسي، إذ تولّى الأتراك زمام الدولة. وكان حِسّ إبن مُقلة الفنّي والسياسي دقيقاً. فاستوحش من القاهر ومحبّته لنفسه، فاستتر بعد تسعة أشهر من تسنمِ الوزارة، وأخذ يكتّل حولَهُ الجند والقُوّاد ويجمع كلمتهم على خلع القاهر، واستطاع أن يقوم بهذا الفعل السياسي الخطير، فتمَّ خلع القاهر وقتله، وهو في تلك الأثناء - أي إبن مُقلة - كان مستتراً، ولما بويع للخليفة الراضي بالله (322 - 329 - هـ/ 934 - 940م)، وقتها ظهر إبن مُقلة للملأ واستوزرعلناً. ولكن قلاقل القصر العباسي لم تهدأ، فعزل الوزير الخطّاط بعد عامين، الأمر الذي دعاهُ إلى الإستتار والتخفّي[3].

تكشف هذه الفترة - العقود الأولى من (ق 4هـ) فقدان الثقة بكل أطقم الوزارات المتعاقبة، وسيادة ظاهرة التآمر والدسائس بين أروقة القصر العباسي وحاشيته، وبرزت للسطح ظاهرة إسمُها «المُصادرة» بدأت منذ الأيام الأولى لحكم المقتدر، وأوّل المُصادَرين كانوا الوزراء وبطاناتهم وقد أدرك إبن مُقلة هذه الظاهرة السياسية الخطيرة، وقد إشترك بها رغماً عنه[4].

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 15/ 224 - تحقيق إبراهيم الزيبق - منشورات مؤسسة الرسالة - ط1 - بيروت 1403هـ/ 1983م - وراجع كذلك الأعلام - للزركلي 6/ 273 - ط5.

(2) سير أعلام النبلاء 15/ 225.

(3) سير أعلام النبلاء 15/ 225.

(4) يقول إبن الجوزي نقلاً عن إبن مقلة: «لما بويع للراضي بالله كنتُ مستتراً عند أبي الفضل بن مارسي=

فكل من استوزر دخل في حبال هذه اللعبة، بشكل أو بآخر[1]، ففي إستتارهِ كان يكاتب الراضي بالله، وينصحه باتخاذ بجكم حاجباً له بدلاً من إبن رائق (ت 330هـ/942م) عدّوهِ اللدود، وأن يعيدَهُ إلى الوزارة، وضَمَنَ لهُ مبلغاً كبيراً من المال، وفي الوقت نفسه كتب إلى بجكم بذلك فأطمعَهُ الراضي حتى إذا حصل عنده[2] هذا الدخول أوقع إبن مقلة في النار تماماً، الأمر الذي لم يكن قد أعَدَّ لَهُ العدّة، فما أن دخل بلاط الراضي، حتى استفتى هذا الخليفة الفقهاء بأمره، فأفتوا بقطع يده، فقطعت في شوال سنة 326هـ. فكان بعد ذلك يشدُّ القَلَم على ساعدِهِ ويكتب خطّاً جيداً، ثم كتب بيدِهِ اليسرى.

إن المفسدة السياسية/على ما يبدو من سيرة إبن مُقلة/تعمي المبدع عن إبداعَهُ أمام شهوة الكرسي، فما أن يتسنَّمَ هذا المبدع مَنصباً حسّاساً حتى يتنَصَّل عن أهلٍ وخل، وصديق ورفيق، ويظل يسعى لتحقيق مآربه الذاتية. وتكاد هذه الملاحظة تمتد بتاريخيَّتها إلى يومنا هذا.

فخطاط العرب الأول «إبن مُقلة» يُقَدّم لنا الدليل التاريخي في ذلك. فهناك حادثتان جديرتان بذلك نقلتها المصادر التاريخية، الأولى إتخاذه البساتين والضيع وبناء القصور الفخمة، فقد شرع في بناء دارهِ بالزاهر، وجمع المنجمين حتى اختاروا لَهُ وقتاً لبناء قصره، ووضع أساسَهُ بين المغرب والعشاء، فكتب إليه بعضهم[3]:

قل لابن مُقلةَ مهلاً لا تكن عجلا ... واصبر فإنَّك في أضغاث أحلامِ
تبني بأنقاض دور الناس مجتهداً ... داراً ستنقضّ أيضاً بعد أيّامِ
ما زلت تختار سَعدَ المشتري لها ... فلم توقَّ بهِ من نحسِ بهرامِ
إن القران وبطليموس ما اجتمعا ... في حالِ نقضٍ ولا في حالِ إبرامِ

فَلَمْ يعني ذلك شيئاً بالنسبة إليه، والحادثة الثانية هي، أنه كان بينَهُ وبين الشاعر جحظة

= بدرب القراطيس، فسعى بي إلى القاهر وعرف موضعي، فإني لجالس، وقد مضى نفس الليل، فأخبرتنا زوجة إبن ماري أن الشارع قد امتلأ بالمشاعل والخيل، فطار عقلي ودخلت بيتاً فيه تبن، فدخلوه ونبشوه بأيديهم، فلم أشك أني مأخوذ، فعاهدت الله تعالى أنَهُ إن أنجاني أن أنزع عن ذنوب كثيرة، وإن تقلدت الوزارة أمنت المستترين، وأطلقت ضياع المنكوبين، ووقفت وقوفاً على الطالبين، فما استمعت نذري حتى خرج الطلب وكفاني الله أمرهم» المنتظم 6/ 309.

(1) الجهشياري/ الوزراء والكتّاب/ ترجمة إبن مقلة - حيث يعيد ذكر الحادثة.

(2) سير أعلام النبلاء 15/ 225.

(3) إبن الجوزي/ المنتظم/ 6/ 310.

البرمكي صداقة قبل الوزارة، فلما استوزر، إستأذن عليه جحظة، فلم يأذن له فقال[1]:

«قُل للوزير أدام الله دولته إذكر منادمتي والخبز خشكارُ[2]

إذ ليس في الباب برذون لنوبتكم ولا محار ولا في الشطّ طيَّارُ[3]»

إنَّ التحاسد والمكائد بين مَنْ يطلبون الوزارة كانت من الأمور الشائعة في ذلك الوقت، فما أن دارت الدُنيا على ابن مقلة، حتى أُحرقت تلك الدار بعد ستة أشهر، من قبل أحد أعدائه المُسمّى «محمد بن ياقوت» حيث أنفذ إلى دارهِ مَنْ يحرقها[4].

* كيف قُطعت يَدَه؟!

هناك روايتان في هذه الحادثة، الأولى سياسيّة بحتة، يوردها إبن الجوزي في (المنتظم) تقول[5]: «عندما استُفتي فيهِ قال الفقهاء في حقّه: هذا قد سَعى في الأرض بالفساد فتقطع يده، فقطعت. وهذا الموقف سيسجّل على الفقهاء تاريخياً في هذه الحادثة.

أمّا الرواية الثانية فيوردها الذهبي على لسان أخيهِ (يقصد ابن مقلة) الحسن بن علي بن مقلة، تظهر أن ابن مقلة - الوزير - استهتر بعض الشيء، وتعالى على الناس وتجبّر يقول أخوه: «كان سبب قطع يد أخي (كلمة) كان قد استقام أمرهُ مع الراضي وابن رائق، وأمر برد ضياعهِ فدافعَ ناسٌ، فكتب أخي يعتب عليهم بكلام غليظ، وكنّا نشير عليه أن يستعمل ضد ذلك فيقول: والله لا ذُلِلتُ لهذا الوضيع، وزاره صديق إبن رائق، ومدبّر دولته فما قام لَه، وتكلم بفصلٍ طويل ساقَهُ إبن النجّار، يَدَلُّ على تيهه وطيشه، فقبض عليه بعد أيام وقطعت يده[6].

إن أقدار هذا الرجل لم تكتب لَهُ السَعْدَ في الجانب السياسي، بقدر ما فتحت لَهُ أبواب الشهرة والجاه في الجانب الفنّي - الإبداعي، فالظروف التي كانت سائدة في عصره

---

(1) المنتظم 6/ 310 وراجع د. مزهر السوداني - جحظة البرمكي/ ص222 - مطبعة النجف العراق - ط1 - 1977م.

(2) خشكار - من الخشارة - هو الرديء من كل شيء - اللسان - مادة - خَشَرَ.

(3) طيار - نوع من الزوارق الصغيرة كانت تستعمل أيام العباسيين - في نهر دجلة.

(4) إبن الأثير: الكامل في التاريخ 8/ 218 - طبعة دار صادر ودار بيروت - 1386هـ/ 1966م - وراجع أيضاً - سير أعلام النبلاء 15/ 228.

(5) المنتظم 6/ 310 - 311.

(6) سير أعلام النبلاء 15/ 228 - 229.

كانت تجري على التناقض، تَردّ في الوضع السياسي ونهوض في الوضع الثقافي، وهذه المفارقة لم تتكرّر في عصرنا الحالي - عجيب - إذ كل شيء نحو الإنحدار.

يبدو، أن ابن مُقلة لم يتحلَّ بالكياسة والحكمة السياسية، فأخفقت مساعيه، حتى بعد أن قطعت يده، ولكن هناك مسألة هامة كانت تتحكّم بالقرار السياسي، هي التسلّط على الخُلفاء من قبل الأتراك البويهيين، ثم السلاجقة، فإبن رائق كان الأول والأخير في اتخاذ القرار السياسي، والراضي بالله مجرّد إسم في الخلافة، لذلك يكون أمر الدولة قد آلَ إليه، من خلال تسنُّمِهِ منصب «أمير الأمراء» وإبن رائق هذا لم تكل عيناه من مراقبة إبن مُقلة، ذلك الرجل الذي عَرَفَ حِيَل السياسة وثعلبة الغَدر في الحُكم، واطّلعَ على شيءٍ من خفاياها، فالشّك ظَلَّ يخامر عقل إبن رائق بصدد هذا الوزير المسجون. ولمّا أقدم الراضي على قطع يد إبن مقلة، استدعاه من حبسهِ واعتذر إليه وأخذ يشاورهُ في خلوته وقت الشرب، وأنِسَ بهِ، كما يقول الحسين إبنه[1]. ولمّا تنامت الأخبار بذلك إلى إبن رائق خافَ على نفسهِ وزاد عندهُ الشك، فلجأ إلى الحِيَل السياسية، فدَسَّ مَنْ أشار على الخليفة بأن لا يدنيه، يقول إبنه الحسين: كان أبي يكتب باليُسرى خطّاً لا يكاد يُعرف من خطّهِ باليُمنى، قال: وما زالوا بالراضي حتى تخيّل منه وأهلكَهُ، بعد أن قطع لِسانَهُ وقَتَلَهُ بالجوع، كان ذلك في 10 شَوّال سنة 328هـ[2].

وقد باءت كل توسلاته بالفشل، وكان ينوح على يده ويقول: يدٌ خدمت بها الخلفاء ثلاث دفعات، وكتبت بها القرآن دفعتين تُقطع كما تُقطع أيدي اللصوص، وأضاف «إن المحنة قد نشبت بي، وهي تؤديني إلى التلف وأنشد»[3]:

إذا ماتَ بعضُكَ فابك بعضاً ... فإن البعض من بعضٍ قريبُ

وكان إبن رائق أخوف على كرسيِّهُ من يد إبن مُقلة التي خطّت القرآنَ مرتين.

إن إدراك إبن مُقلة للواقع السياسي في حينهِ، لم يجنبه الوقوعَ بهِ، كما أسلفنا، وحوادث إقصائه من الوزارات، ثلاث مرّات، وقطع يدهِ ولسانه، والمصادرات التي تعرّض لها، تكشف لنا جانباً هاماً وخطيراً من الحياة السياسية في العصر العباسي في القرن الرابع

---

(1) سير أعلام النبلاء 15/ 229.

(2) المصدر السابق 15/ 230 - وإبن خلكان 5/ 117، والفهرست/ ص14، ومن المصادفات العجيبة - كما تذكر المصادر أعلاه، أنّه «تقلّد الوزارة ثلاث مرّات لثلاثة من الخلفاء، وسافر ثلاث سفرات - إثنتان إلى شيراز وواحدة إلى الموصل، ودفن ثلاث مرّات بعد موته».

(3) المنتظم 6/ 311 - والبيت تمثّل بهِ وهو لأبي يعقوب الخريمي، أنظر الثعالبي: ثمار القلوب/ ص211.

الهجري، إذ أن ابن مُقلة نفسَهُ يصوّر لنا هذا الواقع بالأبيات التالية التي رثى بها نفسه حين قطعت يده، يقول[1]:

«ما سئمت الحياة لكن توثّقتُ بأيمانهم فبانت يميني
بعتُ ديني لهم بدنياي حتى حرموني دنياي بعد ديني
فلقد حصلت ماستطعت بجهدي حفظ أرواحهم فما حفظوني
ليسَ بعد اليمين لذةُ عيشٍ يا حياتي بانت يميني فبيني»

الفصل الثالث

حياة إبن مُقلة الفَنيَّة

هذا الجانب في حياته، هو الأكثر إشراقاً والأكثر غنىً، وهو الجانب الأبقى والأدوم في ذاكرة الثقافة العربية الإسلامية، على مَرِّ العصور. وقد ذكرنا، في الفصول السابقة، تأثيراته في مجال الإبداع الفنّي للقلم العربي، وكيفية إيجاده لقوانين الخط العربي. وبغية السير مع التطور الفني للخط، لا بُدَّ أن نطّلع على البدايات التي خلقت من هذا المُبدع علماً ومُعَلِّماً في صنعة الخط، إذ أنّه لم يأتِ من فراغ بل من تطوّر متراكم لتبرعُمات هذه المدرسة التي أفضت إرهاصاتُها الفنيّة على إبن مُقلة وألهمتهُ الصيغة المُثلى كي يرتفع شأن القلم العربي بإسمهِ، وبإسمهِ أيضاً تذكر الطرائق في بريّ القلم وتجويد الخطوط، وفق النِسَب التي أوجدها - كقوانين فنيّة - يُلتزم بها في غُرف الخطّاطين.

يقول صاحب «إعانة المُنشيء» إنَّ إبني مُقلة، ولَّدا طريقة اخترعاها، وفي زمانهما كتب جماعة فلم يُقاربوهما، وتفرَّدَ أبو عبد الله بالنسخ والوزير أبو علي بالدُرج، وقد كان الكمال في ذلك للوزير، فهو الذي هَندسَ الحروف وأجاد تحريرها، وعنهُ انتشر الخط في مشارق الأرض ومغاربها»[2].

إن الطريقة التي كتبَ بها ابن مقلة أغرت الشعراء لأن يتغزّلوا بها، ويحسنوا توصيفها، قال بعضهم[3]:

---

(1) المنتظم 6/ 311 - ويشير إبن خلكان، إلى أن بجكم هو الذي أمر بقطع لسانهِ راجع - وفيات الأعيان 5/ 116.

(2) صبح الأعشى 3/ 17.

(3) صبح الأعشى 3/ 17.

«سبقَ الدمعُ في المسير المطايا إذ روى من أحبَّ عنهُ بقلهِ
وأجاد السطور في صفحة الخدّ ولم لا يجيد وهو ابن مقلة»

* طريقة إبن مُقلة في الخط

إن القواعد الأساسيّة التي وضعها إبن مقلة كأساس لتجويد الخط العربي اعتمدت في الأساس على «الكيفيّة الهندسيّة» في رسم كل حرفٍ ضمن كلمتهِ ووفق نوعيّة الخط الذي يكتب فيه، يقول إبن مقلة في هذا الصدد[1].

حَرف الألف: هو شكلٌ مركّب من خطٍّ منتصب، يجب أن يكون مستقيماً غير مائل إلى استلقاء ولا انكباب. والقياس في ذلك بأن يكون ثماني نُقاط من نقطة القلم الذي يكتب فيه على أن تكون النقطة مربعة «◆» ويكون إبتداؤها بنقطة وآخرها بشظية «والقياس الجمالي في رسم صورة الألف، عند ابن مقلة هو «أن يخط إلى جانب الألف ثلاث ألفات أو أربع» وأن يكون الفضاء «المسافات» فيما بينها متساوياً».

أمّا الباء والتاء والثاء: فهي/ عندهُ/ شكلٌ مركّب من خطّين، منتصب ومُنسطح، وتؤخذ نسبة القياس في رسمها كالنسبة إلى الألف بالمساواة «وعلى هذا القياس يشرح أحد تلاميذه إبن عبد السلام» إيضاح ذلك بالقول: «أن تزيد المنتصب بكلمة ألف، بحيث يكون طول جملتهِ كطول المنسطح، لا أطول ولا أقصر، ثم أضاف: «وهذا الحرف - يقصد الباء - وما يجري مجراه من يمنه إلى يسره، وكل ما كان كذلك، فينبغي أن يُمال القلم فيهِ نحو اليسرة قليلاً»[2].

أمّا الجيم: فهو عندهُ «شكلٌ مركّب من خطّين، مُنكب ونصف دائرة، وقطرها مساوٍ للألف. واعتبار صحّتها أن تخطَّ عن يمينها وشمالها خطيّن، فلا تنقص عنها شيئاً يسيراً ولا تخرج» يقول التلميذ لهذه المدرسة إبن عبد السلام. واعتبار صحّة رأسها أن تكتبهُ من يسرة إلى يمنة على استقامة تقريباً. ثم قال: وحُسنها أن تخفضها من الجهة اليُمنى قليلاً، وميزاتها أن تُسطّر سطراً وتأخذ عليه من يسره إلى يمنه مقدار ثلثي ألف من قلم الكتابة، بحيث لا يرتفع أوّلها عن آخرها إلاّ يسيراً، وعلى حكمها يُرسم الحاء والخاء في جميع ما تقدّم[3].

الدال والذال: يقول إبن مُقلة: «هي شكل مركّب من خَطّين، منكّب ومُنسطح،

---

(1) المصدر السابق 3/ 27 - 28، وهناك توضيحات كثيرة لمن يطلب الإستزادة.
(2) صبح الأعشى 3/ 29.
(3) المصدر السابق 3/ 29 - 30.

مجموعهما مساوٍ للألف، فالمنكّب طولَهُ بمقدار نصف ألف خطَّهُ لا غير، وكذلك المنسطح، وابتداء أوّلها بنقطة، وآخرها إن كان مُرسلاً بِقَطّة، وإن كان معطوفاً بسن القلم اليُسرى، واعتبار صحتها أن تصل طرفيها بخطٍ، فتجدهُ مثلثاً متساوي الأضلاع»[1].

الراءَ والزاي: هُما عند إبن مقلة: «شكل مركّب من خطٍّ مقوّس، وهو ربع الدارة التي قطرها الألف، وفي رأسهِ سنّةٌ مقُدّرة في الفكر». يوضّح تلميذه إبن عبد السلام ذلك بالقول: «وتبدأ أوَّلها بنقطةٍ، وآخرها إن كان مُرسلاً فبسن القلم اليُمنى، وإن كان معطوفاً فبسنَّة اليسرى» قال إبن مقلة: «واعتبار صحتها أن تصلها بمثلها فتصير نصف دائرة»[2].

السين والشين: يقول الوزير الخطّاط: هو شكل مركّب من خمسةَ خطوط: منتصب ومقوّس ومنتصب ومقوّس ثم مقوّس» يضيف «إبن عبد السلام» ومساحة رأس السين، من أوّل سن منها إلى ثالث سن، كثُلثي ألف خطّه» يقول إبن مقلة: «واعتبار صحّتها، أن يمرَّ بأعلاها وأسفلها خطّان فلا تخرج عنهما شيئاً ولا تنقص، وعلى حكمها ينطبق الشين[3].

الصاد والضاد: قال إبن مُقلة: «هي شكل مركّب من ثلاثة خطوط، مُقوّس ومُنسطِحْ ومقوّس»، قال إبن عبد السلام: «وابتداؤهُ بشظية، أمّا إنتهاؤهُ، فإن كان مُرسلاً فبسَنْ القلم اليُمنى، وإن كان معطوفاً فبسِنَّة اليُسرى» قال: ومساحة رأس الصاد في الطول كثلثي ألف خطه، ومساحة قوسها إن كان معطوفاً مساحة ألف الكتابة، وإن كان مُرسلاً فمساحة ألفين من قلم خَطّه، قال إبنُ مقلة: «واعتبار صحّتُها أن تجعلها مُربّعة، فتصير متساوية الزوايا في المقدار» ويضيف إبن عبد السلام: «واعتبار صحّتها أن يكون أعلاها كراءٍ مُعلّقة والمنسطّح كبناء، والمقوّس كنون، ويكون رأس النون مشرفاً على آخرها»[4].

الطاء والظاء: هو شكل مركّب من ثلاثة خطوط، منتصب ومُقوّس ومنسطح، يبدأ أوّلَهُ بنقطة وآخرهُ بنقطة، قال إبن مُقلة: «ومساحة ضوء الطاء في الطويل كثلثي ألف خطه[5]، قال إبن عبد السلام: واعتبار صحَّتُها أن يكون المنتصب كألف في خطّهِ في الإنتصاب، والطول والمقوّس كراءٍ معلّقة والمنسطح كباءٍ مرسلة[6].

---

(1) صبح الأعشى 3، 30.
(2) نفس المصدر 3/ 31.
(3) صبح الأعشى 3/ 31.
(4) نفس المصدر 3/ 32.
(5) هناك بياض في أصل المخطوط - صبح الاعشى - لم يعثر عليه المحقّقون، كان خاصاً بحديث إبن مقلة، ترك بياضاً، ونبّه عليه في الهامش رقم 1 - ص32، من ج 3.
(6) صبح الأعشى 3/ 32.

العين والغين: يقول إبن مقلة: «هي شكل مركّب من خطّين، مُقوّس ومنسطح، أحدهما نصف دائرة»، قال إبن عبد السلام: «يبدأ أوّلها بشظية، وآخر تعريجها بسن القلم اليسرى، والتعريجة نصف دائرة، ومساحة القوس كألف وثلث من قلم وكتابة، ومساحة الرأس في الطول كثلثي ألف خطُّهُ، ويُصَور من رأسها رأس الصاد». قال إبن مقلة: «واعتبار صحّتها كاعتبار الجيم»[1].

الفاء: قال إبن مقلة: «هي شكل مركّب من أربعة خطوط: منكب، ومُستلقٍ، ومنتصب ومنسطح» قال إبن عبد السلام: «تبدأ أوّلَهُ بنقطةٍ وتأخذهُ على سطرٍ إلى جهة اليسار، ثم تأخذ المستلقي إلى أن تنتهي إلى قبالة المنسطح، بحيث يصير كالدال المقلوبة، ثم تأخذ من حيث انتهيت إلى أن تُلصق بالمُنسطِحْ، فيبقى مثلثاً متساوي الأضلاع، مساحة ضوئِهِ نقطة بمقدار سُدس ألف خطِّهِ، ثم إن كان معطوفاً، ختَمْتُهُ بسن القلم، وإن كان مُرسلاً فبقطّتهِ» قال إبن مقلة: «واعتبار صحّتهِ أن تصل بالخط الثاني منها خَطّاً فيصير مثلثاً قائم الزاوية»[2].

القاف: هو عند إبن مُقلة «شكل مركّب من ثلاثة خطوط، منكب، ومستلقٍ، ومقوّس» وعند ابن عبد السلام مركّب من أربعة خطوط، رأسها كرأس الفاء سواء بجميع ما تقدم، وإرسالها كالنون، فإن كان آخرها معطوفاً، فبسنِ القلم اليُسرى، وإن كان مُرسلاً فبسنّه اليُمنى، قال: ومساحة ضوء القوس من أوّلهِ إلى آخرهِ، إن كان معطوفاً، كألف قلم الكتابة، وإن كان مُرسلاً فكألفين. قال إبن مُقلة: واعتبار صحّتها كاعتبار النون»[3] سوف يأتي ذكرها.

الكاف: قال ابن مُقلة: «شكل مركّب من أربعة خطوط، مُنكب، ومسطح، ومنتصب، ومنسطح». قال إبن عبد السلام: «مُنسطح طولُهُ ألف وثلث ألف من قلم الكتابة. ومُنكب طُوله مقدار ثلث ألف من خطّهِ، ومنسطح طُولُه مقدار ألفين من خطّهِ، يفصل منتهى المنسطح ما بين المنسطحين، وأضاف: تبدأ أوّلها بشظية، فإذا إنتهت إلى اتصال رأسها بالمنسطح تشير بيد ويراها دون تحديد». قال إبن مقلة واعتبار صحتها أن ينفصل منها ياءآن. قال التلميذ: «يعني مستقيمة ومقلوبة»[4].

اللام: يقول إبن مقلة: «هي شكل مركّب من خطيّن، منتصب ومنسطح»، يشرح ابن

(1) صبح الأعشى 3/ 33.
(2) المصدر السابق 3/ 34.
(3) صبح الأعشى 3/ 34.
(4) نفس المصدر 3/ 34 - 35.

عبد السلام ذلك بالقول: «فالمنسطح ألف، والمنتصب ياء فإن كان معطوفاً فبسن القلم اليسرى، وإن كان مرسلاً فبقطّة». يقول إبن مُقلة: «واعتبار صحّتها أن تخرج من أوّلها إلى آخرها خطّاً يُماس الطرفين فيصير مثلثاً قائم الزاوية» واضاف: «وتكتب على الأنواع الثلاثة التي تكتب عليها الباء»(1).

الميم: هو عند إبن مقلة: «شكل مركّب من أربعة خطوط، منكب، ومستلقٍ ومنسطح، ومقوّس». قال إبن عبد السلام: «مقوّس كالراء، يكون رُبع دائرة، فإن كان آخرها منتصباً فهو في الوضع والطول مثلَ ألف من خطّهِ، غير مائل إلى استلقاء ولا انكباب. تبدأ أوّل الميم بشظية وآخرها بشظية. قال: ومساحة ضوئها مثل سُدس ألف خطّها، وهو مستطيل مستدير كالبيضة، منتصب إلى جهة اليمين. قال إبن مقلة: «واعتبارها كاعتبار الهاء»(2) سيأتي ذكرها.

النون: قال إبن مقلة: «هو شكل مركّب من خطّ مقوّس، هو نصف الدائرة، وفيه سَنَّةٌ مُقدرة في الفكر» قال ابن عبد السلام: «يبدأ أوّلَهُ بنقطةٍ، وآخره إن كان معطوفاً فبِسَنِّ القلم اليُسرى، ومساحة ضوئه ألف من قلم خطّه، وإن كان مُرسلاً فبِسَنِّ القلم اليُمنى، ومساحة ضوئهِ ألفان من قلم خطّهِ». قال ابن مُقلة: «واعتبار صحّتها أن يوصل بها مثلها فتكون دائرة»(3).

الهاء: قال ابن مقلة: «هي شكل مركّب من ثلاثة خطوط، منكب ومنتصب ومقوّس». قال إبن عبد السلام: «هو شكل من ثلاثة خطوط، منكب، ومنسطح بترطيب، ومستلقٍ. تبدأ أولها بنقطة، وآخرها إرسالَهُ بسَنِ القلم اليمنى. طول المنكب كطول نصف ألف من خطّهِ، وطول المنسطح كثلثِ الفِ من خطّهِ، وطول المستلقي كنصفِ ألف قلم خطّه.

قال إبن مقلة: «واعتبار صحّتها أن تجعلها مُربّعةً فتساوى الزاويتان العلياوان كتساوي الزاويتين السفلاوين». يشرح ابن عبد السلام تلك القاعدة بالقول: «اعتبار صحّتها أن تجعل ردّتها في ثُلثيها، فإذا كمل وَضعُها فاجعلها مربعة، فتتساوى الزاويتان العاليتان والزاويتان السافلتان»(4).

الواو: يقول إبن مُقلة: «هي شكل مركّب من ثلاثةِ خطوط، مستلقٍ، ومنكب ومقوّس» فيما يعتبرها إبن عبد السلام مركّبةٌ من أربعة خطوط. رأسها كرأس الفاء، وتقويسها كالراء،

(1) صبح الأعشى 3/ 35.
(2) نفس المصدر 3/ 36.
(3) صبحُ الأعشى 3/ 36.
(4) المصدر السابق 3/ 37.

وهو ربع دائرة، تبدأ أولها بنقطة وآخرها، إن كان معطوفاً، فبسن القلم اليسرى، وإن كان مُرسلاً، فبسنهِ اليمنى»[1].

اللام ألف (لا): يشرحها إبن عبد السلام فيقول: «هي شكل مركّب من ثلاثةِ خطوط، مُنكَب ومنسطح مستقيم، ومستلقٍ، طول المنكب كطول ألف من قلم الكتابة، وطول المنسطح كثلثي ألف الكتابة، وطول المُستلقي كطول ألف الكتابة. تبدأ أول المنكب بنقطة وكذلك المستلقي.

قال: واعتبار صحّتها أن يكون ثلثها من أسفلها والثلثان من أعلاها، وأن تُخط من رأس اللام إلى رأس الألف خطّاً مستقيماً، وأن تخط من أعلاها إلى أسفلها، فلا يُقصر عنها ولا يخرج.

وأضاف: ومنها نوع آخر مركّب من ثلاثةِ خطوط، منكب ومستدير يقاربُ ألفاً، ومُستلقٍ يقابل طرفَهُ طرف المنكب»[2].

الياء: تحدث إبن مُقلة قائلاً: «شكل مركّب من ثلاثة خطوط، مستلق ومنكب ومتقوّس» ويضيف ابن عبد السلام: وهي كالنون، تبدأ أولها بشظية، رأسها كدالٍ مقلوبة، طول المستلقي منها كنصف ألفٍ من خطّه، وكذلك المنكب على ما تقدّم في الدال. قال: والمقوّس، إن كان معطوفاً فمساحته ألف من خطّه، وآخره سن القلم اليسرى، وإن كان مُرسلاً فمساحته كألفين من خطّهِ وآخرهُ بسن القلم اليُمنى، وأضاف: ومنها نوع كرأس الكاف المستلقي والمنسطح سواء.

قال إبن مقلة: «واعتبارها كاعتبار الواو»[3].

---

(1) صبح الأعشى 3/ 37.

(2) المصدر السابق 3/ 38.

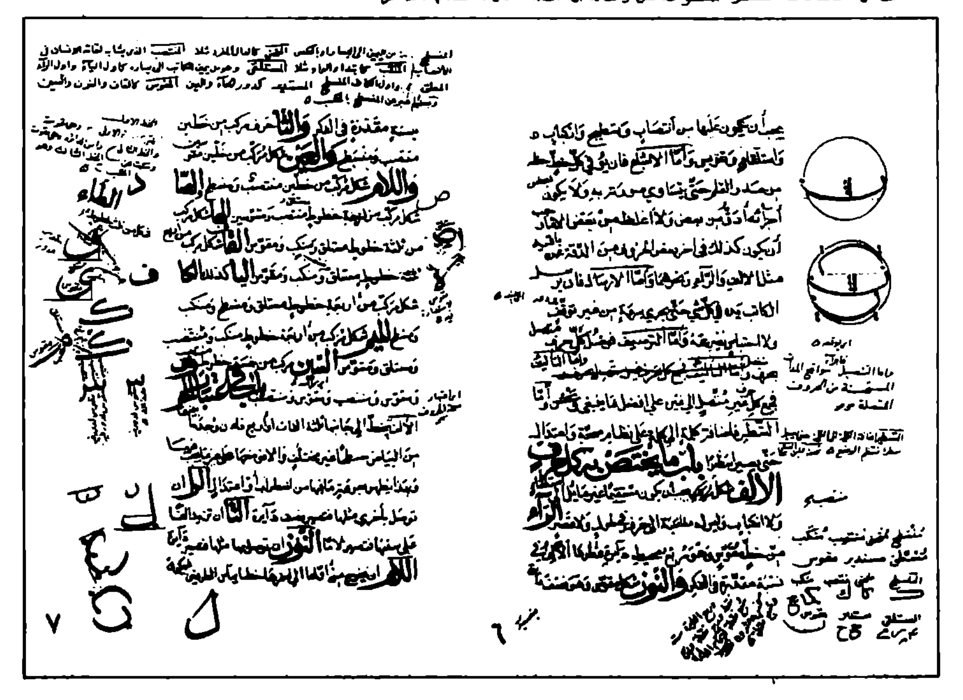
(3) صبح الأعشى 3/ 38 - وقد استفاض القلقشندي في شرح أساليب الخط، وعدَّ الكثير من الذين ساروا على منوال ابن مقلة - فليراجع هناك لمن يريد الإستزادة.

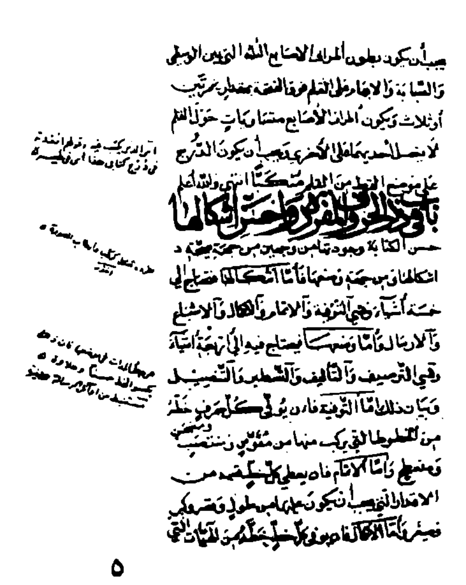
«مصور من (كرّاس)» صناعة الخط والقلم - المحفوظ بدار الكتب المصرية - القاهرة - رقم 14 - صناعات - توقيع المؤلف عبد الله بن مقلة «الوزير» الخطاط - وهي نفسها الموجودة في المكتبة الوطنية بتونس - تحت رقم 672، وهي «طريقة ابن مقلة في تعلم الخط».

ونحن نقلناها من كتاب «الخط العربي» لحسن المسعود ص 40 - ص 41، طبعة «فلاماريون - باريس 1981م.



ثمان من الصفحات العشر المنسوخة عن رسالة ابن مقلة - دار الكتاب - القاهرة





Huit des dix pages du *Précis de calligraphie* d'Ibn Moqla, copié en 1663 par Mohammed Al Chafai.



تعليمات وخطوط بريشة إبن مقلة

1 - الشكل 150 - صفحتان من مخطوطة «رسالة علم الخط والقلم» لإبن مقلة والتي يؤكّد فيها - وفق قاعدته - باعتبار الألف قطراً للدائرة التي تبنى عليها جميع أقواس الحروف الأبجدية المفردة قبل تركيبها.

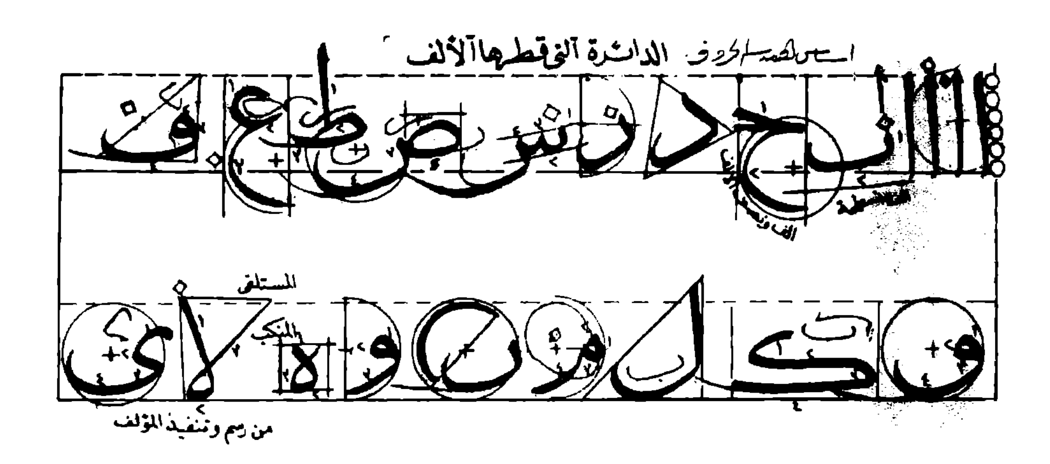
2 - الشكل - 151 - تطبيق لقاعدة إبن مُقلة - أعلاه - والتي نفَّذها الخطّاط الكاتب «ناجي زين الدين».

3 - الأشـكـال - 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160 - هي تسعُ صفحات مكتوبة بخط النسخ والثلث منسوبة للوزير ابن مقلة وهي مخطوطة فريدة ونادرة، من مخلفات (جد السيد ناجي زين الدين) المرحوم السيد عبد الوهاب، صاحب الخط اللؤلؤي.

* المصدر: ناجي زين الدين/ بدائع الخط العربي: ص 114 - ص 123.



شكل ــ ١٥٠ ــ



من رسم وتنفيذ المؤلف

شكل ــ ١٥١ ــ


بسم الله الرحمن الرحيم
في إيماني بك ولم أعلم به تبت عنه
وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله
اللهم إن دخل الكفر في إسلامي
ولم أعلم به تبت عنه وأقول لا إله إلا الله
محمد رسول الله اللهم إن دخل

شكل ـ ١٥٢ ـ



شكل ـ ١٥٣ ـ


عن شكرك ولم أعلم به أنت
عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله
اللهم ما مننت به علي من أحسني فلم
أحمدك ولم أعلم به أنت عنه وأقول لا إله
إلا الله محمد رسول الله اللهم
ما ضيعت من عمري بما لا يرضى عني ولم أعلم
به أنت عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله
اللهم ما أوجبت علي من النظر فيه فأغمضت
عنه ولم أعلم به أنت عنه

شكل ــ ١٥٤ ــ



شكل ــ ١٥٥ ــ


لساني في السؤال من غيرك
لا إله إلا الله محمد رسول الله
إن كنت كتبت اسمي في

شكل ــ ١٥٦ ــ


ديوان السعادة فلك الحمد
ولك الشكر وإن كنت كتبت
اسمي في ديوان الشقاوة فامح بكرمك
وثبته في ديوان السعادة فإنك قلت
في كتابك يمحو الله ما يشا
ويثبت وعنده أم الكتاب
لا إله إلا أنت سبحانك إني
كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه
من الغم وكذلك ننجي المؤ

شكل ـ ١٥٧ ـ


ولم أعلم به تبت عنه وأقول
لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ اللهم إن
دخل الشبهة في معرفتي إياك ولم أعلم به تبت
عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ
اللهم إن دخل النفاق في
قلبي من ذنوب الكبائر والصغائر كلها
عنه وأقول لا إله إلا الله محمد

شكل ـ ١٥٨ ـ



شكل ـــ١٥٩ـــ


الأمان الأمان وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وأصحابه أجمعين الطيبين الطاهرين برحمتك يا أرحم الراحمين

شكل — ١٦٠ —

الفصل الرابع

أهميّة إبن مُقلة

لقد اقترن إسم إبن مقلة بمدرسة بغداد للخط العربي أولاً، ومن ثم أصبح العلم الأبرز في العالم الإسلامي والعربي بحرفة الخط وهندسة حروفه، حتى أن المصادر التاريخية التي ترجمت لَهُ واهتمّت بإبداعه وصفته بأنه كان «مُقلة حدقة الزمان، ياقوت معدن العرفان، مصوّر النقوش القدسيّة بالصور الروحانية، ومُقِرّ الخطوط الهندسية بالأدوات الجسمانية» وهذا ما ثَبّتَهُ صاحب «**تحفة الخطاطين**»[1].

منذ نشأته في بغداد، كانت طفولته تشير إلى أنَّهُ قد عزف عن العمل مع أبيه وانصرف إلى الدرس[2]، وكان أخوه **أبو عبد الله الحسن بن علي بن مقلة**، يشاركهُ الإهتمام والطفولة، وقد انصبَّ اهتمام الأخوين منذ نعومة أظفارهما على الخط العربي، فبدءا بتعلّمهِ على يد كبار الخطّاطين السابقين عليه من أمثال **الأحوَل وإبراهيم الشجري**[3].

إختلف القدماء في لقب أبيه «**مُقلة**» فابن **النديم**، وهو الأقرب إليه يُشير إلى أن «مُقلة» لقب أطلقَهُ في سياق الحديث عن الأب[4]، بينما يذكر **ياقوت الحموي** في معرض ترجمته لأخيه **الحسن بن علي بن عبد الله بن مقلة** بأن «مُقلة» إسم أُمٍّ لهما. ويستطرد فيقول في سبب التسمية إن أباها «يقصد مقلة» كان يُرقِّصها فيقول: «**يا مُقلة أبيها**» فغلب عليها هذا اللّقب[5]. وعلى ما يبدو أن «عائلة مقلة» كان أغلبها قد مارس مهنة الخط والكتابة، ولكن الشهرة استقرّت للخطّاط الوزير **أبي علي** ومن بعده لأخيه عبد الله، يقول إبن النديم:

(1) أنظر: الخطاط البغدادي علي بن هلال، للدكتور سهيل أنور/ص14، ترجمة محمد بهجت الأثري وعزيز سامي/مطبوعات المجمع العلمي العراقي 1377هـ/ 1958م.
(2) المصدر السابق/ نفس المكان.
(3) الخطاط البغدادي/ ص14.
(4) الفهرست/ ص14.
(5) معجم الأدباء 9/ 28.

«هذان الرجلان لم يُرَ مثلهما في الماضي إلى وقتنا هذا»[1] يقصد بداية (ق 5هـ) - ويضيف إبن النديم: «وعلى خط أبيهما مقلة كَتَبا»[2].

ومن هنا نستنتج أن الأب كان خطاطاً هو الآخر. لذلك سارت العائلة على منوالهِ وخُطاه. والغريب أن أبا علي إبن مُقلة عَزِف عن العمل مع أبيه، كما أشارت المصادر[3]. وهذه العبارة تضع محل الشك على ما يقولهُ الأستاذ سُهيل أنور، والذي أخذ معلوماتهِ من «تحفة الخطّاطين» وإنّا لنرجّح إلتزام الإبن بمنهج الأب، فالمصادر التي ترجمت لإبن مُقلة كانت تؤكّد مذهب الأب في الخط، وليس ذلك فحسب، بل أن سلالة العائلة سارت على المهنة نفسها. يقول إبن النديم: «وقد كتب في زمانهما جماعة وبعدهما من أهلهما - يقصد الأخوين إبن مقلة - وأولادهما، فلم يقاربوهما، إنما يبذر الواحد منهم الحرف بعد الحرف والكلمة بعد الكلمة، وإنما الكمال كان لأبي علي وأبي عبد الله، ومن كتب فمن أولادهما أبو محمد عبد الله وأبو الحسن بن أبي علي، وأبو أحمد سليمان بن أبي الحسن وأبو الحسين بن أبي علي» ويضيف إبن النديم قائلاً: «ورأيت مصحفاً بخط جَدّهم مُقلة»[4] على أيّة حال، إن التطور الفني الأبرز في هذه العائلة هو ما لزم خطّاطنا الوزيرالذي إنتهت إليه رياسة الخط وجودتهِ، حيث خطّ النسخ يسمو بحروفهِ على بقية الخطوط. وقد استطاع إبن مُقلة أن يجد ثوابتاً وأصولاً للخط العربي - كما رأينا، فهو المهندس الأول للخط العربي وهو الذي زاد على مبتكرات سابقيه، وقد سُميَّ الخط الموزون بالخط المنسوب[5]. حيث أوجد ابن مُقلة قواعِدَهُ ونَسِبَهُ، التي تعتمد على تناسب أشكالهِ الهندسية المتقنة، ونسبته إلى الإمام من أئمتهِ، ذلك أن الكاتب إذا بلغ في تعلم صناعة الخط غاية قدرته، كان لخطّه ملامح خاصة يُعرف بها، ومعاني تخصَّهُ، يعرفها أهل التميِّيز والنقد، كما تعرف وجوه الناس وإن تشابهت أعضاؤها، وتشاكلت أجزاؤها بمعانٍ تخص كل وجهٍ فيها[6].

(1) حيث عاش إبن النديم فيه وكانت وفاته سنة 438هـ/ 1047م - أنظر الزركلي - الأعلام 6/ 29.
(2) الفهرست/ ص14.
(3) الخطاط البغدادي/ ص14.
(4) الفهرست/ ص14.
(5) سهيلة الجبوري: الخط العربي وتطوره/ ص70. وتجدر الإشارة هنا إلى الوهم المعرفي الذي وقع فيه د. محمد ماهر حمادة بكتابه (المكتبات في الإسلام) ص 162، حيث يعتقد أن الخط المنسوب أو الخطوط المنسوبة هي «التي يعرف خطاطها فتنسب إليه». وهو جهل بفن الخط، لأنه غير خطاط. بل مؤرخ للمكتبات.
(6) سهيلة الجبوري/ الخط العربي/ ص95.

وقد كانت تلك المقوّمات لا تنطبق عليه في كتابه المعروف وَرَسمِهِ فعُرِف خطّه قبل شخصه، وبذلك تميّزت مدرسة إبن مُقلة، ولذلك يقول عنه إبن الطقطقي: «هو صاحب الخط الحَسَن المشهور الذي تُضرب بحسُنِهِ الأمثال، وهو أوّل من استخرج هذا الخط «يقصد النسخ» ونَقَلَهُ من الوضع الكُوفي إلى هذا الوضع، وتبَعَهُ بعده إبن البوّاب[1].

وعلى ضوء تلك الشهرة الواسعة التي أوجدها إبن مُقلة، صار الخط العراقي هو النموذج الأصلح للخطوط، وعلى هذا الأساس المنهجي - الفني، يقول الخطاط عبد الله بن زنجي الكاتب: «أصلح الخطوط وأجمعها لأكثر الشروط ما عليه أصحابنا في العراق»[2].

وعلى أساس هذا التقيّم يكون إبن مُقلة قد سما بالخط العربي بشكل عام، وبأقلام العراق، بشكل خاص، وتلك مأثرة لم يسبقهُ إليها سابق.

لقد كانت إبداعات إبنُ مقلة في تجويد الخط مثار اهتمام الأدباء والكتّاب من المعاصرين له واللاحقين عليه، واقتفوا أثره، حتى أن أبا حيان التوحيدي يتحدث عنه في أكثر من محفل، غير مخفٍ إعجابَهُ بِهِ والمفاخرة بقلمهِ دون سواه من سائر الكتّاب والخَطّاطين في أرض الخلافة العباسية، فهو يسأل كُتّاب أذربيجان أو الذين عاشوا فيها مكرهين أو مجبرين، يقول: «قلتُ لأبي عبد الله بن الزنجي الكاتب - كان كاتباً لإبراهيم بن المرزبان في آذربيجان - ما تقول في خط إبن مُقلة؟! فقال: «ذاك نبيٌّ فيه أُفرغ الخط في يده، كما أوحي إلى النحل في تسديس بيوته»[3].

مثل هذه العبارة الهائلة لم تقال في غيره، فكم من أبعادٍ تحمل بين طياتها، وهي تصدر من كاتب كبير!!

لم يقتصر الثناء على ابن مقلة من كاتبٍ واحدٍ، أو وزير أو أمير، بل أصبح الثناء والمدحُ فيه صفة لازمة عند كُتّاب ذلك العصر، فمن ذلك ما قالهُ فيه أبو بكر الصُولي - عميد الكتابة في العصر العباسي - وذلك عندما قطعوا يده اليُمنى، مُصوّراً عمق المأساة، رغم اللّوَقَ الذي يعتريه أحياناً يقول[4]:

---

(1) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية/ ص199. تحقيق محمد توفيق الكتبي - المطبعة الرحمانية - مصر - بدون تاريخ.

(2) رسائل التوحيدي/ ص50.

(3) المصدر السابق - نفس المكان.

(4) سير أعلام النبلاء 15/ 229. والفخري/ ص201.

لئن قطعوا يُمنى يديه لخوفهم　　لأقلامهِ لا للسيوفِ الصوارمِ
فما قطعوا رأياً إذا ما أجالَهُ　　رأيت المنايا في اللحى والغلاصمِ

أمّا ياقوت الحموي، فقد أثنى عليه ثناء المؤرّخ المنصف والكاتب العارف بصنعة أرباب القلم، فقال عنه: «هو المعروف بجودة الخط الذي يُضرب به المثل، كان الوزير أوحد الدُنيا في كَتْبِهِ قلم الرقاع والتوقيعات، لا ينازعهُ في ذلك ولا يسمو إلى مساماته ذو فضل بارع»[1]. وفي مفاضل الثناء عليه والتغزّل بخطّهِ، ينقل الثعالبي في «ثمار القلوب» أقوال المشاهير في ذلك العصر، ومنهم الصاحب بن عبّاد (938 - 995م) ذلك الوزير البويهي المعروف بالبيان والفصاحة والرجاحة والأدب، يقول عن ابن مقلة[2]:

خط الوزير ابن مقلة　　بستان قلبٍ ومُقلة

أما الثعالبي (961 - 1038م) فيقول عنه: «خط إبن مُقلة، يضرب مثلاً في الحُسن لأنه أحسن خطوط الدنيا، وما رأى الراؤون بل ما روى الراوون مثله في ارتفاعه عن الوصف، وجريه مجرى السحر، وأنشد[3].

خط ابن مُقلة من ارعاهُ مقلَتَه　　ودَت جوارحه لو حُوّلت مُقلا
فالدر يَصْفَرُّ لإستحسانهِ حَسَداً　　والبدرُ يحمرُّ من أنوارهِ خجلا

وأضاف:

سقى الله عيشى مضى وانقضى　　بلا رجعة أرتجيها ونقلة
كوجه الحبيب وقلب الأديب　　وشعر الوليد بخط ابن مقلة

والوليد، هو البحتري.

ومن اللُغويين الذين انتبهوا إلى جودة خط ابن مقلة وأوردوا اسمُهُ شاهداً على الحُسْنُ لا على اللغة الزمخشري (1075 - 1144م) فقد قال عنه: «وتقول، في خَطِّهِ خَطُّ لكل مُقلة، كأنَّهُ خط ابن مقلة»[4].

(1) معجم الأدباء 9/ 28.
(2) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب/ ص210 - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار نهضة مصر - القاهرة 1384هـ/ 1965م.
(3) ثمار القلوب/ 210.
(4) الزمخشري/ أساس البلاغة 2/ 395، مادة (م. ق. ل) منشورات دار الكتب المصرية - القاهرة - 1341هـ/ 1923م.

وهذا الإستشهاد البلاغي يُظهر مدى شيوع وسطوة خط ابن مقلة. حتى أنه إستهوى عقول الأدباء والشعراء وأقلامهم وافئدتهم وقوافيهم، وقد وصف إبن الرومي (836 - 896م) محاسن خط ابن مقلة وشمائله الشخصية معطياً الأهمية للقلم على السيف، من خلال شخصية إبن مقلة الإبداعية يقول إبن الرومي[1]:

إن يخدم السيف الذي خضعت لَهُ الرقاب ودانت خَوفهُ الأُمَمُ
فالموت، والموت لا شيء يعادله ما زال يتبع ما يجري به القَلَمُ
كذا قضى الله للأقلام مُذْ بُرئت أنَّ السيوفَ لها مُذْ أُرهفت خَدَمْ
وكل صاحب سيفٍ دائماً أبداً ما زال يتبع ما يجري بهِ القَلَمُ

وفي محاسن خط ابن مقلة صارت الأمثال تُضرب، وصار شخصُهُ يقارن بالأولين والتابعين واللاحقين، وتلك منزلة لم يبلغ شأوها غيره من الكتّاب، فقد قيل[2]:

فصاحةُ سحبانٍ وخَطُّ ابن مقلة وحكمة لقمان وزُهدَ إبن أدهمِ
إذا جُمعت في المرءِ والمرء مفلسٌ ونودي عليه لا يباع بدرهمِ

وعلى الصعيد الإجتماعي والثقافي، فإن شخصية الرجل لا تقل عن أقرانه في ذلك الوقت كوزير، فقد كانت لَهُ دوره وضياعه وبساتينه[3] فقد كانت فاكهتهُ لما ولي الوزارة بخمسائة دينار كل يوم جمعة، وكان يشرب غبوقاً بعد الجمعة ويصطبح يوم السبت[4]. وقد كانت مهنة الكتابة والخط أقرب إلى نفسهِ لحظة الهدوء وممارسة حياته الإجتماعية داخل البيت، فقد روى عنه إبن الجوزي، أنَّهُ كان يوماً على المائدة، فلما غسل يَدَهُ رأى على ثوبهِ نقطةً صفراء من الحلوى، فأخذ القلم وسَوَّدها وقال: تلك عيب وهذا أثرُ صناعة، وأنشد[5]:

إنّما الزعفرانُ عطر العذارى ومداد الدواة عُطرَ الرجالِ

تُظهر المصادر العربية - الإسلامية، التي ترجمت لإبن مقلة أن روح الترفع والتعالي كانت بادية عليه، وأدبه وعباراته تؤكّد ذلك، فقد قال عنه إبن خلكان: «ولإبن مقلة ألفاظ

(1) إبن خلكان/ وفيات الأعيان/ 5/ 117.
(2) أورد الأستاذ بهجت الأثري، بعض التعليقات الهامة على هذا البيت - راجع ذلك في كتاب «الخطاط البغدادي »/ ص 76.
(3) إبن الجوزي/ المنتظم 6/ 310. وسير أعلام النبلاء 15/ 228.
(4) صلاح الدين الصفدي/ الوافي بالوفيات 4/ 110 - 111 تحقيق س ديدرينغ - دمشق 1959م.
(5) المنتظم 6/ 310.

منقولة مستعملة، فمن ذلك قوله: إذا أحببت تهالكت، وإذا أبغضت أهلكت، وإذا رضيت أرْثت، وإذا غضبت أثرّت» ومن كلامه: «يعجبني من يقول الشعر تأدُّباً لا تكسباً، ويتعاطى الغناء تطرباً لا تَطَلُّباً، ولهُ كل معنىً لميح والنظم والنثر[1] ومفاخرته بنفسِهِ تظهر في الشعر أكثر منها في النثر، فمن ذلك ما نقله الثعالبي[2]:

«لستُ ذا ذِلّةٍ إذا عَضَّني الد ... هر ولا شامخاً إذا واتاني
أنا نارُ في مرتقى نفس الحا ... سدِ ماءُ جارٍ مع الإخوان»

ولَهُ أبيات أخرى يقول فيها[3]:

«جَرّبني الدهرُ على صرفهِ ... فلم أخبر عند التصاريفِ
ألفتُ يوميهِ وبا ربُمّا ... يُؤلفُ شيء غير مألوفِ»

ولهُ أيضاً:

«وإذا رأيت فتىً بأعلى رتبةٍ ... في شامخٍ من عزّهِ المترفّعِ
قالت لي النفس العروف بفضلها ... ما كان أولاني بهذا الموضعِ»

وكانت روح العصر تغريه بالتغزّل والصبابة، ولَهُ أبيات في ذلك يقول فيها[4]:

«أدلّ فيها حبذا من مُدلٍ ... ومن ظالمٍ لدمي مستحلٌ
إذا ما تعزّزَ قابلتُهُ ... بذلّ وذلكَ جُهد المُقلّ

ولَهُ أيضاً في الغَزل:

«أنتَ يا ذا الخال في الـ ... وجنةِ مِمّا بي خالي
لا تبالي بي ولا تخـ ... طرني منكَ ببالي
لا ولا تفكّرُ في حا ... لي وقد تعرفَ حالي
أنا في الناسِ إما ... ميٌ وفي حُبّك غالي[5]

(1) وفيات الأعيان 5/ 117.

(2) يتيمة الدهر 3/ 100 - 101 وابن الطقطقي ص 200 - 201، وراجع تعليقات/بهجت الأثري على كتاب/ الخطاط البغدادي/ ص 64.

(3) المصادر السابقة، وراجع أيضاً إبن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب 2/ 310. طبعة دار المسيرة - ط2 - بيروت 1399هـ/ 1979م.

(4) يتيمة الدهر 3/ 101.

(5) البيت الأخير يشير بمعناه إلى وجود الفِرق الإسلامية وظهورها.

ومن غَزَلِهِ الجميل، ما نقله إبن أيبك الصفدي في (الوافي)[1]:

«أحببتُ شكوى العين من أجلها   لأنها تستر وجدي بها
كنت إذا أرسلتُ دمعةً   قال أُناسٌ ذاكَ من حُبِّها
فصرت أبكي الآن مسترسلاً   أحيلُ بالدمع على سكبها»

وكان إبن مُقلة يكاتب أصدقاءه وولده في حبسهِ، متشفعاً ساعة وساعة معاتباً، وأخرى حانّاً لولدٍ أو لدار، مازجاً القسوة بالعاطفة والصبرِ بالخضوع والذُّلّة بالمكابرة، والألم بالتجلّد والنقمة بالثأر والحيرة بالصفنة والسياسة بتقلّب الأمور، وهو ما يظهر بترسُّلهِ وخطابه، قال محمد بن إسماعيل الكاتب: لما نكبَ إبن الفرات أبا علي بن مُقلة، لم أدخل عليه في حبسهِ ولا كاتبتَهُ خوفاً من إبن الفرات، فلما طال أمرهُ كتبَ إليَّ يقول[2]:

تُرى حُرّمت كتب الأخلاّء بينهُمَ   أبن لي، أم القرطاس أصبح غاليا
فما كان لو ساءلتنا كيف حالنا   وقد دهتنا نكبة هي ما هيا
فهمُكَ عدّوي لا صديقي فربّما   تكاد الأعادي يرحمون الأعاديا

وأنفذ في طي الورقة، ورقةً إلى الوزير/إبن الفرات/ يقول فيها:

«أمسكت - أطال الله بقاء الوزير - عن الشكوى، حتى تناهت البلوى في النفس والمال والجسمِ والحال، إلى ما فيه شفاء للمنتقم وتقويم للمجترم، حتى أفضيت إلى الحيرة والتبلُّد، وعيالي إلى الهتكةِ والتشرّد، وما أبداه الوزير - أيّدهُ الله - في أمري إلاّ بحق وواجب، وظنٍّ غير كاذب، وعلى كل حال، فليَ ذُمام وحرمة وصحبة وخدمة، وإن كانت الإساءة أضاعتها فرعاية الوزير - أيّدهُ الله تعالى بحفظهِ - ولا مُفزع إلى الله بلُطفِهِ، وكنف الوزير وعطفه، فإن رأى - أطال الله بقاه - أن يلحظ عبَدهُ بعين رأفته، وينعم بإحياء مهجته، وتخليصها من العذاب الشديد والجُهد الجهيد، ويجعل لَهُ من معروفهِ نصيباً ومن البلوى فرجاً قريباً».

وعندما قطعت يَدِهِ في زمن الراضي بالله، كان الطبيب أبو الحسن ثابت ابن سنان بن ثابت بن قرة (836 - 901م) يُعودَهُ في سجنه ويُعالجهُ، قال هذا الطبيب[3]:

«أمرني الراضي بالله بالدخول إلى ابن مُقلة آخرَ اليوم الذي قطعت فيه يده، فدخلت إليه وعالجته، وسألني عن خبر إبنه أبي الحسين، فعرَّفته خبر سلامته، فسكن إلى ذلك غاية

(1) الوافي بالوفيات 4/ 111.
(2) النجوم الزاهرة 3/ 268 - 269؛ والفخري/ ص 200.
(3) الثعالبي/ ثمار القلوب/ ص 210؛ وابن خلكان 5/ 115.

السكون، ثم نامَ على نفسهِ وبكى على يدهِ وقال: يدٌ خدمتُ بها الخلافة ثلاث دفعات، وكتبتُ بها القرآن دُفعتين، تقطع كما تقطع أيدي اللصوص، أتذكر وأنت تقول لي:

إنَّكَ في آخر نكبة والفرجُ قريب؟ قلت: بلى، قال: فقد ترى ما حَلَّ بي فقلت: ما بقي بعد هذا شيء، والآن ينبغي أن تتوقّع الفرج، فإنَّهُ عُمِلَ بك ما لم يُعمل بنظيرك وهذا إنتهاء المكروه، ولا يكون بعد الإنتهاء إلاّ الإنحطاط. فقال: لا تغفل، إن المحنة قد تشبّثت بي تشبُّثاً تنقلني بهِ من حالٍ إلى حال حتى تؤديني إلى التَلَف، كما تشبَّثت حُمّى الدِّق بالأعضاء فلا تفارق صاحبها حتى تؤديه إلى الموت ثم تمثَّل بيت أبي يعقوب الخريمي:

إذا ما ماتَ بعضُكَ فابكِ بعضا ... فبعضُ الشيء من بعضٍ قريبُ

ومن سجنه كتب لإبنهِ (أبي الحسين) وقد مرض، فقال[1]:

«لقاك رَبُّكَ صحبة وسلامة ... ووقَّاكَ بي من طارقِ الأهواءِ
ذكرتَ شكاتُكَ لي وكأسي في يدي ... فمزجتها دمعي مكانَ الماءِ»

وعندما توفي إبن مُقلة في سجنهِ عام 328هـ، وقد بلغ الستين من العُمر قال أحدهم يرثيه بهذه الأبيات[2]:

«إستشعرَ الكتّاب فقدُكَ سالفاً ... وقضت بصحّةِ ذلك الأيامُ
فلذاكَ سَوّدت الدَويُّ كآبةً ... أسفاً عليكَ وشُقَّتِ الأقلامُ»

ومن الآثار الهامة التي ذكرتها المصادر القديمة والحديثة أن إبن مقلة تولّى كتابة **الهُدنة** بين المسلمين والروم بخط يده، ولم تورد تلك نص الوثيقة، فقد أشار **الثعالبي**[3] إلى أن إبن مُقلة «كتب كتاب هدنة بين المسلمين والروم بخطِهِ، فهو إلى اليوم عند الروم في كنيسة قسطنطينية. يبرزونهُ في الأعياد ويعلّقونَهُ في أخص بيوت العبادات، ويعجبون من فرطِ حُسنَه، وكونه غاية في فنّه». وقد عَلّقَ كل من د. **سهيل أنور ومحمد بَهجت الأثري** على هذه الملاحظة بما يلي: «وورد في الجزء الأول من خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أن إبن مقلة هو الذي تولّى كتابة معاهدة الصلح بين المسلمين والروم «الأناضوليين» وقد بقيت هذه المعاهدة بأيديهم حتى زمن الفتح، كما شاركتهم الباحثة

---

(1) الفخري/ ص 200.

(2) الوافي بالوفيّات للصفدي 4/ 111. وهذه الأبيات قيلت في (إبن البّواب) ولا أعرف كيف نقلها إبن أيبك الصفدي، وسهى عنها المحقّقون؟؟

(3) ثمار القلوب/ ص 210.

سُهيلة الجبُوري ذلك، ولم يُورد هؤلاء نص الوثيقة، ولا أشاروا إلى الصفحة التي ذكرت فيها المعاهدة في كتاب (خلاصة الأثر)[1].

ومن المؤسف حقاً لم ترد صورة هذه الوثيقة «المعاهدة» لهذا العبقري الكبير، وأنّه حرّى بكل مجامع اللغة العربية ووزارات الثقافة العربية، السعي الجاد للحصول على هذه الوثيقة، وتصويرها - كحدٍّ أدنى - لأنها وثيقة فنية هامة لخطاط عربي مسلم، رفع شأن القلم العربي كثيراً في زمنه.

الفصل الخامس

تلاميذ إبن مُقلة

عندما قلنا - في بداية هذا الباب - أن هذه المدرسة أسَّست لرؤية جمالية في الخط العربي، بمعنى وُضعت «شرائط» لمنهجة هذه الرؤية بغية السير والإهتداء على قواعد وأصول في أسِسْ المهنة، ونظراً لكون البُعد الجمالي هو البؤرة التي تقتضيها طاقة الفنان بكل أحاسيسَهُ للتعبير بها فنياً في مجال رسم الحرف العربي، أي أن التشكيلة الخطيّة، كما يقول خطّاط معاصر[2]: يجب أن تكون حيوية وحركية، كما لو كانت بعض الحروف تريد الإنفلات والتحرّر، بينما تمسك بها الأخرى وتمنعها، لا سيما بعد أن تحرّر «القلم» من نير الكتابة الروتينية في أروقة سوق الورّاقين، وأصبحت «التشكيلة» في رسم الحروف تفرض «ديناميكية معيّنة»، تخرج إطار رؤية المتلقي إلى الحرف العربي من إطار النظرة الرتيبة إلى عموم الأشياء المألوفة، إذ التشكيلة الفنية الجديدة للقلم العربي تفرض إنعاش نفس المشاهد وتنشّط بصيرته للنظر إلى الجمال، وتسحبُه إلى التعمّق والتخيّل في أسرار هذه التشكيلة الساحرة للقلم العربي.

ومدرسة إبن مقلة لم تكتفِ بتطبيق تلك القواعد على رسم الحروف العربية، بل راحت تراقب خطوط بعضها البعض/ من جانبٍ أكاديمي - إبداعي/ فراح التلاميذ يمارسون الخط

(1) أنظر الخطاط البغدادي/ ص 15، وتعليقات الأثري فيه/ ص 57، وسهيلة الجبوري/ الخط العربي وتطوره/ ص 73.

(2) الخطاط حسن المسعود: تجربة الخط تجربة الحياة - مقال سلام مُراد - جريدة الإسبوع الأدبي/ دمشق/ العدد 1030 في (11/ 11/ 2006م).

تحت أعين الأساتذة المبرّزين، منكبين على الممارسة والتعليم، ومسك القلم وفق الأصول المعمُول بها، والسير على منهاج أساطين القلم، إسلوباً واقتضاءً وتطويراً، حسب القدرة الذاتية لكل تلميذ، لذلك بَرَزَ في هذه المدرسة أعلاماً أصبحوا أساتذةً فيما بعد، لا سيما إبن البَوّاب وياقوت المستعصمي[1].

والجميل في هذه المدرسة أن روّادها الأوائل وطبقات تلاميذها، وفق مختلف العصور، لم يتعصّبوا إلى منهج مُحدّد أو على طريقة معييّنة، بل تركوا باب الإجتهاد مفتوحاً، مع المحافظة على الأصول، والوفاء لمرشديهم الأوائل، سائرين على خُطاهم بأمان ووثوق، حتى كان التلاميذ يعرضون «بضاعتهم» على الأساتذة والأخذ بملاحظاتهم والتي كانت تُسدى إليهم عن طيب خاطر وامتنان ومسؤولية، حيث وضع هؤلاء الأساتذة أوّليات لتلاميذهم للتعلم منذ الخطوة الأولى لرسم الحرف صحيحاً، وتحت إشرافهم، ضمن شعار: «مَنْ شَبَّ على شيء شابَ عليه» معتمدين على وعي الخطاط ذاته، وتفهمهِ للبُعد الجمالي في رسم الحرف، ضمن عملية الكتابة، واستخدام أدوات الكتابة (كالأقلام والدَوي والمحابر) وغيرها.

وهذه العملية أطلقوا عليها إسم «الإستمداد» والتي يعتبرونها «أصل عظيم من أصُول الكتابة».

يقول المقري العلائي بن فضل الله: «مَنْ لم يحسن الإستمداد وبري القلم فليس من الكتابة في شيء»[2].

ثم يشرح ذلك بالقول: «ومذهب الإستمداد يكون حسناً إذا كان الكاتب قد وضع يَدَهُ في صورة سليمة، وفق ما رُسم لَهُ من شرائط، ويحرّك رأس القلم من باطن يده إلى خارجها، فإنه بذلك يمكّن معَهُ مقام القلم على نصبه من الأصابع» ومتى عُدّل عن هذه لمقتهِ المشقّة في نقل نصبة الأصابع في كل مُدّة، وعلى هذا الوجه يكون مداد جودة الخط. «وقلّما يُدرَكُ هذا الفضل، كما يقول إبن العفيف[3] إلاّ العالم الحاذق بهندسة الخط، مع ما يكون مَعهُ من الأناة وحُسنِ التأدية» وعلى ما يبدو أن الكُتّاب الأوائل، قد انتبهوا إلى أهمية القَصَبَة في جودة الخط، فسعوا إلى تشذيبها وقطّها، ومدارات مسنّاتها عند الكتابة. وقد لعبت مهنة الوراقة دوراً عظيماً في العملية الإبداعية - الفنيّة، نظراً لكثرة الطلب على نسخ

(1) سوف نترجم لهؤلاء الأعلام في الفصول القادمة.
(2) صبح الأعشى 3/ 42.
(3) المصدر السابق 3/ 49.

الكتب، وصار من الواجب على الورّاق والخطّاط أن يعرف هذه الأصول في الكتابة وتشذيب القلم، وقد كان لمدرسة إبن مُقلة قصب السِبقِ أيضاً في وضع قواعد لبري القلم واستخداماته المختلفة على كافة الوجوه، حتى أن تلاميذ إبن مقلة كانوا شديدي الأناة في غَمْسِ رأس القلم في المداد وعدم انتقال الليقة[1] من مكانها، وعدم العَثْرِ بالقَلَم، لأنه عَيب عند الكاتب. كما اشترطوا أن لا يرد الكاتب القلم إلى الليقة حتى يستوعب ما فيه من المداد، ولا يدخل منهُ الدواة كثيراً، بل إلى حَدِّ شَقِّهِ، ولا يجاوز ذلك إلى آخر الفتحة، ليأمن تسويد أنامِلِهِ، لأن ذلك من خِصال الكُتّاب. كما اشترطوا على الكاتب والخطاط، معرفة كل جوانب الأقلام وسُنَنِها، وعرضها، ووجوهها، وصدورها، ومعرفة كل واحد منها، ليعطي كل وجهٍ حَقَّهُ في الموضع الذي يقتضيه الحال. وقالوا في ذلك:

«أنَّ كل خط منتصب الشكل، كالألف ونحوه، يجب في كتابته الأعتماد على سِنّي القلم جميعاً، وكل خط أخذ من اليمين إلى اليسار، يجب إمالة القلم فيه إلى اليسار شيئاً، وكل خط أخذ من اليسار إلى اليمين يجب إمالة القلم فيه إلى اليمين شيئاً يسيراً، وكل نقطة يعتمد فيها بسنّيه جميعاً، وكل شظية فإنها تختلس بسنِّهِ اليمنى اختلاساً»[2].

وقد أعطى إبن مقلة أهمية للكيفيّة التي يُمسكُ القلم فيها عند الكتابة ووضعِهِ على الورق فقال: «يجب أن تكون أطراف الأصابع الثلاث، الوسطى والسبابة والإبهام، على القلم» وقد شرح تلميذِهِ عماد الدين بن العفيف ذلك بالقول: «تكون الأصابع مبسوطة غير مقبوضة، لأن بسط الأصابع يتمكّن معها الكاتب من إدارة القلم، ولا يُتكىء على القلم الإتكاء الشديد المُضعِفِ له، ولا يُمسكهُ الإمساك الضعيف فيضعف اقتداره في الخط، ولكن يجعل اعتمادهِ في ذلك معتدلاً»[3].

وإلى هذه القاعدة الفنيّة في مسك القلم أشار أبو تمّام بقوله[4]:

---

(1) الليقة: هي ليقة الدواة، وهي ما اجتمع في قُبّتها من سوادها بمائها، اللسان. مادة (ليق).
والليقة: كما هو معروف عنها الآن - هي قطعة صغيرة من الحرير يوضع عليها القلم، كي تَغُبَّ منه ما زاد من المراد «الحبر». قال صاحب (متن اللغة) - لاق - ليقا وليقة = الدواة جعل لها ليقة، أو أصلح مدادها، يقال: «لاقت الدواة - (إذا لزق مدادها بصوفها فهي مليقة، وملوقة ولائق». أنظر - الشيخ أحمد رضا/متن اللغة/ مادة (لوق). منشورات مكتبة الحياة 5/ 229 - بيروت 1380هـ/ 1960م.

(2) صبح الأعشى 3/ 49.

(3) المصدر السابق 3/ 41.

(4) انظر ديوانه 3/ 124 بشرح الخطيب التبريزي - تحقيق محمد عبده عزام - منشورات دار المعارف بمصر - بدون تاريخ.

«إذا استغزرَ الذهنُ الذكيُّ وأقبلت أعاليه في القرطاس وهي أسافلُ
وقد رفدتهُ الخنصران وشرّدَت ثلاثُ نواحيه الثلاثُ الأناملُ»

وقد ربط إبن مُقلة جودة الخط بحسُنِ إمساك القلم، وبذلك يقول:

«يجب إمساك القلم فُويق الفتحة بمقدار عرض شُعيرتين أو ثلاث، وتكون أطراف الأصابع متساوية حول القلم، لا تنفصل إحداهن عن الأخرى»[1].

وعلى صعيد الممارسة، كان طُلاّب إبن مُقلة يُصحّح بعضهم لبعض، ويأخذون بالنصائح وهم في وضع الكتابة. يقول إبراهيم بن حيلة وهو كاتب وأديب وخطّاط: زارني عبد الحميد الكاتب (ت 750م) صاحب الطريقة المعروفة في التَرسُّل، وأنا أخُطُّ خطّاً رديّاً. فقال لي: «أتُحِبّ أن يجود خَطُّك؟ فقلت: نعم، قال: أطِلْ جلفة قلمك[2] وأسمنها، وحرّف قطّتك وأيمنها، ففعلت، فجاد خطي»[3]. إن هذه الإشارات الفنيّة والتوجيهات المعرفية، إستفادت منها كثيراً مدرسة إبن مقلة، ومنها انطلقت وطوَّرتها في وعي الممارسة الفني، حتى أن عامّة الكُتّاب كان يستقبحون رداءة الخط، ويعتبروهُ من الرذائل والتي يسعى الظُرفُ والظُرفاء البغداديين للتخلص منها، وهنا نلحظ إنتقال التأثير الفني لمدرسة إبن مُقلة على الوسط الإجتماعي والثقافي، بكافة طبقاته وشرائحة، بل أصبح من شمائل الظُرف، حتى غدا تجويد الخط سُنّةً سائدة بين الكُتّاب، يسعى الكل إلى التخلّقِ بها، وقد سُئِلَ بعض الكتّاب عن الخطّ، متى يستحق أن يوصف بالجودة. فقال: «إذا اعتدلت أقسامهُ، وطالت ألفُهُ ولامُه واستقامت سطورُهُ، وضاهى صعودَهُ حدوده، وتفتَّحت عيونه، ولَمْ تشبه راؤُهُ نونه، وأشرق قرطاسَهُ، وأظلمت أنفاسَهُ، ولم تختلف أجناسَهُ، واسرعَ إلى العيون تَصَوُّره، وإلى العقول ثمره، وقُدّرت فُصوله، واندمجت وصولَهُ، وتناسب رقيقَهُ وجليله، وخرجَ عن نمط الورّاقين، وبَعُدَ عن تَصَنُّع المُحدرين، وقام لكاتبهِ مقام النسبةِ والحُلية، وأنشدَ في ذلك أبو بكر الصولي[4]:

«إذا ما تَخَلَّلَ قرطاسهُ وساوَمَهُ القَلَمُ الأرقشُ
تضمَّنَ من خَطِّهِ حُلّةً كنقشِ الدنابلِ أنقشُ
حُروفٌ تعيدُ لعينِ الكليلِ نشاطاً ويقراها الأخفشُ»

---

(1) صُبح الأعشى 3/ 41 - 42.

(2) الجلفة: هي من القلم من مبراه إلى رأسه، وهي مكان البري من القلم.

(3) الجهشياري/ الوزراء والكُتّاب/ ص 82.

(4) الصولي/ أدب الكُتّاب/ ص 50.

بَلْ أن جودة الخط، دخلت في لُبِّ الأدَب، وراحت تُغازل مُخيّلات الشعراء، فانعكست في أدبهم وغزلهم ومجونهم وخمريّاتهم، حتى أن المَرأة البَغداديّة أخذت تدرك ذلك وتعيه، فكانت تعتني بخطّها، وتُنمّق حروفها، وتُعطّر دُرجها، وتُضمّن رسائلها الأشعار، ومن ذلك ما وَصَل إلى الشاعر العباسي «عَليِّ بن الجَهَم» فقال[1]:

«يا رقعةً جاءتكَ مثنيةً — كأنّها خدُّ على خدّ
نَبْذُ سَوادٍ في عذاركما — ذرَّ فتيت المسك في الوردِ
ساهمت الأسطرِ مصروفة — من مُلَحِ الهزلِ إلى الجَدّ
يا كاتباً أسلمني عَتْبُهُ — إليهِ حسبي مُنهُ ما عندي»

والأزيدُ من ذلك أن المرأة البغدادية - وقتنذاك - إستطاعت أن تُباري الرجُلَ في مهنة الوراقة والكتابة وحُسنَ الخط، فعَمَدت إلى تجويد خطِّها، وراحت تلتزم بقواعد وأصول الكتابة، ومن المنصف القول أن هذه الحالة عند المرأة لم تُشكل ظاهرة، بل ظلت حالة فرديّة، اقتصر شيوعها على المبرزات منهنَّ، واللاتي كُنَّ من ذوات النباهةِ والفِطَنْ، وكانت هذه الحالة بالجواري أكثر منها بالحرائر، ومن ذلك بروز إحدى الجواري في هذا الميدان، أي في الكتابة وحسن الخط، حتى أعجب بها الوزير أحمد بن صالح وراح يصف حُسُنَ خطّها ويقارنها بحُسنِ صورتها فقال: «كأنَّ خطّها أشكال صورتها، وكأنَّ مدادها سواد شعرها، وكأنَّ قرطاسها أديم وجهها، وكأن قلمها بعض أناملها، وكأن بياضها سحرُ مقلتيها، وكأن سكّينها غنج لحمها، وكأنَّ مقطّها قلبُ عاشقها»[2].

كما أن رداءة الخط أصبحت عِلّة يُرجى الكثير الشفاء منها، لأنها، على ما يبدو، أصبحت شُبه مَثْلَمة سلبية في شخصية الإنسان، بشكل عام، فما بالك إذا ظهرت عند الكاتب أو الأديب، فهذا علي بن محمد العلوي، من وجوه القوم، يُعاني هذه الحالة، ويرجو من الله أن يخلِّصَهُ منها، فيقول[3]:

«أشكو إلى الله خطّاً لا يبلغني — خط البليغ ولا خَطَّ المرجيّنا
إذا هَمَمْتُ بأمرٍ لي أُزخرفه — سَدّت سماجَتهُ عنهُ التحاسينا»

لقد أصبحت مدرسة إبن مُقلة، عامل دفع إيجابي في الحياة الثقافية والإجتماعية، حيث أنها غَدَت «باباً للشفاعة» أحياناً، نظراً ما لجمالِ الخط من وقعٍ على النفس، بعكس

(1) الصولي/أدب الكتّاب/ص 51.
(2) إبن الطقطقي/الفخري في الآداب السلطانية/ص 188 نشرة محمد توفيق الكتبي.
(3) الصولي/أدب الكتّاب/ص 52.

رداءة الخط، وفي هذا السياق ينقل الصولي، حادثةً طريفة يقول فيها: «حدّثني طلحة بن عبد الله قال: اعتذر رجل إلى محمد بن عبد الله بن طاهر من شيء بَلَغُه عنه، فرأى خَطَّهُ قبيحاً، فوقَّعَ في رقعته: «أردنا قبول عذرك فاقتطعنا عنه ما قابلنا من قبيح خطّك، ولو كنت صادقاً في اعتذارك لساعدتك حركة يدك، أو ما علمت أن حُسن الخط يناضل عن صاحبه بوضوح الحجّة، ويمكن له درك البغية»[1].

هذه الحادثة، الآنفة الذكر، تُشير إلى التأثير النفسي في القبول والرضا من عدمه، لأداة جمالية هامة، حُسن الخط، يتعامل بها في كافة مناحي الحياة في ذلك العصر، لذلك انطلقت توصيات كبار الكتّاب والأدباء في ذلك العصر بغية رفع المنزلة الجمالية في الخط عند مَنْ هم عندهم في دواوين الدولة، ومن ذلك ما أوصى به إبراهيم بن العبّاس الصولي لغُلام كان يكتبُ عنده، وشكّلت هذه التوصية شبه قاعدة تلزم الكتّاب رديئي الخط، نحو تجويده، يقول الصولي: «ليكن قَلَمَكَ صلباً بين الدقّةِ والغلظ، ولا تبرهِ عند عقدة. ولا تجعلنّ في إنبوبةٍ إنبوبة، ولا تكتبنّ بقلم ملتوٍ، ولا ذي شقٍّ غير مستوٍ، واختر من الأقلام ما يُضرب إلى السُمرة، وأحِد سكّينك ولا تستعملها لغير قلمك، وتعهدهُ بالإصلاح يصلح، وليكن مقطّك صلباً ليمضي الخط مستوياً لا مستطيلاً، وابري قلمك بين التحريف والإستواء، وإذا كتبتَ الدقيق فأمِلْ قلمك إلى إقامة الحروف لإشباع الخط. وإذا جلَلْتَ فإلى التحريف، وأعلم أن تبطين القلم شؤم، وتحريفه حرف، وهما دمَار الخط، واعلم أن وزن الخط مثل وزن القراءة، فأجود الخطّ أبينُهُ، كما أن أحمدُ القراءة أبينها»[2].

هنا نلاحظ مدى الشعور العالي عند الطبقة المثقفة بضرورة تحسين الخطوط عند موظفيهم أو بطاناتهم، وهذا الشعور كان عالياً في كل مرافق الدولة العباسية.

ومن حالة «الكتابة» في دواوين الدولة، إلى حالة الإبداع في خطوط أصحاب القلم، فبعد أن أثّرت مدرسة إبن مقلة على كامل حالة العصر الثقافية والإجتماعية والسياسيّة إلتفتت إلى تلاميذها، بوصفهم المشروع الحضاري الناهض في الثقافة العربية - الإسلامية، والذي يسعى لتثبيت ميزة دالة للحرف العربي، باعتباره سيف المقارعة للتباري مع الثقافات الأخرى وإليه أشار القرآن في أكثر من موضع. لذلك برزت حالة نقديّة في وعي أساطين الحرف، تتوجّب الأخذ بها من كافة التلاميذ، وهذه الحالة النقدية عُرفت بـ«حُسن التشكيل وحُسنِ الوضع» كمنهج نقدي - جمالي، يسير عليه الجميع ويرجعون إليه عند الإشكالات الفنيّة في نقد وتقويم الحرف.

---

(1) المصدر السابق/ ص 53.

(2) الصولي/ أدب الكتّاب/ ص 54.

وأول من وضع هذه القاعدة، هو عَميدُ هذه المدرسة عبد الله إبن مُقلة وعنهُ أخذ الآخرون، ليسَ في بغداد وحسب، بل بكافة الأمصار الإسلامية وأطراف الخلافة العباسيّة.

يقول إبن مُقلة في بداية هذه القاعدة النقدية لفن الخط العربي:

«تحتاج الحروف في تصحيح أشكالها إلى خمْسَة أشياء:

- **الأوّل - التوفية**: وهي أن يُوفى كل حرفٍ من الحروف حَظَّهُ من الخطوط التي يُركَّب منها، مُقَوّس ومنحنٍ ومُسطّح.

- **والثاني - الإتمام**: وهو أن يُعطى كل حرف قسمَتهُ من الأقدار التي يجب أن تكون عليها، من طُولٍ أو قِصرٍ أو دقّةٍ أو غلظ.

- **والثالث - الإكمال**: وهو أن يؤتى كل خَطٌ حَظَّهُ من الهيئات التي ينبغي أن يكون عليها من إنتصاب وانكباب واستلقاءٍ وتقويسٍ.

- **والرابع - الإشباع**: وهو أن يؤتى كل خَطٌ حَظَّهُ من صدر القلم حتى يتساوى بهِ، فلا يكون بعضُ أجزائهِ أدق من بعض، ولا أغلظ، إلاّ فيما يجب أن يكون كذلك من أجزاء بعض الحروف من الدقّة عن باقيه، مثل الألف والراء ونحوهما.

- **والخامس - الإرسال**: وهو أن يُرسل يَدَهُ بالقلم في كل شكلٍ يجري بسرعة من غير احتباس يُضرِّسهُ أو توَقُّفٍ يُرعِشهُ»[1].

أمّا الجانب الثاني - في هذه القاعدة النقدية للخط العربي، والتي اصطلحوا عليها إسم «حُسن الوضع» فإن إبن مُقلة يضع توصياته لتلاميذه، أن يسيروا عليها، كقاعدةأيضاً، لكنها تكاد تنحصر بكبار التلاميذ، والذين قطعوا شوطاً في الممارسة، وأصبحت لهم بصماتهم الخاصة في الإبداع، إذْ أنّهُ يُلزمهم بها إلزاماً.

وهذه القاعدة ترتكز على أربع أُوسِس، لا مناصَ من الإفلات منها:

الأول: ويسميه «الترصيف» وهو وصل كل حرف متصل إلى حرفٍ آخر.

الثاني: ويُسميه «التأليف» وهو جمع كل حرف غير متصل إلى غيره، على أفضل ما ينبغي ويُحسن.

الثالث: ويُسميه «التسطير» وهو إضافة الكلمة إلى الكلمة حتى تصير سطراً، منتظم الوضع كالمسطرة.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى 3/ 143.

الرابع: ويُسميه «التنصيل» وهو مواقع المدّات المُستحسنة من الحروف المُتَّصلة[1].

هذه القاعدة النقدية في الخط، أخذت تتطوّر فيما بعد على يد تلاميذ إبن مُقلة من خلال المُمارسة، لإضفاء جمالية أرقى على خطوطهم. فقد لوحِظَ عليهم الإهتمام بالمَدّ والعناية بِهِ في تشكيل الحروف والكلمات، بغية إبراز محاسن الحرف أكثر.

يقول صاحب «مَواد البيان» وهو من اللاّحقين في هذه المدرسة، «وهذه المدّات تُستعمل لأمرين: أحَّدهما: تحَسُّن الخط وتُفخِّمُهُ في مكان كما يحسن مدّ الصوت اللفظ ويُفخِّمُهُ في مكان.

والثاني: «إنها رُبما أُقعت ليتُمَّ السَطْرُ إذا فُضِلَ منه ما لا يتسع لحرفٍ آخر، لأن السطر ربما ضاق على كلمتين وفَضُلَ عن كلمة فتُمدُّ التي وقعت في آخر السطر، لتقع الأخرى في أول السطر الذي يليه»[2].

ثم طَوَّر تلاميذ إبن مُقلة هذا الإيقاع الفني في الخط العربي حيث انتقلوا من الكلمة ورسم الحرف إلى الأداة التي يكتبون بها، أي القلم والقصبة، وهي التي تنقل تفكيرهم المُجرّد إلى المحسوس وتستجيب إلى إيقاعهم النفسي، من خلال حركة اليد وتحكّم الأصابع في حركة الريشة - القصبة.

يقول المُدرّس بباب الطاق[3]: «قلتُ يوماً لإبن الخَلاّل الوَراق: يا هذا إذا حَرّفت القلم فلا تُثقل عليه يدك، وإذا قَوّمته فلا تخففها عَنه، وعيب خَطُّكَ مع حلاوتهِ أن شحمَة قلمك زائدة على الحاجة ولك فيه خطرفة[4] تَدُلُّ على قِلّة المبالاة فلا تفعل، فإن سطراً من التحسين أنفع لك وأنفق عليك من عشر ورقات في التشمير[5].

يقول أبو حيان التوحيدي: «سمعتُ إبن سورين الكاتب يقول: الناس يظنون إدمان المشق مجوّد للخط، فلم أجد هذا الحكم منتظماً بالصواب، نظراً إلى أثر الممارسة في الإستنتاج والمخالفة للقاعدة المتّبعة، من خَطّاطِ مُبدعها، ولا مُطمئناً إلى الحقّ ولا ملقىً بالقبول، لأن الإدمان للمشقّ موالاة للحركة مع تفاوت النِسَبْ، وذلك مجلبةٌ للشَعثِ، لأنه

(1) صبح الأعشى 3/ 144 - وانظر بقية الصفحات، حيث فيها تفصيلات هامة للخطاطين المبتدئين.
(2) صبح الأعشى 3/ 144.
(3) باب الطاق: هو أحد أبواب بغداد الرئيسية في العصر العباسي، وبالقرب منه كان «سوق الورّاقين».
(4) الخطرفة: مشتقة من خطرف، والخطروف = المستدير، وخطرفَ في مشيتهِ وتخطرف = توسع، جاء في حديث (موسى والخضر (ع) الإندلات والتخطرف من الإنقحام والتعكّف. وتخطرف الشيء، إذا جاوزه وتعداه - اللسان، مادة «خطرف».
(5) رسائل التوحيدي/ ص 46.

يصدر عن كلالة اليد، وربما أورثَ القلم طُغياناً، أو أحدثَ في الأداةِ عصياناً»[1].

لقد أنجبت مدرسة إبن مُقلة أجيالاً متلاحقة من الخطّاطين الذين ساروا على منوالهِ - نهجاً وإبداعاً، وقد إشتهر منهم ثلاثة كانوا الذروة في الإبداع، أوَّلهم: **محمد بن أسد بن علي بن سعيد**، وكنيتهُ **أبو الحسن الكاتب المقرئي**، عدّهُ **الخطيب البغدادي** في طبقة القُرّاء والمحدّثين في علم الحديث، وشاركهُ في ذلك **إبن الجوزي** والذي ذكرَ بأَنَّهُ توفي يوم الأحد لليلتين خلتا من المحرّم سنة 410هـ، ودفن في **مقبرة الشونيزي**[2].

ونقل الأستاذ محمد بهجت الأثري نصّاً عن صاحب رسالة «الخط المنسوب» أن ابن أسد كان يكتب الشعر بنسخٍ قريب من «المُحقّق» فأحكمهُ وحَرَّر (قلم الذهب) وأتقَنَهُ، ووشّى بُرد الحواشي وزيَّنَهُ، ثم برع في «الثلث» و«خَفيفَهُ» وأبدع في «الرقاع» و«الريحان» وتلطيفَهُ، وميّز المتن والمصاحف، وكتب بـ«الكوفي» فأسنى القرن السالف[3].

أمّا التلميذ الثاني فهو **محمد بن علي الشيرازي السِمِساني**، لُقِّب بالسمساني، لأنه كان يبيع السِمْسِمْ، وكان أديباً مشهوراً، ولَهُ باع في علم النحو، توفي سنة 415هـ، كما يقول صاحب «**تحفة الخطّاطين**»[4].

وقد تتلمذ على يد إبن مُقلة وأخذ هو ومحمد بن أسد الطريقة عن إبن مقلة، وهذان الخطّاطان كانا بمثابة حلقة الوصل الفنيّة التي استمرّت طوال الثلث الثاني والثالث من القرن الرابع الهجري، ووصلا إلى بداية (ق 5هـ). حيث أخذ عنهما الخطّاط البارز إبن البوّاب، أساليب قواعد خط إبن مقلة وطوَّرها، وهو موضوع الباب القادم من هذه الدراسة.

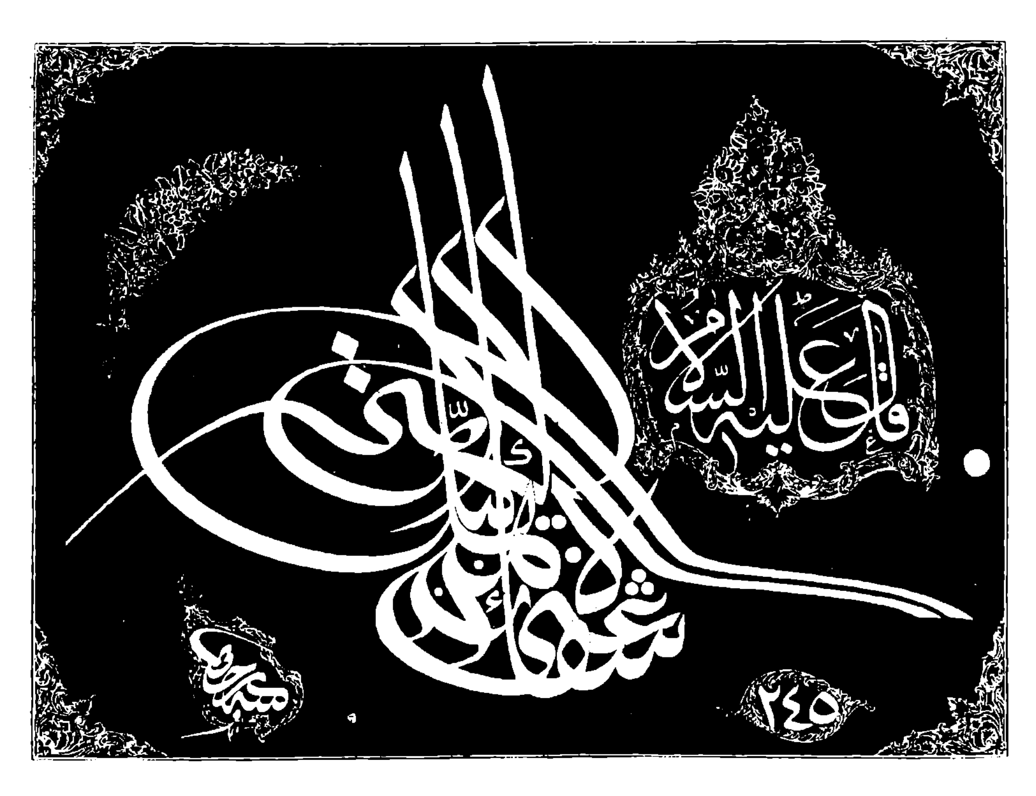
---

(1) رسائل التوحيدي/ ص 46.

(2) تاريخ بغداد 2/ 83 - الترجمة رقم 464 والمنتظم 7/ 396 والخطّاط البغدادي/التعليقات/ ص 19. وانظر كذلك: رسالة صغيرة، نشرها د. خليل محمود عساكر بمجلة معهد المخطوطات العربية 1/ 123 - 127 ولم يذكر فيها إسم مؤلفها.

(3) راجع رسالة د. خليل محمود عساكر، مجلة معهد المخطوطات 1/ 123 - 127 وكذلك راجع - الخطاط البغدادي - التعليقات - ص 48،/ وسهيلة الجبوري/ص 74.

(4) نقلاً عن «الخطاط البغدادي» - التعليقات ص 19.



شكل ـ ٢٦٤ ـ

حديث شريف بخط الطغراء، نصّه «شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي». بخط [illegible] حامد

المصدر: ناجي زين الدين ـ بدائع الخط العربي / ص١٧٣



شكل ـ ٣٠٠ ـ

لوحة متراكبة بخط "ثلث جلي" وفي أعلاها خط "كوفي" مزخرف. نصّها حديث نبوي يقول: "إنما بعثت مُعلماً" بريشة الخطاط المعاصر يوسف ذنون الموصلي
المصدر: ناجي زين الدين / بدائع الخط العربي / ص ١٩٢ .
٣٣٣



حلية السعادة بخطي الثلث والنسخ " من كتابة الخطاط التركي الحاج أحمد كامل - رئيس الخطاطين سنة ١٣٥٧ هـ "

المصدر: ناجي زين الدين / بدائع الخط العربي / ص ٤٢٧.

شكل ـ ٥٧٦ ـ

الباب الرابع

إستقرار قاعدة الخط العربي في بغداد

كما ألمحنا في - الباب السابق - إلى الكيفية الفنيّة وإرهاصاتُها في إيجاد قمة هرم للخط العربي تمثّلَت في إبن مُقلة، كقوة تعبيرية لهذا الفن الرفيع ذو المسحة الإسلامية، فإن محمولات الإبداع الفني تُملي قلقها المشروع في ذهن المُبدع لتطوير تلك الهواجس الفنيّة، بعد أن أشبع نظرهُ تملّياً في أشكالها ونماذجها. ونظراً لكون مطواعية الحرف العربي في التشكيل تعطي الفنّان القدرة على الخَلقِ والإبداع لتوليد أشكالاً أخرى، تحافظ على القاعدة (شكلاً ومضموناً) إلاّ أنها تسمح لممارسة الحِرفيّة في الشكل، وهذا يعني إيجاد القدرة على الإبداع في تطوير أشكال الحرف العربي، وهو الأمر الذي نَفْهَمُ منه تَعدّد أشكال الخطوط وتطورها تبعاً للحالة التاريخية، منظوراً إليها من زاوية الإقتصاد والإجتماع، مُعبّراً عنها ثقافياً في مختلف الفنون، لذلك نعثر، في مجال الخط العربي، على تعدّد هذه الأشكال ورسومها في كل مرحلة، والمخطوطات العربية، الإسلامية تقدّم لنا كل الدلائل.

ولغرض أن يعي الناس شكل الكتابة ورسومها، إسلوباً وفنّاً، فإن مدرسة بغداد قد قَعّدَت القاعدة وأصّلتِ الأصُول على يد عميدها إبن مُقلة، بعد أن وضع «قوانين رسم الحرف» من الناحية الإبداعية، وتجاوز - بهذه الفنيّة - النمطية السائدة في الكتابة عند الورّاقين والكُتّاب، الأمر الذي فرض مع إبن مُقلة تبدّل وظيفة القلم العربي، كما أشرنا سابقاً، وأصبح فنّاً يمارِسُهُ المُبْدِعون.

إذن إستقرار الخط أصبح واضحاً في زمن إبن مُقلة وما تلاه، إذ أن كامل القرن الرابع الهجري وبداية الخامس الهجري، تقُرُّ بالفضل لإبن مقلة، وبذا تكون قاعدة الخط العربي في الكتابة والإبداع، صار ينظر إليها وفق أُصول معرفية على أنها نمط ثقافي مستقل بشخصيته في مجال الكِتابة العربية، شقَّ طريقهُ بإبداع عن منهج الورّاقين في الكتابة والنسخ، وراح يُبرز طائفتَهُ من الكتّاب المُبدعين، وهنا يمكن تمييز شكل الزخرفة العربية التي دخلَ إليها الخط العربي ورفع من شأنها كثيراً، إذْ أصَلَّ شخصيتها الإسلامية وهوّيتها الثقافية، باعتبارها فنّاً قائماً بذاته هو الآخر، وهذا فضلُ للقلم العربي. بشكل عام، وفضلٌ متميّز لمدرسة بغداد في الخط العربي، بشكل خاص، وفرادة وعبقرية لإبن مُقلة بدون منازع.

الفصل الأول

إبن البواب - على هُدى إبن مُقلة

قُلنا، في الفصول السابقة من الباب الثالث، أن تلاميذ إبن مُقلة ساروا بهُدى سفينة الخط على شراع إبن مُقلة، من حيث أساسيّات الخط المنسوب وقياساته الفنيّة، وذكرنا أبرز هؤلاء التلاميذ، وكان الأبرز الأبرز فيهم هو: إبن البَوّاب.

ترجمته تقول: هو أبو الحسن علي بن هلال المعروف بإبن البَوّاب[1] صاحب الخط المليح والإذهاب الفائق. ينتهي نسبَهُ - بالولاء - إلى معاويّة بن أبي سفيان، مؤسّس الدولة الأموية في الشام (ت 60هـ/ 680م). يقول ياقوت الحموي عن إبن البوّاب: «وجدتُ بخط إبن الشبيه العَلوي الكاتب صاحب الخط الفائق، في آخر ديوان أبي الطمحان القيني بخطّهِ ما صورته: «وكتب في صُفر سنة عشرين وأربعمائة» من خط أبي الحسن علي بن هلال الستري[2] مولى معاوية بن أبي سفيان» ويضيف ياقوت: «أن هذا، يقصد إبن الشبيه، كان بغير شك معاصرهُ»[3].

وهنا أراد ياقوت توكيد صحّة الحادثة.

لم يذكر المؤرخون القُدماء ولا اللاّحقون تاريخ ولادته، واختلفوا في تاريخ وفاته، وهذا الإختلاف - بتقديرنا - ناشىء من أخذهم لأقدم رواية ترجمت لَهُ، وهي رواية ياقوت الحموي، والذي أشار إلى أنَّهُ مات - وفق ما يقول الصابيء، في جمادي الأولى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، ودفن بجوار قبر أحمد بن حنبل[4].

وقد أخذ بهذه الرواية كل من الذهبي وابن الجوزي وابن تغري بردي[5].

وسار على منوالهم، في تاريخ وفاته من المعاصرين، كل من: دائرة المعارف

---

(1) إبن الجوزي: المنتظم 8/ 10؛ ووفيات الأعيان 3/ 342؛ وسير أعلام النبلاء 17/ 315؛ ومعجم الأدباء 15/ 120.

(2) الستري: سُمّي به لأنه كان بوّاباً ملازماً للستر، إبن خلكان 3/ 342.

(3) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء/ 15/ 121.

(4) معجم الأدباء 15/ 121.

(5) راجع سير أعلام النبلاء 17/ 318؛ والمنتظم 8/ 10؛ والنجوم الزاهرة 4/ 257.

الإسلامية، وسهيلة الجبوري، ومحمد عبد العزيز، ومحمد بهجت الأثري[1]، فيما ذكر إبن خلكان أن وفاته وقعت في سنة 423هـ، وقيل 413هـ، والأول لديه راجح، وهو ما أيّده الزركلي وسُهيل أنور[2].

ونحنُ نرى أن وفاتِه وقعت في عام 423هـ، معتمدين على المصادر الثلاثة الأخيرة، وعلى نصّ ياقوت أعلاه، حيث يُشير إلى أثَرِ إبن البَوّاب في خَطِّهِ لعام 420هـ. إضافة إلى وجود أثرٍ آخر لهُ كان كَتَبَهُ عام 414هـ، مُذيّل بتوقيعَهُ في «نهاية رسالة للجاحظ» كان قد كتبها بيده وأشارت إليها مضانٍ عديدةً، حيث وردت العبارة التالية بخطهِ وهي:

«كَتَبَهُ علي بن هلال، حامداً الله تعالى على نُعَمِهِ، ومُصلّياً على نبيِّهِ محمد وآلِهِ وعترتِهِ ومسلما» وتحتها سنة 414[3].

وقد ورد ذكر هذا التوقيع في مخطوطةٍ بعنوان (رسالة في الكتابة المنسوبة)، لمؤلف مجهول قام بتحقيقها د. خليل محمود عساكر، ونشرها في مجلة معهد المخطوطات العربيّة - المجلّد الأول - الجزء الأول ص 126 - 127، طبعة القاهرة سنة 1374هـ/ 1955م، كما وُجد هذا التوقيع بمتحف تورك وإسلام أثرلي - بغداد - استانبول[4].

وهذا الإمضاء، أو الأثر، لا يقبلهُ الدكتور محمد بهجت الأثري، معتبراً ذلك «تجاوز الثابت المتحقّق من تاريخ وفاة إبن البَوّاب بسنة، فلا جُرم أن هذا المِثال ليس بخط إبن البَوّاب، وإن كان المكتوب إسمُهُ وكان الإسلوب إسلوبه، ويضيف: «والمَعقول أن كاتبَهُ هو تلميذ إبن البَوّاب، كتبَهُ على طريقتهِ، على سبيل المجاراة»[5].

ونحن نرى أن الحرف حرف إبن البَوّاب والإسلوب إسلوبه، كما أن الأثري لم يذكر إسم التلميذ الذي كتبه، ومع ذلك يبقى الأمر مطروح على أساطين الخط المعاصرين لأن يحسموا هذهِ المسألة.

في نشأة إبن البَوّاب الأولى، تُجمع كل المصادر التي ترجمت لَهُ أَنَّهُ كان «مُزوّقاً يصوّر الدور» ثم صَوّر الكتب، ثم تعاطى الكتابة ففاق بها المتقدمين، وأعجز المتأخرين،

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية 1/ 103؛ والخط العربي وتطوره ص 75؛ والعراق مهد الفن الإسلامي ص 42 والخطاط البغدادي - التعليقات - ص 21 - 22.

(2) وفيات الأعيان 3/ 343 - والخطاط البغدادي - ص 7؛ والأعلام 5/ 30 - 31.

(3) سوف نورد «هذا الإمضاء» لإبن البَوّاب في نهاية هذا الفصل.

(4) أنظر: ناجي زين الدين/ مصوّر الخط العربي/ ص 45، مطبوعات المجمع العلمي العراقي بغداد 1388هـ/ 1968م.

(5) أنظر: الخطاط البغدادي/ التعليقات/ ص 86.

وكانت طريقتهِ في التهذيب آيّة من الحُسنِ حيث كان يُذّهب إذهاباً فائقاً، كما يقول ياقوت[1]. بعبارة معاصرة أنَّهُ كان «مُخرج فنّي للكتب» وهنا نردُّ على الذين يعتبرون الخطّاطين «فئة منفصلة عن الورّاقين» وإبن البَوّاب شاهد حي، أنّه كان يُزوّق ويذهّب الكتب، وهذه المسألة تندرج في عمل الورّاقين.

نعود فنقول أن هذه المهنة (التزويق والتذهيب والتصوير) تُكسب صاحِبُها نظرة جمالية بعيدة، وتُرهف حِسَّهُ الفني، إذ أنَّ مزج الألوان وخلطها، ورسم النقوش وإعطائها أبعاداً هندسية، تجعل بديهيّات العمل الفني حاضرة بالذهن واليد سالكة على الدَربة.

وإذا صادف روحاً شفّافة، خَلَبَتها الطبيعة بجمالها وآسرتها بتجلياتها. وهذه المعكوسات تُخالط رؤية الفنان حالما يقع بَصَرَهُ عليها، فيمزجها بذهنهِ ويُركِّبها بخياله، ويخمِّرها بذاكرته، ووجدانه، وعندما تنضج يسقِطُها على أوراقه أو على قرطاسه، أو على البيوت أو على جلود الكتب، موعزاً إلى أناملهِ بالتحرك لتنفيذ الفكرة.

ويجب أن لا نَنْسَ أن حالة العصر الثقافية والسياسية لعبت دوراً في سقل المواهب. فالمبدع تؤثّر عليه الحالةِ سلباً وإيجاباً، فحيناً يشط، وحيناً يرتقي، حسب تفاعل حالته النفسية. فلقد عاش خَطّاطنا إبن البَوّاب لجَّة التناقضات، حيث شَهَدَ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والثلث الأول من القرن الخامس الهجري، فانتقلت بهِ مراتب الحياة من مهنة إلى أخرى. فمن نقاشة الدور وتذهيب الكتب إلى التعامل مع الحرف العربي، ذلك الحرف الذي كانت الآيديولوجيا الإسلامية تَعِدَّهُ الأساس في بناء منظومتها الفكرية، وقد تعامل إبن البَوّاب بالفقه وأمور الدين، فقد عُرِفَ عَنه أنه «كان يعظ بجامع المنصور»[2]، وهذا المدخل الديني في حياته قد تزاوج وإبداعَهُ الشخصي في الفَن، وأثّر في وجدانه فيما بعد[3]، وانتبه إبن البَوّاب لهذه الناحية، فوظّفَ جولاتها الآيديولوجية لخدمة إبداعهُ من جهة، وطَوَّر في جوانبها الفنيّة من جهة ثانية، لذلك عندما انتقل من الفن إلى الكتابة «فاق المتقدمين وأعجز المتأخرين» وهي عبارة جزلة أطلقها عليه المؤرخون، وهي تعني، أيضاً، أنَّهُ لا يُشقَّ له غبار، وهذه المسألة تجعَلهُ في تماحكٍ دائم مع صفوة المجتمع وأهل الزمان من الأدباء والكتّاب والساسة، وفي الوقت نفسهِ يُدنيهِ من أروقة قصر الخلافة ودواوين الوزارة، ويجعله ذا حظوةٍ عند الرؤساء والوزراء والأمراء وغيرهم.

فما أن وضع إبن البَوّاب يَدَهُ في مهنة الكتابة والتعاطي مع الحرف العربي، حتى بدأ

(1) معجم الأدباء 15/ 121؛ وسير أعلام النبلاء 17/ 316.
(2) معجم الأدباء 15/ 121.
(3) لقد خَطَّ إبن البَوّاب القرآن 64 مرّة وحَفَظَهُ حفظاً.

الإلهام الإبداعي يُطبقُ على فكرهِ من جميع الجهات، فدَرَسَ فنون وآثار مَنْ سبقوه في هذا المضمار، وتَعَلَّم فن الخط عن دراية وتَتَلْمُذ، فقد أخذ الخط عن شيوخِهِ المعاصرين لَهُ، وأوَّلهم: محمد بن أسد الكاتب، وكان هذا قد إنتهت إليه صناعة الخط وكمال حُسْنِ الإجادة فيه، كما يقول الذهبي(1). كما أخذ عن الشيخ محمد السمساني(2).

وقد استطاع إبن البَوّاب بذهِنِهِ الوقّاد أن يخطُوَ بخطِّ النَسْخِ نحو الكمال الفني خطواتٍ واسعة، إذ في عصره بدأ الإهتمام بتجاوز تعقيدات نِسَبِ الحروف بعضُها إلى بعض، وأصبح الجمال الفنّي هدف كل النُسّاخ، وبغية أن تكون هناك ميزةُ لإبن البَوّاب بين معاصريه من شيوخ الخط وتلاميذه، فقد إبتكَرَ نوعاً من الخط عرف «بالخط الريحاني» إمتاز بتداخل حروفه بأوضاع متناسبة لا سيما في الألف واللاّم، فإنهما كانا أشبه ما يكونان بعيدان الريحان ومن هنا جاءت هذه التسمية لهذا الخط(3).

الفصل الثاني

كيفَ تتلمذ على طريقة إبن مُقلة؟!

للمصادفة المباركة وقعٌ هام على ذهن المبدع، إذا كان متوحّداً مع إبداعه، فهي/ المصادفة/ قد تسمو بِهِ نحو مشارف السؤدد، وتحقّق لَهُ ما لم يتحقّق لغيره، شريطة أن يكون هذا المبدع قد أدرك وجوده الإنساني أولاً، وأهمية إبداعَهُ في هذا الوجود ثانياً، بحيث تصبح هذه الجدلية - بكامل أركانها - مكمِلّة لشخصية المبدع، فمَلَكة الموهبة الكامنة في الذات تسقلها المعرفة، وتشذّبها الدرِبة، وتزيدها التجربة، ويُشَذِّبها التنقيح، ويقّومها النقد، وتُسيّرها النصيحة.

وشيخنا إبن البَوّاب هذا من ذلك الصنف المبدع المدرك لوجوده، يتحدث هو عن نفسه/ عن هذه المصادفة/ التي أدّت به إلى السير في منهاج إبن مُقلة، كما ينقلها ياقوت الحموي(4).

(1) سير أعلام النبلاء 17/ 315؛ وإبن خلكان 3/ 342 - 343.
(2) أنظر: الخطّاط البغدادي/ التعليقات/ ص 19، وكذلك محمد طاهر الكردي، / تاريخ الخط العربي وآدبه/ ص 334 - 335، ط 1 - 1358هـ/ 1939م.
(3) د. مرزوق/ العراق مهد الفن الإسلامي/ ص 44.
(4) معجم الأدباء 15/ 122 - 124.

يقول إبن البَوّاب: «كنتُ أتصرّف في خزانة الكتب لبهاء الدولة إبن عضد الدولة (ت 1200م) بشيرازعلى اختياري، وأُراعيها لَهُ، وأمرها مردودٌ إليّ، فرأيت يوماً في جُملة أجزاء منبوذة جُزءاً مجلّداً بأسود، قدر السُكري[1] ففتحتَهُ، وإذا هو جزءٌ من ثلاثين جزءاً من القُرآن بخط أبي علي بن مقلة، فأعجبني وأفردّتهُ، فلم أزل أظفر بجزءٍ بعد جزء، مختلط في جملة الكتب، إلى أن اجتمع تسعة وعشرون جزءاً، وبقي جزء واحدٌ، استغرقت تفتيش الخزانة عليه مُدّة طويلة فلم أظفر بهِ، فعلمت أن المصحَفَ ناقصٌ، فأفردتَهُ ودخلت إلى بهاء الدولة وقلت: يا مولانا، هاهُنا رجلٌ يسأل حاجة قريبة لا كُلفة فيها، وهي مخاطبة أبي علي الموفّق الوزير على معونتهِ في منازعة بينَهُ وبين خصم له، ومعَهُ هديّة ظريفة تصلح لمولانا، قال: أيّ شيء هي؟ قلت: مصحف بخط أبي علي ابن مُقلة. فقال: هاتِهِ وأنا أتقدم بما يريد. فأحضرت الأجزاء، فأخذ منها واحداً وقال: أذكر وكان في الخزانة ما يشبه هذا، وقد ذهب عنّي. قلت: هذا مصحفُكَ، وقصصت عليه القصة في طلبتي له حتى جمعته، إلاّ أنه ينقص جزءاً، وقلت: هكذا يطرح مصحف بخط أبي علي؟ فقال لي: فتمّمهُ. فقلت: السمع والطاعة، ولكن على شريطة أنّكَ إذا أبصرت الجزء الناقص منها ولا تعرفُهُ تعطيني خلعة ومائة دينار. قال: أفعل. وأخذت المصحف من بين يديه وانصرفت إلى داري، ودخلت الخزانة أقلّب الكاغد العتيق وما يشابه كاغد المصحف، وكان فيها أنواع الكاغد السمرقندي والصيني والعتيق، كل ظريف مجيد، فأخذت من الكاغد ما وافقني، وكتبت الجزء، وذهَّبتَهُ، وعتَّقتُ ذهبه، وقلعت جلداً من الأجزاء فجلّدته بهِ، وجلّدت الذي قلعت منه الجلد وعتّقتُهُ، ونسى بهاء الدولة المصحف، ومضى على ذلك نحو السنة، فلما كان ذات يوم جرى ذكر أبي علي بن مُقلة، فقال لي: ما كتبت ذلك؟!

قلت: بلى، قال: فاعطنيه، قال: فأحضرت المصحف كاملاً، فلم يَزَل يُقلّبُهُ جزءاً جزءاً، وهو لا يتوقف على الجزء الذي بخطي، ثم قال لي: أيهما هو الجزء الذي بخطّك؟ قلت له: لا تعرفُهُ فيصغر في عينيك، هذا مصحف كامل بخط أبي علي بن مُقلة، ونكتِمُ سرَّنا. قال: أفعل، وتركتهُ في ربعةٍ عند رأسهِ، ولم يعدهُ إلى الخزانة، وأقمت مطالباً بالخلعةِ والدنانير، وهو يمطلني ويعدني، فلما كان يوماً قلت: يا مولانا في الخزانة بياض صيني وعتيق مقطوع وصحيح، فتعطيني المقطوع منه كُلّه دون الصحيح بالخلعة والدنانير، قال: مُرْ وخذهُ، فمضيت وأخذت جميع ما كان فيها من ذلك النوع، فكتبت فيه سنين».

هذه الحادثة، أبرزت أهمية إبن مُقلة كسيِّدٍ للقلم العربي، وشيوع طريقتهِ، والتهافت

(1) نوع من حجوم الورق والكتب.

على اقتناء خطّه والإحتفاظ بهِ، وَدَّلت على الدقّة المعرفيّة والحِرفيّة الفنيّة العالية في رسم الحرف من قبل إبن البَوّاب. وهو ما يشير إلى تمكُنِهِ المُطلق من طريقة إبن مُقلة، حِسّاً ورسماً. وهو ما أثبتَهُ إبن البَوّاب من أنَّهُ مبدعٌ بلا جدال، ومُكَمِّلٌ لمجال سابقيه، الذين اعترف لهم بالسِبقِ، وتلك فضيلة لا يقوم بها إلاّ الفُضلاء.

لقد أتْقَنَ إبن البَوّاب منهج أُستاذِهِ إبن مقلة، وسارَ عليه وطَوَّرَهُ وشذَّبهُ، بل وحفظَ طريقة أستاذِهِ وأطالَ في عُمرها، ومن ثُمَّ سيادَتِها بعدَهُ حتى (ق 7هـ)، حيث تَلَقَّفها ياقوت المُستعصمي، وأوصلها إلينا - نموذجاً وتراثاً - كمدرسةٍ إبداعيّة مُنفردة في مجال الخط العربي.

الفصل الثالث

طريقة إبن البَوّاب في الخط

توقف إبن خلدون في الفصل 23 من مُقدّمتهِ المعروفة[1] مع الكتابة والوراقة، مشيراً على أنّها «من أمَّهات الصنائع الشريفة بالموضع» وقد أفرد لها (الفصل 30) من مُقدّمتهِ للخط والكتابة[2]، وقد استعرض في هذا الفصل تطور الخط العربي من أيام الحميريين إلى زمانه القرن الثامن الهجري - الرابع عشرالميلادي/ حيث ولد إبن خلدون في 1332م وتوفي 1406م. وقد توقف عند المدرسة البغدادية في الخط واصفاً إيّاها بالقول: «وكانت دار الإسلام - بغداد - مركز الدولة العربية، وكان الخط البغدادي معروف الرسم»[3].

ثم اشار إلى إبن البَوّاب بقوله: «وللأستاذ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي الشهير بإبن البَوّاب قصيدة من البحر البسيط[4] على روي الراء يذكر فيها صناعة الخط وموادها، لينفع بها من يريد تعلُّم هذه الصناعة»[5].

وهذه الإشارة عن «القصيدة» سقطت من جميع الطبعات العربية التي نشرت «مقدمة

(1) مقدمة إبن خلدون/ ص 405 - منشورات دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ.
(2) المقدمة/ ص 417 - 421.
(3) المصدر السابق.
(4) والصواب هي من (البحر الكامل) كما يقول محمد بهجت الأثري، : أنظر: الخطّاط البغدادي/ ص 30 هامش رقم [1].
(5) مقدمة إبن خلدون/ ص 421.

ابن خلدون» باستثناء طبعة «كاترمير» الفرنسية التي أثبتت بقية فصل «الخط والكتابة» في نشرتها للمقدمة[1] ونظراً لأهمية هذه القصيدة في معرفة «تعلُّم فن الخط العربي»، سوف نُثبتها كاملة، للضرورة والإيضاح، تقول القصيدة[2]:

يا مَنْ يريدُ إجادة التحرير	ويروم حُسْنَ الخط والتصويرِ
إن كان عزمُكَ في الكتابة صادقاً	فارغب إلى مولاكَ في التيسيرِ
أعدد من الأقلام كُلَّ مثقفٍ	صلب يصوغ صناعة التحبيرِ
وإذا عمدتَ لبريهِ فتوخّهِ	عند القياس بأوسطِ التقديرِ
أُنظر إلى طرفيهِ فاجعل بريَهُ	من جانب التدقيق والتحفيرِ
واجعل لجُلفتِهِ قواماً عادلاً	يخلو عن التطويل والتقصيرِ
والشَقُّ وسِّطْهُ ليبقى بَريَهُ	من جانبيهِ مُشاكل التقديرِ
حتى إذا اتقنتَ ذلك كُلّهُ	إتقانَ طِبٍّ بالمواد خبيرِ
فاصرف لرأي القطّ عزمكَ كُلَّهُ	فالقَطُّ فيهِ جُملة التدبيرِ
لا تطمعَنَّ في أن أبوحَ بسرّهِ	إنّي أضُنُّ بسرّهِ المستورِ
لكن جملةَ ما أقول بأنَّهُ	ما بين تحريفٍ إلى تدويرِ
وأَلِقْ دواتَكَ بادخانٍ مُدبَّراً	بالخَلِّ أو بالحصرمِ المعصورِ
وأضف إليهِ مَغرَّةً صَوَّلت	مع أصفرِ الزرنيخ والكافورِ
حتى إذا خمُرت فاعمد إلى الـ	وَرقِ النقيِّ الناعِمِ المحبورِ
فماسِكْهُ بعد القطع بالمعصار كي	ينأى عن التشعيث والتغيّير
ثم اجعل التمثيل دأبك صابراً	ما أدركَ المأمول مثلَ صبورِ
ابدأ بهِ اللّوح منتضياً لَهُ	عزماً تجرِّدُهُ عن التشميرِ
لا تخجلنَ من الرديّ تخُطّهُ	في أول التمثيل والتسطيرِ
فالأمرُ يصعبُ ثم يرجعُ هَيِّناً	ولرُبَّ سَهلٍ جاءَ بعد عسيرِ
حتّى إذا أدركت ما أمَّلتهُ	أضحيتَ رَبَّ مسرّةٍ وحبورِ

(1) لقد أشار إلى هذا السقط من الطبعات العربية، الأستاذ محمد بهجت الأثري في «تعليقاته» على كتاب «الخطّاط البغدادي» ص 31.

(2) نقلاً عن محمد بهجت الأثري، بتعليقاته على كتاب/ الخطاط البغدادي/ ص 30 - 31. كما أن الأستاذ - محمد طاهر الكردي - أثبت نص القصيدة بكتابه/ تاريخ الخط العربي وآدابه/ ص 428 - 429.

فـاشـكـر إلـهَـكَ واتَّـبـع رضـوانَـهُ … إن الإلَـهَ يـجـيـبُ كُـلَّ شـكـورِ
أرغِـبْ لـكـفِّـكَ أن تـخُـطَّ بـنـانُـهـا … خـيـراً تـخـلِّـفَـهُ بـدارِ غـرورِ
فـجـمـيـع فـعـل الـمـرء يـلـقـاهُ غـداً … عـنـد الـتـقـاء كـتـابـهِ الـمـنـشـورِ

ومن المؤسف أن شروح هذه القصيدة التعليمية لفن الخط لَمْ يعثرُ عليها، سوى أنَّهُ وردت إشارات في «كشف الظنون»[1] إلى شرحٍ للشيخ بُرهان الدين بن عمر الجعبري، المتوفى سنة 732هـ، والإشارة الثانية وردت في «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون»[2] حول شرح لتلك القصيدة، لشرف الدين محمد بن شريف بن يوسف الكاتب المعروف بابن الوحيد المتوفى سنة 711هـ، ولم يوجد أيَّ شرحٍ لها لحد الآن، كما يقول الأثري[3].

وهذا يعني أنّه قد فات الكثير من الخطّاطين معرفة منهج وإسلوب إبن البوّاب من الناحية الفنيّة، حيث هناك - في القصيدة - وردت إشارات فنيّة تستوجب الشرح والتفصيل، من خلال الممارسة، بمعنى أنّه كان يتوجب على تلاميذ إبن البَوّاب التصدّي لهذه المهمّة الإبداعية بحكم الإختصاص، لأننا رأينا أن المؤرخين وحدَهم هم الذين أشاروا إليها، دون معرفتهم باسرار حرفة القلم. وكنّا نتوقع من إبن خلدون أو القلقشندي أو ياقوت الحموي، التعريج بالشرح على هذه الناحية، باعتبارهم تناولوا في موضوعاتهم الكتابة والخط، بشكل أقرب إلى الإختصاص، لا سيما الأخيرين، ولكنهما لم يفعلا.

* شرح رائية إبن البَوّاب

كنا أشرنا إلى أهمية هذه «الرائية» بفن الخط العربي، وألمحنا إلى المصادر القديمة والحديثة إلى وجودها، رغم عدم العثورعليها، ولكن كبار الباحثين العرب، لم يقنطوا لليأس في الحصول عليها، وبقيت غَصّة في روحي أن لا أحضَ بهذا النص الرائع، لا سيما بعد أن أصدرت كتابي «خطّاطو بغداد في العصر العباسي»[4] وأنا أعلم أن ترجمة إبن البواب، بقيت ناقصة، لعدم وجود شرح لرائيته الفريدة، لا سيما وأنا أتنقّل بمنفاي من بلدٍ

(1) كشف الظنون 2/ 1329.
(2) كشف الظنون 2/ 1339 - وانظر أيضاً/ تعليقات/ الأثري على كتاب/ الخطاط البغدادي/ ص 31.
(3) الخطاط البغدادي/ التعليقات/ ص 30.
(4) صدر كتابي أعلاه، عن دار النمير بدمشق عام 1996م، وكنت وقتها في موسكو أواصل دراستي العليا.

إلى بلدٍ، وقلق الخط العربي، يرافقني في حِلّي وترحالي، وسمعت بأن مجلة المورد العراقية كانت قد أصدرت عدداً خاصاً بالخط العربي هو/ العدد الرابع - المجلد 15، سنة 1407هـ/ 1986م/ ومنذ العام 1996م، وحتى نهاية عام 2006م حتى حضيت بالعدد المذكور، ليسَ في بلدٍ عربي، بل في بلدٍ أجنبي (الولايات المتحدة الأمريكية) وطلبت من أحد الأصدقاء هناك، فعثر عليه، وصوّرهُ لي كاملاً، ووصلني في منتصف ديسمبر 2006، بعد أن أنهيت - تقريباً ج4 من الموسوعة - والخاص بالخطّاطين حتى عثرتُ على شرح تلك الرائية الخالدة لإبن البوّاب، من قبل **إبن الوحيد وإبن بصيص**، وبتحقيق أحد أبرز المحقّقين العرب الأستاذ **هلال ناجي**، فغمرني الفرح وانحنيت إجلالاً للمحقّق المذكور، لما قام به من دقّة وعناية فائقة في النص، ليس في هذا النصّ وحدهُ، بل في عدة نصوص، قام بتحقيقها - بنفس العدد المذكور من المجلة، تحت عنوان **«نصوص في الخط العربي»**[1].

وهي خمسة نصوص فريدة وهامة جداً للباحثين في أصول الحرف العربي، أفادتني كثيراً وسوف، أشير إليها، وفق مقتضى السياق البحثي، أمّا في هذا المقام، فسوف أورد النص المحقّق كاملاً، حول رائيةِ **إبن البوّاب**، والمنشور في مجلة المورد (العدد المذكور)[2] ص 263 - ص 270. إتماماً للفائدة أولاً، وثانياً، هو وثيقة هامة، تبرز أهمية العقل الإبداعي، بتلك الفترة، من ناحية، ومن ناحية ثانية، تشير إلى مدى التأثير الفني الواضح لدى تلاميذ إبن البوّاب، وسحب هذا التأثير على الوسط الثقافي برمّته، ليس فقط في عصره، بل وفي العصور التي تَلتهُ، وهذا الأمر يؤشّر بجلاء ووضوح على الرؤية الجمالية للوعي العربي في تلك الفترة، والآن إليكم النص المحقّق:

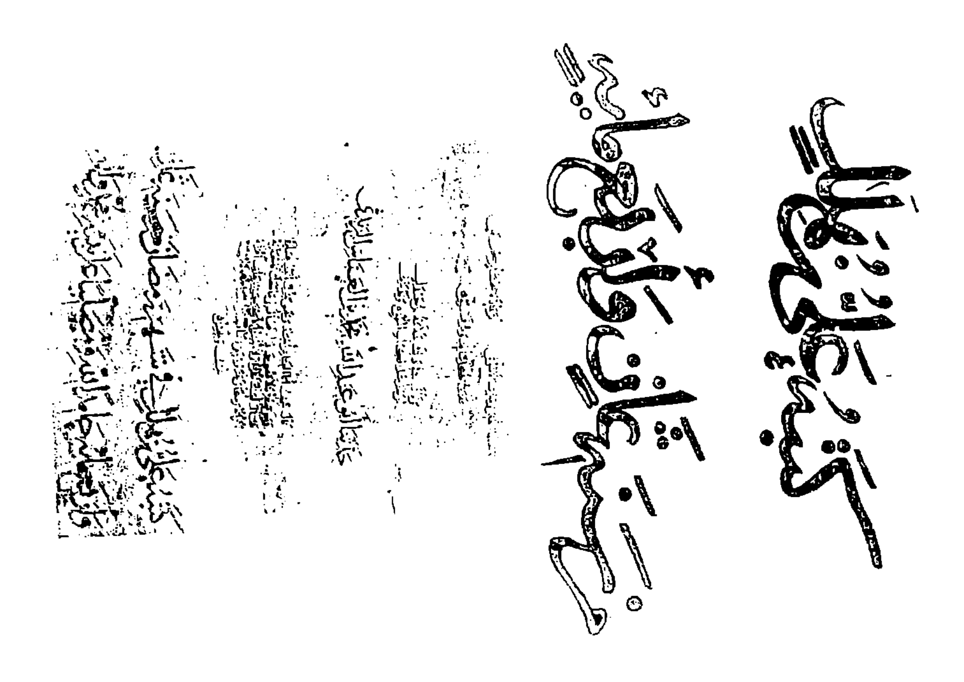
---

(1) وردت هذه النصوص الخمسة، في العدد 4 - من مجلة المورد المذكورة - ص 157 وص 270.

(2) النص ومقدماته الهامة، بشرح المحقّق - في العدد المذكور أعلاه - من مجلة المورد - يبدأ ص 259 - وص 270 وقد أخذنا النص المحقق فقط.



نموذج من خط ابن البواب سنة ٤١٤هـ
وهي نهاية رسالة لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ





شكل ٣٢٥ (ج) ـ كتابة الصفحة الثانية لقلم الطومار كتبت بطريقة ابن البواب علي بن هلال «هلل» (متحف طوپقپو سراي خزانة قصر بغداد رقم ٧٠) قياسها ٣٢×٢٢ وهي من خزانة جنبلاط الملكي الاشرفي بمصر.



شكل ٣٢٥ (ب) نموذج كتابة بسملة بخط الطومار بطريقة الاستاذ ابن البواب علي بن هلال قياسها ٣٢×٢٢ (متحف طوپقپو سراي ، خزانة قصر بغداد رقم ٧٠) اصلها من خزانة جنبلاط الملكي الاشرفي بمصر

المصدر: ناجي زين الدين ـ مصوّر الخط العربي / ص ٩٧

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رسالة في علم القلم والحبر والكتابة والورق

تصنيف الشيخ أبي الحسن علي بن هلال
الكاتب البغدادي المعروف بابن البواب

وجمعت شروحها من شرح ابن بصيص ومن شرح ابن وحيد والله أعلم بالصواب.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين هذا شرح المنظومة المستطابة في علم الكتابة[1].

قال الشيخ أبو الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي الشهير بابن البوّاب - رحمه الله -:

يـا مَـنْ يـرومُ إجـادةَ الـتـحـريـرِ ويـريـدُ حُـسْـنَ الـخَـطِّ والـتـصـويـرِ

[قال ابن الوحيد] قوله: يا من يروم، وفي رواية يامن يريد، والمعنى التقديم والتأخير.

وقوله، إجادة التحرير: يعني إجادة تحرير الكتابة.

قوله، والتصوير: معناه تصوير الخط وهو الهام من كل صناعة وغايتها تشبيه فعل الطبيعة فيجب أن تكون كل كلمة كالصورة متناسبة الأعضاء.

[قال ابن بصيص]: وهو ينقسم إلى أربعة أقسام: أوضاع، ومناسبة، ومقادير، وبياضات.

فالأوضاع: التي وضعها الشيخ رحمه الله. والمناسبة أن تكون كلها بنسبه. والمقادير التي لا تزيد ألفها على لامها وهي التي تكون بين الألف واللام بياضاً متساوياً. وسائر الشطر بياضه متساوٍ. وقوله: يروم دليل على أنه لا يحصل له حتى يقصده بقلبه.

إنْ كـانَ عَـزْمُـكَ فـي الـكـتـابـة صادقاً فارغبْ إلى مولاك في التَّيْسيرِ
اغْـدِدْ مـن الأقـلام كُـلَّ مُـثَـقَّـفٍ صلْبٍ[2] يصوغ صياغةَ التَحبيرِ

---

(1) عبارة (هذا شرح المنظومة المستطابة في علم الكتابة) كانت بعد عبارة - رحمه الله تعالى - وهذا من سهو الناسخ فيما أظن، فأعدتها إلى موضعها الذي به يستقيم السياق.

(2) في الأصل المخطوط (هش) وهو من وهم الناسخ فالتجربة تدحضه، والتصويب عن شرح ابن الوحيد بتحقيقنا.

[قال ابن الوحيد]: قوله أعْدِدْ فيه إشارة إلى تفضيل الأقلام العتيقة المختزنة على الحديثة العهد بالقطع، وتحريض على تعتيقها.

ومُثقف مُقَوَّمٌ، وهو مُشتَق من الثِقاف وهي الخشبة التي تُقَوِّمُ منها الرماح والسهام، ويُروى «مُثَقَّفٍ هَشّ »، والتجربة تخالفها، لأن القلم الرِخو يضطرك إلى تقصير جِلْفَتِهِ ويَحْفى سريعاً.

«ويصوغ استعارة.

«التحبير»: النقش من الحبرة.

وإذا عَمَدْتَ لِبَرْيِهِ فَتَوَخَّهِ عند القياس بأوسط التقدير

[قال ابن الوحيد]: يعني متوسِّطاً في طُوله وقِصَرِهِ وثخانته ورقَّتِهِ، إلا أن تبري للطومار فتستغلظه وبالضدّ.

أنظر إلى طَرَفَيْهِ واجْعَلْ بَرْيَهُ مِنْ جانبِ التدقيقِ والتَخصيرِ

(177 ب)

[قال ابن الوحيد]: يعني أن البَرْيَ يجب أن يكون من رأس الانبوبة فإنَّهُ أَصْلَبُ أجزائها لأن رطوبته قد جَفَّتْ بسبب انكشاف قشرها عنه ودوام قرع الشمس له، ولذلك صار رأس الأنبوبة أدق لتلزُّزِهِ، وقد بَيَّنْت أنّ صلابةَ القلم مطلوبة، ورأسُ الأنبوبة أصْلُها.

واجْعَلْ لجِلْفَتِهِ قَواماً عادلاً يخلو من التطويل والتقصيرِ

[قال ابن الوحيد] لكُلِّ قَصَبَةٍ جلفة بحسب صلابتها، فالصُلْبَةُ تُطَوَّلُ، وحَدُّها أن لا تأخذ في الخطِّ ولا تُعطي فتختلف ثخانةُ الكتابة.

[قال ابن بصيص]: وينبغي أن تضع القلم على الأرض فيتدحرج ثم يقف، فابْرِ منه الموضع الذي وقف عليه فإنّ البَرْيَةَ لا تجيءُ مفتولةً، والله أعلم.

وكذلكَ شحمته اعْتِدْ تَوْسِيطَها لتكون بين النقصِ والتوفيرِ

الشَحْمَة إذا عَظَمَتْ سَتَرَتْ الفركات وإذا قَلَّت جَصَّتْ رطوبة الكتابة.

فإنْ كان القلمُ مُحَرَّفاً رَقَّتْ منتصباتها رقَّةً تُنافِرُ بها ثخانَةَ منسطحاتها وفَحَشَت بها الفركات، والمُدَوَّرُ ثخن به المنتصبات.

[قال ابن بصيص]: والشحمة في صدر القلم إذا وسع [كذا] على الورق في فتحته، فمنهم من يأخذها، ومنهم من يجعلها بارزة، ومنهم من يقصد بها التوسط، وهو اختيار الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

والـشَـقَّ وسِّـطْـهُ لِـيـبْـقَـى حِـبْـرُهُ   مـن جـانِـبَـيْـهِ مُـشـاكِـلَ الـتـقـديـر

[قال ابن الوحيد]: توسَّط شَقَّهُ القلم لينزل الحبر في وسط الخط، ولئلا يضعف أحد شِقَّيْ القلم فتفسدَ الكتابةُ، لكن إنْ عَظِمَ السِنُّ الأيمن قليلاً لم يَضُر:

حـتَّـى إذا أحـكـمـتَ ذلـك كُـلَّـهُ   إِحْـكـامَ طـبٍّ بـالـمـراد خـبـيـرِ

[قال ابن الوحيد]: الطَبُّ بفتح الطاء والطبيب بمعنى، مثل اللُبّ واللبيب.

والشيخ يحض على التحرير.

فـاصْـرِفْ لـشـأن الـقَـطّ عَـزْمَـكَ كُـلَّـهُ   فـالـقَـطُّ فـيـه جُـمـلَـةُ الـتـدبـيـرِ

أول ما شرع في البري، وتقدم الكلام فيها، ثم شرع في القطّ ليكون علتها ويقول: اصرف إليها همتك وكليّتك.

[قال ابن الوحيد] لأن النحت في القلم والشق لا يباشر أحدهُما (178آ) الخطَّ بنفسه. والقَطّةُ هي التي تصوِّر الكتابة بذاتها فمتى زاغتْ شفرةُ السكين عن الهيئة التي يجب أن تكون عليها عند وقعها على القطّة مقدارَ رُبْعَ شعرةٍ أفسدت القطة فلا تَصُحَ الكتابةُ، فلذلك يجب أن تصرف إليها صادقَ العناية والعزم.

[قال ابن بصيص]: وصِفَتُها أنْ تأخذ قصبةً يابسةً صُلبَةً وتضع السكين على البرية فوق القصبة فتحزّ فيها حَزّاً مستقيماً ويطلع لها حِسٌ قويٌ. فإذا كانت القَطّةُ حادّةً تجيءُ الكتابةُ صافيةً، وإن كانت غير حادة تجيء الكتابةُ شعثة. والقطّةُ عليها العَمَلُ عند سائر الكتبة، ومن عرفَ القطّة عرف الكتابة، والله أعلم.

لا تَـطْـمَـعَـنْ فـي أنْ أبـوحَ بـذكـرِهِ   إنِّـي أَضِـنُّ بِـسـرِّه الـمـسـتـورِ

[قال ابن الوحيد]: إنّما بخلَ الشيخُ بالتصريح به حتى لا يعرفه إلا مرتاضٌ في فكِّ رموزِ الحكمة على عادة الحكماء في صيانة أسرارهم بالرمز عن الجُهَال.

لـكـنَّ جُـمْـلَـةَ مـا أقـول بـأنَّـه   مـا بـيـنَ تـحـريـفٍ إلـى تـدويـرِ

قال ابن الوحيد: رمَزَ عن القَطّةِ في هذا البيت لما عانى في تَعَرَفها من الشدَّة، ولأنَّ الهِمَمَ كانت في طلب الفضائل عاليةٌ في زمانه، ولأنَّ جدوى هذه الصناعة كانت عظيمة، فَرَمَزَ السببَ في اتقانها بقوله: «ما بين» ولما غَيَّر الهِمَمْ في بلوغ الغاية من هذه الصناعة، رأيتُ كشفَ رمزه واجباً وهو أنه قال جملةً فَتَحْتَها تفصيل والمعنى: أنَّ لكل قَلَم مُسَمّى كالمحقق والنسخ قَطّةً تَخُصُّه، فقطّة الريحانِ أشَدَهَا تحريفاً، ثم تقل حتى تكون قَطّة الرقاع أقَلّها، فصارت أنواعاً من التحريف إلى التدوير.

فابذل لَه منكَ اجتهاداً كافياً فَعساكَ تَظفَرُ منه بالمأثورِ

[قال ابن الوحيد]: قال الشيخ ﷺ يَحُضُّ على مزاولة القط بالنقل، فأنا لنقلي من جيّد قَطْعِهِ الأقلامَ كلَّها وقياسي على قطّاتِهِ المختلفة، صَحَّتْ لي بطول التجربة (178 ب).

وأَلِقْ دواتَكَ بالدُّخانِ مُدَبِّراً بالخَلِّ أو بالحِصْرم المعصورِ

[قال ابن الوحيد]: اختار الدخان لنعومته وتطويسه، واختار العصارتين لغلظهما وقبضهما وبعدهما عن الفساد، وأنا أرى أن المركب على البارد خيرٌ منه وهو نسخة السمعاني: جزء عفص ونصف جزء صمغ وربع جزء زاج، يُطحن ويدعك بماء الجُلَّنار في الهاون أيّاماً حتى يتحد ويصفّى ويُلقى عليه من الشبِّ والملح الاندراني والزنجار والصبر لكل رطلٍ منها نصف أوقية، ويوضع في الشمس اسبوعين لا ينمحي.

قال ابن البصيص: ينبغي أن تكون الليقة من حرير مغسولة بالصابون منشّفة تنشيفاً جيداً، ثم تأخذ الحبر العال المُطوّس وتُلقيه على الليقة وتحركها. والحبر يُستخرج من الحوائج المذكورة وهي صبر سقطرى ودرهم زعفران جيد وثلاثة دراهم زنجار بلا حد (كذا) وثلاثة دراهم ملح اندراني، تُدَقّ هذه الحوائج كُلّ واحدٍ بمفرده ويداخل العفص الأخضر صحيحاً سالماً من كلّ عيب ويدق ناعماً ثلاثاً وأربعاً والوزن ثلاث أواق وينقع ثلاثة أيام مع شيء من ورق الآس ويخلى إلى أن يذهب ثلثه ويصفى من الرابعة على الحوائج المذكورة ويترك سبعة أيام ثم يؤخذ من زيت الكتان ويجعله مكان الصمغ فإنّه يُعطيه سواداً زائداً ويجعل معه زاجاً قبرصياً خالصاً ليقوى سواده وتطويسُه، وإذا فرغ من ذلك غمره بالليقة الحرير المغسولة نظيفاً، فإذا انغمر في الليقة واستقرت به في الدواة ورأى الكاتبُ قوامهُ مختلاً غمره بالخلّ أو بالحصرم المعصور ويضاف إليه المغرة المُصَوَلة والزرنيخ مع الكافور ليزداد إشراقاً، وهو معنى قوله «وأضف إليه مغرةً قد صُوِّلت».

وأضِفْ إليه مغرةً قد صُوِّلت مع أصفر الزرنيخ والكافور (179آ)

[قال ابن الوحيد]: يعني المغرةَ العراقية وهي تكسوه حمرةً وتجعل له جسماً على القلم فتزيد معنى الرطوبة، والزرنيخ يُحَسِّنُ لونَهُ ويمنعُ الذبابَ ويميتَهُ، والكافور يَحْفَظُهُ من الفساد ويُطَيِّبُهُ.

حتى إذا خَمَّرْتَها فاعمد إلى الـ ورقِ النقيّ الناعم المخبور

[قال ابن البصيص]: أي إذا خمرّتَ دواتكَ وبريتَ قلمك فاعمد وخذ الورق الجسيم الناعم.

[قال ابن الوحيد]: المخبور في قوله للصقال، وأنْ لا يتقطّع فيه الخطُّ، وأن يطيب فيه مَشْيُ القلم ولا يَتَقَصَّف بعد القطع.

فاكْبِسْهُ بَعْدَ القَطْعِ في المعصارِ كَيْ يَنْأى عن التشعيث والتغبيرِ

[قالا] إذا كُبِسَ بعد القطع والبخُّ الناعم زال منه التشعيب والتشعيث أي بالعروق والوبر ولم تتغيرَ مائيَّتُهُ وصقالهُ.

[قال ابن البصيص] وقد قال [الشاعر]:

تَخَيَّرْ ثلاثاً واعتمدها فانَّها على بهجة الخطِّ المليحِ تُعينُ
مِداداً وطرساً مُحْكماً وبراعةً إذا اجتمعتْ قَرَّتْ بهنَّ عيونُ
ثُمَّ اجْعَلِ التمثيلَ دابكَ صابراً ما أدركَ المأمولَ مِثْلَ صَبورِ

[قال ابن الوحيد]: «التمثيلُ» التجويدُ على مثالٍ وتمثيله في أوراق كثيرة مراراً قبل وضعه في المبيّضة لتجسر عليه.

إبدأ به في اللوح أوّل مرّةٍ فكذاك فعل الماجدِ النحريرِ

[قال ابن بصيص]: أمر الشيخ ﷺ بمراقبة المثال الذي يُمَثِّله الشيخ المبتدىء ليلاً ونهاراً ينظر فيه حتى ينال بعضه، وجعل الصبر هو الأصل وإذا لم يصبر لم يدرك قصده، ثم أمره أن يبدأ به في اللوح في أوّل ما يكتب ليسهل عليه لأنّه يمكنه أن يمحو فيه كلما جاء غير مناسب، ولا يبدأ به إلا في قلم المحقق والأشعار لأنّه أقرب إلى التحقيق، وقال أوّل مرة ولم يأمر إلا مرة واحدة وهي البداية «فكذاك فِعْلُ الماجد» الذكي الألمعي.

[قال ابن الوحيد]: هذا الكلام للمنتهي، ويدل على ذلك البيت الآتي:

ثم انتقلَ للدَرْجِ مُنْتَضِياً لَهُ عَزْ ما تجدُّهُ من التشميرِ

[قال ابن بصيص]: أمر الشيخ بعد اللوح أن ينتصب للكتابة، والانتصاب أن (179ب) يكون قعوده على ركبةٍ ونصف ويأخذ القلم ويضع الكتابة في الدرج والدرج هو الورق المنسوب للكتابة والمبيضات على الشيخ وينقله بخطه.

[قال الجامع]: وأظنُّه تَصَحَّفَ عليه قولُ الشيخِ «مُنْتَضياً له» بالضاد المعجمة والياء المثناة تحت.

[قال ابن الوحيد]: هذا للكاتب المنتهي لا يضع سطراً فيما يُبَيِّضه حتى يبدأ به فيما يبطله ليتخيَّرَ وَضْعَهُ.

وابْسط يمينكَ بالكتابة مُقْدِماً ... ما أدركَ المطلوبَ مثلُ جَسُورِ

[قال ابن بصيص]: وابسط يمينك بالإقدام وهو الهجوم على الشيء والدخول فيه من غير فزعٍ ولا مَلَلٍ فإنَّ الجسارةَ مطلوبة في كل شيءٍ وللدخول فيه.

[قال ابن الوحيد]: أقول إنَّ تَهَيُّبَ القلبِ لوضع الكتابة سَبَبٌ عظيمٌ لضعفها واضطرابها، وأكثر الناس يخاف أن لا تأتي على مراده فتختلَّ يده لجُبْنِهِ.

لا تخجلنَّ من الرديءِ تَخُطُّه ... في أوّل التمثيل والتصويرِ

[قال ابن الوحيد]: الجاهل الضعيف يستحي أن يرى الناسُ نَقْصَهُ في ابتداءِ تعلمه للفن، فيمتنع من التعلّم لِكِبْرِه وغباوته فيبقى جاهلاً طول حياته.

والأمرُ يَصْعُبُ ثُم يَرْجِع هَيِّناً ... ولَرُبَّ سَهْلٍ جاءَ بعد عسيرِ

[قال ابن الوحيد]: هذا البيت يُحذِّر الطالب عند استبطائه وضجره من القنوط، ويُبَشِّر الصابرَ بنيلِ المطلوب.

فإذا بَلَغْتَ مُناكَ فيما رُمْتَهُ ... وغدوتَ حِلْفَ مَسَرَّةٍ وحُبورِ

[قال ابن بصيص]: أي إذا أدركتَ ملأً في الكتابة وأقسامها فتنقسم إلى أقسام فمن ذلك ما ينقسم إلى أصلين، الأول: قلم المحقق وهو أول ما يبدأ به ذلك لتحقيق حروفه وهو أن تكون واوه مفتوحة وكذلك تاؤه وميمه[1] وحروفه تحققت، ومنه يستخرج قلم الريحاني والنسخ هو الذي تكتب به الأحاديث النبوية - على قائلها أفضل الصلاة وأتمّ السلام - وكتب الفقه وكتب النحو وكتب اللغة وغيرها.

والأصلُ الثاني: هو القلم الثلث، وهو أصل الكتابة المنسوبة ومتى أتْقَنَهُ الكاتبُ أتقنَ جميعَ حروفِ الكتابة، ومنهُ تفرعت (180 آ) الأقلامُ، وفرعه يستخرج منه وهو قلم التوقيعات الذي يكتب به المباشر والتواقيع عن السلطان، ومن التوقيعات يستخرج منه فرعه وهو قلم الرقاع وهو الذي تكتب به المراسلات في ديوان الانشاء وكتاب الشرط.

[قال ابن بصيص]: ثم أن الشيخ والدي ﷺ نظر إلى الأصل الأول وهو قلم المحقق وإلى الأصل الثاني وهو قلم الثلث فجمَعَهُما فامتزجا فسمّاه الأشعار وهو القلم السابع. ومنهم من يُسميَه المؤنّق، وسُل ﷺ متى يستحق الخط أن يوصف بالحسن؟ فقال: «إذا اعتدلت أقسامهُ وصحَّت أَلِفُهُ ولامُهُ، وأشرق قرطاسُه، ولم تختلف أجناسُه، وضاهى صعوده حدوره، ولم تشبه راءَه نونه».

---

(1) كلمة غير مقروءة.

فالمحقق هو الذي تحققت حروفه، والتوقيع الذي تداخلت حروفه وتعلقت خلاف المطلق ينظر إلى المحقق ليس هو برطوبة محضة يستدعي ما يستدعيه من التعليق ولا يباسة محضة فيحتاج إلى التحقيق.

[قال ابن الوحيد]، وقوله الحلف والحليف: المُلازم، واصله أنّ العرب كان المستضعف منها يخاف أن يتخطّفه الناس فيأوي إلى القوي بعد أن يحالفه، والحبور: المسرّة.

واشكر إلهكَ واتّبعْ رضوانَهُ إنّ الإلهَ يُحِبُّ كُلَّ شكورِ

[قال ابن الوحيد]: الشكر: التحدّث بالنعمة، ومتابعة رضوانه: تحرِّي طاعته فيما يحبُّه منك.

وارغبْ لنفسك أن تخطّ بَنانُها خيراً تُخَلِّفُهُ بدارِ غُرورِ

[قال ابن الوحيد]: ثم أمر بالرغبة وهي الطلب أن لا تكتب يدك شيئاً يسخط الله تعالى عليك لعَرَض الدنيا فهي غرارة، ثم قال:

فجميعُ فعلِ المرءِ يلقاهُ غداً عند التقاءِ كتابه المنشورِ

[قال ابن بصيص]: واعلم بأن الكتابة حجة على الإنسان في الأخرى وحجة له، يرحمه الله تعالى بها في الدار الآخرة.

والله أعلم بالصواب (180 ب).

الفصل الرابع

حياة إبن البوّاب الإجتماعية

لم تتحدث المصادر التاريخية والأدبية التي ترجمت لهُ عن بعض التفاصيل في عُمق حياته الإجتماعية. وعلى ما يبدو، أنَّ منهج القُدماء لم يكن يهتم بهذا الجانب، لا سيما لأُناسٍ لم يتبوّؤا مكانة مرموقة في الحياة السياسية كالوزير والأمير، فما بالُكَ بإنسانٍ كان أبوهُ «حاجباً عند الأمراء» هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنَّ إبن البَوّاب لم تكن «النجومية» تعنيه بشيء، نظراً لواقعهِ الاجتماعي، ومنشئهُ الطبقي، فهو - كما أسلفنا - كان مزوّقاً للدور، الأمر الذي يعكس التواضع في مسلكيته، لذلك كان الجانب الإجتماعي في

حياتهِ غير واضحٍ في كتب التراجم والتواريخ التي اهتمّت بهِ، لكن الأضواء سُلّطت على إبداعهِ الفنّي في الخط، فلم يستطع أيُّ مؤرّخٍ أن يتجاوز هذه الناحية في حياته، بل هي كانت الأبرز والأثبت والأبقى في كل المصادر، ومع ذلك ظهرت هُنا وهناك، بعض جوانب حياته الإجتماعية، لا سيما عند المؤرخين أصحاب الطُرفِ والطُرفة في كتاباتهم من أمثال إبن الجوزي وياقوت الحموي وإبن خلكان، فقد أشار إبن الجوزي في «المنتظم» إلى أنَّهُ كان يُقصُّ بجامع المدينة، وأن أبا الحسن البُتي دخل دار فخر المُلك أبي غالب، الوزير البويهي الذي كان يشتغل فوجد إبن البَوّاب جالساً في عتبة الباب، ينتظر الإذنَ، فقال لَهُ البُتي مُمازِحاً: «جلوس الأستاذ في العَتَبْ رعايةٌ للنسب» وهي إشارة إلى أن أبيه كان بَوّاباً، فَغَضَبَ إبن البَوّاب وقال: لو أنَّ لي أمراً ما مكَّنتُكَ من دخول هذهِ الدار. فقال البُتي: لا يترك الأستاذ صفة الوالد بحال»[1].

أنظر إلى شكل المُمازحة والظرفة فيها، الأمر الذي يُظهر أن حياة أهل تلك القرون كانت مولعة بالدعابة والظُرف، وهو جزء واضح وهام في حياتهم، فما استثنوا أحداً من العَبْثِ أو التماجن فيهِ أو بحسبه ونسبه، لذلك لم ينجُ إبن البَوّاب من ألسنتهم، فقد هجاهُ أحد الشعراء مُداعباً بتلك الأبيات[2].

ماذا رأيتم من النُساخِ مُتحيِّزاً ... سِبال لُصٍّ على عثنون محتال[3].
هذا وأنتَ ابن البَوّاب وذو عَدَمٍ ... فكيف لو كنت رَبَّ الدار والمال؟!

وينصفُهُ إبن خلكان بقَولِه: «والكل معترفٌ لأبي الحسن بالتفرّدِ وعلى منوالهِ ينسجون، وليسَ فيهم مَنْ يلحق شأوه ولا يدَّعي ذلك، مع أنَّ الخَلقِ مَنْ يدّعي ما ليسَ فيه، ومع هذا فما رأينا ولا سمعنا أن أحداً إدّعى ذلك، بل الجميع أقرّوا لَهُ بالسابقة وعدم المشاركة»[4].

كما عَدّهُ الذهبي ضمن الأوائل في العرب[5] وتحدث عنه ياقوت بموضوعية ناقلاً ما قيل فيه وفي أدَبهِ المنظوم والمنثور، يقول: «كان إبن البوّاب يقولُ شعراً ليّناً» ويضيف: «نقلتُهُ من خط الجويني، ونقلت من خطّه أيضاً، في ضمن رسالة منه قوله[6]:

«وَلو أنّي أُهديت ما هو فرضٌ ... للرئيس الأجل من أمثالي

(1) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء/ 15/ 125.
(2) المصدر السابق - نفس المكان.
(3) العثنون = اللحية.
(4) وفيات الأعيان 3/ 342.
(5) سير أعلام النبلاء 17/ 319 - 320.
(6) معجم الأدباء 15/ 125 - 127.

لـنظـمـت الـنـجـوم عـقـداً إذا رَصَّـ ـعَ غـيــري جـواهــراً بــلالــي
ثـم أهـديـتـهـا إلـيـه وأقـرَرْ ـتَ بـعـجـزي فـي الـقـولِ والأفـعـالِ
غـيـر أنـي رأيـت قـدرك يَـعـلـو عـن نـظـيـرٍ ومَـشَـبَّـهٌ ومِـثـالِ
فـتـفـاءلـتُ فـي الـهـديـة بـالأقـ ـلام عـلـمـاً مـنـي بـصـدقِ الـفـال
فـاعـتـقـدهـا مـفـاتيـح الـشرق والـغـر ـبِ سـريـعـاً والـسـهـل والأجـبـالِ
فـهـي تـعـتـن إن جـريـتَ عـلـى الـقـر طـاس بـيـن الأرزاق والآجـالِ
فـاخـتـبـرهـا مـوقِّـعـاً بـرسـوم الـ ـبـرّ والـمـكـرمـات والأفـضـالِ
واحـظ بـالـمـهـرجـان وأبـلُ جـديـد الـد هـرِ فـي نـعـمـةٍ بـغـيـرِ زوالِ
وابـقِ لـلـمـجـد صـاعـدَ الـجـدّ عـزّاً والـرئـيـس الأجـل نـجـم الـمـعـالـي
فـي سـرورٍ وغـبـطـةٍ تـدع الـسـمـا سَـدَّ مـنـهـا مـقـطّـع الأوصـالِ
عَـضَّـدتـهـا الـسُّـعـودُ واسـتـوطـن الإقـ ـبـال فـيـهـا وسـالـمـتـهـا الـلـيّـالـي
أيـهـا الـمـاجـد الـكـريـم الـذي يـبـ ـدأ بـالـعـارفـات قـبـل الـسـؤالِ
إنَّ آلاءكَ الـجـزيـلـة عـنـدي شـرعـت لـي طـريـقـةً فـي الـمـقـالِ
أمـنـتـنـي لـديـكَ هـجـنـةُ الـرَّ دِّ وفـرط الإضـجـار والإمـلالِ
وحـقـوق الـعـبـيـد عـلـى الـسـ ـادة فـي كـل مـوسـم لـلـمـعـالـي
وحَـيـاة الـثـنـاء تـبـقـي عـلـى الـدهـ ـر إذا مـا انـقـضـت حـيـاةُ الـمـالِ»

هذه الأبيات الشعريّة، عَبَّر بها إبن البوّاب لشخصٍ أهداه «مجموعة أقلام» واراد أن يعبِّر لمُهديها عن جليل قدره لمثل هذه الهديّة النفيسة، والعِبرة ليسَ في القصيدة، بل في خطّ كاتبها، فهي أثرٌ فنيّ لا يتجاوزَهُ أيُّ أثرٍ في هذا المضمار، فتلك قطعة نادرة في الخط العربي، وهو ما التفتَ إليه الجويني، ناقل هذا الخبر والشعر، حيث قد سَطَّر تحت هذه القصيدة العبارة التالية: «شعر ابن البوّاب، وهو عورة سترها ذلك الخط، ولولا أنَّ الإجماع واقعٌ في أنَّ الرجل يُفتَن بشعرهِ ووُلده لكان صاحب تلك الفضيلة يرتفع عن هذه النقيصة»[1].

والجويني، هو تلميذهُ، كما يقول ياقوت[2] تتبّع أثرهُ الأدبي والفنّي، واحتفظ بأغلب كتاباتِهِ الأدبية والفنيّة، ونقلها مَعَهُ إلى الديار المصرية.

(1) معجم الأدباء 15/ 127.
(2) المصدر السابق - والجويني هو «حسن بن علي الجويني».

أمّا كبار الأدباء والمفكرين المعاصرين لَهُ، فقد أثنوا عليه مُشيدين بفضلهِ وحُسْنِ «قَلَمَه» متخذينَهُ مثلاً، نظراً لما شاع عنه في جودة هذه الصناعة، فهذا أبو العلاء المعري «363هـ - 449هـ/ 973 - 1057م» يذكرَهُ في ديوانهِ «سَقطُ الزند» بقولهِ(1).

«ولاح هِـلالٌ مـثـلَ نـونٍ أجـادهـا يجاري النُّضار الكاتب ابن هلال»

ولو لم يكن إبن البوّاب قد ملأ صيتُه الدنيا لما تعرّض لهُ أبوالعلاء في ديوانه «سقط الزند» ومن هذه الزاوية يستفيد ياقوت الحموي في ذكر أبيات هذه القصيدة، ترنُّماً وإعجاباً بالشخص - المعرّي وابن البوّاب فيورد خمسة أبيات من أجملها، وهي كلّها جميلة، يقول(2):

«طربتُ لضوءِ البارقِ المُتعالي ببغدادَ وهناً ما لهُنَّ ومالي
فيابرق ليسَ الكرخُ داري وإنما رمى بي إليه الدَهرُ منذ ليالي
فهل فيكَ من ماء المَعرّةِ نغبةٌ(3) تغيثُ بها ظَمْآنُ ليسَ بسالي
ولاحَ هِلالٌ مثلَ نونٍ أجادها بماء النضار الكاتبَ ابن هلالِ
إذا لاحَ إيماضٌ سترت وجوهها كأني عمرو لمطي سُعالي»(4)

ومن اللاّحقين عليه، والذين ترجموا لهُ وأعجبوا بشخصيته، وضربوا به الأمثال إبن خلكان (1211 - 1282م) لا سيما في كتابه الذائع الصيت «وفيات الأعيان» حيث يورد خبراً عن شاهدٍ شعري، تكاملت فيه جزالة اللّفظ وحُسْنَ الخط، مُتَمثّلاً فيه بنابغتين في فنّين - فن البلاغة، مُمثّلةً بالصابئي، وجمال الحرف، مُمَثَّلاً بإبن البَوّاب، وهذا الخبر يقول: «سألني بعضُ الفقهاء بمدينة حَلَب عن قول بعض المتأخّرين، من جُملة أبيات في صفة كتاب:

«كتابٌ كوشيِّ الروض خُطّت سطورَهُ يد إبن هلال عن فمِ ابن هلالِ»

فقلتُ لَه: «هذا يقول إن خَطَّهُ في الحُسنِ مثل خطِ إبن البوّاب، وفي بلاغة ألفاظِهِ مثل رسائل الصابيء، لأنَّهُ إبن هلال أيضاً». ويستطرد إبن خلكان في الحديث، مستظرفاً جمال

(1) راجع ديوان «سقط الزند» للمعري - الجزء الثالث - القصيدة رقم (58) وعدد أبياتُها 51 بيتاً - منشورات دار الكتب المصرية - القاهرة سنة 1947م/ ص 1197.
(2) معجم الأدباء 15/ 128.
(3) النغبة = الجرعة.
(4) يعتبر ياقوت الحموي، أن هذا البيت، مُشكل التفسير، بعيد المرمى - راجع شروحها في معجم الأدباء 15/ 129.

الأبيات، سائلاً عن بقيّتها فيقول[1]:

«ولما أتى منك الكتاب الذي حوى قلائدَ سِحرٍ للبيان حَلالِ
وقفتُ على ربعٍ من الفضل آهلٍ وقوفي بربعٍ للأحبة خالِ
أرقرقُ من دمعي وأدمنُ لثمه واسألُ أطلالاً تجيب سؤالي
وهِمتُ بهِ حتى توهمت لفظِهِ نجوم ليالٍ أم سَوطَ لآلي
كتابٌ كوشي الروض خُطّت سطورُهُ يدِ ابن هلال عن فمِ ابن هلالِ

وقد كان الخَطّاطون الذين جاؤوا بعده، يحلو لهم أن يُشبّهوا بهِ، ويعدّون ذلك فضيلة. كما مال الشعراء والمدّاحون إليهِ في تشبيه ممدُوحيهم بجمالِ خطوطهم بخَطّهِ، فقال أحدُهم يمدحُ رجُلاً يُعرف بإبن بدر بجودة الخط[2]:

يابن بدرٍ علوتَ في الخَطّ قدراً حينما قايسوكَ بإبنِ هلالِ
ذاك يحكي أباهُ في النَقصِ لمّا جئتَ تحكي أباكَ عند الكمالِ

الفصل الخامس

أهميّة إبن البوّاب وتلاميذه وآثاره

لا يكاد مصدرمًا، تحدث عن إبن البَوّاب، إلاّ ويشير إلى أنَّهُ «هَذَّب طريقة إبن مقلة ونقَّحها وكساها طلاوة وبهجة»[3] وهذا يعني أن عامل الإبداع في وَعيه «ديناميكي» وخَلاّق، والعبارة أعلاهُ توّكد أنه نظرَ بإمعان إلى طريقة إبن مقلة واكتشف أنّها بحاجة إلى تطوير في شكلها ومضمونها، ومنها بدأ إعمال العقل في تلك الخطوط التي صاغها ابن مُقلة، فهو يُعد أكبر كتّاب الخط بعَدهُ، وهذا التأمّل هو الذي هداه إلى إيجاد الخط الريحاني، منطلقاً من طريقة إبن مُقلة ذاتها، ثم التفت إلى أسِّ الخط العربي الذي انطلقت منه الخطوط وهو الخط الكوفي فاستطاع أن يُقْلِبَهُ على وجهٍ يسترعي الإنتباه، وأن يستنبط منه إسلوب الثلث والنسخ ويعلو بهما إلى مرتقىً رفيع من الكمال والجودة.

(1) وفيات الأعيان 3/ 343.
(2) معجم الأدباء 15/ 129.
(3) وفيات الأعيان 3/ 342؛ وسير أعلام النبلاء 17/ 316. وغيرها من المصادر.

جاء في «ميزان الخط على وضع استاذ السلف» عن ابن مقلة.

«أن الأستاذ علي بن هلال المعروف بإبن البَوّاب، هو الذي أكمل الخط وأتمَّهُ، واخترع الكتابة بأفضل إسلوب مقبول»[1]. ويشير الأستاذ سهيل أنور إلى أن «خط ابن البَوّاب تَدّرج في مدرج الكمال على مَرِّ الأيام، وارتقى كثيراً من بعد على يد ياقوت المُستعصمي، لكن الفراغ الذي استمَّرَ إلى (ق 15م) في مصر، ظَلَّ مُتَّبعاً طريقة علي بن هلال اتِّباعاً تاماً، لكنه لم يستطع في استمراره أن يبلغ مرتبة مدرسة»[2].

ونحن إذ نخالف هذا الرأي، نرى أن ابن البَوّاب أسَّس لمدرسة جديدة بإسلوب جديد، أضفت على أُطُرِ الكتابة طرائق فنيَّة حَسَّنت أسلوب الخط العربي وذلك من خلال الإبداعات الجديدة للخط الريحاني واشتقاق «الثلث» من الكوفي، وركَّز قاعدة «النسخ» للخط المنسوب. وبذا تكون هذه الخطوط الثلاث وتفرعاتها هي الأركان الأساسيّة في مدرسة إبن البوّاب الفنيّة، حيث أن أساليبه في الخط ظَلّت هي السائدة حتى (ق 7هـ)، وشكّلت القاعدة الأساسيّة لمنهج ياقوت المستعصمي والذي أضاف إليها لمساتِهِ الخاصة، أهَّلتهُ لأن يتربّع على رياسة الخط العربي.

* تلاميذ إبن البَوّاب

عندما نقول أن هناك «مدرسة» فبالضرورة يجب أن نذكر الدّالَ عليها، لأن الدّال يَدُلُّ على المدلول، وفق المنطق الفلسفي، والتلميذ دالٌ على المدرسة. وتلاميذ إبن البَوّاب يمثلون مدرستهِ الفنيّة في الإبداع، والتي نافت على القرنين من الزمان، من مطلع (ق 5هـ - ق 7هـ) أي حتى ظهور مدرسة ياقوت المستعصمي، ومن هنا نقول أن لإبن البواب مدرسته الخاصة في الخط العربي.

تشير مناهج الأقدمين في تلك العصور الزاهية من زمن الخلافة العباسية إلى أن التلاميذ كانوا في كل فن يتتلمذون على شيوخٍ لهم، وتنشأ علاقة حميمة بين التلميذ والشيخ أساسُها الواجب وحبّ التعلُّم، كُلٌ ضمن مسؤوليّته الأخلاقية والمعرفية، وكان التصوّف الإسلامي، أوضح مثال لهكذا علاقة، كما أن «رسائل إخوان الصفاء» أوردت الكثير من هذه العلاقات وكيفية بنائها[3].

---

(1) الخطّاط البغدادي/ ص 8.

(2) المرجع السابق.

(3) أنظر كتابنا/ النظام الداخلي لحركة إخوان الصفاء/ الباب الثاني - ص 61 منشورات دار كنعان - دمشق 1992م.

ومن الملاحظ في المدارس الفنيّة والأدبية، أن التلميذ يتبع شيخَهُ في الإسلوب والسير على خطاه المرسومة بمنهجه وطريقة تفكيره وعمله وأثاره، وعلى هذا الأساس تقام المدرسة التي تُعرف بإسمِ مؤسسّها، وعلى هذا النحو قامت مدرسة إبن مقلة، وعلى نفس المنوال حَذتْ مدرسة إبنِ البَوّاب، وبذات المسلكية يتدرّج أولئك التلاميذ الذين أخذوا عن شيوخهم اساليب الصنعة، وتبقى حالة الإبداع الفردية، منوطة بالتلميذ ذاته، وكيف يطوّر أدواته.

ومن هؤلاء التلاميذ الذين ساروا على منوال إبن البَوّاب في الخط، هم: **محمد بن عبد الملك** وعنَهُ أخذت الشيخة المحدّثة الكاتبة زينب الملقَّبة **بشهدة إبنة الأبري**، وعنها أخذ **أمين الدين ياقوت**، وعَنهُ أخذ **الولي العجمي**، وعليه كتب **العفيف**، وعنه أخذ **وَلَدِهِ الشيخ عماد الدين**، ويقال أن «عماد الدين» كان كإبن البَوّاب في زمانهِ، وعنه أخذ **الشيخ شمس الدين بن أبي رقيبة** - محتسب الفسطاط - وعنه أخذ **الشيخ شمس الدين محمد بن علي الزفتاوي** المُكتّب في الفسطاط، وصَنَّف مختصراً في قلم الثلث مع قواعد ضمّها إليه في صنعة الكتابة، أحسنَ فيه الصنع، وبهِ تخرّج - يقصد قلم الثلث - **الشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داود الآثاري**، محتسب مصر، الذي يقول عنه القلقشندي: «نظّم هذا المحتسب في صنعة الخط ألفيّة سَمّاها (العناية الربانية في الطريقة الشعبانية) لم يسبق إلى مثلها»[1].

هذه الأسماء «التلاميذ» مدرسة إبن البَوّاب، قد تمركزت في مصر، كما هو واضح عند القلقشندي، وقد أشرنا سابقاً إلى أن تلميذ إبن البَوّاب «**حسن بن علي الجويني**» كان قد جمع الكثير من آثار أستاذه في الخط، ورحل بها إلى مصر، فقد ذكر ياقوت الحموي، أن الجويني كتب بخطِّ يَدِهِ في مصر سنة 566هـ، أبياتاً لأستاذه ابن البوّاب هي[2]:

«عبد الإله السديد حقاً بغير زورٍ وغير مينِ
يا شرف الدين ويا فريداً شَرَّف بالفضلِ دولتينِ
يا تاج فخري وكنز فقري ويا معيني ونور عيني
فقد كدتَ أسىً وأمضي وكدتَ تبقى بلا جويني»

(1) صبح الأعشى 3/ 18.

(2) راجع/ معجم الأدباء/ 15/ 127 - 128 - وقد ذكر ياقوت أن الجويني نقل رسائل أستاذه إبن البوّاب عن صناعة الخطوط، وهي قطعة أدبية نادرة - راجعها عند ياقوت في معجم الأدباء 15/ 130 - 132، وكذلك/ الخطاط البغدادي/ ص 47 - 48. التعليقات.

وما يُميّز هذه المدرسة وتلاميذها، هو ما ذكرهُ صاحب «رسالة الخط المنسوب»[1] حيث عرض لتبيان ما تميّزت بهِ من إتقان هذه الصناعة/ على يد ابن البوّاب/ وما تممَّهُ على طريقة إبن مقلة فقد ذكر «أن إبن البوّاب وجد الناس قد اجتهدوا قبله في إصلاح «الكوفي» وأقبلوا على ترطيب الكتابة للسر الخفي، وهو حبُّ النفس للرطوبة، لأنها مادة الحياة، وهي لدونة الخط وريِّهِ، وأن لا يرى من خارج زواياه، وكانت أسباب إتقان هذه الصناعة قد كَمَّلُه الله له بأسرها، وأرادهُ لهذه الرُتبة، فشدَّ لها أزره، وأطلَعَهُ على سرِّها، فرأى إبني مُقلة قد أتقنا قلمي «التوقيعات والنسخ» لمن لم يُرسِّخا في إتقانهما ذلك الرسخ، فكمَّل معناهُ وتَمَّمَهُ، ووجد شيخَهُ إبن أسد يكتب الشعر بنسخٍ قريب من «المُحقّق» فأحكَمَهُ، وحَرَّر قلم الذهب وأتقنَهُ، ووشى برد الحواشي وزينَهُ، ثم برع في الثلث أو خفيفهُ، وأبدع في الرقاع والريحان وتلطيفَهُ، وميّز قلم المتن والمصاحف، وكتب بالكوفي، فأنسى القرن السالف»[2].

ثم يستطرد صاحب «رسالة الخط المنسوب» موضّحاً أثر مدرسة إبن البَوّاب فيقول: «ولقد زاحمت طريقة إبن البوّاب طريقة إبني مُقلة، فكَثُرَ أتباعها ومترسّموها، من أمثال أبي علي الجويني، وعلي بن حمزة البغدادي، والوزير بن صدقة، وعُمر بن الحسين غُلام إبن خرنقا، وإبني العديم الحلبيّين، ولا سيما الحسن بن علي وعبد القاهر بن علي، ومن النساء فاطمة بنت الأقرع وأبي منصور الفضل بن عمر، وأبي طالب الكرخي، وإبن البرفطي، ومحمد بن سعد الرازي، وبينمان الأصفهاني، وإبن التبني، وياقوت بن عبد الله المعروف بالملكي، وياقوت إبن عبد الله الرومي - صاحب معجم البلدان - نزيل الموصل، وياقوت المستعصمي وغيرهم»[3].

ومن التلاميذ الذين نَسبتهم شجرات الخط إلى إبن البَوّاب، السيد قاسم وإسحاق بن خليل المكي، وعلي بن عبد الله البغدادي، والشيخ أُويس بن يزيد، وطلحة بن عامر[4].

أولئك هم أبرز التلاميذ الذين أخذوا عن إبن البوّاب صنعة الخط، واسعفتنا المصادر بذكرهم، وسوف نتوقف قليلاً، عند واحد من هؤلاء التلاميذ هو غلام بن خرنقا، نظراً لما

(1) نشرت الرسالة في مجلة/ معهد المخطوطات العربية/ 1/ 123 - المجلد الأول - القاهرة 1374هـ/ 1955م تحقق د. خليل محمود عسكر.
(2) المصدر السابق - نفس المكان.
(3) انظر/ الخطاط البغدادي - التعليقات/ ص 48 - 49.
(4) الخطّاط البغدادي/ ص 18 - 19.

لَهُ من أهمية في مسلكية الخطاط البغدادي في ذلك الوقت، حيث أن شخصيته ترسم لنا بقية الفريق من أصحابه، لكنه يبقى النموذج الفريد في ذلك التأنّق في الخط وأدواته.

* غلام إبن خرنقا

هو عُمر بن الحسين الخطّاط، المعروف بغلام إبن خرنقا، بغدادي المولد والمنشأ، كان كاتباً مليح الخط محفوظاً منه، تتلمذ على طريقة إبن البوّاب وأجاد فيها، إنصبَّ اهتمامَهُ على مهنة الخط، فاصطفاها لنفسهِ وروحه، تأنّق أشد التأنّق في أدوات الكتابة، يقول عنه ياقوت الحموي: «خَطُّهُ مشهور عند كُتّاب الآفاق، ماتَ في 11/ جمادي الآخرة/ عام 552هـ، ودفن في دارهِ بدرب الدواب، وكان لَهُ من آلة الكتابة ما لم يكن لأحدٍ من قبله، وذلك أنَّهُ بعد وفاتِهِ، بيعت آلة الكتابة بتسعمائة دينار إماميّة، منها دواة بأزهر، إشترى بعضها ولد زعيم الدين بن جعفر - صاحب المخزن - بتسعمائة دينار، وبيع لَهُ الباقي سكاكين وأقلام وبراكر «جمع بركار» وما شاكل ذلك»[1].

إن هذا النزوع الجمالي في الترتيب والتأنيق، ليس بعيداً عن مُبدعي بغداد وفنّانيها فقد عَرف البغداديون الظُرف والتَبغدُد، والتزموا بقواعدهِ، فما بالك بخطّاط مُبدعٍ تُغريه جماليات الحرف المعشوق لإظهار ذاتهِ من خلاله، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، من المؤكّد أن أُستاذَهُ إبن البَوّاب كان من ذوي الترتيب والتأنّق في خَطِّهِ وعمله وحياته، وهذه المسألة يخضعها الحس الجمالي لدى كليهما، فقد عُرف عن إبن البَوّاب تفرُّدهِ في أمورٍ لم يعرفها غيره، ذلك ما نقَلَهُ ياقوت الحموي عنه بقوله: «إن الكاتب أبو نصر بن مسعود، لقيَ يوماً إبن البَوّاب في بعض الممّرات، فسَلَّم عليه وقبَّلَ يده فقال إبن البوّاب: الله الله يا سيدي، ما أنا وهذا؟!

فقال: لو قبّلت الأرض بين يديك لكان قليلاً. قال: ولم ذاك؟! قال إبن المسعود: لأنّك تفرَّدت بأشياء ما في بغداد كلها من يشاركُكَ فيها، منها الخَطُّ الحسن، وإنه لم أرَ من عمري كاتباً من طرفِ عمامتهِ إلى لحيتِهِ ذراعان ونصف، غيرك.

فضحك أبو الحسن/ إبن البوّاب/ وجزاهُ وقال له: «أسألك أن تكتم هذه الفضيلة عليَّ ولا تكرمني لأجلها»[2] وهذا الخبر يؤيد تواضع ابن البوّاب وفرادته في بعض الأمور، وهو ما كان يريده لتلاميذه.

---

(1) معجم الأدباء 16/ 59 - 60.

(2) المصدر السابق 15/ 133.

* آثار إبن البوّاب

لم يحظَ خَطّاط عربي بمثلِ ما حظيَ بهِ إبن البَوّاب من حفظِ آثاره، والإشادة بها والتوقّف عندها، نظراً لما تركه هذا الخطّاط المبدع من نفائس ثمينة في لغَةِ الخط واساليبه، وجواهر محاسنِهِ التي خطفت الأبصار، وهو الأمر الذي استوقف مترجميه ومُتتّبعي آثاره وأخباره. وقد إنقسَمَ هؤلاء إلى فريقين، فريق من تلاميذه، ومُريديه، وفريق آخر من الأدباء والإخباريين والرواة، مِمَّن هم على شاكلة ياقوت الحموي وإبن النديم، وبهذا التنافس الثقافي الهام حُفظت آثار هذا النابغة حتى اليوم.

إنَّ الحياة العقلية التي كانت سائدة في زمن إبن البوّاب هي الأخرى كان لها دوراً مُهماً في حفظِ آثاره، لأنه كان بالأساس مُهتمّاً بمسارها الثقافي، فهو بالإضافة إلى كونهِ خطّاطاً فقد كان مهتمّاً بالأدب من شعرٍ ونثر، فكان كما يقول ياقوت الحموي[1]: «يدٌ باسطة في الكتابة وفصاحة وبراعة، ولَهُ رسالةٌ أنشأها في الكتابة» احتفظَ بها تلميذه الحسن بن علي الجويني ونقلها ياقوت الحموي، إضافة إلى بعض مقطوعاتهِ الشعرية، ومن هذه الآثار الفنيّة الهامة، والتي كان للأدب أثرٌ واضح فيها، ما كتَبَهُ بيدهِ من دواوين ورسائل أدبية لمثقفي عصره والسابقين عليه. ومن هذه الآثار ما نَقَلَهُ ياقوت بقوله: «قرأت بخط سلامة بن عياض: رأيت بالريّ بخط علي بن هلال كتاب «مَن نُسبَ من الشعراء إلى أُمّهِ» لأبي عبد الله ابن الإعرابي، وهم خمسون شاعراً، وعلى ظهره مكتوب «كتَبَهُ علي بن هلال في شهر ربيع الأول سنة تسعين وثلاثمائة» وعلى آخر هذا الكتاب تعليق لإبن البوّاب نَصُّهُ: نقلتُهُ من نُسخةٍ وجدتُ عليها بخط شيخنا أبو الفتح عثمان بن جني النحوي - ايَّدهُ الله -»[2] وهنا نلاحظ اهتمام إبن البوّاب بالسند والمرجعيّة، وهو جزء هام من الأمانة العلمية.

ومن أثاره الأخرى، ما وَجَدَهُ ياقوت أيضاً، رقعة بخطّهِ قد كتبها إلى بعض الأعيان، يسألَهُ فيها مساعدة صاحبِهِ إبن منصور، وإنجاز وعدهِ بهِ، لا يساوي دينارين، وقد بسط القول في ذلك[3]، ويُعلّق ياقوت عليها بقولِهِ: «إستطلتها، فإنها كانت نحو سبعين سطراً فألغيتُ إثباتها»[4].

---

(1) معجم الأدباء 15/ 130 - وأنظر «الرسالة» هناك.

(2) معجم الأدباء 15/ 129 - 130.

(3) المصدر السابق.

(4) من المؤسف حقاً أن ياقوت الحموي لم يورد هذا النص الهام، من الناحية الإجتماعية والفنية، وكذلك أهملَهُ المؤرخون الذين جاؤا بعد ياقوت، كما فعل الذهبي في سيرأعلام النبلاء 17/ 316.

وقد بيعت بسبعة عشر ديناراً إماميّة، ويضيف: «وبلغني أنها بيعت مرّة أخرى بخمسة وعشرين ديناراً»[1].

وثمة حادثةٌ طريفة في جمعِ آثارهِ، قام بها أحد تلاميذهِ، الذين نشأوا على طريقته في الخط، وإسمهُ أحمد البرفاني، المتوفي بَعدَهُ بقرن، توفي البرفاني سنة 625هـ، وهو أحد الورّاقين الذين عنوا بجمع آثار ابن البَوّاب، فقد عُرف عنه أنه جمع عشرين قطعة من خط إبن البَوّاب، ينقل ياقوت عنه كيفية جمعهِ لهذه الآثار النفيسة، يقول البرفاني: «سَمِعْتُ أن أحد المعلمين في أحد أحياء بغداد، يملكُ كثيراً من الجزاز - القطع الصغيرة - ورثها عن أبيه، وقلت لنفسي، إنَّ من المحتمل أن يكون بين هذه الجزازات شيء عن الخط المنسوب، فقصدتهُ، ثم قلت له: إني أود أن تريني ما تركهُ أبوكَ لك، فلربما أكون راغباً في اقتناء بعضٍ منها، فأخذني إلى غرفة في الطابق العلوي، وبدأت أُفتِّشُ، حتى عثرتُ على ورقة بخط ابن البوّاب، ، مكتوبة بخط الرقعة، فأخذتها، وأضفت بعض الشيء مِمّا لا أود شراءَهُ إلى هذه الورقة، وقلت له: بكم هذا؟! فقال: يا سيدي، هَلاّ يوجد شيء في كل هذا مِمّا ترغب فيه! فقلت: إنّي على عجل وربما عدتُ لك في فرصة أخرى. فقال: إن ما اخترتَهُ لا يساوي شيئاً، خذهُ هبةً مني لك. فقلت: هذا ما لا أفعَلَهُ، ثم أعطيتَهُ بعض الخردة، وقيمتها نصف دانق، فقال: يا سيدي إنَّكَ لم تأخذ شيئاً يستحقُّ هذا، عليك بأخذ شيء آخر مقابل ذلك، وقد ألَحَّ علي فأجبته:

إني لا أطلبُ شيئاً، ثم أخذت الورقة، وعندما وصلت الطابق الأرضي شعرتُ بخجلٍ وقلت لنفسي: مِمّا لا شَكَّ فيه أنَّ الرجل لا يدري شيئاً عن قيمة ما باعني إيّاه، والله سوف لا اقتني خط إبن البوّاب بمثلِ هذا العمل غير الشريف. فرجعتُ إلى الرجل وقلت لَه: إن هذه الورقة من خط إبن البوّاب يا أخي. فأجاب الرجل: وما ذنبي أنا إن كان من خط إبن البوّاب؟! فقلت له: إن ثمنها ثلاثة دنانير إماميّة[2] قال: أرجوك لا تمزح، هل أنّك تقصد إرجاع الورقة، أو أنَّكَ وجدتها غالية!! فقلت: لا، إيتني بميزان، فجاءني به، فوزنت ما قيمتُهُ ثلاثة دنانير، وقلت: هل ترغب أن تبعيني هذه الورقة بهذا المبلغ؟! فردَّ بالإيجاب، ثم أخذ المبلغ ومضيت في طريقي»[3].

هذه الحادثة تُعبِّرُ بصدق عن تقدير الناس لقيمة هذا الخطّاط، من جهة، ومن جهة

---

(1) معجم الأدباء 15/ 121 - 122.

(2) الدينار الإمامي، يزن عشرين قيراطاً. والعُهدة في ذلك على الباحثة سهيلة الجبوري التي أشارت إلى ذلك - راجع كتابها: الخط العربي وتطوره/ ص 80، الهامش.

(3) معجم الأدباء 15/ 122.

ثانية، تؤكّد مدى احترام التلميذ النجيب لآثار أستاذه، فلا يقبل أن يحطّ من قدر قيمته الفنيّة.

وتحكي آثار إبن البَوّاب، أنّه كان يتلافى الخطأ الذي يقع فيه أثناء الكتابة برسومات زخرفية، فهناك أثرٌ لخطّهِ وقع فيه الخطأ[1] وكان من الصعب محو الكتابة بدون عمل ضرر بالورقة، لذلك اختار أن يُغطّي السطور المغلوطة بواسطة وصلة مزيّنة قاتمة أخفت هذه الأخطاء. وهناك إسلوب آخر لديه، هو أن ينقُلَ الأثر المخطوط على جانب الورقة. فهناك تصحيح له، وقع الخطأ فيه، حيث حذف إبن البَوّاب آيةً من إحدى السور القرآنية، ووضع الآية المحذوفة في الحاشة، مع علامةٍ تؤكّد ذلك[2].

وذكرت الباحثة سُهيلة الجبوري: «أن لإبن البَوّاب قرآناً بخط يده، مُزيّنةٌ صفحاته، كتبَهُ في بغداد سنة 391هـ، قبل أن يصل هذا المخطوط إلى مكتبة «جستربتي» Chester Beatty كان حواشيَهُ مقصوصة، اكتسب لونَهُ لوناً رمادياً فاتحاً بتقدم الزمن، ومع ذلك فهو محتفظ بصورة حسنة جدّاً ومكتوب بخط النسخ»[3]. كما أشارت، في موضعٍ آخر[4] إلى أن إبن البَوّاب قد استخدم قصب الطيب، وقطع رأسه بصورة مستقيمة، وبهذه الواسطة حصل على حبرة قلم غير متباينة العرض، خَطَّ بها ذلك القرآن.

فيما ذكرت **دائرة المعارف الإسلامية**[5] أن إبن البَوّاب خَطَّ **64 مصحفاً** بيدهِ. وهناك نُسخةً بالخط الريحاني أخذها السلطان التركي سَليم **الأول** (1512 – 1520م) بخط إبن البوّاب، وأهداها لجامع «لاله لي» بالقسطنطينية[6]. فيما ذكر د. سهيل أنور، أنَّهُ يوجد قرآن في متحف الآثار التركية الإسلامية تحت رقم (449) يقال أنَّهُ كتبَهُ في سنة 401هـ، ببغداد دار السلام[7].

ومن آثاره، رسالة من القطع الصغير، مؤلّفة من 7 صفحات، بقلم الثلث، كُلّها من كلام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هي:

---

(1) أنظر: سهيلة الجبوري – المرجع السابق/ ص 85 – 86 – اللّوحة رقم (10).

(2) سهيلة الجبوري/ الخط العربي وتطوره/ ص 85 – اللوحة رقم 11، وهذه اللوحات لا تزال موجودة في قرآن «مكتبة جستربتي .«Chester Beatty»

(3) المصدر السابق/ ص 83.

(4) المصدر السابق.

(5) دائرة المعارف الإسلامية 1/ 103 – مادة (إبن البَوّاب).

(6) دارة المعارف الإسلامية 1/ 103 – مادة (إبن البَوّاب)

(7) الخطّاط البغدادي/ ص 30.

- الورقة الأولى:

1 - «بسم الله الرحمن الرحيم»

- الورقة الثانية:

1 - «رَحَمَ الله أمرأ عرف قدرَهُ ولم يَتَعَدَّ طورَه».

2 - «إعادة الاعتذار تذكيرٌ بالذنب».

2 - «النُصْحُ بينَ الملأ تَقريع».

3 - «إذا تَمَّ العَقلُ نَقَصَ الكلام».

4 - «لا كَرَمَ أعزُّ من التُقى».

5 - «مَنْ كَثُرَ مزاحَهُ لَمْ يخَلُ من حقدٍ عليه واستخفافٌ بهِ».

- الورقة الثالثة:

1 - «كَفا بالظَفرِ شَفيعاً للمُذنب».

2 - «ظَنُّ المؤمنِ كَهانة».

3 - «مَنْ نَظر إعْتَبرْ».

4 - «مَنْ لانت أسافِلهُ صَعُبَت أعاليه».

5 - «الشَرُّ جامعٌ لمساوىء الأخلاق».

6 - رُبَّ رَجاءٍ يَؤولُ إلى الحِرمان».

- الورقة الرابعة:

1 - «في كُلُ جَرعةٍ شَرقة».

2 - «أكرمُ الحَسَبِ، حُسنَ الخلُق».

3 - «أكرَمُ النَسب، حُسنَ الأدَب».

4 - «أوحَشَ الوحشة العَجَب».

5 - «أفقَرُ الفقر، الحُمق».

6 - «أكثر مصارع العُقول، تحتَ بُروق الأطْماع».

7 - «الطامعُ تحتَ وثاق الذُلّ».

8 - «مَنْ أبَدى صَفْحَتِهِ للحَقِّ، هَلَكْ».

- الورقة الخامسة:

1 - «إذا أمْلَقْتُمْ فتاجِرُوا الله بالصَّدقة».

وفي حواشي الصفحات تعليقات كثيرة على كلام علي بن أبي طالب.

ومن الآثار الأخرى التي وجدت له، مخطوطةٍ بخطِّهِ في خزانة قصر بغداد بمتحف «سراي طوب» يحمل عنوان «شعر سلامة بن جندل السعدي» مؤرّخة بإمضاء «كتبَهُ عل بن هلال، في شهر رمضان سنة 408هـ»[1].

كما وجدت لَهُ بخط الثلث، رسالة للجاحظ تحمل عنوان «رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في مدح الكتب والحثُّ على جمعها» وهي تقع في 26 ورقة، وموجودة الآن في خزانة الآثار التركية الإسلامية برقم (2014)[2].

وفي خزانة مكتبة آيا صوفيا، عُثرَ على كتاب بعنوانٍ «بحثٌ في الآداب والحكم» في مجموعة مرقومة بـ (2120) كتب على ظهرها إسمُهُ داخل قطعٍ ناقصٍ، دقيق وجميل، وتحته هذه العبارة بقلم الثلث «طريقة الأستاذ الجليل علي بن هلال المعروف بإبن البوّاب ﷺ وعلى يمين هذه الكتابة ختم بايزيد الثاني (1481 - 1512م) يحتمل أن تكون هذه المجموعة، كما يقول سهيل أنور، من كتب خزانة السلطان محمد الفاتح (1413 - 1421)[3].

ووجد في خزانة كتب قصر بغداد - بمتحف سراي طوب - تحت رقم (70) رسائل تُنسب إليه، كتب في أعلاها «قلم الطومار» طريقة الأستاذ علي بن هلال[4].

وحوت خزانة أبهاء - في متحف سراي طوب - مخطوط برقم (609) كتب فيه عبارة «قلم المسلسل والغبار - طريقة الأستاذ إبن البوّاب» وفي الصفحات الثلاث المتعاقبة، يُشاهد كيفية استنباط حروف الثلث بعضُها من بعض، كما جاءت تعريفاتها بعد هذه العبارة «تصاوير الأحرف، طريقة الأستاذ الكبير، أستاذ هذه الصناعة، وتبركة الجماعة علي بن هلال سامحَهُ ذو الجلال»[5].

ولدى مجموعة بهاء أرسين 27 صفحة من دُعاء لزيد بن ثابت بخط إبن البوّاب[6].

---

(1) الخطّاط البغدادي/ ص 26 - 28.

(2) المصدر السابق/ ص 28.

(3) نفس المصدر السابق/ ص 24.

(4) الخطّاط البغدادي/ ص 30.

(5) تشير هذه الصفحة من المخطوط إلى الطريقة المتّبعة في رسم الأحرف، وفق نسبٍ معلومة وقياسات محدّدة على أساس بعض الأحرف كالألف والباء والصاد وغيرها، راجعها عند سهيل أنور/ الخطاط البغدادي/ ص 32.

(6) الخطّاط البغدادي/ ص 33.

تلك هي أهم الآثار الفنيّة التي ترك إبن البوّاب بصماتَهُ عليها، والتي وجدت حتى الآن، وأمّا المفقود منها، فالعلمُ بها عند الله، حيث أنّ حياته كانت كلّها مخصّصة لهذا الفن الرفيع.

* وفاة إبن البَوّاب

أقفل إبن البواب حياتَهُ الغنيَّة والفنيّة، مودعاً الدُنيا في سنة (423هـ) - كما أسلفنا - تاركاً وراءَهُ فراغاً لا يُسد، مبقياً، بأثره المنهجي، باباً مفتوحاً لكل طالب علم في صناعة الكتابة والقلم العربي. وما أن إستخبر أدباء ذلك العصر، حتى استفقدوهُ، وعلموا مقدار خسارته فقال قائلهم[1]:

«إستشعَر الكتّاب فقدَكَ سالفاً — وقضَت بصحّة ذلك الأيامُ
فلذلك سُوّدت الدويّ كآبة — أسفاً عليكَ وشقّتِ الأقلامُ»

هذان البيتان من الشعر، يمثلان التعبير الوجداني الجمعي والحقيقي لكتاب تلك الفترة، أساتذةً وتلاميذ، أدباء وشعراء، ولكن بغداد كُلّها فجعت بهِ، فانبرا نقيب الطالبين الشريف المرتضى «علي بن الحسين (966 - 1044م» يرُثيهِ في بُكائية رائعة، أوردتها كل المصادر التي ترجمت لَهُ وقد عَبَّر بها «الشريف المرتضى» عن تقدير عظيم، وعاطفة صادقة، وتخليداً منهُ بهذا العبقري في الخط العربي، قَلَّ مثالَهُ، محملاً أحزانَ بغداد كلّها لفقد هذا الخطاط النادر، إبن البوّاب، يقول فيها[2]:

مِنْ مِثلها كنت تخشى أيها الحذرُ — والدهرُ إن هَمَّ لا يُبقي ولا يذرُ
نعاكَ ناعٍ إلى قلبٍ كأنَّ بهِ — لواذع الجمرُ لمّا ساءَهُ الخبرُ
فلم يكن لي إلاّ أن أقول لَهُ — نبيك ناعي هذا الراحل الحجرُ
كَمْ ذا نداءٍ لماضٍ مُلتفتٍ — وكم عتابٍ لجانٍ ليسَ يعتذرُ
فكلما استلَّ منّا صاحبٌ نمضي — ولا إيابٍ لهُ قالوا: هو القدرُ
وليسَ يدري الفتى لم طال عمرُفتىً — ولا لأيّة حال ينقضي العُمرُ
وقد طلبنا فلا نجحٌ ولا ظَفَرٌ — وقد هربنا فلا مُنجي ولا عَصَرُ
وهذه لا شكّ مالئةٌ بها — مِنّا العيون ولكنّ أينَ مُعتَبِرُ

(1) صبح الاعشى 3/ 18؛ وإبن خلكان 3/ 343، وأورد صلاح الدين الصفدي هذه الأبيات في رثاء إبن مُقلة في «الوافي بالوفيات» 4/ 111، وهو وهم وُقع فيه.
(2) راجع ديوان الشريف المرتضى، قافية الراء.

نُعَلُّ من كُلِّ مكروهٍ ويملِكُنا ... حُبُّ الحياة التي أيّامُها غَرَرُ
وما التزام المُنى والمرءُ وهنُ ردىً ... إلاّ جنون يغول العَقل أو سَكرُ
يا قاتلَ الله هذا الدهرَ يُوزِعنا ... ثم الحصاد فمنه النفع والضَرَرُ
فإن يَكن مُعطياً شيئاً فمرتجعٌ ... وإن يكن مبطئاً يوماً فمبتدَرُ
داءٌ يكن عَرا آلَ قحطانٍ فزال بهم ... وذاقَّ منهُ نزاراً وحتى مُضرُ
من بعدِ أن لبسوا التيجان واعتصموا ... وأركبوا ثَبج الأعواد واشتهروا
وأوسعواالناس من رغبٍ ومن رهبٍ ... وعاقبوا باحترام الذنب واغتفروا
تندى مفارقهم مِسْكاً فإن جهَلوا ... نمّت عليها بريّا قشرها الأزرُ
ويحسبون ذيول الربط ضامنةً ... إن ليس تُسحب إلاّ منهمُ الحِبَرُ
قالوا قضى غيرذي ضَعْفٍ ولا خورٍ ... فقلت: ما كلّ أسباب الردى كِبَرُ
وعزَّني فيك برٌّ بعد طُولِ ضَنىً ... ومن بيت خطراً أودى خطرُ
رُديتُ بابنَ هلالٍ والردى عرضٌ ... لم يحمِ منهُ على سخطٍ لَهُ البشَرُ(1)
ما ضَرَّ فقدك والأيام شاهدةٌ ... بأنَّ فضلَكَ فيها الأنجمُ الزُّهرُ
أغنيتَ في الأرض والأقوام كُلَّهمُ ... من المحاسِنِ ما لم يغنه المَطَرُ
فأنت شمسُ الضُحى للساربين وللسـ ... ـارين في جُنحِ ليلٍ ضوؤكَ القمرُ
إن تُمسيَ ميتاً ولا بَصَرٌ ... فطالما أنتَ السمعُ والبَصَرُ
وإن تبت حصراً عن قولٍ فاضلة ... فطالما لم يكن من دأبكَ الحَصَرُ
قالوا: اصطبر عنهُ ياساً أو مجاملةً ... والصبرُ يلعق في أثنائه الصبرُ
ولو درى من على حُزنٍ يَقرُّعني ... بمن فجعت ومن خَولَتِهِ عذروا
وكيف أسلو وما في غيره عِوضٌ ... من الرجال ولا لي عنه مَصْطَبرُ
وكيف لي بعدهُ ميلٍ إلى وطرٍ ... وليس لي إداء في غيرهِ وطرُ
مجاوراً دار قومٍ، ليسَ جارهَمُ ... بنصرهم أبد الأيام ينتصرُ
في أربعٍ كلّما زادوا بها نقصوا ... نقص الفناء وقلّوا كلما كثرُوا
فاذهب كما شاءت الأقدار مقتلعاً ... منّا بهِ الخوف مجنوباً بهِ الحَذرُ

---

(1) لم يرد هذا البيت في ديوانِهِ، وأضفناهُ من معجم الأدباء 15/ 134 - وكذلك أضافهُ - محمد بهجت الأثري في/ شروحاته/ على «الخطاط البغدادي/ ص 24.

فبالقلوب التي أبهجتَها حَزَنٌ ... وبالعيون التي أقرَرتها سَهَرُ
وما لعيشٍ وقد ودّعته أرجٌ ... ولا لليلٍ وقد فارقته سحرُ
وما لنا - بعد أن أضحت مطالعنا ... مسلوبةً منكَ - أوضاحٌ ولا غُرَرُ

مُلحق

وضاحة الأصول في الخط
نظمها عبد القادر الصيداوي
(قبل القرن الثاني عشر تقديراً)

حققها

هلال ناجي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي النص

هذه الأرجوزة واحدة من سلسلة أراجيز وقصائد نظمها مصنفوها في علم الخط، وهدفوا من ورائها جمع قواعد الخط في متون علمية يسهل حفظها على الطلبة وشداة العلم.

وتعد قصيدة ابن البوّاب أقدم منظومة وصلتنا في علم الخط، وقد شرحها عالمان جليلان: أولهما شرف الدين بن الوحيد المتوفى سنة 711هـ، وقد نشرنا هذا الشرح في تونس عام 1967. وثانيهما: برهان الدين بن عمر الجعبري المتوفى سنة 732هـ ولا نعرف مصير هذا الشرح.

وللوزير إبن هبيرة ارجوزة في علم الخط ذكرها ابن خلكان في وفيات الأعيان.

ولإبن الوحيد قصيدة نونية في علم الخط وصلتنا منها أبيات ذكرها محمد بن الحسن الطيبي في كتابه «جامع محاسن كتابة الكتاب».

وللشيخ علاء الدين السرّمرّي ارجوزة في الخط ذكرها القلقشندي في صبح الأعشى وأورد بعض نصوصها ونشر كثيراً من آراء السرّمرّي.

وقد بلغ الغاية في هذا الباب زين الدين شعبان بن محمد الآثاري المتوفى سنة 828هـ في ألفيته التي نشرناها ببغداد سنة 1979م تحت عنوان «العناية الربانية في الطريقة الشعبانية».

وهي ألفية في فن الخط قال عنها القلقشندي: «أنه لم يسبق إلى مثلها».

ومن أراجيز الخط الشهيرة «بضاعة المجوّد في علم الخط وأصوله» لمحمد بن الحسن السنجاري وقد نشرها والدنا السيد ناجي بن زين الدين - عطر الله جدثه - في كتابه «مصور الخط العربي» المطبوع ببغداد سنة 1968م.

و«وضاحة الأصول في علم الخط» مما ينتظم في هذا السلك. وهي أرجوزة تدل على فهم ناظمها لقواعد هذا العلم وغوصه عبر أمواجه، وفيها علم غزير ومعرفة دقيقة بكل ما يتعلق بدقائق هذا الفن وما اختلف فيه أعلامه من مذاهب وآراء: نظمها عبد القادر الصيداوي، ولم نوفق إلى الظفر بترجمة لهذا الشاعر العالم وإن كنا نرجح أنه عاش في الفترة بين منتصف القرن التاسع ومنتصف القرن الثاني عشر. ذلك أن القلقشندي المتوفى سنة 821هـ لم يذكره في كتابه، فلا بد أن يكون قد ولد ونبغ بعد هذا التاريخ وحيث أنه من الثابت أن ناسخ المخطوطة المصرية كتبها سنة 1157هـ وهذا يعني أن ناظمها قد نظمها قبل هذا التاريخ.

فيكون الصيداوي قد عاش في الفترة بين منتصف القرن التاسع ومنتصف القرن الثاني عشر الهجريين - على الراجح -.

وليس يقدح في هذا أن الزبيدي لم يذكره في «حكمة الاشراق» فالزبيدي أغفل ترجمة وذكر أعلام الخطاطين العرب بعد ابن الصائغ المتوفى سنة 845هـ وحصر جهده في تعقب أعلام الخط الاتراك.

لكننا يمكن أن نجزم بأن نسبة الناظم تشير بوضوح إلى مدينة صيدا في لبنان.

لقد اعتمدنا في نشرتنا هذه على مخطوطتين: الأولى تامة كاملة كتبها الخطاط الشهير محمد الأزهري، سنة 1157هـ، والأزهري أخذ الخط عن سليمان الشاكري الذي أخذه بدوره عن حسين الجزائري وهذا أخذه عن شيخه «الدرويش علي» الإمام الماهر المجدد الملقب بالشيخ الثاني والمتوفى سنة 1086هـ.

وهي نسخة مصورة عن مخطوطة أصلية في خزانة صديقنا الشاعر الأديب سيد بن إبراهيم أمير الخطاطين بمصر وأستاذ هذا الفن بمدارسها المختصة وعضو اللجان المختصة بالمجلس الأعلى لرعاية العلوم والآداب والفنون التشكيلية بمصر.

والمصورة تكرم فأهدانيها عام 1961 في القاهرة، فأرسلتها لأبي رحمه الله فنشر منها مقتطفات في كتابه «مصور الخط العربي»، وتتماز هذه المخطوطة بالنماذج القلمية المرسومة على هوامشها.

وقد بحثت طويلاً عن مخطوطة ثانية لهذه الأرجوزة حتى ظفرت بقطعة منها ضمن مجموع في الخزانة العامة بالرباط مكتوبة بالخط المغربي وناقصة وغير مزينة باللوحات الفنية، لكنني اتخذتها أصلاً ثانياً ورمزت لها بالحرف (ر) وأثبت أختلافات النسختين في الهوامش.

لقد أثبتّ في نشرتي هذه انموذجات من المخطوطتين، كما أثبت جميع النماذج القلمية المرسومة على هوامش المخطوطة المصرية توضيحاً للأصل، وأني إذ أهدي عملي هذا إلى صديقي الكريم المفضال سيد بن إبراهيم أمير الخطاطين بمصر، تحية فضل سبق، آمل أن يكون في نشر هذا النص إضافة ذات فائدة في ميدان نشر قواعد الخط العربي ونصوصه القديمة.

والحمد لله الذي أعان، إنه نعم المولى ونعم المستعان. . .

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما صلاة وسلاما دائمين الى يوم الدين

+++ +++ +++

الحمد لله الذي اجرى القلم * وزاده فخرا بما جرى القسم

قال الله فيه نون والقلم * وعلم الانسان ما لم يعلم

ثم الصلاة والسلام سرمدا * على النبي المصطفى محمدا

والآل والصحب الامجاد * ما جرت الاقلام بالمداد

وبعد علم الخط للاملا * سألني بعض الاخلاء الفضلا

ارجوزة اوضح فيها ما خفي * فقلت لست اهلا [illegible]

فعاودوني فاجبتهم لما * سألوا واستنجدت رب العلا

سميتها وضاحة الاصول * في الخط لا تربو على المنقول

والله ارجو نفعها لمن نظر * فيها ولن [illegible] لها عيبا ستر

باب في اختيار الاقلام واختيار السكين

يختار للخط من الاقلام * اربعة [illegible]

لعدلها استوت كأنبوب العجم * بين رخاوة وصلب محتكم

لا تبر معوجا ولا [illegible] * اذ فيه ان تبلغ المأمولا

وكل خط عندهم له قلم * [illegible] بحسب الرسم

[illegible]

صورة/ الورقة الأولى من مخطوطة الرباط/

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أجرى القلمْ وزاده فخراً بإجراءِ القَسَمْ
قال تعالى[1] فيه ن[2] والقلم وعلّم الانسان ما لم يعلم
ثم الصلاة والسلام سرمدا على النبي المصطفى محمّدا
وآله وصحبه الامجادِ ما جَرَتِ الاقلامُ بالمدادِ
وبعد: علمُ الخطّ لمّا أُهملا سألني بعض الأجلاّالفُضَلا[3]
أُرجوزةً أُوضح فيها ما خفي فقلت: أني لست أهلاً فأفي[4]
فعاودوني فاجبتهم إلى ما سألوا مستنجداً ربَّ العلا
سمّيتها «وضاحة الأصول في الخط» لا تربى عن المنقول
والله أرجو نفعها لمن نَظَرْ فيها وان رأى بها[5] عيباً سَتَرْ[1]

باب في اختيار الأقلام واختيار السكين

يُختارُ لِلْخَطّ من الأقلام أرفعها قشراً قويما نامي[6]
اعدلها استوا كثيراللحم[7] بين رخاوة[8] وصلب ضخم
لا تبر معوجّا ولا مفتولا إذ بهما لن تبلغ المأمولا
وكل خطٍّ عندهم له قلمْ غلظ أو[9] دقّ بحسب ما ألَمْ
مدينه لطيفة رقيقه ماضية مرهفة دقيقه
لانها أن ثخنت تفسد ما تشقّه وإنْ تمله انقسما

(1) في ر: الله.
(2) في ر: نون.
(3) في ر: الاخلا.
(4) العجز في ر مختل ونصه: فقلت لست أهلا في.
(5) في ر: لها.
(6) في ر: سام.
(7) في ر: كثيف.
(8) في ر: رخاءة.
(9) في ر: و.

فصل في معرفة بَري القلم

أركـــانــه أربـــعـــة تــروى فــقــط ... فَـتْـحٌ ونَـحْـتٌ ثـم شَـقٌّ ثـم قَـطْ
فـالـفـتـح فـي الـبـري[1] تـزد تـقـعـيـرا ... والـلـيّـن اجـعـل نـحـتـه يـسـيـرا
والـنـحـت نـوعـان قـد اختـصّـا بـه ... نـحـت حـواشـيـه ونـحـت بـطـنـه
مـسـاويـا مـن جـهـة الـشـقّ فـلا ... تـضـعـف[2]لاحدى الـجـهـتـيـن يـهـزلا
وطـوّل الـفـتـحـة فـي الـصـلـب وان ... لان فـقـصـرهـا إذا تـكـن فـطـن[2]
وإن يـكـن مـعـتـدلا فـاسـلـك بـهِ ... بـيـنـهـمـا مـن غـيـر مَـيْـلٍ شَـقَّـه
حـدّد وسـنّـم جـانـبـي شـحـمـتـه ... يـحـسُـن جـريـه عـلـى آلـتـه[3]
وابـدأ بـبـريـه مـن الـمـنـخـصـر ... مـن نـصّ الاسـتـاذ الـفـتـى الـمـعـتـبـر

فصل في معرفة قط القلم

إعـلـمْ بـأنّ الـقـطّ فـي الـتـصـويـرِ ... مـا بـيـنَ تـحـريـفٍ إلـى تـدويـرِ
طـريـقـة الاسـتـاذ وهـو لـم يـبـح ... بـسـرّه ولـو أبـاح لـربـح
لـكـلّ نَـبْـتٍ قَـطَّـةٌ تَـخُـصُّـهُ ... بِـحَـسَـبِ الاقـلامِ هـذا نَـصُّـهُ
فَـأَمِـلِ الـسـكـيـنَ مَـيْـلاً مـرفـقـا[4] ... لـيـمـنـةٍ وحَـرِّفِ الـمـحـقّـقـا
وإنْ تـرم مـدوَّراً فـلا تَـمـل ... أو بـيـن تـحـريـف وتـدويـر فَـمِـلْ
لـداخـل الـفـتـحـة حـدّ الـمـديـه ... مـلـهُ قـلـيـلا كـي تـحـسّـنْ بَـرْيَـهْ
لـكـي يـكـون الـقـشـر زائـداً عـلـى ... شـحـم الـبـراع ولأنْ لا يـبـلـى
فـيـحـسـن الـتـوقـيـع إن دَوَّرْتَـهـا ... كـذلـك الـريـحـان إنْ حَـرَّفـتَـهـا[5]
واخـتـلـف الـكـتـاب فـي قـط[6] الـقـلـمْ ... على وجوه خمسة فالخلف عمّ [3]

(1) في ر: الصلب.
(2) في ر: يضعف.
(3) في ر: ألمه.
(4) في ر: مرتقا.
(5) في ر: ظرفتها.
(6) في ر: خط.

يـاقـوتُ مـمـّن قَـطَّـهُ مُـحَـرَّفـا | فـي سـائـر الأقـلام مـن غـيـر خـفـا
لأجْـلِ ذا لا يُـحْـسِـنُ الـتـوقـيـعـا | ولا الـرقـاعَ الـقـلـمَ الـبـديـعـا[1]
وأحـسـنَ الـريـحـانَ والـمـحـقـّقـا | أن[2]نـاسـب الـتـحـريـف ذاك وارتـقـا
نـعـنـي بـالـتـحـريـف سِـنّـاً مـرتـفـعْ[3] | مـن جـهـة الـيـمـيـن فـافـهـم واتّـبـع[4]
أمّـا الـوَلـيّ قَـطـّهُ مُـدَوَّرا | فـأحْسَـنَ الـتـوقـيـعَ والـنـسـخ أزهـرا[5]
وبـيـن ذي الـتـحـريـف والـتـدويـر | فـي سـائـرِ الأقـلام لـلـوزيـر
وشـذّ قـوم رفـعـوا سـنّ الـقـلـم | مـن جـهـة الـيـسـرى قـلـيـلاً فـانـسـقـم
وابـن هـلال وكـذا مَـنْ صـاحَـبَـهْ | أعـطـى لـكـلّ قَـلَـمٍ مـا نـاسَـبَـهْ
هـذا مـحـرفـا وذا مـدوّرا | وبـيـن تـحـريـف وتـدويـر بـرى
لاجـل ذا سـاد عـلـى الـكـتّـاب | وصـارفـي الأوْجِ عـلـى الـصـواب[6]

فصل

اعـلـمْ بـأنّ الـطـول فـي رأسِ الـقـلـمْ | عـون خـفـيـف الـيـد فـي الـسـرعـة ثـم[7]
وعـكـس ذلـك الـقـصـيـر الـراس | والـقـلـم الـطـويـل فـي الـقـيـاس[4]
أخـفـّهـا كـتـابـة وأضـعـف | وعـكـسـه بـعـكـسـهِ مـتـصـف
أمـّا الـذي يـخـتـاره الـوزيـر | وهـو الإمـام الـقـدوة الـكـبـيـر
مـا كـان مـن هـذى[8] الأمـور وسـطـا | غـيـر طـويـل أو قـصـيـر فـرطـا
ومـا اسـتـوى فـي الـغـلـظ والـترهـيـف | أيـضـاً والاسـتـواء والـتـحـريـف
والـقـول فـي الاقـلام صـعـب الـحـصـر | لـقـولـهـم[9] واقـنـع بـهـذا الـقـدر

(1) في ر: البديع.
(2) في ر: اذا.
(3) في ر: مرتفعا.
(4) في ر: واتبعا.
(5) في ر: ارا.
(6) في ر: الكتاب.
(7) في ر: ثم. وهو الاصوب.
(8) في ر: هذا.
(9) في ر: لخلفهم وهو الاصوب.

فصل في معرفة الخطوط

ريحانُنا فَرع لذا[1] المحقّق ... مُسْتَنْبَطاً منهُ إذاً فَحَقّقِ
فالفرق بين الأصل والريحان ... ثخانة[2] الاصل ودق الثاني
وضبط أصله بغير قلمه ... وهو بكل القلم المُلمّ به[3]
وتفتح الأعين في الإعراب ... في الأصل والفرع بلا غياب
والفرقُ بين النسخ[4] والريحان ... قلّة َ ضبطه وضبط الثاني
في النسخ تعليق وطمس فَدَنا ... من الرقاع شَبَهاً مبيّنا
إنْ ضُبِطَ الرقاعُ صار نسخا ... معلّقا لكن فيه استرخا[5]
واعلم بأن الثلث أصْلٌ مستقلْ ... وقلم التوقيع منه منتقل
واستنبطوا الرقاع من توقيع ... فصارفرع الفرع في المجموع
وقلم التوقيع أيضاً إن ضُبط ... فهو خفيف الثلث صارمرتبط[5]
من أدمن[6] الثلث على الدوام ... أعانه في سائر الأقلام
وقلم الاشعار سَمِ مونقا ... فلك أن تكتُب به محقّقا
واكتبه[7] بالثلث تراه قد سما ... لأنّه أصلٌ تركّب منهما
اختار هذا النصّ نَصْرُ الله ... لذا[8] ابن بصيص بن عبد الله
وانكر الاستاذ هذا وهدى ... بانّه اصل بذاته بدا[9]
والفرق في هذا وفي المحقّق ... القصرُ والتعميق في المؤنّق
في الواو والنون ويا والراء ... فافرق ولا تخلط ودَعْ مرائي

(1) في ر: لذي.
(2) في ر: نخانة.
(3) العجز في ر مختل ونصه: وهو بكل القلم به.
(4) في ر: النسج.
(5) في ر: منضبط.
(6) في ر: أحسن.
(7) في ر: واكتب.
(8) في ر: كذا، وهو الاصوب.
(9) في ر: غدى.

فــي هــذه الاربــعــة الــحــروف[1] في الثاني[2] قصرٌ ثم عمّق توف
فـبـانَ أنّ الـقـلـم الـمـونـقـا اصلٌ بـذاتـه غـدا مـنـطـلـقـا
فـان تـرم تـكـن مـن الـكـتّـاب الـسـادة الـقـادة والانـجـاب [6]
اصّـل وفـصّـل هـذه الأمـور ولا تـكـن مُـدَّعِـيـاً بـالـزورِ

فصل في معرفة كيفية مسك القلم

والأصْلُ وضعُ القلم المبري على انملة الوسطى بذا قال الملا
وان تضع أصبعك المسبّحة[3] على يمين الظهر فوق الفتحة
وان تـضـع انـمـلـة الإبـهـام على يسار الظهر باهتمام[4]
إنّ لـكـلِّ اصـبـعٍ خـاصـيّـه تعجز عنها اختها القويّه
ولا تَضَعْهُ فوق ظهرالوسطى ذلك ضعف منك لا يُغَطّى
ومسكك[5]اليراع فوق البَرِيَهْ عرض ثلاث من شعيرالقريه
أو تجعل الوسطى بها ملتصقه ذاك المراد في اختفاء الفركه[6]
وينبغي الجلوس للكتابة[7] طاويا[8] اليمين من ركابه
مـقـيـمـهـا فـي صـدره تَـوَرُّكـا لرجله اليسرى بهذا قد حكى

فصل في معرفة قواعد الكتابة

إعـلـم هـداك الله فـالـكـتـابَـهْ سبعة أقسام على الاصابَهْ [7]
مـنـسـطـح ومـنـحـن ومـنـتـصـب كذاك مُنْكَبٌ ومستلقٍ كُتِبْ

---

(1) في ر: حروف.
(2) في ر: في الثلث.
(3) صدر البيت في ر: ويضع الاصبع المسبحه.
(4) رواية البيت في ر:
انـمـلـة الابـهـام وضـعـهـا عـلـى يـسـاره واكـتـب بـه نـلـت الـعـلا.
(5) في ر: ومسلك.
(6) في ر: الخفا في البركه.
(7) في ر: في الكتابة.
(8) في ر: طاوي.

ومستديرٌ بعده مقوّسُ — من فهم الاقلام حقا يراسُ[1]
أوله ممدود خط السلس — من اليمين يسرة وينعكس[2]
والمنحني كالدال ان أفردته — وغيره كذاك ان هذّبته
وثالث هو الذي يسامت — لقامة الانسان وهو نابت[3]
والرابع المنكبّ إن صوّرته — مثل إبتداء الواو قد أصبته
والخامس المستلق ان تنكسه — من يمنة ويسرة أو[4] اعكسه
والمستدير إن أردت تكشفه — كدور حاءٍ ثم عين فاعرفه
سابِعُها مقوّس كالقافِ — والنون والسين بلا خلاف

فصل

قال الوزير كلُّ منصوبٍ أَلَمْ — نتعتمد[5] فيه على سِنَّيْ قَلَمْ
وكل خطّ ذاهب معترضا — من يمنة إلى يسار فرضا
أمالة القلم شيئا يسره — والعكس بالعكس فكن ذا خبره[6]

حرف الألف

الألف المفرد خطّ منتصب — ومستقيم قائم ومصطحب
يكتب بصدر القلم المعيّن — آخره بسن حرف الايمن
فإن ترد ريحانا أو محقّقا — فلا تمل آخره بل اطلقا
وإن كتبت ثلثا أو توقيعا — آخره رطّب ومل سريعا
واظهر القطةَ في راس الألفْ — في سائرالاقلام اطلق لاتقفْ
وشَظُّ ألف الثلثِ والمحققّ — وألف الريحان والمؤنّقّ

(1) في ر: برس.
(2) في ر: وينعس.
(3) في ر: لقامة الكاتب وهو كاتب.
(4) في ر: و.
(5) في ر: نتصمد.
(6) هذا آخر بيت في مخطوطة الرباط الناقصة.

وفي التواقيع الكبار شظيه بأيمن السنّ ترى مرتضيه
وألِف الرقاع والغبار فأنت في الشظية بالخيارِ
والنسخ والوضاح والمنثور كذا الحواشي لا تشظّى زور
شاركه في شظية وتركها دال وطا لامٌ ونونٌ فادرها
والالف الموصول فيما قبله فاصعد به مقوما لا ميل له
في قلم الريحان والمحقق واظهر القطّة فيه وانتقي [9]
في قلم النسخ ثلاث قد أُلِفْ ظهور قط واستقامة الألف
وميلها اليمين مع تحديد آخرها يحسنُ من سديد
وألف الثلث فملهُ يسره عالية مع ظهور القطة
كذا التواقيع مع الرقاع لكن يزيدون بالاتباع
بان يمالوا يمنة محدّدا كأحد الاوجه في النسخ اقتدا
والالف اكتبه على أصناف ثلاثة أحدّها يوافي
في طوله قريب من عشر نقطْ خُصّ بريحانٍ واصله فَقَطْ
الثاني سبع طوله تقريبُ يختص بالثلث اختبر تُصيبُ
ثالثها خمس بالإتباع يختَصّ بُالتوقيع والرقاعِ

حرف الباء

الباء من خطيّن رَكّبْ وابِخ تجدهما منتصبا ومنسطح
بقول الاستاذ الهمام العلَمِ تكتب كلها بصدر القلم
آخرها محدّد ملمومِ مقابل لرأسها معلوم [10]
أوشئت اطلق رأسها أو اربطه بحيث أن تظهر فيه القطة
وهذه الثلاثة الاشكال تدخل في الاقلام لا محال
يصلح مدها لمدّ البَسْمَلَة في النسخ والريحان ثم الأصْل لَهْ
وإن حذفت مُنْتَصِبْ أوّلها لا تظهر القطّة في آخرها
إن كانت الباء على هذا النَمَطْ تخصّ الاقلام المرطبه فقط

حرف الجيم وأخواتها

رَكِّبْهُ من خطين وابدأ منسطح بقدر ثلثي الالف ولا تلخ
ومستدير وهو نصف دائره منها تقابل راسه وآخره
ان زدته زيادة يسيره سامح بها أن لم تكن كثيره
والجيم إنْ افرد ينقسم إلى ثلاثةٍ فشطّ منها الأوّلا
يدخل ذاك كل الأقلام سوى نسخٍ فنوعُهُ سوى ذاك استوى
والثاني نوعٌ كالزناد مُتَّصِفْ كذلك الثاني محلّق عُرِفْ
فراس أولى منهما كراس را وراس ثانٍ راس با فاكتب ترى [11]
يدخل ذا النوعان في كلِّ قَلَمْ رطب وان تَبْغِ الخلافَ تُتَّهَمْ

حرف الدال والذال

رَكِّبْهُ من خطّين خطٍ منحني كذاك مستلقٍ وفي النسخ أَبِنِ
لان ثاني النسخ صفْ منسطحا والقط فيه ظاهر إتَّضَحا
وان خطّطت ألفاً من اسفله إلى علاه كان كافا متّجه
طوله قدر الألف المعلومه والمنحني منه كذا مقسومه
وان وصلته بسلام سبقه فاصعد به ثلاثة كي لا تلحقه
ثم تميل الثلث من أعلاه وارجع بحبر زائدٍ ثلثاه
وارسله كي تُحاذي مبدا الدال يختصّ بالثلث بلا إهمال
وإن ترد محقّقا عُذْ فيه أكثر من ثلثيه كي تفيه
وَمِلْ رقاعاً يُمْنَةً قليلا وارسله كالمخلاب مِلْه ميلا

حرف الراء والزاي

مُرَكَّبٌ مُقَوَّسٌ وهو على ثلاث أنواع فَدَوِّر أوّلا [12]
ودوّر الآخر ربع دائرهْ رَوْسُهُ او رَطْبُهُ يَحْسُن سائره
وأظهر القَطَّةَ في مبداه يختص بالثلث كذا فرعاه

والثاني نوع مشبه لأوّله فارقه الثاني بمشق آخره
وفارق الرقاع والنسخ فلا رأس ولا ترطيب فيهما انجلا
وثالث الانواع را مستلقيه يخرج منها الصاد والها تاليه
شاركه في البدء ياء مفرده والسين والنون ابتدىء معلقه
وراس كاف ثم راس ياءٍ أيضاً يكونا مثل رأس الراءِ

حرف السين والشين

رَكّبْهُ من ثلاث تقويساتِ ثلاثة إنْ زدتَ فيها تاتي
والثاني مستلق بمدٌ أنْسبه من بعد ترطيب لمدّ اليسر له
ورأسه كراس راء في الشبه يختص بالثلث وباقي الرطبه

حرف الصاد والضاد

ومن خطوط اربع قد ركّبا مستلقياً وبعده منتصبا [13]
وبعده منسطحٌ، وتلوه مقوّس، فافهم وذا تركيبه
فرأس صاد رأس را معلّق والثاني والثالث باء تسلق
رابعها نون بها مُقَوّسُ ومطلق ان شئت ذاك كَيِّسُ

حرف الطاء

عقدته كالصاد زِيدَ المنتصب في رأسه واحذف التقويس تُصِبْ

العين والغين

العين من منكب ثم منتصبْ ومستدير بعده إذا كُتِبْ
مُنْكَبُّها أبداً بسنّ الأيمنِ مرفقا ملطقا بالأحسنِ
بقية المنكب ثم المنتصب بصدره دَوّرْهُ كالجيم تُصِبْ
وإنْ كتبتها فَنَوّعْ اربعا صاديّة فرد وإنْ مُدَّتْ معا
أو حرف مستلق كرا ملويّه والثاني من أنواعها النَغليّه

بـأن تـلـيـهـا ألـف أو هـاء ◦أو دال أو لام وراء يـــاءُ
ثـالـثـهـا مُـخَـيَّـرٌ نـوعٌ أتـى مـن بـعـده نـحـو مـقـوس وتـا [14]
والـفـرق بـيـن الأعـيـن الـمـذكـوره يـظـهـر مـن أوسـاطـهـا الـمـشـهـوره
فـوسـط الـصـاديّـة الـمـتـحـده يـجـيء مـنـه راس بـاء وحـمّـده
والـوسـط الـثـانـي مـن الـنَـغْـلـيّـه كـرأس نـونٍ جـالـس سـويـه
وأوسـط الأجـزا مـن الـمـحـيّـره كـرأس را مـقـوّس مـشـتـهـره
ورابـع الانـواع ذو قـرنـيـن يـسـبـقـهـا حـرفٌ وفَـتْـحُ الـعـيـن
فـي الـثـلـث والـريـحـان والـمحـقَّـقِ وفـي الـتـواقـيـع وفـي الـمـؤنّـقِ
وإنْ طَـمَـسْـتَ بـاقـي الاقـلام فَـحَـسَـنٌ فـي رأيـهـم وسـامـي
وجـاء فـي الـمـفـتـوحـة الـمـركّـبـه ثـلاث أوجـهٍ أتَـتْ مُـرَتّـبـه
سـاوى سـوادهـا مـن الـجـنـبـيـن واظـهـر الـقـطـة فـي الـقـرنـيـن
والـثـانـي أكْـثِـرْ مـن سـواد الأيـسـر مـع ضـعـفـه فـي الايـمـن الـمـصـدر
ثـالـثـهـا مـنـع الـسـواد أصـلا مـن جـانـب الايـمـن فـاتـبـع أصـلا

حرف الفاء

الـفـاء ركّـب مـن ثـلاث مُـتَّـضِـخ منكـبٌ زِدْ مُنْتَصِباً ومُنْسَطِحْ [15]
إنْ زيـل مـنـكـب فـبـاء وافـى أو ألـفـا تـزيـدهـا فـكـافـا
والـفـاء والـقـاف إذا تَـفَـرّدا فـي أوّل الـحـروف فـاطـمـس واقـصدا
بـذلـك الـرقـاع والـنـسـخ وفـي بـقـيـة الاقـلام عـكـسـه اكـتـفـي
وإنْ تـوسّـطـا بـحـرف سـامـي لا يـطـمـسـا فـي سـائـر الاقـلام
أو كـانـت الـفـا آخـر الـحـروفِ لا طـمـسَ أيـضـاعـكـس قـافٍ تـوفـي
فـي قـلـم الـرقـاع والـنسـخ أطـمـسـن وجـاز فـتـحـه وطـمـسـه حـسـن
ولا يـجـوز الـطـمـس فـي الـمـحـقـق وفـرعـه والـثـلـث والـمـوثَّـقِ
كـذا الـتـواقـيـع الـثـلاثـيـة لا تـطـمـس فـقـد نـصّ بـذلـك الـمـلا

حرف القاف

رَكِّبْهُ من خَطَّيْنِ مُنْكَبّاً كذا   مُقَوّساً لا غير قد نصّ بذا
تقويسه كالنون والصاد انشره   لأنه في القدر نصف دائره

حرف الكاف

رَكِّبْهُ من اربعة ستتضح   أوّلها المستلق ثم المنسطحْ [16]
وتلوه منتصبٌ ومنسطحْ   فالأوّلان الياء ردّها تصحّ
باقيهِ باءٌ تمَّ هذا الشكلُ   لا يأت مفرداً وهذا النقلُ
ولا يجيءُ آخر الكلام   وأدخلوه سائر الاقلام
وزاد في الريحان والمحققِ   كذاك في النسخ واعكس ما بقي
وآخر منتصب ومنسطح   تجده من ألفٍ وباءٍ مُتّضحْ
محلّهُ في آخر الكلام   افرد أو أضيف في الدوام
يدخل ذا الشكلان في كل قلمْ   من سائر الأقلام هذا القول عَمْ
وإنْ تُليه الفاً أو لاما   أبداه دالاً تبلغ المراما
واصعد به ملاصق الراس ترى   بياضه كحبّة الكُمَّثْرى
وإن يليه غير لام والفْ   طَوّلْهُ عمّا قبله بذا أُلِفْ
كنصف لام ألفْ ملويّه   نحو اليسار فافهم الكيفيّه

حرف اللام

منتصبٌ وبعده مقوّسُ   واصله ألف وباء مجلسُ [17]
طولهما على السَّوا في الرطبه   ويابس الاقلام زد منتصبه
إن كان رطباً وهوثاني الحرفِ   ارجع به ثلثيه وافرقه تفي
أو كان يابساً ونَسْخاً فاخترْ   ترجع من غير سوادٍ أو تَذَرْ
وابْسِطْهُ عمّا قبلهُ يسيرا   في يابس والفتح زِدْ كثيرا

حرف الميم

الـمـيـمُ اقـسـام تـرى الـمُـجَـلَّـسَـهْ تـخـرج واواً ثـم را مُـقَـوَّسَـهْ
يـدخـل ذا فـي سـائـر الاقـلام قَـصْـرُهُ فـي الـنـسـخ عـلـى الـدوام
والـثـانـي نـوع رأس حـا مَـشْـظِـيّـه مـشـقّـتـه مـشـقّـة را مـسـتـلـقـيـه
ومـنـه نـوع رأسـهِ مـحـلَّـقٌ يـخـتـص بـالـرطـبـة فـيـمـن يـسـبـق
وثـمَّ نـوع رأس جـيـمٍ وأَلِـفْ تـوسّـطـا بـرأس بـاء قـد عُـرِفْ
يـدخـل فـي الاقـلام ثـم تِـلْـوَهُ مـيـمٌ بـه طـمـسٌ وألـفٌ بَـعْـدَهُ
يـدخـل فـي الـتـوقـيـع والـغـبـارِ كـذاك نـسـخٌ ورِقـاعٌ جـاري

حرف النون [18]

قَـوْسٌ مُـقـوّراً أو اطـلـق آخـره فـهـي إذاً تـكـون نـصـف دائـره
ادخـلـهـمـا فـي سـائـر الاقـلام شـبـهـهـمـا الـقـافـان فـي الاحـكـام
وثـالـثٌ عَـلِّـقْـهُ ورَتِّـبَـهْ يُـدخـلـه فـي أقـلامـه الـمـرطّـبـه

حرف الهاء

أَقْـسـامُـهـا تُـعَـدُّ إحـدى عَـشَـرَهْ أوّلـهـا دالٌ وهـا مـن يُـسْـرِه
نـصـفٌ بـه الـمـنـكّـبٌ ثـم الـمـنـسـطـح يـدخـل فـي الاقـلام وهـو الـمـتّـضـح
ودور لامٍ أَلِـفٌ مَـلْـويّـه يـخـتـصّ بـالـرقـاع والـنـسـخـيّـه
ثـالـثـهـا دالٌ وفـاء يـابـسَـهْ رابـعـهـا كـرأس مـيـم جـالـسَـهْ
تـشـبـه خـصـيـة الـحـمـار الـمـبـلـس عـالـيـهـا يـشـبـه أُذْنَ الـفَـرَسِ
خـامـسـهـا كـرأس جـيـمٍ قـاعـده سـادسـهـا كـرأس بـا مـوحّـده
سـابـعـهـا يـشـبـه رأس الـحـاءِ ثـامـنـهـا تـعـلـيـق رأس الـراءِ
تـاسـعـهـا يـشـبـه رأس الـعـيـن عـاشـرهـا صـاديـن كـامـلـيـن
وحـادي عـشـرهـا تُـرَكّـب دالا كـالأوّل أسـلـك سـلـكـهـا مـقـالا [19]
مـن أربـعٍ مـنـهـا لـتـسـعٍ رُتْـبَـهْ وادخـل بـه أقـلامـك الـمـرطـبـه

وثـالـث وعـاشـر وخـتـمـهـا أدخـلـه فـي الاقـلام كـي تَـعُـمّـهـا
رَكّـبْـهُ مـن خـطّـيـن كـبّ أوّلـه وقـوّس الـثـانـي ربـع دائـره
واكـتـبـه أنـواعـاً وخـصّ الاوّلا بـالـثـلـث والـتـواقـيـع الـمـكـبـره
وبـالـتـواقـيـع الـرقـاعـيـة خـصْ ثـانـي الـواوات هـكـذا يُـنَـصْ
وثـالـث يـخـتـصّ بـالـرقـاع رابـعـهـا بـالـنـسـخ بـاتـبّـاع
خـامـسُـهـا يـخـتـصّ بـالـمـحـقّـقِ وفـرعـهـا الـريـحـان ثـم مـا بـقـي

حرف لام ألف

رَكّـبْـهُ مـن ثـلاثـة سَـتـتّـضِـحْ أوّلـهـا الـمـنـكـبُّ ثـم الـمنسطـحْ
كـذاك مُـسْـتَـلْـقٍ تُـرى مـلـويّـه تـدخـل فـي الأقـلام بـالـسـويّـه
فـي الـنـسـخ والـريـحـان دَوِّر دائـره ولا تـقـرن فـي الـمـرطـب سـائـره
والـثـانـي لام وألـف مُـنـكـبّـه من سائر الاقلام خصّ الرطبه [20]

حرف الياء

أوّلـهـا مـسـتـلـقـيـا مـشـتـقّـا مـن رأس راءٍ ثـم نـونٍ عـلّـقـا
كـذاك رأسُ الـكـاف إن شَـقُـقْـتَـهُ مـجـلّـسـاً فـرأس كـافٍ سـقـتـه
والـرأس والـمـنـكـب إنْ ردَدْتَـهُ مـقـلـوب دالٍ كـامـلٍ صَـيَّـرْتَـهُ
وإنْ شـرعـتَ بـعـده مُـقـوَّسـا رأيـتَ دالاً ثـانـيـا مـجـلّـسـا
تـقـويـهـا كـالـنـون والـقـافـات كـذلـك الـلاّم بـلا مـدّات
وإنْ تَـزِدْهـا أوّل الـتـقـويـس ألـفـاً تـرى لامـاً عـلـى الـتـأسـيـس
ونـوع ثـانٍ يـاؤه مـردوده مـن الـيـسـار يـمـنـةً مـمـدوده
نـوعـيـن: أولـى رأسـهـا مـرطّـب مـحـدودة الآخـر رطـب مـعـرب
ونـوعـهـا الـثـانـي بـعـكـس الاولـى فـلا تـرطّـبـه أفـهـم الـمـنـقـولا
أنـواعـهـا الأربـعـة الـمـذكـوره تـدخـل فـي أقـلامـنـا الـمـشـهـوره

* * *

نــجــزت الأرجــوزة الــنــسّــابَــهْ　　وضّــاحــة الأصــول لــلــكــتــابَــهْ
تــهــدي لــمــن ضــلّ عــن الــصــواب　　وظــلّ مــعــدوداً مــن الــكُــتّــابِ [21]
نــاظــمُــهــا عــبــدٌ فــقــيــرٌ راوي　　يــدعــي بــعــبــد الــقــادرالــصــيــداوي
يــرجــو مــن الــكــريــم حُــسْــنَ الــخــاتــمــه　　بــجــاه خــيــر الانــبــيــا والــخــاتــمــه
ولــجــمــيــع الــمــســلــمــيــن عــامــه　　ومــن رآهــا مــن جــمــيــع الأمّــه
وصَــلّ يــا ربّ عــلــى الــمــخــتــار　　وآلــهِ وصــحــبــهِ الاطــهــارِ

* * *

تم الكتاب بعون العزيز الوهاب على يد الفقير محمد الازهري من تلاميذ سليمان الشاكري بمصر ومحمد الكريدي بقسطنطينية، كلاهما تلميذي حافظ عثمان وهو عن مصطفى الايوبي وشيخه درويش علي وهو عن خالد العزيز وهو عن بير محمد وهو عن الدرويش محمد وهو عن مصطفى دده وهو عن والده واضع هذا الاسلوب الشيخ حمد الله الاماسي السهروردي النقشبندي متصلا سنده إلى أمر حضرة سيدنا ومولانا رسول الله.

والحمد لله وحده [22].

نماذج للخطوط الرئيسيّة التي أبدعها إبن البوّاب وتلاميذه

1 - الشكل - 212 - نماذج الأقلام الستة عشر كما كتبها الخطاط، فريد زمانه، محمد بن حسن الطيبي على طريقة إبن البواب، في القاهرة سنة 908هـ. في كتابه «جامع محاسن كتابة الكتّاب ونزهة أولي البصائر والألباب» المحفوظ في متحف «طوب قبو سراي» باستنبول، والنموذج أعلاه بقلم الأشعار.

2 - الشكل - 213 - نموذج قلم الثلث الذي اخترعَهُ يوسف الشجري أخو إبراهيم الشجري وهو على طريقة إبن البواب.

3 - الشكل - 214 - نموذج من قلم المنثور، على طريقة إبن البَوّاب.

4 - الشكل - 215 - نموذج من قلم التواقيع على طريقة إبن البَوّاب.

5 - الشكل - 216 - نموذج من قلم جليل الثلث على طريقة إبن البَوّاب.

6 - الشكل - 217 - نموذج من قلم المصاحف على طريقة إبن البَوّاب.

7 - الشكل - 218 - نموذج من قلمي المسلسل والغبار على طريقة إبن البَوّاب، ويلاحظ أن قلم الغبار أدق الأقلام.

8 - الشكل - 219 - نموذج من قلم النسخ الفضّاح على طريقة إبن البَوّاب.

9 - الشكل - 220 - نموذج من قلم الجليل المحقّق، وهو على شكل المحقّق وبسملته، على طريقة إبن البَوّاب.

10 - الشكل - 221 - نموذج من قلم الريحان على طريقة إبن البوّاب - القلم الرقيق المكتوب بين السطور هو الريحان، وهو كالمحقّق.

11 - الشكل - 222 - نموذج من قلم الرقاع على طريقة إبن البَوّاب.

12 - الشكل - 223 - نموذج من قلم الرياشي على طريقة إبن البَوّاب.

13 - الشكل - 224 - نموذج من قلم اللؤلؤي على طريقة إبن البَوّاب.

14 - الشكل - 225 - نموذج من قلم الحواشي على طريقة إبن البَوّاب.

15 - الشكل - 226 - نموذج من قلم المقترن على طريقة إبن البَوّاب.

16 - الشكل - 227 نموذج من قلم العقد المنظوم، من وضع محمد بن الحسن الطيبي.

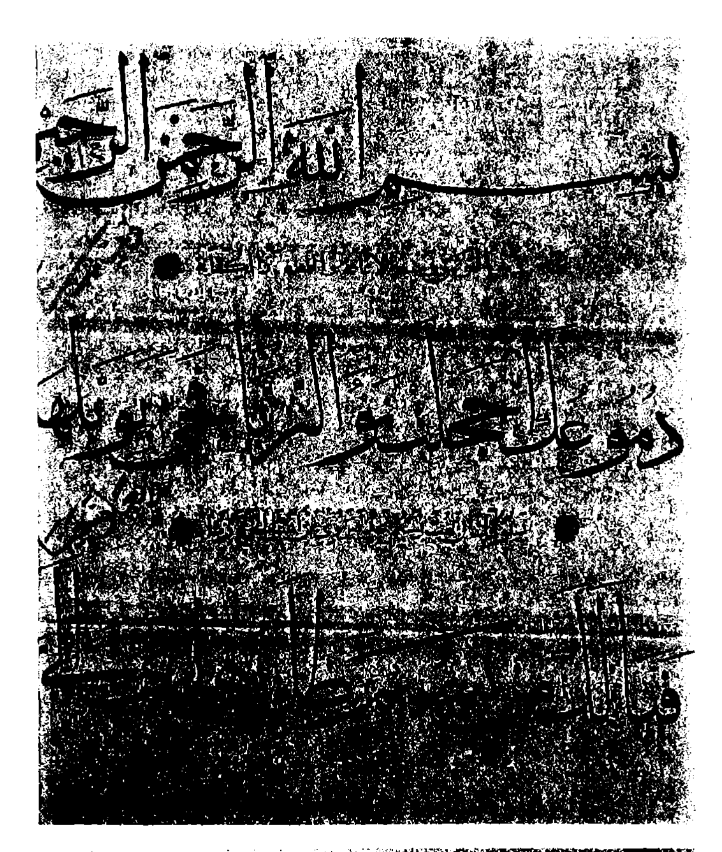
17 - الشكل - 228 - نموذج من البسملة بقلم المحقّق على طريقة الاستاذ حمد الله الأماسي ويلاحظ اختلاف «الريحان العربي عن الريحان التركي».

18 - الشكل - 229 - نموذجين - البسملة، بقلم الثلث على طريقة الأستاذ حمد الله الأماسي والاسفل، كتابة بقلم النسخ على طريقة الأستاذ حمد الله الأماسي.

19 - 20 - الشكل - 232 و233 - نماذج أخرى للأقلام الستة، من كتابات الشيخ حمد الله الأماسي، أو منسوبة إليه أو ما يعرف « شش قلم».

وهي: المحقّق، الريحان، التوقيع، الرقاع، الثلث، النسخ، وهي ضمن مجموعة، خليل أيثم، ملك جلال - استانبول 1948.

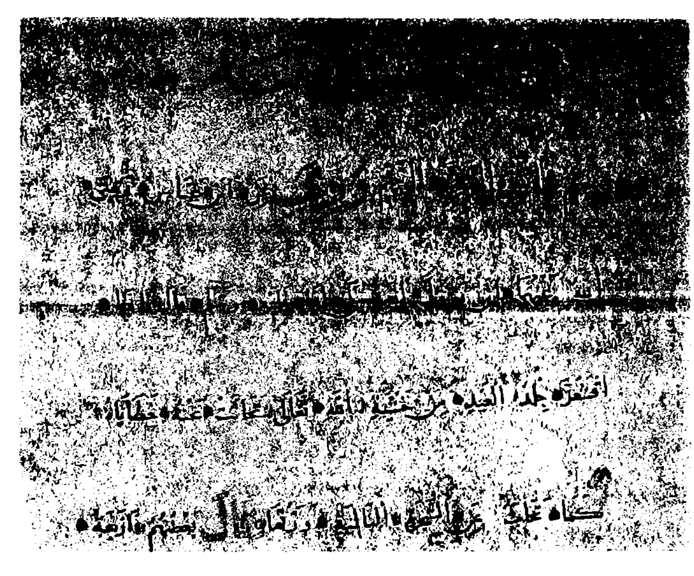
المصدر: ناجي زين الدين/ بدائع الخط العربي/ ص 148، ص 158.



شكل ـ ٢١٢ ـ



شكل ـ ٢١٣ ـ



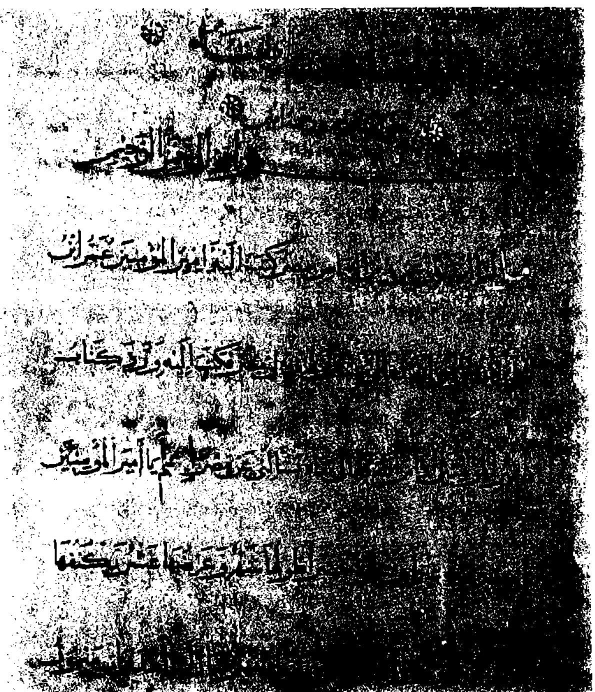
شكل —٢١٤—



شكل —٢١٥—



شكل —٢١٦—



شكل —٢١٧—



شكل ــ٢١٨ــ



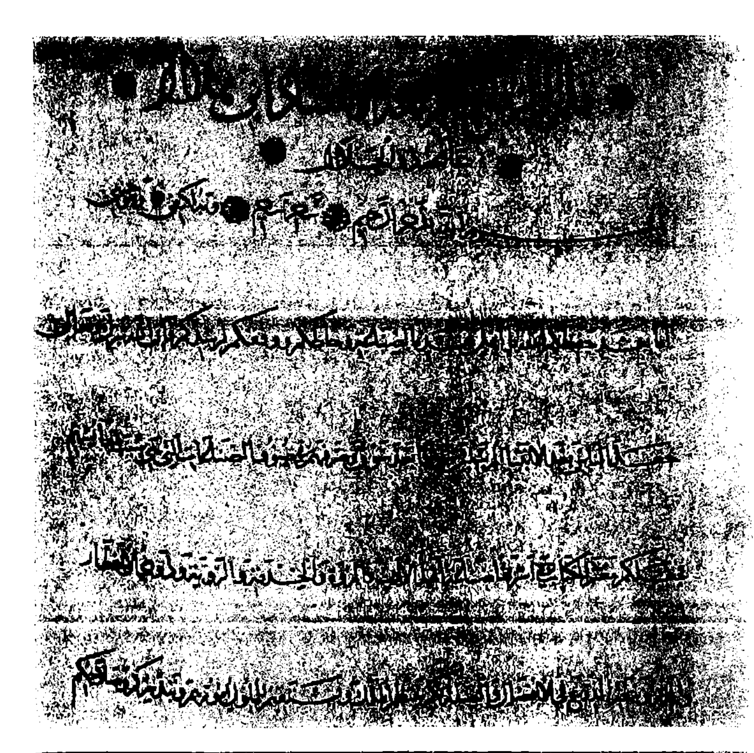
شكل ــ٢١٩ــ



شكل ــ ٢٢٠ ــ



شكل ــ ٢٢١ ــ



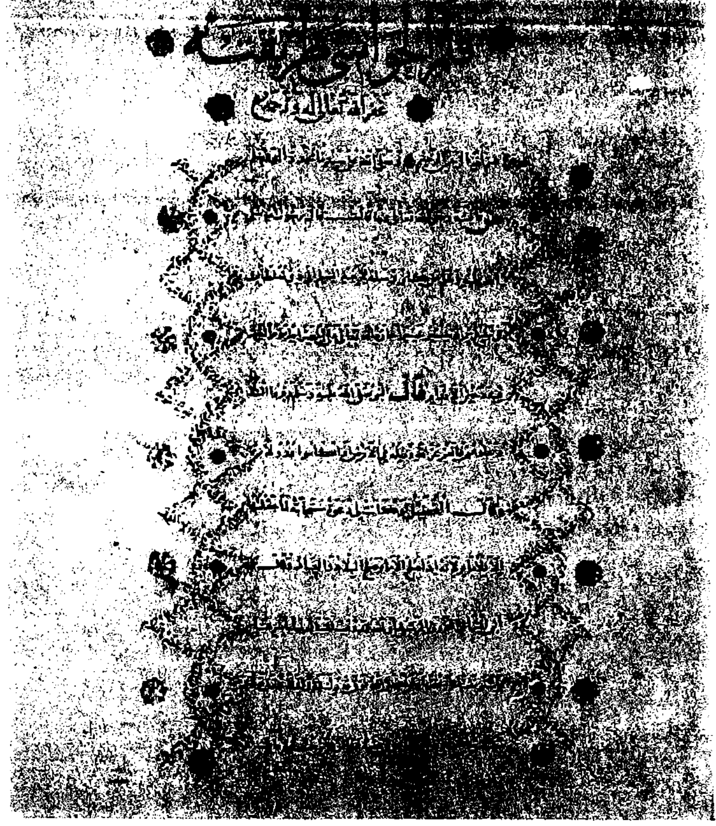
شكل ـ ٢٢٢ ـ



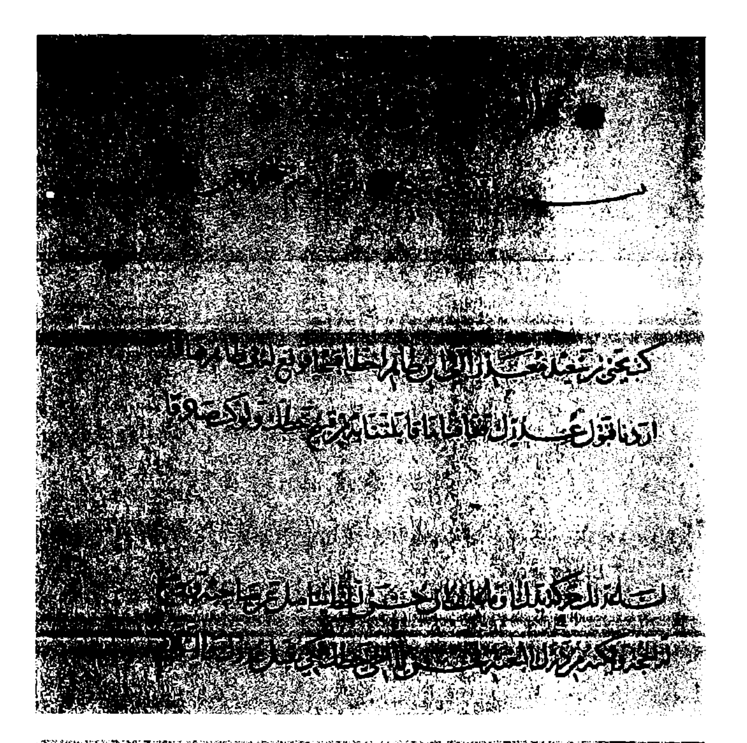
شكل ـ ٢٢٣ ـ



شكل ـــ ٢٢٤ ـــ



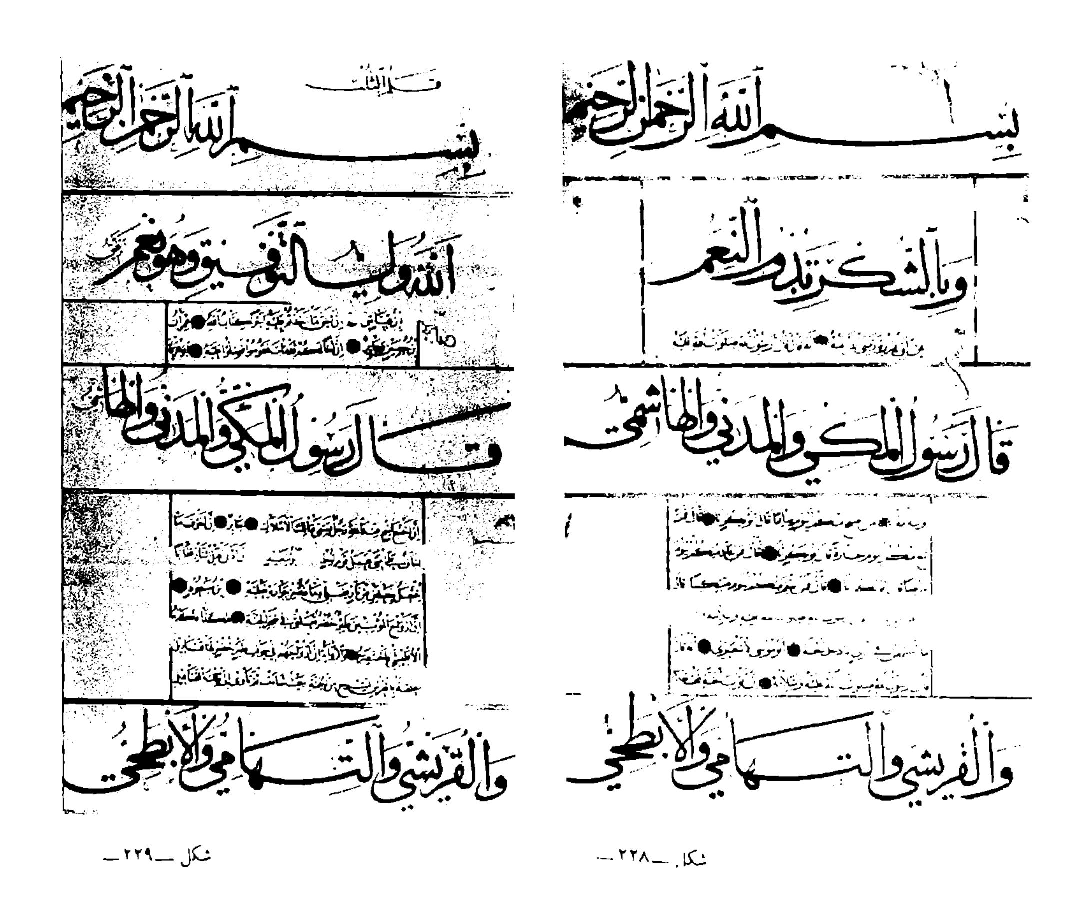
شكل ـــ ٢٢٥ ـــ



شكل ــ ٢٢٦ ــ

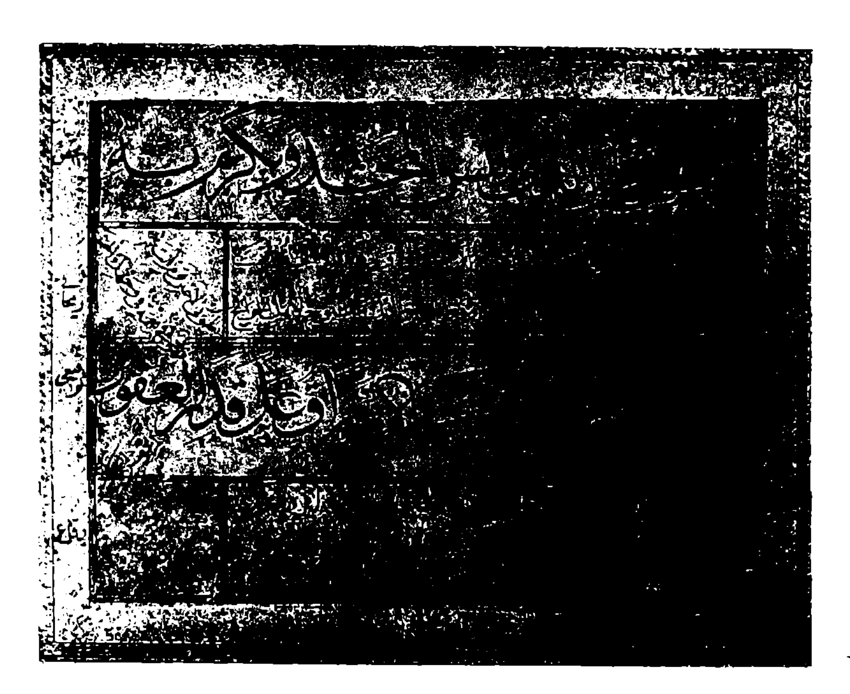


شكل ــ ٢٢٧ ــ

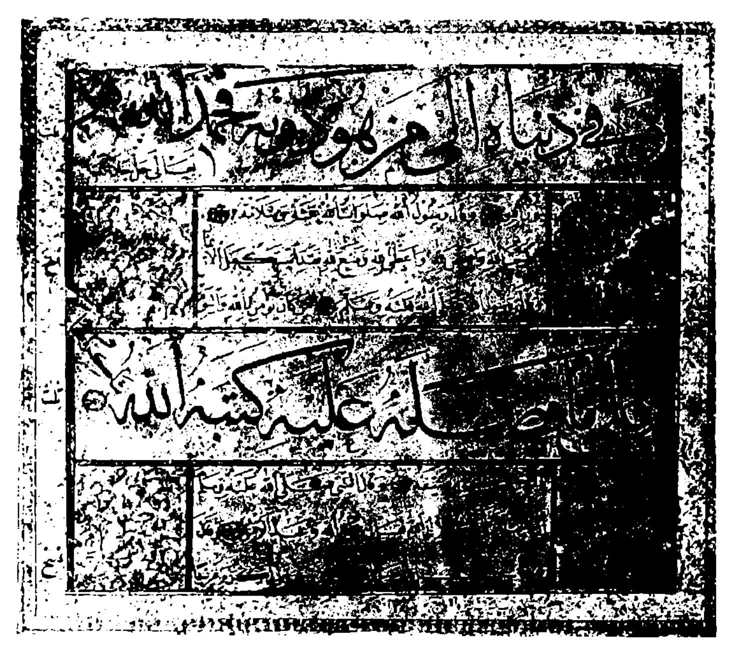


شكل ـ ٢٢٨ ـ

شكل ـ ٢٢٩ ـ



شكل ــ ٢٣٢ ــ



شكل ــ ٢٣٣ ــ

نماذج لخط التعليق والنستعليق «الفارسي»

1 - الشكل رقم - 733 - لوحة للخطاط عدوي، جلي تعليق. والبسملة بخط النسخ.

2 - الشكل رقم - 734 - لوحة متعاكسة التناظر، متراكبة الكلمات، نصّها، «من صبر ضفر» كتبها محمد أمين يمني سنة 1378هـ، وهومن المعمرين الذين تجاوزوا «المئة» وهو يعمل الأختام في بغداد.

3 - الشكل - 741 - لوحة فنيّة تجمع سبعة نصوص مختلفة، كتبت بخط ديواني جلي من قبل الأستاذ محمد عزت الكركوكي.

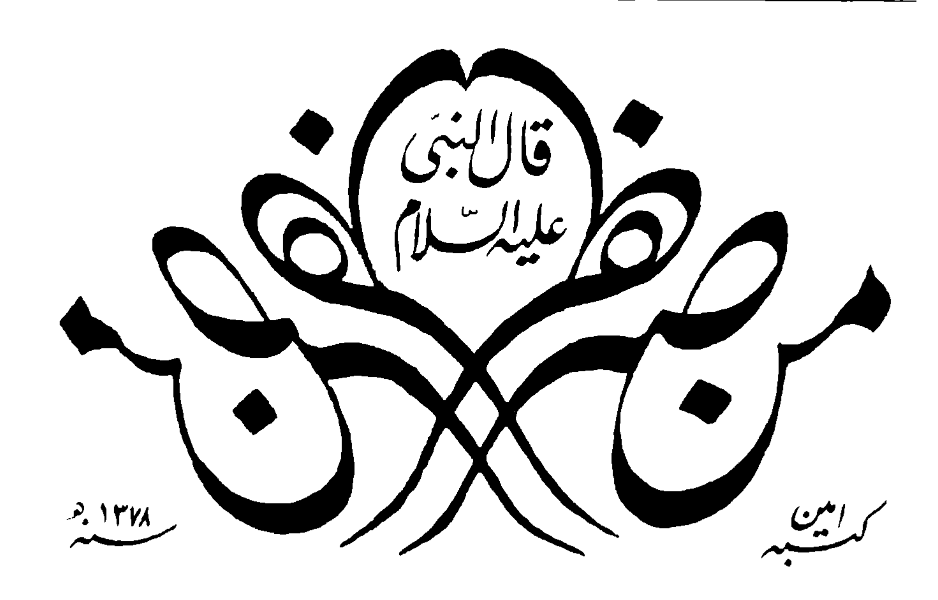
المصدر: ناجي زين الدين/ بدائع الخط العربي/ ص 397 وص 401.

4 - لوحة بإسلوب فارسي للخطاط رسا، متحف دمشق 1914م، من كتاب الخطاط حسن المسعود/ الخط العربي/ ص 68.

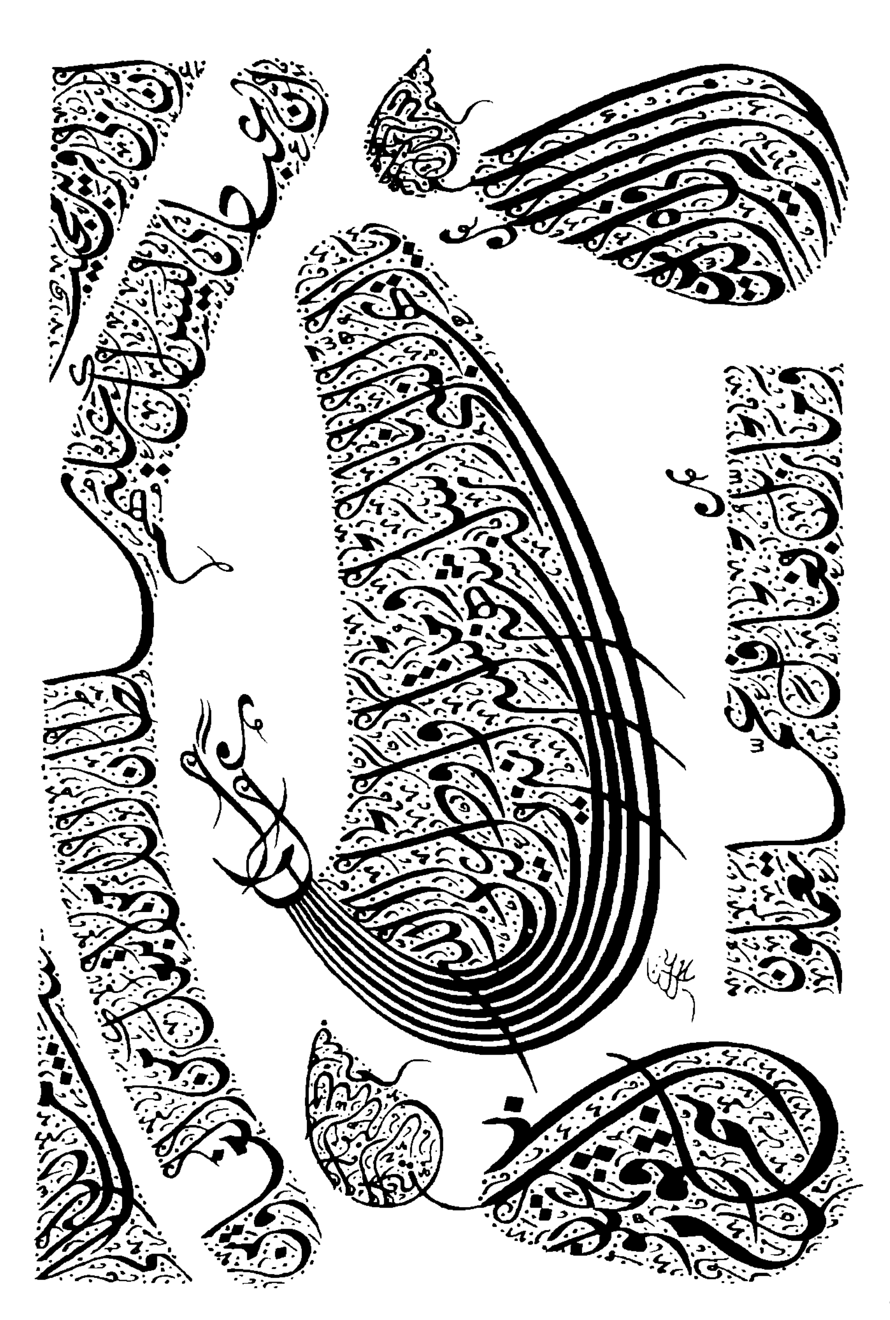
5 و6 - خط فارسي بكلام فارسي - حصلنا عليها من كتاب لتعليم الخط الفارسي.



شكل ـ ٧٣٣ ـ



شكل ـ ٧٣٤ ـ



شكل ــ ٧٤١ــ

لفَارسي ولد هذا الخَـط في إيران وَيُستعـمل بكـثره هناك كَـكما في كُـكل البلدان الاسـلاميّـة وَيمتـاز بـالرشـاقـة وَالانَـاقـة ه وَتوجد منه تفرعَـات كخـط الشكسـتـة .

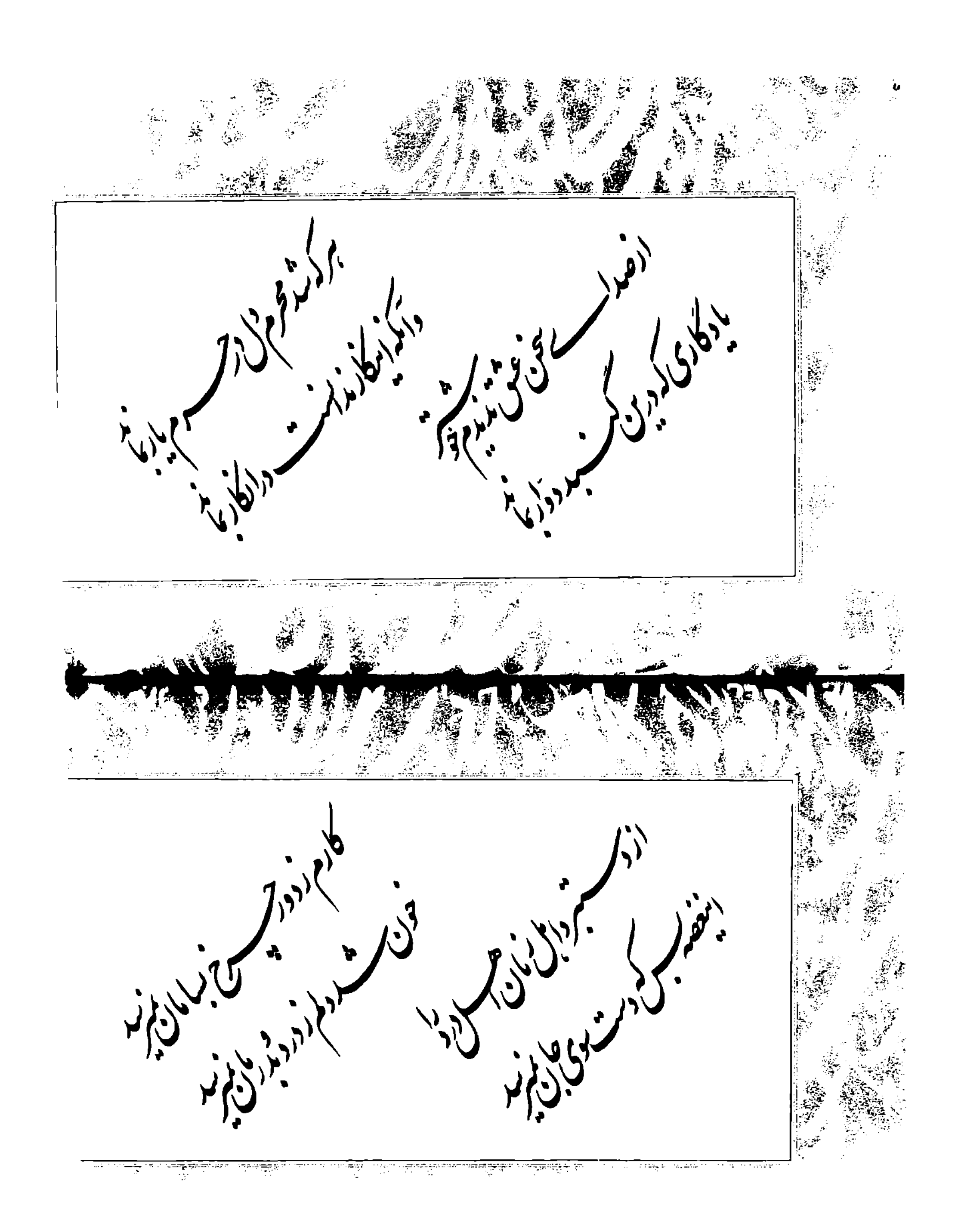
Farsi ou **Taliq** : écriture cursive très élégante qui est née en Perse, puis s'est étendue aux pays musulmans.



Style Farsi par le calligra
Musée de Da

ـلوب فارسي للخطاط رسا
١٩١ م - متحف دمشـق




هر که شد محرم دل در حرم یار بماند
وانکه این کار ندانست در انکار بماند
از صدای سخن عشق ندیدم خوشتر
یادگاری که در این گنبد دوار بماند
کارم ز دور چرخ به سامان نمیرسد
خون شد دلم ز درد و به درمان نمیرسد
از دستبرد اهل زمان اهل درد را
این غصه بس که دست سوی جان نمیرسد

الباب الخامس

ياقوت المستعصمي
آخرُ المَدرَسَة البغدادية في الخط العربي

إنَّ المتتبّع لتاريخ تطور الخط العربي يُدرك تماماً أهمية المدرسة البغدادية في هذا الفن الرفيع، فما أن يأفل نجمٌ من مشاهيرها حتى يبزُغَ نجم آخر ليحُلَّ محلَّهُ، فما خلت بغداد قطُّ من عَلم في هذا الفَن، منذ عرفت للأقلام موطن ابتداعها حتى هذا الوقت[1]، وراية الريادة في إبداع القلم ما زالت بيد أبنائها، وهم يبدعون الأقلام الجديدة المتطورة، حتى لقد كانت لهم الأسبقية في دخول الحرف العربي - كفن - في مجال «الكمبيوتر»[2] في نهاية القرن العشرين.

وقد لاحظنا أن إبن مقلة خلق هذه المدرسة، وتَسلَّم إبن البَوّاب من بعدهِ الراية والريادة، وظلّت تحمل إسمهُ حتى (ق 7هـ/ 13م)، حيث آلت رياسة الخط وسفينة القلم العربي لياقوت المستعصمي، بوصفهِ الركن الأساسي الثالث في هذه المدرسة الفنيّة ذات الإبداع الخالد:

الفصل الأول

من هُوَ ياقوت المستعصمي؟!

هو إنسان رومي الأصل، دَفَعَتْهُ أقداره لأن يُشترى كرقيقٍ أو مَولىً، وكان من حُسنِ

---

(1) يعتبر الخطاط هاشم محمد البغدادي، هو استمرار لتلك المدرسة وأحد المطوّرين فيها في القرن العشرين.

(2) لقد استطاع الخطاط العراقي/ محمد سعيد الصكار/ أن يدخل - الخط العربي - إلى الكمبيوتر وأن يجعل استخدام هذا الفن/ الخط/ يدخل في هذا العالم الواسع «الكمبيوتر» كما أنه أبدع عدّة خطوط عربية/ لا سيما الخط الحديث/ في لغة الصحافة اليومية، حيث اشتقَّهُ من تمازج النسخ والرقعة، في شكل بديع، في مطلع السبعينات من القرن العشرين.

حَظِّهِ أن اشتراه الخليفة المستعصم بالله العباسي (عبد الله بن المستنصر - 640 - 656هـ/ 1242 - 1258م) وقد رُبّيَ ياقوت بدار الخليفة واعتنيَ بتعليمه الخط بناءً على وصيّة الخليفة ذاته، وأسندت هذه المُهمّة إلى الشيخ صفي الدين عبد المؤمن، ومن ثم كتب على الشيخ إبن حبيب[1].

لُقِّب بجمال الدين، وكنِّي بـ«أبي الدُر» واشتهر بياقوت المستعصمي، نظراً لكونهِ مولى الخليفة المستعصم بالله، وإسمُه الكامل هو «ياقوت بن عبد الله المستعصمي»[2] الرومي الطواشي، لقَّبُه اللاحقون عليه بـ«قبلة الكتّاب» وعنهم أخذ المحدثون[3].

إختلفت في ترجمتهِ المصادر القديمة، لا سيما بشهرته «ياقوت المستعصمي» حيث كان هناك إسمٌ آخر لخطاطٍ وكاتبٍ ثانٍ بهذا الإسم، يُعرف بـ«ياقوت المستعصمي بن عبد الله الموصلي المتوفّى سنة 618هـ» وهو الآخر كان مجيداً للخط، ومتَّبعاً طريقة إبن البَوّاب. وهذا الإشكال وقع فيه الذهبي في «سير أعلام النبلاء 22/ 149» الترجمة رقم (98) وقد إنتبَهَ إبن تغري بردي إلى ذلك، وفَصَّلَهُ بشكل دقيق في «النجوم الزاهرة» الجزء 5/ 283، في أخبار سنة 543هـ، حيث يذكر كل الأُدباء والخطّاطين والكتّاب الذين يشتركون بهذا الإسم.

والغريب في الأمر أن خطّاطاً وباحثاً معاصراً، ومُهتمّاً بتاريخ الخط العربي، هو الأستاذ «محمد طاهر الكردي» يقع في هذا الإشكال، في كتابه (تاريخ الخط العربي وآدابه) ص 368 - 369، فلم يُميِّز بينَهُ وبين سَمِيِّهُ الموصلي المعروف بلقب «أمين الدين الملكي» نسبة إلى ملكشاه السلجوقي (1055 - 1092م). وقد ترجم ياقوت الحَموي في «معجم الأدباء» لياقوت بن عبد الله الموصلي - مولى السلطان ملكشاه، ولم يترجم لياقوت المستعصمي، نظراً لوفاتهِ قبله، حيث توفى ياقوت الحموي في عام 622هـ[4].

(1) أنظر: إبن الفوطي «الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة» ص 237 - طبعة دار الفكر الحديث - بيروت 1407هـ/ 1987م.

(2) إبن تغري بردي «النجوم الزاهرة» 5/ 283 و8/ 187، وراجع - الذهبي: «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» 5/ 443، وإبن كثير - البداية والنهاية - 14/ 6 الطبعة الأولى مكتبة المعارف - بيروت 1966م - والزركلي 8/ 131 - 132.

(3) تحفة الخطاطين - نقلاً عن الخطاط البغدادي - ص 21، وتعليقات محمد بهجت الأثري عليه ص 82.

(4) راجع «معجم الأدباء» 19/ 312 - 313 - وعن وفاته راجع - الزركلي في الأعلام 8/ 131.

نشأ «ياقوت المستعصمي» في بغداد، واكتسب عادات أهلها، واشتغلَ خازناً بدار الكتب المستنصرية، كما يقول إبن الفوطي[1].

ثم إنتهت إليه رياسة الخط المنسوب. كان يكتب على طريقة إبن البَوّاب[2]، وكانت لَهُ حظوة ورعاية من عند علاء الدين الجويني صاحب الديوان، وأحد أبرز تلاميذ إبن البَوّاب[3]، وما أن حَلّت قدَمَهُ في الديوان، حتى أوعز علاء الدين الجويني لأولادِهِ وابن أخيهِ شرف الدين هارون أن يكتبوا عليه[4].

ومن بغداد ذاتها شاع ذكر ياقوت المستعصمي، حتى طبقت شهرته الآفاق واعترفوا لَهُ بالعجز عن مُداناة رتبته[5]. وقد ذكرت المصادر التاريخية أن الكثيرين من أولاد الأكابر أخذوا عنه صناعة القلم، وكان محترماً مُعظماً، يقول عنه إبن كثير: «كان فاضلاً، مليح الخط مشهوراً بذلك، كَتَبَ خِتَماً حساناً، وكتب الناس عليه ببغداد»[6].

لقد شَهَدَ ياقوت المستعصمي سنة 656هـ/ 1258م، وأهوالها إذ تهاوت أمام عينيه صروح الحضارة العباسية وهي تُداس بسنابك خيل المغول والتتار وتنقضُّ على معالم بغداد الأثرية والثقافية، وكيف أضحت مخطوطاته ومخطوطات غيره، نهباً للنار أو غرقاً في دجلة، أو ضياعاً تحت أقدام المغول. وهذه الفترة من حياتِهِ، لم تُسلّط عليها الأضواء بشكل دقيق من لدن المؤرخين الذين كتبوا عنه، حيث ذكرت المصادر أن ياقوت المستعصمي تُوفي سنة 698هـ[7] أي بعد سقوط الخلافة العباسية بنحو 42 سنة، هي الغير واضحة ولا مكشوفة بشكل جلي في حياته فيما ذُكرت إشارات بأن الناس أخذوا عنه، ولم نعثر على مصدرٍ هام يُشير إلى إبداعاته وإضافاته على الخط، وتلاميذه الذين أخذوا عنه أو قلّدوه في الطريقة والمنهاج، سوى إشارة وردت عند الأستاذ بهجت الأثري تحدث فيها عن إستمرار شجرة الخط العربي بعد ياقوت المستعصمي إلى عبد الله الصيرفي، وعنه أخذ

---

(1) نقلاً عن ناجي معروف/ تاريخ علماء المستنصرية/ ص 385، ط1 - بغداد سنة 1379هـ/ 1959م، وسهيلة الجبوري/ الخط العربي وتطوره/ ص 92.

(2) إبن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب 5/ 443.

(3) راجع الباب الرابع/ تلاميذ إبن البوّاب/ في هذه الدراسة.

(4) إبن الفوطي/ الحوادث الجامعة/ ص 236.

(5) كشف الظنون 1/ 711.

(6) البداية والنهاية 14/ 6.

(7) الحوادث الجامعة - ص 236؛ شذرات الذهب 5/ 443؛ النجوم الزاهرة 8/ 187؛ البداية والنهاية 14/ 6؛ كشف الظنون 1/ 711؛ الخطاط البغدادي ص 20 - 21؛ الزركلي 8/ 131؛ سهيلة الجبوري ص 93.

الشيخ حمد الله بن مصطفى دده الإماسي وعنهُ أخذ خير الدين المرعشي، وهذا الأخير تخرّج عليه خَلْقٌ كثير، وتوفي سنة 876هـ[1].

الفصل الثاني

آثاره الفنيّة والأدبية

أشار مُعظم المترجمين الذين أرّخوا لحياتهِ إلى إلمامهِ بالأدب، من نظمٍ ونثر، إلى جانب اختصاصهِ في الخط، وذكروا لَهُ المؤلفات الأدبية التالية[2]:

1 - أسرار الحُكماء - طبع بالإستانة سنة 1300هـ.

2 - أخبار وأشعار ومُلح وحكم ووصايا منتخبة - طبع بالإستانة سنة 1302هـ.

3 - رسالة في الخط.

- أمّا آثارهُ الفنيّة، فهناك نموذج بخطّه «بقلَم الثلث» كتبها سنة 682هـ/ في الصفحة الأخيرة من/ ديوان الحادرة/ محفوظ الآن في «متحف طوب قبو - خزانة رقم 1642 - إسطنبول[3].

- كما يوجد أثر آخر لهُ، بخط النسخ، مؤرخ بسنة 681هـ[4].

وذكر المقريزي، أن بمدرسة الأشرف شعبان بن حسين بن محمد إبن قلاوون في القاهرة «عشرة مصاحف» طول كل مصحف منها أربعة أشبار إلى خمسة، في عرض يقرب من ذلك، أحَدها بخط ياقوت، وآخر بخط إبن البَوّاب وباقيها بخطوط منسوبة، ولها جلود في غاية الحُسن معمولة في أكياس كالحرير[5].

---

(1) الخطاط البغدادي - ص 84 من «التعليقات».

(2) جرجي زيدان/ تاريخ آداب اللغة العربية 3/ 143؛ وأعلام الزركلي 8/ 131؛ ومحمد بهجت الأثري في/ تعليقات على كتاب الخطاط البغدادي/ ص 83؛ وسهيلة الجبوري ص 93.

(3) راجع: مصوّر الخط العربي/ لناجي زين الدين المصرف/ ص99 - طبعة المجمع العلمي العراقي.

(4) محمود شكري الجبوري/ نشأة الخط العربي/ ص 67؛ مكتبة الشرق الجديد/ بغداد/ 1974، وسيجد القارىء - نماذج - من خطهِ في نهاية هذا الفصل.

(5) سهيلة الجبوري/ الخط العربي وتطوره/ ص 82 - 83.

فيما ذكر الأستاذ محمود شكر الجبوري أنَّ لياقوت المستعصمي آثاراً أدبيّة خطّت بقلمه وهي[1]:

1 - درر الحكم، لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت 429هـ) وهي موجودة في دار الكتب المصرية.

2 - طيف الخيال، ومنه نسخة في خزانة السلطان أحمد الثالث كتبها ياقوت سنة 674هـ.

3 - نسخة ديوان قطبة بن أوس وهي مخطوطة في برلين - ورقة رقم 2694.

4 - إسبوعيات - ليس عليها إسم المصنّف، كتبت سنة 689هـ.

5 - قرآن «جزء 12» مع ترجمة فارسية قديمة كتبت سنة 684هـ بيد ياقوت.

6 - كما توجد لَهُ آثار في متحف دار الكتب المصرية وفي متحف النيل بالقاهرة، وفي غيرها من المتاحف العالمية[2].

- كما أجمعت المصادر، التي ذكرت شعر «ياقوت المستعصمي» على استحسانه، لا سيما الغزلي منه، ومن ذلك ما نقله «إبن الفوطي»[3].

«بدا بوجهٍ مخجلٍ شمس النهار المشرقة
في أذنهِ لؤلؤة كأنها والحلقة
قد أُخذت في وردةٍ بالياسمينِ ملحقة»

وقال يهنىء أحدهم بعيد[4]:

هَمُّكَ إسعافٌ وإسعادُ فدمتَ تزدان وتزدادُ
ما العيد في عصرك مستظرفاً جميع أيّامكَ أعيادُ

وقال معاتباً أحد أحبَّتِهِ[5]:

صدقتم في الوشاة وقد حَظا في حُبّكم غيري ولي تكذيبها

(1) أنظر بحثه الموسوم بـ«الخطاط ياقوت المستعصمي» والمنشور بمجلة (المورد) عدد خاص عن الخط العربي - العدد 4 - المجلد 15 - السنة 1407هـ/ 1986م/ ص 152.

(2) د. محمد عبد العزيز مرزوق - العراق مهد الفن الإسلامي/ ص 44.

(3) الحوادث الجامعة في المئة السابعة/ ص 236؛ والبداية والنهاية 4/ 6.

(4) إبن الفوطي/ الحوادث الجامعة في المئة السابعة/ ص 236.

(5) المصدر السابق/ ص 237.

وزعـمـتـم أنّـي مَـلَـلْـتُ حـديـثـكـمُ   مَـنْ ذا يَـمَّـلُّ مـن الـحـيـاة وطـيـبـهـا

وقال متغزلاً[1]:

أراكَ فـأُغـضـي الـطـرف عـنـك مـخـافـة   عـلـيـكَ وعـنـدي مـنـكَ داءٌ مـخـامِـرُ

يـزيـدُ عـلـى مَـرِّ الـجـديـديـن جُـدَّةً   ولـيـس بـبـالٍ يـوم تُـبـلـى الـسـرائـرُ

تلك هي حياة المبدع ياقوت المستعصمي التي عثرنا على بعض تفصيلاتها من المصادر، ولكن ما هو «ضائع» أكثر من ذلك بكثير، فعسى أن نحض بهِ ذات يومٍ من أحَّدِ المخطوطات التي لم تُحقق بعد، والتي هي تزيد على الملايين، ولم يكشف عنها النقاب حتى هذه اللحظة.

(1) إبن الفوطي/ الحوادث الجامعة في المئة السابعة/ ص 237.

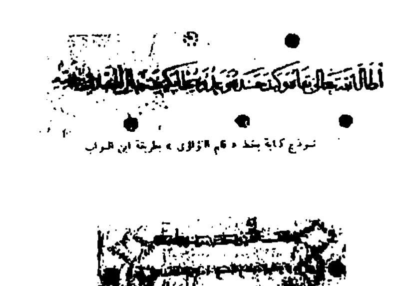
ياقوت المستعصمي
في صفر سنة اثنتين وثمانين وستمائة والحمد لله
وحده وصلواته على خير خلقه محمد وآله وسلامه

نموذج كتابة بخط الثلث على قواعده التامة في عصره
من نسخة نفيسة كتبها ياقوت المستعصمي في سنة ٦٨٢ هـ

صور من خطوط ياقوت المستعصمي



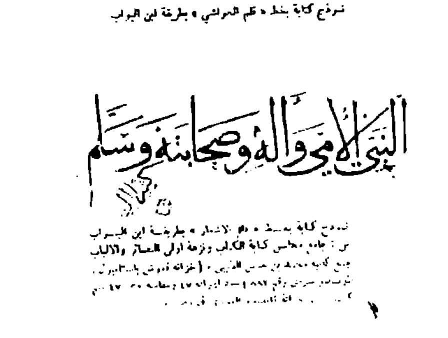
الخط النسخي كما أبدعه «قبلة الكتاب» ياقوت المستعصمي



نموذج كتابة بخط «قلم الرقاع» بطريقة ابن البواب

نموذج كتابة بخط «قلم الرياسي» بطريقة ابن البواب

نموذج كتابة بخط «قلم اللؤلؤي» بطريقة ابن البواب



نموذج كتابة بخط «قلم الحواشي» بطريقة ابن البواب

نموذج كتابة بخط «قلم الأشعار» بطريقة ابن البواب من: جامع محاسن كتابة الكتاب ونزهة أولي البصائر والألباب

الفصل الثالث

المرأة والخط العربي

لقد ذكرنا في هذه الموسوعة [ج 5 أعلام الورّاقين] نسوةً كانت لهنَّ مشاركة فَعّالة في مهنة الوراقة، في مختلف الأمصار الإسلامية، لا سيما بغداد واشبيلية وقرطبة. ونظراً لتطور مسارات الخط العربي في العصر العباسي، والإرهاصات الفنيّة التي سبقته، وعندما بلغت المدرسة البغدادية في الخط ذروتها على يد آخر أعمدة هذه المدرسة «ياقوت المستعصمي» حيث انتشرت تأثيرات الخط العربي على مختلف الأمصار الإسلامية، ومسّت كل طبقات المجتمع وأجناسه وأصبح التعاطي في الخط والأدب والشعر وفنون الثقافة الأخرى، إحدى مظاهر «الظُرف» بوصفهِ حالة ثقافية في المجتمع العباسي، وعليه أصبح من اللازم أن تتعاطى المرأة وتتفاعل مع ميسم الثقافة العام، فالحالة الناهضة للعصر - من كافة الوجوه - أصبحت عامل دفع قوي للمجتمع فظهرت المغنيات والفنانات[1] والظريفات والأديبات والشاعرات والورّاقات والخطّاطات أيضاً، وهو الأمر الذي يكشف تفاعل المجتمع العباسي مع عصرهِ المتطور.

ونظراً لأهمية موضوع المرأة في الفنون الإسلامية عامة ومسألة الخط، خاصة، إرتأينا أن نذكر تراجم مختصرة، لمجموعة من النساء الخطّاطات، بهذا الباب، منوهين بمبدأ السبق للسيدة ظمياء محمد عباس التي نشرت مقالاً بعنوان «نساء خطّاطات» صدر في العدد الخاص بالخط العربي، من مجلة المورد العراقية، العدد/ 4 - المجلد 15 - السنة 1986م، والذي أفادنا كثيراً في هذا الفصل.

قد ذكرنا - في ترجمة إبن البوّاب وتلاميذه، أنّه كان هناك سلسلة غير منقطعة لتعاطي هذا الفن الجميل بين الرجال والنساء، وقد ذكرنا منهن «شهدة الكاتبة وفاطمة بنت الأقرع» اللّتان كانتا بمثابة «أساتذة» لتعلم هذا الفن، وعنهن تؤخذ أصولَهُ وقواعده، وعليه سوف نفرد في هذا الفصل - ترجمة للخطّاطات والمزوّقات للمصاحف - كُلٌ مِصْرٍ على حدا، تسهيلاً للقارىء، وانسياقاً مع منهجنا الذي سرنا عليه في هذه الموسوعة.

---

(1) لقد أفردنا كتاباً لنا بعنوان «مغنيات بغداد في عصر الرشيد وأولاده» لهذه النخبة من المغنيات - صدر بدمشق عام 1991م من منشورات - وزارة الثقافة السورية.

أ - الخطّاطات البغداديّات

1 - مريم بنت مصطفى

واحدة من البغداديات اللاّتي إستهوتها مهنة الخط، فأوجدت طريقة مازجت بها بين الحرف - كشكل - يعبّر عن معنى، وبين استخدامهِ كوحدة زخرفية بشكل مبسط. فقد وجدت نسخة من «مختار الصحاح للرازي» بخطّها، محفوظة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد، تحت رقم (1074) توحي بمقدرتها وتمكنها من الكتابة الفنيّة بشكل واضح، حيث إسلوبها يشير إلى المقدرة على التفنن في مد الحروف وتطويعها مستخدمة خط النسخ الرقيق المشكول، لكتابة متن الكتاب بمدادٍ أسود، وجعلت عناوين الكتاب بمداد أحمر، وبخط النسخ أيضاً، وبقلم أغلظ من قلم المتن، وشغلت الحواشي بتعليقات ومنقولات من كتاب «صحاح الجوهري» ووضعت في نهاية كل نصٍ منقول وقفات بأشكال زخرفية دقيقة وكتابتها تلك تعود لسنة 959هـ/ 1551م. في مدينة سلانيك[1].

2 - الخطاطة رابعة بنت مُلا نازك

إمرأة بغدادية، يبدو أنها تعلمت تلك المهنة من الوسط الذي تعيش فيه، فقد عثر لها على كتاب بخطّها «شرح المواقف» محفوظ في مكتبة المتحف العراقي ببغداد تحت رقم (25332) مستخدمة خط النسخ والمداد الأسود في كتابة المتن والعناوين بمداد أحمر، إتّسمت كتابتها بدقة الخط ورشاقتهِ، إلاّ أنها لم تكن دقيقة في نسخهِ، حيث كثر التصحيف والتحريف والعثرات اللغوية، والنسخة مكتوبة سنة 1101هـ/ 1689م، وعدد الصفحات 761 صفحة[2].

3 - عَريب المغنية[3]

ذكرها صاحب «الدر المنثور» بأنها كانت مغنية محسنة، شاعرة جيدة الخط، ولدت سنة 181هـ/ 797م، خرج بها مولاها إلى البصرة، فأدّبها وعلمها الخط والنحو والشعر والغناء، توفيت سنة 277هـ/ 890م[4].

---

(1) راجع - ظمياء محمد عباس/ نساء خطاطات/ مجلة المورد (العدد 4 - مجلد 15/ لعام 1986م) ص 142.

(2) المرجع السابق/ نفس الصفحة.

(3) أنظر ترجمتها المفُصلة في كتابنا/ مغنيات بغداد في عصر الرشيد وأولاده/ ص 180 - ص 196.

(4) الدر المنثور في طبقات ربّات الخدور/ ص 331؛ وأعلام النساء لكحالة 2/ 1000 - 1007.

4 - خديجة بنت محمد الشاهجانية

واعظة من واعظات بغداد، ولدت سنة 376هـ/ سمعت أبا الحسين بن سمعون الواعظ، وروت عنه الجزء الثاني من أماليه، وكتبت بخطّها عن جماعة، توفيت سنة 460هـ/ 1067م[1].

5 - فاطمة بنت الحسن بن علي الأقرع

كنيتها، أم الفضل الكاتبة، كانت أحسن الناس خطّاً على طريقة إبن البَوّاب، أخذ الناسُ عنها جودة الخط، نعتها السمعاني بالقول «كان لها خطٌّ مليح حسن»، الأمر الذي أهَّلها لكتابة «كتاب الهُدنة إلى ملك الروم من ديوان العزيز، بعد أن غادرت بغداد إلى مصر - وقد كان والدها عطّاراً من أهل بغداد، توفيت ببغداد سنة 480هـ/ 1087م[2].

6 - شهدة الآبري

هي بنت أبي نصر أحمد الآبري، الدينورية الأصل، البغدادية المنشأ والمولد والوفاة. تعلمت الأصول وأخذت العلم من كثير من الشيوخ وأجازوها باقتدار. تعلمت الخط على يد محمد بن عبد الملك الذي أخذ الخط عن إبن مُقلة. عُرفت بـ«شهدة الكاتبة» لجودة خطّها، ومنها تعلم الخطّاط ياقوت بن عبد الله الملكي النوري سنة 618هـ/ 1221م كاتب سلطان ملكشاه، توفيت ببغداد سنة 574هـ/ 1118م، ودفنت بباب أبرز[3].

7 - حافظة خاتون بنت محمد سعيد أفندي

والدها كان «نائب الحِلّة سابقاً» تتلمذت على الخطاط سفيان الوهبي البغدادي، تميّزت بإجادة خط النسخ والثلث. هناك بعض آثارها الفنية «رُقع خطيّة، وآيات قرآنية» توفيت ببغداد سنة 1346هـ/ 1927م. ودفنت في مقبرة الإمام الأعظم[4].

---

(1) أعلام النساء 2/ 290؛ وأعلام الزركلي 4/ 130؛ وظيماء محمد عباس/ مجلة المورد/ ص 144.

(2) المرجع السابق 2/ 144؛ والزركلي 2/ 49؛ وظمياء عباس/ المرجع المذكور/ ص 144؛ وراجع كذلك - فصل - تلاميذ إبن البواب - في هذا الكتاب.

(3) وفيات الأعيان 2/ 477؛ أعلام النساء 2/ 699؛ أعلام الزركلي 3/ 178؛ وكذلك ظمياء محمد عباس/ مجلة المورد - العدد 4 - لعام 1986م/ ص 144.

(4) إبراهيم الدوري/ البغداديون - أخبارهم ومجالسهم/ ص 258، نقلاً عن ظمياء محمد عباس/ ص147.

8 - صالحة خاتون النقشلي

نشأت وترعرعت في بغداد، وحفظت القرآن، وأحاطت بمبادىء العلوم العقلية والنقلية، درست على العلامة الشيخ عبد السلام، مدرّس الحضرة القادرية، كان لها خطٌّ حسن، تعلمت أصوله على الخطاط سفيان الوهبي البغدادي، كتبت مصحفاً بقلم الثلث والنسخ، على قاعدة ياقوت المستعصمي، محلى بالذهب، وأوقفتهُ على الحضرة القادرية(1).

9 - فضّة بنت أحمد بن محمد علي البلاغي

ولدت في النجف وتوفيت فيها في حدود سنة 1230هـ/ 1814م، متزوجة من السيّد حسن البلاغي، كتبت بيدها «كشف الغطا» والذي زادت صفحاته على 350 صفحة، محفوظ لدى عائلتها في النجف(2).

10 - فريال العمري

نشأت بالموصل، وتخرّجت من معهد إعداد المعلمات بالموصل سنة 1965م، وأصبحت معلمة للتربية الفنية، تعلمت الخط من الفنان الخطاط (يوسف ذنون) منذ عام 1972م، تجيد كتابة خط الرقعة والديواني والكوفي. ولها مشاركات عِدّة في معارض للخط العربي أقامت معرضها الأول سنة 1981م(3).

11 - جَنّة عدنان أحمد عزّت

ولدت بالموصل سنة 1962م، وتلقت دروس الخط من الخطّاط يوسف ذنون، أجازها الخطّاط المصري سيد إبراهيم سنة 1395هـ/ 1975م، ثم أجازها الخطاط التركي حامد الآمدي سنة 1395هـ/ 1975م(4).

12 - فرح عدنان أحمد عزّت

ولدت بالموصل سنة 1965م، تلقت دروس الخط على الخطاط يوسف ذنون، كذلك كأختها «جنة» أجازها الخطاطان/ سيد ابراهيم وحامد الآمدي/ سنة 1395هـ/ 1975م(5).

---

(1) المرجع السابق أعلاه/ ص 270 - 271؛ وظمياء عباس/ المورد/ ص 147.
(2) ظمياء محمد عباس/ نساء خطاطات/ مجلة المورد - العدد 4 - لسنة 1986/ ص 147.
(3) المرجع السابق/ نفس المكان.
(4) نفس المرجع/ ص 148.
(5) نفس المرجع/ ص 148. (سيجد القارىء نماذج لهاتين الخطّاطتين مع هذا الفصل).

ب - خطّاطات بلاد مصر

1 - الخطّاطة بنت خداوردي

وردت أخبار طريفة عَنْها نقلها المؤرّخ إبن عبد المعطي الإسحاقي المتوفى سنة 1060هـ/ 1650م، في كتابه (أخبار الدول فيمن تصرّف في مصر من أرباب الدول) حيث قال: «يروى أنَّهُ في زمن الملك الكامل أبو الفتح ناصر الدين محمد (سنة 624هـ/ 1226م) أُحضرت من الإسكندرية إمرأة خُلقت من غير يدين، فجيء بها بين يدي الوزير رضوان، فعرَّفَتْهُ أنها تعمل برجليها ما تعمله النساء بيديها من خطٍّ ورقم، فأُحضرت لها دواة، فتناولت برجلها اليسرى قلماً، فلم ترضَ شيئاً من الأقلام المبريَّةَ التي أحضروها فأخذت السكين وبرت لنفسها قلماً، وشقَّتْهُ، وقطَّتْهُ، وأخذت ورقة فأمسكتها برجلها اليسرى، وكتبت باليمنى أحسنَ ما تكتبهُ النساء بأيديهن»[1].

2 - عائشة بنت علي بن محمد بن علي بن أبي الفتح

عالمة محدِّثة، ولدت بالقاهرة سنة 761هـ/ 1359م، تعلّمت الخطَّ حتى أصبحت تكتبُ جيداً، وحدّثت، وسمع عليها غير واحد، وخرجَ لها الزين رضوان جزءاً فيه عِشاريات وتُساعيات، مبتدأ بالمسلسل، قال عنها البقاعي، «كتبت الكتابة الحسنة» توفيت سنة 840هـ/ 1436م[2].

3 - كلثوم بنت عُمر بن صالح النابلسية

مُحدِّثةٌ وكاتبة، ولدت بالقاهرة سنة 772هـ/ 1370م، سافرت مع أبيها لدمشق،

---

(1) الإسحاقي/ أخبار الأول من أرباب الدول/ ص 263.
ونقلت السيدة ظمياء محمد عباس ملاحظة هامة، أشارت فيها إلى وجود بعض المخطوطات والرقع الخطيّة، مجهولة الناسخ، إلاّ أن بعضها يعود لخطّاطات لم يذكرن أسماءهن الصريحة واكتفين بذكر إسم العائلة أو الزوج أو الكنية (كأم الخير بنت أحمد بن عيسى، وزوجة السردار عبد القدوس خان - معتمد الدولة الأفغانية من أهل أفغانستان التي كتبت سورة الفاتحة بخط التعليق، وزيّنتها بالزخارف الملوّنة) صورة خطّها منشورة في تاريخ الخط العربي/ ص 302 - نقلاً عن صورة منشورة في «مجلة كابل» كما وردت خطوط لزين النساء أورتكذيب» التي كانت توقّع بأسماء مستعارة.
راجع مجلة المورد/ العدد 4 - السنة 1986/ نساء خطاطات/ ص 143.

(2) كحّالة/ أعلام النساء 2/ 927؛ وظمياء محمد عباس/ مجلة المورد/ ص 145.

وأقامت فيها لحين وفاته، قرأت القرآن، وسمعت الصحيح على أبي المحاسن يوسف بن الصيرفي، كتبت الخط الحسن، توفيت بالقاهرة سنة 856هـ/ 1452م[1].

4 - زينب بنت علي بن محمد الطوخيّة

واحدة من المحدّثات الكاتبات، ولدت سنة 830هـ/ 1426م، بالقرب من طوخ فنشأت بها. حَفَّظها أبوها القرآن، وبعض العُمدة، والحاوي، ومختصر أبي شجاع، وجميع الملحة، وعَلَّمها الكتابة، قرأت على زوجها الشمس بن رجب بن غالب الصحيحين، توفيت في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي[2].

ج - خَطّاطات بلاد الشام

1 - سارة الحَلبيّة

واحدة من اللآتي عرفن بتزويق المخطوطات واللّوحات الخطيّة لمشاهير الخطّاطين، وكانت تكتب الخط الجيّد، وتحل الذهب وتكتب بهِ، ويبدو أنها من أهل حلب، رغم أن «كحّالة» لم يُشر إلى ذلك[3].

2 - زُمرد بنت جاولي

هي أخت الدقّاق صاحب دمشق، سمعت الحديث على بعض الشيوخ، وقرأت القرآن وحفظتهُ، إستنسخت الكتب، وشيّدت المدرسة الخاتونية بدمشق، توفيت سنة 557هـ/ 1161م[4].

3 - خديجة بنت يوسف بن غنيمة البغدادي

عالمة فاضلة، روت الكثير عن إبن الكتبي ومكرم، قرأت النحو، وجوّدت الخط على جماعة، سمع عليها «رسالة السكون» بسماعها عن مكرم سنة 671هـ/ 1272م، وقرىء عليها بمنزلها بدمشق سنة 669هـ/ 1270م من «كتاب البعث لأبي بكر بن أبي داود بسماعها إبن الكتبي، توفيت في رجب سنة 699هـ/ 1299م[5].

---

(1) المرجع السابق 3/ 1334.
(2) المرجع السابق 1/ 508؛ وظمياء محمد/ نفس المكان.
(3) أعلام النساء/ لكحّالة 2/ 708.
(4) المرجع السابق 1/ 450؛ والزركلي/ الأعلام/ 2/ 49؛ وظمياء عباس/ المورد/ ص 144.
(5) نفس المرجع السابق 1/ 292.

4 - فاطمة بنت إبراهيم بن محمود بن جوهر البعلبكي المعروف بالبطائحي

محدثة دمشقية، مُسندة، أخذ عنها السبكي وغيره، أجادت الخط والكتابة، توفيت بقاسيون سنة 711هـ/ 1311م[1].

5 - فاطمة بنت علم الدين البزرالي

محدثة من أهل دمشق، سمعت الحديث من جماعة، وحفظت القرآن، وكتبت رُبْعَهُ منه، وأحكام إبن تيمية، وصحيح البخاري، توفيت سنة 731هـ/ 1330م[2].

6 - خديجة بنت عثمان الهوري

محدّثة بدمشق، كانت جيدة الخط والإنشاء، تكتب بخطّها الإجازات، توفيت سنة 734هـ/ 1333م[3].

7 - ست الوزراء بنت محمد بن عبد الكريم

دمشقية الأصل، كانت تكتب الخط الجميل، قرأت القرآن والفقه على والدها كانت حيّة سنة 737هـ/ 1336م[4].

8 - شهدة بنت عبد العزيز بن بدر الدين بن جماعة

محدثة سمعت بقراءة أبيها، وتعلمت الكتابة، توفيت سنة 757هـ/ 1356م[5].

9 - أم الخير بنت أحمد بن عيسى

قارئة دمشقية، حافظة للقرآن، ولدت سنة 810هـ/ 1407م، لقيها البقاعي سنة 849هـ/ 1445م، وقرأ عليها وقال: أنها كاتبة، قارئة، حافظة، وأجاز لها جماعة[6].

---

(1) الأعلام/ للزركلي/ 4/ 129؛ وظمياء عباس/ المورد/ ص 145.
(2) أعلام النساء/ لكحّالة 3/ 1176.
(3) أعلام النساء 1/ 284.
(4) تاريخ الخط العربي/ ص 298؛ وظمياء محمد عباس/ المورد/ العدد 4 - لعام 1996م/ ص 145.
(5) أعلام النساء 2/ 702.
(6) المصدر السابق 1/ 332.

10 - زينب بنت إبراهيم بن محمد بن أحمد الشنوهي

محدّثة، سمع عنها السخاوي، كتبت الخط الجيّد، توفيت سنة 897هـ/ 1474م[1].

11 - عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر الباعونية

شاعرة، أديبة، فقيهة، كاتبة، نسبتها إلى باعون «من قرى شرق الأردن» ولدت وتوفيت بدمشق، درست اللغة والأدب، ورحلت إلى مصر سنة 919هـ/ 1513م، لها مؤلفات كثيرة، منها: «البديعة، والملامح الشريفة في الآثار اللطيفة»، والدر الغائص في بحر الخصائص، والإشارات الخفيّة في المنازل العلمية، وإرجوزة في التصوف، وفيض الفضل - بخطها محفوظة في المكتبة التيمورية بدارالكتب المصرية، وديوان شعر، والمورد الأهنى في المولد الأسنى».

أجيزت في الإفتاء والتدريس، توفيت بدمشق سنة 922هـ/ 1516م[2].

12 - مريم بنت مصطفى

أصلها من سلانيك أو لم يشر كاتبوا سيرتها إلى أيِّ مصر تنتمي[3]، ولم تحقق السيدة ظمياء محمد عباس في ذلك، سوى أن المصادر أعلاه قالت: «هي من نساء القرن العاشر الهجري/ 16م. إستنسخت بعض الكتب، منها نسخة من كتاب «مختار الصحاح - للرازي» سنة 959هـ/ 1551م، محفوظة نسختهُ في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد تحت رقم (1074)[4].

13 - فاطمة بنت عبد القادر المعروفة بنت قريمزان الحلبيّة

ولدت سنة 878هـ/ 1473م، تولّت مشيخة العادلية والزجّاجية معاً، أخذت العِلم عن زوجها كمال محمد بن جمال الدين بن قلي درويش الأردبيلي، نزيل المدرسة الرواحية بحلب، اشتهرت بحسن خطها، حتى انتهت إليها رئاسة نساء زمانها في حلب لما لها من جودة الخط وكثرة نسخ الكتب[5].

---

(1) أعلام الزركلي 1/ 456.

(2) أعلام الزركلي 1/ 456.

(3) نهرس المخطوطات العربية في مكتبة الأوقاف ببغداد. د. عبد الله الجبوري 3/ 252 - وتاريخ الأدب العربي في العراق - عباس العَزّاوي 1/ 66. وظمياء محمد عباس/ مجلة المورد/ العدد 4/ ص 146.

(4) المصدر السابق.

(5) تاريخ الخط العربي/ ص 298؛ وأعلام النساء لكحّالة 3/ 1171؛ وظمياء محمد عباس/ مجلة المورد/ العدد 4، ص 146.

14 - زينب بنت محمد بن أحمد الغزّي الشافعي

عالمة أديبة، شاعرة كاتبة، ولدت بدمشق سنة 916هـ/ 1510م، قرأت على والدها «تلقيح اللُّبابة» وقسماً من «المنهج» وكتبت لهُ كتباً بخطها، ومدحته بقصيدة، توفيت بدمشق سنة 980هـ/ 1572م[1].

15 - كوهر شاد بنت مير عماد

لم تذكر مصادر ترجمتها إلى أيّ مصر تنتمي، ويبدو أنها من أهل بلاد الشام. كان خطّها في غاية الحسن والجمال، ولعلّها إبنة مير عماد الحسيني - كما يعتقد محمد طاهر الكردي[2]، والذي أشار إلى أن والدها توفي سنة 1024هـ/ 1615 ولم تدقق السيدة ظمياء محمد عباس في ذلك[3].

د - خطّاطات البلاد التركيّة

1 - فاطمة آني شهري

أصلها من الإستانة، كانت تجيد خط النسخ، شاعرة، كانت حيّة حتى سنة 1122هـ/ 1710م[4].

2 - حليمة بنت محمد صادق

أصلها من الإستانة، تعلّمت الخط وبرعت فيه، وقد كتب لها محمد اسم إجازة بتاريخ 1169هـ/ 1755م[5].

3 - دُرّة هانم

هي بنت السلطان محمود خان، جيدة الخط، كتبت بيدها مصحفاً سنة 1172هـ/ 1758م كان محفوظاً في المدينة المنورة. ثم نقل إلى الإستانة عند خروج الأتراك من الحجاز سنة 1334هـ/ 1915م[6].

---

(1) أعلام النساء/ لكحالة/ 1/ 520.
(2) تاريخ الخط العربي وآدابه/ ص 300.
(3) نساء خطاطات/ مجلة المورد/ العدد 4، لسنة 1986م/ ص 146.
(4) تاريخ الخط العربي وآدابه/ للكردي/ ص 298.
(5) المصدر السابق/ ص 299.
(6) تاريخ الخط العربي/ للكردي/ ص 300.

4 - رُشديّة هانم

لم تشر مصادر ترجمتها إلى ميلادها ووفاتها، سوى أنه ذكرت «أنّها نسخت كتاباً في التاريخ سنة 1192هـ/ 1778م، كان محفوظاً في المكتبة المحمودية في المدينة المنورة، ونقل إلى الإستانة عند خروج الأتراك سنة 1334هـ/ 1915م[1].

5 - أسماء عبرت بنت أحمد

ولدت سنة 1194هـ/ 1780م، وهي زوجة الخطّاط محمود جلال الدين، وعليه أخذت قواعد الخط، اشتهرت بجودة خطّها، كتبت لوحة تمثّل الحلية الشريفة، يحيط بها شجرتان كتب داخلهما أسماء الله الحسنى، وأسفلها شريطان كتب داخل إحداهما «لا إله إلا الله حقاً» و«محمد رسول الله» وكتب أسفل الحليّة «نصر من الله وفتح قريب» و«أنّك لعلى خلق عظيم» كتبت الحلية سنة 1209هـ/ 1794م، وزوّقها محمد شوقي، الحلية محفوظة في متحف طوب قبو سراي، بإسطنبول[2].

7 - رابعة بنت مُلا نازك بن يوسف

من نساء القرن 12هـ/ 18م، كتبت بخطها نسخة من مخطوطة «شرح المواقف سنة 1195هـ/ 1780م، محفوظة نسخته بالمتحف العراقي برقم (25332)[3].

8 - فاطمة بنت إبراهيم

أصلها من الإستانة من نساء - ق 12هـ/ 18م -، تعلمت الخط من زوجها توقاتي محمود أفندي ومنحها إجازة، كانت تجيد خط النسخ والثلث والجلي ديواني[4].

9 - زاهدة بنت عالي باشا

أصلها من الإستانة، تعلمت الخط من مصطفى عزت وأجازها، فكانت تكتب الخط الحسن. توزّعت أعمالها في مساجد وتكايا الإستانة، كانت حيّة حتى سنة 1290هـ/ 1973م[5].

---

(1) المصدر السابق/ نفس الصفحة.

(2) مصور الخط العربي/ لناجي زين الدين/ ص 208.

(3) مخطوطة شرح المواقف/ نقلاً عن ظمياء محمد عباس/ مجلة المورد/ عدد 4، 1986، ص 147.

(4) تاريخ الخط العربي/ للكردي/ ص 299.

(5) تاريخ الخط العربي/ للكردي/ ص 299.

هـ - خَطّاطات بلاد الأندلس

1 - فَضل

حافظة كاتبة، من القيروان، مولاة أبي أيوب أحمد بن محمد، تركت من آثارها مصحفاً كتبته سنة 295هـ/ 907م، محفوظ في مكتبة جامع عقبة بن نافع بالقيروان(1).

2 - لبنى بنت عبد المولى

شاعرة وعالمة بالنحو والحساب والعروض، تكتب الخطّ الجيّد وتجيد قواعدهُ، أصلها من الأندلس، كانت كاتبة المستنصر بالله الأموي، توفيت سنة 384هـ/ 984م وقيل سنة 394هـ/ 1003م(2).

3 - عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية

قال عنها إبن حبّان القرطبي: «لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعادلها علماً وفهماً وأدباً وشعراً، وكانت تمدح ملوك الأندلس، حسنة الخط، تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب، وتعنى بالعلم، ولها خزانة كتب كبيرة، توفيت سنة 400هـ/ 1009م(3).

4 - درة الصنهاجية

من النسّاخات المشهورات في الأندلس، كانت تعاصر الورّاق علي بن أحمد الورّاق، أحد نساخي القصر الصنهاجي، من آثارها مصحف مؤرخ تحبيسه سنة 410هـ/ 1019م(4).

5 - عائشة بنت عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسني

واحدة من شواعر المغرب في ق 6هـ/ 12م، كانت تجوّد الخط، كتبت بخطّها «يتيمة الدهر للثعالبي» في ثمانية عشر جزءاً، محفوظة نسخة منه في الخزانة السلطانية ببجاية، وصفتها المصادر بأنها «كانت أديبة أريبة، فصيحة، كان لها خطٌّ حسن»(5).

---

(1) آداب المتعلمين لابن سحنون - تحقيق حسني عبد الوهاب - منشورات القاهرة ص 39؛ وظمياء محمد عباس/ ص 143.

(2) أعلام النساء/ لكحالة 1/ 289؛ وتاريخ الخط العربي/ ص 297.

(3) المصدر السابق 2/ 758؛ وأعلام الزركلي 3/ 240.

(4) مصور الخط العربي/ لناجي زين الدين/ ص 337.

(5) ظمياء محمد عباس/ نساء خطاطات/ مجلة المورد/ العدد 4 - السنة 1968م - ص 144.

6 - سيدة بنت عبد الغني بن علي الغتبري «أم العلاء»

غرناطية الأصل رغم ولادتها بتونس أوائل القرن 7هـ/ 13م، إعتنى والدها بتربيتها وتعليمها ليؤهلها لحرفة تعليم النساء، فتؤمّن بذلك مؤونة العيش، فحفظت القرآن، وتلقت بعض العلوم، وجوّدت الخط، وعلّمت في تونس في بلاط السلاطين من بني حفص. نسخت بخطها إحياء علوم الدين للغزالي. وغيره من المؤلفات، أقعدت، فلزمت دارها ثلاثة أعوام، وأنابت في التعليم إبنتيها، توفيت بتونس سنة 647هـ/ 1249م، يروى عنها أنها كانت تتبرّع بكل ما تتقاضاه من أجر تعليمها وما ينالها بمن الجوائز الملوكية لفقراء أسارى المسلمين[1].

تجدر الإشارة هنا إلى إنّنا ذكرنا - في الجزء السادس من هذه الموسوعة، «ورّاقو الأمصار الإسلامية» فصل - ورّاقات الأندلس - ذكرنا «سبعين ورّاقة» بالرقم، لا بالأسماء، كلهن كُنَّ يكتبن المصاحف بالخطوط الحسنة، لذا استوجب التنبيه والإشارة إلى ذلك.

و - خطّاطات بلاد فارس

1 - خديجة بنت محمد بن أحمد الخراساني

فقيهة، أخذت الفقه عن أبيها، تكتب الخط الجيّد، والدها من قُضاة نيسابور، عُرف بالفقيه أبو الرجاء الجرجاني.

توفيت سنة 372هـ/ 982م[2].

2 - بادشاه خاتون بنت محمد بن حميد تابنكو

أديبة شاعرة، كتبت بخطها بعض المصاحف، كانت حيّة حتى سنة 695هـ/ 1295م[3].

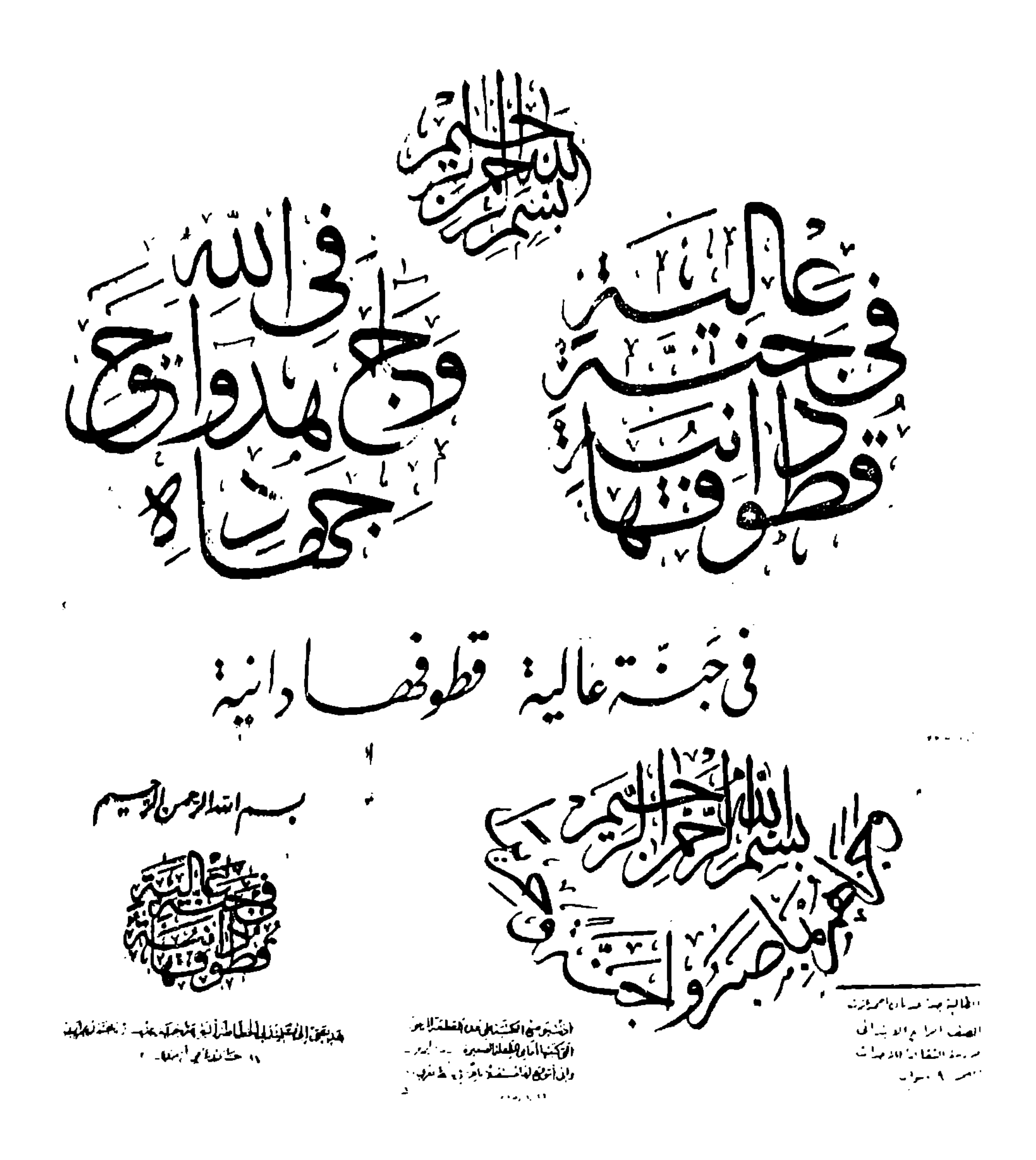
تنويه: ذكرت الباحثة، السيدة ظمياء محمد عباس، في مستهل دراستها المعنونة بـ«نساء خطّاطات» والمنشور بمجلة المورد العراقية العدد 4/ سنة 1986، عدد خاص

---

(1) أعلام النساء/ لكحالة/ 2/ 669؛ وأعلام الزركلي 3/ 148.
(2) أعلام النساء/ لكحالة/ 1/ 289؛ وتاريخ الخط العربي/ ص 297.
(3) تاريخ الخط العربي/ ص 297 - 298؛ وظمياء محمد عباس/ مجلة المورد/ 4 - ص 145.

بالخط العربي، ذكرت أسماء «خطّاطات حجازيات» من أمثال: «عائشة بنت سعد بن أبي وقاص وكريمة بنت المقداد، والشفاء بنت عبد الله العروية القرشية وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وهند بنت أبي سفيان، وأم كلثوم بنت عقبة» ونحن لم نأتي على ذكرهن والترجمة لهن، نظراً لكون تلك الفترة لم يظهر - الخط - كفن، بل كن مجرد تعلّم للكتابة، والخط ظهر في العصرين الأموي والعباسي، والأخير هو الأوضح والأدق[1].

(1) راجع الصفحات 141 وما بعدها من المجلة المذكورة.



صور من نماذج للخطلطات العربيات

الفصل الرابع

ملحق [إرجوزة الشيخ الأمام محمد بن الحسن السنجاري]

المعروف بإسم (بضاعة المجوّد في الخط وأصوله)

إن هذه الإرجوزة، واحدة من أنفس الأراجيز التي كتبت للخط العربي، وأصوله وقواعده، ونظمت شعراً، لتسهيل حفظها على المتعلم، وهذا الأمر يشير إلى مدى تأثير الخط العربي على الثقافة العربية الإسلامية، ناهيك عن الآراء الفنيّة والمعرفية التي جاء على ذكرها العالِم «السنجاري» لشيوخ الخط قبله من أمثال إبن البَوّاب وغيره، ليؤكّد ديمومة التواصل مع أساطين الخط ولو بعد قرون من وفاتهم، هذا أولاً، وثانياً: في موسوعتنا هذه، نريد إحياء الأصول وتجذير ثقافة الخط في محمول هويتنا الثقافية، إضافة إلى أننا نضع - في هذه الموسوعة - كتاباً مرجعياً عن تاريخ الكتاب العربي وأدوات كتابته، والمراحل التاريخية والأشواط المعرفية التي قطعها في هذه المسافة التي تزيد على ألف عام، وما زالت نابضة بالحرف العربي، رغم كل الإنتكاسات المعاصرة.

وبغية الحفاظ على الأمانة العلمية، للسابقين علينا، سوف نورد نص الإرجوزة كما وردت محققة ومهمّشة بهوامش المحقق الفذ الأستاذ هلال ناجي كاملة، والتي نشرها بمجلة المورد العراقية العدد 4 - لسنة 1986، العدد الخاص بالخط العربي، إقراراً بفضله وسبقه، وعلى صورة ما نشر، دون تدخل منا، والله من وراء القصد.

بضاعة المُجَود في الخط واصوله

للشيخ الإمام محمد بن الحسن السنجاري

كان حيا سنة 846هـ

تحقيق

هلال ناجي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

بضاعة المجود إحدى الاراجيز المهمة التي نظمها علماؤنا الأفذاذ في علم الخط وأصوله، وناظمها عراقي هو الشيخ محمد بن الحسن السنجاري كان حياً سنة 846هـ[1].

وهو مصنف فاضل، من آثاره: «الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم» فرغ منه سنة 846هـ، و«بضاعة المجود» وهي ارجوزتنا هذه. وكتابه «الثغر الباسم» توجد منه نسخة مخطوطة في خزانة الاحمدية، بتونس برقم 4582 ولم تطبع حتى اليوم[2].

أما ارجوزة «بضاعة المجود» فقد نشرت أول مرة في آخر كتاب «خط وخطاطان» المصنف باللغة التركية لمصنفه حبيب أفندي والمطبوع في مطبعة أبي الضيا في القسطنطينية سنة 1305هـ اشغلت منه الصحائف 278 - 285. ولم تكن تلك النشرة علمية لخلوها من الاشارة إلى الأصل المخطوط المعتمد وإهمالها ترجمة الناظم وإغفالها ضبط النص.

وقد أعاد والدي رحمه الله نشر هذه الارجوزة نقلاً عن الكتاب المذكور في ذيل كتابه «مصور الخط العربي» المطبوع ببغداد سنة 1388هـ، واشغلت منه الصحائف 392 - 395، ولم يعتمد كذلك اصلاً مخطوطاً، وأشار في الهامش إلى أنه وجدها في خاتمة الكتاب المذكور مجهولة التاريخ.

---

(1) انظر ترجمة الناظم في معجم المؤلفين/لكحالة 9/ 201 - 202، حيث حرّف لقبه إلى السخاوي (كذا)، وانظر كشف الظنون 521 وإيضاح المكنون 1/ 185.

(2) انظر فهرس الأحمدية/ ص 36.

وكنت قد وفقت قبل سنوات طوال إلى الظفر بمخطوطة خزائنية نفيسة تحتجنها مكتبة في الاستانة برقم 8012 وهي مما أوقفته والدة السلطان عبد المجيد خان سنة 1266 هجرية وحصلت على مصورتها وهي تقع في تسع أوراق مضبوطة بالشكل وقد كتب عنوان الكتاب على الورقة الأولى مع اسم مصنفه وتحته ثبت تحبيس الواقفة، ولم يذكر في المخطوطة اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

ولأن هذه الارجوزة لم تنشر قبل اليوم نشرة علمية رأيت النهوض بهذه المهمة بإحياء هذا الأثر معتمداً النسخة الخزائنية المشار إليها.

والسؤال: ما الذي تقدمه هذه المخطوطة من جديد جدير بالاحياء؟

والجواب: إن ناظمها قد وقف على آراء بالغة الأهمية لإمامين من أئمة الخط هما: علي بن هلال الشهير بابن البواب (ت 413 هـ)، وياقوت النوري (ت 618 هـ)، فنظم هذه الارجوزة مضمناً تلك الآراء الأصيلة في الخط وقواعده، وقد ابتدع الناظم طريقة للفصل بين هذه الآراء مجملها أنه رمز لابن البواب بحرف (هـ) ولياقوت بالحرف (ي)، وكان يضع الرمز في أول البيت على هامشه إشارة إلى صاحب الراي، وحين يتفق ابن البواب وياقوت على رأي ما كان يقرن الرمزين معاً في الهامش هكذا ي هـ.

إن كثيراً من هذه الآراء القويمة لهذين العلمين قد ضاعت بضياع أصولها، فحفظتها لنا هذه الارجوزة، ذاك هو الجديد الذي تقدمه لنا هذه المخطوطة.

وبعد: فإني أسأل الله جل وعلا أن يديم نعمه عليّ وأن يمنحني من الصحة وراحة البال ما أستطيع معه إحياء الجليل من تراث أسلافنا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقولُ راجي كَرَمَ الغفّارِ — محمَّدُ بنُ حَسَنِ السِّنْجاري
الحمدُ للهِ الذي عَلَّمنا — مالم نكُنْ نَعلَمُ بَلْ ألْهَمَنا
عَلَّمنَا الخطَّ القويَّ المُعْرَبِ — وخَصَّنا بالهاشميِّ العَرَبي
مُحَمَّدِ المبعوثِ بالرساله — صَلَّى عليه اللهُ ثُمَّ آلَهْ
ثُمَّ على أصحابهِ الكرامِ — وتابِعيهِمْ بِمَدَى الأيّامِ
وبَعْدُ: إنَّ أحْسَنَ الخُطوطِ — أقْواهُ في المنسُوبِ والمخطوطِ
ما وُضِعَتْ أصولُهُ القَويمَهْ — وسَلِمَتْ فُروعُهُ السليمَهْ

وقد نَظَمْتُ هذه الأُرْجُوزَهْ ... أرجوزةٌ ظَرِيفَةٌ وَجِيزَهْ
ما اختارَهُ الاستاذُ ذو الفَضْلِ العلي ... «ابنُ هلال» الكاتبُ الحَبْرعلي»
مُنْشِي أصول هذه الصِّناعَهْ ... إذ رِبْحُها كان له بضاعَهْ

(2 آ)

وما الّذي إختارَهُ «ياقوتُ» ... الكاتبُ المُحَرِّرُ المَنْعُوتُ
مُستَخرِجُ الطريقَةِ القَوِيّهْ ... الحلوَةِ الكافِيَةِ المَرْضِيَّهْ
ياقوتُ قُوتُ هذه الكتابَهْ ... وهكذا قد أجمع النّسابه
فهؤلاء عَلَما الكُتّابِ ... في الشرق والغرب بلا ارتيابِ
من شاءَ أن يَظْفُرَ بالحلاوه ... وقُوَّةِ الخطِّ بلا غَباوَهْ
يأخُذُ مِنْ خَطَّيْهما بالأقوى ... وما حَلا إنْ كانَ مِمَّنْ يَقْوى
جَعَلْتُ لِلْفَتى عَليَ هاءَ ... ولِلفَتى ياقوتُ رَمْزاً ياءَ
إذا هُما إتَّفَقا في أَصْلِ ... أَقْرِنُهُما فيه بغير فَصْلِ
وإنْ هُما إخْتَلَفا فَرَّقْتُ ... بَيْنَهُمَا كما ترى وَضَعْتُ
سَمَّيْتُها بِضاعَةَ المُجَوِّدِ ... فاقْفُ لما نَظَمْتُهُ وَجَوِّدِ
قالا جميعاً: يجمعُ الكتابَهْ ... بابانِ فافْهَمْ يا أخا النِجابَهْ

(2 ب)

الباب الأوّل

في شروط الكتابة واتخاذ آلاتها

وفيه فصول

قالا جميعا من شروط الكاتبِ يكونُ ذا حِرْصٍ وفَهمٍ ثاقبِ
وبذْلُ الأموالَ في تَطلابِها فَمَهْرُها يغلو على خُطّابِها
ابنُ هلالٍ قالَ: كَمْ أَنْفَقْتُ مِنْ ذَهَبٍ حَتَّى بِهِ كَتَبْتُ

فصل في انتخاب القلم

تُنتخبُ الصَّلابَةُ القَوِيمَهْ ذات الصّلابِ الرطبة السَّليمه
وهي التي قد أدركَتْ ونَضَجَتْ في أصلها في الدرْكِ ثُمَّ قُطِعَتْ
لِقَلَمِ النَّسْخِ اللّطيف الصافي والثلثِ والرقاعِ كُلُّ جافي

فصل في البراية

هـ: إذا أَرَدْتَ بَرْيَها مِنْ أسْفَلِ من مَشْرَبِ الماءِ لها فافْعَلِ
وطَوِّلِ الجلفةَ بالسِّكّينِ وشُقَّها في الوَسْطِ بالتمكينِ

(3 آ)

واجْعَلْ لها شُحَيْمَةً لَطِيفَهْ من بَطْنِ قِشْرٍ ولتكُنْ خَفِيفَهْ
ي: وإنْ تكُنْ قِشْرَتُها سَمِينَهْ فاسْلِبِ الشَّحْمَةَ بالسِّكِّينَهْ
ي هـ: ثُمَّ انْحتِ اليمينَ والشِمالا نَحْتاً سَوِيّاً هكذا قد قالا
وَنَظِّفِ البَرْيَةَ يا حَرِيفي من شَعَثٍ وشَحْمِها الكثيفِ
ي: وإنْ تُرِدْ تحريفَها يا كاتبُ فإنّ في تَحْرِيفَها عجائبُ
فاجْعَلِ البَرْيةَ ذات سَلْبِ وانهِبِ الشَّحْمَةَ أيَّ نَهْبِ

وقَوِّرِ الجلفةَ بالتَّغميقِ ... من صَدْرِها والرأسِ بالتَّدقيقِ
ي هـ: واجْعَلِ البَرْيَةَ مَسْحَ القلمِ ... تحظَ بها من غير شكٍّ فافهَمِ
ي هـ: واجْعَلِ اليمينَ بالزيادَهْ ... بِقَدْرِ شَعْرَةٍ تَنَلْ إرادَهْ
ي: وَرَطِّبِ البَرْيَةَ بالنَّحْتِ لها ... فَكُنْ لما نَقَلْتَه مُنْتَبِها
هـ: وَقَطْعُها بالحَدِّ يا حَرِيفي ... ما بَيْنَ تَدْويرٍ إلى تَحْرِيفِ

(3 ب)

ي: وإنْ تشا التَحْرِيفَ فاحذَرْتخطي ... فلا تحرفها لكي تَشْتَطّ

فصل في القطة

وإنْ أرَدْتَ القَطَّ للبراعَهْ ... فاسْمَعْ لما فيها من الصَّناعَهْ
ي هـ: فاجْعَلِ الحَدَّ عليها بالسَّوا ... واعْطِها من نحو كِتْفِكَ القِوا
واكبِسِ الجبينَ كبساً شافي ... حتّى يجيء قَطْعُها بالوافي
وإن سَمِعْتَ وَقْعها كالمشرفي ... فذاك قَطٌّ كامِلٌ لا يختفي
وَحِفْتَها من بعد هذا حَفّا ... حتى بموتَ حَدُّها ويَخْفى

فصل في اتخاذ السكين

ي هـ: واتَّخِذِ السكينَ غير جافِيهْ ... لطيفةً كذاكَ فَهْيَ كافِيَهْ
بِكِلْوَةٍ خَفيفَةٍ لطيفَهْ ... صالحةٍ لهذه الوظيفَهْ

فصل في المقط

(4 آ)

أَجْوَدُه من قَصَبٍ صافٍ صَلِبْ ... مُدَوَّرٍ جافٍ لِيُبْلِغَ الأربْ

فصل في المداد

وَخُـذ مـن الـمـدادِ مـا قَـدْ نـظـفـا   دُخـانُـه بِـسَـحْـقِـهِ قـد لَـطُـفـا
ي هـ: مُـرَكَّـبٍ مُـطَـوَّسٍ مَـصْـنُـوعِ   طَـوْعِ الـيـراعِ طَـيِّـعٍ سَـريـعِ

فصل في الورق

ي هـ: وخُذْ من الأوراق ما قد جاده   فـي صَـقْـلِـهِ تـظـفـرُ بـالإجـادَهْ

فصل في إمساك القلم

واجْـعَـلِ الابـهـامَ والـسـبَّـابَـهْ   والإصبعَ الـوُسْطَى لـذا الـكـتـابَـهْ
فـاجْـعَـلِ الـوسـطى لـهـا كـالـفَـرَسِ   تـجـري بـذي الـبـراع مِـثْـلَ الـنـفَـسِ
وَبَـعِّـدِ الـثـلاثَ عـن قَـتْـحَـتِـهـا   قَـدْرَ شـعـيـرتَـيْـنِ عـن رُتْـبـتَـهـا
وخَـفِّـفِ الـشَـدَّ عـلـيـهـا واعـتَـمِـدْ   عـلـى انـكـبـابِ رأسـه ثُـمَّ اجْـتَـهِـدْ

(4 ب)

الباب الثاني

في الحروف المفردةِ والمرتبةِ والمولدةِ

وفيه فصول

ي هـ: فاقصدْ هُدِيتَ صِحَّةَ الحروفِ ... في الأصْلِ والوَضْعِ بلا تَحْريفِ
في وَضْعِها خمسةُ أشياءٍ تفي ... إذا عَرَفْتَ حَدَّها فتكتفي
إشباعُها مع التَّمام الوافي ... واتَّخِذِ الإرسالَ فهو كافي
وكَمِّلِ الكمالَ يا رفيقي ... تنال منها غايةَ التحقيقِ
وَاقْسِمِ البياضَ في الترتيبِ ... فإنَّهُ يأتي من العجيبِ
إذا الخُطوطُ وَرَدَتْ مُرَكَّبَهْ ... من شَكْلٍ تَسْطيح لمَنْ قد كَتَبَهْ
وإنْ أتى مُنْسَطِحٌ أو مُنْجِزُ ... أبْرِزْهُما في صَنْعَةٍ تُعَجِّزُ

فصل في الاتمام

تُعْطِيهِ حَظَّهُ من الإتمامِ ... من غَيْرِ توقيفٍ ولا إحجامِ
ي هـ: وَفِّ الطويلَ والقصيرَحَقَّهُ ... كذلكَ الصغيرُ إن تَحُقَّهُ

(5 آ)

فصل في التقويس والتسطيح والانكباب

إغْطِ لذي التقويس والتسطيحِ ... والانكبابِ جودة التصحيحِ
ي هـ: وإنْ أتى مُسْتَلْقِياً في الخطِّ ... كَمِّلْ له مُوَفِّياً لا تخطي

فصل في الإشباع

لكُلِّ حَرْفٍ قِسْمَةٌ فاشْبعِ ... بالصَّدْرِ من قَلَمِكَ المُوَقَّعِ

كَيْمـا يـجـيء نِسْبَـةَ التَّـساوي ويـصـطـفـي الـخـطَّ مـن الـمـسـاوي
بـحـيـث لا يـجـيءُ فـيـهـا غِـلَـظُ ولا سـقـيـمٌ نـاحـلٌ مُـرَفـضُ
واكـتُـبِ الـمُـرْسَـلَ بـالإسـراعِ مـن غـيـر تـوقـيـفٍ ولا امـتـنـاع

فصل في التفصيل

فَحَسِّنِ المَدّاتِ في المُفَصَّلِ إذا أتـاكَ مُـفْـرَدٌ مـنْ مـجْـمـلِ
وانْظِمِ الخطَّ على التسطير مـن غـيـر تَـعْـويـجٍ ولا تـحـبـيـرِ

(5 ب)

فصل في الحروفِ المركبةِ والمولدةِ والمفردةِ

الألِفُ المُنْتَصِبُ المُقَوَّمُ القائمُ المُعْتَدِلُ المُسَلَّمُ
فما لَهُ حَرْفٌ إليه يُنْسَبُ كذاك فَهْوَ مُفْرَدٌ مُغْتَرِبُ

الألف

هـ: يُشْبِهُ للراهبِ في محرابِهِ السّابلِ الشَّعْر على أثوابِهِ
هي سَبْعَةٌ من نُقَطٍ فاكْتُبِ واسْلُبْهُ كالحيَّةِ سَلْباً تُصِبِ
ي: وخذْ عن النُقْطَةِ في كَمينها بجانبِ القَلَمِ في تَمْكِينها
ي هـ: وكُلُّ خطٍّ راجعٌ إلى الألِفْ من أصْلِهِ وغيره قد يَغْتَرِفْ

الباء

ي هـ: الباءُ إنْ رَكَّبتَها في ألِفِ تَصِيرُ كافاً يا أُخيَّ فاعرفِ
واصُلُها فانْظُرْ إلى التجويدِ من ذَنَبِ الحَيَّةِ في التجريد

(6 آ)

ي هـ: وقَدْرُ انسطاحها كالألِفِ فافْهَمْ لما قَدْ قُلْتُهُ واعْرِفِ
لأنَّ فيها اليبسَ والرطُوبَهْ وهكذا قَدْ وَرَدَتْ مكتُوبَهْ

الجيم

خطّانِ باليمينِ والشّمالِ   من فوق تَقْويسٍ على الكَمالِ
ي: بَلْ نِصْفُ الِفٍ راكبٍ لمثْلِهِ   في نِصْفِ بَيْضَةٍ لحُسْنِ شَكْلِهِ
ي هـ: بَياضُهُ مُثَلَّثُ الأضلاعِ   فاكتُبْهُ هكذا بلا نِزاعِ

الدال

هـ: خطتان من فَوْقٍ ومن تَحْتٍ لها   حَلاوةٌ كاتبها فيها انتهى
ي: هي أَلِفٌ مَقْصُوصَةٌ نِصْفَيْنِ   بَياضَة أجاصَةٌ لِلْعَيْنِ
وإنْ أَتَتْ مكتوبةٌ في لامِ   فاضْمَمْ إلى ثلثَيْهِ عن تَمامِ
ما بَينَ تعميقٍ إلى تَدويرِ   وحَسِّنِ الشَمْرَةَ بالتَحْريرِ

(6 ب)

الراء

ي هـ: الراءُ من خَطٍ مُقَوَّسٍ أَتَتْ   رُبْعُ مُحيطٍ قَدْرُ أَلفٍ وَضِعَتْ
في رَأسِها سُنَيْنَةٌ مُقَدَّرهْ   في أَلِفٍ فاصْنَعْ لذاك تَنْظُرَهْ
ي: وقيلَ هيَ من أَلِفٍ مَحْلُولِ   وهكذا قد جاءَ في المنقُول

السين

ي هـ: أربعة منتصبٌ مُقَوَّسَ   فلا تَكُنْ في وَضْعِهِ تُوَسْوِسُ
وقيلَ مِيمانِ بلا تعريقِ   وصَدْرُ نونٍ حَسَنُ التَغْريقِ

الصاد

هـ: مُقَوَّسَينِ فيه ثُمَّ مُنْتَصِبْ   فهكذا تَصويرُهُ فاسْمَعْ تُصِبْ
ي: بَياضُهُ من لَوْزَةٍ قد رُكِّبَتْ   وراء مِنْ فَوْقٍ وتَحتٍ كُتِبَتْ

قد لُصِقَتْ بشَكْلِ نُونٍ فاكْتُبِ   كما أقولُ واقْفِ هذا تُصِبِ

(7 آ)

الطاء

ي هـ: الطاءُ جاءَتْ رأسُ صادٍ فاكتفِ   كما نُسِبْ حقيقةٌ فاعْرِفِ

العَين

ي هـ: جاءَتْ بِخَطَّيْنِ مُقَوَّسَيْنِ   تُهدى لهذي العَيْن ألْفُ عَيْنِ
وتارَةً تُشْبِهُ شَكْلَ نَغْلِ   وتارَةً بالصّادِ فافْهَمْ نَقْلي
وتارَةً بِفَكِّ سَبْعٍ ضاري   أو فكِّ ثعْبانٍ فلا تُماري
وقد تَجي من كُلِّ ذا مُخَيَّرَه   وَأُذنُ فِيلٍ قد أتَتْ مُخْتَبَرَهْ
وإن أتَتْ في معرضِ المركَّبِ   تشبِهُ للشَّفرة فاسْمَعْ أدَبي

الفاء

ي هـ: الفاءُ ياءٌ رُكِّبَتْ في واوِ   فافْهَمْ لما نَسَبْتُهُ يا راوي
بياضُهُ عجمةُ تُفّاح اكتُبِ   ولا تغنقها لذاك تُصِبِ

(7 ب)

وَهْيَ إذا ما كُتِبَتْ مُرَكَّبَهْ   بياضُها حُمُّصَةٌ يا كَتَبَهْ

القاف

ي هـ: القافُ واوٌ رُكِّبَتْ في نون   مُعَرَّقٌ مِنْ يَدِ ذي تمكينِ
بياضُهُ العُجمةُ من سَفَرْجَلَهْ   وصَدْرُ واوٍ هكذا قد نَقَلَهْ

الكاف

ي: الكافُ من ياءٍ وواوٍ رُكِّبَتْ ... ورأسُها صادٌ كذا قد كُتِبتْ
ي هـ: وصَدْرها صادٌ وشَكْلٌ مُنْسَطِحْ ... فافْهَمْ هداكَ اللهُ مِمَّن قَدْ نَصَحْ
وقد يجي في أوَّلِ الكتابَهْ ... في ألفٍ قد ذكَرَ النسّابَهْ
بانَّها دالٌ بألِفٍ لُصِقَتْ ... بياضُها إجاصَةٌ قَدْ فُهِمَتْ
وإنْ أتَتْ مُفرَدَةً مُعَلقَهْ ... باءٌ ولامٌ كُتِبَتْ مُحَقَّقَهْ

اللام

(8 آ)

ي هـ: اللامُ شَكْلٌ قائمٌ ومُنْسَطِحْ ... مِنْ ألفٍ ونِصْفِ نُونٍ قد وضح

الميم

ي هـ: الميمُ من سينٍ وراءٍ أُرْسِلَتْ ... خشخاشةٌ بياضَةٌ قد وُصِفَتْ

النون

شَكْلٌ مُدَوَّرٌ بنصف دائره ... في رأسِه سُنَيّنةٌ مُقَدَّرَهْ
ي هـ: مُعَرَّقٌ كحاجبٍ مُقَوَّسٍ ... فاكتُبْ بذي الأصْلِ ولا توسوسِ

الهاء

ي هـ: الهاءُ دالٌ عُقِفَتْ شَمْرَتُها ... بياضُها ثُلْثٌ في كَيْفِيَّتها
إن رُكِّبَتْ في غيرها فدالُ ... في فا كذا قد ذَكَرَ النُقالُ
خِصْيَةُ بَغْلٍ واذنُ فحلٍ قد أتَتْ ... ما بين حَرْفَيْنِ كذا قد وَرَدَتْ
خرطومُ نَمْلَةٍ إذا ما رُكِّبَتْ ... كذاك صادَيْن بلامٍ كُتِبَتْ

(8 ب)

أو عُلِّقت في أوّل المُركَّبِ　　خصيةُ بَغلٍ واذنُ فَحلٍ فاكتُبِ

الواو

ي هـ: الواوُ مُنكَبٌّ ومن مُسْتَلقي　　ثُمَّ مُقَوَّسٍ فافْهَمْ وَفقي
راءٌ عليها شرفتْ هامتُهُ　　وانعَطفتْ في ثُلثِه شمرتُهُ
وسُلِبَتْ في قَلمِ المُحَقَّقِ　　فاخذِ لما قد قُلتُهُ وحَقِّقِ
والنَّسخَ والريحانَ هكذا اكتُبِ　　فهذه أُصولُهُ يا للعَجَبِ
يُشْبِه قُنفُذا إذا ما اجتمعا　　والسبع إن أَقْعَى بعجزٍ أجمعا

اللام ألف

إنْ رُكِّبَتْ تُشْبِهْ لِلْمَقَصّ　　فاكتُبْ كما نَسَبْتُهُ واستقصِ
أسفلُهُ صِفَة هاءٍ أفرِدَتْ　　مُثَلَّثٌ بياضُهُ قَدْ وُصِفتْ
وإن أتَى مُرَكَّباً في لام　　فاقْلِبْهُما لامَيْنِ في النظامِ

(9 آ)

أو ألفٌ ولامُ فوق عَيْنِ　　كشفرةٍ جاءت بغير مَيْنِ

الياء

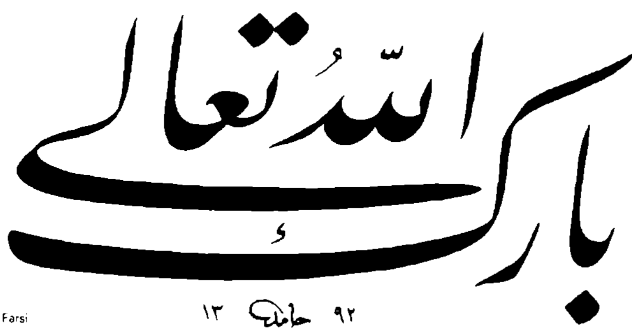
ي هـ: الياءُ من دالَيْنِ مقلوبَيْنِ　　كشفرَةٍ لَطيفَةٍ من ذَيْنِ
فَهذِهِ الأصولُ للكتابَهْ　　من حازها يفوز بالطلابه
والحمدُ للهِ على التمامِ　　والشكر لله على الاسلامِ
تمت بحمد الله وعونه　　رحم الله مؤلفها آمين

(9 ب)



خط الاجازة على القاعدة التركية الماخوذة من العربية ،بقلم الخطاط يوسف ذنون الموصلي سنة ١٩٧٢
المصدر: ناجي زين الدين - بدائع الخط العربي /ص٤١٧

صور لخط الإجازة وخطوط للأستاذ حامد الآمدي

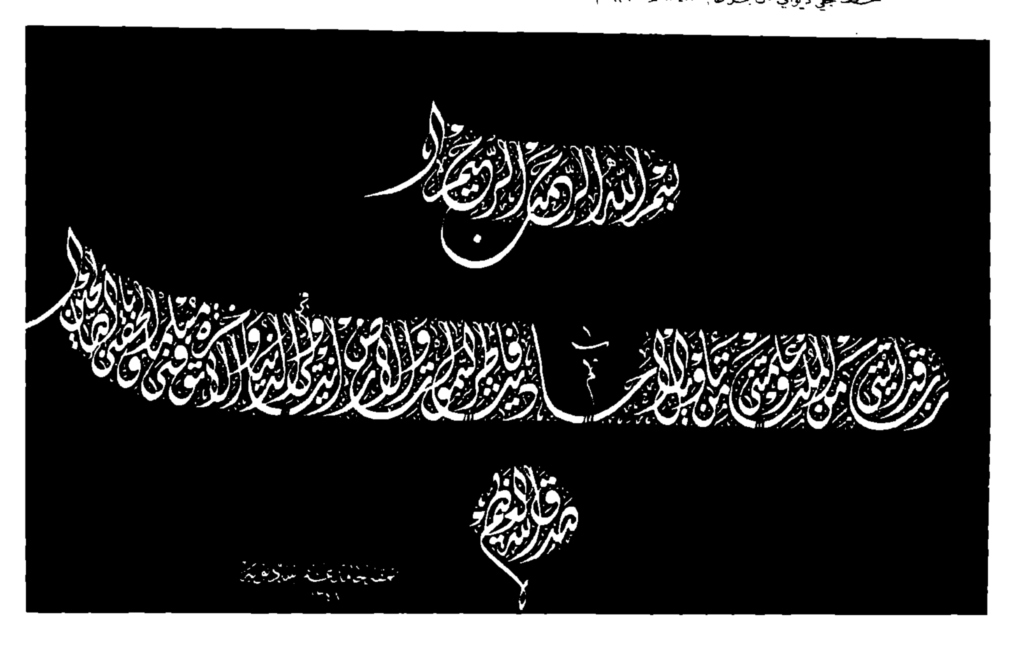


Calligraphie en style Farsi
de Hamed.
Istanbul, 1972

خط بالأسلوب الفارسي
للخطاط حامد
١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

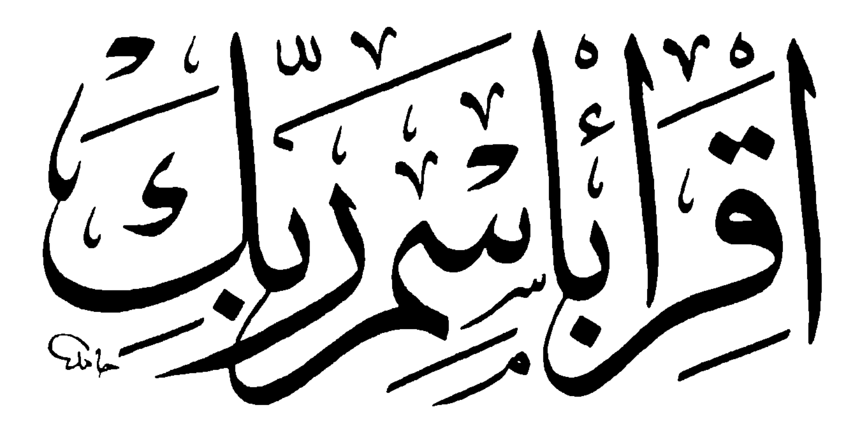
Calligraphie Jeli Diwani de Hamed. 1929.

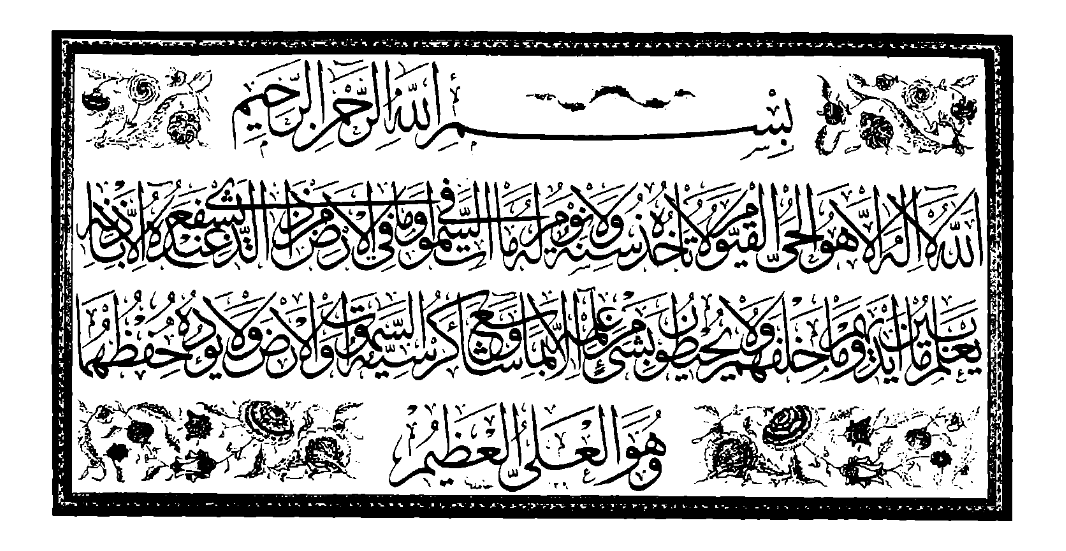
خط جلي ديواني انجز عام ١٣٤٨ هـ ١٩٢٩ م





شكل — ٣٠١ـ




بسم الله الرحمن الرحيم
الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه
يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما
وهو العلي العظيم



خمسة نماذج من الخط العربي بقلم الاستاذ حامد الآمري - آخر عباقرة الخط وفي تركيا والعالم الاسلامي
النموذج ١و٢و٥- من كتاب حسن السعودي / الخط العربي - ٣و٤ من كتاب ناجي زين الدين بدائع الخط العربي

الباب السادس

شخصيّة الحَرْفُ العَرَبي

تنطلق الأساسيّات الأولى لولادة الحرفُ العربي من ضرورة أملتها هذه الولادة، كي يكون الوَليد، مكتسب شخصيته الذاتية مُنذ أول لحظة يَرى فيها النور، فقد رفض الحرف العربي أيَّ تماثُلٍ لَهُ مع الخط الحميري أو النبطي، اللذان كانا قد سبقاهُ في الولادة والتكوين والنشأة، وانشقّ عنهما بمفارقة عجيبة فرضت التمايز بينَهُ وبين تلك الحروف، وقد كانت النقوش الحجرية التي عُثر عليها كنقش النمارة ونقش زبير ونقش حَرّان[1] من أكثر الدلائل، تاريخية، على هذا التمايز والمفارقة، إذ منذ البدء، وتحديداً في العصر الجاهلي، عَرّف شخصيته بإسم «الخط الحيري» كي يُدلَّ على إسم المكان الذي وُلدَ فيه، وهو/مدينة الحيرة العراقية/ ورغم هذه الصدفة الجغرافية للولادة، إلاّ أنَّ قلق الحرف ذاته كان يبحث عن مكان للإستقرار كي يولد معافى وصحيح النشأة، فكانت الأنبار المحطة الثانية لإستقرارهُ، وهو ما زال في طور النشأة، ثم ارتحل إلى الحجاز وعاد إلى العراق ثانية ليستقرَّ في الكوفة، ليبدأ نشأة أخرى ذات مواصفات فنيّة، بدأت تُقلق كيانه كي يرسمُ بها ذاته من خلال الأيادي التي بدأت تتعلّمهُ وتتعاطى معه، بوصفهِ أداة معرفية أولاً، وبكونه حامل لآفاق الفن في الرسم والتشكيل، فأخذ شخصيتَهُ الكوفيّة، من خلال المكان، واستقرَّ فيها، باسطاً نوعاً من التسمية عليه، عُرفت بإسم الخط الكوفي. وبهذا الإعتبار برزت معالم الشخصية الفنيّة للحرف العربي، قبل مجيء الإسلام وأخذ هذا النفوذ ينتشر في شبه جزيرة العرب، كما أوضحنا ذلك في «المقدمات التاريخية لهذا الموضوع»[2] ومن هنا سيكون النظر إلى شخصية الحرف العربي، بكونها شخصية فنيّة، ذات قسمات

---

(1) «نقش النمارة: هو نقش قديم مُدّون على حجر، مُؤرّخ في (328م) وينسب إلى - النمارة - وهو قصر صغير يُعود إلى الروم، يقع في الحرّة الشرقية، و«نقش زبد» هو نقش على حجر مدون بثلاث لغات - العربية والسريانية واليونانية، وينسب إلى زبد، وهي خربة بين قنسرين ونهر الفرات. (و«نقش حَرّان» ينسب إلى حرّان السورية، وتقع في المنطقة الشمالية لجبل الدروز - راجع الفصول الأولى من هذه الدراسة).

(2) راجع الباب الأول من هذه الدراسة - فصل: بدايات الحرف العربي في الكتابة.

خاصة، إضافة إلى بدايات التدوين الكتابي بهذا الحرف، لا سيما وإن المعلقات الشعرية في الأدب الجاهلي كانت قد كتبت فيه، باعتبار أن الخط الكوفي كان في بداية أمره بسيطاً خالياً من أيِّ تعقيد فنّي يتوجّب الأخذ به، لذلك نشاهد المدونات العربية الأولى كانت بهذا اللون من الخط العربي.

الفصل الأول

التشكيل الفَنّي للحرف العربي

تتداخل الحُقب التاريخية مع بعضها عند الإشارة إلى بدايات التدوين الكتابي عند العرب، لا سيما في مسألة/ الفنون العربية/ والخط العربي منها.

فرغم أن البدايات للخط الكوفي كانت مع العصر الجاهلي، إلاّ أنَّهُ لم يظهر كفنٍ كتابي إلاّ مع الحقبة الإسلامية، وتحديداً بعد الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، بمعنىً آخر، إن حالة إستقرار الدولة العربية - الإسلامية كانت لها التأثيرات المباشرة في تطوير كل العلوم والفنون وعلى هذا الأساس كانت الفنون الإسلامية الأولى، هي مزيج متفاعل بين الجاهلية والإسلام. ورغم أن الخط العربي يكاد يكون ذو فرادة خاصة بالنسبة إلى الفنون الإسلامية، إذ أنَّهُ أوّل وليد لا يدين بالكثير إلى الفنون التي سبقت الإسلام[1]، ومع بداية الإسلام كان الخط الكوفي صاحب الحضوة والريادة في خط آي القرآن، حيث كانت انطلاقته الأولى بشكل رسمي/ كفن كتابي/ مع الخليفة الثالث عثمان بن عفان (قُتل 35هـ/ 656م) حيث جمع القرآن بين دفتي مصحفٍ واحد، وبخطٍ واحدٍ هو الكوفي، الذي كان سائداً في تلك الحقبة الزمنية، حيث كان هذا الخط، بداية أمره بسيطاً وخالياً من الزخرفة، لذلك كانت هذه البداية، هي التشكيلة الفنيّة الأولى للخط العربي، وقد تأصّلت مع كتاب العرب الأول «القرآن» وبذا أصبحت لهذه التشكيلة الفنية الهِيبة والقدسية في محمولها الديني أولاً، ثم تطورت فنيّاً مع كامل الحقبة الراشدية وجزء من عهد بني أُميّة وحتى بداية الدولة العباسية عام 132هـ/ 750م، وقد انتشرت «كتابة المصاحف» في صدر الدولة الإسلامية، في عهد علي بن أبي طالب الخليفة الراشدي الرابع (قتل 40هـ/ 661م) حتى بقيت هذه المهنة قائمة لفتراتٍ طويلة وصلت حتى سقوط الدولة العباسية على يد المغول

(1) ناجي زين الدين/ بدائع الخط العربي/ ص 22.

656هـ/ 1258م وبقي الخط الكوفي هو صاحب السيادة في هذا النوع من الكتابة للمصاحف، إلى أن فرض إبن مقلة إسلوباً فنّياً آخراً، هو الخط المنسوب على كتابة المصاحف وغيرها، كما أوضحنا في الفصول والأبواب السابقة من هذا البحث.

ومن كتابة المصاحف إلى الأبنية والعمائر وشواهد القبور وأروقة المساجد ومحاريبها وقبابها ظلّت شخصية الحرف الكوفي قائمة بقوة في كل هذه الفنون، إذ أن هذا النمط في الكتابة العربية، نالَ قسطاً من التجويد، وتنوّعت على مَرِّ الزمن أشكالهِ، وتعددت صوره، وغدت لَهُ مُسحةً زخرفية خاصة بهِ، عُرفت باسم الزخرفة الكوفية، نسبة إلى تلك المدينة - الكوفة - التي ولد فيها ومنها إنتقل، بعد أن ثبّتت قواعده وأساساته للحروف العربية[1] إلى بقية الأمصار.

ومن الملاحظ أن أهل الكوفة قد أفرطوا في استخدام الصورة اليابسة في كتابة المصاحف التي دامت أربعة قرون[2]، رغم أن الخط الكوفي كان في بداية تشكيلهِ بسيطاً لا توريق فيه ولا تزهير ولا تشابك ولا ترابط بين حروفهِ - كما أوضحنا في سياقات البحث -[3]، ثم اتخذ عِدّة مسميات فنيّة تُعرّف بشخصية الحرف في كُلِّ مُسمّى وهي: **الخط الكوفي البسيط، والخط الكوفي ذو المثلثات، والخط الكوفي المورق، والخط الكوفي المزهر، والخط الكوفي المضفور، والخط الكوفي المربّع**[4].

إن تبدّل الحرف العربي من شكلٍ لآخر، ومن فترة لأخرى لهو دليل قاطع على تغيُّر مستمر في شكلانيته التي تؤشر إلى شخصيته القلقة، بالمعنى الجمالي - الفلسفي، حيث تشير تلك التجليات إلى البحث عن الكمال في هذا التبدُّل لإستقرار على شكل يُميّز الهوية لهذا المخلوق العجيب، وما تلك التحولات في شكله الأول - **الكوفي** - إلاّ دليلاً آخر على هذا القلق الإبداعي الكامنُ فيه، والذي ظَلَّ يرافقهُ حتى عصر ابن مقلة الذي غيّرَ هذا الشكل إلى حالة أرقى زادت في تاصيل هويته العربية وشكلها الفني الذي تلازمة حالة دائمة من الديناميكية المتطورة.

---

(1) راجع مقالة د. صلاح حسين العبيدي - الخط العربي ركن من أركان الحضارة الإسلامية/المنشور في مجلة/آفاق الثقافة والتراث - العدد 43 - أكتوبر 2003م صـ 89.

(2) المصدر السابق/ ص 90.

(3) راجع، فصل/ العباسيون وتأصيل الخط العربي/ من هذه الدراسة، في هذا الجزء.

(4) راجع، تفاصيل هذه التقسيمات الشكلية الفنية عند د. صلاح حسين العبيدي في بحثه الآنف الذكر أعلاه.

الفصل الثاني

جمالية الخط العربي في وعي المسلمين

أشرنا، في الباب الأول، الفصل الثاني، من هذه الدراسة إلى الكيفية التي تعامل بها رسول المسلمين وخلفائهم للتعاطي مع «حرف القرآن» لا سيما في كتابة المصاحف، للإعتبارات الدينية، باعتبار أن القرآن كتاب الله المنزل، لذا انصبّت الجهود الأولى للمسلمين على هذا الجانب، لكن الإيحاءات الجمالية، كانت تبرز من الحرف ذاته، لتغازل مخيلة الكاتب لهذا الحرف، فمرّة تستوجب بعض نهايات الكلمة مَدَّ الحرف ومرّة تقويسهُ، وثالثة تشابك أحرف الكلمات، وهي الضرورات التي كانت تبصرها العين من خلال إيعازات العقل لإيجاد تشكيلٍ ما، تقبَلَهُ النفس ويعبِّر عن إرتياحها، دون أن يَخُلَّ ذلك بالمحمول العقائدي للإسلام، فأخذت تبرز بعض الكتابات بشكل زخرفي على أغلفة الكتب، ومنها «المصاحف» وحلّت الزخرفة محل التصوير المشخَّص/ نتيجة تحريمه/ وهنا ظهرت البدايات الأولى للمنمنمات العربية (الآرابسك) دون أن يكون لها قانوناً فنيّاً محدداً، بل الفطرة الإنسانية عند المسلم دفعته لتحريك الذهن في مجال إبداعات الخط بدلاً من التصوير المجسّم الذي حَرّمُه الإسلام[1].

بمعنى آخر، أن الزخرفة كانت هي لغة الفن الإسلامي الأولى، وعمادها الأبرز كان الخط العربي، حيث استحدث أهل العراق الزخرفة الكتابية بشكل لا سابق له، حتى أصبحت هذه الزخرفة من الفنون التي يتباهى بها باعتبارها المدرسة الإسلامية الأولى عند كل المؤرخين لهذا الفن وراصديه من عربٍ ومستشرقين وغيرهم[2].

أن الوعي الجمالي عند الإنسان المسلم بدأ يأخذ حيّزاً واسعاً في تفكيره مع تطور الأفق الحضاري للخلافة العباسية، وخصوصاً بعد إنشاء وتطور صناعة الورق والكتابة وظهور مهنة الوراقة، إذ تكشف لنا كتابات المفكرين الإسلاميين عن «نظريات جمالية في

(1) راجع كتابنا/ خطاطو بغداد في العصر العباسي/ ص 7 - منشورات دار النمير - دمشق 1996م. ط. 1

(2) انظر - آرنست كونل/ الفن الإسلامي/ ص 78 - 79. ترجمة د. أحمد موسى منشورات دار صادر - بيروت 1996م - وكتابنا - خطاطو بغداد في العصر العباسي/ ص 9.

الفن» لا سيما عند الفلاسفة أمثال: الكندي والفارابي وابن سينا وابن مسكويه، وفي موسوعة «إخوان الصفاء» المتمثّلة في «رسائلهم» وبعض كتابات أبي حيان التوحيدي وغيرهم.

لقد عكست الزخرفة العربية بوقائعها المحسوسة بالحسِّ العقلاني من حبٍّ للواقع واحترام للنظام الإسلامي القائم، وإيماناً بالتعالي، فالتوريق، سواءٌ تخلّلَهُ رسوم الحيوان أو الطبيعة وما فيها من أشجار وطيور، طبعت صناعة الزخرفة بطابع عملي تطبيقي وقرّبتها من المجتمع وأورثتها مقولات الجمال والروعة[1].

لقد بدأت في الوعي الإسلامي بعض الإرهاصات الفلسفية لقراءة ظاهرة التكرار في الزخرف العربي، فقد فسّرها البعض بأنها «السعي وراء الله وداعية إلى الله الذي منه وإليه تنتهي الأسباب والمسبّبات» ولذلك كانت الرقشة الزخرفية بغير بداية أو نهاية، فهي سرمديّة إستوحت قواعدها من القواعد الرياضية إلى تكرار الموضوع والرغبة في حل معادلة اللاّنهاية، كما يقول «مارسيه»[2] فيما فَسَّر ذلك د. زكي محمد حسن بما أسماه «كراهية الفراغ» فيما فسّرت دائرة المعارف الإسلامية ذلك التكرار في الزخرف العربي تفسيراً فنياً بارعاً حين أرجعته إلى مبدأ الترابط اللانهائي»[3].

وقد رأى إخوان الصفا في «رسائلهم» إن أحكم المصنوعات وأتقن المركبات ما كان تأليف أجزائه وأساس بنيتهِ على النسبةِ الأفضل، ومن أمثال ذلك صناعة الكتابة التي هي أشرف الصنائع، وبها يفتخر الوزراء والكتّاب وأهل الأدب[4]، ثم يتوقفون مع الخط العربي في مقولتهم «النسبة الأفضل» على النحو التالي: «ينبغي لمن يريد أن يكون خَطَّهُ جيّداً وكتابته صحيحة أن يجعل لها أصلاً يبني عليه حروفه، وقانوناً يقيس عليه خُطوطه، والمثال في ذلك كتابة العربية، وهو أن يُخَطَّ الألف أولاً، بأي قدر شاء، ويجعل غُلظُهُ مناسباً لطوله وهو (الثُمُنْ $\frac{1}{8}$) وأسفلَه أدق من أعلاه، ثم يجعل الألف قطر الدائرة، ثم يبني سائر الحروف مناسباً لطول الألف ولمحيط دائرة الألف مساوياً لقطرها وأن يجعل الباء والتاء والثاء كل واحدة منها مساوياً لطول الألف، وتكون رؤوسها إلى فوق الثُمن، والنسبة الأفضل في هذا الشأن على المُثل والمُثل، والنصف والمُثل والثلث والمُثل والرُبع

---

(1) ناجي زين الدين/ بدائع الخط العربي/ ص 23.

(2) أنظر كتابه «الفن الإسلامي» ص 45 - نقلاً عن ناجي زين الدين/ ص 24.

(3) دائرة المعارف الإسلامية/ مادة - فنون/ ترجمة الشنتاوي وجماعته/ طبعة القاهرة.

(4) راجع «رسائل إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء» 1/ 162 - 163 - تحقيق خير الدين الزركلي. الطبعة المصرية - القاهرة - 1347هـ/ 1928م.

والمُثل»[1]، هنا يضعنا إخوان الصفاء في «حدود نظرية دقيقة» تعتمد البُعد الرياضي وحدةً للقياس في الخط العربي عند الكتابة والتشكيل، وهو أمرٌ فائق الدلالة في الوعي الجمالي عند المسلمين.

وعندما فَصَلَ إبن مُقلة وظيفة القلم - كما أوضحنا -[2] في العصر العباسي من وظيفة دلالية في الكتابة إلى وظيفة جمالية، تغيّر نظر المسلم إلى الحرف وزادت هيبة الإبداع لديه هيبة جمالية ذات مفعول سحري للعين، وتزايدت طرق العناية الفنية في رسم هذا الحرف، حتى غدت أنواعهِ تربوا على الثمانين نوعاً[3].

إن هذا التعدد لأسماء الخط العربي كان إستجابة لروح الفنّان المسلم، ليس فقط العربي، بل وكذلك السلجوقي والتركي والأتابكي والمغولي والتركستاني والفارسي، والشعوب الأخرى التي دخلها الإسلام. فلقد أجرت هذه الشعوب تحسينات على الخط العربي لتعبّر به عن هويتها القومية، ضمن المحمول الديني الإسلامي، ولكن بشكله العربي، بمعنى آخر أن شكل الحرف ظلَّ عربيّاً، فعلى سبيل المثال، تغيّر تسمية قلم الطومار إلى إسم جلي الثلث، والذي استخدمته الدولة العثمانية على منشآتها الدينية وداخل المساجد والجوامع، كما فعل قبلهم أهل تركستان في ما وراء النهر، فجعلوا عرض القلم في بعض كتابات الجدران والمحاريب (10 - 25سم) محققّين بذلك كلمة (الجلي) التي تُطلق على ما يكتب بالحرف العريض الكبير في أغلب الكتابات الكبيرة كالكوفي، والمُحقّق، والثلث الجلي أو ثقيل الثلث.

وقد سُمّيت هذه الأقلام بالجلي، وشملت التسمية أيضاً خط التعليق الفارسي حيث سُمّي «جلي تعليق» وكلمة «جلي» تعني «الواضح» وأطلقت هذه التسمية نظراً لما في حروفهِ من سعةٍ على ما تقتضيه الموازين ووضع الكتابة في مواضعها من واجهات المساجد والقباب وغيرها[4].

إن هذا التبدّل والتقلّب الدائم في شخصية الحرف العربي من حيث التسميات هي حالة ديناميكية متطورة على الدوام، حيث نلحظ في هذا التقلّب، إستجابة روحية لشخصية الفنان المسلم من جهة، ومن جهة ثانية، تبديل ثوب الشكل للحرف العربي مع الحفاظ على خصوصيّته العربيّة، ومطواعيّته الفنية في التشكيل وفق كل مراحل تطوراته، فقلم

(1) رسائل إخوان الصفاء 1/ 164.

(2) راجع - الباب الثالث من هذه الدراسة/ فصل ابن مقلة عميد مدرسة بغداد للخط العربي/ .

(3) ناجي زين الدين/ بدائع الخط العربي/ ص 465.

(4) أنظر: ناجي زين الدين/ بدائع الخط العربي/ ص 465.

الريحان مثلاً، ينحدر من **قلم الطومار** العربي الأصل، والذي سُميَّ «**جلي الثلث**» عند **العثمانيّين**، وكذلك **قلم المُحقّق**، والذي سُمَّي بهذا الإسم نتيجة تحقيق أجزاء حروفه، وإعطاء كل حرف مالَهُ وما عليه، ولا يوجد في **المحققِ** طمسٌ لعيونِهِ، ومثله، كذلك، **قلم الريحاني**، والذي سمي بذلك نتيجة سبب تلاقي حروفه الصاعدة كعيدان نبات الريحان، ونلاحظ أن تكتب حركات **قلم المُحقّق** بنفس قلمه (القصبة أو الريشة) أمّا حركات **قلم الريحاني** فلا تكتب إلاّ بقلم أدق، أقل عرضاً، وتكون عراقات هذين القلمين أقل عُمقاً وتقويساً من عراقات **قلم الثلث**، أي أنَّ بطون **الجيمات والصادات والعَين** فيها مُرسلة، أمّا **عيون الفاء والقاف** فمُفتّحة. **والمُحقّق** مرسل الحروف، قليل التقوسات، جميل السطور، مُحبَّبٌ إلى النظر أكثر من **الثلث**[1].

لقد سحر **قوام الحرف العربي** وأفتن الكثير من الخُلفاء والسلاطين في مختلف العصور، فهذا المأمون، الخليفة العباسي المعروف يقول: «لو فاخرتنا الملوك الأعاجم بأمثالها لفاخرناهم بما لنا من **أنواع الخطّ**، يقرأ بكل مكان، ويترجم بكل لسان، ويوجد في كل زمان»[2]. وعندما وصلت الخلافة الإسلامية إلى **العثمانيين** فإن سلاطينهم اختاروا نوعاً من الخط العربي أسموه «**الطغراء**» اتّخذوه شعاراً لهم، نسبوا إليه **القدسية والعظمة** يقول **ملك آقسل**: «إن **الطُغراءات** من بدائع التفانين التركية منذ مئات السنين، إمتزج بها الخط بالرسم»[3]، حيث شُبِّهت هذه «**الطغراء**» بالطير الإسطوري «**سميرغ**» عن الفرس و«**العنقاء**» عند العرب. كما أختير **الخط الديواني والجلي ديواني**، والذي يُسمّى «الهمايون» للكتابة بأسفل الطغراءات، وذلك لانسجامِهِ ومجانستهِ كتابة الديوان الأعلى في الدولة التي يرأسها السلطان، تميّزاً لإسمهِ، وبُعدهِ عن العامة[4]. كما أن جمالية الخط العربي إنعكست بأرواح المحبين المسلمين وعاطفتهم، حتى أصبحت تقارن مفاتن الجمال الجسدية مع بعض الحروف، فلقد قورنت خصلة الشعر على صدغ الفتاة بنهاية حرف «الكاف - ك -» كما شبّه حرف «الراء» بالحاجب المتعرّج الأنيق، وشبّه حرف «النون» بالشامة على خد العاشق[5].

---

(1) المرجع السابق، نفس الصفحة - راجع ما بعدها حول الفروقات التفصيلية بين بقية الخطوط.

(2) سهيلة الجبوري/ نشأة الخط العربي وتطوره/ ص 3.

(3) ملك أقسل «تركلر ده ديني سملد» استانبول 1967 - والنص أعلاه أخذ من كتاب ناجي زين الدين/ بدائع الخط العربي/ ص 469.

(4) ناجي زين الدين/ المرجع السابق.

(5) راجع ج5 - من الموسوعة/ أعلام الوراقين البغداديين/ فصل «النساء الورّاقات».

الفصل الثالث

الحرف العربي في فلسفة التصوف الإسلامي

للإبداع الصوفي، كما لأيِّ إبداع حر، تضاريسهُ ومدياته الأرحب، وقد تمثَّل هذا الإبداع عند المتصوفة المسلمين ما أسموهُ بـ«لسان الحال» وليس «لسان الحال» سوى المعاني المترامية في الحرف والكلمة والعبارة باعتبارها «أصوات الحقيقة» وأنغام التجربة الفردية، أي أنَّ لسان الحال هو لسان الخلجات العميقة والحدس الخالص للرؤية المتراكمة في صيرورة الروح المبدع. كما يقول باحث معاصر[1]. والإبداع الحُر، في التجربة الصوفية، هو تجلّي وبحث دائمين عن النسب الجميلة في الوجود من خلال وجدها الفردي ومعاناتها في الروح والجسد، بمعنى التحسس والقبول عند الجوارح، وعلى هذا التصور يكون لسان الحال الصوفي هو تنسيق الإحساس والعقل والحَدْس في وجد الوجود والتعبير عن النسب المعقولة في تجانس الكينونة الإنسانية وصيرورتها الثقافية في مواقفها من القضايا العابرة والخالدة[2]. بمعنى آخر، أن السلوك المعرفي لرؤية التصوف الإسلامي يخضع لإسلوب صيرورة الروح الصوفي ذاته، إذ تشترط (تقليدية المسار الصوفي) تمظهرها في إلزامية المقامات، لأنها إسلوب صيرورة الروح الصوفي المبدع، ولأن تقليديتها، مقيدة بمساعي بلوغ الحق «المطلق»، كما وجد ذلك إنعكاسَهُ أيضاً في تمييز اللسان الظاهري والباطني للتصوف، وهو ما يظهر في مصطلحات التصوف/ ظاهرياً/ كالتلوين والتمكين والصحو والمحو، والهيبة والأنس والقوامع واللّوامع والبواده «في الطرائقيات» والرتق والبرزخ والحروف العاليات، والعنقاء، والياقوتة الحمراء «في الملكوتيات» والخضر والدبور، والران، ورسوم العلوم، ورقوم العلوم «في النفسانيات» والأنانية وسدرة المنتهى، والبيّت المقدس، وعين الله، وعين العالم، والورقاء «في الروحانيات وأم الكتاب، والحكمة والدرّة البيضاء، وعين اليقين، والذوق «في العقليات» والأعيان الثابتة، والأنيسة، ويسرَّ سِرَّ الربوبية، وحقيقة الحقائق، والحلول السرياني «في الوجوديّات» أمّا في

(1) د. ميثم الجنابي/ حكمة الروح الصوفي/ ص 397 - منشورات دار المدى - دمشق 2001.
(2) المرجع السابق/ ص 398.

الباطن، فيتجلّى في تنسيق إخلاص البيَان والبُرهان والعِرفان للحق[1] وعلى هذا الأساس، ينطلق النّفرّي - أبو عبد الله محمد (ت 354هـ/ 965م) في تعريفه للإخلاص قائلاً: «أوقفت الحرف قدام الكون، وأوقفت العقل قدام الحرف وأوقفت المعرفة قدام العقل وأوقفت الإخلاص قدام المعرفة، فقال لي: ما الإخلاص؟ فقلتُ: لوجهك»[2].

ومسألة التعامل مع الحرف العربي ضمن منظومة التصوف الإسلامي، تخضع لتلك الآيديولوجيا التي رسمها ذلك الفكر الوَهّاج، فهي عندهم تخضع إلى مسألة التأويل الباطني ضمن الكُلّ المعرفي، كتجسيد لَهُ دلالتِهِ تشخّص الحرف وفق بيانه ورسومه وتوظيفه ودلالاتِهِ الأبعد، إذ أن الحرف هو ليس فقط ميدان المقارنات الممكنة للعقل «المنطقي» والوجد البياني والمعنى «الحدسي» بل رمز الوجود، وعنصر الكون والفساد كما عبَّر عنه النفري في المخاطبة 23، قائلاً[3]:

«الحرفُ لغات، وتصريف، وتفرقة وتأليف، وموصول ومقطوع، ومبهم ومعجم، وهيئات، والذي أظهر الحرف في لغة، هو الذي صرفه، والذي صَرَفَهُ هو الذي فَرّقه، والذي فرق، هو الذي ألّفه، والذي ألّف هو الذي واصل فيه، والذي واصل فيه هو الذي قطعه، والذي قطعه، هو الذي أبهمه، والذي أبهمه هو الذي أعجمه، والذي أعجمه هو الذي أشكله، والذي أشكله هو الذي هيأه، ذلك المعنى هو معنًى واحد، ذلك المعنى هو نور واحد ذلك الواحد هو الأحد الواحد». هنا نلمس وضوح الرؤيا في التطابق مع المطلق «الحق الواحد» وهذه الدلالة هي ذاتها التي عبَّر عنها متصوف آخر إشتغل في هذه الرؤية حول تأويل معاني الحروف، هو الشيخ عبد القادر بن محمد بن أبي الفيض (ولد بحماة سنة 971هـ وتوفي بحلب سنة 1040هـ) في كتابه «المواقف الإلهيّة» حيث يقول في «موقف الأنانية»[4].

«أوقفني على بساط الأنانية، ثم كشف لي عن سِرّ قيام النفس الرحماني والسيرُّ الباعث لروح الكشف والإنتباه في القلب الإنساني» ثم يقول: «وكشف لي عن أهم الحروف العالية، وتنزُّلها في قوالب الكلم المرموقة، فرأيت لكل حرف سبعة أبطن، وظهر

(1) د. ميثم الجنابي - المرجع السابق/ ص 398.
(2) النفري - المواقف والمخاطبات/ موقف المحضر والحرف/ ص 68، وقد اعتمدنا على طباعة هذا المصدر من «موقع المصطفى الالكتروني» وفق تصحيفاته، أنظر الموقع على الرابط التالي: www. Al - mostafa. Com
(3) المواقف والمخاطبات/ ص 104 من طبعة «المصطفى».
(4) أنظر - عبد القادر بن محمد بن أبي الفضيل «المواقف الإلهية» والمنشور على موقع (الصوفية) www. Alsoufia.com.

بها في أشعة أنوار القلب على اللسان، وقال لي: هي صورٌ سبعة: الأولى الفهم، ثم القبول، ثم العِلم، ثُمَّ التجلّي والنزول، ثم النطق آخر الصور» ثم يضيف لها مرمىً آخر في التأويل يُعمّق المعنى والدلالة في هذا الإسقاط المعرفي الموظّف، فيقول[1]:

«ثم كشف لي عن مراتب طبقاتها وعَرَّفها لي فقال: الأولى هي الحال، ثم التحقيق، ثم الحُكم، ثم البيان، ثم الإخبار، ثم السَماع، ثم الإيقان».

هذا التراتب المعرفي هو حقيقة السير في (الطريقة) الصوفية لمعرفة أسرار الغيب في الوجود، ضمن تراتب «البيان والبرهان والعرفان». والخطاب هُنا لذوي الصفوة والذوق عند الأقطاب والأتباع والمريدين. بمعنى أن «القانون» المعرفي لدى هؤلاء يوقفهم على أسرار سر الحرف، وربط ذلك بتأويل محمول الكلام مع الحق «المطلق» وهو ما تضيفه عبارة ذلك القطب الصوفي عبد القادر بن محمد، على النص السابق، حيث يقول فيه: «ثم كشف لي عن مراكز تنزلاتها في الثقلين، فرأيتها في السبعة أقطاب وانفردت في القطب الغوث بالسبع المثاني، ورأيت دورانها في أفلاك التسعة والتسعين إسماً[2] ومن هنا نفهم علاقة الفرد بالوجود وترابط الحالة مع المطلق بعرف التصوف.

ثم يميلون «المتصوفة» إلى تقريب رؤاهم من تبسيط حقائق الأشياء ومحمولاتها المؤولة في منظومتهم الفكرية، إنطلاقاً من أسرار الحرف المودعة في الكتاب وفي الوعي وفي الوجود، يقول «ابن أبي الفضل»: «وكشف لي قيام اسرار حرف الألف، فرأيت قيام إمتداد (الهمزة) بكل حقيقة خفيّة، (واللاّم) بكل عالم كوني جلي و(الفاء) بمعرفة كل معروف عند تعريفه»[3].

ثم يعرّج بتعريفات أخرى على مضمون كلمة «شمس» وأبعادها الروحانية قائلاً: «هذا السِرُّ لا يظهر إلا عند أُفول قمر البشرية، وتجلي شمس الروحانية، ثم قال لي: وفي ظهورها قوة «شين» المشيئة و«ميم» الكلام، و«سين» السلطان، في حُجُب السبحانية، وهي ظل الغُمام التي بها انجلى لأهل القيامة، وبالنور قيام «نون» النبوة و«واو» الولاية، و«راء» أحكام الربوبية في البشر لمظاهر مراتب الإلوهة»[4].

وعلى هذا الفهم قد صاغ النُفرّي رؤاه حول دلالة الأشياء بأصولها والأسماء بحروفها، فهو القائل: «وقال لي: لكل شيء شجر، وشجر الحروف الأسماء، فاذهب عن

---

(1) المصدر السابق/ نفس المكان.

(2) المصدر السابق/ نفس المكان.

(3) نفس المصدر.

(4) نفسه.

الأسماء تذهب عن المعاني»[1]. وتتجذر تلك المعرفة عنده (النفرّي) حين يجعل الحرف قادراً على التعبير عن مكنون ذاته، فهو القائل: «الحرفُ ناري، الحرفُ قدري، الحرفُ دهري، الحرفُ خزانة سرّي»[2].

وهنا نفهم بأن لكل لغة حروفها والمعبّر عنها في مصير الذات الإنسانية في القدر والمصير ومكمن الأسرار، بعبارة أخرى «أنَّهُ سرَّ المعنى القائم في الكلمة، لأن الكلمة هي وحدة حروف، ومعناها موقف وعقد فنيّة يتجلّى في ظاهر الكلمة وباطنها[3].

ومن هنا نعرف حقيقة موقف النُّفرّي في توظيف الحرف للمعنى المقصود بقوله: «المعرفة حرف جاء لمعنى، فإن أعربته بالمعنى الذي جاء لَه نطقت به»[4] وفي موقف آخر يؤكد: «الحرفُ يسري حيث القصد، جيم جنّة وجيم جحيم»[5]. والنُّفري هنا يقصد أن معاني الكلمة في مقاصدها، أي في تطابق الحس والعقل والحدس فيها، بحيث يجعل منها تعبيراً عن الحقيقة بدلالة الحرف الموظّف وجهة التوظيف فالإبداع ليس تركيباً للحروف في الكلمة بل صهر الحروف في المعنى، أي تركيب الكلمة من معاناة المعنى - كما يرى د. ميثم الجنابي[6].

وعلى هذا الأساس من التفكير الباطني، أكمل صاحب «الفتوحات المَكيّة» هذه الفلسفة للحرفة حيث أعطاها أبعاداً حسيّة وعقلية وذوقية، من خلال نظرته إلى العالم، باعتباره «كتاباً مسطوراً ومرقوصاً ومجهولاً» إذ جعل العالم كتاباً يتوجب القراءة، وإدراك كلماته من أجل إدراك معناه، لذلك يقول إبن عربي مؤوّلاً الكلمة، باعتبارها «وجود بين حرفٍ ومعنى» في معرض تفسيره لكلمة حروف المعجم «من عجمتها» لأنها عجمية عن الناظر فيها معناها، فغياب المعنى، أو عجمة الحروف ينبع من كونها «ائمة الألفاظ» كما يقول إبن عربي[7]:

«إن الحروفَ أئمة الألفاظ ... شهدت بذلك ألسنُ الحُفّاظ
وتقول لولا وجودي ما بدت ... عند الكلام حقائق الألفاظِ»

---

(1) النُفرّي/ المواقف والمخاطبات/ موقف التذكرة/ ص 18.
(2) المصدر السابق/ مخاطبة رقم 53 - ص 122.
(3) د. ميثم الجنابي/ حكمة الروح الصوفي/ ص 408.
(4) النّفري/ المواقف والمخاطبات - موقف بين يديه/ ص 53 - 54.
(5) المصدر السابق/ موقف المحضر والحرف/ ص 72.
(6) د. ميثم الجنابي/ حكمة الروح الصوفي/ ص 409.
(7) نقلاً عن المرجع أعلاه - نفس الصفحة.

وهنا إبن عربي يُطوّر منظور النُّفّري القائل «بسريان الحرف حيث القصد» إذ يضفي عليه أبعاداً شاملة من حيث الصيرورة والكينونة والإبداع، حيث أنَّهُ تكلم عن مراتب الحروف والكلمات والعالم[1].

إن مقصد الحروف في دلالاتها المعنوية، هو تحديد وجهة توظيف الحرف في بناء الكلمة، من حيث المعنى المقصود، وحسب رؤية الشيخ الأكبر السالفة «**الحروف أئمة الألفاظ**» حيث أن هذهِ المقولة كان قد أسَّس لها النفّري بشكل واضح في أحد (مواقفه) الرائعة، حيث قال: «**الحرف يسري في الحرف حتى يكوّنه، فإذا كوَّنه سرى عنه إلى غيره فيسري في كل حرف فيكون كل حرف**»[2].

ثم يضيف تأكيداً آخراً على هذا المنظور التجذيري للحرف فيقول: «**وقال لي: إذا انطقت بالحرف رددتَهُ إلى المبلغ الذي تطمئنُّ بهِ فيسري بحكم مبلغه في الحروف، فيسري إليك الحكم السوي**»[3].

هذا التأكيد التصوفي هو لإقرار وحدة الموضوع المؤوّل للعلاقة بين الحرف والكلمة وبين الذات والموضوع، وبين الوعي والمحمول المعرفي، وبين الحس والعقل والحدس، وبمعنى أشمل تحقيق وحدة موضوعات **البيان والبرهان والعرفان والطريقة والشريعة والحقيقة**، وجمع كل ذلك في المنظومة الفكرية لعقل التصوف الإسلامي، إنطلاقاً من موضوعة الحرف، والذي يشكل/ في تلك المنظومة/ الأس الأقوى والعمود الأرأس الذي شيّدت عليه تلك المنظومة في غالب تأويلاتها المعرفية، عند رجالاتها الأقطاب الذين صاغوا لها تلك المعارف.

حتى أن النفّري يربط عملية توظيف الحرف في الكلمة في مسألة «**الثواب والعقاب الآخروي**» حيث يقول: «**الحرفُ الحَسَن يسري في الحروف إلى الجنّة، والحرف السوء يسري في الحروف إلى النار**»[4]، وعلى هذا الأساس إشتقَّ شعارهُ الرائع «**فلنقتبس حرفاً من حرف كما نقتبس ناراً من نور**»[5].

وعلى هذا الأساس من «الإعتبار الديني» يُطوّر إبن عربي منظومة المعارف الإسلامية

---

(1) نفس المرجع/ ص 410.
(2) النّفري/ المواقف والمخاطبات - موقف العهد/ ص 50.
(3) المصدر السابق/ نفس المكان.
(4) المواقف والمخاطبات/ موقف العهد/ ص 50.
(5) المصدر السابق/ مخاطبة 53/ ص 122 - وقد وردت في النص على الصيغة التالية «فإذا أرسلتك إلى الحروف فلتقتبس حرفاً من حرف كما تقتبس ناراً من نار) ويبدو أن المحقق/ أحد المستشرقين/ لم ينتبه إلى عبارة «ناراً من نور» فكتبها هكذا..

- التصوفية إلى أبعاد أكثرَ إستشرافاً لعمق المعاني، بحيث يجعل من الفكر الذي يتعاطى مع هذه المنظومة أكثر انفتاحاً وشمولاً، لتجاوز شكلية النص - أيَّ نص - إنطلاقاً من **تأسيسات الحرف العربي** ويبدأ ذلك مع **النص القرآني**، في إفتتاحيات السُوَر، فهو يرى إلى أحرف/ سورة البقرة الأولى (ا. ل. م)/ أبعاداً شاملة في الصيرورة والكينونة والوجود والإبداع، إذ تكلم عن مَراتب **الحروف والكلمات** والعالم، كما لو أنَّهُ أراد تنسيق وترتيب وتنغيم النسبة «العلاقة» بين الحس والعقل والحدس والبيان والبرهان والعرفان، والطريقة والشريعة والحقيقة، والملك والملكوت والجبروت، والنماذج الأخرى في وحدة لها معناها الخاص في الكلمة، فقد وجد في هذه الأحرف الثلاث (ا. ل. م) تجلياً لثلاثية المُلك والملكوت والجبروت.

فالألف إشارة إلى التوحيد أو الواحد «الملكوت» **والميم**، إشارة للمُلك، الذي لا يهلك «الوجود» **واللاّم**، إشارة للواسطة «الجبروت»[1] وعلى هذا الأساس من **التأويل**، ينظر إلى كلمة «الله» بشكل جعل منها نموذجاً للصيرورة والكينونة والوجود والإبداع[2].

وقد ربط إبن عربي إشكالية «**الظاهر والباطن**» في الإنسان بإشكالية **المعنى في «الحرف والكلمة»** أي أن حقيقة كل منهما على قدر تجانس الظاهر والباطن، والحقّ والمعنى، فكما أن وحدة الإنسان والحقيقة تتكون في مجرى معاناة صهر الباطنِ بالظاهر، فكذلك المعنى الحق يتكون من حروف **المُعاناة المصهورة في الكلمة**، إذ الحروف، هي العناصر الجوهرية في تضاريس الإبداع الحُر، لأنها توجد في كلمة الروح، كما لو أنها الضمير والمعنى، ومن هذا الإمتزاج تتكون معاني الكلمات باعتبارها إبداعاً تتوقّف قيمته على كيفية النسب وتركيبها، لأن «الإبداع كلمة مثلما نسمّي الشخص الواحد منّا إنساناً» كما يقول **إبن عربي**[3].

فعالم الكلمات ينشأ من عالم الحروف، وعلى هذا الفهم والتصور إشتقَّ إبن عربي مبدأً خلاقاً في الوجود الإبداعي تجسَّدَ في مقولته الشهيرة: «**الحقيقة في الكلمة هي أن تكون كلمة الروح روح الكلمة**»[4].

ومن هنا ندرك أهمية ما قدمَهُ **التصوف الإسلامي** للكلمة والحرف العربي، باعتباره

---

(1) د. ميثم الجنابي/ حكمة الروح الصوفي/ ص 410.

(2) راجع استطرادات د. ميثم الجنابي، في شرح هذه الأمور وأبعادها في المصدر أعلاه. حيث فيه استطرادات كثيرة وغاية في الأهمية، لمن يروم الإستزادة.

(3) المصدر السابق/ ص 410.

(4) راجع أيضاً د. ميثم الجنابي/مقالة بعنوان «تضاريس الابداع في التجربة الصوفية» والمنشور في مجلة (نزوى) الفصلية العُمانية/العدد 26 - أبريل - 2001م.

أحد النماذج الرفيعة للثقافة العربية - الإسلامية، حيث العبارة والمصطلح الصوفي، يعبّران في إستقامة الروح الخالصة عن إعوجاج الثقافة وانحرافاتها وانكساراتها وتعرجاتها في ميادين البيان والبُرهان، حيث العثور في هذه الثقافية الصوفية على إخلاص نادر لوحدة الحقيقة والمعنى[1]، مركّزاً على فلسفة الحرف وأهميّته التأويلية في مسارات الثقافة العربية - الإسلامية، وأعطى «تجريداً» إلى بلورة تقاليد الفقه والكلام وعلوم اللغة ومسارات الأدب، وقد كانت ثقافة الحرف عندهم بمثابة «الإمام» المتّبع، حيث يميلون معهُ اينما مال.

الفصل الرابع

الحرف العربي والفنون التشكيلية

المتابع لمسيرة تاريخ الخط العربي وتطورهِ وتبدّل أشكاله، من صيغة كتابية إلى أخرى، يستنتج أن هذا الحرف يُؤثّر ويتأثر بنظر المتلقي، بمعنى آخر، أن التأثير السايكولوجي يبدأ على المشاهد حالَ وقوع الرؤية على أشكال رسم الخطوط، فتبدأ بقية الأحاسيس بالإستجابة والتفاعل والنظر إلى العمل الفني من أكثر من زاوية، بغية الإدراك المُعمّق لشكل وجوهر الشيء المنظور، لأن هذا الشيء يحرّك في المتلقي جُملة من الأحاسيس الداخلية كي تشبع رغبةَ النفس لما تريد استكناهَهُ، لا سيما العمل الفني، ومن هنا جاءت نظرية روبرت فيشر (ت 1872) في «الفن السايكولوجي» والقائلة: «أن الدينامية - الحركية - والعلاقات الشكلية في العمل الفني تفترض تحريك مواقف إحساسيّة وعضلية وعاطفية للناظر - المتلقي - والناظر يختبر هذه المشاعر والأحاسيس كأنها صفات الشيء الذي ينظر إليه فنيّاً»[2].

وتشكيلات الحرف العربي - فنيّاً - تمسك المشاهد بقوة غير عاديّة، وتحرّكه بشدّة،

(1) المصدر السابق/حيث فيه شروحات وافية عن تأويل لفظ الجلالة «الله» الى مديات فلسفية كبيرة وواسعة.

(2) Vicher, Rober: Das potiche formgeful reprinted in drei schrften zum as the tischen form problem, Hoell 1927

باللغة الألمانية، ومختصره المترجم إلى الانجليزية.

page 25 - in Empathy from and space problems in Germany in Germany aesthetics (1873-1893) California, Getty center for the history of Arts and Humanities (1994).

لا سيما نظرَهُ ورأسه، ثم تتحرّك خطاه، بين اقتراب وابتعاد عن اللوحة، أو التسمر بالمكان أمام اللوحة، والنظر وحدهُ شاخص بحالة من الصفاء والتأمّل، لذلك الحرف المرتبط بحرف آخر، ومعانقاً حرفاً ثالثاً، ورابعاً، لتشكّل كلمة، ضمن فسحةٍ محدَّدة، على ورقٍ أو على جلود أو موادٍ أخرى، لتصير - فيما بعد - إلى شكلٍ معماري، يُسمى «التشكيلة الخطيّة». وهذه التشكيلة تفرض إيقاعية معينة للحرف في الرسم والتشكيل، فارضه نوعاً من التأمل الخاص، تتوازن إيقاعاتُهُ مع مسارات النظر بخطوط وهمية تُحدّدُها عين الرائي، مشكّلةً كُلاً متناغماً لا يقبل الإنكسار أو التشظي في جسم الكلمة أولاً، وفي تناسق الحروف، وفق هارمونية ذلك التناغم بين الحروف ذاتها ثانياً، ومن ثم تقبلَهُ العين - جمالياً - عند النظر إليه، فينخلق الإحساس الروحي لذلك الجمال.

وبعكسهِ، فإن نفور العين عند المتلقي، تسحب ظلال ذلك النفور على كامل الوعي الحسّي لدى الإنسان، فيجافي اللوحة وصاحبها، رغم تزيين تلك اللّوحة بإطار ذهبي من خشب الأبنوس أو غيره، إذ العين،كحاسة للبصر، تبقى لها رؤيتها في تحديد شخصية الحرف ودلالتِهِ الجمالية، من خلال ذلك التشكيل المرسوم وأحاسيس الراسم فيه وروحه.

ثمة دلالة معرفية وحسّية وجمالية وشخصية أيضاً توجد في الحرف، عَبَّر عنها اليابانيون بشكل دقيق حين قالوا: «إن الخط هو الإنسان نَفَسهُ»[1]

حيث أن الخطاط يُولّد بأنامِلهِ تشكيلات خطيّة، توحي بأنه يخرج أشكالاً يختزنها في مخيلتهِ إخراجاً عفوياً تلقائياً، بينما هي نتيجة تفكير عقلاني، مارسَهُ الخطاط نفسه - كما يقول خطاط معاصر[2] إذ أن الممارسة «المهنية» عَوّدت الخطاط لأن يعيد بناء الجمل بناءً ثانياً، يختلف من حيث الشكل، إذ أنَّهُ يعيد هذا البناء بحسٍ جمالي، حيث تصبح التشكيلة الخطيّة كمراةٍ تعكس أفكارَهُ وأحاسيسَهُ الداخلية[3] أذ الإعادة التشكيلية للحرف تفرض مظهراً آخرَ لَهُ من حيث الخُفة أو الثقل، بزيادة البياض أو السواد الكثيف للحرف، وتفضيل الإنحناءات في الخط أو رشاقة الخطوط المنتصبة، وبتصعيد حرارة الديناميكية، أو بإعطاء برودةً للسكونية، حيث أن هذه الحالة تبرز لنا طبيعة الخطاط النفسية، ومسارات حياتهِ، حتى[4].

(1) انظر: حوار مجلة الأفق، مع الأستاذ الخطاط حسن المسعود، والمنشور في العدد (118) الصادر في 25 - أيلول - 1986م.

(2 - 4) هو الأستاذ حسن المسعود - أنظر - مقالة «سلام مراد» الخطاط حسن المسعود، «تجربة الخط تجربة الحياة» المنشور في (جريدة الإسبوع الأدبي) التابعة لاتحاد الكتاب العرب بدمشق/العدد 1030/ في 11/ 11/ 2006.

أضف إلى ذلك أن عالم الخط واسع وصعب المراس، والجوانب التجريدية فيه تلعب دوراً أهم وأكثف من الجوانب المادية، فالفراغ الذي يحيط بالحرف أهم وأعلى قيمة من الحروف الحاضرة، والطاقة الآتية من تلاقي الحروف وتشابكها تشكل بعداً جمالياً عميقاً للحرف العربي، كما يقول المسعودي[1].

ومن الملاحظ، للعين الباصرة الفنيّة، بأن لكل حرف **قُوّةً تعبيرية**، تظهر في الخط، توحي بالقوة أو الضعف، وتعطي هذا الإحساس بمجرد النظر إليها، وأحياناً تستدعي صورَ أشياء نعرفها، فالألف في خط الثلث تبدو كسيفٍ مستلّ، والعين كمنقار صقر دقيق وقوي، بينما هناك خطوط أخرى ضعيفة وكأنها خيوط قطنية لا تثير المشاعر، ولا تعطينا الغذاء الروحي الذي نبحثُ عنه[2].

كما أن لهذه الحروف تنغيمات وإيقاعات، تظهر بتكرار الحروف المتشابهة في نفس التكوين الخطّي، حيث يتوصّل الخطّاط إلى ابتكار أنغاماً مرئيةً، كما أن المدّات الطويلة في الكلمات، تُؤدّي دور لحظات الصمت واللاّ تلفّظ، فاستمرار الحرف مسحوباً يجعل العين تتابع هذه المسيرة حتى لحظة التوقّف المفاجىء والتشابك مع حروفٍ أخرى، فتوحي لنا هذه التقاطعات بالحركة وبطء النغم وسرعته[3].

والأشكال التي تعطي الإيقاعات في الخط العربي هي دائماً الألف واللاّم، وبشكلٍ عمودي، بينما تعطي الجرّات العناصر الأفقية للنغم في الحروف، بينما الإلتواءات والدوائر تأتي من حروف السين والحاء والعين والواو. وهذه «التنغيمات الإيقاعية»، هي عناصر ضروريّة يفكّر بها الخطاط عندما يعمل تكوينه الخطّي، وقد توصَّل بَعضهم إلى روائع تبدو وكأنها سمفونيات موسيقية، متجمدة على الجدران في المعالم الحضارية - المعمارية - كالمساجد والمدارس القديمة؛ الأمر الذي يوضّح لنا الذوق العالي عند الخطاط وقدرته الحسيّة العالية واجتهاده من أجل تنظيم حروفه بهذا الشكل الإيقاعي[4].

وتشكل مسألة الكُتلة والفرْاغ «مبدأ هاماً في تشكيلات رسم الحرف العربي وأساليبه، حيث هذه المسألة، تعطي الخطاط الحُريّة الفنيّة، لأن يتحكّم في مسارات الأحرف وفق إيقاعاته المرسومة بذهنِهِ. حيث أن تناسب بعض الحروف والفضاء المحيط بها يكون متعادلاً في التكوينات، مع بعضها البعض، ليخلق هارمونية في سطورهِ المتعادلة، بحيث لا

(1) جريدة الإسبوع الأدبي/ العدد 1030 في 11/ 11/ 2006م.

(2) الخطاط حسن المسعود: الخط العربي/ ص 84. منشورات فلاماريون - ط 1 - باريس 1981م.

(3) المرجع السابق - نفس المكان.

(4) انظر - الخط العربي/ لحسن المسعودي/ ص 84.

يخلق تزاحماً في الحروف من حيث الإقتراب والإبتعاد، وتنعدم الفجوات داخل السطر لغرض جمالي، عدا بعض الحالات، كما في الجلي ديواني، واختيار نسب مساحات الفراغ حول الحروف يكون أكثر تعقيداً، حيث الفراغ هو وليد اللحظة، وعلى الخطاط، كما يقول المسعودي، تقع مسؤولية استغلالهِ وتنظيمه وتوسُّعِهِ بأحسن ما يمكن، مع استخدام الحركات التزينيّة للخط[1].

إن القِيَمَ الجمالية للخط العربي بدأت تفرض نوعاً من العِشقَ البصري لدى الفنّان التشكيلي في البلاد الإسلامية وغيرها من بلدان العالم، حيث بدأت تلك القيم الجمالية تظهر في الفنون الإسلامية الأولى من خلال شكلين رائعين من أشكال التعبير الفنّي هما: «فن الأرابسك» أي الزخرفة بالخطوط العربية أو فن الزخرفة العربية عموماً، «وفن الكتابة» أو الخط العربي.

وقد أشار الفنّان العراقي الراحل الأستاذ شاكر حسن آل سعيد إلى أنّه «منذ أوائل القرن العشرين، ظهرت مكانة الخط التعبيرية والتجريدية بل والتكعبية في المجال الفني، ممّا حدا ببعض الفنّانين الأوروبيين إلى استخدامه كعنصر من عناصر العمل الفني، أمثال «بيكاسو، باول كلي، والفنان المستقبلي مارينتي» وهو في شكله الكتابي، أي كحرف[2]، ثم يضيف: وفي النصف الثاني من القرن العشرين أكتشفت أهمية الحرف العربي نفسه، كعنصر زُخرفي ثم تكويني في العمل الفني، وأخذ الفنان العربي على عاتِقِهِ لأوّل مرة في التاريخ الحديث، مسألة تطوير قيمة هامة من قيم حضارة، هو ممثِّلُها الشرعي، فارتأى مواكبة النهضة الفكرية في العالم، في سبيل الكشف عن قيمة الحرف الروحية والمادية معاً بواسطة التعبير الحرفي»[3].

وأهل الفن التشكيلي، يوصفون الخط العربي بعبارة دقيقة، وفق إحساسهم الفني بالشكل التالي: «إنَّهُ مخطوط يُدوّن وفق وضعٍ أُفقي، بحيث يتكون من علامات صوتية مميّزة وحروف، وإن هذه الأشكال المقترنة ببعضها البعض إنما تكون القاعدة لصف غير محدود من الأشكال الخطيّة، لا تظهر على الصفحة فقط بل وعلى الدار أو التنويعات

(1) المصدر السابق/ ص 94.

(2) أنظر: شاكر حسن آل سعيد/ مقالة البُعد الواحد/ نُشرت في أكثر من مكان وقد حصلت عليها من موقع ألكتروني نشرها بتاريخ 18/ 11/ 2005 هو موقع «فنون وآداب» في الوقت الذي قدّمها - كمقدمة أو بيان، لتنظيراته الفنية لمشروع «البحث عن البُعد الواحد» في أحد المعارض الفنية لهُ ولمجموعة من الفنانين التشكيليين العراقيين في مطلع سبعينات القرن الماضي عام 1971م.

(3) المرجع السابق أعلاه

الأخرى من السطوح» ويضيفون على ذلك: «إن الحركة العامة للخط هي ما تحدث بفعل التأثير الطباقي لنبضٍ أو باعثٍ شعري روحي، على أن هذا التشخيص الجامع يصح اعتبارهُ أيضاً من إيقاعية النص في إيقاع يُمهِّد لظهورهِ بحركة اليد الخاصة، وهي تجمع ما بين فنّي الرقص والموسيقى»[1]. أو بعبارة أخرى أدق توصيفاً تقول: «والخط هو فن الكتابة، بل وفنٌ كوني... والخطّاطون العرب يعتبرونهُ هندسة الروح يُعبَّر عنها من خلال الجسد»[2].

إن التعرجات الفنيّة في رسم الحرف العربي وإيجاد مساحات بين الإرتفاع والإنخفاض، تتناظر فيما بينها على السطح المكتوب، ما هي إلاّ دليلاً على إستقامة الروح المُبدعة لخلق حالة من التوازن الروحي بين البصر والبصيرة، والروح والجسد، يشهدها المتلقي - بصرياً - كي يشعر بالجمال رسوماً بحرفٍ يعبّر عن ذاته.

أو ما يفهَمَهُ التشكيليون العرب على النحو التالي: «الفنان المُولع باقتباس الحرف لن يكتفي بالفن التشكيلي لذاته، لأنه سيضيف إليه العلامات الحروفية، ومعنى هذا أن اللوحة الفنيّة ستصبح أكثر من محاولة تشكيلية، لأنَّهُ إذا كان التشكيل الفني في صُلبِهِ تكويناً مكانيّاً، فإن إقحام العنصر اللغوي يخرج بِهِ عن صميم هذه الممارسة إلى أُفقها الزماني، ومعنى هذا - كما يقول الفنان شاكر حسن آل سعيد: «أن ما يريد أن يناقشهُ الفنان حينئذ، ليس هو هذا الوجود الإنساني ولا المكاني، بل مشكلة الوجود المكاني والزماني معاً»[3].

بمعنى آخر، إن الأستاذ شاكر حسن آل سعيد، بوصفهِ أحد كبار الفنّانين التشكيليين العرب، قد صاغ «نظرية البُعد الواحد» إعتماداً على بُنية وشكل الحرف العربي، باعتباره عنصراً أسياسيّاً في جوهر اللغة العربية - ثقافياً - واعتباره، عنصراً فعالاً. في - التجريد الفني - جمالياً. بمعنى ثان، أن الحرف العربي ألهم بحضوره عقلية الفنان المبدع في

---

(1) The Splender of Islamic Caligraphy - Abdul Kebir Khatbi and Mohammed. Sijlmassi.
نقلاً عن شاكر حسن آل سعيد: الخط العربي جمالياً وحضارياً - مقالة منشورة في مجلة المورد العراقية - العدد 4 - المجلد 15 - السنة 1986 - عدد خاص بالخط/ ص 51.

(2) نفس المرجع أعلاه.

(3) يستطرد «شاكر حسن آل سعيد» بهذه النقطة، موضحاً آرائه الفنية بمسألة «البعد الواحد» حيث يقول: «فموضوع البعد الواحد إذن هو أساس هذا الوجود الكوني نفسه، إن نظرية البعد الواحد، بهذا المعنى تفترض أن المعنى الحقيقي للكون يتحقق بالعودة من الشكل إلى أزله الخطيّ، ومن الحجم إلى أزلهِ الشكلي، إنه ممارسة (للتجاوز) من خلال العلاقة المعقودة ما بين الذات والعالم الخارجي، بحيث لا تصبح هذه العلاقة قيداً يتحجرّ فيه الوجود الإنساني الذاتي، بل يصبح علاقة متطورة وموضوعية، تشعر فيه الذات بكيانها في الوجود». راجع شاكر حسن آل سعيد/ البُعد الواحد: إعداد جميل حمودي - مقال (الجوانب الفلسفية والنقدية والتعبيرية للبعد الواحد) ص 5 - بغداد 1973م.

مجال الفن التشكيلي ليغريه في الوقوع بدائرة سحر التشكيل الحرفي، مقدماً لهُ إغراءات جمالية تنسجم ورؤية التشكيل في وعيه، باعتباره «حركة» يمكن التكيّف بها في مساحات اللوحة وزواياها، ولهذا قال شاكر حسن آل سعيد: «فإن إستخدامه - الحرف - في الفنون الجميلة يظل بمثابة الصيغة الجديدة للذهنية العربية المعاصرة، تلك التي كانت تتخذ من الوضع الأمثل قيمة جمالية حضارية - كمُدرك شكلي للهوية العربية في الفن..». ويضيف: «وبعد أن كان الخط نفسَهُ يمتلك هذه الهوية ويحقّقها في وحدتهِ، ضمن المنطق الحرفي كفن للكتابة، يضحى الآن مُمتلكاً إيّاها في حالة تحقيقها ضمن المنطق المعرفي للحضارة العالمية»[1].

إن هيئة الحرف العربي، بشكله وقوامه، هي التي طاوعت الفنان التكشيلي لأن يستفيد من هذه «الخصوصيّة» التعبيرية، فشكل الحرف العربي ذو هيئتين، شاقولية وأفقية، فالهيئة الشاقولية، هي التي تمتد إلى الأعلى كالألف واللاّم والطاء، أمّا الأفقية، فهي تنوجد في الباء وأخواتها والفاء، وتلك الهيئتان معروفتان بأهميتهما في التأليف والتشكيل الفني، مما يساعد الفنان التشكيلي على توظيف هذه «الهيئات» في قوام اللوحة، مضافاً إليها أن جسد الحرف يتكون من رأس بالجهة اليمنى، وعقب إلى اليسار، كما في «الفاء» أو من رأس في الأعلى وعقب مُمتد إلى الأسفل كما في «العين والحاء والميم» والرأس، يكون دائماً مُعقداً ملفوفاً، أمّا العقب، فهو رشيق ممدود[2].

كما أن «الدائرة» تشكّل وحدة تشكيلية في رسم الحرف العربي، حيث تكرّر وتكبر وتصغر وتمس بعضها البعض، وتظهر، وتغيب، حسب شكل الحرف، كما في «الواو والسين واللاّم والقاف والراء والهاء» وغيرها. ولعل ذلك قريبٌ لمبدأ التقوير أو التدوير في الخط. كما يعتقد الفنان شاكر حسن آل سعيد[3] ويضيف بأن «النقاط، والشكل» يخلقان أرضية فنيّة لجسد الحرف «باستثناء الخط الكوفي» حيث لَهُ شخصية مسيطرة في التأليف الفنّي لا تحتاج إلى إدغام أو تأطير» وعلامات الشكل الكثيرة والحركات المتعدّدة تُعطي الفنان الحُريّة دون التقيّد بإعراب الكلمة نحوياً»[4].

كل هذه «الميزات» في الحرف العربي، جعلته لأن يكون «بمفردهِ تجريد» ولهذا

---

(1) أنظر - شاكر حسن آل سعيد/ الخط العربي جمالياً وحضارياً/ مجلة المورد - العدد 4 - لعام 1986، ص 60.

(2) شاكر حسن آل سعيد/ مقالة البُعد الواحد/ المرجع السابق.

(3) نفس المرجع.

(4) نفسه.

استعملَهُ الفنانون رمزاً أو شكلاً فنياً مجرّداً. وعلى هذا الأساس دخل في أعمال الفنانين المحدثين عند التجريديين والمستقبلين، والتكعيبيّن والدادائيين، وكذلك في الفن البصري، وفي الرسم الإشاري «Sign Painting» حيث في سنة 1913 إستخدمه براك ثم بيكاسو في الرسوم الملصقة «Collage» كما ظهر الحرف في رسوم «كلي «Klee» وشويترز Schwitters، ورراوشنبرك، ونولارد، وهويفر، وتروكس، ومانسيه Manissier ومن العراقيين، جميل حمودي وشاكر حسن آل سعيد ومديحة عمر، وغيرهم[1].

ويعتقد الأستاذ شاكر حسن آل سعيد، بأن «الحرف العربي من أجمل الصيَّغ المجردة، خاصة بالنسبة لإنسان لا يفقه دلالته، أو يعمل هذه الدلالة لكي يستمتع بالشكل الجمالي الصرف»[2]، كما أن «الطب النفسي» عمد هو الآخر إلى إستكتاب المرضى للفحص والمعالجة بتحليل إسلوب ربط الحروف وترددها وزواياها، والشكل العام الطاغي على كتابة المريض، حتى وإن كانت خالية من المعاني المسلسلة، لأن الحرف وجد للتعبير عن خلجات النفس ومكنونات الفكر، وهو بدوره يتأثر شكلاً ورسماً بما يجول في ضمير الراسم ونفسيته، وعين الحال تماماً عند الفنانين الذين أهملوا معنى الكلمة، واتخذوا الحرفَ نفسَهُ موضوعاً أو دافعاً فنيّاً بحثاً في عوالم الجمال والخلق[3].

آراء الفنّانين التشكيليّن في الحرف العربي

في العودة إلى عام 1971م، هو العام الحافل في بغداد، الذي أُكتشف فيه الفنانون التشكيليون أهمية الحرف العربي في فنونهم، حيث ظهر [تجمع البُعد الواحد] من الرواد الأوائل، بقياة الفنّان شاكر حسن آ ل سعيد، وهم النخبة الفنيّة التي جَسَّدت هذا الإتجاه بالفن التشكيلي، ومن ثم انطلق إلى البلدان العربية، وعليه، سوف نستعرض آراء أولئك الفنانين الأوائل، الذين غامروا بنجاح هذه التجربة بالنسبة للحرف، باعتباره قيمة مجردة، يمكن لها أن تطور الفن التشكيلي، بضمّها لهذا العنصر في الفن التشكيلي العربي وسوف نكون أمناء في نقلِ تلك الآراء التي وردت في «البيان التأسيسي» لهؤلاء الفنانين، والتي جمعها فيما بعد، الفنان جميل حمودي بكتابه «البُعد الواحد 2» الصادر ببغداد 1973م.

---

(1) شاكر حسن آل سعيد/ مقالة - البُعد الواحد/.

(2) المرجع السابق.

(3) نفسه.

1 - شاكر حسن آل سعيد

- «تعبير ممارسة الحرف العربي، والحرف عموماً، في التشكيل الفنّي، محاولة للعودة إلى القيم الحقيقية في الفن».

- «التعبير بالحرف، هو في صُلبهِ محاولة مشروعة وتطور تاريخي للفن نحو تخطي الواقع السطحي ذو البعدين، كمناخ طبيعي للعمل الفني إلى حقيقة الخط «أو البُعد الواحد».

- «إن لمساهمة الحرف في التشكيل الفني إنسانيته، بل إنسانيته الكاملة، فهو يقتضي بحكم وجوده، حصيلة إلتقاء بين الفنان والمشاهد وبين الأثر المرئي والعمل الفني، كعملية تأمّل، وليس كمجرد رؤية بصرية، ومغزاهُ من ثم أن يتسامى بالذات الإنسانية إلى مستواها الإنساني التام، أي أن يعبّر عن وجود الذات البشرية عِبرَ مراحلها جميعاً، منذ لحظة تكوينها حتى فنائها.

وهكذا فإن تحقيق البُعد الواحد بواسطة الحرف هو نزعة تأمُليّة لوجود الذات الإنسانية عند مستوى الوجود الكوني... ومع ذلك فإن أهمية التعبير الحرفي في الفن مناطة بإدراكنا للنظام العقلي الذي يمنحهُ اهتمامَهُ. على أن دور الحرف في الفن التشكيلي بحدٌ ذاته كان في نفس الوقت، مفارقة للذاتية وكشفاً للحقيقة، سرعان ما أشاد صرحَ فنٍ قائمٍ بذاته هو «فن الكتابة».

ومن هنا، فإن الإكتشاف المعاصر للخط كحرف وكبُعد هو بدورهِ استمرار غيبي لعقلية فنان متجاوز لذاته وواقعهِ النسبي في سبيل أن يستقصي أصولَهُ من جذوره، وأن يطوّر إبداعَهُ عِبرَ ثماره... إن ممارسة الحرف في التشكيل الفني، محاولة للعودة إلى القيم الحقيقية في الفن.

كانت ممارسة الحرف في العمل الفني - أول الأمر - محاولة «تجريدية» وذلك بالكشف عن النظام الداخلي لحركة هذا الرمز اللغوي المفصول بواسطة الفن عن قيمته الأولى كوسيلة تكوينية، إنّه تأمّل للكون، أو وصف شهودي للعالم الخارجي وبواسطة لقية فنية يتوحّد فيها الإنسان والعالم.

2 - ضياء العَزّاوي... (ملاحظتان في الحرف)

- «في بداية تكوين (الحرف) كان جمال العنصر التشكيلي يتحقّق في التنوّع، فالكُل (حدود اللّوح النحتي أو الكتابي) يحدّدهُ التكرار الإيقاعي لتوزيع الأجزاء بينما تحولت بعد تطورها إلى وحدات تشكيلية، ضمن توزيع هندسي، يكون المستطيل الشكل الأكثر أهمية

في التوزيع، عند ذلك لا تصبح الكتابة (كوحدة تشكيلية جمالية) في حالة وجودها ضمن لوح نحتي مجرد إشارة للمآثر والأعمال الإنسانية، وإنما تصبح جزءً من نقطة في التكوين العام، وبؤرة للعلاقات التشكيلية مّما تساعد على تقوية وتركيز الأحاسيس، بالرغم من أن واقع الأسطورة والجانب الميثيولوجي هي أكثر حدّة وقوة مِمّا ينتجه أيَّ شكل من الأشكال الفنيّة».

- الحرف العربي، تكوين متحرّك ضمن نقاطِ منظورية مختلفة، يتجه إلى خارج الشكل بالقدر الذي يُعمّق الإحساس بحركتهِ نحو الإنفلات من تلك النقاط فالحرف (تشعُّب خطّي) يحتل الكل، ويمنح داخل اللّوحة صوتاً إيقاعياً يحقّق من عناصر أخرى رؤيا خاصة، فإذا كان توحّد المشاهد مع اللّوحة يتم عِبرَ فرض خارجي يصبح تحقيق الحريّة اللازمة الضرورية، لعملية تقيّم مشروطة كنقطة بداية لما يمكن أن يحقّقهُ التكوين التشكيلي من إلغاء لكل تصور مسبق عن مكانية وزمانية وحدة الحرف أو (الآرابسك) وبالتالي في الحدود التشكيلية التي تمتلكها اللوحة ضمن (جغرافية) الفن الواسعة.

- إن الحرف أو الآرابسك - عند وجوده كشكل ضمن تكوين عام، لا يفقد الحريّة التي يمكن طرحها عندما يكون الكل في اللّوحة، فالحرية تنبثق خلال تحرّك هذا الوجود باتجاه منظور واضح. . . والحرف عندما يكون قيمة تعبيرية ضمن الوحدة العامة للتكوين، يصبح تجربة جاهزةً وسهلة للمشاهد، ومن ثم تنسحب خاصيّة اللوحة للداخل، لتستحيل هذه الواسطة في التعبير «عملية الرسم» إلى شاهد للحظةٍ متحجّرة. إن وجود الفعل المؤثّر، يتحقّق من خلال وجودهِ كحركة دائمة، وأيّة وسيلة تعبيرية من الحرف أو «الآرابسك» كشاهد للوعي بشرطيّتها الخاصة «الإسلوب الخاص بالرسام» من خلال فهم الحركة كوحدة تشكيلية مُضافة، أو وحدة فاقدة لوجودها الأساسي كحاجة إنسانية يمكن أن تجرّد العمل الفني من ميزته الضرورية، أعني وجوب إحداث التأمُّل المحرّك لوجود الإنسان وبالتالي خلق الوعي الحضاري للتطور.

فالحرف بهذا مُسار نحو لحظة مفقودة، يترك خلال ذلك وجودهُ المكاني بينما يظل يمارس علاقته بالزمن يوجد فيه. ففي حدود الممكن يكون الحرف على حافة التجربة، يتسلّق جزيئاتها ليحقّق من خلالها وحدَتِهِ التي تكتسب شرطيّتها ضمن الوجود الجديد له. وبهذا يتحول من أرضية تعبيرية للإنسان بوحدتها الصوتية والأدبية إلى حدود ملغية، وفي أرضية ترتبط بالخلفية الحضارية للعصر «اللوحة أو الجداريات» مُمَزِّقاً بذلك حدود المساحة التي ارتبط الحرف العربي بها منذ عصور طويلة، بخلاف ما نجدهُ في تطابق الحرف وإلغاء حدود المساحة خلال الحضارة الآشورية.

3 - عبد الرحمن الكيلاني

- إن استعمال المربّع، فتح باب الخروج عن الإلتزام بشاقولية وأُفقية الخطوط التي فرضتها المادة، ومكّن من إحداث **الخط المائل** الذي حقَّق الحيوية، بسبب تحقّق الذبذبة الناتجة عن وضع المربعات جنب بعضها، وبهذا الشكل يؤكّد إنحناء السطح أن جميع الخطوط المائلة على منائر بغداد هي **خُطوط حلزونية** في نفس الوقت، وتوحي بحركة الإسطوانة التي تحيط بها حركة دائرية على محورها وبنفس اتجاه الخطوط الصاعدة الساكنة والخط المائل المتحرك. بناءً على ما تقدم فإن التخلّي عن هذه الوحدة يؤدي حتماً إلى عدم تحقق ما أشرنا إليه من مزايا، ولهذا فالمربّع هو الإختيار الوحيد للمعمار مصمّم النصوص والزخارف، وبالتالي فهو مجبر على اختياره، اللهُمَ إلاّ إذا أراد الإستعانة بخبرات أخرى عدا خبرة البناء الذي ليس عليه إلاّ أن يضع المربّع في محلّه، وكذلك المدة.

- إن قسرية الإسلوب هذه لعبت دوراً كبيراً في شحذ خيال المُصّمم لمواجهة تحدّيها، فابتكر وتصرّف في أشكال رسم الحروف وتحايل بإحدى الطرق التالية:

1 - اللّي، الدمج، الإستعاضة، العكس، التكرار المضطرد، تكرار التجمعات، وهذه الأخيرة تكون على أشكال منها: **التجمع المتناظر تناظراً جانبياً، والتجمع الثلاثي، والتجمع الرباعي**[1].

4 - جميل حمودي

إن اللحظة التي وثبتُ فيها إلى ذهني فكرة استيحاء الحرف العربي في العمل الفني، كانت في ساعتها نوعاً من الإبتهال والصلواة لنفسٍ أفزعها الفراغ الذي ملأ الحياة الأوروبية التي كنت حديث العهد بها.

5 - مديحة عمر

ساهمت السيدة مديحة عمر منذ الأربعينيات/ القرن الماضي/ في بحث الحرف العربي عِبرَ الفن التشكيلي، متوخية الكشف عن طاقاته الإبداعية كبعدٍ واحد وكمركز حياتي، خاصة في **استخدام الحرف الكوفي**، ومن هنا أهميتها في البحث تعود إلى كونها من الرواد الأوائل لوضع الحرف في محلِّهِ الملائم كأحّد عناصر الابداع في الفكر المعاصر.

---

(1) راجع تفاصيل ذلك في/ البُعد الواحد/ عند جميل حمودي - مرجع سابق.

6 - محمد غني

إن اهتمامي بتحوير الخط داخل الحرف يحمل مشاركة حقيقية مملوءة، ابتدأت منذ سنوات طويلة، وليس الإفتعال كمظهر هو ما جذبني إلى الإهتمام بهذه التشكيلات، التي تحمل اللّعب والعراك معها، فالخط الذي يحمله الحرف يمتد ميّتاً ويستقيم حيّاً ويحيى ويتكرّر ويتكوّر، فيصبح بعد الإمتزاج مَعهُ جزءاً مهماً من علاقة نظرتي إليه كشكل يحملُ معنىً أو معانٍ قابلة للتغيّير باستمرار، فهي - أي الحروف - كالحياة، معنىً لا ينضب من الإستلهام الذاتي لتجريد المعاني.

إن داخل الحرف إنسجام رائع تكشفه العين من خلال الظلال الجانبية لكل حرف عند تحويلها من الخط إلى الكتلة التي ترسمُ أشكالاً ملموسة ذات بُعدين أو ثلاثة، لتعطي بالإيحاء وبالخيال العلاقة لمركز الإنسان داخل الواقع الذي لا يريد الإفصاح عنه، فيستبدل الخط الأفقي أو المنحني إلى إشارة حركية تنعكس على الكتلة لتحمل معنىً جديداً ذا شكلٍ إنساني، مملوءً بالتفسيرات العقلانية والوجدانية، وهذا ما أُريد إعطاءهُ للمشاهد الذي تسهل عليه الفرص للمشاركة بتجريد الحرف التجريدي كشكل.

7 - رافع الناصري

المتأمّل للحرف العربي مجرّداً من معناه، مفصولاً عن أية خدمة لغوية يراد التعبير عنها، يجدهُ ذا قيمة تشكيلية مستقلة، تعتمد على الأُسس الفنيّة من شكل وحركة وفراغ، فأيّ حرف من الحروف العربية بحدِّ ذاته يعطي الشكل التجريدي الكامل، والرمز المعنوي للعالم الداخلي والخارجي للإنسان، وتعاملهُ مع كليهما أو منفصلاً، حيث تبقى بعض هذه الحروف تعيش داخل الإنسان، وتعطي معانٍ روحية وسايكولوجية أكثر مِمّا لو استعملت خارجهُ، مكتوبة أو محكية، وبالتالي فاستعمالها في الرسم لهُ تأثير خاص تتفاعل وتتّحد مع الشعور الإنساني مكونة الجو الروحي الخاص للناظر.

- الحرف في الرسم يبقى حاملاً لرموز ذات معاني أعمق ممّا فسروها، حيث يبقى الحرف في الصورة رمزاً مطلقاً، وهذا ما أسعى إليه.

8 - نوري الراوي

الحرف... الإنسان الظل... والحقيقة هنا، ومنذ الأزل ما فتئا يتصديان فيؤسراه مرة، ويطلقاه تارة أخرى، وإذا استطاع أي منهما أن يجمد دَفقهُ السرمدي، في لحظة تجلّ متاحة، أبدع منه صورة وجوده، وهتف بالصورة أن تكون ذلك الإنسان فكانت، ومنذ أن

صار الحرف ظلاً لمعنى، إنفكَّ الأسير والآسر، وألَّفَ هذا الفعل الحيوي، بمعنىً ما، عالماً من التعلّق التراجيدي الذي ظَلَّ ينساب عِبرَ الدهور حتى تأكَّدَ معناه التشكيلي الخالص النقي مرة، والوظيفي مرة أخرى.

في أتون الفخار، تحت شفرة الحَفّار، في خفقات ريشة الفنان، في سَنّ ريشة الكاتب، تشكل الحرف لينير المساحة التي تحتضنهُ. ومن تألُّقهِ الذي ظل ينبع من الداخل، أخذ الرسام الحديث أجمل صياغاتهِ الحرفية، ، مبتدراً أيّاماً بالتصعيد، ليجعل منها قيماً تشكيلية ورموزاً لخلاصه.

إذا انتقل الحرف من صيغة إلى أُخرى، إستسلم لعمليات تأيّن مستمرة تنتهي في فناء مادة ضمن مادة، وتحول هذه الأخيرة إلى معنى قد يكون صدّاحاً موسيقيّاً، فإما أن يكون اللّون بسحرهِ المُقدّس، أو قد يكون زمناً متصلباً ينذر بفناء الإنسان! خارج حدود اللوحة لا موضع للحرف إلاّ في معناه، وهو هاهنا، حينما يدخل في بُعديها يصبح بُعداً واحداً لا انقطاع لسلساله.

9 - سَعد شاكر

إنَّ الخط، البُعد «الواحد» أهم العناصر في الفن التشكيلي، فهو وسيلة لشد العين نحو نقاطٍ متحركة، وقد يكون خطّاً خارجياً لشكل مُجسّم إذا رأينا ظِلَّهُ، وقد يكون محيطاً ومحدّداً للأشكال، فالخط يوحي بالراحة والهدوء والحركة والحياة، كما أنه يعطينا قيمة لونية، إنّه يجمع عنصري القوة والجمال. . . ومجموعة من الخطوط قد تعطي دورة تأملية تفكيرية، وهي في نفس الوقت حلمٌ مخطط.

10 - فريد الله ويردي

الحرف هو المنطق الذهني الذي ينطوي على امتزاجٍ زماني - مكاني، في آنٍ واحدٍ، أنَّهُ من الناحية الموسيقية صمتٌ نسبي يتخلّلَ الوجود الصوتي فهو في هذه الحالة يوازي في كيانه المعنى المكاني - الزماني للحرف في الفن التشكيلي. . . هنا يصبح الصمت العنصر الأساسي للوجود الموسيقي في حين يصبح الصوت وجوداً عرضياً له.

11 - عبد الرحمن طهمازي

يقنعني بعد نقل الحرف من موضعه في الكلمة، وعزله من مكان غير مألوف - أي تجريده - أن يعمد إلى تحريره من معناه (أو حقيقة أن هذا التحرير تم منذ الوهلة الأولى) وفصله، ولو لبرهة من الزمان عن اللّوحة، كما نفعل كثيراً مع الكلمات في الشعر، نحن

نحاول أن نغمرها بجُملٍ وصورٍ من انفعالنا، بغض النظر عن تأكيدات الشاعر حول الكلمات.

إن «الصوت» و«المعنى» طارئان في الرسم إذ هما على هيئة «الحرف» وأهمية الحرف لا تستغرق أكثر من أهمية (الخط) أو ملىء الفراغ، إن الرسام لا يغامر بإلقاء «الحرف» من اللوحة دون إضافة، وهنا من ثمَ توقع «المشاهد - القارىء» في كتابة جملة تكون لها قيمة تشكيلية، تُبتز من اللوحة في كثير من الأحيان لقد جاءت القيمة التشكيلية للحرف في الفن الإسلامي من كونه عُنصراً مُهمّاً من عناصر العمل الفنّي، أنَّهُ كل اللّوحة (بحسابه من الخط) عدا اللون والمادة، ولم يكن «للشكل» الحق في طي معالم «الحرف» الذي لم يكن مستقلاً عن «الجملة» وعن قواعد الخط، وقد أضفت تلك الجُمل وَهْماً تشكيلياً حول الحرف لأنه لم يكن وحيداً مع الكتلة واللّون، وكانت حركتِهِ من كمال الجملة والموضوع والشكل.

- الرسام الحديث، حَوَّر الحرف من الخط أو من القيم الجمالية الكلاسيكية، حيث كان للخط غايات جمالية من الزخارف النباتية أو الهندسية، مِمّا يعطي الدلالات عن روحية ويقين الفنان المسلم. ففي «النسخي» الذي يتحرك بحرية، نجد إشارة إلى المطلق «في الزخارف» وإلى تزاوج فذ ما بين الظل والنور، وفي «الكوفي» إشارة إلى الإستقرار والثبات بشيء من الجمال الرياضي... وهكذا كان للخط مُهمّتِهِ في التكوين الزخرفي، لكن خروج الحرف عن الخط وتطور فن الرسم وإتاحة الفرصة للفنان كي يتخلّى عن الزخرفة بدافع تطور المجتمع الإسلامي. دفع الإسلام العربي الحديث إلى التخلي عن تمثيله للحرف، بسبب ما للحرف من تعين واستقرار، ومن ثم إحالته إلى جزء من اللوحة بعزلِهِ عن الجملة والكلمة، وتمييعهِ تبعاً للكتلة والمساحة واللون.

هنا يجد الحرف نفسه في مكان آخر، هنا يتحول إلى تجريد تام لا يستند إلاّ على «وضع اللوحة» الخاص (وينفي حرفيّته) نفي كونه قاعدة الكتلة والحركة.

12 - سُهيل سامي

إنَّ النماذج التشكيلية الحديثة في استخدام «الخط» تُطالب لنفسها إسم «الإتجاه» وهو مطلب ليس غريباً ضمن الإتجاهات الحالية... إن كل إتجاه جديد، ومن ضمنه هذا الإتجاه، في ظل شروط انعدام نقطة البدء... هذا المجال أكثر خصوبة والتحاماً، حيث يتضمّن مواد تاريخية وحضارية حياتية، لها صوت، ودلالة، ووظائف مستورة مكتملة أو غير مكتملة: الخط، الحرف، الكلمة، الآية القرآنية، كلمات الرُقى والتعاويذ والسحر، وكل ما تعرفه عن السلوك اللغوي والكتابي الموروث.

13 - وضّاح فارس

الحرف، في هذه الرسوم غادر موقعه التقليدي، كأداة لفظية لتركيب كلمات ذات مدلول خاص، أو حدسٍ مُعيّن إلى عالمِ آخر، تحكمهُ نواميس أكثر لا واقعية من عالم التعبير الشكلي، حيث المدلول الشكل.

الحرف وحدة تماماً، كالخط أو النقطة في الرسم، بهِ يتصرّف الفنان في كل بُعد وإمكانية، ليخرج عملاً فنياً متكاملاً.

الفصل الخامس

كلمة في الحَرفِ العربي

تتشاكس لحظات ولادته الأولى مع الرحم الذي انبجسَ منه، مُعزّزاً ولادته بسمتٍ عربي كامل الهيئة، رافضاً التماثل والتبعية للحرف الحميري، الذي سبقه، وكان سبباً لوجوده، يسيرُ الهوينا في مدارج العقول، ويُنبش الذاكرة العربية لتجد لَهُ الفضاء النفسي والجسمي والجغرافي والبيئي والثقافي حتى يعبّر بها عن نفسه، سطى على المخيلة العربية في زمن الصحراء، وأبدل قحطها بينابيع التأمل الفكري، جاعلاً من إسمهِ علامةً لقومٍ أرشفوا أدبهم في المعلقات، وأرجزوا بنبراتهِ في أسواق الجاهلية، فكان وتر القوس الذي رموا بهِ سهام المعرفة من كنانة التأصيل.

كان مفتاح الفصاحةِ عند أعراب البوادي، وأهلُ الحضر إليهِ يشدّون الرحال، بهِ عُرفت الأسماء الأولى، والأبجدية الأولى، والمسيح إليه أشار عند الولادة الأولى، موحياً إلى حَمامةِ نوحٍ والجبل الذي رست إليه السفينة، بهِ دُوِّنت الأسفار الأولى في العقل العربي، وبهِ نزلَ الكلمُ المُقدّس، وعليه مدار القَسَمُ الرباني في التنزيل، جعلتهُ السُوَرُ مفتاحاً لها، وبهِ تشاكلت العقول واختلفت في التفسير والتأويل حتى اليوم.

أمَّ بهِ الأميون شعوب الشرق، وإلى مدارسِهِ شُدّت مُطايا وأرحُلُ، وبهِ جال «الحديث» وعُرفت «الصحاح» وتميّزت «الرجال».

حمله العباسيون على هاماتهم بَنْدا، وتفاخروا بهِ على أعدائهم عهدا، إحتضنهُ الفكر الإسلامي، فأسَّسَ بهِ مدارس للعقول، ومذاهب للأدب في المُنزلِ والمنقول، وبهِ صال الشعر، وعلى هَدْيهِ تمايزَ النثر، بهِ خَطَّ الجاحظُ بيانَهُ، وأعلى التوحيدي سِنانه، وعلى

تأويلِهِ كان التصوف الإسلامي يشدُّ أركانه، ويخوض صراعاتِهِ بوحدة بيانه، وبهِ توالى الأقطاب في «الشطحات» وفي اختلاف رسومهِ كانت البيِّنات.

«بيـنَ الـتـذلُّـلِ والـتـدلُّـلِ نـقـطـة   فـي فـهـمـهـا يـتـحـيّـر الـنـحـريـرُ[1]
هـي نـقـطـة الأكـوانِ إن جـاوزتـهـا   فـهـو الـمـراد وعـنـدهُ الإكـسـيـرُ»

فهو عندهم «حرفُ لغات وتصريف، وتفرقة وتأليف، وموصول ومقطوع، ومبهم ومعجم، وأشكال وهيئات»[2].

والحروف عند الشيخ الأكبر: «أئمة الألفاظ» وتجلياً للمَلَكِ والملكوت والجبروت في «أ ل م» هُنَّ المنتهى والمبتدأ، وبالحروفِ سارت الأقلام، وشدا الوجد في الوجود عندهم.

مع الفتحِ فتح لبقية الشعوب طاقات النور، وسيّدَ رَسْمُهُ على بقية الحروف واللغات، وعشقته أعين الأقوام، ومالت إليهِ نفوسهم، وبهِ سطَّروا معاجمَ وجدهم ولغات أسلافهم، وتجذر بهِ إسلامهم.

الحرفُ، هو نقطةُ البدءِ في علوم الورّاقين، وهو كفُّ الكفاية لهم للتخلص من ربقة السلطان، وسيطرة الوالي، وعنجهية الوزير، بهِ حَرّروا العقل من دهاليز الظلام، وصانوا النفس عن ذِلّة السؤال في طلب النَوال، فكفكفَ عيشهم، وصانَ مروؤتهم، وحفظَ إبداعهم وإبداع غيرهم، فنشروا على المَلا علومه، وتدارسوا فنّه ورسومه، ووضعوا الأصول لكتابتِهِ وحجومه، وعَقَّلَهُ ابن مُقلة وهَنْدَس أصلهِ وسقله، وأخذ الناسُ عنه منهاجهِ وفصله. وفتح أبوابه إبنَ البَوّاب، وأزال عن غوامضهِ كل حجاب، فأشرقت حروفه على مشارق الدُنيا ومغاربها، وتغنّت بأقلامهِ نوادي الأدب، وعرف بهِ أصحاب الكفاءة في الرُتب، وبهِ خُطَّ القرآن كتاباً للعرب.

تحاقبت عليه العهود، وما زال في الفكرِ يجود، لَهُ معالم الإشراق تبدو، وإليه نفوس المبدعين تغدو، تنقّلت بهِ المدارس، وترسّمت بهِ أسماء المُدن وأزالت الغِبار عن كُلِّ دارس، في الكوفةِ عَلَّمَ خُطاه، وتوشّحت بهِ بغداد في «مأمونها»، وبهِ ازدانت الأمصار في رسومه على المعابد، وعلى شرفات المآذن ومحاريب المساجد، فكان الشاخص الثقافي

---

(1) راجع أخبار الحَلاّج - لعلي ابن أنجب الساعي - تحقيق - لويس ماسنيون وبول كراوس - منشورات مطبعة العالم - بيروت - 1936. وراجع كذلك - ناجي زين الدين/ بدائع الخط العربي/ ص 476.
(2) أنظر - المواقف والمخاطبات/ للنُفري - المخاطبة/ رقم 23.

الأبرز في ثقافة الإسلام، والفن المميّز في عبقرية الأعلام، هو نقطة الفصل في الفنون[1]، وهو أداة القَسَم في «النون» هو الثابت الذي تجليه حَدقات العيون، وهو المُتحوّل إليه في نزوات الفتون، هو الوتد الذي نصبَ الأوائل عليه خِيَمِ المعارف، وهو الطنب الذي شَدَّ الأواخر بهِ صيوان التعارف، هو قُبلة الكتّاب في سَفرِ الحجيج، هو الهويّة التي تفصِحُ عن ذاتها في كُلِّ فج. هو اللسان المترجم عن ذواتِ حامليه في تفاصح الأجناس، هو العلامة التي لا تندرس في صفحة الحَجَرِ أو القرطاس. هو المعادل الموضوعي في تمايز الثقافات، والإشارة التي لا تُدانيها كل العلامات، هو القوّة في التعبير، والباعث على التماسكِ في التدوير، هو المرونة في ريشة الخطّاط، هو المطاوعة في استدارة اليد في الرسم على المرامرِ والبلاط، هو الجمال في المفردات العربية، وهو المقياس الفني في رسوم الأبجدية، هو صاحبُ القابلية على التشكيل هو السُنّة التي ليسَ لها تبديل، هو الظاهر والباطن في كل حروف «التنزيل» هو الآية التي ميّزت لسان العرب في سورة الحضارة ومواقع التفضيل.

هو الحقُّ الذي حَصْحَصَ في عقول المستشرقين، فأشاروا له في البيان، وهو الصورة الأوضح في وجدانهم عند الكلام على معارج العرفان، هو رنين الماضي التليد، وإيقاع الحاضر المجيد، لم تتجاوزهُ حروف الطباعة كما تجاوزت غيرهُ من الحروف، وظَلَّ شامخاً في مخيلة الإبداع رغم تباعد سني المألوف، أُلِّفت فيه الأبحاث الطويلة وأنشدت فيه القصائد الجليلة.

هو الباعثُ على الإلهام في «التشكيل»، وهو النقطة والسطر في لوحات الفن الجميل. تَعشِقهُ عيون الناظر، وتشرأبُّ لهُ الأعناق والنواظر، هو سيّد المساحات على الورق، وهو نبض الكلمات في ميادين القلق، هو الميل والإنسياب في زخارف العِشق، وهو الجدائل المضفورة في مُقرنصات الأفاريز، وحاملُ الكلمات المطرّزةِ بالإبريز، هوالوشمُ الذي يزيّنُ وجه الكعبة، وهو السلسال الذي يُطوّق محراب الصلاة.

هو درّةُ تاج الفنون الإسلامية، ، الذي لا يُدانيه تاجٌ آخر في مسارات الثقافة العربية.

والحرفُ. . . إنّما هو الإنسانُ ذاته.

---

(1) من المؤسف حقّاً، أن بعض مؤرخي الفن الإسلامي، يجهلون قيمة الحرف الإبداعية في الفن، فيمرّوا به مَرَّ الكرام. دون توقف دقيق يبرز أهمية بوصفهِ حامل شعلة الحضارة في الفنون الإسلامية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، لم يدرسه الأستاذ أبو صالح الألفي، بشكل دقيق، وذكرهُ عابراً في كتابه/ الفن الإسلامي/ص 102 - 104. الصادر عن دار المعارف بمصر - بدون تاريخ - والكتاب من الحجم الصغير، ويبدو أن المؤلف، ليس لهُ خبرة في الخط العربي.

مجموعة نماذج للخط العربي بمختلف الأقلام

تُبيّن إستخدامات الحرف العربي - كفن - في مختلف الأغراض الفنيّة والمعمارية والرسم والتشكيل، كقابلية ومطاوعة نادرة للحرف العربي.

- أغلب اللّوحات من كتاب/ حسن المسعود - الخط العربي/ ، فيما اللوحة الأخيرة من كتاب/ ناجي زين الدين - بدائع الخط العربي/ ص 230.



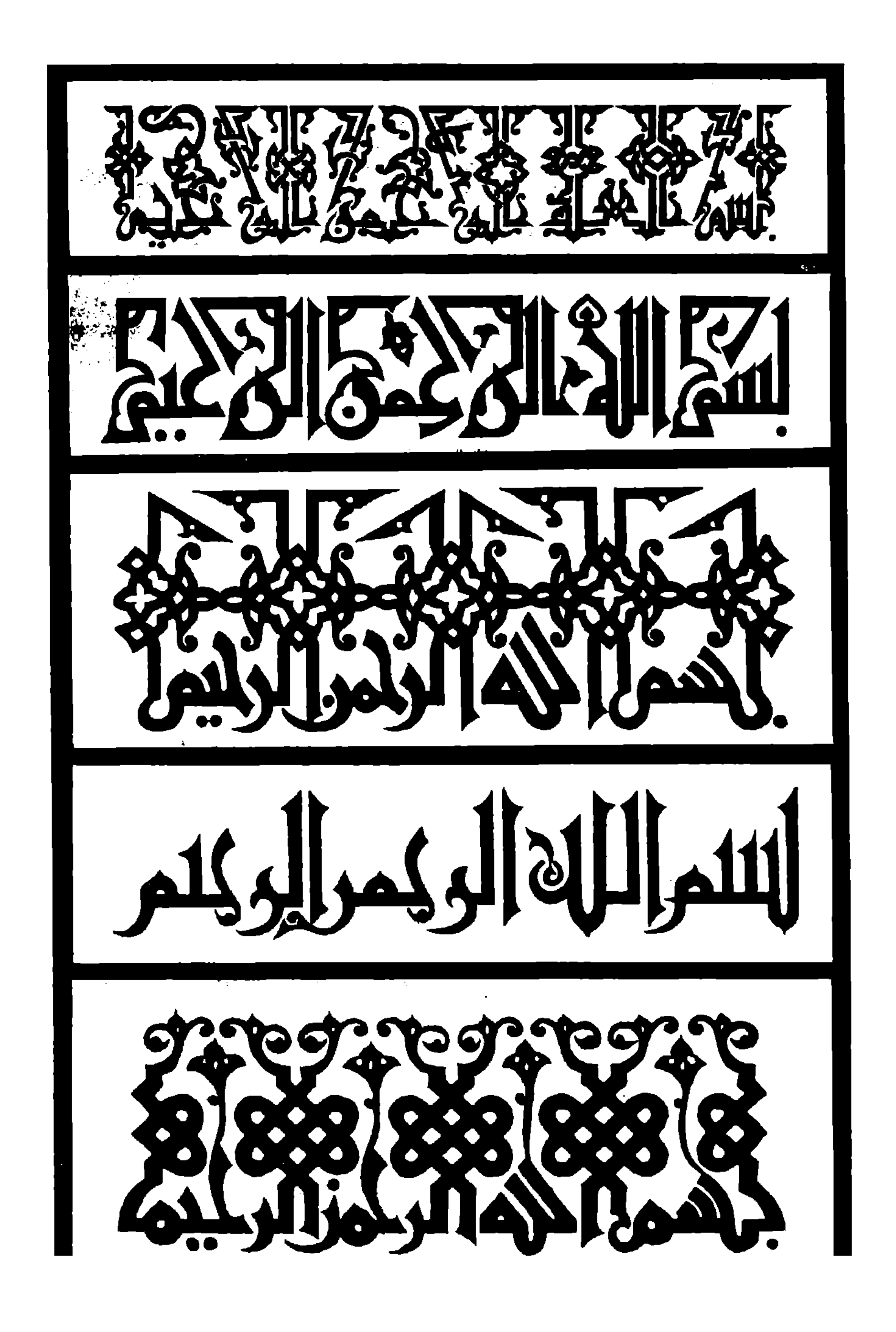
خط جلي ديواني على هيئة زورق ١٣٧٧هـ ١٩٥٧م

Composition en style Jeli Diwani de Hachem, 1957.

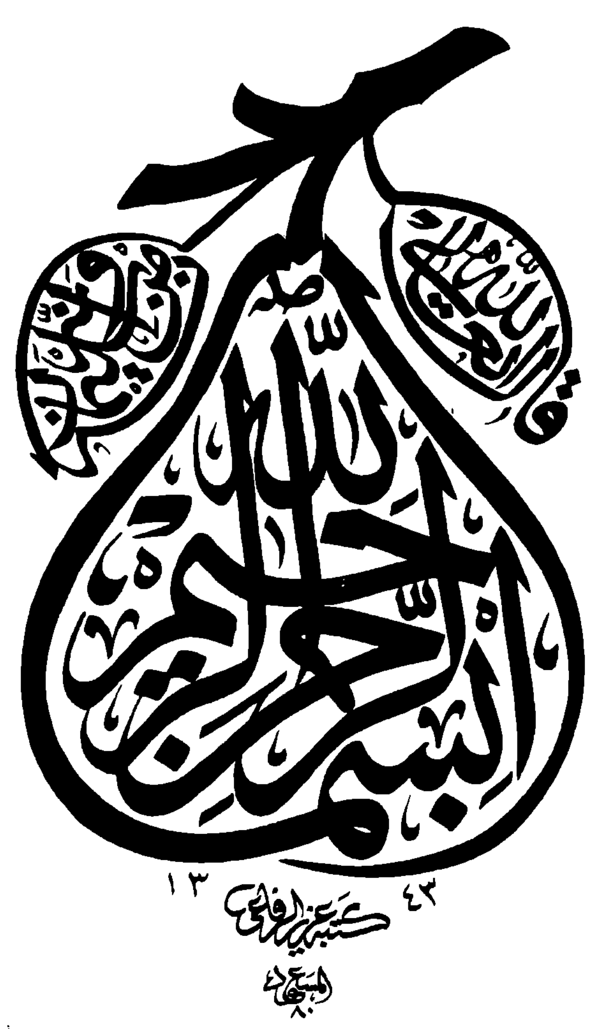


Calligraphies Thoulthi de Hachem, 1968.

خط ثلث "مجموعة المؤلف" ١٩٦٨م


بسم الله الرحمن الرحيم
بسم الله الرحمن الرحيم
بسم الله الرحمن الرحيم
بسم الله الرحمن الرحيم





بسملة على هيئة
إجاصة بخط الثلث
منقولة عن
لوحة للخطاط عبد العزيز الرفاعي
١٣٤٢هـ – ١٩٢٤م

« Au nom de Dieu, le Clément, le Miséricordieux. »
Relevé d'une calligraphie Thoulthi,
en forme de poire,
de Abd Al Aziz Al Rifâi, 1924

بسملة على هيئة طائر
منقولة عن خط للخطاط راقم ١٨٠٨

« Au nom de Dieu, le Clément, le Miséricordieux. »
Calligraphie sous forme d'oiseau.
D'après Raqim, 1808.

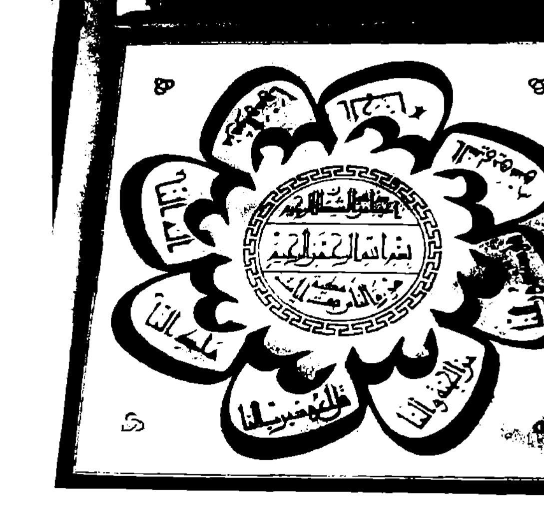


CALLIGRAPHIE ET DESSIN

Quelques calligraphes sortent des formes traditionnelles en faisant des lettres proches du dessin. D'autres poussent leur recherche afin de trouver des compositions exprimant des formes figuratives. La figuration des êtres animés est mal vue dans la société islamique, bien que le Coran ne l'interdise pas. Cela n'a pas empêché la création de miniatures peintes ou de calligraphies figuratives. Le calligraphe écrit un texte religieux, ou des noms de saints, et, par l'agencement des lettres, il représente un visage, un corps, un animal...
Le calligraphe a dessiné avec les lettres. Le peintre, lui, a aimé l'écriture, qu'il a intimement mêlée à la miniature ; souvent d'ailleurs le peintre et le calligraphe ne sont qu'une seule et même personne.
A l'époque contemporaine, certains peintres arabo-musulmans emploient encore des lettres dans leurs œuvres.

في الاعلى رسمان لاسدين عملا من الحروف ، وهما منقولان عن لوحات التكيات الصوفية . والنصوص تتضمن اسم الامام علي ومديحًا له . والمعروف ان احد اسماء الامام علي هو - اسد الله -

Ces deux lions sont entièrement figurés avec des lettres. Ils ont été souvent repris par des calligraphes d'époques différentes. Le texte contient des éloges de l'imam Ali, souvent appelé le « Lion de Dieu ». Relevés de tableaux de confréries soufies.





في الاعلى
سورة الناس كُبرت فيها حروف السين بأسلوب الثلث داخل شكل دائري يُوحي بالحَركة بينما تُركت باقي الحروف داخل هذا التكوين الدائري صَغيرة وَبأسلوب كوفي ثقيل الحَركة.

في الاسفل
آية قرآنية كُبرت فيها حروف الواو فقط. وبنفس طريقة اللوحة العليا.

اللوحتان من:
جامع أولو - بورصة - تركيا

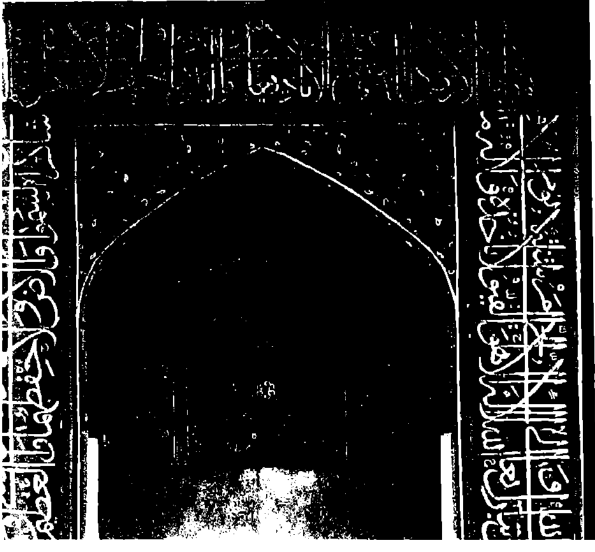
Chaque fois que dans un mot apparait la lettre Sin (س), elle est agrandie en Thoulthi. Le reste de la phrase est en Koufi. Sourate des Hommes.

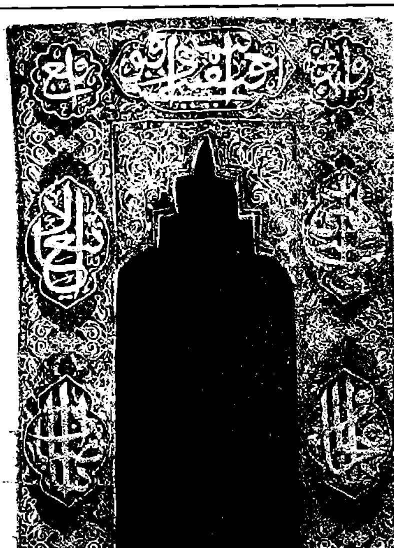
Ici c'est la lettre Waw (و) qui est agrandie.
Début de la sourate du Soleil.

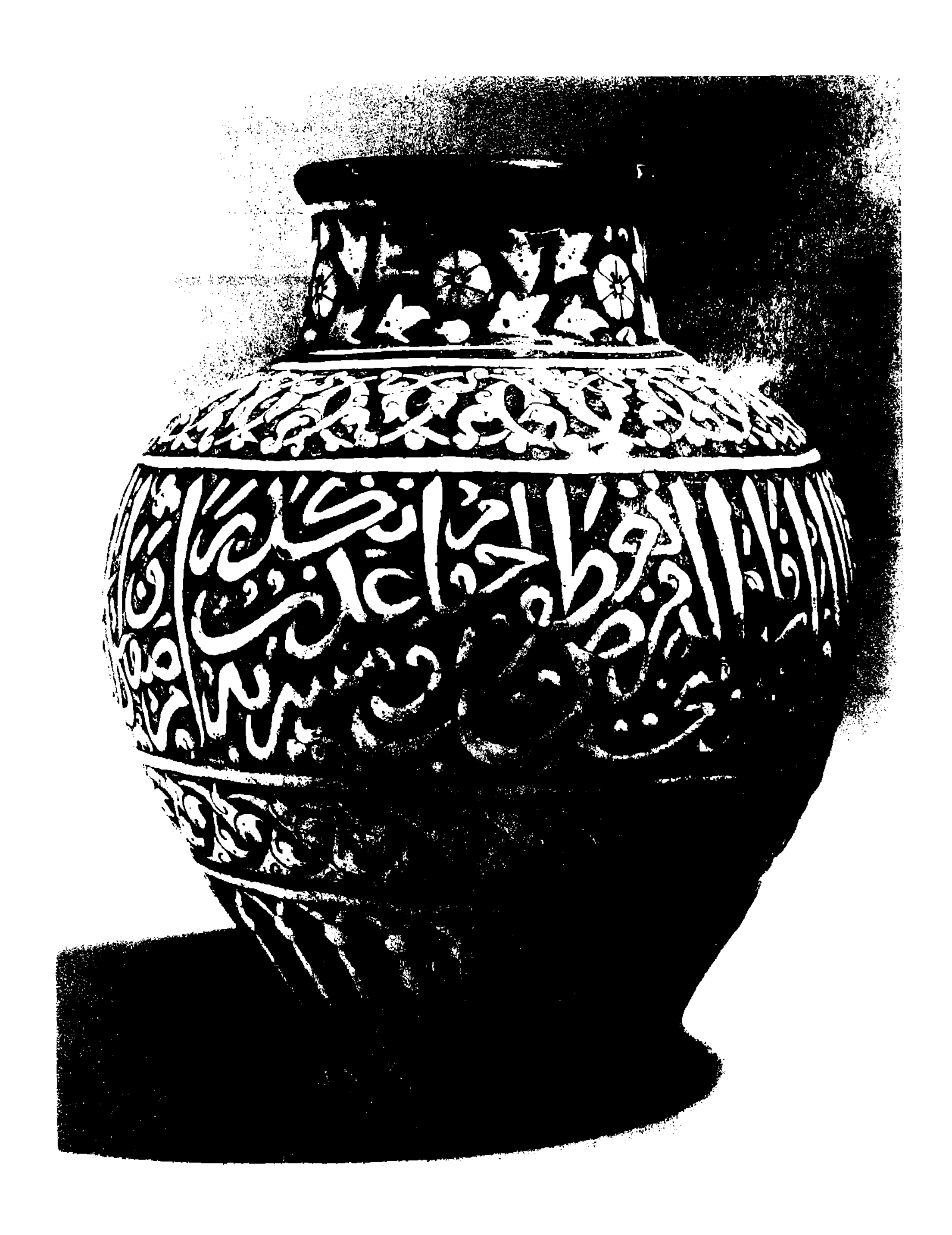
Ces deux compositions se trouvent à Ulu Jami, Bursa, Turquie







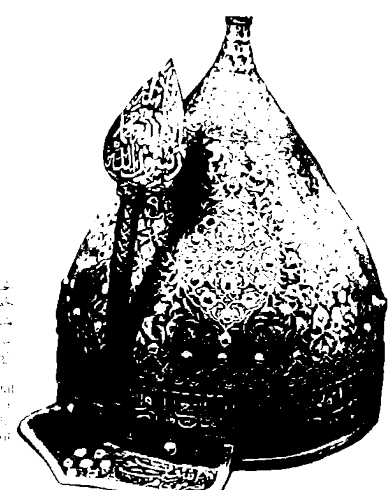






خط كوفي محفور على علبة [illegible]
[illegible]
محفوظة في متحف اللوفر، باريس

Calligraphie sculptée dans [illegible]
Musée du Louvre, Paris

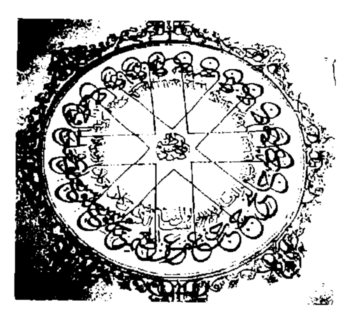


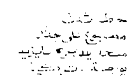
خط على
[illegible]

Calligraphie sur métal
Casque
Style Thoulth
Musée de Topkapi, Istanbul

خط كوفي [illegible]
[illegible]
القرن الثامن عشر الميلادي

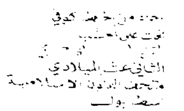
[illegible]





خط ثلث
مرصع على جدار
مسجد يلدرم بايزيد
بورصة، تركيا

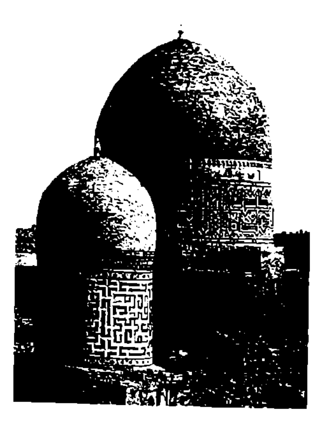
Calligraphie
peinte sur le mur
Style Thoulth
Mosquée Yildirim Bayazid
Brousse, Turquie



جزء من خط كوفي
[illegible]
الثاني عشر الميلادي
متحف الفنون الإسلامية
اسطنبول

Calligraphie
[illegible]
Musée islamique, Istanbul





خط كوفي هندسي
على طابوق مزجج
في مقبرة غازي الرومي
سمرقند، أوزبكستان
القرن الخامس عشر

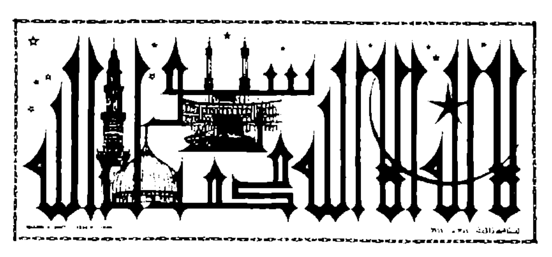
Calligraphie sur brique émaillée
style Koufi géométrique.
Mausolée de Ghazi Zade Roumi,
Samarkand, Ouzbékistan,
URSS, XVe s.



شكل ـ ٣٨٩ ـ



شكل ٣٩٠



شكل ـ ٣٩١ ـ

المصادر والمراجع

1 - **إبن الأثير: عز الدين أبي المحاسن علي بن أبي الكرم الشيباني.**

* الكامل في التاريخ - 12 جزء - منشورات دار صادر، بيروت 1385هـ/ 1965م.

2 - **إبن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن بن يوسف الأتابكي.**

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - 16 مجلد - طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1963م.

3 - **إبن أبي الفيض: عبد القادر الحلبي.**

* «المواقف الإلهية» منشورات موقع «الصوفية» www. Alsoufia. Com.

4 - **إبن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي.**

* المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - 10 أجزاء ط 1، حيدر آباد 1358هـ.

5 - **إبن خلدون: عبد الرحمن بن محمد المغربي.**

* مقدمة ابن خلدون - منشورات دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ.

6 - **إبن خلّكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر.**

* وفيات الأعيان - 8 أجزاء - تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، بدون تاريخ.

7 - **إبن الساعي: تاج الدين علي بن أنجب بن عبد الله.**

* أخبار الحلاّج - تحقيق لويس ماسنيون وبول كراوس، منشورات مطبعة العلم، بيروت 1936م.

8 - **إبن سحنون: آداب المتعلمين - تحقيق حسني عبد الوهاب، القاهرة، بدون تاريخ.**

9 - **إبن عبد ربّه: أبو عمر بن محمد الأندلسي.**

* العقد الفريد - 7 أجزاء - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1363هـ/ 1944م.

10 - **إبن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا.**

* الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلاميّة، تحقيق محمد توفيق الكتبي، منشورات المطبعة الرحمانية بمصر، بدون تاريخ.

11 - إبن الفوطي: كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق تاج الدين بن أحمد.

* الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة. منشورات المكتبة العربية، بغداد 1351هـ وطبعة دار الفكر بيروت 1407هـ/ 1987م.

12 - إبن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي.

* البداية والنهاية - 14 جزءً - منشورات مكتبة المعارف بيروت ومكتبة النصر، الرياض، سنة 1966م.

13 - إبن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري.

* لسان العرب، طبعة دار صادر، بيروت، عِدّة طبعات.

14 - إبن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق.

* الفهرست، منشورات المطبعة الرحمانية بمصر، وطبعة لا يبزك 1872م.

15 - أبو تمّام: حبيب بن أوس الطائي.

* ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي - 4 أجزاء - تحقيق محمد عبده عزام منشورات دار المعارف بمصر 1964م.

16 - أبو حيّان التوحيدي: علي بن محمد بن العبّاس.

* رسائل التوحيدي، تحقيق د. ابراهيم الكيلاني، ط1، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي بدمشق 1951م، ودار طلاس بدمشق 1985م.

17 - أبو العلاء المعرّي: أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي.

* ديوان سقط الزند - 4 أجزاء - طبعة القاهرة 1301هـ/ 1905م.

18 - أبو عُمر الداني: عثمان بن سعيد.

* المحكم في نقد المصاحف، تحقيق د. عزة حسن، منشورات وزارة الثقافة والارشاد السورية، دمشق 1960م.

19 - أبو صالح الألفي: الفن الإسلامي - منشورات دار المعارف بمصر - بدون تاريخ.

20 - أبو المُطهر الأزدي: محمد بن أحمد.

* حكاية أبي القاسم البغدادي، بعناية آدم ميتز - طبعة هايدلبرج سنة 1902م.

21 - إخوان الصفاء.

* (رسائل إخوان الصفا وخلاّن الوفا) تحقيق خير الدين الزركلي، الطبعة المصرية لعام 1347هـ/ 1928م.

22 - آدم ميتز: المستشرق المعروف.

* الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - جزءان - ط3، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة القاهرة 1377هـ/ 1957م.

23 - الإسحاقي: محمد بن عبد المعطي.

* لطائف أخبار الدول فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول.

24 - البلاذري: أبو العبّاس أحمد بن يحيى بن جابر.

* فتوح البلدان، طبعة ليدن 1866م وطبعة دار النشر للجامعيين، تحقيق عبد الله أنيس الطبّاع وعمر أنيس الطبّاع لسنة 1377هـ/ 1957م.

25 - الثعالبي: أبو منصور عبد الملك النيسابوري.

* ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار النهضة المصرية 1384هـ/ 1965م.

26 - الجنابي: د. ميثم.

* حكمة الروح الصوفي، منشورات دار المدى بدمشق، ط1، 2001م.

* تضاريس الإبداع في التجربة الصوفية - مقال - مجلة نزوى الفصلية العمانية، العدد 26 - ابريل - 2001م.

27 - الجبوري: سهيلة ياسين.

* الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق، بغداد 1381هـ/ 1962م.

28 - الجبوري: د. عبد الله.

* فهرست المخطوطات العربية، في مكتبة الأوقاف ببغداد.

29 - الجبوري: محمود شاكر.

* نشأة الخط العربي، منشورات مكتبة الشرق الجديد، بغداد 1974م.

30 - الجهشياري: أبو عبد الله محمد.

* الوزراء والكتّاب، تحقيق مصطفى السقا وجماعته، ط1، طبعة البابي الحلبي، القاهرة 1357هـ/ 1938م.

31 - حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله.

* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - 6 أجزاء - مع الذيل، منشورات مكتبة المثنى ببغداد وبيروت، بدون تاريخ.

32 - حمادة: د. محمد ماهر.

* المكتبات في الإسلام، نشأتها وتطورها ومصائرها، منشورات مؤسسة الرسالة، ط6 بيروت 1414هـ/ 1994م.

33 - الحموي: ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي.

* معجم الأدباء - 20 جزءاً - تحقيق أحمد فريد رفاعي، منشورات دار المأمون المصرية 1357هـ/ 1938م.

34 - الحنبلي: إبن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الدمشقي.

* شذرات الذهب في أخبار من ذهب - 8 أجزاء - منشورات دار المسيرة، ط2، بيروت 1399هـ/ 1979م.

35 - الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي.

* تاريخ بغداد - 14 جزءاً - ط1، منشورات مطبعة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد، ومطبعة السعادة بمصر 1349هـ/ 1931م.

36 - دائرة المعارف الإسلامية - ترجمة أحمد الشنتاوي وجماعته - 20 مجلد.

37 - الدالي: د. عبد العزيز.

* الخطاطة - الكتابة العربية - طبعة القاهرة، مكتبة الخانجي 1980.

38 - الدروبي: إبراهيم.

* البغداديون، أخبارهم ومجالسهم، بغداد 1958م.

39 - دفتر صالح وآخرين:

* الخط العربي، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي العراقية بغداد 1990.

40 - الذهبي: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان.

* سير أعلام النبلاء - 24 جزءاً - منشورات مؤسسة الرسالة، ط1 بيروت، تحقيق شعيب الإرناؤوط وجماعته، 1403هـ/ 1983م.

41 - رضا: الشيخ أحمد.

* متن اللغة، منشورات مكتبة الحياة بيروت 1377هـ/ 1958م.

42 - الزركلي: خير الدين.

* الأعلام - 8 أجزاء كبيرة - ط5، دار العلم للملايين، بيروت 1980.

43 - الزمخشري: جار الله، أبو القاسم محمود.

* أساس البلاغة، منشورات دار الكتب المصرية، 1341هـ/ 1923م.

44 - الزبيدي: محب الدين أبي الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي.

* حكمة الإشراق، تحقيق عبد السلام هارون - من نوادر المخطوطات المجموعة 5 - ط1، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد 1373هـ/ 1954م.

45 - زين الدين: المهندس ناجي المصرف.

* مصوّر الخط العربي، ط2، بيروت 1394هـ/ 1974م.

2 - بدائع الخط العربي - منشورات وزارة الإعلام العراقية - بغداد 1972م.

46 - آل سعيد: شاكر حسن.

* البُعد الواحد 1 والبُعد الواحد 2، إعداد جميل حمودي بغداد 1973م.

47 - سعيد: د. خير الله.

* النظام الداخلي لحركة إخوان الصفاء، دار كنعان، دمشق 1992م.

* مغنيات بغداد في عصر الرشيد وأولاده، وزارة الثقافة السورية، دمشق 1991م.

* خطّاطو بغداد في العصر العباسي، دار النمير، دمشق 1996م.

48 - السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر.

* المزهر في اللغة، الطبعة المصرية، القاهرة 1282هـ.

49 - السجستاني: أبو بكر عبد الله بن أبي داود.

* كتاب المصاحف، تحقيق آرثر جيفري، منشورات المطبعة الرحمانية بمصر، القاهرة 1936م.

50 - سهيل أنور.

* الخطّاط البغدادي، علي بن هلال، تحقيق محمد بهجت الأثري وعزيز سامي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد 1377هـ/ 1958م.

51 - السوداني: د. مزهر.

* جحظة البرمكي، حياته وشعره، طبعة النجف في العراق، ط1، 1977م.

52 - سلام مراد: حوار مع الخطاط حسن المسعود بعنوان «تجربة الخط تجربة الحياة».

* جريدة الإسبوع الأدبي، التابعة لاتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد 1030 الصادر في 11/ 11/ 2006م.

53 - الشريف المرتضى: الإمام علي بن الحسين بن موسى.

* ديوان الشريف المرتضى - 3 أجزاء - بعناية وتحقيق رشيد الصفّار ومصطفى جواد ومحمد رضا الشبيبي، طبعة البابي الحلبي، القاهرة 1958م.

54 - شيخو: الأب لويس اليسوعي.

* النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، منشورات دار المشرق، ط2 بيروت 1989م.

55 - الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك.

* الوافي بالوفيات - 25 جزءاً - تحقيق هيلموت ريتر، استانبول 1931م.

56 - الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى الشطرنجي الكاتب.

* أدب الكتّاب، تحقيق بهجت الأثري، منشورات المكتبة العربية ببغداد والمطبعة السلفية بمصر 1341هـ.

57 - العبيدي: د. صلاح حسين.

* الخط العربي - مقالة - مجلة آفاق الثقافية والتراث - دُبي - العدد 43، إكتوبر 2003م.

58 - العَزّاوي: عباس.

* الأدب العربي في العراق، بغداد 1938م.

59 - عساكر، د. محمد خليل.

* رسالة صغيرة في الخط، منشورة بمجلة معهد المخطوطات العربية بمصر، العدد 1.

60 - القرآن الكريم.

61 - القفطي: الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف.

* أخبار العلماء بأخبار الحكماء. تحقيق محمد أمين الخانجي، مصر 1326 هـ.

62 - القلقشندي: الشيخ أبو العبّاس أحمد.

* صبح الأعشى في كتابة الإنشا - 13 جزءاً - طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1340هـ/ 1920م.

63 - كَحّالة: عُمر رضا.

* أعلام النساء - 5 أجزاء - طبعة محمد هاشم الكتبي، ط2 دمشق 1378هـ/ 1959م.

64 - كونل: آرنست.

* الفن الإسلامي، ترجمة د. أحمد موسى، منشورات دار صادر، بيروت 1966م.

65 - الكُردي: محمد طاهر بن عبد القادر المكّي الخطّاط.

* تاريخ الخط العربي وآدابه - ط1 القاهرة 1358هـ/ 1939م.

66 - محمود: محمد شكر.

* الخط العربي والإسلام - مقالة - مجلة آفاق عربية، بغداد، العدد 6 السنة 4 شباط 1979م.

67 - مريخ: عادل عماد مسعود.

* العربية القديمة ولهجاتها، منشورات المُجمّع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 2000م.

68 - مرزوق: د. محمد عبد العزيز.

* العراق مهد الفن الإسلامي، منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد 1971م.

69 - المسعود: الخطّاط حسن.

* الخط العربي، منشورات فلاماريون، ط1، باريس 1981م.

70 - المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البشاري.

* أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن 1909م.

71 - معروف: د. ناجي.

* تاريخ علماء المستنصرية، بغداد 1379هـ/ 1959م.

72 - ملك أفسل: التركي.

* تركلردهديني سملر، طبعة استنبول 1967م.

73 - النُّفري: أبو عبد الله محمد «كتاب المواقف والمخاطبات» طبعة قديمة.

74 - اليعقوبي: أحمد بن يعقوب بن واضح.

* فتوح البلدان، طبعة ليدن 1891م.

* مجلات وصحف ومواقع الكترونية.

75 - مجلة/ المورد/ العراقية - عدد خاص بالخط العربي، العدد رقم 4 المجلد 15 لعام 1407هـ/ 1986م.

76 - مجلة آفاق عربية - العراقية العدد/ 6 - السنة 4 - شباط 1979م.

77 - مجلة آفاق عربية - العراقية - العدد/ 11 - السنة 4 - تموز 1979م.

78 - جريدة الاسبوع الأدبي، السورية - العدد/ 1030 في 11/ 11/ 2006م.

79 - مجلة آفاق الثقافة والتراث، دُبي - العدد/ 43 - اكتوبر 2003م.

80 - موقع المصطفى الالكتروني www. Almostafa. com.

81 - موقع الصوفية www. Alsoufia. com.

82 - موقع جمالية الخط العربي www. Anglfire.com

المصادر الأجنبية

- 83 - بالألمانية:

1. Vicher, Robert: Das optiche formmaefal reprinted in drei schrften zum as the-tischhen form problem. Hall 1927.

- ومختصره إلى الإنجليزية.

Page 25 - in Empathy form and space problems in Garmany Aesthics (1873-1893) California, Gettycenter for the history of Arts and Humanities (1994).

(نهاية الجزء الرابع - الخطّاطون)

د. خيرالله سعيد



المجلد الثالث

ج 5 - ج 6



ص.ب: 113/5752

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com

www.alintishar.com

بيروت - لبنان

هاتف: 659148-9611 فاكس: 659150-9611

ISBN 978-614-404-201-4

الطبعة الأولى 2011

فهرس الموضوعات

الجزء الخامس

الجزء السادس

مقدمة

لم يدر بخلدي أني سوف أقوم بعمل موسوعي، يستقطب ما يدور حول الورّاقين، في عالمنا العربي والإسلامي، وعندما أنجزت الجزء الأول من هذا العمل، والذي وسمناه بـ«**الممهدات الحضارية والتاريخية**» أصبحت الأفاق أمامي واسعة رحبة، وأنفتحت بوجهي كثير من مخابىء التراث، لا سيما في الفترة التي أشتغل فيها، وهي/ العصر العباسي، منذ قيام بغداد وحتى سقوطها على يد المغول عام 656هـ/ وما تلاها من أحداث وصولاً إلى الدولة العثمانية وما إن أنهيت الجزء الثاني من العمل «**ظهور مهنة الوراقة**» حتى تكشف أمامي الكم الأكبر من الأسماء والشخصيات، التي ساهمت باحتراف الوراقة، في هذا المصر أو ذاك من دار الإسلام، مما فرض علي أن أخرج من الحيّز الجغرافي الذي ألزمت نفسي به، تاريخاً ومنهجاً، وهو «**وراقو بغداد**» فكثير من هؤلاء الوراقين، تخرج في بغداد وسافر إلى مصرٍ آخر، أو جاء من الأمصار الإسلامية ليستقر في بغداد، ويمارس مهنة الوراقة، الأمر الذي يتطلب منا، منهجياً، متابعة الموضوع المشخّص، أو الوراق المراد ترجمته، وهذه المسألة فتحت الباب واسعاً أمامنا، لأن نرصد حركة بقية الوراقين خارج مدينة بغداد، وقادنا البحث لأن نوجد فصولاً إضافية على الموضوع، تلخصت في أربعة منها:

1 - فصل عن وراقي بلاد الشام.

2 - فصل عن وراقي بلاد مصر.

3 - فصل عن وراقي بلاد فارس.

4 - فصل عن وراقي الأندلس، والذي يضم معه وراقي بلاد المغرب، وتونس.

وهذه الفصول الأربعة المضافة، هي استكمال للموضوع، ومحافظة على وحدته المنهجية، وتتبع تاريخي للظاهرة، إنطلاقاً من بغداد - عاصمة الخلافة العباسية - هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أردنا بهذه الاضافات من الفصول، تقديم خدمة للباحث المختص، إضافة إلى أن الموضوع/ أعلام الوراقين/ يتسع لمثلها، تاريخاً ومنهجاً في بعديه الأكاديمي والمعرفي.

ولذلك إرتأينا أن نجعل من «ورّاقي الأمصارالإسلامية» جزءاً مستقلاً بذاته حمل

عنوان «الجزء السادس «ورّاقو الأمصار الإسلامية» حتى يأخذ مكانته في البحث، لا سيما وأن موضوع «ورّاقو بغداد» من السعة والحجم ما يثقل على المتابع، لذلك كان هذا الفصل والتفصيل بين ورّاقي بغداد وورّاقي الأمصار الإسلامية.

ومن الناحية المنهجية في - هذا الجزء - فقد سلكنا طرقاً عدة، نظراً لكون الوراقين أصنافاً، مما يتوجب أن نقتفي أثر الأوائل في بعضها، لا سيما، وراقو الحديث، وهم أكبر صنف أو مجموعة ترجم لها، حيث سرتُ معهم على منهج الخطيب البغدادي، في «تاريخ بغداد» مع بعض التحويرات البسيطة، في الكنية واللقب، حيث اعتمدنا على الكنية أو اللقب، الذي يعرف به الوراق أكثر من غيرها، وقد أخذنا بعين الاعتبار، عدم تكرار الكنى والألقاب لهم، وهي كثيرة، لا سيما عند «المحمدين والأحمدين والعليين» فأغلب هؤلاء يشتركون بكنية «أبو بكر، أبو محمد، أبو إسماعيل، أبو إبراهيم، أبو الحسن» لذلك اعتمدنا في تصدير الترجمة لكل وراق، الاسم، أو اللقب، أو الكنية، التي لا يشترك فيها أكثر من واحد، هذا أوّلاً.

ثانياً، راعينا شهرة الوراق في علوم الحديث وتخصصه به، والمكان الذي عاش أو مات فيه، مع ذكر تاريخ ذلك.

ثالثاً: ركزنا على مسألة معرفية تخص «علم الحديث» في ترجمة كل وراق محدث، فأوضحنا كلمة «حدث عن، وسمع من، وروى عن» لأنها إحدى الثوابت المنهجية في تراجم رجال الحديث، وأوردنا أسماء الذين حدثوا عنهم وسمعوا منهم، والذين رووا عنهم.

رابعاً: أوضحنا الأحاديث التي ذكر في سندها اسم المترجم له، وأوردناها كاملة، بعد تشذيبها من أسماء رواتها، وذكرنا موضوعها المنقول، جرياً على المنهج.

خامساً: ذكرنا بعض تفاصيل حياة المترجم له، على الصعيد الاجتماعي والثقافي والسياسي، وآراءه مؤلفاته، أو أثاره الأدبية.

سادساً: ذكرنا في الحاشية، أسماء المصادر التي تحدثت عنه، ورقم الترجمة، تسهيلاً لعودة المهتمين والباحثين اليها، وتحاشياً لمسألة اختلاف الطبعات.

أما فيما يخص الكتّاب والأدباء والشعراء، فكان رائدنا في المنهج «ياقوت الحموي» فقد سرنا على هداه في كتابه «معجم الأدباء»، لأنه يذكر حيثيات وتفصيلات دقيقة عن حياتهم، وهو الأمر الذي أبغيه، في ترجماتي لهم، فأنا تهمني الحركة الداخلية للمترجَم، بكل إيقاعاتها الدرامية ولا أخفي أمنيتي، في «تلفزة» هذا العمل.

ومن ناحية أخرى، كانت شخصيات هؤلاء من أكبر الدوافع والمحرضات على تطور الحضارة العربية - الإسلامية، ، في العصر العباسي، ونظراً لأن أغلب هؤلاء كانت الستائر مسدلة دونهم، لذلك ارتأينا إبراز الجانب الاجتماعي والسياسي والثقافي في حياتهم لأنهم بناة حضارة حقا.

* **التراجم العارضة**: هذا الفصل، هو الأخر، فرض نفسه على الموضوع، باعتباره يدخل في سياق «أعلام الوراقين» وهو عبارة عن ذكر لبعض الأسماء والألقاب، والتي يكون التعريف بها ناقصاً، من جهة، ومن جهة أخرى، لم تعرّف بها المصادر، ويأتي أحياناً ذكرها، في الروايات والأخبار والأحاديث وغير ذلك، مما يتطلب إيرادها وفق ما ذكرت مع الاشارة إلى المصدر الذي ذكرها، والخبر الذي جاءت فيه. وقد أحلناه إلى الجزء السادس من هذه الموسوعة.

وفي الختام أقول: إنني لم ادّعي الكمال في عملي، وليس هناك من عمل أكتملت فيه ما ترغب النفوس، ولكني أقول أني دأبت جاهداً لأقدم إلى القارىء ما أسعفتني به المصادر، واجتهدت على قدر معرفتي، فإن أصبت، فذاك هو ما أرجوه وإن أخطأت، أو ظهرت هِنات، هنا وهناك، فحسبي ما قاله الرصافي، شاعرنا الكبير:

«وما إن فاز أغزرنا علوماً ... ولكن فاز أسلمنا ضميرا»

المؤلف

الفصل الأول

المستملون

أبو حامد المستملي:

هو أحمد بن جعفر، وكنيته أبو حامد المستملي[1] اختص بمجالس استملاء الحديث، وحدّث عن محمد بن يحيى الازدي، روى عنه عبد الصمد الطستي[2].

ولم يزد الخطيب في ترجمته.

أبو مسلم المستملي:

هو عبد الرحمن بن يونس بن هاشم، كنيته أبو مسلم الرومي، مولى أبي جعفر المنصور[3].

أشارت المصادر إلى أنه ولد في بغداد سنة 164هـ وتوفي سنة 224هـ[4].

رومي الأصل، خدم أبو جعفر المنصور، كان يستملي لسفيان بن عيينه، ويزيد بن هارون، حدّث عن ابن عيينه، وحاتم بن إسماعيل ومعن بن عيسى، وعبد الله بن إدريس، ومحمد بن فضيل. روى عنه محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه، وحاتم بن الليث الجوهري، وعباس الدوري، وحنبل بن إسحاق الحربي، وإبراهيم بن إسحاق، وأحمد بن يوسف التغلبي وأحمد بن بشير المرشدي، ومحمد بن غالب التمتام، وأبو بكر بن أبي الدنيا[5].

ورد اسمه في سند الحديث المروي عن ابن عباس: «إن النبي ﷺ سرّب نساءه ليلة جُمعٍ قبل الزحام»[6].

(1) تاريخ بغداد 4/ 63.
(2) المصدر السابق.
(3) تاريخ بغداد 10/ 258 - 259 - الترجمة رقم (5374).
(4) المصدر السابق 10/ 259.
(5) نفس المصدر 10/ 258.
(6) المصدر السابق - نفس المكان.

تحدّث فيه علماء الحديث وشيوخه بشيء من التحفّظ، قال الخطيب البغدادي: أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق الثقفي قال: سألت أبا يحيى محمد بن عبد الرحيم عن أبي مسلم فلم يرضه، وأراد أن يتكلم فيه ثم قال: استغفر الله، فقلت في الحديث قال: نعم وشيئاً آخر. وذكر أبو عبيد محمد بن علي الآجري قال: سمعت أبا داود. . .

وذكر أبا مسلم المستملي، فقال: «كان يجوّز حد المستجيز في الشرب»[1].

ابن زريق المستملي:

هو عبد الله بن زيد، كنيته أبو محمد، ويعرف بزريق المستملي[2] تعاطى مهنة الاستملاء في مجالس الاملاء الخاصة بعلوم الحديث، وهذا الصنف شكّل البدايات الأولى لفن الوراقة[3].

حدّث أبو القاسم بن الثلاّج عنه عن محمد بن علي بن الفضل الملقب فستقه وذكر أنه توفي في جمادى الاخرة سنة 326هـ[4].

أبو الحسن المستملي:

هو علي بن إبراهيم بن عيسى، كنيته أبو الحسن المستملي، المعروف بالنجاد[5].

واحد من المحدثين الثقاة سكن بغداد، وحدّث بها، ورحل عنها، ومات في الرقة سنة 353هـ[6].

تخصّص بعلوم الحديث علماً ومهنة، كونه مستملي، سمع محمد بن إسحاق بن خزيمه وأبا العباس ابن السراج، وأحمد بن الحسين الماسرجي، وأبا أحمد بن فارس الدلال، وأحمد بن محمد الأزهري النيسابوريين، ومحمد بن شعيب الغازي الايلي، ومحمد بن المسيّب الأرغياني، وأحمد بن جعفر الجمال الرازي، وموسى بن العباس الجويني، وعبد الله بن محمد بن أسير الاصبهاني، وحامد بن شعيب البلخي، ومحمد بن محمد بن سليمان الباغندي.

روى عنه الدار قطني وغيره[7].

---

(1) تاريخ بغداد 10/ 258.

(2) تاريخ بغداد 9/ 459 - الترجمة رقم (5090).

(3) راجع ج2 من هذه الدراسة تحت عنوان/ ظهور مهنة الوراقة/ .

(4) تاريخ بغداد 9/ 459 - 460.

(5 - 7) تاريخ بغداد 11/ 338 - 339 الترجمة رقم (6174).

علي بن يوسف المستملي:

واحد من الذين عرفتهم مجالس بغداد الخاصة بعلوم الحديث، ولقبه (المستملي) يشير إلى تلك الفئة من الوراقين الذين أسسوا علم الوراقة ونهجه في بغداد أيّامها الأول، حدّث علي بن يوسف المستملي عن علي بن داود القنطري، روى عنه أبو القاسم الطبراني[1].

ورد اسمه في سند الحديث المروي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الدرجات العُلى ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الدرّي في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر لمنهم، وأنعما»[2].

أبو كنانة المستملي:

هكذا ذكره الخطيب البغدادي، بالكنية ولم يذكره بالاسم وقال عنه: مستملي هيثم بن بشير وهو أخو أبي مسلم عبد الرحمن بن يونس المستملي[3].

حكى عن هُشيم، وروى عنه أحمد بن منيع البغوي[4]. ولم يزد الخطيب بترجمته عن ذلك.

ابن العبالس المستملي:

هو محمد بن أحمد بن العباسي، وشهرته المستملي، وهي وظيفة تندرج في بدء العمليات الأولى للوراقة، حيث كان هؤلاء يرددون الحديث وراء العلماء، ويأخذ الناس عنهم ويدونون[5].

حدّث عن سعدان بن نصر الثقفي، وروى عنه عبد العزيز بن جعفر الحنبلي المعروف بغلام الخلال.

لم تتطرق المصادر إلى تاريخ وفاته أو ولادته[6].

---

(1) تاريخ بغداد 12/ 123 - 124 - الترجمة رقم (6577).
(2) المصدر السابق 12/ 124.
(3) تاريخ بغداد 14/ 406 - الترجمة رقم (7730).
(4) المصدر السابق.
(5) راجع ج2 من هذا الكتاب - فصل منهج الوراقة - مجالس الاملاء.
(6) تاريخ بغداد 1/ 325 - الترجمة رقم (228).

أبو بكر المستملي الوراق:

هو محمد بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن عمر بن مهران بن فيروز بن سعيد، كنيته أبو بكر وشهرته المستملي الوراق[1].

يتحدث هو عن نفسه فيقول: «ولدت ببغداد سنة 293هـ»[2].

أهّله الحديث لأن يكون واحداً من رجاله، ومكّنته الوراقة من تتبع أسانيده، فقد اختص هذا الوراق بعلوم الحديث، وقد أخذ السماع لحديث عن أبيه وعن الحسن بن الطيّب الشجاعي، وعمر بن أبي غيلان الثقفي، وأحمد بن عبد الجبار الصوفي، وحامد بن محمد بن شعيب البلخي، ومحمد بن يحيى بن الحسين العمي، ومحمد بن محمد الباغندي، وعبد الله بن محمد البغوي، ومن بعدهم، روى عنه الداقطني وغيرهم، وعنهُ سُمعَ الحديث (السَفَرُ قطعة من العذاب)[3].

قال يوماً: «دنقت على أبي محمد بن صاعد بابه فقال: من ذا قلت: أنا أبو بكر بن أبي علي، يحيى هنا، فسمعته يقول لجاريته: هاتي النعل حتى أخرج إلى هذا الجاهل الذي يكنّي نفسه وأباه ويسميني فأصفعه»[4]. لم يذكر الخطيب تاريخ وفاته[5].

أبو عبد الله المستملي:

هو محمد بن العباس بن مهران، وكنيته أبو عبد الله المستملي[6] كان ينادي في مجالس الاملاء ليسمع الناس، ويأخذون عنه، واختص بمجالس إملاء الحديث، مات سنة 329هـ[7].

حدّث عن محمد بن عيسى بن حيان المدائني، ومحمد بن أبي العوام الرياحي.

روى عنه أبو الحسن الدار قطني، وأبو حفص بن شاهين[8].

---

(1) تاريخ بغداد 2/ 53 - الترجمة رقم (450).
(2) نفس المصدر 2/ 54.
(3) المصدر السابق 2/ 53 - 54.
(4) نفسه 2/ 54.
(5) نفس المكان.
(6) تاريخ بغداد 3/ 116 - الترجمة رقم 1131.
(7) المصدر السابق.
(8) نفسه.

ابن فروة المستملي:

هو محمد بن فروة، أبو بكر المستملي[1].

أحجم الخطيب البغدادي عن ذكر ولادته ووفاته، وقال عنه: حدّث عن عمر بن مدرك الرازي، روى عنه أبو الحسن بن لؤلؤ، وأخذ منه حديث (من أتى الجمعة فليغتسل)[2].

هارون المستملي - هارون الديك:

هو هارون بن سفيان بن بشير، كنيته أبو سفيان[3] واحد من المعروفين في مجالس الاملاء، اختصّ بملازمة يزيد بن هارون كمستملي لمجالسه وعرف بلقب (هارون الديك)[4]. عرف بغداد وعرفته مجالسها العلمية الخاصة بعلوم الحديث، فبها نشأ وتعلم حتى توفي سنة 251هـ[5].

أخذ الحديث عن علماء بغداد، وبها حدّث عن شيخه يزيد بن هارون، ومعاذ بن فضالة، وأبي زيد النحوي، وزياد بن سهل الحارثي، ومطرف بن عبد الله المديني، ومحمد بن عمر الواقدي، وأبي نعيم الفضل بن دكين، وعبد الله بن جعفر الرقي. روى عنه جعفر بن محمد بن كزال، وعبيد العجل، وأبو بكر بن أبي الدنيا، وعبد الله بن إسحاق المدائني[6].

ورد اسمه في سند الحديث المروي عن أم سلمة الأنصارية، قالت: سمعت أنساً يقول: أتي رسول الله ﷺ بجنازة ليصلي عليها فقال: «ما تقولون» قالوا: لا نعلم الا خيرا، قال: «لكن الله يعلم غير ما علمتم» قالوا: يا رسول الله فما حاله، قال: «قبل شهادتكم فيه وغفر له ما لا تعلمون»[7].

هارون المستملي - هارون مكحلة:

هو هارون بن سفيان بن راشد، كنيته أبو سفيان المستملي والمعروف بمكحلة[8].

واحد من المشهورين ببغداد في مجالس إملاء الحديث، وقد شكل هذا الصنف من

---

(1) تاريخ بغداد 3/ 166 - 167 - الترجمة رقم 1211.

(2) المصدر السابق 3/ 167.

(3 - 7) تاريخ بغداد 14/ 25 - الترجمة رقم (7357).

(8) تاريخ بغداد 14/ 24 - 25 - الترجمة رقم (7356).

الوراقين الطور الأول لمهنة الوراقة، تخصص هذا المستملي بعلوم الحديث، وذلك من خلال ترديده حديث الشيوخ في المجالس وعنه يكتب الخلق في علوم الحديث.

عاش ببغداد وما ت بها سنة 247[1] وبها حدّث عن محمد بن حرب الخولاني، وبقية بن الوليد، ويعلي بن الاشدق، ويحيى بن سليم الطائفي، روى عنه إبراهيم بن موسى الجوزي، وعبد الله بن إسحاق المدائني، وأبو القاسم البغوي وغيرهم[2].

ورد اسمه في سند حديثين، تناقلتهما مصادر الحديث والتاريخ، الأول مروي عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من ظلم من الأرض شبرا فإنه يطوقه من سبع أرضين»، والثاني مروي عن عبد الله بن جراد قال: أتى رسول الله ﷺ بفرس فركبه وقال: «يركب هذا الفرس من يكون الخليفة بعدي» فركبه أبو بكر الصديق[3].

يقول هو عن نفسه: قال لي أبو نعيم: يا هارون اطلب لنفسك صناعة غير الحديث فكأنك بالحديث قد صار على مزبلة[4].

عرف عنه علو طبقة صوته، ووضوح ألفاظه عندما يردد الحديث وراء العلماء، فقد ذكر الخطيب: أن أبا حاتم الرازي قال: حضرت مجلس سليمان بن حرب ببغداد، فحزروا من حضر مجلسه أربعين ألف رجل، وكان مجلسه عند قصر المأمون، فبنى شبه منبر وحضر حوله جماعة من القُوّاد عليهم السواد والمأمون فوق قصره قد فتح باب القصر وقد أرسل ستر يشف، وهو خلفه يكتب ما يملي، فسئل أول شيء حديث حوشب بن عقيل، فلعله قد قال: حدثنا حوشب بن عقيل، أكثر من عشر مرات، وهم يقولون لا نسمع حتى قالوا: ليس الرأي إلا أن يحضر هارون المستملي، فذهب جماعة فأحضروه، فلما حضر قال: من ذكرت، فإذا صوته خلاف الرعد، فسكتوا وقعد المستملون كلهم واستملي هارون، وكان لا يسأل عن حديث إلاّ حدّث من حفظه[5].

(1 - 3) تاريخ بغداد 14/ 24 - 25 - الترجمة رقم (7356).

(4) ذات المكان من المصدر.

(5) تاريخ بغداد 9/ 23 وحبيب زيّات/ الوراقة والوراقون في الاسلام/ ص 10.

الفصل الثاني

وراقو الحديث

أحمد بن بكر الوراق:

هكذا ترجمه الخطيب[1] وقال عنه: حدّث عن هشام بن عمار الدمشقي، وعبد الوهاب بن فليح المكي وغيرهما، روى عنه أبو عمرو بن السماك.

أسند اسمه بحديث عن أبي مسلم/ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قلت يا رسول الله علمني عملاً أدخل به الجنة قال: «أحيّة والدتك؟ فبرّها فتكون قريباً من الجنة». قلت: ليس لي والدة، قال: «فاطعم الطعامة وأطب الكلام»[2].

أبو العباس الوراق:

هو أحمد بن جعفر بن محمد بن المثنى بن محمد بن عبد الله بن بشر، كنيته أبو العباس الوراق[3]. أصله من بلخ، واستقر في بغداد وبها عرف على أنه ثقة[4].

سمع محمد بن سليمان لوينا، وقاسم بن يزيد المقرىء، وعمرو بن علي الصيرفي، وعلي بن مسلم الطوسي، وابا السايب سلم بن جناده الكوفي. روى عنه أبو الفضل الزهري، ومحمد بن المظفر وأبو بكر المقرىء الأصبهاني وغيرهم[5].

ورد اسمه في سند حديث الرسول ﷺ: «وجب الخروج على كل ذات نطاق في العيدين»[6].

(1) تاريخ بغداد 4/ 55 - الترجمة رقم (1665).
(2) المصدر السابق 4/ 55 - 56.
(3) تاريخ بغداد 4/ 63 - الترجمة رقم (1681).
(4 - 6) المصدر السابق 4/ 63.

السامري الورّاق:

هو أحمد بن الحسن، كنيته أبو القاسم الوراق، ومعروف بالسامري[1].

نزل بغداد وحدّث بها عن إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي. ورد اسمه في سند رواية حديث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكمل مما يسقط من الخوان نفي عنه الفقر ونفى عن والده الحمق»[2].

القاص الورّاق:

هو أحمد بن الحسين، وكنيته أبو بكر العكبري الوراق، ويعرف بالقاص[3].

سكن بغداد وحدّث بها عن أحمد بن عبيد الله النرسي، وعبد الكريم بن الهيثم العاقولي، والحارث بن أبي أسامة، ومحمد بن سليمان الباغندي، والحسن بن سلام السواق ومحمد بن غالب التمتام، وأبي العباس الكديمي، سمع منه وحدّث عنه أبوالحسن ابن رزقويه في سنة 396هـ.

روى حديث عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن رجلاً من الأنصار وقع في اب العباس في الجاهلية، فلطمه العباس، فجاء قومه فقالوا: والله لنلطمنه كما لطمه ولبسوا السلاح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فصعد المنبر وقال: «أيها الناس أي أهل الأرض أكرم على الله فقالوا: أنت، قال: فإن العباس مني وأنا منه لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا» فجاء القوم فقالوا: يا رسول الله نعوذ بالله من غضبك فاستغفر لنا[4].

أبو منصور الوراق:

هو أحمد بن شعيب صالح بن الحسين، المكنى بابي منصور الوراق[5].

من أهل بخارى، استوطن بغداد وحدّث بها إلى حين وفاته، وكان صالحاً ثقة ثبتا، ولد ببخارى سنة 280هـ وتوفي ببغداد سنة 355هـ[6].

---

(1) تاريخ بغداد 4/ 91 - الترجمة رقم (1734).
(2) المصدر السابق.
(3) تاريخ بغداد 4/ 101 - الترجمة رقم (1755).
(4) المصدر السابق.
(5) تاريخ بغداد 4/ 193 - الترجمة رقم (1883).
(6) المصدر السابق 4/ 194.

استهوته علوم الحديث والدين، فشد الرحال من بلاده إلى بغداد، واستمع إلى شيوخها وقرائها، واتخذ من الوراقة مهنة له، ليزيد من معارفه في علوم الحديث، سمع صالح بن محمد جزرة الحافظ، وحامد ابن سهل، وسهل بن شاذويه، ومحمد بن حريث البخاريين، وأبا خليفة الفضل بن الحباب الجمحي، وزكريا بن يحيى الساجي، ومحمد بن إبراهيم بن أبان السراج، ومحمد بن جرير الطبري وأحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي[1].

ورد اسمه في سند الحديث المروي عن عبده بن سليمان، قال: لما زوج رسول الله ﷺ فاطمة علياً قال له النبي ﷺ: «اعطها شيئا» قال: ما عندي شيء. قال: «أين درعك الحطمية»، قال أبو الحسن محمد بن طلحة بن محمد النعالي: ما كتبت عن أبي منصور غير هذا الحديث[2].

قال البراء: اشترى أبو بكر من عازب رَحْلاً بثلاثة عشر درهما، فقال أبو بكر لعازب: مر البراء فليحمله إلى أهلي فقال له عازب: لا حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة، وذكر الحديث بطوله[3].

قال أبو منصور الوراق: كنت عند أبي خليفة، فاستجزت منه كتباً، فقلت له: أجزت لي ولفلان، وهم لفلان مال، فقال لي: هُمْ، ليس في كلام العرب، ثم قال: أنشدني أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي لنفسه[4].

شفاء العيا حسن السؤال وانما يطيل العيا طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عمّا عناك فانّما خلقت أخا عقلٍ لتسأل بالعقلِ

قال محمد بن أبي الفوارس: ما رأيت من حدّث عن صالح جزرة غيره[5].

ابن العباس الوراق:

هو أحمد بن العباس بن محمد بن علي، كنيته أبو علي الوراق، قال الخطيب البغدادي، ذكر أبو القاسم بن الثلاّج أنه حدّثه عن الحسن بن عرفة واكتفى بهذه العبارة، دون زيادة أو نقصان في الترجمة[6].

(1) نفس المصدر 4/ 193.
(2) نفسه.
(3) هكذا ذكر الخطيب، نص هذا الحديث، دون أن يكون هناك رابط بحادثةٍ ما تتعلق بالمُترجم له.
(4) تاريخ بغداد 4/ 194.
(5) نفس المصدر.
(6) تاريخ بغداد 4/ 329 - الترجمة رقم (2145).

إبن أسد الورّاق:

هو أحمد بن عبد الله بن خالد بن ماهان، وكنيته أبو حامد الحربي الوراق ويعرف بابن أسد[1].

تعاطى الوراقة بعلوم الحديث، وخالط علماء بغداد في هذا الجانب، حدّث عن أبي قلابه الرقاشي، وأبي الوليد بن برد الانطاكي وغيرهم.

روى عنه جعفر بن محمد الخالدي، وأبو الفضل الزهري، وأبو حفص بن شاهين، وكان ثقة كما يقول الخطيب[2]، إلاّ أنه لم يذكر تاريخ ولادته أو وفاته.

أبو بكر الدوري الورّاق:

هو أحمد بن عبد الله بن خلف المكنى بأبي بكر الدوري الوراق[3]، كان شيعي المذهب ومعروف بذلك[4]، ولد سنة 299هـ، ومات سنة 379هـ، يقول هو عن نفسه: أوّل كتابتي الحديث في سنة 313هـ[5]. وهو بهذا يؤرخ لنفسه في الوراقة.

ابن الفافي الورّاق:

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان بن عيسى بن الهيثم، وقيل ابن عيسى بن السندي بن سيرين، كنيته أبو الفضل الوراق، ويعرف بابن الفافي[6].

سمع أبا مسلم الكجي، ومحمد بن جعفر القتات، وعلي بن إسحاق بن زاطيا، والقاسم بن زكريا المطرز. روى عنه أبو الحسين بن سمعون، وأبو حفص بن الآجري وغيرهما من المتقدمين.

حدّث ابن الفافي الوراق في سنة 344هـ حديثاً يرجع سنده إلى الإمام علي ﵁ قال: «أنا أول من أسلم مع النبي ﷺ»[7].

---

(1) تاريخ بغداد 4/ 230 - الترجمة رقم (1937).
(2) المصدر السابق.
(3) تاريخ بغداد 4/ 234 - الترجمة رقم (1952).
(4) ينعته الخطيب البغدادي بعبارة (كان رافضياً مشهوراً بذلك) المصدر السابق - نفس المكان.
(5) تاريخ بغداد 4/ 234 - 235.
(6) تاريخ بغداد 4/ 233 - الترجمة رقم (1947).
(7) المصدر السابق.

حدّث عنه أبو الحسن بن رزقويه بأنه كان ثقة. وأحجم الخطيب البغدادي عن ذكر ولادته ووفاته[1].

رغيف الورّاق:

هو أحمد بن عبد الله بن القاسم ابن هشام، يكنى بأبي بكر التميمي الوراق ويعرف برغيف[2]، وهو واحد من الحفّاظ المذكورين في حفظ الحديث، موصوفاً بالفهم بين المحدثين في بغداد. مات في سنة 269 هـ[3].

حدّث عن عبيد الله بن معاذ العنبري، وصالح بن حاتم بن وردان، روى عنه محمد بن مخلد، وأبو سعيد بن الأعرابي، وقد كتب عنه الحديث ببغداد[4].

حدّث عنه الرُواة حديث زر بن حبيش القائل: قلت لأبي بن كعب: أن عبد الله بن مسعود يقول: من يقم الشهر يدرك ليلة القدر. فقال ﷺ: أنه ليعلم أنها ليلة سبع وعشرين[5].

ابن خميرة الوراق:

هو أحمد بن علي، كنيته أبو الحسين الوراق، ويعرف بابن خميرة[6].

كان واحداً من الحفّاظ، ونزل المصيصة وحدّث بها عن عباس الدوري، ومحمد بن أبي العوام الرياحي، روى عنه أبو عبد الله الشماخي الهروي وأبو بكر محمد بن عبد الله الأبهري، وإبراهيم بن محمد الجلي المصيصي[7].

أهمل الخطيب تاريخ ولادته ووفاته، ونقل عنه خبراً وصفه بالغريب قال فيه: «حدّثنا أبو بكر بن أبي العوام، وأخبرنا محمد بن الحسين القطان، أخبرنا أحمد بن عثمان بن يحيى الأدمي، حدثنا محمد بن أحمد بن أبي العوام الرياحي - واللفظ لحديث البرقاني - حدثنا عبد العزيز بن أبان، حدثنا سفيان الثوري عن أيوب، عن ابن سيرين عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إذا مسّ أحدكم ذكره فليتوضأ»[8].

(1) تاريخ بغداد 4/ 233 - الترجمة رقم (1947).
(2 - 5) تاريخ بغداد 4/ 218 - الترجمة رقم (1913).
(6 - 7) تاريخ بغداد 4/ 310 - الترجمة رقم (2102).
(8) نفس المصدر 4/ 310 - 311.

ابن البقّال الورّاق:

هو أحمد بن عمر بن علي بن الفضل بن إبراهيم، المكنى بأبي بكر الوراق، والمعروف بابن البقّال[1].

كان واحداً من الصالحين الثقاة، عرف بكثرة كتابته للحديث نتيجة تخصصه به. توفي في رمضان سنة 399هـ[2] ولم تشر المصادر إلى تاريخ ولادته.

سمع أبا بكر الشافعي، وأبا علي الطوماري، وأبا علي بن الصواف، وعلي بن إبراهيم ابن أحمد القاضي، وابا بحر بن كوثر، ومحمد بن جعفر بن الهيثم، وعثمان بن محمد بن سنقه، وحبيب بن الحسن القزاز، وأبا بكر بن خلاّد النصيبي، وأبا بكر بن مالك القطيعي ومن جاء بعدهم، روى شيئاً يسيرا[3].

ابن الطلاية الوراق:

هو أحمد بن أبي غالب بن أحمد البغدادي، كنيته أبو العباس الحنبلي الوراق الزاهد العابد[4].

بغدادي الأصل والمنشأ والوفاة، فارق الدُنيا سنة 548هـ[5].

تفرّغ للعمل بوراقة الحديث وهو في مسجده الذي لازمه لمدة سبعين سنة ولم يخرج منه، سمع الحديث من عبد العزيز الأنماطي وغيره، وانفرد بالجزء التاسع من «المخلصيات» حتى أضيفت عليه[6].

كان يتحسس ظُلم الولاة، ويشارك أبناء جلدته الهموم، فلقد ذكر إبن العماد أنه كان من أعاجيب دهره في الإستقامة، وقد زاره السلطان مسعود في مسجده بالحربية[7].

فتشاغل عنه بالصلاة، فبكى السلطان مسعود، وأبطل المكوس والضرائب وتاب[8].

(1 - 3) تاريخ بغداد 4/ 294 - الترجمة رقم (2054).

(4) إبن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب 4/ 145 - حوادث سنة 548هـ.

(5) المصدر السابق - نفس المكان.

(6) نفس المصدر.

(7) الحربية = محلة كبيرة مشهورة ببغداد عند باب حرب، قرب مقبرة بشر الحافي وأحمد بن حنبل - ياقوت الحموي - معجم البلدان 2/ 237.

(8) شذرات الذهب 4/ 145.

ذكرت المصادر[1] أنه كان مُتقللاً من الدُنيا، متعبداً لا يفتر ليلاً، ولا نهاراً، لم يكن في زمنه أعبدُ منه، لازم ذلك حتى انطوى طاقين، قانعاً بثوبٍ خام وجرّة ماء وكسر يابسة[2].

الأزرقي الوراق:

هو أحمد بن الفتح بن موسى، يكنى بأبي بكر الأزرقي الوراق، صاحب بشر بن الحارث وحكى عنه حكايات[3].

لم يعرّج الخطيب على ترجمته وافيا، ولم يذكر ميلاده ووفاته، بل قال عنه: روى عنه أبو بكر بن أبي الدنيا، وأبو العباس السراج النيسابوري، ومحمد بن مخلد، وحمزة بن الحسين السمار، سمع منه قوله: سمعت بشر بن الحارث يقول: استغفر الله من كل خطوة خطوتها في طلب الحديث، أني لأعدها من أعظم الذنوب إن لم يغفرها الله لي[4].

وربما كان يقصد - طلب الحديث من غير عمل به.

المدني الوراق:

هو أبو العباس أحمد بن الفرج بن راشد بن محمد المدني الوراق، البغدادي الحنبلي الحجة القاضي[5].

كان هذا الوراق من أهل المدينة وهي قرية فوق الأنبار، ولد سنة 490هـ.

ووافاه الأجل يوم السبت 16/ ذي الحجة/ سنة 551هـ[6].

اهتم بالقرآن والروايات وساعدته الوراقة في ذلك، وقرأ القرآن على مكي بن أحمد الحنبلي وغيره، وتفقه على عبد الواحد بن سيف، وسمع من أبي منصور محمد بن أحمد الخازن وغيره، وشهد عند قاضي القضاة الزينبي، وولي القضاء بدجيل مرة، وحدّث وروى عنه ابن السمعاني وغيره[7].

---

(1) شذرات الذهب 4/ 146.
(2) نفس المصدر.
(3) تاريخ بغداد 4/ 344 - الترجمة رقم (2175).
(4) المصدر السابق 4/ 334 - 335.
(5) إبن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب 4/ 157 - حوادث سنة 551هـ.
(6) المصدر السابق 4/ 157 - 158.
(7) نفس المصدر.

أبو الحسن الفارسي الوراق:

هو أحمد بن الفرج بن منصور بن محمد بن الحجاج بن هرون بن حماد بن سعيد بن الصلت بن أبان ابن خرخشاذان. المكنى بأبي الحسن الفارسي الوراق[1].

سكن بغداد في جانبها الشرقي - الرصافة - حيث أنه ولد في هذا الجانب سنة 312 هـ، وبه توفي ودفن سنة 392هـ[2].

عرف بأنه كان شيعي المذهب، وبأنه كان ثقة، وكتب الكثير من الحديث، قال الخطيب البغدادي: حدّثني أبو بكر البرقاني قال: ذكر لي عن أبي الحسن بن حجاج أنه كان يديم قراءة القرآن وكان له في كل يوم ختمة[3].

تعاطى علوم الحديث في سن مبكرة، حيث سمعه في سنة 324هـ[4] وزاد تحصيله لعلوم الحديث بعد اشتغاله في وراقته، واحتكاكه بأهله وأصحابه، فقد سمع الحديث من يزداذ بن عبد الرحمن الكاتب، ومحمد بن عبد الله المستعيني، وأحمد بن محمد بن الجراح الضراب، وأحمد بن علي بن العلاء الجوزجاني، والقاضي المحاملي، ومحمد بن مخلد، وابي العباس بن عقدة، وخلقا كثيراً نحوهم[5].

توفي في شعبان ودفن في الرصافة.

ابن قاج الوراق:

هو أحمد بن قاج بن عبد الله، كنيته أبو الحسن الوراق[6] كان من أكثر الناس سماعاً وأوسعهم كتاباً، كتب المصنفات الطوال والكتب الكبار - كما يقول الخطيب البغدادي[7].

ولد في المحرم من سنة 284هـ، وتوفي يوم الفطر من سنة 353هـ[8].

نقلت المصادر عنه بأنه كان كثير السماع، جيّد النقل، ولم يحدّث إلاّ بالشيء اليسير، قال الخطيب: رأيته ولم أسمع منه[9].

- احتك بعلماء الحديث في بغداد وسمع إبراهيم بن هاشم البغوي، وهارون بن علي المزوّق زنجويه وأحمد بن القطان، وإبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم المخرمي، وعلي بن إسحاق بن زاطيا، ومحمد بن جرير الطبري، ومحمد بن محمد الباغندي، وإبراهيم بن محمد الخنازيري، وابن أبي داود السجستاني، ومحمد بن حمدان الطرائفي، وأحمد بن محمد بن

(1 - 5) تاريخ بغداد 4/ 342 - الترجمة رقم (2171).

(6 - 9) تاريخ بغداد 4/ 355 - الترجمة رقم (2204).

مسعدة الفزارى، وأبا مزاحم الخاقاني، ومن في طبقتهم وبعدهم، روى عنه الدارقطني، وعبد الله بن عثمان ابن يحيى، وأبو الحسن بن رزقويه[1] وكان من الثقاة في الحديث.

جاء اسمه في سند الحديث عن ابن عباس في قول الله (أو أثارة من علم). قال: الخط[2].

قال الخطيب البغدادي: حدّثني عبيد الله بن أبي الفتح قال: سمعت أبا عبد الله بن بكير غير مرّة يذكر أن أحمد بن قاج الوراق ورث ثمانمائة دينار، أو سبعمائة، فاشترى بجميعها كاغدا في صفقة واحدة، ومكث سنين كثيرة يكتب في الحديث[3].

ابن يزيد الورّاق:

هو أحمد بن محمد بن إسحاق بن يزيد، كنيته أبو بكر، كان وراقاً لإبن أبي الدنيا[4].

لم يشر الخطيب إلى تاريخ ولادته أو وفاته، بل ذكر أنه حدّث عن إسحاق بن حاتم العلاف، وحميد بن الربيع، ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه، وأحمد بن عبد الله الكوفي، وأبي بكر بن أبي الدنيا وغيرهم، روى عنه محمد بن علي بن حبيش الناقد، ومحمد بن خلف بن حيان الخلال، وابن لؤلؤ الورّاق[5].

نقل عنه حديث أبي نقلة عن عبد الرحمن مؤذن المأمون جاء فيه شعراً جميلاً[6].

الناس في صور التمثال أكفاء ... أبوهم آدمُ والأم حواء
فان يكن منهم في أصله شرف ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم أنّهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاّء
وقدر كل امرىءٍ ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

أبو جعفر القراطيسي الوراق[7]:

هو أحمد بن محمد بن الحسين، وكنيته أبو جعفر القراطيسي[8]، بغدادي الأصل والسكن، لم يتوقف الخطيب عند مولده ووفاته، بل أشار إلى أنه حدّث عن هناد بن

(1 - 3) تاريخ بغداد 4/ 355 - الترجمة رقم (2204).

(4 - 6) تاريخ بغداد 4/ 391 - الترجمة رقم (2279).

(7) القراطيسي - بفتح القاف والراء المهملة وكسر الطاء: هذه النسبة إلى عمل القراطيس وبيعها، كما يقول السمعاني في الانساب 10/ 83 - 84 - مادة: القراطيسي، وهذه النسبة تنطبق على الوراقين، وفق تصنيفاتهم، لذلك أوردنا هذه الترجمة لهذا الوراق.

(8) تاريخ بغداد 4/ 430 - الترجمة رقم (2331).

السرّى، وأبي همام ابن شجاع. روى عنه عبد الصمد بن علي الطستي، وأبو بكر الإسماعيلي الجرجاني[1].

ورد اسمه في إسناد الحديث المروي عن ابن عباس: أن النبي ﷺ لمّا جاء إلى أبي بكر وهو يصلي، أخذ من حيث بلغ أبو بكر من القراءة[2].

ابن عبد الخالق الوراق:

هو أحمد بن محمد بن عبد الخالق، كنيته أبو بكر الوراق[3] كان واحداً من الثقاة المعروفين بالخير والصلاح والثقة، واختص بالوراقة لأبي همّام[4].

توفي سنة 309هـ وفق رواية علي بن عمر الحربي[5].

عاش في بغداد، وتعلم الحديث ومارس مهنة الوراقة فيه، وسمع أبا همام الوليد بن شجاع، وإبراهيم بن سعيد الجوهرى، ومحمد بن زنبور المكّي، وهارون بن عبد الله البزاز، والحسن بن يزيد المؤذن وغيرهم. روى عنه أحمد بن جعفر بن مسلم، وعلي بن محمد بن لؤلؤ بن المظفر وغيرهم[6].

قال هو عن نفسه: كانت لي بنت لها نحو عشر سنين مبتلاة، وكنت أتمنى موتها فماتت. قال: فرأيتها في النوم، وكأن القيامة قد قامت، وكأن صبياناً يأخذون بأيدي آبائهم فيدخلونهم الجنة، فقلت لبنتي: خذي بيدي أدخليني الجنة، قال: فقالت لي: لا، أنت كنت تتمنى موتي[7].

ابن ملوك الوراق:

هو أبو المواهب أحمد بن محمد بن عبد الملك بن ملوك البغدادي الوراق[8] كان من شيوخ الحديث اتخذه عِلماً له والوراقة صنعة ومعاش وهو بغدادي الأصل توفي ببغداد سنة 525هـ، وله 85 سنة كما يقول الذهبي[9]، وعلى هذا الأساس تكون سنة ولادته هي 440هـ سمع القاضي أبا الطيب الطبري وأبا محمد الجوهرى وحدث عنه أبو القاسم بن

(1) تاريخ بغداد 4/ 430 - الترجمة رقم (2331).
(2) نفس المصدر.
(3) تاريخ بغداد 5/ 56 - 57 - الترجمة رقم (2422).
(4 - 7) المصدر السابق 5/ 57.
(8 - 9) سير أعلام النبلاء 19/ : 586 - الترجمة رقم (335).

عساكر وعبد الخالق بن هبة الله البندار، وعمر بن طيرزد وجماعة آخرين وكان عنده جزء الغطريفي[1].

أبو الفضل الورّاق:

هو أحمد بن محمد بن علي بن سعد، كنيته أبو الفضل الوراق[2].

لم تذكر المصادر تاريخ ولادته ولا وفاته، بل أشارت إلى أنه حدّث عن إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد الختلي، روى عنه عبد الله بن عدي الجرجاني، وذكر أنه سمع منه بسرّ من رأى[3].

ابن توتو الوراق:

هو أحمد بن محمد بن يعقوب بن عبد الله، كنيته أبو الحسين الوراق البغدادي، المعروف بابن توتو[4].

بغدادي الأصل، اشتغل بمهنة الوراقة، واختص بوراقة الأحاديث والتفرغ لها، وضمن عادة الأوائل في طلب الحديث، فإنه شد الرحال إلى دمشق وحدّث بها عن محمد بن أحمد بن هارون العسكري، وجعفر بن محمد بن نصير الخالدي، روى عنه تمام بن محمد بن عبد الله الرازي[5].

لم يذكر الخطيب تاريخ ولادته أو وفاته، وترك الأمر مفتوحاً فهو لم يخبرنا هل استقر به المقام في دمشق، أم أنه عاد إلى بغداد[6].

ابن ميدان الوراق:

هو أحمد بن محمد بن يعقوب بن عبد الله بن ميدان، كنيته أبو بكر الوراق الفارسي[7].

نقل الخطيب أنه توفي سنة 390هـ[8] ولم يذكر تاريخ ولادته، نظراً لكونه فارسي

---

(1) نفس المصدر - والغطريفي هو الحافظ محمد بن أحمد بن الحسين الغطريفي، ترجمتهُ في سير أعلام النبلاء 16/ 354 - الترجمة رقم (235).

(2 - 3) تاريخ بغداد 5/ 68 - الترجمة رقم (2443).

(4 - 6) تاريخ بغداد 5/ 126 - الترجمة رقم (2549).

(7) تاريخ بغداد 5/ 126 - 127 - الترجمة رقم (2550).

(8) المصدر السابق 5/ 127.

الأصل، وهذا يعني أنه من الوافدين على بغداد والمقيمين فيها، وبها كانت وفاته. وقد نزل في قطيعة الربيع وهي إحدى المحال المعروفة ببغداد.

أخذ عليه ضعف الرواية التي يتحدث بها. قال الخطيب: حدّثني أحمد بن علي المحتسب قال: أخبرنا محمد بن أبي الفوارس قال: كان أبو بكر الفارسي الوراق ضعيفاً جداً فيما يدعي عن ابن منيع وكان سماعه من المتأخرين لا بأس به، وأضاف: وكان رديء المذهب أيضاً[1] فيما أثنى عليه العتيقي بقوله: كان ثقة.[2].

ورد اسمه في سند حديث تواتر نقله عن عائشة. أن رسول الله ﷺ قال: «لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين»[3].

النوشري الوراق:

هو أحمد بن منصور بن محمد بن حاتم، كنيته أبو بكر الوراق المعروف بالنوشري[4].

واحد من ثقاة المحدثين، ولد ببغداد سنة 308هـ كما يعترف هو بذلك[5] فيما ذكر ابن حسنون النرسي، أن وفاته كانت يوم الأحد ودفن يوم الاثنين من نصف المحرم سنة 388هـ[6].

تتلمذ على يد الكبار من علماء الحديث، واختص به وراقة وعلما، فقد سمع يحيى بن محمد بن صاعد وأحمد بن سليمان الطوسي، وإبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، وأحمد بن علي بن العلاء الجوزجاني، والحسين بن إسماعيل المحاملي، ومحمد بن مخلد الدورى، ومن في طبقتهم[7].

البجلي الوراق:

هو أحمد بن نصر بن نصر بن حمّاد بن عجلان، المكنى بأبي جعفر البجلي الوراق[8].

توفي سنة 270هـ[9] وقد كانت إقامته في بغداد، وبها تعلم الحديث. ودرسه على يد الشيوخ الكبار، قال الخطيب: حدّث عن أبيه، وعن بشر بن الحارث. روى عنه محمد بن

(1 - 3) تاريخ بغداد 5/ 127.

(4 - 7) تاريخ بغداد 5/ 155 - الترجمة رقم (2594).

(8) تاريخ بغداد 5/ 180 - 181 - الترجمة رقم (2624).

(9) المصدر السابق 5/ 181.

مخلد الدوري، وعبيد الله بن عبد الرحمن السكرى، إلاّ أن عبيد الله سمّاه محمدا[1].

ورد اسمه في متن إسناد حديث مروى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يترك الله أحداً يوم الجمعة إلا غفر له»[2].

ابن الخليل الوراق:

هو أحمد بن يونس بن بكر بن الخليل، كنيته أبو بكر الوراق[3] هكذا نسبه أبو بكر الشافعي في بعض رواياته عنه، كما يقول الخطيب[4] وروى عنه عبد الصمد بن الطستي، والشافعي أيضاً[5] ولم يزد في الترجمة على ذلك.

ابن العباس الوراق:

هو إسماعيل بن العباس بن عمر بن مهران بن فيروز بن سعيد، كنيته أبو علي الوراق[6].

ولد سنة 240هـ، ومات وهو في طريق عودته من الحج إلى بغداد، فحمل من هناك ودفن في بغداد سنة 323هـ[7].

كان واحداً من ثقاة علوم الحديث، ومشهور بين المحدثين، قال الخطيب: حدّثني الحسن بن أبي طالب، أن يوسف بن عمر القواس ذكره في جملة شيوخه الثقاة[8].

سمع إسحاق بن بن إبراهيم البغوي، والزبير بن بكار، والحسن بن عرفه، وبشر بن مطر وعمر بن شبه، وعلي بن حرب، وأحمد بن منصور الرمادي، ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه، وإبراهيم ابن هاني، وخلقا من هذه الطبقة[9] وهؤلاء من المشهورين بالحديث.

كما أن الذين سمعوا منه أو رووا عنه بنفس شهرة الذين أخذ عنهم أو سمع منهم، يقول الخطيب روى عنه ابنه محمد، وأبو الحسن الدارقطني، وأبو حفص بن شاهين، ويوسف القواس، وأبو طاهر المخلص، وأبو حفص الكتاني وغيرهم[10].

ابن معبد الورّاق:

هو جعفر بن أحمد بن معبد الوراق[11] ورّاق بغدادي، تعاطى المهنة عن علم ودراية

(1 - 2) تاريخ بغداد 5/ 180.

(3 - 5) تاريخ بغداد 5/ 224 - الترجمة رقم (2700).

(6 - 10) تاريخ بغداد 6/ 300 - الترجمة رقم (3339).

(11) تاريخ بغداد 7/ 187 - الترجمة رقم (3638).

بالحديث وعلومه، وزادته إتساعاً وفطنة، فقد صاحب وساير أكابر المحدثين وحدّث عنهم.

سكن بغداد وبها عاش وتوفي سنة 280هـ. سمع الحديث من جل العلماء وحدّث عن عاصم بن علي، ومسدد، ومحمد بن الصباح الدولابي، وعبيد الله القواريري، وحاجب بن الوليد، روى عنه محمد بن مخلد، وأبو عمرو بن السماك، وعبد الصمد الطستي، وأبو بكر الشافعي[1].

جاء اسمه في سند حديث مروى عن بلال قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بصلاة الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهي تكفير للسيئات، منهاة عن الاثم، مطهرة للداء عن الجسد»[2].

الوراق الواسطي:

هو جعفر بن محمد الوراق الواسطي[3] واحد من علماء الحديث البغداديين، أصله من واسط، واستقر به المقام في بغداد، فاختلط بعلمائها المحدثون وأخذ عنهم الحديث سماعاً وتدويناً، وتعاطى الوراقة في هذا العلم، وصف بأنه كان ثقة[4].

حدّث ببغداد عن عبيد الطنافسي، وخالد بن مخلد القطواني، وعثمان بن الهيثم المؤذن، وعامر بن أبي الحسين، ومحمد بن جماد الضرير، وعون بن سلام الكوفي، والمثنى بن معاذ العنبري، روى عنه أبو بكر بن أبي داود السجستاني، والقاضي المحاملي، وإبراهيم بن محمد نفطويه النحوي، ومحمد بن مخلد الدورى، وإسماعيل بن محمد الصفار[5].

ورد اسمه في سياق سند حديثين، الأول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة» والثاني عن ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «من أكل مع قوم تمراً، فأراد أن يقرن فليستأذنهم»[6].

---

(1) تاريخ بغداد 7/ 187 - الترجمة رقم (3638).

(2) نفس المصدر.

(3) تاريخ بغداد 7/ 179 - الترجمة رقم (3625).

(4) المصدر السابق 7/ 180.

(5) نفس المصدر 7/ 179.

(6) نفسه 7/ 180.

قال الخطيب: قرأت في كتاب محمد بن مخلدة - بخطه - سنة خمس وستين ومائتين مات فيها جعفر بن محمد الوراق الواسطي المفلوج في شهر ربيع الأول[1].

جعفر الوراق:

هو جعفر بن محمد، كنيته أبو محمد الوراق[2] كان مصاحباً لأبي عبيد القاسم بن سلاّم، تعاطى الحديث، واشتغل بالوراقة بنفس العلم، وحصر اهتمامه فيه، مات في سنة 171هـ كما يقول ابن مخلد[3]. روى عنه محمد بن مخلد، وغيره، ولم يطل الخطيب في ترجمته[4].

المؤدب البلخي الوراق:

هو جعفر بن محمد بن علي، يكنى أبي القاسم الوراق، ثم المؤدب البلخي[5] أصله من مدينة بلخ بخراسان، وسكن بغداد، وتأدّب بها واكتسب المعارف والعلوم واستهوته علوم الحديث، فتفرغ لها، وأوقف عمله في الوراقة على الحديث.

توفي سنة 283هـ[6] في بغداد، بعد أن عاش بها، وسمع أجلّة الشيوخ والمحدثين، وحدّث ببغداد عن سهل بن عثمان العسكري، ومحمد بن حميد الرازي، وروى عنه محمد بن مخلد، وعبد الصمد الطستي، وذكر الطستي أنه سمع منه في قنطرة البردان[7].

الوراق الحنبلي:

هو الحسن بن حامد بن علي بن مروان، كنيته أبو عبد الله الوراق الحنبلي، قال الخطيب البغدادي: قال لي أبو يعلي بن الفرّاء: كان مدرس أصحاب أحمد (بن حنبل)[8]

(1) ذات الموضع.
(2) تاريخ بغداد 7/ 180 - الترجمة رقم (3627).
(3) المصدر السابق 7/ 181.
(4) نفس المصدر.
(5) تاريخ بغداد 7/ 190 - الترجمة رقم (3644).
(6) المصدر السابق.
(7) نفسه - وقنطرة البردان = محلة ببغداد معروفة، بناها رجل يقال له السرّى بن الحطم صاحب الحطمية قرية قرب بغداد - أنظر ياقوت الحموي/ معجم البلدان 4/ 405 - مادة (قنطرة) طبعة دار صادر بيروت.
(8) تاريخ بغداد 7/ 303 - الترجمة رقم (3816).

وفقيههم في زمانه، بغدادى المولد والمنشأ، واحد من أكابر العلماء، حنبلي المذهب، كما هو واضح، تخصص كلياً لعلوم الحديث والفقه والسنة، وعرف بهذه العلوم في الأوساط العلمية ببغداد وغيرها.

توفي بطريق مكة، وهو قاصدها سنة 403هـ بقرب واقصة[1].

تخصصه المعرفي بعلوم الحديث والسنّة، أهلّه لأن يكون مؤلفاً بارزاً، فقد ترك لأصحابه مصنفات عظيمة منها[2]:

1 - كتاب الجامع - أربعمائة جزء - تشتمل على اختلاف الفقهاء.

2 - مصنفات في أصول السنة وأصول الفقه.

كان معضما في النفوس، متقدماً عند السلطان والعامة[3].

كان من رجال سند حديث مروى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة الاغتياب أن تستغفر لمن اغتبته»[4].

ابن الهرش الوراق:

هو الحسن بن سعيد بن الحسن بن يوسف بن عبد الرحمن، كنيته أبو القاسم الوراق ويعرف بابن الهرش[5]. قال الخطيب: هو مروزي[6] الأصل[7] سكن بغداد، وتعرّف إلى أهلها واستوطنها، وبها مات سنة 323هـ[8].

حدّث عن إسحاق بن إبراهيم البغوي، وإبراهيم بن هاني النيسابوري، ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه روى عنه أبو الحسن الدارقطني، وأبو حفص بن شاهين، وأبو القاسم بن الثلاّج، وكان ثقة[9].

ابن الخطّاب الوراق:

هو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن الحسن بن الخطاب بن جبير الوراق[10].

واحد من ثقات الحديث ببغداد ومن المشتغلين به وراقةً وعلما، حدّث عن محمد بن

(1 - 4) تاريخ بغداد 7/ 303 - الترجمة رقم (3816).

(5) تاريخ بغداد 7/ 326 - الترجمة رقم (3838).

(6) مروزي - نسبة إلى مرو الروذ - راجع ياقوت - معجم البلدان 5/ 112 مادة (مرو).

(7 - 9) تاريخ بغداد 7/ 326.

(10) تاريخ بغداد 7/ 387 - الترجمة رقم (3919).

عثمان بن أبي شيبة وإبراهيم بن شريك الكوفيين، ومحمد بن محمد الباغندي[1] أهملت المصادر تاريخ ولادته ووفاته[2].

ورد اسمه في سند حديث روى عن عطية عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مكتوب على باب الجنة لا إله إلا الله محمد رسول الله، علي أخو رسول الله، قبل أن تخلق السموات والأرض بألفي عام»[3].

ابن زكويه الورّاق:

هو الحسن بن علي بن عبد الله بن حمّاد بن زكويه، كنيته أبو سعيد الوراق[4].

لم يتوقف الخطيب عنده طويلاً، قال عنه: ذكر ابن الثلاّج أنه حدّثه عن يحيى بن هارون الأهوازي[5].

ابن حمّاد الوراق:

هو الحسن بن علي بن حمّاد الوراق، حدّث عن إسحاق بن داود بن سليمان، روى عنه أبو حفص بن شاهين[6] بهذه الترجمة القصيرة ذكره الخطيب البغدادي.

أبو علي الوراق:

هو الحسين بن جعفر بن محمد، كنيته أبو علي الوراق[7] واحد من المشتغلين بالوراقة والمختصين بعلوم الحديث، لم يذكر الخطيب تاريخ مولده ووفاته، بل أشار إلى أنه حدّث عن الهيثم بن سهل التستري، روى عنه يوسف بن عمر القواس، ونقل خبراً عن أبي بشر سهل التستري قال: رأيت حماد بن زيد راكباً على حمار، فلما جاء مار مار رويدا[8] قام إليه شاب يقال له عمار القرشي ليأخذ من كتابه، فقال له: مَهْ. قال: سبحان الله، تنفّس علي بالأجر قال: لأحدثنك، فقال عمارة: حدثني والدي قال، حدثني والدي عن جدي عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يستخف بهم، إلاّ منافق بيّن نفاقه، ذو شيبة في الاسلام، ومعلم الخير، وإمام عادل»[9].

(1 - 3) تاريخ بغداد 7/ 387 - الترجمة رقم (3919).

(4 - 5) تاريخ بغداد 7/ 386 - الترجمة رقم (3914).

(6) تاريخ بغداد 7/ 386 - الترجمة رقم (3915).

(7) تاريخ بغداد 8/ 27 - الترجمة رقم (4074).

(8 - 9) هكذا وردت - راجع تعليقات الناشر على هامش الصفحة بترجمة المومأ إليه، نفس المصدر.

العنبرى الوراق:

هو الحسين بن جعفر بن محمد بن حمدان بن المهلب، كنيته أبو عبد الله العنبري، الفقيه الوراق الجرجاني[1].

أصله من جرجان، وقدم بغداد، وجال الامصار الإسلامية كخراسان والشام ومصر، وحدّث بها[2].

يظهر أنه استوطن بغداد، رغم أن المصادر لم تذكر ذلك سوى أن الخطيب البغدادي ذكر أن التنوخي (علي بن المحسن) حدّثه وذكر له أنه سمع من العنبرى الوراق ببغداد في سنة 374هـ[3].

ولم ترد أي اشارة أخرى إلى تاريخ وفاته والمكان الذي مات فيه.

تعاطى الوراقة لأجل علوم الحديث، وحدّث ببغداد عن أحمد بن محمد بن مالك، ومحمد بن الحسن بن سيرونه، ومحمد بن حمدون المستملي، وإسحاق بن إبراهيم البحتري، وأحمد بن محمد الصارم الجرجانيين، ومحمد بن يعقوب الأخرم، ومحمد بن القاسم العتكي النيسابوريين وعن غيرهم من الخراسانيين ومن أهل الشام ومصر[4].

ورد اسمه في سند الحديث المروى عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ليس الخبر كالمُعاينة»[5].

السمرقندي الوراق:

هو الحسين بن عبد الله بن شاكر، كنيته أبو علي السمرقندي[6] أصله من سمرقند وسكن بغداد، وبها عاش وتوفي سنة 283هـ[7]، خالط أهل بغداد من علماء الحديث واختص بالوراقة لداود بن علي الاصبهاني، الفقيه الظاهري، قال عنه نقاد الحديث، أنه كان فاضلاً ثقة، كثير الحديث، حسن الرواية.

---

(1) تاريخ بغداد 8/ 27 - الترجمة رقم (4076).
(2) المصدر السابق 8/ 27 - 28.
(3) نفس المصدر 8/ 28.
(4) نفسه.
(5) ذات المكان.
(6) تاريخ بغداد 8/ 58 - الترجمة رقم (4131).
(7) المصدر السابق 8/ 58 - 59.

حدث عن إبراهيم بن المنذر الحزامي، ومحمد بن مهران الجمال، ومحمد بن رمح المصري، وأحمد بن محمد عون القواس المقرىء المكي، ومحمد بن يحيى بن أبي عمر العدني وأبي حمة محمد بن يوسف اليماني، وأحمد بن حفص بن عبد الله النيسابوري.

روى عنه محمد بن محمد بن سليمان الباغنذي، ومحمد بن مخلد الدوري، وأبو بكر الشافعي[1]، ورد اسمه في سند الحديث المروي عن الزهري، قال: حدثني عباد بن تميم عن أبيه، قال: رأيت رسول الله ﷺ مستلقياً على ظهره، رافعاً إحدى رجليه على الأخرى[2].

النهشلي الوراق البصري:

هو حماد بن الحسن بن عنبسة، كنيته أبو عبد الله النهشلي الوراق البصري[3].

أصله من البصرة، وعلق نسبه بها، سكن سرّ من رأى، وتعاطى علوم الحديث علماً ووراقة، واحتك بالعلماء الكبار في بغداد وسامراء، قالت المصادر عنه أنه ثقة صدوقاً أميناً، مات في سنة 266هـ[4].

حدّث بسامراء عن أزهر بن سعد السمان، ومحمد بن بكر البرساني، وعمر بن حبيب العدوي، وأبي داود الطيالسي، وأبي بكر الحنفي، وحماد بن مسعدة، وأبي عامر العقدي، وروح بن عبادة، وأبي عاصم النبيل، وابي حذيفة النهدي، روى عنه موسى بن هارون، ويحيى بن صاعد، وأبو بكر النيسابوري، ومحمد بن أحمد بن أبي الثلج، ومحمد بن مخلد، ومحمد بن جعفر المطيري، وقال ابن أبي حاتم: سمعت منه بسامراء وهو صدوق ثقة[5].

ورد اسمه في سند حديث مروى عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه»[6].

الوراق الكوفي:

هو سعيد بن محمد، كنيته أبو الحسن الوراق الكوفي[7].

(1) تاريخ بغداد 8/ 58 - 59.
(2) نفسه 8/ 59.
(3) تاريخ بغداد 8/ 158 - الترجمة رقم (4261).
(4 - 6) المصدر السابق 8/ 158 - 159.
(7) تاريخ بغداد 9/ 71 - 73 - الترجمة رقم (4656).

كوفي الأصل والمولد، سكن بغداد وعاش بها، وبها مات، ولم تشر المصادر إلى سنة وفاته[1].

تظهر الأحاديث النبوية التي يرويها بأنه شيعي الهوى، منحازاً لهم، لذلك أضعفه المحدثون الكبار، واعتبروه غير ثقة، وليس بشيء وضعيف الخ[2].

مارس الوراقة وبها عرف وتعاطى علوم الحديث ببغداد وبها حدّث عن يحيى بن سعيد الأنصاري، وعلي بن الحزّور، ومحمد بن عمر، وفضيل بن مرزوق، وغيرهم.

روى عنه، أحمد بن حنبل وإبراهيم بن سعيد الجوهري ويعقوب بن إبراهيم الدروقي والحسن بن عرفة وغيرهم[3].

ورد اسمه في إسناد حديث رواه عنه أحمد بن حنبل متناقلاً عن أبي مريم الثقفي يقول: سمعت عمار بن ياسر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي عليه السلام: «يا علي طوبى لمن أحبّك وصدق فيك وويل لمن أبغضك وكذب فيك»[4].

سلم بن إبراهيم الوراق[5]:

ورّاق ومحدّث، عاش في بغداد، واختلط بشيوخها، حدّث عن عكرمة بن عمار، وإبّان بن يزيد العطار، ومبارك بن فضله، وسعيد بن محمد الزهري، روى عنه محمد بن إسحاق بن صالح الوزان، والحسن ابن داود بن مهران المؤدب، ومحمد بن غالب التمتام، وقال بن أبي حاتم الرازي: سمع منه أبي ببغداد في الرحلة الأولى[6].

لم يشر الخطيب إلى تاريخ ولادته ووفاته، بل نقل عن المحدثين والحفاظ، رأيهم فيه، فقد وصفه يحيى بن معين بأنه كذاب ولم يرض عنه وتكلم فيه[7] بالرغم من أن الذين أخذوا عنه ليسوا قليلي الشأن.

ورد اسمه في سند حديث عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أحسنوا إلى الماعز وامسحوا عنها الرغام، فإنها من دواب الجنة، ما من نبي إلا وقد رعى» قالوا: وأنت، قال: «وأنا قد رعيت الغنم»[8].

---

(1) تاريخ بغداد 9/ 71 - 73 - الترجمة رقم (4656).
(2) نفس المصدر 9/ 71 - 72.
(3) نفسه 9/ 71.
(4) ذات المكان 9/ 72.
(5 - 8) تاريخ بغداد 9/ 145 - الترجمة رقم (4756).

الواعظ الورّاق:

هو شجاع بن جعفر بن أحمد بن خالد، كنيته أبو الفوارس الوراق الواعظ، كان يزعم أنه من ولد أبي أيوب الأنصاري صاحب الرسول ﷺ[1].

لم تشر المصادر إلى تاريخ ولادته، بل أشارت إلى أنه توفي سنة 353هـ[2] وذكرت أنّه حدّث عن عباس بن محمد الدوري، ومحمد بن إسحاق الصاغاني، وعبد الله بن شبيب المكي، ومحمد بن عبيد الله بن المنادي وغيرهم، وروى عنه أبو حفص الكتاني وغيره[3].

ورد اسمه في سند حديث مروى عن أبي هريرة قال: قال رسول ﷺ «سبعة يُظلّهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلاّ ظله، أمام مقسط» وذكر تمام الحديث، قال أبو الفوارس: ليس عندي عن عباس غير هذا الحديث، إنما حفظته في صغرى[4]. كما رويت عنه أسانيد أخر لأحاديث نبوية[5].

مغلي الورّاق:

هو الطيب بن علي، وكنيته أبو القاسم التميمي الوراق الملقّب بمغلي[6].

أصفح الخطيب عن ذكر تاريخ ولادته ووفاته، وقال عنه: سمع محمد بن جعفر النوفلي، وابا عبد الله نفطويه وغيرهما، روى عنه أبو بكر بن شاذان، وأبو عبيد الله المرزباني[7].

نقل عنه بتواتر مسند عن الأصمعي قال: خطبنا أعرابي بالبادية، فحمدَ الله وأثنى عليه، ووحّده واستغفره، وصلى على نبيه، فبلّغ في إيجاز ثم قال: أيها الناس، إن الدنيا دار بلاغ والآخرة دار قرار، فخذوا لمقركم من ممركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم، في الدنيا أنتم ولغيرهما خلقتم، أقول قولي هذا واستغفر الله، والمصلى عليه رسول الله ﷺ والمدعو له الخليفة والأمير جعفر بن سليمان[8].

ابن غالب الوراق:

هو العباس بن غالب الوراق[9] نشأ ببغداد وتعلم بها علوم الحديث، واختلط بالعلماء

(1) تاريخ بغداد 9/ : 253 - الترجمة رقم (4829).

(2 - 4) المصدر السابق 9/ 254.

(5) راجعها في نفس المكان من المصدر المذكور.

(6 - 8) تاريخ بغداد 9/ 363 - الترجمة رقم (4929).

(9) تاريخ بغداد 12/ 136 - الترجمة رقم (6587).

وأخذ عنهم، وقد عدّه المؤرخون والعلماء أنه كان ثقة[1].

تعاطى علوم الحديث، علماً ووراقة، ولازم أهله في بغداد حتى سنة 233هـ[2].

لازم وكيعاً وسمع منه الحديث، حتى أنه من مات كان عنده لوكيع (كتاب المصنف)[3] وهذا الأمر يوضح مدى الملازمة بين الطرفين، روى عنه محمد بن إسحاق الصاغاني، ومحمد بن عبدك القزاز، ويزيد بن الهيثم البادا، وأحمد بن بشر المرثدي.

ورد اسمه في سند الحديث المروى عن سمرة: أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين (سبح اسم ربك الاعلى) و(هل أتاك حديث الغاشية)[4].

عبد الله الوراق:

هو عبد الله بن أبي سعيد، كنيته أبو بكر الوراق[5] حدّث عن محمد بن أحمد بن عثمان بن العنبر المروزي، وعمر بن جعفر البصري، قال الخطيب: حدّثنا عنه محمد بن عمر بن بكير المقرىء، كان يفهم ويحفظ[6] ولم يضف شيئاً آخر لترجمته.

أبو محمد الوراق:

هو عبد الله بن الفضل بن جعفر، كنيته أبو محمد الوراق[7]. كان من أهل دير العاقول ونزل ببغداد، واشتغل بالوراقة وعلوم الحديث، وكان يورق لعبد الكريم بن الهيثم، لم يذكر الخطيب تاريخ ولادته ووفاته، بل ذكر أنه حدث ببغداد عن علي بن داوود القنطري وأبي البختري عبد الله بن محمد بن شاكر، وأبي عوف البزوري، والحسين بن محمد بن أبي معشر، وعلي بن سهل بن المغيرة، وعبد الكريم بن الهيثم وغيرهم أحاديث مستقيمة، روى عنه موسى بن عيسى بن عبد الله السراج، وأبو قاسم بن الثلاج، وأحمد الفرج بن الحجاج[8].

ورد اسمه في سند الحديث المروى عن فاطمة إبنة علي قالت: حدثتني أسماء ابنة عميس أنها سمعت النبي ﷺ يقول لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس بعدي نبي» لفظ حديث أبي البختري، ذكر ابن الثلاج، أنه سمع من هذا الشيخ في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة في سوق السلاح[9].

(1 - 4) تاريخ بغداد 12/ 136 - الترجمة رقم (6587).

(5 - 6) تاريخ بغداد 9/ 473 - الترجمة رقم (5104).

(7 - 9) تاريخ بغداد 10/ 43 - الترجمة رقم (5171).

الورّاق الحربي:

هو عبدالله بن محمد بن سهل، كنيته أبو محمد الورّاق الحربي[1]، حدّث عن زياد بن أيوب الطوسي، روى عنه إبن المنادي في كتاب الملاحم[2] ولم يزد الخطيب على ذلك.

البغوي الورّاق:

هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان بن سابور بن شاهنشاه، كنيته أبو القاسم ابن بنت أحمد بن منيع[3]، ولد ببغداد سنة 213هـ وقيل 214هـ، وهو بغوي الأصل[4]. واحد من كبار المحدثين في بغداد، سمع من يحيى بن معين، ورأى أبا عبيد ولم يسمع منه.

عمّر طويلاً، فقد عاش 103 سنة، وتوفيّ سنة 317هـ، ودفن في مقبرة باب التبن ببغداد ومات وهو صحيح السمع والبصر والأسنان، ويطأ الإماء[5].

يقول هو عن نفسه: قرأت بخط جدّي أحمد بن منيع، ولد أبو القاسم ابن بنتي يوم الاثنين (في شهر رمضان سنة أربعة عشرة ومائتين) وأوّل ما كتبت الحديث سنة خمس وعشرين ومائتين عن إسحاق بن إسماعيل الطالقاني[6].

سمع ابن الجعد وخلف بن هشام البزار ومحمد بن عبد الوهاب الحارثي، وأبا الأحوص وآخرين كبار، وكان ثقة ثبتا، مكثرا فهما عارفا[7].

قال عنه ابن خلاّد: لا يعرف في الإسلام محدّث وازى عبد الله بن محمد البغوي في قدم السماع[8].

اجتاز أبو القاسم البغوي بنهر طابق على باب مسجد فسمع صوت مستملٍ فقال: من هذا؟ فقالوا: ابن صاعد، فقال: ذاك الصبي؟ فقالوا: نعم، فقال والله لا أبرح من موضعي

---

(1) تاريخ بغداد 10/ 107 - الترجمة رقم (5230).
(2) المصدر السابق.
(3) ابن الجوزي - المنتظم 6/ 227 - 230 - الترجمة رقم (361).
(4) المصدر السابق 6/ 227.
(5) المصدر نفسه 6/ 230.
(6) نفسه 6/ 230.
(7) نفسه 6/ 230.
(8) نفسه 6/ 228.

حتى أملي من هاهنا، فصعد الدكّة وجلس، ورآه أصحاب الحديث، فقاموا وتركوا ابن صاعد، ثم قال: حدثنا أحمد بن حنبل الشيباني، قبل أن يولد المحدثون، حدثنا طالوت بن عباد، قبل أن يولد المحدثون، حدثنا أبو نصر التمّار، قبل أن يولد المحدثون، فأملى ستة عشر حديثاً، عن ستة عشر شيخاً، ما كان في الدنيا من يروى عنهم غيره[1].

قال أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني: كان أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي وراقاً في ابتداء عمره يورّق على جدّه وعمّه وغيرهما[2].

ومن مواقفه المعرفية في الحديث أن أغفل أحد أسماء أسانيده، وأسنده إلى غيره، فشنّع عليه الورّاقون أصحاب الحديث، فاعتذر عنه وصحّحه، وفق الرواية التالية التي نقلها ابن الجوزي، قال: أخبرنا أبو منصور القزاز، أخبرنا أحمد بن عليّ بن ثابت قال: حدّثني العلاء بن أبي المغيرة الاندلسي، أخبرنا علي بن بقاء الوراق، أخبرنا عبد الغني بن سعيد الأزدي، قال: سألت أبا بكر محمد بن علي النقاش: تحفظ شيئاً مما أخذ على ابن بنت أحمد بن منيع؟ فقال لي: كان غلط في حديث عن محمد بن عبد الوهاب عن شهاب، عن أبي إسحاق الشيباني، عن نافع، عن ابن عمر، فحدّث به عن محمد بن عبد الوهاب، وإنما سمعه من إبراهيم بن هاني، عن محمد بن عبد الوهاب، فأخذه عبد الحميد الورّاق بلسانه ودار على أصحاب الحديث، وبلغ ذلك أبا القاسم ابن بنت أحمد بن منيع، فخرج الينا يوماً، فعرّفنا أنه غلط نيه، وأنه أراد أن يكتب: حدّثنا إبراهيم بن هاني، فمرّت يده على العادة، فرجع عنه، قال أبو بكر ورأيت فيه الانكسار والغم، وكان ثقة - رحمه الله[3].

أبو الفضل الشيباني الوراق:

هو عبد المؤمن بن عبد الغالب بن محمد بن طاهر بن خليفة بن محمد بن حمدان الشيباني، كنيته أبو الفضل الوراق[4].

ولد سنة 517هـ، وتوفي ببغداد سنة 591هـ ودفن بباب حرب[5]. كان من أهل النصرية ببغداد - الكرخ - ثم إنتقل إلى الجانب الشرقي - الرصافة -.

---

(1) المنتظم 6/ 228.
(2) المصدر السابق 6/ 229.
(3) المنتظم 6/ 229 - 230.
(4) ابن النجار/ ذيل تاريخ بغداد 1/ 183 - الترجمة رقم (89) طبعة حيدر أباد 398 اهـ/ 1978م.
(5) المصدر السابق 1/ 184.

سمع أبا بكر محمد بن عبد الباقي البزّاز، وأبا الحسن بن عبيد الله بن الزغواني، وابا القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر السمرقندي، وأبا الفضل محمد بن عمر الباغبان الأصبهاني وغيره، سمع منه الكثير.

ورد اسمه في مستهل سند حديث نبوي مروى عن أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قال: قلت: يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه»[1].

الصيرفي الوراق:

هو عبد الرحمن بن أبي العباس الأثرم، واسمه[2] محمد بن أحمد بن أحمد بن حمّاد، وكنيته عبد الرحمن وأبا محمد الوراق، ويعرف بالصيرفي[3].

نزل البصرة، وحدّث بها عن محمد بن جرير الطبري، روى عنه القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي[4]. ولم يضف الخطيب على ذلك في ترجمته.

أبو الحسن الوراق البغدادي:

هو عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن أحمد الوراق، كنيته أبو الحسن[5].

أصله من خراسان، ونشأ في بغداد وتعلم بها مهنة الوراقة ورحل عنها إلى مصر ودخلها سنة 315هـ واتخذها مسكناً له، وبها توفي سنة 345هـ[6].

ذكر ابن يونس في كتاب الغرباء، قيل عنه: كان يفهم الحديث، وكتب عنه شيء يسير مذاكرة، وكان يورق على جماعة من شيوخ مصر، وكان رجلاً صالحاً وله عقب بمصر[7].

عبد الملك بن الحسين الوراق:

قال عنه ابن النجار: ذكر أبو طاهر أحمد بن الحسين الكرمي في «تاريخه» ونقلته من

---

(1) نفس المصدر 1/ 183 - 184.
(2) هكذا أوردها الخطيب في ترجمته - تاريخ بغداد 10/ 297 - الترجمة رقم (5435).
(3) المصدر السابق - نفس المكان.
(4) نفس المصدر.
(5) تاريخ بغداد 10/ 455 - 456 - الترجمة رقم (5620).
(6) المصدر السابق 10/ 456.
(7) المصدر السابق.

خطه، أنه مات في يوم الجمعة لعشرين بقين من شهر رمضان سنة 470هـ ودفن من يومه بباب حرب[1]. وأنه لم يزد على ذلك شيء.

ابن أبي الفرج الوراق:

هو عبد الواحد بن رضوان بن عبد الواحد بن شنيف بن أبي محمد بن أبي الفرج الوراق[2].

كان من أهل دار القز ببغداد، سمع أبا الفتح مسعود بن محمد بن شنيف، وأخاه أبا الفضل أحمد بن محمد ودهبل، ولاحق ابني علي بن منصور بن كارة.

قال ابن النجار: كتبت عنه، وكان حسن الأخلاق، لا بأس به[3].

ولد سنة 449هـ وتوفي سنة 531هـ ودفن بباب حرب[4].

ورد أسمه في سند حديث نبوى مروى عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يصلي الركعتين قبل صلاة الفجر يخففهما حتى أقول: إقرأ فيهما بفاتحة الكتاب»[5].

ابن خشيش الوراق:

هو عبد الواحد بن علي بن محمد بن أحمد بن خشيش، كنيته أبو القاسم الوراق[6].

أحد المعروفين ببغداد بالحديث والوراقة، سمع البغوي وابن صاعد، قال الخطيب: كان ثقة، ولد سنة 281هـ وتوفي سنة 377هـ[7].

ابن نافع الورّاق:

هو عبد الوهاب بن عبد الحكم، ويقال ابن الحكم بن نافع، كنيته أبو الحسن الوراق[8] بغدادي، من الجانب الغربي/ الكرخ/ وبه عاش وحدّث وتعاطى الوراقة والحديث، كانت وفاته ببغداد سنة 251هـ ودفن بباب البردان[9].

---

(1) ذيل تاريخ بغداد 1/ 38 - طبعة حيدر أباد 1398هـ/ 1978م.
(2) ابن النجار - ذيل تاريخ بغداد 1/ 235 - الترجمة رقم (129) طبعة حيدر أباد 1398هـ/ 1978م.
(3) المصدر السابق.
(4) نفس المصدر 1/ 236.
(5) نفسه 1/ 236.
(6 - 7) تاريخ بغداد 11/ 9 - الترجمة رقم (5665).
(8) تاريخ بغداد 11/ 25 - 28 - الترجمة رقم (5693).
(9) المصدر السابق 11/ 27.

وصفته المصادر بأنه كان من الرجال الصالحين، والثقاة في الحديث، تميّز منسكه الحياتي في الجِدّة والرصانة، وعرف بين أصحاب الحديث وأهله بذلك.

سمع يحيى بن سليم الطائفي وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي داود، ومعاذ بن معاذ العنبري، وأنس بن عياض الليثي، روى عنه ابنه الحسن، وأبو داود السجستاني، وأبو بكر بن أبي الدنيا وأبو القاسم البغوي، وعبد الله بن أبي داود، ويحيى بن صاعد، والقاضي المحاملي[1] ووصف بالزهد والورع.

ورد اسمه في سند الحديث المروى عن أبي سلمة قال: أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، المراء في القرآن كفر - ثلاث مرات - ما عرفتهم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»[2].

نقل الخطيب البغدادي عنه، أنه حدّث الناس بأوقات يسيرة، وكان من الصالحين العقلاء، قال أبو بكر ابن عبد الوهاب: كان أبي إذا وقعت منه قطعة فأكثر لا يأخذها، ولا يأمر أحداً أن يأخذها، قال فقلت له يوماً: يا أبت الساعة سقطت منك هذه القطعة فلم لا تأخذها؟ قال: قد رأيتها، ولكني لا أعوّد نفسي أخذ شيء من الأرض كان لي أو لغيري. قال - والكلام لأبنه: وكنت قد اعتزمت على الخروج إلى سرّ من رأى في أيام المتوكل، فبلغه ذلك فقال لي: يا حسن ما هذا الذي بلغني عنك، فقلت: يا أبت ما أريد بذلك إلا التجارة، فقال لي: إنك أن خرجت لم أكلمك أبدا. قال الحسن ابنه: فلم أخرج وأطعته، فجلست، فرزقني الله بعد ذلك فأكثر وله الحمد[3].

ويتحدث ابنه الحسن عن مسلكيته في بيته يقول: ما رأيت أبي ضاحكاً قط إلا مبتسماً، قال: وما رأيته مازحاً قط، ولقد رآني مرة وأنا أضحك مع أمي فجعل يقول لي: «صاحب قرآن يضحك هذا الضحك» وإنما كنت مع أمي[4].

قال عنه المروزي: سمعت أبا عبد الله يقول: عبد الوهاب الوراق رجل صالح، ما رأيت مثله موفق لإصابة الحق[5] وقال المثنى بن جامع الأنباري: ذكرت عبد الوهاب لأحمد، فقال: إني لأدعو الله له، قال وروى لنا عن أحمد قال: ومن يقو على ما يقوى عليه عبد الوهاب[6].

(1 - 2) تاريخ بغداد 11/ 27.

(3) ذات الموضع والمكان.

(4) المصدر نفسه 11/ 26 - 27.

(5) نفس المصدر 11/ 27.

(6) تاريخ بغداد 11/ 27.

الوراق النيسابوري:

هو عبيد بن محمد بن القاسم بن سليمان بن أبي مريم، كنيته أبو محمد الوراق النيسابوري[1].

أصله من من نيسابور، جاء إلى بغداد وسكن بها، وتعاطى علوم الحديث والوراقة، وحدّث بها عن موسى بن هلال العبدي، وأبي النضر هاشم بن القاسم، والحسن بن موسى الأشيب، وعبد الله بن يونس التنيسي، ويعقوب بن محمد الزهري، وبشر بن الحارث. روى عنه أبو بكر بن أبي الدنيا ومحمد بن محمد الباغندي، والقاضيان أبو عبيد بن حربويه، وأبو عبد الله المحاملي، ومحمد بن مخلد، وكان ثقة[2].

قال الخطيب: أخبرنا السمسار أخبرنا الصفار، حدثنا ابن قانع: أن عبيد بن محمد الوراق مات في سنة 225هـ[3].

أبو يعلي الورّاق:

هو عثمان بن الحسن بن علي بن محمد بن عزرة بن ديلم، كنيته أبو يعلي الوراق، ويعرف بالطّوسي[4].

من الذين سكنوا بغداد واستوطنوها، توفّي فيها سنة 367هـ، كان صالح الأمر - كما يقول الخطيب البغدادي، فيما قاله عنه البرقاني: كان ذا معرفة وفضل، له تخريجات وجموع وهو ثقة[5] سمع جعفر بن محمد المغلس، والحسين بن محمد بن عفير، واسحاق بن إبراهيم بن الخليل الجلاب، وأحمد بن القاسم - أخا أبي الليث - وأبا حامد محمد بن هارون الحضرمي، وأبا القاسم البغوي، وعبد الله بن أبي داود، وعبيد الله بن ثابت الحريري، وأحمد بن العباس البغوي، وأبا بكر بن أبي شيبة البزاز[6].

ورد اسمه في سند الحديث المروي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء»[7].

إبن أبي شعلة الورّاق:

هو عثمان بن أحمد بن أبي شعلة الدينوري الورّاق[8] أصله من دينور، قدم بغداد

(1 - 3) تاريخ بغداد 11/ 97 - الترجمة رقم (5789).

(4 - 7) تاريخ بغداد 11/ 307 - الترجمة رقم (6102).

(8) تاريخ بغداد 11/ 300 - الترجمة رقم - 6088 -.

وحدّث بها عن عبدالله بن حمدان الدينوري[1]، روى عنه أحمد بن الفرج بن الحجّاج، ولم يزد الخطيب في ترجمته عن ذلك.

ابن جبريل الشمعي الوراق:

هو عثمان بن محمد بن العباس بن جبريل، كنيته أبو عمرو الوراق ويعرف بالشمعي[2].

لم يذكر تاريخ ولادته، وأشارت المصار إلى تاريخ وفاته في سنة 334هـ[3].

حدّث عن أبي الأحوص محمد بن الهيثم القاصي. روى عنه ابن الثلاّج[4]. ولم يزد الخطيب في ترجمته.

البيضاوي الوراق:

هو علي بن إبراهيم بن أحمد بن الهيثم، كنيته أبو الحسين البيضاوي الوراق[5].

سكن بغداد، وحدّث بها، وخالط ورّاقيها وعلمائها واشتغل معهم، ولازم بغداد ولم يرحل عنها، حتى وافاه الأجل فيها سنة 397هـ[6].

سمع الحديث، وحدّث عن أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقي وأبي القاسم الطبراني، وأبي الطوماري، تحدّثت عنه المصادر ورجالات الحديث ووصفته بأنّه كان ثقة مأمون، وحدّث بالشيء اليسير[7].

غلام المصري الوراق:

هو علي بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن فروخ، كنيته أبو الحسن الوراق الواعظ، يعرف بغلام المصري[8].

تعاطى الوراقة والحديث ببغداد سنة 361هـ[9]، نعته المؤرخون من أصحاب رجال الحديث بأنه كان حسن القصص، ماضي اللسان، سريع الخاطر، حسن الحفظ، متساهل في الرواية[10].

---

(1) المصدر السابق 11/ 301.
(2 - 4) تاريخ بغداد 11/ 301 - الترجمة رقم (6090).
(5 - 7) تاريخ بغداد 11/ 342 - الترجمة رقم (6179).
(8 - 10) تاريخ بغداد 11/ 324 - الترجمة رقم (6142).

حدّث عن محمد بن جرير الطبري، ومحمد بن محمد الباغندي، وجعفر بن محمد بن المغلس وأبي القاسم البغوي، وأبي بكر بن أبي داود.

ورد اسمه في سند حديث مروى عن جابر بن عبد الله قال: «أن عليّاً حمل باب خيبر يوم افتتحها وأنهم جربوه بعد ذلك فلم يحمله إلاّ أربعون رجلاً»[1].

ابن العبد الوراق:

هو علي بن الحسن بن العبد، كنيته أبو الحسن الوراق[2].

يظهر من خلال شيوخه أنه من علماء الحديث ببغداد، ومن ورّاقيه، سمع الحديث ببغداد من أبي داود السجستاني، وعثمان بن خرزاد الانطاكي، روى عنه الدار قطني، والحسين بن محمد ابن سليمان الكاتب، وابن الثلاّج[3].

قال الخطيب: أخبرنا عبيد الله بن عمر الواعظ عن أبيه، مات في سنة 328هـ[4].

أبو القاسم الوراق الشاعر:

هو علي بن الحسن بن علي بن زكريا، كنيته أبو القاسم الوراق الشاعر[5].

طغى عليه لقب (الشاعر) وبه عرف في سوق الوراقين، رغم تخصصه بوراقة الحديث.

لم يذكر الخطيب تاريخ ولادته ووفاته، بل قال عنه: حدّث عن محمد بن جرير الطبري، وعبد الله بن أبي محمد البغوي[6].

ورد اسمه في سند الحديث المروى عن أبي مليكة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أبو بكر منّي منزلة هارون من موسى»[7].

قال الخطيب: أنشدنا محمد بن أحمد بن رزق، قال: أنشدنا أبو القاسم علي بن الحسن الشاعر لنفسه[8].

سرور الدنو بحزن الزيال، كذا الدهر يعقب حالاً بحال

---

(1) تاريخ بغداد 11/ 324 - الترجمة رقم (6142).

(2 - 4) تاريخ بغداد 11/ 382 - الترجمة رقم (6251).

(5) تاريخ بغداد 11/ 384 - 385 - الترجمة رقم (6257).

(6 - 7) المصدر السابق 11/ 384.

(8) نفسه 11/ 385.

ومـرّ الـفـراق بـحـلـو الـعـنـا ق، وقبح الصدود بحسن الوصال
وطـول الـبـكـاء لـفـقـد الـحـبـيـ ب، برؤية وجه بديع الجمال[1]
تـريـد كـمـالا، ويـأبـى الـزمـا ن، فيأتيك رغماً بضدّ الكمال

الفرغاني الوراق:

هو علي بن عبد الله بن عبد البر، كنيته أبو الحسن الوراق، ويعرف بالفرغاني[2].

كان واحداً من ثقاة الحديث والوراقة، كما تصفه المصادر[3]، سكن بغداد وخالط علمائها ووراقيها وعرف بينهم، وبها توفي سنة 322هـ[4].

حدّث ببغداد عن أبي حاتم الرازى، وعبد الله بن أحمد بن حنبل، روى عنه القاضي الجراحي، ومحمد بن المظفر، وأبو يعلي الطوسي الوراق[5] وابن شاهين، ويوسف القواس[6] ولم يزد الخطيب في ترجمته على ذلك.

ابن الشبيه الوراق:

هو علي بن عبد الله بن علي بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، عليهم السلام. كنيته أبو القاسم، ويعرف بالشبيه[7].

ولد سنة 360هـ وتوفي سنة 441هـ[8].

نسبه لآل البيت جعله يهتم بالعلوم الدينية، فسمع محمد بن المظفر، وكتب عنه علي بن أحمد الحافظ، ذكرت المصادر بأنه كان دينا، حسن الاعتقاد، وكان يورق بأجرة ويأكل من كسب يده، ويواسي الفقراء من كسبه[9].

---

(1) برؤية = هكذا وردت بالاصل، ولعلها/ بروئة/ حيث أن صاحب القاموس ذكر في مادة - روّأ - روّأ في الأمر تروئة، نظر فيه وتعقبه، والاسم: الروئية - القاموس المحيط - روّأ -.
(2) تاريخ بغداد 12/ 4 - الترجمة رقم (6354).
(3) المصدر السابق.
(4) نفس المصدر.
(5) هو عثمان بن الحسن الطوسي/ راجع المصدر السابق/ نفس المكان.
(6) تاريخ بغاداد 12/ 4.
(7) معجم الأدباء 13/ 271 - الترجمة رقم 42 - وحبيب زيات/ ص 13.
(8) المصدر السابق 13/ 271 - 272.
(9) المصدر السابق 13/ 273.

نقل ياقوت عنه، أنه كان نسابةً جليلاً، له كتاب «المبسوط» وقال: وجدت على ظهر ديوان عروة بن الورد بخط إبن الشبيه، وكان الديوان كله بخطه[1]. هذه الأبيات:

ديـوان عـروة الـعـبـسـي أوضَـحَـهُ خـط امـرىء زاده حـسـنـا وتـبـيـيـنـا
تـجـل الأكـارم مـن آل الـشـبـيـه فـتـى بـجـده خـتـم الله الـنـبـيـيّـنـا
صـلـى الألـه عـلـيـه مـا دحـا غـسـقٌ ويـرحـم الله عـبـدا قـال امـيـنـا

ابن لؤلؤ الوراق(*):

هو علي بن محمد بن أحمد بن نصير بن عرفة بن عياض بن ميمون بن سفيان بن عبد الله، كنيته أبو الحسن الثقفي الوراق ويعرف بابن لؤلؤ[2]. واحد من الذين عرفتهم بغداد، كان يسكن باب الطاق فيها، ذكرت المصادر أنه ولد سنة 281هـ وتوفي سنة 377هـ[3].

كان شيعي الانتماء، مارس الوراقة سنة 301هـ[4]، وسمع الحديث في بواكير عمره، وتخصص به علماً ووراقة، وصفته المصادر بأنه كان قديم السماع، فقد ذكر هو بأن سماعه للحديث كان سنة 293هـ[5] وكان صدوقاً، إلاّ أنه كان رديء الكتاب - أي سيء النقل - وأكثر كتبه كانت بخطه[6].

أخذ عليه بأنه كان يأخذ العوض على الحديث دانقين، ويعلّق البرقاني على ذلك بالقول: أن نفسه كانت تسمو إلى أخذ الشيء الحقير والنزر اليسير على الحديث، ويضيف: وكان له حالة حسنة من الدنيا[7].

أخذ الحديث سماعاً عن جعفر الفريابي، وإبراهيم بن هاشم البغوي، وإبراهيم بن شريك الكوفي، وأبي معشر الداري، وعبد الله بن ناجية، وأحمد بن الصقر بن ثوبان، وأبي الحسن أحمد بن الحسين الصوفي، ومحمد بن عبدة بن حرب القاضي، وحمزة بن محمد الكاتب، ومحمد بن محمد الشطّي، وأبي بكر بن المجدر البيع، وعمر بن أيوب

(1) معجم الأدباء 13/ 272 - 273.
(*) يراجع في ترجمته تاريخ بغداد 12/ 89 - 90 - الترجمة رقم (6505) والمنتظم لابن الجوزي 7/ 140، وحبيب زيات/ الوراقة والوراقون في الاسلام/ ص 42.
(2) تاريخ بغداد 12/ 89.
(3) المصدر السابق 12/ 90، والمنتظم 7/ 140.
(4) تاريخ بغداد 12/ 90.
(5) المصدر السابق 12/ 89.
(6) نفس المصدر السابق وابن الجوزي المنتظم 7/ 140.
(7) تاريخ بغداد 12/ 89.

السقطي، وأحمد بن هارون البرذعي، وأبي العباس بن زنجويه القطان، وزكريا بن يحيى الساجي، ومحمد بن خلف وكيع[1].

قال الخطيب البغدادي: قال لي الأزهري: ابن لؤلؤة ثقة، سمعت التنوخي يقول: حضرت عند أبي الحسن بن لؤلؤ مع أبي الحسين البيضاوي، ليقرأ لنا عليه حديث إبراهيم بن هاشم، وكان قد ذكر له عدد من يحضر للسماع، ودفعنا إليه دراهم كنّا قد وافقناه عليها، فرأى في جملتنا واحداً زائداً على العدد الذي ذكر له، فأمر بإخراجه، فجلس الرجل في الدهليز، وجعل البيضاوي يقرأ ويرفع صوته ليسمع الرجل، فقال له ابن لؤلؤ: يا أبا الحسين أتعاطي علي وأنا بغدادي، باب طاقي، ورّاق، صاحب حديث، شيعي، أزرق، كوسج، ثم أمر جاريته بأن تجلس وتدق في الهاون أشناناً حتى لا يصل صوت البيضاوي بالقراءة إلى الرجل[2].

قال البرقاني: لم يكن ابن لؤلؤ يعرف الحديث، وصحّف اسم عُتيٍّ، فأراد أن يقول: عن عتي عن أبي فقال: عن، عن، عن أبي[3].

الهمداني الوراق:

هو علي بن محمد بن السرّي، كنيته أبو الحسن الهمداني الوراق[4] شبّ على علوم الحديث وتخصص في الوراقة له ضمن مجالس بغداد العلمية، وظل هكذا حتى وفاته سنة 379هـ[5].

حدّث ببغداد عن محمد بن نصر الصائغ، ومحمد بن محمد الباغندي، وذكرت المصادر أنه فيه لين، في تعاطيه مع علوم الحديث، كما أن القاضي أبو بكر محمد بن عمر الداوودي نعته بالكذاب[6].

ذكره الخطيب في سند حديث مروى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلموها للناس»[7].

---

(1) تاريخ بغداد 12/ 89.

(2) نفس المصدر 12/ 89 - 90 والمنتظم 7/ 140 وقد أوردنا هذه في فصل (نوادر في سوق الوراقين).

(3) تاريخ بغداد 12/ 90.

(4) تاريخ بغداد 12/ 90 - الترجمة رقم (6506).

(5) المصدر السابق 12/ 91.

(6) نفس المصدر.

(7) نفسه 12/ 90.

ابن تنج الوراق:

هو علي بن محمد بن القاسم، كنيته أبو الحسن الوراق، ويعرف بابن تنج[1].

قال الخطيب: قال لي ابن التوزي: كان ابن تنج وراقاً بباب الطاق يبيع الكتب، ولم يكن عنده إلاّ شيئاً يسيراً عن ابن عقدة[2].

خالط علماء الحديث ببغداد، ويظهر أنه لازم زميله الوراق المحدّث ابن عقدة[3] وعنه حدّث وروى.

توفي ببغداد سنة 392هـ[4]. ورد اسمه في سند الحديث المروى عن أبي موسى قال: أمر رسول الله ﷺ بفكاك العاني، وإطعام المسكين، وعيادة المريض، قال، قلت: ما العاني؟ قال: أسير المسلمين يفادى[5].

ابن غريبة الحنبلي الوراق:

هو أبو الحسن علي بن أبي المعالي المبارك، وقيل أحمد بن أبي الفضل بن أبي القاسم بن الأديب، الوراق الدارقزي، المحولي الفقيه الحنبلي، المعروف بابن غريبة[6].

ولد في بغداد سنة 506هـ وبها توفي سنة 578هـ[7].

عرف علماء بغداد وشيوخ المحدثين فيها، وسمع الكثير من أبي القاسم بن الحصين وغيره. ببغداد وغيرها من البلاد. تفقه بالمذهب الحنفي على ابن سيف وغيره، وقرأ الفرائض على القاضي أبي بكر. وكان ثقة، صحيح السماع، ذا عقل وتجربة. ولاّه الوزير ابن هبيرة رفع المظالم، وانقطع آخر عمره بالمحوّل، إلى أن مات بالفالج.

سمع من جماعة منهم ابن الحنبلي، وابن القطيعي وغيره. روى عنه ابن الجوزي. وتوفي يوم الأحد - حادي عشر جمادى الأولى بالمحوّل، وحمل على أعناق الرجال، ودفن بمقبرة الإمام أحمد بن حنبل[8].

---

(1) تاريخ بغداد 12/ 94 - الترجمة رقم (6513).
(2) المصدر السابق.
(3) سبقت ترجمته.
(4) تاريخ بغداد 12/ 94.
(5) المصدر السابق.
(6) شذرات الذهب 4/ 264، وحبيب زيات/ ص 26.
(7) المصادر أعلاه - نفسها.
(8) شذرات الذهب 4/ 264.

النقيب الوراق:

هو علي بن يحيى بن اسحاق، كنيته أبو الحسن التجيبي الواسطي، ويعرف بالنقيب[1].

قال الخطيب: سألت عنه الأزجي وقلت: أين سمعت من هذا الواسطي، قال: ببغداد، وكان مقيماً بها[2]. ومن هذا يتضح أنه من واسط ونزح إلى بغداد وأقام بها حتى وافاه الأجل يوم السبت لست خلون من جمادى الآخرة سنة 375هـ[3].

حدّث ببغداد عن أبي بكر بن أبي داود السجستاني، ومحمد بن زهير بن الفضل الأبلي، ومحمد بن سليمان النعماني، والحسن بن محمد بن شعبة الأنصاري، وأحمد بن عبد الله بن نصر بن بجير القاضي، وعلي بن عبد الله بن مبشر الواسطي[4].

قال الأزجي: حدثنا علي بن يحيى بن إسحاق الوراق الواسطي قال: أنشدنا أبو بكر بن ابي داود لنفسه[5].

إذا تشاجر أهل العلم في خبر — فليطلب البعض من بعض أصولهمُ
إخراجك الأصل فعل الصادقين فا — ن لم تخرج الأصل لم تسلك سبيلهمُ
فاصدع بعلم ولا تردد نصيحتهم — واظهر أصولك أن الفرع متّهمُ

ابن عطيه الكوفي الوراق:

هو عمار بن عطيه الكوفي الوراق[6]، قدم من الكوفة إلى بغداد واستقر بها، لم يذكر الخطيب البغدادي عنه الكثير، وأهمل تاريخ ولادته ووفاته، وقال عنه: حدثنا علي بن الحسين بن حبّان قال: وجدت في كتاب أبي، بخط يده، قال أبو زكريا: عمّار بن عطية شيخ وراق كوفي صاحب شعر، كان ههنا، قد رأيته، كان كذابا[7] والعبارة الأخيرة تعكس رأي بعض علماء بغداد لبقية الأمصار، ولا يخلو الأمر من موقف آيديولوجي.

الوراق البصري الحافظ:

هو عمر بن جعفر بن عبد الله بن أبي السرّي، كنيته أبو حفص الوراق البصري الحافظ[8].

(1 - 5) تاريخ بغداد 12/ 123 - الترجمة رقم (6576).

(6 - 7) تاريخ بغداد 12/ 254 - الترجمة رقم (6701).

(8) تاريخ بغداد 11/ 244 - الترجمة رقم (5996).

بصري الأصل قدم بغداد وسكن بها إلى آخر عمره، وحدّث بها، فكان الناس يكتبون بإفادته، ويسمعون بإنتخابه على الشيوخ[1].

ولد بالبصرة سنة 280هـ، وتوفي سنة 357هـ[2].

عندما حلّ ببغداد وتعرّف على علمائها، عرف عنه ممّن وفق في الانتخاب، ومع ذلك تحامل عليه البعض من المحدثين[3] إلاّ الكبار كانوا قد أخذوا عنه، حدّث ببغداد عن أبي خليفة الفضل بن الحباب، والحسن بن المثنى، وأبي عثمان بن أبي سويد، وزكريا بن عبد الوهاب البصريين، وحامد بن شعيب البلخي، وعبدان الأهوازى، وعبد الله بن إسحاق المدائني، وموسى بن سهل الجوني، والحسن بن سهل العسكري، ومحمد بن جرير الطبري، ومحمد بن الباغندي، وأحمد بن عبد الله بن سابور الدقاق، وأبي القاسم البغوى، ويحيى بن صاعد وغيرهم[4].

قال الخطيب: حدثنا عنه أبو الحسن بن رزقويه وعلي بن أحمد الرزاز، ويضيف: وقد كان أبو الحسن الدارقطني يتتبع خطأ عمر البصري فيما انتقاه على أبي بكر الشافعي خاصة، وعمل فيه رسالة إلى طاهر بن محمد الخاركي. يقول الخطيب: ونظرت في الرسالة واعتبرتها فرأيت جميع ما ذكره أبو الحسن من الأوهام، يلزم عمر، غير موضعين أو ثلاثة. وجمع أبو بكر بن الجعابي أوهام عمر فيما حدّث به ونظرت في ذلك، فرأيت أكثرها قد حدّث به عمر على الصواب بخلاف ما حكى عنه ابن الجعابي[5].

الوراق التستري:

هو عمر بن سهل بن يزيد، كنيته أبو القاسم الوراق التستري[6]، أصله من مدينة تستر، وهي من أعاظم مدن خوزستان[7]، جاء إلى بغداد وسكن بها واستوطنها، وحدّث بها عن إبراهيم بن المستمر العروقي. روى عنه أبو بكر الإسماعيلي[8].

---

(1) تاريخ بغداد 11/ 244 - الترجمة رقم (5996).
(2) نفس المصدر 11/ 249.
(3) نفسه 12/ 247.
(4) ذات المصدر 11/ 244.
(5) نفسه، وراجع بقية الحديث والاستطراد هناك على الصفحات 245 - 249.
(6) تاريخ بغداد 11/ 223 - الترجمة رقم (5946).
(7) ياقوت الحموى - معجم البلدان 2/ 29 - مادة (تستر).
(8) تاريخ بغداد 11/ 223.

أهمل الخطيب تاريخ ولادته ووفاته، وأورد اسمه في سند حديث مروى عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ يكره سورة الدم ثلاثاً، ثم يباشر بعد الثلاث بغير ازار، قال سعيد: يعني الحائض[1].

ابن أبي قرّة الوراق:

هو عمر بن طاهر بن أبي قرة الوراق[2] بغدادي الولادة والاقامة، واختلط مع علماء الحديث واتخذ الوراقة مهنة له، واخصّ بها علوم الحديث، حدّث ببغداد وسمعَ منه، حدّث عن محمد بن عمرو بن أبي مذعور، ومحمود بن خداش وروى عنه أبو بكر الإسماعيلي الجرجاني، ويوسف بن القاسم الميانجي[3].

أهمل الخطيب تاريخ ولادته ووفاته، إلا أنه نقل عنه أنه حدّث ببغداد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حجّ هذا البيت فلم يرفث، ولم يفسق، فرجع، كان كما ولدته أمه»[4].

ابن البختري الوراق:

هو عمر بن محمد بن السرّي بن سهب بن خالد بن البختري، كنيته أبو بكر الوراق، ويعرف بابن أبي طاهر[5].

كان يذكر أن مولده في سنة 290هـ، وكانت وفاته ببغداد سنة 378هـ[6].

ذمّه نقاد الحديث، وقالوا عنه: كان رديء المذهب، ويحدّث بأحاديث لا أصل لها.

إضافة إلى أنه كان يخلط الأحاديث ويركّبها، ويدعي ما لم يسمع[7].

ومع ذلك فقد روى عنه كبار المحدثين المشهورين من أمثال محمد بن جرير الطبري، ومحمد بن محمد الباغندي، وحامد بن شعيب البلخي، والحسن بن محمى المخرمي، وأيوب بن محمد الخطيب وأبو القاسم البغوي[8].

أثبت الخطيب اسمه في سند الحديث المروى عن الزبير بن العوام عن النبي ﷺ قال: «من استطاع منكم أن يكون له خبيء من عمل صالح فليفعل»[9].

---

(1) تاريخ بغداد 11/ 223 - 224.
(2 - 4) تاريخ بغداد 11/ 122 - الترجمة رقم (5940).
(5) تاريخ بغداد 11/ 262 - 263 - الترجمة رقم (6024).
(6 - 9) المصدر السابق 11/ 263.

أبو موسى الوراق:

هو عيسى بن جعفر، وكنيته أبو موسى الوراق[1] واحد من أهل بغداد، أمتهن الوراقة، وجذبه إليها انشغاله بالحديث، وما يتعلق به، عرفه أكابر المحدثين في بغداد وأخذ منهم وأخذوا عنه، مات في بغداد سنة 272هـ[2].

وصفته المصادر بأنه كان من أفاضل الناس، وشجعان المجاهدين، مع ورع وعقل، ومعرفة، وحديث كثير عال، وصرف وفضل[3].

سمع شبابه بن سوار، وشجاع بن الوليد، ويحيى بن إسحاق السيلحيني، وأبا نعيم، ومالك بن إسماعيل، وقبيصة بن عقبة، وأبا الوليد الطيالسي، ومسدداً، وأحمد بن حنبل.

روى عنه يحيى بن صاعد، والقاضي المحاملي، ومحمد بن مخلد، وابو الحسين بن المنادي، وإسماعيل بن محمد الصفار، والحسن بن علي الشيرازى وغيرهم[4].

ورد اسمه في سند حديث مروى عن أبي هريرة قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله النقبة[5] تكون بمشفر البعير، أو بعجمه، فتشتمل الأبل كلها جربا، قال: فقال النبي ﷺ: «فما أعدى الأول» ثم قال: «لا عدوى ولا هامة، ولا صفر، خلق الله كل نفس فخلق حياتها ومصيباتها ورزقها»[6].

غانم الوراق:

هو غانم بن محمد الوراق، حدّث عن موسى بن هارون، روى عنه أحمد بن محمد بن عمران الجندي[7]. بهذه الترجمة القصيرة ذكره الخطيب في تاريخه.

أبو شجاع الوراق:

هو فارس بن صافي، كنيته أبو شجاع الوراق[8] عمل في وراقة علوم الحديث ببغداد،

---

(1) تاريخ بغداد 11/ 168 - الترجمة رقم (5867).
(2) المصدر السابق 11/ 169.
(3) نفس المصدر.
(4) نفسه 11/ 168.
(5) النقبة = هي أول جرب يبدو على الإبل - اللسان مادة - نقب: والحديث منقول هناك نصاً.
(6) تاريخ بغداد 11/ 168 - 169.
(7) تاريخ بغداد 12/ 331 - الترجمة رقم (6774).
(8) تاريخ بغداد 12/ 391 - الترجمة رقم (6852).

وروى الحديث عن حمزة بن الحسين السمسار، وأبي بكر بن أبي الثلج[1].

أحجم الخطيب عن ذكر تاريخ ولادته ووفاته، لكنه ذكر اسمه في سند الحديث المروى عن عكرمة عن ابن عباس قال: رأيت النبي ﷺ قبّل الحجر[2].

البكائي الوراق:

هو الفضل بن أبي حسان، المعروف بالبكائي الوراق[3] واحد من المشتغلين بعلوم الحديث والمتعاطين به بفن الوراقة في بغداد، وظلّ ملازماً لهذه المهنة حتى أصيب بالفالج وتوفي ببغداد سنة 249هـ[4].

سمع أبا النضر هاشم بن القاسم، ويعقوب الحضرمي، وزيد بن الحبّاب، وعمر بن طلحة القنّاد، ومحمد بن مصعب، وسريج بن النعمان، ومحرز بن عون، وهارون بن معروف، روى عنه أحمد بن علي الابار، ويحيى بن صاعد، وأحمد بن علي بن العلاء الجوزجاي، وكان ثقة، كما يقول الخطيب البغدادي[5].

ورد اسمه في سند الحديث المروى عن ابن عمر القائل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ان الكافر ليجر لسانه يوم القيامة وراءه قدر فرسخين، يتوطؤه الناس»[6].

الخردلي الوراق:

هو الفضل بن محمد بن علي بن يزيد، كنيته أبو القاسم، وشهرته المعروف بها الخردلي الوراق البغدادي[7]. حدّث عن أبي محمد بن سليمان المالكي البصري، وذكر أبو الفتح بن مسرور أنه حدّثه ببغداد وقال عنه: كان ثقة[8]. ولم يزد الخطيب على ذلك في ترجمته.

مالك بن دينار الورّاق[*]:

علم من أعلام رجال الحديث، وتابعي مشهور، ومن الثقاة المعروفين، كنيته أبو

(1 - 2) تاريخ بغداد 12/ 391 - الترجمة رقم (6852).

(3 - 6) تاريخ بغداد 12/ 363 - الترجمة رقم (6796).

(7 - 8) تاريخ بغداد 12/ 378 - الترجمة رقم (6834).

(*) أنظر ترجمته في المصادر التالية: سير أعلام النبلاء 5/ 362 الترجمة (164) وميزان الاعتدال 3/ 426 الترجمة (7016)؛ وشذرات الذهب 1/ 173؛ طبقات بن سعد 7/ 243؛ وحبيب زيات/ الوراقة والورّاقون ص 6.

يحيى[1]، كان من علماء البصرة وزهّادها المشهورين، أجمعت كل المصادر التي ترجمت له أنه كان يكتب المصاحب بالاجرة، وهو بهذا يكون أوّل ورّاق إسلامي يسنّن لهذه العملية، قبض الاجرة على نسخ القرآن، وهو ما كان غير مألوف في ذلك الوقت، وعلى هذا الأساس عدّ مالك ابن دينار كأقدم ورّاق[2].

نسب بالولاء إلى بني أسامة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، فقد كان مولى لهم[3].

ذكر الذهبي أنه ولد في أيام عبد الله بن عباس[4]، ووفاته كانت سنة 131هـ وقيل 127هـ، وشبّ مفطوماً على الحديث، فقد سمعه من أنس بن مالك ومن جاء بعده، وحدّث عنه وعن الأحنف بن قيس، وسعيد بن جبير والحسن البصري، ومحمد بن سيرين، والقاسم بن محمد، وعدّة آخرين[5].

قوى عوده في الحديث، وصلب بنائه فيه، حتى عدّ من الصدوقين الثقاة في علم الحديث، فقد وثّقه النسائي واحتج به، واستشهد به البخاري[6]، وحديثه في درجة الحسن، قال عليّ بن المديني: له نحو من أربعين حديثاً[7].

عرفت عنه أقوال مأثورة أخذها الناس منه، وتناقلها أصحاب الحديث والرواية، منها قوله: مذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ولم أكره ذمّهم، لأن حامدهم مفرط، وذامّهم مفرط، إذا تعلّم العالم العلم للعمل كسره، وإذا تعلّمه لغير العمل، زاده فخرا[8].

وقال: إذا لم يكن في القلب حزن خرب، وقال: خرج أهل الدنيا من الدنيا، ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله تعالى[9].

غلب عليه النسك والزهد في حياته، حتى عرف عنه أنه أقام بالبصرة أربعين سنة، لا يأكل من ثمارها، ولا يأكل إلاّ من عمل يده[10]، ووقع حريق بالبصرة، فخرج متزراً ببارية[11]، وبيده مصحف، وقال: فاز المخفّون، وقيل له: ألا تستقي لنا. فقال: أنتم

(1) شذرات الذهب 1/ 173.
(2) حبيب زيات/ ص 6.
(3) شذرات الذهب 1/ 173.
(4 - 5) سير أعلام النبلاء 5/ 362.
(6) الذهبي - ميزان الاعتدال 3/ 426.
(7 - 9) سير أعلام النبلاء 5/ 462.
(10) شذرات الذهب 1/ 173.
(11) البارية = حصير يصنع من القصب.

تنتظرون الغيب وأنا أنتظر الحجارة، وقال له رجل: إن امرأتي حبلى منذ أربع سنين، وأصبحت اليوم في كرب عظيم، فادعو الله لها، فقال: اللهم إن كان في بطنها جارية فابدلها غلاماً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب (وبعد حين) جاء الرجل وعلى رقبته غلام وقد استوت أسنانه، وما قطع سراره[1].

مسلكيته الزاهدة في الحياة جعلته أن ينتقد معاصريه من جميع الطبقات، فقد نقل عنه الاصمعي عن أبيه، قال: مرّ المهلّب على مالك بن دينار متبختراً، فقال له مالك: أما علمت أنها مشية يكرهها الله إلاّ بين الصفّين؟ نقال المهلب: أما تعرفني، قال: بلى، أولك نطفة مذرة، وأخرى جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة، قال: فانكسر وقال: الآن عرفتني حق المعرفة[2].

قيل: دخل عليه لصّ فما وجد ما يأخذه، فناداه مالك: لم تجد شيئاً من الدنيا، فترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم، قال: توضأ، وصلّ ركعتين، ففعل، ثم جلس وخرجا إلى المسجد فسئل: من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه[3].

قال رياح بن عمرو القيسي: سمعت مالك بن دينار يقول: دخل عليّ جابر بن زيد وأنا أكتب فقال: يا مالك، مالك عمل إلا هذا؟ فتنقل كتاب الله، هذا والله الكسب الحلال[4].

وقال هو عن نفسه: أنه لتأتي عليّ السنة، لا آكل فيها لحماً إلا من أضحيتي يوم الأضحى[5].

وعن شعبة قال: كان أدم مالك بن دينار في كل سنة بفلسين ملح، وقال جعفر بن سليمان: كان مالك ينسخ المصحف في أربعة أشهر، فيدع إجرته عند البقال، فيأكله[6].

قال معلى الورّاق: سمعت مالك بن دينار يقول: خلطت دقيقي بالرماد، فضعفت عن الصلاة[7].

لم يتزوج في حياته، لذلك لم يخلف عقبا له، فقد قال القطعي: دخلنا على مالك وهو يكيد بنفسه، فرفع طرفه ثم قال: اللهم أنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء لبطن ولا فرج[8].

---

(1) شذرات الذهب 1/ 173.

(2 – 3) سير أعلام النبلاء 5/ 363.

(4 – 6) نفسه 5/ 364.

(7) سير أعلام النبلاء 5/ 364.

(8) المصدر السابق 5/ 363.

ابن الخاضبة الورّاق:

هو محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن منصور بن إبراهيم الدقاق، كنيته أبو بكر، ويعرف بابن الخاضبة[1].

بغدادي الأصل والمنشأ، تفقّه بالحديث، وحاز السبق فيه، ولقّب بالحافظ، وصفته المصادر بأنه مفيد بغداد والمشار إليه في القراءة الصحيحة مع الصلاح والنقل المستقيم[2].

توفّي ببغداد سنة 489هـ، ودفن بمقبرة الاجمة المتصلة بباب أبرز[3].

تتلمذ على يد كبار المحدّثين وحدّث عن الخطيب البغدادي وأصحاب أبي طاهر المخلّص وأبي حفص والكتّاني، وعيسى بن علي الوزير وطبقتهم[4]، وقد مدحه جل، العلماء، وكان علاّمة في الادب، وقدوة في الحديث، جيّد اللسان، جامعاً لخلال الخير.

كتب صحيح مسلم سبع مرات في سنة الغرق الواقعة في عام 466هـ[5].

قال عنه السمعاني: سمعت أبا العلاء أحمد بن محمد بن الفضل الحافظ، عن بن طاهر المقدسي، عن ابن الخاضبة يقول: لما كانت سنة الغرق (466هـ) وقعت داري على قماشي وكتبي، وكانت لي عائلة: الوالدة والزوجة والبنت، فكنت أورّق للناس، وأنفق على الأهل، فأعرف أني كتبت صحيح مسلم في تلك السنة سبع مرات، فلما كان ليلة من الليالي، رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، ومناد ينادي: ابن الخاضبة، فأحضرت، فقيل لي: أدخل الجنّة، فلما دخلت الباب وصرت من داخل، استلقيت على قفاي، ووضعت إحدى رجليّ على الأخرى وقلت: آه، استرحت والله من النسخ[6]، وهذه المسألة توضّح مدى المعاناة من الوراقة.

ونقل ياقوت عن السمعاني: أن ابن الخاضبة كان ليلة من الليالي قاعداً ينسخ شيئاً من الحديث، بعد أن مضى قطعة من الليل قال: وكنت ضيّق اليد فخرجت فأرة كبيرة، وجعلت تعدو في البيت، وإذ بعد ساعة قد خرجت أخرى، وجعلا يلعبان بين يدي، ويتقافزان، إلى

---

(1) معجم الادباء لياقوت الحموي 17/ 226 - الترجمة رقم (75) والوافي بالوفيات للصفدى، 2/ 89 - الترجمة رقم (407).

(2) الوافي بالوفيات 2/ 89؛ ومعجم الأدباء 17/ 227.

(3) معجم الأدباء 17/ 227؛ والوافي 2/ 90.

(4) المصادر السابقة - نفس الأمكنة.

(5) معجم الأدباء 17/ 227؛ والوافي بالوفيات 2/ 90.

(6) المصدر السابق 17/ 228؛ والوافي - نفس المكان.

أن دنوا من ضوء السراج، وتقدمت إحداهما إليّ وكانت بين يدي طاسة، فأكببتها «أي وضعتها» عليها، فجرى صاحبها فدخل سربه، وإذ بعد ساعة قد خرج وفي فيه دينار صحيح وتركه بين يدي، فنظرت إليه وسكتّ، واشتغلت بالنسخ، ومكث ساعة ينظر إليّ، ثم رجع وجاء بدينار آخر، مكث ساعة أخرى، وأنا ساكت أنظر وأنسخ، فكان يمضي ويجيء إلى أن جاء بأربعة دنانير أو خمسة، وقعد زماناً طويلاً، أطول من كل نوبة، ورجع ودخل سربه وخرج وإذا في فيه جليدة كانت فيها الدنانير وتركها فوق الدنانير، فعرفت أنه ما بقي معه شيء فرفعت الطاسة، فقفزا، فدخلا البيت وأخذت الدنانير وأنفقتها في مهمّ لي[1].

قال ابن الخاضبة: أنشدنا أبو علي إسماعيل بن قليّة ببيت المقدس[2]:

كتبت اليك اليّ الكتابْ وأودعته منك حسن الخطاب

لتقرأه أنت لا بل أنا وينفذ منّي اليّ الجواب

أبو بكر الورّاق:

هو محمد بن أحمد بن الجهم، وكنيته أبو بكر الوراق، ينحدر بالوراقة واللقب إلى جده، حيث كان جده ورّاق المعتضد، كما يقول ابن فرحون في (الديباج)[3]، سكن بغداد وانهل من معارفها وتتلمذ على يد شيوخها.

لم تذكر المصادر تاريخ ولادته، بل أشارت إلى أنه توفي سنة 329هـ وقيل 333هـ[4].

جذبته الوراقة إلى حياضها من خلال تخصصه بعلوم الحديث، فقد عرف عنه أنه حدّث عن أحمد بن عبيد الله النرسي، وأبي الوليد بن برد الانطاكي، ومحمد بن هشام بن أبي الدُميك السنقلي، وموسى بن إسحاق الأنصاري، روى عنه أبو بكر محمد بن عبد الله الأبهرى المالكي، يقول الخطيب البغدادي: ذكر لي - يقصد أبو بكر محمد الأبهري - أنه كان فقيهاً مالكيّاً وله مصنفات حسان، محشوة بالآثار، يحتج فيها لمالك وينصر مذهبه، ويرد على من خالفه[5] ذكر في الهامش، أن ابن فرحون، ذكر في (الديباج) أن له أنس بالحديث، وألفّ كتباً جلّه على مذهب مالك منها:

(1) معجم الأدباء 17/ 229.
(2) المصدر السابق 17/ 230.
(3) تاريخ بغداد 1/ 287 - هامش رقم (1).
(4) المصدر السابق - نفس المكان - الترجمة رقم (135).
(5) المصدر ذاته.

1 - كتاب الرد على ابن الحسن.

2 - كتاب بيان السنّة.

3 - كتاب مسائل الخلاف والحجة لمذهب مالك.

4 - كتاب شرح مختصر ابن عبد الحكيم الصغير.

ابن زريق الورّاق:

هو محمد بن أحمد بن الحسين بن يوسف، يكنى بأبي بكر الوراق، ويعرف بابن زريق، كان حافظاً فهماً وليس بمشهور عند أهل الحديث، كما يقول الخطيب البغدادي[1] لأنه تغرّب عن بغداد وأقام ببلاد خراسان مدة طويلة، ثم استوطن آذربيجان، ومات فيها[2].

اختص بعلوم الحديث وحدّث عن يوسف بن يعقوب بن إسحاق البهلول التنوخي وغيره، أخذ عنه حديث (من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الرجال)[3].

مشفر الشروطي الورّاق:

هو محمد بن أحمد بن علي، يكنى أبي الحسن الورّاق، ويعرف بمشفر الشروطي، يقول الخطيب البغدادي، أنه من أهل الجانب الشرقي[4] (الرصافة) روى شيئاً يسيراً عن أحمد بن عثمان بن يحيى الأدمي، حدّث عنه أحمد بن علي بن التوزي، وسأله الخطيب عنه فقال: صدوق مقل[5].

لؤلؤ الوراق:

هو محمد بن أحمد بن نصير بن عرفة، الثقفي البغدادي، كنيته أبو الحسين لؤلؤ الوراق[6].

عده الصفدي ضمن علماء ووراقي الحديث قائلاً: سمع وروى وهو صدوق، غير أنه رديء الكتاب[7]. فيما ذكره الخطيب البغدادي، ضمن شيوخ ابن الخفّاف

(1 - 3) تاريخ بغداد 1/ 290 - الترجمة رقم (145).

(4 - 5) تاريخ بغداد 1/ 323 - الترجمة رقم (224).

(6 - 7) الوافي بالوفيات - للصفدى 2/ 83 - الترجمة رقم (395).

الوراق[1]. استوطن بغداد وبها حدّث وروى وتوفى سنة 377هـ[2].

ابن خالد الورّاق:

هو محمد بن أحمد بن يزيد بن خالد الوراق، اختص بعلوم الحديث ومارس المهنة فيه، حدّث عن محمد بن سعد العوفي، وروى عنه أبو حفص بن شاهين.

ولم يتوسع الخطيب بترجمته[3].

محدّث بغداد الوراق:

هو أبو بكر محمد بن إسماعيل بن العباس، الوراق صاحب الأمالي، هكذا ذكره الذهبي.

وقال عنه: أنه توفي سنة 278هـ[4] ولم يزد على ذلك بشيء.

القمع البغدادي الوراق:

هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم، كنيته أبو بكر الوراق، ويُعرف بالقُمع البغدادي[5].

عدّه الصفدي من وراقي الحديث، وقال عنه: روى عنه أبو الحسن أحمد بن محمد بن مقسم العطّار[6]، ولم يضف إلى ذلك شيء، ولم يذكر تاريخ ولادته ووفاته.

أبو بكر الوراق:

هو محمد بن بشر بن مطر، كنيته أبو بكر الوراق، وهو أخو خطاب بن بشر المذكّر[7].

لم يذكر سنة ولادته، وتوفي سنة 285هـ[8].

---

(1) تاريخ بغداد 2/ 250.
(2) الوافي بالوفيات 2/ 83.
(3) تاريخ بغداد 1/ 373 - الترجمة رقم (326).
(4) الذهبي/ تذكرة الحفاظ 3/ 979 - طبعة حيدر أباد - ط3 سنة 1376هـ/ 1957م.
(5) الوافي بالوفيات/ للصفدى/ 2/ 193 - الترجمة رقم (557).
(6) المصدر السابق.
(7) تاريخ بغداد 2/ 90 - الترجمة رقم (481).
(8) المصدر السابق.

كان كغيره من المحدثين الذين مارسوا مهنة الوراقة بعلوم الحديث، وهو قد عرف عنه أنه صدوق لا يكذب، وثقة[1].

سمع الحديث عن عاصم بن علي، وأحمد بن حاتم الطويل، ومحمد بن عبد الله بن نمير، ويحيى ابن يوسف الزمّي، وشيبان بن فروخ وطبقتهم. روى عنه موسى بن هارون، ويحيى بن محمد بن صاعد، وأبو جعفر بن بريه الهاشمي، وأبو بكر الشافعي وغيرهم[2].

ابن حبش الوراق:

هو محمد بن حبش بن محمد بن صالح، كنيته أبا بكر الوراق[3].

لم يذكر الخطيب البغدادي تاريخ ولادته أو وفاته، بل أشار إلى أن ابن الثلاّج ذكر أنه حدّثه عن أبي السرّي الجلاجلي في سنة 331هـ[4].

ولم يضف شيئاً آخراً إلى ذلك.

أبو الطيّب الوراق:

هو محمد بن جعفر بن أحمد بن عيسى، كنيته أبو الطيّب الوراق، ويعرف بابن الكدوش[5]، ولد سنة 280هـ، وتوفي سنة 357هـ[6].

كان صاحب كتاب، وكان ثقة مأموناً مستوراً، حسن المذهب، سمع حامد بن محمد بن شعيب البلخي ومفضل بن محمد الجندي، وعبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري.

وحدّث شيئاً يسيراً، روى عنه عبيد الله بن عثمان بن يحيى الدقاق[7].

غندر الوراق:

هو محمد بن جعفر بن الحسين بن محمد بن زكريا، يكنى بأبي بكر الوراق، ويلقّب غندراً[8]. بغدادي الأصل، كان جوّالاً وطلاّبة للحديث، ومن الحفّاظ الثقاة.

حدثت وفاته سنة 370هـ، حيث كان خرج من مرو قاصداً بخارى فمات في المفازة[9].

(1 - 2) تاريخ بغداد 2/ 90 - الترجمة رقم (481).

(3 - 4) تاريخ بغداد 2/ 291 - الترجمة رقم (773).

(5 - 7) تاريخ بغداد 2/ 149 - الترجمة رقم (568).

(8) تاريخ بغداد 2/ 152 - الترجمة رقم (574).

(9) المصدر السابق وقيل بعد سنة 360هـ.

سمع عن محمد بن محمد الباغندي، ويحيى بن محمد بن صاعد، وأبي بكر بن دريد النحوي، وأبي عروبة الحرّاني، وعبد الله بن أبي سفيان الموصلي، وابي علي بن محمد بن سعيد الحافظ، نزيل الرقة، قال أبو نعيم الحافظ: قدم علينا غندر الوراق البغدادي وسمع منه الحديث (ذهاب البصر مغفرة للذنوب وذهاب السمع مغفرة للذنوب، وما نقص من الجسد فعلى قدر ذلك)[1].

الطوابيقي الوراق:

هو محمد بن جعفر بن علاّن، كنيته أبو جعفر الوراق الشروطي، يعرف بالطوابيقي[2].

مات في بغداد سنة 421هـ، ودفن في مقبرة باب الدير، يقول الخطيب البغدادي: حين توفي كنت غائباً عن بغداد في رحلتي إلى أصبهان[3].

كان شيخاً مستوراً من أهل القرآن، ضابطاً لحروف قراءات كانت تقرأ عليه.

حدّث عن أحمد بن يوسف بن خلاّد، وأبي علي الطوماري، ومخلد بن جعفر، ومحمد بن الحسين الأزدي، وأبي جعفر بن المتيّم، وأبي عبد الله الشماخي الهروي وغيرهم.

قال الخطيب: كتبت عنه وكان صدوقاً[4].

أبو العلاء الوراق:

هو محمد بن الحسن بن محمد، المكنى أبي العلاء الوراق[5] واحد من الثقاة في الحديث.

ذكر الخطيب أن ولادته في سنة 318هـ ووفاته كانت في 412هـ[6] كان يسكن بالجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) في سوق يحيى، عندما مات دفن في مقبرة الخيزران، تعاطى الحديث واشتغل به توريقا وسمعه من إسماعيل بن محمد الصفار، ومحمد بن يحيى بن

---

(1) المصدر السابق وقيل بعد سنة 360هـ.

(2) تاريخ بغداد 2/ 159 - الترجمة رقم (584).

(3) المصدر السابق.

(4) نفس المصدر.

(5) تاريخ بغداد 2/ 216 - 217 - الترجمة رقم (657).

(6) المصدر السابق 2/ 217.

عمر بن علي بن حرب الطائي، وأحمد بن كامل القاضي، وبكار بن أحمد المقرى، ورحل إلى البصرة ليكتب الحديث فكتب عن محمد بن أحمد بن محويه العسكري، وأبي بشر بن دستكوتا، وعلي بن الحسين بن جعفر القطان، ومحمد بن عبد الله بن سفيان المعمري[1].

أخذ عنه حديث «أن لكل نبي دعوة وأني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[2].

ابن الخفّاف الوراق:

هو محمد بن الحسين بن إبراهيم بن محمد، المكنّى بأبي بكر الوراق، ويعرف بابن الخفّاف[3].

واحد من الوراقين المعروفين، والذين تخصصوا بعلوم الحديث والنسخ بها، إلاّ أنه كان من المشكوك في أحاديثه ونقله، لأنه كان يركّب الأحاديث ويضعها على من يرويها عنه ويختلق اسماء وأنساباً عجيبة لقوم حدّث عنهم كما يقول الخطيب[4].

مات ابن الخفاف في ذي الحجة من سنة 418هـ[5].

ذكر الخطيب البغدادي أن ابن الخفاف حدّث عن أحمد بن جعفر بن مالك القطبي، ومخلد بن جعفر الدقاق وأبي الحسين الزينبي، وعلي بن محمد بن لؤلؤ الوراق، وأبي بكر المفيد، ويضيف الخطيب: كتبت عنه، وكان سماعه من ابن مالك ثابتاً في الأصل الذي قرأت عليه منه.

وأمّا رواياته عن الآخرين فكانت من فروع كتبها بخطه، وحدثنا عن جماعة كثيرة لا تعرف ذكر أنه كتب عنهم في السفر، وكان غير ثقة، وعندي عنه من تلك الأباطيل أشياء، وكنت عرضت بعضها على هبة الله ابن الحسن الطبري، فخرق كتابي بها، وجعل يعجب منّي كيف أسمع منه[6].

قال ابن الخفّاف للخطيب البغدادي: احترق مرة سوق باب الطاق، فاحترق من كتبي

(1) نفسه 2/ 216 - 217.
(2) نفسه 2/ 217.
(3) تاريخ بغداد 2/ 250 - 251 - الترجمة رقم (719).
(4) المصدر السابق 2/ 250.
(5) نفسه 2/ 251.
(6) نفسه 2/ 250.

ألف وثمانون منّا[1] كلها سماعي[2].

حدّث ابن الخفّاف بحديث «أنه أظهر في اللوح أن يخبر الرفيع، وأن يخبر الرفيع اسرافيل، وأن يخبر اسرافيل ميكائيل، وأن يخبر ميكائيل جبريل، وأن يخبر جبريل محمداً ﷺ أنه من صلى عليك في اليوم والليلة مائة مرة، صلّيت عليه ألفي صلاة، ويقضى له ألف حاجة، أيسرها أن يعتقه من النار، ويعلّق الخطيب على ذلك بقوله: هذا الحديث باطل بهذا الأسناد، والرجال المذكورون في إسناده كلهم معروفون سوى الصائغ، ونرى أن ابن الخفاف اختلق اسمه وركّب الحديث عليه ونسخة بشر بن موسى عن أبي عبد الرحمن المقرىء معروفة وليس هذا فيها[3].

ابن حمّاد الورّاق:

هو محمد بن أبي الحارث نصر بن حمّاد الوراق[4] حدّث عن أبيه، وروى عنه عبد الله بن عبد الرحمن السكري، وأبو طالب بن نصر وغيره[5].

لم يذكر الخطيب تاريخ ولادته أو وفاته.

العجلي الورّاق:

هو محمد بن عثمان بن كرامة، المكنى بأبي جعفر العجلي، وراق عبيد الله بن موسى[6]، واحد من وراقي الكوفة أصلاً، وبها نشأ وتعلم، وقدم بغداد وحدّث بها وأخذ عن شيوخها، توفي سنة 256هـ وفق ما ذكره الخطيب البغدادي وأجزم عليه[7].

عند قدومه إلى بغداد احتك بعلمائها وحدّث عن أبي أسامة، والحسين بن علي الجعفي، وخالد بن مخلد ويعلي ومحمد أبنا عبيد، وجعفر بن عون، وعمر بن حفص بن

(1) المَنّ = وحدة قياس = رطلان - انظر اللسان - مادة (مَنَنَ).
(2) تاريخ بغداد 2/ 250 وحبيب زيّات/ الوراقة والوراقون/ ص 17، وقد عدّ كوركيس عواد إبن الخفاف من أصحاب المكتبات، بناء على هذا الحادث - أنظر كتاب - خزائن الكتب القديمة في العراق ص 232 طبعة دار المعارف بغداد 1948م.
(3) تاريخ بغداد 2/ 250 - 251 وراجع رجال السند هناك.
(4) تاريخ بغداد 3/ 313 - الترجمة رقم (1412).
(5) المصدر السابق.
(6) تاريخ بغداد 3/ 40 - 41 - الترجمة رقم (977).
(7) المصدر السابق 3/ 41.

غياث، روى عنه محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه، وأبو حاتم الرازي، وإبراهيم بن إسحاق الحربي، وأبو بكر ابن أبي الدنيا، وعبد الله بن محمد بن ياسين، ويحيى بن محمد بن صاعد، وعمر بن أحمد الدروقي والحسين بن إسماعيل المحاملي ومحمد بن مخلد[1].

وهذه الأسماء اعلاماً في علوم الحديث، ومن طبقاته الأول، الأمر الذي يعني كونه واحداً من الثقاة، قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سئل أبي عنه فقال: صدوق[2].

نقل عنه الحديث «كان النبي ﷺ يأكل الرطب مع الخربز - يعني الطبيخ - يجمع بينها»[3].

أبو جعفر الورّاق:

هو محمد بن علي بن عبد الله بن مهران، يكنّى بأبي جعفر الوراق ويعرف بحمدان[4].

كان واحداً من أصحاب أحمد بن حنبل ومن عرف بكونه فاضلاً حافظاً عارفاً ثقة[5]. توفي ببغداد سنة 272هـ[6].

شهد له بالفضل والدراية في علوم الحديث وضبطها: سمع عبيد الله بن موسى، وأبا غسان مالك بن إسماعيل، وأبا نعيم، ومعلى بن أسد، وعبد الله بن رجاء، ومعاوية بن عمرو وقبيصه بن عقبة، وابا سلمه التبوذكي، روى عنه عبد الله بن محمد البغوي ويحيى بن محمد بن صاعد، ومحمد بن مخلد وأبو الحسين بن المنادي، وإسماعيل بن محمد الصفار وأحمد بن عثمان بن ثوبان المقرىء وغيرهم[7]. أخذ عنه الحديث أن رسول الله ﷺ قال في مكة: **«لا تباع ولا تكرى بيوتها»**[8].

قال وهو في علّة الموت: (ما لصق جلدي بجلد ذكر ولا أنثى قط)[9].

(1) تاريخ بغداد 3/ 40 - 41 - الترجمة رقم (977).
(2) نفسه.
(3) تاريخ بغداد 3/ 61 - 62 - الترجمة رقم 1013.
(4) المصدر السابق 3/ 61.
(5) نفسه 3/ 62.
(6) نفسه 3/ 61.
(7) نفسه 3/ 61.
(8) المعطى السابق - نفس المكان.
(9) نفسه 3/ 62.

أبو الحسين ابن مخلد الوراق:

هو محمد بن علي بن محمد بن مخلد بن خدّاش بن عجلان، كنيته أبو الحسين الوراق[1] وبها عرف. قال الخطيب: مات ابن مخلد وأنا غائب عن بغداد في رحلتي إلى أصبهان سنة 422هـ[2].

سمع الحديث من أبي بكر مالك القطيعي، وأبي محمد بن ماسي، وعلي بن محمد بن أحمد بن كيسان النحوي، وأبي حفص بن الزيات، وأبي سعيد الحرقي، ومحمد بن عبيد الله الأبهري، وعلي بن عمر الختلي، ونحوهم[3].

كثيراً ما كان يكتب الأحاديث، وكان صدوقاً، ولم يحدّث إلا بشيء يسير، قال الخطيب: كتبت عنه، وسمعت أبا القاسم الأزهري يقول: أبو الحسين بن مخلد ثقة[4].

ابن زنبور الورّاق:

هو محمد بن عمر بن علي بن خلف بن محمد بن زنبور بن عمرو بن تميم، كنيته أبو بكر الوراق[5].

واحد من المشتغلين بعلوم الحديث، والناقلين له، إلاّ أن الاجماع عليه بأنه ضعيف، توفي سنة 396هـ[6].

حدّث عن عبد الله بن محمد البغوي، وأبي بكر بن أبي داود، وعمر بن محمد الدوري، قال الخطيب: حدّثني دجى الأسود، مولى الطائع لله، وأبو القاسم الأزهري، وأبو محمد الخلال ومحمد بن علي بن أحمد بن الحارث، وغيرهم أنه كان ضعيفاً جداً[7].

وأضاف الخطيب: سألت الأزهري عن ابن زنبور، فقال في روايته عن ابن منيع، وذكر أن سماعه من الدوري صحيح.

---

(1) تاريخ بغداد 3/ 94 - 95 - الترجمة رقم (1092).
(2) المصدر السابق 3/ 95.
(3) نفس المصدر 3/ 94.
(4) نفسه 3/ 95.
(5) تاريخ بغداد 3/ 35 - الترجمة رقم (964).
(6) المصدر السابق 3/ 36.
(7) نفسه 3/ 36.

محمد الوراق:

هو محمد بن محمد بن محمد الوراق البغدادي. قال عنه ابن أيبك الصفدى: الفاضل العالم صدر الدين الوراق البغدادي المصري، قدم دمشق طالب حديث سنة أربع عشرة وسبعماية، وسمع من القاضي والصدر ابن مكتوم وطايفه، وخطه حلو وخلقه حسن[1].

ولد بعد سنة 690هـ، وتوفي سنة 741هـ بالقاهرة.

غلام الأبهري الوراق:

هو محمد بن المؤمل بن الصقر، يكنى بـ أبي بكر الوراق، ويعرف بغلام الأبهري[2]، أنباري الأصل، ومولده في بغداد، قال الخطيب: سالت بن المؤمل عن مولده فقال: ولدت أول يوم من سنة 344هـ في مدينة المنصور[3] وتوفي سنة 434هـ.

سمع أبا بكر بن مالك القطيعي، وأبا محمد بن ماسي، وأحمد بن الحسين الحاكم المروزي، وأبا بكر محمد بن عبد الله الأبهري، قال الخطيب: كتبنا عنه وكان سماعه صحيحا[4].

لم يكن يتعاطى وراقة الحديث، بل كان يحفظ الأصول ويراجع عليه، حيث أنه كان أمياً لا يحسن الكتابة - كما يقول الخطيب، وكان له أصولاً بخط بن إسماعيل الوراق وغيره[5].

وعلى هذا الأساس كان يمارس الوراقة بمساعدة الآخرين وبالتعاون المشترك بينه وبينهم أي يصح وصفه بأنه صاحب دكان وراقة.

لم يطعن أحد بروايته، وسلم من الانتقاد، وأخذ عنه نقل الحديث (لا هجرة بين المسلمين فوق ثلاثة أيام، أو قال ثلاث ليال)[6].

زريق الورّاق:

هو محمد بن أبي هارون، أبو الفضل، واسم أبي هارون موسى بن يونس[7]، وكان محمد يلقب زريقاً.

---

(1) الوافي بالوفيات 1/ 289 - الترجمة رقم (196) باعتناء هلموت ريتر.

(2 - 6) تاريخ بغداد 3/ 312 - 313 - الترجمة رقم (1409).

(7) تاريخ بغداد 3/ 241 - الترجمة رقم (1324).

واحد من رواة الحديث الصادقين، قال عنه أبو بكر الخلال: محمد بن أبي هارون الوراق، رجل يا لك من رجل جليل القدر، كثير العلم، وهو قرابة إدريس الحداد[1] وكان مشهوداً له بالصلاح والصدق، توفي سنة 283هـ[2].

تعاطى الحديث، مهنة وثقافة، فقد سمع خلف بن هشام البزاز، وأحمد بن عيسى المصري، وإسماعيل بن عبيد بن أبي كريمه الحرّاني، وعبد الله بن عمر بن أبان الجعفي، روى عنه محمد بن مخلد، وأبو الحسين بن المنادي، وأبو سهل بن زياد القطان.

نقل عنه حديث (عن علقمة عن عبد الله قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فعلمني التشهد: «التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله»[3].

أبو عيسى المخرمي الوراق:

هو محمد بن الهيثم الخالد، كنيته المشهور بها أبو عيسى المخرمي الوراق[4].

لم يشر صاحب كتاب تاريخ بغداد إلى سنة ولادته أو وفاته، بل ذكر أنه حدّث عن أبي همام الوليد بن شجاع، وحماد بن المؤمل الكلبي، وسعدان بن نصر الثقفي، وروى عنه أبو بكر المفيد وعمر بن محمد سبنك البجلي[5].

روى عنه حديث (من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده طعام يومه، فكأنما خيرت له الدنيا)[6].

ابن الصباغ الوراق:

هو محمد بن يوسف بن موسى، كنيته أبو الحسن الوراق، ويعرف بابن الصباغ[7].

قال ابن الثلاج: توفي محمد بن يوسف في رمضان سنة 367هـ[8].

عرف عنه بأنه كان حافظاً للحديث، وحدّث عن أبي بكر بن داود، وعمر بن علي ابن أحمد المروزي وجماعة من الغرباء، كما يقول الخطيب[9].

درج اسمه في سند الحديث عن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا»[10].

(1 - 3) تاريخ بغداد 3/ 241 - الترجمة رقم (1324).

(4 - 6) تاريخ بغداد 3/ 364 - الترجمة رقم (1475).

(7 - 10) تاريخ بغداد 3/ 408 - الترجمة رقم (1539).

مطر الورّاق:

هو الإمام الزاهد الصادق، أبو رجاء مطر بن طهمان الخراساني[1] نزل البصرة، وكان مولى لعلباء بن أحمد اليشكري، كان واحداً من العلماء العاملين، اتخذ من الحديث علماً، ومن الوراقة مهنة يعتاش منها، وقد اختص بوراقة المصاحف وكان يتقن ذلك[2].

لم تذكر مصادر ترجمته تاريخ ولادته، وانفرد الذهبي بذكر تاريخ وفاته قائلاً: توفي مطر الوراق سنة 129هـ[3]، إلا أن حبيب زيّات يذكر أنه قتل على يد المنصور سنة 145هـ، ويعتمد في ذلك على مخطوطة/ تاريخ الموصل/ لابي زكريا ابن أياس الأزدي[4].

روى عن أنس بن مالك، والحسن، وابن بريدة، وعكرمة، وشهر بن حوشب، وبكر بن عبد الله، وطائفة غيرهم.

حدّث عن شعبة والحسين بن واقد، وإبراهيم بن طهمان، وحمّاد بن سلمة، وحمّاد بن زيد، وعبد العزيز بن عبد الصمد العمّي وآخرون[5].

قال الذهبي: غيره أتقن للرواية منه، ولا ينحط حديثه عن رتبة الحسن، وقد احتجّ به مسلم. وقال يحيى بن معين: صالح، وقال أحمد بن حنبل: هو في عطاء ضعيف، وقال النسائي: ليس بالقوي[6].

أثنى عليه الكثير من العلماء، لا سيّما في زهده وفقهه، حتى أن مالك بن دينار كان يقول: يرحم الله مطراً، كان عبدا للعِلم[7].

ورد اسمه في سند أكثر من حديث نبوي مروى عن أنس بن مالك منها:

قال: كان رسول الله ﷺ يطوف على تسع نسوة في صحوة وغيره[8].

جاء في مخطوطة/ تاريخ الموصل/ أنه في سنة 145هـ/ أتى سعيد بن دعلج الخليفة

(1) سير أعلام النبلاء 5/ 452 - الترجمة رقم (202)؛ وحلية الأولياء 3/ 75 - الترجمة رقم (211).
(2) المصدر السابق 5/ 452.
(3) نفسه.
(4) الوراقة والوراقون في الإسلام/ ص 43 - المطبعة الكاثوليكية - بيروت 1947م ونحن أميل إلى هذا التاريخ.
(5) سير أعلام النبلاء 5/ 453؛ وحلية الأولياء 3/ 76.
(6) سير أعلام النبلاء 5/ 453.
(7) حلية الأولياء 3/ 75 وسير أعلام النبلاء 5/ 453.
(8) حلية الأولياء 3/ 76 - 77.

المنصور بمطرالوراق وبشير الدجال، فقال المنصور لمطر: نسيت الحرمة وطول الصحبة؟ قال: نسيناها بنسيانك كتاب الله وسنّة رسوله وتضييعك أمور المسلمين.

قال المنصور: فتخرج عليَّ مع من لم تؤنس منه رشدا؟ فهذا خلاف مذهبك، قال: لو خرج عليك الذر فإنه أضعف الخلق لخرجت معهم، حتى أؤدى ما افترض الله علي فيك، قال المنصور: «يا ابن حسنة الزانية، قال مطر: أنك تعلم أنها خير من سلامة - أم المنصور» ولولا أنه قبيح بذي الشيبة السفه، لا أعلمتك ما تكره ولا تطيق ردّه. قال المنصور: خذوه، قال: إن بعد موقفك هذا موقفاً، وأن بعد أخذتك هذه أخذة، فانظر لمن تكون العاقبة، قال: فجزع المنصور من قوله جزعاً شديداً ظهر فيه، ثم قتله[1].

ذكر البلاذري أن مطر الورّاق هذا كان مع العباس بن محمد بن علي العباسي أثناء غزوته كمخ[2].

أبو الحارث البجلي الوراق:

هو نصر بن حماد بن عجلان، كنيته أبو الحارث البجلي الوراق[3] أخذ بعلوم الحديث وتخصص بها وأوقف وراقته عليها، إلاّ أنه لم يكن من الموثوقين بهم في الحديث، فقد ذمّه الكثير من العلماء وقالوا عنه: ذاهب الحديث، ولا يكتب حديثه، وليس بثقة، ويعد من الضعفاء، ومتروك الحديث ببغداد[4].

رغم أنّه حدّث عن شعبة والربيع بن صبيح، والمسعودي، وأبي غسان محمد بن مطرف، وعاصم بن محمد العمري، وقيس بن الربيع، وقد روى عنه ابنه أحمد، والحسن بن علي الحلواني، ومحمد بن إسحاق الضبّي، وأبو يحيى بن سعيد العطار، ومحمد بن إسحاق الصاغاني وغيرهم[5] ولكن الدارقطني قال عنه أنه ليس بالقوي في الحديث[6].

لم يذكر الخطيب تاريخ ولادته ووفاته، ولم يورده في سند حديث ما.

---

(1) مخطوطة/تاريخ الموصل/لأبي زكريا بن إياس الازدى/ص 166 - الجزء الثاني - نقلاً عن حبيب زيات/ ص 43.

(2) البلاذرى/ فتوح البلدان/ ص 260 - طبعة الأخوين أنيس الطباع - دار النشر للجامعيين - بيروت 1377هـ/ 1957م.

(3) تاريخ بغداد 13/ 281 - الترجمة رقم (7244).

(4) المصدر السابق 13/ 280.

(5) نفس المصدر 13/ 280.

(6) نفسه 13/ 281.

أبو منصور الوراق:

هو نصر بن الليث بن سعد، كنيته أبو منصور الوراق[1] واحد من وراقي الحديث ببغداد عرفه رجال الحديث بها وبغيرها من المدن والأمصار الإسلامية، ظلّ ممارساً لمهنة الوراقة حتى سنة وفاته في عام 270هـ[2].

حدّث عن يزيد بن موهب الرملي، وسليمان بن عبد الرحمن الدمشقي، روى عنه محمد بن مخلد وعبيد الله بن عبد الرحمن السكري، وعلي بن إسحاق المادراني[3].

ذكر اسمه في سند الحديث المروى عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان يمان ورجاء الايمان في قحطان، والقسوة والجفاء فيما ولد عدنان، حِمْيَر رأس العرب ونابها، والازد كاهلها وجمجمتها، ومذحج هامتها وغلصمتها، وهمدان غاربها وذروتها، اللّهم أعز الانصار الذين أقام الله بهم - يعني الدين - والانصار هم الذين آووني ونصروني، وآزروني وحموني وهم أصحابي في الدنيا، وهم شيعتي في الاخرة وأول من يدخل بحبوحة الجنة من أمتي»[4].

ابن مارميّ الوراق:

هو يحيى بن موسى بن مارميّ، ويقال - مارمّة - كنيته أبو زكريا الوراق[5].

كغيره من المعنيين بعلوم الحديث في بغداد، اختص به عِلماً ووراقة، وخالط الشيوخ والعلماء في بغداد وأخذ عنهم.

أهمل الخطيب تاريخ ولادته ووفاته، ونقل أنه حدّث عن عبيد الله بن موسى، وقبيصة بن عتبة، وعفان بن مسلم، روى عنه إبراهيم بن عبد الله بن أيوب المخرمي، ومحمد بن مخلّد[6].

ورد اسمه في سندي حديث، الأول مروى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أكذب الناس الصوّاغون والصبّاغون» قال يحيى: فذهبت إلى أبي عبيد القاسم بن سلام فسألته عن تفسير هذا الحديث فقال: إنما الصبّاغ الذي يزيد في الحديث من عنده يزينه به، وأمّا الصائغ فهو الذي يصوغ الحديث ليس له أصل»[7].

والحديث الثاني مروى عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: «أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة»[8].

(1 - 4) تاريخ بغداد 13/ 291 - الترجمة رقم (7261).

(5 - 6) تاريخ بغداد 14/ 216 - الترجمة رقم (7505).

(7) المصدر السابق 14/ 216. (8) نفسه 14/ 216 - 217.

الفصل الثالث

الوراقُونَ العُلماء

الجرمي الورّاق:

هو أبو عبدالله أحمد بن محمد بن إسحاق بن أبي حميضة المكّي المعروف بإبن أبي العلاء[1] إتخذ الوراقة مهنة له، واختصّ بوراقة الأخبار، فقد أشار إبن النديم الى أنّه كان أحد العلماء، وكان إخبارياً ويرغب في خطّهِ لظبطهِ[2].

ابن عقدة الورّاق(*):

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمن، لقّب بـ«عقدة» لأجل تعقيده في التصريف[3]. ولد، كما يقول هو، في سنة 249هـ، وتوفي سنة 332هـ في الكوفة[4].

امتهن الوراقة وأجاد بها في مدينة «الكوفة» فقد نعته الخطيب البغدادى بكونه «وراقاً جيّد الخط»[5]، كما أنه اشتهر بحفظه للحديث، وعلى ما يبدو أن تخصصه في مهنة الوراقة كانت لنسخ الحديث، الأمر الذي زاد في تنشيط ذاكرته وحافظته لآلاف الأحاديث النبوية، يقول ابن اسحاق، الحافظ النيسابوري: قال لي أبو العباس بن عقدة: دخل البرديجي[6] الكوفة، فزعم أنه أحفظ مني، فقلت: لا تطوّل، تتقدم إلى دكان ورّاق، وتضع القبان، وتزن من الكتب ما شئت، ثم تلقى علينا فنذكره، قال: فبقى (مبهوتا)[7].

(1 - 2) إبن النديم: الفهرست ص 120 - .

(*) تاريخ بغداد 5/ 14 - 23 - الترجمة رقم (2365)؛ والمنتظم 6/ 336 - 337 - الترجمة رقم (550).

(3) تاريخ بغداد 5/ 16.

(4) المصدر السابق 5/ 22 - 23.

(5) المصدر السابق 5/ 16.

(6) البرديجي: الإمام الحافظ/ أبو بكر أحمد بن هارون بن روح البرديجي/ البرذعي - نزيل بغداد - راجع سير أعلام النبلاء 14/ 122.

(7) تاريخ بغداد 5/ 16 - وكلمة (مبهوتا) زيادة من المشرفين على طبع تاريخ بغداد، لأن الأصل فراغ.

وهذه الحادثة تشير إلى مدى قابليته للحفظ والتذكر، حتى أن أبا عليّ الحافظ يقول عنه: ما رأيت أحداً أحفظ لحديث الكوفيين من أبي العباس بن عقدة، ويثني على ذلك الدارقطني بقوله: أجمع أهل الكوفة أنه لم يُرَ من زمن عبد الله بن مسعود إلى زمن أبي العباس بن عقدة أحفظ منه»[1].

وعلى هذه الخاصيّة الفريدة في الحفظ، التي عرف بها قال أبو الطيّب أحمد بن الحسن بن هرثمة: كنّا بحضرة أبي العباس بن عقدة الكوفي المحدّث، نكتب عنه، وفي المجلس - يقصد مجلس الاملاء - رجل هاشمي إلى جانبه، فجرى حديث حفّاظ الحديث، فقال أبو العباس، **أنا أجيب في ثلثمائة ألف حديث، من حديث بيت هذا سوى غيرهم، وضرب بيده على الهاشمي**[2] أي أنه يحفظ عن آل البيت.

ونقل عنه ابن الجوزي: قال ابن عقدة مرّة، أحفظ من الحديث بالأسانيد والمتون منسقاً خمسين ومائتي ألف حديث، وأذاكر من المسانيد وبعض المتون والمراسيل والمقاطيع بستمائة ألف حديث[3]، وكان لا يحب أن يطري على نفسه بذلك، قال أبو الحسن محمد بن عمر بن يحيى العلوي: حضر أبو العباس بن عقدة عند أبي في بعض الأيام، فقال له: يا أبا العباس، قد أكثر الناس علي في حفظك الحديث، فأحب أن تخبرني بقدر ما تحفظ؟ فامتنع أبو العباس أن يخبره، وأظهر كراهة ذلك، فأعاد المسألة وقال: عزمت عليك ألا أخبرتني، فقال أبو العباس: أحفظ مائة ألف حديث بالاسناد والمتن، وأذكر بثلثمائة ألف حديث. قال أبو العلاء: وقد سمعت جماعة من أهل الكوفة وبغداد يذكر عن أبي العباس بن عقدة مثل ذلك[4].

قال أبو الحسين محمد بن علي بن مخلّد الورّاق: سمعت عبد الله الفارسي يقول: أقمت مع أخوتي بالكوفة عدة سنين، نكتب عن ابن عقدة، فلما أردنا الانصراف ودعناه، فقال لنا: قد اكتفيتم بما سمعتم مني، أقل شيخ سمعت منه، عندي عنه مائة ألف حديث، فقال عبد الله الفارسي: أيها الشيخ نحن أخوة أربعة، قد كتب كل واحد منّا عنك مائة ألف حديث[5].

---

(1) تاريخ بغداد 5/ 16؛ والمنتظم 6/ 337.
(2) تاريخ بغداد 5/ 16.
(3) المنتظم 6/ 337.
(4) تاريخ بغداد 5/ 17.
(5) تاريخ بغداد 5/ 17 - 18.

ولهذه الناحية أحسن الدارقطني في تقييمه له عندما قال: كان أبو العباس بن عقدة يعلم ما عند الناس، ولا يعلم الناس ما عنده[1].

* علمه بنقد «الحديث» ورواياته:

أسهب الخطيب البغدادي بوصف مزايا وحفظ ابن عقدة، رغم اختلاف الميل والهوى بينه وبينه، فابن عقدة يعدّ من علماء حديث الكوفة، ذات النزعة الشيعية، فيما الخطيب حافظ ومؤرخ سنّي، لكن موضوعيته تسمو به فوق أيّ انحياز، لذلك كان ينقل بأمانة ما يقال عنه.

قال الخطيب: أخبرنا أبو منصور محمد بن عيسى الهمذاني، عن صالح بن أحمد بن محمد الحافظ قال: سمعت أبا عبد الله الزعفراني، يقول: روى ابن صاعد - الأندلسي - ببغداد في أيّامه حديثاً أخطأ في إسناده، فأنكر عليه ابن عقدة الحافظ، فخرج عليه أصحاب ابن صاعد وارتفعوا إلى الوزير عليّ بن عيسى، وحبس ابن عقدة، فقال الوزير: من يسأل ويرجع إليه؟! فقالوا: ابن أبي حاتم، فكتب إليه الوزير يسأله عن ذلك، فنظر وتأمل فإذا الحديث على ما قاله ابن عقدة، فكتب إليه بذلك، فأطلق ابن عقدة وارتفع شأنه[2]. وهذه الحادثة تشير إلى موقفه المعرفي، ، حيث عارض ابن صاعد، أمام الناس وخطّأ اسناده، وأدلى بالصحيح.

وثمة حادثة أخرى، بهذا السياق، تبيّن مدى دقة تصويبه للحديث وأسانيده، وأخباره المتواترة، رواها الخطيب أيضاً قال: حدّثني محمد بن طاهر الدقاق قال: سمعت جماعة يذكرون أن يحيى بن صاعد، كان يملي حديثه من حفظه، من غير نسخة، فأملى يوماً، في مجلسه حديثاً عن أبي كريب عن حفص بن غياث عن عبيد الله بن عمر، فعرض على أبي العباس بن عقدة، فقال: ليس هذا الحديث عن أبي محمد عن أبي كريب، وإنما سمعه من أبي سعيد الأشج، فاتصل هذا القول بابن صاعد، فنظر في أصله، فوجده كما قال، فلما اجتمع الناس قال لهم: أنا كنّا حدثناكم عن أبي كريب عن حفص عن عبيد الله، بحديث كذا، ووهمنا فيه، إنما حدثناه أبو سعيد الأشج عن حفص بن غياث، وقد رجعنا عن الرواية الأولى. قلت لحمزة - والحديث لمحمد بن طاهر الدقاق - ابن عقدة الذي نبّه يحيى على هذا؟! فتوقف ثم قال: ابن عقدة أو غيره[3]، وهذا اعتراف آخر بفضله ودقّة معرفته بعلوم الحديث.

شدّ ابن عقدة رحاله إلى بغداد ثلاث مرات، طلباً للحديث وتحققاً من صحته، -

(1 - 3) تاريخ بغداد 5/ 18.

وسماعه من أفواه شيوخه، فسمع في المرة الأولى من إسماعيل القاضي ونحوه، وفي الثانية كانت في حياة ابن منيع، وطلب من ابن الجعابي شيئاً من حديث يحيى بن صاعد لينظر فيه، قال ابن الجعابي: فجئت إلى ابن صاعد وسألته أن يدفع إليّ شيئاً من حديثه لأحمله إلى ابن عقدة، فدفع إليّ مسند علي بن أبي طالب، فتعجبت من ذلك وقلت في نفسي: كيف دفع إليّ هذا وابن عقدة أعرف الناس به! مع اتساعه في حديث الكوفيين، وحملته إلى ابن عقدة، فنظر فيه ثم ردّه علي. فقلت: أيها الشيخ هل فيه شيء يستغرب؟ فقال: نعم، فيه حديث خطأ، فقلت: أخبرني به، فقال: والله لا أعرفنك ذلك حتى أجاوز قنطرة الياسرية[1]، وكان يخاف من أصحاب ابن صاعد، فطالت عليّ الأيام انتظاراً لوعده، فلما خرج إلى الكوفة سرت معه، فلما أردت مفارقته قلت: وعدك؟ فقال: نعم، الحديث عن أبي سعيد الاشج عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، قال: فودعته وجئت إلى ابن صاعد فقلت له: وُلِدَ أبو سعيد الاشج في الليلة التي مات فيها يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، فقال: كذا يقولون، فقلت له: في كتابك حديث عن الاشج عنه فما حاله؟ فقال لي: عرف ذلك ابن عقدة؟! فقلت: نعم، فقال: لأجعلن على كل شجرة من لحمه قطعة، ثم رجع الأصول، فوجد الحديث عنده عن شيخ غير أبي سعيد الأشج عن ابن أبي زائدة، وقد أخطأ في نقله، فجعله على الصواب أو كمال قال[2]، وهذا الأمر يبيّن مدى دقة ومتابعة ابن عقدة لأصول علم الحديث، ومدى خوفه من الآخرين - جماعة يحيى بن صاعد - المتزمتين لشيخهم، وبنفس الوقت يظهر خوف ابن صاعد من الخطأ الأمر الذي دعاه إلى مراجعة الأصول.

يظهر أن حالة علماء الحديث، مضطربة وغير مستقرة، وتخضع، بشكل أو بآخر، إلى المنظورات الآيديولوجية، لكل فئة من أصحاب الحديث الشيعي، ونظراً لتفرّد ابن عقدة بسعة الحفظ والدراية بأصول الأحاديث، فإن مناوئيه ناصبوه العداء، لجهلهم بالمقام الأول، وكثر اللغط حوله، والشك برواياته، والقدم في مسلكيته، نتيجة هذا التفوق المعرفي، وخلقت حالة إعلامية ضدّه، بغية التقليل من شأنه ومكانته بين علماء الحديث، ولكن أكابر العلماء كانوا يكنون له الاحترام، قال محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيسابورى، قلت لأبي علي الحافظ، أن بعض الناس يقولون في أبي العباس (ابن عقدة) قال: في ماذا؟ قلت: في تفرده بهذه المقحمات عن هؤلاء المجهولين، فقال: لا تشتغل بمثل هذا، أبو العباس امام حافظ محلّه محلّ من يسأل عن التابعين وأتباعهم[3].

(1) لم يذكرها ياقوت في معجم البلدان ج4، مادة (قنطرة) وعلى ما يظهر أنها موضع أقرب للكوفة، ويتوسط بينها وبين بغداد.
(2 - 3) تاريخ بغداد 5/ 19.

وقال عنه عبد الله بن أحمد بن حنبل: منذ نشأ هذا الغلام أفسد حديث الكوفة - يعني أبو العباس ابن عقدة[1]، وقال أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ: سمعت عبدان الاهوازي يقول: ابن عقدة قد خرج عن معاني أصحاب الحديث ولا يذكر حديثه معهم[2].

كان ابن عقدة غوّاصاً في كتب الحديث، صافي الذهن لها، مطبوع القريحة عليها، لا يمل عن البحث فيها، قال عنه أبو العباس بن سعيد: كان قدّامي كتاب فيه نحو خمسمائة حديث عن حبيب بن أبي ثابت الاسدي، لا أعرف له طريقاً، فلما كان يوم من الأيام قال لبعض ورّاقيه: قم بنا إلى بجيلة/ موضع المغنيات/ فقلت - والكلام للوراق: إيش نعمل؟ فقال: بلى تعال فانها فائدة لك، قال: فامتنعت عليه، فغلبني على المجيء، قال: فجئنا جميعاً إلى الموضع، فقال لي: سل عن قصيعة المخنّث، فقلت: الله، الله يا سيدي أبا العباس، ذا فضيحة لا تفضحنا، قال فحملني الغيط فدخلت وسألت عن قصيعة، فخرج اليّ رجل في عنقه طبل مخضّب بالحنّاء، فجئت به إليه فقلت: هذا قصيعة، فقال: يا هذا، امض فاطرح ما عليك والبس قميصك وعاود، فمضى ولبس قميصه وعاد، فقال له: ما اسمك؟ قال: قصيعة. قال: دع هذا عنك، هذا شيء لقّبك به هؤلاء، ما اسمك على الحقيقة؟ فقال: محمد، قال: صدقت ابن من؟ قال: ابن علي، قال: صدقت، ابن من؟ قال: ابن حمزة، قال صدقت، ابن من؟ قال: لا أدري والله يا أستاذي، قال: أنت محمد بن علي بن حمزة بن فلان بن فلان بن حبيب بن أبي ثابت الأسدي، ثم أخرج من كمّهِ الجزء فدفعه إليه وقال: له امسك هذا، فأخذه، ثم قال: ادفعه إليّ، ثم قال له: قم انصرف، ثم جعل أبو العباس يقول: دفع إلى فلان بن فلان بن حبيب بن ابي ثابت كتاب جدّه، فكان فيه كذا وكذا[3].

ظلت التهم والمثالب توجّه إليه، وتقدح برواياته، لأنه كان واسع السند، ولا يستطيع الآخرون السيطرة على حديثه[4] من جهة، ومن جهة أخرى، ميله للتشيّع، قال ابن طاهر الدقاق: سئل أبو الحسن الدارقطني، وأنا أسمع، عن أبي العباس بن عقدة فقال: كان رجل سوء[5]، وقال أبو بكر البرقاني: سألت أبا الحسن الدارقطني عن أبي العباس بن عقدة وقلت: ايش أكبر ما في نفسك عليه؟ فوقف ثم قال: الاكثار من المناكير[6].

ووصل بمناوئيه الأمر إلى إتهامه بأنه كان يملي المثالب على الصحابة للطعن فيه أكثر، قال حمزة بن يوسف: سمعت أبا عمر بن حيويه يقول: كان أحمد بن محمد بن

(1 - 3) تاريخ بغداد 5/ 20.

(4) تاريخ بغداد 5/ 21.

(5 - 6) المصدر نفسه 5/ 22.

سعيد بن عقدة في جامع براثا يملي مثالب أصحاب رسول الله ﷺ أو قال الشيخان: أبا بكر وعمر، فتركت حديثه لا أحدّث عنه بشيء، وما سمعت عنه بعد ذلك شيئا[1].

* مكتبة ابن عقدة:

إن رجلاً مثل هذا الحافظ الكبير للحديث، من الضروري أن تكون له خزانة كتب كبيرة وقيّمة، فقد ذكر الخطيب البغدادي وابن الجوزي حجم مكتبه، فقد نقل عنه أنه أراد أن ينتقل من الموضع الذي كان فيه إلى موضع آخر، فاستأجر من يحمل كتبه، وشارط الحمالين أن يدفع لكل واحد منهم دانقاً لكل كرّة، فوزن لهم أجورهم مائة درهم، وكانت كتبه ستمائة حمل[2].

رحل عن الدنيا سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وهو في الكوفة[3].

الحامض الوراق[*]:

هو أبو موسى سليمان بن محمد بن أحمد المعروف بالحامض البغدادي، أحد أئمة النحاة الكوفيين[4]، أخذ عن ثعلب، وخلفه في مقامه وتصدر بعده، وُصِف بحسن الخط وحسن المذهب في الضبط[5] وهي إحدى المقومات الأساسية للوراق.

لم تشر المصادر إلى تاريخ ولادته، واكتفت بذ كر وفاته، حيث أنه مات في خلافة المقتدر لسبع أو لست بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثمائة[6].

بعد أن علت رايته في علوم اللغة، روى عنه أبو عمر الزاهد المعروف بغلام ثعلب، وأبو جعفر الأصبهاني برزويه، وقرأ عليه أبو علي النقار، كتاب «الأدغام» للفراء، فقال له أبو علي: أراك يا أبا موسى تلخص البيان تلخيصاً لا أجده في الكتب. فقال: هذا ثمرة صحبة أبي العباس ثعلب أربعين سنة[7].

(1) تاريخ بغداد 5/ 22.

(2) تاريخ بغداد 5/ 18؛ والمنتظم 6/ 337؛ وخزائن الكتب القديمة لكوركيس عواد/ ص 217.

(3) تاريخ بغداد 5/ 22 - 23.

(*) الفهرست/ ص 117؛ ومعجم الأدباء 11/ 253 - 255.

(4) قال ابن النديم/ أخذ عن البصريين/ الفهرست/ ص 117. وما نقلناه من ياقوت معجم الأدباء 11/ 54.

(5) الفهرست/ ص 117.

(6) معجم الأدباء 11/ 255.

(7) المصدر السابق 11/ 254.

ومعنى القراءة عليه هنا، أنه يجيز نسخ علوم العربية لأي عالم لغوي مات ولم تؤخذ الأجازة منه[1].

قال عنه أبو الحسن بن هارون: أبو موسى أوحد الناس في البيان والمعرفة بالعربية واللغة والشعر، وكان جامعاً بين المذهبين: الكوفي والبصري، وكان يتعصب للكوفيين، **وكان شرس الأخلاق ولذا قيل له الحامض**[2].

خلف ورائه من المصنفات والكتب ما يلي، وفق ما ذكرته المصادر عنه[3].

1 - كتاب خلق الإنسان.

2 - كتاب السبق والنضال.

3 - كتاب المختصر في النحو.

4 - كتاب النبات.

5 - كتاب الوحوش.

6 - كتاب مختصر النحو، وغير ذلك.

شجاع الوراق[*]:

هو شجاع بن فارس بن الحسين بن غريب، الحافظ الإمام أبو غالب الذهلي.

ولد سنة 430هـ، وتوفى سنة 507 وتتلمذ على شيوخ بغداد في الحديث وعنهم سمع من أمثال أبي طالب بن غيلان، وعبد العزيز بن علي الأزجي، وأبي محمد بن المقتدر الأمين، وأبي محمد الجوهري، وأبي جعفر بن المسلمة وأبي بكر الخطيب البغدادي، حدث عنه إسماعيل بن السمرقندي وعبد الوهاب الانماطي، وابن ناصر وعمر بن ظفر، وأبو طاهر السلفي، وسليمان بن جروان وآخرون[4].

رغم سعة علمه بالحديث فقد كان وراقاً مختصاً بوراقة الحديث والتفاسير، قال عنه السمعاني: نسخ بخطه كثيراً من التفسير والحديث والفقه ما لم ينسخه أحد من الوراقين، واضاف: قال لي عبد الوهاب الأنماطي: دخلت (عليه)[5] يوماً فقال لي: توبني: فقلت:

---

(1) راجع «منهج الوراقة» في الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

(2) معجم الأدباء 11/ 254 - 255.

(3) معجم الأدباء/نفس المكان. والفهرست/ص 117.

(*) المنتظم 9/ 176؛ وتذكرة الحفاظ 4/ 1240 - الترجمة رقم (1052).

(4) الذهبي - تذكرة الحفاظ 4/ 1230 - طبعة حيدر أباد 1377هـ/ 1958.

(5) هذه الإضافة من عندنا.

من أي شيء؟ قال: كتبت شعر ابن الحجاج[1] بخطي سبع مرات[2].

قال عبد الوهاب، مشيراً بفضله وسعة انتشار خطه: قلما يوجد بلد من بلاد الإسلام إلاّ فيه بخطه شيء، وكان مفيد أهل بغداد والمرجوع إليه في معرفة الشيوخ وشرع في تتمة (تاريخ بغداد، ذيَّلَ به على تاريخ الخطيب، ثم غسله قبل موته وعندما توفى، دفن بمقبرة باب حرب قريباً من ابن سمعون[3].

الشمعي الورّاق:

هو عبد الله بن العباس بن جبريل بن ميخائيل، وكنيته أبو محمد الوراق ويُعرف بالشمعي[4].

لم يعرف تاريخ ولادته، إلا أنَّهُ توفي سنة 326هـ[5].

عُرف عنه إهتمامه بعلوم الحديث، الأمر الذي مكنه من التخصص في الوراقة في هذا الجانب، فقد حدَّث عن علي بن حرب الطائي، وحماد بن الحسين الوراق وأحمد بن ملاعب وغيرهم.

روى عنه محمد بن الحسين أبو الفتح الأزدي وأبو الحسن الدارقطني، وأبو حفص بن شاهين، ويوسف القواس، وعبد الله بن عثمان الصفار[6].

روي عنه الحديث التالي: سَنَّ رسول الله ﷺ صلاة السفر ركعتين وهي تمام، والوتر في السفر سُنّة[7].

قال عنه علي بن عمر الحافظ: عبد الله بن العباس بن جبريل الشمعي، شيخ ثقة كتبنا عنه[8].

---

(1) وابن الحجاج - حسن بن أحمد بن محمد بن جعفر بن الحجاج - النيلي البغدادى - شاعر فحل من كتاب العصر البويهي، قال عنه الذهبي وشاعر العصر وسفيه الأدب وأمير الفحش، وقال ابن خلكان: كان فرد زمانه لم يسبق إلى تلك الطريقة. راجع عنه أعلام الزركلي 2/ 231 - والهوامش والاحالات التي ذكرها في ترجمته.

(2) تذكرة الحفاظ 4/ 1240؛ والمنتظم 9/ 176.

(3) المصادر السابقة، نفس الأمكنة.

(4) تاريخ بغداد 10/ 37 - الترجمة رقم (5156).

(5) المصدر السابق.

(6) تاريخ بغداد 10/ 37.

(7 - 8) نفسه.

الرّماني الورّاق(*):

هو علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرمّاني، كنيته أبو الحسن الوراق(1)، أصله من سرّ من رأى، ومولده ببغداد سنة 296هـ(2) ووفاته سنة 384هـ(3).

كان إماماً في اللغة العربية وعلاّمة في الأدب في طبقة أبي علي الفارسي والسيرافي، تتلمذ على يد ابن السراج والزجّاج وابن دريد. قال عنه أبو حيان التوحيدي: لم يُرَ مثله قط علماً بالنحو، وغزارة بالكلام وبصرا بالمقالات، واستخراجاً للعويص، وإيضاحاً للمشكل، مع تأله وتنزّه، ودين وفصاحة وعفاف ونظافة(4)، كان يمزج كلامه في النحو بالمنطق، حتى قال أبو علي الفارسي: إن كان النحو ما يقوله الرمّاني فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقله نحن فليس معه منه شيء، وكان يقال: النحويون في زماننا ثلاثة: واحد لا يفهم كلامه وهو الرمّاني، وواحد يفهم بعض كلامه، وهو أبوعلي الفارسي، وواحد يفهم جميع كلامه بلا أستاذ وهو السيرافي(5).

تفصح مصادر ترجمته أنه كان معتزليّاً، تتلمذ على يد الأخشيد المتكلم المعتزلي، وسار على مذهبه(6).

اشتغاله بالوراقة جعله أن يحتكّ بكل العلماء الوافدين على سوق الورّاقين، حيث كان هذا السوق مجالس العلماء والأدباء، لذلك كان دكّانه مقصوداً للشراء منه والأخذ عنه، والإستراحة عنده، حتى لقد ذ كره التوحيدي كثيراً في «المقابسات»(7) ونقل عنه أشياء كثيرة، وهذا يعني أن ورّاقنا هذا كان في الصفوة الأولى مع العلماء، الأمر الذي يشير إلى حضوره الثقافي والأدبي، فلقد أشارت المصادر إلى كتبه التالية(8):

(*) ترجمته في معجم الأدباء 14/ 73 الترجمة رقم (20)؛ وبغية الوعاة للسيوطي/ ص 244؛ وأنباه الرواة 2/ 294 الترجمة رقم (476).

(1) معجم الأدباء 14/ 73؛ والزبيدى طبقات النحويين واللغويين/ ص 130.

(2) أنباه الرواة 2/ 296.

(3) المصدر السابق، وبغية الوعاة/ ص 344؛ ومعجم الأدباء 14/ 74.

(4) بغية الوعاة ص 334.

(5) المصدر السابق؛ ومعجم الأدباء 14/ 75.

(6) معجم الأدباء 14/ 74؛ وأنباه الرواة 2/ 294.

(7) المقابسة رقم 30/ ص 186 - طبعة حسن السندوبي - ط 1.

(8) معجم الأدباء 14/ 75؛ وأنباه الرواة 2/ 295؛ وبغية الوعاة للسيوطي/ ص 344.

1 - كتاب تفسير القرآن المجيد.

2 - كتاب الحدود الأكبر.

3 - كتاب الحدود الأصغر.

4 - كتاب معاني الحروف.

5 - كتاب شرح الصفات.

6 - كتاب شرح الموجز لابن السراج.

7 - كتاب شرح الألف واللاّم للمازني.

8 - كتاب إعجاز القرآن.

9 - كتاب شرح مختصر الجرمي.

10 - كتاب شرح أصول ابن السراج.

11 - كتاب شرح سيبويه.

12 - كتاب المسائل المفردات من كتاب سيبويه.

13 - كتاب شرح المدخل للمبرّد.

14 - كتاب التصريف.

15 - كتاب الهجاء.

16 - كتاب الإيجاز في النحو.

17 - كتاب الاشتقاق الكبير.

18 - كتاب الاشتقاق الصغير.

19 - كتاب الألفات في القرآن.

20 - كتاب شرح المقتضب.

21 - كتاب شرح معاني الزجّاج.

22 - كتاب المبتدأ في النحو[1].

23 - كتاب الخلاف بين النحويين.

24 - كتاب مسائل الأخفش الكبير والصغير.

(1) من التسلسل 22 وحتى النهاية مذكورة عند القفطي - أنباه الرواة 2/ 295 - ولم يدرجها ياقوت.

25 - كتاب الخلاف بين سيبويه والمبرّد.

26 - كتاب نكت سيبويه.

27 - كتاب أغراض سيبويه.

28 - كتاب المخزومات.

29 - كتاب التصريف.

30 - كتاب الجامع في علم القرآن.

31 - كتاب النكت في إعجاز القرآن.

32 - كتاب المختصر في علم السور القصار.

33 - كتاب المتشابه في علم القرآن.

34 - كتاب شرح الشكل والنقط لابن السراج.

35 - كتاب غريب القرآن.

36 - كتاب جواب مسائل طلحة.

37 - كتاب المسائل والجواب من كتاب سيبويه.

38 - كتاب في تهذيب أبواب كتاب سيبويه.

*** أما كتبه في علم الكلام فهي(1)**

39 - كتاب «صنعة الاستدلال» يشتمل على سبعة كتب.

40 - كتاب نكت المعونة بالزيادات لابن الإخشيد.

41 - كتاب شرح المعونة - لم يتمّه.

42 - كتاب الأسماء والصفات لله عز وجل.

43 - كتاب ما يجوز على الأنبياء وما لا يجوز.

44 - كتاب المرويّة في النقض على الاشعري.

45 - كتاب نقض التثليث على يحيى بن عدي.

46 - كتاب تجانس الافعال.

47 - كتاب استحقاق الذم.

---

(1) انفرد القفطي في ذكرها - راجع أنباه الرواة 3/ : 295 - 296.

48 - كتاب الإمامة.

49 - كتاب الرؤية.

50 - كتاب السؤال والجواب/ غير الذي تقدّم.

51 - كتاب الأكوان.

52 - كتاب نقض استحقاق الذم في الرد على أبي هاشم.

53 - كتاب تحريم المكاسب.

54 - كتاب الحظر والإباحة.

55 - كتاب مسائل أحمد بن إبراهيم البصرى.

56 - كتاب مسائل ابن جابي.

57 - كتاب جوامع العلم في التوحيد.

58 - كتاب صفات النفس.

59 - كتاب شرح الأسماء والصفات لأبي علي.

60 - كتاب الإرادة.

61 - كتاب نكت الإرادة.

62 - كتاب المعلوم والمجهول والنفي والإثبات.

63 - كتاب الأسباب.

64 - كتاب الحقيقة والمجاز.

65 - كتاب نقد الاجتهاد.

66 - كتاب المجالس في استحقاق الذم.

67 - كتاب مجالس بن الناصر.

68 - كتاب مسائل أبي علي بن الناصر في علم القرآن.

69 - كتاب نكت الأصول.

70 - كتاب الأصلح الكبير.

71 - كتاب الأصلح الصغير.

72 - كتاب تهذيب الأصلح.

73 - كتاب المسائل والجواب في الأصلح الواردة من مصر.

74 - كتاب المسائل في اللطيف من الكلام.

75 - كتاب أدب الجدل.

76 - كتاب أصول الجدل.

77 - كتاب أصول الفقه.

78 - كتاب الرد على الدهرية.

79 - كتاب المنطق.

80 - كتاب الرسائل في الكلام.

81 - كتاب مسائل أبي العلاء.

82 - كتاب مبادىء العلوم.

83 - كتاب المباحث.

84 - كتاب المعرفة.

85 - كتاب صغير في «الصفات».

86 - كتاب الأوامر.

87 - كتاب العلوم.

88 - كتاب الأسماء والصفات.

89 - كتاب العلل.

90 - كتاب العوض.

91 - كتاب أدلة التوحيد.

92 - كتاب التوبة.

93 - كتاب مقالة المعتزلة.

94 - كتاب الأخبار والتميّز.

95 - كتاب تفضيل علي.

96 - كتاب الرد على من قال بالأحوال.

97 - كتاب الرد على المسائل البغداديات لأبي هاشم.

98 - كتاب التعليق.

99 - كتاب في الطبائع.

100 - كتاب أماليه.

كان أكثر ما يصنّفه يؤخذ عنه إملاءً[1].

قال ياقوت الحموي: قرأت بخط أبي سعيد: سمعت أبا طاهر السبخي.... سمعت القاضي أبا القاسم التنوخي (علي بن المحسّن) قال: سمعت شيخنا أبا الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي يقول وقد سئل فقيل له: لكلّ كتاب ترجمة، فما ترجمة كتاب الله عزّ وجلّ؟ فقال: «هذا بلاغ للناس ولينذروا به»[2].

كان الرمّاني ذا أدب رفيع وعبارة جزلة، وجملة متينة عالية البلاغة، يقول التوحيدي في هذا الصدد: سمعت علي بن عيسى يقول لبعض أصحابه: لا تعادينّ أحدا وإن ظننت أنه لن ينفعك، فإنك لا تدري متى تخاف عدوّك أو تحتاج إليه؟! ومتى ترجو صديقك أو تستغني عنه، وإذا اعتذر إليك عدوّك فاقبل عذره، وليقلّ عيبه على لسانك[3].

وقال التوحيدي أيضاً: رأيت في مجلس علي بن عيسى النحوي رجلاً من مرو يسأله عن الفرق بين «من وما» و«من وممّ» فأوسع له الكلام وبيّن، وقسّم وفرّق، وحدّ ومثّل، وعلّق كل شيء منه بشرطه من غير أن فهم السائل أو تصوّر، وسأل إعادته عليه وإبانته له، ففعل ذلك مراراً من غير تصوّر حتى أضجره، ومن حدّ الحلم أخرجه، فقال له: أيها الرجل يلزمني أن أبيّن للناس وأصوّر لمن ليس له بناعس، وما علي أن أفهم البُهُم والشُّقر والدهم، مثلك لا يتصور هذه المسألة بهذه العبارة وهذه الأمثلة، فإن أرحتنا ونفسك فذاك، وإلاّ فقد حصلنا معك على الهلاك، قم إلى مجلس آخر ووقت غير هذا، فأسمعه الرجل ما ساء الجماعة، وعاد بالوهن والغضاضة، ووثب الناس لضربه وسحبه، فمنعهم من ذلك أشد منع بعد قيامه من صدر مجلسه ودفع الناس عنه، وأخرجه صاغراً ذليلاً مهيناً، والتفت إلى أبي الحسن الدقاق/ أحد أعلام ذلك العصر/ وقال له: متى رأيت مثل هذا فلا يكوننّ منك إلا التؤدة والاحتمال، وإلاّ فتصير نظير لخصمك، وتعدم في الوسط فضل التميّز وأنشأ يقول[4]:

ولولا أن يقال هجا نميرا ولم نسمع لشاعره جوابا
رغبنا عن هجاء بني كليب وكيف يشاتم الناس الكلابا

(1) القفطي/ أنباه الرواة 2/ 296.
(2) معجم الأدباء 14/ 76.
(3) المصدر السابق 14/ 76 - 77.
(4) معجم الأدباء 14/ 77 - 78.

أبو محمد الورّاق:

هو عبدالله بن عبد الرحمن بن بشر بن هلال الأنصاري، يعرف بعبدالله بن أبي سعدة، وكنيته أبو محمد الورّاق.

أصله من بلخ وسكن بغداد وأخذ من علومها على يد العلماء أصحاب الحديث، ولد سنة 197هـ، وتوفي بسامراء سنة 274هـ[1].

كان صاحب أخبار، كما يقول الخطيب البغدادي[2] إلاّ أن شهرته بعلوم الحديث طاغية على كل فنّ ومعرفة. حدّث ببغداد عن حسين بن محمد المروزي ومعاوية بن عمر وعفّان بن مسلم وسليمان بن حرب وسريج بن النعمان وهوذة بن خليفة وسعيد بن سليمان وعبدالله بن صالح العجلي، وسليمان بن داوود الهاشمي وعلي بن الجعد وعبدالله بن محمد البغوي ومحمد بن خلف المرزبان وعبيدالله بن عبد الرحمن السكري وأبو مزاحم الخاقاني ومحمد بن عبدالله المستعيني، والحسين بن قاسم الكواكبي والحسين بن إسماعيل المحاملي، وجماعة آخرهم أبو عمر بن السمّاك[3].

إضافة الى ذلك فقد كان صاحب أخبار وآداب ومُلح[4] إلى جانب مهنة الوراقة.

أبو بكر محمد بن إسماعيل بن العباس البغدادي:

كان من الورّاقين العلماء، عرف بـ«المستملي الورّاق» سمع أباه، وتتلمذ عليه، وعلى غيره من الشيوخ العلماء والمحدّثين من أمثال الحسن بن الطيّب الشجاعي وعمر بن أبي غيلان الثقفي، وأحمد بن الحسين بن عبد الجبار الصوفي، وحامد بن محمد بن شعيب البلخي، ومحمد بن يحيى بن الحسين العمي، ومحمد بن محمد الباغندي، وعبد الله بن محمد البغوي ومن بعدهم، وروى عنه الدارقطني، قال: حدّثني محمد بن إسماعيل الورّاق، ويرفع الحديث إلى أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: السفر قطعة من العذاب - الحديث المعروف[5].

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 10/ 26 الترجمة رقم - 5144.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق 10/ 25 - 26.

(4) نفسه 10/ 26.

(5) الخطيب البغدادي/ تاريخ بغداد 2/ 53 - 54 - طبعة القاهرة وبغداد والسعادة بمصر، 1349هـ/ 1931م.

من هذا الاستهلال التاريخي - الفقهي الذي يورده صاحب تاريخ بغداد، تظهر الأهمية لشيخنا الورّاق، كمحدّث أولاً، تربّى على سماع الحديث وأخذ منه، الأمر الذي يجعله في طبقة علماء الحديث، أولاً، قبل أن يمتهن أي شيء، ولهذه الأفضلية في عصره غاية سامية، كان العلماء يطمحون للوصول إليها.

ولد الشيخ الوراق في بغداد، كما يقول[1] سنة ثلاث وتسعين ومائتين للهجرة، وتوفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، ودفن في محلة «باب حرب» وقد عرف عنه الثقة في الحديث والسيرة الحسنة بين الناس[2].

من جميل نوادره، حكاية حدثت له مع ابن صاعد، أحد المحدثين في ذلك الوقت (ق 4 هـ) يقول: دققت على أبي محمد بن صاعد بابه فقال: من ذا؟ فقلت: أنا أبو بكر بن أبي علي، يحيى هنا؟ فسمعته يقول للجارية: هاتي النعل حتى أخرج إلى هذا الجاهل الذي يكنّي نفسه وأباه ويسميني، فأصفعه».

وهذه الحكاية كثيراً ما كان يسأل عنها فيقول للذي يسأله: أسكت الآن، فإذا ألحوا عليه في السؤال حكاها لهم[3]، ولكن ظل أبو بكر من ذوي السمعة في الحديث، وروايته، قال أبو حفص ابن الزيّات: حضرت عند أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي، وحضر محمد بن إسماعيل الورّاق مع أبيه، فسمع نسخة يحيى بن معين، ثم قام إسماعيل وأخذ بيد ابنه وقال للجماعة: اشهدوا أن ابني قد سمع من هذا الشيخ نسخة يحيى بن معين.

وكما أسلفنا فإن ثقاة الحديث ورواته كانوا يطلقون عليه النعوت الحميدة من مثل أنه كان حافظاً وليناً في الرواية ومتيقظاً وحسن المعرفة، وسطوة الحفظ قد طغت عليه، فقد عرف أنه كان عنده صحف كثيرة عن يحيى بن صاعد من مسنده وجموعه وإلى جانب هذا كان ابن إسماعيل في آخر أيامه شيخاً فقيراً، يحضر دار أبي القاسم باستمرار للتزود بالسماع من كتب ابن صاعد، يقول الأزهري: كنت قد اشتريت وأنا صبي جزءاً فيه حديث المائدة التي نزلت على بني اسرائيل، فرآه معي ابن إسماعيل فقال: قد سمعت هذا الحديث، ثم حدّثني به ولم يكن في الجزء سماعه ولا أحضر أصله[4].

لم تشر المصادر التي ترجمت لمحمد بن إسماعيل إلى مصنفاته وكتبه، سوى أنها

---

(1) تاريخ بغداد 2/ 54.

(2) الذهبي/ سير أعلام النبلاء 16/ 388 - 389 - تحقيق أكرم البوشي وشعيب الارنؤوط - مؤسسة الرسالة ط2، بيروت 1404هـ/ 1984م.

(3) تاريخ بغداد 2/ 54.

(4) تاريخ بغداد 2/ 55.

ذكرت أنه كان لديه كتباً ضاعت واستحدث نسخاً من كتب الناس[1]، ثم أنه كان متساهلاً في الذكر عن سند الأخبار والرواة، حتى قال عنه عبيد الله الأزهري: حافظ ليّن في الرواية، يحدث من غير أصل، إلا أن ذلك لم يكن وقتذاك غير مقبول، نظراً لسيادة التحديث من غير أصل، حيث يشار إلى ذلك بالقول: أن التحديث من غير أصل قد عمّ وطمّ، فنرجو أن يكون واسعاً بانضمامه إلى الإجازة[2].

والغريب في الأمر أن الخطيب البغدادي وشمس الدين الذهبي، لم يشيرا إلى مهنته كورّاق.

المرزباني الأديب الورّاق:

هو محمد بن عمران بن موسى بن سعيد بن عبد الله المرزباني[3]، سمع ابن دريد وروى عنه أبو عبد الله الحاكم، وكان علاّمة في الأنساب وعلوم القرآن، وراوية إخباريّا، صادق اللهجة، واسع المعرفة بالروايات، كثير السماع، أخذ عنه البغوي وطبقته، وكانت أكثر رواياته بالإجازة، لكنه يقول فيها بـ«أخبرنا» وكان ثقة صدوقاً من خيار المعتزلة[4].

قال عنه الأزهري: كان المرزباني يضع المحبرة وقنينة النبيذ، فلا يزال يكتب ويشرب[5].

وقال القاضي الحسين بن علي الصيمري: سمعت المرزباني يقول: كان في داري خمسون ما بين لحاف ودوّاج[6] ومعدّة لأهل العلم الذين يبيتون عندي[7].

قال ياقوت كانت ولادته سنة 297هـ وتوفيّ سنة 378هـ فيما ذكر السيوطي أن وفاته كانت سنة 359هـ، فيما ينقل ياقوت نفسه عن الخطيب بأنه توفي سنة 384هـ[8].

---

(1) المصدر السابق نفسه - وسير أعلام النبلاء 16/ 389.

(2) الذهبي/ سير أعلام النبلاء - نفس المكان. وابن العماد الحنبلي - شذرات الذهب في أخبار من ذهب 3/ 92 - دار مسيرة - الطبعة 2 بيروت 1399هـ/ 1979م.

(3) معجم الأدباء 18/ 268 - الترجمة رقم (84)؛ وبغية الوعاة/ ص 87.

(4) المصادر السابقة.

(5) ياقوت/ معجم الأدباء 18/ 268.

(6) الدواج = بتشديد الواو وتخفيفها = اللحاف الذي يلبس، وقيل = ضرب من الثياب أو الحاجات الصغيرة - اللسان - مادة (دوج).

(7) معجم الأدباء 18/ 269.

(8) معجم الأدباء 18/ 269؛ وبغية الوعاة/ ص 87.

وصفته المصادر أنه كان حسن الترتيب لما يصنّفه، يقال - والعهدة على ياقوت الحموي - أنه أحسن تصنيفاً من الجاحظ، وقد صنّف الكثير من الكتب في أخبار الشعراء والأمم والرجال والنوادر(1)، وأهمّ كتبه وفق ما ذكرته قائمة ياقوت هي(2):

1 - أخبار الشعراء المشهورين والمكبرين من المحدثين وأنسابهم وأزمانهم، أولهم بشار بن برد وآخرهم ابن المعتز عشرة آلاف ورقة.

2 - أخبار أبي تمّام، نحو مائة ورقة.

3 - أخبار أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة، أكثر من مائة ورقة.

4 - أخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح وذم، نحو مائتي ورقة.

5 - أخبار البرامكة من ابتداء أمرهم إلى انتهائه مشروحاً، نحو خمسمائة ورقة.

6 - أخبار عبد الصمد بن المعذل الشاعر.

7 - أخبار محمد بن حمزة العلاف، نحو مائة ورقة.

8 - أشعار النساء، نحو ستمائة ورقة.

9 - أشعار الجن المتمثلين فيمن تمثل منهم بشعر، أكثر من مائة ورقة.

10 - الأنوار والثمار فيما قيل في الورد والنرجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار، ثم ذكر الثمار وجميع الفواكه وما جاء فيها، مستحسن النظم والنثر، تلقيح العقول، أكثر من مائة باب، وهو أكثر من ثلاثة آلاف ورقة.

11 - الرياض في أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين.

12 - شعر حاتم الطّائي.

13 - كتاب الأزمنة، ألف ورقة، ذكر فيه أحوال الفصول الأربعة والحرّ والغيوم والبروق والرياح والأمطار وأوصاف الربيع والخريف وطرفا من الفلك وأيام العرب والعجم وسنينهم وما يلحق بذلك من الأخبار والأشعار.

14 - كتاب الأوائل في أخبار الفرس القدماء وأهل العدل والتوحيد وشيء من مجالسهم، نحو ألف ورقة.

15 - كتاب الدعاء، نحو مائتي ورقة.

---

(1) معجم الأدباء 18/ 269.

(2) المصدر السابق/ ص 269 - 272.

16 - كتاب ذمّ الحجاب، نحو مائتي ورقة.

17 - كتاب ذمّ الدنيا، نحو خمسمائة ورقة.

18 - كتاب الشباب والشيب، نحو ثلاثمائة ورقة.

19 - كتاب الزهد وأخبار الزهاد.

20 - كتاب الشعر وهو جامع لفضائله وذكر محاسنه وأوزانه وعيوبه وأجناسه وضروبه ومختاره وأدب قائليه ومنشديه وبيان منحوله ومسروقه وغير ذلك.

21 - كتاب الفرج، نحو مائة ورقة.

22 - كتاب العبادة، نحو أربعمائة ورقة.

23 - كتاب المحتضرين، نحو مائة ورقة.

24 - كتاب المراثي، نحو خمسمائة ورقة.

25 - كتاب المغازي، ثلاثمائة ورقة.

26 - كتاب نسخ العهود إلى القضاة نحو مائتي ورقة.

27 - كتاب الهدايا نحو ثلاثمائة ورقة.

28 - كتاب المديح في الولائم والدعوات، نحو خمسمائة ورق.

29 - المتوّج في العدل وحسن السيرة، أكثر من مائة ورقة.

30 - المرشد في أخبار المتكلمين، نحو مائة ورقة.

31 - المستطرف في الحمقى والنوادر، نحو ثلاثمائة ورقة.

32 - المشرّف في حكم النبي ﷺ وآدابه ومواعظه ووصاياه.

33 - المفصل في البيان والفصاحة نحو ثلاثمائة ورقة.

34 - المزخرف في الاخوان والأصحاب أكثر من ثلاثمائة ورقة.

35 - المعجم ذكر فيه الشعراء على حروف المعجم فيه نحو خمسة آلاف اسم، ألف ورقة.

36 - المقتبس في أخبار النحويين البصريّين وأول من تكلم في النحو وأخبار القراء الرواة من أهل البصرة والكوفة نحو ثمانين ورقة.

37 - الموسّع فيما أنكره العلماء على بعض الشعراء من كسر ولحن وعيوب الشعر، ثلاثمائة ورقة.

38 - المنير في التوبة والعمل الصالح، نحو أربعمائة ورقة.

39 - المفيد في أخبار الشعراء وأحوالهم في الجاهلية والاسلام ودياناتهم ونحلهم، نيّف وخمسة آلاف ورقة.

40 - الموثّق في أخبار الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين على طبقاتهم، نيّف وخمسة آلاف ورقة.

41 - الواثق في وصف أحوال الغناء وأخبار المغنيّن والمغنّيات الاماء والاحرار.

وله غير ذلك.

الكرماني الورّاق:

هو محمد بن عبدالله بن محمد بن موسى، كنيته أبو عبدالله الكرماني النحوي الورّاق[1] واحد من الذين عرفتهم بغداد بعلومه الأدبية والنحوية، إضافة الى شهرته بالوراقة. لم تشرالمصادرالى تاريخ ولادته، بل ذكرت تاريخ وفاته سنة 329هـ[2]، كان كعلماء عصره من اللّغوين ذا فضل ومعرفة بالنحو واللغة. قال عنه ياقوت الحموي: كان مليح الخط صحيح النقل، يورّق بالإجرة، قرأ على ثعلب وخلط المذهبين - الكوفي والبصري - [3]. إستطاع أن يوسّع من مداركه المعرفية وأن يمتطي صهوة اللّغة والنحو، وقد ألّف فيها الكتب التالية[4]:

1 - الموجز في النحو.

2 - الجامع في اللّغة. ذكر فيه ما أغفله الخليل في (العين) وما ذكر أنّه مهمل وهو مستعمل وقد أهمل.

قال ياقوت: وكان بينه وبين إبن دريد مناقضة[5].

أبو عيسى الوراق:

اسمهُ محمد بن هارون الورّاق، لم أعثر على ترجمة له، ولكن أخباره تناثرت في كُتب التاريخ والأدب، وأقدم إشارة نبّهت عنه، صدرت عن المسعودي وأبي حيان

(1 - 2) معجم الأدباء 18/ 213 الترجمة رقم 63، وبغية الوعاة للسيوطي ص 60، والفهرست ص 118، وأعلام الزركلي 6/ 224.

(3 - 5) معجم الأدباء 18/ 213.

التوحيدي، فقد عدّه المسعودي ضمن متكلمي الفرق الإسلامية، وأنه ألّف كتاباً نقض فيه كتاب الجاحظ المعروف بكتاب العثمانية[1]، فيما عدّه التوحيدي في جملة حذاق المتكلمين ونقل عنه قوله: «إن الآمر بما يعلمُ أن المأمور لا يفعلهُ سفيه، وقد علم الله من الكفار أنهم لا يؤمنون، فليس لأمرهم بالإيمان وجه في الحكمة[2].

فيما عدَّهُ إبن كثير من أصحاب إبن الراوندي، ضمن أحداث سنة 296هـ، وقال: أنه أودع السجن بهذه السنة بعد أن قبض عليه، وظَلَّ فيه حتى مات[3].

ومن هذه الأخبار المتفرقة والمتناثرة، يتضح أنه كان من الزنادقة والدهريين، ولكن من المؤسف له، أنه لم يترجم له الترجمة الكاملة، نظراً لموقفه العقلي في ذلك الزمان.

أبو عيسى الوراق الشيعي:

هو محمد بن هارون، كنيته أبو عيسى الوراق[4]، واحد من رجالات الشيعة العلماء، لم يذكر النجاشي تفاصيل كثيرة عن حياته، ولا عن تاريخ ولادته أو وفاته، واكتفى بذكر كتبه التي صنّفها وهي[5]:

1 - كتاب الأمامة.

2 - كتاب السقيفة.

3 - كتاب الحُكم على سورة «لم يكن».

4 - كتاب اختلاف الشيعة والمقالات.

فيما ذكر صاحب «أعيان الشيعة» أنه بغدادي الأصل، وتوفي سنة 247هـ في مدينة الرملة[6] ونقل عن القاضي المعتزلي عبد الجبار، أنه تمسكَ بمذهب الثنوية، وقال المرتضى عنه: كان لا يجوّز ذبح الحيوانات وإتلاف كل شيء حي كما تقول الثنوية، وصنّف في ذلك كتاب المشرقي، وكتاب - النوح على البهائم -، واضاف المرتضى: إن

(1) المسعودي/ التنبيه والاشراف/ ص 342. طبعة عبد الله إسماعيل الصاوى - منشورات المكتبة العصرية في بغداد سنة 1357هـ/ 1938م. وراجع حبيب زيات/ الوراقة والوراقون في الإسلام/ ص 43.

(2) الامتاع والمؤآنسة 3/ 192 - طبعة القاهرة 1944م.

(3) البداية والنهاية 11/ 113.

(4) رجال النجاشي/ ص 263 - باب المحمدين.

(5) المصدر السابق - نفس المكان.

(6) محسن الأمين/ أعيان الشيعة 10/ 83 - طبعة دار المعارف للمطبوعات - بيروت 1403هـ/ 1983م.

التثنية التي رماها به المعتزلة، وتقدمهم في قذفه بها ابن الراوندي، لعداوة كانت بينهما، وكانت شبهته في ذلك، وأضاف: فأما الكتاب المعروف بالمشرقي وكتاب النوح على البهائم، فهما مدفوعان عنه، وما يُبعد أن يكون بعض الثنوية عملهما على لسانه[1] كما نقل صاحب أعيان الشيعة أن ابن النديم، ذكر في «الفهرست» أن جماعة من رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة ثم قال: وممن اشتهر أخيراً أبو عيسى الوراق، وقال بعض الفضلاء، أن الوراق في كتاب الامامة والسقيفة موافق لعقيدة «الإمامية» وأثبت النص الجلي على إمامة أمير المؤمنين علي وأثبت إمامته بالدلائل العقلية فلهذا عاداه المعتزلة وغيرهم[2] وقال المفيد في «الافصاح» إن الوراق في كتاب السقيفة لم يدع نكتة إلا أظهرها وبيّن فساد أقوال المخالفين وأوضحها إيضاحاً شافياً[3].

إبن ولاّد الورّاق:

هو محمد بن ولاّد، هكذا إشتهر، وقيل: هو أبو الوليد أبو الحسن التميمي النحوي[4]. كان من عرب تميم الذين نزحوا الى مصرواستوطنوها، وعلى مايبدو أنه ولد هناك. فياقوت الحموي يقول[5]: أخذ بمصر النحو عن أبي علي الدينوري - ختن ثعلب - ثم رحل الى العراق واستوطن فيه، وأخذ النحو عن شيوخ العراق كالمبرد وثعلب.

مات ببغداد سنة 298هـ وقد بلغ الخمسين، كما يقول ياقوت[6]. وعلى هذا الأساس تكون ولادته سنة 248هـ.

دخل سوق الوراقين في بغداد، بعد قدومه من مصر، ومارس مهنة الوراقة وتزوج من أمةٍ، وعرف عنه جودة الخط وحسن الضبط، وفيه عَرَجٌ، وقد غلب الشيبُ عليه[7].

تماحك مع علماء اللّغة والنحو وعرف بين علماء اللّغة والأدب، وألّف عدة كتب منها[8]:

1 - كتاب في النحو سمّاه (المنمّق).

2 - كتاب المقصور والممدود وغير ذلك.

أغرته مهنة الوراقة لأن (ينصب) على المبرّد بالإحتيال عليه لأخذ إجازته على كتاب (سيبويه)، فقد نقل ياقوت الحموي الواقعة على النحو التالي: قال، كان المبرّد لايمكّن

(1 - 3) أعيان الشيعة - نفس المكان.

(4 - 5) معجم الأدباء 19/ 105 - الترجمة رقم 29.

(6 - 8) نفس المصدر السابق 19/ 106.

أحداً من نسخ (كتاب سيبويه) من عنده، فكلم إبن ولاّد المبردَ على شيء سمّاه له، فأجابه المبرد، فأكمل نسخه وأبى أن يعطيه شيئاً حتى يقرأه عليه[1]، فغضب المبرد وسعى به الى بعض خدم السلطان ليعاقبه على ذلك، فالتجأ إبن ولاّد الى صاحب الخراج ببغداد، وكان يؤدّب ولده، فأجابه، ثم ألحّ على المبرد حتى أقرأه الكتاب[2]. وهذه إحدى الحيل التي يحصل بها الوراقون على الإجازة من العالِم.

أبو العبّاس الأصم(*):

هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن معقل بن سنان، الإمام المحدّث، سند العصر، رحلة الوقت، أبو العباس الأموي مولاهم، السّناني المعقلي النيسابوري، عرف بالاصم وبه اشتهر، قال السمعاني: الأصمّ: بفتح الألف وصاد مهملة وتشديد الميم في آخر الكلمة، هذه صفة من كان لا يسمع من الصمم، والمشهور به في الشرق والغرب، أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف[3]، ظهر به الصمم بعد انصرافه من الرملة[4]، وقد لحقته هذه العاهة وهو شاب له بضع وعشرون سنة[5]، ثم تزايد به واستحكم، حتى أصبح لا يسمع نهيق الحمار، وقد حدّث في الإسلام 76 سنة.

ولد سنة 247هـ، وتوفي سنة 346هـ بإجماع المصادر، وقد بلغ من العمر 99 سنة، وهو كغيره من العلماء المسلمين، فقد تسربل بالزهد، وشدّ الرحال لاكتساب المعرفة وسماع الأحاديث، فاستمع وأسمع، وحدّث وتلقى[6]، وتخرّج على يده الكثير من الحفّاظ، وأجاز

(1) هنا أراد هذا الوراق أخذ الإجازة عنه، كي يحقق له نسخةُ وبيعه ./راجع فصل - منهج الوراقة - في هذه الموسوعة - الجزء الثاني -.

(*) سير أعلام النبلاء 15/ 452 - 460 - تحقيق إبراهيم الزيبق/ المنتظم 6/ 386 - 387؛ الأنساب 1/ 294 - 298؛ تذكرة الحفّاظ 3/ 860 - 864؛ الوافي بالوفيات 5/ 223، نكت الهميان/ ص 279؛ البداية والنهاية 11/ 232؛ النجوم الزاهرة 3/ 317؛ شذرات الذهب 2/ 373 - 374.

(2) معجم الأدباء 19/ 106.

(3) الأنساب 1/ 294.

(4) انفرد صلاح الدين الصفدي بهذه الرواية - راجع نكت الهميان/ص 279، طبعة المطبعة الجمالية بمصر سنة 1329هـ/ 1911م، فيما ذكرت بقية المصادر - أعلاه - أنه أصمّ بعد الرحلة، وربما وقعت في تصحيف «الرملة إلى رحلة».

(5) سير أعلام النبلاء 15/ 454.

(6) راجع سماعه وأحاديثه في سير أعلام النبلاء 15/ 453 - 455؛ والأنساب 1/ 295 - 297.

الرواية عنه أبو نعيم الحافظ[1]، وبذا يكون واحداً من أكابر شيوخ الحديث.

وعلى ما يبدو أن عاهة الصمم كانت تسبّب له مشاكل نفسية لا يرتاح لها، فقد عرف عنه أنه كان يكره أن يقال له الأصم، فكان أبو بكر بن إسحاق الصبّغي يلقّبه بالمعقلي[2]، تحاشيا لذلك دون أي جرح لمشاعره.

كان أبوه ورّاقا، فكان يضبط له أحاديثه وسماعه، ونحى هو منحى أبيه في الوراقة والتدوين، فكان حسن المذهب في ذلك، وقد رافق المسجد واقام به طيلة سبعين سنة، فقد ذكرت المصادر أنه أذن في مسجده سبعين سنة، كما عرف عنه حسن الخلق وسخاء النفس، وعندما كان يحتاج إلى شيء لمعاشه فإنه يلتجأ إلى الوراقة، فيورّق ويأكل من كسب يده. وشهرته كانت بالحديث أعمّ منها بالوراقة، ولهذا السبب عابوا عليه أنه كان يأخذ على الحديث. وقالوا: إنما كان يعيبه به من لا يعرفه، فإنه كان يكره ذلك أشدّ الكراهة، ولا يناقش أحداً فيه، إنما كان ورّاقه وابنه أبو سعيد يطلبان الناس بذلك[3]، وكان يكره ذلك، ولا يقدر على مخالفتهما.

دخل بغداد سنة 269هـ[4] بعد أن جال الأمصار والبلدان الإسلامية بصحبة أبيه، وهو يسمع الأحاديث ويدوّنها، ثم عاد إلى خراسان وهو ابن ثلاثين سنة، وقد وصل إلى سدّة المحدّثين الكبار.

تجلّت حافظته باللاّوعي عنده، وهو أمر يشير إلى حالة توحّده مع علوم الدين، فقد ذكر أبو عبد الله الحاكم حادثة عنه قال فيها: حضرت أبا العباس يوماً في مسجده، فخرج ليؤذن لصلاة العصر، فوقف موضع المئذنة ثم قال بصوت عال: أخبرنا الربيع بن سليمان، أخبرنا الشافعي، ثم ضحك وضحك الناس، ثم أذّن[5].

تراخت قواه في أعوامه الأخيرة، ومع ذلك فهو دائم الاملاء في مجالسه ومراجعة علومه وأحاديثه، فقد حدّث بكتاب «معاني القرآن» في سنة نيّف وسبعين ومئتين، وذكر الحافظ أبو حامد الأعمشي، قال: كتبنا عن أبي العباس بن يعقوب الورّاق في مجلس محمد بن عبد الوهاب الفرّاء سنة خمسة وسبعين ومئتين[6].

(1) سير أعلام النبلاء 15/ 455.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) تذكرة الحفّاظ 3/ 861؛ وسير أعلام النبلاء 15/ 456.
(4) الأنساب 1/ 296.
(5) الأنساب 1/ 297؛ وسير أعلام النبلاء 15/ 458.
(6) سير أعلام النبلاء 15/ 457.

وقال الحاكم: سمعت محمد بن الفضل بن محمد بن إسحاق بن خزيمة، سمعت جدّي، وسئل عن سماع «كتاب المبسوط» من أبي العباس الأصم، فقال: اسمعوا منه فإنّه ثقة، قد رأيته يسمع مع أبيه بمصر وأبوه يضبط سماعه[1].

وقال الحاكم أيضاً: سمعت يحيى بن منصور القاضي، عن أبي نعيم بن عدي قال: اجتمع جماعة يسألونه المقام بنيسابور لقراءة «المبسوط» فقال: يا سبحان الله! عندكم راوي هذا الكتاب الثقة المأمون أبو العباس الأصم، وأنتم تريدون أن تسمعون من غيره؟[2] وهذا اعتراف مطلق من علماء الحديث بجودة نقله وصحّة حديثه واعتراف بفضله، كما أنه يحافظ على صحة نقله وسماعه، ولا يسمح بإجازة أحاديث نقلت عنه فيها أحاديث مدخلة أو موضوعة، أسندت روايتها إليه، قال الذهبي: قرأت بخط أبي علي الحافظ، يحث أبا العباس الأصم عن الرجوع عن أحاديث أدخلوها عليه منها حديث الصفّاني عن علي بن حكيم، عن حميد بن عبد الرحمن، عن هشام بن عروة، حديث «قبض العلم»[3]، وحديث أحمد بن شيبان عن ابن عيينة، عن الزّهري، عن سالم، عن أبيه: بعث رسول الله ﷺ سريّة. . .[4] قال: فوقع أبو العباس: كلّ من روى عنّي هذا، فهو كذاب، وليس هذا في كتابي[5].

وعندما قربت أيامه الأخيرة، كان يتوقع أجله، ويحرص على طلاّب العلم الذين يقصدونه للسماع عليه، قال الحاكم: خرج علينا أبو العباس محمد بن يعقوب، ونحن في مسجده، وقد امتلأت السكة من أولّها إلى آخرها من الناس في ربيع الأول سنة 344هـ، وكان يملي عشية كل يوم اثنين من أصوله، فلما نظر إلى كثرة الناس والغرباء، وقد قاموا يطرّقون له[6]، ويحملونه على عواتقهم من باب داره إلى مسجده، فجلس على جدار المسجد، وبكى طويلاً، ثم نظر إلى المستملي فقال: اكتب سمعت محمد بن إسحاق الصفّاني يقول: سمعت الأشج، سمعت عبد الله بن إدريس يقول: أتيت يوماً باب الأعمش بعد موته، فدققت الباب فأجابتني امرأة يقال لها برّه[7]، وقال: هاي. . . هاي يا عبد الله

(1) سير أعلام النبلاء 15/ 457.
(2) سير أعلام النبلاء 15/ 457.
(3) راجع هذا الحديث في كتب الصحاح في العلم - باب كيف يقبض العلم.
(4) راجع بقية الحديث في «موطأ» مالك ابن أنس 2/ 450 باب الجهاد.
(5) سير أعلام النبلاء 15/ 460.
(6) أي يوسّعون له الطريق.
(7) وحده السمعاني ذكر الاسم - راجع الأنساب 1/ 297.

بن إدريس، ما فعل جماهير العرب التي كانت تأتي هذا الباب؟ ثم بكى الكثير، ثم قال: كأني بهذه السكة لا يدخلها أحد منكم، فإني لا أسمع وقد ضعف البصر، وحان الرحيل وانقضى الأجل، فما كان إلا بعد شهر أو أقل منه حتى كفّ بصره، وانقطعت الرحلة وانصرف الغرباء(1).

وبعد هذه الرحلة المضنية في حياته الثقافية، وهذا الكلل الذي لحق به وما يعانيه من ضعف البصر وكفّه، **فكان الناس يناولونه قلما، فيعلم أنهم يطلبون الرواية، فيقول**: حدثنا الربيع بن سليمان، ويقرأ الأحاديث التي كان يحفظها وهي أربعة عشر حديثا وسبع حكايات، فيرويها، وصار بأسوأ حال إلى شهر ربيع الآخر سنة ستة وأربعين وثلاثمائة، حيث ودّع الأهل والأحباب، وفارق الدنيا بمن فيها(2).

يحيى بن عدي(*):

أبو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي، ولد بتكَريت(3) سنة 280هـ وتوفيّ ببغداد سنة 364هـ، فيلسوف منطقي، عرفته الأوساط العلمية في بغداد وفي بقية الأمصار الإسلامية الأخرى، نزل بغداد في ريعان شبابه، وبها أقام وتعلّم وتثقّف، وتعاطى العلوم والفلسفة، وإليه انتهت رياسة أهل المنطق في زمانه (ق 4 هـ).

تتلمذ على يد أبرز الفلاسفة في عصره وهم: أبو بشرمتي بن يونس، وأبو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي، وعاشر غيرهم من الفلاسفة، وأنجب من التلاميذ المشهورين أبو سليمان المنطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني.

كان هذا الرجل أوحد دهره في علوم الفلسفة، ومذهبه الديني كان من مذاهب النصارى اليعقوبية، جذبته الفلسفة اليونانية وتشبّع بها، ونقل علومها من السريانية إلى العربية، وهذا الشغف المعرفي دفعه لأن يعتمد على نفسه في اكتساب لقمة العيش، فقد ذكرت المصادر التي ترجمت له، أنه كان كثير الكتابة والنسخ، وكتب الكثير بيده، من مختلف الفنون في إطار مهنة الوراقة، ولكنّه ظلّ محافظاً على تفرّده في المنطق والفلسفة،

(1) الأنساب 1/ 297؛ وسير أعلام النبلاء 15/ 458 - 459؛ والمنتظم 6/ 386 - 387.
(2) المصادر السابقة أعلاه - نفس المواضع.
(*) الفهرست/ ص 369؛ تاريخ الحكماء/ ص 361 - 364؛ تاريخ حكماء الإسلام/ ص 97؛ طبقات الاطباء/ ص 317 - 318؛ الامتاع والمؤانسة 1/ 37 - أعلام الزركلي 8/ 156.
(3) انفرد بهذه الرواية - الزركلي - بمنقولاته، وهو الوحيد الذي أشار إلى تاريخ ولادته، أنظر الاعلام 8/ 156.

وقد أخذت الوراقة من وقته الكثير، ولكنّه ظلّ محافظاً على تفرّده في المنطق والفلسفة، الأمر الذي جعل ابن النديم يعاتبه على ذلك، وهم في سوق الورّاقين، فردّ عليه قائلاً: من أيّ شيء تعجب في هذا الوقت؟ من صبري؟ قد نسخت بخطي/ وكان ذا خطّ قاعدي/ نسختين التفسير الكبير للطبري، وحملتها إلى ملوك الأطراف، وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى، ولعهدي بنفسي وأنا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأقل[1]، وهذا التصريح يوضّح مدى معاناة هذا الفيلسوف ومدى صبره وجلده، إلا أنه بهذا الموقف يثبت مدى استقلاليته الفكرية والمعاشية، فهو لم يطرق باب سلطان، ولم يصغّر أكتافه أمام عتبة أمير أو وزير، وقد كفته الوراقة ذلك.

إنَّ الحسّ المعرفي، جعل من يحيى بن عدي أن يكون عارفاً بأنواع الكتب وأهميّتها من الناحية الثقافية، وعلى ما يبدو أن اشتغاله بالوراقة، واحتكاكه بالوراقين من جميع الأصناف، وسّع دائرة معارفه الثقافية والاجتماعية، وصارت خبرته بالسوق واسعة، واعتقد أن الدلالين من الوراقين وباعة الكتب، كانوا يستشيرونه حول بعض الكتب، وأهميّتها المعرفية، نظراً لما عرفوا فيه من سعة الاطلاع وجودة المعرفة، والخبرة الواسعة بالفلاسفة والمفكرين، وكان هو بدوره يسعى لكسب ودّ هؤلاء الورّاقبين بغية تحصيل ما يشبع رغباته العلمية، فكان دائم الطلب على كتب الفلاسفة، فلقد ذكر ابن النديم خبراً في هذا السياق، جاء فيه: قال أبو زكريا يحيى بن عدي: أن شرح الاسكندر للسماع كله، ولكتاب البرهان رأيته في تركة إبراهيم بن عبد الله الناقل النصراني، وأن الشرحين عرضا عليّ بمائة دينار وعشرين ديناراً، فمضيت لاحتال في الدنانير، ثم عدت فأصبت القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب على رجل خراساني بثلاثة آلاف دينار، وقال لي غيره ممّن أثق به: إن هذه الكتب كانت تحمل في الكم، وقال أنه التمس من إبراهيم بن عبد الله فُص سوفسطيقا وفص الخطابة وفص الشعر، بنقل إسحاق بخمسين ديناراً، فلم يبعها وأحرقها وقت وفاته[2].

وهذا الخبر يوضّح مدى الشغف المعرفي عند ابن يحيى، من ناحية، ومن ناحية أخرى يكشف مدى الفقر الذي هو فيه، بحيث أنه يعجز عن شراء كتب الفلاسفة.

لم يخل هذا الفيلسوف الورّاق من اللغط والقول فيه، كأيّ عالم كبير في وقته، من ألسنة معاصريه، فقال عنه التوحيدى: كان شيخاً ليّن العريكة فروقة[3] مشوّه الترجمة،

(1) الفهرست/ ص 369 - الطبعة المصرية.

(2) الفهرست/ ص 354 - في ترجمة الاسكندر الأفروديسي.

(3) الفروقة = الشديد الفزع.

رديء العبارة، لكنه كان متأتيا في تخريج المختلفة[1]، وقد برع في مجلسه أكثر هذه الجماعة، ولم يكن يلوذ بالالهيّات، كان ينبهر فيها، ويظل في بساطها، وكان مبارك المجلس[2]، فيما قال البيهقي: أنه كان حكيماً، وهو أفضل تلاميذ أبي نصر الفارابي[3].

وبالرغم مما يعانيه من عسر ذات اليد، وضيق الحال، وما تأخذه الوراقة منه، من جهد ووقت، إلا أنه كان كثير التأليف والتصنيف والترجمة والنقل، فقد ذكرت المصادر لهُ الكتب التالية[4]:

1 - كتاب نقض حجج القائلين بأن الأفعال خلق الله واكتساب للعبد.

2 - كتاب تفسير طوبيقا لارسطو طاليس.

3 - كتاب مقالة في البحوث الخمسة عن الرؤوس الثمانية.

4 - كتاب في تبيّن الفصل بين صناعتي المنطق الفلسفي والنحو العربي.

5 - كتاب فضل صناعة المنطق.

6 - كتاب هداية من تاه إلى سبيل النجاة.

7 - كتاب في تبيّن أن للعدد والاضافة ذاتين موجودتين في الأعداد.

8 - مقالة في استخراج العدد المضمّر.

9 - مقالة في ثلاثة بحوث غير المتناهى، وتعليق آخر في ذلك.

10 - مقالة في أن كل متصل إنما ينقسم إلى منفصل.

11 - كتاب جواب يحيى بن عدي عن فصل من كتاب أبي الحبش النحوي، فيما ظنّه أن العدد غير متناه.

12 - مقالة في الكلام في أن الأفعال خلق الله واكتساب العباد.

13 - كتاب أجوبة بشر اليهودي عن مسائله.

14 - كتاب شرح مقالة الاسكندر في الفرق بين الجنس والمادة.

15 - مقالة في أن حرارة النار ليست جوهراً للنار.

---

(1) يقصد المسائل المختلفة.

(2) الامتاع والمؤانسة 1/ 37 بعناية أحمد أمين وأحمد الزين - طبعة القاهرة 1939م.

(3) تاريخ حكماء الاسلام/ ص 97 نشرة محمد كرد علي - دمشق 1365هـ/ 1946م.

(4) راجع القفطي/ أخبار العلماء بأخبار الحكماء/ ص 236 - 238 - طبعة السعادة الأولى سنة 1326هـ وطبعة ليبسك سنة 1320؛ وعيون الأطباء/ ص 318؛ والزركلي 8/ 156.

16 - مقالة في غير المتناهي.

17 - مقالة في الرد على من قال بأن الاجسام مجلبة على طريق الجدل.

18 - مقالة تفسير فصل في المقالة الثامنة من السماع الطبيعي لارسطوطاليس.

19 - مقالة في أنه ليس شيء موجود غير متناه لا عدداً ولا عظماً.

20 - مقالة في تزييف قول القائلين بتركيب الاجسام من أجزاء لا تتجزأ.

21 - مقالة في تبيين ضلالة من يعتقد أن علم الباري بالأمور الممكنة قبل وجودها، وتعليق أخر على نفس المعنى.

22 - مقالة في أن الكم ليس فيه تضاد.

23 - مقالة في القطر غير مشارك للضلع.

24 - عدّة مسائل في كتاب ايساغوجي.

25 - مقالة في أن الشخص اسم مشترك.

26 - مقالة في الكلّ والأجزاء.

27 - تفسير الألف الصغرى من كتب أرسطوطاليس فيما بعد الطبيعة.

28 - مقالة في الحاجة إلى معرفة ماهيات الجنس والفصل والنوع والخاصة والعرض في معرفة البرهان.

29 - مقالة في الموجودات.

30 - مقالة في أن كل متّصل ينقسم إلى أشياء، ينقسم دائماً بغير نهاية.

31 - كتاب طبيعة الممكن وأقوى الحجج على ذلك، والتنبيه على فسادها.

32 - مقالة التوحيد.

33 - مقالة في أن المقولات عشر لا أقل ولا أكثر.

34 - مقالة في أن العرض ليس هو جنساً للتسع المقولات العرضية.

35 - مقالة في تبيّن وجود الأمور العاميّة.

36 - قول في الجزء الذي لا يتجزأ.

37 - تعاليق عدّة في معان كثيرة.

38 - قول في تفسير أشياء ذكرها عند ذكره فضل صناعة المنطق.

39 - تعاليق عدّة عنه عن أبي بشر متّي في أمور جرت بينهما في المنطق.

40 – مقالة في قسمة الاجناس الستة التي لم يقسمها أرسطوطاليس إلى أجناسها المتوسطة وأنواعها وأشخاصها.

41 – مقالة في البحوث العلمية الأربعة عن أصناف الموجود الثلاثة الإلهي والطبيعي والمنطقي.

42 – مقالة في نهج السبيل إلى تحليل القياسات.

43 – كتاب الشبهة في إبطال الممكن.

44 – جواب الدارمي وأبي الحسن المتكلم عن المسألة في إبطال الممكن.

45 – مقالة بينه وبين إبراهيم بن عدي الكاتب ومناقضته في أن الجسم جوهر وعرض.

46 – مقالة في جواب إبراهيم بن عدي الكاتب.

47 – رسالة كتبها لأبي بكر الآدمي العطّار فيما تحقّق من اعتقاد الحكماء بعد النظر والتحقيق.

هكذا فاضت قريحة هذا الفيلسوف الورّاق بهذا النتاج الفكري الهائل، وتركها للأجيال التي جاءت بعده، لتستفيد منها، وحينما واتته المنيّة، أوصى إلى أبي علي إسحاق بن زرعة أن يكتب على قبره، وكان وقتها في بيعة «مرتوما» بقطعة الدقيق هذين البيتين[1]:

ربّ ميّت قد صار بالعلم حيّا ومبقيّ قد مات جهلا وعيّا
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلودا ولا تعدو الحياة في الجهل شيا

فكتبت على قبره بعد وفاته، وقد بلغ من العمر 81 سنة.

(1) طبقات الاطبّاء/ ص 318.

الفصل الرابع

الورّاقون الأُدباء

ابن سعدان الوراق:

هو إبراهيم بن محمد بن سعدان بن المبارك[1] واحد من العلماء والادباء واستاذ في الوراقة، وجمّاعة للكتب، صحيح الخط، صادق الروايه، لم تشر المصادر إلى تاريخ ولادته أو وفاته، بل أشارت إلى أن له من الكتب[2]:

1 - كتاب الخيل.

2 - كتاب حروف القران.

وكان ابنه محمد بن سعدان يشاطره المهنة والأدب وله كتاب «القراءات» كبير وكتاب «المختصر في النحو»[3].

الرمذي الصغير الوراق:

هو أحمد بن إبراهيم اللغوي المشهور، أستاذ أبي العباس ثعلب، كنيته أبو الحسن[4].

كان عالماً بالنحو ويكفي أن نعرف أنه أستاذ ثعلب، أخذته مهنة الوراقة فلم ينصرف إلى التأليف وكان خطه يرغب فيه ولم يذكر أنه صنف كتاباً[5].

المعيدي الوراق:

هو أحمد بن سليمان ويكنى أبو الحسن[6] وراق يعرفه ابن النديم اشتغل بالحديث وروى عن علي ابن ثابت وعن أبي عبيد.

خطه يرغب فيه وكان واحد من العلماء المشاهير الثقاة[7].

(1 - 3) الفهرست/ ص 118.

(4 - 5) الفهرست/ ص 191.

(6 - 7) الفهرست/ ص 118.

الحلواني الوراق:

هو أبو سهل أحمد بن محمد بن عاصم الحلواني[1] كان من أقرباء أبي سعيد السكري وروى كتبه وأخذ عنه ابن النديم: كان خطه في نهاية القبح إلا أنه من العلماء وله كتاب المجانين الأدباء[2].

السكري الوراق:

هو الحسن بن الحسين بن عبد الله بن عبد الرحمن لقبه السكري وكنيته أبو سعيد[3].

ذكرت المصادر عنه أنه كان حسن المعرفة باللغة والانساب والأيام مرغوب في خطه لصحته[4].

لم يذكر ابن النديم تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته بل ذكر أنه توفي وله من الكتب[5]:

1 - كتاب الوحوش.

2 - كتاب النبات.

3 - عمل اشعارا لجماعة من الفحول منهم: أمرؤ القيس والنابغتان وقيس بن الخطيم وتميم بن أبي مقبل.

4 - عمل اشعار اللصوص واشعار الهذليين واشعار هدبة بن الخشرم والأعشى ومزاحم العقيلي والاخطل وزهير وغير ذلك.

5 - عمل شعر أبي نواس وتكلم عن معانيه وغرضه ويقع في نحو ألف صفحة.

6 - كتاب الأبيات الثائرة.

7 - كتاب المناهل والقرى، يقول ابن النديم وقد رأيت خطه. واطّلع على الكثير من كتبه هذه[6].

عبيد الله بن أبي سعيد الوراق:

ذكره ابن النديم وقال عنه: كان اخبارياً نسابه راويه للشعر وله الكتب التالية[7]:

1 - كتاب العربية.

(1 - 2) الفهرست/ ص 119.

(3 - 6) الفهرست/ ص 117.

(7) الفهرست/ ص 158.

2 - كتاب الايمان والدعاء والدواهي.
3 - كتاب المدينه وأخبارها.
4 - الشعراء.
5 - كتاب الألقاب.

ابن وداع الوراق:

هو عبد الله بن محمد بن وداع بن الزياد بن هاني الأزدي كنيته أبو عبد الله[1]، كان حسن المعرفة، صحيح الخط، خطه يرغب الناس فيه ويأخذ خطه الثمن.

ابن وصيف الناشيء[*]:

هو عليّ بن عبد الله بن وصيف الناشيء يكنّى أبا الحسين، واحد من المعروفين ببغداد في الجدل والأدب والنادرة، ولد ببغداد سنة 271هـ وتوفي فيها سنة 365هـ ودفن في مقابر قريش[2].

ينحدر من طبقة اجتماعية مسحوقة، فقد نقل عنه قوله[3]: كان جدّي وصيف مملوكاً وكان أبي عبد الله عطاراً في الحضرة/ يقصد بغداد/ بالجانب الشرقي (الرصافة).

تلقّف المعرفة منذ صباه، وكان ينتبه لروّاد دكان أبيه، الذي نشأ معه فيه، قال كان الرومي (الشاعر) يجلس عندنا وأنا لا أعرفه، وكان يلبس الدارعة، وثيابه وسخة، وانقطع عنّا مدة، فسألت عنه أبي وقلت: ما فعل ذلك الشيخ الوسخ الثياب الذي كان يجلس الينا؟ فقال: ويحك ذاك ابن الرومي، وقد مات، فندمت أن لم أكن أخذت عنه شيئاً ولا عرفته في حال حضوره، وتشاغلت بالصنعة عن طلب العلم.

هذه الحادثة جعلت منه أن يفطن إلى العلماء الذين يزورون أبيه، ويحاول الاستفادة منهم، ومن هؤلاء كان ثعلب النحوي، قال: لقيته ولم آخذ عنه إلا أبياتاً منها[4].

«ان أخا الأخوان من يسعى معك   ومن يضرّ نفسه لينفعك»[5]

---

(1) الفهرست/ ص 118.
(*) أفرد له ياقوت الحموى ترجمة وافية في معجم الأدباء 13/ 280 - 299.
(2) معجم الأدباء 13/ 282.
(3) المصدر السابق 13/ 281.
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) وبعد البيت « ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك».

سيطرت عليه أجواء الجدل، في بغداد، وقتذاك، وكان قثوما[1] بها، مما جعله قليل البضاعة في الأدب، ذكرت المصادر[2] أنه كان يعتقد الامامة لعلي، ويناظرعليها بأجود عبارة، فاستنفد عمره في مديح أهل البيت حتى عرف بهم، وأشعاره فيهم لا تحصى كثرة، ومع ذلك مدح الراضي بالله، وله معه أخبار، وقصد كافور الإخشيدي بمصر وامتدحه، وامتدح ابن خنزابه، وكان ينادمه، وَطَرِيَ[3] إلى البريدي بالبصرة، وإلى أبي الفضل بن العميد بأرجان، وعضد الدولة بفارس.

لم يتزوج ولم يخلف عقبا، قال عنه الخالع: كان يميل إلى الأحداث ولا يشرب النبيذ، وله في المجون والوَلَع طبقة عالية، **وعنه أخذ مُجّان باب الطاق كلهم هذه الطريقة**، وكان يخلط بجدله ومناظراته هزلاً مستملحاً ومجوناً مستطاباً، يتعمّد به أخجال خصمه وكسر حدّه.

* علاقته بالادباء والشعراء:

كان ابن وصيف الناشىء يميل إلى الأدب والشعر، رغم إنحيازه للجدل، وعلى ما يبدو أن مهنة الوراقة هي التي رسّخت فيه حب الأدب والشعر، ومن يتعاطونه، حتى كان يملي على الناس شعره، ويراقب من هو أقرب إلى الفهم والأخذ عنه. قال الخالع: حدّثني أبو الحسن الناشىء قال: كنت بالكوفة في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، وأنا أملي شعري في المسجد الجامع، والناس يكتبونه عنيّ، وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم، وهو بعد لم يُعرَفْ ولم يلقّب بالمتنبي، فأمليت القصيدة التي أوّلها

بآل محمّد عرف الصواب ... وفي أبياتهم نزل الكتاب

وقلت فيها

كأن سنان ذابله ضمير ... فليس عن القلوب له ذهاب
وصارمه كبيعته بخُمّ ... مقاصدها من الخلق الرقاب

قال: فلمحته/ يقصد المتنبي/ يكتب هذين البيتين[4]، وهذه الحالة تجعله يعرف عن قرب أهل الأدب، ويراقب تطورهم، وثمة حادثة تؤكد إجلاله لأهل العلم والأدب،

(1) قثوما = كثير القيام.
(2) معجم الأدباء 13/ 281 - 282.
(3) طرى إليه: أقبل.
(4) معجم الأدباء 13/ 290.

أوردها بديع الزمان الهمذاني، قال: سمعت أبا الحسين الناشىء بمدينة السلام، وحضرت مجلس أبي الحسين المغلّس الفقيه، فانقلبت محبرة لبعض من حضر على ثيابي، فدخل أبو الحسين/ الناشىء/ وحمل إليّ قميصاً ديبقيّا ورداءً حسناً، قال: فأخذتهما ورجعت إلى بيتي، وغسلت ثيابي ولبستهما، ورددت القميص والرداء إلى أبي الحسين، فلما رآهما غضب غضباً شديداً وقال: البسهما، لولا أنك تتوشح بالأدب لجفوتك[1].

* لُمَحٌ من شعره:

طغت على شعره مسحة من البكائية الحزينة، حيث أنه مال بشعره نحو التشيّع، فرثى أهل البيت بكثير من أشعاره، وهو يكاد يكون الغالب، ومع ذلك، كانت له أبيات في وصف الخمر وبعض الأغراض الأخرى، كقوله في الخمر[2]:

«دنان كرهبان عليها برانس من الخزّ دكن يوم فصح تصفف[3]
ينظّم منها المزج سلكا كأنّه إذا ما بدا في الكأس درّ منصّف»

ولكن رثائياته هي الأثبت والأوسع انتشاراً، قال الخالع[4]: كنت مع والدي في سنة 346هـ، وأنا صبي في مجلس الكبوذي، في المسجد الذي بين الورّاقين والصاغة، وهو غاصّ بالناس، وإذا رجل قد وافى وعليه مرقعة وفي يده سطيحة وركوة، ومعه عكّاز وهو شعث، فسلّم على الجماعة بصوت يرفعه ثم قال: أنا رسول فاطمة الزهراء صلوات الله عليها، فقالوا: مرحباً بك وأهلاً، ورفعوه، فقال: أتعرفون لي أحمد المزوّق النائح؟ فقالوا: ها هو جالس. فقال: رأيت مولاتنا عليها السلام في النوم فقالت لي: امض إلى بغداد واطلبه وقل له: نح على ابني بشعر الناشىء الذي يقول فيه:

بني أحمد قلبي لكم يتقطّع بمثل مصابي فيكم ليس يسمع

قال: وكان الناشىء حاضراً، فلطم لطماً عظيماً على وجهه، وتبعه المزوّق والناس كلهم، ثم ناحوا بهذه القصيدة في ذلك اليوم إلى أن صلّى الناس الظهر، وتقوّض المجلس، وجهدوا بالرجل أن يقبل شيئاً منهم فقال: والله لو أعطيت الدنيا ما أخذتها،

(1) المصدر السابق 13/ 295.
(2) نفسه 13/ 287 - 288.
(3) دكن = جمع أدكن، وهو المائل للسواد.
(4) معجم الأدباء 13/ 292 - 293.

فإني لا أرى أن أكون رسول مولاتي عليها السلام، ثم آخذ عن ذلك عوضا، وانصرف ولم يقبل شيئاً، قال: والقصيدة هي بضعة عشر بيتاً منها[1]:

عجبت لكم تفنون قتلا بسيفكم ويسطو عليكم من لكم كان يخضع
كأن رسول الله أوصى بقتلكم وأجسامكم في كل أرض توزّع

واجتاز به الخالع ذات يوم، وهو جالس في «السراجين»[2]، فقال له الناشىء: قد عملت قصيدة وقد طُلِبَتْ، واريد أن تكتبها بخطّك حتى أخرجها. فقلت/ والكلام للخالع/ : أمضي في حاجة وأعود، وقصدت المكان الذي أردته، وجلست، فحملتني عيني فرأيت في منامي أبا القاسم عبد العزيز الشطرنجي النائح، فقال لي: أحبّ أن تقوم فتكتب قصيدة الناشىء البائية، فإنّا قد نِحْنا بها البارحة بالمشهد، وكان هذا الرجل قد توفيّ وهو عائد من الزيارة، فقمت ورجعت إليه وقلت: هات البائية حتى أكتبها، فقال: من أين علمت أنها بائية؟ وما ذكرت بها أحداً؟! فحدّثته بالمنام، فبكى وقال: لا شك أن الوقت قد دنا، فكتبتها، وكان أولّها[3]:

«رجائي بعيد والممات قريب ويخطىء ظني والمنون تصيب»

ومن شعره الجميل الموشّى بالغزل هذه الأبيات[4]:

دليل توارى النجم من طول مكثه كما أزورّ محبوب لخوف رقيبه
كأن الثريا فيه باقة نرجس تجيء بها صبوةٍ لحبيبه

وله أيضاً[5]:

وكأن عقرب صدغه وقفت لمّا دنت من نار وجنته

* نوادره في الشعر والمجادلات الكلامية وغيرها:

قال الخالع: أنشدني الناشىء يوماً لنفسه من قصيدة[6]:

تجاه الشّطا جنب الحمى فالمشرف حيال الربى فالشاهق المتشرّفُ

(1) معجم الأدباء 13/ 293.
(2) أحد أسواق بغداد المعروفة.
(3) معجم الأدباء 13/ 294.
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) معجم الأدباء 13/ 295.
(6) معجم الأدباء 13/ 286 - 287.

فقلت له: بم ارتفعت هذه الأسماء وهي ظروف؟ فقال: بما يسوك، ومنها:

طلول أطار الحزن لي حزن نهجها ... وألزمني وجدا عليها التأسّف
وقفت على أرجائها أسأل الربا ... عن الخرّد الاتراب والدارصفصف
وكيف يجيب السائلين مرابع ... عفتها شآبيب من المزن وكّف
دنان كرهبان عليها برانس ... من الخزّ دُكنٌ يوم فصحٍ تصففُ[1]

قال الخالع: وكانت له جارية سوداء تخدمه، فدخل يوماً إلى دار أخته وأنا معه، فرأى صبياً صغيراً أسود، فقال لها: من هذه؟ فسكتت، فألحّ عليها فقالت: ابن بشارة، فقال: مِمَّنْ؟ فقالت: من أجل هذا أمسكت، فاستدعى الجارية وقال لها: هذا الصبيّ من أبوه؟ فقالت: ماله أب، فالتفت إليّ وقال: سلّم إذاً على المسيح عليه السلام [2].

ومن نوادره مع الخلفاء والقوّاد، نادرة لطيفة تكلّم هو عنها فقال[3]:

أدخلني ابن رائق على الراضي بالله (الخليفة) وكنت مدّاحاً لابن رائق ونافقاً عليه، فلما وصلت إلى الراضي قال لي: أنت الناشىء الرافضي؟! فقلت: خادم أمير المؤمنين الشيعي. فقال: من أيّ الشيعة؟ فقلت: شيعة بني هاشم، فقال: هذا خبث حيلة. فقلت: مع طهارة مولد. فقال: هات ما معك، فأنشدته، فأمر أن يخلع عليّ عشر قطع ثيابا، وأعطى أربعة آلاف درهم، فأخرج إليّ ذلك وتسلّمته وعدت إلى حضرته فقبلت الأرض وشكرته وقلت: أنا ممّن يلبس الطيلسان، فقال: هاهنا طيالس عدنية، أعطوه منها طيلسانا، وأضيفوا إليها عمامة خزّ، ففعلوا، فقال: أنشدني من شعرك في بني هاشم فأنشدته:

بني العباس ان لكم دماء ... أراقتها أمية بالذحولِ[4]
فليس بها شيءٌ مَنْ بوالي ... أميّة واللعين أبا زبيلِ

فقال: ما بينك وبين أبي زبيل؟ فقلت: أمير المؤمنين أعلم، فابتسم وقال: انصرف.

ومن جميل نوادره ومجونه، هو ما جرى له مع المتكلمين والمجبّرة وغيرهم، ومع النحويين والأدباء، ورّاقين كانوا، أو من بقية الطوائف والأصناف، منها.

---

(1) يعلّق ياقوت الحموي على الناحية الإعرابية في الأبيات بقوله: «فإذا حمل ما قاله على أن يجعل تلك الظروف هي: الطلول، وهي: ما شخص من الأرض، وجعلت شخوصا، جاز الرفع على هذا التأويل، وأن جعلت محالّ للطلول فليس إلاّ النصب». راجع معجم الادباء 13/ 287.

(2) معجم الأدباء 13/ 283.

(3) المصدر السابق 13/ 283 - 284.

(4) الذحول، مفردها ذحل، والذحل = الثأر، وقيل هو العداوة والحقد. اللسان مادة (ذحل).

قال الخالع: إن الناشىء ناظر أبا الحسن علي بن عيسى الرمّاني/ وهو واحد من مشاهير النحاة، وكان ورّاقاً وأديباً/ جادله في مسألة فانقطع الرمّاني وقال: أعاود النظر، وربما كان في أصحابي من هو أعلم منّي بهذه المسألة، فإن ثبت الحق معك وافقتك عليه، فأخذ يندّد به، ودخل أبو الحسن علي بن كعب الأنصاري، أحد المعتزلة، فقال: في أي شيء أنتم يا أبا الحسين؟ فقال: في ثيابنا، فقال: دعنا من مجونك وأعد المسألة، فلعلّنا أن نقدح فيها، فقال: كيف تقدم وحرّاقك رطب؟[1].

وتناظر يوماً مع أبي الحسن الأشعري/ شيخ الاشاعرة/ فصفعه، فقال الأشعري: ما هذا يا أبا الحسن؟! فقال: هذا فعل الله بك، فلم تغضب منيّ؟ فقال: ما فعله غيرك، وهذا سوء أدب وخارج عن المناظرة، فقال الناشىء: ناقضت، أن أقمت على مذهبك فهو من فعل الله، وإن انتقلت فخذ العوض. فانقطع المجلس بالضحك، وصارت نادرة[2].

ومن مجونه، أنه ناظر بعض المجبرة، فحرّك الجبري يده وقال للناشىء: هذه من حرّكها؟ فقال الناشىء: من أمُّهُ زانية. فغضب الرجل، فقال له: ناقضت، إذا كان المحرّك غيرك فلم تغضب؟![3].

وسمع رجلاً ينادي على لحم البقر: أين من حلف ألا يغبن؟ فقال له: أيش تريد منه؟ تريد أن تحنّثه؟[4].

قال الخالع: حدثني الناشىء قال: لما وفدت على سيف الدولة، وقع فيَّ أبو العباس النامي، وقال: هذا يكتب التعاويذ، فقلت لسيف الدولة: يتأمّل الأمير، فإن كان يصلح أن يكتب مثله على المساجد بالربّج[5] فالقول كما قال. فأنشدته قصيدة أوّلها[6]:

والدهر أيّامه ماض ومرتقب.

وقلت فيها:

فارحل إلى حلب فالخير منحلب ... من نيل كفك ان لاحت لنا حلب

(1) معجم الأدباء 13/ 285.
(2) المصدر السابق 13/ 286 - وأنظر تعليقات ياقوت الحموى على هذه الحادثة بنفس المصدر والمكان.
(3) معجم الادباء 13/ 288.
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) الربج = الدرهم الصغير الخفيف - القاموس - مادة (ربج).
(6) معجم الادباء 13/ 389.

فقال سيف الدولة: يا أبا الحسين: بيت جيّد لكنه كثير اللبن.

وأنشدته قصيدة أخرى أقول فيها[1]:

كـأن مـشـيـبـي إذ يـلـوح عـقـارب   وأقـتـل ما أبـصـرت بيـض الـعـقـاربِ
كـأن الـثـريّـا عـوذة فـي تـمـيـمـةٍ   وقد حليت واستودعت حرز كاعبِ[2].

في يوم الاثنين، لخمس خلون من صفر سنة خمس وستين وثلاثمائة، مات ابن وصيف الناشىء، وقد شيّع جنازته ماشياً، واشترك أهل الدولة بتشييعه، ودفن في مقابر قريش، وقبره هناك معروف[3].

إبن الكوفي:

هو أبو الحسن علي بن محمد بن زبير الأسدي الكوفي[4] كان وراقاً بالكوفة عالم صحيح الخط راوية وجمّاعا للكتب صادق في الحكاية، منقّر بحاث كما يقول ابن النديم.

لم تذكر المصادر تاريخ ولادته ووفاته بل ذكرت أن له من الكتب[5]:

1 - كتاب في معاني الشعر واختلاف العلماء.

2 - كتاب القلائد والغرائب في اللغة والشعر.

أبو حيّان التوحيدي(*):

هو علي بن محمد بن العبّاس، والمعروف بكنيته الشهيرة «**أبو حيان التوحيدي**»[6].

علمٌ من أعلام الفكر والأدب والشهرة والصيت والفقر، وأحد أكبر رموز الوراقين في القرن الرابع الهجري، قال عنه ياقوت: التوحيدي، شيرازي الأصل، وقيل نيسابوري، ووصفه

(1) معجم الأدباء 13/ 289 - 290.

(2) العوذة = الرقية. حتى مطلع الستينات من هذا القرن، كان أهل العراق يستخدمونها لاطفالهم.

(3) معجم الادباء 13/ 282.

(4) الفهرست/ ص 117 - 118.

(5) المصدر السابق.

(*) **يراجع في ترجمته المصادر التالية: معجم الأدباء 15/ 5 - الترجمة رقم (1)؛ وبغية الوعاة/ ص 348؛ ولسان الميزان 6/ 369؛ وطبقات الشافعية الكبرى/ ص 204؛ وميزان الاعتدال 4/ 518 - 519؛ ودائرة المعارف الاسلامية، وغيرهما من المصادر، لا سيما تلك التي سترد الاحالة عليها في ترجمتنا هذه.**

(6) معجم الأدباء 15/ 5.

بعض الفضلاء بالواسطي، صوفي السمت والهيئة، وكان يتألّه، والناس على ثقة من دينه[1].

اختلفت المصادر في تحديد تاريخ ولادته وحياته، وتاريخ وفاته، ولكنهم يحصرون ذلك بين سنة 310 و320هـ، بالنسبة إلى تاريخ ولادته، وبين سنة 400 و414هـ وانفرد السيوطي بذكر سنة 380هـ تاريخاً لوفاته[2].

والتوحيدي، بالحاء المهملة، نسبة إلى نوع من التمر يسمّى «التوحيدي»، وقال ابن حجر العسقلاني: يحتمل أن يكون إلى «التوحيد» لأن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد[3].

على ما يبدو أن أبا حيّان كان لغزاً على الكثير من القدماء والمحدّثين، فشخصيته مالت بين الذم والمدح، والأخذ والتجريح، والدقة والشطط، ويظهر أن موسوعيته المعرفية في كل الفنون جعلتهم أن يؤولّوا عليه الأقوال، ويلفقوا عليه الحكايا والأباطيل. والقدماء أخذوا عليه تذبذبه في الدين والعقيدة، فهذا ابن مالي، يقول في كتاب «الفريدة» كان أبو حيان كذّاباً قليل الدين والورع، مجاهراً بالبهت، تعرّض لأمور جسام من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل[4]، فيما أشركه ابن الجوزي مع الزنادقة قائلاً: زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي، والتوحيدي، وأبو العلاء المعري.

وشرّهم على الإسلام التوحيدي، لأنهما صرّحا، وهو جمجم ولم يصرّح[5]. فيما قال ابن حجر العسقلاني: «كان صاحب زندقة وانحلال»، كما نقل عنه قول ابن النجار صاحب «ذيل تاريخ بغداد» أن أبا حيان كان فاضلاً لغوياً، نحوياً شاعراً، له مصنّفات حسنة وكان فقيراً، صابراً متديّناً، حسن العقيدة[6]، وهذا يبرز لنا المواقف بين رجال الدين، كإبن الجوزي، وابن حجر العسقلاني، ومدى تزمتهم، لأن النصوص السلفية تحكم رؤيتهم فيما كان قول المؤرخين والأدباء غير ذلك، كقول ابن النجار، وياقوت الحموي.

قدم إلى بغداد وعاش فيها فترة طويلة من حياته، وخالط الأدباء والمفكرين، وعرف الشعراء والساسة، وكان دائماً يحلّ ترحاله في سوق الورّاقين، فيجالس هذا العالم، وذاك

---

(1) معجم الأدباء 15/ 5.
(2) بغية الوعاة/ص 349.
(3) لسان الميزان 6/ 369 - وأنظر كذلك - المقابسات - مقدمة توفيق حسين/ ص 4 - بغداد 1970م.
(4) المقابسات/ مقدمة توفيق حسين/ ص 4.
(5) السيوطي/ بغية الوعاة/ ص 349.
(6) لسان الميزان 6/ 369 - 370.

المفكر، ويجادل الفلاسفة بأدبه، والادباء بفلسفته، والصوفية بورعه ولغته وعلومه المتعددة، وقد وصفه ياقوت الحموي بأجلّ الأوصاف، وأدقّها، فقال عنه: «كان متفننا في جميع العلوم، من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه، والكلام على رأى المعتزلة، وكان جاحظيّاً، يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه، فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، وعمدة لبني ساسان، سخيف اللسان، قليل الرضا عند الاساءة إليه، الذمّ شأنه والثلب دكانه، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذي لا نظير، له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فنّ حفظه، واسع الدراية والرواية، وكان مع ذلك محدوداً - اي محروم من مكاسب المعاش - محارفاً يتشكى صرف زمانه، ويبكي في تصانيفه على حرمانه»[1].

تنقل أبو حيان بين بغداد وشيراز والري ونيسابور ومكة، وكانت الوراقة شغله الشاغل، وقوته المشاغل، فكان يعيش على نسخ الكتب، وتأليفها، والكتابة للوزراء من أمثال ابن العميد والصاحب بن عباد، وابن سعدان، وقد كانت بعض مؤلفاته مهداة إلى هذا الأخير، لا سيما «الامتاع والمؤانسة» و«رسالة الصداقة والصديق»، و«مثالب الوزيرين».

ينقل عنه ياقوت، بعض اعترافاته التي يشير فيها إلى سبب كتابته «رسالة الصداقة والصديق» إلى الوزير ابن سعدان، يقول[2]: كان سبب إنشاء هذا الكتاب أني ذكرت منها شيئاً لزيد بن رفاعة أبي الجبر، فنماه إلى ابن سعدان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة قبل تحمّله أعباء الدولة، وتدبيره أمر الوزارة، فقال لي ابن سعدان: قال لي عنك زيد كذا وكذا، قلت: قد كان ذاك، فقال لي: دوّن هذا الكلام وصله بصلاته، ما يصحّ عندك لمن تقدم، فإن حديث الصديق حلو، ووصف الصاحب المساعد مطرب، وكان هذا الوقت هو رجب سنة أربعمائة، عثرت على المسوّدة وبيّضتها[3].

ويعلّق ياقوت على هذا الخبر بقوله: «وهذا دليل على بقائه[4] إلى ما بعد الأربعمائة»[5].

(1) معجم الادباء 15/ 5 - 6.
(2) معجم الأدباء 15/ 6.
(3) نفس المصدر 15/ 6 - 7.
(4) يقصد «أبو حيان التوحيدي».
(5) معجم الأدباء 15/ 7.

* حياته الفكرية والثقافية:

ينحدر أبو حيان التوحيدي من أسرة فقيرة، الأمر الذي يعني صعوبة تحصيله على المعارف، إلا بالإعتماد على الذات حصراً، لذلك كان التوحيدي يحصّل العلوم بنفسه ويختار شيوخه وأصحابه، بناءً على فطرة الذكاء عنده، إضافة إلى حبّه لمخالطة العلماء، ولقد كانت حياته في بغداد، من أخصب الفترات التي عاشها، فقد تتلمذ على أيدي أشهر علماء العصر، من مثل أبي سعيد السيرافي (248هـ/ 367هـ) الذي علّمه النحو وغيره، من أنواع المعرفة الشائعة، في ذلك العصر، كعلوم القرآن والفقه والفرائض والحساب والكلام والبلاغة، والشعر والعروض والقوافي، كما أطلعه في سنّ مبكرة على أسرار علم التصوف[1].

كما درس التوحيدي علم الكلام والمنطق والعربية على علي بن عيسى الرمّاني (296 - 384هـ) وهو أحد أئمة اللغة والأدب والمتكلمين على طريقة المعتزلة، كما درس الفقه الشافعي على أساتذة ثلاثة هم: القاضي أبي حامد المروروذي، المتوفى سنة 362هـ، وهو واحد من أئمة الفقه الذي لا يشقّ غباره، وأبي بكر محمد بن علي القفّال بن إسماعيل الشاشي، المتوفى سنة 365هـ، وكان مُحدِّثاً، فقيهاً أصولياً، لغوياً، شاعراً، والقاضي أبي الفرج المعافى بن زكريا النهرواني (305 - 390هـ) وهو أعلم الناس بفقه الطبري[2].

كما درس الفلسفة والمنطق على أبي زكريا يحيى بن عدي[3] الذي انتهت إليه رياسة أهل المنطق في زمانه، كما درس الحكمة والمنطق على أبي سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، وهو من أعاظم علماء زمانه. وقد كان مجلس السجستاني حلقة أدبية، يجتمع فيه العلماء لمناظرته، وكان التوحيدي كثير الملازمة له، والأخذ عنه، وتدوين كلامه، و«المقابسات» أوضح دليل لتأثر التوحيدي بالسجستاني.

* اتصاله بالوزراء:

كان هذا الباب من أكبر المنعطفات في حياته الشخصية فقد كان له التأثير المباشر في نتاجه الأدبي والعقلي، لا سيما وأن اسمه بدأ يأخذ بالسطوع، والمحافل الأدبية تثني عليه

(1) د. إبراهيم الكيلاني/ مقدمة كتاب - مثالب الوزيرين/ ص هـ/ منشورات دار الفكر بدمشق 1961م.
(2) المرجع السابق - نفس المكان.
(3) كان فيلسوف عصره، ويمتهن الوراقة - أنظر ترجمته في فصل - الوراقون العلماء - من هذا الجزء.

وعلى أدبه، وكأي أديب أو رجل فكر، في ذلك الوقت، تكون حاجته عند مثل هذه الشخصيات السياسية الكبيرة في الدولة، فكان أولّ اتّصال له، بمثل هذه الشخصيات بالوزير أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي (291 - 352هـ)، وزير معز الدولة، وكان هذا الوزير جامعاً لأدوات الرئاسة، وأديباً معروفاً، يعطف على الأدباء وأهل العلم، وكان ذا هوىً شيعي، فلم يلق التوحيدي عنده أي صدر رحب، حيث أن التوحيدي ذا عزوف وصد عن الشيعة، وكان ينابذهم في كتاباته[1]، وقد حدثت الجفوة بينه وبين الوزير المهلبي، فهرب منه، واضطرّ إلى الاختفاء واحترف مهنة الوراقة، رغم أنه كان يكرهها ويرى فيها «ذهاب العمر والبصر»[2].

ثم اتصل أبو حيان بابن العميد، وكان من ألمع شخصيات عصره علماً وأدباً وسياسة، ممّا بهر به أهل زمانه، حيث كان التوحيدي، يأمل من اتصاله بالوزير، الفوز بالهدوء والاستقرار بعد غربة وتشرّد، غير أنه لم يفز منه بما كان يؤمّل، وقصد من بعده ابنه أبي الفتح ابن العميد، فلم يكن نجاحه عنده بأحسن من نجاحه عند أبيه، فهجاهما أقذع هجاء في كتابه/ مثالب الوزيرين/ .

وفي سنة 367هـ غادر التوحيدى بغداد متوجهاً إلى الري قاصداً الصاحب بن عبّاد، وكان يومها من كبار وزراء بني بويه، وله شهرة ومقام في المجالين الاداري والأدبي[3]، إلا أنه لاقى ما لاقى منه، فهجر مقامه، وتأسّى أشدّ الأسى، ثم عاد إلى بغداد وهو يحمل غيضه في نفسه، وكتب أشد الهجاء والقدح في أخلاقه ومسلكه وأدبه، وضمّن ذلك في كتابه الهام «مثالب الوزيرين»[4].

ثم قصد الوزير ابن سعدان الذي استوزره صمصام الدولة سنة 373 وقتله سنة 375هـ فألّف له «الامتاع والمؤانسة والصداقة والصديق» وكان هذا الوزير من رعاة الأدب والعِلم[5].

إنتهت حياة أبي حيان التوحيدي في شيراز وبها دفن سنة 414هـ.

---

(1) أنظر «رسالة السقيفة» في رسائله.
(2) د. إبراهيم الكيلاني/ مقدمة كتاب - مثالب الوزيرين/ ص و.
(3) المرجع السابق/ ص ح.
(4) لنا عودة لهذا الكتاب حيث فيه تفصيلات هامة عن حياة أبي حيان التوحيدي.
(5) انظر مقدمة أحمد أمين لكتاب - الامتاع والمؤانسة.

* تصانيفه الأدبية والفكرية:

ذكر ياقوت أغلب ما ألّفه التوحيدي من كتب وهي[1]:

1 - رسالة الصداقة والصديق.

2 - كتاب الردّ على ابن جنيّ في شعر المتنبي.

3 - الامتاع والمؤانسة - 3 أجزاء.

4 - الاشارات الإلهية - جزءان.

5 - الزّلفة.

6 - المقابسات.

7 - رياض العارفين.

8 - تقريظ الجاحظ.

9 - ذم الوزيرين - أو ما يعرف بـ«مثالب الوزيرين».

10 - الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي.

11 - الرسالة في صلات الفقهاء في المناظرة.

12 - كتاب الرسالة البغدادية.

13 - كتاب الرسالة في أخبارالصوفية.

14 - كتاب الرسالة الصوفية - ايضاً.

15 - الرسالة في الحنين إلى الأوطان.

16 - البصائر والذخائر - وهو عشر مجلدات كل مجلد له فاتحة وخاتمة[2].

17 - كتاب المحاضرات والمناظرات.

18 - رسالة السقيفة.

19 - في علم الكتابة.

20 - الحياة[3].

---

(1) معجم الادباء 15/ 7 - 8.

(2) حققه د. إبراهيم الكيلاني في أربع مجلدات ضخمة - وهو تقليد لاسلوب الجاحظ في الكتابة.

(3) قام د. إبراهيم الكيلاني بجمعها وتحقيقها، ونشرها تحت عنوان «ثلاث رسائل» لأبي حيان التوحيدي.

21 - الهوامل والشوامل.

22 - عدّة رسائل وكتب منسوبة إلى أبي حيان التوحيدي جمعها عبد السلام رؤوف بقائمة وضحّ فيها أماكن تواجدها على النحو التالي[1]:

1 - تفسير القرآن الكريم، المعروف بالبحر المحيط - لأبي حيان التوحيدي - يوجد في كتبخانة عاطف أفندي، ويقع في ثلاث مجلدات، وهي بأرقام 100 و101 و202، وقد أشار إلى هذا التفسير، حاجي خليفة في - كشف الظنون 1/ 226.

2 - تفسير آخر للقرآن اسمه «النهر الماد من البحر» وهو مختصر للتفسير الأول - بنفس المكتبة المذكورة.

3 - كتاب التدريب - مجلد واحد - رقمه (173) يوجد في مكتبه «كتبخانة قره جلبي زاده حسام الدين» باستانبول.

4 - ارتشاف الضرب في لسان العرب - موجود في مكتبة البلدية بمدينة المنصورة بمصر، ذكره صاحب كشف الظنون 1/ 61 وقال أنه في مجلدين.

* علاقته بالصاحب ابن عبّاد:

هي أوضح وأقسى علاقة ومعاناة عاشها التوحيدي، في كنف هذا الرجل، وهي السبب المباشر والرئيسي في كتابته «مثالب الوزيرين» لأنه في هذا الكتاب يوجّه اللوم في جلّته على الصاحب، بينما يجد بعض الأعذار أحياناً لإبن العميد[2]، ولقد جيّش التوحيدي كل مشاعره وأحاسيسه لهجاء وقدح الصاحب بن عبّاد، نتيجة المرارة واللوعة والحرمان التي ذاقها منه، لذلك يرى أنه لا بدّ لمثل هذا الرجل من التعرية والكشف عن أحواله حتى لا يغترّ به الناس، ويعرفوا قبائحه من محاسنه، يقول التوحيدي في هجاء الصاحب: «وصلت هذا الفصل بقول فاضت به النفس بعد امتلائها، وجاشت به بعد ترددها، وما اضطرني إليه إلا تتابع المكروه من جهته، والشرّ الذي لا يزال يتعقبني به، وأنه حين وجد غرّة اهتبلها، ولما رأى الفرصة انتهزها، ولم يرض حتى حَسُرَ عن الذراع يدا، فكشف القناع، وجرّد العداوة والتعصّب، وأظهر التسلّط والتغلب»[3]، حتى يصل إلى القول: وقد قيل، من لم يُذمِمْ المسيء لم يحمد المحسن، ومن لم يعرف للاساءة، مضضا لم تجد عنده للاحسان موقعا[4].

---

(1) أوردها محمد توفيق حسين في مقدمته لنشرة «المقابسات»/ ص 8 - الهامش رقم (44).

(2) أنظر: مثالب الوزيرين/ ص 10 - نشرة إبراهيم الكيلاني.

(3) مثالب الوزيرين/ ص 36 - 37.

(4) المصدر السابق/ ص 37.

وبغية إدراك تفاصيل هذه العلاقة المتشنجة لا بدّ من الوقوف عليها من أولى حيثيّاتها وحتى نهايتها، وهنا لا بدّ من إفساح المجال **لياقوت الحموي**، حيث أنه وقف على جلية الأمر وكتب قائلاً[1]: قال أبو حيان: وأمّا حديثي معه - يعني ابن عبّاد - فاني حين وصلت إليه قال لي: أبو من؟ قلت أبو حيّان. فقال: بلغني أن تتأدّب، فقلت: تأدّب أهل الزمان، فقال: أبو حيان ينصرف أو لا ينصرف؟ قلت: إن قبله مولانا لا ينصرف، فلما سمع هذا تنمّر وكأنه لم يعجبه، وأقبل على واحد إلى جانبه وقال له بالفارسية سفهاً على ما قيل لي، ثم قال: الزم دارنا وانسخ هذا الكتاب. فقلت: أنا سامع مطيع، ثم أني قلت لبعض الناس مسترسلاً: إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب، وزاحمت منتجعي هذا الربيع، لا تخلّص من حرفة الشؤم، فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة، فنمي إليه هذا أو بعضه، أو على غير وجهه فزاده تنكراً.

تلك هي أولى خطوات العلاقة مع الصاحب، ولم يكن قد وضع قدمه في داره. وذات مرّة سأله الصاحب: يا أبا حيّان، من كنّاك بأبي حيّان؟ قلت: أجلّ الناس في زمانه، وأكرمهم في وقته، قال: ومن هو ويلك؟ قلت: أنت، قال: ومتى كان ذلك؟ قلت: حين قلت يا أبا حيّان من كنّاك أبا حيّان، فأضرب عن هذا الحديث وأخذ في غيره على كراهة ظهرت عليه[2].

ويستطرد أبو حيان التوحيدي في خبر كنايته «أبا حيان» وسؤال الصاحب له عن الذين كنيّوا بهذا اللقب، فيجيبه إلى ذلك[3] حتى يقول: وانتهى الحديث من غير هشاشة ولا هزة ولا أريحية، بل على اكفهرار وجه ونبّو طرف وقلّة تقبّل، وجرت أشياء أخرى كان عقباها أنّي فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة راجعاً إلى مدينة السلام، بغيرزاد ولا راحلة، ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ولا ما قيمته درهم واحد، أحمل هذا على ما أردت، ولمّا نال مني هذا الحرمان الذي قصدني به وأحفظني عليه، وجعلني من جميع غاشيته فردا، أخذت أملي في ذلك بصدق القول عنه وسوء الثناء عليه، والبادىء أظلم، وللأمور أسباب، وللأسباب أسرار، والغيب لا يطلع عليه ولا قارع لبابه[4].

من هنا تبدأ الإيقاعات المتصاعدة في قرع طبول الهجاء من قبل أبو حيان التوحيدي، حتى أن كلماته تبدو تغور إلى ما هو أكثر إيلاماً، فينتقل بهجاه من الموقف الشخصي -

(1) معجم الادباء 15/ 28.
(2) معجم الادباء 15/ 28.
(3) راجع تفاصيل ذلك في المصدر السابق 15/ 28 - 31.
(4) معجم الادباء 15/ 32.

الأخلاقي إلى تقريع الشكل الخلقي، يقول: «ما أتأمّله في حال من الأحوال إلا وجدته برقاً كاذباً ورأياً عازباً،، وركاكة ظاهرة، ونذالة وافرة، وهيئة خسيسة، ونفساً على الذم حبيسة، لم ينشأ منشأ أدب، ولا راضته أوليّة حسب، فهو دهره على وجل وذعر، إن صال فهو على القريب الداني، وإن هم فبمفضلات الأماني، فليس تتجاوز صولته عبده، ولا يخاف عدوّه كيده، وقد جمع إلى قبح المخبر بشاعة المنظر، وإلى دمامة الخُلق سوء الخَلق، إذا فكر المفكر فيما أوتي من الحظ، ومنح من الحال أيقن بعلوّ الجهل وفوز قدحه، واكداء الباطل وكساد ربحه، هو والله كما قال الشاعر[1]:

عدوّ لمولاه عدوّ صديقه ... وتلك التي يأتي اللئيم من الفعل
مُقلمةٌ أظفاره عن عدوّه ... على أقربيه ظاهر الفحش والجهل

حتى يصل به الأمر إلى الاستشهاد بقول القائل: كأنّ دماميل جمعت فصوّر وجهه منها[2].

ومن قبيح الشكل والخلق، ينتقل التوحيدي إلى ذم مَسلكية الصاحب بن عبّاد في حياته اليومية، ومن خلال علاقته به، يقول: قال لي الصاحب يوماً - وهو يحدّث عن رجل أعطاه شيئاً فتلكأ في قبوله - ولا بدّ من شيء يعينُ على الدهر، ثم قال: سألت جماعة عن صدر هذا البيت، فما كان عندهم ذلك، فقلت: أنا أحفظ ذاك، فنظر إليّ بغضب، فقال: ما هو؟ قلت: نسيت، فقال: ما أسرع ذكرك من نسيانك! قلت: ذكرته والحال سليمة، فلما استحالت عن السلامة نسيت، قال: وما حيلولتها؟ قلت: نظر الصاحب بغضب، فوجب حسن الادب ألاّ يقال ما يثير الغضب، قال: ومن تكون حتى نغضَب عليك؟ دع هذا وهات، قلت قول الشاعر[3]:

ألام على أخذ القليل وانما ... أصادف أقواما أقلّ من الذَّرِ
فان أنا لم آخذ قليلا حرمته ... ولا بدّ من شيء يعين على الدهر

ويستدرك التوحيدي عمق التشنيع بالصاحب، فيحاول أن يبرىء نفسه عن معايبه فيقول: فما ذنبي أكرمك الله إذا سألت عن مشايخ الوقت وأعلام العصر، فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان، على أنّي قد سترت شيئاً كثيراً من مخازيه، أما هرباً من الاطالة، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش وبثّ الفضائح، وذكر ما يسمج مسموعه،

---

(1) مثالب الوزيرين/ ص 37 - 38.
(2) المصدر السابق/ ص 38.
(3) معجم الآدباء 15/ 32 - 33.

ويكره التحدث به، هذا سوى ما فاتني من حديثه فإني فارقته سنة سبعين وثلاثمائة[1].

ثم يستدرك التوحيدي بداياته الأولى معه، وكيف كانت، مسقطاً مسلسل الحوادث، قبل مجيئه، وأثناء حلوله عنده، ومفارقته بعد ذلك يقول[2]:

قَدَّمَ إليّ نجاح الخادم وكان ينظر في خزانة كتبه ثلاثين مجلّدة من رسائله، وقال: يقول لك مولانا: انسخ هذا فإنه قد طلب منه بخراسان، فقلت بعد إرتياء: هذا طويل، ولكن لو أذن لي لخرجت منه فقراً كالغرر، وشذوراً كالدرر، تدور في المجالس كالشمامات والدستنبويهات، لو رُقِيَ بها مجنون لأفاق، أو نفث على ذي عاهة لبرأ، لا تملّ ولا تستغث، ولا تعاب ولا تستركّ، فرفع ذلك إليه وأنا لا أعلم، فقال: طعن في رسائلي وعابها، ورغب عن نسخها وأزرى بها، والله لينكرنّ مني ما عرف، وليعرفنّ حظّه إذا انصرف، حتى كأنّي طعنت في القرآن، أو رميت الكعبة بخرق الحيض، أو عقرت ناقة صالح، أو سلحت في بئر زمزم، أو قلت كان النظام مأبونا، أو مات أبو هاشم في بيت خمار، أو كان عبّاد معلم صبيان، وما ذنبي يا قوم إذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلّدة من هذا الذي يستحسن هذا الكلب؟ حتى أعذره في لومي على الامتناع، أينسخ إنسان هذا القدر، وهو يرجو بعدها أن يمتّعه الله ببصره؟ أو ينفعه ببدنه؟ ثم ما ذنبي إذا قال لي: من أين لك هذا الكلام المفوّف المشوف الذي تكتب به إلى في الوقت بعد الوقت؟ فقلت: وكيف لا يكون كما وصف مولانا، وأنا أقطف ثمار رسائله وأستقي من قليب علمه، وأشيم بارقة أدبه، وأرد ساحل بحره، وأستوكف قَطْرَمِزنه، فيقول: كذبت وفجرت لا أم لك، ومن أين في كلامي الكدية والشحذ والتضرّع والاسترحام، كلامي في السماء، وكلامك في السّماد هذا - أيدّك الله - وأن كان دليلاً على سوء جدّي، فإنه دليل أيضاً على إنخلاعه وخرقه، وتسرعه ولؤمه، وأنظر كيف يستحيل معي عن مذهبه الذي كان هو عِرقة النابض وسوسه الثابت، وديدنه المألوف، وهذا أجراني مجرى التاجر المصري والشّاذباشيّ، وفلان وفلان، بل ما ذنبي إذا قال لي: هل وصلت إلى ابن العميد أبي الفتح؟ فأقول: نعم، رأيته وحضرت مجلسه وشاهدت ما جرى له، وكان من حديثه فيما مدح به كذا وكذا، وفيما تقدّم منه كذا وكذا، وفيما تكلّفه من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا، ووصل أبا سعيد السيرافيّ بكذا وكذا، ووهب لأبي سليمان المنطقي كذا وكذا، فينزوي وجهه، وينكر حديثه، وينجذب إلى شيء آخر ليس ممّا شرع فيه ولا مما حرّك له ثم يقول: أعلم أنك إنما انتجعتُ من العراق، فاقرأ عليّ رسالتك التي

(1) المصدر السابق - نفس المكان.

(2) مثالب الوزيرين/ ص 325 - 326؛ وياقوت الحموي/ معجم الأدباء 15/ 34 - 44.

توسّلت إليه بها وأسهبت مقرظاً له فيها، فأتمانع فيأمر ويشدّد فأقرأها فيتغيّر ويذهل وأنا أكتبها لك ليكون زيادة في الفائدة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم هيئ لي من أمري رشداً، ووفقني لمرضاتك أبدا ولا تجعل الحرمان عليّ رصدا، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب، وخير الصواب ما تضمّن الصدق وخير الصدق ما جلب النفع، وخير النفع ما تعلّق بالمزيد، وخير المزيد ما بدا عن الشكر، وخير الشكر، ما بدا عن إخلاص، وخير الاخلاص ما نشأ عن إتفاق، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق، لمّا رأيت شبابي هرماً بالفقر، وفقري غنيّا بالقناعة وقناعتي عجزاً عند أهل التحصيل، عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه، وموضعي منه، فرأيت طرفه نابياً، وعنانه عن رضاي منثنياً، وجانبه في مرادي خشناً، وارتقائي في أسبابه نائياً، والشّامت بي على الحدثان متمادياً، طمعت في السكوت تجلّداً، وانتحلت القناعة رياضة، وتألّفت شارد حرصي متوقّفاً وطويت منشور أملي متنزّهاً، وجمعت شتيت رجائي سالياً، وأدعيت الصبّر مستمراً، ولبست العفاف ضنّاً، واتخذت الانقباض صناعة، وقمت بالعلاء مجتهداً، هذا بعد أن تصفّحت الناس فوجدتهم أحد رجلين: رجل أن نطق نطق عن غيظٍ ودمنةٍ، وإن سكت سكت عن ضغنٍ وإحنةٍ، ورجل إن بذل كدّر بامتنانه بذله، وإن منع حسّن باحتياله بخله، فلم يطل دهري في أثنائه متبرحا بطول الغربة وشظف العيش، وكلب الزمان وعجف المال، وجفاء الأهل وسوء الحال، وعادية العدّو وكسوف البال، متحرّقا من الحنق على لئيم لا أجد مصرفاً عنه، متقطعاً من الشوق إلى كريم لا أجد سبيلاً إليه، حتى لاحت لي غرّة الاستاذ فقلت: حلَّ بي الويل، وسال بي السيّل، أين أنا عن ملك الدنيا، والفلك الدائر بالنعمى؟ أين أنا من مشرق الخير ومغرب الجميل؟ أين أنا عن بدر البدور وسعد السعود؟ أين أنا عمّن يرى البخل كفراً صريحا، والافضال ديناً صحيحا؟ أين أنا عن سماء لا تفتر عن الهطلان، وعن بحر لا يقذف إلا باللؤلؤ والمرجان؟ أين أنا من فضاء لا يشقّ غباره، وعن حرم لا يضام جاره؟ أين أنا عن منهل لا صدر لفرّاطه ولا منع لورّاده؟ أين أنا عن ذنوب لا شوب فيه، وعن صوبٍ لا جدد دونه، بل أين أنا عمّن أتى بنبوّة الكرم، وإمامة الافضال، وشريعة الجود، وخلافة البذل، وسياسة المجد، بشيمة مشيمة البوارق، ونفس نفيسة الخلائق؟ أين أنا عن الباع الطويل، والأنف الأشمّ، والمشرب العذب، والطريق الأمم؟ لم لا أقصد بلاده؟ لم لا أقتدح زناده؟ لم لا أنتجع جنابه وأرعى مزاده؟ لم لا أسكن ربعه؟ لم لا أستدعي نفعه؟ لم لا أخطب جوده وأهتصر عوده؟ لم لا أستمطر سحابه؟ لم لا أستسقي ربابه؟ لم لا أستميح نيله وأستسحب ذيله؟ ولا أحجّ كعبته، وأستلم ركنه، لم لا أصلّي إلى مقامه مؤتماً بإمامه؟ ولم لا أسبّح ببيانه متقدّساً؟

فتى صيغ من ماء الشبيبة وجهه فألفاظُه جود وأنفاسه مجد

لم لا أقصد فتى للجود في كفّه من البحر عينان نضّاحتان، لم لا أمتري معروف

فتى لا يبالي أن يكون بجسمه إذا نال خلّات الكرام شحوب

لم لا أمدح

فتى يشتري حسن المقال بروحه ويعلم أعقاب الاحاديث في غد

نعم لم لا أنتهي في تقريظ فتي لو كان من الملائكة لكان من المقرّبين، ولو كان من الأنبياء لكان من المرسلين، ولو كان من الخلفاء لكان نعته اللائذ بالله، أو المنصف في الله، أو المعتضد بالله، أو المنتصب لله، أو الغاضب لله، أو الغالب بالله، أو المرضي لله، أو الكافي بالله، أو الطالب بحق الله، أو المحيي لدين الله. أيها المنتجع قرن كلئه، المختبط ورق نعمته، أرعَ عريضَ البطان، متفيّا بظلّه ناعم البال، متعوّذاً بعزّه، وعش رخيّ لحال، معتصماً بحبلِه، وَلُذ بداره آمن السّرب، وامحض وده بآنية القلب، وقِ نفسكَ من سطوته بحسن الحفاظ، وتخيّر له ألطف المدح تفز منه بأيمن قِدْحٍ، ولا تحرم نفسك بقولك: أني غريب المثوى نازح الدّار، بعيد النسب منسيّ المكان، فإنك قريب الدار بالأمل، داني النجح بالقصد، رحيب الساحة بالمنى، ملحوظ الحال بالجدّ، مشهور الحديث بالدرك، واعلم علماً يلتحم باليقين، وتدرّأ من الشك أنه معروف الفخر بالمفاخر، مأثور الأثر بالمآثر، قد أصبح واحد الأنام تاريخ الأيام. أسد الغياض يوم الوغى، نور الريّاض يوم الرضا، إن حرّك عند مكرمة تحرّك غصناً تحت بارح، وإن دعى إلى اللقاء دعى ليثاً فوق سابح، وقل إذا أتيته بلسان التحكم: أصلح أديمي فقد حَلِمَ، وجدّد شبابي فقد هرم، وأنطق لساني في اصطناعي، فقد شردت صحائف النجح عند انتجاعي، ورشّ عظمي فقد براه الزمان، واكس جلدي فقد عرّاه الحدثان، وإياك أن تقول: يا مالك الدنيا جدلي ببعض الدنيا فإنه يحرمك، ولكن قل: يا مالك الدنيا هب لي الدنيا، اللهم فأحي به بلادك وأنعش برحمته عبادك، وبلّغه مرضاتك وأسكنه فردوسك وأدم له العز النّامي، والكعب العالي والمجد التليد والجدّ السعيد، والحق الموروث، والخير المبثوث، والولى المنصور، والشانىء المبتور والدعوة الشاملة والسجيّة الفاضلة والسرّب المحروس والرّبع المأنوس، والجناب الخصيب، والعدوّ الحريب والمنهل القريب، واجعل أولياءه بازلين لطاعته، ناصرين لأعزته ذا بيّن عن حرمه، والقمر المنير بالجمال، والنجم الثاقب بالعلم، والكوكب الوقّاد بالجود، والبحر الفيّاض بالمواهب، سقط العشاء بعبدك على سرحك، فأقره من نعمتك بما يضاهي قدرك وقدرتك، وزوّج هبة ربّها من الغشى، فطالما خطب

كفؤها من المنى. ثم يقال لي من بعد: جنيت على نفسك حين ذكرت عدوّه عنده بخير، وأثنيت عليه وجعلته سيّد الناس. فأقول: كرهت أن تراني متذرّبا على عرض رجل عظيم الخطب، غير مكترث بالوقيعة فيه والإنحاء عليه، وقد كان يجوز أن أشعّت من ذلك شيئاً، وأبري من أثلته جانبا، وأثير إلى جنبه شرارة، فيقال أيضاً: جنيت على نفسك، وتركت الاحتياط في أمرك، فإنه مقتك وعافك، ورأى أنك في قولك عدوت طورك، وجهلت قدرك، ونسيت وزرك، وليس مثلك من هجم على ثلب من بلغ رتبة ذلك الرجل، وأنك متى جسرت على هذا وزنت به، وجعلت غيره في قرنه، فإذا كانت هذه الحالات ملتبسة، وهذه العواقب مجهولة، فهل يدور العمل بعدها - إلا على الاحسان الذي هو علّة المحبة، والمحبة، هي علّة الحمد، والاساءة التي هي علّة البغض، والبغض، الذي هو علّة الذمّ، فهذا هذا.

* علاقته بالوراقة:

ترتسم علائم الفقر بالتوحيدي من خلال حياته مع علماء عصره الذين عاشرهم، فهو واحد منهم، إلا أنهم كانوا يشعرون بذاتهم ويدركون موقعهم المعرفي، لذلك كانوا يلتجئون إلى مهنة الوراقة للنسخ، فيحافظون على وجودهم البشري والمعرفي بآن معاً، وكان أبو حيان أسطع مثال على ذلك، وقد قدّم لنا تقريراً عن حياته بهذا الصدد، في سياق حديث قد تبادله مع أبي بكر القومسي، وهو واحد من أعلام الفكر والفلسفة في (ق 4هـ) جاء فيه: هل تعرف في معنى قصيدة العطوي[1] أخرى؟ قال: نعم قصيدة الحرّاني صاحب المأمون، فقلت: لو تفضلت بإنشادها، فقال: أخذ في حديث من أقبلت عليه دنياه، وتمكن فيها من مناه، ودع حديث الحرف[2] والعسر والشؤوم والخسر تطيّرا أن لم ترفضه أدبا. فقلت له: ما أعرف لك شريكاً فيما أنت عليه، وتتقّلب فيه وتقاسيه سواي، ولقد استولى عليّ الحرف، وتمكّن منّي نكد الزمان إلى الحد الذي لا أسترزق مع صحّة نقلي، وتقييد خطي، وتزويق نسخي وسلامته من التصحيف والتحريف، بمثل ما يسترزق البليد الذي ينسخ النسخ ويمسخ الأصل والفرع، وقصدت ابن عبّاد بأمل فسيح وصدر رحيب، فقدّم اليّ رسائله في ثلاثين مجلّدة على أن أنسخها له، فقلت: نسخ مثله يأتي على العمر والبصر، والوراقة كانت موجودة ببغداد، فأخذ في نفسه عليّ من ذلك[3].

(1) مطلعها: من رماه الاله بالاقتار وطلاب الغنى من الاسفار. راجع عنها معجم الأدباء 15/ 10.

(2) الحُرف = الحرمان.

(3) معجم الادباء 15/ 12 - 13 وراجع بعض تفاصيل هذه الحادثة في «مثالب الوزيرين» ص 325.

وفي سياق هذا الاعتراف، يظهر أن التوحيدي، لا يحبّ مهنة الوراقة، فهو يعتبرها «حرفة الشؤوم»[1]. إضافة إلى شعوره بأنه أكبر من الورّاق، فهو يشعر شعور العالم بأدبه وفكره، وليس عبثاً أن ينعته ياقوت بأنه «فرد النيا الذي لا نظير له»[2]، والتوحيدي كان يدرك ما في دواخله من معرفة وعلم، لذلك أزدرى مهنة الوراقة، والتي هي أدنى منه، وهو أرفع منها، ولكن عبثية الاقدار في زمانه، جعلته أن يكون أحد الورّاقين، رغم قلّة تحصيله منها، الأمر الذي زاد الطين بلّة بينه وبينها.

* علاقته بعلماء عصره:

كان القرن الرابع الهجري، وهو القرن الذي عاش به أبو حيان التوحيدي من أخصب الفترات الزمنية التي مرّت بها الحضارة العربية - الإسلامية، على صعيد الفكر والفلسفة والأدب والدين وعلوم الطبيعة وغيرها، وقد شارك الناس في حضارة ذلك العصر بمختلف تياراتهم الفكرية والقومية والمذهبية والدينية، وقد استطاع أبو حيان التوحيدي من استيعاب وكشف هذه الحالة في كتابه «المقابسات» فكان هو قطب الرحى في إدارة الندوات الفكرية بين المتقابسين، وهؤلاء العلماء، الذين وردت أسماؤهم في «المقابسات» جمعت بينهم كلمة العلم والحكمة، وهم من مختلف المشارب والملل، ففيهم المجوسي، والصابي واليعقوبي، والنسطوري، والملحد، والمعتزلي والشافعي، والشيعي، وغيرهم[3].

وقد كشفت «المقابسات» ما كانت تعجّ به بغداد آنذاك من بحوث في الفلسفة الإلهية والطبيعية وعلوم اللغة والتصوف وغيرها، وجزء من هذه المقابسات والندوات الفكرية، كان يعقد في سوق الورّاقين[4].

ومن يطّلع على كتاب «المقابسات» للتوحيدي، فإنه سيقرأ آراء وأفكار ولغة العلماء الذين تقابسوا، ، وكانوا أعلام زمانهم وكلّ منهم فرد في صناعته ومجاله: وهم

1 - يحيى بن عدي.

2 - أبو سليمان السجستاني.

---

(1) معجم الأدباء 15/ 28.

(2) المصدر السابق 15/ 6.

(3) بصدد هؤلاء العلماء راجع: كرد علي/ أمراء البيان/ ص 528 - 529 وكذلك د. عبد الامير الاعسم - أبو حيان التوحيدي في كتاب/ المقابسات/ ص 130 - 131 - منشورات دار الأندلس - بيروت - ط 1 - 1400هـ/ 1980م.

(4) أنظر الجزء الثاني من هذه الموسوعة فصل «مجالس العلماء في سوق الورّاقين».

3 - أبو الفتح النوشجاني.
4 - أبو العباس البخاري.
5 - أبو الخير اليهودي.
6 - ابن الخمّار.
7 - أبو بكر الصيمري.
8 - ابن السمح.
9 - أبو محمد العروضي.
10 - ابن زرعة.
11 - عيسى بن علي بن الجراح.
12 - غلام زحل.
13 - أبو بكر القومسي.
14 - أبو إسحاق النصيبي.
15 - نظيف الرومي.
16 - وهب بن يعيش.
17 - أبو سعيد السيرافي.
18 - أبو بشر متّي بن يونس.
19 - أبو إسحاق الصابي.
20 - البديهي.
21 - ابن عبد الكاتب.
22 - أبو محمد الاندلسي النحوي.
23 - الخوارزمي الكاتب.
24 - أبو القاسم الأنطاكي.
25 - ابن مقداد.
26 - ابن سوّار.
27 - ماقية المجوسي.
28 - أبو الحسن العامري.

29 - ثابت بن سنان بن ثابت.

30 - علي بن عيسى الرّماني النحوي.

31 - ابن مسكويه[1].

وغيرهم الكثير.

وبغية معرفة علاقة التوحيدي بهؤلاء سوف نعرض بعض هذه العلاقة، وشكل التعامل بها، وعلى لسان أبي حيان نفسه.

يقول أبو حيان: حدّثنا أبو بكر القومسي الفيلسوف، وكان بحراً عجّاجاً، وسراجاً وهّاجاً، وكان من الضرّ والفاقة، ومقاساة الشدّة والاضافة بمنزلة عظيمة، عظيم القدر عند ذوي الأخطار، منحوس الحظّ منهم، متهما في دينه عند العوام، مقصودا من جهتهم، فقال لي يوماً: ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من انسان ما بلغ منّي، إن قصدت دجلة لأغتسل منها نضبت ماؤها، وإن خرجت إلى القفار لأتيّمم بالصعيد، عاد صلداً أملس، وكأن العطوي ما أراد بقصيدته غيري، وما تمنى بها سواي، ثم أنشدها[2]:

من رماه الاله بالاقتار	وطلاب الغنى من الأسفار
هو في حيرة وضنك وافلا	س وبؤس ومحنة وصغار
يا أبا القاسم الذي أوَ الجو	د إليه مقاصد الأحرار
خذ حديثي، فإن وجهي مذ	بارز هذا الأنام في ثوب قار
وهو للسامعين أطيب من نفـ	ح نسيم الرياض غبّ القطار
هجم البرد مسرعا وبدي صفـ	ر وجسمي عار بغير دثار
فتسترت منه طول التشاريـ	ن إلى أن تهتكت أستاري
ونسجت الأطمار بالخيط والأبـ	رة حتى عريت من أطماري
وسعى القمل من دروز قميصي	من صغار ما بينهم وكبار
يتساعون في ثيابي إلى رأ	سي قطارا تجول بعد قطار
ثم وافى كانون واسودّ وجهي	وأتاني ما كان منه حذاري

(1) لمعرفة هذه النخبة من العلماء والفلاسفة والأدباء، تراجع المصادر التالية: - المقابسات - معجم الأدباء - الامتاع والمؤانسة - أخبار الحكماء - طبقات الاطباء - الفهرست - سير أعلام النبلاء - فوات الوفيات - الوافي بالوفيات - شذرات الذهب - ميزان الاعتدال - أعيان الشيعة - أعلام الزركلي - أمراء البيان.

(2) معجم الأدباء 15/ 10 - 12.

لـو تـأمـلـت صـورتـي ورجـوعـي ... حـيـن أمـسـي إلـى ربـوع قـفـار
أنـا وحـدي فـيـه وهـل فـيـه فـضـل ... بـجـلـوس الانـيـس والـزوّار
والـخـلا لا يـراد فـيـه فـمـالـي ... أبـدا حـاجـة إلـى الـحـفـّار
بـل يـراد الـخـلا لـمـنـحـدر الـنجـ ... ـو ومـا ذقـت لـقـمـة فـي الـدّار
وإذا لـم تـدر عـلـى الـمـطـعـم الأفـ ... ـواه سـدّت مـثـاعـب الأجـحـار[1]

وقلت له يوماً/ والكلام للتوحيدي والمخاطب القومسي/ لو قصدت ابن العميد وابن عباد، عسى تكون من جملة من ينفق عليهما، وتحظى لديهما، فأجابني بكلام منه: **معاناة الضرّ والبؤس أولى من مقاساة الجهّال والتيوس**، والصبر على الوخم الوبيل أولى من النظر إلى محيّا كلّ ثقيل. ثمّ أنشأ يقول[2]:

بـيـنـي وبـيـن لـئـام الـنـاس مـعـتـبـة ... مـا تـنـقـضـي وكـرام الـنـاس اخـوانـي

يتحدث التوحيدي عن علاقته ببعض علماء عصره[3] ويتوقف عند مسكويه، لأنه شاطره الفقر والمعاناة والحرمان عند ابن العميد، كما اشترك معه في وضع كتاب، يقول التوحيدي عنه: وأمّا **مسكويه ففقير بين أغنياء، وعيّ بين أبيناء**[4]، ولقد جرى حديث بيني وبين أبي علي مسكويه، قال لي مرّة: أما ترى إلى خطأ صاحبنا/ ابن العميد/ في إعطائه فلاناً ألف دينار ضربة واحد، لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق، فقلت له. بعدما أطال الحديث وتقطع بالأسف: أيها الشيخ أسألك عن شيء واحد وأصدق، فإنه لا مذبّ للكذب بيني وبينك، ولا هبوب لريح التمويه علينا، لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وأضعافه وأضعاف أضعافه أكنت تتخيّله في نفسك مخطئا، ومبذرا، ومفسدا أو جاهلاً، أو كنت تقول: ما أحسن ما فعل، وليته أربى عليه، فإن كان ما تسمع على حقيقته فاعلم أن الذي بدد مالك، وردّد مقالك، إنما هو الحسد، وشيء آخر من جنسه، فأنت تدعي الحكمة، وتتكلم في الأخلاق، وتزيّف منها الزائف، وتختار منها المختار، فأفطن لأمرك واطّلع على سرّك وشرّك[5].

---

(1) المثاعب = مفردها مثعب = سيل الماء.
(2) معجم الأدباء 15/ 12.
(3) أنظر الليلة الثانية من/الامتاع والمؤانسة/ 1/ 29 - 41 طبعة أحمد أمين وأحمد الزين - القاهرة 1939.
(4) الإمتاع والمؤانسة 1/ 35.
(5) مثالب الوزيرين/ ص 18 - 19؛ ومعجم الأدباء 15/ 51 - 52.

* نوادره مع العلماء والأدباء:

يبدو أن الحياة العامة عند العلماء والأدباء، في ذلك العهد (ق 4 هـ) كانت أميل لروح الدعابة والطرفة، وهي ما تدخل في باب النوادر أحياناً، وأحياناً تكون مجبولة في نفوس الناس على الفطرة والتآخي الاجتماعي، وعندما يتعاطى العلماء والأدباء هذه النوادر، فإنهم يضيفون عليها ملحاً من بلاغتهم وأدبهم، فتخرج بحلّة جميلة وزاهية، الأمر الذي يحدو بالمؤرخين لكتابتها وتدوينها.

وأبو حيان واحد من هؤلاء، فهو إمّا يفتعلها، أو ينقلها، أو يرويها، أو ينتحلها حتى، وعلى ما يبدو أن العرف الاجتماعي يستسيغ هذه المُلح والنوادر، بشكل أو بآخر، فمن ذلك، ما رواه غرس النعمة الصابىء في «الهفوات» قال: حكى أبو حيان التوحيدي قال: حضرت مائدة الصاحب بن عبّاد، فقدّمت مضيّرة[1] رائعة، فأمعنت فيها، فقال لي: يا أبا حيان، إنها تضرّ بالمشايخ! فقلت: إن رأى الصاحب أن يدع التطبب على طعامه فعل! قال: فكأني ألقمته حجراً، وخجل واستحيا، ولم ينطق إلى أن فرغنا[2].

ونقل ياقوت عنه من كتابه «المحاضرات» قال أبو حيان: كنت بحضرة أبي سعيد السيرافي، فوجدت بخطّه على ظهر كتاب «اللّمع في شواذ التفسير» وكان بين يديه، فأخذته ونظرت، قال: ذمّ اعرابي رجلاً فقال: ليس له أول يحمل عليه ولا آخر يرجع إليه، ولا عقل يزكو به عاقل لديه، وأنشد:

حسبتك انسانا على غير خبرة فكشفت عن كلب أكّب على عظم
لحى الله رأيا قاد نحوك همتي فأعقبني طول المقام على الذمّ

فقال لي: يا أبا حيّان، ما الذي كنت تكتب؟ فقلت: الحكاية التي على ظهر هذا الكتاب، فأخذها وتأمّلها وقال: تأبى إلاّ الاشتغال بالقدح والذمّ وثلب الناس، فقلت: أدام الله الامتاع، شغل كل ناس بما هو مبتلى به مدفوع إليه[3].

قال أبو حيّان: قصدت مع أبي زيد المروزى دار أبي الفتح/ إسماعيل بن العميد/ ذي الكفايتين، فمنعنا من الدخول عليه أشدّ منع وذكر حاجبه أنه يأكل الخبز، فرجعنا بعد أن

(1) المضيرة = مريقة تطبخ باللّبن المضير «الحامض» أو الحليب/ الهفوات النادرة/ ص 342 هامش رقم4
(2) الهفوات النادرة - ص 342 - تحقيق د. صالح الاشتر - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - 1387هـ/ 1967م. وراجع كذلك - معجم الأدباء 15/ 7.
(3) معجم الأدباء 15/ 8 - 9.

قال أبو زيد للحاجب: أجلسنا في الدهليز إلى أن يفرغ من الأكل فلم يفعل، فلما انصرفنا خزايا أنشأ يقول متمثلاً[1]:

على خبزإسماعيل واقية البخل ... فقد حلّ في دار الأمان من الاكلِ
وما خبزه إلا كآوى يرى ابنه ... ولم ير آوى في الحزون ولا السهلِ
وما خبزه غلا كعنقاء مغرب ... تصوّر في بسط الملوك وفي المُثُلِ[2]
يحدّث عنها الناس من غير رؤية ... سوى صورة ما ان تمرُّ ولا تحلي

ومن نوادره الادبية الجميلة، ما نقله ياقوت، قال[3]:

«قال أبو حيان: ودخلت على الدّلجي بشيراز وكنت قد تأخرت عنه أياما، وهذا الكتاب يعني/ كتاب المحاضرات/ جمعته له بعد ذلك ولأجله أتعبت نفسي، فقال لي: يا أبا حيّان، من أين؟ فقلت:

إذا شئت أن تقلى فزر متواترا ... وان شئت أن تزداد حبا فزر غبّا

وهذا لملال ظهر لي منه، وقليل أعراض عني في يوم، فقال لي: ما هذا البيت إلا بيت جيّد يعرفه الخاص والعام، وهو موافق لما يذكر من أن النبي - ع - قال: «زر غبّا تزدد حبّا»، فلو كان لهذا البيت أخوات كان أحسن من أن يكون فرداً، قلت فله أخوان، قال: فأنشدني، قلت: لا أحفظها، قال: فأخرجها، قلت: لا أهتدي إليها، قال: فمن أين عرفتها؟ قلت: مرت بي في جملة تعليقات، قال: فاطلبها لأقدّم رسمك. قلت: فقدّمه الآن على شريطة أنه إذا جاء الوقت المعتاد اطلاقه فيه كل سنة أطلقتُ أيضاً، فقال: افعل، قلت فخذها الآن. سمعت العروضي أبا محمد يقول: دخل بعض الشعراء على عيسى بن موسى الرافقي وبين يديه جارية يقال لها خلوب فقال لها: اقترحي عليه، فقالت:

إذا شئت أن تقلى فزر متواترا ... وان شئت أن تزداد حبا فزر غبّا

أجزه بأبيات تليق به، فأنشد:

بقيت بلا قلب فانّي هائم ... فهل من معير يا خلوب لكم قلبا
حلفت برب البيت أنك منيتي ... فكوني لعيني ما نظرت لها نصبا
عسى الله يوما أن يرينيك خاليا ... فيزداد لحظي من محاسنكم عجبا

---

(1) المصدر السابق 15/ 9 - 10.

(2) «كعنقاء مغرب» كناية عن المُحال، راجع المصدر السابق - الهامش رقم 1.

(3) معجم الأدباء 15/ 14 - 16.

إذا شئت أن تقلى فزر متواترا | وان شئت أن تزداد حبا فزر غبّا

قال: فأنجز لي ما وعد، ووفى بما شرط.

* حرقه كتبه:

إن حياة أبي حيان التوحيد الطويلة، والتي نافت على 82 عاماً، وخبرت كل طبقات المجتمع العباسي، ومختلف البيئات الاجتماعية، فعاشر الوزراء والكتّاب والفلاسفة والفقهاء، والشعراء والادباء والنحويين والمتصوفة والزهّاد، والمترفين والفقراء، وخالط الجميع في أفراحهم وأتراحهم، وأذلّته الغربة، وأعوزته الحاجة إلى أخسّ الناس وهو فرد الدنيا، وفيلسوف الادباء، وأديب الفلاسفة، يشعر بوجوده، ويميّز موقعه، ولكن الدهر ملوى العنان عنه، وسوق الأدب أصبحت كاسدة، ومرارة الأيام أصبحت تتحنضل في فيه. فتحول كل شيء في ذائقته إلى مرّ علقم، ومن يتصفح الفصول الأولى من كتابه «**رسالة في الصداقة والصديق**»، يحسّ بلوعة الرّجل من خلال تعليقاته على الأخبار التي يرويها، أو من خلال اختياراته التي يثبتّها، فيحس المتتبع لمسار حياته، أن روحية التشاؤم بدأت تكتنفه، وهو يمرّ بأرذل أيام عمره الأخيرة، فأراد التعبير عما في داخله والاقتصاص من ذاته أولاً، وبأدواته الادبية، ومن المجتمع ثانياً، ذاك الذي لم يقدره حقّ قدره، فكان أن لجأ إلى إحراق كتبه «**لقلة جدواها، وضّنا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته**» كما يقول(1)، فكتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يلومه على فعلته، فأجابه أبو حيان قائلاً(2):

«حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظنّي بمودتك وطول جفائك وأعاذني من مكافأتك على ذلك، وأجارنا جميعاً مما يسوّد وجه عهدٍ إن رعيناه كنا مستأنسين به، وإن أهملناه كنا مستوحشين من أجله، وأدام الله نعمته عندك وجعلني على الحالات كلها فداك.

وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع على ظمأ برح بي إليه، وشكرت الله تعالى على النعمة به عليّ، وسألته المزيد من أمثاله، الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إليّ، والصبابة نحو ما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمى إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء، فعجبت من إنزواء وجه العذر عنك في ذلك كأنك لم

---

(1) راجع رسالته إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد/ رسائل التوحيدي/ ص 159، وما بعدها، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني – منشورات دار الثقافة بدمشق.

(2) راجع – ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 15/ 16 – 27 – ورسائل التوحيدي/ ص 159 – 170، ونشير هنا إلى أننا اعتمدنا النص الوارد عند ياقوت الحموي.

تقرأ قوله جلّ وعزّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] وكأنك له تأبه لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[2]، وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر، ما دام مقلّباً بيد الليل والنهار معروضاً على أحداث الدهر وتعاود الأيام، ثم أني أقول: إن كان - أيدّك الله - قد نقب خفك ما سمعت، فقد أدمى أظلى ما فعلت، فليهن عليك ذلك، فما أنبريت له ولا اجترأت عليه حتى استخرت الله عَزَّوَجَلَّ فيه أياماً وليالي، وحتى أوحى إلي في المنام بما بعث راقد العزم، وأجدّ فاتر النيّة، وأحيا ميّت الرأي، وحثّ على تنفيذ ما وقع في الروع وتربّع في الخاطر، وأنا أجور عليك الآن بالحجة في ذلك، إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت لتثق بي فيما كان مني، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي: إن العلم - حاطك الله - يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كلاً على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً، وصار في رقب صاحبه غُلاً - وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار- ثم اعلم علمّك الله الخير أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سرّه وعلانيته، فأما ما كان سرّاً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً، وأمّا ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً، على أنّي جمعت أكثرها للناس، ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم، ولمدّ الجاه عندهم، فحرمت ذلك كله، ولا شك في حسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي، وربطه بأمري، وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجّة عليّ لا لي، وممّا شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً، ورئيساً منيباً، فشقّ عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفّحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها، فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظنّ، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب، فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقّق ظنّي بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناسٍ جاورتهم عشرين سنة فما صحّ لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفّف الفاضح عند الخاصّة والعامة، وإلى بيع الدّين والمروءة، وإلى تعاطي الريّاء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحرّ أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم وأحوال الزمان بادية لعينيك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته يخاف عليك مع معرفتك وفطنتك، وشدة تتبعك وتفرغك، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته بما قدّمته ووصفته، وبما

(1) سورة القصص، الآية: 88.

(2) سورة الرحمٰن، الآية: 26.

أمسكت عنه وطويته أما هرباً من التطويل، وأما خوفاً من القال والقيل. وبعدُ فقد أصبحت هامة اليوم أوغد فإنّي في عشرِ التسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة، أو رجاء لحال جديدة، ألست من زمرة من قال القائل فيهم:

نـروح ونـغـدو كـل يـوم ولـيـلـة وعـمـا قـلـيـل لا نـروح ولا نـغـدو

وكما قال آخر:

تـفـوّقـت درّات الـصّـبـا فـي ظـلالـه إلـى أن أتـانـي بـالـفـطـام مـشـيـبُ

وهذا البيت للورد الجُعدي وتمامه يضيق عنه هذا المكان، والله يا سيدي لو لم أتعظ إلاّ بمن فقدته من الاخوان والأخدان في هذا الصقع من الغرباء والادباء والاحياء لكفى، فكيف بمن كانت العين تقرّبهم والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والرّيّ، وما والى هذه المواضع، وتواتر إلى نعيهم، واستدّت الواعية بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم، وهل لي محيد عن مصيرهم؟ أسأل الله تعالى ربّ الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولاً بنزوعي عما أقترفه أنه قريب مجيب.

وبعد، فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم، ويُعشى إلى نارهم، منهم: أبوعمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء مع زهدٍ ظاهر وورع معروف، دفن كتبه في بطن الأرض، فلم يوجد لها أثر.

وهذا داود الطائي، وكان من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبارة، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر وقال يناجيها: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول.

وهذا يوسف بن أسباط: حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحه فيه وسدّ بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلّنا العلم في الأول ثم كاد يضلّنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل ما أردناه.

وهذا أبو سليمان الدّاراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار، ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك.

وهذا سفيان الثوري: مزق ألف جزء وطيّرها في الريح وقال: ليت يدي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفاً.

وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيّد العلماء قال لولده محمد: قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار. وماذا أقول وسامعي يصدّق أن زماناً أحوج مثلي إلى ما بلغك، لزمان تدمع له العين حزناً وأسى،

ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوىً وضنىً وشجى وما يصنع بما كان وحدث وبان، إن احتجت إلى العلم في خاصة نفسي فقليل، والله تعالى شاف كاف، وإن احتجت إليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس، إلى أن تفي الانفاس بعد الانفاس، ﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. فلم تعنّى عيني أيدك الله بعد هذا بالحبر والورق والجَلَد والقراءة والمقابلة والتصحيح وبالسوّاد والبياض، وهل أدرك السلف الصالح في الديْن الدّرجات العلى إلا بالعمل الصالح، وإخلاص المعتقد والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا وخدج بالزبرج، وهوى بصاحبه إلى الهبوط، وهل وصل الحكماء القدماء إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد في السعي، وإلاّ بالرضا بالميسور، وإلاّ ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم، فأين يذهب بنا وعلى أي باب محط رحالنا؟؟ وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب، وهل المنهوم بها إلا كالحريص الجشع عليهما؟ وهل المغرم بحبّها إلا كمكاثرِهِما؟ هيهات، الرحيل والله قريب، والثّواء قليل، والمضجع مقض والمقام ممض، والطريق مخوف والمعين ضعيف، والاغترار غالب، والله من وراء هذا كله طالب، نسأل الله تعالى رحمة، يظلّنا جناحها، ويسهّل علينا في هذه العاجلة غدوّها ورواحها، فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته بعد أن حصل تحت قدره، فهذا هذا، ثم أني - أيدك الله - ما أردت أن أجيبك عن كتابك لطول جفائك وشدة التوائك عمّن لم يزل على رأيك مجتهداً وفي محبتك على قربك ونأيك، مع ما أجدهُ من انكسار النشاط وانطواء الانبساط لتعاود العِلل عليَّ وتخاذل الأعضاء منيّ، فقد كلّ البصر وانعقد اللسان وجمد الخاطر، وذهب البيان، وملك الوسواس وغلب اليأس من جميع الناس، ولكني حرست منك ما أضعته منّي، ووفيت لك بما لم تف به لي، ويعزّ عليّ أن يكون لي الفضل عليك، أو أحرز المزية دونك وما حداني على مكاتبك إلا ما أتمثّله من تشوّقك إليّ وتحرّقك عليّ، وأن الحديث الذي بلغك قد بدد فكرك، وأعظم تعجّبك، وحشد عليك جزعك، والأول يقول:

وقد يجزعَ المرء الجليد وتبتلى عزيمة رأى المرء نائبة الدهرِ
تعاوده الايام فيما ينوُبهُ فيقوى على أمر ويضعف عن أمرِ

على أني لو علمت في أيّ حال غلب على ما فعلته، وعند أي مرض وعلى أية عسرة وفاقة لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته، واحتججت لي بأكثر ممّا نشرته وطويته، وإذا أنعمت النظر تيقّنت أن لله جل وعزّ في خلقه أحكاماً لا يعازّ عليها ولا يغالب فيها، لأنه لا يبلغ كنهها ولا ينال غيبها ولا يعرف قابها ولا يقرع بابها، وهو تعالى أملك لنواصينا، وأطلع على أدانينا وأقاصينا، له الخلق والأمر، وبيده الكسر والجبر، وعلينا الصمت

والصبر إلى أن يوارينا اللحد والقبر، والسلام. إنْ سرّك جعلني الله فداك أن تواصلني بخبرك، وتعرّفني مقرّ خطابي هذا من نفسك فافعل، فإني لا أدع جوابك إلى أن يقضي الله تعالى تلاقياً يسرّ النفس، ويذكّر حديثنا بالامس، أو بفراق نصير به إلى الرمس، وتفقد معه رؤية هذه الشمس، والسلام عليك خاصّاً بحق الصفاء الذي بيني وبينك، وعلى جميع إخوانك عامّاً بحق الوفاء الذي يجب عليّ وعليك، والسلام.

ابن الزبير الأسدي الورّاق:

هو علي بن محمد بن عبيد بن الزبير الأسدي، المعروف بالكوفي[1] واحد من الورّاقين المشهورين، صاحب العلماء من شيوخ اللغة، وتتلمذ على يد ثعلب النحوي، واختصّ الوراقة له ولازم مجلسه.

عرف بحسن خطّه واتقان الضبط والشكل، وثنا الناس عليه في ذلك، فإذا قيل: نقلت من خط ابن الكوفي فقد بالغ في الاحتياط[2].

أصله من الكوفة، ونسبه يمتد إلى أسد قريش، رهط الزبير بن العوّام، ولد سنة 254هـ، وتوفيّ سنة 348هـ[3].

استهوته حرفة الأدب، وشدّته مهنة الوراقة، وتفرّد بمنهج خاص به في مسلكيته أثناء التوريق، **وكان أحد المؤسسين للمنهج المعرفي في الوراقة**[4]. فقد نقل ياقوت عنه في هذا الصدد قائلاً: ورأيت بخطّه عدة كتب، فلم أرَ أحسن ضبطاً واتقاناً للكتابة منه، فإنه يجعل الاعراب على الحرف بمقدار الحرف احتياطاً، ويكتب على الكلمة المشكوك فيها عدّة مرار: صحّ صحّ صحّ، وأضاف: وكان من جمّاعي الكتب وأرباب الهوى فيها[5].

صنّف عدة كتب في اللغة والأدب كان أهمها[6]:

1 - كتاب الهمز.

2 - معاني الشعر واختلاف العلماء فيه.

3 - الفرائد والقلائد في اللغة.

---

(1) معجم الأدباء 14/ 153 - الترجمة رقم (33).

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) راجع - منهج الوراقة - في هذه الدراسة - الجزء الثاني من العمل.

(5) معجم الأدباء 14/ 153 - 154.

(6) معجم الأدباء 14/ 153.

قال ياقوت: ووجدت جزازة من إملاء أبي الهيذام كلاب بن حمزة العقيلي اللّغوي، ما صورته: ولأبي الهيذام إلى أبي الحسن بن الكوفي النحوي البغدادي رحمه الله [1].

أبا حسن أراك تمدّ حبلي ... لتقطعه وأرسله بجهدي
وأتبعه إذا قصر احتياطا ... وأنت تشدّ حبلك أيّ شدّ
أخيَّ فكم يكون بقاء حبل ... يتلتلُ بين إرسال ومدّ[2]
تعالى الله ما أجفى زمانا ... بقيت له وأنكد فيه جدّي
أظنّ الدهر يقصدني لأمرٍ ... يحاوله ويطلبني بحقدِ
إذا ذهبت بشكلي عن ودادى ... مذاهبه فكيف ألوم ضدّي
سأصبر طائعا وأغضّ طرفي ... وأحفظ عهد مطرّح لعهدي
وأقصد أن أحصّل لي صديقا ... أعزّ به على خطئي وعمدي
فإن أظفر بذاك فأيّ كنزٍ ... ونيل غنيمة وثقوب زند
وإلّا كان حسن الصّبر أحرى ... بحسن مثوبة وبناء مجد
ألا لله ما أصبحت فيه ... من الخلطاء من تعب وكدّ
لقاء بالجميل وحسنُ بشرٍ ... وانصاف يشاب بخلف وعد
وعلِمٌ لا يقاس إليه علِم ... •بكلّ طريقة وبكلّ حدّ
واغفال لما أولى وأحجى ... تفقده بذى أدب وحشد
فبالله يا للناس، يا للـ ... ـعجائب بين تقربةٍ وبعد
من الاخلاق إذ مزجت فصارت ... علاقمها مجدّحة بشهد
أراني بين منزلتين مالي ... سوى إحداهما ثقة لقصدِ
فإن أراد الأنيس أعش ذليلاً ... وإن أرد التعزُّزُ أبق وحدي

الأثرم الورّاق:

هو عليّ بن المغيرة، الملّقب بالأثرم والمكنى بأبي الحسن[3]، من الورّاقين المشهورين في بغداد، كان أولّ أمره يورّق لإسماعيل بن صبيح[4].

(1) معجم الأدباء 14/ 154 - 156.
(2) يتلتل = يقلقل ويحرك ويزعزع.
(3) معجم الأدباء 15/ 77 - الترجمة رقم (18).
(4) السيوطي - بغية الوعاة/ ص 355.

لم تذكر المصادر تاريخ ولادته، واكتفت بذكر تاريخ وفاته في سنة 232هـ[1].

كان صاحب كتب مصححة، قد لقي بها العلماء، وضبط ما ضمّنها، ولم يكن له حفظ، لقي أبا عبيدة والاصمعي وأخذ عنهما ومنه أخذ الزبير بن بكّار وابن مكرم[2].

تتلمذ على الشيوخ المذكورين، واشتغاله بالوراقة، ومُماحكته بالعلماء والأدباء أهلّه لأن يكون واحداً منهم، فإلى جانب الوراقة مارس التأليف، فكانت له الكتب التالية:

1 - كتاب النوادر.

2 - كتاب غريب الحديث[3].

يتحدّث ياقوت الحموي عن بداية علاقته بأبي عبيدة النحوي، وكيف كان الأثرم يحتال عليه بالقراءة، لأخذ الاجازة، يقول: حدّث أبو مسحل عبد الوهاب قال: كان إسماعيل بن صبيح الكاتب قد أقدم أبا عبيدة من البصرة في أيام الرشيد إلى بغداد، وأحضر الأثرم، وهو يومئذ ورّاق، وجعله في دار من دوره، وأغلق عليه الباب، ودفع إليه كتب أبي عبيدة، وأمره بنسخها، فكنت أنا - والكلام لأبي مسحل - وجماعة من أصحابنا نصير إلى الأثرم، فيدفع إلينا الكتاب والورق الأبيض من عنده، ويسألنه نسخه وتعجيله، ويوافقنا على الوقت الذي نردّه إليه، فكنّا نفعل ذلك. وكان الأثرم يقرأ على أبي عبيدة، وكان أبو عبيدة من أضنّ الناس بكتبه، ولو علم ما فعله الأثرم لمنعه من ذلك[4].

جاء في شعره أنه قد تجاوز التسعين سنة، فقد ذكر ياقوت هذه الأبيات له[5]:

كبرت وجاء الشيب والضعف والبلى ... وكل امرىء يبلى إذا عاش ما عشتُ
أقول وقد جاوزت تسعين حجّة ... كأن لم أكن فيها ولبدا وقد كنتُ
وأنكرت لمّا أن مضى جلّ قوتي ... وتزداد ضعفاً قوتي كلمّا زدتُ
كأني إذا أسرعت في المشي واقف ... لقرب خطى ما مسّها قصرا وقتُ
وصرت أخاف الشيء كان يخافني ... أعدّ من الموتى لضعفي وما متُّ
وأسهر من برد الفراش ولينه ... وان كنت بين القوم في مجلس نمتُ

(1) معجم الأدباء 15/ 77؛ وبغية الوعاة/ ص 355.
(2) المصادر السابقة.
(3) معجم الأدباء 15/ 77.
(4) معجم الأدباء 15/ 78.
(5) المصدر السابق 15/ 78 - 79.

الفزاري الورّاق:

هو أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن حبيب بن سليمان بن مسعود بن جندب الفزاري[1]. قال عنه إبن النديم: كان عالم صحيح الخطّ[2]، ولم يضف الى ذلك شيء.

ابن النديم[*]:

هو محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق النديم، كنيته أبو الفرج، وغلب عليه لقب «ابن النديم» والتصق هذا الاسم بكتابه الذائع الصيت «الفهرست».

كان علماً من أعلام القرن الرابع الهجري، وواحد من أشهر ورّاقي بغداد قاطبة، لم تذكر مصادر ترجمته تاريخ ولادته، بل ذكرت تاريخ وفاته سنة 380هـ، كما يقول الصفدي[3]، فيما قال ابن حجر العسقلاني أنه توفي سنة 338هـ[4]، وأحجم ياقوت الحموي عن ذكر ولادته أو تاريخ وفاته[5]. واعتمد ناشر كتاب الفهرست على ابن النجار، صاحب كتاب/ ذيل تاريخ بغداد/ حيث ذكر أنه توفي في شعبان سنة 385هـ[6]، ووافق على هذا التاريخ كل من/ آقا بزرك الطهراني في «الذريعة»[7] والزركلي في «الاعلام»[8].

ونحن نميل إلى تاريخ وفاته في سنة 385هـ لعدة أسباب، منها: أنه ألّف كتاب «الفهرست» في سنة 377هـ، كما يعترف هو بذاته، حيث يقول في نهاية المقالة الاولى، الخاصة بموضوع «الكتب المؤلفة في معاني شتى من القرآن»: «هذا آخر ما صنّفناهُ من المقالة الاولى من كتاب «الفهرست» إلى يوم السبت، مستهل شعبان سنة سبع وسبعين وثلثمائة»[9].

---

(1) الفهرست/ ص 118.
(2) المصدر السابق.
(*) لسان الميزان 5/ 72 - الترجمة رقم (237)؛ معجم الأدباء 18/ 17 - الترجمة رقم6؛ الوافي بالوفيات 2/ 197، كتاب الفهرست/ المقدمة/ ص آ - و؛ أعلام الزركلي 6/ 29.
(3) الوافي بالوفيات 2/ 197.
(4) لسان الميزان 5/ 72.
(5) معجم الأدباء 18/ 17.
(6) مقدمة (الفهرست/ ص ب/ ولم نعثر على كتاب/ ذيل تاريخ بغداد/ لابن النجار إلا على الجزء الأول منه، والخاص بترجمات من تبدأ أسماؤهم بحرف العين.
(7) الذريعة إلى تصانيف الشيعة 16/ 372 - 373 - دار الأضواء - بيروت ط3/ بدون تاريخ.
(8) الزركلي/ الاعلام 6/ 29.
(9) الفهرست/ ص 85/ الطبعة المصرية 1348هـ.

كما أن الاشخاص والاعلام الذين ترجم لهم في «الفهرست» يذكرتاريخ وفاتهم بعد ذلك التاريخ، ولذلك من المنطقي أن تكون وفاته بعد ذلك.

تعصّب عليه المؤرخون وأصحاب التراجم الذين جاؤوا بعده، ولم ينصفوه قط، رغم أنهم كثيراً ما يعتمدون على رواياته وكتابه «الفهرست»، فقد ذكره ياقوت الحموي بترجمة موجزة، جاء فيها ما يلي: «محمد بن إسحاق النديم، كنيته أبو الفرج، وكنية أبيه أبو يعقوب، مصنّف كتاب الفهرست الذي جوّد فيه، واستوعب استيعاباً يدلّ على إطلاعه على فنون من العلم، وتحققه لجميع الكتب، ولا أبعد أن يكون قد كان ورّاقاً يبيع الكتب، وله من التصانيف، فهرست الكتب، كتاب التشبيهات، **وكان شيعياً معتزليّا**[1].

رغم قصر هذه الترجمة الموجزة له، ولكنها توضح مدى الموسوعية المعرفية التي كان يتحلّى بها، لا سيما وأنها صادرة من رجل ذا خبرة بالادب والادباء والتاريخ والمواضع.

والعبارة الأخيرة في هذه الترجمة ذات مدلول سياسي واضح الأبعاد والمرامي، فهو شيعي، وأغلب المؤرخون سنّة، وهو معتزلي، والغالبية العظمى في عصره (ق 4 هـ) ناصبت الاعتزال العداء، ووصمت أهله بالمتكلمين والدهريين والزنادقة وغيرها من النعوت، وهو أمر ينعكس آيديولوجياً وإعلامياً على رجال المعتزلة، وبتقديرنا أن هذا الجانب، كان واضحاً في ترجمة ابن النديم، من قبل مناوئيه الآيديولوجيين، فهذا ابن أيبك الصفدي، رغم تحلّيه بحس الناقد الادبي، وتقصيّه لآثارالادباء والعلماء يقول عنه: محمد بن إسحاق النديم الإخباري البغدادي، أبو الفرج كان شيعياً معتزليّاً، وله تصانيف منها: «الفهرست في أخبار الادباء» و«التشبيهات»، توفي سنة ثمانين وثلثماية[2].

فالإحجام عن مواهبه الادبية والفنية الأخرى واضح تماماً، فيما تظل عبارة «كان شيعياً معتزلياً» ثابتة، وهو أمر يعود إلى أبعاده الآيديولوجية كما أسلفنا.

وأما الآخرون الذين اهتموا بتراجم الرجال، فإن الاسقاط الآيديولوجي - المذهبي يكون أوضح لديهم، لا سيّما الذين اهتموا بعلوم الحديث والقرآن والسنّة، فهذا ابن حجر العسقلاني، الحافظ، يكيل له الذمّ، حيث يقول: «محمد بن إسحاق بن محمد بن النديم، الورّاق، مصنّف كتاب «فهرست العلماء» روى فيه عن أبي إسحاق السيرافي، وأبي الفرج الاصبهاني، وروى بالاجازة من إسماعيل الصفّار، قال ابن النجار: لا أعلم لأحد عنه رواية، وقال أبو طاهر الكرخي؛ مات في شعبان سنة ثمان وثلاثين. قلت/ والكلام

(1) معجم الأدباء 18/ 17.

(2) الوافي بالوفيات 2/ 197، بعناية س. ديدرينغ - استانبول - طبعة وزارة المعارف 1949م.

للعسقلاني/ وهو غير موثوق به ومصنفه المذكور، ينادى على من صنّفه بالاعتزال والزيغ، نسأل الله السلامة» وقد ذكر له الذهبي ترجمة في «تاريخ الاسلام» فيمن لم يعرف له وحده على رأس الأربع مائة فقال: محمد بن إسحاق بن النديم، أبو الفرج، الإخباري الأديب الشيعي المعتزلي، ذكر أنه صنّف «الفهرست» سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، قال ولا أعلم متى توفي. قلت/ والكلام أيضاً للعسقلاني/ ورأيت في «الفهرست» موضعاً ذكر أنه كتب في سنة اثنتي عشر وأربعمائة، فهذا يدل على تأخيره إلى ذلك الزمان، ويضيف: ولمّا طالعت كتابه، ظهر لي أنه رافضي معتزلي، فإنه يسمّي أهل السنة الحشوية، ويسمي الأشاعرة، المجبّرة، ويسمي كل من لم يكن شيعياً، عامياً، وأضاف: وذكر في ترجمة الشافعي شيئاً مختلقاً، ظاهر الافتراء، فمّما في كتابه/ يقصد الفهرست/ من الافتراء، ومن عجائبه أنه وثّق عبد المنعم بن ادريس والواقدي واسحاق بن بشير، وغيرهم من الكذّابين، وتكلم في محمد بن إسحاق وأبي إسحاق الفزاري وغيرهما من الثقاة(1).

وهذه الترجمة توضّح بجلاء، مدى التحامل عليه من لدن اثنين من المؤرخين الكبار السنّة، هما الذهبي والعسقلاني، وهذا التحامل يكاد يكون ظاهرة في تلك الاحقاب، نظراً لكون حالة الاحتراب السياسي، كانت أمراً واقعاً، وكان هناك من يغذيها، وهذا «الاحتراب المختلق» ظلّ يواكب الكثير من هؤلاء، فالذهبي نفسه، تغاضى عن ترجمة أو الأخذ عن ابن النديم في موسوعته الهامة/ سير أعلام النبلاء/ وأصفح عن ذكره ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب» والأمرُ من ذلك أن القفطي «الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف» أهمل ترجمته بشكل متعمّد في كتابه «أنباه الرواة على أنباه النحاة» رغم اعتماده على الكثير من رواياته، فقد ورد ذكر ابن النديم لديه في أكثر من موضع، فقد ورد في ج1 في الصفحات «7ح، 9، 167، 179» وفي ج2 في الصفحات «7، 35، 41، 147، 202، 270، 320» وفي ج3 في الصفحات «65، 207، 220، 233، 251، 288» وفي ج4 في الصفحات «5، 79، 100، 140، 164»(2).

وانسحبت هذه النزعة حتى على المتأخرين من المؤرخين والادباء، فهذا ابن خلكان أحد الأعلام في (ق 7هـ)، وواحد من الذين عنوا بالادب وتتبعوا رجالاته، لم يترجم هو الآخر لابن النديم، رغم أنه أخذ الكثير عنه في تراجمه لـ «وفيات الاعيان»، فقد ورد ذكره عنده في ج1 في الصفحات/ 53/ ، وفي ج2/ 486/ ، وفي ج4/ 292/ ، وفي ج5/ 168 –

(1) ابن حجر العسقلاني/ لسان الميزان/ 5/ 72 - 73 - ط1 - حيدر آباد 1331هـ.

(2) راجع الاجزاء المشار إليها في طبعة دار الكتب المصرية - بعناية محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة 1973م - كما أنه أهمل ترجمته أيضاً في كتابه «تاريخ الحكماء» رغم أخذه الكثير من رواياته.

306/ وفي ج6/ 201 و364/ وتلك مشكلة عويصة بحق هذا النابه صاحب «الفهرست» ذلك الكتاب الهام الذي أوضح أعلام الفكر والادب والعلم في القرنين 3 و4 الهجريين.

يبدو أن حظّ ابن النديم عاثر لدى المؤرخين بصورة عامة، نتيجة انتمائه الشيعي - وموقفه الفكري الاعتزالي، لذلك انسحب الموقف عليه من قبل مؤرخي الشيعة من الادباء والعلماء وبذا تكون قد حلّت عليه اللعنتان، فلم يذكره الكشي في «رجاله» بينما أورد النجاشي في «الرجال» في باب «محمد» ترجمة تقول: «محمد بن أبي اسحاق، متكلم، ذكره ابن بطّه، وذكر أن له مصنّفات عدة ولم يفصح أكان عن ابن النديم أم غيره؟[1].

ولم يتوقف عنده الشيخ محسن الأمين في «أعيان الشيعة» لكن آقابزرك الطهراني توقف عنده قليلاً في «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» فقد جاء عنده، تحت رقم 1728، «فوز العلوم» المعروف بالفهرست، لأبي الفرج محمد بن إسحاق المعروف بابن أبي يعقوب، النديم، الوراق البغدادي، ويقال له أيضاً ابن النديم «توفي لعشر بقين من شعبان في 385، ألّفه بعد ولادة النجاشي بخمس سنين»، ويضيف: كان تلميذ البلاذري، ونديم المتوكل العباسي[2].

طغت شهرة ابن النديم بعد تأليفه كتابه الهام «الفهرست» حيث يعدّ هذا الكتاب من أقدم كتب التراجم وأفضلها[3].

اختلفت بعض الآراء بلقبه «ابن النديم» فالمصادرالسابقة الذكر، ذكرته بلقب «ابن النديم» وهو الاشهر والأعرف، ولكن ثمة ملاحظة هامة يوردها الزركلي في حاشية ترجمته لابن النديم جاء فيها: اشتهر صاحب الترجمة بابن النديم، إلا أن محقق طبعة الفهرست في طهران - شعبان 1391 - رضا تجدّد، نبّه إلى أنه هو «النديم لا ابن النديم»، وصورة الصفحة الاولى من مخطوطة نفيسة في «شستربتي» جاء اسم الكتاب فيها «الفهرست للنديم» وعلى هامشها من اليمين بخط المؤرخ «أحمد بن علي المقريزي» ما نصّه: مؤلف هذا الكتاب أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق بن محمد بن اسحق الورّاق المعروف بالنديم»[4].

امتهن ابن النديم الوراقة عن حبّ ودراية ومعرفة تامّة بأحوال أهل صنعة الأدب،

(1) رجال النجاشي/ ص 243 - الطبعة الايرانية سنة 1317هـ.
(2) الذريعة 16/ 372 - طبعة دار الاضواء البيروتية - ط3 - سنة 1403هـ/ 1983م.
(3) الزركلي الاعلام 6/ 29.
(4) الزركلي - الاعلام 6/ 29 - الهامش رقم 1.

وأهل العلم والدراية، ومن يطّلع على كتاب «الفهرست» يدرك أهميّة هذا الرجل في صنوف المعرفة، فهو قد ترجم فيه لاشهر علماء وأدباء الاسلام، من جميع الطبقات والمذاهب، وكان يرثي لحالة العلماء الذين يمتهنون الوراقة مثله، فمن ذلك ما رواه «يحيى بن عدي» قائلاً: قال لي يوماً في الورّاقين - يقصد السوق - وقد اعتبته على كثرة نسخه، فقال: من أي شيء تعجب في هذا الوقت؟ من صبري! قد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري، وحملتها إلى ملوك الأطراف، وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى، ولعهدي بنفسي وأنا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأقل[1].

توفيّ ابن النديم عن عمر يناهز التسعين سنة.

محمد بن سليمان البغدادي الوراق:

هو محمد بن سليمان بن قطرمش بن تركان شاه، أبو نصر، البغدادي المولد، والسمرقندي الأصل[2].

ولد سنة 543هـ في سمرقند، وتوفي ببغداد سنة 620هـ[3].

كان عالماً في النحو واللغة والأدب، قال عنه ياقوت الحموي: أحد أدباء عصره، وأعيان أولي الفضل بمصرنا، تجمعت فيه أشتات الفضائل، وقد أخذ من كل فن، من العلم بنصيب وافر، وهو من بيت الامارة، وكانت له اليد الباسطة في حل اقليدس وعلم الهندسة، مع إختصاصه التام بالنحو واللغة وأخبار الأمم والأشعار[4].

ورث من أبيه أموالاً كثيرة، فضيعها بالقمار واللعب بالنرد، حتى احتاج إلى الوراقة، فكان يورق بأجرة بخطه المليح الصحيح المعتبر، حتى عرف بسوق الوراقين، وذاع صيته، نتيجة كتابته الكثير من الكتب، فذكر للإمام الناصرالعباسي، فولاه حاجب الحجاب، ولم يزل بهذه الوظيفة إلى أن مات[5].

عرف أيضاً بأن له شعر رائق، ومن ذلك ما أورد له ياقوت، هذه الأبيات[6]:

لا والّذي سخّرَ قلبي لها ... عبداً كما سخّرني قَلبُها
ما فرحي في حُبّها غير أن ... زيَّنَ عندي هجرها قلبُها

(1) الفهرست/ ص 369 - الطبعة المصرية.
(2) معجم الأدباء 18/ 205 - 206 - الترجمة رقم (58).
(3 - 6) المصدر السابق 18/ 206.

ياقوت الحموي الورّاق(*):

هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، يلقّب بشهاب الدين، من المؤرخين الثقاة، وواحد من أئمة الجغرافيين[1] علم من **أعلام الورّاقين المكافحين**، ملأت شهرته الآفاق، وعرفته كل بلاد الإسلام، لم يستسلم لنائبات الزمان ولا لطوارق الحدثان، عرفته الدنيا بكتابيه المشهورين (**معجم البلدان ومعجم الأدباء**) وهاتين الموسوعتين، هما من الركائز الأساسية في علوم الأدب والجغرافيا، عند العرب والمسلمين، إضافة إلى أنهما من أهمّ المصادر التي اعتمد عليها المستشرقون وغيرهم، ممّن نقلت اليهم الآداب العربية.

مولده في بلاد الروم، حيث أصله كان من هناك، انفرد ابن خلكان والزركلي بذكر سنة مولده وهي 574هـ/ 1178م[2]، فيما كان الاجماع عليه في بقية المصادر على أنه توفي سنة 626هـ/ 1229م.

تذكر مصادر ترجمة حياته أنه أسِرَ صغيراً من بلاد الروم، وجيء به إلى بغداد، فاشتراه رجل تاجر فيها يعرف باسم «**عسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي**» ومن هذا الرجل اكتسب اسمه لقب «**الحموي**»، مولاه هذا كان ساكناً ببغداد، وتزوج بها وأولد عدة أولاد، وعندما اشترى ياقوتا جعله في الكتّاب، لينتفع به في ضبط تجارته، حيث كان مولاه، لا يحسن الخطّ ولا يعلم شيئاً سوى التجارة، ولمّا كبر ياقوت، قرأ شيئاً من النحو واللغة، وشغله مولاه بالأسفار في متاجره، فكان يتردد إلى كيش[3] وعمان، وتلك النواحي ويعود إلى الشام[4].

على ما يبدو أن الفتى ياقوت أخذ يشعر بوجوده، ويدرك الحياة أكثر من سيّده التاجر، فلقد أكسبته جولاته وأسفاره خبرة كثيرة، ناهيك عن نباهته، وهو أمر يفجر طاقات الانسان الغريب، في ذاته، فيدرك ذاته بشكل سريع، ممّا يولّد لديه عزة الذات، وهكذا كان ياقوت، فبعد تلك السفرات والاتجار لمولاه أحسّ بشيء من التعسّف والضيم عليه من قبل

(*) وفيات الأعيان 6/ 127 - الترجمة (790)؛ النجوم الزاهرة 8/ 187؛ أنباه الرواة 4/ 74، الترجمة (840)؛ والاعلام للزركلي 8/ 131؛ والوراقة والوراقون لحبيب زيات/ ص 23 - 24.

(1) وفيات الأعيان 6/ 127؛ والأعلام 8/ 131.

(2) وفيات الأعيان 6/ 139؛ والاعلام 8/ 127.

(3) كيش: جزيرة في الخليج العربي.

(4) وفيات الاعيان 6/ 127؛ وأنباه الرواة 4/ 74 - 75.

مولاه وكثرة تشغيله إياه فجرت بينهما نبوة[1] أوجبت عتقه، فأبعده مولاه عنه[2]. وقعت هذه الجفوة بين ياقوت ومولاه سنة 596هـ، فانحدر ياقوت من التجارة إلى الوراقة، فاشتغل بالنسخ بالأجرة[3]، وهو الأمر الذي عشقته روحه فيما بعد، حيث تحولت الوراقة عنده إلى شغف معرفي، وموقف ثقافي جعله أن يكون في الطليعة الثقافية، لأنه اكتشف عالماً رحباً، إنسانياً، لم يكن يعرفه من قبل، فاستسلمت جميع أحاسيسه لهذا العالم الجديد الذي ولج فيه، فقد حصلت له فوائد جمّة من وراء عملية الوراقة، لكن مولاه أدرك أهمية ياقوت، فعطف عليه بعد مُديدة وألوى عليه واستسمحه وأعطاه شيئاً وسفّره إلى كيش مرّة ثانية[4]، ولما عاد كان مولاه قد مات، فحصل شيئاً ممّا كان في يده، وأعطى زوجة مولاه وأولاده ما أرضاهم به، وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله، وسافر بها[5].

وقد تبدّلت بعض بضاعته هذه المرّة، بعد وفاة مولاه، واستقلاله، حيث أخذ يتاجر بالكتب، وهذا التبدل في تجارته أخضعه لحسّهِ المعرفي والحضاري بآن معاً، فلقد أصبحت الثقافة عنده همّاً من الهموم اليومية، ترافقه أينما حل، وهذا الأمر يتجلّى واضحاً في كتابيه الشهيرين «معجم البلدان ومعجم الادباء» فهناك حادثة معرفية تؤكد ما ذهبنا إليه أوردها القفطي، في ترجمته لياقوت، حيث ذكر فيها أنه التقى وياقوت واجتمع به في حلب ليعرض عليه الكتب، يقول، فكان اجتماعي به في شهور سنة تسع وستماية، أحضره لي أبو علي القيلوي بحلب، ورأيت ما جلبه من الكتب على قلّتها فلم يكن فيها ما أرغب إليه سوى كتابين أبتعتهما منه[6].

* نوازعه السياسية:

أدرك ياقوت حالة الصراع الفكري - السياسي المحتدم في القرن السابع الهجري، وأهلّته مداركه لمعرفة كافة الأجواء والتيارات السياسية، وعلى ما يبدو أنه قد تأثر بعض الشيء بأفكار الخوارج، فقد ذكر ابن خلّكان أنه «كان متعصّباً على علي وكان قد طالع شيئاً من كتب الخوارج، فاشتبك في ذهنه من طرف قوي» وتوجه إلى دمشق في سنة 613هـ،

(1) النبوة = الجفوة = اللسان - مادة (نبا).
(2) وفيات الاعيان 6/ 127؛ وأنباه الرواة 4/ 75.
(3) وفيات الاعيان 6/ 127؛ وأنباه الرواة 4/ 75.
(4) المصادر السابقة.
(5) المصادر نفسها.
(6) أنباه الرواة 4/ 75.

وقعد في بعض أسواقها، وناظر بعض من يتعصّب لعلي وجرى بينهما كلام أدّى إلى ذكره عليّاً بما لا يسوّغ فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه، فسلم منهم وخرج من دمشق منهزماً، بعد أن بلغت القضية إلى والي البلد، فطلبه فلم يقدر عليه، ووصل إلى حلب خائفاً يترقّب، وخرج عنها في العشر الأول أو الثاني من جمادى الآخرة سنة 613هـ ووصل إلى الموصل، ثم انتقل إلى اربل، وسلك منها إلى خراسان، وتحامى دخول بغداد، لأن المناظر له بدمشق كان بغدادياً، وخشي أن ينقل قوله فيقتل، فلما انتهى إلى خراسان أقام بها يتجر في بلادها، واستوطن مدينة مرو مدّة[1]، ومن مرو خرج إلى نَسا ومنها إلى خوارزم.

في خوارزم لم تستقربهِ الحال، كما كان يتوقع، بل سارت الرياح بعكس ما تشتهي سفنه، فقد هبّت عليه رياح التتر وهي تكتسح كل شيء يقع في طريقها، وكان ذلك في سنة 616هـ فانهزم بنفسه كبعثه يوم الحشر من رمسه، وقاسى في طريقه من المضايقة والتعب، ما كان يكلّ عن شرحه إذا ذكره، ووصل إلى الموصل، وقد تقطعت به الاسباب[2]، ومن هناك وصل إلى سنجار ومنها إلى حلب[3].

حين وصوله إلى الموصل كان قد كاتب الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيباني القفطي وزير صاحب حلب، وهو أديب كبير معروف، سبق أن تعرف إليه برحلته الأولى إلى حلب وباعه بعض الكتب، كما أسلفنا، وفي اللقاء الأول يذكر القفطي تفاصيله على النحو التالي، مسقطاً انطباعاته على ياقوت، يقول: وتأملته في منظره ومخبره، فتوسمت فيه أموراً لم يخل حدسي فيها، وعلمت أنه لا يصلح للعشرة[4]، وعندما وصلت رسالة ياقوت التي بعثها من الموصل إلى القفطي في حلب، أثر هزيمته من التتر، كشفها، فإذا فيها «بسم الله الرحمن الرحيم، كان المملوك ياقوت بن عبد الله الحموى، قد كتب هذه الرسالة من الموصل في سنة سبع عشرة وستماية، حين وصوله من خوارزم طريد التتر، أبادهم الله تعالى، إلى حضرة مالك رقه الوزير جمال الدين القاضي الأكرم أبي الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيباني، ثم التيمي، تيّم بني شيبان بن ثعلبة بن عكابة، أسبغ الله عليه ظله، وأعلى في درج السيارة محلّه، وهو يومئذ وزير صاحب حلب والعواصم، شرحاً لأحوال خراسان وأحواله، وأيماء إلى بدء أمره، بعدما فارقه ومآله، وأحجم عن عرضها على رأيه الشريف

(1) وفيات الأعيان 6/ 127 - 128.

(2) المصدر السابق 6/ 128.

(3) القفطي - أنباه الرواة 4/ 77.

(4) المصدر السابق 4/ 75 - 86.

إعظاماً وتهيّباً، وفراراً من قصورها عن طوله وتجنبّها، إلى ان وقف عليها جماعة من منتحلي النظم والنثر، فوجدهم مسارعين إلى كتبها، متهافتين على نقلها، وما يشك أن محاسن مالك الرق حلتها، وفي أعلى درج الاحسان أحلتها، فشجعه ذلك على عرضها على مولاه، وللآراء علوها في تصفحها والصفح عن زللها، فليس كل من لمس درهماً صيرفيّاً، ولا كل من اقتنى دُرّاً جوهرياً، وها هي ذي[1]

«بسم الله الرحمن الرحيم، أدام الله على العلم وأهليه، والاسلام وبنيه، ما سوغهم وحباهم، ومنحهم وأعطاهم، من سبوغ ظل المولى الوزير، أعز الله أنصاره، وضاعف مجده واقتداره، ونصر ألويته وأعلامه، وأجرى بإجراء الأرزاق في الآفاق أقلامه، وأطال بقاه، ورفع إلى عليين علاه، في نعمة لا يبلى جديدها، ولا يحصى عددها ولا عديدها، ولا ينتهي إلى غاية مديدها، ولا يغل حدها ولا حديدها، ولا يقل وأدها ولا وديدها، وأدام دولته للدنيا والدين يلم شعثه ويهزم كرثه، ويرفع مناره، ويحسن بحسن أثره آثاره، ويفتق نوره وأزهاره، وينير نواره، ويضاعف أنواره، وأسبغ طله للعلوم وأهليها، والآداب ومنتحليها، والفضائل وحامليها، يشيد بمشيد فضله بنيانها، ويرصع بناصع مجده تيجانها، ويروض بيانع علائه زمانها، ويعظم بعلو همته الشريفة بين البرية شأنها، ويمكن في أعلى درج الاستحقاق إمكانها ومكانها، ويرفع بنفاذ الأمر قدره للدول الإسلامية والقواعد الدينية، يسوس قواعدها ويعزّ مساعدها، ويهين معاندها، ويعضد بحسن الايالة معاضدها، وينهج بجميل المقاصد مقاصدها، حتى تعود بحسن تدبيره غرّة في جبهة الزمان، وسنه يقتدى بها من طبع على العدل والاحسان، يكون له أجرها ما دام الملوان وكر الجديدان، وما أشرقت من الشرق شمس، وارتاحت إلى مناجاة حضرته الباهرة نفس».

«وبعد، فالمملوك ينهي إلى المقر العالي المولوي، والمحل الاكرم العلي أدام الله سعادته مشرقة النور مبلغة السول، واضحة الغرر بادية الحجول، ما هو مكتف بالأريحية المولوية عن تبيانه، مستغن بما منحتها من صفاء الآراء عن إمضاء قلمه لإيضاحه وبيانه، قد أحسبه ما وصف به عليه الصلاة والسلام المؤمنين وإن من أمتي لمكلمين، وهو شرح ما يعتقده من الولاء، ويفتخر به من التعبد للحضرة الشريفة والاعتزاء، قد كفته تلك الالمعية، عن إظهار المشتبه بالملق مما تجنه الطوية، لأن دلائل غلوّ المملوك في دين ولائه في الآفاق واضحة، وطبعة سكة إخلاص الوداد بإسمه الكريم على صفحات الدهر لائحة، وإيمانه بشرائع الفضل الذي طبق الآفاق حتى أصبح بها بناء المكارم متين، وتلاوته لأحاديث المجد القريبة الأسانيد بالمشاهدة لديه مبين، دعاء أهل الآفاق إلى المغالاة في

(1) وفيات الاعيان 6/ 129 - 138.

الإيمان بأمانة فضله الذي تلقاه باليمين، وتصديقه بملة سؤدده الذي تفرّد بالتوخي لنظم شارده وضم متبدده بعرق الجبين، حتى لقد أصبح للفضل كعبة لم يفترض حجها على من استطاع إليها السبيل، ويقتصر بقصدها عن ذوى القدرة دون المعتر وابن السبيل، فإن لكل منهم حظاً يستمده، ونصيباً يستعد به ويعتده، فللعظماء الشرف الضخم من معينه، وللعلماء اقتناء الفضائل من قطينه، وللفقراء توقيع الأمان من نوائب الدهر وغض جفونه وفرضوا من مناسكه للجبهة الشريفة السلام والتبجيل، وللكف البسيطة الاستلام والتقبيل، وقد شهد الله تعالى للمملوك أنه في سفره وحضره، وسره وعلنه، وخبره ومخبره، شعاره تعطير مجالس الفضلاء، ومحافل العلماء بفوائد حضرته، والفضائل المستفادة من فضلته، افتخاراً بذلك بين الانام، وتطريزاً لما يأتي به في أثناء الكلام:

إذا أنا شرّفت الورى بقصائدي   على طمع شرّفت شعري بذكره

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] لا حرمنا الله معاش أوليائه مواد فضائله المتتالية، ولا أخلانا كافة عبيده من أياديه المتوالية، اللهم ربّ الأرض المَدّحيّة، والسموات العلية، والبحار والمسجرة، والرياح المسخرة، اسمع ندائي، وأستجب دعائي، وبلغنا في معاليه، لما نؤمله ونرتجيه، محمد النبي وصحبه وذويه.

وقد كان المملوك لما فارق الجناب الشريف، وانفصل عن مقر العز اللباب والفضل المنيف أراد استعتاب الدهر الكالح، واستدرار خلف الزمن الغشوم الجامح، اغتراراً بأن في الحركة بركة، والاغتراب داعية الاكتساب، والمقام على الاقتار ذل وأسقام، وحلس البيت، في المحافل سُكيت:

وقفت وقوف الشك ثم استمرّ بي   يقيني بأن الموت خيرٌ من الفقرِ
فودعت من أهلي وبالقلب ما به   وسرت عن الاوطان في طلب اليسرِ
وباكية للبين قلت لها اصبري   فللموت خير من حياة على عسرِ
سأكسِب مالاً أو أموت ببلدة   يقل بها فيض الدموع على قبري

فامتطى غارب الأمل إلى الغربة، وركب مركب التطواف مع كل صحبة، قاطعاً الأغوار والأنجاد، حتى بلغ السد أوكاد، فلم يصحب له دهره الحرون، ولا رق له زمانه المفتون:

(1) سورة الحجرات، الآية: 17.

إن الليالي والأيام لو سئلت عن عيب أنفسها لم تكتم الخبرا

فكأنه في جفن الدهر قذى، أوفي حلقه شجا، يدافعه نيل الأمنية، حتى أسلمه إلى ربقة المنية:

لا يستقر بأرض أو يسير إلى أخرى بشخص قريب عزمه نائي
يوما بخزوى ويوماً بالعقيق ويو ما بالعذيب ويوماً بالخليصاءِ
وتارة ينتحي نجد أو آونة شعب الحزون وحينا قصر تيماءِ

وهيهات مع حرفة الأدب، بلوغ وطر أو إدراك أرب، ومع عبوس الحظ، ابتسام الدهر الفظ، ولم أزل مع الزمان في تفنيد وعتاب، حتى رضيت من الغنيمة بالأياب، والمملوك مع ذلك يدافع الأيام ويزجيها، ويعلل المعيشة ويرجيها، متقنعاً بالقناعة والعفاف، مشتملاً بالنزاهة والكفاف، غير راض بذلك السمل، ولكن مكرهٌ أخاك لا بطل[1]، متسلياً بإخوان قد ارتضى خلائقهم، وأمن بوائقهم، عاشرهم بالألطاف، ورضي منهم بالكفاف، لا خيرهم يرتجى، ولا شرهم يتّقى:

إن كان لا بدّ من أهل ومن وطن فحيث آمن من القى ويأمنني

قد زمّ نفسه أن يستعمل طرفاً طماحاً، وأن يركب طرفاً جماحاً، وأن يلحف بيض طمع جناحاً، وأن يستقدح زنداً واريا أو شحاحا:

وأدّبني الزمان فلا أبالي هجرت فلا أزار ولا أزور
ولست بقائل ما عشت يوما أسار الجند أم رحل الأمير

وكان المقام بمرو الشاهجان، المفسر عندهم بنفس السلطان، فوجد بها من كتب العلوم والآداب وصحائف أولى الأفهام والألباب ما شغله عن الأهل والوطن وأذهله عن كل خل صفي وسكن، فطفر منها بضالته المنشودة، وبغية نفسه المفقودة، فأقبل عليها إقبال النهم الحريص وقابلها بمقام لا مزمع عنها ولا محيص، فجعل يرتع في حدائقها ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها ويسرح طرفه في طرفها ويتلذذ بمبسوطها ونتفها، وأعتقد المقام بذاك الجناب، إلى أن يجاوز التراب:

إذا ما الدهر بيّتني بجيش طليعته اغتمام واغترابُ
شننت عليه من جهتي كمينا أميراه الذبّالة والكتابُ

---

(1) هكذا وردت في الأصل.

وبت أنصّ من شيم الليالي عجائب من حقائقها ارتيابُ
بها أجلو همومي مستريحا كما جلى همومهم الشرابُ

إلى أن حدّث بخراسان ما حدث من الخراب والويل المبير والتباب وكانت لعمر الله بلاداً مونقة الارجاء، رائقة الانحاء، ذات رياض أريضة، وأهوية صحيحة مريضة، قد تغنّت أطيارها، فتمايلت طرباً أشجارها، وبكت أنهارها، فتضاحكت أزهارها، وطاب روح نسيمها، فصح مزاج اقليمها، ولعهدي بتلك الرياض الأنيقة، والأشجار المتهدلة الوريقة، وقد ساقت إليها أرواح الجنائب، زقاق خمر السحائب، فسقت مروجها مدام الطل، فنشأ على أزهارها حباب اللؤلؤ المنحلّ، فلما رويت من تلك الصهباء أشجاره، رنحها من النسيم خماره، فتدالت ولا تداني المحبين، وتعانقت ولا عناق العاشقين، يلوح من خلالها شقائق قد شابه اشتقاق الهوى بالعليل، فشابه شفتى غادتين دنتا للتقبيل، وربما اشتبه على التحرير بائتلاف الخمر، وقد انتابه رشاش القطر، ويريه بهاراً يبهرُ ناضره، فيرتاح إليه ناظره، كأنه صنوج من العسجد، أو دنانير من الأبريز تنقد، ويتخلل ذلك أقحوان تخاله ثغر المعشوق إذا عضّ خد عاشق فلله درّها من نزهة رامق ولون وامق، وجملة أمرها أنها كانت أنموذج الجنة بلا مين، فيها ما تشتهي الانفس وتلذ العين، قد اشتملت عليها المكارم، وأرجحت في أرجائها الخيرات الفائضة للعالم، فكم فيها من حبر راقت حبره، ومن إمام توجّت حياة الإسلام سيره، آثار علومهم على صفحات الدهر مكتوبة وفضائلهم في محاسن الدنيا والدين محسوبة، وإلى كل قطر ومجلوبة، فما من متين علم وقويم رأي إلا ومن شرقهم مطلعه، ولا من مغربه فضل إلا وعندهم مغربه وإليهم منزعه، وما نشأ من كرم أخلاق بلا اختلاق إلا وجدته فيهم، ولا إعراق في طيب أعراق إلا اجتليته من معانيهم، أطفالهم رجال وشبابهم أبطال ومشايخهم أبدال، شواهد مناقبهم باهرة ودلائل مجدهم ظاهرة، ومن العجب العجاب أن سلطانهم المالك هان عليه ترك تلك الممالك، وقال لنفسه الهوى لك، وإلا فأنت في الهوالك، وأجفل أجفال الرال، وطفق إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً بل رجال ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ۝٢٧﴾(1). لكنه عَزَّوَجَلَّ لم يورثها قوماً آخرين، تنزيهاً لأولئك الأبرار عن مقام المجرمين، بل ابتلاهم فوجدهم شاكرين، وبلاهم فألفاهم صابرين، فألحقهم بالشهداء الأبرار، ورفعهم إلى درجات المصطفين الأخيار ﴿وَعَسَىٰٓ أَن

(1) سورة الدخان، الآيات: 25-27.

تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(1)، فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر والالحاد، وتحكم في تلك الابشار أولو الزيغ والعناد فأصبحت تلك القصور، كالممحو وأمست من السطور، وأمست تلك الأوطان، مأوى الاصداء والغربان، تتجاوب في نواحيها البوم، وتتناوح في أراجيها الريح المسموم، ويستوحش فيها الأنيس، ويرثي لمصابها إبليس:

كأن لم يكن فيها أوانس كالدمى وأقيال مُلك في بسالتهم أسد
فَمَنْ حاتم في جوده وابن مامة ومن أحنفٍ أن عد حلم ومَنْ سعد
تداعى بهم صرف الزمان فأصبحوا لنا عبرة تدمي الحشا ولمن بعد

فإننا لله وإنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر، وتهدم العمر، وتفت في العضد، وتوهي الجلد، وتضاعف الكمد، وتشيب الوليد، وتنخب لب الجليد، وتسوّد القلب وتذهل اللب، فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه ناكسا، ومن الأوبة إلى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيساً، بقلب واجب، ودمع ساكب، ولب عازب، وحلم غائب، وتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار وابتلاء واصطبار، وتمحيص الأوزار وأشراف غير مرة على البوار والتبار، لأنه مرّ بين سيوفٍ مسلولة، وعساكر مفلولة، ونظام عقود محلولة ودماء مسكوبة مطلولة، وكان شعاره كلما علا قتبا، أو قطع سبسبا ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾(2)، فالحمد لله الذي أقدرنا على الحمد، وأولانا نعما تفوت الحصر والعد. وجملة الأمر أنه لولا فسحة في الأجل، لعز أن يقال سلم البائس أو وصل، ولصفق عليه أهل الوداد صفقة المغبون، والحق بألف ألف ألف ألف هالك بأيدي الكفار أو يزيدون، وخلف خلفه جل ذخيرته ومستمد معيشته:

تنكّر لي دهرى ولم يدر أنني أعزّ وأحداث الزمان تهون
وبات يريني الخطب كيف اعتداؤه وبت أريه الصبر كيف يكون

وبعد فليس للمملوك ما يسلي به خاطره ويعزي به قلبه وناظره، إلا التعلل بإزاحة العلل، إذا هو بالحضرة الشريفة مثل:

فاسلم ودم وتملّ العيش في دعة ففي بقائك ما يسلي عن السلف
فأنت للمجد روح والورى جسد وأنت درّ فلا نأسى على الصدف

(1) سورة البقرة، الآية: 216.
(2) سورة الكهف، الآية: 62.

والمملوك الآن بالموصل مقيم، يعالج لما حَزَّبهِ من هذا الأمر المقعد المقيم يزجي وقته ويمارس حرفته، وبخته يكاد يقول له باللسان القويم ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾[1]، يذيب نفسه في تحصيل أغراض، هي لعمر الله أعراض، من صحف يكتبها، وأوراق يستصحبها، نصبه فيها طويل، واستمتاعه بها قليل، ثم الرحيل، وقد عزم بعد قضاء نهمته، وبلوغ بعض وطر قرونته، أن يستمد التوفيق، ويركب سنن الطريق، عساه أن يبلغ أمنيته، من المثول بالحضرة، واتحاف بصره من خلالها ولو بنظرة، ويلقي عصا التّرحال بفنائها الفسيح، ويقيم تحت ظل كنفها إلى أن يصادفه الأجل المريح وينظم نفسه في سلك مماليكها بحضرتها، كما ينتمي إليها في غيبتها، أن مدّت السعادة بضبعه، وسمح له الدهر بعد الخفض برفعه، ضعفت قواه عن درك الآمال وعجز عن معاركة الزمان والنزال، إذ ضمت البسيطة إخوانه، وحجب الجديد أن أقرانه، ونزل المشيب بعذاره، وضعفت منّة أوطاره، وانقض باز الشيب على غراب شبابه فقنَّصه، وأكّب نهار الحلم على ليل الجهل فوقّصه، وتبدلت محاسنه عند أحبابه مساوى وخصّصه، واستعاض من حلة الشباب القشيب خلق الكبر والمشيب:

وشباب بان مني وانقضى قبل أن أقضي منه أربي
ما أرجيّ بعده إلاّ الفنا ضيّق الشيب عليّ مطلبي

ولقد ندب المملوك أيام الشباب بهذه الأبيات، وما أقل عناء الباكي على من عد في الرفات:

تنكر لي مذ شبت دهري وأصبحت معارفه عندي من النكرات
إذ ذكرتها النفس حنّت صبابةً وجادت شؤون العين بالعبرات
إلى أن أتى دهر يحسن ما مضى ويوسعني تذكاره حسرات
فكيف ولما يبق من كأس مشربي سوى جرع في قعره كدرات
وكل إناء صفوهُ في ابتدائه وفي القعر مزجا حمأةٍ وقذاةِ

والمملوك يتيقن أنه لا ينفق هذا الهذر الذي مضى، إلا النظر إليه بعين الرضا، ولرأي المولى الوزير الصاحب، كهف الورى في المشارق والمغارب، فيما يلاحظه منه بعاده مجده، مزيد مناقب ومراتب والسلام».

(1) سورة يوسف، الآية: 95.

وحينما انتهى الوزير القفطي من قراءة الرسالة أوعز بالرد لاستقدامه ويشرح القفطي، دخول ياقوت عليه فيقول[1]:

ولما دخل عليّ في حالة يسوء منظرها، ووصف من أمره أموراً لا يسرّ مخبرها، وقال: لقد ألقيت عصاي ببابك، وخيّم أملي بجانب جنابك، فقلت في جوابه: أقاسمك العيش، وسألت الله أن لا يرزقني الثبات على خلقه لا الطيش، فإن أخلاقه خلقه، ومخاريقه منخرقه، ولا أقع من دينه من حيث القاذورات، وإنما من حيث تصرفه الموجب له التفرّق والشتات، فأقام مشاركا في المعلوم باذلاً له كتب العلوم، فلفّق منها مجموعات لم يكملها، ونسخ وباع في عدة سنين أقامها عندي، محمول الكلفة، بحكمة اقتضاها حاله، وسافر ببضاعة من الخام إلى مصر فأربحته ربحاً قريباً، وعاد بمعمول مصر، فأربح فيه، واقام بالخان ظاهر حلب، فمرض ومات في العشرين من شهر رمضان سنة ستة وعشرين وستماية رحمة الله»[2].

ثمة حنَقٍ واضح على ياقوت من قبل القفطي للموقف السياسي - الديني الآنف الذكر الذي كان يبديه ياقوت من شخصية الإمام علي، فقد كان انطباعه عنه بصدد هذه المسألة بالذات ما يلي: «وكان شديد الانحراف عن عليّ بن أبي طالب، يرتكب في أمره ما لا يرتكبه أحد من مصنفي الفرق»[3]، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لعبَ البُعد المعرفي - الثقافي عند ياقوت أمراً فاق به القفطي الوزير، وهذا له أبعاده الاجتماعية والطبقية، فياقوت مولىً، والقفطي وزير، لذلك - بتقديرنا - كان حسداً وحنقاً منه على ياقوت، والنص واضح في ذلك.

* آثاره الادبية والثقافية:

إن السمات المعرفية والثقافية التي تميّز بها ياقوت عن غيره جعلته أن يكون واسع الثقافة والاطلاع، وذا نفس موسوعي في الأدب والجغرافيا، وساعدته الوراقة ورحلاته التجارية في تحصيل وزيادة هذه الموسوعية فلقد ذكرت مصادر ترجمته الكتب التالية التي صنفها وهي[4]:

1 - معجم البلدان.

(1) أنباه الرواه 4/ 77.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) نفس المصدر السابق 4/ 76.
(4) وفيات الأعيان 6/ 129.

2 - إرشاد الأديب إلى معرفة الاديب ويعرف الآن باسم «معجم الأدباء».
3 - معجم الشعراء.
4 - المشترك وضعا والمختلف صقعا.
5 - المبدأ والمآل - في التاريخ.
6 - كتاب الدول.
7 - مجموع كلام أبي علي الفارسي.
8 - عنوان كتاب الاغاني.
9 - المقتضب في النسب يذكر فيه «أنساب العرب».
10 - أخبار المتنبي.

كما عرف عنه أنه كان عالي الهمّة في تحصيل المعارف[1]، إضافة إلى أنه كان مليح الشعر، سلس العبارة، وقد أورد له ابن النجار مقطوعة صغيرة في غلام تركي قد رمدت عينه وعليها وقاية سوداء، قال فيها[2]:

ومولد للترك تحسب وجهه   بدراً يضيء سناه بالاشراق
أرخى على عينيه فضل وقاية   ليبرّد فتنتها عن العشّاق
تالله لو أن السوابغ دونها   نفذت فما لوقاية من واق

ومن جميل مآثره الحضارية والثقافية أنه أوصى قبل موته إلى العزابن الأثير الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير، صاحب (الكامل في التاريخ) والذي كان مقيماً بحلب، وعهد إليه أن يسيّر أوراقه وكتبه ومصنفاته إلى جامع الزيدي الواقع بدرب دينار ببغداد، ويسلّمها إلى الناظر فيه الشيخ عبد العزيز بن دلف[3].

وقد علّق القفطي على هذه الوصية بقوله: «وأما ابن الأثير فإنه تصرّف في الكتيبات التي له والاوراق المعيّنة المجمعة التي بخطه تصرفاً غير مرضي، ولم يوصلها بعد أن حصل بالموصل إلى الجهة المعيّنة برسمها بل فرّقها على جماعة أراد انتفاعه بهم وبها عندهم ولم ينفعه الله بشيء من ذلك، ولم يتملّ منها بأمل ولا مال، وقطع الله أجله، بعد أن قطع الانتفاع بتفرقتها أمله، فاكتسب خزي الدنيا وعذاب الآخرة، وبلغني أن خبرها

(1) وفيات الأعيان 6/ 129.
(2) المصدر السابق 6/ 138 - 139.
(3) أنباه الرواة 4/ 78؛ وفيات الأعيان 6/ 139.

وصل إلى بغداد، وأنهم طالبوه من هناك بتسييرها إلى محل وقفها، فسيّر بعضها وأعرض عن بعض»[1].

فيما يذكر ابن خلكان أن ابن الاثير حملها إلى هناك، إلى بغداد، وقد قدمت حلب للاشتغال بها في مستهل ذي القعدة سنة وفاته، وذلك عقيب موته، والناس يثنون عليه، ويذكرون فضله وأدبه، ولم يقدر لي الاجتماع به[2].

تلك هي حياة ورّاقنا الشهير ياقوت الحموي.

الترمذي الورّاق:

هو محمد بن محمد، أبو الحسن الورّاق، المعروف بالترمذي، قال إبن النجار: بغدادي، كان من أعيان الأدباء وخطّه مشهور بالصحة مرغوب فيه، روى عن ثعلب وروى عنه أبو علي القالي في (أماليه)، مات في رجب سنة 324 هـ[3].

ياقوت الموصلي الوراق:

هو ياقوت بن عبد الله الرومي الأصل نزيل الموصل[4] كان هذا الرجل كاتباً وأديباً ونحوياً وخطاطاً ووراقاً مشهور بالموصل، ولادته غير معروفة المكان إلاّ أن ياقوت الحموي يذكر أنه توفى بالموصل سنة 618هـ[5].

تتلمذ في النحو والأدب على يد ابن الدهان أبي محمد سعيد بن المبارك[6] ولازمه وتتلمذ بالخط على طريقه ابن البواب على بن هلال[7] حتى كان واحد عصره في جوده الخط واتقانه فقصدهُ الناس في البلاد وكتب عليه خلق لا يحصون كثره، قال ياقوت الحموي: «اجتمعت به في الموصل سنة ثلاث عشرة وستمائة، فرايته على جانب عظيم من الأدب والفضل والنباهة والوقار وقد أسن وبلغ من الكبر الغاية ورأيت كتباً كثيرة بخطه

(1) أنباه الرواة 4/ 78.
(2) وفيات الأعيان 6/ 139.
(3) بغية الوعاة - ص 103 - باب المحمدين -
(4) معجم الأدباء 19/ 312 - 313 - الترجمة رقم (120).
(5) المصدر السابق 19/ 313.
(6) راجع ترجمته في معجم الأدباء 11/ 219.
(7) أفردنا ترجمة خاصة في باب 1 (الخطّاطون - كصنف مبدع من الوراقين) الجزء الرابع من هذه الدراسة.

يتداولها الناس ويتغالبون بأثمانها بينها عده نسخ من الصحاح للجوهري والمقامات الحريرية»[1].

الأرزني الوراق:

هو يحيى بن محمد كنيته أبو محمد الأرزني[2] بغدادي المنشا والمسكن والوفاة، فقد وافه الأجل سنة 415هـ[3].

كان إماماً في العربية ومليح الخط وسريع الكتابة مما أهله أن يكون في طليعة الوراقين في بغداد، نتيجة هذه الخصال المعرفية والفنية، حتى عرف عنه أنه كان يخرج في وقت العصر إلى سوق الوراقين ببغداد، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ويبعه بنصف دينار ويشتري نبيذاً ولحماً وفاكهة ولا يبت حتى ينفق ما معه منه[4].

أشار ياقوت بأن له تأليف في النحو مختصراً، وأورد له هذه الأبيات[5]:

ان مــن احــوجــك الــدهــر إلــيــه ... وتــعــلــقــت بــه هــنــت عــلــيــه
لــيــس يــصــفــو ود مــن واخــيــتــه ... ان تــعــرضــت لــشــيء فــي يــديــه

---

(1) معجم الأدباء 19/ 313.
(2) معجم الأدباء 20/ 34 - 35 - الترجمة رقم (15).
(3) المصدر السابق.
(4) نفس المصدر.
(5) نفسه.

الفصـــل الخامس

الورّاقون الشعـراء

بكر بن خارجة الورّاق

انفرد أبو الفرج الأصبهاني بترجمته، وقال عنه: كان بكربن خارجة، رجلاً من أهل الكوفة، مولًى لبني أسد، وكان ورّاقاً ضيّق العيش، مقتصراً على كسب قوته من الوراقة[1].

تعاطى الخمر والنبيذ في مقتبل عمره، وظل يعاقره حتى أخلّ بعقله وأفسده في آخر عمره، وعرف عنه أن أكثر ما يكسبه من الوراقة يذهب إلى جيوب الخمّارين ومنازلهم في الكوفة، وكان طيّب الشعر، مليحاً، مطبوعاً طبعاً ماجناً[2].

ذكر أبو العنبس الصميري أن محمد بن الحجّاج حدّثه عنه قال: رأيت بكر بن خارجة يبكّر في كل يوم بقنينتين من شراب، إلى خراب من خرابات الحيرة، فلا يزال يشرب فيه على صوت هُدهُد، كان يأوي إلى ذلك الخراب، إلى أن يسكر، ثم ينصرف، وهو مولّه بعشق ذلك الهدهد[3].

ونقل أبو الفرج عن عمّه عن ابن مهرويه عن علي بن عبد الله بن سعد قال: كان بكر بن خارجة يتعشّق غلاماً نصرانياً يقال له عيسى بن البراء العبادي الصيرفي، وله فيه قصيدة مزدوجة، يذكر فيها النصارى وشرائعهم وأعيادهم، ويسمّي دياراتهم ويفضّلهم[4]، ومن شعره في هذا الغلام النصراني قوله[5]:

وشـادن قـلـبـي بـه مـعـمـود　　　شـيـمـتـه الـهـجـران والـصـدّود

(1) الأغاني 23/ 189، ومختصر «الأغاني» لابن منظور والمعروف بـ«مختار الأغاني في الأخبار والتهاني 2/ 128 - 129 طبعة عبد الستار أحمد فرّاج - إصدار الدار المصرية للتأليف والترجمة/ مطبعة البابي الحلبي - القاهرة 1385هـ/ 1965م.

(2) الأغاني 23/ 189.

(3) المصدر السابق.

(4) نفسه.

(5) نفسه - ومختصر الأغاني 2/ 128.

زنّاره في خصره معقود كأنّه من كبدي مقدود

وعندما سمع دعبل الخزاعي هذين البيتين قال: ما يعلم الله أني حسدت أحداً قط، كما حسدت بكراً على هذين البيتين[1].

حرّم بعض الأمراء في الكوفة بيع الخمر على خماري الحيرة، وركب وكسّر نبيذهم، وكعادته اليومية، جاء بكر بن خارجة ليشرب عندهم، فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق، فبكى طويلاً وقال[2]:

يالقومي لما جنَى السلطان لا يكونَنّ لما أهان الهوان

قهوة في التراب من حلب الكر م عقارا كأنّها الزعفران[3].

قهوة في مكان سوء لقد صا دف سعد السعود ذاك المكان[4].

من كميت يبدي المزاج لها لؤ لؤ نظمٍ والفصل منها جمان

فإذا ما اصطحبتها صفرت في الـ قدر عندي من أجلها الخيزران[5].

كيف صبري عن بعض نفسي وهل يصبرعن بعض نفسه الانسان؟

قال أبو الفرج، وحدّثني عمّي عن الكرّاني، أنه أنشد الجاحظ هذه الأبيات فقال: أن من حق الفتوة أن أكتب هذه الأبيات قائما، وما أقدر على ذلك إلاّ أن تعمدني وكان قد تقوّس فعمدته فقام وكتبها قائما[6].

قال محمد بن الحجاج: كان بكر بن خارجة، قد أفسدت عقلهه الخمر في آخر عمره، وكان يمدح ويهجو بدرهم وبدرهمين ونحو هذا فاطّرح، وما رأيت قط أحفظ منه لكل شيء حسن، ولا أروى منه لشعر[7].

قال من شاهده في هذه الحالة، من فساد العقل، وهو ينشد[8]:

هب لي فديتك درهما أو درهمين إلى الثلاثة

(1) المصادر السابقة أعلاه.
(2) الأغاني 23/ 190 ومختصر الأغاني 2/ 128 - 129.
(3) جاء بدل كلمة قهوة عند ابن منظور كلمة «صبّها».
(4) المصدر السابق.
(5) هكذا جاءت عند ابن منظور، وعند أبي الفرج (تختالها الجرذان).
(6) الأغاني 23/ 190.
(7) الأغاني - نفس المكان.
(8) نفسه.

انــي أحــبّ بــنــي الــطــفــيــ ـل ولا أحــبّ بــنــي عــلاثــة

ومن نوادره ومجونه، ما حكاه محمد بن القاسم بن مهروية قال: حضرنا دعوة ليحيى بن أبي يوسف القاضي، وبتنا عنده فنمت فما أنبهني إلاّ صياح بكر يستغيث من العطش، فقلت له: مالك؟ فاشرب، فالدار مليئة ماء، قال: أخاف قلت: من أي شيء؟ قال في الدار كلب كبير، فأخاف أن يظنني غزالاً، فيثب عليّ ويقطعني ويأكلني، فقلت له: ويحك يا بكر، الحمير أشبه منك بالغزال، قم فاشرب إن كنت عطشان وأنت آمن، وكان عقله قد فسد من كثرة الشراب[1].

شاهد بكر بن خارجة صديقاً له يقرأ رقعة من صديق له آخر ثم حرقها، فقال[2]:

لم يقوعندي على تحريق قرطاسي إلا امرؤ قلبه من صخرة قاسي
ان القراطيس من قلبي بمنزلةٍ تحويه كالسمع والعينين في الرأس

وذكر صاحب الأغاني أن إبراهيم بن المهدي غنّى لبكر بن خارجة هذه الأبيات/ ثقيل أوّل/ وفيه لعبد الله بن العباس هزج، وقيل أن فيه لحناً لابن جامع[3]:

قــلــبــي إلــى مــا ضــرّنــي داعــي يــكــثــر أحــزانــي وأوجــاعــي
لــقــلّ مــا أبــقــى عــلــى مــا أرى يــوشــك أن يــنــعــانــي الــنــاعــي
كــيــف احــتــراســي مــن عــدوّي اذا كــان عــدوّي بــيــن أضــلاعــي؟
أســلــمــنــي الــحــبّ وأشــيــاعــي لــمّــا سعــى بــي عــنــدهــا الــســاعــي
لــمّــا دعــانــي حــبّــهــا دعــوة قــلــت لــه: لــبّــيــك مــن داع

السرّي الرفّاء الورّاق:

هو السرّي بن أحمد بن السرّى، كنيته أبو الحسن الكندي والمعروف بالسرّي الرفّاء الموصولي الشاعر المشهور[4].

(1) الأغاني 23/ 191 - والمختصر 2/ 129.
(2) الأغاني 23/ 191.
(3) الأغاني 23/ 192 وذكر أن الصولي قد ذكر في أخبار العباس بن الأحنف وشعره أن هذه الأبيات للعباس بن الأحنف، فيما ذكر داود بن الجرّاح عن أبي هفّان أنها لبكر بن خارجة.
(4) تاريخ بغداد 9/ 194 - الترجمة رقم (4772)؛ ومعجم الأدباء 11/ 182 - الترجمة رقم (54)؛ ووفيات الأعيان 2/ 359 - الترجمة رقم (257) - طبعة د. إحسان عباس - دار صادر بيروت وحبيب زيات/ ص 32.

كانت ولادته بالموصل، على ما يبدو من لقبه، وبداية طفولته، ووفاته كانت ببغداد سنة 362هـ وقيل غير ذلك[1].

في صباه أسلمه أبوهُ للرفائين بالموصل، فكان يرفو ويطرّز، ومع ذلك كان ينظم الشعر ويجيد فيه، وهو بهذه السن المبكّرة، وقد كتب إليه في ذلك الحال صديق له يسأله عن خبره وحاله في حرفته/ الرفو/ فكتب إليه[2]:

يكفيك من جملة أخبارى ... يُسري من الحبّ وإعساري
في سوقة أفضلهم مرتدٍ ... نقصاً ففضلي بينهم عاري
وكانت الابرة فيما مضى ... صائنة وجهي وأشعاري
فأصبح الرزق بيها ضيّقا ... كأنّه من ثقبها جاري

وعندما استوى عوده في الشعر، واستقامت له المعاني، ترك مهنة الرفو وتحوّل إلى مهنة الأدب، إلا أن لقب «الرفّاء» ظلّ لاصقا به حتى وفاته.

وصفه ابن خلكان بأنه كان شاعراً مطبوعاً، عذب الألفاظ، مليح المأخذ، كثير الافتنان في التشبيهات والأوصاف، ولم يكن له رواء ولا منظر، ولا يحسن من العلوم غير قول الشعر، وقد عمل شعره قبل وفاته، نحو ثلثمائة ورقة، ثم زاده بعد ذلك[3].

في مقتبل شبابه وشهرته الأدبية، دبّ خلاف بينه وبين الشاعرين الموصليين أبي بكر محمد، وابي عثمان سعيد، ابني هاشم الخالديين، فهجياه وهجاهما، فآذاه الخالديان أذى شديداً، وقطعا رسمه من سيف الدولة، بعد أن كان قد مدحه بقصائد جميلة، فانحدر إلى بغداد ومدح الوزير المهلبي والأعيان والصدور، فارتفق وارتزق، وسار شعره في الآفاق، فلحقه الخالديان إلى هناك ودخلا على المهلبي وثلبا سريّاً عنده، فلم يحظ منه بطائل، وصار الخالديان من ندماء المهلبي، وجعلا هجيراهما ثلب سرّي والوقيعة فيه، ودخلا إلى الرؤساء والاكابر ببغداد وفعلا به مثل ذاك عندهم، فراح السرّي ببغداد يتظلّم منهما ويهجوهما، ويقال أنه عدم القوت، ودفع إلى الوراقة، فجلس يورّق شعره ويبيعه، ثم نسخ لغيره بالاجرة وركبه الدين حتى مات ببغداد[4].

موقف الخالديان منه جعله يدعي عليهما سرقة شعره وشعر غيره، لا سيما

(1) معجم الأدباء 11/ 185؛ وتاريخ بغداد 9/ 194؛ ووفيات الأعيان 2/ 362.
(2) معجم الأدباء 11/ 183 - 184.
(3) وفيات الأعيان 2/ 360.
(4) تاريخ بغداد 9/ 194.

شعركشاجم، فراح يأخذ أحسن شعرهما، ويضيفه إلى ديوان كشاجم، وينسخه ليزيد في حجم ما ينسخ من جهة، وينفق سوقه ويشنّع على الخالديين بذلك، من جهة أخرى.[1].

وهذه المسألة تعني أن هناك شعراً ليس لكشاجم في ديوانه، وقد انتبه إلى ذلك ابن خلكان وقال: فمن هذه الجهة وقعت في بعض النسخ من ديوان كشاجم زيادات ليست في الأصول المشهورة[2].

أثّرت عداوة الخالديين له كثيراً، لا سيما على حياته الأدبية، ومع ذلك استطاع أن يصنّف عدة كتب منها[3]:

1 - كتاب الديرة.

2 - كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب.

3 - ديوان شعر يقع في مجلدين.

شهرته الشعرية فاقت شهرته في الوراقة، فجميع المصادر التي ترجمت له ذكرت أنه كان مطبوعاً على الشعر، عذب الألفاظ، جزل العبارة، ومن شعره الذي كتب به إلى صديق كان أهدى إليه قدحاً حسناً، فسقط من يده وانكسر فقال[4]:

يا من لديه العفاف والورع ... وشيمتاه العُلاء والرفعُ
كأسك قد فرقت مفاصله ... بين الندامى فليس يجتمع
كأنما الشمس بينهم سقطت ... نجسمها في أكفهم تطع
لو لم أكن واثقا بمشبهه ... منك لكاد الفؤاد ينصدع
فجد به بدعة فعندي من ... جودك أشياء كلّها بُدع

وعندما خرج من الموصل إلى حلب قاصداً سيف الدولة الحمداني مدحه بقوله[5]:

أعزمتك الشهاب أم النهار ... وراحتك السحاب أم البحارُ
خلقت منيّة ومنىً وتضحى ... تمور بك البسيطة أو تمارُ
تحلّي الدين أو تحمي حماهُ ... فأنت عليه سور أو سوارُ

(1) معجم الأدباء 11/ 184؛ ووفيات الأعيان 2/ 360.

(2) وفيات الأعيان 2/ 360.

(3) معجم الأدباء 11/ 185؛ ووفيات الأعيان 2/ 362.

(4) تاريخ بغداد 9/ 149.

(5) معجم الأدباء 11/ 185 - 186.

ومنها:

حشرنا والملوك له قيام ... تغضّ نواظراً فيها انكسارُ
وزرنا منه ليث الغاب طلقا ... ولم نرَ قبله ليثاً يزارُ
وضيفك للحيا المنهلّ ضيفٌ ... وجارك للربيع الطلقِ جارُ

ومن جميل شعره في الغزل قوله[1]:

بلاني الحبّ فيك بما بلاني ... فشأني أن تفيض غروب شاني
أبيت الليّل مرتقبا أناجي ... بصدق الوجد كاذبة الاماني
فتشهد لي على الأرقِ الثريا ... ويعلم ما أجنّ الفرقدان
إذا دنت الخيام به فأهلاً ... بذاك الخيم والخيمِ الدواني[2]
فبين سجوفها أقمار تمٌّ ... وبين عمادها أغصان بان
ومذهبّة الخدود بجلّنار ... مفضّضة الثغور بأقحوان
سقانا الله من ريّاك ريّاً ... وحيّانا بأوجهكَ الحسان
ستصرف طاعتي عمّن نهاني ... دموع فيك تلحى من لحاني
ولم أجهل نصيحته ولكن ... جنون الحبّ أحلى من جناني
فيا ولع العواذل خلّ عني ... ويا كفّ الغرام خذي عناني

وقال في الورد[3]:

لو رحّبت كأس بذي زورةٍ ... لرحّبت بالورد إذ زارها
جاء فخلناها خدوداً بدت ... مضرّمة من خجل نارها
وعطّرَ الدنيا فطابت به ... لا عدمت دنياه عطارها

وله أيضاً[4]:

وروضة بات طَلُّ الغيث ينسجها ... حتى إذا نسجت أضحى يدبّجها[5]

---

(1) معجم الأدباء 11/ 186 - 187.
(2) الخيم الاولى = الطبع والشيمة، والثاني السرادق - القاموس - مادة خيم.
(3) معجم الأدباء 11/ 188.
(4) المصدر السابق 11/ 188 - 189.
(5) يدبّجها = يزيّنها - وتأتي = الحواشي الصغار - القاموس - مادة داج.

إذا تنفّس فيه ريح نرجسها ... ناغى جنيّ خزامها بنفسجها
أقول فيها لساقينا وفي يده ... كأسٌ كشعلة نار إذ يؤجّجها
لا تمزجنّها بغير الريق منك وان ... تبخل بذاك فدمعي سوف يمزجها
أقلّ ما بي من حبّيك أن يدىً ... إذا دنت من فؤادي كاد ينضجها

وأورد له ابن خلكان هذه المقطوعات[1]:

ألبستني نِعماً رأيتُ بها الدُجى ... صبحا وكنت أرى الصباح بهيما
فغدوت يحسدني الصديق وقبلها ... قد كان يلقاني العدوّ رحيما

وله أيضاً[2]:

بنفسي من أجود له بنفسي ... ويبخل بالتحية والسلامِ
وحتفي كامنٌ في مقلتيهِ ... كمون الموت في حدّ الحسامِ

ومن شعره[3]:

وفتيةٌ زهرَ الآداب بينهم ... أبهى وأنضر من زهر الرياحين
راحوا إلى الراح مشيَ الرّخ وانصرفوا ... والراح تمشي بهم مشي الفرازين

وله أيضاً[4]:

أنظر إلى الليل كيف تصرعه ... رايةُ صبحٍ مبيضّة العذبِ
كراهبٍ جنّ للهوى طرباً ... فشقّ جلبابه من الطربِ

ثمّة ملاحظة مستدركة على حياة هذا الشاعرالورّاق هي أنه: كان يتشيّع لعلّي وآل البيت، وقد أورد ابن النديم نادرة له تظهر هذا الانتماء، قال: كان السرّي الرفاء جارا لأبي الحسن علي بن عيسى الرمّاني، بسوق العطش/ ببغداد/ وكان كثيراً ما يجتاز بالرماني وهو جالس على باب داره فيستجلسه الرماني ويحادثه/ يستدعيه/ أي يود كسبه إلى صفوف المعتزلة/ إلى أن يقول بالاعتزال، وكان سرّي يتشيّع، فلما طال ذلك عليه أنشد[5]:

(1) وفيات الأعيان 2/ 361.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) وفيات الأعيان 2/ 361.
(4) السيوطي: بغية الوعاة ص 288 - باب المحمدين
(5) نفسه 2/ 362.

أقـارع أعـداء الـنـبـي وآلـه قـراعـا يـفـل الـبـيض عـنـد قـراعـه
وأعـلـم كـل الـعـلـم أن ولـيّـهـم سيجزى غداة البعث صاعاً بصاعه
فـلا زال مَـن والاهـمُ فـي عـلـوّه ولا زال من عاداهمُ في اتضاعه
ومـعـتـزلـيّ رام عـزل ولايـتـي عن الشرف العالي بهم وارتفاعه
فما طاوعتني النفس في أن أطعه ولا أذن القرآن لي في اتّباعه
طبعت على حبّ الوصيّ ولم يكن لينقل مطبوع الهوى عن طباعه

الشنتريني الورّاق:

هو عبدالله بن محمد بن سارة، ويقال - صارة - أبو محمد البكري الشنتيري، قال عنه الصفدي: كان لغوياً، شاعراً مفلقاً، مليح الكتابة، قليل الحظ، نسخ الكثير بالإجرة، ومات سنة 517هـ، ومن شعرهِ وهو يذم الوراقة[1]:

أمّا الـوراقـة فـهـي أنـكـدُ حـرفـةٍ أوراقـهـا وثـمـارهـا الـحـرمـانْ
شـبّـهـت صـاحـبـهـا بـصـاحـب إبـرةٍ تـكـسـو الـعـراة وجـسـمـهـا عـريـانُ

عَمرو الورّاق:

هو عمرو بن عبد الملك الورّاق العتري، هكذا سماه ياقوت[2]، كان من الشعراء المعدودين، ذكر ابن النديم أن ديوانه كان في خمسين ورقة[3]، أصلة من البصرة، ورحل إلى بغداد، وتعرّف على أهلها، وعاشرهم من خلال مهنة الوراقة، وكانت له مع أبي نواس مطارحات شعرية[4].

طغت صفة الشعر عليه أكثر من مهنة الوراقة، وبالشعر عرف، إلا أن لقب الورّاق ظلّ لاصقاً به.

ذكره أبو الفرج الاصبهاني في سياق أخبار الفضل الرقاشي، قال: حدّث يوسف بن الداية قال: كان أبو نواس والفضل الرقاشي جالسين، فجاء عمرو الوراق فقال: رأيت جارية خرجت من دار آل سليمان بن علي، فما رأيت أحسن منها، هيفاء، نجلاء، زجّاء،

(1) السيوطي - بغية الوعاة/ ص288، باب العين.
(2) الفهرست/ ص 6، من تكملة الفهرست/ الطبعة المصرية - مذيلة بكتاب الفهرست نفسه.
(3) معجم البلدان 2/ 537 - مادة (دير مريحنا).
(4) الفهرست/ ص 232.

دعجاء، كأنها خوط بان، أو جدل عنان، فخاطبتها فخاطبتني بأحلى لفظ وأفصح لسان وأجمل خطاب، فقال الرقاشي: قد والله عشقتها، قال أبو نواس: أو تعرفها؟ قال: لا، ولكن بالصفة، ثم أنشأ يقول[1]:

صفات وظنّ أورثا القلب لوعة ... تضرّم في أحشاء قلب متيّم
تمثّلها نفسي لعيني فأنثني ... إليها بطرف الناظر المتوسّم
يحمّلني حبي لها فوق طاقتي ... من الشوق دأب الحائر المتقسّم

يبدو أن حياة عمرو الوراق قريبة جداً من حياة أبي نواس وأضرابه، فهو قد عاشرهم[2] وسلك سلوكهم، وكان واحداً من روّاد الحانات والديارات، قال عنه الشابشتي: كان عمرو هذا من الخلعاء المجّان، المنهمكين في البطالة والخسارة والاستهتار بالمُرد، والتطرح في الديارات[3]، وله شعر كثير في المجون ووصف الخمر، فمن شعره[4]:

وخطيّة فيها العطب ... غاليت فيها بالعطب
أتلفت فيها ما كسبـ ... ـت وما جمعت من النشب
ما زلت حتّى نلتها ... في بيت مضطرب الخشب
ومُدامةٍ كرخيّةٍ ... حمراء من ماء العنب
عاقرتها في فتية ... لبسوا على دين العرب
في معشر مهروا المجا ... نة في اللّذاذة والطرب
جعلوا المجانة سترة ... للعاذلين على الرتب
تمضي الصلاة عليهم ... والسكر منهم في العصب
فاذا تنبّه من تنبّـ ... ـه كان منها في الطلب
وإذا مضت صلواتهم ... صلوا جمادى في رجب

وصفة المجون ألصق به وبشعره، ويظهر أن الشعراء أميل إلى هذه الصفة وتتذاك، ومن مجونه في شعره، ما ذكره الشابشتي وأورد له هذه المقطوعات الشعرية[5]:

---

(1) المرزباني/ معجم الشعراء/ ص 218 طبعة القدسي - القاهرة 1354هـ.
(2) الأغاني 15/ 36 بترجمة «الرقاشي» طبعة أحمد الشنقيطي و16/ 250 طبعة الدارالمصرية.
(3) ورغم ذلك لم تذكره المصادر بترجمة خاصة به، ولم تذكر تاريخ ولادته أو وفاته.
(4) الديارات/ ص 110 دير مريحنا، تحقيق كوركيس عوادبغداد 1951م وحيب زيات/ ص 28 - 29.
(5) الديارات/ ص 110 - 111.

أيــهــا الــســائــل عــنّــي لــســت مــن أهــل الــصــلاح
أنــا إنــســان مــريــب أشــتــهــي نــبــك الــمــلاح
قــســمــت الــدهــر يــومــيــنِ لــفــســق ولــراح
لا أبــالــي مــن لــحــانــي لا أطــيــع الــدهــر لاح

وله أيضاً:

إذا أنت لم تشرب عقارا ولم تلط فأنت لعمري والحمار سواءُ
ولم تمل بيتا من قحاب ولم يبت فراشك أرضا ما عليه غطاءُ
ولم تك بالشطرنج عبدا مقامرا وفي النرد عند الخصل منك وفاءُ[1]
ولم تك في لعب النوى متماحكا فتسلبُ مالاً أو يكون بواءُ[2]
ولم تتخذ كلباً وقوساً وبندقاً وبرج حمام لم يصبك رخاءُ
ولم تدر ما عيش ولم تلق لذ ة فأنت حمار ليس فيك مراءُ
فإن أنت لم تفطن لعيش جهلته فدونكه ما دام فيك بقاءُ
وإيّاك أن تنفكّ من سكرٍ طافحٍ مساؤك صبح والصباح مساءُ
ونك من لقيت الدهر منهم ولايكن عليك إذا أعطوك منك إباءُ

* موقفه الوطني:

في الحرب الأهلية في بغداد بين الأمين والمأمون، لم يكن الوراقون شهود عيان فقط، على ما يجري في وطنهم بغداد أيام الفتن والاضطرابات بل كانوا مساهمين فيها، كل حسب طاقته وموقعه، فقد قيّض لعمرو الوراق أن يكون شاهداً ومشاركاً ومؤرخاً بشعره للحوادث اليومية التي جرت في بغداد أثناء الحرب الأهلية التي حصلت نتيجة الخصام على السلطة العباسية بين الأمين وأخيه المأمون، فقد خلع الأول الثاني، وحاصر الثاني الأول، الأمر الذي انقلب وبالا على الناس في بغداد، وانشقّ أهلها بين الفريقين، فقد حاصر جند المأمون بغداد بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة وزهير بن المسيّب[3]، وازداد التراشق بالمجانيق بين العسكرين، ومات الكثير من الناس.

(1) الخصل = جميعها خصول، وهو يتقامر عليه - راجع المصدر السابق - الهامش رقم (2).
(2) البواء = أي تساوى اللاعبين في النتيجة - نفس المصدر - الهامش رقم (3).
(3) راجع تفاصيل ذلك عند الطبري 8/ 445 وما بعدها - حوادث سنة 197هـ.

فقال عمرو الوراق[1]:

يـا رمـاة الـمـنـجـنـيـق ... كـلـكـم غـيـر شـفـيـق
مـا تـبـالـون صـديـقـا ... كـان أو غـيـر صـديـق
ويـلـكـم تـدرون مـا تـر ... مـون مُـرّار الـطّـريـق
ربّ خـــود ذات دلّ ... وهـي كـالـغـصـن الـوريـق
أخـرجـت مـن جـوف دنـيـا ... هـا ومـن عـيـش أنـيـق
لـم تـجـد مـن ذاك بـدّا ... أبـرزت يـوم الـحـريـق

يقول الطبري: وكثر الخراب والهدام حتى درست محاسن بغداد، ففي ذلك يقول العتري/ والمقصود عمرو الوراق/ [2]:

مَنْ ذا أصابك يا بغداد بالعين ... ألم تكوني زمانا قرّة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... وكان قربهم زيناً من الزّين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ... ماذا لقيت بهم من لوعة البين
أستودع الله قوماً ما ذكرتهم ... الا تحدّر ماء العين من عيني
كانوا ففرّقهم دهر وصدّعهم ... والدهر يصدع ما بين الفريقين

واتخذ أهل بغداد موقفاً وطنياً واضحاً ضد طاهر بن الحسين وجنده، فقد منع الملاّحون إدخال أي شيء إلى بغداد، لأنه كان قد أذاهم بعد أن قتل من أصحابه الكثير في واقعة قصر صالح فمضّه ذلك وشقّ عليه، فأمر بالهدم والإحراق[3]، لذلك اتّخذَ هذا الموقف، وفي ذلك يقول عمرو بن عبد الملك الوراق العتري[4]:

لنا كلّ يوم ثلمة لا نسدّها ... يزيدون فيما يطلبون وننقص
إذا هدموا دارا أخذنا سقوفها ... ونحن لأخرى غيرها نتربّص
وان حرصوا يوما على الشرّ جهدهم ... فغوغاؤنا منهم على الشرّ أحرص

---

(1) الطبري 8/ 446.
(2) الطبري 8/ 447، وتجدر الاشارة هنا إلى أن بعض الشعراء قد رثوا بغداد مع عمر الوراق من أمثال الحسين الخليع، والخريمي - وغيرهم من الفتيان والشعراء - أنظر حوادث هذه السنة 197هـ، وسوف نورد فقط أبيات عمر الوراق، نظراً لأن الموضوع داخل في ترجمته.
(3) راجع الطبري 8/ 458 - 459.
(4) المصدر السابق 8/ 459 - 460.

فقد ضيّقوا من أرضنا كل واسع ... وصار لهم أهل بها وتعرّضوا
يثيرون بالطبل القنيص فإن بدا ... لهم وجه صيد من قريب تقنّصوا
لقد أفسدوا شرق البلاد وغربها ... علينا فما ندري إلى أين نشخص
إذا حضروا قالوا بما يعرفونه ... وإن لم يروا شيئاً قبيحاً تخرّصوا
وما قتل الابطال مثل مجرّب ... رسول المنايا ليله يتلصّص
ترى البطل المشهورفي كلّ بلدة ... إذا ما رأى العريان يوما يبصبص
اذا ما رآه الشّمرّي مقزلاً ... غلى عقبيه للمخافة ينكص
يبيعك رأساً للصبي بدرهم ... فان قال أني مرخصٍ فهومرخص
فكم قاتل منّا لآخر منهم ... بمقتله عنه الذنوب تمحّص
تراه إذا نادى الأمان مبارزا ... ويغمرنا طورا وطورا يخصّص
وقد رخّصت قراؤنا في قتالهم ... وما قتل المقتول إلا المرخّص

وقال أيضاً في ذلك[1]:

الناس في الهدم وفي الانتقال ... قد عرّض الناس بقيل وقال
يا أيها السائل عن شأنهم ... عينكَ تكفيك مكان السؤال
قد كان للرحمن تكبيرهم ... فاليوم تكبيرهم للقتال
اطرح بعينيك إلى جمعهم ... وانتظر الروح وعدّ الليالي
لم يبق في بغداد الا امرؤ ... حالفه الفقر كثير العيال
لا أم تحمي عن حماها ولا ... خال له يحمي ولا غير خال
ليس له مال سوى مطردٍ ... مطردهُ في كفّه رأس مال
هان على الله فأجرى على ... كفيه للشقوة قتل الرجال
ان صار ذا الأمر إلى واحد ... صار إلى القتل على كلّ حال
ما بالنا نقتل من أجلهم ... سبحانك اللهم يا ذا الجلال

وله أيضاً أبيات يظهر تشبّه ببغداد، فيقول[2]:

ولست بتارك بغداد يوما ... ترحّل من ترحّل أو أقاما

---

(1) الطبري 8/ 460.
(2) نفسه.

إذا ما العيش ساعدنا فلسنا نبالي بعدُ من كان الأماما

وحاصر طاهر وجنده وقوّاده أهل بغداد، وضيّقوا عليهم أشهُراً، ومنعوا عنهم الميرة والدقيق، وصَمد الفريقان، ثم كانت لهم وقعة شديدة عرفت بـ«وقعة الكناسة» وقد باشر طاهر القتال بنفسه، فقتل فيها بشر كثير من أصحاب الأمين، فقال عمرو الورّاق[1]:

وقعة يوم الاحد صارت حديث الأبد
كم جسد أبصرته ملقى وكم من جسد
وناظر كانت له منية بالرّصد
أتاه سهم عائر فشك جوف الكبد
وصائح يا والدي وصائح يا ولدي
وكم غريق سابح كان متين الجلد
لم يفتقده أحدّ غير بنات البلد
وكم فقيد بئس عزّ على المفتقدِ
كان من النظارة الـ أولى شديد الحرَدِ
لو أنه عاين ما عاينه لم يعدِ
لم يبق من كهل لهم فات ولا من أمردِ
وطاهر ملتهمٌ مثل التهام الأسدِ
خيّم لا يبرح في الـ عرصة مثل اللّبدِ
تقذف عيناه لدى الـ حرب بنار الوقدِ
فقائل قد قتلوا ألفاً ولمّا يزدِ
وقائل أكثر بل ما لهم من عددِ
وهارب نحوَهُم يرهب من خوف غد
هيهات لا تبصر ممـ ن قد مضى من أحد
لا يرجع الماضي إلى الـ باقي طوال الأبدِ
قلت لمطعون وفيـ ه روحه لم تبدِ
من أنت يا ويلك يا مسكين من محمّد

(1) الطبري 8/ 461 - 462.

فقال لا من نسب ... دان ولا من بلدِ
لم أره قط ولم ... أجد له من صفدِ
وقال لا للغيّ قا ... تلت ولا للرّشدِ
إلاّ لشيء عاجل ... يصير منه في يدي

وشدّ أصحاب محمد الأمين على جند طاهر في وقعة درب الجمارة، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، فقال في ذلك عمرو بن عبد الملك العتري الوراق[1]:

وقعة السبت يوم درب الحجارة ... قطعت قطعة من النظاره
ذاك من بعد ما تفانوا ولكن ... أهلكتهم غوغاؤنا بالحجاره
قدم الشورجين للقتل عمدا ... قال اني لكم أريد الاماره
فتلقاه كل لصّ مريب ... عمر السجن دهره بالشطاره[2]
ما عليه شيء يواريه منه ... أيره قائم كمثل المناره
فتولّوا عنهم وكانوا قديما ... يحسنون الضّراب في كل غاره
هؤلا مثل هؤلاك لدينا ... ليس يرعون حق جار وجاره
كل من كان خاملا صار رأسا ... من نعيم في عيشه وغضاره
حامل في يمينه كل يوم ... مطردا فوق رأسه طيّاره
أخرجته من بيتها أم سوء ... لطلب النّهب أمة العيّاره
يشتم الناس ما يبالي بإفصا ... ح لذي الشتم لا يشير اشاره
ليس هذا زمان حرٍّ كريم ... ذا زمان الانذال أهل الزعاره
كان فيما مضى القتال قتالاً ... فهو اليوم يا عليّ تجاره

وقال أيضاً وهو يصور حالة الأمين وهو محاصر[3]:

باريّة قيّرت ظاهرها ... محمدٌ فيها ومنصور
العزّ والامن أحاديثهم ... وقولهم قد أخذ السور
وأيّ نفع لك في سورهم ... وأنت مقتول ومأسور

(1) الطبري 8/ 463 - 464.
(2) إشارة واضحة إلى العيّارين والشطار واشتراكهم في الدفاع عن بغداد في تلك الوقائع.
(3) الطبري 8/ 464.

قد قتلت فرسانكم عنوة وهدمت من دوركم دور
يا أيها السائل عن شأننا محمّد في القصر محصور

وفي وقعة باب الشماسيّة، وفيها أسر هرثمة، وشدّ العيارون وأهل بغداد بقيادة حاتم ابن الصقر على أصحاب طاهر، وأزالوا عبيد الله بن الوضاح من مكانه، بعد أن فاجأوه ليلا، فولّى منهزما، فأصابوا له خيلاً وسلاحاً ومتاعاً كثيراً، وانتصر أهل بغداد في هذه الوقعة، وفي ذلك قيلت أشعار كثيرة، ومن ذلك قول عمرو الورّاق[1]:

عريان ليس بذي قميص يغدو على طلب القميص
يعدو على ذي جوشن يعمي العيون من البصيص
في كفّه طرّادة حمراء تلمع كالفصوص
حرصا على طلب القتا ل أشدّ من حرص الحريص
سلس القياد كأنّما يغدو على أكل الخبيص
ليثاً مغيرا لم يزل رأساً يعدّ من اللصوص
أجرى وأثبتُ مقدماً في الحرب من أسد رهيص
يدنو على سنن الهوا ن وعيصه من شرّ عيص
ينجو إذا كان النجا ء على أخفّ من القلوص
ما للكميّ إذا لمقـ ـتله تعرّض من محيص
كم من شجاع فارس قد باع بالثمن الرخيص
يدعو: ألا من يشتري رأس الكميّ بكف شيص

يقول الطبري: وكان محمد «الأمين» أعطى بنقض قصوره ومجالسه الخيزرانية بعد ظفر الغزاة ألفي ألف درهم، فحرقها أصحاب طاهر كلّها، وكانت السقوف مذهبّة وقتلوا من الغزاة والمنتهبين بشراً كثيراً، وفي ذلك يقول عمرو الوراق[2]:

ثقلان وطاهر بن الحسين صبّحونا صبيحة الاثنين
تجمعوا جمعهم بليل ونادوا أطلبوا اليوم ثأركم بالحسين
ضربوا طبلهم فثار إليهم كل صلب القناة والسّاعدين
يا قتيلا بالقاع ملقى على الشطّ هواه بطيء الجبلين

---

(1) الطبري 8/ 464 - 466.
(2) الطبري 8/ 466 - 467.

ما الذي في يديك أنت إذا ماصـ طلح الناس أنت بالخلتين
أوزير أم قائد بل بعيد أنت من ذين موضع الفرقدين
كم بصير غدا بعينين كي يبـ صر ما حالهم فعاد بعين
ليس يخطون مايريدون ما يعـ مد راميهم سوى الناظرين
سائلي عنهم هم شرّ من أبـ صرت في الناس ليس غيركذين
شرّ باقٍ وشرّ ماضٍ من النا س مضى أو رأيت في الثقلين

وعندما انهزم أصحاب طاهر بن الحسين، وغرق بشر كثير في نهر الصراة، قال عمرو الوراق[1]:

نادى منادي طاهر عندنا يا قوم كفوا أواجلسوا في البيوت
فسوف يأتيكم غد فاحذروا ليثا هريت الشدق فيه عيوت
فثارت الغوغاء في وجهه بعد انتصاف الليل قبل القنوت
في يوم سبت تركوا جمعه في ظلمة الليل سمودا خفوت

وعندما دارت الدائرة على أصحاب محمد الأمين، قال عمرو الوراق[2]:

كم قتيل قد رأينا ما سألناه لأيش
دارعا يلقاه عريا نٌ بجهل وبطيش
ان تلقاه برمحٍ يتلقاه بفيش
حبشيا يقتل النا س على قطعة خيش
مرتد بالشمس راض بالمنى من كل عيش
يحمل الحملة لا يقـ تل إلا رأس جيش
كعلي أفرا همرد[3] أو علاء أو قريش
احذر الرمية يا طا هر من كف الحبيشي

ووقف عمرو الوراق بعد تلك الأحداث وهو يشاهد خراب بغداد بعينيه ويقول[4]:

---

(1) الطبري 8/ 469.
(2) نفسه 8/ 469 - 470.
(3) هكذا وردت بالنص عند الطبري 8/ 469 - وربما كانت لاسم أعجمي.
(4) الطبري 8/ 470.

ذهبت بهجة بغدا د وكانت ذات بهجة
فلها في كلّ يوم رجّة من بعد رجّة
ضجّت الأرض إلى الله من المنكر ضجّة
أيها المقتول ما أنت على دين المحجّة
ليت شعري ما الذي نلت وقد أدلجت دلجة
أ الى الفردوس وجهّت أم النار توجّه
حجر أرداك أم أر ديت قسرا بالأزجة
ان تكن قاتلت برّا فعلينا ألف حجّة

وعندما اشتد الحصارعلى الأمين خرج بأمّه وولده إلى مدينة أبي جعفر/ الكرخ/ وتفرق عنه عامة جنده، وتفرّق الغوغاء والسفلة، وفي ذلك يقول عمرو الوراق[1]:

يا طاهر الظهر الذى مثاله لم يوجد
يا سيّد بن السيد بن السيد بن السيد
رجعت إلى أعمالها الا ولى غزاة محمد
من بين نطاف وسوّ اط وبين مقرّدّ
ومجرّد يأوي الى عبّارة ومجرّدّ
ومقيّد نقب السّجو ن فعاد غير مقيّد
ومسوّد بالنهب سا د وكان غير مسوّد
ذلّوا لعزّك واستكا نوا بعد طول تمرّد

قال عليّ بن يزيد: كنت يوماً عند عمرو الوراق، أنا وجماعة، فجاء رجل فحدّثنا بوقعة طاهر بباب الكرخ، وانهزام الناس عنه، فقال عمرو، ناولني قدحا، ثم قال[2]:

خذها فللخمرة أسماء لها دواء ولها داء
يصلحها الماء إذا صفقت يوما وقد يفسدها الماء
وقائل كانت لهم وقعة في يومنا هذا وأشياء
قلت له: أنت امرؤ جاهل فيك عن الخيرات ابطاء

---

(1) الطبري 8/ 474 - حوادث سنة 198هـ.
(2) الطبري 8/ 475.

اشــرب ودعــنــا مــن أحــاديــثــهــم يــصــطــلــح الــنــاس إذا شــاؤوا

قال، ونحن كذلك دخل علينا آخر، وقال: قاتل فلان الغزاة، وأقدم فلان، وانتهب فلان، فقال عمرو[1]:

أي دهــــر نــــحــــن فــــيــــه مــــات فــــيــــه الــــكــــبــــراء
هــــذه الــــســــفــــلــــة والــــغــــو غــــاء فــــيــــنــــا أمــــنــــاء
مــــا لــــنــــا شــــيء مــــن الاشــــيــــاء الا مــــا يــــشــــاء
ضــــجــــت الأرض وقــــد ضــــجّــــت إلــــى الله الــــســــمــــاء
رفــــع الــــدّيــــن وقــــد هــــانــــت عــــلــــى الله الــــدمــــاء
يــــا أبــــا مــــوســــى لــــك الــــخــــيــــرات قــــد حــــان الــــلــــقّــــاء
هــــاكــــهــــا صــــرفــــاً عــــقــــارا قــــد أتــــاك الــــنــــدمــــاء

وقال عمرو الوراق أيضاً[2]:

إذا مــــا شــــئــــت أن تــــغــــضــــب جــــنــــديّــــا وتــــســــتــــامــــر
فــــقــــل يــــا مــــعــــشــــر الاجــــنــــاد قــــد جــــاءكــــم طــــاهــــر

عُمر الورّاقِ الثاني(*):

لم تتوقف عنده المصادر الأدبية والتاريخية، وجاء اسمه عارضاً في ترجمة يزيد بن مزيد الشيباني عند ابن خلكان[3] في سياق جملة أبيات شعرية، تواتر معناها من النابغة الجاهلي، وحتى أبو نواس العباسي، وردت عند مسلم بن الوليد مادح يزيد بن مزيد، وقد علّق ابن خلكان على الخبر بالشكل التالي: ووافقهُ في أخذ هذا المعنى جماعة منهم، أبو نواس، قال عمرُ الوراق: سمعت أبا نواس ينشد قصيدته الرائية التي أولها[4]:

(1) الطبري 8/ 475.
(2) الطبري 8/ 475.
(*) ربما كان هو نفسه الأول - الذي سبقت ترجمته - وهذا الإشكال لم نهتد إليه، حيث أن المصادر التي ذكرت/ هذا الخبر/لم تُشر من قريبٍ أو بعيد إلى بعض تفاصيل حياته، لذلك أوردنا هذه الترجمة القصيرة له. مع أن الإشارة الواضحة للعلاقة الإجتماعية التي تجمع بين أبي نؤاس وعمر الوراق هي الدّالة لنا بأنه هو نفسه عمرو الوراق، صاحب الترجمة السابقة، لذلك أوردنا هذا التنبيه.
(3) وفيات الأعيان 6/ 327 - الترجمة رقم (820) طبعة إحسان عباس.
(4) ديوان أبي نواس/ ص 427 - طبعة أحمد عبد المجيد الغزالي/ بيروت - دار الكتاب العربي - دون تاريخ.

«أيــهــا الــمــنــتــاب مــن عُــفُــره   لــســتَ مــن لــيــلــي ولا ســمــره
لا أذودُ الــطــيــر عــن شــجــرٍ   قــد بــلــوتُ الــمُــرَّ مــن ثــمــره»

قال عمر الوراق: فحسدتهُ عليها، فلما بلغ إلى قوله[1]:

«وإذا مــجَّ الــقــنــا عــلــقــاً   وتــراءى الــمــوت فــي صُــوَرِه
راح فــي ثِــنــي مُــفــاضــتــهُ   أســدٌ يــدمــي شــبــا ظــفــره
تــتــأيّــى الــطــيــرُ غُــدْوتــهُ[2]   ثــقــة بــالــشــبــعِ مــن جَــزرِه

فقلت له: ما تركت للنابغة شيئاً حيث يقول:

إذا ما غزو بالجيش حَلَّقَ فوقهم   عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ

فقال أبو نواس: أسكت، فلئن أحسنَ الإختراع لما أساتُ الاتّباع[3].

ومن هذه الإشارة، يظهر أن عُمَرَ الوراق، مِمَّن يحسنون قول الشعر وتتبعهِ ونقده، ومن الواضح أن مهنة الوراقة لديه، جعلته أكثر تتبعاً لموضوعة الشعر أكثر من سواه، على بقية الموضوعات.

مساور الوراق:

هو مساور بن سوار بن عبد الحميد، من آل قيس بن عيلان بن مضر[4]. ذكر صاحب «الأغاني» أنه كان مولى لخويلد بن عدوان، أصله من الكوفة، قليل الشعر، ومن أصحاب الحديث ورواته، حيث أنه روى عن صدر من التابعين، كما روى عن وجوه أصحاب الحديث[5].

لم تشر المصادر إلى تاريخ ولادته أو وفاته، واكتفت بنقل الأخبار عنه وعن نوادره وشعره، فمن ذلك أن ابن النديم ذكر أن له ديوان شعر من خمسين ورقة[6] فيما استطرد أبو الفرج الأصبهاني في ذكر تفاصيل من حياته الاجتماعية والسياسية والأدبية، فقد ذكر خبراً عن الأصمعي قال: كان قوم يجلسون إلى ابن أبي ليلى/ وكان وقتذاك أحد أعيان العباسيين

(1) البيت 29 و30 و31/ ص 431 من الديوان.
(2) وردت «تتأى الطير غدوته» عند ابن خلكان - وفيات الأعيان 6/ 335 - وما أثبتناه من الديوان.
(3) وفيات الأعيان 6/ 334 - 335.
(4) الأغاني 18/ 149 - طبعة الدار المصرية؛ وحبيب زيات/ ص 31.
(5) المصدر السابق.
(6) الفهرست/ ص 230.

في الكوفة/ فكتب قوم منهم لعيسى بن موسى، وأشار عليه أن يشغلّهم ويصلهم، فأتى مساور الوراق، فكلم ابن أبي ليلى أن يجعله فيهم، فلم يفعل فأنشأ يقول[1]:

أراك تشير بأهل الصلاح فهل لك بالشاعر المسلم
كثير العيال قليل السوا ل عف مطاعمه معدم
يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة وقد حلق العام بالموسم
وأصبح والله في قومه وأمسى وليس بذي درهم

قال: فقال ابن أبي ليلى: لا حاجة لنا فيه، فقال فيه مساور أبياتاً، لم يذكرها أبو بكر ابن دريد - ناقل الخبر - صيانة لابن أبي ليلى[2].

حدّث التوزي قال: كان مسار الوراق وحمّاد عجرد وحفص بن أبي قرده مجتمعين، فجعل حفص يعيب شعر المرقش الأكبر، فأقبل عليه مساور وقال[3]:

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل وأنفٌ كثيل العود عما تتبع[4]
تتبعت لحناً في كلام مرقشٍ ووجهك مبني على اللحن أجمع

فقام حفص من المجلس خجلاً، وهاجره مدة.

قال أبو الفرج: نسخت من كتاب عبيد الله اليزيدي بخطه: حدثنا سليمان بن أبي شيخ قال: كان مساور الوراق من جُديلة قيس، ثم من عدوان مولى لهم، فقال لإبنه يوصيه[5]:

شمّر ثيابك واستعد لقائل واحكك جبينك للعهود بثوم
ان العهود صفت لكل مشمّرٍ دبر الجبين مصفر موسوم
أحسن وصاحب كل قار ناسكٍ حسن التعهد للصلاة صؤوم
من ضرب حماد هناك ومشعر وسماك العتكي وابن حكيم
وعليك بالغنوي فاجلس عنده حتى تصيب وديعة ليتيم
تغنيك عن طلب البيوع نسيئةً وتكف عنك لسان كل غريم
وإذا دخلت على الربيع مسلّماً فاخصص شبابة منك بالتسليم

---

(1) الأغاني 18/ 149.
(2) المصدر السابق - نفس المكان.
(3) نفس المصدر 18/ 150.
(4) الثيل: وعاء قضيب البعير وغيره. القاموس المحيط - مادة (ثيل).
(5) الأغاني 18/ 150.

قال: ففعل ما أوصاه به أبوه، فلم يلبث مساور أن ولاه عيسى بن موسى عملاً، ودفع إليه عهده، فانكسر عليه الخراج، فدفع إلى بطين صاحب عذاب عيسى يستأديه، فقال مساور[1]:

وجدت دواهر البقّال أهنى ... من الفرني والجديّ السمين[2]
وخيراً في العواقب حين تبلى ... إذا كان المردّ إلى بطين
فكن ياذا المطيّف بقاضيينا ... غداً من علم ذاك على يقين
وقل لهما إذا عرضا بعهدٍ ... برئت إلى عرينة من عرين
فإنّك طالما بهرجت فيها ... بمثل الخنفساء على الجبين

مرّ مساور بمقبرة حميد الطوسي، وكان له صديقاً، فوقف عليها مستعبراً وقال[3]:

أبا غانمٍ أمّا ذراك فواسعٌ ... وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره ... إذا كان فيه جسمه يتهدم

سمع مساور الوراق لغطَ أصحاب أبي حنيفة وصياحهم فقال فيهم[4]:

كنا من الدين قبل اليوم في سعةٍ ... حتى بُلينا بأصحاب المقايس
قوم إذا اجتمعوا ضجوا كأنّهم ... ثعالب ضبحت بين النواويس[5]

فبلغ ذلك أبا حنيفة وأصحابه، فشقّ عليهم وتوعدوه، فقال أبياتاً ترضيهم هي[6]:

إذا ما لناس يوماً قايسونا ... بآبدةٍ من الفُتْيا ظريفه
أتيناهم بمقياسٍ ظريفٍ ... مصيبٍ من قياس أبي حنيفه
إذا سمع الفقيه بها وعاها ... وأثبتها بحبرٍ في صحيفه

فبلغ ذلك أبا حنيفة، فرضي. قال مساور: ثم دعينا إلى وليمة بالكوفة في يوم شديد الحر، فدخلت فلم أجد لرجلي موضعاً من شدة الزحام، وإذا أبو حنيفة في صدر البيت، فلما رآني قال: إليّ يا مساور، فجئت فإذا مكان واسع وقال لي: إجلس، فجلست، وقلت

---

(1) الأغاني 18/ 150.
(2) دواهر = الشدائد. الفرني = نوع من الخبز.
(3) الأغاني 18/ 151.
(4) نفس المصدر.
(5) النواويس = القبور.
(6) الأغاني 18/ 152.

في نفسي: نفعتني أبياتي اليوم. قال: وكان إذا رآني بعد ذلك يقول لي: هاهنا، هاهنا، ويوسع إلي جنبه ويقول: إن هذا من أهل الأدب والفهم[1].

عُرف عن مساور أنه لا يضيّع حقّاً لصاحبه، فماتت بنته، فلم يشهدها من جيرانه إلاّ نفر يسير، فقال مساور في ذلك[2]:

تغيب عني كل جافٍ ضرورةً وكل طفيلي من القوم عاجز
سريع إذ يدعى ليوم وليمةٍ بطيىءٍ إذا ما كان حمل الجنائز

ومن نوادره الإجتماعية، أن جاراً له قدم من سفر، فجاءه مساور ليسلم عليه، فقال الجار: هاتي لأبي القاسم غداءً، فجاءت برغيف فوضعته على الخوان، فمد يده يأكل مع مساور وقال له: يا أبا القاسم، كل من هذا الخبز، فما أكلت خبزاً أطيب منه، فقال مساور في ذلك[3]:

ما كنت أحسب أن الخبز فاكهةٌ حتى رأيتك يا وجه الطبرزين[4]
كأن لحيتهُ في وجههِ ذنب أو شعرة فوق بظر غير مختون

ودخل مساور على أبي العيص الجرمي يعوده، وكان صديقاً له، فكلمه فلم يجبه، فبكى مساور جزعاً عليه، وأدنى رأسه منه بكلمة، فقال أبو العيص[5]:

أفي كل عام مرضة بعد نقهة وتنعى ولا تنعى متى ذا إلى متى
سيوشك يوماً أن يجيء وليلة يسوقان حتفاً راح نحوك أوغدا
فتمسي صريعا لا تجيب لدعوةٍ ولا تسمع الداعي وان جدّ في الدعا

ثم لم يلبث أن مات رحمه الله.

(1) الأغاني 18/ 152.
(2) نفسه.
(3) الأغاني 18/ 153.
(4) الطبرزين = آلة من السلاح تشبه الفأس.
(5) الأغاني 18/ 153.

الفصل السادس

الوَرّاقُون النسّاخون

الفاشوشة الكتبي:

هو الشيخ الفاضل إبراهيم بن شمس الدين، المعروف بالفاشوشة الكتبي[1].

واحد من الذين اشتغلوا بالوراقة وعلوم العربية والأداب، ونال الشهرة فيها.

توفي سنة 733هـ[2].

أورد له ابن العماد الحنبلي بيتين من الشعر، هما[3]:

قد أتى سيّد الفواكه في ثو ... ب نضار والشهد منه يفور

يشبه العاشق المتيّم حالاً ... أصفر اللّونَ قلبه مكسور

أحمد بن محمد الورّاق الأديب:

هو أحمد بن محمد بن الحسن، الخلاّلَ الوراق، الأديب. تفرّد ياقوت الحموي بترجمته

فقال: صاحب الخط المليح الرائق، والضبط المتقن الفائق، أظنُّه ابن أبي الغنائم الأديب[4]، وأورد ذكراً لأخيه علي بن محمد بن الخلال أبو الحسن في معجم الأدباء. أيضاً[5].

لم يُشر ياقوت إلى تاريخ ولادته ولا سنة وفاته، بل أشار إلى أنه وَجَدَ بخطِّهِ على كتاب قد كتبه في سنة خمس وستين وثلاثمائة[6].

---

(1) شذرات الذهب 6/ 104؛ وحبيب زيات/ ص 26.

(2) المصدر السابق - نفس المكان.

(3) نفس المصدر السابق.

(4) معجم الأدباء 4/ 264.

(5) معجم الأدباء 4/ 245، وسوف نأتي على ذكره بترجمة خاصة به.

(6) معجم الأدباء 4/ 264.

سندي بن علي الوراق:

لم توجد ترجمة وافية لهذا الوراق، بل ذكرت المصادر إسمهُ عارضاً، أثناء الحديث عن «كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، وكان أوّل مصدر ذكرهُ هو «الفهرست» لابن النديم ورّاق بغداد المشهور، فقد جاء فيه ما يلي

«حدّثني أبو الفرج الأصفهاني قال: حدّثني أبو بكر محمد بنِ خلف وكيع قال: سمعتُ حماد بن إسحاق يقول: ما ألَّفَ أبي هذا الكتاب قط، يعني كتاب «الأغاني» الكبير ولا رآه، والدليل على ذلك أن أكثر أشعاره المنسوبة إنما جمعت لما ذكر معها من الأخبار، وما يحيي فيها إلى وقتنا هذا، وأن أكثر نسبة المغنيين خطأ، والذي ألَّفهُ أبي من دواوين غنائهم يدل على بطلان هذا الكتاب، فإن أبي ألّفها، إلاّ أن أخباره كلها من روايتنا.

وقال لي أبو الفرج هذا سمعتهُ من أبي بكر وكيع حكايةً محفظتهُ، واللفظ يزيد وينقص.

وأخبرني جحظة أنه يعرف الورّاق الذي وضعه، وكان يورق لاسحاق، فاتفق هو وشريك له على وضعه. وهذا الكتاب يعرف في القديم بكتاب الشركة، وهو أحد عشر جزء، لكل جزء أوَّل يعرف به، فالجزء الأول من الكتاب الرخصة، وهو تأليف إسحاق لا شك فيه ولا خلف(1).

وهذه هي الإشارة الوحيدة لذكر هذا الورّاق، ولم نعثر على زيادة في المضان التي بين أيدينا والتي تحدثت عن ظاهرة الوراقة والوراقين.

علاّن الشعوبي الورّاق:

هكذا ورد اسمه عند ابن النديم، وعنه أخذ ياقوت الحموى، ولم يذكر اسم أبيه(2).

أصله من الفرس، وكان راوية عارفاً بالأنساب والمثالب والمنافرات، منقطعاً إلى البرامكة، وكان ينسخ في «بيت الحكمة» للرشيد والمأمون والبرامكة(3).

---

(1) الفهرست لابن النديم/ ص 203 - الطبعة المصرية - وراجع الأغاني لأبي الفرج 1/ 5 - 6 طبعت دار الكتب المصرية - القاهرة - سنة 1345هـ/ 1917م.

(2) الفهرست/ ص 153 - 154؛ ومعجم الأدباء 12/ 191 - الترجمة رقم (48)؛ وحبيب زيّات ص 44.

(3) الفهرست/ ص 153 - 154.

لم تذكر المصادر تاريخ ولادته أو وفاته، بل ذكرت أنه كان شعوبياً، يميل إلى غير العرب، وكان له دكان وراقة يشتغل به الفيرزان، يبيع فيه الكتب وينسخ به[1].

كما أن هذا الخبر أورده/ حبيب زيات/ في الوراقة والوراقين/ ص 41.

حملته نزعته الشعوبية إلى تأليف عدّة كتب في ذمّ العرب، أوردها ابن النديم على النحو التالي[2]

1 - كتاب الميدان في المثالب، الذي هتك فيه العرب، وأظهر مثالبها.

2 - كتاب الحلية، لم يتمّه.

3 - كتاب المثالب - ابتداءً بقريش - قبيلة بعد قبيلة إلى آخر قبائل اليمن.

4 - كتاب فضائل كنانة.

5 - كتاب نسب النمر بن قاسط.

6 - كتاب نسب تغلب بن وائل.

7 - كتاب فضائل ربيعة.

8 - كتاب المنافرة.

كانت له مواقف محمودة في احترام مهنته كورّاق، فقد نقل ياقوت عنه خبراً قال فيه: كان بعض أصحاب أحمد بن أبي خالد الأحول - تولى الوزارة للمأمون - قد مُدح له علانا الشعوبي الوراق، فأمر بإحضاره وبأن يستكتب له، فأقام في داره/ وذات يوم/ دخل أحمد بن أبي خالد، فقام إليه جميع من فيها غيرعلاّن الوراق، فإنه لم يقم له، فقال أحمد: ما أسوأ أدب هذا الورّاق.

وسمعه علاّن فقال: كيف أنسب أنا إلى سوء الأدب ومني تتعلّم الآداب، وأنا معدنها، ولماذا أردت منيّ القيام لك، ولم آتك مستميحاً لك، ولا راغباً إليك، ولا طالباً منك، وإنما رغبت إليّ في أن آتيك فأكتب عندك، فجئتك لحاجتي إلى ما آخذه من الأجرة، وقد كنت بغير هذا منك أولى، ثم حلف أيماناً مؤكدة أن لا يكتب بعد يومه حرفاً في منزل أحد من خلق الله[3].

وذكر ياقوت أن علاّن كان قبيحاً، ونقل على لسانه الطرفة التالية، قال: مررت

(1) ياقوت/ معجم الأدباء 12/ 192.

(2) الفهرست/ ص 154؛ ومعجم الأدباء 12/ 191 - 192.

(3) معجم الأدباء 12/ 192 - 193.

بمخنّث يغزل على حائط فقال لي: من أين؟ قلت: من البصرة، قال: لا إله إلا الله، تغيّر كل شيء حتى هذا، كانت القرود تجلب من مكة واليمن، والآن تجيء من العراق[1].

قال المرزباني: علاّن الشعوبي، هو مأموني/أي ممّن ينتصرون للمأمون، ويرى أحقيته بالخلافة من أخيه الأمين، لمّا قال عبد الله بن طاهر قصيدته التي أوّلها:

مدمن الإغضاء موصول ... وقديم العتب مملول

وفخر فيها بقتل أبيه طاهر محمد الأمين، أجابه محمد بن يزيد الحصني بقصيدة أوّلها:

لا يرعك القال والقيل ... كلّ ما بلغت تحميل

ورد عليه فيها وهجاه هجاء قبيحاً، قال علاّن الشعوبي قصيدة ردّ فيها على السلمي[2]، وهجاه، ومدح عبد الله بن طاهر وفضّل العجم على العرب يقول فيها[3]:

أيها اللاّطي[4] بحفرته ... في قرار الأرض مجعولُ
قد تجاللت على دخلٍ ... واستخفّتك التهاويلُ
وأبو العبّاس غادية ... لعزاليه الاهاليل
تمطر العقيان راحته ... وله بالجُود نهطيل
رستميّ في ذرى شرف ... زانه تاج وإكليل
وعليه من جلالته ... كرم عدّ وتبجيل
ان لي فخرا مباءته ... في قرار النجم مأهول
ورجالا شربهم غدق ... هم لما حازوا مباذيل
كرويّات أبوّتنا ... غرر زهر مقاويل

ابن أبي دجانة المصري الوراق:

هو أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي دجانة المصري[5] أصله من مصر لكنه أقام

(1) معجم الأدباء 12/ 193 - وأنظر هناك تعليقات ياقوت الحموي على الخبر.
(2) هو محمد بن يزيد الأموي الحصني، من ولد مسلمة بن عبد الملك - المصدر السابق 12/ 194 - الهامش رقم (1).
(3) معجم الأدباء 12/ 194 - 196.
(4) اللاّطي = اللاصق بالشيء. اللسان - مادة (لَوَطَ).
(5) معجم الأدباء 12/ 223 - الترجمة رقم (57).

ببغداد وبها كتب الكثير وكان جيد الخط كثير الضبط إلاّ أنه مع ذلك لا يخلو خطه من السقط وإن قل[1].

قال ياقوت: وجدت بخطه (زحر سور الذنب) وقد كتبه ببغداد سنة 384هـ[2] ولم يزد على ذلك بشيء.

علي بن محمد بن الخلّال:

هو الآخر، كأخيه أحمد بن محمد بن الحسن الخلاّل، لم يذكره سوى ياقوت الحموي، وقال عنه: هو علي بن محمد بن الخلاّل أبو الحسن، الأديب الناسخ، صاحب الخط المليح والضبط الصحيح، معروف بذلك مشهور، مات سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة[3].

علي بن محمد الوراق:

كثيرون هم الورّاقون الذين لم يترجم لهم، ولكن المصادر تأخذ عن رواياتهم، لا سيما إذا كانت هذه المصادر تترجم إلى شخصيات هامة وكبيرة ومعروفة على الصعيد الأدبي والثقافي والسياسي فالوراق علي بن محمد، جيء على ذكره في سياق الحديث عن أقوال الجاحظ وأدبه نقل عنه ياقوت الحموي ما يلي[4]:

(وحدّث علي بن محمد الوراق قال: من كتاب الجاحظ إلى ابن الزيّات: لا والله ما عالج الناس داء قط أدوى من الغيظ، ولا رأيت شيئاً هو أنفذ من شماتة الأعداء ولا أعلم باباً أجمع لخصال المكروه من الذل)[5].

ومن هذه الاشارة يتوضح أن وراقنا هذا هو أميل إلى الوراقين الأدباء فحفظ مثل هذا النص الأدبي ينبيء عن مكنون حافظه، ولكن الموما إليه لم يكن معروفاً سوى بمهنته الوراقة (النسخ) لذلك أهمل الكثير غيره، وكنا نتأمل أن ابن النديم وياقوت الحموي وابن أيبك الصفدي، يعرجون على مثل هؤلاء المجهولين نظراً لقرب الهم الثقافي ولشراكة (الكار) ولكن لم نعثر على شيء.

---

(1) معجم الأدباء 12/ 223 - الترجمة رقم (57).

(2) نفس المصدر.

(3) معجم الأدباء 14/ 245.

(4) معجم الأدباء 16/ 77 في ترجمة الجاحظ.

(5) راجع البقية في المصدر السابق، نفس المكان.

الأعرابي الورّاق:

هو أبو مالك عمر بن كركرة، قال عنه ابن النديم: أعرابي، كان يعلّم في البادية، ويورّق في الحَضَرّ، وكان مولى بني سعد، راوية أبي البيداء الرباحي، وكانت أمه تحت أبي البيداء، ويقال أنه كان يحفظ اللغة كلها وكان بصري المذهب[1].

قال عنه الجاحظ: كان أحد الطيّاب، يزعم أن الأغنياء عند الله أطيب من الفقراء.

ويقول: أن فرعون عند الله أكرم من موسى، ويلتقم المحاد الممتنع ولا يورطه، وله من الكتب[2]:

1 - كتاب خلق الإنسان.

2 - كتاب الخيل.

القمحدرة القرشي الوراق:

هو كمال الدين أبو علي الحسن، المعروف بالقمحدرة القرشي الوراق الناسخ[3].

كتب الكثير لنفسه، وورّق الأكثر منه للناس، قتل سنة 689هـ[4].

الأسدي الوراق:

هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن صالح[5] خرج من بغداد وكان منقطعاً به وخطه مليح صحيح[6] ولم يزد ابن النديم على ذلك بشيء.

النرسي الورّاق:

هو محمد بن علي، كنيته أبو الغنائم النرسي، ويعرف بأبي الكوفي[7] عُرف عنه أنه كان يورّق للناس بالأجرة، مات سنة 510هـ[8].

(1 - 2) الفهرست/ ص 66.

(3) هكذا ورد اسمه عند حبيب زيات/ الوراقة والوراقون في الإسلام/ ص 5.

(4) المرجع السابق/ ص 6.

(5) ورد عن ابن النديم «ابن الحكيم والكناية تأتي دائماً - أبو - وربما كان هذا تصحيفاً من الناشر أو الوراق الذي نسخ الفهرست لذلك أثبتنا (أبو الحسن)».

(6) الفهرست/ ص 120.

(7) حبيب زيات/ ص 6.

(8) المرجع السابق/ ص 6.

أبو هفّان الوراق:

هكذا ذكرته المصادر التي جاءت على ذكره «أبو هفّان» وعلى ما يبدو أنه كان يجتمع إليه كبار الأدباء في العصر العباسي وان دكان وراقته كان مقصوداً من قبل هذه النخبة لا سيما الجاحظ وهو أمر يشيرالى تفرده بنسخ كتب الأدب أكثر من غيرها وقد استشهد برأيه كثير من مؤرخي الأدب ورجالاته، فقد نقل عنه ابن النديم ما يلي: قال أبو هفّان: ثلاثة لم أرى قط ولا سمعت أحبُّ إليهم من الكتب والعلوم، الجاحظ والفتح بن خاقان وإسماعيل بن إسحاق القاضي[1].

ونقل ياقوت الحموي عن أبي حيان التوحيدي قوله: حدثنا ابن مقسم وقد طال ذكر الجاحظ لأبي هفّان فقيل له: لم لا تهجوا الجاحظ وقد ندد بك وأخذا بمخنقك، فقال: أمثلي يخدع عن عقله والله لو وضع رسالته في ارنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه الف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة[2]. تلك هي المعلومات التي وصلتنا عن هذا الوراق وهناك ترجمة عند الخطيب البغدادي باسم **عبد الله بن أحمد** بن حرب **«أبو هفان المهزمى الشاعر»**[3] ليس له صلة بورّاقنا المذكور وقد أخذ عن ترجمة الخطيب كل من ياقوت الحموي[4] والزركلي[5].

أحمد بن أبي طاهر الورّاق:

ذكره ابن النديم في «الفهرست» وقال عنه: «أنّه من أبناء خُراسان، وكان مؤدّب كُتّاب عاميّاً[6]، ثم تخصَّص وجَلَس في سوق الورّاقين في الجانب الشرقي «الرصافة»[7]، ولم يُضف شيئاً آخر عنه.

---

(1) الفهرست/ ص 169.
(2) معجم الأدباء 16/ 99 - بترجمة الجاحظ.
(3) تاريخ بغداد 9/ 370 - الترجمة رقم (4945).
(4) معجم الأدباء 12/ 54 - الترجمة رقم (21).
(5) الأعلام 4/ 65.
(6) مؤدّب كُتّاب = تعني في العراقية الدارجة «مُلاّ» وفي بلاد الشام ومصر، تعني معلم صبيان.
(7) إبن النديم/ الفهرست/ ص 214 - 215 وتجدر الإشارة هنا إلى ملاحظة د. أحمد ماهر حمادة، بأن «سوق الورّاقين الرئيسية - زمن إبن النديم كانت في الجانب الشرقي»/ المكتبات في الإسلام/ ص 77. والصحيح أن - الجانب الغربي - الكرخ هو الأساس، إذ بغداد بُنيت هناك وبها كان سوق الورّاقين الرئيسي، ثم تحول هذا السوق إلى الجانب الشرقي «الرصافة» بعد حرق الأسواق في عهد البويهين «335هـ» يراجع كتابنا - ورّاقو بغداد في العصر العباسي/ باب سوق الورّاقين.

أحمد بن أبي السعود:

كان من أصحاب الخط المليح، لذلك مارس مهنة الوراقة ويلقّب بالرصافي الكاتب.

قال عنه إبن الفوطي - المؤرخ المعروف -: «أنَّه يكتب خطّاً مليحاً على طريقة إبن البَوّاب، وكان مُعجباً بخطّه، وقد كتب «نهج البلاغة بخطّهِ، ونادى عليه»[1]، فدُفع فيه خمسة دنانير، فلم يبعْهُ. ثم نودي في الحال على قوائم بخط إبن البَوّاب، فبيعت بخمسة عشر ديناراً، فاستشاط وقال: يُدفع في «نهج البلاغة» بخطي خمسة دنانير، ويُدفع في قوائم بخط إبن البَوّاب خمسة عشر ديناراً، وليس بين الخطّين كبير فرق ولا سيما هذا التفاوت»[2].

أبو الفتوح العجلي:

هو أسعد بن أبي الفضائل محمد بن خلف العجلي، أحد الفقهاء والفُضلاء الموصوفين بالعِلمِ والزُهدِ، ومشهور بالعبادة والنُسكِ والقناعة، يقول عنه إبن خُلّكان: «أنه لا يأكل إلاّ من كَسب يَده، وكان يُورّق ويبيع ما يتقوّت بهِ»[3].

إبن الجَزّار الوَرّاق:

هو أبو الفتح بن الجزّار الورّاق، أحد المعروفين في سوق الورّاقين ببغداد، وكان ميّالاً للأدب والتوريق فيه، إذ كان حانوته مُلتقى الأدباء والشعراء وعلى دكّانه كان الشاعر «أبو الحُسين علي بن يوسف البَقّال» كثير التردد، ومعهُ جرت المحاورة بينَهُ وبين أبي الفرج الأصفهاني/ صاحب كتاب الأغاني/ حول بيت إبراهيم بن العبّاس الصولي القائل:

«رأى خلّتي من حيث يخفى مكانها ... فكانت قذى عينيه حتى تَجلّتِ

والمناظرة ذكرها ياقوت الحموي مفصّلة[4].

---

(1) نُودي عليه = أي عُرض للبيع في النداء، وهي الطريقة المشهورة وقتذاك.

(2) إبن الفوطي: الحوادث الجامعة في المئة السابعة/ ص 18 - 19.

(3) إبن خُلّكان/ وفيات الأعيان 1/ 188 - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - منشورات مكتبة النهضة المصرية 1948.

(4) راجع - معجم الأدباء 5/ 112 - 113، كما جئنا على ذكرها في أحد مفاصل «باب سوق الورّاقين» في هذه الموسوعة فلتراجع هناك.

إبن الخازن الورّاق:

هو أبو الفوارس إبن الخازن، المتوفى سنة 500هـ، ومن لقبهِ يُفهم على أنه ذو تماس بالكُتبِ والمكتبات، إشتهر بجودة الخط والتأنّق فيه، حتى قال عنه إبن كثير «الكاتب المشهور بالخط المنسوب» وينقل عنه «بأنه كتب بيده خمسمائة ختمة»(1).

والختمة هي الدُعاء بعد إكمال تلاوة القرآن كاملاً.

يحيى بن محمد الأرزني:

يبدو أنه كان من المهتمين بشؤون اللغة والنحو، وشغوف بتوريق قضايا اللغة العربية، يتحدّث عنه ياقوت الحموي يقول: «كان من عادة يحيى بن محمد الأرزني أن ينسخ فصيح ثعلب ويبيعَهُ بنصف دينار(2).

وكان من عادة الأرزني أن يخرج وقت العصر إلى سوق الورّاقين في بغداد، فلا يقوم من مجلسه، حتى يكتب «فصيح ثعلب» ويبيعهُ بنصف دينار، ويشتري نبيذاً ولحماً وفاكهة، ولا يبيت حتى ينفق ما معهُ(3).

---

(1) البداية والنهاية 12/ 170 - منشورات مكتبة السعادة - القاهرة 1351هـ والخط المنسرب هو اشهر الخطوط العربية. أبدعه إبن مقلة الخطاط المشهور، ثم تابعه الذين بعده، وهو التقنيات والأساليب الأولى لخط الثلث الحالي، وليس كما يتوهم د. محمد ماهر حمادة حين يقول: «الخطوط المنسوبة، أي التي يعرف خطّاطها فتنسب إليه - راجع كتابهُ «المكتبات في الإسلام» ص 162، وغيرها من المواضع/ منشورات مؤسسة الرسالة - ط6 - دمشق 1414هـ/ 1994م.

(2) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء 20/ 34. وتجدر الإشارة إلى أن «فصيح ثعلب» كان - كراسة صغيرة - لا يتعدّى حجمها «ملزمة» أو 16 صفحة، لكن الشُرّاح أضافوا لها الكثير من التعليقات والشرح، فأصبح كتاب بجزئين أو أكثر، راجع - شرح الفصيح للزمخشري بهذا الصدد، فإنه يُغالي في شرحه وتعميقه.

(3) ياقوت الحموي - المصدر السابق - نفس المكان.

الفصل السابع

وَرّاقو العُلماء والأُدباء والوُزَراء

إبن صالح الورّاق - ورّاق الجوهري:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن صالح الورّاق، تلميذ الجوهري. قال عنه ياقوت: عندما توفّى إسماعيل بن حمّاد الجوهري، وكان قد صنّف (كتاب الصحاح) وبقي منه بقية الكتاب مسوّدة غير منقّحة ولا مبيّضة، فبيّضه أبو إسحاق إبراهيم بن صالح، فغلط فيه في عدة مواضع غلطاً فاحشاً[1].

الساسي - ورّاق المبرّد:

هو إبراهيم بن محمد ويعرف بالساسي، قال عنه ابن النديم: كان من وراقي المبرد ولم يَزِد على ذلك بشيء[2].

ورّاقو الطبري - المؤرّخ المشهور/ علي بن عمران وإبراهيم بن محمد/ :

ذكرهم ياقوت الحموي في ترجمة - محمد بن جرير الطبري - في سياق حديثه عن إجازة الطبري لوراقيه، قال: وجدت على جزء من كتاب التفسير لابن جرير بخط الفرغاني ما ذكر فيه قطعة من تصانيف ابن جرير فنقلته على صورته لذلك وهو: «قد أجزت لك يا علي بن عمران وإبراهيم بن محمد ما سمعته من أبي جعفر الطبري رحمه الله من كتاب التفسير المسمى بجامع البيان عن تأويل آي القرآن الخ[3].

(1) معجم الأدباء 6/ 156 - 157، الترجمة رقم 22.
(2) الفهرست/ ص 89.
(3) معجم الأدباء 18/ 44 - الترجمة رقم (17).

أحمد بن أحمد بن أخي الشافعي الوراق، وراق الجهشياري:

ذكرت المصادر، أنه رجل من أهل الأدب[1] تفاخر بعض العلماء بخطه وهو يورّق لهم، قال ياقوت: ورأيت خطه، وليس بجيد المنظر، لكنه مُتقن الضبط، ولم أر أحداً ذكر شيئاً من خبره، لكني وجدت خطه في آخر كتاب، وقد قال فيه: كتبه أحمد بن أحمد المعروف بابن أخي الشافعي، وراق ابن عبدوس الجهشياري[2].

ابن أيّوب الوراق:

هو أحمد بن محمد بن أيوب، يكنّى بأبي جعفر الوراق[3]، اختصّ بالوراقة للوزير الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك.

أهملت المصادر تاريخ ولادته، وأشارت إلى تاريخ وفاته، حيث وافاه الأجل ببغداد في شهر ذي الحجة سنة 228هـ[4].

اشتغل في علوم الحديث وكتابة المغازي والسيّر، واختلفت الآراء فيه في كلا البابين - الحديث والسيّر - وربما كان ذلك حسدا وغيرة منه.

قال الخطيب البغدادي: ذكر أنه سمع معه إبراهيم بن سعد مغازي محمد بن إسحاق فأنكر ذلك يحيى ابن معين عليه، وأساء القول فيه، إلاّ أن الناس حملوا المغازي عنه، وحدّث عن أبي بكر بن عياش وكان أحمد بن حنبل جميل الرأي فيه[5] ومنه سمع ابنه عبد الله. روى عنه حنبل بن إسحاق وأبو بكر بن أبي خثيمة، ويعقوب بن شيبة، وأبو بكر بن أبي الدنيا، ومحمد بن يحيى المروزي وغيرهم[6].

قاد فريق المتحاملين عليه والطعن في صدق رواياته المحدّث يحيى بن معين وهو واحد من أئمة الحفاظ الكبار في بغداد[7] وله سطوة على كبار المحدثين من الحنابلة وغيرهم، وربما كان هناك عداء شخصي بينه وبين هذا الوراق، انعكست على سمعة

(1) معجم الأدباء 2/ 137 - الترجمة رقم (17)؛ وحبيب زيات/ ص 38.
(2) المصدر السابق - نفس المكان. وابن عبدوس هذا صاحب كتاب/ الوزراء والكُتّاب/ .
(3) تاريخ بغداد 4/ 393 - الترجمة رقم (2286).
(4) المصدر السابق 4/ 396.
(5) نفس المصدر 4/ 393 - 394.
(6) نفسه 4/ 394.
(7) أنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي 11/ 71 - 96 - الترجمة رقم (28).

الأخير، مع العلم أن الفريق الثاني الذي أنصف ابن أيوب الوراق بقيادة إبراهيم الحربي لا يقل شأناً عن الفريق الأول وسوف نتطرق إلى ذلك في سياق الترجمة.

ينقل الخطيب البغدادي، وبشكل محايد آراء الفريقين في إبن أيوب الوراق، على النحو التالي: عن بكر بن سهل حدّثنا عبد الخالق بن منصور قال: سألت يحيى بن معين عن صاحب المغازي فقال: ما سمعها الفضل بن يحيى من إبراهيم وهو غير ثقة. وقال: إن كان صاحب المغازي سمعها من إبراهيم فقد سمعتها أنا من ابن اسحاق[1] ومن هذه العبارة يتوضح الاختلاف بين ابن معين وابن أيوب الوراق لأن كليهما قد سمع الرواية (المغازي) ولكن الناس كانوا قد أخذوها ونسخوها عن ابن أيوب، وعن طريقه نشرت، وربما كان هذا السبب الرئيسي للبغضاء بين الرجلين، علماً أن سمعة يحيى بن معين أكبر بكثير من سمعة ابن أيوب الوراق بما لا يقاس، وهذا مجرد افتراض للسبب.

تصاعدت شحنة الطعن ضد ابن أيوب الوراق، من قبل هذا الفريق، فقد حدّث إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد قال: سئل يحيى بن معين وأنا أسمع عن أحمد بن محمد بن أيوب صاحب/مغازي/ إبراهيم بن سعد فقال: «كذّاب ما سمع هذه الكتب قط»[2].

وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة: قال جدي: ليس من أصحاب الحديث، ولا يعرفه أحد بالطلب، وإنما كان ورّاقاً، فذكر أنه نسخ كتاب المغازي الذي رواه إبراهيم بن سعد عن ابن إسحاق لبعض البرامكة، وأنه أمره أن يأتي إبراهيم بن سعد فيصححها فزعم أن إبراهيم بن سعد قرأها عليه وصححها، وقد ذكر أيضاً، أنه سمعها مع الفضل بن يحيى بن خالد من إبراهيم بن سعد، وأنه هو الذي كان يلي تصحيحها، فسئل عنه علي بن المديني وأحمد، فلم يعرفاه وقالا: لا يسأل عنه، فإن كان لا بأس به حمل عنه. وسئل عنه يحيى بن معين فطعن في صدقه، وذكر أن إبراهيم بن سعد لم يقرأ هذا الكتاب على الفضل بن يحيى، وأنه قد كان نسخ له فلم يسمعه ولم يقرأه إبراهيم بن سعد إلاّ على ولدِ نفسه، وكان يحيى يحكي هذا الكلام عن يعقوب بن إبراهيم بن سعد[3] وقال الخطيب: وسمعت إسحاق بن أبي اسرائيل يقول: أتيت أحمد بن أيوب وأنا أريد أن أسمعها منه - يعني المغازي - فقلت له: كيف أخذتها، سماعاً أو عرضاً، فقال لي: سمعتها، فاستحلفته، فحلف لي، فسمعتها منه، ثم رأيت أشياء أطلعت منه فيها على أشياء فيما أدعى، فتركتها، فلست أحدّث عنه شيئا[4].

(1) تاريخ بغداد 4/ 394.
(2) تاريخ بغداد 4/ 394.
(3) تاريخ بغداد 4/ 494.
(4) المصدر السابق 4/ 494 - 495.

يعلق الخطيب البغدادي على هذا الجدل الدائر حول رواية ابن أيوب الوراق للمغازي فيقول: أخبرني محمد بن محمد بن علي الوراق عن إبراهيم بن هاشم بن مشكان قال: قلت ليعقوب بن إبراهيم ابن سعد: كيف سمعت المغازي، قال: قرأها أبي علي وعلى أخي وقال: يا بنيّ ما قرأتها على أحد[1]، وبتقديرنا إن العبارة الأخيرة تحتمل التأويل والشكك، حيث أن مغزاها يريد التكذيب على الوراق ابن أيوب، وقد استدرك الخطيب البغدادي بعض هذا الشك فقال: قلت: يحتمل أن يكون إبراهيم قرأها لولديه قديماً وقال هذا القول، ثم قرأها آخراً فسمعها منه ابن أيوب[2].

ويضيف على ذلك خبراً مفاده أن أحمد بن زهير قال: سمعت يحيى بن معين - وسئل عن صاحب مغازي إبراهيم، ابن سعد - يعني أحمد بن أيوب، فقال: قال لنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، كان أبي كتب نسخة ليحيى البرمكي فلم يقدر يسمعها[3] وهنا يكون الخطيب قد أظهر لنا حالة من التناقض بين روايتين، لكنه لم يحكم عليهما، نتيجة موضوعيته المشهور بها، ومن يدقق النظر في ذلك يشم رائحة العداء والتحامل على هذا الوراق. ثم أن الخطيب يستدرك أمراً على الروايتين فيقول: قلت غير ممتنع أن يكن ابن أيوب صحح النسخة وسمع فيها من إبراهيم بن سعد ولم يقدر ليحيى البرمكي سماعها والله أعلم[4] وهنا وضوح الأمر.

أما الفريق الثاني والذي أنصف ابن أيوب الوراق فكان على رأسه المحدّث الكبير إبراهيم الحربي، فقد ذكر الخطيب البغدادي إن أبا أيوب سليمان بن إسحاق الجلاّب قال: سئل إبراهيم الحربي عن أحمد بن أيوب فقال: كان وراق الفضل بن الربيع، ثقة، لو قيل له أكذب ما أحسن أن يكذب[5] وروى العتيقي عن عبد الله بن أحمد قال: سمعت أبي - وسئل عن كامل بن طلحة وأحمد بن محمد بن أيوب، فقال: ما أعلم أحداً يدفعهما بحجة[6].

إسحاق ابن الجنيد البزاز البصري الوراق اللغوي:

هكذا جاء اسمه عند القفطي[7] وقال عنه السيوطي: كان وراقاً لابن دريد وعده

(1) نفس المصدر 4/ 495.
(2) نفسه.
(3) نفس الموضع.
(4) ذات المعطى.
(5) تاريخ بغداد 4/ 395.
(6) المصدر السابق - نفس المكان.
(7) أنباه الرواة 1/ 220 - الترجمة رقم (139).

الزبيدي في الطبقة السابعة من علماء البصرة في النحو، وأدرجه ضمن قائمة أصحاب بن دريد وقال عنه: وراقه[1].

ولم تزد تلك المصادر على ذلك بشيء.

ابن الزجاجى - وراق المبرد:

هو إسماعيل بن أحمد، لم يتطرق ابن النديم إلى تفاصيل حياته، بل ذكر فقط أنه من وراقي المبرد[2].

ابن أبي ثابت الكوفي - وراق أبي عبيد:

ورد إسمان بهذا الاسم، الأول اسمه: ثابت بن أبي ثابت وإسم أبي ثابت سعيد، قال إبن النديم: ومن خط السكري، اسم أبي ثابت محمد[3] وأضاف إبن النديم: لغوي، لقي فصحاء الأعراب وأخذ عنهم. وهو من كبار الكوفيين توفي وله من الكتب

1 - كتاب خلق الإنسان.

2 - كتاب الفروق.

3 - كتاب الزجر والدعاء.

4 - كتاب خلق الفرس.

5 - كتاب أبو نواس.

6 - كتاب مختصر العربية[4].

ونقل ياقوت الحموي هذه الترجمة كاملة مع إضافة على اسم أبيه - ابن علي بن عبد الله الكوفي - قال الزبيدي: من أمثل أصحاب أبي عبيد القاسم بن سلام[5].

وكذلك نقل السيوطي هذه الترجمة عن ياقوت.

الأسم الثاني هو: ثابت بن أبي ثابت، عبد العزيز اللغوي - ذكر ياقوت الحموي

(1) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي/ ص 202.

(2) الفهرست/ ص 89.

(3) الفهرست/ ص 104.

(4) المصدر السابق - نفس المكان.

(5) معجم الأدباء 7/ 140 - 141 - الترجمة رقم (30).

جملة في بدء الترجمة تفيد بأنه الأسم الأول، حيث قال: «الذي له خلق الانسان»[1] من علماء اللغة. يروي عن أبي عبيد القاسم بن سلام وأبي الحسن علي بن المغيرة الأثرم، واللحياني وأبي نصر أحمد بن حاتم، وسلمة بن عاصم التميمي، وأبي عبد الله محمد بن زياد وآخرين، روى عنه أبو الفوارس داود بن محمد بن صالح المروزي النحوي المعروف بصاحب ابن السكيت، وابنه عبد العزيز بن ثابت، واسم أبي ثابت أبيه، عبد العزيز، وأضاف: من أهل العراق، جليل القدر، موثوق به، مقبول القول في اللغة، يعرف بوراق أبي عبيد[2] وكذلك نقل السيوطي هذه الترجمة كاملة تقريباً[3].

ورّاقو الكندي - الفيلسوف:

هم جملة من الوراقين والتلاميذ ذكرهم ابن النديم على النحو التالي: حسنوية ونفطوية وسلموية وآخر على هذا الوزن، ومن تلامذته أحمد بن الطيب[4].

وقد ترجمنا لهم سوية نظراً لعدم توفر المعلومات الكافية عن كل واحد منهم إضافة إلى كونهم إختصوا بالكندي.

حِوار الورّاق - المكنى بأبي عبد الله وراق أبي داود الأصبهاني:

ذكره الخطيب البغدادي، في ترجمة داود بن علي بن خلف - الفقيه الظاهري[5] في سياق نادرة قال: حدثني الأزهري، حدثنا محمد بن حميد اللخمي، حدثنا القاضي ابن كامل - إملاءً - قال: حدثني أبو عبد الله الوراق المعروف بحوار قال: كنت أورق على داود الأصبهاني، وكنت عنده يوماً في دهليزه مع جماعة من الغرباء، فسئل عن القرآن فقال: القرآن الذي قال الله تعالى: «لا يمسه إلا المطهرون» وقال: «في كتاب مكنون» غير مخلوق، وأما الذي بين أظهرنا، يمسه الحائض والجنب فهو مخلوق، قال القاضي: هذا مذهب يذهب إليه الناشىء المتكلم[6].

(1) بغية الوعاة/ ص 210.
(2) معجم الأدباء 7/ 141 - 142.
(3) بغية الوعاة/ ص 210.
(4) الفهرست/ ص 365.
(5) تاريخ بغداد 8/ 369 - الترجمة رقم (4473).
(6) المصدر السابق 8/ 374.

رفيع - ورّاق المبرّد:

رفيع بن سلمه بن مسلم بن رفيع العبدي، كنيته أبو غسان ويعرف بـ «دماد»[1]. كان من أصحاب المبرد وتلاميذه، وكان يورق له كتبه وروى عنه وأخذ منه الأنساب والأخبار والمآثر[2].

زكريا بن يحيى - ورّاق الجاحظ:

لصق اسمه باسم شيخه الجاحظ وغطت شهرة الشيخ عليه ولم يترجم له وتناسته المصادر التي ترجمت للجاحظ سوى أن ياقوتاً الحموي عرّج عليه في سياق ذكر مؤلفات الجاحظ وقال على لسان ابن النديم: ورأيت أنا هذين الكتابين/يقصد - كتاب النساء وكتاب النعل/ بخط زكريا بن يحيى وراق الجاحظ والمكنى أبا يحيى[3].

وهناك خبر آخر أورده القالي في الأمالي قال فيه ما يلي: وقرأت على أبي بكر بن دريد لليلى الأخيلية، وقال لي: كان الأصمعي يرويها لحميد بن ثور الهلالي، قال أبو علي: فكذا وجدته بخط ابن زكريا - وراق الجاحظ في شعر حميد[4]:

يا أيها السّدم الملوى رأسه ... ليقود من أهل الحجاز بريما

وهذا الخبر، عرج عليه عبد السلام هارون في مقدمته لكتاب الحيوان للجاحظ[5] ولم نعثر على مصادر أو أخبار أخرى ذكرت هذا الوراق.

ورّاقو الفرّاء - سلمة وأبو نصر:

ذكرهما الخطيب البغدادي في معرض حديثه عن دخول الفراء على المأمون وساق الخبر على النحو التالي: وصير له - يقصد المأمون - الوراقين، وألزمه الأمناء والمنفقين، فكان يملي الفرّاء والوراقون يكتبون حتى صنف الحدود في سنين وأمر المأمون بكتبه في

(1) ابن النديم - الفهرست/ص 81 - الطبعة المصرية.
(2) المصدر السابق.
(3) معجم الأدباء 16/ 106 ترجمة الجاحظ، الطبعة المصرية.
(4) أمالي القالي 1/ 248 طبعة دار الكتب المصرية الثانية - القاهرة 1344هـ/ 1926م وانظر بقية القصيدة هناك.
(5) الحيوان 1/ 12 - 13 من المقدمة، طبعة البابي الحلبي - ط2.

الخزائن وبعد أن فرغ من ذلك خرج إلى الناس وابتدأ يملي كتاب المعاني وكان ورّاقوه سلمة وأبو نصر[1]. ولم يذكر عنهما شيئاً آخر قط.

عبد الوهاب بن عيسى - وراق الجاحظ:

هذا الوراق أشهر من صاحبه/ زكريا بن يحيى/ والذي زامله في الوراقة للجاحظ فقد أفرد له الخطيب البغدادي ترجمة قصيرة[2] وذكره الزبيدي في تاج العروس[3] كما ذكره محقق الحيوان[4]. عرّفه الخطيب بقوله: **عبد الوهاب بن عيسى بن عبد الوهاب بن أبي حيه، أبو القاسم وراق الجاحظ**[5]، وعده في طبقة المحدثين فسمع إسحاق بن اسرائيل ومحمد بن معاويه بن مالح ويعقوب بن إبراهيم الدورقي ومحمد بن شجاع الثلجي ويعقوب بن شيبة السدوسي، روى عنه أبو عمر بن حيوية، والدرقطني، وابن شاهين وابو حفص الكتابي، وكان صدوقاً في روايته، ويذهب إلى الوقف في القرآن، وعُدَّ من الثقاة[6].

لم يذكر أي من المصادر تاريخ ولادته بل ذكر تاريخ وفاته حيث قالوا: أنه مات في شعبان سنة تسع عشر وثلاثمائة[7].

الدريدي - وراق ابن دريد[*]:

هو علي بن أحمد الدريدي يكنى أبا الحسن والدريدي، لقبه ألحقَ به بعد طول مصاحبه لأبي بكر بن دريد حيث كان وراقاً له وأكثر من صحبته حتى عرف به كما يقول القفطي[8].

أصله من فارس عُدَّ من الطبقة السابعة من علماء البصرة في اللغة والنحو[9]. وإليه

---

(1) تاريخ بغداد 14/ 150 ترجمة الفراء رقم (7467).

(2) انظرها في تاريخ بغداد 11/ 28 - 29 - الترجمة رقم (5695).

(3) انظر - التاج - مادة (حُيي) فصل الحاء من باب الواو والياء.

(4) عبد السلام هارون - الحيوان 1/ 13 - المقدمة.

(5) تاريخ بغداد 11/ 28.

(6) المصدر السابق 11/ 29.

(7) المصدر السابق، نفس المكان.

(*) معجم الأدباء 12/ 223؛ والقفطي، أنباه الرواة على أنباء النحاة 2/ 222؛ والسيوطي، بغية الوعاة/ ص 228؛ وطبقات الزبيدى/ ص 202.

(8) أنباه الرواة 2/ 222 طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة 1371هـ/ 1952م.

(9) أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي/ طبقات النحويين واللغويين/ ص 202 نشرة أبو الفضل إبراهيم - ط1 القاهرة 1373هـ/ 1954م؛ والسيوطي/ بغية الوعاة/ ص 228 طبعة القاهرة الأولى سنة 1326هـ.

صارت كتب ابن دريد بعد وفاته بناء على وصية منه[1].

لم تذكر المصادر التي ترجمت له تاريخ ولادته أو تاريخ وفاته كما أنها أحجمت عن ذكر نشاطاته العلمية ومؤلفاته فيها، فشخص كهذا تتلمذ على يد ابن دريد وعد من طبقة اسحق بن الجنيد وأبي سعيد السيرافي وأبي علي القالي البغدادي[2]. إضافة إلى كونه ورّاقاً.

فمن المحتمل جداً. أن تكون له مصنفات في اللغة والنحو وأن تكون له مجالس إملاء، قد أملاها على طلاب اللغة والنحو، فليس اعتباطاً أن يوصي ابن دريد بعائدية كتبه له، لولا تلمّس فيه شيئاً من النباهة والمعرفة، ولكن المضان التي أطلعنا عليها لم تروي ضماً ما نريد.

ابن الليّث الوراق:

هو علي بن أحمد بن اللّيث، ورّاق بن مخلّد[3]، ذكر ابن الثلاّج أنه حدّثه عن إبراهيم بن الهيثم البلدي[4].

ولم يزد الخطيب في ترجمته.

أبو ذكوان - وراق المبرّد:

هو القاسم بن إسماعيل، كنيته أبو ذكوان من وراقي المبرّد المعدودين[5] كان من أبرز تلاميذ المبرد، فقد نقل ابن النديم عن أبي سعيد أن جماعة نظرت في كتاب سيبويه في عصره ولم يكن لهم كتب «هتّه» يعني المبرد - مثل أبي ذكوان فقد كان علامة عصره نحوياً اخبارياً ألف الكتب والنادرة منها:

1 - كتاب معاني الشعر وغيرها[6].

أبو نصر الوراق:

هو القاسم بن عبد الوارث، كنيته أبو نصر الوراق[7] لزم الوراقة طوال حياته واختص

(1) أنباه الرواة 2/ 222 - الترجمة رقم (428)؛ ومعجم الأدباء 12/ 223.
(2) طبقات الزبيدي/ ص 202.
(3 - 4) تاريخ بغداد 11/ 321 - الترجمة رقم (6131).
(5 - 6) الفهرست/ ص 89.
(7) تاريخ بغداد 12/ 439 - الترجمة رقم (6904).

بالتوريق لأحمد الدورقي[1] وفي علوم الحديث أكثر من غيرها في بقية العلوم.

عرفته بغداد محدثاً ووراقاً، وبها عاش وتوفي سنة 294هـ، حدّث بها عن أبي الربيع الزهراني وعمر بن علي الباهلي، روى عنه محمد بن مخلد والطبراني[2].

ورد اسمه في سند الحديث المروى عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة العشاء في جماعة تعدل بقيام ليلة، وصلاة الفجر في جماعة تعدل بقيام ليلة»[3].

محمد بن أبي حاتم - وراق البخاري:

ذكره الخطيب البغدادي في ترجمة محمد بن إسماعيل البخاري[4] ونقل عنه الخبر التالي: أخبرنا **محمد بن أبي حاتم وراّق البخاري** قال: سمعت البخاري يقول: لو نشر بعض إسنادي هؤلاء لم يفهموا كيف صنّفت كتاب التاريخ ولا عرفوه[5].

الأحول الورّاق[*] - ورّاق حنين ابن إسحاق:

هو أبو العباس محمد بن الحسن بن دينار الأحول، اهتمت مصادر ترجمته بعلمه وفنّه، وأهملت تاريخ ميلاده ووفاته.

توسّع ياقوت بعض الشيء في ترجمته، وقال عنه: كان غزير العلم، واسع الفهم، جيّد الدراية، حسن الرواية، روى عنه أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي، وقرأ عليه ديوان عمر بن الاهتم في سنة خمسين ومائتين[6]، وبهذه الاشارة يكون الأحول الورّاق ممّن يحق لهم إعطاء «الإجازة» للورّاقين[7].

غلبت صفة الأحول عليه، وبها عرف كناية له، وامتاز بنزعة «أرشيفية» فقد تصدّى لمتابعة 120 شاعراً وجمع الكثير من شعرهم، وقال عنه نفطويه. النحوي المعروف، جمع **أبو العباس الأحول أشعار مائة وعشرين شاعراً، وعملت أنا خمسين شاعراً**[8].

وهذا النزوح يرجّح الميل لديه نحو الأدب، رغم ما تصفه به المصادر من أنه كان

(1 - 3) تاريخ بغداد 12/ 439 - الترجمة رقم (6904).

(4) تاريخ بغداد 2/ 4 - الترجمة رقم (424).

(5) المصدر السابق 2/ 7 وراجع حبيب زيات/ ص 38.

(*) الفهرست/ ص 117؛ معجم الأدباء 18/ 125؛ أنباه الرواة 3/ 91؛ بغية الوعاة ص 33.

(6) معجم الأدباء 18/ 125.

(7) راجع باب/ منهج الوراقة/ في الجزء الثاني من موسوعتنا هذه.

(8) معجم الأدباء 18/ 125؛ وبغية الوعاة/ ص 33.

عالماً بالعربية وعدّ من أئمتها[1]، وعدّه الزبيدي في طبقة المبرّد وثعلب[2].

اتخذ من الوراقة مهنة له، واختص بالتوريق لحنين بن إسحاق في منقولاته لعلوم الأوائل[3]، وكان عاثر الحظ ومحدوداً بين الناس، ولكن نباهته جعلته واحداً من أعلام اللغة والأدب، فقد استفاد من مهنة الوراقة، وراح يجمع العلوم بدفاتر خاصة به، ثم كان ينفرد مع ذاته ويؤلف ما يراه أفيد للناس، وقد ذكرت المصادر[4] بأنه ألّف المصنفات التالية:

1 - كتاب الدواهي.

2 - كتاب السلاح.

3 - كتاب ما إتّفق لفظه واختلف معناه.

4 - كتاب فعل وأفعل.

5 - كتاب الأشياء.

6 - جمع لديوان ذي الرمّة.

7 - جمع لشعر 120 شاعراً من شعراء العرب.

تفاكه مع العلماء والأدباء في مجالسهم، وتطارح معهم النادرة والمعرفة، قال علي بن سليمان الأخفش: حدّثني محمد بن الحسن الأحول قال: اجتمعنا مع أبي العباس ثعلب في بيته، وحضر ابن بوكران، وهو رجل من أهل الأدب، فقال بعض أصحابنا: عرّفوني ألقابكم!.

فقال ثعلب: أنا ثعلب. وقال الآخر: أنا كذا، والآخر: أنا كذا، فلما بلغوا إليّ قالوا: وأنت ما لقبك؟ فقلت: منعت العاهة من اللّقب[5].

وفي علوم اللغة العربية، حدثت له هذه المحاورة: حدّث المرزباني عن نفطويه قال: كان أبو العباس الأحول يقول: «لم يَزَلوا» كذا ردّ علي فقلت له «لم يزالوا» أراد أنه كان لحّاناً[6].

(1) بغية الوعاة/ ص 33؛ وأنباه الرواة 3/ 91؛ والفهرست/ ص 117.

(2) معجم الأدباء 18/ 125؛ وبغية الوعاة/ ص 33.

(3) معجم الأدباء 18/ 125؛ وأنباه الرواة 3/ 91.

(4) الفهرست/ ص 117؛ معجم الأدباء 18/ 126؛ أنباه الرواة 3/ 92؛ بغية الوعاة/ ص 33.

(5) معجم الأدباء 18/ 126.

(6) المصدر السابق نفسه.

بخست أثمان وراقته، وهي إحدى المعاناة التي كان يشكو منها الوراقون، فلقد ذكر أبو عبد الله اليزيدي أن الأحول كان يكتب له مائة ورقة بعشرين درهماً[1].

الدلال السمرقندي:

هو إسماعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعث أبو القاسم السمرقندي، ولد بدمشق سنة 454هـ وتوفي سنة 536هـ[2] ورغم ولادته ونشأته في دمشق إلا أنه شد الرحال إلى بغداد وأنس بأهلها واشتغل في سوق الوراقين دلالا للكتب[3] وعلى ما يبدو أن الرجل كان من علماء الحديث فقد سبق له أن سمع الحديث عن شيوخ دمشق ثم شيوخ بغداد واستقر به المقام هناك حتى دفن بها بعد موته يقول عنه ابن الجوزي: «كان دلالاً في بيع الكتب فدار على يده حديث بغداد بأشياخها فأدخر الأصول وسمع منه الشيوخ والحفّاظ وكان له يقظة ومعرفة بالحديث وأملي بجامع المنصور زياده على ثلثمائة مجلس» ويضيف ابن الجوزي: وسمعت منه الكثير بقراءة شيخنا أبي الفضل بن ناصر وأبي العلاء الهمذاني وغيرهم[4]، وعندما وافته المنيه ببغداد ليلة الثلاثاء سادس عشر من ذي القعدة دفنه أهلها في مقابر الشهداء[5].

خَيران الورّاق:

لم تتحدث المصادر التي تناولت الأدباء والشعراء، والعلماء والفقهاء إليه، وهو كغيره من عامة الوراقين، الذين ينتمون - طبقياً - إلى القاع الإجتماعي، فلم يتوقف عنده أحد، وجاء ذكره في سياق حادثة بيع مكتبة «ثعلب» ولولا ذلك ما ذُكر، فقد ذكر ياقوت الحموي أن أحمد بن يحيى أبو العباس (ثعلب) أوصى إلى علي بن محمد الكوفي، أحد أعيان تلاميذه، وتقدم إليه في دفع كتبه إلى أبي بكر أحمد بن إسحاق القطرُبليّ، فقال الزجاج للقاسم بن عبيد الله (الوزير) هذه كتب جليلة، فلا تفوتنَّكَ، فأحضر خيران الوراق، فقوّم ما كان يُساوى عشرة دنانير ثلاثةً، فبلغت أقل من ثلاثمائة دينار، فأخذها القاسمُ بها[6] وبتقديرنا، أن هناك حالة تواطىء بين الوزير والوراق على هذه العملية.

(1) معجم الأدباء 18/ 126.
(2) ابن الجوزي/ المنتظم 10/ 98.
(3) المصدر السابق - وكوركيس عواد/ خزائن الكتب القديمة في العراق/ ص 24.
(4) المنتظم 10/ 98.
(5) المصدر السابق.
(6) معجم الأدباء 5/ 127. وانظر حبيب زيات/ الوراقة والوراقون/ ص 36 وقد نقل نفس الخبر.

ابن قتيبة الوراق:

هو منصور بن محمد بن قتيبة بن معمر، كنيته أبو نصر[1] تفقّه بعلوم الحديث واختص بوراقته ولازم الفقيه أبا ثور، حتى عرف بأنه ورّاقه[2].

لم يذكر الخطيب البغدادي تاريخ ولادته ووفاته.

حدّث ببغداد عن أحمد بن حنبل، وداود بن رشيد، روى عنه عبد الله بن عدي الجرجاني وغيره[3] وقد سمع منه شيوخ الحديث في بغداد وجرجان[4].

ورّاق الواقدي:

لم تذكر المصادر إسمه، بل أشارت إلى أن الواقدي كان يدفع أجور نُسّاخ لديه من مالِهِ الخاص[5] لذلك أوردنا ذلك، باعتبار أن هناك «شخص ورّاق» مجهول الإسم، يقوم بعملية النسخ للواقدي.

(1) تاريخ بغداد 13/ 83 - الترجمة رقم (7057).
(2) المصدر السابق.
(3) نفس المصدر.
(4) نفسه.
(5) د. حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص 175.

الفصل الثـامن

الورّاقون الدلاّلون

أبو المعالي الحظيري الدلال:

هو أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم بن علي بن القاسم الأنصاري الخزرجي الوراق الحظيري المعروف بدلاّل الكتب[1].

ينسب إلى موضع فوق بغداد يقال له «الحظيرة»[2] ولكنه سكن بغداد، وعرف بها بـ «دلاّل الكتب» حتى أن الوهراني يذكره بأول «منامة» له، وهو يدخل بغداد[3] نتيجة سمعته المعروفة في دلالة الكتب.

توفي ببغداد يوم الاثنين 15/ صفر/ سنة 568هـ ودفن بمقبرة باب حرب[4].

عشق مهنة الوراقة من خلال عشقه للأدب والأدباء، فقد ذكرت المصادر أنه كان أديباً فاضلاً، شاعراً رقيق الشعر، إضافة إلى سعة معارفه الأدبية الأخرى، ألّف مجاميع، ما قصّر فيها - كما يقول ابن خلكان منها[5]:

1 - كتاب زينة الدهر، وعصرة أهل العصر في ذكر لطائف شعراء العصر، ذيّله على «دمية القصر» للباخرزي، الذي جعله ذيلاً على «يتيمة الدهر» للثعالبي.

2 - كتاب لمح الملح.

3 - ديوان شعر.

---

(1) ابن خلكان - وفيات الأعيان 2/ 362 - الترجمة رقم (259) - طبعة إحسان عباس؛ ومعجم الأدباء 11/ 194 - الترجمة رقم (59)؛ وحبيب زيّات/ الوراقة والوراقون في الاسلام/ ص 36.

(2) عبد القادر بن عمر البغدادي - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب 3/ 118 - طبعة بولاق 1299هـ.

(3) منامات الوهراني - المنامة الاولى/ ص 1 - طبعة القاهرة 1387هـ/ 1968م.

(4) وفيات الأعيان 2/ 368؛ ومعجم الأدباء 11/ 196؛ وخزانة الأدب 3/ 118؛ وزيّات/ ص 36.

(5) وفيّات الأعيان 2/ 366؛ ومعجم الأدباء 11/ 195.

وفي «زينة الدهر» جمع فيه طائفة كبيرة من أهل عصره ومن تقدمهم، وأورد لكل واحد طرفاً من أحواله وشيئاً من شعره، وقد ذكره العماد الأصبهاني الكاتب في «الخريدة» وأنشد له عدة مقاطع، وكان مطّلعاً على أشعار الناس وأحوالهم[1]:

كل المصادر التي ترجمت له، ذكرت له مقاطع شعرية جميلة، منها[2]:

اشرب على طرب من كفّ ذي طرب ... قد قام في طرب يسعى إلى طرب
من خندريس كعين الدّيك صافية ... مما تخيّرها كسرى من العنب
فالراح من ذهب والكأس من ذهب ... يا من رأى ذهباً يسقى على ذهب

وقال:

ومعذر في خدّه ... ورد وفي فمه مدام
مالان لي حتى تغشـ ... ـى صبح طلعته ظلام[3]
كالمهر يجمح تحت را ... كبه ويعطفه اللجّام

وقال أيضاً:

وددت من الشوق المبرّح أنني ... أعار جناحي طائر فأطير
فما لنعيم لست فيه لذاذة ... ولا لسرور لست فيه سرور[4]

وقال أيضاً:

قل لمن عاب شامة لحبيبي ... دون فيه دع الملامة فيه
إنما الشامة التي قلت عنها ... فصّ فيروزج بخاتم فيه[5]

وأورد له البغدادي هذه الأبيات[6]:

أحدقت ظلمة العِذار بخدّيـ ... ـه فزادت في حبّه حسراتي

---

(1) وفيات الأعيان 2/ 366 وراجع «فريدة القصر» قسم شعراء العراق - في أكثر من جزء بعناية الأثري.
(2) معجم الأدباء 11/ 196.
(3) جاءت عند ابن خلكان والبغدادي «صبح سالفه ظلام» وما أثبتناه من ياقوت - معجم الأدباء 11/ 196.
(4) معجم الأدباء 11/ 197.
(5) المصدر السابق نفسه.
(6) خزانة الأدب 3/ 118.

قلت ماء الحياة في فمه العذ ... ب، دعوني أخوض في الظلمات

فيما أورد له ابن خلّكان هذه الطائفة[1]:

لئن قيل أبدع في شبهة ... ولم يكن معناه لفظاً سليما
فمن عنب الكرم يجنى السلاف ... وإن لم يكن غصنها مستقيما

وله ايضاً:

لما حنى الشيب ظهري صحت واحربا ... دنا أوان فراق الروح والجسد
أما ترى القوس أحنى ظهرها فدنى ... ترحل السهم عنها وهي في الكبد

واختار ابن خلكان من شعره الوارد في كتابه «زينة الدهر» هذه الأبيات[2]:

هذا كتاب قد غدا روضة ... ونزهة للقلب والعين
جعلت من شعري له عوذة ... خوفا واشفاقا من العين

وله أيضاً:

مدّ على ماء الشباب الذي ... في خدّه جسر من الشَّعر
صار طريقا لي إلى سلوتي ... وكنت فيه موثق الاسر

وله من الشعر الرقيق:

شكوت هوى من شغف قلبي بعده ... توقّد نار ليس يطفى سعيرها
فقال بعادي عنك أكثر راحة ... ولولا بعاد الشمس أحرق نورها

وله أيضاً في الغزل:

ومهفهف شبهته شمس الضحى ... في حسن بهجتها وبعدُ مكانها
قد زادهُ نقش العذارى محبّة ... نقش الفصوص يزيد في أثمانها

فقال:

ومستحسن أصبحت أهذي بذكره ... وأمسيت في شغل من الوصل شاغل
وعارضني من سحر عينيه جنة ... نقيّدني من صدغه بسلاسل

---

(1) وفيات الأعيان 2/ 366.

(2) المصدر السابق 2/ 368.

إبن المناديلي الورّاق:

هو عبد الرحمن بن موسى بن عمر الناسخ المناديلي[1]، كان دلاّلاً للكتب، ووراّقاً نسخ الكثير من الكتب الشعرية، وكان خطّهُ حسناً.

قطعت يده بسبب أحمد العباري[2]، وندم الأفرم على قطع يده لأنه قال له: ياخوند قطعت يدي على درهمين، فإن هذا أعطاني درهمين وقال: أكتب هذا الكتاب فكتبته، فماذا؟ فرقّ له ووهبة جملة دراهم، ثم صار يكتب بشماله وأسن، وكان يقول: ما وقع في أذنيّ ألذُ من قول الأثرم: أقتلوا هذا، واقطعوا هذا، يعني أن القطع أخفّ من القتل[3].

مات إبن المناديلي في جمادي الآخرة سنة 715 هـ[4].

(1) إبن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة 2/ 349 - الترجمة رقم 2369.

(2) لم تتوضّح الكلمة فقد جاءت الأسطر بلا نقط هكذا (أحمد الصاري) * أنظر المصدر أعلاه، الهامش 1.

(3) الدرر الكامنة 2/ 349.

(4) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 8/ 146 - 147.

الفصل التاسع

الوَرّاقون القضاة

الحسن بن عبدالله المرزباني القاضي:

كان واحداً من الذين إستهوتهم مهنة الوراقة، ومارس التوريق فيها، رغم إشتغاله في القضاء، إلاّ أنّه كان يمارس مهنة القضاء دون إجرة، لذلك عمد الى التوريق كي يكون مستقيماً في أحكام القضاء، فقد عرف عنه أنّه كان ينسخ عشر ورقات بعشر دراهم، ثم يذهب الى مجلس القضاء[1].

القاضي ابن حرب الورّاق:

هو عليّ بن الحسين بن حرب، ويقال له حربويه، ابن عيسى البغدادي[2] كان من فقهاء الشافعية، من أهل المائة الرابعة، يكنّى أبا عبيد ويقال له ابن حربويه وهو بها أشهر.

ولد سنة 212هـ وتوفيّ في بغداد سنة 319هـ وسمع الكثير من ابن أبي الأشعث العجلي، وأحمد بن المقدام البصري العجلي وحفص بن عمر الربالي، والحسن بن محمد الزعفراني والحسن بن عرفة، وزهير بن أحزم الطائي، وابن المسكين زكريا بن يحيى، ويوسف بن موسى القطان وحسين بن أبي يزيد الدبّاغ[3].

تفقّه على داود بن علي، ثم تفقّه على مذهب أبي ثور صاحب الشافعي، وقرأ الكلام على أبي محمد العباسي[4].

حكى ابن زولاق عن ابن الحداد، قال: قلت لأبي عبيد، هل سمعت من يعقوب بن إبراهيم الدورقي، قال: لا، منعني أبي من سماع الحديث قبل أن أستظهر القرآن حفظاً، فلما حفظته قال لي خذ المحفظة واذهب إلى يعقوب بن إبراهيم الدورقي فاكتب عنه، فتوجهت، فإذا الناس يقولون «مات يعقوب الدورقي»، وسمع من الزعفراني «كتاب الحجة» للشافعي، وحدّث به عنه[5].

(1 - 5) الكندي/ كتاب الولاة وكتاب القضاة/ ص 523 وص 531.

سئل عنه الدارقطني فقال: كان فاضلاً جليلاً، حدّث عنه أبو عبد الرحمن النسائي، ومات قبله[1].

وذكر ابن زولاق: أن له تصنيفاً في إثبات القياس والرد على منكريه، وكتاب الكنى، وقال: إن النسائي سمع منه سنة 300هـ بعد أن قدم أبو عبيد مصر[2].

عرف عنه أنه كان فقيهاً عالماً بالاختلافات، فصيحاً عاقلاً، عفيفاً، منقبضاً، قوّالاً بالحق، وكان من أهل الستر، وأبوه كان من شهود إسماعيل القاضي[3].

قال أبو سعيد بن يونس: قدم بن حربويه مصر قاضياً بعد صرف ابن عبيد محمد بن عبده في يوم الاثنين لليلتين من شعبان، ويقال لليلتين بقيتا من صفر سنة 293هـ[4].

* مسيرته إلى مصر من بغداد:

قال بعض شيوخ الرملة: قدم علينا أبو عبيد متوجهاً إلى قضاء مصر، فصادف ابن الخليج، وكان جماعة من أهل العلم ينقطعون إليه فكلموه في أن يسلّم على أحمد بن محمد بن بسطام - عامل الشام - وكان عظيم الرياسة يقوم عن يمينه وعن شماله نحو مائة حاجب، فقال أبو عبيد: مالي عنده حاجة، فقالوا له: إن محمد بن العباس الجمحي - قاضي الرملة - يركب إليه في كل يوم، فلم يزالوا به حتى ركبَ إليه متخففاً، دخل إليه في هيئة بذة، ولم يكن وجهه حسناً، بل كان كثير الجدري، فرأى الجمحي جالساً على يمين ابن بسطام في هيئة حسنة، فسلّم أبو عبيد وجلس عن يساره، وابن بسطام يكتب في رقعة، فلم يزد ابن بسطام أبا عبيد على قوله «وعليكم السلام» بل استمر في كتابته، فجلس أبو عبيد جلسة خفيفة، ثم نهض، فقال ابن بسطام للجمحي: من هذا؟ قال: هذا قاضي مصر، فقال ابن بسطام: والله ما يدري هذا ايش تولّى، ولا يدري من ولاّه ايش ولاّه، فبلغ ذلك أبا عبيد، فعاد في يوم آخر إلى مجلس ابن بسطام، فلما دخل وجد ابن بسطام يكتب فسلم وجلس أيضاً، فأخذ أبو عبيد في الكلام، فسمع ابن بسطام ما أدهشه فأغلق الدواة واستدار إليه، وبادر الغلمان بمخدّة فوضعوها خلفه، وصار الجمحي خلف ابن بسطام، واستمر أبو عبيد في الخوض في كثير من العلوم والفنون، حتى قال له ابن بسطام: أيّد الله القاضي أقلّ استحقاق القاضي أن يكون قاضي الدنيا كلها، ولقد ظلمه من ولّى معه غيره، فلما عزم

(1) نفس المصدر/ ص 524.
(2) نفس المصدر والموضع.
(3) كتاب الولاة والقضاة/ص 524.
(4) كتاب الولاة والقضاة/ ص 524.

القاضي على القيام، قام ابن بسطام فأخذ بيده ومشى معه حتى ركب، واستمر قائماً حتى غاب القاضي[1].

قيل لأبي عبيد وقد رأوا تقشفه وزهادته: لم دخلت في القضاء؟ فقال: تقرّبوا إليّ بإقامة الحق، ورأيت من لا يصلح يطلبه فدخلت فيه[2].

قال أبو بكر بن الحدّاد: دخل القاضي أبو عبيد مصر، فما أعجبني منظره، فبينما نحن عند أبي القاسم بشر بن نصر الفقيه، غلام عرق، إذ دخل منصور بن إسماعيل الفقيه فقال: كنت عند القاضي فقلت له: كيف رأيت، قال: يا أبا بكر رأيت رجلاً عالماً بالقرآن والحديث والفقه والاختلاف ووجوه المناظرة، عالماً باللغة العربية، عالماً ورعاً متمكناً، متكلماً، قال: فقلت له: هذا يحيى بن أكثم. قال: قلت الذي عندي فيه، قال ابن الحداد: ثم دخلت على أبي عبيد بعد ذلك وخالطته، فإذا منصور قد قصّر في صفته[3].

وقال ابن الحداد: كنت في مجلس أبي عبيد القاضي بمصر، إذ أقبل خادم حسن الصورة، جميل الهيئة، طيّب الرائحة، مسرعاً فوقف على رأسه، وطرح في حجره رقعة ثم أنشأ يقول:

أنكرت حبّي وأيّ شيء ... أبين من ذلة المحبّ
أليس شوقي وفيض دمعي ... وضعف جسمي شهود حبّي

فقال أبو عبيد: هؤلاء شهود ثقاة، ثم قرأ الرقعة وقال: اللهم اجمع بيننا على رضاك، ثم رمى إليّ الرقعة فإذا فيها:

عفا الله عن عبد أعان بدعوةٍ ... خليلين كانا دائمين على الودِّ
إلى أن وشى واشي الهوى بنميمة ... إلى ذاك من هذا فحال عن العهدِ

وقال: كان بمصر إخوان توأمان، تكهّلا ولا يعرف بينهما من رآهما من قوة الشبه بينهما. فوجب على أحدهما دين، فحبسه القاضي، وكان أخوه يجيء إليه زائراً فيجلس في الحبس عوضه، ويتوجه ذلك فاشتهر هذا حتى بلغ أبا عبيد، فأحضرهما وقال لهما: أيّكما المحبوس؟ فبادر كل منهما فقال: «أنا هو» فأطرق القاضي، ثم طلب الغريم فدفع إليه الدين الذي ثبت له فراراً من الشفعة والغلط في الحكم[4].

(1) الكندي/ المصدر السابق/ ص 524 - 525.
(2) المصدر السابق/ ص 526.
(3) نفس المصدر/ ص 527.
(4) الكندي/ المصدر السابق/ ص 528.

جلس أبو عبيد في قضاء مصر عشرين سنة[1] وكان فيها قاضي الأحكام والعزيمة، قال ابن الحدّاد: تظلّمت امرأة من محمد بن علي الماذرائي/ أحد وجهاء مصر المعروفين/ في مطالبته بشفعة، فأرسل إليه أبو عبيد، فدافع ولم يحضر، واتفق أنه حجّ في تلك السنة، فما ودّعه أبو عبيد ولا تلقّاه، وماتت أمّه، فما ركب إليه ولا عزّاه، فرفعت إليه المرأة قصّة «عريضة» أن تردادها قد كثر وأن أمرها قد طال، فوقّع القاضي على ظهرها، «أيتها المرأة المتظلّمة من محمد بن علي، أن خصمك رجل مقرف عجول، قد غلبت عليه الأهواء، وأنا مرسل إليه برجلين فظّين غليظين يقيمانه من مجلسه ويجيئان به، فإن خرج من الحق الذي عليه وإلا أغلقت بابي واستعفيت إلى السلطان من عمله والسلام».

فبلغ ذلك محمد بن علي فاغتاظ وأرسل إسحاق بن إبراهيم الرازي إليه في فصل القضيّة أو الحضور، فأجابه بأن «لي على باب القاضي وكيلان» فأعاد إليه القاضي: «إن الوكيل لا يحلف عنكّ» فقال محمد بن علي: «إذا وجبت اليمين يرسل إليّ شاهدين فاحلف أو أرد اليمين»، فرد القاضي: «لا سبيل إلى إرسال الشاهدين»، فقال: «قد أرسلت إلى غيري بشاهدين»، فقال القاضي: «ما صنعت هذا إلا برجل واحد وهو زيادة الله بن الأغلب، أمرت بإحضاره مع خصمه فجاءني أبو منصور تكين[2]، فقال: إن هذا في صورة الخراط، وأني أخشى أن يغلظ عليه، فيمتنع أو يختفي أو يهرب أو تلحقه آفة، فنقع في العتب مع السلطان فيقال لنا (ما كانت لكما سياسة) فإن تقمّصت بقميص زياد الله، وخيف منك ما خيف منه، أرسلت إليك بشاهدين». قال وكان الطحاوى، هو الذي يلقّن محمد بن علي الأجوبة، فألتمس منه جواباً على هذا الأخير، وكان الطحاوي بلغه أن أبا عبيد أرسل إلى محمد بن علي يقول له: «تعس من لقّنك» فامتنع الطحاوى بعد ذلك من الكلام، فقال محمد بن علي لرسول القاضي: «قل له ما أحضر وليصنع ما شاء». عندها أمر القاضي المرأة أن تأخذ بلجام محمد بن علي ففعلت به ذلك، فتوسط أحمد بن محمد المآذرائي بين المرأة وبين محمد بن علي، حتى اشترى حصتها بألف دينار، وكان قد اشترى قدرها بثلمائة، ، وأنقدها الثمن وأشهد عليها حسين بن محمد مأمون، ومحمد بن الربيع الجيزي، فشهدا عند القاضي بذلك بحضرة المرأة ومعها المال. فلما علم القاضي بذلك ركب في الحال إلى محمد بن علي وهنأه بالحجّ وعزّاه بأمه[3].

وقال ابن زولاق: حدّثني أبو علي بن أبي جبلة كاتب تكين قال: «ارتدّ نصراني

(1) المصدر السابق/ص 529.
(2) كان والي مصر وقتذاك.
(3) الكندي/المصدر السابق/ص 530.

فاستتيب فلم يرجع، فشاور تكين القاضي في قتله، فركب القاضي إلى تكين هو وجماعته، فعرضوا عليه التوبة، فلم يرجع فعاودوه، فأقرّ، فأشار القاضي بقتله فقتل، فقال تكين للقاضي: أكتب إلى السلطان بهذه القصة. فقال: أفعل، وأمرني أن أكتب محضراً بذلك فكتبت، حضر مجلس الأمير أبي منصور تكين، من يشهد فيه، فلمح القاضي الكتابة، فصاح: قطع الله يدك، اكتب: حضر تكين، مولى أمير المؤمنين مجلس القاضي علي بن حسين، فقال تكين: صدق القاضي، المجلس له حيث حلّ، أكتب بما قال[1].

في عام 311هـ كتب إلى السلطان يستعفي من أمر القضاء، فأجيب طلبه، بعد أن أرسل رسولاً إلى بغداد بهذا الشأن، وأغلق بابه وامتنع عن الحكم، فأعفي، وعندما جاء عزله، أملى مجالسه، ورجع إلى بغداد، ودخل سوق الورّاقين وراح يشتغل بالنسخ والتوريق، حتى سمع يقول: ما لي وللقضاء، لو اقتصرت على الوراقة ما كان حظّي بالردّي، وكان رزقه في الشهر، من الوراقة، مائة وعشرين ديناراً. حتى قال عنه ابن زولاق: سمعت أبا عبيد القاضي يقول: ما تقلّد - يقصد أمر القضاء - إلا عصبي أو غبي[2].

ونقل عنه الذهبي: قد تسرّى بمصر بجارية، فتجنّت عليه، وطلبت البيع لأنه كان به فتق[3].

محمد بن أبي الليث الخوارزمي الوراق:

واحد من القضاة المشهورين، ولي القضاء بمصر للمعتصم سنة 220هـ، وكان دخوله إليها سنة 205هـ[4].

ذكر الكندي، أن هذا القاضي كان ورّاقاً قبل دخوله مصر، على باب الواقدي، وكان فقيهاً بمذهب الكوفيين[5] وأسهب في ترجمته كقاضٍ.

---

(1) المصدر السابق/ ص 530 - 531.
(2) المصدر السابق/ ص 531.
(3) نفسه.
(4) الكندي/ كتاب الولاة وكتاب القضاة/ ص 449.
(5) المصدر السابق - نفس المكان.

الفصل العاشر

الوَرّاقون الفولكلوريّون

ابن دلاّن الوراق وجماعته:

هو أحمد بن محمد بن دلاّن، قال عنه إبن النديم: **كانت الأسمار والخرافات مرغوباً فيها، مُشتهاة في أيام خلفاء بني العباس، وسيّما في أيام المقتدر/ مستهل (ق 4هـ)/ فصنَّف الوراقون وكذبوا، فكان ممَّن يفعل ذلك، رجل يُعرف بإبن دلاّن، وآخر يعرف بابن العطّار**[1] وأضاف إبن النديم: أن هناك جماعة كانوا يعملون الخرافات والأسمار على ألسنة الحيوان وغيره، وهم **سهل بن هارون وعلي بن داود، والعتابي، وأحمد بن طاهر**[2].

إبن أبي الزهر الوراق:

هو أحمد بن يوسف بن أبي الزهر المعروف بالطرائقي، أصله من حلب، وانتقل إلى دمشق، وفتح دكان وراقة له في باب جيرون. مات في ربيع الآخر سنة 753هـ[3].

الطرسوسي الورّاق:

قال عنه حبيب زيات: من ورّاقي بغداد، **جمّاعي الطرائف والنوادر الطرسوسي الوراق**، أهدى أبا نصر سهل بن المرزبان مجلَّدة بخط السرّي الرفّاء فاستصحبها أبو نصر وأنفذها إلى نيسابور في جملة ما حصل عليه من طرائف الكتب[4].

---

(1) الفهرست/ ص 428.
(2) المصدر السابق.
(3) حبيب زيات/ الوراقة والوراقون في الإسلام/ ص 37.
(4) الوراقة والوراقون في الإسلام/ ص 37.

الفضل بن العباس الوراق وجماعته العشرة:

واحد من الوراقين الذين عرفوا بنقل الأخبار ورواياتها، أشارت المصادر والمراجع[1] إلى أنه كان جملة من الأخباريين الذين تخصصوا بهذا الفن وهم[2]:

1 - عيسى بن يحيى.

2 - أبو محذورة.

3 - غانم الوراق[3].

4 - عثمان الوراق.

5 - علي بن الحسين بن عبد السميع المروزي.

6 - مُطير الوراق.

7 - عبد الله بن عمر.

8 - عيسى بن الحسين.

9 - أبو الحسن محمد بن علي الوراق الأنطاكي، المعروف بابن الغنوي الفقيه.

10 - إبراهيم بن محمد.

11 - ابن أبي المدوّر.

(1) راجع عنه: الأغاني 5/ 120 - 121؛ وحبيب زيات/ ص 18.

(2) راجع عنهم - حبيب زيات/ ص 18.

(3) راجع بعض أخباره عند الأصبهاني - الأغاني 7/ 238 - 239 بترجمة السيد الحميري.

الفصل الحادي عشر

النساء الوَرّاقات

الورّاقة توفيق السوداء :

ورد إسمها بـ«توفيق الجارية السوداء» عند أبي العلاء المعرّي، في رسالة الغفران، حيث ذكر بأنها «كانت تقوم بجلب الكتب المراد نسخها - في مكتبة سابور - ببغداد، وتقدّمها للنسّاخين لينسخوها»[1].

بمعنى أنها كانت موظفة في تلك المكتبة.

ثناء الورّاقة :

هي جارية إبن فيوما، وهي واحدة من ذوات الخط البديع الرائق، عَدّها إبن النديم من تلامذة إسحاق بن حماد الكاتب، واحد من المشاهير في الخط في خلافة المنصور والمهدي[2].

لم نجد لها ترجمة في أغلب المضان التي ترجمت للنساء، وهي كغيرها من الجواري، ولو لم يكن ابن النديم واعياً لمهمته كأديب ووراق، لكانت في عداد المنسيات قطعاً.

الجارية الورّاقة :

لم تذكر المصادر اسمها، بل ذكرت أن الوزير أحمد بن صالح، راح يتغزّل بحسن خطّها ويبدي إعجابه بذلك مقارناً حسن خطها بحسن صورتها قائلاً : «كأن خطّها أشكال صورتها، وكأن مدادها سواد شعرها، وكأن قرطاسها أديم وجهها، وكأن قلمها بعض أناملها، وكأن بيانها سحر مقلتها، وكأن سكّينها غنج لحظها، وكأن مقطها قلب عاشقها»[3].

---

(1) المعرّي/ رسالة الغفران/ ص 279.

(2) الفهرست/ ص 10 - 11 - الطبعة المصرية.

(3) ابن الطقطقي/ الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية/ ص 188 - نشرة محمد توفيق الكتبي المطبعة الرحمانية بمصر - بدون تاريخ - وراجع كذلك أدب الكتّاب للصولي/ ص 48.

مصادر البحث

- أ -

1 - الأصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله.

* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - 10 مجلدات - الطبعة المصرية 1351هـ/ 1932م.

2 - الأصبهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم.

* الأغاني - 24 جزءاً - طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة سنة 1389هـ/ 1970م، وطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1345هـ/ 1927م.

3 - الأصبهاني: أبو عبد الله عماد الدين الكاتب.

* خريدة القصر وجريدة العصر - القسم العراقي - جزءان - منشورات المجمع العلمي العراقي - بغداد 1375هـ/ 1955م.

4 - إبن أبي أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي.

* عيون الأنباء في طبقات الأطباء - تحقيق د. نزار رضا - منشورات مكتبة الحياة، بيروت 1965م.

5 - الأعسم: د. عبد الأمير.

* أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات - منشورات دار الأندلس - ط1 - بيروت 1400هـ/ 1980م.

6 - الأمين: محسن عبد الكريم الحسيني العاملي.

* أعيان الشيعة - 10 أجزاء - منشورات دار التعارف للمطبوعات بيروت - 1403هـ/ 1983م.

- ب -

7 - البغدادي: عبد القادر بن عُمر.

* خزانة الأدب ولبِّ لُباب لسان العرب - 8 أجزاء - طبعة بولاق المصرية 1299هـ.

8 - البلاذري: أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر.

* فتوح البلدان - تحقيق عبد الله أنيس الطبّاع وعمر أنيس الطبّاع، منشورات دار النشر للجامعيين - دمشق 1377هـ/ 1957م.

9 - البيهقي: ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد.

* تاريخ حكماء الإسلام - تحقيق محمد كرد علي - منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق 1365هـ/ 1946م.

- ت -

10 - إبن تغري بردي: الأتابكي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي.

* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - 16 جزءاً - طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة 1963م.

11 - التوحيدي: أبو حيان، علي بن محمد بن العبّاس.

* المقابسات - تحقيق حسن السندوبي - منشورات المكتبة التجارية الكبرى بمصر - 1347هـ/ 1929م ونشرة توفيق حسين، بغداد 1970م.

* الإمتاع والمؤانسة - 3 أجزاء - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 1939م.

* رسائل التوحيدي - تحقيق د. إبراهيم الكيلاني - ط1 - منشورات دار طلاس - ط1 دمشق 1985م.

* مثالب الوزيرين - تحقيق د. إبراهيم الكيلاني - منشورات دار الفكر بدمشق 1961م.

- ج -

15 - الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب.

* كتاب الحيوان - 7 أجزاء ط2 - طبعة البابي الحلبي - تحقيق عبد السلام هارون.

16 - إبن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي.

* المنتظم في تاريخ الملوك والأُمم - 10 أجزاء - ط1، حيدر آباد 1358هـ.

- ح -

17 - حمادة: د. محمد ماهر.

* المكتبات في الإسلام - نشأتها وتطورها ومصائرها - ط6، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت 1414هـ/ 1994م.

18 - الحموي: ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي.

* معجم الأدباء - 20 جزءاً - تحقيق د. أحمد فريد رفاعي - منشورات دار المأمون المصرية القاهرة 1357هـ/ 1938م.

* معجم البلدان - 8 أجزاء - منشورات دار صادر ودار بيروت - بيروت 1374هـ/ 1955م.

20 - الحنبلي: إبن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الدمشقي.

* شذرات الذهب في أخبار من ذهب - 8 أجزاء - منشورات دار المسيرة - ط2 - بيروت 1399هـ/ 1979م.

- خ -

21 - الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي.

* تاريخ بغداد - 14 جزءاً - ط1، منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد، ومطبعة السعادة بمصر - 1349هـ/ 1931م.

22 - إبن خلّكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - 8 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- د -

23 - دائرة المعارف الإسلامية - ترجمة أحمد الشنتاوي وجماعته.

- ذ -

24 - الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان.

* سير أعلام النبلاء - 24 جزءاً - تحقيق شعيب الإرناؤوط وجماعته، منشورات مؤسسة الرسالة - ط1، بيروت 1401هـ/ 1981م.

* تذكرة الحُفّاظ - 4 أجزاء - طبعة حيدر آباد 1378هـ/ 1958م.

* ميزان الإعتدال في نقد الرجال - طبعة البابي الحلبي - ط1، القاهرة 1383هـ/ 1963م.

- ز -

27 - الزبيدي: أبو بكر محمد بن الحسن

* طبقات النحويين واللغويين - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط1، القاهرة 1373هـ/ 1954م.

28 - الزَّبيدي: محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي.

* تاج العروس من جواهر القاموس - ط1، منشورات المطبعة الخيرية بمصر سنة 1306هـ.

29 - الزركلي: خير الدين.

* الأعلام - 8 أجزاء - ط5 - دار العلم للملايين، بيروت 1980م.

30 - زيّات: حبيب.

* الورافة والورّاقون في الإسلام - مقالة - نشرها في مجلة المشرق عام 1947 وأعادت نشرها المطبعة الكاثوليكية - بيروت 1947م.

- س -

31 - السبكي: تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي

* طبقات الشافعية الكبرى - 6 أجزاء ط2، المطبعة الحسينية بمصر.

32 - إبن سعد: محمد الواقدي.

* الطبقات الكبير - تحقيق إدوارد سحو - ليدن 1321هـ.

33 - سعيد: د. خيرالله.

* وَرّاقو بغداد في العصر العبّاسي - ط1، منشورات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض 2000م.

34 - السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي.

* الأنساب - 10 أجزاء - تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، منشورات محمد أمين دمج - بيروت، بدون تاريخ.

35 - السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن الشافعي.

* بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - مطبعة السعادة بمصر - ط1، القاهرة 1326هـ.

- ش -

36 - الشابشتي: أبو الحسن علي بن محمد.

* الديارات: تحقيق كوركيس عواد - مطبعة المعارف - بغداد 1951م.

- ص -

37 - الصابىء: غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال.

* الهفوات النادرة - تحقيق د. صالح الأشتر منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق 1387هـ/ 1967م.

38 - الصفدي: صلاح الدين خليل ابن أيبك.

* نكت الهميان في نكت العميان - تحقيق أحمد زكي - مصر سنة 1329هـ/ 1911م.

* الوافي بالوفيات - 25 جزءاً - تحقيق هيلموت ريتر - طبعة استانبول 1931م.

40 - الصولي: أبو بكر محمد بن يحيى الشطرنجي الكاتب.

* أدب الكتّاب - تحقيق محمد بهجت الأثري - منشورات المكتبة العربية ببغداد والمطبعة السلفية بمصر 1341هـ.

- ط -

41 - الطبري: محمد بن جرير.

* تاريخ الرسل والملوك - 10 أجزاء - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - منشورات دار المعارف بمصر سنة 1968م.

42 - إبن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا.

* الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية - تحقيق محمد توفيق الكتبي - منشورات المطبعة الرحمانية بمصر، بدون تاريخ.

43 - الطهراني: آقابزرك.

* الذريعة إلى تصانيف الشيعة - 24 جزءاً - منشورات دار الأضواء - ط3، بيروت 1403هـ/ 1983م.

- ع -

44 - العسقلاني: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر.

* الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة - حيدر آباد - ط1، 1349هـ.

* لسان الميزان - 6 أجزاء - طبعة حيدر آباد 1329هـ/ 1920.

46 - عَوّاد: كوركيس.

* خزائن الكتب القديمة في العراق - منشورات مطبعة المعارف، بغداد 1948م.

- ف -

47 - إبن الفوطي: كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق تاج الدين بن أحمد.

* الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة - منشورات المكتبة العربية بغداد 1351هـ.

48 - الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، العلامة اللغوي.

* القاموس المحيط - ط2، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت 1407هـ/ 1987م.

- ق -

49 - القالي: أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عبدون بن هارون.

* الأمالي - جزءان - طبعة دار الكتب المصرية - ط1، القاهرة 1344هـ/ 1926م.

50 - القفطي: الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف.

* أنباه الرواة على أنباء النحاة - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة 1369هـ/ 1950م.

* أخبار العلماء بأخبار الحكماء - تحقيق محمد أمين الخانجي، مصر 1326هـ مطبعة لايبسك 1320هـ.

- ك -

51 - إبن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي.

* البداية والنهاية - 14 جزء - منشورات مكتبة المعارف بيروت، ومكتبة النصر - الرياض 1966م.

52 - كرد علي: محمد.

* أمراء البيان - جزءان - منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، 1355هـ/ 1937م.

53 - الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف.

* كتاب الولاة وكتاب القضاة - تحقيق [فن كست] طبعة الآباء اليسوعيين بيروت 1908م.

- م -

54 - مالك إبن أنس: الإمام صاحب المذهب المالكي.

* الموطأ - جزءان - طبعة البابي الحلبي، مصر سنة 1339هـ.

55 - المرزباني: أبو عبد الله محمد بن عمران.

* معجم الشعراء - منشورات مكتبة القدسي - القاهرة 1354هـ.

56 - المعرّي: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي.

* رسالة الغفران - تحقيق إبراهيم اليازجي - القاهرة 1923م.

57 - المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي.

* التنبيه والإشراف - تحقيق عبد الله إسماعيل الصاوي - طبعة القاهرة 1357هـ/ 1938م.

58 - إبن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري.

* لسان العرب - 14 مجلد - طبعة دار صادر البيروتية، بدون تاريخ.

* مختار الأغاني في الأعياد والتهاني - تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج منشورات الدار المصريّة للتأليف والترجمة والنشر، طبعة البابي الحلبي، القاهرة 1385هـ/ 1965م.

- ن -

60 - إبن النجّار: محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله، أبو عبد الله محب الدين.

* ذيل تاريخ بغداد - طبعة حيدر آباد 1398هـ/ 1978م.

61 - النجاشي: أبو العباس أحمد بن علي.

* رجال النجاشي - الطبعة الإيرانية سنة 1317هـ.

62 - إبن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق.

* الفهرست - منشورات المطبعة الرحمانية بمصر، بدون تاريخ.

63 - أبو نواس: الحسن بن هاني - الشاعر المعروف.

* ديوان أبي نواس - تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي - منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

(نهاية الجزء الخامس - أعلام الورّاقين البغداديين)

موسوعة الوراقة والوراقين

في الحضارة العربية - الإسلامية

الجزء السادس

ورّاقو الأمصار الإسلامية

والتراجم العارضة

الفصل الأول

وَرّاقو بلاد الشام

إبن الجَمّالة الورّاق:

ذكره ابن أبي أصيبعة مع إثنين آخرين، لم يحدد إسميهما، وقال: أن هؤلاء - الثلاث - كانوا «في خدمة موفق الدين ابن المطران الطبيب» وكان ابن الجَمّالة، من أشهرهم، وكان خَطّهُ منسوباً[1].

الشريف الناسخ:

هو شمس الدين محمد الحسيني، أحد الورّاقين المعروفين في بلاد الشام. كان ينسخ، وخَطّهُ في نهاية الجودة في الخَطّ المنسوب، وهو فاضل في العربية، كما يقول ابن أبي أصيبعة[2]. والذي أشار إلى أنّهُ نَسَخَ لَهُ نسخةً من كتابهِ «طبقات الأطبّاء» والذي أهداهُ ابن أبي أصيبعة إلى «الصاحب أمين الدولة وزير الملك الصالح» حاكم دمشق أواخرعهد الأيوبيين، يقول ابن أبي أصيبعة: «دعوت الشريف الناسخ وأخليت لَهُ موضعاً عندنا، وكتب الكتاب «طبقات الأطباء» في مُدّة يسيرة، وفي قطع ربع البغدادي - نوع من الوَرق - أربعة أجزاء، ولمّا تجلّدت عملت قصيدة في مديح الصاحب أمين الدولة، وبعثت بالجميع إليه مع قاضي القُضاة بدمشق رفيع الدين الجبلي، وهو من جملة المشايخ الذين اشتغلت عليهم»[3].

إبن شمعون الجزري الدمشقي الوراق:

هو شمس الدين إبراهيم بن أبي بكر بن عبد العزيز الجزري، نسبته إلى جزيرة ابن عمر، ويعرف بابن شمعون، نقل حبيب زيات عن صاحب «تالي وفيات الأعيان» أنه كان من الفضلاء المطلعين على العلوم، وأخبار العالم وتواريخ المتقدمين، واجتمع له من الكتب

(1) طبقات الأطبّاء 3/ 292 - 293.

(2) ابن أبي أصيبعة/ طبقات الأطباء 3/ 386 - 387 - بيروت - دار الفكر طبعة عام 1956م.

(3) المصدر السابق/ نفس المكان.

في حانوته بدمشق شيء كثير، ولمّا احترقت سوق اللّبادين، في زمن دولة المنصور قلاوون، إحترق جميع ما كان في حانوته من الكتب. ثم توجه بمتجر إلى الديار المصرية في الأيام الكاملية، فاتفق ذلك في وقت حضور المطربين في خدمة السلطان، فغنت بعض النسوان:

يا أيها القمر المنير ... من جور حسنك من مجيري

فأعجب السلطان وأطلق للمغنية آلات المجلس، وكان في جملة المطربين بنت نوري، فطلبت من يعمل أبياتاً في هذا الوزن، فعرفها بعض أصحاب شمس الدين هذا بِهِ، فسألته ذلك، فعمل لها هذه الأبيات:

قسماً بديجور الشعور ... وبصبح إسفار الثغورِ
وبأسمر حلو المعاطف ... والّلمى أمسى سميري
ما للصوارم والقنا ... فعل اللواحظ في الصدور

فغنتها بنت نوري، فأطلق لها السلطان المجلس. ثم عرض لشمس الدين المذكور مرض، فنقلته/ بنت نوري/ إلى دارها وخدمته إلى أن عوفي وقالت له: كل ما في البيت من إحسانك[1].

وعلى ما يبدو أن الشعر كان له دوام حضور في خاطره، فقد نقل عنه حبيب زيات هذه المقطوعة الشعرية في شخص بدمشق[2].

قالو به يبس وفرط قساوةٍ ... فكأنّه في الحالتين حديد
فأجبتهم كذباً وميناً قلتم ... من أين يشبه طعمهُ الجلمود
ومياه جُلّق كلّها منحازة ... في بعضه فهوالفتى المحمود
ألفاظه بردى وصورة جسمه ... ثوراً وأمّا كذبه فيزيد

الصالحاني الكتبي:

هو أحمد بن إبراهيم الكتبي، الصالحاني الحنفي، كان من فضلاء الحنفية، مشاركاً في الفنون، أفتى وناظر أبا البقاء السبكي مُدّة، وقرأ عليه الكشّاف، وهو المشار إليه في كتاب السجلات[3]. توفي سنة 795هـ[4].

---

(1) حبيب زيات/ الوراقة والوراقون في الإسلام/ ص 34.
(2) المرجع السابق.
(3) شذرات الذهب 6/ 337 - 338.
(4) المصدر السابق 6/ 337؛ وحبيب زيات/ ص 26.

القرشي الوّراق:

هو أحمد بن محمد بن سعيد بن عبيد الله بن أحمد بن سعيد بن أبي مريم، أبو بكر القرشي الوراق. ورّق لأبي الحسن أحمد بن عمير بن جوصي الحافظ الدمشقي ويُعرف بابن فطيس.

وُلِدَ بدمشق سنة (271 أو 272) ووفاته بشوال سنة/ 350هـ/ وفق ما حاكاه ابن عساكر ونقله عنه ياقوت(1).

عرف بجودة الخط وحسنُه وبه اشتهر، كان مولىً لجورية بنت أبي سفيان.

روى الحديث عن جماعة من أهل الشام، قال عنه ابن عساكر(2): ذكره عبد العزيز الكناني وقال: كان ثقةً مأموناً، يورّق للناس بدمشق وله خط حسن.

سعد الورّاق:

لم تذكر مصادر ترجمته اسمه الكامل، بل ذكرته باللّقب - الورّاق - ذكره ياقوت ضمن ترجمة أحمد بن كليب النحوي(3) كان هذا الورّاق يسكن الرُها(4)، وله فيها دكان وراقة، يأوي إليه كل أديب، وصار الدكان بمثابة مجلس للأدباء، وكان سعد حسن الأدب والفهم، يعمل شعراً رقيقاً، قال أبو بكر أحمد بن محمد الصنوبري: ما كنّا نفارق دكانه أنا وأبو بكر المعوّج الشامي الشاعر، وغيرنا من شعراء الشام وديار مصر(5).

تولّه هذا الورّاق بحبّ غلام نصراني إبناً لتاجر من أهل الرهاء، اسمه عيسى، قال أبو بكر الصنوبري: كان عيسى من أحسن الناس وجهاً، وأحلامهم قدا، وأظرفهم طبعاً ومنطقاً، وكان يجلس إلينا، ويكتب عنّا أشعارنا، وجميعنا يحبه ويميل إليه، وهو حينئذ صبيٌ في الكتّاب، فعشقه سعد الوراق عشقاً مبرحاً، ويعمل فيه الأشعار(6)، ويستطرد الصنوبري قائلاً: فمن ذلك ما قال فيه، وقد جلس عنده في دكانه:

---

(1) معجم الأدباء 4/ 238 - الترجمة رقم (51).

(2) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر 3/ 262 - تحقيق رياض عبد الحميد وروحية النحاس - منشورات دار الفكر - دمشق - ط 1 - 1404هـ/ 1984م.

(3) معجم الأدباء 4/ 116؛ وحبيب زيات/ الوراقة والوراقون/ ص 33.

(4) الرهاء = مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام - معجم البلدان 3/ 160 - مادة (رهاء).

(5) معجم الأدباء 4/ 116 - 117.

(6) معجم الأدباء 4/ 116 - 122.

اجـعـل فـوادى دواة والـمـداد دمـي وهـاك فـابـرِ عـظـامـي مـوضـع الـقـلـم
وصـيّـر الـلـوح وجـهـي وامـحـه بـيـد فـإن ذلـك بـرءٌ لـي مـن الـسـقـم
تـرى الـمـعـلّـم لا يـدري بـمـن كـلـفـي وأنـت أشـهـر فـي الـصـبـيـان مـن عـلـم

ثم شاع بعشق الغلام في الرها - خبره، فلما كبر وشارف الائتلاف، أحبّ الرهبنة، وخاطب أباه وأمه في ذلك وألح عليهما حتى أجاباه وخرجا به إلى دير زكيّ بنواحي الرقة، وهو في نهاية حسنة فابتاعا له قلاّية، ودفعا إلى رأس الدير جملة من المال عنها، فأقام الغلام فيها، وضاقت على سعد الوراق الدنيا بما رحبت، وأغلق دكانه، وهجر إخوانه ولزم الدير مع الغلام، وسعد في خلال ذلك يعمل فيه الاشعار، فمما عمل فيه وهو في الدير، وكان الغلام قد عمل شمّاسا:

يـا جـمـة قـد عـلـت غـصـنـاً مـن الـبـان كـأن أطـرافـهـا أطـراف ريـحـانِ
قد قايسوا الشمس بالشمّاس فاعترفوا بـأنـمـا الـشـمـس والـشـمـاس سـيّـانِ
فـقـل لـعـيـسـى بـعـيـسـى كـم هـراق دمـاً انـسـانُ عـيـنـكَ مـن عـيـنٍ لانـسـانِ

ثم أن الرهبان أنكروا على الغلام كثرة إلمام سعد به، ونهوه عنه، وحرموه إن أدخله، وتوعدوا بإخراجه من الدير إن لم يفعل، فأجابهم إلى ما سألوه من ذلك. فلما رأى سعد امتناع منه شقّ عليه وخضع للرهبان، ورفق بهم، ولم يجيبوه، وقالوا: في هذا علينا إثم وعار، ونخاف السلطان، فكان إذا وافى الدير أغلقوا الباب في وجهه، ولم يدعوا الغلام يكلمه، فاشتدّ وجده، وازداد عشقه، حتى صار إلى الجنون، فخرق ثيابه وانصرف إلى داره فضرب جميع ما فيها بالنار ولزم صحراء الدير، وهو عريان يهيم، ويعمل الأشعار ويبكي.

قال أبو بكر الصنوبري: ثم عبرت يوماً أنا والمعوج، من بستان بتنافيه، فرأيناه جالساً في ظل الدير وهو عريان وقد طال شعره، وتغيّرت خلقته فسلمنا عليه، وعذلناه، وعتبناه، فقال دعاني من هذا الوسواس، أترياني ذلك الطائر على هيكل، وأومأ بيده إلى طائر هناك، فقلنا: نعم، فقال: أنا وحقكما يا أخوّي أناشده منذ الغداة أن يسقط، فأحملّه رسالة إلى عيسى، ثم التفت إليّ وقال: يا صنوبري، معك ألواحك؟ قلت: نعم، قال: أكتب:

بـديـنـك يـا حـمـامـة ديـر زكّـي وبـالانـجـيـل عـنـدك والـصـلـيـب
قـفـي وتـحـمّـلـي عـنـي سـلامـاً إلـى قـمـر عـلـى غـصـن رطـيـب
عـلـيـه مـسـوحـه واضـاء فـيـهـا وكـان الـبـدر فـي حـلـل الـمـغـيـب
وقـالـوا رابـنـا إلـمـامَ سـعـدٍ ولا والله مـا أنـا بـالـمـريـب
وقـولـي سـعـدُكَ الـمـسـكـيـن يـشـكـو لـهـيـب جـوى أحـرّ مـن الـلـهـيـب

فصله بنظرة لك من بعيدٍ إذا ما كنت تمنع من قريب
وإن أنامتّ فاكتب حول قبري محبّ مات من هجر الحبيب
رقيب واحد تنغيص عيشٍ فكيف بمن له مائتا رقيب؟

ثم تركنا وقام يعدو إلى باب الدير، وهو مغلق دونه، وانصرفنا عنه، وما زال كذلك زمانا، ثم وجد في بعض الأيام ميتاً إلى جانب الدير، وكان أمير البلد يومئذ العباس بن كيغلغ، فلما اتصل ذلك به وبأهل الرها، خرجوا إلى الدير، وقالوا: ما قتله غير الرهبان. وقال لهم ابن كيغلغ: لا بدّ من ضرب رقبة الغلام، وإحراقه بالنار، ولا بدّ من تعزير جميع الرهبان بالسياط وتصعّب، في ذلك فافتدى النصارى نفوسهم وديرهم بمائة ألف درهم.

وكان الغلام بعد ذلك إذا دخل الرها لزيارة أهله، صاح به الصبيان: يا قاتل سعد الورّاق، وشدّوا عليه بالحجارة يرجمونه، وزاد عليه الأمر في ذلك حتى امتنع من دخول المدينة، ثم انتقل إلى دير سمعان، وما يعرف ما كان منه.

عُتيق التميمي الورّاق:

هو عُتيق بن محمد، أبو بكر الوراق التميمي[1]، نقل ابن شاكر الكتبي عن ابن رشيق قوله: دخلت الجامع، فوجدته في حلقة يقرأ الرقائق والمواعظ، ويذكر أخبار السلف الصالحين، ومن بعدهم من التابعين، وقد بدا خشوعه، وترقرقت دموعه، فما كان إلا أن جئته عشية ذلك اليوم إلى بيته. فوجدته وفي يده طنبور، وعن يمينه غلام مليح، فقلت له: ما أبعد ما بين حاليك في مجلسك، فقال: ذلك بيت الله، وهذا بيتي، أصنع في كل واحد منهما ما يليق بصاحبه وبه، قال: فأمسكت عنه[2].

لم تشر المصادر إلى تاريخ ولادته أو وفاته، وأورد له ابن شاكر هذه الأبيات[3]:

كأنّه فلك غصّت كواكبه وجه المعزّ المعلّى بينها قمرُ
إذا بدا فيه قرن الشمس قارنه كأنّها منه أو منه بها أثر
مذ زاحم الجو فاحتل السحابا به فليس يفقد في أرجائه مطر
فرحمة الله عنه غير نازحة ونعمة الله ما فيها بِهِ قصر
ترى الغمائم بيضا تحته بُكراً مثل الكواكب فوق الأرض تنتشر

---

(1) ابن شاكر الكتبي/ فوات الوفيات 2/ 436 - الترجمة رقم (319).

(2) المصدر السابق/نفس المكان.

(3) نفس المصدر 2/ 437.

وقال:

كـلـمّـا أذنـب أبـدى وجـهـه حـجـة فـهـو مـلـيٌّ بـالـحُـجـجِ
كـيـف لا يـفـرط فـي إجـرامـه مَـنْ مـتـى شـاء مـن الـذنـب خـرج؟

وقال:

بـدر لـه اشـراق شـمـس عـلـى غـصـن سـبـا قـلـبـي بـنـوعـيـنِ
يـكـاد مـن لـيـنٍ ومـن دقـةٍ فـي خـصـره يـنـقـدّ نـصـفـيـنِ
إدبـاره يـنـسـيـك إقـبـالـه كـأنـمّـا يـمـشـي بـوجـهـيـنِ

وقال: ووزنه خارج عن أبحرالعروض:

أورد قـلـبـي الـردى لام عـذار بـدا
أسـود كـالـغـي فـي أبـيـض مـثـل الـهـدى

وقال:

تـعـبـي راحـتـي وأنـسـي انـفـرادي وشـفـائـي الـضـنـى ونـومـي سـهـادي
لـسـت أشـكـو بـعـاد مـن صـدعـنـي أي بـعـد وقـد ثـوى فـي فـؤادي؟
هـو يـخـتـال بـيـن عـيـنـي وقـلـبـي وهـو ذاك الـذي يُـرى فـي سـوادي

وقال في الهجاء وبالغ:

لـو أن أكـفـانـهـم مـن حـرّ أوجـهـهـم قاموا إلى الحشر منها مثل ما رقدوا
خـزُرالـعـيـون إذا مـا عـوتـبـوا، وإذا ما عاتبوا أنفذوا باللحظ ما قصدوا

أبو الحسن الوراق البغدادي:

هو علي بن الحسين بن محمد بن هاشم، كنيته أبو الحسن الوراق البغدادي[1] لزمه لقب الوراق البغدادي، نظراً لكونه من بغداد، ورحل عنها إلى دمشق وبها حدّث عن القاسم بن زكريا المطرز، وأحمد بن عمر زنجويه، وأحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي، ومحمد بن هارون المجدر، وأحمد بن الحسن المقرىء المعروف بدبيس، روى عنه تمام بن محمد الرازي ساكن دمشق[2]. أهمل الخطيب البغدادي تاريخ ولادته ووفاته.

(1) تاريخ بغداد 11/ 400 - الترجمة رقم (6279).
(2) المصدر السابق.

المحسن الوراق:

هو المحسن بن الحسين بن علي كوجك كنيته أبو القاسم الوراق[1] كان أديباً فاضلاً، ولكن الغالب عليه الوراقة، ويقول الشعر، وخطه موصوف ومرغوب فيه يشبه خط الطبري كما يقول ياقوت[2].

أشارت المصادر إلى أنه توفي سنة 416 هـ، دون أن تحدد مكان وفاته[3]، قال ياقوت: سمع من أبي مسلم محمد بن أحمد كاتب بن خنزابة وسمع معه أخوه علي بن الحسين، وأضاف: أملى بصيرا حكايات مقطعة بعضها عن ابن خالويه، روى عنه أبو نصر طلاب قال: أملى علينا الأستاذ أبو عبد الله المحسن بصيرا وقرأته عليه في سنة أربع وتسعين وثلاثمائة[4].

طغت شخصيته الأدبية على جُلاّسه ومحبيه قال ابن طلاب: حضرنا معه يوماً في محرس غُرَق بمدينة صيدا وفيه قبة، مكتوب فيها اسماء من حضرها وأشعار من جملتها:

رحم الله من دنا لأناس ... نزلوا ههنا يريدون مصرا

فرّقت بينهم صروف الليالي ... فتخلّوا عن الأحبّة قسرا

فقال له قائل من جماعتنا: أن المائدة لا تقعد على رجلين، ولا تستقر إلا على ثلاثة فأجز لنا هذين البيتين بثالث، فاطرق ساعة ثم قال: اكتبوا:

نزلوا والثياب بيض فلما ... أزف البين منهم صرن حمرا[5]

وكان بينه وبين رجل كاتب لبني بزال إحنٌ وملاحاة مستهجنة، أوقعت بينهما العداوة بعد وكيد الصداقة وكان هذا الرجل يقال له أبو المنتصر مبارك الكاتب، فهجاه بأشعار كثيرة وجمعها في جزء، وكتب على ظهر هذا الجزء شعراً له، هو[6]:

هذا جزاء صديق ... لم يرع حق الصداقة

سعى على دم حرٍّ ... محرّم فأراقه

(1) معجم الأدباء 17/ 89 - الترجمة رقم 29.
(2) المصدر السابق.
(3) المصدر السابق.
(4) المصدر السابق 17/ 90.
(5) معجم الأدباء 17/ 90 - 91.
(6) نفس الموضع والمكان.

وكانت له مقطوعات شعرية منها[1]:

مبارك بورك في الطول لك فأصبحت أطول من في الفلك
ولولا انحناؤك نلت السما ولكن ربك ما عدَّلك

الشريف الناسخ الكتبي:

هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن عيسى المحدّث، لقبه شرف الدين، وكنيتهُ أبو عبد الله القرشي الدمشقي الكتبي الناسخ[2].

دمشقي الأصل، وبها عاش، وكانت ولادته سنة 610هـ ووفاته سنة 680هـ[3].

سمع الحديث بدمشق من أبي القاسم صصري وابن الزبيدي وجماعة ببغداد وبمصر كتب الأجزاء والطباق وقرأ الكثير، قال الصفدي عنه: كان ضعيفاً بين المحدثين يتهمونه[4] سمع منهُ ابن الخبّاز، وعلم الدين البرزالي وجماعة آخرين، قال الشيخ شمس الدين: لم يكن عليه أنْسُ المحدثين، وخطه كثير السقم من حُسنه، وقال الحافظ سعد الدين الحارثي: كان مزوّراً كذاباً، سَمَّعَ لنفسهِ وزوّر[5].

الوراق الموسيقي:

هو محمد بن أحمد بن محمد بن صادق المعروف بالوراق، ولادته سنة 1245هـ وفاته سنة 1317هـ في حلب[6].

موسيقي من أهل حلب، ينظم التواشيح والقدود، وأنواع الشعر الغنائي ويلحنها وينشدها، وله شعر في بعضه جودة، وهو واحد من رفع بهم شأن هذا الفن.

له ديوان شعر - ومجموع الوراق - في الأدب شعراً ونثراً[7].

ابن شاكر الكُتبي:

هو محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن هارون بن شاكر، الملّقب بصلاح الدين، المؤرخ الكتبي[8]، داراني المولد، دمشقي الدار، سمع ابن الشحنة المزّي

(1) المعطيات السابقة.

(2 - 5) الصفدي - الوافي بالوفيات 2/ 131 - الترجمة رقم 476.

(6 - 7) الزركلي/ الأعلام 6/ 216 - ط5 - بيروت 1980.

(8) الدرر الكامنة 3/ 451 - الترجمة رقم 1218؛ ومقدمة كتاب فوات الوفيات 1/ 3 - تحقيق الدكتور إحسان عباس. منشورات دار صادر - بيروت - بدون تاريخ.

وغيرهما من علماء بلده، وكان فقيراً جداً، وعندما تعاطى تجارة الكتب والوراقة، إزدهرت أحواله، وتوفر له من عمله المال الطائل، وأحب مهنة الوراقة والتأليف فكان فرداً في صناعته[1]، كان لجودة خطه وحسن اتقانه وضبطه ما زاد أقبال الناس عليه، وكسب له حسن المعاملة في التجارة، فقد وصف بأنه كان ذا مروءة في معاملته للناس[2] وكذلك كان يذاكر بعض معارفه ويفيد منهم، غير أنه لم يشتهر بين معاصريه أو سابقيه بثقافته، وأن هو وصف نفسه في مقدمة كتابه الشهير «فوات الوفيات»، بأنه كان مطالعاً جيداً لكتب التاريخ[3] إلا أنه لم يشتهر بين معاصريه بثقافة واسعة، ولم ينل من عمق الثقافة ودقة الحكم مثل ما ناله مشهورو الوراقة من أمثال أبي حيان التوحيدي وياقوت الحموي، بل ظلت ثقافته تقميشاً وتنسيقاً، كما يقول الدكتور إحسان عباس[4].

لم تعرف بدقة سنة ولادته، ولكن هناك إشارة في إحدى نسخ «الدرر الكامنة»، والعهدة على - إحسان عباس - أن ذلك كان عام 686هـ[5]، هو تاريخ غير مستبعد ولكن تاريخ وفاته كان في رمضان سنة 764هـ[6].

ترك ابن شاكر الكتبي مؤلفات هامة، كان أبرزها[7]:

1 - عيون التواريخ - 10 مجلدات.

2 - فوات الوفيات - 4 مجلدات.

3 - روضة الأزهار في حديقة الأشعار.

ابن قاضي اليمن الورّاق:

هو شمس الدين محمد بن قاضي اليمن، توفي بدمشق سنة 711هـ، عدَّهُ حبيب زيات من كتبِّي القرن الثامن الهجري[8].

---

(1) الدرر الكامنة 3/ 451.

(2) المصدر السابق 3/ 452؛ ومقدمة إحسان عباس لفوات الوفيات 1/ 3.

(3) أنظر فوات الوفيات 1/ 9.

(4) مقدمة/ فوات الوفيات 1/ 3.

(5) المصدر السابق.

(6) الدرر الكامنة 3/ 452؛ والبداية والنهاية 14/ 302 - 303.

(7) مقدمة إحسان عباس - فوات الوفيات 1/ 4.

(8) حبيب زيات/ الوراقة والوراقون في الإسلام/ ص 26.

الوراق الطرابلسي:

هو محمد بن هبة الله بن جعفر، كنيته أبو عبد الله، الوراق الطرابلسي[1].

واحد من رجالات الشيعة المعروفين في طرابلس الشام، لم يذكر مترجموه، تاريخ ولادته أو وفاته بل ذكروا، أنه فقيه ثقة، قرأ على الشيخ أبي جعفر الطوسي كتبهُ وتصانيفه منها[2].

1 - كتاب الزهد.

2 - كتاب النيّات.

3 - كتاب الفَرَج.

4 - كتاب الوساطة بين النفي والإثبات.

5 - كتاب ما لا يسع المكلّف إهماله.

6 - كتاب عمل يوم وليلة.

7 - كتاب الزهرة في أحكام الحج والعمرة.

8 - كتاب الأنوار.

9 - كتاب الأصول والفصول.

10 - كتاب المسائل الصيداوية.

---

(1) محسن الأمين - أعيان الشيعة 10/ 91 - طبعة بيروت 1403هـ/ 1983م.

(2) المصدر السابق - نفس المكان.

الفصل الثاني:

وَرّاقو البلاد المصريّة

سوق الورّاقين في مصر:

ذكرت المراجع المعاصرة[1]: «أنه كان في مصر، في عهد الطولونيين والإخشيديين، سوقاً عظيمة للورّاقين، تُعرض فيها الكتب للبيع، وأحياناً تدور في دكاكينها المناظرات الأدبية والعلمية» كما أن المقريزي يخبرنا في «الخُطط» أن سوق الورّاقين موجود في القاهرة في أكثر من موضع»[2].

ورّاقان في مكتبة أحد المارستانات بالقاهرة:

جاء ذكرهما - دون تسمية - عند المقريزي، في سياق حديثه عن (مكتبة المارستان العتيق) وكيفية دخول الخليفة الفاطمي إليها، ويذكر موظّفيها بالقول: «وفيها ناسخان - أي ورّاقان - وفرّاشان، صاحب المرتبة وآخر، فيعطي الشاهد عشرين ديناراً ويخرج إلى غيرها»[3].

إبن خلف الورّاق:

ورد اسمَهُ عند «القفطي» في معرض حديثِهِ عن «مكتبة دار الحكمة في القاهرة، إذ أُسندت إلى هذا الورّاق مهمة عمل فهارس لتلك المكتبة مع القاضي أبي عبد الله القضاعي[4].

(1) أحمد شلبي/ تاريخ التربية الإسلامية/ ص 41 - منشورات دار الكشاف بيروت 1954.
(2) الخُطط والآثار 2/ 195. وراجع أيضاً - د. حمادة - المكتبات في الإسلام/ ص 71.
(3) الخُطط والآثار 2/ 254.
(4) القفطي/ أخبار الحكماء/ ص 440.

ابن صورة الورّاق:

جاء ذكرهُ عند أبي شامة/ مؤرخ صلاح الدين الأيوبي/ في معرض حديثه عن «مكتبات الفاطميين» عندما طرحها - صلاح الدين الأيوبي - للبيع بالمزاد، حيث قَدَّر أبو شامة عدد مجلدات مكتبات القصر الفاطمي إبّان عزّها ومجدها بمليوني كتاب، «وقد تولّى بيعها ابن صورة دَلاّل الكتُب، واستمر بيعها عدّة أعوام»[1]، كما ذكرهُ ابن خُلّكان وقال عنه: «كانت دارهُ ندوة أدبية، وكان يجلس في دهليز دارهِ، لذلك يجتمع عنده في يوم الأحد والأربعاء أعيان الرؤساء والفُضلاء، ويعرض عليهم الكتب التي تباع، ولا يزالون عندَه إلى وقت إنقضاء السوق»[2].

وتوفي ابن صورة هذا سنة 607هـ[3].

ابن زغبه الورّاق:

هو أحمد بن عيسى بن خلف بن زغبه، وكنيته أبو بكر الوراق[4] نشأ في بغداد، ومنها أخذ مهنة الوراقة.

حدّث بمصر[5] وهذه العبارة تبين أنه رحل من بغداد واقام في مصر، ولم يذكر الخطيب البغدادي توضيحات تبين حيثيات الأمر، سوى أنه قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن سلامه القضاعي/ قاضي مصر بمكة، بالمسجد الحرام/ أخبرنا عبد الغني بن سعيد الحافظ قال: وأبو بكر أحمد بن عيسى بن خلف بن زغبة الوراق البغدادي، روى عن أبي الليث الفرائضي، وأبي القاسم بن منيع، وابن أبي داود، ولم يكن له عنهم أصول يعول عليها[6]. ومن هذا النص يتضح أنه سكن مصر بعد رحيله عن بغداد، ولم تذكر المصادر تاريخ ولادته أو وفاته.

المنجنيقي الورّاق:

هو إسحاق بن إبراهيم بن يونس بن منصور، كنيته أبو يعقوب، ويعرف بالمنجنيقي

(1) أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين 1/ 200 - منشورات مطبعة وادي النيل - القاهرة 1287هـ. وراجع كذلك د. محمد ماهر حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص 120.

(2) وفيات الأعيان 1/ 177.

(3) راجع د. محمد ماهر حماده/ المرجع أعلاه/ ص 80.

(4 - 6) تاريخ بغداد 4/ 283 - الترجمة رقم (2035).

الورّاق[1]. بغدادي المولد والمنشأ، تعلم ببغداد علوم الحديث واكتسب خبرة بالوراقة، وارتحل الى مصر وبها أقام وعاش حتى وافته المنية سنة 304هـ[2].

وصفته المصادر بأنّه كان صالحاً صادقاً، وعندما سكن مصر حدّث بها عن بكّارالريّان وعبد الأعلى بن حماد النرسي وأبي إبرهيم الترجماني، وداود بن رشيد وعبدالله بن مطيع وهنّاد بن السري وسفيان بن وكيع، ومحمد بن يحيى بن أبي عمر وأحمد بن منيع ومحمد بن عبيد بن حسّاب وحميد بن مسعدة وعقبة بن مكرّم العمي، ويوسف بن موسى ويعقوب الدورقي وأبي محمد بن العلاء، وعبدالله بن أبي رومان الإسكندراني، وعمرو بن عثمان وكثير بن عبيد الحمصيّين. روى عنه المصريون ومن غيرهم جعفر بن محمد الخالدي وأبو القاسم الطبراني وعبدالله بن عدي الجرجاني[3].

ورد إسمه في سند حديث نبوي مروى عن ابن عمر قال: (قال رسول الله - ص - دع مايريبك الى مالا يريبك)[4].

لازم النسائي كثيراً وأخذ (المسند) عنه، قال الخطيب البغدادي في هذا الصدد: أخبرنا أبو سعد الماليني - إجازة - أخبرنا عبدالله بن عدي الحافظ، أخبرنا بعض أصحابنا أن أبا عبد الرحمن النسائي، إنتقى على إسحاق بن إبراهيم بن يونس المنجنيقي مسندهُ، وكان إسحاق بن إبراهيم يمنع النسائي من أن يجيء إليه، وكان يذهب هو إلى منزل النسائي إحتساباً له، حتى سمع النسائي ما انتقى عليه.

كان شيخاً صالحاً، قال له النسائي يوماً: يا أبا يعقوب لاتحدّث عن سفيان بن وكيع. فقال له إسحاق: إختر أنت يا أبا عبد الرحمن لنفسك ماشئت تحدّث عنهم، فأمّا من كتبتُ عنه فإني أحدّثُ عنه[5]. وهنا تبدو مسلكيته العلمية واضحة للعيان، لأنه كان ينشد الأمانة العلمية فيما يأخذ عن علماء الحديث ويكتب عنهم.

ابن نصير الورّاق:

هو إسحاق بن نصير العبادي[6]. كان واحداً من الذين يرتادون أحد دكاكين

---

(1) تاريخ بغداد 6/ 385 - 386، الترجمة رقم - 3424 -.

(2) المصدر السابق 6/ 386.

(3) نفس المصدر 6/ 385 - 386.

(4 - 5) تاريخ بغداد 6/ 386.

(6) أحمد بن الداية/ كتاب المكافأة وحسن العقبى/ ص 15 - 16 - تحقيق محمود محمد شاكر - ط1 - القاهرة 1359هـ/ 1940م.

الورّاقين، ويتعلم عندهم، ويقرأ منهم ما كان يدخل تحت أيديهم من الكتب، قال الوراق الذي كان يتردد عليه: كان يجيء من دار الروميين غلام - ووصفه - فاسمح له بالنسخة بعد النسخة، يقال له إسحاق، وكان يعدني في كل شيء يأخذه إلى الصّنع، وأخبرت أنه وقع بنواحي مصر، وما حصل إليّ منه شيء(1).

تشيرالأحداث أن إسحاقاً هذا قد رحل إلى بلاد مصر، ولم يوف ذلك الوراق حقه، وعلى ما يبدو أن مكوثه في مصر قد أنعم عيشه وتطورت أحواله، فذكر ذاك الشيخ الوراق الذي كان يستعير منه الكتب.

يقول أحمد بن وليد: ودّعت إسحاق بن نصير العبادي، في بعض خرجاتي إلى بغداد، فأخرج إليّ ثلاثة آلاف دينار، وقال: إذا دخلت بغداد فادفع ألف دينار إلى ثعلب، وألف دينار إلى المبرّد، وصر إلى قصر وضّاح فانظر إلى أول دكان للوراقين، فإنك تجد صاحبها - إن كان حيّاً لم يمت - قد شاخ، فاجلس إليه وقل له: «اسحاق بن نصير يقرأ عليك السلام، وهو الغلام الذي كان يقصدك كلّ عشيّة - راجلاً من دار الروميين بُدراعة، وعمامة ونعل رقيقة فيستعير منك الكتاب بعد الكتاب، فإذا اقتضيته كراء ما نسخ منه، قال: إصبر عليّ إلى الصنّع، فإذا استقرت معرفتي في نفسه، دفعت إليه هذه الألف، وقلت له: هذه ثمرة صبرك علي.

قال أحمد بن الوليد: فلما دخلت بغداد، دفعت إلى ثعلب والمبرّد، ومضيت إلى قصر وضّاح فألفيت الدكان التي وصف لي، قفراً ليس فيه كتاب، ورأيت فيها الشيخ الذي وصفه لي، في حال رثة وثياب خَلِقَة، وقد أفضى به الأمر إلى التوريق للناس، فجلست إليه وسألته عن حاله فقال: يا أخي ما ظنّك بحال: ما تتأمله في أحسن ما فيها؟ ثم خرجنا إلى المسألة، وما كان فيها من خبر إسحاق بن نصير، فأخبرني بحكايته، ولما انتهى، أخرجت الألف دينار وقلت له: يقول لك: هذه ثمرة صبرك، فكاد والله يموت فرحاً، فقلت له: ليست دراهم، هي دنانير، وانصرفت عنه، وهو أحسن من في سوقه حالاً.

قال أحمد بن وليد: واجتزت بعد ذلك فرأيت دكانه معمورة، وهو متصدّر فيها على أحسن حال وأوفاها(2).

(1) المكافأة/ ص 17.
(2) المكافأة/ ص 17 - 18.

ابن أبي الجوع الورّاق:

هو عبد الله بن محمد بن أبي الجوع، النحوي الأديب الوراق المصري، قال عنه الصفدي، كان محققاً للنحو واللغة والبلاغة وقول الشعر، جيّد الخط، مليح الضبط، أدرك المتنبي ومات بمصر سنة 395هـ[1].

الحسيني الغرّافي الوراق:

هو شيخ الاسكندرية تاج الدين علي بن أحمد بن عبد المحسن الحسيني الغرافي[2].

ولد سنة 628هـ، وتوفي في الاسكندرية سنة 704هـ[3]. سمع الحديث من محمد بن عماد وظافر بن نجم وعلي بن جبارة وطائفة أخرى، وببغداد سمع من أبي الحسن القطيعي وغيره، وحدث فأكثر، وحمل عنه المغاربة والرحالة، وحدثوا عنه في حياته، وكان عارفاً بالمذهب. قال عنه أبو العلاء الفرضي: كان عالماً فاضلاً محدثاً، مكثراً، مفيداً، وأثنى عليه البرازلي والذهبي وغيرهما[4].

اتخذ من الوراقة مهنة يسد بها رمق العيش، فإذا حصل قوته لا يتجاوز ذلك[5].

إبن كوجك الورّاق:

هو علي بن الحسين بن علي العبسي، ويعرف بإبن كوجك الورّاق، أديباً فاضلاً، إمتهن الوراقة بمصر وبها عُرِف واشتهر. لم تشر المصادر الى تاريخ ولادته، بل أشارت إلى أنه مات في أيّام الحاكم بأمر الله الفاطمي[6]. سمع من أبي مسلم محمد بن أحمد، كاتب أبي الفضل بن خنزابة الوزير، عرف بسعة المعرفة وصنّف الكتب التالية:

1 - كتاب الطنبوريّن.

---

(1) بغية الوعاة/ ص 287 - باب العين - وراجع د. مصطفى الشكعة - أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقيين/ ص 116. منشورات عالم الكتب - بيروت - ط1 - سنة 1403هـ/ 1983م.

(2) الغرّافي - نسبة إلى نهر الغراف، يقع في محافظة ذى قار «الناصرية» الآن.

(3) ابن العماد الحنبلي/ شذرت الذهبي 6/ 10 - 11؛ وحبيب زيات/ ص 5.

(4) المصدر السابق 6/ 11.

(5) نفس المصدر.

(6) معجم الأدباء 13/ 157 - 158

2 - كتاب أعز المطالب الى أعلى المراتب في الزهد، كتب بهِ الى **الشابشتي** صاحب كتاب **الديارات**.

كان ياقوت الحموي قد إلتقاه وجماعة في الشام والساحل سنة 394هـ[1] وسمعوه يمدح سيف الدولة لما فتح الحَدَث بقصيدة قال فيها[2]:

رام هدم الإسلام بالحَدَثِ المو ... ذِنِ بنيانها بهدم الضلال
نكّلت عنك من نفس ضعيفٍ ... سلبته القوى رؤوس العوالي
فتوقّى الحمامَ بالنفسِ والما ... ل وباع المقام بالإرتحالِ
ترك الطير والوحوش سغاباً ... بين تلك السهول والإجبالِ
ولكم وقعةٍ قريت عفاة الطيـ ... ـر فيها جماجم الأبطالِ

قال ياقوت: كان أبوه الحسين بن علي من أهل الأدب والشعر[3]. كتب عنه بعض أهل الأدب، كما يقول عنه الحافظ أبو القاسم الدمشقي، وسُمع بطرابلس يحدّث عن أبي مسعود، كاتب حسنون المصري سنة 359هـ، وأنشد له هذه الأبيات[4]:

وما ذات بعلٍ مات عنها فجأةً ... وقد وُجد حملاً دوين الترائبِ
بأرض نأت عن والديها ... كليهما تعاورها الوُرّاث من كل جانبِ
فلما استبان الحمل منها تنهنهوا ... قليلاً وقد دبّوا دبيب العقارب
فجاءت بمولودٍ غلام فحوّزت ... تراث أبيه الميّت دون الأقاربِ
فلما غدا للمال ربّاً ونافست ... لإعجابهِ فيه عيون الكواعبِ
وأصبح مأمولاً يخاف ويرتجى ... جميل المحيّا ذا عذارٍ وشاربِ
أتيح له عبل الذراعين مخدرُ ... جرئ على أقرانهِ غير هائبِ
فلم يبقَ منه غير عظم مجزرٍ ... وجمجمة ليست بذات ذوائبِ
باء وجعٌ منّي يوم ولّت حدوجهم ... يؤمّ بها الحادون وادي غبائبِ

كما وردت له أخبار متفرقة عند ابن زولاق[5].

---

(1) المصدر السابق 13/ 158
(2) نفس المصدر.
(3) نفسه 13/ 159
(4) المخدر = الأسد.
(5) راجع أخبار سيبويه المصري، للحسن بن زولاق، ط1، القاهرة 1352هـ/ 1933م.

السرّاج الورّاق(*):

هو عمر بن محمد بن حسن، سراج الدين، الورّاق المشهور، ولد في مصر سنة 615هـ وبها توفيّ سنة 695هـ[1]، ألمحت غالبية المصادر التي ترجمت له إلى إمامته في الشعر والبلاغة، وعدّه صاحب/ النجوم الزاهرة/ شاعر مصر في زمانه بلا مدافعه[2]، فيما تطرّق ابن شاكر الكتبي باسهاب إلى تفوّقه الشعري، وسعة خياله في حسن التصوّر، وقال: ملكت ديوان شعره، وهو في سبعة أجزاء كبار ضخمة بخطّه، هذا الذي اختاره لنفسه وأثبته، فلعل الأصل كان من حساب خمسة عشر مجلّداً، وكل مجلّد يكون مجلّدين، فهذا الرجل أقل ما يكون ديوانه لو ترك جيّده ورديّه في ثلاثين مجلّداً، وأضاف صاحب «فوات الوفيات» وخطه في غاية الحسن والقوة والأصالة، كان حسن التخيّل، جيّد المقاصد، صحيح المعاني، عذب التركيب، قاعد التورية والاستخدام، عارف بالبديع وأنواعه، وكان أشقر أزرق العين، وفي ذلك يقول[3]:

ومـن رآنـي والـحـمـار مـركـبـي ... وزرقـتـي لـلـروم عـرقٌ قـد ضـرب
قـال وقـد أبـصـر وجـهـي مـقـبـلا ... لا فـارس الـخـيـل ولا وجـه الـعـرب

امتهن الوراقة، وحسنِ خطّه أهَّله لأن يكتب الدرج للأمير سيف الدين أبي بكر بن اسباسلار والي مصر.

رحل عن الدنيا بعد أن قارب الثمانين[4].

* آثار الأدبية:

1 - ديوانه في 7 مجلدات، اختار منه الصفدي «لمع السراج»[5].

2 - درّة الغواص/ شعر.

(*) فوات الوفيات 3/ 140، الترجمة رقم (379)؛ النجوم الزاهرة 8/ 83؛ نزهة الجليس 2/ 401 - طبعة بولاق؛ أعلام الزركلي 5/ 63.

(1) النجوم الزاهرة 8/ 83؛ وأعلام الزركلي 5/ 63.

(2) النجوم الزاهرة 8/ 83.

(3) فوات الوفيّات 3/ 140.

(4) أشار صاحب/ فوات الوفيات/ إلى أنه قارب التسعين أو أكثر، وهو غير دقيق، حيث أن ولادته في سنة 615هـ ووفاته في سنة 695، أنظر فوات الوفيات 3/ 140؛ وأعلام الزركلي 5/ 63.

(5) ابن أيبك الصفدي - الوافي بالوفيات ج23 - باب/ عمر بن محمد بن حسن/ وأنظر الزركلي 5/ 63.

3 - شرح درّة الغواص في أوقاف بغداد[1].

أوردت مضان ترجمته، الكثير من أشعاره المنتقاة، وهي تعكس حالة توهجّه الشعري، إضافة إلى مقدرته على تصور حياته في كل صروفها في مهنة الوراقة وغيرها، وإليك هذه الطائفة منها:

وكنت حبيبا إلى الغانيات فألبسني الشيب بعض الرقيب
وكنت سراجا بليل الشباب فأطفأ نورى نهار المشيب

وقال:

بنيّ اقتدي بالكتاب العزيز وراح لديّ سعيا وراجا
فما قال لي أفّ مذ كان لي لكوني أبا ولكوني سراجا[2]

وله أيضاً:

وقالت يا سراج علاك شيب فدع لجديدهِ خلع العذار
فقلت لها نهار بعد ليل فما يدعوك أنت إلى النفار
فقالت قد صدقت وما علمنا بأضيع من سراج في نهار

وقال:

الهي قد جاوزت تسعين حجّة فشكرا لنعماك التي ليس تكفر[3]
وعمّرت في الإسلام فازددت بهجة ونورا، كذا يبدو السراج المعمّر
وعمّم نور الشيب رأسي فسرّني وما ساءني أن السّراج منوّر

وقال[4]:

طوت الزيارة إذ رأت عصر المشيب طوى الزياره

---

(1) الزركلي 5/ 63.

(2) كان كثير ذكر اسمه في شعره كما يقول ابن شاكر الكتبي - فوات الوفيات 3/ 140.

(3) يلاحظ في هذا البيت أنه ذكر «تسعين حجة» وهو أمر يخالف تاريخ ولادته ووفاته، وعلى هذا الأساس ذكر ابن شاكر الكتبي أنه جاوز التسعين - فوات الوفيات 3/ 140 - فيما تجمع غالبية المصادر على ولادته في 615 ووفاته في 695. ولعل في هذا البيت وقع تصحيف في «تسعين» فربما كانت «ثمانين».

(4) فوات الوفيات 3/ 141.

ثم انثنت لمّا انتشت ... بعد الصلابة بالحجارة
وتقول: يا ستي استرحـ ... ـنا لا سراج ولا مناره

وقال أيضاً:

كم قطع الجود من لسانٍ ... قلّد من نظمه النحورا
فها أنا شاعر سراج ... فاقطع لساني أزدك نورا

وله أيضاً[1]:

ولا تحجب الطيف أني عنه محجوب ... لم يبق منيّ لفرط السقم مطلوب
ولا تشق بأنيني أن موعده ... بأن أعيش للقيا الطيّف مكذوب
هذا وخدك مخضوب يشاكله ... دمع يفيض على خدّيّ مخضوب
وليس للورد في التشبيه رتبته ... وإنّما ذاك من معناه تقريب
وما عذارك ريحانا كما زعموا ... فات الرياحين ذاك الحسن والطيب
تأوّد الغصن مهتزا فأنبأنا ... أن الذي فيك خلق فيه مكسوب
يا قاسي القلب لو أعداه رقّيته ... جسم من الماء بالألحاظ مشروب
أرحت سمعي وفي حبيّك من عذلي ... إذا أنت حب إلى العذال محبوب

وقال[2]:

أثنى عليّ الأنام أني ... لم أهج خلقا ولو هجاني
فقلت لا خير في سراج ... ان لم يكن دافي اللسان

وقال في بعض ما يعانيه من الوراقة[3]:

ربّ سامح أبا الحسين وسامحـ ... ـني فشأني وشأنه الإسلام
فذنوب الورّاق كل جريح ... وذنوب الجزار كل عظام

وقال أيضاً بهذا المعنى[4]:

واخجلتي وصحائفي قد سوّدت ... وصحائف الأبرار في اشراق

(1) النجوم الزاهرة 8/ 83 - 84.
(2) فوات الوفيات 3/ 141.
(3) المصدر السابق 3/ 141 - 142.
(4) المصدر ذاته 3/ 142.

وفضيحتي لمعنّف لي قائل: أكذا تكون صحائف الورّاق

وقال:

وباخل يشنأ الاضياف حلّ به ضيف من الصفع نزّال على القمم
سألته ما الذي يشكو فأنشدني «ضيف ألمّ برأسي غير محتشم»[1]

وقال أيضاً[2]:

رأت حالي وقد حالت وقد غال الصّبا فوتُ
فقالت إذ تشاجرنا ولم يخفض لنا صوتُ
فلا خيرٌ ولا ميرٌ ولا أيرٌ فذا موتٌ

وله أيضاً في المجون[3]:

قام فلما دنوت منها نام، وما مثل تلك خجله
وكل كفّي لفرط جذبي له وما للجبان حمله
فزرجنت[4] وانثنت وقالت قوموا انظروا عاشقاً بوصله
فقلت هذا لفرط حبّي قالت دع الترّهات بالله
قلت أقيم الدليل قالت لو قام ما احتجت للأدلّه

وقال في أقرع[5]:

أبدى لنا لما بدا قرعة يحار في تشبيهها القلب
قالوا فهل تشبه يقطينه فقلت لو كان لها لبّ

وقال[6]:

وقائل قال لي لما رأى قلقي لطول وعدٍ وآمال تعنينا

(1) هذا التضمين من قول المتنبي:
«ضيف ألمّ برأسي غير محتشم والسيف أحسن فعلا منه باللّمم»
(2) فوات الوفيات 3/ 142.
(3) فوات الوفيات 3/ 143.
(4) الزرجنة = التخارج والخبّ والخديعة - أنظر القاموس مادة «الزرجنة».
(5) فوات الوفيات 3/ 143.
(6) المصدر السابق 3/ 144.

عواقب الصبر فيما قال أكثرهم محمودة قلت أخشى أن تخزّينا

وله أيضاً في المجون:

جاري في وقفة وجاريتي في وجمة مذ عدمت دبّوسي
أبكي وتبكي وما لنا سبب يدخل في كُسها ولا كيسي

وقال:

سألتهم وقد حثّوا المطايا قفوا نَفَساً فساروا حيث شاؤوا
وما عطفوا عليّ وهم غصون وما التفتوا إليّ وهم ظِباءُ

وقال متغزلاً[1]:

ما حلّ عزمي مثل عقد قبائه بدرا يعد البدر من رقبائهِ
مرح المعاطف تائه بجماله وآه لصبّ تائه في تائهِ
يحلو مقبّله وبرد رضا به «كالأقحوان غداة غِبّ سمائهِ[2]
في شعره وجبينه لي موقف الـ حيران بين ظلامه وضيائهِ
يتشبه الغصن النضير بقدّه يا غصن حسبك لست من نظرائهِ

وله أيضاً في الغزل[3]:

يا نازح الطيف مُرْ نومي يعاودني لقد بكيت لفقد النازحين دما
أوجبت غسلا على عيني بأدمعها فكيف وهي التي لم تبلغ الحلما

وله أيضاً:

ومهفهف عنّي يميل ولم يمل يوما إليّ فقلت من ألم الجوى
لم لا تميل إليّ يا غصن النقا فأجاب كيف وأنت من جهة الهوى

وقال أيضاً[4]:

أقول وكفّي في خصرها يدور وقد كاد يخفى عليّ
أخذت عليك عهود الهوى وما في يدي منك يا خصر شيّ

---

(1) المصدر ذاته 3/ 144 - 145.

(2) التضمين: صدر لبيت للنابغة الذبياني، تتمته: «جفت أعاليه وأسفله ندى» أنظر القصيدة 2 في ديوانه - البيت رقم 33 - ص 37 نشره د. شكري فيصل - منشورات دار الفكر - دمشق 1968م.

(3 - 4) فوات الوفيّات 3/ 146.

الوطواط الورّاق - المصري(*):

هو محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي الأنصاري المعروف بالوطواط الكتبي، ويكنى بجمال الدين، أصله من مرو، ولد بمصر سنة 632هـ وتوفي سنة 817هـ(1)، وصفته المصادر بأنه كان ذا معرفة واسعة في الكتب وقيمتها، إضافة إلى كونه أديباً ماهراً وجمّاعة للكتب(2)، وله نثر حسن.

كانت بينه وبين ابن الخوتي - قاضي القضاة - مودّة، لمّا كان بالمحلّة، فلما تولى قضاء الديار المصرية توهم جمال الدين - الوطواط - أنه يحسن إليه ويبرّه، فسأله فلم يجبه إلى شيء من مقصوده، فاستفتى عليه فضلاء الدين المصرية، فكتبوا له على فتياه بأجوبة مختلفة، وصيّر ذلك كتاباً، وقد راحت به نسخة إلى بلاد المغرب، يقول ابن أيبك الصفدي في هذا الأمر: أخبرني الشيخ أثير الدين أبو حيّان أنه طلب منه أن يجيب على ذلك فامتنع لأن الاجابة اقتضت ذمّ المستفتى عليه، ويضيف: وأما هذه الفتيا المذكورة فقد رأيتها ونقلتها بخطي، وسمّاها: «فتوى الفتوّة ومرآة المروّة»، وقد كتب له فيها الشيخ بهاء الدين بن النحاس، وناصر الدين حسن ابن النقيب، ومحي الدين ابن عبد الظاهر، كتب له جوابي، أحدهما له والآخر عليه، وكتب شرف الدين بن فضل الله والسراج الوراق، وناصر الدين شافع، وشرف الدين القدسي، وشهاب الدين ابن قاضي أخميم، ومكين الدين الجزري، كتب له جوابين، والنصير الحمّامي، وكمال الدين ابن القيلوبي، وعلم الدين ابن بنت العراقي، وشمس الدين الخطيب الجزري، وعلم الدين القمّني، وبدر الدين الحلبي الموقّع، وعماد الدين ابن العفيف الكاتب، وشمس الدين ابن مهنّا، وبدر الدين المنبجي، وأمين الدين ابن الفارغ، وشمس الدين ابن دانيال، والفقيه شعيب، وناصر الدين ابن الاسكاف، ونور الدين المكّي، وآخر لم يذكر اسمه لأنه عاهده على ذلك(3).

تطورت الحالة المعرفية والثقافية عند هذا الورّاق، فأخذ يتخصص بالادب والفكر أكثر من سواهما في بقية الفنون، فترك آثاراً هامّة، منها(4):

1 - كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر - يقع في أربعة مجلدات.

(*) الوافي بالوفيات 2/ 16 - 17؛ الدرر الكامنة 3/ 298 - 299.

(1) الوافي بالوفيات 2/ 16.

(2) المصدر السابق - نفس المكان؛ والدرر الكامنة 3/ 298.

(3) الوافي بالوفيات 2/ 17؛ والدرر الكامنة 3/ 298.

(4) المصادر السابقة - نفس الأمكنة.

2 - كتاب الدُرَر والغُرَر والدِرَرْ والعُرَرْ.

3 - كتاب بخطه «تاريخ ابن الأثير المسمى بالكامل، وقد ناقش المصنّف في حواشيه وغلّطه كما يقول الصفدي[1]، وقد كانت هذه النسخة عند الصفدي ذاته.

لم يسلم الوطواط من ألسنة أهل زمانه، لا سيّما الأدباء والقضاة، فقد عرّض به القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر، لأنه كان يكرهه ويغضّ منه، فشنّع عليه بالتقليد الذي سمّاه السليماني، والذي أنشأه بالولاية لابن غراب على أجناس الطير عرّض فيه بالوطواط، قال في أولّه، بعد أن عمل خاتماً على هذه الصورة «أنه من سليمان وانه»[2].

يقول الوطواط في مقدمة كتابه «مباهج الفكر ومناهج العبر» المخطوط - كما نقله حبيب زيات[3]: «وبعد.. فإني لم أزل من قبل أن يبلغ عمري الأبدار، ويصدني التكليف عن ركوب مطا الخطر في الايراد والاصدار، متخذا الوراقة صناعة وبضاعة، معتمداً عليها في اخلاف ما أتلفه الاتقان والصناعة، حتى سبقت في معرفتها من كان وجيهاً، ورجاني في عوائد موائدها من ظلّ زمانا بنفسه يرتجيها، وكنت قد وكّلت بمراجعة الكتب قلبا، وشغفت بها كلفا وحبّا».

وهذا النص، يكاد يكون بمثابة الرد على منتقديه من أمثال القاضي محي الدين بن الظاهر إضافة إلى أنه اعتراف صريح بمهنة الوراقة، والاعتداد بها كبضاعة أدبية - فنيّة تحتاج إلى خبرة ودراية، ومن هنا فإن النصّ يحمل في ثناياه انتقاداً لمن لا يدركون أهميّة الوراقة، وكيفية الاشتغال بها. ومع ذلك ظل منتقدوه يتعقبون خطاه للنيل منه فقد قال فيه الحكيم شمس الدين ابن دانيال، وهو أرمد[4]:

ولم أقطع الوطواط بخلا بكحله ... ولا أنا من يعييه يوما تردّد
ولكنه ينبو عن الشمس طرفه ... وكيف به لي قدرة وهو أرمد

وقال الصفدي: وأنشدني - يقصد ابن دانيال - فيه لنفسه، أجازة ناصر الدين شافع[5]:

---

(1) الوافي بالوفيات 2/ 17.
(2) أشار المحقق س. ديدرينغ - بأن الصفدي - نقل النص برمته في «أعيان العصر»، أنظر الوافي بالوفيات 2/ 17 هامش (1). ولم نعثر على الكتاب في مكتبات دمشق العامة، وربما كان مخطوطاً.
(3) الوراقة والورّاقون/ ص 25 - وقد نقل النص المخطوط من خزانة دار الكتب المصرية - تحت رقم 359/ ص 2 - أنظر الهامش رقم 1/ عند حبيب زيات.
(4) الوافي بالوفيات 2/ 17؛ والدرر الكامنة 3/ 299.
(5) المصدر السابق 2/ 17.

كم على درهم يلوح حراما يا لئيم الطباع سراً تواطي
دايما في الظلام تمشي مع النا س وهذي عوايد الوطواط

وقال فيه أيضاً:

قالوا نرى الوطواط في سدّة من تعب الكدّ وفي ويل
فقلت هذا دأبه دايما يسعى من الليل إلى الليل

الدولابي الورّاق:

هو الإمام الحافظ أبو بشر محمد بن أحمد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولابي الرازي الورّاق[1]. ينسب الى دولاب، وهي قرية من قرى الري[2]، إستوطن بغداد، في بدء حياته، وكانت ولادته - كما هو يقول - سنة224هـ[3]، ووافاه الأجل وهو بالعَرَجِ - بين مكة والمدينة، في ذي القعة سنة 310هـ[4].

إهتمّ بعلم الحديث أيما إهتمام، حتى عرف من بين أكابر المحدثين، ونعته الذهبي بالإمام الحافظ البارع. تعاطى علوم الحديث، علماً ووراقة، وسمع محمد بن بشار ومحمد بن المثنى وأحمد بن سريج الرازي، وزياد بن أيوب، ومحمد بن منصورالجواز،وهارون بن سعيد الإيلي، وموسى بن عامر المرّي وأبا غسان زنيخ، ومحمد بن إسماعيل بن عليّة، وأبا إسحاق الجوزاني، وأبا بكرمحمد بن عبد الرحمن الجُعْفي، ويزيد بن عبد الصمد، ومحمد بن عوف الحمصي،وطبقتهم. حدّث عنه عبد الرحمن بن أبي حاتم، وأبو أحمد بن عدي، وأبو القاسم الطبراني، وأبو الحسن بن حيويه، وأبو بكر بن المقرئ، وأبو بكرأحمد بن محمد المهندس، وأبو حاتم بن حيان، وهشام بن محمد بن قرة الرعيني وآخرون[5].

قال عنه الدارقطني: يتكلمون فيه وما يتبيّن من أمره إلاّ الخير. وقال عنه ابن عدي: هو متهم فيما يقوله في نعيم بن حمّاد لصلابته في أهل الرأي[6].

ورد إسمه في سند الحديث المروى عن جابر قال: (قال النبي ﷺ إبدأوا بما بدأ الله به، إن الصفا والمروة من شعائر الله)[7].

---

(1) الذهبي: سير اعلام النبلاء 14/ 309، الترجمة رقم 201، وينظر في ترجمته كذلك: المنتظم 6/ 169، والبداية والنهاية 11/ 145، وشذرات الذهب 2/ 260، والزركلي 5/ 308.

(2) السمعاني: الأنساب 5/ 370 - مادة الدولابي - ط3 بيروت1400هـ/ 1980م.

(3) سير أعلام النبلاء 14/ 309.

(4 - 7) المصدر السابق 14/ 310.

إستوطن مصر سنة 260هـ، وكان يورّق على شيوخها[1]، وكانت له مصنّفات أهمها: الكنى والأسماء - جزءآن -[2].

ابن الهيثم الورّاق:

هو محمد بن الحسن بن الهيثم، كنيته أبو علي[3] أصله من البصرة، لقّب بطليموس الثاني، كانت ولادته في سنة 354هـ، ووفاته سنة 430هـ[4] اشتهر بعلم الهندسة، وأجاد بها، وصنّف في هذا العلم الكتب التالية[5]:

1 - المناظر - نشرت ترجمته إلى اللاتينية سنة 1572م.

2 - كيفية الإظلال - ترجم إلى الالمانية ونشر بها مختصرا.

3 - تهذيب المجسطي.

4 - الشكوك على بطليموس «رسالة».

5 - الأخلاق «رسالة» ولم يسبقه بها أحد.

6 - مساحة المجسّم المتكافىء - نشر بالالمانية.

7 - الاشكال الهلالية.

8 - تربيع الدائرة.

9 - شرح قانون اقليدس.

10 - مساحة الكرة.

11 - المرايا المحرقة - ترجم إلى الالمانية ونشر بها.

12 - تفسير المقالة العاشرة لابي جعفر الخازن.

13 - ارتفاعات الكواكب.

14 - مصادرات اقليدس والشكوك عليه.

15 - صورة الكسوف.

---

(1) الأنساب 5/ 370.

(2) الزركلي 5/ 308.

(3) الزركلي/ الأعلام 6/ 83 - 84 - ط5 وجاء عند القفطي/ أخبار العلماء بأخبار الحكماء/ ص 114 «تحت اسم الحسن بن الحسن بن الهيثم - أبو علي المهندس البصري».

(4) الزركلي/ الأعلام 6/ 83.

(5) الاعلام 6/ 84 - وقد ذكر الزركلي - أن مصنفاته زادت على السبعين ويراجع القفطي/ ص 116.

16 - العدد المجسّم.

17 - اختلاف منظر القمر.

18 - استخراج المسألة العددية.

19 - قسمة الخط الذي استعمله اشميدس في الكره.

20 - مقدمة ضلع المسبّع.

21 - رؤية الكواكب.

22 - التنبيه على ما في الرصد من الغلط.

23 - أصول المساحة.

24 - أعمدة المثلثات.

25 - عمل المسبّع في الدائرة.

26 - استخراج أضلع المكعّب.

27 - علل الحساب الهندي.

28 - خطوط الساعات.

وغيرها من المؤلفات.

وبعلم الهندسة، عرف أكثر من غيره من العلماء العرب والمسلمين، فقد كان متقناً له، متفننا فيه، قيّماً بغوامضه ومعانيه، ومشاركاً في علم الأوائل، وأخذ الناس عنه، واستفادوا منه[1].

بلغ أمره خارج حدود بلده العراق، وطارت أخباره إلى أقاصي البلاد الإسلامية فسمع به الحاكم بأمر الله الفاطمي/ صاحب مصر/ فتاقت نفسه إلى رؤيته، حيث أن ابن الهيثم نقل عنه تصريحاً يقول فيه: «لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عال، وهو في طرف الاقليم المصري» وعندما سمع الحاكم بأمر الله ذلك ازداد شوقاً إليه، وسيّر إليه سرّاً جملة من مال، وأرغبه في الحضور، فسافر نحو مصر، ولمّا وصلها خرج الحاكم للقائه، والتقيا بقرية على باب القاهرة المعزية تعرف/ بالخندق/ وأمر الحاكم بإنزاله وإكرامه ريثما استراح، ثم طالبه بما وعد من أمر النيل، فذهب ومعه جماعة من الصنّاع المتولين للعمارة بأيديهم، ليستعين بهم على هندسته التي خطرت له، ولمّا سار بالاقليم ووصل إلى الموضع المعروف

(1) القفطي/أخبار العلماء/ ص 114 - طبعة مصر سنة 1326هـ.

بالجنادل «قبلي مدينة أسوان» وعاين ماء النيل واختبره من جانبيه وضعف عن الاتيان بشيء في هندسته، وتحقّق الخطأ عمّا وعد به، فعاد خجلاً منخذلاً، واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره، ووافقه عليه، فولاّه بعض الدواوين، فتولاها رهبة لا رغبة، ثم تظاهر بالجنون، فضبط الحاكم ما عنده من مال ومتاع وأقام له من يخدمه، وقيّد وترك في منزله، فلم يزل إلى أن مات الحاكم بأمر الله، فأظهر العقل وخرج من داره، فاستوطن قبّة على باب الجامع الأزهر، وأعيد إليه ماله، ثم بدأ الاشتغال بالتصنيف والنسخ «الوراقة» والافادة، وكان له خط قاعدي غاية في الصحة[1].

وضمن اختصاصه كعالم هندسة كان ابن الهيثم يوافق بين هذا الاختصاص ومهنة الوراقة، فقد كان يعطي جزءاً من وقته إلى علومه ومعارفه الهندسية، ويراجع علوماً، ويؤلف بها حتى عُرف أنه كان ينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب باختصاصه هي: اقليدس، والمتوسطات، والمجسطي، ويستكملها في مدة السنة، فإذا شرع في نسخها، جاء من يعطيه فيهم مائة وخمسون ديناراً مصرية، وصار ذلك كالرسم الذي لا يحتاج فيه إلى مواكبة ولا معاودة قول، فيجعلها مؤنته لسنة، ولم يزل على ذلك إلى أن مات بالقاهرة سنة 340هـ أو بعدها بقليل[2].

* استطراد:

نقل الزركلي في هامش ترجمة ابن الهيثم العبارات التالية من كتاب «الناطقون بالضاد»، وجاء في «تراث الإسلام» أن علم البصريات وصل إلى أعلى ذروة من التقدم بفضل ابن الهيثم، ويقول سارطون: «إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى، ومن علماء البصريات القلائل في العالم كله»[3].

من نوادر الورّاقين المصريين

بعدما أُسقطت الخلافة الفاطمية - بمصر من قبل صلاح الدين الأيوبي، سنة 567هـ، قرّر أن يبيع مكتبات الفاطميين بالمزاد العلني وقد نافت على «مليوني كتاب» وفق تقديرات

(1) القفطي/ أخبار العلماء/ ص 115؛ والأعلام 6/ 84.
(2) أخبار العلماء/ ص 115.
(3) الأعلام 6/ 84 - الهامش رقم 1.

أبي شامة[1] مؤرخ صلاح الدين الأيوبي، والذي ذكر، أيضاً، بأن البيع في - القصر الفاطمي - كان يومان في الإسبوع، وقد تولّى بيعها الدَلاّل، ابن صورة، واستمر البيع عِدّة أعوام[2]. وقد توقّف أبو شامة مع حادثةٍ طريفة، أثناء عمليات بيع الكتب هذه، فيقول: «وكان لبيع الكتب في القصر يومان في الإسبوع، وهي تباع بأرخص الأثمان، وخزائنها في القصر مرّتبة البيوت، مقسَّمة الرفوف، مفهرسَة بالمعروف، فقال دلاّلو الكتب لبهاء الدين قراقوش، متولي القصر وصاحب النهي والأمر: أن هذه الكتب قد عاثَ فيها العِثْ وتساوى ثمينها والغَث، ولا غنىً عن تهويتها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة إلى أرضها، وهو تركي لا خبرة له بالكتب ولا دراية له بأسفار الأدب، وكان مقصود دلاّلي الكتب أن يوكِسوها/ أي يبخسوا ثمنها » ويخرموها ويعكسوها، فأُخرجت وهي أكثر من مئة ألف من أماكنها وعُرّيت من مساكنها، وخُرّبت أوكارها، وذهبت أنوارها، وشتّت شملها، وبُتَّ حبلها، واختلط أدبيّها بنحويّها وشرعيّها بمنطقيّها وطبيّها بهندسيّها، وتواريخها بتفاسيرها، ومجاهيلها بمشاهيرها، فكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار ومصنفات الأخبار، ما يشمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مُجلّداً، إذا فقد منها جزءٌ لا يُخلَّفْ أبداً، فاختلطت واختبطت، فكان الدَلال يخرج عشرةً عشرةً من كل فن كُتباً مبعثرة، فتُسام بالدون، وتباع بالهون، والدَلاّل يعرف كل شَدّة وما فيها من عِدّة، ويعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيرهُ في ابتياعها، حتى إذا لفق «القضاء» كتاباً قد تقوَّم عليه بعشرة، باعَه بعد ذلك لنفسهِ بمائة»[3].

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين 1/ 200.

(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين 1/ 200.

(3) كتاب الروضتين 1/ 268 - كما أورد نص الخبر - د. حمادة ماهر محمد بكتابه/ المكتبات في الإسلام/ ص 120 - 121.

الفصل الثالث

وَرّاقوُ بلاد الأندلس

وَرّاقو القاضي أبو مطرف:

هم ستّة ورّاقين، لم يذكرهم ابن بشكوال، بل جاء ذكرهم عنده، في سياق مكتبة القاضي أبو مطرف (عبد الرحمن بن محمد بن عيسى) حيث قال عنه: «كان حسن الخط جيّد الضبط جمع من الكتب في أنواع العِلم ما لم يَجمعهُ أحد من أهل عصره بالأندلس. . . وكان لهُ ستة ورّاقين ينسخون دائماً، وكان قد رتّبَ لهم على ذلك راتباً معلوماً»[1].

ورّاقات من قُرطبة:

ذكر المؤرخ الشامي - محمد كرد علي - أنّه كان بالربض الشرقي من مدينة قرطبة مائة وسبعون إمرأة، كُلُّهُنَ يكتبنَ المصاحف بالخط الكوفي[2].

سَهَمُ الوراق:

هو سهم بن إبراهيم الوراق، أحد شعراء القرن الثاني للهجرة، من أبناء القيروان ومن أدبائها المعروفين[3].

لم تذكر المصادر التي ذكرته تاريخ ولادته أو وفاته[4]، وأكتفى ياقوت الحموي بذكر أبيات من شعره، قالها في حصار أبي يزيد مخلد الخارجي لمدينة سوسة، والتي تقع ضمن

(1) إبن بشكوال - كتاب الصلة 1/ 298.

(2) راجع كرد علي/الإسلام والحضارة العربية 1/ 256 - الطبعة الثانية - لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1950م.

(3) معجم الأدباء 11/ 267 - الترجمة رقم (88).

(4) المصدر السابق وحبيب زيات/ ص 32.

حياض مدينة القيروان الجغرافي، وقد دام حصار الخارجي لها شهوراً[1] والأبيات هي[2]:

إن الـخـوارج صـدهـا عـن سـوسـة مـنـا طـعـان الـسـمـر والإقـدام
وجـلاه أسـيـاف تـطـايـر دونـهـا فـي الـنـقـع دون الـمـحـصـنـات الـهـام

ظفر البغدادي الوراق:

هكذا جاء اسمه في المصادر، عراقي الأصل، من بغداد، وفد على قرطبة وسكن بها، وكان من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط كعباس بن عمرو الصقلي ويوسف البلوطي وطبقتهما واستخدمه الحكم المستنصر بالله في الوراقة لما علم من شدة اعتناء الحكم بجمع الكتب واقتنائها[3].

عباس بن عمرو الصقلي الوراق:

ذكره ابن الابار في «التكملة لكتاب الصلة» في ترجمة ظفرالبغدادي الوراق[4].

الغِفاري الوراق:

هو علي بن عبد الله بن موسى بن طاهر الغفاري السرقسطي، كنيته أبو الحسن البرجي[5].

لم يذكر السيوطي تاريخ ولادته، بل أشار إلى تاريخ وفاته، حيث قال: مات بوادي آش في حدود الأربعين وخمسمائة[6]، لكنه يذكر في نهاية ترجمته ما يلي: تجول في أقطار الأندلس، واستقر بآخرة في وادي آش وأقرأ بها، وذبح بها سنة خمس أو ست وثلاثين وخمسمائة[7].

قال عنه ابن الزبير: كان عالماً بالنحو واللغة والأدب، بارع الخط، حسن الوراقة، جيد الشعر، ذا رواية ودراية. روى عن أبي علي الصدفي وجماعته، ولم يكن شعره

---

(1) أنظر تفاصيل ذلك عند ياقوت الحموي في معجم البلدان 3/ 282 - مادة (سوسة).
(2) معجم الأدباء 11/ 267 - 268 ومعجم البلدان 3/ 282.
(3) المقري - نفح الطيب 3/ 111 - الترجمة رقم (61) طبعة دار صادر تحقيق د. إحسان عباس وابن الأبار - التكملة لكتاب الصلة 1/ 347 - الترجمة رقم (936).
(4) ابن الأبار - التكملة لكتاب الصله 1/ 347 - الترجمة رقم (936). تحقيق عزت عطار الحسيني - مطبعة السعادة بمصر سنة 1375هـ/ 1955م.
(5) السيوطي/ بغية الوعاة/ ص 340؛ وحبيب زيات/ ص 19.
(6 - 7) بغية الوعاة/ ص 340.

بالكثير، روى عنه غالب بن محمد وهشام العوفي، وأبو مروان الصيقلي، ويحيى بن إبراهيم التغلبي[1].

الغافقي الورّاق:

هو أبو القاسم محمد بن حمدون، أصله من كورة «موزورو» وسكن اشبيلية، ثم رحل إلى قرطبة، وروى عن أحمد بن خالد ونظرائه، وعني بكتب اللغة، وحفظها، وكان له حظٌّ في الفقه[2].

محمد بن يوسف الورّاق:

كنيته أبو عبد الله التاريخي الوراق[3] نشأ بالقيروان، وكان أهله من وادي الحجارة ومدينة قرطبة، وكانت هجرته إليها. عشق التاريخ والأدب، ومارس مهنة الوراقة في قرطبة[4].

ولد سنة 292هـ وتوفي بقرطبة سنة 362هـ على ما ذكره الزركلي[5].

سطعت شهرته على الأندلس، فاستدعاه الحكم المستنصر، وألفَ له كتباً ضخمة أغلبها في التاريخ منها[6]:

1 - مسالك افريقية وممالكها، وألف في أخبار ملوكها.

2 - أخبار تيهرت، ووهران، وتنس، وسلجماسة، ونكور، والبصرة[7].

يوسف البلوطي الوراق:

ذكره ابن الأبار في «التكملة» في ترجمته ظفر البغدادي الوراق[8].

---

(1) بغية الوعاة/ ص 340.

(2) الزبيدي/ طبقات النحويين واللغويين/ ص 329. نشرة محمد أبو الفضل - ط 1 - سنة 1373هـ/ 1954م.

(3) الحميدي/ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس/ ص 91 - الترجمة رقم (160). تحقيق محمد بن تاويت الطنجي - طبعة القاهرة 1371هـ؛ والضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس/ ص 141 - الترجمة رقم (304) نشرة دار الكاتب العربي؛ والزركلي/ الأعلام 7/ 148 - ط5.

(4) جذوة المقتبس/ ص 91؛ وبغية الملتمس/ ص 141.

(5) الأعلام 7/ 148.

(6) المعطيات السابقة جميعها.

(7) يقصد «بصرة المغرب» وهي مدينة تقع بالقرب من مدينة أصيلة - ياقوت - معجم البلدان 1/ 440.

(8) ابن الأبار - التكملة لكتاب الصلة 1/ 347 - الترجمة رقم 936 - تحقيق عزت العطار الحسيني - مطبعة السعادة بمصر سنة 1375هـ/ 1955م.

الفصل الرابع:

وَرّاقو بلاد فارس

الزوزني الوَرّاق:

هو محمد بن إسحاق الزوزني - صاحب كتاب المعلقات السبع - والورّاق الأديب المعروف بخطّه الرائق، والمتوفى سنة 463هـ، اشتهر بالتأليف والكتابة والنسخ أيضاً، يقول عنه ياقوت الحموي: «أنّه كان ينسخ كتب الأدب بخطٍّ مقروء صحيح أحسن النسخ»[1] ويذكره بحادثة بيع كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي، والتي كانت بخطٍّ يده، حيث بيعت تلك النسخة من كتاب - الثعالبي بـ«ثلاثين ديناراً نيسابورية» رغم أنها تساوي أكثر من ذلك، كما يقول ياقوت الحموي[2]، توفي الزوزني سنة 463هـ.

الوَرّاق الخراساني:

لم تذكرهُ المصادر بالإسم، ولا نُوّه بهِ، ورد ذكرهُ عند ابن النديم في سياق حادثة بيع كتاب العَين للفراهيدي سنة 248هـ، على النحو التالي: «قال أبو بكر بن دريد: وقع بالبصرة كتاب العين، سنة ثمان وأربعين ومئتين قَدِمَ بهِ وَرّاق من خُراسان، وكان - الكتاب - في ثمانية وأربعين جزءاً، فباعَهُ بخمسين ديناراً، وكان سُمِعَ بهذا الكتاب أنَّهُ بخراسان في خزائن الطاهرية حتى قدم بهِ هذا الورّاق»[3].

أبو حاتم الوراق:

ذكره الثعالبي في «اليتيمة» وقال عنه: «من قرية كشم من رستاق نيسابور، وَرَّقَ

(1) معجم الأدباء 15/ 121 - 122.

(2) نفس المصدر 18/ 20.

(3) ابن النديم/ كتاب الفهرست/ ص 64 - وراجع كذلك محمد ماهر حمادة/ المكتبات في الإسلام/ ص170.

بنيسابور خمسين سنة[1]، وأورد له هذه الأبيات في ذم الوراقة:

إن الـــوراقـــة حـــرفـــة مـــذمـــومـــة ... مـــحـــرومـــة عـــيـــشـــي بـــهـــا زمـــن
إن عـــشـــت عـــشـــت ولـــيـــس لـــي اكـــل ... أو مـــتُّ مـــتُّ ولـــيـــس لـــي كـــفـــن

وله أيضاً وهي ملحه في نور الخلاف المسكي[2]:

كـــأن نـــور شـــجـــر الـــخـــلاف ... اكـــف ســـنـــور بـــلا خـــلاف

العكبري الورّاق:

هو الحسن بن شهاب بن الحسن بن علي بن شهاب، كنيته أبو علي العكبري[3] ولد بعُكبُر في المحرم سنة 335هـ ومات سنة 428هـ[4].

سمع الحديث على كبرِ السنِ من أبي علي بن الصواف، وأحمد بن يوسف بن خلاد، وأبي علي الطوماري، وحبيب بن الحسن القزاز، ابن مالك القطيعي، ومن بعدهم، وكان فاضلاً يتفقه على مذهب أحمد بن حنبل، ويقرىء القرآن، ويعرف الأدب، ويقول الشعر، قال الخطيب البغدادي: كتبت عنه بعكبرا[5]. كان ثقة أمين، قال عنه عيسى بن أحمد الهمذاني: قال لي علي بن شهاب يوماً: أرني خطك، فقد ذكر لي أنك سريع الكتابة. فنظر فيه فلم يرضه، ثم قال لي: كسبت في الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية، قال: وكنت أشتري كاغداً بخمسة دراهم، فاكتب فيه ديوان المتنبي في ثلاث ليالٍ، وأبيعه بمائتي درهم، وأقله بمائة وخمسين درهماً، وكذلك كتب الأدب المطلوبة[6].

قال الخطيب البغدادي: «سمعت الأزهري يقول: أخذ السلطان من تركة ابن شهاب ما قدره ألف دينار، سوى ما خلفه من الكروم والعقار، وكان أوصى بثلث ماله لمتفقهة الحنابلة، فلم يعطوا شيئاً»[7].

---

(1) الثعالبي/يتيمة الدهر 4/ 403 - ط المطبعة الحسينية بمصر - القاهرة 1352هـ/ 1934م. وراجع كذلك، كوركيس عواد/خزائن الكتب القديمة في العراق/ ص 13.
(2) يتيمه الدهر 4/ 403.
(3) تاريخ بغداد 7/ 329 - الترجمة رقم (3844)؛ والمنتظم لابن الجوزي 8/ 92.
(4) المصدر السابق 7/ 329 - 330.
(5) نفس المصدر 7/ 329.
(6) نفسه.
(7) ذات المصدر 7/ 330.

الهَرَوي الوراق:

هو الإمام الحافظ، مُحَدث هراة[1] الحاكم أبو عبد الله الحسين بن محمد الكُتبي الهروي المؤرخ[2].

رجل صالح، من أهل هَراة، مارس الوراقة، كبائع كتب، وعُرف بلقب الكتبي.

كانت وفاته - على ما ذكر الذهبي - سنة 496هـ وله 87سنة[3]، وبذا تكون سنة ولادته هي 409هـ.

اختصَّ بعلوم الحديث، وسمع سعيد بن العباس القُرشي، والحافظ أبا يعقوب القرّاب، وسالم بن عبد الله أبا معمر وطبقتهم. وعنه أخذ، أبو النضرالفامي، وعبد الرشيد بن ناصر، وعبد الملك بن عبدالله، ومسعود بن محمد الغانمي، وآخرون.

أثنى عليه السمعاني، وقال: له عناية تامة بالتواريخ، ويلقب بحاكم كُراسة[4].

الدِهكي الورّاق:

هو علي بن إبراهيم بن محمد الدِّهكي، نسبتهُ إلى قرية «دِهَك» إحدى قُرى الري، قال ياقوت: «هكذا وجدتهُ بخط عبد السلام مكسور الدَّال والمحدثون يفتحونها»[5].

كنيته أبو القاسم، وهو واحد من رواة الأخبار وجمّاعي الأشعار، وهذا الأمر يتصل باختصاصه كونه ورّاقاً للأدب والأُدباء، فقد أجاز له أبو الفرج الأصبهاني قراءة عليه، كتاب أشعار بني ربيعة الجوع[6] وكتاب الأغاني، ويقول ياقوت: «وقعت لنا إجازة متصلة إليه عنه»[7].

لم يتطرق ياقوت إلى تاريخ ولادته أو وفاته.

---

(1) هَراة = من أُمهات المُدن في خُراسان، والنسبة إليها - هَرَوي - راجع ياقوت/ معجم البلدان 5/ 396.

(2) الذهبي/ سير أعلام النبلاء 19/ 152 - الترجمة رقم (78).

(3) المصدر السابق.

(4) نفس المصدر، ولم أجد ثناء السمعاني في الأنساب، وتبقى العُهدة على الذهبي.

(5) معجم الأدباء 12/ 216 - الترجمة رقم (53).

(6) ربيعة الجوع: هو ابن مالك بن زيد أبو حي، أحد أفخاذ تميم - المصدر السابق - الهامش رقم (10).

(7) معجم الأدباء 12/ 217.

الجرجاني الورّاق:

هو محمد بن أحمد، كنيته أبو الحسن الجرجاني الورّاق[1]، أصله من جرجان، وبها عاش.

عُرف عنه تشيعهُ وانحيازه إلى الطالبيين بشعره، قال المرزباني: رأيته سنة 308هـ في نيسابور وكان يرثي ليلى بنت النعمان، فقتله أصحاب نصر بن أحمد، وأنفذوا رأسه إلى الحضرة - يقصد بغداد - والقصيدة هي[2]:

ألا خَلِّ عينيك اللجوجين تدمعا | لمؤلم خطب قد ألمَّ فأوجعا
وليس عجيباً أن يدوم بكاهما | وأن يمترى دمعيهما الوجد أجمعا
ولمّا نعاه الناعيان تبادرت | عليه عيون الطالبيين همّعا

ومنها:

بكته سيوف الهند لما فقدنه | وآضت جياد الخيل حسرى وظُلّعا
وكان قديماً يرتع البيض في العلى | فأصبح للبيض المباشر مرتعا
وما زال فرّاجاً لكلّ عظيمة | يظلّ لها قلب الكميّ مروّعا
فلم يرَ إلاّ في المعالي مشمّرا | ولم يلفِ إلاّ في المعالي موضعا
أصيب به آل الرسول فأصبحوا | خضوعاً وأمسى شعبهم متصدّعا
لقد عاش محموداً كريماً فعاله | ومات شهيداً يوم ولّى فودّعا
فقد ثلم الدهرُ العلاءَ بموته | وأوهن ركن المجد حتى تضعضعا
فلا حملت بعد ابن ليلى عقيلة | ولا أرضعت أم يد الدهر مرضعا

أبو الحسين الوراق النيسابوري - الصوفي:

هو محمد بن سعد، وكنيته أبو الحسين الورّاق، واحد من كبار مشايخ الصوفية بينسابور، ومن أصحاب أبي عثمان النيسابوري، كان واسع العلم بالشريعة وعلماً بعلوم الظاهر، يتكلم بدقائق علوم المعاملات وعيوب الأفعال، مات سنة العشرين وثلاثمائة[3].

---

(1) الصفدي/ الوافي بالوفيات 2/ 35 - الترجمة رقم 294؛ والمرزباني/معجم الشعراء/ ص 463 - 464.

(2) معجم الشعراء/ ص 464؛ والوافي 2/ 35 - 36.

(3) طبقات الصوفية للسلمي/ ص 299 وما بعدها - تحقيق نور الدين شريبة - جماعة الأزهر للنشر =

نقلت المصادر عنه غرر الأقوال، وتدارست شيوخ الصوفية ومريديها كلامه وحكمه، ومن أقواله المشهورة:

1 - الكرم في العفو أن لا تذكر جناية صاحبك، بعد أن عفوت عنه[1].

2 - اللئيم لا يوفّق للعفو من ضيق صدره[2].

3 - لا يصل العبد إلى الله إلا بالله، وبموافقة حبيبه ﷺ[3].

4 - من غض بصره عن محرم، أورثه الله بذلك حكمة على لسانه يهتدي بها سامعوه. ومن غض بصره عن شبهةٍ، نور الله قلبه بنور يهتدي به إلى طريق مرضاته[4].

أبو بكر الترمذي الورّاق الصوفي:

هو أبو بكر محمد بن عمر الحكيم ويعرف بالحكيم البلخي[5]، قطب من أقطاب الصوفية، وأحد المشايخ المعروفين فيهم، أصله من ترمذ، وأقام ببلخ، وعاشر علمائها وصحب منهم، أحمد بن خضروية، ومحمد بن سعيد بن إبراهيم الزاهد ومحمد بن عمر بن خشنام البلخي.

أشارت مصادر ترجمته إلى أنه توفي سنة 280هـ[6]، وذكر له عدة مصنّفات في أنواع الرياضات والمعاملات والآداب الصوفية.

تأثّر به الكثير، ونقلوا عنه الاحاديث والأخبار في علم التصوّف وعلوم الحديث، ورد اسمه في أكثر من سند للحديث النبوي، ولم يطعن به، أشهرها الحديث المروى عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أن من أعظم الامانة عند الله، الرجل يفضي إلى إمرأته وتفضي إليه ثم لا ينشر سرّها»[7].

= والتأليف. ط1، القاهرة 1372هـ/ 1953م؛ والمنتظم لابن الجوزى 6/ 240 - الترجمة رقم (388)؛ ومعجم طبقات الصوفية للدكتور عبد المنعم الحفني/ ص 265 - منشورات دار المسيرة - بيروت - ط2 - 1987م.

(1 - 3) طبقات الصوفية/ ص 299.

(4) المنتظم 6/ 240.

(5) طبقات الصوفية/ لأبي عبد الرحمن السّلمي/ ص 221 - 227 - الترجمة رقم (13)؛ والرسالة القشيرية للقشيري/ ص 22؛ وحلية الأولياء/ لأبي نعيم الاصبهاني 10/ 235 - الترجمة رقم (565)؛ والطبقات الكبرى للشعراني 1/ 120 - 121؛ ومعجم المؤلفين لكحالة 11/ 78.

(6) كحالة/ معجم المؤلفين 11/ 78.

(7) حلية الأولياء 10/ 236.

شكلت أقواله مواعظ دينية للمتصوفة، وراحوا يتناقلونها في مجالسهم وأحاديثهم، ويرونها للناس، منها:

1 - من أرضى الجوارح بالشهوات، غرس في قلبه شجر الندامات.

2 - لو قيل للطمع من أبوك، قال الشك في المقدور، ولو قيل ما حرفتك، قال: اكتساب الذل، ولو قيل ما غايتك قال: الحرمان[1].

3 - الناس ثلاثة: العلماء والأمراء والقرّاء، فإذا فسد الأمراء، فسد المعاش، وإذا فسد العلماء، فسدت الطاعات، وإذا فسد القرّاء، فسدت الأخلاق.

4 - للقلب ستة أشياء: حياة وموت، وصحة وسقم، ويقظة ونوم، فحياته الهدى، وموته الضلالة، وصحته الطهارة والصفاء، وسقمه الكدورة والعلاقة، ويقظته الذكر، ونومه الغفلة.

5 - صاحب العقلاء بالإقتداء والزهّاد بحسن المداراة والحمقى بجميل الصبر[2].

قال محمد بن حامد: قلت لأبي بكر الورّاق: علّمني شيئاً يقرّبني إلى الله تعالى، ويقربني من الناس، فقال: أما الذي يقرّبك إلى الله فمسألته، وأمّا الذي يقرّبك إلى الناس فترك مسألتهم[3].

ومن أقواله المشهورة «من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه، تزندق، ومن اكتفى بالوهد دون الفقه والكلام تبدّع، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والكلام تفسّق، ومن تفنّن في هذه الأمور كلّها، تخلّص[4].

ونقل عنه: «لا تصحب من يمدحك بخلاف ما أنت عليه أو بغير ما فيك، فإنه إذا غضب عليك ذمّك بما ليس فيك». وقال: «أزهد في حبّ الرياسة والعلوّ في الناس، إن أحببت أن تذوق شيئاً من سبل الزاهدين»[5].

(1) الرسالة القشيرية/ ص 22.
(2) طبقات الصوفية/ ص 222 - 224.
(3) طبقات الصوفية/ ص 224.
(4) المصدر السابق نفسه.
(5) المصدر السابق/ ص 227.

الفصل الخامس

تراجم عَارضة

الأعسر الورّاق:

هكذا ورد اسمه عند الثعالبي في «خاص الخاص» باللّقب دون أن يذكر اسمه[1] ونقل عنه تشائمه من الوراقة وضجره منها قائلاً: «ما خلق الله أشقى من الوراق ولا اشأم من الوراقة فالألف آفة والباء بخس والتاء تعس والثاء ثلم والجيم جحد والحاء حرقة والخاء خوف والدال داء والذال ذل والراء ريب والزاي زجر والسين سم والشين شين والصاد صد والضاد ضر والطاء طَرْ والظاء ظلام والعين عيب والغين غم والكاف كفر والفاء فقر والقاف قبر واللام لوم والميم مرق والنون نوح والواو ويل والهاء هوان والياء يأس قيل له: فلام الألف قال: هو والله جلم يقطع الرزق ويجلب الحرق»[2].

أبو بكر القنطري وأبو الحسين بن الخراساني:

هكذا ذكرهما ياقوت بالكنية، دون أن يذكرهما بالأسم، في سياق خبرٍ يتحدث عن خبر أبي سعيد وكيفية بيع كتبه، وجاء ذلك في ترجمة الحسن بن عبد الله المَرزباني قال فيه: وإمّا إعطاء أبي سعيد خطه، فيوشك أن يكون من جنب ما حدثني به المعروف الخزّاز الوراق ببغداد، وأبو بكر القنطري، وأبو الحسين بن الخراساني، **وهما وراقان أيضاً من جلّة أهل هذه الصُنْعة**[3].

أبو الفتح بن الحراز الوراق:

ورد ذكره عند ياقوت الحموي في ترجمة **علي بن الحسين أبو الفرج الأصبهاني** وعلى النحو التالي: «قال ابن عبد الرحيم، حدثني أبو نصر الزجاج قال: كنت جالساً مع أبي

(1) الثعالبي/ خاص الخاس/ ص 75 - طبعة بيروت 1966م.

(2) المصدر السابق.

(3) معجم الآدباء 8/ 189 بترجمة الحسن بن عبد الله المَرزباني - الترجمة رقم (14).

الفرج الأصبهاني في دكان في سوق الوراقين وكان أبو الحسين علي بن يوسف البقال الشاعر، جالساً عند أبي الفتح بن الحراز الوراق وهو ينشد أبيات إبراهيم بن العباسي الصولي:

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت(1)

الحسن بن أحمد الوراق:

ورد ذكره عند ابن النجار في ترجمته لأبي الفضل الشيباني الوراق، وفي سياق سند حديث نبوي «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»(2).

ابن حُبيش الوراق:

هو أبو القاسم الحسين بن حُبيش الوراق. ذكرهُ ياقوت الحموي في ترجمة الطبري(3)، على النحو التالي: قال أبو القاسم الحسين بن حبيش الوراق: كان قد التَمَسَ منيّ أبو جعفر الطبري أن أجمع له كُتب الناس في القياس، فجمعت له نيفاً وثلاثين كتاباً، فأقامت عنده مُديدة(4).

أبو حفص الوراق:

لم تذكر المصادر عنه شيء ما، وورد اسمه عند ابن الرومي في جملة أبيات هجاه فيها هي(5):

قالوا هجاك أبو حفص فقلت لهم لا شبَّ قرن أبي حفص ولا زرعا
لئن هجاني وفرط الجهل أوقعه لقد تزوج أيضا بعدما صلعا
قد قلت اذ قبل: قد زفّت خليلته صبرا كاني بقرن الشيخ قد طلعا
طلقتها منه ان عفّت له أبداً ما أبصرت منه ذاك المنظر الشنعا
اقبح بوجه أبي حفص وعفّتها هذان شيئان لا والله ما اجتمعا

(1) معجم الأدباء 13/ 112.
(2) ذيل تاريخ بغداد لإبن النجار 1/ 183 - الترجمة رقم (89) طبعة حيدر آباد - 1398هـ/ 1978م.
(3) معجم الأدباء 18/ 81 - الترجمة رقم (17).
(4) المصدر السابق - نفس المكان.
(5) ديوان ابن الرومي 4/ 1472 طبعة د. حسين نصار - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1978م وراجع كذلك محاضرات الراغب الأصبهاني 2/ 128 طبعة حسين أفندي شرف.

حمّاد بن الحسين الوراق:

ورد ذكره عند الخطيب البغدادي في ترجمة عبد الله بن العباس الشمعي على النحو التالي: حدّث - يقصد الشمعي - عن علي بن حرب الطائي وحمادة بن الحسين الوراق وأحمد بن ملاعب وغيرهم[1].

سُذاب الورّاق:

ذكرته الكثير من المصادر بهذا اللقب ولم تشر إلى اسمه الصريح، وذكره جاء بترجمة المبرد، وفي سياق نادرة حصلت للمبرد معه، على النحو التالي: قال المبرد ما تنادر أحّد علي ما تنادر به سذاب الوراق، فاني اجتزت يوماً به وهو قاعد على باب داره فقال لي: إلى أين؟ ولاطفني وعرض عليَّ القرى فقلت له: ما عندك؟ فقال: عندي أنت وعليه أنا، يشير إلى اللحم المبرد بالسذاب[2].

صالح الورّاق:

ذكره ياقوت الحموي في ترجمة أبي حيان التوحيدي، في سياق حادثة رواها أبو حيان نفسه، قال: وقال لي يوماً أحّد - يقصد الصاحب بن عباد وهو قائم في صحن داره.

والجماعة قيام، منهم الزعفراني، وكان شيخاً كثير الفضل، جيد الشعر، ممتع الحديث، والتميمي المعروف بسطل، وكان من مصر. والأقطع، وصالح الوراق، وابن ثابت وغيرهم من الكتاب والندماء[3].

عبد الحميد الوراق:

ورد عند ابن الجوزي في سياق الحديث عن ابن بنت منيع والخبر الخاص بالسهو في أحد أسماء أسانيدهُ، وورد على النحو التالي: أخبرنا عبد الغني بن سعيد الأسدي قال: سألت أبا بكر محمد بن علي النقاش، تحفظ شيئاً مما أخذ على ابن بنت أحمد بن منيع فقال لي: كان غلط في حديث عن محمد بن عبد الوهاب عن ابن شهاب عن أبي إسحاق

---

(1) تاريخ بغداد 10/ 37.

(2) ابن خلكان/ وفيات الأعيان 4/ 317 - ترجمة المبرد - والخبر أورده الثعالبي في خاص الخاص وجئنا على ذكره في: نوادر الوراقين/ من هذه الدراسة.

(3) معجم الأدباء 15/ 29.

الشيباني عن نافع عن ابن عمر فحدث به بن محمد بن عبد الوهاب وإنما سمِعه من إبراهيم بن هاني عن محمد بن عبد الوهاب فأخذه عبد الحميد الوراق بلسانه ودار على أصحاب الحديث وبلغ ذلك أبا القاسم ابن بنت أحمد بن منيع. . الخ[1].

عبد الله بن أبي سعد الورّاق:

ذكره ياقوت الحموي، في ترجمة الكسائي/ علي بن حمزة/ في سياق خبر يقول[2]: «حدّث المرزباني، حدّث محمد بن ابراهيم، حدّثنا عبد الله بن أبي سعد الوراق، حدّثنا النعمان بن هارون الشيباني قال: كان أبو نواس يختلف إلى محمد بن زبيدة «الأمين» وكان الكسائي يُعلمه النحو، فقال أبو نواس: أني أريد أن أُقبل محمداً قبلة. فقال الكسائي: إن عليَّ في هذا وصمة، وأكره أن يبلغ هذا أمير المؤمنين، فقال أبو نواس: أنَّك إن تركتني أُقَبِّلُهُ وإلاَّ قلت فيك أبياتاً أرفعها إلى أمير المؤمنين، فأبى عليه الكسائي، وظنَّ أنه لا يفعل، فكتب أبو نواس رقعةً فيها:

قُــل لــلإمــامِ جــزاك الله صــالــحــة ... لا يجمع الدهر بين السخلِّ والذيبِ
فــالــسـخـلُ غِـرٌّ وهـمُّ الـذئـب غـفـلـتـه ... والذئب يعلم ما بالسخلِ من طيبِ[3]

أبو مسحل الوراق:

ذكره ياقوت في معرض حديثه عن علي بن المغيرة الأثرم الوراق قال: حدث أبو مسحل عبد الوهاب قال: كان إسماعيل بن صبيح الكاتب قد أقدم أبا عبيد من البصرة في أيام الرشيد إلى بغداد وأحضر الأثرم، وهو يومئذ وراق وجعله في دارمن دوره وأغلق عليه الباب ودفع إليه كتب أبو عبيد وأمره بنسخها وكنت أنا وجماعة من أصحابنا نصير إلى الأثرم، فيدفع إلينا الكتاب والورق الأبيض ومن عنده ويساءلنا نسخه وتعجيله، ويوافقنا على الوقت الذي نرده إليه فكنا نفعل ذلك[4].

علي بن بقاء الوراق:

ورد اسمه عند ابن الجوزي في سياق حديثه عن أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي

---

(1) المنتظم 6/ 229 - 230.
(2) معجم الأدباء 13/ 179 - 180 - الترجمة رقم (24).
(3) راجع بقية الخبر في المصدر السابق.
(4) معجم الأدباء 15/ 77 - 78 - في ترجمة الأثرم.

وهو ينقل حديثه الذي أخطأ في أسماء إسناده وورد على النحو التالي: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت قال: حدثني العلاء بن أبي المغيرة الأندلسي، أخبرنا **علي بن بقاء الوراق**، أخبرنا عبد الغني الأسدي قال: سألت أبو بكر محمد بن علي النقاش: تحفظ شيئاً مما أخذ على ابن بنت أحمد بن منيع؟... الخ[1].

علي ابن عبد العزيز الوراق:

ذكره وكيع قال: أخبرنا **علي بن عبد العزيز الورّاق** قال: حدثنا اسحق بن إسماعيل قال: حدثنا جرير عن ابن شبرما قال: قال الحسن بن سيرين: سفعاً سفعاً ودفعاً دفعاً عنا للخازم وأراك لا أهل تعبير الرؤية كأنك من آل يعقوب[2].

الدينوري الورّاق:

هو أبو سعيد عمر بن أحمد الدينوري الوراق، ذكرهُ **ياقوت الحموي**، في معرض حديثه عن كتاب الطبري المسمى «**كتاب أدب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة**» وقال: وقع ذلك الكتاب إلى أبي سعيد الدينوري الوراق، وخرج به إلى الشام، فقُطِعَ عليه[3]، ولم يبقَ معهُ إلا جزءان، فيها الكلام في حقوق الله الواجبة على الإنسان في بصره والحقوق الواجبة في سمعه[4].

عيسى بن أحمد الهمذاني الورّاق:

ورد أسمه عند **الخطيب البغدادي**، في ترجمة **الحسن بن شهاب العكبري**، في سياق خبرٍ قال فيه: حدثني **عيسى بن أحمد الهمذاني** قال: قال لي أبو علي بن شهاب يوماً: أرني خطك، فقد ذُكِرَ لي أنك سريع الكتابة، فنظر فيه فلم يرضه[5].

الفيرزان الوراق:

ذكره ياقوت في ترجمة «**علان الشعوبي**» على النحو التالي: ذكر محمد بن الأزهر

---

(1) المنتظم 6/ 229 - 230.

(2) وكيع - أخبار القضاة 3/ 53 - طبعة عالم الكتب بيروت - بدون تاريخ.

(3) يعني الطريق.

(4) معجم الأدباء 18/ 76 - 77 - الترجمة رقم (17).

(5) تاريخ بغداد 7/ 329.

قال: كان في جوارنا بباب الشام/ منقطة ببغداد/ فتى يعرف بالفيرزان وكان يورق في دكان علان الشعوبي[1].

أبو القاسم بن عقيل الورّاق:

جاء ذكره عند ياقوت الحموي في ترجمة/ محمد بن جرير الطبري/ على النحو التالي: «حدث القاضي أبي عمر عبيد الله بن أحمد السمسار وأبي القاسم بن عقيل الوراق أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القران، قالوا: كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة فقالوا: هذا مما يفني الاعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال لهم: أتنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره، فذكر نحواً فيما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك فقال: إنّا لله ماتت الهِمَمْ فاختصره في نحو فيما اختصر التفسير»[2].

محمد بن علي الورّاق/ الأول/ :

ورد ذكره عند وكيع على النحو التالي: وذكر محمد بن علي الوراق عن وليد ابن أبي بدر، قال سمعت وكيعا يقول: لما عزل حفص (بن غياث) عن القضاء ذهبت القضاة بعد حفص[3].

محمد بن علي الورّاق/ الثاني/ :

ورد اسمه عند الخطيب البغدادي في خبر بناء قصر الخلد وبناء الأسواق في الكرخ سنة 158هـ من قبل المنصور، وجاء الخبر على النحو التالي: أخبرنا محمد بن علي الوراق وأحمد بن علي المحتسب، قالا: نبأنا محمد بن جعفر النحوي قال: نبأنا الحسن ابن محمد السكوني قال: قال محمد بن خلف، قال الخوارزمي - يعني محمد بن موسى - وحوّل أبو جعفر الأسواق إلى الكرخ وبناها من ماله بعد مائة سنة وست وخمسين سنة وخمسة أشهر وعشرين يوماً، ثم بدا بعد ذلك في بناء قصر الخلد على شاطىء دجلة بعد شهر وأحد عشر يوماً[4].

---

(1) معجم الأدباء 12/ 192 - ترجمة علان الشعوبي رقم (48).
(2) معجم الأدباء 18/ 42.
(3) وكيع - محمد بن خلف بن حيان - أخبار القضاة 3/ 184 طبعة عالم الكتب بيروت - بدون تاريخ.
(4) تاريخ بغداد 1/ 80.

محمد بن علي بن مخلد الورّاق:

جاء ذكره عند الخطيب البغدادي في خبر بناء الرصافة، على النحو التالي أخبرنا محمد بن علي بن مخلد الوراق... عن أحمد بن محمد الشوزي عن أبيه قدم المهدي من المحمدية بالري سنة إحدى وخمسين ومائة في شوال ووفدت إليه الوفود وبنى له المنصور الرصافة وعمل لها سوراً وخندقاً وبستاناً وأجرى لها الماء[1].

مُعلّى الورّاق:

ذكره الذهبي في ترجمة مالك بن دينار في سياق خبر جاء على النحو التالي: **قال مُعلّى الوراق: سمعت مالك بن دينار يقول: خلطت دقيقي بالرماد فضعفت عن الصلاة**[2].

أبو عيسى محمد بن هارون الورّاق:

نفي إلى الأهواز ومات بها عام 909م[3].

محمود الورّاق:

هكذا ورد اسمه عند **أبي الفرج الأصفهاني**[4] **في ترجمة أبي الشبل البرجمي**، وورد أسمه في سياق حادثة يرويها البرجمي على النحو التالي: **قال، دخلت أنا ومحمود الوراق إلى حانة يهودي خمار**، فأخرج إلينا شيئاً عجيباً، فظنناه خمراً بنت عشر، قد أنضجها الهجير، فقلت له: أشرب معنا، فقال: لا أستحل شرب الخمر، فقال لي محمود الوراق: ويحك أرأيت أعجب مما نحن فيه، يهودي يتحرج من شرب الخمر، ونشربها ونحن مسلمون فقلت له: أجل، والله لا نفلح أبداً، ولا يعبأ الله بنا، ثم شربنا حتى سكرنا، وقمنا في الليل فنكنا بنته وأمرأته وأخته، وسرقنا ثيابه، وخرينا في نقيرات نبيذ له وانصرفنا[5].

---

(1) تاريخ بغداد 1/: 82.
(2) سير أعلام النبلاء 5/ 364.
(3) راجع د. كامل النجار: «قراءة نقدية للإسلام - المقدمة - «بيروت 2005م.
(4) الأغاني 14/ 197 - 198.
(5) المصدر السابق - نفس المكان.

ابن الخَلاّل الورّاق:

ورد ذكرهُ عند التوحيدي في «رسائله» في سياق حديث عن المُدرّس بباب الطاق، والذي لاحظ على ابن الخلاّل بعض خروجه عن أسس الكتابة كالخطرفة وغيرها[1].

أبو منصور العتّابي الورّاق:

هو أبو منصور محمد بن علي العتّابي المتوفى سنة 556هـ.

ذكرهُ ابن خلكان[2] وقال عنه: «أنّه اشتهر بالخطّ الجيّد، وكانت لهُ معرفة بالنحو واللغة وفنون الأدب، وله الخط المليح الصحيح، الذي يتنافس فيه أهل العِلم، وكتب الكثير، وكل كتاب يوجد بخطّهِ فهو مرغوبٍ فيهِ».

الوَرّاق الدانالي:

لم يُعرف اسمهُ، ولا تاريخ ولادته أو وفاته، لكنَّهُ عُرف بكنيته «الدانالي» كان معروفاً «بنصْبِهِ» على الوزراء والحُجّاب وحاشية السلطان، إذ كان معروفاً على أنّه «يتعاطى التنجيم ومعرفة الفأل».

ذكرَهُ «إبن خلدون» في مُقدّمته[3] في معرض حديثهِ عن حكاية هذا الوَرّاق الذكي «الدانالي» الذي كان يضحك على الأمراء ويبتز أموالهم، إذ كان، كما يذكر ابن خلدون «كان يُبِل الأوراق ويكتب فيها بخطٍ عتيق يرمز فيه بحروفٍ من أسماء أهل الدولة، ويُشير بها إلى ما يُعرف ميْلَهُم إليه من أحوال الرفعةِ والجاه كأنّها ملاحم، ويحصل على ما يريدَهُ منهم من الدُنيا، ففي ذات مَرّةٍ وضع في بعض دفاترِهِ «ميماً - م -» مُكرّرة ثلاث مرّات «م. م. م» وجاء بها إلى «مفلح مَولى المقتدر» وذكر عنهُ ما يَرضاهُ وينالُه من الدولة، ونصَبَ على ذلك «علاماتٍ» يُموّه بها عليه، فبذل «مفلح» لَهُ ما أغناهُ بِهِ.

ثم وضَعَ هذا «العمل» للوزير ابن القاسم بن وَهَب، وكان معزولاً، فجاءَهُ بأوراقٍ،

---

(1) راجع - رسائل أبي حيان التوحيدي/ ص 46 - وقد أوردنا نص الملاحظات في - الجزء الرابع من الموسوعة/ الخطاطون - فصل - تلاميذ ابن مُقلة نظراً للحاجة والإختصاص حول/ نقد الخط العربي/ في مدرسة ابن مقلة، لذا توجّب التنبيه إلى ذلك.

(2) وفيات الأعيان 4/ 22.

(3) راجع: عبد الرحمن بن خلدون/ مقدمة ابن خلدون/ ص 341، منشورات دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ.

مثل تلك التي جاء بها مفلح، وذكر إسم الوزير بمثلِ هذه الحروف، «وبعلاماتٍ» ذكرها، وإنَّهُ يلي الوزارة للثاني عشرين الخُلفاء، وتستقيم الأمور على يديه، ويقهر الأعداء، وتُعمرُ الدُنيا في أيَّامهِ، وقد عَمَدَ هذا الورّاق على إيقاف «مُفلحٍ» عليها وذكر فيها كوائنَ أخرى وملاحِمَ من هذا النوع مِمّا وَقَعْ ومِمّا لم يُوقع، ونَسَبَ جميعَهُ إليه (أي إلى دانال). فأعجب بهِ مفلح، ووقف عليه المقتدر، واهتدى من تلك الأمور والعلامات إلى ابن وَهَبْ وكان ذلك سبباً لوزارتهِ، بمثل هذه الحيلة العريقة في الكذب والجهر بمثلِ هذه الألغاز..

الورّاق مصطفى بن السيد علوان الحسيني الحنفي:

ورد ذكرهُ في مخطوطة «ديوان لزوم ما لا يلزم» لأبي العلاء المعري والموجود في مكتبة ليدن - هولندا - تحت رقم (906). حيث ورد إسمه كونه ناسخاً لهذه المخطوطة بالعبارة التالية: «ناسِخُهُ العبد الفقير إلى مولاه الغني مصطفى ابن السيد علوان الحسيني الحنفي «ولم يُشر الناسخ إلى تاريخ النسخ أو سنته»[1].

الورّاق حسين ابن أحمد بن حسين:

ورد إسمهُ في أحد مخطوطات «ديوان لزوم ما لا يلزم» لأبي العلاء المعري في مكتبة جامعة بريستون في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يُشير عنوان المخطوط إلى «منقول أصلاً عن رواية الخطيب التبريزي» وفي ختامه، أنَّ نسخهِ تم سنة 1013للهجرة/ 1604م، «على يد أفقر الوَرى إلى رحمة الله تعالى حسين بن أحمد بن حسين الجزري»[2].

(1) راجع - ديوان لزوم ما لا يلزم - لأبي العلاء المعري - الجزء الأول/ ص 9. تحقيق د. كمال البازجي - منشورات دار الجيل - بيروت - ط1 - 1412هـ/ 1992م.
(2) راجع ديوان - لزوم ما لا يلزم - لأبي العلاء المُعرّي - الجزء الأول/ ص 9.

مصادر البحث

- أ -

1 - ابن الأبّار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي.

* التكملة لكتاب الصلة - تحقيق عزّت العطّار الحسيني - الطبعة المصرية سنة 1375هـ/ 1955م.

2 - ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي.

* عيون الأنباء في طبقات الأطباء - 8 أجزاء - تحقيق د. نزار رضا، منشورات مكتبة الحياة، بيروت 1965م.

3 - الأصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبدالله.

* حلْية الأولياء وطبقات الأصفياء - 10 أجزاء - الطبعة المصريّة سنة 1351هـ/ 1932م.

4 - الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم.

* كتاب الأغاني - 24 جزءاً - منشورات دار الكتب المصرية - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة سنة 1389هـ/ 1970م، وطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1345هـ/ 1927م.

5 - الأمين: محسن عبد الكريم الحسيني العاملي.

* أعيان الشيعة - 10 أجزاء - منشورات دار التعارف للمطبوعات - بيروت 1403هـ/ 1983م.

- ب -

6 - ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن داحة الأنصاري.

* كتاب الصِلة - جزءان منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1966م.

- ت -

7 - ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي:

* النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة - 16 جزءاً - طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1963م.

8 - التوحيدي: أبو حيان علي بن محمد بن العبّاس.

* رسائل التوحيدي: تحقيق د. إبراهيم الكيلاني - ط1، منشورات دار طلاس، دمشق 1985م.

- ث -

9 - الثعالبي: أبو منصور عبد الملك النيسابوري.

* يتيمة الدهر - 4 أجزاء - طبعة الصاوي المصرية 1352هـ/ 1934م.

* خاص الخاص - منشورات مكتبة الحياة، بيروت 1966م.

- ج -

11 - ابن الجوزي: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي.

* المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - 10 أجزاء - ط. حيدر آباد سنة 1358هـ.

- ح -

12 - الحفني: د. عبد المنعم.

* معجم طبقات الصوفية - ط2، منشورات دار المسيرة بيروت 1987م.

13 - حمادة: د. محمد ماهر.

* المكتبات في الإسلام - نشأتها وتطورها ومصائرها - ط6، منشورات مؤسسة الرسالة بيروت 1414هـ/ 1994م.

14 - الحموي: ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الرومي البغدادي.

* معجم الأدبّاء - 20 جزءاً تحقيق أحمد فريد رفاعي، منشورات دار المأمون المصريّة - القاهرة 1357هـ/ 1938م.

* معجم البلدان - 6 أجزاء - منشورات دار صادر ودار بيروت، ط 1 بيروت 1374هـ/ 1955م.

16 - الحميدي:

* جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس - تحقيق محمد بن تاويت الطنجي - طبعة القاهرة 1371هـ.

17 - الحنبلي: ابن العماد، أبو الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد الدمشقي.

* شذرات الذهب في أخبار من ذهب - 8 أجزاء - منشورات دار المسيرة - ط2 بيروت 1399هـ/ 1979م.

- خ -

18 - الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي.

* تاريخ بغداد - 14 مجلد - منشورات مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد، ومطبعة السعادة بمصر 1349هـ/ 1931م.

19 - ابن خلّكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - 8 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس منشورات دار صادر، بيروت بدون تاريخ.

- د -

20 - ابن الداية: أحمد بن يوسف الكاتب.

* كتاب المكافأة وحسن العُقبى - تحقيق محمود محمد شاكر، طبعة القاهرة 1359هـ/ 1940م.

- ذ -

21 - الذبياني: النابغة - الشاعر الجاهلي المعروف.

* ديوان النابغة الذبياني - تحقيق د. شكري فيصل - منشورات دار الفكر، دمشق 1968م.

22 - الذهبي: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان.

* سير أعلام النبلاء - 24 جزءاً - تحقيق شعيب الإرناؤوط وجماعته، ط1، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت 1401هـ/ 1981م.

- ر -

23 - الراغب الأصبهاني: أبو القاسم حسين بن محمد.

* محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء - 4 أجزاء - منشورات مكتبة الحياة بيروت 1961م.

24 - ابن الرومي: أبو الحسن علي بن العبّاس بن جريج.

* ديوان ابن الرومي - تحقيق د. حسين نصّار منشورات دار الكتب المصرية، القاهرة 1974م.

- ز -

25 - الزبيدي: أبو بكر بن محمد بن الحسن.

* طبقات النحويين واللغويين - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة 1373هـ/ 1954م.

26 - الزركلي: خير الدين.

* الأعلام - 8 أجزاء - ط5، منشورات دار العلم للملايين، بيروت 1980م.

27 - زيّات: حبيب.

* الوراقة والورّاقون في الإسلام - دراسة قصيرة - نشرها في مجلة المشرق اللبنانية، وأعادت نشرها المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1947م.

28 - ابن زولاق: الحسن بن إبراهيم بن زولاق المصري.

* أخبار سبويه المصري - ط1، القاهرة 1352هـ/ 1933م.

- س -

28 - السُلَّمي: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن سُراقة.

* طبقات الصوفية - تحقيق نور الدين شُريبة - منشورات جماعة الأزهر للنشر والتأليف، القاهرة 1372هـ/ 1953م.

29 - السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي.

* الأنساب - 10 أجزاء - تحقيق عبدالرحمن بن يحيى العلمي اليماني، منشورات محمد أمين دمج، بيروت بدون تاريخ.

30 - السيوطي: الحافظ جلال الدين عبدالرحمن الشافعي.

* بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُحاة - منشورات مطبعة السعادة - ط1، القاهرة 1326هـ.

- ش -

31 - أبو شامة: شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل - المؤرّخ.

* كتاب الروضتين في أخبار الدولتين - منشورات مطبعة وادي النيل القاهرة 1287هـ.

32 - الشعراني: عبد الوهاب.

* الطبقات الكبرى - جزءان - منشورات المطبعة الشرقية بمصر 1299هـ.

33 - الشكعة: د. مصطفى.

* أبو الطيّب المتنبي في مصر والعراقين - منشورات عالم الكتب بيروت سنة 1403هـ/ 1983م.

34 - شلبي: أحمد.

* تاريخ التربية الإسلامية - منشورات دار الكشّاف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1954م.

-ص -

35 - الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك.

* الوافي بالوفيات - 25 جزءاً - تحقيق هيلموت ريتر، طبعة استانبول سنة 1931م.

- ض -

36 - الضبّي: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة.

* بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، منشورات دار الكاتب العربي، بيروت بدون تاريخ.

- ع -

37 - العباس بن علي بن نور الدين المكي الحسيني الموسوي.

* نزهة الجليس ومنّة الأديب الأنيس - جزءان - لم يذكر تاريخ ومكان الطبع.

38 - ابن عساكر: الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي.

* تهذيب تاريخ دمشق - تحقيق رياض عبد الحميد وروحيّة النحّاس، منشورات دار الفكر، ط1 دمشق 1404هـ/ 1984م مطبعة روضة الشام - 7 أجزاء - دمشق سنة 1332هـ.

39 - العسقلاني: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر.

* الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة - طبعة حيدر آباد 1349هـ.

40 - عواد: كوركيس.

* خزائن الكتب القديمة في العراق، مطبعة المعارف بغداد 1948م.

- ق -

41 - القشيري: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن.

* الرسالة القشيرية في علم التصوف، مطبوعة سنة 1367هـ/ 1957/ دون اسم الدار الناشرة.

42 - القفطي: الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف.

* أخبار العلماء بأخبار الحكماء - تحقيق جوليوس ليبرت، طبعة لا يبسك 1903م الطبعة المصرية سنة 1326هـ.

- ك -

43 - الكتبي: محمد شاكر بن أحمد بن عبدالرحمن بن شاكر.

* فوات الوفيات - 5 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت بدون تاريخ.

44 - كَحّالة: عُمر رضا.

* معجم المؤلفين - 5 أجزاء - منشورات المكتبة العربية بدمشق 1376هـ/ 1957م.

45 - ابن كثير: أبو الفِداء عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقي.

* البداية والنهاية - 14 جزءاً - منشورات مكتبة المعارف بيروت، ومكتبة النصر، الرياض 1966م.

46 - كُرد علي: محمد.

* الإسلام والحضارة العربية: ط2، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1950م.

- م -

47 - المتنبي: أحمد بن الحسين ابن عيدان السِقاء الكوفي.

* ديوان المتنبي - 4 أجزاء - شرح العكبري، تحقيق عبدالرحمن البرقوقي الطبعة المصرية بدون تاريخ.

48 - المرزباني: أبو عبدالله محمد بن عمران.

* معجم الشعراء: منشورات مكتبة القدسي، القاهرة 1354هـ/ 1943م.

49 - المعرّي: أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي.

* ديوان لزوم مالا يلزم - جزءآن - تحقيق د. كمال اليازجي، منشورات دار الجليل، ط1، بيروت 1412هـ/ 1992م.

50 - المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد.

* المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، والمعروف بالخطط المقريزية 4 أجزاء - منشورات مطبعة النيل بمصر، القاهرة 1364هـ.

51 - المقري التلمساني: أحمد بن محمد المغربي المالكي الأشعري.

* نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - 8 أجزاء - تحقيق د. إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت 1388هـ/ 1968م.

52 - ابن النجّار: محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله أبو عبدالله محب الدين.

* ذيل تاريخ بغداد: طبعة حيدر آباد 1398هـ/ 1978م.

53 - النجّار: د. كامل.

* قراءة نقدية للإسلام: طبعة بيروت 1905م.

54 - ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق.
* الفهرست: منشورات المطبعة الرحمانية بمصر، بدون تاريخ.

- و -

55 - وكيع: محمد بن خلف بن حيّان بن صدقة بن زياد «القاضي المعروف بوكيع».
* أخبار القضاة - جزءان - منشورات عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

إنتهى الجزء السادس

(السيرة الذاتية)

د. خير الله سعيد

1 - ولد في مدينة بغداد 1955م وبها أكمل دراسته الأبتدائية والمتوسطة والثانوية.

2 - إكمل دراسته الجامعية الأولى في الجامعة اللبنانية - كلية الدراسات الإنسانية للعام 1984م عندما كان في سوريا.

3 - عمل بالصحافة لمدة 10 سنوات بين سوريا ولبنان وبعض البلدان العربية للفترة من 1984 - 1993م

4 - في عام 1993 - 1996 أكمل دراسته لمرحلة الماجستير بجامعة الصداقة بموسكو، حيث حصل على درجة إمتياز عالي بإطروحتهِ: خطّاطو بغداد في العصر العباسي، الأمر الذي حدا بوزارة التعليم العالي الروسية لأن تمنحه منحة على نفقتها لإكمال دراسته في مرحلة الدكتوراه،

5 - قبل بكلية الآداب - جامعة موسكو الحكومية، وقدم إطروحته - ورّاقو بغداد في العصر العباسي، والتي حصل فيها على درجة إمتياز عال في عام 2000م، وهو الوحيد من الطلبة العرب الدارسين في روسيا نشرت إطروحته باللغة الروسية، بوصفها مصدراً هاماً عن الثقافة العربية في العصر الوسيط، ضمن موسوعة حملت عنوان (إنتشار الحضارة الإسلامية في بلدان روسيا وبلاد القفقاس) ونشر العمل بتاريخ 2003م.

6 - يكتب الدراسة والمقالة الأدبية والأبحاث الطويلة.

نشر مقالاته الأولى في المجلات والصحف السورية والعربية. مثل جريدة تشرين السورية وجريدة الموقف الأدبي ومجلة الآداب الأجنبية ومجلة دراسات عربية في لبنان ومجلة الآداب اللبنانية، ومجلة الحياة الموسيقية بدمشق ومجلة آفاق الثقافة والتراث الإماراتية في دبي ومجلة الفيصل السعودية ومجلة التاريخ العربي في المغرب ومجلة الثقافة الجزائرية وجريدة الأهرام المصرية ومجلة الجوبة السعودية، ومجلة التراث الشعبي العراقية ومجلة الثقافة الشعبية في البحرين، وغيرها الكثير من الصحف والدوريات العربية المختلفة.

عضو في جمعية الدراسات والبحوث في اتحاد الكتاب العرب، متخصص في التاريخ والتراث العباسي.

7 - أسس النادي الثقافي العربي بجامعة الصداقة بين الشعوب في موسكو عام 1996.

8 - أسس المنتدى الثقافي العراقي في موسكو عام 2003.

مؤلفاته:

1 - مغنيات بغداد في عصر الرشيد وأولاده - دراسة. وزارة الثقافة السورية دمشق 1991

2 - النظام الداخلي لحركة إخوان الصفا - دراسة. دار كنعان. دمشق 1992

3 - عمل الدعاة الإسلاميين في العصر العباسي - دراسة، دار الحصاد. دمشق 1993

4 - خطاطو بغداد في العصر العباسي - دراسة. دار النمير، دمشق 1996

5 - وراقو بغداد في العصر العباسي - دراسة طويلة. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الرياض 2000

6 - تاريخ انتشار الحضارة الإسلامية (باللغة الروسية) بالاشتراك مع مجموعة من المستشرقين الروس. موسوعة في مجلدين ضخمين. أكاديمية العلوم الروسية موسكو 2002

7 - من وجد ديوان الوجد .دراسة نقدية عن المفكر الراحل هادي العلوي، دار كنعان. دمشق 2008

8 - أوراق بغدادية من العصر العباسي: دراسة تراثية، منشورات دار الإنتشار العربي، بيروت 2010.

سيصدر له قريباً:

1 - الوراقة والوراقون في الحضارة العربية الإسلامية - موسوعة في ستة أجزاء. ستصدر عن دار الإنتشار العربي في بيروت العام 2011

2 - شاكر السماوي - الإيقاع المنفرد في القصيدة الشعبية العراقية - دراسة نقدية في أدب شاكر السماوي الشعبي.

3 - دراسة أكاديمية عن «الموال العراقي». ستصدر من البحرين عام 2011م

4 - دراسة في الأمثال الشعبية العراقية.

5 - دراسات نقدية عن مقامات الحريري.

6 - مدن فلسطين في تراث الأقدمين - دراسة.

7 - أوراق من التراث/ (القسم الأول) «رجال ومواقف».

8 - أوراق من التراث/ (القسم الثاني) «نساء ومواقف».

9 - دراسات نقدية عن الرواية العربية السياسية المعاصرة - وليمة لأعشاب البحر نموذجاً.

10 - دراسات عن الفلكلور العراقي: الأبوذية - العتابا - المربع - الدارمي - الأمثال الشعبية.

11 - دراسات في القصيدة الشعبية العراقية - قصائد مختارة - دراسة نقدية عن الشعر الشعبي في العراق.

12 - بغداد والشعراء والقدر - دراسة نقدية، ستصدر عن دار ميراث في أوتاوا/ كندا 2011.

الإسم على الشبكة الدولية: د. خيرالله سعيد

البريد الألكتروني said333777@yahoo.com